الكتاب

نوفمبر ١٩٤٥

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

بمصر

الكتاب

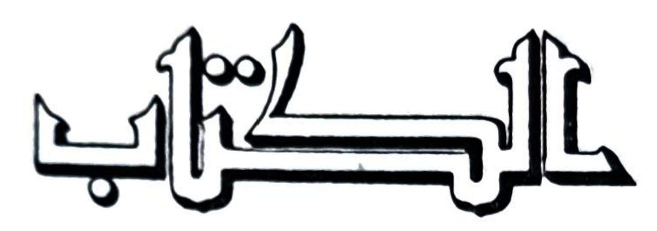
مجلة شهرية

للآداب والعلوم والفنون

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .
- جميع الحقوق الخاصة بما تنشره المجلة من مقالات ورسائل ورسوم محفوظة لدار المعارف للطباعة والنشر بمصر .
- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر « قسم المجلة » ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .
- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .
- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :
١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان و ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى .
- ترسل المجلة بالبريد العادي إلى المشتركين ولا تكون الإدارة مسؤولة عما قد يفقد منها .

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً



مجـلة شهرية

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان



المجـلد الأول

السنة الأولى • الجـزء الأول

ذو القعدة ١٣٦٤ • نوفمبر ١٩٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للفكر رسالة سامية ، ولرسل الفكر حواريون وأنصار ينشرون آراءهم ويذيعونها في الأقطار ، فتنبسط انبساط الضوء ، وتنير معالم السبيل للنفوس الضاربة في مجاهل الحياة .

ولئن كان المؤلفون هم رسل الفكر ، إن الناشرين هم حواريوهم وأنصارهم يتلقون منهم تلك الرسالة المقدسة فيبثونها في الناس مزهوين بتلك المشاركة في جلال الغاية ومحمود الأثر .

على أن الناشر المؤمن بسمو تلك الغاية ، يشارك المؤلف في نشدان المثال الأعلى فيعدّ له الوسائل إلى الصعود في مراقي الوحي ، ثم يعدّ له الألواح التي يخط فوقها كلمات الإلهام .

و « دار المعارف » التي ما برحت منذ ٥٥ عاماً معنيةً بأداء رسالة الفكر ، جاهدةً في بث نفثات الأقلام ، دائبةً على مسايرة روح كل جديد ، قد رأت أن الشرق العربي قد جلا الله له اليوم آفاقاً جديدة يستشف من ورائها سبل الحق والحرية والكمال ، وأنه في هذه الآونة الدقيقة من حياته أحوج ما يكون إلى قادة الفكر الأكفياء النزهاء ، يرعون نهضته ويهدونه وضح السبيل ، فقامت تحقق ما فكّرت فيه منذ سنوات ، وشاءت — مع ما أعدّته للمستقبل من نافع المشروعات الثقافية — أن يكون لها يد في تمكين أعلام مصر وجاراتها من توجيه الشعوب العربية إلى توطيد دعائم سيادتها عن طريق الرفيع العالي من العلوم والآداب والفنون ، فكانت هذه المجلة .

هدانا الله إلى ما فيه الخير والرشاد ، وكتب لمصرنا العزيزة تحقيق غاية الغايات في ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، ورعى بلاد العرب جمعاء ، وأنالها أقصى الأماني في ظل ملوكها ورؤسائها الصالحين المجاهدين . والله ولي التوفيق .

شفيق نجيب متري

الكتابُ

إنّ الكتاب في تحديده المادّي هو مجمع الحروف والكلمات وفي تحديده المعنويّ هو الوسيط بين ذهنين ينقل من هـذا إلى ذاك عصارة الفكر وخفقة القلب ويجعل بين الكاتب والقارىء مشاركةً روحيةً يختلف أثرها باختلاف قوّة طرفيها . وشأن الكتاب في ذلك شأن اللوحة الفنية تتباين قيمتها الذاتيـة بتبـاين العيون التي تراها والنفوس التي تستوعبها . وكل ما نقل إلينا معنى من المعاني أو صورة من صور الجمال أو هزّ فينا كامن الإحساس والعاطفة يصح أن يسمى كتاباً . فالشَفة المضطربة عنـد الغضب أو الخجل والعين الفصيحة النظرات عند الحب أو الكراهية كتابٌ نطالع فيه سطوراً خطها القلب من وحيه . ثم إن مجالي الطبيعة المتمثلة في روضٍ أنيق ونهرٍ دافق وصبحٍ بسّام وليلٍ كالح حروفٌ وكلماتٌ تنقل إلينا ما انطوى تحتها من معانٍ وأسرار . فأقدم الـكتب إذن هو هذا الـكون الذي ألّفه الخالق وما برح الناس على مدى الأزمان يقرؤون سطوره ويتملون معانيه ويتلقون عنه الوحي يسمو بأرواحهم إلى عبادة ربّهم الذي علّم بالقلم .

وشاء الله بعـد ذلك أن يوحي إلى عباده بآيات الهـداية والرشاد فكان الـكتاب مجموعة وصاياه إليهم خطّوها على ألواحٍ من الحجر وعلى رقّ الحيوان وأوراق البردي ثم خطّوا على هذه الصفحات كلها علومهم وآدابهم الإنسانية . ولعلّ أقدم الـكتب التي صنعها البشر ووصلت إلينا أخبارها كتبُ الأموات عند المصريين وكتبُ مصاير روما .

وتأنّق القوم على مدى العصور بالـكتب فاستخدموها سجلاّتٍ للشرف وأشهرُها سجلّ مدينة البندقية المتضمّن أسماء نبلائها وأعيانها ، غير أن الـكتبَ كالبلاد والعباد فهي تسعد وتشقى حسبما تكتبه لها السماء من سعادة حظ أو شقاوة جدّ فقد كان مصير هذا السجلّ الإحراق علانية بعد خمسة قرون كان فيها معجم السادة والأشراف .

ولقد كان للـكتاب شأن وأي شأن في جميع العصور فهو حرزٌ لا يتداوله إلا الـكهنة وخدّام المعابد والهياكل ثم هو شيءٌ نفيسٌ لا يقتنيه إلا الأمراء والزعماء ثم هو أداة للتثقيف والتهذيب تزخر به المـكتبات العامة والخاصة ويحتفي به طلاّب العلم أولئك الذين

* سجل البندقية أسماء النبلاء والأعيان

هذه الملاحظة دونتها الساعة ٧,١٥ من مساء السبت ٢٧/١١/٢٠٠٤ م أي بعد نحو من خمس ساعات على وصول مجلدات الكتاب الى البيت بعد ابتياعه من السيد داود الطائي

تضع الملائكة أجنحتها لهم . فهذا كسرى أنوشروان يقع له خبر كتاب كليلة ودمنة فلا يقرّ له قرار حتى يبعث برزويه إلى بلاد الهند لاستخراج الكتاب من خزائنها وإقراره في خزائن فارس . وهذا المهلّب يقول لبنيه : يا بنيّ إذا وقفتم في الأسواق فلا تقفوا إلا على من يبيع السلاح أو يبيع الكتب . وهذا الجاحظ يصف محمد بن إسحق أمير بغداد يوم دخل إليه وهو معزول ورآه جالساً في خزانة كتبه بين الكتب والدفاتر فيقول : ما رأيته أهيبَ منه فى تلك الحال . وهذا الصاحب بن عبّاد يسافر من بلدٍ إلى بلد ومعه حِمْلُ ثلاثين جملاً من الكتب وعند ما يعرف أن سيف الدولة دفع ألف دينار ثمن كتاب الأغاني يستقل الثمن . وهذا المتنبي يشهد بأن خير جليسٍ في الزمان كتاب . وهذان أميران من أمراء الغرب يبرمان معاهدةً بينهما ويشترط أحدهما فيها على الآخر أن يظفر منه بمخطوطٍ من مخطوطات المؤرخ تيت ليف . وهذا شوقي يقول فى أحد مطالعه :

أنا من بدّل بالكتب الصحابا   لم أجد لي وافياً إلا الكتابا

ولئن وقف بعض علماء اللغة عند هذه الباء الداخلة على غير المتروك لقد آثر شوقي الكتب على الصحاب إذ وجدها لا تنقض عهدها ولا تخفر ذمامها ولقد أجمع المفكرون في الشرق والغرب على عدّ الكتاب صديقاً وفياً ظريف العشرة نافع الحديث مأمون الغيبة . أمّا مارسيل بروست فيرى أن الكتاب أفضل من الصديق وأنفع من حديث الحكماء ، ذلك بأن السكون الذي يحيط بنا عند المطالعة يحفظ علينا تفكيرنا قوياً سليماً بعيداً من مؤثرات المتحدّث ، فالسكون إذن ضروريّ لكل ما يثير فينا الفتنة والتفكير والإعجاب كما أن اللوحة الفنية لا نستطيع إدراك أسرارها إلا إذا تأملناها منفردين .

والحديث عن الكتاب يجرّ إلى الحديث عن المطالعة . فالمطالعة في عرف فاليرى رذيلةٌ لا يعاقب عليها وفى عرف ديكارت حديثٌ مع شرفاء القرون الماضية وفي عرف أندريه موروا فنٌّ من الفنون ، ولكلٍّ من هذه التعريفات وجاهتها فرذيلة المطالعة كما بسطها موروا فى كتابه « من فنون الحياة » متوافرةٌ في أولئك الذين يدفعهم الجشع إلى مطالعة كل ما تقع عليه أنظارهم لا يريدون بها الوقوف على الآراء والأفكار بل على صفوفٍ من الكلمات تخفي عنهم حقيقة العالم وحقيقة نفوسهم كمدخّن الأفيون لا يلتمس من وراء تدخينه إلا الهرب من عالم الحقيقة إلى عالم الأوهام والأحلام . على أن مطالعة المتعة هي التي يتفقد فيها القارىء صور الجمال ونزوات العاطفة وغريب الحوادث في حين أن مطالعة الفائدة هي التي يبحث فيها القارىء عن مستكملات ثقافته وعناصر تهذيبه .

ومهما أوتي الإنسان من عبقرية فقد تجفّ نضارتها فيه إن لم يتعهدها بريّ المطالعة .

وقديماً حفلَ الرومان بالمطالعة العلنية فكان العبد يقرأ لسيده بصوتٍ عالٍ وكان العالم أو الأديب إذا فرغ من تأليف كتابٍ من الـكتب قرأه على نخبةٍ من قومه قبل نشره وبقيت هذه العادة مستحكمةً طول القرن الأول بعد الميلاد وقيل مثل هذا في حوليات زهير بن أبي سلمى وجرى مثله في أندية الغرب الأدبية . ولئن كانت المطالعة فناً من الفنون إنها كذلك مصدر الإيحاء إلى الفن ففي متاحف اللوفر وبركسل ولكسمبرج لوحاتٌ فنية لأمهر الرسامين تمثّل المطالعة والمطالعين .

إن الـكتاب العربي اليوم على تنوع موضوعاته واختلاف قيمه قد صار في متناول كل قارىء والشعوب العربية على تفاوت عدد المتعلمين فيها قد أقبلت على المطالعة إقبالاً سيزداد يوماً بعد يوم والمؤلفين العرب نشاطُهم في التأليف مشهودٌ ملموس ودور النشر قديمها وحديثها ملحوظة العناية بنشر الـكتب فلم يبق إلا أن يعرف القارىء كيف يختار مطالعاته معرفته اختيار أصدقائه وهو ما اعتزمنا معاونته عليه في هذه المجلة .

أما هدفنا فيها فأن نضطلع بخدمة العرب عن طريق نشر الثقافة ووسيلتنا إلى ذلك الهدف رأيٌ حر وقلمٌ نزيه نقدّم بهما إلى القراء ثقافةً عامة مستمدةً من أروع ما تفتقت عنه أذهان الشرقيين والغربيين ونبضت به قلوبهم وابتدعه خيالهم وأنتجته عبقريتهم ، هذا إلى عناية قصوى بالـكتاب العربي نعرضه للجمهور عرضاً صحيحا ونصوره له تصويرًا صادقاً بعدسة النقد أو التعريف على ما يحتمله المقام . ولسنا نخال المنقودين إلا قادرين لنا هذا النفع العام الذي توخيناه ومظهرين من سعة الصدر وحب الكمال ما هو مأثور عن أخلاق العلماء ولا نحسبهم كذلك يجهلون أن نقداً صحيحاً يصور روعة وحيهم ويبرز مبلغ جهدهم ويشير إلى جوانب نقصٍ قد يكون فاتهم سدّها أوقعُ في النفس من حلة فضفاضةٍ من المدح والثناء يحدجها القارىء بنظرة لا إعجاب فيها وبسمة لا يخفى معناها .

وأما سياستنا فاعتزازٌ بعربيتنا وزهوٌ بالعقل العربي دون انتقاصٍ لسواه من العقول وبناء أدبنا الحديث على أركان أدبنا القديم متأثرين بالعصر الذي نعيش فيه ومستحدثاته ومفرغين المعاني العصرية في قوالب من بلاغتنا التي مرت عليها العصور وهي حيث هي قوةً وجدّةً وكمالا . وعندنا أن العقل العربي كالعقل اليوناني من أسمى عقول الجنس البشري وأجدرها بالتمجيد والتعظيم فالعرب أمة حباها الله بالذهن الثاقب وحلّى نفوسها بالسمو والنبالة فقد كان العرب في شظف عيشهم وخشونة مسكنهم وملبسهم أرق شعبٍ أُثر عنـه اللين في غير خنوع والشمم في غير صلف تبثّ كل هذا أخلاقهم وأعمالهم وتعرب عنـه لغتهم في جميل صورها وبديع بيانها وعجيب أساليبها

وكانوا في فتوحهم أدق الأمم حساً وأرهفها شعوراً وأعرفها بمزايا الحضارة فما عتموا أن أصبحوا أئمتها وأساتيذها . وكانوا في مدنيتهم أروع مثل لنشر العلم وبث رسالته وتعظيم أهله وتشجيع طلاّبه فلم يقذفوا بالكتب إلى الأنهار ولا رموا بها طعاماً للنار فمن بواعث الفخر والخيلاء لنا أن نباهي الأمم بهم ونشيد على تراثنا منهم جديدَنا فإن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . وليس من العزة ولا العدل في شيء أن نهلل للأدب الغربي لأنه غربي وأن نهوّن من شأن أدبنا العربي لأنه عربي فبعض أدباء نهضتنا الحديثة بله أدباء العرب الأقدمين قد يكون نصيبهم من الخلود أوفى من نصيب كثير من أدباء الغرب .

على أن الاعتماد على القديم سبيل سلكه معظم الأمم في نهضاتها فما من أمة ذات تراث مجيد إلا حفلت به وأقبلت عليه وبعثت نفائسه واتخذتها هادياً ودليلا في معارجها إلى النمو والرقي فإن أعوزها ذلك التراث أخذت تراث غيرها من الأمم .

إن الانبعاث الأدبي في أوربا قد تبلج فجره فيها عن سموات الإغريق والرومان فدانتي وبترارك وبوكاس ومن لفّ لفّهم في إيطاليا ورابليه ومارو وأنصارهما في فرنسا وإرسم وزملاؤه في ألمانيا وهولندا وشكسبير وخلفاؤه في بريطانيا كل أولئك أقبلوا في نهم على روائع الأقدمين يدرسونها ويترجمونها وينسجون على منوالها . ولعل خير ما يصف شغف القوم بالقديم رسالة جرجنتوا إلى ابنه بانتاجرويل حيث يقول : « إني وإن بلغت من العمر عتياً قد اضطررت إلى دراسة الآداب اليونانية فمؤلفات فلوطرخس في الأخلاق ومحاورات أفلطون وآثار بوسانياس هي متعتي ولذتي » .

فالدعوة إلى إحياء القديم وبعث نفائسه وذخائره والركون إليها في بناء جديدنا ليست دعوةً إلى الجمود وحيلولة دون النمو والرقي فالنمو حاصلٌ لا محالة إذا كان الغرس على أصولٍ طيبة ولنا من تراثنا أصولٌ يغبطنا بل يحسدنا عليها كثيرٌ من الأمم الحديثة فالخير كل الخير أن يتفرع طريفنا على تليد زكي الغراس صالح التربة .

لا جدال في أننا قصّرنا في اللحاق بركب الغرب في العلم والاختراع ولن يبلغنا اعتزازنا بماضينا والوقوف عند تراثنا لا نبرح عنه ولا ننشط أمراً قصياً في زمن يطاف به حول العالم في ستة أيام وتدك فيه مدن برمتها في لحظات فلنواجه حقائق الحياة وإن آلمتنا ولنأخذ عن غيرنا ما ليس عندنا ولكن أخْذَ الدائن من المدين فالغرب مدينٌ لنا ولن يستشعر شبابنا هذه الروح إلا إذا بثثنا فيهم عزة الأجيال وكرامة الحقب .

عادل الغضبان

تحقيقات الكتاب

يقال إن الحروب إذا وضعت أوزارها كانت قنطرة إلى حياة جديدة فيها كثير من النفع للناس على حد قول أبي الطيب :

لعل عتبك محمود عواقبه   وربما صحت الأجسام بالعلل

والشرق العربي مقبل اليوم على حياة جديدة قد تتأثر بعوامل جديدة في الأدب والعلم والاجتماع والاقتصاد والسياسة وما إليها فرأينا منذ شهر أغسطس الماضي أن نستطلع رأي فريق من رجالات الشرق في مسلكنا الجديد وطلبنا منهم التفضل بالجواب عن السؤال الآتي :

« تتمخض الحروب في أغلب الأحيان عن تحول في مجرى التفكير وتأثر بنواح جديدة في الحياة فما هي أمثل الطرق التي يجدر بقادة الفكر العربي أن يسلكوها بعد هذه الحرب في توجيه الشعوب العربية إلى الخير والحق والجمال » .

وها نحن أولاء ننشر أجوبتهم في هذا الجزء وفي الذي يليه شاكرين لهم تطوعهم في الخدمة العامة ولنا عودة إلى الموضوع في الجزء المقبل إن شاء الله :

رأي سمو سيف الإسلام الأمير عبدالله نجل جلالة الإمام يحي ملك اليمن :

يجب على قادة الفكر العربي ورؤسائهم العمل بجد واهتمام لأن تحتل الأمة العربية المحل الذي يليق بها في الأمم المتقدمة بمعارفها وأعمالها واتحادها ، وأن يعملوا ليل نهار لاسترجاع ذلكم التراث المجيد الذي تركه لهم أسلافهم حينما بددوا خرافات الجهل وظلمات الاستبداد بعد أن خيما على جوانب المعمورة حيناً من الزمان ويدرسوا تعاليم آبائهم للسير في طريقها مع الأخذ بكل جديد نافع ، وعليهم أن يذكروا دائماً (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) فبكل هذه الأمور يعودون إلى مجدهم التالد ويظهرون بالمظهر اللائق بهم بين الأمم والله ولي التوفيق .

رأي معالي الدكتور عبد الحميد بدوي باشا وزير الخارجية :

جمعُ الخير والحق والجمال في عبارة واحدة قد يشير إلى اصطلاحات فلسفية تعبر عن سلسلة من المعاني التي تعالجها الفلسفة تعرض فيها جنباً إلى جنب ما يتصل بضوابط السلوك وبقوة العقل وقوة الإحساس والشعور .

وأكبر ظني أن وضع السؤال لم يلحظ فيه أن يخوض المسئول في مثل تلك الشئون المجردة

ولم يقصد به إلا استعارة أنيقة لألفاظ تجمل في عبارة جامعة ما يتوخاه الكاتب من أغراض وما يصلح في الوقت نفسه مقاييس للحكم على الانتاج الأدبي وترمز لذلك كله .

والكاتب إما أن يدعو أو يحث أو ينفر فيجب أن يكون ذلك للخير وفي الخير وإما أن يروي أو يصف أو يشرح فيلتمس فيما يكتب الحق أو يعالج فن الأدب الرفيع شعراً أو نثراً فهو يتحرى مقاييس الجمال .

وليست هذه الألفاظ إلا نوعا من التجريد « abstraction » وهي تتمثل وتتجسم في النظم العامة وفي أنماط الحياة وفي طرق التفكير وفي الوسائل التي تمس قوة الشعور فنستخرج منها مختلف الأحاسيس .

ومن الحروب ما يكون الدافع فيه والباعث له مجرد الغزو والفتح والاستعمار ، وليس لهذا النوع أثر غير إشباع غريزة الملك والسلطان وغير ما يعرف من طبائع الاستبداد .

أما الحروب الأخرى فلا شك في أن لها أثراً بالغاً في كل ما تقدمت الإشارة إليه من نظم وأنماط وطرق ووسائل . ومهما يكن من الأسباب القريبة أو الثانوية التي تدعو لإشعال نار الحرب ، فان الحروب إن تدل على شيء ، فعلى اختلال توازن الأمور في الحالة التي سبقتها ، وتباين القوات التي تستند إليها تلك الحالة وتقوم عليها وعلى أنه لم يعد تجانس بين تلك النظم والأنماط والطرق والوسائل وبين مقصد السعادة العامة الذي يجب أن ترمي إليه الحياة الانسانية كما يتصور في ظرف من ظروف الزمان والمكان . ولا يزال هذا القصد في الواقع في تحول مستمر . والحرب هزة عنيفه ودعوة مدوية إلى التغيير والتجديد . وإنما يقع التغيير أولا على المقصد نفسه . فإذا حدث ذلك التغيير تهيأت النظم والأنماط والطرق والوسائل لتطابق المقصد الجديد وتلائمه .

وقد كانت الأديان الركن الذي يصور مقاصد الحياة ويرسم وسائلها، وكانت في الماضي حروب دينية بين أتباع الأديان . وكلما ترتب على تلك الحروب تحولٌ من دين إلى دين، أصبحت معاني الخير والحق والجمال منسوبة إلى تعاليم الدين الجديد . وحتى حين لا يتم التحول فان ما يقع بين المتقاتلين من نضال واتصال ، جدير بأن يحدث تغييراً كبيراً فيما لديهم من صور الحياة ، إن لم يكن في مقاصدها ففي الوسائل . وشاهد ذلك الحروب الصليبية .

ولم تعد الحروب دينية ، وبدأ العقل الإنساني والتفكير الفلسفي منـذ نحو قرنين يغير على هذا الميدان . ومنذ ذلك العهد تكاد كل حرب تؤذن بتغيير جديد يتفاوت بتفاوت نضوج الفكرة الجديدة وتهيؤ التربة لها .

وقد كان للثورة الفرنسية وما سبقها وتلاها من الحروب ومن الثورة الصناعية أثر بالغ في تنظيم الحياة الغربية على أسس الفردية «individualisme» ووليدها الرأسمالية «capitalisme» وعلى هذه الأسس بنيت الحياة العامة . وتحددت مقاييس الخير والحق وذوق الجمال . وإنك لتجد آثار الفردية منبثة في كل نواحي الحياة إن سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .

ولم تكن الفردية في وقت من الأوقات عاملا أوحداً في تكييف المدنية الغربية . على أنها كانت أغلب على غيرها . ومنذ أوائل القرن الماضي بدأت الاشتراكية تدعو لنفسها ، وتنفذ إلى صور الحياة بوجه أو بآخر ، تعمل فيها ، تارة بالتهذيب ، وطوراً بالهدم . وقد شهدنا في العهد الأخير مزيجاً سقيما نابياً منها ومن الفردية في مذهب الفاشية والنازية .

ولعل الحرب التي انقضت إيذان قاطع بأن الميزان يوشك أن يميل إلى جانب الاشتراكية . وضح ذلك في الانتخابات البريطانية . وأكبر الظن أن الاتجاه إلى ذلك عام في أوربا وأنه قل أن يتخلف عنه أحد .

أما في الشرق فقد كانت الفردية ولا تزال أقوى سبباً مما كانت أو آلت إليه في الغرب . ويقع على الكتاب في التماس الخير والحق والجمال أن يكونوا قادة الأمة في الاختيار . والمسألة معضلة . وسيذهب بعضهم إلى تمجيد الماضي والتغني بمزايا العالم الذي يبعد عنا . ويذهب آخرون إلى تحبيذ التحول إلى الشمال كما يقولون .

والحق أن مثل هذا التحول يكون عندنا طفرة ، وأن الخير فى تجنبه ثم إن سيرة الحياة الطبيعية هي أن تكابد كل أمة بنفسها أدوار التطور كلها . والفردية خطوة لازمة لمن يريد أن يمارس الاشتراكية سابقة عليها ولا يشك أحد في أننا لم نجن بعد قدراً يذكر من ثمار الفردية ومزاياها ، فان عهدنا بها تكيف حياتنا وترسم مقاصدها ووسائلها قريب جداً . وكل نظرة من هذه النظرات في الحياة نوع من التجربة والاستشارة للملكات الإنسانية . فالفردية تستخرج ما كمن في الناس من إقدام وابتكار وتربي فيهم ملكة الثقة بالنفس والاعتماد عليها . والشرق بعد طول خموله بحاجة إلى ما ينبه فيه تلك الملكات .

وقد يكون للاشتراكية فضل في أنها تضبط العزائم الجامحة ، وفي أنها تمنع الاضطراب ، وتقي من تبديد الجهود وضياعها في مزاحمات ومنافسات غير مجدية ، وأنها تنظم ذلك جميعه غايات محددة ووسائل مرسومة ، وإن تكن تهدر في سبيله حرية الفرد وتضيق من مجالها .

ولكن أين في الشرق تلك العزائم الجامحة وأين ذلك الاضطراب وتلك الجهود المسرفة . أليس يحق على الكاتب في رفقه بأمته أن يبعثها أولا ثم ينظمها من بعد .

وأخيراً فان يكن للحرب الحديثة درس جديد فهذا الدرس هو أثر العلم في الحياة وفي الموت . وقد رأينا ذلك الدرس بالغاً وعظته قاسية في الإتلاف والتخريب . وعرف الناس قديماً وحديثاً أثره في تيسير أسباب الحياة المادية وزيادة الرفاهية . وخفي على الكثير أن للعلم جولات صادقة في ميدان الخير والحق بل في ميدان الجمال ، يبصر فيها بحقائق هذه الأمور ويعرف الأسباب ويرتب النتائج . ويهدي فيها جميعاً قصد السبيل . فهل يكثر على كتاب الشرق أن يتخذوا منه أداة وسبباً فيما يدعون إليه من رأي ويصطنعون من فن .

رأي معالي عبد الرزاق السنهوري بك وزير المعارف :

ولِمَ تقول في أغلب الأحيان ، وما نتيجة الحروب دائما إلا تطور في نواحي الحياة لا راد له ، وتحول في التفكير لا بد منه . وإن كانت نتيجة الحرب الحالية لم تظهر بعد ، إلا أننا نستطيع التكهن بعض الشيء عن مدى نتائجها ، وذلك بالتأمل قليلا فيما مر عليها من مد وجزر ، وميل ذات اليمين مرة وذات اليسار أخرى . ورأيناها أخيراً تسطر للديمقراطية ونظمها صفحة ناصعة ، وتكتب لها نصراً مؤزراً ، وتؤكد لها في العقائد ، وتدرأ عنها ما شابها من أثر الحرب الماضية .

فليس أمام قادة الفكر العربي إلا أن يدفعوا شعوبهم نحو هذا الطريق . . . طريق الديمقراطية الصحيحة ، وأن يبثوا في نفوس الأفراد روح المساواة والإخاء ، ويبعدوهم عن الميل إلى الهمجية والطغيان ، وعندئذ يكسبونهم قوة واتحاداً وخطراً .

ويقع على كاهلهم ايضاً عبء تعبيد الطريق أمام جامعتهم العربية ، ويمكنوا لها بالتماسك والتعاضد ، وتبادل المنفعة والخير ، واتحاد في دفع الضر والأذى . وليكن لهم في نصر الديمقراطية خير دافع إلى التمسك بها ، وجعلها نبراساً لهم في تفكيرهم ولشعوبهم أقوم سبيل إلى الخير والحق والجمال .

رأى معالي طه السباعي بك وزير التموين :

أعتقد أن مجرى تفكير الإنسان في العالم قاطبة لا في الشرق وحده قد تحول إلى طريق كنا نظنه فيما مضى سراباً خلباً وحلماً يلجأ إليه الإنسان عند ما تفزعه شرور الأرض .. . ذلك السراب الذي أضحى الآن حقيقة نكاد نلمسها .. هو الإخاء الإنساني .

ذلك هو الطريق الذي يجب أن توجه إليه الشعوب بحيث لا تحيد عنه ولا تضل .. وتلك هي الغاية التي يجب أن ننشدها فلا تحولنا عنها غايات مبعثها المصلحة الذاتية ومنشأها الأنانية ... فتقودنا مرة أخرى إلى الدمار والخراب .

يجب أن تسمو الشعوب قليلا عما يسمونه الإخاء الوطني ... فقد كان ذلك — وما زال — مكمن الداء .. وأصل العلة ... وقد بدأ الناس يدركون ذلك تمام الإدراك .. وأحسوا برغبتهم في أن تتسع دائرة الإخاء .. فتكون إخاء إنسانياً .. لا إخاء وطنياً فحسب .. وشعروا أن هذا المطلب ليس بمستحيل ولا صعب المنال فيجب أن نقودهم إليه بخطوات حثيثه .. ونشعرهم أن مطلبهم ليس وهما من الأوهام .. بل حقيقة يمكن الوصول إليها .

ذلك هو الطريق الذي إذا سارت فيه الشعوب أوصلها إلى الخير والحق والجمال .. وإلى حياة آمنة سالمة يستحق المرء أن يعيش فيها .. ويمتع بما فيها من نعم الله .

رأى معالي حلمي عيسى باشا :

الواقع أن مجرى التفكير كثيراً ما يتأثر أثناء قيام الحروب أو في أعقابها بتيارات مختلفة بعضها خير وبعضها شر ، وقد جدت وسائل للدعاية لم تكن معروفة من قبل أهمها الإذاعات بالراديو والمطبوعات على اختلاف أشكالها فواجب علينا نحن أهل الشرق أن ندقق ونحقق فنأخذ ما يلائم طباعنا ويوافق أمزجتنا ويربط بين الشعوب العربية ليجعلها تسير في طريق يوحد بين أغراضها ومراميها ويماثل بين أفكارها وتعاليمها ويحيي آدابها الخالدة وتاريخها المجيد ولذلك يجب علينا أن نتجه اتجاها مقصوراً بإخلاص على الثقافة الأدبية والعلمية والتاريخية وأن نبعد بمجلاتنا وكتبنا كل البعد عن الفكاهات والمجون فقد غمرت اليوم العقول والأفهام والعواطف تلك المجلات المتكاثرة المتبارية في نشر مغامرات هوليود وما شابهها وغراميات فاتناتها وزواجهن المتكرر وطلاقهن المتعثر ورسم صورهن العارية على كل غلاف مقدماً على كل مقال وإن جل موضوعه ولقد أمسينا نحن أهل الشرق في حاجة إلى تغذية العقول لا إلى تغذية العواطف نزولا عند قوله تعالى (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) وما أجدر أن تكون مؤلفاتنا ميداناً رحباً لذوي الفكر وأرباب القلم ينشرون فيها ثمار أبحاثهم ونتائج قرائحهم ويبينون للناس ماهية الكون والكائنات الطبيعية وعناصرها وما أحدثته الاختراعات والاكتشافات من ثورة في تقدم الصناعة والزراعة والطب والاقتصاد وفوائد ما اكتشف العلماء وما اخترعوا

ويرسمون لهم الآلات الميكانيكية والأدوات الزراعية الحديثة وغيرها من مختلف الاكتشافات حتى تشيع هذه العلوم وتشرح لهم بلغة سهلة عامة بجعلها سائغة للجماهير أسوة بما درجت عليه أوربا وأمريكا في مجلاتها وإذاعاتها فيؤدي بهم ذلك إلى أن يتعرفوا قيمتها ويتفهموا مزاياها ويطبقوها ليسيروا في طريق التقدم والارتقاء وربما في طريق الاختراع والاكتشاف كما سار غيرهم وكل من سار على الدرب وصل .

وثمة ناحية أخرى ستترتب على هذه الطريقة وهي خلق المصطلحات للعلوم والفنون الحديثة سواء بنقلها من مجلة مجمع اللغة العربية أو بالتنقيب عنها في بطون الكتب والمخطوطات أو ابتكارها. ذلك رأيي فالمجلات إما أن يكون الغرض منها طلب العلم أو طلب المال ولا شأن بها لطالب المال إذ لا يأبه لعلم ولا لحكمة ولا لموعظة حسنة بل يجري وراء عواطف العامة وينزل لمستوى الدهماء .

رأي الشيخ المحترم الأستاذ خليل ثابت بك المدير العام لجريدة المقطم :

تريدون بالطبع جواباً صريحاً على سؤالكم وهذا جوابي :

إن خير الطرق التي يجدر بقادة الفكر العربي أن يسلكوها بعد الحرب في توجيه الشعوب العربية إلى الخير والحق والجمال هو طريق النزاهة والشجاعة الكاملتين والمقرونتين بتقديم خير المجموع على كل اعتبار سواه .

ولا أعتقد أن هذا الإجمال الموجز يحتاج إلى تفصيل ، فوراءنا من هذه الناحية تاريخ طويل تسلطت فيه علينا المجاملة والمداهنة فلم نفطن إلى أن الحياة تصعيد في مرتفعات تمتزج فيها الحقائق بالعقبات ، فلا بد لمن يبغي الارتقاء إليها أن يتذرع بالشجاعة وأن يجرد قواه لمواجهة ما يبغيه .

ومهمة قادة الفكر العربي — إذا شاؤا أن يحتفظوا بمقامهم من القيادة — مهمة شاقة لأن العناصر التي ستتلو الحرب شديدة الفعل وافرة القوة ، فإما أن يسخرها القادة لخدمة المجموع أو تطرحهم على الأرض كما تطرح العواصف أشجار الغابات .

إن الخير والحق والجمال درر نفيسة تتصل بعالم الخلد بخيوط دقيقة ولايشوه جمالها سوى ما قد يلصق بها من معادن يراد بها تجميلها فتنقص من بهائها أو شوائب يراد بها إخفاء هذا البهاء .

وعلى قادة الفكر أن يحافظوا على بهاء هذه الدرر ويحرسوها ويوجهوا أبصار الناس إليها والسلام.

رأي الشيخ المحترم الأستاذ أنطون الجميل بك رئيس تحرير جريدة الأهرام :

في هذه الأسطر المطروحة لإبداء الرأي تقرير حقيقة وتوجيه سؤال . وأعترف أني لم أفهم معنى « الفاء » السببية المقحومة بينهما ، وبعبارة أخرى لم أكتشف العلاقة الوثيقة بين تلك الحقيقة وهذا السؤال ☆ .

☆ لم نشأ أن نقرر نحن هذه الحقيقة فأدرجنا في الشق الأول من السؤال جملة « في أغلب الأحيان » فهذا ما يفسر وجود هذه الفاء السببية من ناحية المعنى كما يفسرها من ناحية المبنى ما يسميه البلاغيون كمال الانفصال . أما السبب الأقوى لهذه الكلمة فشكر خالص نبثه أستاذنا الكبير على حسن ظنه بالمجلة وكتّابها .

أما الحقيقة فهي أن الحرب تتمخض في أغلب الأحيان عن تحول في مجرى التفكير وتأثر بنواح جديدة في الحياة ، أي أنه كثيراً ما يعقب الحروب تبديل وتغيير في الحياة الفكرية وفي الحياة المادية، وهذا صحيح وواقع ملموس .

وأما السؤال الذي يلي تقرير هذه الحقيقة فيتناول أمثل الطرق لتوجيه الشعوب العربية إلى الخير والحق والجمال . وها أنذا أجيب عنه إجابة وجيزة من غير بحث في علاقته بالحقيقة المتقدمة من حيث هو نتيجة لها .

التوجيه إلى الخير والحق والجمال يكون عن طريق تنمية قوى النفس التي تتناول هذه الموضوعات الثلاثة :

فالخير مرجعه إلى القلب ؛ أي إلى العاطفة أو الشعور .

والحق مرجعه إلى العقل ؛ أي إلى المنطق .

والجمال مرجعه إلى الخيال ؛ أي إلى التصور .

فإذا عمل قادة الفكر العربي على نشر الآداب والعلوم والفنون بين طبقات الشعب ساعدوا أكبر مساعدة على توجيه الشعوب العربية إلى الخير والحق والجمال ، وهذه هي المثل العليا للأفراد والجماعات .

على أن هذه المثل العليا لا تستطيع أن تعيش وتنمو إلا في جو مشبع بالحرية والتسامح . فعلى التسامح والحرية يقوم الخير الصحيح والحق الصريح والجمال الذي لا تشوبه شائبة .

واعتقادنا أن مجلة « الكتاب » ورئيس تحريرها الأديب وكتابها الأفاضل سيكونون خير موجه لشعوبنا الفتية الناهضة إلى هذه الأهداف السامية »



حديقة الأفكار

وطننا الروحاني

للأستاذ شفيق جبري عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

تمرّ بي في القرية التي تعودت أن أصيف فيها كل سنة ، بقراتٌ ألفتُ رؤيتها في الصباح والمساء ، تخرجُ هذه البقرات من مرابضها بعد طلوع الشمس ، فيغدو بها أصحابها إلى مزارعهم ليفلحوا أرضهم ، ثم يروحون بها بعد أن جهدتها الفلاحة . ولقد ألفتْ هذه البقرات مرابضها ، فهي تهتدي إليها بنفسها ، فتدخلها في كثير من الأحيان دون أن يكون معها أحد من أصحابها ، وإذا وصلتْ إليها وشئت أن تحولها عنها إلى غيرها فإنك لاتكاد تبلغ ذلك ، لأنها علقت بهذه المآوي التي تذوق فيها لذة الراحة والعلف والنوم . هذه المرابض إنما هي بمنزلة وطن للبقرات ، ألفتها وأحبتها ، فهي تشتاق إليها إذا بعدت عنها ، وإذا ربضت فيها فإنها لا تخرج منها إلا بجهد ، ويشبه البقرات في هذه النزعة الوطنية كثير من الحيوانات ، ولكن هذه النزعة مادية لا روح فيها ، فإن هذه البقرات لا تدرك من مرابضها إلا معالفها فيها أو مراقدها ، فهي متعلقة بأرضها ، وإذا هيأت لها أرضاً غيرها وضمنت لها فيها الراحة والعلف والنوم فقد يجوز أن تألف هذه الأرض الثانية وتنسى أرضها الأولى ، لأنها ليس لها في تلك الأرض تقاليد أو أفكار أو عواطف مشتركة ، فوطنها حيث تستطيع أن تجد الراحة والعلف والنوم !

فإذا كنا لا نفهم من معنى الوطن إلا أنه الأرض التي سكنها آباؤنا الأولون في القديم ونسكنها نحن في الحديث ، فنشرب من مائها ، ونأكل من طيباتها ، ونستنشق من ريحها ، ونرقد في ظلالها ، فلا فضل لنا حينئذ في نزعتنا الوطنية على كثير من الحيوان ، فهو يشاركنا في هذه النزعة ، ويفهم من معانيها مثل ما نفهم . ولكني أعتقد أن الأمر على غير ذلك ، وإذا فهم البشر في بدء التأريخ معنى الوطن على الوجه الذي ذكرته فلا يصح أن يفهموه على هذا الوجه في يومنا هذا .

لم يعد الوطن ، على ما قرّره أحد علماء الاجتماع ، عبارةً عن أرض الآباء والأجداد الذين يتمم نسلهم حياتهم الأولى ، ولكن الوطن إنما هو جملة تقاليد وأفكار وعواطف مشتركة ، تجعل أهل البلد الواحد يشعرون بأنهم إخوة ، وإذا أردنا أن نؤمن بقوة هذا التعريف فلننقل رجالاً من وطنهم إلى وطن رجالٍ آخرين ، حتى يدركوا أعماق المهاوي الروحية التي تفصل بين شعوبٍ تختلف حالاتهم الذهنية . ونستطيع أن نشهد هذا الأمر في مؤتمر يجتمع فيه رجال من أوطانٍ شتى ، فلا تلبث أن تنشأ الاختلافات بينهم ، ولا تنشأ اختلافات المصالح وحدها ، ولكنا نرى اختلافات العواطف والأفكار التي تمنعهم عن أن يفهم بعضهم روح بعض ، وقد تؤلف بينهم المعتقدات السياسية ساعة من الزمن ، ولكن ماضيهم البعيد لا يلبث أن يفصل بعضهم عن بعض ، وهذا أمر لا يطول زمن شعورهم به .

إن هذه الحرب التي ستغيّر كثيراً من مناحي تفكير البشر ستغير فهمنا لمعنى الوطن ، فستنقلنا في هذا الفهم من ناحية مادية إلى ناحية روحية ، فكما سئم البشر النزعة المادية التي ولدت الحرب ، وأخذ رجال الفكر يوجهون الخلق نحو نزعة روحية تجد الأمم فيها راحة وسلاما ، فكذلك سئمنا فهمنا المادي لمعنى الوطن ، وأخذنا نفتش عن فهم روحي له ، وما نشوء جامعة الدول العربية إلا مظهر من مظاهر هذا الفهم الروحي . لا شك في أن هذه الجامعة قد بحثت في بعض الجلسات عن بعض الحدود المادية في جزء من بلاد العرب ، ولكنها لم تقتصر على هذا النحو من البحث ، فإن لجانها بحثت عن وحدة الثقافة في بلاد العرب وعن وحدة الاقتصاد ، وربما بحثت في الآتي عن أمور من هذا الشكل . ومعنى هذا كله أننا معاشر العرب قد خرجنا من حدود فهمنا المادي لمعنى الوطن ، ودخلنا في حدود فهمنا الروحي له ، فلم تعد الحدود بيننا وبين مصر مثلا هذه الصحراوات المديدة ، فإن هذه الصحراوات على اتساعها قد عجزت عن أن تفصل بيننا وبين مصر . أجل ، إن الحدود المادية لم يبق لها سلطان بين البلاد العربية ، وأي قيمة لهذه الحدود بعد الاختراعات التي اهتدى إليها العلم في تهديم المدن والقضاء على البشر ، ففي بضع دقائق تذهب مدينة من المدن بين سمع الأرض وبصرها فتصبح أثراً بعد عين ، لم يبق لنا بعد اختراعات التخريب والتدمير إلا الاستعانة بالسلطان الروحي في فهم معاني الوطن ، وفي توثيق الأواصر بين أوطاننا المختلفة .

فرغت منذ أيام من مطالعة كتاب يصف الأواصر بين الشام ومصر في الغابر والحاضر . لم تستطع الجبال والأودية والبحار والصحاري أن تفصل مصر عن الشام أو

الشام عن مصر ، من قديم التاريخ ، ففي أكثر العصور فتحت مصر أبوابها لأهل الشام، وفتحت الشام أبوابها لأهل مصر ، وفي بعض العصور كان والي مصر والشام واحداً ، فنشأ عن هذا كله اشتباك الأواصر السياسية بينهما ، وتبعه اشتباك الأواصر العلمية والأدبية ، وأكبر مظهر من مظاهر هذا كله شعر الشعراء ، فإذا أصابت الشام مصيبة سكب شعراء مصر دموعهم فيها ، وإذا أصاب مصر مثل هذه المصيبة بكى شعراء الشام ، وقصائد شوقي وحافظ لا تزال راسخة في الأذهان .

فالذي يُستنتج من ذلك أن أكثر بلاد العرب مشتبكة الأواصر في التقاليد والأفكار والعواطف ، وأن بلاداً بلغت من تقارب الأواصر هذا المبلغ جديرةٌ بأن نسميها وطناً واحداً على مصطلح هذا العصر ، فليس الوطن على نحو ماقالوا عبارةً عن جبال وأودية وسهول وأنهار وبحار ، وإنما الوطن عبارة عن أواصر مشتبكة مثل الأواصر بين مصر والشام ، أو عن عواطف متقاربة مثل عواطفهما ، فإذا لم نفهم معنى الوطن بعد اليوم على هذا النوع من الفهم فلا وطن لنا ولا أرض ولا سماء .

ولقد فهموا معنى الوطن في القديم فهماً قريباً من هذا النمط ، وعبّر الجاحظ عن هذا الفهم لما ذكر كلام جماعة من الخواص الخُلّص قالوا : العرب كلهم شيء واحد ، لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق من جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء ، فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل والمراعي والراية والصناعة والشهوة .

ولكني أظن أنه لا يصح إطلاق كلام هؤلاء الخواص الخُلّص على علاته ، فإذا صح هذا القول أو بعضه في عرب الجزيرة فلا يصح في الشعوب العربية كلها ، ففي هذه الشعوب اختلافات من حيث الشيم التي أشار إليها الجاحظ ، ومن حيث الهمة والطبيعة والأخلاق ونحو ذلك ، ولكن هذه الاختلافات لا تمنع الشعوب المذكورة عن أن تعتبر بلادها وطناً واحداً ، فإن هذه البلاد اشتركت في الماضي في تقاليد وأفكار وعواطف متقاربة ، وهي في الحاضر أشد شعوراً بضرورة هذا الاشتراك .

هذا هو الوطن الروحاني الذي نؤمن به بعد اليوم ، فلا جبال ولا سهول ، ولا صحاري تحجز بين بلاد العرب ، فإذا كنا لا ندرك معنى الوطن من هذه الناحية الروحية فلا قيمة لحدوده المادية بعد هذه القنابل الذرية !

شفيق جبري

السخرية عند برنارد شو

للأستاذ عباس محمود العقاد

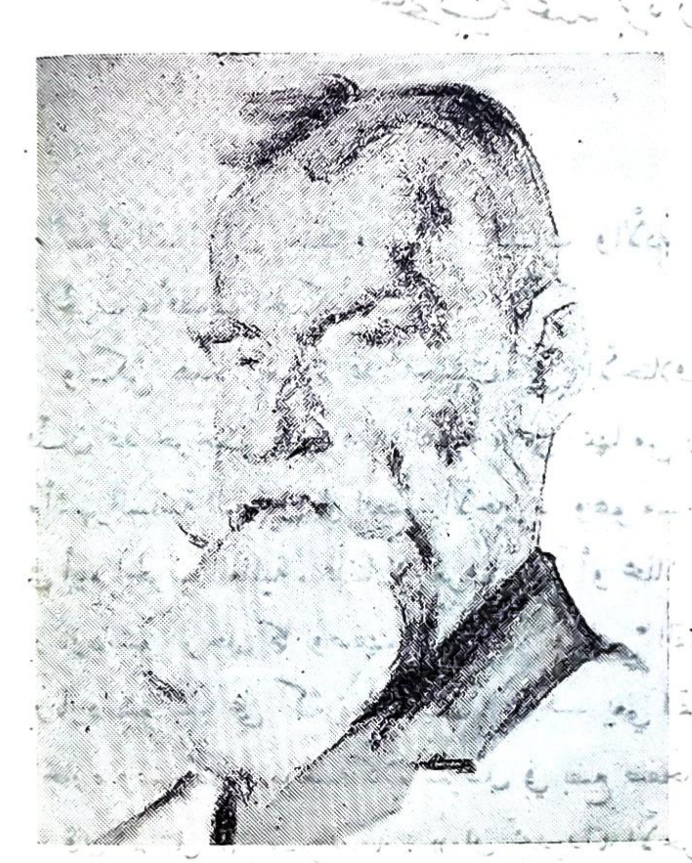
تعوّد القراء أن ينتظروا من الكتّاب والأدباء صوراً « قلمية » لرجال السياسة والحرب وأقطاب الحكومات .

ولكن هذه العادة قد اختلفت كل الأختلاف في أمر برنارد شو لأنه كاتب فنّان قد خرجت صورته « القلمية » على أتمها من ريشة أكبر الأقطاب الحكوميين وأشهر الساسة النابهين في العصر الأخير ، وهو مستر شرشل رئيس الوزارة البريطانية في أيام الحرب العالمية ، فإننا لا نعرف ناقداً أو محللا وصف لنا برنارد شو الكاتب أو برنارد شو الرجل كما وصفهما لنا ذلك السياسيّ القدير ، ولا نعرف كلاماً كتب في برنارد شو — على كثرة ما كتب عنه — يغني القارىء في الدلالة على حقيقته ، مع إيجازه وسهولته ، مايغنيه كلام شرشل في بضع صفحات .

قال شرشل عن مسرحياته : « إن تجديداته الأخرى — والكبرى — أنه لا يعتمد في مسرحياته على التجارب بين الشخصية والشخصية ، أو على التجارب بين الشخصية والبيئة ، ولكنه يعتمد فيها على التجارب بين الحوار والحوار ، وبين الخواطر والخواطر . فتصبح خواطره شخوصاً تتصارع فيما بينها ، تارة بقوة مسرحية شديدة ، وتارة بغير ذلك ، وتصبح شخوصه الإنسانية — مع استثناء قليل — عائشة بما تقوله ، وليست عائشة بما تعمله ، ولكنها مع ذلك تعيش » .

ثم قال في صفحة أخرى : « يخيل إليّ أن الندماء المهرجين الذين قاموا بذلك الدور النفيس في القرون الوسطى إنما أنقذوا جلودهم من السلخ ورقابهم من الليّ بتلك الحيدة أو تلك المساواة التي كانوا يتوخونها في توزيع نكاتهم وسخرياتهم على كل جانب وكل إنسان بغير تمييز ولا استئثار . فقبل أن يجرد هذا النبيل سيفه ليجزيَ النديمَ على ما أصابه من لسانه اللاذع إذا به يغرب ضاحكا مما أصاب منافسه أو زميله ، وإذا بهم جميعاً في شاغل بأنفسهم عن مد أرجلهم بالرفس لمن يرفسهم . وهكذا نجا النديم المهرّج ووجد سبيله إلى أخطر المواطن ، ونعم بألاعيبه في الحرية تحت نظرات الهمجية والطغيان الزائغة من العجب والدهشة » .

وهذا الكلام أصدق ما قيل في فنّ برنارد شو وسخرياته وفكاهاته ، فإنه لا يقاتل بالسخرية كما كان يفعل فولتير قبله بنحو قرنين ، ولا يتخذ « النكتة » سلاحاً يضرب به خصومه ويتلقى الضربات عليه من أولئك الخصوم ، ولكنه يعصف بوقار الخرافات والعقائد التي لا تعجبه بألعوبة أو ألعوبتين من حركاته البهلوانيـة المتقنة ، يلعبهما أمام ذلك الوقار المهيب ، فإذا بالناس معجبون بإتقان اللعبة مغرقون في الضحك من العقائد والخرافات التي كانت قبل ذلك توحي إليهم بالصلاة والتعظيم .



وهو لم يدرك خرافة واحدة في جبروتها وطغيانها كما فعل فولتير في زمانه ، لأن فولتير كان يرمي بالنكتة في وجه القوة المخيفة التي تملك الانتقام والجزاء ، وكان يحارب في ميدان عنيف ، ويعلم ما يصيب المحارب في الميدان العنيف .

أما صاحبنا شو فهو قد ظهر في حضرة أرباب ذهبت عنها مهابة العبادة منذ سنين . ولم يبق للناس ما يمنعهم أن يعصفوا بوقارها إذا وجدوا من يحسن « الشقلبة » البهلوانية في حضرتها بل لعلهم يكافئونه أجزل المكافأة إذا أحسن اللعب بين يديها ، وزاد في نصيبهم من الضحك والسخرية بأقدارها ، ولم يكن فيه من التشيع ما يثير الحزازة ويبعث إلى الاتهام بسوء النية .

وقد أحسن شو هذه الصناعة غاية الإحسان كما قال شرشل في تشبيهه اياه بالنديم « المنصف » في توزيع نكاته . فلا فرق عنده بين مذهبه ومذهب غيره ، ولا مطمع لوطنه في إعفائه من النكتة اللاذعة إذا صوّبها إلى الأوطان الأخرى ... بل يتمادى به الأمر حتى لا يفرق بين الجد والمزاح ولا بين الجلائل والصغائر . فينطلق في دعابته وهزله ، أو في تحطيمه وتهشيمه ، بغير تمييز بين ما يستحق الصيانة والتوقير وما يستحق العبث والزراية ، وقد ينساق في نشوة اللعب البهلواني فيدخل به إلى المحراب ويدوس به على

القرابين والأرباب ، وهو مصروف* بارتقاب التصفيق المنتظر عن كل ما عداه ، مطمئن إلى السلامة من العقاب ، لأنه يوزع حركاته بين النظارة بالعدل والقسطاس ، ويصنع كما يصنع اللاعب المدرب الذي لا يأتي بحركة نحو نظارة اليمين إلا قابلها بحركة مثلها نحو نظارة الشمال .

ومن أجل هذا نعتقد أن الفرجة أو التسلية هي غاية الغايات من النظر إلى هذا الملعب البديع !

إن صاحبنا ينكر هذا بداهة ولا يرتضيه لنفسه ولا لفنه . وقد نعى كثيراً على مذهب « الفن للفن » ليوهم الناس أنه يعالج الفن للاصلاح ويرمي به إلى تحقيق رسالة من رسل الاجتماع . وقال على أسلوبه المبدع : إنه ينكر الفن للفن . أو ينكر الفن لغير فائدة أو رسالة لسبب واحد : وذاك أنه أعظم كلفة من أن ينشده أحد من الناس .

لكن الواقع أن « البراعة » الفنية هي غاية ما ينشده برنارد شو من نكاته ولذعاته ، وأنه قد ينسى الواقع والصواب ، بل ينسى التبعة الأدبية ... في سبيل البراعة و « اللعبة » البهلوانية المتقنة .

وهذا هو الفارق الأكبر بينه وبين فولتير ، فإنك لا تلمح البراعة في كتابات فولتير إلا لمحت معها التبعة الماثلة بين عينيه والوجهة التي يتجه إليها ، وكثيراً ما تلمح هذه البراعات في كتابات برنارد شو فتجزم بأن قائلها غير مسئول ، وأنه لا يبالي ما يقول .

* * *

ويبدو لنا أن تعليل هذه الخصلة في الرجل والكاتب على السواء غير عسير ، فإنه ورث من أبيه وأمه معاً قلة الاكتراث بالأوضاع القائمة ، وقلة الشعور بالتبعة و « المسئولية » ، وكثيراً من الاستخفاف بما يهم الناس ويلعجهم ويضطرهم إلى الجد والتدبر الطويل .

فكان أبوه يدمن السكر ولا يحفل بشيء ، وكان إذا أصيب بخسارة أو تعرض لبلية أرسل القهقهة وراء القهقهة ، حتى يخيل إلى ناظره أنه مسلوب الرشاد ، وقد اجترأت أمه على أن تترك زوجها وتعيش مع معلمها الموسيقي ، دون أن تحفل بالبيت والبنين ، أو بما تلوكه الأفواه من التهم والمعاذير .

أما تعليل تلك الخصلة من الناحية الفنية فقد نلتمسه في شيئين اثنين ، إذا آثرنا الإيجاز ولم نسهب في التعليل والتمثيل : أحدهما نشأته الموسيقية وانصرافه إلى العزف والإيقاع من صباه الباكر ، فأصبح « الوقع » عنده مقدما على الجوهر واللباب ، ولاسيما الوقع الذي يتوخاه من لم يبلغ من الفن الموسيقي مبلغ الرجل الذي يؤدي فيه معاني الجوهر واللباب .

وثانيهما أنه بلغ سن الكتابة والاشتغال بالمسائل العامة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وهي الفترة التي كثرت فيها الدعوة إلى نبذ كل قديم

والتعلق بكل جديد ، فأصبح الإغراب والإبداع مقدماً على التحقيق والتمحيص ، وأصبحت الحاجة إلى التنبيه والإعلان لازمة من لوازم الصحافة والمسرح وما يتصل بهما من أبواب الكتابة .

قال شو في جزيرة « جون بل الأخرى » : « إن طريقتي في المزاح أن أقول الحق الصراح . . . . إنه أعجب مزحة في هذه الدنيا » .

وقال في أجوبته على الأسئلة التسعة : « إن أسلوبي هو أن أتعب غاية التعب في استنباط ما ينبغي أن يقال ، ثم أن أقوله بعد ذلك بأدنى العبارات إلى الاستخفاف » .

وقد كشف الرجل سر صناعته في هاتين الكلمتين بغير مواربة ولا تدجيل ، لأنه على أسوإ ما يكون « معربد » وليس بدجال .

فالحقيقة أن برنارد شو قد أوتي من القدرة على المفارقات البارعة ما ليس له نظير في العصر الحاضر ، وقد وفق مرات بعد مرات إلى إظهار الحقائق في ثياب الفكاهات ، وإظهار الفكاهات في ثياب الحقائق ، فاتفقت له في هذا الباب آيات بينات .

منها ما يذكرنا بفولتير، كقوله مثلا في الإنسان والسبرمان : « لن يكون الإنجليز أمة عبيد ، إنهم أحرار في أن يصنعوا كل ما تسمح لهم به الحكومة وتقاليد الرأي العام » .

فهذه في روحها تشبه كلمة فولتير في كتابه الصغير عن الدنيا كما تسير : « إن فلانة وفية لزوجها ، وفية له حتى إنها تترك له كل شيء ، كل شيء ، إلا عشيقها بطبيعة الحال » !

على أنه لا يقصر عن فولتير في كثير من عباراته اللاذعة ، وقد يفوقه في بعضها ويجود بها من قريحة أخصب في سخائها بهذه المفارقات من قريحة فولتير .

يقول مثلا : « إن المتشائم هو رجل يعتقد أن الناس خبثاء مثله ، ويمقتهم من أجل ذلك »

أو يقول : « لا تعمل لغيرك ما تحب أن يعمل لك ، فربما اختلفت الأذواق » !

أو يقول : « حياة سعادة طويلة ، تلك بلوى لا يوجد في هذه الدنيا من يطيقها ، إنها الجحيم في هذه الحياة الدنيا » .

أو يقول : « لا يحفظ سر بين الناس كالسر الذي يستطيع جميع الناس أن يخمنوه » .

أو يقول : « إنه جنتلمان ... انظر إلى حذائه ... »

أو يقول : « إنه رجل حسن الإدراك حسن الذوق ، يعني أنه رجل خلو من ملكة الابتداع ومن فضيلة الشجاعة الخلقية ... »

أو يقول : « لا حق لنا في استهلاك السعادة بغير إنتاجها إلا كحقنا في استهلاك الثروة بغير إنتاج » .

أو يقول : « لن يعمل شيء في هذه الدنيا إلا إذا بلغ الناس أن يقتل بعضهم بعضا إذا هو لم يعمل » .

أو يقول : « تقلب المرأة التي أحبها لا يعدله بلاء جهنمي في هذه الأرض غير ثبات المرأة التي تحبني » .

أو يقول : « لا يبلغ الناس العقل بمقدار ما يجربونه ، بل بمقدار استعدادهم لأن يجربوا » .

أو يقول : « فجيعتان في الحياة : إحداهما أن لا تنال ما تتمنى ، والثانية أن الذي تتمناه تناله » .

أو يقول : « ليس بلاء الكاذب أن أحداً من الناس لا يصدقه ، وإنما بلاؤه أنه هو لا يصدق أحداً من الناس » .

أو يقول : « كلما زاد عدد الأمور التي يخجل منها الإنسان زاد نصيبه من الاحترام » .

أو يقول : « الرجل المعقول يوفق بين نفسه وبين العالم ، والرجل غير المعقول يحاول أن يوفق بين العالم ونفسه ، ومن ثم كان كل تقدم في هذا العالم مرهوناً بغير المعقولين » .

وأمثال هذه الطرائف والجوامع عشرات ، ومئات ، تقرأ منها في مسرحياته ومقدماته ونبذه وفصوله ما لست تقرؤه لمؤلف واحد في عصرنا هذا ، ويندر أن تقرأ مثله لمؤلف واحد في جميع العصور .

إلا أنه يشتري هذه البراعة بالثمن الباهظ في أحوال كثيرة ، لأنه يشتريها «على حساب» الحق والتبعة الأدبية ، ومن ذاك انكاره للوطنية على مذهب الغلاة من الاشتراكيين حيث يقول : إن السلام في الأرض موقوف على زوال الأوطان ، وينسى أن الاستخفاف بالوطنية لا يساعد أحداً غير المعتدين على السلام .

ومن شطحاته على حساب الحق والتبعة تفضيله الدكتاتورية على الحكومة النيابية ، وتلك الأراجيح البهلوانية التي قابل بها الحرب العالمية العظمى وهي أهول وأوبل من أن تسمح بأشباه تلك الأراجيح . وقلما يخلو له أثر أدبيّ من هذه الشطحات .

ولكنها هي النار التي يطبخ بها تلك الحلوى . . ! وهي الصيحة التي يعلن بها عن حركاته المتقنة ، وفيها من ضروب الفرجة ما ينوب أحياناً عن الحقائق والتبعات .

عباس محمود العقاد

عند ساحل الغلال

للدكتور أحمد زكي بك المدير العام لمصلحة الكيمياء

لست من طلاّب الغلال ، ولا من روّاد أسواقها ، ولكن هكذا انتهى بي المطاف منذ أيام ، انتهى إلى ذلك الساحل النيلي القريب من مصر العتيقة ، حيث تتجمع الأقوات في سفائنها على الماء ، وقد غيره الفيضان فصار كغبرة الأرض حتى ما تجد بينهما فرقاً فتكاد تحسب الأرض ماء النيل قد انجمد ، وتكاد تحسب النيل أرض مصر ماعت فسالت .

وازدحم العمال على هذه الغلال تحمل أثقالها عبر الطريق إلى مخازن في قبالتها ، أو إلى عربات على أفريزه تقاطرت كأنها قوافل الصحراء .

وشاقني من هذا المنظر المختلط الزائط الحمالون ، وقد تقاطروا كتقاطر الجمال ، أو كتقاطر النمل في مساربه على وجه الأرض ، ذهاباً وجيئة ، في خطوط لا تكاد تنقطع أبداً . وزادهم بالنمل شبها أنهم حملوا فوق طاقتهم أضعافاً . فقد كنت أنظر الى تلك الزكائب ، وهي قد تضم الرجل كله متقرفصاً وتفيض عنه ، كنت أنظر إليها على ظهور الرجال وقد امتلأت وسعها بالحب كأنه الرصاص ، فأعجب لهذا الهيكل الإنساني القليل ، كيف استطاع أن يرفع هذا الحمل الثقيل ، ثم استطاع من بعد ذلك أن يمشي به على الأرض في قوة الحديد واطمئنان الآلة التي يديرها بنزين أو بخار !

ولكنها عظامه اتخذ منها روافع كروافع المكنات ، ولكنها عضله اتخذ منه سبباً للطاقة يبسطه ويقبضه كما تقبض المكنة بخارها أو تبسطه فتحرك به مكابسها وتحرك العجلات .

إن خير آلة في الدنيا جسم إنسان ، وأدق آلة في الوجود جسد حيوان ، ولا يبلغ الوصف في تمجيد آلة أكثر مما يبلغه وصفها بأنها تعمل كأنها ابن آدم .

ولكن كما أن الآلة — كما أن السيارة لا تسير صحيحة سليمة آمنة مقتصدة إلا إذا قعد عند مفاتيحها سائق بالإدارة خبير ، وبعوائق الطريق ومفاجآته عارف ، فكذلك الجسد لا يديره إدارة الآلة إلا عليم حكيم .

وقد كنت بلغت إحدى تلك السفن التي تجود بغلالها على صوت صراخ ونزاع ينطلق

من بطنها العميق الواسع ، فأشرفت عند حافتها أستطلع أسباب تلك الخصومة التي قطعت حبل العمل على العمال وهوشت عمل الحمال ، فتبينت أنها خصومة على حامل لا يعرف كيف يحمل ، وقد كنت أحسب الحمل عملاً يمارسه الرجل القويّ بطبعه ، فتعلمت من هذا الدرس الذي ألقاه رئيس الحمالين على سمعي غير عامد ، تعلمت منه أن المكنة الإنسانية لها هي الأخرى شروط لا بد من وفائها ، وأوضاع لا بد من اتخاذها ، لتجعل الحمل أخف رفعاً ، وتجعل السير به إلى غايته أقل كلفة ، لا كلفة من بخار أو زيت ، ولكن كلفة من دم يحترق ، وكلفة من عضلات يصيبها الإعياء تماماً كما يصيب الآلات ، فتكل وتعصى فلا تعمل .

ولقد أمتعني ذلك المعلم ، شيخ الحمالين ، بالذي قال في درسه الساذج . لقد علَّم ذلك الحمال الجديد الغشوم أشياء وقواعد اتبعها بعد ذلك فآتت ثمارها عاجلة . علّمه كيف يمسك بالزكيبة ، وأين يمسك بها ، وكيف يضع جسمه منها عند رفعها ، وعلى أي جانب من ظهره يضع جرمها . ثم كيف يعدل ظهره من تحتها بعد حملها . ورفع الرجل حمله على ما استنّ أستاذه من قاعدة فاستراح ، واستراح ناظروه ، وقد كانوا قد خشوا على ظهره قبل ذلك أن ينقصم .

وكانت متعتي في هذا الدرس مما سمعت فيه ووعيت ، ولكن لعل متعتي الكبرى كانت لصلة ربطتها بين قواعد استنّها شيخ الحمالين هذا ، وبين قواعد لا يزال يستنها العلم إلى اليوم ، حتى يجعل عمل العامل ، في أي دائرة من دوائر العمل ، أخف ثقلا وأقل مشقة .

ولا بدع من العلم أن يفعل هذا . فما دام أن الجسم الإنساني في الآلات أحكم آلة ، فلا بد عند الإدارة والسياقة أن تكون له خير إدارة وأحزم سياقة . وبما أن سائق الآلة إنما يبني حسن سياقته على علمه كيف تعمل أجزاء الآلات في بطونها ، فكذلك سائق الجسم ، وهو صاحبه ، لا يمكن أن يحسن لهذا الجسم سياقة إلا أن ينبني عمله في ذلك على أن يعرف كيف تعمل أجزاء هذه الأجسام من وراء جلودها ، ومن أجل هذا تدخل العلم ، لأنه لا يكفي لبلوغ الغاية من هذا ما تعلمه العامل بالطبع والتجربة تأتي اعتباطاً .

وإن شئت دليلا على ذلك فخذ مثل البنائين . فهذه صناعة لا شك أني أحسها ، وأنك تحسها ، هينة أستطيعها وتستطيعها بدون عناء كبير أو سابق دراية ، وكيف لا تتراءى كذلك وهي لَبِنَة (طوبة) توضع من فوق لبنة أو لِصْقَها ، يفصل بينهما البنّاء بشيء من الملاط يفرشه بحديدته فرشاً هيناً ليناً ، غرتني بساطتها بممارستها يوماً فعرفت كيف يخدع العمل الذي يجري بسيطاً في يد الرجل الحاذق ، وعلى مقدار حذق من

نرى من البنائين ، فقد كشف العلم حديثاً أنهم ليسوا من الحذق بحيث نضعهم ، ولا هم بلغوا من الاقتصاد في مجهودهم كل الكفاية أو بعضها .

وقف العلم على هؤلاء البنائين يتفحص، ماذا يصنعون ، ووقف عليهم والمصوّرة في يده ، ثم أخذ يرسم لحركاتهم وسكناتهم في أثناء البناء صوراً من وجوه عدة . ثم أخذ من الصور يحلل تلك الحركات ، ويدرس ما يشترك فيها من عضلات ، ويحدد علاقة هذا بالغاية التي هي البناء . فوجد أن هؤلاء البنائين المهرة يتحركون في البناء خمس عشرة حركة ، وقد كفاهم لو عرفوا أن يتحركوا ستاً ، فتسع من هذه الحركات كانت تؤدى عبثاً ، وطبق العلم هذا على العمال فخرج بنتيجة غاية فى الإبداع : كان متوسط ما يبنيه الرجل من اللبنات فى الساعة ١٢٠ لبنة ، فاستطاع أن يبني فى الساعة ما يقارب ثلاثة أضعاف ذلك ، استطاع أن يبني ٣٥٠ لبنة ، وبأي مجهود أتموا هذا ؟ بمجهودهم الأول الذي أنتج ١٢٠ لبنة .

ووقف العلم على رؤوس الحمالين يتفحص مايصنعون ، فكانوا يعملون في مصنع للحديد فيحملون قطعه أشكالاً واحدة متساوية من حيث تجمعت في المخازن إلى العربات ، وفحص العلم حركاتهم في كل هـذا فاختصرها وأصلحها وسوّاها ، وقطع عليهم العمل بأوقات قصيرة للفراغ كالتي أوصت بها تجارب العلم في العضلات . فهل تدري كم ارتفع إنتاج هؤلاء الرجال ؟ ارتفع فوق الثلاثة الأضعاف .

وإليك بعض ما وجد هذا العالم الباحث الذي أحكي عنه :

كان عدد الحمالين فى حوش المصنع يتراوح ما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ رجل ، فنقص بهذا التجويد العلمي فصار ١٤٠ رجلا .

وكان متوسط ما يحمل العامل فى اليوم ١٦ طنا فزاد حتى بلغ ٥٩ طنا .

وكان متوسط ما يكسب الرجل في اليوم ١,١٥ ريالا فزاد فبلغ ١,٨٨ ريالا .

وكانت كلفة حمل الطن ٠,٠٧٢ ريالا فنقصت إلى ٠,٠٣٣ ريالا .

وبلغ ما اقتصده المصنع بتقبل هذه الطريقة العلمية في العام ٣٦٠٠٠ ريال .

فترى من هذا أن هـذا التدخل العلمي كان خيره عاما شاملا . شمل العمال وأرباب الأعمال ، وشمل الجمهور بإرخاص بضاعة ستؤول إليه أخيراً .

وقد ذكرت فيما سبق شيئاً عن تجارب العلم في العضلات ، فهذا فى حاجة إلى قليل من الإطناب ، لأنه العامل الأكبر فيما أتت به تلك الرقابة العلمية من خير .

وتتلخص هذه التجارب في الإجابة على السؤال الآتي : أيهما أفعل وأكثر إنتاجا ،

عمل طويل تعقبه راحة طويلة ، أم عمل قصير متقطع تتخلله أوقات للراحة كثيرة ؟

وقد كان الجواب المؤكد أن الراحة القليلة المتقطعة الكثيرة أفعل ، وأفعل كثيراً ، وهى أحنى على الرجل وأحفظ لكيانه .

وكان جواباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه جواب العضل الذى يعمل ، وجواب الأجهزة العلمية التي تقيس العمل وتقيس الإجهاد الذي ينتجه العمل .

وقد وجدوا فيما وجدوا أن عضلة رفعت ثقلا قدره خمسة كيلوجرامات مسافة معلومة مرة واحدة كل ثانيتين ، ثم أعادت رفعه ، ثم أعادت ، حتى بلغ رفعها إياه ثلاثين مرة ، وعندئذ نالها الإعياء كاملا وعجزت أن تفعل شيئاً ، وعندئذ كان لابد لانتعاشها مرة أخرى من راحة ساعتين كاملتين ، عادت بعدها سيرتها الأولى ، وعادت ترفع الثقل من جديد ، فوقفوها قبل أن يبلغ الإجهاد منتهاه ، وقفوها عند ما رفعت الثقل خمس عشرة مرة ، أي بُعد أن عملت نصف عملها الأول ، فكان المنتظر أن يكون إجهادها قد بلغ النصف ، ولكنهم وجدوا أن إجهادها لم يبلغ غير الربع ، ولما أراحوها عادت إلى انتعاشها الأول بعد نصف ساعة .

وهكذا ، كما قصروا فترات العمل قللوا من الأجهاد تقليلا كبيراً لايتناسب مطلقاً مع تقصير العمل ، فلم يبق بعد ذلك إلا أن يحسبوا كم يعمل الرجل وكم يستريح ، ثم كم يعمل بعد ذلك ويستريح ، وبلغوا من ترتيب تلك الفترات أنهم أنشؤوا نظاماً يتلاحق فيه العمل والراحة ولا يكاد يجهد أبداً ، ويخرج منه العامل آخر النهار مستقيم الظهر ، قوي الخطو ، قارّ الفؤاد ، هذا مع زيادة كبيرة في الإنتاج ، وتقصير في ساعات العمل من جراء ذلك .

ولقد طبق علماؤنا هذا النظام ، فيما طبقوا ، في مصنع ينتج المناديل ، وكان في المصنع بنات تطبق المناديل ، وتطبقها باستمرار ، فجعلوهن يشتغلن في تطبيقها خمس دقائق ، ويسترحن دقيقة واحدة ، ثم يشتغلن خمساً أخرى ، ويسترحن واحدة ، وهلم جرّا . فهل تعلم كم زاد الإنتاج ؟ زاد ثلاثة أضعاف ، والبنات يخرجن من بعد هذا في عافية .

فهذا بعض ما أسدى العلم إلى العامل لتخفيف أعبائه ، أسداه في بلاد الغرب ، فليت شعري متى يسدي العلم مثله إلى العامل في بلاد الشرق ، حتى إذا أنا زرت ساحل الغلال من بعد ذلك وجدت الظهور أقل تقوساً ، والعيون أقل تغوراً ، واللحوم الإنسانية أقل جفافاً وتجلداً مما أكدّها العمل المرهق الغاشم ؟

أحمد زكى

جوهر الفنون الإسلامية

الدكتور زكي محمد حسن الأستاذ المساعد بكلية الآداب

١

كان الجزء الأكبر من العالم المتمدن المعروف في بداية القرن السابع الميلادي يخضع لدولتين عظيمتين : الدولة البيزنطية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، والدولة الساسانية في الشرق الأوسط . ثم وحّد الإسلام كلمة العرب وجمع شملهم ، فأفلحوا في القضاء على الدولة الساسانية وفي الاستيلاء على مستعمرات الدولة البيزنطية ، وشيدوا لأنفسهم إمبراطورية مترامية الأطراف ، امتدت من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الوسطى والبحر الأسود وجبال البرانس شمالا إلى صحارى السودان والمحيط الهندي جنوباً .

وقد كان للعرب في الجاهلية القدح المعلى في فنون الشعر والخطابة وأساليب القتال ؛ ولكن طبيعة بلادهم ، وحياة البداوة السائدة في معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية ، كل ذلك منعهم من أن يصيبوا قسطاً يستحق الذكر من فنون العمارة والنحت والتصوير ، اللهم إلا في أطراف شبه الجزيرة وأقسامها المتاخمة لإيران وأرض بيزنطة أو التي تربطها بالبلاد الأجنبية صلة تجارية وثيقة ، ومهما يكن من شيء فإن الأساليب الفنية التي عرفها العرب في اليمن أو بادية الشام أو بلاد النبط كانت متأثرة أشد التأثر بالفنون الإيرانية والهلينية . ولم تكن للصانع في المجتمع العربي الجاهلي مكانة اجتماعية يغبط عليها .

إذن لم تكن للعرب في فنون البناء والنحت والتصوير والزخرفة أساليب خاصة بهم ؛ ولكن قامت على أكتاف العرب إمبراطورية واسعة الأرجاء ودخلت في الدولة الإسلامية شعوب أخرى ، وبرز إلى الوجود فن إسلامي على أساس الفنون الساسانية والهلينية والقبطية والرومانية وفنون الهند والصين وآسيا الوسطى ، وما إلى ذلك من الأساليب الفنية المحلية التي كانت زاهرة في الأقاليم التي امتد إليها سلطان المسلمين .

وهكذا نشأت في الدولة الإسلامية مدارس أو طرز فنية ؛ كانت تختلف باختلاف الإقليم ، ولكنها تشترك في خصائصها العامة . وتطورت هذه الطرز الفنية برعاية المسلمين ، وظلت طرزاً مختلفة من فن إسلامي عام يسهل تمييزه عن سائر الفنون

غير الإسلامية ، سواء أكان ذلك في العمارة أم في التصوير أم في منتجات الفنون الزخرفية من خزف ونسيج وسجاد وخشب وعاج وزجاج وتحف معدنية .

وقد اختلف علماء الآثار الإسلامية في تحديد نصيب كل فن من الفنون القديمة في بناء الفن الإسلامي الجديد ، فذهب فريق إلى أن الفنون الهلينية والبيزنطية التي كانت سائدة في البحر الأبيض المتوسط عند ظهور الإسلام هي التي أمدت الفن الإسلامي بمعظم عناصره، بينما قال آخرون — وعلى رأسهم جوزيف ستريجوفسكي Joseph Strzygowski بأن قوام الفن الإسلامي أساليب فنية كانت تسود الهضبة الإيرانية عند ما هب المسلمون لفتح العالم المعروف في فجر الإسلام . وفي رأينا أن نظرية الفريق الأول صحيحة فيما يخص الطرز الفنية الإسلامية في حوض البحر الأبيض ، بينما تصدق نظرية الفريق الثاني على الطرز الإيرانية في الفن الإسلامي .

وعلى كل حال فإن المقام لا يتسع هنا لتفصيل الكلام في نشأة الفنون الإسلامية ، وحسبنا أن نشير إلى أن المسلمين ورثوا في الفنون الصناعية أي التطبيقية خير ماحذقته الأمم التي خضعت لسلطانهم أوالشعوب التي اعتنقت الإسلام ، فقد سار إلى الفنانين المسلمين ما عرفه الساسانيون من أسرار صناعة النسج الفاخر والتحف الفضية والذهبية وما اشتهر عند القبائل الرحّل من أساليب نسج السجاد والأكلمة وما أتقنته الشعوب التركية في آسيا الوسطى من صناعة التحف المعدنية ومانبغ فيه أهل الشام من صناعة الزجاج والخزف وما برز فيه قبط مصر من حفر الزخارف على الخشب .

وإذا كان العرب لم يحملوا معهم إلى البلاد التي فتحوها أساليب فنية خاصة بهم ، فقد كانت سياستهم الحكيمة في استخدام الفنيين الوطنيين خير عون على النهضة بالفن . أضف إلى ذلك أن تشجيع الفنيين والصنّاع من أهل الذمة وممن أقبلوا على اعتناق الإسلام ، ساعد على اختصار مرحلة الانتقال وعلى تطور الأساليب الفنية القديمة لترضي تعاليم المسلمين وأذواقهم ، ويسّر للعرب أنفسهم تعلم الصناعات الفنية . والمعروف أن الإغريق عندما امتد سلطانهم علَّموا أهل البلاد التي فتحوها كثيراً من الأساليب الفنية الإغريقية ، ولكن تعاون هؤلاء مع الإغريق أدَّى إلى انحطاط الفن الإغريقي وسقوطه ، بينما أدَّى مثل هذا التعاون بين العرب وأهل الأقاليم التي خضعت لهم إلى قيام الفن الإسلامي وازدهاره .

ولم يكن قيام الفنون الإسلامية على يد العرب — بعد أن كان الفن غريباً بينهم في الجاهلية — حادثاً فريداً في التاريخ ، فقد قامت المسيحية بين اليهود في فلسطين ، ولم

تكن لليهود أساليب فنية خاصة بهم . واحتضن الروم المسيحية وبرز إلى الوجود فن مسيحي لم يساهم اليهود فيه بشيء بل قام على أساس الفنون الهلينية .

✡ ✡ ✡

ازدهرت الفنون الإسلامية التي نحن بصددها — وهي فنون العمارة والتصوير والزخرفة — من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) إلى القرن الثاني عشر (الثامن عشر الميلادي) . وكان النذير بأفول نجمها تأثر الفنيين المسلمين بالأساليب الفنية الغربية، واستعمالهم بعض الوسائل الصناعية الأوربية، وإقبالهم على إنتاج كميات وافرة من التحف إنتاجاً رخيصاً لإغراق الأسواق وإرضاء السياح .

٢

وأول مميزات الفنون الإسلامية كراهية تصوير الكائنات الحية . ومما يتصل بهذه الكراهية ويسير معها جنباً إلى جنب أن العلاقة بين الدين الإسلامي وفنون الإسلام ليست وثيقة . فالإسلام لم يستخدم الفن في الطقوس الدينية أو نشر العقيدة الإسلامية كما استخدمته الأديان الأخرى ، ولا سيما ديانة قدماء المصريين والبوذية والمسيحية الكاثوليكية . والمعروف أن الفن يولد فى معظم الحالات في خدمة الدين ، فتماثيل الآلهة وصورها وأماكن العبادة وأدواتها كانت أهم مظاهر الفن منذ البداية . والفن المسيحي مثلا ساد فيه زهاء ألف وخمسمائة سنة تصوير الحوادث الدينية وتاريخ المسيحية وسيرة أبطالها . ولم يبدأ الفن المسيحي في التحرر من نفوذ الدين والإقبال على العناية بالطبيعة ومظاهرها والإنسان ومشاعره إلا ابتداءً من عصر النهضة في إيطاليا في القرن الخامس عشر الميلادي . وقد قيل إن الفن — ولا سيما في منتجاته العليا — تعبير عن فكرة دينية في الإنسان أو بواسطة الإنسان، وإن الدين والفن توأمان منذ البداية . ولكن هذا كله لا يصدق على الفن الإسلامي . حقاً إن المساجد من أهم مظاهر العمارة الإسلامية ، ولكن لم يكن لها فى الإسلام الشأن العظيم الذي كان للمعابد عند قدماء المصريين أو الإغريق أو البوذيين أو للكنائس في المسيحية ؛ فالمسلم يصلي أنى شاء، وليست للمساجد الجوّ الذي تشعر به في الكنائس ، ومساجد الإسلام لا تضم شيئاً من تماثيل الآلهة والقديسين أو اللوحات الفنية التي تسجل أحداث التاريخ الإسلامي . والمحراب في المسجد حنية تبين اتجاه مكة وليس فيه أيّ صورة أو تمثال ، والإمام فى الصلاة لا يرتدي الملابس ذات الألوان المتعددة والزخارف الفاخرة ، ولا يمسك هو وأعوانه بالمباخر والأدوات

الدينية التي يتجلى فيها جمال الفن ودقة الصناعة ، ولا ريب في أن هذا ناشىء عن كراهية التصوير وتجنب الترف عند المسلمين .

ولسنا نملك هنا أن نشرح بشيء من الإسهاب حكم التصوير في الإسلام ، فحسبنا أن نذكر أن القرآن الكريم لم يعرض له بشيء ، وأن كراهية التصوير عند المسلمين أساسها أحاديث تنسب إلى النبي عليه السلام . ويختلف المستشرقون في صحة هذه النسبة ؛ ففريق منهم يذهب إلى أن النبي لم يكره التصوير ولم ينه عنه ، وأن هذه الكراهية نشأت بين الفقهاء في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وأن الأحاديث المنسوبة إليه عليه السلام موضوعة ، ولا تعبر إلا عن الرأي السائد بين الفقهاء في العصر الذي جمع فيه الحديث ودوّن . ونحن نعتقد أن كراهية التصوير ترجع إلى عصر النبي وأن أساسها البعد من الوثنية وعبادة الأصنام ، والخوف من الرجوع إلى ما كان عليه معظم العرب في الجاهلية ، كما أن من أسبابها النفور من مضاهاة خلق الله ؛ وذلك فضلا عن كراهيه الترف في ذلك العصر الذي ساد فيه الزهد والتقشف والجهاد في سبيل الله . ولكننا لا نؤمن بتحريم التصوير تحريماً صريحاً ، لأنه ليس من المحرمات القطعية التحريم ، ولأن تلك الكراهية كان أساسها ، في رأينا ، الرغبة في إبعاد المسلمين عن عبادة الأصنام وعن الشرك بالله ، وغير معقول أن يقصد بها التحريم المطلق ، ولا سيما بعد أن يبعد عهد المسلمين بالوثنية ويثبت سلطانهم ويصبح للتصوير فوائد علمية لا سبيل إلى نكرانها . *

على أن الفنيين المسلمين في العصور الوسطى لم ينصرفوا عن تصوير الكائنات الحية انصرافا تاما ، ومع ذلك كله فإن كراهية هذا التصوير كان لها تأثير بعيد المدى في جوهر الفنون الإسلامية .

ولعل أولى مظاهر هذا التأثير أن الفنون الإسلامية لم تظهر فيها عبقرية النحات ، فالتماثيل التجسيمية نادرة عند المسلمين . وفضلا عن ذلك فإن تصوير اللوحات الفنية المستقلة كما عرفه الغربيون غير مألوف في البلاد الإسلامية قبل اختلاطها بالأمم الأوربية وتأثرها بفنونها . وإنما ازدهر عند المسلمين — ولا سيما في إيران والهند وتركيا —

---

* راجع في حكم التصوير في الإسلام كتابنا « الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي » ص ٧٤ — ٨٣ ومقالنا « الصور والنقوش والتماثيل في الأضرحة والمساجد » (في العدد ٩٠ من مجلة الثقافة) وتعليقاتنا على كتاب « التصوير عند العرب » لأحمد تيمور باشا ص ١١٨ — ١٢٩ وبحثنا The Attitude of Islam Towards Mainting (Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad 1 University, vol. VII, July 1944) pp. 1—15.



شكل ١ : مجنون ليلى في الصحراء

في مخطوط إيراني من المنظومات « الخمسة » لنظامي ، من صناعة تبريز ، وتاريخه من ٩٤٦ إلى ٩٤٩هـ (١٥٣٩ — ١٥٤٣ م) وهو محفوظ في المتحف البريطاني .



شكل ٢ : صحن من الخزف ذي البريق المعدني — من صناعة مصر في القرن الخامس الهجري (١١م) — في مجموعة الدكتور علي باشا إبرهيم .

توضيح الكتب بالصور (انظر الشكل ١) . ولكن الفني لم يفلح في نقل الطبيعة ومحاكاتها في هذه الصور ،



شكل ٣ : غطاء سرج من المخمل المصنوع في بروسة بتركيا في القرن العاشر الهجري (١٦ م)

ولم يصب قسطا وافراً من النجاح في هذا الصدد حين استعمل رسوم الحيوان والنبات في سائر ميادين الفنون (انظر الشكلين ٢ و ٣) فالحق أن الفنيين المسلمين انصرفوا إلى إتقان أنواع من الزخرفة بعيدة عن تجسيم الطبيعة الحية أو تصويرها فأبدعوا في الرسوم الهندسية واتخذوا من العناصر النباتية زخارف جردوها عن أصولها الطبيعية وأسرفوا في استعمالها حتى أصبح بعض أنواعها يعرف عند الإفرنج باسم « أرابسك » أي الزخارف العربية . وكذلك

عني الفنون المسلمون بحسن الخط ، واتخذوا من الكتابة ضروباً من الزخارف أصبحت من أظهر مميزات الفنون الإسلامية على الإطلاق (انظر الشكل ٤) .

وهكذا نرى أن الفنون الإسلامية لم تعرف في تصوير الكائنات الحية تطوراً طبيعياً وسيراً في سبيل الإتقان وحسن تقليد الطبيعة. فظل المصورون المسلمون جامدين ومقيدين بأساليبهم القديمة ، يرمزون إلى الطبيعة وكأنهم لا يجسرون على تقليدها تقليداً أميناً ، خشية أن يكون في ذلك محاكاة لقدرة الخالق عزوجل؛ فلم يصل معظمهم إلى المرحلة التي عرفها التصوير الإيطالي على يد جيوتو Giotto ،حين خف تأثير الفن البيزنطي وبدأ المصور الايطالي في العناية بالطبيعة والبعد عن التكلف، وعمل على احترام التطور والتشريح، وأصاب توفيقاً نسبياً في التعبير عن العواطف .

شكل ٤ : صورة شمعدان من النحاس عليه تطعيم بالفضة والذهب - من صناعة إيران أو العراق في القرن السابع الهجري (١٣ م) .

فالحق أن أوضح ما نلاحظه في الصور الإسلامية بوجه عام أن قوانين المنظور غير محترمة ، وأن الصورة مكونة في مستوى واحد ، وأن الفني لا يعنى برسم أجزاء الجسم رسماً يحترم فيه الطبيعة وعلم التشريح ، ولا يكترث لتوزيع الضوء وبيان الظل، وإنما يفرط في توزيع الألوان التي تكسب الصورة حياة أخرى وبريقاً بديعاً وألواناً سحرية عجيبة ، أو يخترقها أو ينشأ منها ، ومنظر الحديقة الغناء يجاوره منظر الصحراء القاحلة ، وبين

بدون أن يكون فيها اختلاف أو تدرج أو توزيع . كل ذلك جعل الصور الإسلامية لا تبدو مجسمة ، وذلك لأن الفني لم يستطع أن يكسبها عمقاً إلى جانب طولها وعرضها ، ولم يفلح في أن يكسب مناظرها شيئاً من الحركة والحياة .

٣

ومن نتائج كراهية تصوير الكائنات الحية في الإسلام أن طغى على الصور الإسلامية سحر خاص وخيال واسع وثروة زخرفية عظيمة؛ ولكن أعوزها التكوين الباعث على التفكير والألوان المملوءة بالمعاني والمغزى في بيان نعيم الحياة وآلامها . فغلب عليها الطابع الزخرفي وبزّتها اللوحات الفنية الأوربية في النضوج والقدرة على التعبير عن الجمال الروحي في الحياة والطبيعة وعلى تصوير التضحيات البشرية في سبيل الدين والوطن والمثل العليا✲. وحسبك لتفهم هذا الفرق الكبير بين التصوير الإسلامي والتصوير الغربي أن تجول في قاعات معرض للوحات الفنية الغربية وأن ترى كيف يستطيع الفني العبقري أن يبعث إلى أعماق نفسك الشعور بحنان الأمومة أو بعظم التضحية في سبيل المبدأ أو بهول العواصف في البر أو البحر أو بجمال الطبيعة عند الغروب أو بغير ذلك من ألوان العواطف والانفعالات . إنك تتبين حينئذ أن الفنيين المسلمين لم يصوروا الكائنات الحية وإنما كانوا يتخذون منها موضوعات زخرفية .

وأدى ذلك إلى أن ذاتية الفنيّ لا تظهر في الفنون الإسلامية ، فإن الفني المسلم لم يعبر عن مشاعره ولم يصور الطبيعة بأسلوب خاص يميزه عن غيره من زملائه الفنيين المسلمين . أجل ، إننا قد نشعر أن أحد الفنيين في الإسلام أصاب جانباً كبيراً من المهارة في إتقان الرسم والزخرفة ، ولكن قل أن نكشف أنه ابتدع شيئاً جديداً أو أعطانا شيئاً من صميم نفسه ومن روحه والوسط الذي يعيش فيه والبيئة التي تأثر بها والتجارب التي مرت به في الحياة . ولذا لا نرى للفنيّ عند المسلمين الشأن العظيم الذي كان للفني في الغرب ، بل إن الفنيين المسلمين لم يفتنوا في معظم الأحيان بمنتجاتهم من ناحية الجدة والإبداع، فلم يعنوا بتسجيل أسمائهم على التحف إلا في الأقل النادر . ولذا كانت معظم التحف مجهولة الصانع ولم يكن في طبيعتها ما يبعث الشوق إلى معرفته ، بل إننا حين نعجب بهذه

✲ نلاحظ هنا أن تأليه بعض أصحاب الأديان الأخرى وطبيعة معجزاتهم أكسب الفنيين مادة خصبة للتصوير في حين أن الإسلام واضح فيه أن محمداً عليه السلام بشر كسائر المؤمنين فلم تكن سيرته مصدر الوحي للفنيين المسلمين كما كانت سيرة السيد المسيح والقديسين لأهل الفن المسيحي .

التحف قلّما نفكر في صانعها أو نعثر فيها على ما ينمّ عن أولئك الصنّاع ، وإنما نستطيع أن نعرف البلد الذي تنسب إليه الصورة أو التحفة ، فضلا عن العصر الذي ترجع إليه . وليس غريباً إذن أن كانت تراجم الفنيين في الإسلام نادرة، على الرغم من كثرة التراجم التي جمعت لغيرهم من الطوائف . فقد نعرف اسم فنيّ من الفنيين المسلمين ولكنا لا نجد عنه في كتب الطبقات ما يعيننا على دراسة نشاطه الفني وتفهم بيئته والعوامل التي أثرت في فنه .

ولا ريب في أن السبب الأساسي في اختفاء شخصية الفني في الإسلام هو كراهية تصوير الكائنات الحية* ، لأن هذا التصوير هو الميدان الذي يمكن أن يظهر فيه اختلاف شخصية الفنيين وأساليبهم الفنية . والواقع أننا إذا جردنا الفنون الأوربية من تصوير الكائنات الحية أو جعلناه فيها حسب تقاليد فنية بدائية واصطلاحية ، اختفت شخصية معظم الفنيين الغربيين .

بيد أن بعض مؤرخي الفنون فسّروا اختفاء شخصية الفنيّ في الإسلام بغلبة البداوة في العالم الإسلامي ؛ وقالوا إن معيشة البدو لا يبنون فيها على الماضي ولا يحفلون بالمستقبل ولا يكاد يمتاز فيها مخلوق عن مخلوق آخر، وإنما العزة لله ولا مفر لكل امرىء مما قدر له. ولكنا لا نقر هذا التفسير ، وحسبنا اعتراضاً عليه أن البداوة لم تغلب على الحياة في العالم الإسلامي في العصور الوسطى ، فقد ازدهرت فيه مدن بذّت في حضارتها المدن الأوربية المعروفة في ذلك الوقت . وفضلا عن ذلك فإن البداوة لا تنفي الميل إلى الفخر بالإنتاج الشخصي .

٤

ومن نتائج كراهية تصوير الكائنات الحية في الإسلام أن انصرف الفنيون المسلمون عن استعمال الزخارف البارزة ، فغلبت على الفنون الإسلامية ، زخارف مسطحة أو ذات بروز قليل . وذلك لأن الزخارف الظاهرة البروز تتألف عادة من رسوم الكائنات الحية على نحو ما ترى في وجهات المعابد اليونانية .

ومن نتائجها أيضاً أن أصبحت الفنون الإسلامية ممثلة في الزخارف ومنتجات الفنون الصناعية أو التطبيقية ، فنجد في فنون الغرب عمارة وتصويراً كبيراً ونحتاً . وتتجلى

* نستطيع أن نضيف إلى ذلك حرص أصحاب العمائر أو التحف على أن تنسب إليهم وعلى ألا يظهر اسم الفني فيطغى على ما لهم من الفضل والذكر .

في التصوير الكبير والنحت فكرة الفن للفن ، ولكننا لا نجد في الفنون الإسلامية إلا العمارة ثم الفنون الزخرفية مستعملة في حاجيات الإنسان كالمنسوجات والخزف والزجاج والأواني المعدنية وما إلى ذلك . بمعنى أن الفنون التطبيقية أو الفنون الصناعية والزخرفية لها شأن عظيم في فنون الإسلام ، لأن الزخرفة طابع الفنون الإسلامية كلها ، ولأن هذه الفنون التطبيقية لا ينافسها نحت أو تصوير ، بل نراها تغزو ميدان العمارة نفسه ، حين تطغى الرسوم الجصية أو لوحات الخزف القاشاني على جدران البناء فتبدو كأنها عنصر رئيسي فيه وتحول الفكر عن سائر مميزاته الفنية المعمارية . (انظر الشكلين ٥ و٦).

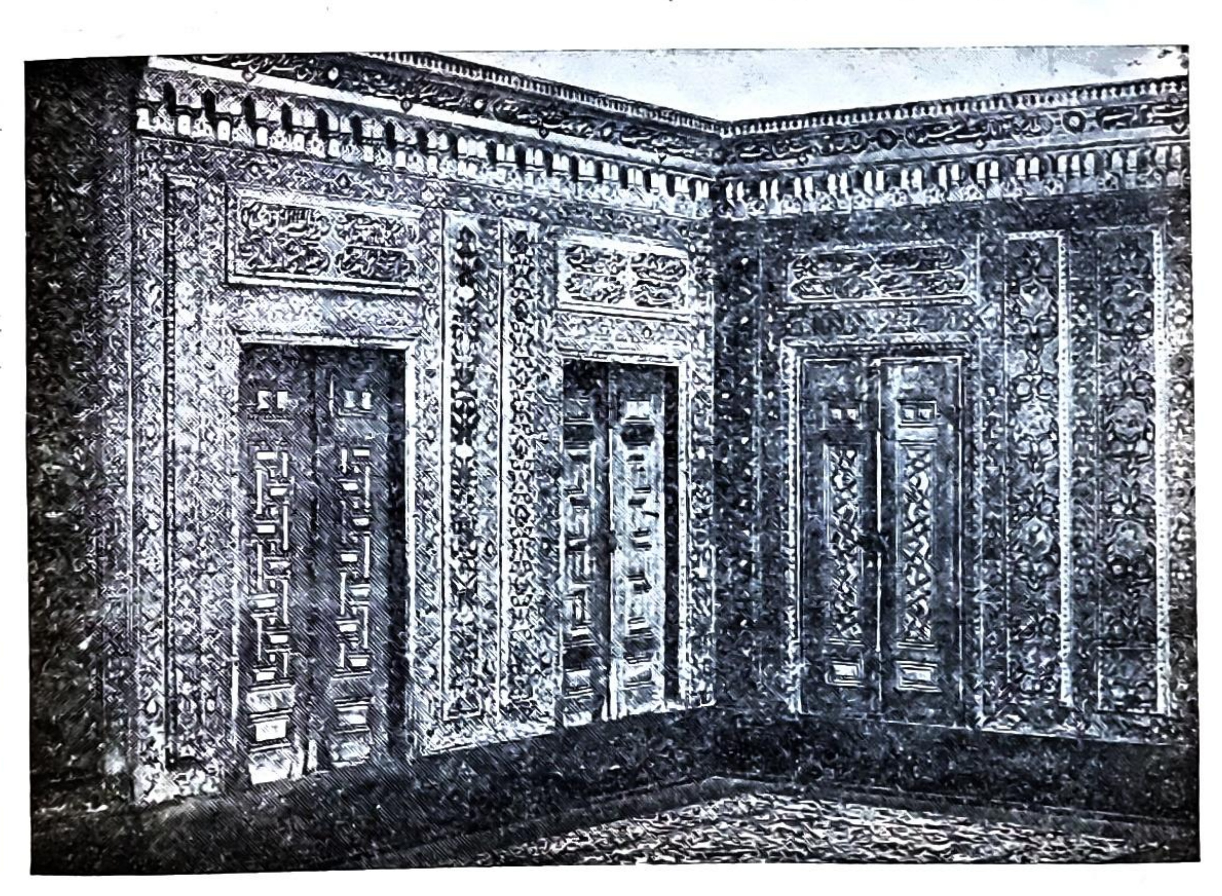
شكل ٥ : منظر شرفة في برج الأسيرة بقصر الحمراء نحو القرن الثامن الهجري (١٤ م)

وقد حدث في كثير من الأحيان أن كان الفني في الإسلام يتأنق ويبدع في اختيار أشكال الآنية والتحف التي تستخدم في الحاجيات اليومية ، فيتخذ المبخرة أو الإبريق الخزفي أو غطاء الإناء على هيئة حيوان أو طائر ، ولكنه

لم يقصد تمثال الحيوان أو الطائر لذاته ، ولم يعن بصدق محاكاة الطبيعة فيه فضلا ، عن أنه عمل على تغطيته بالرسوم والنقوش .

✡✡✡

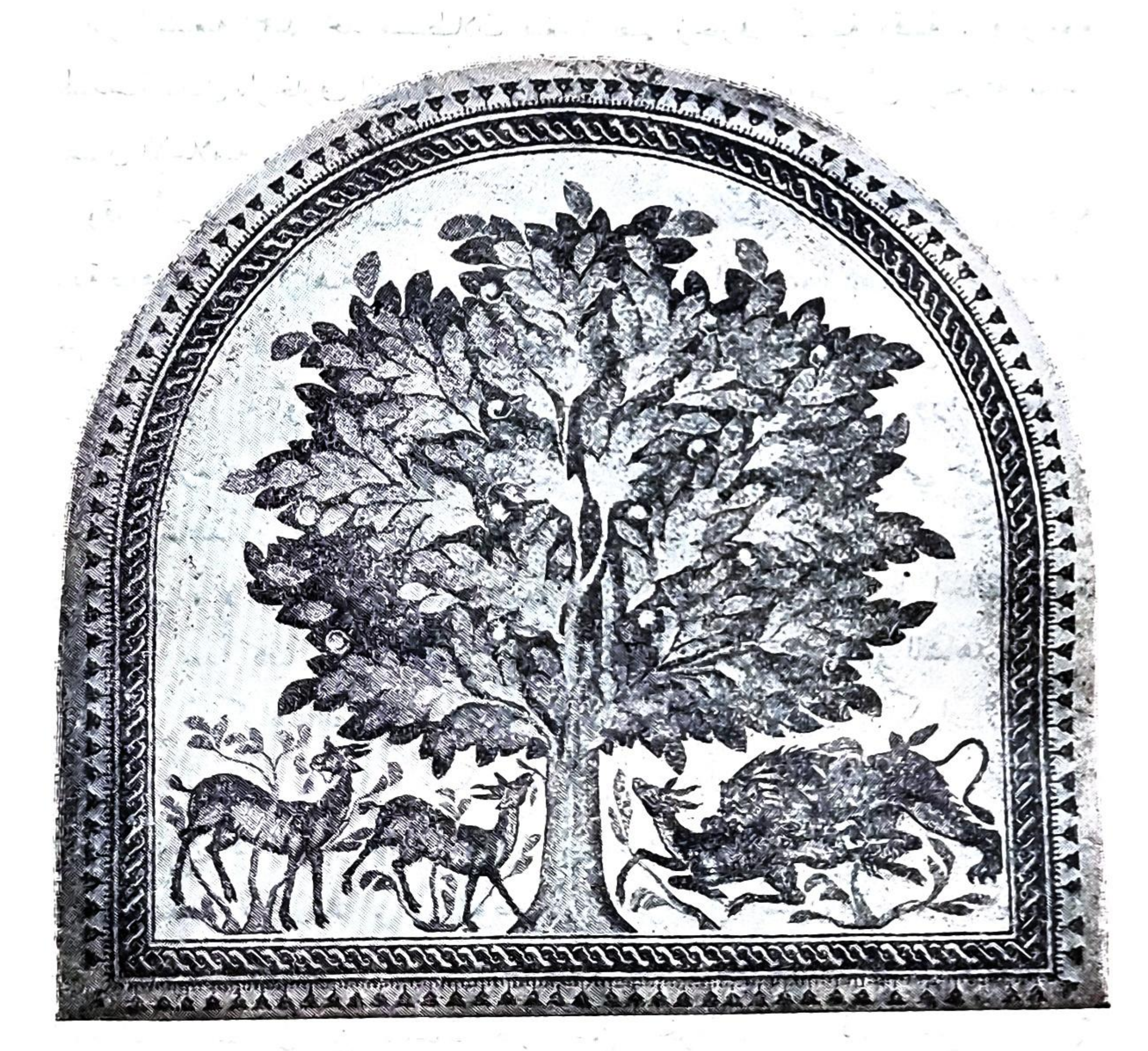
وللفنيين المسلمين أساليب خاصة في استعمال الألوان . فهي عندهم لا تتدرج ولا تتجمع حول مركز مشترك ، ولكن فيها من التباين والتنافر والشذوذ ما لا نراه في الفنون الأوربية إلا بعد أن طغت عليها التيارات الحديثة ؛ وكثير من هذه المدارس الجديدة متأثر بالأساليب الفنية الشرقية بوجه عام .



شكل ٦ : ركن من قاعة منقوشة من صناعة حلب (سنة ١٦٠٣ م)

والحق أن حدة الألوان في المنتجات الفنية الإسلامية تشعرنا بالتقابل بين الضوء والظلمة، ولكننا لا نظفر بالتدرج والغنى في تنويع درجات الألوان . فالفنيّ المسلم قد يصل فى صوره وتحفه إلى استعمال ألوان رئيسية تعدّ على أصابع اليد الواحدة أو اليدين ؛ ولكنه قلما يجاوز هذا الحد ليصيب توفيقاً بيّنا في إظهار عدد كبير من الألوان بدرجاتها المختلفة والفروق الدقيقة بينها .

بيد أن مهرة الفنيين المسلمين نجحوا في تخفيف الشذوذ والتنافر في الألوان بتصغير



شكل ٧ : فسيفساء كشفتها دائرة الآثار الفلسطينية من أطلال قصر هشام بخربة المفجر قرب أريحا

المساحات الملونة وتكرارها ، فنرى حينئذ كيف تتجاور الألوان غير المتقاربة في هدوء وبهاء ، بعد أن خفف من حدتها وضعها في أشكال هندسية صغيرة أو وحدات موزعة في أسطح كبيرة ذات ألوان أخرى .

٭٭٭

ولا تفوتنا الإشارة إلى صفة ظاهرة في الفنون الإسلامية ولا سيما في معظم صور المخطوطات . وقد يصعب أن نجد في المعاجم اللغوية كلمة واحدة للتعبير عنها ؛ فإن قوام هذه الصفة أن الوحدة والتماسك غير تامّين في الصورة ، وأن الاشتراك بين الأشياء الثانوية فيها غير طبيعي أو منطقي ؛ مما يجعل الصورة تبدو كأنها قطعة من الفسيفساء أو الزخرفة المطعمة . فالخطوط متداخلة ، والألوان متنافرة ، وبعض الأشكال يحجب البعض الآخر

المناظر الطبيعية الجميلة تجد مستطيلات صغيرة تضم زخارف كتابية دقيقة ، والرسوم الهندسية تتصل بالزخارف النباتية . كل ذلك يؤيد ما نذهب إليه من أن الزخرفة أساس الفنون الإسلامية .

وقد أسرف الفنيون المسلمون في استعمال الزخارف حتى أكسبوا منتجاتهم الفنية صفة ظاهرة : هي كراهية الفراغ ، أو الفزع من الفراغ Horror vacui كما يعبرون عنها باللاتينية . ذلك أن الفنيّ المسلم يعمل على تغطية المساحات والسطوح وينفر من تركها بدون زينة أو زخرفة ، ولا يؤمن باختصار الزخرفة أو السعي وراء إظهارها بإيجاد « حرم » لها . والحق أن هذا الميل لايزال قائماً في المجتمع الإسلامي حتى اليوم . وحسبك شاهداً أن ترى كيف تزدحم جدران القاعات بالصور ازدحاما يجحف بحق كل واحدة منها ، إذ أن كثيراً من الناس لايدركون أن الصورة التي تعلق على الحائط بعيدة عن غيرها بعداً كافياً ، تبدو محاسنها ويزيد رونقها وتكون محط أنظار المشاهدين .

وطبيعي أن كراهية الفراغ عند الفنيين المسلمين دعتهم إلى الإقبال على تكرار الزخارف تكراراً وصفه بعض الغربيين بأنه تكرار « لا نهائي » وأرادوا أن يلتمسوا له التفسيرات في روح الدين الإسلامي وطبيعة الصحراء التي نشأ فيها العرب ، ولكن الحق أن مثل هذه التفسيرات لا محل لها ، فإن الموضوعات الزخرفية في الفنون الأخرى تتكرر إلى حدّ ما . والسبب في إفراط الفنون الإسلامية في هذا الميدان هو طبيعتها الزخرفية ، ثم نفور الفنيين المسلمين من المساحات العارية عن الزخرفة . ذلك فضلا عن أن الفنيّ المسلم لم يُعن بتركيز الزخرفة حول موضوع رئيسيّ ؛ ولكنه جعل قوامها سلسلة متصلة من الرسوم المكررة .

* * *

بقي أن نختم هذا المقال بالإشارة إلى طموح الفنيّ أو الصانع في الإسلام إلى الكمال الفني واستهانته بالزمن والجهود اللازمين في هذا السبيل . ولا عجب ، فإن المعيار الأساسي في الحكم على معظم الآثار الفنية الإسلامية هو النظر دون الفكر ، فليس غريباً أن تعمل فنون الإسلام على أن تكسب في ميدان الزخرفة ما فاتها بعضه في ميدان التأليف .

زكي محمد حسن

فِكْرَةُ السَّلَامِ عِنْدَ الفَارَابِي وَرُوسو وكَانْت

للأستاذ أحمد خاكي ناظر المدرسة الثانوية ببورسعيد

ليست فكرة السلم جديدة على المفكرين الذين يقومون الآن بالتجربة العالمية ، لأن السلم كان فكرة محببة إلى النفس منذ بدء الفلسفة السياسية . وإذا حاولنا أن ندرك شيئاً من التفكير المعنوي في أصول السلام رأينا أن فكرة السلام العالمي كانت من بين ما فكر فيه كل فيلسوف وكل شاعر في الشرق أو في الغرب . وحسبنا في هذا المقال بعض اللمحات فيما ذهب إليه فلاسفة ثلاثة نحسب أنهم يمثلون عندنا فلسفة السلام : أحدهم فيلسوف مسلم هو الفارابي ، وثانيهم روسو Rousseau ، وثالثهم كانت Kant .

وقد انقسم الفلاسفة من حيث فكرة السلام إلى فريقين : فكان الأولون يكتبون قصصاً خيالية عن العالم حين يبلغ غاية التقدم ، وكان الآخرون يترسمون خططاً عملية لحسم النزاع بين الدول . وهذان النوعان من الفلاسفة هم الذين أوجدوا مبدأ الفكرتين اللتين ما زالتا تجدان إيماناً عند الكثير حتى في الزمن الحاضر . الأولون هم الذين أيدوا عنصر الثقافة فكتبوا كتباً عن «اليوتوبيا» أو المدائن الفاضلة ، ومن هؤلاء أفلاطون والفارابي وتوماس مور ، والآخرون هم الذين حاولوا أن يبتدعوا مشاريع يحاولون أن يضعوا بها حداً للحرب ، ومن هؤلاء صلي وروسو وكانت .

* * *

والفارابي يمثل عندنا الفريق الأول. وقد عاش في القرن الرابع الهجري ، ونقل الفلسفة السياسية والاجتماعية عن أفلاطون وأرسطو، واستوطن بغداد ومات بدمشق سنة ٣٣٩هـ وله رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة ، يقرر فيها ما قرره أرسطو من قبل ، من أن الإنسان حيوان سياسي وأنه محتاج إلى الإجتماع بغيره حتى يدرك الكمال الذي هيأته له الفطرة الطبيعية . وتتدرج الجماعات عنده من جماعات أفرادها قليلة إلى جماعات إنسانية تشمل العالم جميعه . فعنده جماعة تسكن السكة وجماعة أخرى تسكن المحلة ، وجماعة ثالثة تسكن القرية فالمدينة ، ثم جماعة عظمى تسكن المعمورة . وهنا تبدو لنا فكرة

الإنسانية بما فيها جميعاً ، لأنه يرى أن لابد للعالم جميعه من أن يكوّن هذه الجماعة العظمى التي تدرجت صعداً من الجماعات الصغرى .

وهو يشبه أهل المدينة الفاضلة بالأعضاء من الجسد يتعاون أعضاؤها . وهذه الفكرة التي نقلها عن أفلاطون يدرسها دراسة دقيقة ويعتقد أنها لابد أن تؤدي إلى توازن بين أفراد المجتمع . فهو يقول في ذلك: « المدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم الحياة وعلى حفظها ، فكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى فكذلك الجماعة الإنسانية يجب أن تتكون من أفراد متفاوتين متفاضلين » . هناك على رأس الجماعة الإنسانية طائفة من الزعماء ، وهناك طبقات يكمل بعضها بعضاً ، وهناك قوى موزعة بنظام رتيب . وكذلك نرى أن الفارابي يصور لنفسه تلك الصورة المثالية من حياة قوم يعيشون في سلام يكمل بعضهم بعضاً كما يعيش الجسم الصحيح .

* * *

وثاني الفلاسفة الذين نريد أن ندرسهم الآن هو روسو . وقد كان جان جاك روسو فيلسوف القرن الثامن عشر، وله رأي خطير في فكرة السلام العام ، كان يرى أن القانون الذي يتحكم في علاقات الأفراد لم يصبح قانونا إلا بعد أن ارتكز على « إرادة عامة » أعلنها أفراد الجماعة . فينبغي أن تكون هناك إرادة عامة عالمية ليقوم القانون الدولي الذي يتحكم في علاقات الدول بعضها ببعض . فعنده أن تنظيم كل دولة يجب أن يصحبه تنظيم عام للدول جمعاء . أما الحالة التي وجد عليها الناس في عهده فقد كانت عنده وسطاً بين النظام الاجتماعي الكامل وبين حالة الفطرة الأولى . فهي حال لايتحكم فيها القانون ولا ترتكز على إرادة عالمية عامة .

فإذا أريد للعالم أن يتمتع بالسلام فينبغي أن توجد هذه الإرادة العالمية العامة التي تنتج القانون وسلطانه . وكان من رأي روسو أن الروابط الثقافية بين ممالك أوروبا كفيلة بأن تنتج هذه الإرادة العامة . ولأن تركيا لم تشترك في عصره في الثقافة الأوربية فقد رأى أنه لابد أن يقام صرح السلام العالمى من غير أن تشترك فيه تركيا . فاقترح أن ينشأ بين الدول الأوروبية عصبة ترغم الحكام على أن يعدلوا بين رعاياهم وأن يلتزموا خطة السلام ، وتلزم المحكومين والثائرين بالطاعة . ورأى روسو أن العلاقة بين أعضاء هذه العصبة يجب أن تكون تعاهدية تصدر قراراتها عن إرادة عامة تشيع في كل أعضائها.

وليس لعضو منها أن يتخلف ولا أن يخرج على العصبة . وفي هذا يسبق روسو عصبة الأمم بقرنين أو أكثر .

☆☆☆

على أن عصراً جديداً من التقدم قد بدأ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر حين أثمرت غراس العلم ، وحين ازدهر العلم في ذلك العصر لم يجد له حدوداً ولم يعترف بالحروب التي شنتها الحكومات بعضها على بعض ، وكان أهل العلم قد أشرفوا على دراسات تعتمد كل الاعتماد على تعاونهم جميعاً لا فرق بين إنجليزي وفرنسي . والإنسان عند هؤلاء كان خير دراسات الإنسان . وحين قامت الفلسفة الألمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت مشبعة بالفكرة الإنسانية ، وكانت تقوم على أن العلم كفيل بأن ينشر السلام .

كان كانت أكثر فلاسفة هذا العصر حدباً على فكرة التقدم والسلم ، وكان يرى أن الإنسان ينبغي أن لا يلقي قياده للغرائز الدنيا ، بل يجب أن يتخذ من عقله وعلمه هاديا ووازعا . وذهب إلى « أن كل نظام صالح لأمة من الأمم ينبغي أن يرتبط بمسألة القانون الذي يحكم الأمم جمعاء . وأن أحد هذين لا يستطاع حله دون أن يحل الآخر » . ويرى كانت أنه لا خلاص لهذا العالم إلا إذا صحت في أحلام الناس فكرة واضحة عن المدنية تنتشلهم من الوهدة التي ترد وا فيها حيث الحرب والفتنة والدمار .

يرى كانت أنه لا مخرج من هذه الحال إلا إذا تشبث المفكرون بنوع أصيل من التربية الروحية يبث فكرة السلم في كل أمة من الأمم ، وأن الأمم سوف يكون تقديرها في التاريخ رهيناً بما تقدمه في سبيل المبدإ العالمي وفي سبيل الإنسانية جميعاً . وهو يرى فوق ذلك «أن تطور الإنسان رهين بإحياء تلك القوة الإنسانية الخفية التي يختزنها كل فرد مثقف» وهذه الوجهة الفلسفية هي التي لا يزال يؤمن بها ويدعو إليها فلاسفة العصر الحاضر . فلا يزال فلاسفة السلم يدعون إلى ثقافة إنسانية عامة تزول معها حزازات الأفراد وأضغانهم .

وعالج كانت فكرة عصبة الأمم فيما عالجه ، ورأى أنه لا سبيل إلى قيام تلك العصبة حتى يكون كل عضو من أعضائها حكومة جمهورية — وهو يقصد بالحكومة الجمهورية أن تكون دستورية يمثل أفرادها أحسن تمثيل . لكنه ذهب إلى أنه ليس لأمة من الأمم أن تتدخل في شؤون أمة أخرى ، ولا يزال هذان الرأيان عندنا مشكلتين من مشاكل السياسة الدولية في الزمن الحاضر ، فإن اختلاف الحكومات في أشكالها وأغراضها كان سبباً في الإخفاق الذي حاق بعصبة الأمم الحديثة ، ثم إن فكرة التدخل هي التي اصطدمت

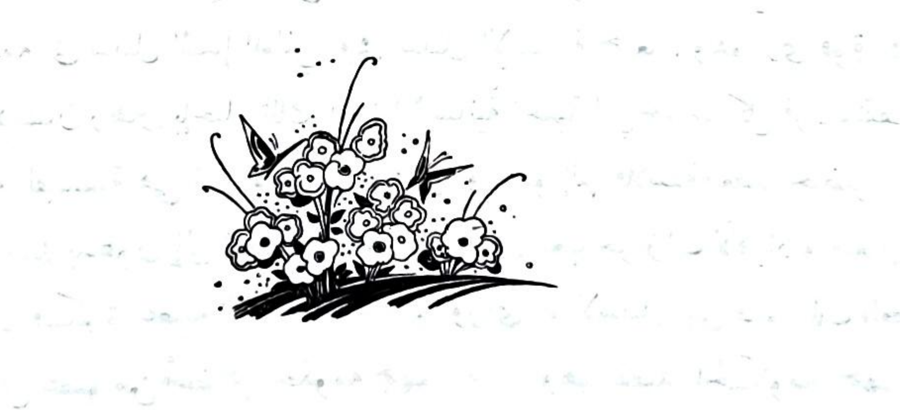
بمبدإ السيادة القومية ، فتحطمت عصبة الأمم ، وخرجت كل دولة قوية تدعي أنها وحدها الجديرة بالبقاء .

على أن كانت كان أقرب إلى قلوب الشرق من روسو ، فقد عالج العلاقة بين أوربا وبين الشرق . وذهب إلىأن مبدأ عدم التدخل ينبغي أن يسري على العلاقات التجارية التي بين أوربا وبين شعوب أفريقيا وآسيا . وقد ندد بالحكومات التجارية التي أفسدت الشرق من أجل مصالحها الخاصة ، وتنبأ بأن هذه السياسة سوف تدعو إلى كثير من الفظائع ، وأن استعمار الغرب للشرق سيكون وبالاً على الشرقيين .

***

تلك لمحات ثلاث في آراء ثلاثة من الفلاسفة . ألا ترى معي أن العالم اليوم لا يزال في حاجة إلى دراسة فلسفة السلام . وإذا كانت الحرب قد وضعت أوزارها ، فما أحرانا أن ندرس من جديد ما ذهب إليه الفارابي وما تحدث به روسو وكانت ، وما ابتدعه غيرهم من وسائل السلم . سمها قانوناً عاماً أو إرادة عامة أو ثقافة عالمية أو تربية أصلية أو غير ذلك من الأسماء ، فنحن ما زلنا في حاجة إلى تحقيق ما فكر فيه الفلاسفة منذ قرن أو قرنين بل منذ عشرة قرون .

أحمد فؤاد الأهواني



عالم المرأة

قال سليمان الحكيم : « من يجد المرأة الفاضلة؟ إن قيمتها فوق اللآلئ » . وشرقنا العربي لن يبلغ أوج الكمال إلا إذا اشتركت في جهاده المرأة الفاضلة تبني له الرجال وتنشئهم على فضيلتين : العلم والأخلاق. وإننا لنرجو أن يكون من وراء هذا الباب الذي نخصه بالمرأة وشؤونها ، ما يأخذ بيدها إلى عالم النور ويزود هذا الشرق بمن هن أغلى من الكنوز وأثمن من اللآلئ .

المرأة العربية في الجامعة العربية

لحضرة صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوي

إني أشكر لإدارة مجلة الكتاب الناشئة إفساحها مكاناً لي في باكورة أعدادها كما أشكرها على حسن اختيارها موضوع (المرأة العربية في الجامعة العربية) لأنها بهذا الاختيار قد فتحت للمرأة باب الجامعة العربية الذي ما زال موصداً أمامها رغم ما يدل عليه اسمها .

إن من يسمع بتأليف جامعة عربية يتبادر إلى ذهنه أنها تجمع بين أبناء العروبة رجالا ونساء دون تفرقة في الجنس أو المذهب ولا يظن أنها مقصورة على جنس دون آخر لأنها لم تسم (الجامعة العربية للرجال) ولا سيما إذا كان الدافع إلى تأليفها شعور قومي مشترك بين الرجل والمرأة قد تجلى في وحدة الشعور والتفكير والاتجاه بين رجال العروبة ونسائها في الثورات الوطنية والحركة العربية المباركة التي قامت للدفاع عن فلسطين في أواخر ١٩٣٨ حيث جاهد النساء مع الرجال جنباً إلى جنب وعقد الاتحاد النسائي المصري مؤتمراً نسائياً شرقياً للدفاع عن هذه القضية في نفس الوقت الذي دعا فيه سعادة محمد علي علوبه باشا رجال العروبة إلى عقد مؤتمر في سراي الجزيرة لنفس هذا الغرض ، وقد شهد كل من الفريقين مؤتمر الآخر — ولو أن مؤتمراً واحداً وحد بين صفوف المجاهدين والمجاهدات بدلا من هذين المؤتمرين لكان تأثيره أقوى ونفعه أعم . . . وما كان أحرى بفجيعة فلسطين من تأليف الصفوف جميعها وتوحيد كلمة البلاد العربية نساء ورجالا — ولكن التقاليد من ناحية أخرى هما اللتان حدتا من جهودنا وبخستا

من إنتاجنا فلم نصل متفرقين إلى النتيجة المنشودة التي كنا نستطيع إدراكها متجمعين. وكم كنا نود أن يلمس الرجال هذه الحقيقة التي لمسناها، ويذكروا مجد العرب الماضي الذي بني على أكتاف الرجال والنساء في صدر الإسلام فيقدروا الفائدة التي تعود على العروبة من تضافر الجنسين في ميدان الكفاح للمصلحة العامة.

وما دام الرجال لا يؤمنون حتى الآن بضرورة اشتراك الجنسين في الاضطلاع بأعباء الحياة، وحتى في الجامعة العربية التي تعالج مسائل العروبة من جميع الوجوه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية تلك المسائل التي لا تقتصر على الرجال فقط، بل للنساء وأولادهن النصيب الأكبر فيها، فإننا سنعمل بإيمان على إقناعهم بضرورة التعاون بين جامعتهم وجامعتنا، وذلك بتنسيق وسائل الاتصال بين الجامعتين بطلب تعيين أعضاء منا في مجلس الجامعة العربية لتوطيد أواصر الاتصال بيننا حتى تقضي الظروف بتكوين جامعة واحدة ولا أظن أن ذلك سيكون بعيداً ما دامت الدول العظمى التي ستبت في مصير العالم قد قررت وجوب اشتراك الجنسين في المؤتمر المقبل المزمع عقده لبناء دعائم العالم الجديد فعلى الرجل العربي أن يستعد لهذا التغيير ما دام يصبو إلى تبوأ مكانه بجوار مندوبي هذه الدول وعلى المرأة العربية أن تهيء نفسها لما يتطلبه منها مركزها الاجتماعي في النهضة الحديثة كي لا تبقى عالة على المجتمع أو رمية في يد الرجل يلهو بها.

وإذا راجعنا تاريخ النهضة الحديثة في الشرق في ربع القرن الأخير رأينا الأدوار الخطيرة التي لعبتها المرأة العربية في الحركة الوطنية بمصر سنة ١٩١٩ وفي جهاد فلسطين وفي ثورتي سوريا ولبنان في السنين الأخيرة — ويدهشني أشد الدهش أن يتقبل الرجل العربي بنفس راضية مساعدة المرأة له في الظروف الوعرة التي كانت فيها عرضة لفتك الأسلحة وهدر الكرامة والسجن والتعذيب والموت وغير ذلك، ثم يأبى عليها أن تشاركه في إدارة دفة الأمور المشتركة بينهما في نواحي الحياة التي تستلزم استثمار جهديهما فليس الكفاح في الحياة مقصوراً على الحرب دون السلم ولا سيما أنه قد فرضت على المرأة نفس الالتزامات المفروضة على الرجل نحو الوطن والمجتمع.

وإنه ليسرني أن أرى العالم أجمع يتطور ويشعر بضرورة اشتراك الجنسين في جميع شئون الحياة العامة وآمل أن يقتنع العالم العربي المتوثب بدوره بهذه الحقيقة الناصفة حتى يستطيع مسايرة الأمم في حياتها الجديدة والله ولي التوفيق ونعم النصير.

هدى شعراوى

الكلمة لها

للسيدة بنت الشاطىء

« . . . ولقد كانت مسألة المرأة التي هي دعامة المجتمع ، من بين مسائلنا الكبرى التي تناولها غير المختصين ، تناولا عامياً ساذجا ، أو منحرفاً خاطئاً ، فملئوا حياتنا بصور ممسوخة يزعمون أنها للأنثى وهي لا تعرفها بحال . . .

« وما كان يعنينا أن نطلب الكلمة للمرأة — صاحبة الشأن في هذا كله — وندعوها لتصحح تلك الفكر الخاطئة ، لولا أنها قد سببت توجيهات ضالة ، ضللت الفتاة وهزت أركان الأسرة المصرية ، فأفسدت من قرب وبقوة ، حياة الأمة جميعاً . . »

بنت الشاطىء

في تراثنا الأدبي صور شتى للمرأة ، رسمتها أقلام متباينة لكتّاب مختلفين ، ويحاول المحاول أن يجد من بينها صورة للأنوثه ، صادقة التعبير ، بيِّنة التقاطيع ، واضحة السمات ، تحمل ملامحها الخاصة ، وطابعها الأصيل ، فلا يجد — بعد الجهد الجاهد — إلا ما يمثل صورتها عند الرجل القائل ، وفكرته عنها ، وإن كان ما بينها وبين (الأصل) بعيداً . . .

ولئن كنا في حاجة إلى معرفة رأي الرجل في المرأة ، ومشاهدة صورتها لديه ، إن الحياة بعد لأحوج إلى معرفة صورة الأنثى كما تراها في نفسها ، وهذا مالايحسن الرجال أن يبرزوه إلا أن تكون لهم فطرة أنثى وعقلها ، وقلمها . . . وهيهات !

ولعل السبب في هذا النقص ، أن المرأة ظلت — في الشرق بوجه خاص — بمنأى عن الحياة العامة ، لا تستطيع — لأسباب مختلفة — أن تشارك في الإنتاج الأدبي ، أو تحدثنا عن نفسها ، أو تمدنا بشيء من الأدب النسوي الأصيل ، فراح الرجل يتحدث عنها ، ويتكلم بلسانها ويترجم عن ميولها ، ويعبر عن رغباتها ، ويصور عواطفها ويصف نوازعها وأهواءها ، ومضى في الوقت نفسه ، يقضي في أمرها ، ويحكم عليها ، وهي غافلة عن ذلك كله لا تدري ماذا يقال عنها أو يضاف إليها . . .

حتى إذا كانت النهضة الحديثة ، وأخرجت المرأة من دارها ، كان الرجل صاحب دعوة الخروج ، وكان له التوجيه وفي يده القياد ، فسار بها حيث شاء ، ثم راح يحاسب

ويؤاخذ، ويعترض، ويتهم، وهو هو الذي دعا ووجه وقاد... ولم يكن الرجال ليشعروا بأن المرأة في نظرهم شيء، وفي نظر نفسها شيء آخر، أو يدركوا أن ما تمثلوه فيها قد يكون بعيداً عن حقيقتها، غريباً عليها لا تجده في نفسها ولا تحس به في دنياها، لكنا نحن اللواتي وجدن أنفسهن، وبلغن من الثقافة والرشد والنضوج منزلة يستطعن فيها أن يدركن مشاعرهن ويميزن شخصيتهن، نحن نرجع البصر فيما كتب ويكتب عنا، فإذا أقله هذا الذي يمثل رأي الرجل فينا أكثر مما يمثلنا، وإذا الكثرة الكاثرة منه خليط مضحك من الهزل، والدجل، والادعاء...

وطال علينا الأمر ونحن نقلب بين أيدينا الصور التي رسمها الرجال لنا، فإذا هي — في الغالب الأعم — رسوم خاطئة منحرفة لا نعرفها بحال، وإن زعم أصحابها — في إدعاء عريض — أنها منا، ولنا...

وهذه هي، تملأ المكتبات عندنا، فليقل لنا قائل أين هي من عالم المرأة؟ وأين ما سجلته من عواطفها ونوازعها وهمومها؟ وأين ما حملته من شياتها وسماتها؟ وأين ما نقلته من ألوانها وظلالها؟

لا شيء من ذاك، وإنما هو العرض المكرر لمخلوقات ممسوخات، لسن من النساء ولا من الرجال، أو أخريات عابثات لاهيات، يلعبن بالرجل ويقضين العمر طالبات صيداً في إثر صيد!

* * *

ثم إن حياة المرأة قد تعرضت عندنا لحركات عنيفة، واستهدفت لتيارات قوية جارفة، وجدّت فيها أحداث طارئة غيّرت من أوضاعها، ووجهت سيرها فأين ما رصده الرجال من هذه الحركات، وأين ما صوروه من تلك التيارات، وأين ما وعوه من تاريخ هاتيك الأحداث؟؟

لا شيء من ذاك، وإنما هو الترديد المملول لقصة خطيئة حواء والصورة القديمة للشجرة والحية، والحديث المعاد عن ضعف الأنثى. وقصورها، وتلونها، وأنانيتها...

* * *

ثم هذه الحركة الانقلابية التي عانتها المرأة عندنا في الجيل الحاضر، ماذا وصف الرجال من خطواتها العنيفة الجامحة، وأين ما رسموه من أهدافها وبينوه من أخطائها، وأين ما رووه من حديث صرعاها وضحاياها؟ لا شيء من ذاك، وإنما هي الألفاظ المستحدثة الضخمة المبهمة، من حرية واستعباد، ومساواة وظلم، وانطلاق وأسر.

ويلتمس الملتمس أسباب هذا النقص في أدبنا، ويبحث الباحث عن مرجع ذلك الخطأ في إدراكنا الاجتماعي وتصويرنا للحياة، فإذا الأمر في ذلك — كما هو في شئوننا العامة جميعاً — يرجع إلى ما ابتلينا به من تحدث من لا يعرف بما لا يعرف. فكل إنسان

عندنا يرى من حقه أن يتكلم في كل شيء ، وتلك هي آفة هذا الشرق الذي جعلته يتخلف عن الجماعة الإنسانية وهى تجدّ فى السير وتلتمس الكمال .

آفة الشرق هم هؤلاء الذين حملوا الأقلام فجالوا بها فى كل واد وعالجوا كل مسألة ، وتحكموا في كل قضية ورووا قصة الأنثى في غير خبرة ولا معرفة ...

وخطر هؤلاء يأتي من أنهم — حينما حملوا الأقلام — تصدّوا للزعامة الاجتماعية ، فجنوا على الأمة بما روّجوا من بضاعة فاسدة ، وما زيفوا على عقول أبنائها من دجل رخيص وما ألقوا إلى الناشئة من أحكام خاطئة مضللة مهرجة !

ولو اختص كل إنسان بما يحسنه ، لوجد الشرق حاجته — أو بعضها — من الباحثين المختصين الذين يعكفون على مسائله الكبرى ، ومشكلاته الهامة ، عكوفاً خاصاً ، ويتناولونها بالنظرة الصائبة ، والدرس الدقيق ، والتوجيه الرشيد . . .

***

ولقد كانت مسألة المرأة — التي هي دعامة المجتمع — من بين مسائلنا التي تناولها غير المختصين تناولا عامياً ساذجاً ، أو منحرفاً فاسداً ، فملئوا حياتنا بفكرٍ خاطئة عنها ، ورسوم مشوهة لها...

وما كان يعنينا أن نطلب الكلمة للأنثى — صاحبة الشأن في الموضوع — لولا أن هذه الفكر الخاطئة قد سببت توجيهات ضالة ، ضللت الفتاة ، وهزت أركان الأسرة المصرية ، فأفسدت من قرب ، وبقوة ، حياة الأمة جميعاً .

وإنى لأتقدم اليوم — إقراراً لحق المرأة في الكلام عن المرأة ، ووفاءً بحاجة الحياة إلى كلمة الأنثى ، وأداءً لواجبي الاجتماعي نحو وطني — فأتحدث عن « الأنوثة والأمومة » وفيهما ينطوي العالم الأكبر للمرأة ، ويتمثل عملها الطبيعي ، وهدفها العالي .

وأنا أدعو زميلاتي المثقفات وبخاصة الجامعيات اللواتي خضن المعركة وشاركن فيها ، ودفعن غرامة الانتقال وشهدن ضحاياه ، أدعوهن أن يتقدمن لحمل الأمانة ، فليتحدثن عما رأين وسمعن ، في نفوسهن وفي دنيا الناس ، ولتأخذ الراشدات منهن أزمّة القيادة في الحياة النسوية ، ولا يدعنها فى أيدي الرجال غير المختصين ، أو النساء اللائي استهوتهن الدعاوي الضالة المضللة ، وخدعتهن أراجيف المبطلين . .

بنت الشاطىء
من الأمناء



أعلام النهضة الحديثة

يرجع تاريخ نهضتنا الحديثة إلى الحملة الفرنسية وإن يكن قد سبقتها بمصر وبعض البلاد العربية محاولات كان لها أثر محدود . ولقد رأينا أن نفرد هذا الباب لأعلام تلك النهضة فنسرد لهم ترجمات تكون بمثابة المصدر التاريخي لحياتهم وأعمالهم وآثارهم دون التبسط في دراسة قد تحتاج في بعض الأحيان إلى مجلدات برأسها .

ولن نراعي في ترجمة أولئك الأعلام ترتيبا تاريخيا فقد تدعو الحال إلى الكلام على المحدثين منهم قبل الأقدمين لضرورة عاجلة أو سبب طارئ أو ذكرى قائمة ولعل هذه الترجمات التي تنث عرف النبوغ والعبقرية وتجلو آيات النفوس الكبيرة والهمم العالية تكون حافزاً لشبابنا إلى التطريس على آثار سلف صالح وفى قسطه للعلى ، ووضع الأسس ثم ترك للخلف النهوض بالبناء .

١ محمد مصطفى المراغي

١٨٨١ — ١٩٤٥

للأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد وكيل كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر

سنتحدث إلى ناشئتنا عن الأستاذ المراغي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، والذي ترك في الدنيا دَوِيا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر ، والذي شاد الزمان بذكره ، وتزينتْ بحديثه الأسمار . إي والله ، لقد ملأ الدنيا فما رقعة من رقاع هذه الأرض الفسيحة يُعنى أهلها بشؤون العرب والإسلام إلا وفيها عن بعض شأنه حديث ، وما بيت من بيوت الشرق كله والعالم الإسلامي إلا كان في سامر أهله منه ذكر ، وما لسان يتحدث عن العروبة أو شأن من شؤون المسلمين إلا كان له فيه الشرَّدُ السائرات .

لقد خطا الأستاذ المراغي بالتعليم الديني وأهله خطوات عملية جريئة موفقة وقف المصلحون من قبله متهيبين أن يذيعوها في الناس على أنها آمال يحققها المستقبل الكفيل بتحقيق الآمال ، وما منهم إلا من استقصى الجهد وأفرغ الوسع في الوصول بهذا المعهد العتيق إلى المنزلة التي يهيئه لها تاريخه المجيد .

نعم ، خطا الأستاذ المراغي بالتعليم الديني خطوات عملية جريئة موفقة تهيبها المصلحون من قبله رَغمَ ما لكل منهم من المقام المحمود ، والنظرة العجلى إلى مناهج الدراسة التي كان الأزهريون يعكفون عليها في مستهل القرن الحاضر (القرن الرابع عشر الهجري) ثم إلى المناهج التي كان للأستاذ المراغي شرف اقتراحها واستصدار الأوامر الملكية بها والإشراف على تنفيذها عقداً كاملا[1] ، النظرة العجلى إلى كل أولئك كافية للشهادة على صحة ما يحمل هذا القول من الدعاوي .

وخطا بأهل التعليم الديني أنفسهم خطوات عملية جريئة موفقة لم يتهيأ للمصلحين من قبله أن يسيروها . فقد كان الجمهرة من الأزهريين شيوخا وطلابا يتعارفون أفكاراً لم يكن ينبعث الأمل في الإصلاح معها إلا بمقدار ما تنبعث أشعة الشمس إلى مظلمات السجون أو إلى بيوت الريف في مصر . كانوا على أن في جواز الاشتغال بعلم المنطق ثلاثة أقوال أحدها يحرم الاشتغال به بتة ، وكانوا على أن العالم الذى يقرأ لتلاميذه المنطق ، بله علوم الفلسفة ، زنديق ملحد . وفي وقت ما ثار بعض كبار الأساتذة على الشيخ الإمام « محمد عبده » لأنه كان يقرر مذهب المعتزلة في بعض مسائل الكلام . ووجد الشيخ « محمد عبده » الجهد الجاهد حين أراد أن يعلم أبناء الأزهر « الحساب والجبر والجغرافيا والتاريخ » . وقد اختصم جماعة منهم لأن واحداً من « طلبة العلم » كان يحمل في يده جزءاً من « فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية » وهو رجل يدعي الاجتهاد وينال من كرامة الأئمة وعلماء الدين . وكان الشيخ « سيد المرصفي » إلى أن مات رجلا جاهلا مبغضاً لأنه لا يحسن شيئاً إلا قراءة الأدب وفهمه ، وكان شيخ من جلة شيوخي ينصحني ألا أقرأ كتب الأدب علانية فإن ذلك في نظر كبار الشيوخ — وهم أعضاء لجان الامتحان — أمارة الجهل وعلامة على الانصراف عن العلوم النافعة . ولست أنسى ذلك اليوم الذي اجتمع فيه لفيف من العلماء في بيت عظيم من رجالات الأزهر ، وكلهم متألم صاخب أو مشفق راث أو ناصح مستتيب ، ذلك لأن ابن هذا العظيم الأزهري كتب في بعض المجلات مقالا علمياً يحبذ فيه رأي ابن تيمية في أن الطلاق الثلاث دفعة واحدة تقع به طلقة واحدة ويلغو لفظ العدد .

فأين هذا مما عليه رجال الأزهر الآن ؟ من العجيب أن كثيراً منهم يفخر اليوم بأنه من تلاميذ الشيخ « محمد عبده » وكانت التلمذة للشيخ — عند الأزهريين — سُبَّة

(١) اقترح الأستاذ المراغي هذه النظم وتقدم بها في سبتمبر سنة ١٩٢٩ ثم استقال من المشيخة في ١٠ اكتوبر سنة ١٩٢٩ فصدرت بعده معدلة ، فلما عاد في ١٩٣٥ أعادها سيرتها الأولى .

لا يقوى على احتمالها إلا من عصم الله ، ومن العجيب أن كثيراً منهم يفخر اليوم بأنه قرأ كتب الفلسفة ودرس النحل كلها دراسة وافية وكان الظهور بذلك إلى عصر قريب من وسائل هجران الإخوان وقطيعتهم ، ومن العجيب أن كثيراً منهم يعلن رأيه في التشريع الإسلامي غير مبال ألا يوافق فلاناً أو فلاناً بل هو يعلن زيف قول فلان وفلان ، وكان ذلك إلى زمن أدركنا طلائعه سبباً في النفي والتشريد ، وأعجب من ذلك كله أن يُبعث جماعة من شباب الأزهريين إلى أوربا ليتعلموا في جامعاتها ويخرج شيخ الأزهر بنفسه ليودعهم تحوطه الجمهرة من العلماء ويحدثهم أمام طلاب الأزهر وشيوخه عن آمال الأزهريين التى عقدوها عليهم ، ثم يعود بعض هؤلاء فيجازيه شيخ الأزهر على سعيه أوفى ما استطاع من الجزاء ، ويرضى الأزهريون عن ذلك كله ولا يرون فيه مُروقاً عن الدين ولا قطعاً لما أمر الله به أن يُوصل ، وقد كان حكمهم على ما دون ذلك إلى وقت قريب أفدح من هذه الأحكام ، ذلك بعض ما هيــأت له عقول الأزهريين موجة الإصلاح التي بدأها شيخ الإسلام ومفتى الديار المصرية الشيخ « محمد المهدي العباسي » وكان موجهها وداعية الخير فيها الشيخ الإمام « محمد عبده » ثم كان بطلها وفارس حلبتها شيخ الإسلام الأستاذ « محمد مصطفى المراغي »

***

كان من بعض آثار الأستاذ المراغي أن هيأ الأزهر ورجاله للقيام برسالتهم التي ينتظرها الإسلام والمسلمون منهم ، وأن جلى لأعين الأزهريين الطريق إلى بلوغ الغاية التي يرتقبونها ويرتقبها منهم الشرق والشرقيون .

لقد كان الأزهر إلى عهد غير بعيد يعيش بمعزل عن الناس لا يشعر أهله بما يحيط بهم ولا يشعر الناس بهم ، فلم يكن من هم أحدهم إلا أن يتلقى درسه أو يلقيه على النمط الذي تلاحقت عليه القرون ، مكتفياً بما ينال من رزق ضئيل أو بما يرسل إليه قومه من عيشة الكفاف ، وكان يعتقد أن تغيير شيء مما جرى عليه سلفه من الشيوخ والطلاب أمر لا ينبغي له أن يفكر فيه ، سواء أكان التغيير في أسلوب الحياة أم كان في أسلوب التعليم ، ولقد كان من شأن بعضهم أن يدخل فى أول العام الدراسي من باب الأزهر ثم لا يخرج منه إلا أن ينصرم العام كله وينصرف الأساتذة والطلاب إلى بلادهم ، بل لقد كان من شأن بعضهم أن يحبس نفسه على الدراسة والاستذكار في داخل الأزهر فلا يبرحه حتى يصبح عالماً ويؤذن له في التدريس ، وشاهد الأستاذ المراغي بعض ذلك وهو طالب في الأزهر وأدرك أن لهذا من الأثر في طلاب الأزهر وعلمائه ما لا يمكن إصلاحه إلا بمجهود

الجبابرة ، وأي أثر أبلغ تأصلا في نفس رجل يهيء نفسه لتهذيب الناس ودعوتهم إلى الله بالأسلوب الذي يفهمونه من حياة كل ما فيها يدعوه إلى العزلة عن الناس والابتعاد عنهم إن لم يكن يدعوه إلى تهجينهم والنيل منهم — بل كيف يتسنى لرجل يعد نفسه لتقويم الناس على الوجه الذي يفهمونه وهو لا يفهم أسلوبهم في الحياة ولا يعرف طريقهم إلى التفكير ؟ ثم كيف تكون حال الأزهريين أنفسهم بين غيرهم من صنوف المتعلمين في الأمة ، وهؤلاء يسيرون إلى الأمام بخطى واسعة وأولئك يقفون في حياتهم عند ما بلغته الحياة منذ قرون ، إنهم لا بد أن يعيشوا غرباء حتى عن أهليهم وذوى قرابتهم ، وذلك بعض العلة في وجود الحواجز البعيدة الأثر بين الأزهر في عهده القديم وبين غيره من طوائف الناس . بذل الأستاذ المراغي إذن جهود الجبابرة التي لم يكن له بد من بذلها لكي يخرج الأزهريين عن مألوفهم وليقترب بهم من صفوف المتعلمين في الأمة ليتعارف بعضهم إلى بعض ، وسلك لذلك الطريق الذي امتلأت نفسه يقيناً وقلبه عقيدة بأنه الطريق الذي يؤدي إلى الغرض المنشود ، وهو الطريق الذي سيعلم من لم يكن يعلم من الأزهريين أنه النهج الواضح والسبيل الصحيح . وبذل الأستاذ المراغي جهود الجبابرة ليقنع الطوائف المثقفة في الأمة بأن الأزهر الذي حفظ التراث الإسلامي في وقت كان العالم كله يهيم في بيداوات الضلال لا يمنعه من مسايرة الحياة العلمية الجديدة ذلك الركود الذى أصابته به الأحداث ، وليقنع أولي الأمر في مصر بأن الأسباب التي دعت أسلافهم إلى التفكير في إنشاء معاهد تقوم بحراسة بعض ما كان الأزهر يقوم على حراسته من علوم الدين واللغة قد زالت الآن تماماً وأن الجو في الأزهر واستعداد أهله لتقبل النظام الحديث من حيث الجوهر والشكل معاً لم يبق معهما بد من إسناد كل ما كان يسند إلى أهله قبل التفكير في اقتطاع بعض ما هو من أخصّ شؤونه ، وبذل الأستاذ المراغي جهد الجبابرة ليقنع الأزهريين أنفسهم بأن صالح الجيل الحاضر منهم وصالح الأجيال الآتية يفرضان عليهم مسايرة النهضة العلمية الحديثة ، وألا يقفوا حيث يسير الموكب من حولهم ، وأن ذلك لا يخالف شيئاً من قواعد الدين بل ولا يخالف شيئاً من صحيح ماجرى عليه سلف المؤمنين الصالح ، وما زال هو بهم حتى أقاموا الدليل على سلامة فطرتهم وكامل أهليتهم وأنهم بشيء من التوجيه الصحيح مستطيعون أن يكونوا أعضاء نافعين في هذا المجتمع ، وليس على ولاة الأمر إلا أن يقبلوا عليهم بعض الإقبال فإذا هم سباقون إلى تلبية أطماع الأجيال الحاضرة والآتية ؛ فإن مما يقعد بالعامل المجد أن يجد عمله غير مقدور وسعيه غير مشكور ، وأن يجد ميزان المكافأة لا يزنها بما يُزلف الناس من أعمال وإنما يزنها بما يتقدمون به بين يدي رغباتهم

من صيحات وبما يُدلون به مما لا يتفق مع صفات المروءة وكرامة ذوي الكرامات .

***

ولد الشيخ « محمد مصطفى المراغي » في اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٨٨١ الميلادي ، في « المراغة » من أعمال مديرية « جرجا » بصعيد مصر الأعلى ، وفي بيت أصدق ما يقال فيه إنه لم يبلغ به المجد المادي أن يكون من بيوت السراة في الصعيد ، ولم يقعد به المجد الأدبي عن أن يكون مثابة للناس يقصدونه من بعيد فيضيفهم صاحبه ويفصل فيما يرفعونه إليه من مشاكلهم ويشير على من يستشيره بالرأي الأسدّ ، وحساب الثروة في ريف مصر وفي قرى الصعيد مما لا يلتفت إليه غير « صراف » القرية و « أقلام الحسابات » في المديرية ، فكم بيت تراه نجعة الرائد ونزل القاصد ومن حوله بيوت تعج بالناطق والصامت فلا يرتادها أحد ولا يلقي عصاه فيها إنسان . وكم بيت يكبر الناس أهله وينزلونهم بمنزلة الإجلال والاحترام ومن حوله بيوت فشت لأهلها فاشية من مال وهم يودون لو بسط لهم من المنزلة بعض ما أحاط بأهل ذلك البيت فلا يبلغون بعض ما يريدون .

وتعلم الشيخ في القرية ما كان يتعلمه أمثاله ونظراؤه في ذلك العهد ، فحفظ القرآن ، وقرأ وكتب . ثم تلقى على أبيه بعض العلوم ، فلما آن الوقت الذي يرتحل فيه قرناؤه إلى القاهرة ليلتحقوا بالأزهر سافر فيمن يسافرون من أهل القرى المجاورة لهم ، وانتسب إلى الأزهر ، وتلقى العلم على شيوخه من طبقة الشيخ الإمام «محمد عبده» ولم يقع لي على وجه التحديد ثبت بأسماء شيوخه وما تلقى عنهم من الفنون والكتب، غير أنني أذكر حديثا له حدثنيه يستفاد منه أنه تلقى علوم العربية على المرحوم الشيخ « علي الصالحي » وكان الشيخ علي يومئذ من شباب العلماء في الأزهر الناضجين المحققين وعليه تخرج جمهرة من الأساتذة الفحول ، وهو عم المرحوم عبد الحميد سليمان باشا وأخيه أحمد سليمان بك ، ولست أدري على وجه التحديد متى بدأ اتصال المراغي «المجاور» بالشيخ الإمام «محمد عبده» ولكن الذي لا شك فيه أنه حضر دروس التفسير التي كان الشيخ يلقيها في «الرواق العباسي» وهي — فوق أنها تفسير للقرآن الكريم — دروس في الاجتماع والتاريخ الإسلامي والتوجيه العام لشباب المسلمين عامة وشباب الأزهريين خاصة .

وعكف الشاب «المراغي» على دروسه يذاكرها ويبحثها بحث المستقصي الراغب في الوصول إلى الغاية واكتناه الحقيقة ، حتى اشتهر بين إخوانه بالذكاء ووفرة التحصيل ، وكانت له رفقة من شباب الأزهر النابهين فكانوا يجتمعون على استذكار الدروس قبل

تلقيها على الأساتذة كما جرت عادة الأزهريين ، كما كانوا يجتمعون على قراءة الكتب التي لم تكن تدرس في الأزهر ، وتلك مزية ظاهرة من مزايا رفقة الأزهر يومئذ .

حدثني المرحوم الشيخ عبد المجيد الشاذلي شيخ معهد طنطا الأسبق طيب الله ثراه — وكان الشيخ عبد المجيد رحمه الله أمة وحده ، كما كان مثلا للتصون والعفة ومكارم الأخلاق وكانت قد جرت الأحداث عليه فمنعته ما كان يجب له من تقدم ، ومشت الوشايات به فاضطهد وأبعد ، وكان هذا الحديث في أوائل مشيخة الأستاذ المراغي الأولى ، وكان الشيخ عبد المجيد مدرساً في معهد طنطا — قال : دعاني الشيخ المراغي إلى زيارته بمكتبه ، فلما دخلت عليه بدأ الحديث بقوله : لقد هنأني بمشيخة الأزهر من أعرف ومن لم أعرف من العلماء ، ولم يتخلف عن ذلك إلا رجل واحد كان يسرني أن يكون هو المهنىء وإن تخلف أكثر المهنئين . فأجبته : إني عرفت في أيام طلب العلم شاباً ذكياً متوقد الذهن وافر المحصول هو الطالب محمد مصطفى المراغي ، ثم عرفت في أول العهد بالتدريس مدرساً عميق الفكرة واسع الأفق جيد العبارة هو العالم المدرس الشيخ محمد مصطفى المراغي ، ثم سمعت أن الشيخ المراغي يتولى في السودان قضاء القضاة وأنه موفق إلى القيام بواجبات هذا العمل ثم علمت أن الشيخ محمد مصطفى المراغي قد صار شيخاً للأزهر وللأزهريين كلهم ، ولما كنت أحب الخير كل الخير للأزهر والأزهريين انتظرت ما يجري به القضاء على يدي شيخ الأزهر الجديد ، فإن رأيت خيراً جئت فهنأته بأنه قد جرى على ما كانت تدل عليه مخايل بدايته ، وإن كانت الأخرى لم أجشم نفسي ما يتجشمه الناس ولم أندم على شيء ، فقال له شيخ الأزهر : إني أشكر لك هذا الشعور ، ولعل الله أن يوفقني إلى عمل أستحق به تهنئتك . وسألت الشيخ عبد المجيد بعد هذا الحديث : أفكانت نعوتك التي أضفيتها على الطالب المراغي والمدرس المراغي حقيقة أم كنت تجامل بهذا القول بعض زملائك وقد صار أمر الأزهر بيده ؟ وكان الشيخ أستاذي ولي عليه دالة التلميذ الوفي ، وكان من خلصان أبي ولي عليه دالة ابن الأخ الحبيب ، ولكنه لم يحتمل هذا الكلام ، ثم قال : أفتظن بي وأنت تعرف الكثير عني أني أتملق الشيخ أو أعتذر له ؟ الحق أنه كان طالباً ممتازاً ، وأنه كان مدرساً ممتازاً ، وأنه لو بقي في الأزهر لم يقعد به ذلك الامتياز عما بلغه اليوم . هذا رأي إخوانه فيه ، وإذا وقرك كبيراً من عرفك صغيراً فأنت بمنزلة فوق منازل التوقير والإجلال .

٭٭٭

وفي عام ١٣٢٢ من الهجرة (١٩٠٤ م) دخل امتحان شهادة العالمية ، وحصل على

الدرجة الثانية ، وكانت سنه يومذاك أربعة وعشرين عاما ، ولعله أصغر علماء الأزهر سنا في ذلك التاريخ من غير أبناء العلماء .

نعم ، لعله أصغر من حصل على شهادة العالمية سنا في ذلك التاريخ من غير أبناء العلماء ! فقد كان العمل في ذلك الحين جاريا في الأزهر على أنه لا يتقدم لطلب الامتحان إلا من تلقى العلوم كلها وحضر الكتب « المعتبرة » وأنس من نفسه الكفاية ونال بذلك شهادة من شيوخه ، على ألا تقل مدة انتسابه في الأزهر عن اثنتي عشرة سنة ، ثم كان العمل جاريا في ذلك الحين على أن تنعقد لجنة الامتحان في الوقت الذي يختاره شيخ الأزهر فتمتحن من يسمح الوقت بامتحانه ثم تؤجل الامتحان إلى قابل ، فربما بقي الطالب السنوات ذوات العدد ينتظر الدعوة إلى الامتحان ولا يسمح الوقت بامتحانه ، وكان أقل ما ينال أبناء العلماء من الكرامة ألا يطول بهم انتظار الدعوة إلى الامتحان !

وليس عجيباً في ذلك الحين أن يحصل الشيخ المراغي على الدرجة الثانية ، وهو الطالب الذكي المتوقد الذهن الوافر المحصول ، إذا علم أن الشيخ الإمام « محمد عبده » لم يحصل قبل ذلك على ما هو أوفر حظا منه ، على أن الدرجة الثانية نفسها لم يكن لينالها الطالب إلا بالجهد الجاهد والنصب العظيم ، وكان يكفي أن يكون في لجنة الامتحان عضو واحد يرى أن يحرمه الدرجة الأولى لينزل التقدير به إلى الثانية ؛ إذ كان الشرط في استحقاق الدرجة الأولى إجماع الآراء ، ومن لك بأن يجمع على تفوقك ستة من أساطين العلماء ؟

***

وكان الحصول على شهادة العالمية يتبعه لا محالة الإذن لحاملها بالتدريس في الجامع الأزهر؛ لأن عدد الخريجين لم يكن يزيد عن أصابع اليدين في العام ، ولأن الدولة لم تكن تتكلف لعلماء الأزهر شيئاً يستحق أن يمنع منه الراغب فيه ، وكانت للأحناف من الخريجين مزايا ، ولمن يحصل منهم على إحدى الدرجتين الأولى والثانية خاصة ، وبعض هذه المزايا أنهم يدرسون ريثما تدعوهم وظيفة القضاء الشرعي .

إذن لم يكن بد للشيخ الناشيء أن يتصدر حلقة من حلقات التدريس في الأزهر، وتبدأ هذه الفترة من حياته في أول شهر « أغسطس » من عام ١٩٠٤ الميلادي وتنتهي في ٣٠ من شهر « أكتوبر » من العام نفسه ، ويظهر أن أثره كان ظاهراً في هذا العمل فقد بقي الشيخ عبد المجيد الشاذلي يحفظ للمدرس المراغي — على وجازة زمنه في التدريس أنه كان مدرساً « عميق الفكرة واسع الأفق جيد العبارة » . ولم يكن نظام الأزهر يومئذ يقيد الطالب بحضور درس معين أو يقيد العالم بقراءة كتاب معين

أو بالتزام وقت ، بل كان الطالب يتلقى الكتاب الذي يختاره أو يختاره له متولي أمره إن يكن في بداية حياته ، وعلى الشيخ الذي يختاره أو يختار له ، وكان العالم يدرس الكتاب الذي يختاره أو يقترحه عليه أبناؤه ، ويختار الوقت الذي تسمح به ظروفه ؛ فكان أثر العالم الظاهر في كثرة عدد طلابه وفي تزايدهم يوما بعد يوم ، ولذلك موضع من البحث لعلنا نوفق إلى إذاعته في وقت قريب .

***

وفي أول نوفمبر من عام ١٩٠٤ الميلادي ، عين الشيخ « محمد مصطفى المراغي » قاضياً لمديرية دنقلا بحكومة السودان ، وقاضي قضاة السودان يومئذ صديقه المرحوم الشيخ « محمد هارون عبدالرازق » . وبعد قليل نقل الشيخ « المراغي » قاضياً لمدينة الخرطوم .

وفي عام ١٩٠٧ م اختلف هو وقاضي القضاة والسكرتير القضائي في وجهة النظر على اختيار المفتشين بالمحاكم الشرعية في السودان ، فآثر أن يستقيل من منصبه وأن يعود إلى مصر فعاد في أوائل سبتمبر من هذا العام .

وفي التاسع من شهر سبتمبر ١٩٠٧ م عين مفتشاً للدروس الدينية بديوان عموم الأوقاف بمصر . وفي هذا الوقت عاد للتدريس في الجامع الأزهر مع تولي هذا العمل ، وقصد درسه كثير من الطلاب النابهين في الأزهر .

***

وفي عام ١٩٠٨ زاره « سلاطين باشا » وكان وكيلا لحكومة السودان بمصر ، وعرض عليه أن يكون « قاضي القضاة » بحكومة السودان ، فقال له : إن حكومة السودان في العام الماضي أبت عليّ وظيفة « مفتش بالمحاكم الشرعية » فكيف ترضى اليوم أن أكون « قاضي القضاة » ؟ قال : إنها اقتنعت اليوم بما لم تكن تقتنع به ، وإنني أريد أن أعرف الشروط التي تجعلها أساساً لقبول هذا المنصب الخطير ، فشرط شروطاً كان عقدة العقد فيها أن يكون تعيينه بأمر يصدره « خديو مصر » وكان « سلاطين باشا » مقتنعاً بأنه لا يصلح لتقلد هذه الوظيفة غير ذلك الشيخ الذي أبت عليه حكومته في العام الماضي وظيفة دونها بكثير ، فلم يزل « سلاطين باشا » يتلطف لحكومته حتى قبلت أن يعين الشيخ « محمد مصطفى المراغي » قاضياً لقضاة السودان ، وأن يكون تعيينه بأمر يصدره « خديو مصر » ، وفي أول أغسطس من عام ١٩٠٨ م صدر الأمر من « خديو مصر » بتعيينه قاضياً لقضاة السودان .

***

ويبدأ تاريخ المجد الذى بناه لنفسه الشيخ المراغي من ذلك الحين ؛ فقد كان في قضاء قضاة السودان المثل المضروب للعالم الفذ وللسياسي الخطير وللوطني العظيم ، وما زال إخواننا من أهل السودان يحفظون له أجمل الذكريات ، ولقد نسوا أو كادوا ينسون قاضيين توليا هذا المنصب قبله — على جلالتهما وعظيم خطرهما — وإنما ظلوا يتناقلون ذكرياته لأن شيئاً كثيراً من تاريخ السودان الحديث لا يزال يعرف بينهم على أنه بعض آثار الشيخ المراغي . وأوجز ما نستطيع أن نذكره في هذا المكان أن لك أن تضفي على الشيخ المراغي قاضي قضاة السودان ما شئت من صفات الرجال دون أن تتلبث أو تتحرج ؛ لأنك لن تنسب إليه صفة إلا وجدت لها الشواهد من جلائل الأعمال .

أرادت حكومة السودان أن تغير لأئحة المحاكم الشرعية في السودان ، وهي في جملتها تشبه لأئحة المحاكم الشرعية في مصر ، ولكنها تعطي قاضي القضاة سلطة واسعة المدى ، وأدنى هذه السلطة أن له وحده أن يختار للقضاة الآراء الفقهية التي يحكمون بها ، وتوقف السكرتير القضائي « السير بونهام كارتر » في إقرار هذه السلطة ، وتمسك قاضي القضاة المراغي بها ولم يقبل أن يحور في صيغتها تحويراً ما ، وبذل السكرتير القضائي ما استطاع من وسائل الإقناع ، وعارضه قاضي القضاة بوسائل من مثلها ، ولم يكن ذلك ليقرب ما بينهما من مسافة الخلف ، وأخيراً قال الشيخ : لقد اختلفنا في وجهة النظر . ولم يستطع أحدنا أن يقنع الآخر . فلم يبق بد من أن نختصم . وأنا لا ألجئك إلى الاختصام إلى علماء الشريعة في مصر ، ولكني أقبل الاختصام إلى الحاكم العام على شريطة ألا تلقاه منذ الآن إلا معي . ونمي خبر اختلافهما إلى الحاكم العام ، ونمي خبر هذه المخاصمة بشرطها إليه فلم يجد بدا من أن يرسل إلى السكرتير القضائي أنه قضى للشيخ المراغي عليه من غير أن يستمع إلى حجج الفريقين ، ويقابل السكرتير القضائي الشيخ فيعلنه أنه نزل عن رأيه له ، على أن يستأنف مجهوده متى تغير قاضي القضاة .

أي دلالة تدل عليها هـذه الحادثة ؟ أكانت منزلة قاضي القضاة من نفس الحاكم العام هي التي طوعت له أن يقضي له بالفلج على خصمه ؟ أم كانت معرفته بأن قاضي القضاة إنما يستمسك بما هو حق ؟ أم كانت ثقته بأن الشيخ المراغي قوي الاحتجاج لما يذهب إليـه من الآراء ؟ أم كان يخشى أن تفهم مصر وأن يفهم الســودان معها أن الإنجليز يتدخلون فيما هو من شؤون الإسلام والمسلمين ؟ أم كان كل أولئك مجتمعاً أم كان شيء غير كل أولئك ؟

وفي الوقت الذي اعتزمت فيـه حكومة « انجلترا » أن تحتفي في الهنـد بتنصيب

الملك « جورج الخامس » إمبراطوراً على الهند صدرت الأوامر إلى كبار موظفي حكومة السودان وكبار الأعيان أن يسافروا إلى مرفأ البلاد لأن الباخرة التي تقل « جلالة الملك » إلى الهند ستمر بهم ، وسيكونون في استقبال جلالته ، وعلم الشيخ المراغي أنه مدعو في طليعة هؤلاء ، وأن النظام الذي وضعته وزارة الخارجية البريطانية يقضي ألا يصعد إلى الباخرة سوى الحاكم العام ، وأن كل من عداه سيمرون في محاذاة الباخرة وجلالة الملك مطل عليهم ، فذهب إلى الحاكم العام يخبره بأنه إذا أصرت وزارة الخارجية الإنجليزية على هذا النظام فإنه لن يسافر إلى الميناء ، ويبرق الحاكم العام بذلك إلى حكومته ، فتبرق هي إليه بأن النظام قد عدل ، وأنه سيصعد إلى الباخرة رجلان أحدهما قاضي قضاة السودان ، وأنه قد اتخذت الإجراءات لإخبار حاشية الملك بهذا التعديل ؛ إذ كانت الباخرة في عرض البحر حينذاك .

أي دلالة تدل عليها هـذه الحادثة ؟ وهل في سجل الاعتزاز بالكرامة ما هو أنصع إشراقاً من موقف الشيخ ؟

* * *

وفي أوائل عام ١٩١٩ م اندلع لهيب الثورة في مصر ، وقام المصريون جميعاً يطالبون بحقوقهم في الاستقلال ، وحملت أسلاك البرق خبر هـذه الثورة ، وامتلأت الجرائد المصرية وغير المصرية بحوادث الاعتقال التي جرت بها أوامر السلطة الانجليزية ، فلم يكن بد لأهل السودان من أن يشاركوا إخوانهم الذين يقطنون مصب نيلهم ذلك الشعور ، ولم يكن بد من أن يكون لهم زعيم يتولى قيادة هذه الحركة ، وتجمع آراء أهل السودان وآراء كبار المصريين هناك — وهم إذ ذاك كثيرون — على قاضي القضاة المراغي ، ويلبي الشيخ النداء فيخرج معهم في طليعة « المظاهرات » ويجمع التوقيعات لسعد زعيم مصر ولأصحاب سعد بأنهم وكلاء الأمة الذين يطالبون بحقوقها . وتغلي مراجل غيظ الإنجليز على الشيخ ، ويقترح بعضهم اعتقاله أو إيداعه السجن . ويرى السكرتير القضائي ذلك من أفدح الأخطاء ويشير بمنح الشيخ إجازة عاجلة غير محدودة الآخر ، ويعود الشيخ إلى مصر ، وينتهي عمله في السودان .

* * *

وفي يوم ٩ أكتوبر من عام ١٩١٩ م يعين رئيساً للتفتيش في المحاكم الشرعية بمصر ، ثم يعين رئيساً لمحكمة مصر الكلية في ٢١ يوليه عام ١٩٢٠ م وفي السابع والعشرين

من شهر يناير عام ١٩٢١ يعين عضواً في المحكمة الشرعية ، وفي ١١ من ديسمبر عام ١٩٢٣ يعين رئيساً للمحكمة العليا .

وفي المحكمة العليا بدأ اتصاله بشؤون الأزهر ، فقد كانت للأزهريين ضجة وصيحات متلاحقة تطلب إصلاح هذا المعهد الخالد ، وكانت هذه الصيحات ما تزال تقلق الحكومات وتقض عليها مضاجعها ، فلم يكن للحكومة مناص من أن تشكل لجنة تهدىء بها ثائرة هؤلاء على الأقل ، وتخيرت أعضاء هذه اللجنة من نخبة أهل الرأى من رجال الأزهر ومن رجال الحكومة معاً ، وكان الشيخ المراغي واحداً من أعضاء هذه اللجنة ، ولكنه — كما علمت — كان أكثر أعضاء اللجنة إشفاقاً على الأزهر والأزهريين ، وكان أكثرهم تدقيقاً في البحث عن حقيقة ما وصل إليه هؤلاء القوم الذين درج بينهم ، وكان منهم إلى أن خرج إلى الحياة العامة فبلغ فيها أرقى ما تطمح إليه الأنظار . ويظهر أن هذا الاستقصاء في البحث لم يرق جماعة الأزهريين من بين أعضاء اللجنة فانطلقوا يفسرون اتجاهه تفسيراً يوغر عليه صدور أهل الأزهر، ثم تعرض له أحدهم يكابره — أو يناوئه — وحين ولي الشيخ المراغي مشيخة الأزهر للمرة الأولى أسر ذلك المجادل إلى بعض أصدقائه أنه ينتظر أن يبطش به لموقفه معه في لجنة إصلاح الأزهر ، ولكنا لم ننتظر طويلا حتى رأينا الشيخ يقفز بهذا المجادل في سلم الارتقاء قفزات سريعة .

***

وفي الثاني والعشرين من شهر مايو عام ١٩٢٨ الميلادي عين الشيخ « محمد مصطفى المراغي » شيخاً للجامع الأزهر ، فلم يلبث أن أخذ أهبته لينقل الأزهر في أقصر مدى من معهد وقف عن التجديد منذ سبعة قرون تقريباً إلى معهد يسامي أرقى الجامعات الحديثة . وكان الذي يؤخذ عليه في هذا الحين أنه لم يحسب حساب الطفرة التي كان يود لو استطاع أن يطفرها ، وعذره في ذلك أنه فهم حقيقة الأمر وعرف أن العالم كله يسير بخطوات سريعة ، وأن الأزهر — إذا لم يساير القافلة — سيتخلف إلى الحد الذي لا يستطيع معه أن ينتعش مرة أخرى .

كانت سن الشيخ يوم تولى مشيخة الأزهر في عام ١٩٢٨ لا تزيد عن ثمانية وأربعين عاماً ، وهذه أول مرة في تاريخ الأزهر — فيما نعلم — يتولى مشيخته شيخ فى هذه السن ، فلم يرض له نشاطه ولا رغبته الملحة في أن يبلغ بالأزهر المنزلة التي يؤهله لها تطاول السنين أن يقنع بما كان يقنع به شيوخ الأزهر من قبله ، فواصل ليله بنهاره في دراسة قوانين الأزهر ومناهج الدراسة فيه ، وفي تغيير هذه القوانين وهذه المناهج ،

وبعث الحياة من جديد في علماء الأزهر وموظفيه ، فكانت اللجان تجتمع عامة النهار وأكثر الليل في الإدارة العامة برآسته ، وكان المدرسون يقضون عامة النهار وأكثر الليل في مراجعة دروسهم وتحقيقها . ولم يكتمل العام على توليه المشيخة حتى خرج بقانون جديد للأزهر ينشيء فيه لوناً من النظام لم تتجه الأنظار إليه من قبل ، وفيه يقسم الدراسة العالية إلى ثلاثة أقسام يسمى كل قسم منها « كلية » ؛ فكلية لعلوم الشريعة ، وكلية لعلوم اللغة العربية ، وكلية لعلوم أصول الدين ، وينشيء أقساماً عديدة للتخصص ، وينوع التخصص نفسه إلى نوعين رئيسيين؛ فنوع للتخصص في المهنة، ونوع للتخصص في المادة ، وكل واحد من هذين النوعين له ضروب لا مجال لتفصيلها الآن .

وتشاء الأقدار ألا يتحقق للأزهر ما يريد الشيخ ، وأن تقف في سبيله العقبات ، فيستقيل من منصبه في العاشر من شهر اكتوبر ١٩٢٩ م .

ويعود الشيخ إلى مشيخة الأزهر في السابع والعشرين من إبريل سنة ١٩٣٥ بعد أن قامت فى الأزهر ثورة عنيفة جامحة تنادي به وتعلن أنها لا ترضى بديلا منه ، ويقضي في هذه المشيخة ما بقي من حياته الحافلة بجلائل الأعمال إلى أن يختاره الله تعالى ، وينتقل لجوار ربه في ليلة الأربعاء ١٤ من شهر رمضان ١٣٦٤ (الموافق ٢٢ من أغسطس ١٩٤٥) فسح الله له في رضوانه ، وجزاه خير ما يجزي عباده الصالحين !

* * *

في كل فترة من الفترات التى ألممنا بها من حياة الأستاذ المراغي مواقف تسترعي نظر الباحثين ، وما بنا شيء من التقصير ، ولكن لتفصيل هذه المواقف وبيان وجه العبرة منها مكاناً غيرهذا المكان ، ولو كانت حياة الأستاذ المراغي مما يسطر في صحائف معدودات لكان الخطب به هيناً ، ولكنها الحياة التي تزيدك إعجاباً كلما زدتها نظراً . وبحسبي أنني دللت على سر العظمة في هذه الحيـــاة لمن يريد أن يستضيء بحياة السلف . وأنني بدأت بكتابة المقدمة لتأريخ هذه الحياة .

محمد محيي الدين عبد الحميد



في كفة الميزان

ننشر في هذا الباب نقد النقّاد على علاّته تاركين لأقلام غيرهم من الكتّاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النّقدُ في الفنّ

للأستاذ توفيق الحكيم

ما من شيء كثر فيه الخلاف مثل النقد ، وقواعده ومذاهبه . وما دمنا نعرف «النقد» بأنه حكم وميزان ، فلا بد له إذن من دستور وقانون . ما هو الدستور أو القانون الذي يمكن أن يوضع أو يسنّ ، لنعلن بمقتضاه أن هذا الأثر الفني جميل أو غير جميل ؟

اجتهد أعلام النقد وأئمة البلاغة في التقنين والاستنباط ، وخرجوا بأصول قالوا إن في المقدور أن نقيس بها الخلق الفني ، فنعرف جيده من رديئه ، ونميز معدنه الطيب من معدنه الخبيث . ولو صدق هذا الاختراع في الفن كما صدق في التعدين ، وكانت لهذه الأصول دقة ذلك الجهاز الحساس الذي يعرف منجم الذهب من منجم النحاس ، لهان الأمر على النقد والنقاد والأدباء والفنيين .

ولكن هذه الأصول أو هذا الجهاز إذا طبقناه على كثير من آيات الفن ، وجدنا اضطراباً ، ولحظنا اختلالا ، ووقفنا موقف الحائر المتسائل : هل نصدق الآية أو نصدق الجهاز ؟

ذلك أن كثيراً من بدائع الفن الخالدة يخرج على تلك الأصول . فنراه أحياناً لا يخلو من نقص في البلاغة أو ركاكة في العبارة ، أو أخطاء في النحو ، أو وقوع في اللغو . . ولكن إلى جانب تلك المآخذ روعة وأي روعة ! ثم هنالك أثر فني آخر انطبقت عليه الأصول تمام الانطباق ، فلا لحنة ولا غلطة ، وفصاحة ما بعدها فصاحة . . ومنطق كحد السيف يصيب المفصل . . و قد يكلّ الطرف وتكدّ الفطنة فلا تعثر فيه على هنة من أضأل الهنات . . كل شيء فيه صحيح ، سليم ، متين ، ولكننا نحس مع ذلك أن لا شيء فيه يحركنا . . .

الجمال في الفن كالجمال في المرأة . كليوباترة على الرغم من أنفها غير الدقيق ، آية خالدة في تاريخ الحسن النسائي . وكم من نساء نبصرهن كل يوم لهن من الأنوف الدقيقة ،

والعيون النجل ، والخصور النحيلة ، ما لم تظفر كليوباترة بالقليل منه ، وبرغم هذا لا نراهنّ رائعات ولا فاتنات .

ما السر في أن امرأة قد استكملت شروط الحسن ، وليست بحسناء ، وأخرى شابتها عيوب ، وهي السحر والفتنة ؟

السرّ هنا هو السرّ هناك .

في المرأة وفي الفن ، هنالك شيء لا ندري ما هو ، يخرج على كل قاعدة ، ويهزأ بكل أصول . . هو الذي يجعل الجميل جميلا .

من أجل هذا انحرف النقد عن المذهب الموضوعي إلى المذهب الشخصي . . وطلع نفر من النقاد يقولون : إن الذوق هو الحكم والميزان .

ولـكن ما هو الذوق ؟

هنا أيضاً مشكلة تبرز على الفور :

لو عرّفنا « الذوق » وحددناه أصبح هو الآخر أصلا من الأصول ، ومقياساً ثابتاً جامداً ، يتحطم عند أول اختبار . ونتزلق إلى المذهب الموضوعي مرة أخرى دون أن نشعر . فلنكتف إذن بالقول إن الذوق ملـكة شخصية ، تفرز الزائف من الصحيح ، والحسن من القبيح ، ولـكن . . ما دامت ملـكة شخصية . . كيف نفرز أيضاً الشخص الذي ركبت فيه هذه الملـكة ، وكل الناس لا شك قائلون إن الذوق نابت فيهم مع أظفارهم ونحن لو استطعنا أن نتصيد من غمرة الناس تلك اللؤلؤة الفريدة ، وهي الناقد صاحب الذوق الذي لا ينازَع ولا يدافع ، لكانت فرحتنا به أضعاف فرحتنا بمن سينقد من الأدباء والفنانين . لـكن العثور على هذا الناقد ذي الذوق يحتاج هو الآخر إلى ناقد ذي ذوق يستكشفه . . وهلم جراً . .

لا . . ليس للذوق الشخصي ضابط . وإذا ترك الحـكم في الآثار للذوق وحده ، فقد ترك إذن للفوضى . . وهذا هو المطعن الذى يرمى به المذهب الشخصي في النقد .

* * *

لعل خير منهج للناقد أن يجمع في نقده بين شتى الاعتبارات ، ويؤلف بين مختلف النظرات ، فيختار الأثر من بين أكوام الآثار بذوقه ، كاشفاً عن نواحي جماله ، ثم يحلله بغربال علمه، ليخرج لنا ما انطبق منه على الأصول ومالم ينطبق . وذلك لمجرد التحليل والبحث والدرس ، لا لإصدار الأحكام بناء على هذا الاعتبار وحده . فإذا فرغ من ذلك بقي أمامه الشطر الأجلّ من عمله النقدي : وهو تقويم الأثر بقيمته في المحيط الأدبي

القومي أو الإنساني ، ووضعه في مكانه من « خانة » النوع ، ومقارنته بالسابقين له في ذلك السجل ، مبيناً مدى تأثره إياهم ، ومبلغ اتفاقه معهم في المذهب ، أو اختلافه عنهم في المسلك . . أهو مكرر أم مؤكد أم مجتهد في باب معروف ، أم هو فاتح أو ضارب في مجاهل سبيل غير مألوف ؟ مع مراعاة الحقيقة لا الإسراف ، والدقة لا الإغراق.

ذلك بأن النقد عندنا سار طويلاً في درب مقتضب : هو أن ينقد الأثر ، كما لو كان قد وجد ملقى على الأرض كاللقيط ، لا يعرف له أب ينتمي إليه . . فهو فريد عصره ، ونسيج وحده . . إن الأدب أو الفن في أي أمة وعصر ، أسرة متحدة ، فيها الآباء ، وفيها الأبناء . . فيها من تكونت شخصيته فأثر ، وفيها الناشىء الذي يتأثر . ولكل منهما عند الناقد عملة بها يحاسب . فالأديب القديم يفاضل بنفسه ، وينقد الأخير من آثاره على ضوء السابق من أعماله . والأديب الجديد يقارن بالقديم ، وينقد عمله على ضوء أعمال من فتحوا له باب النوع الذي يعالجه ، والفرع الذي يثمر فيه . . . وكل أديب قديم كان يوما جديداً . وكل أديب جديد سيكون يوما قديماً . . فتعدد النظرة في الأمس والغد فيه تعدد للجوانب . . وبهذا يعرف الأديب إذا اكتمل كل وجوه القول فيه ، وكل ما يربطه إلى سابقيه ولاحقيه . .

فالأدب أو الفن أو العلم في كل زمان ومكان ، سلسلة طويلة ، تتسلم فيه كل حلقة من الأخرى . . ثم تسلم . . .

* * *

وللناقد فوق ذلك صفات يجب أن تتوافر فيه : أهمها أن يكون واسع الأفق ليفهم كل الأنواع ، قوي المعدة ليهضم كل الألوان . فذلك الذي لا يستسيغ نوعاً من الشعر ، أو لوناً من النثر ، أو فرعاً من القصص ، أو ضرباً من التمثيل ، لا يجوز له أن يقدم على نقده وإبداء الرأي فيه . وعليه أن يتنحى ويرد نفسه عن الحكم ، شأن القاضي الذي كوّن في القضية رأياً قبل البحث ، أو اتصلت ظروفها بعلمه قبل النظر . .

في لغة القانون يقولون : « ليس للقاضي أن يحكم بعلمه » . وفي لغة الفن يجب أن نقول : « ليس للناقد أن يحكم بميله » .

* * *

تلك بضع خطرات في النقد والناقد ، لا تحل ما في الموضوع من مشكلات ، ولكنها تشير إلى مواطن الجدل ومواضع الخلاف .

توفيق الحكيم

النقد

الفاروق عمر

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل باشا
الجزء الثاني ٣٦٨ صفحة من القطع الكبير . مطبعة مصر . القاهرة ١٩٤٥
نقد الأستاذ أحمد محمد شاكر

وهذا أحدث كتاب أخرجه سعادة الدكتور محمد باشا هيكل في التاريخ الإسلامي ، على النهج الذي سار عليه منذ عشر سنين ، فكان عملا جيداً ، أفادت منه الطبقة المحدثة من المثقفين ، وقد ألف كثير منهم سهل الكلام ولينه ، واستعصت عليهم كتب المتقدمين ونفروا منها ، حتى جهلوا كثيراً من تاريخ قومهم . فجاءت كتب سعادة المؤلف عملاً جديداً ، نهجاً وسطاً ، بين كتب المتقدمين القوية الرائعة ، وبين ما ابتليت به العربية ، من القصص والروايات، الغالي منها والرخيص ، والقوي منها والسخيف . عرض فيه التاريخ الإسلامي عرضاً شائقاً منظماً ، في لغة جيدة رائعة ، رصعها بكثير مما اقتبس من عبارات المؤرخين السابقين . فقرب إلى المتوسطين ما بعد عنهم ، وراض لهم ما استعصى عليهم ، حتى إن الكتاب ليأخذ بلب القارئ ، فلا يكاد يستطيع أن يضعه من يده إلا أن يأتي على آخره .

وهذا الكتاب كتاب جيد حقاً ، فيه تيسير للقارئ أن يستوعب سيرة عمر وفتوحاته وأعماله ، استيعاباً مفيداً ، ويوفر عليه جهداً عظيما في تتبع الأخبار في مظانّها من كتب التاريخ والتراجم ، إذا لم يكن من أرباب العزائم المجتهدين المحققين . ولو شئنا أن نأتي بشواهد من صعاب التاريخ وسياق الحوادث في تلك الحقبة ، مما يسره المؤلف على القارئ وحققه ، بقلمه السلسال السيال ، لطال الأمر جداً ، ولكن الكتاب بين يدي القارئ فليفد منه ما شاء .

ولسنا بسبيل التقريظ والمدح ، فما كان المؤلف ولا كتابه بحاجة إليهما ، ولكنا بصدد نقد الكتاب نقداً علميًّا صحيحاً ، ببيان مزاياه ، وقد أشرنا إلى بعضها ، وبالاستدراك على ما وقع فيه من أخطاء ، بعضها ظاهر ، وفي بعضها موضع للنظر والتحقيق وتداول الآراء ، أداء لواجب الأمانة ، وإخلاصاً في النصيحة ، للعلم والقراء . وسأسوق مآخذي مساق الكتاب ، كما وردت في مواضعها أولاً فأولاً ، وذلك خير من تصنيفها على الأنواع المتجانسة ، وأيسر على القارئ المتتبع .

١ — وأول ما آخذه على سعادة المؤلف وعلى كثير من المتعرضين للتأليف في هذا العصر ، أنهم يذكرون مصادر كتبهم ، أعني المراجع التي يرجعون إليها أو يقتبسون منها ، جملةً واحدة فى آخر الكتاب ، ثم لا يشيرون إليها في كل موضع مناسب نقلوا فيه أو اقتبسوا . وفي ذلك إرهاق للقارىء وتعمية عليه وإعنات له ، إذا ما أراد أن يتوثق من صحة النقل ، أو يحقق موضعاً يرى فيه رأياً يخالف ما ذهب إليه المؤلف ، أو غير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة . وحقاً لقد أتعبني هذا الكتاب أياماً طوالاً في تتبع النصوص والوقائع في مظانها من مراجعه ومن غيرها ، ولعله فاتني التوثق من بعضها ، بعد تجويد البحث وطول العناء .

وبمناسبة المراجع ، هل يأذن لي المؤلف أن أذكره بمراجع مهمة حافلة في ترجمة عمر ؟ لا أدري لم أغفلها فلم يرجع إليها ولم يذكرها في مصادره ؟ وسأكتفي بالمراجع المطبوعة ، أما المخطوطات فأمرها فيه عسر وتكلف . وهذه الكتب المطبوعة هي : « سيرة عمر بن الخطاب » للحافظ أبي الفرج بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ ، وهي كتاب حافل في ٢٥٦ صفحة . ترجمة عمر في كتاب « حلية الأولياء » للحافظ أبي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ (ج ١ ص ٣٨ — ٥٥) . ترجمته في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (ج ا ص ١٠١ — ١١٢) ترجمته في تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ (ج ١ ص ٦ —٨) . مسند عمر بن الخطاب للحافظ يعقوب بن شيبة المتوفى سنة ٢٦٢ وهو مطبوع حديثاً ، طبعه الدكتور سامي حداد في المطبعة الأمريكانية ببيروت سنة ١٩٤٠ عن مخطوطة أثرية عتيقة . وترجمة عمر في كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٣ ص ٩٢ — ١٨٠ وهي ترجمة واسعة حافلة .

ثم ترجمة عمر في كتب تراجم الصحابة والرجال ، كالاستيعاب وأسد الغابة والإصابة وتهذيب التهذيب وغيرها .

٢ — (ص ٤٧) في فتح إصطخر ذكر المؤلف رئيس الفرس وقائدهم باسم « الهربز » وضبطه بكسر الراء وفتح الباء وبالزاي في آخره ، وكرره بعد ذلك كثيراً بهذا الاسم ، وضبط الهاء في بعض المواضع بالكسر . وهذا — فيما نرى — غلط لا نعرف له وجهاً ، إلا أن يكون المؤلف يريد مقاربة الاسم الأعجمي ، إن كان هو يعرف اللغة الفارسية ، وما إخاله . وأما صحة الاسم الذي عربه إليه العرب ، وهم كانوا في ذلك العهد عربا على فطرة اللغة وقوتها ، ونقله عنهم المؤرخون الأثبات « الهِرْبذ» بكسر الهاء وسكون الراء وكسر الباء وآخره ذال معجمة ، وبذلك عرفه أئمة

اللغة ، عرفوه لقباً يوصف به ، ففي المعرب للجواليقي (ص ٣٥١ طبعة دار الكتب المصرية بتحقيقنا) : « الهربذ بالكسر : واحد الهرابذة ، وهم خدم النار ، وقيل حكام المجوس الذين يصلون بهم ، أعجمي معرب » . ثم قال : « ويجمع هرابذة وهرابذ » . ونحو ذلك في معاجم اللغة . فما أرى وجهاً لما جاء به المؤلف ولا مصدراً .

٣ — (ص ٨٤) نقل المؤلف حديثاً يستدل به على إيمان عمرو بن العاص ، فنقله محرفاً ، ولا نظنه غلطاً في التصحيح المطبعي ، نقله هكذا « أسلمُ الناسِ وآمنُ الناسِ عمرو بن العاص » وضبطه في الطبع برفع أفعل التفضيل وبجر كلمتي « الناس » ولعله فهم أن « أسلم » و « آمن » صيغتا مبالغة من « الإسلام » و « الإيمان » وما هما كذلك في اللفظ الذي حكى ، وإنما يكونان من « السلامة » و « الأمن » . وصحة لفظ الحديث « أسلمَ الناسُ وآمنَ عمرو بن العاص » وهو حديث رواه الترمذي في الجامع الصحيح (ج : ٢ ص ٣١٦ من طبعة بولاق وج : ٤ ص ٣٥٥ من شرح المباركفوري طبع الهند) وهو عندي حديث حسن جيد الإسناد ، وإن وصفه الترمذي بأنه « غريب وليس إسناده بالقويّ » .

٤ — (ص ١٠١) قال المؤلف : « منف عاصمة مصر حين كان العالم كله يتطلع إلى مصر على أنها مهبط الوحي ومستقرّ الحضارة فيه » وهذا غلو في العصبية ، فما كان العالم إذ ذاك ينظر إلى مصر النظرة التي يراها بها المؤلف ، وإنما هو يرى بنظر أهل هذا العصر أو بعضهم . ثم لم يزعم أحد قط أن مصر كانت « مهبط الوحي » ! وأين كان هذا الوحي ؟ أهو وحي الفراعين والأوثان ؟ ! لم يعرف التاريخ نبياً أوحى إليه في مصر إلا ما أخبرنا القرآن الكريم عن يوسف وعن موسى عليهما السلام ، وهما يرجعان بأصلهما إلى جزيرة العرب .

٥ — (ص ١١٩ — ١٢٠) نقل المؤلف روايةً عن المستشرق بتلر أوردها عن الطبري ، ثم نقدها نقداً جيداً فقال : « والطبري لا يورد مثل هذا التفصيل ، على أن المؤرخين المسلمين جميعاً يذكرون أن عمراً أجاب المقوقس إلى الصلح على الجزية بعد أن اقتحم المسلمون الحصن » . وإلى هنا كان يحسن الوقوف ، بتلر نقل شيئاً نسبه إلى الطبري ، وتبين المؤلف أنه غير صادق في نقله ، وأن الطبري لم يقله ، وأن المؤرخين المسلمين جميعاً يذكرون غيره ، فماذا بعد ذلك ؟ ! لا شيء . ولكن المؤلف يحاول أن يصحح كلام بتلر ، فيقول عقب ذلك : « فإذا صح أن المقوقس لم يكن بالحصن وكان قد نُفيَ بعد ذهابه إلى هرقل ، فلعل قائد الحامية هو الذي صالح عمراً على ما جاء

في رواية بتلر » ! ! ولم تكن لبتلر رواية ، حتى نظن أنه لعله نقلها من مصادر لم نصل إليها ، إنما هو ينقل شيئاً معيناً عن كتاب معروف في أيدي الناس ، ثم يتبين أن نقله غير صحيح ، وأن ما نسبه إلى ذلك الكتاب المعين ليس فيه . فماذا يحدونا إلى أن نعتبر كلامه رواية له ، ثم نتأولها ونحاول تصحيحها ؟ !

٦ — (ص ١٥٢) نقل المؤلف كلاماً في وصف مرآة الإسكندرية ، وضعه بين أقواس ، كما اعتاد الناس أن يصنعوا حين ينقلون كلام غيرهم ، ليدلوا القارىء على أن المنقول هو نصّ ما قال المنقول عنه ، فهذا ما قال المؤلف : « ويقول السيوطي : « إن عرضها كان سبع أذرع ، وإنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد أوزوبا ، وكانت تستعمل لإحراق سفن العدو ، فكان الموكلون بها يديرونها نحو الشمس وهي مائلة للغروب فتنعكس عليها الأشعة وتحرق سفن العدو . والإجماع على أنها تظهر السفن وهي أبعد من مدى البصر » . وهذا ما نسبه للسيوطي على أنه نص عنه ، وهاك ما قال السيوطي نصًّا في كتاب حسن المحاضرة (ج ١ ص ٥٤ طبعة إدارة الوطن سنة ١٢٩٩) : « وكان عليها مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع ، كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم ، فإن كانوا أعداءً تركوهم حتى يقربوا من الإسكندرية ، فإذا قربوا منها ومالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس فاستقبلوا بها السفن حتى يقع شعاع الشمس في ضوء المرآة على السفن ، فتحرق السفن في البحر عن آخرها ، ويهلك من كان فيها » . فالسيوطي لم يقل « سبع أذرع » ولم يقل « من بلاد أوروبا » ولم يقل « والإجماع » إلخ ! !

٧ — (ص ١٨١ — ١٨٤) تحدث المؤلف عن خرافة عروس النيل حديثاً طويلاً ، نأخذ عليه فيه أنه أولاً : زعم « أن العلم قد أثبت من بعد أنه لم يحدث قط أن ألقيت عذراء في النيل حثًّا على الفيضان » وهذا كلام ضخم لا نظن أن عالماً يقوله ، فإن العلم لا يثبت نفياً في الحوادث التاريخية ، وكيف يثبت النفي وأنى ؟ ! لو قال « لم يثبت التاريخ » أو « لم يثبت العلم ذلك » لكان أجدى به ، وأقرب إلى الصحة ! وثانياً : أنه استنار بعلم الأستاذ سليم بك حسن ورأيه ، وأنه كان من رأى سليم بك أنه إن صح أن عمر بن الخطاب أرسل كتاباً ألقي في النيل ليفيض فلا يزيد هذا « على أنه كان مجاراة من الخليفة للمصريين في عادة لهم لا ضرر من مجاراتهم فيها . فقد كان من عادة الكهنة المصريين ، ومن عادة بعض ملوكهم أن يقيموا لإله النيل احتفالا في بدء الانقلاب الصيفي يقربون فيه للاله ثوراً وأوزة وقرابين أخرى من الخبز وغيره ، ثم يلقون في النيل وثيقة

مختومة من ورق البردي مخطوطاً عليها أمر للنيل أن يجري » إلخ . ونجل أولئك الناس ، عمر فمن دونه ، عن ظن السوء ، أن يجاروا الجهلاء الوثنيين في جهالاتهم وخرافاتهم ، وإنما كان عمر وكان المسلمون يجاهدون ويهدمون الوثنية ، ويسمون بالعقل الإنساني أن تحيط به الأوهام والخرافات والأساطير . ولم يكن لقصة عروس النيل وكتاب عمر أصل يثبت في التاريخ الإسلامي ، لم يروها أحد — فيما نعلم — بإسناد له اعتبار ، مما يثبت أهل العلم مثله . وهذا كاف جداً في نفيها .

٨ — (ص ٢٤١) ذكر المؤلف فيما حكى من صور النكاح في الجاهلية : « أن يتزوج رجل من امرأة فيذرها في قومها ، فإذا مر بهم في تجارته أو رحلته نزل عندها . وكان بعض النسوة يؤثرن البقاء في أهلهن إذ كن ذوات مال وحسب ، فكن لا يرضين مفارقة مالهن ومن يقومون على الإتجار فيه وتثميره . وكان الأبناء يبقون مع أولئك الأمهات حتى يشبون ، ولذلك كانوا ينسبون إليهن وإلى قبيلتهن . وذلك كان شأن سلمى بنت عمرو أحد بني النجار من الخزرج أهل يثرب ، فقد كانت امرأة ذات شرف ومال يتجر لها فيه قومها . ومر هاشم بن عبد مناف يوماً بيثرب عائداً من الشام ، فرآها تطل على قومها ، فأعجبته فخطبها إلى نفسها فرضيته زوجاً ، على أن تكون عصمتها بيدها . وولدت له شيبة ، فأقام معها بين أخواله بني النجار حتى مات أبوه ، ثم عاد به عمه المطلب إلى مكة » . وهذا بحث تهافت فيه المؤلف تهافتاً شديداً ! فإن هذا النوع من الزواج الذي صوره هو الزواج المعروف إلى الآن ، ومكث المرأة في أهلها لا يؤثر في عقد الزواج ، وإنما هو شيء يتراضى عليه الزوجان . واشتراط المرأة أن يكون أمرها بيدها لا يزال جائزاً في الشريعة الإسلامية في بعض المذاهب ، ومنها مذهب الحنفية ، وهو المذهب الرسمي للدولة وللقضاء الشرعي في مصر . وإنما ننكر على المؤلف أن يجعل نتيجة لهذا الزواج أن ينسب الأولاد فيه إلى النساء وإلى قبيلتهن ! ! فهذا شيء لم يعرفه العرب قط فيما أعلم ، ولعل حوادث نادرة قد وقعت في الجاهلية نسب فيها الأبناء إلى قبائل أمهاتهم لأسباب اقتضت ذلك ، نسيت مراجعها الآن ، ولكني أوقن أن ليس من هذه الأسباب هذا النوع ولا غيره من أنواع الزواج . وأذكر أن بعض أرباب الأغراض من المستشرقين وأتباعهم رموا العرب بهذه الفرية السخيفة ، نسبة الأبناء إلى أمهاتهم ، وأنه كتبت ردود قوية لإبطال هذه الفرية ، ولست أذكر الآن مواطن هذا البحث وتفصيله ، فلعل المؤلف علق بذهنه شيء من هذه الأباطيل فكتبه الآن في كتابه ، أو اعتمد على شيء قرأه لأعداء العرب ، فأثبته تاريخاً يوهم أنه جاء به من مصادره .

وما كان أجدره بغير ذلك لو روَّأ في أمره ، فتحقق مما يكتب وينقل ، أو نسب كل رواية لصاحبها ، ليبرأ من عهدتها . وهذا أقرب مثل لما أقول : إنه جعل أم عبد المطلب مثلا للنكاح الذي حكى ولنسبة الولد إلى أمه وأهلها . فإن الثابت في المصادر الصحيحة والذي لم نجد في الروايات غيره : أن هاشم بن عبد مناف قدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو ، وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلا فارقته ، فولدت لهاشم عبد المطلب فسمته شيبة ، فتركه هاشم عندها، حتى كبر ، ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه . إلى آخر ما جاء في سيرة ابن هشام (ص ٨٨ من طبعة أوربة) وهذه رواية مجملة ، ولكنها واضحة في أن نسب الغلام كان معروفاً لأبيه . وفي رواية مفصلة لابن سعد (ج ١ ق ١ ص ٤٨) أن ثابت ابن المنذر ، والد حسان بن ثابت ، جاء مكة معتمراً « فلقي المطلب وكان له خليلا ، فقال له : لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالا وهيبة وشرفاً » . فهذا ثابت بن المنذر كان يعرف نسبه وأنه ابن هاشم أخي المطلب ، فلم يكن يعرفه — وهو من بلد أمه — منسوباً إليها وإلى أهلها . وفي تاريخ الطبري (ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧) أن هاشما تزوج سلمى وشرط عليه أبوها « ألا تلد ولداً إلا في أهلها » . وأنه « ارتحل إلى مكة وحملها معه ، فلما أثقلت ردها إلى أهلها » . وأنها وضعت عبد المطلب « فمكث بيثرب سبع سنين أو ثماني سنين . ثم إن رجلا من بني الحرث بن عبد مناف مر بيثرب فإذا غلمان ينتضلون ، فجعل شيبة إذا خسَق — أي أصاب الرمية ونفذ فيها — قال : أنا ابن هاشم أنا ابن سيد البطحاء ! فقال له الحارثي : من أنت ؟ قال : أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف » . فهذا الغلام يعرف نسبه ويفخر به عند النضال ، وليس بعد هذا البيان بيان . فأين هذا كله مما وضع المؤلف في كتابه ؟ بل أين ما وضع المؤلف من هذا كله ؟!

وتتمة للبحث نذكر أن المؤلف لم يعرف صور الزواج عند العرب في الجاهلية ، وإن زعم أنه جاء بها ! وهي ثابتة في الحديث الصحيح ، في صحيح البخاري (ج ٩ ص ١٥٨ — ١٥٩ من فتح الباري) وفي سنن أبي داود (ج ٢ ص ٢٤٩ من عون المعبود) .

٩ — (ص ٢٦١) تحدث المؤلف عن تعصب العرب لجنسهم حديث غير العارف به ، ثم عرض في أثناء ذلك لشأن القصاص في الشريعة فقال : « والقصاص حد من الحدود يقيمه ولي الأمر ، ولا يتولاه ولي الدم بنفسه » . وهذا غير صحيح ، فإن حكم الشريعة أن يُرفع الأمر إلى ولي الأمر أو نوابه ، من الولاة أو القضاة ، فإذا ماثبت حقُّ القصاص ووجب ، وحكم الحاكم به تولاه وليُّ الدم بنفسه إن كان قادراً عليه ،

والأصل في ذلك قول الله تعالى (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل) . وقد فرّع الفقهاء في ذلك صوراً كثيرة ، فيما إذا كان وليّ الدم عدداً أكثر من واحد ، أو كان صغيراً أو محجوراً ، إلى غير ذلك من الصور .

وأقرب مثل لذلك ماجاء في كتاب الأم للامام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي (ج ٦ ص ١٧ — ١٩) وفي كتاب البدائع لملك العلماء أبي بكر الكاساني الحنفي (ج ٧ ص ٢٤٣ — ٢٤٤) . ولقد أرى أن المؤلف قرأ كثيراً من كتب المستشرقين وغيرهم من الإفرنج ، ودرس القوانين الأجنبية وتوسع في دراستها ، فتأثر تأثراً قويا ظاهراً بما قرأ وبما درس ، فحين أراد أن يكتب في التاريخ الإسلامي وما يتصل به من التشريع الإسلامي غلبه مايعلم ، وملأ قلبه ونفسه يقيناً وإعجاباً ، فنسب إلى تاريخ الإسلام وإلى الشريعة ماخُيِّل إليه أنه ينبغي أن يكون ، ظناً منه أنه قد كان ! !

١٠ — ومما يتصل بهـذا أنه قال في تشبث العرب بالثأر (ص ٢٦١ — ٢٦٢) : « بل إن من الحضر الذين يمتون إلى البدو بصلة القربى من لاتزال فكرة الثأر متصلة في نفوسهم بكرامتهم وبحياتهم ، فهم لاينزلون عنها ، ولا يجدون في القانون وقصاصه مايرضي عاطفتهم ويعدل بهم عن جاهليتهم » . وقد كتبت بهامش نسختي في هذا الموضع حين قرأت الكتاب : « تعبير موهم ، وهو غير صحيح . فالقانون الذى ضُرب على بلادنا لايحكم بالقصاص إلا نادراً ، ثم هو يجعل القصاص من حق الدولة لا من حق ولي الدم خلافاً للشريعة . فكان علاجه خطأ وضرره كبيراً » . وهذا بحث فصلت القول فيه في كتابي (الشرع واللغة ص ٥٦ — ٥٧ و٨١ — ٨٣) .

١١ — (ص ٣٠٦) يسوق المؤلف قصة مقتل عمر ، فيقول فيها : « فلما بدأ ينوي الصلاة ليكبر إذا رجل ظهر فجأة قبالته فطعنه بخنجره » ! ! وهذا تعبير عاميّ عجيب في العامية ! فما « بدأ ينوي الصلاة » ؟ وما النية في علم المؤلف أو في ظنه ؟ ثم انظر أين هذا من قول عمرو بن ميمون الأوديّ التابعي الكبير ، وقد شهد مقتل عمر « فأقبل عمر ، فعرض له أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، فناجى عمر غير بعيد ، ثم طعنه ثلاث طعنات » . (ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٢٤٧) أوغير ذلك من نصوص المتقدمين البليغة ! وليت شعري مامنع المؤلف أن يقتبس شيئاً منها يجمل به كلامه ، كما كان دأبه أن يفعل ؟ !

١٢ — (ص ٣٠٩) استطرد المؤلف في حديثه عن مقتل عمر فترجم لكعب الأحبار فقال : « وكان كعب هذا من كبار أحبار اليهود في عهد النبي صلى الله

عليه وسلم ، وكان يتردد عليه مظهراً الميل إلى الإسلام ، مرجئاً إعلان إسلامه حتى يتحقق من كل الأمارات التي يجدها في كتب قومه عن النبي العربي وأصحابه ، فلما انتهى أمر الخلافة إلى عثمان أعلن إسلامه » . وفي هذا الكلام ما يوهم أن كعباً من يهود المدينة ، وهو من يهود اليمن . وكعب لم يَرَ رسول الله قط ، وإن كان من كبار الأحبار في عصره ، وإنما جاء المدينة مسلماً في خلافة عمر على الصحيح ، وقيل في خلافة أبي بكر . واليقين أنه كان مسلماً في عهد عمر ، فلم يتأخر إسلامه إلى عهد عثمان كما ادعى المؤلف . قال ابن سعد (ج ٧ ق ٢ ص ١٥٦) : « وهو من حمير ، من آل ذي رعين ، وكان على دين يهود ، فأسلم وقدم المدينة » ثم روى بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : « قال العباس لكعب : ما منعك أن تسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، حتى أسلمت الآن على عهد عمر ؟ » ثم روى أيضاً عن قتادة « أن كعباً أسلم في إمرة عمر » . ولو قرأ المؤلف ترجمة كعب في مظانها ، كطبقات ابن سعد والإصابة والتهذيب ، ما كتب كلمة مما قال . وما أدرى ما يمنعه أن يستوثق ويحقق ؟ ! هدانا الله وإياه بهدايته .

أحمد محمد شاكر

الفلسفة الرواقيـــة

تأليف الدكتور عثمان أمين

٣٢٠ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة الخانجى . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ اسماعيل مظهر

قال منتسكيو : « استطاعت الرواقية وحدها أن تربى مواطنين أحراراً ، وأن تنشىء رجالا عظماء ، وأن تخرج أباطرة كباراً »(١) . وزاد إلى ذلك فيلسوف إنجليزي كبير ومؤرخ من ثقات المؤرخين ، فقال : « إن الرواقيين هم الذين واسوا المتألمين ونصحوا الشباب وأرشدوا العامة »(٢) . خلال لا يفخر بها غير الرواقية في مذاهب الفلسفة ، وخصائص ترجع على الأكثر إلى الجهة الخلقية من التعاليم الرواقية ، والأمثال العليا التي ميز بها رجال نشأتهم أمتان من أعرق أمم الأرض علماً وقدرة ، الأغارقة والرومان . ولقد ظل هذا المذهب أشتاتاً ناقصة وأبادید متفرقة في قليل من كتبنا العربية القديمة ،

---

(١) مقدمة الكتاب ص ٨ (٢) وليم إدورد هرتبول ليكي .

بل إن ما نقل منه إلينا في هذه الكتب كان عناصر مختلطة بغيرها من عناصر مذاهب أخرى يتعذر عليك استخلاصها واستجلاء نسبتها . فالعمل الذي قام به الأستاذ مؤلف الكتاب عمل جليل، جدير بأن يكون موضعاً للشكر والعرفان بالجميل.

منذ أكثر من ثلث قرن مضى كان المشتغلون بالبحوث التي تشغل آفاق الفكر العليا كالفلسفة والتحليل النقدي والاجتماع ، موضوع ابتسامات عريضة ترتسم على كثير من الشفاه ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بأنهم في قفر أملس من جهل الناس ، يردون على تلك الابتسامات بآمال تجول في صدورهم ، واثقين من أن أمم الشرق، والعرب منهم على الأخص ، لن تموت فيهم تلك النزعات الجيدة التي قادوا بها عالم الفكر قروناً كثيرة . أما اليوم، والقراء مقبلون على قراءة الفلسفة والجامعة تنشيء المشتغلين بها وبغيرها من البحوث التي كان الناس في الماضي القريب ينظرون فيها وأفواههم مفغورة رهبة وعجباً ، والأزهر يمتحن طلابه في الإله عند أرسطوطاليس ، عامة ذا يدل دلالة واضحة على أن الصبح قد أخذ يتنفس ، ومن بعده ستشرق ذكاء .

المذهب الرواقي في الفلسفة ، مذهب واسع الأرجاء مديد الآفاق . له نواحٍ في المنطق وأخرى في الطبيعة وثالثة في اللاهوتية ، وأهمها جميعاً مبادئه الأخلاقية[١] وخلقياته[٢] التي نشأت أعظم وأخير الأباطرة ، وقاومت ظلم غيرهم ممن عرفت رومية في عصور الظلامية ، كما كانت سلوى الذين أصابهم سوء الطالع ونزلت بهم كوارث الحياة ، وكانت موضع النصح للشباب والإرشاد لسواد الناس . لهذا يكون من الظلم أن نطالب مؤلفاً أن يلم في كتاب واحد بجميع هذه النواحي إلماماً تامًّا أو إلماماً يقرب من التمام . وهذا شأن الكتاب الذي ننظر فيه هنا نظرة نقد ، لانتناول مختلف نواحيه ، وإنما نتناول بعض النواحي دون بعض . ذلك بأن الإلمام بكل مايعني للناقد عند قراءة الكتاب يحتاج إلى فراغ كبير تضيق عنه صفحات هذه المجلة ، على رحابتها .

أول شيء : كان من الواجب على المؤلف أن يعقد في الكتاب فصلا بل فصولا يلم فيها بالأثر الشامل الذي كان للمذهب الرواقي في عالم الفكر الإنساني . مثال ذلك أن من المبادىء الجوهرية عندهم تسويد الضمير على كل منازع الأخلاق ، فكان لهذا المبدإ آثار واسعة جعلت للمذهب الرواقي طرازاً مخالفاً للطراز الأبيقوري ، وقوّى في الرواقية نزعات المثالية الغيرية بحيث خضعت المودّات التي تقوم بين الناس لحكم العقل ، فترتب على ذلك حتماً أن يفصل في الاعتبار العقلي والعملي معاً ، بين الفضيلة والمنفعة . أضف إلى ذلك أن

---

(١) Ethics (٢) Morals

المذهب الرواقي لتطرفه في المثالية جعل عملياته الخلقية غيرملائمة لأكثرية النوع البشري فكان هذا سبباً في أن يصاب المذهب بالفساد والتدهور السريع عندما بلغ قمة كماله في العصر الروماني . كذلك نرى من ناحية أخرى أن الرواقية كانت في عصور ازدهارها تامة القدرة على تمثيل الروح الحضارية والروح الأممّية ، وكان لنزعتها هذه آثار جلّى في توجيه شطر كبير من النشاط العقلي عند كثير من الأمم . وأخيراً وليس آخراً نقول: إن أعظم الآثار العملية التي خلقتها الرواقية كانت في تلك الناحية التي أوسعت من أفق القانون الروماني . عامة هذه الأشياء لايتم بحث المذهب الرواقي من غير أن يتعمق باحث المذهب في نواحيها واحتمالاتها وماترتب عليها من الآثار التي ذهبت الرواقية بصورتها وظلت ثابتة في ميراث النوع الإنساني بروحها .

هذا كله لا ينقص من شأن الكتاب بصفة أنه كتاب استعرض فيه المؤلف ذلك المذهب استعراضاً رتيباً نظما يمكن أن يتخذ أساساً لبحوث مقبلة أكثر استفاضة وأشمل إحاطة .

إن من بين الأشياء في نشأة المذهب الرواقي أنك تلحظ اختلافاً بيناً بينه وبين بقية المذاهب الأخلاقية ، وإذا قارنت بينه وبين مذهب أرسطوطاليس مثلا وقعت على هذا الاختلاف ظاهر المعالم بيّن القسمات . فالمذهب الأرسطوطاليسي مذهب قام على الفكر والمنطق ، أما المذهب الرواقي فإنه تفسير صريح عملي وتحقيق بالفعل لصفات واضعه زينون القيطيومي .

جاء في ص : ١٥ من هذا الكتاب ما يحقق لدينا طرفاً من هذه النظرية : قال المؤلف : « أجمع القدماء على أن زينون كان على خلق عظيم ، وأن حياته على بساطتها كانت دائماً قدوة طيبة ومثالا أخلاقياً عالياً . بلغ هذا الحكيم من قوة الإرادة وطول الصبر وضبط النفس والفقه والسيطرة على الهوى ، مبلغاً أدهش معاصريه ، فكان الأتينيون يضربون به المثل قائلين: أضبط لنفسه من زينون . » . وأنت إذ تنظر في المبادىء الأساسية للرواقية فأي شيء ترى فيها إلا صفات زينون هذه ، ترجمت مبادىء فلسفية ، ثم طبقت عمليات . مما يؤيد هذه النظرية ويدعمها بقوة أن مبدأ حرية الإنسان في التخلص من الحياة بالانتحار إنما هو تقليد ورثه المذهب عن زينون أيضاً . فقد ذكر الأستاذ « ترنر » في كتابه تاريخ الفلسفة أن زينون بلغ أرذل العمر وقضى على حياته منتحراً ، فسرى هذا التقليد في المذهب وظل ثابت الأثر فيه حتى أصبح له فلسفة خاصة تجلت في العصر الروماني وانتقلت إلى الإسكندرية فملكت مشاعر كثير

من رجال المذهب التوريني ، أتباع أرسطيس من أصحاب مبدإ اللذة والألم ، وعلى رأسهم « هجسياس » الذي سمي في عصره رسول الموت .

هـذه الظاهرة الفذة ، ظاهرة ترجمة الصفات الخلقية التي يحوزها إنسان هبة من الطبيعة إلى مذهب فلسفي مقرر المبادىء محـدود الغايات ، تكاد تكون الظاهرة الجوهرية في نشأة المذهب الرواقي ، الذي هو من هذه الناحية يكاد يكون نسيجَ وحده .

***

من الأخطاء الشائعة في تاريخ الفلسفة والتي لم ينج منها كثير من أعلام المؤرخين ، القول بأن السبب في قتل سقراط هو تعاليمه الأخلاقيـة وعطفه من طريقها إلى الـكلام في الآلهة ، إنه بذلك أفسد شـباب أثينا وبدلهم من آلهتهم آلهة أخر . ولم ينج الأستاذ عثمان أمين من الوقوع في هذا الخطأ المألوف فقال :

وليس لدينا ما يدعو إلى الشك في صحة هذه الشهادة ، ولا في صدق ذلك الشعور الذي بعث الأثينيين على أن يخلدوا ذكرى زينون . حق أن الأثينيين أنفسهم أصدروا من قبل حكماً آخر مخالفاً على فيلسوف أثيني أصيل هو سقراط ، مع أن جميع ما وجهوا إلى سقراط من تهم ومفتريات* يمكن أن ينصب أيضاً على زينون . لـكن الحقيقة أن روح الاستقلال السياسي والديني كانت قد انقرضت من أثينا في ذلك الحين ، فاتضحت إذ ذاك فائدة المدارس الفلسفية ، وبان فضلها في إعلاء شأن المدينة وتثبيت أركان الحكم ، فلم يعد هناك ما يحول دون الاعتراف علناً بمناقب زينون وأمثاله » .

أما القول بأن روح الاستقلال السياسي والديني كانت قد انقرضت من أثينا في عصر زينون ، فدعوى تحتاج إلى دليل . فإن أثينا لم تخرج عن أنها دولة مدينية : (City-State)

---

* من العوامل التي اختفت وراء التهم التي وجهت إلى سقراط عوامل سياسية . فان ألقبيادس الذي لجأ إلى إسبارطة واعتبره الأثينيون من الخونة ، وذلك في حديث طويل ليس هنا محل ذكره ، كان في تلاميذ سقراط ومن المقربين في حلقته ، أضف إلى ذلك أن القبيادس انتهك الأسرار الألوزية وهي جزء من الدين الرسمي للدولة . كذلك حدث أن اثنين من خاصته أولهما إقريطياس ابن عم والدة أفلاطون وخارميدس أخاها كانا ضمن الثلاثين الذين أقامهم لوساندر ملك إسبارطة بعد انتصاره على الأثينيين سنة ٤٠٤ — ٤٠٣ ق . م ليضعوا التشريعات التي تحكم أثينا ، فانتهزوا الفرصة وأقاموا حكومة أوليفرشية (أي حكومة أقلية) ثورية واستبدوا بالأمر واضطهدوا الأحرار وصادروا الأملاك حتى فر أكثر الديمقراطيين إلى فيرايوس هرباً من عسفهم . فاذا أضفت هذين إلى القبيادس ، علمت كيف وقع في روع أهل أثينا أن سقراط إنما ينشىء خونة ويربي خوارج . و إذا أردت التوسع فارجع إلى كتاب Socratis تأليف العلامة الانجليزي ا . تيلور A. E Taylor ص ٩٤ إلى ص ٩٧ وص ٩٩ و ١٠٠ إلى ١٢٩

شأن كل دولة مدينية في العصر القديم، دعامة وجودها التماسك الاجتماعي وحب الاستقلال وتقديس آلهتها الخاصة . فالقول بأن روح الاستقلال كانت قد « انقرضت » في أثينا في عصر زينون دعوى عريضة وعريضة جداً ليس عليها من دليل . وإنما يمكن إقامة الدليل حقيقة على أن الرأي قد تغير وانحرف عن تزمته الأول في عصر زينون عما كان عليه في عصر سقراط . بل إنه في عقيب القضاء على سقراط أسف الأثينيون على فعلتهم وشعروا بأنهم ارتكبوا شططاً كبيراً ، فدل في هذا على تحول الرأي بدأ من قبل عصر زينون بل بعيد موت سقراط نفسه . هذا من غير أن « تنقرض » روح الاستقلال السياسي والديني في أثينا ، وإلا لانحلت رابطة الدولة انحلالا تاماً ، وروح الاستقلال السياسي والديني هما الدعامتان الأساسيتان اللتان قامت من فوقهما كل دولة مدينية في العصر القديم . أضف إلى ذلك الحقيقة الرائعة، حقيقة أن سقراط كان صديقاً لألقبيادس ✡ الذي نفي من أثينا لأسباب سياسية، فنقم عليه الأثينيون ذلك، ونقموا عليه منطقه الذي روجه في الأسواق بين الشباب . الفارق العظيم بين سقراط وزينون أن الأول اتخذ صفة الداعية الشديد المراس المؤمن بأن ناحيته الفلسفية العملية هي أن تصبح عقيدة مألوفة عند الناس . أما الثاني فاتخذ صفة المعلم القابع في رواقه ، والمقصورة تعاليمه على حقيقة خاصة من المريدين والأتباع .

إلا أن القول « بانقراض » الروح السياسي والديني في أثينا في عصر زينون إفراط لا مبرر له ولا دليل عليه .

✡ ✡ ✡

جرى كثير من الكتاب وعلى رأسهم فئة من نابهي الفرنسيين على أن المذهب الرواقي مذهب توليفي أو تلفيقي أو انتقائي Eclectic وجاراهم في ذلك الأستاذ عثمان أمين في كتابه هذا . ولست أقول بأن هذه النظرية خطأ محض ، كما أني لا أستطيع أن أقول إن كل مافيها صواب محض . أما نظريتي الخاصة فهي أن الظاهرة التوفيقية في المذهب الرواقي إنما هي ظاهرة اندست فيه بالواسطة لا بالأصالة . وهذه النظرية تحتاج إلى قليل من الشرح نمضي فيه من قبل أن نلج رحابها .

بدياً لانستطيع أن نفصل بين أي مذهب فلسفي وبين مزاج واضعه، ذلك بأن للمزاج أثراً في كل مذهب هو فيه ند لأثر العقل والمنطق . بل إن كثيراً من أصحاب المذاهب حاولوا أن يتخذوا من العقل والمنطق أداتين لتحرير مذاهبهم بما يوافق أمزجتهم . هذا

✡ انظر كتاب تيلور Taylor عن سقراط .

من جهة . ومن جهة أخرى لا نكران مطلقاً في حقيقة أعتقدها وأومن بها ، هي أن زينون فيلسوف يوناني بمزاج فينيقي ؛ بل إن شئت فقل فيلسوف يوناني بمزاج سامي . هو فيلسوف يوناني بالواسطة ، وذو مزاج فينيقي بالأصالة . يؤيدني في هذا قول المؤلف في ص ٢٤ : « ومن العجب أن زينون وإن كان مضمون تعاليمه يونانياً ، إلا أن نغمة صوته أقرب نغمة إلى الأنبياء : كان يشعر أنه مكلف رسالة يريد أن يؤديها وأن يأخذ الناس بها كاملة . فكان لا بد له أن يساير حاجات العقلية اليونانية المولعة بالاستدلال والجدل والإقناع ، فعبر عن رسالته تلك في صورة حجج موجزة وأقيسة محبوكة كانت تبدو كأنها خلعت على كلامه يقيناً رياضياً . وإليك مثلا من طريقته في التدليل على وجود الآلهة : قال : العقل والحكمة يقتضيان أن نمجد الآلهة ، وليس من الحكمة أن نمجد أشياء ليست موجودة . وإذن فالآلهة موجودة » .

الظاهر أن المؤلف قد نقل هذه العبارة عن « أرنيم » المؤلف الفرنسي . ونترك هنا « لأرنيم » دعواه بأن حجج زينون التي تضفي على كلامه يقيناً رياضياً ، لأن برهانه الذي أتى به هنا في إثبات وجود الآلهة أقرب إلى السفسطة أو المغالطة ، منه بروعة البراهين الرياضية ، وإنما نعود إلى المستخلص من هذه العبارة ، وهو أن مضمون تعاليم زينون يوناني ، أضفيت عليها نغمة نبوية . هذه التعاليم اليونانية هي الناحية التوليفية (على مايقولون) التي جاءت بالواسطة في تعاليم الرواقية . أما تلك النغمة النبوية فهي الناحية الأصلة في المذهب الرواقي . استمدت الأولى باللقانة ومن روح العصر ، ونبعت الثانية من صميم الروح ومن أروقة المزاج . ومن عجب أنك إذا تأملت ما كتب سنيكا أو أبقطاطوس أو فيقرون أو أنعمت النظر في تأملات مرقص أو ريليوس نفسه ، أدركت لأول وهلة أن التعاليم التي استمدت باللقانة وأدمجها زينون في تضاعيف مذهبه الأخلاقي قد قمأت وذلت بل كادت تضيع ، وأن الناحية التي استمدت من روح زينون ومزاجه ، الناحية النبوية من المذهب هي التي أينعت وأثمرت وآتت أكلها . وإذن تكون الجهة التوليفية إن كان هناك توليف ناحية ميّته في المذهب الرواقي ، والناحية الروحية أو النبوية (مع التجاوز) ناحية حية ، وهي في الواقع لبّ ذلك المذهب العظيم .

ذلك يؤيد ما سبق لنا القول فيه من أن المذهب الرواقي صورة من صفات واضعه ، هذه الصورة ظلت حية في تضاعيف المذهب، بل ظلت المركز الذي تدور من حوله رحاه طوال العصور التي ازدهر فيها وأينعت أيما ايناع في العصر الروماني .

أن يكون زينون قد أخذ عن الكلبيين شيئاً وعن الأبيقوريين شيئاً آخر من التعاليم

التي يقال إسرافاً إنها يونانية بالنشأة الأصيلة ، فذلك أمر طبيعي أن يأتي مع التعليم وباللقانة ، وأن يكون قد أخذ عن هيرقليطي أوفيثاغورس أشياء جعلها موضع بحثه في الطبيعيات أو التأمل ، فليس من شأنه أن يصم المذهب الرواقي بأنه تلفيقي أو توليفي . ذلك بأن المذاهب التوليفية ظلت وستظل أضعف مذاهب الفلسفة ، بل إن التوليفية في المذاهب هي عنوان الرجرجة والانحلال . وإن مذهباً يظل ثابت الأركان منذ عصر زينون حتى تزعزعه النصرانية ويخلف آثاراً ثابتة في التشريع الروماني ، لمذهب أصيل بعيد عن أن تكون صفته الرسمية توليفية بمعنى الكلمة .

تضاربت الأقوال في كتاب الأستاذ عثمان أمين وفي صفحة واحدة في هذه المسألة . فبينما تراه يقول بأن تعليمه إغريقي تراه يقول بأن مزاجه شرقي. يقول: «والقصة التي تروي خبر قدوم زينون إلى أثينا بعد اشتغاله بالتجارة إنما تفيد أن الذي جعل منه فيلسوفاً لم يكن في الحقيقة مؤثراً أتاه من بلاده ، بل من المدارس اليونانية التي أعجب بها ومن أساتذة أثينا الذين أقبل على مجالسهم وتلقى عليهم » . ثم يقول : « على أنه لم يكن من الميسور أن نبين في وضوح أن مادة التعليم الزينوني تحتوي على عناصر من تقاليد الساميين، فيمكننا أن نلاحظ في صورة ذلك التعليم شيئاً يفرق بين « زينون » وبين غيره من فلاسفة اليونان . قيل إن مثال « زينون » أقرب إلى النبي الشرقي منه إلى مثال الفيلسوف اليوناني . والقولتان في صفحة واحدة هي صفحة ٢٣ من الكتاب .

ونحن نقول إن الذي جعل من «هربرت سبنسر» فيلسوفاً وكان مهندساً هو المزاج ، والذي جعل من زينون فيلسوفاً وكان تاجراً هو المزاج أيضاً . المزاج هو ناحية الأصالة في زينون وفي غيره ، والتعليم واللقانة هي ناحية الواسطة في زينون وفي غيره أيضاً .

قلما تستطيع أن تفرق بين المبدإ والمزاج ، أو تفصل بين الفلسفة والمزاج . المزاج هو العامل الذي يختفي وراء المذاهب المتفرقة . اعتبره في نقد المذاهب تصل غالباً إلى حجر الزاوية في كل مذهب . من هنا كانت دراسة واضعي المذاهب الكبرى من حيث النشأة والوراثة من أهم عناصر النقد الآن وفي كل العصور .

وإذن نقول إن المذهب الرواقي مذهب أصيل لا توليف فيه إلا بقدر ما تنتحل المذاهب المتعاصرة بعضها من بعض . أما روح التوليف ذاته ، ففي روح التعمد في التوفيق بين المذاهب المتفرقة ، والأخذ من كل منها بأطراف يحاول المؤلف الربط بينها عمداً وتحكماً فليس في المذهب الرواقي من ذلك شيء على إطلاق القول .

✡ ✡ ✡

في الكتاب نواحٍ كثيرة أوحت إلينا بكثير من النظريات والفكر . إذن فقد حرك ذلك الكتاب الفكر وبعث على التأمل . وكفى بذلك وحده أن يكون أخلق الأشياء للاعتراف بفضله وقيمته .

بقيت في الكتاب نواحٍ من النقد شكلية صرفة نبقي عليها إلى فرصة أخرى .

اسماعيل مظهر

التصوف وفريد الدين العطار

تأليف الدكتور عبد الوهاب عزام

١٣٠ صفحة من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

أخرجت الجمعية الفلسفية المصرية هذا العام فيما أخرجت ثلاثة كتب تتصل بالتصوف الإسلامي . أفكان ذلك منها قصداً أم عفواً ؟ وهل أزعجتها تلك الحرب التى نفضنا الغبار اليوم عن معاركها فأرادت أن توجه الناس إلى الحياة الروحية ولذائذها بدلا من تلك المادية المدمرة التي عانت منها الإنسانية ما عانت وخاصة في هذا الزمن الأخير .

الحق أن الجمعية الفلسفية المصرية مشكورة على هذه الناحية التي أرادت أن تجلوها من تاريخ الروحية الإسلامية . والحق أن الدكاترة الثلاثة : عبد الوهاب عزام ومحمد مصطفى حلمي وأبو العلا عفيفي قد أحسنوا الإحسان كله فى انعقاد العزم على غرض واحد وإن كان الموضوع غير واحد . فالدكتور حلمي كتب عن الحياة الروحية في الإسلام ، والدكتور عفيفي عن الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، والدكتور عزام عن التصوف وفريد الدين العطار .

وعجيب جداً أن تخرج هذه الكتب الثلاث على الولاء — واحد في أثر صاحبه — من غير أن يقطع هذا النظم المتناسق كتاب في الاجتماع أو آخر في علم النفس أو ثالث في الاقتصاد مثلا . كأن النية انعقدت فيما بينهم على أن يسبحوا بقرائهم ثلاثة أشهر متوالية في عالم الروح والصفاء .

وما أظن أن هناك ائتماراً بين هؤلاء الأساتذة ولا انعقاد نية . . . ولكنها فكرة غلبت على كل واحد منهم فصادفت من الجمعية قبولا ، ولعلها صادفت من القراء مثل ماصادفت من الجمعية نفسها . فأمتعونا بساعات من الصفو في أفياء التصوف والروح . . .

ولعل كتاب الدكتور حلمي أعم الثلاثة من ناحية الموضوع . أما كتابا الدكتورين

أبي العلا وعزام في ناحية خاصة من التصوف . فالأول منهما في الملامتية وأهل الفتوة ، وهما فرقتان من المتصوفة . والثاني في فريد الدين العطار الشاعر الفارسي المتصوف .

وكان طبيعياً من الدكتور عزام وهو يكتب عن العطار أن يعرض للتصوف الإسلامي ونشأته وتطوره . وقد أوجز العرض إلا أنه أحسن فيه الإحسان كله . فقد لخص أقوال الباحثين في نشأة التصوف الإسلامي وهل هو رد فعل لفرض العقائد الإسلامية على الأمم الآرية تخلصاً من عقيدة التوحيد المطلق ، ومن التكاليف المحدودة المحكمة التي كلف بها الإسلام ، أم هو مأخوذ من الناحية الفلسفية عن الأفلاطونية الحديثة أكثر من أية فلسفة أخرى ، كما يذهب إليه « براون » في تاريخ الفرس الأدبي « ونيكلسون » في مقدمة القصائد المختارة من ديوان « شمس تبريزى » . أم هو ناشىء في الجماعة الإسلامية مستقلا عن الفرس والهند واليونان ؟

والدكتور عزام يرى أن التصوف الإسلامي وجد مبادئه في الكتاب والسنة . ولكن لا ينكر أنه أخذ في سيره أقوالاً وأفعالاً من النصرانية أو البوذية أو الأفلاطونية الحديثة . وذلك مذهب الذين يردون التصوف الإسلامي إلى غير واحد من المصادر السابقة . وهو مذهب معتدل فيما نرى ، وطريق وسط بين الطرق المختلفة التي ذهب إليها الباحثون .

ولا يضير التصوف الإسلامي أن يرجع إلى غير الكتاب والسنّة وإلى غير الحياة الإسلامية نفسها . وليس يضيره أن يكون أخذ من الهند والفرس واليونان فوق ما أخذ من الجماعة الإسلامية الناشئة في ظل الدين الجديد .

ولا نشك أن الدكتور عزام ارتضخ هذا المذهب القَوَام بعد إيمان به وبعد اقتناع بوجاهته . ولا يطعن ذلك في عربية الدكتور ولا في إسلاميته . فما كان من المعقول أن تقف الحياة الإسلامية جامدة أمام تيارات مختلفة من غير أن تفيد منها شيئاً . وما قيمة الغلو عند الدكتور حامي حين يذهب إلى أن ذلك المصدر إسلامي بحت ، بل يغلو أكثر من ذلك فيرده إلى حياة النبي العربي قبل أن ينزل عليه الوحي ؟

لقد تحنث محمد عليه السلام في غار حراء قبل أن يكون نبياً . ولكن تلك المجاهدة والعزلة والرياضة الروحية التي أخذ بها النبي نفسه قبل بعثته لم تَعْدُ أن تكون نوعاً من مجاهدات الروح التي ظهرت في الجزيرة العربية قبل ميلاد النبي بآلاف السنين . وما كان رسول الله بدعا من الرسل الذين قبله ، ولا كان تحنثه في الجاهلية حدثاً جديداً حتى يقول الدكتور حامي إنه البذرة التي نبت منها زهد الزهاد وتصوف الصوفيين .

والدكتور عزام لا يجزم في هذا الشأن بالرأي يسوقه على طريقة لا تقبل معارضة ،

ولكن يسوقه على سبيل الرجحان كما فعل « نيكلسون » من قبله . فتسليم إبرهيم بن أدهم وحب رابعة العدوية ومعرفة ذي النون والجنيد وفناء أبي يزيد والحلاج ونظرية الإنسان الكامل التي بدأ بها الحلاج وشرحها ابن عربي ثم عبد الكريم الجيلي ، وفلسفة السهروردي في حكمة الإشراق وهيا كل النور ، كل هذه توحي باتصال بين الصوفية والنساك في الأمم الأخرى وفلسفة الأفلاطونية الحديثة . وذلك كلام ما بعده كلام في مثل هذا المقام ، وخاصة « أن التشابه لا يثبت الاتصال ولكن يؤذن به . لا سيما في الأمور التي ليست نتيجة الفكر البشري الطبيعي والوجدان الإنساني العام ، وهما متشابهان في الأمم ، ولكنها نظرات فلسفية خاصة لا يجتمع عليها الباحثون اتفاقاً كفيض العالم عن الله وتسلسله في الأفلاطونية الحديثة والصوفية » .

في الكتاب فصل عن صلة التصوف بالأدب ، وهو لا يعدو بضع صفحات . وحبذا لو أطال الدكتور عزام الكلام فيه ، ولو أن ذلك يخرج الكتاب عن موضوعه ، فالكتاب في فريد الدين العطار لا في الصلة بين الأدب والتصوف ، فذلك موضوع من حقه أن يصنع فيه كتاب وأن يكون صانعه الدكتور عزام نفسه ، فمعرفته بالتركية والفارسية تجعله أولى الناس بالحديث فيه .

وقد استشهد الدكتور بكلام منثور لطائفة من رجال التصوف منهم النفري صاحب « المواقف » والمحاسبي صاحب « التوهم » وليأذن لنا الدكتور أن نقول إن كتاب « التوهم » ليس في التصوف المحض ككتاب « اللمع » للسراج مثلا . ولكنه كتاب جمع فيه مؤلفه بين طريقتي الترغيب والترهيب على نحو ما جاء في القرآن ، فهو يصف الجنة ونعيمها والنار وأهوالها وصفاً يعد أول شيء من نوعه في التأليف العربي . ولست أنكر مقام المحاسبي في التصوف ولا إشارة المستشرق ماسينيون إليه في كتابه « أصول المصطلحات الصوفية الإسلامية » ، ولا تحليل الدكتورة مرجريت سميث لآثاره في التصوف ، ولا رجوع الغزالي إليه وهو يكتب عن التصوف في « الإحياء » ولكن كتاب التوهم يظل مع ذلك كله بعيداً عن التصوف بالمعنى الأصطلاحي المعروف . وما أصدق الدكتور آربرى وهو يعد كتاب التوهم من كتب « الوعظ » في مقدمته الإنجليزية لكتاب التوهم المطبوع لأول مرة في مصر سنة ١٩٣٧ .

أما الفصل في تاريخ العطار وسيرته ورحلاته وعيشته وطلبه العلم ومناقشة الروايات المختلفة في تاريخ وفاته فهو فصل فيه من تحقيق الدكتور عزام كثير . والحق أنه أول من عرّف القارئ العربي بهذا الشاعر الصوفي الخراساني ، وأول من وضع فيه

كتاباً عربياً . وتلك يد للدكتور لا ننساها ولا نبخسها قدرها ، فهو بذلك يصل بين حلقات التفكير الإسلامي التي قطعتها لغات غير العربية . وفي تاريخ الإسلام رجال كالعطار باعد بيننا وبينهم جهلنا باللغات الشرقية التي كتبوا بها وألفوا فيها .

وقف الدكتور عند وفاة العطار وقفة غير قصيرة يناقش الأقوال المختلفة في وفاته . وقد حمدنا له هذا الموقف قصد التحقيق والتثبت ، فذلك هدف يسعى إليه أهل التحقيق من رجال العلم . غير أن الدكتور أثبت وفيات بعض الرجال على غير ما جاء في الكتب المحققة والأقوال الراجحة . فقد ذكر في صفحة ٢٧ أن الشبلي البغدادي توفي سنة ٣١٢ هـ وفي وفيات الأعيان طبع بولاق « أن وفاته كانت سنة ٣٣٤ وقبل سنة ٣٣٥ . والأول أصح » . ومهما يكن من القولين فالسنتان بعيدتان عن سنة ٣١٢ التي ذكرها المؤلف الفاضل .

وذكر الدكتور أن الكرخي مات سنة ٢٠١ هـ . والأقوال مختلفة في وفاة هذا الزاهد العظيم . وقد ذكر ابن خلكان أنه مات في سنة ٢٠٠ هـ ، وقيل سنة ٢٠١ هـ ، وقيل سنة ٢٠٤ هـ . . . فاختار الدكتور عزام الرواية الوسطى وحدها ولم يشر إلى بقية الروايات حتى يطمئن قلب قارئه ؟ ولعل حضرته يرد بأن المقام لم يكن لتحقيق وفاة الكرخي ، ولكن كنا نؤثر أن يشير إلى ذلك في هامش الكتاب إشارة عابرة . وذكر أن السهروردي قتل سنة ٥٨٥ هـ . وفي ابن خلكان أنه قتل سنة ٥٨٧ هـ وقيل سنة ٥٨٨ هـ .

وذكر في صفحة ٢٣ أن الحسن البصرى توفي سنة ١١٩ هـ . وقد ذكر ابن خلكان وعنه أخذ صاحب « الأعلام » أنه مات سنة ١١٠ هـ ٭

وذكر الدكتور اسم « فرفيروس » مؤرخ أفلوطين على هذه الصورة التى رسمته عليها ، فهل هو غير « فرفوريوس » الذي رسمه مؤرخو العرب على الصورة الأخيرة ، وخاصة القفطي في تاريخه وابن أبي أصيبعة في « عيون أنبائه » ؟

ومن هو « وينسنك » الذي ذكره الدكتور في صفحة ١١ ؟ هل هو المستشرق الهولندي الذي مات من عهد قريب والذي جرينا على أن نرسم اسمه « فنسنك » ؟ . وإذا كان ذلك فلم لا نجري في رسم الأعلام الغربية وخاصة الحديثة — على طريقة واحدة ويدخل في هذا الكلام تسمية محي الدين بن عربي مرة بهذه الصورة ومرة بابن

٭ وفي شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ج١ ص١٣٦ ذكر البصري في وفيات سنة ١١٠هـ

العربى بزيادة « ال » لحبذا لو جرى حضرته في الرسم على نهج واحد ؟

ثم هل رابعة القيسية التي أشار إليها الدكتور في ص ٢٣ هي غير رابعة العدوية التي ذكرها ابن خلكان في ص ٢٢٧ ج ١ من وفياته ، والتي نعرفها جميعاً بهذا الاسم ، والتي كتب عنها معالي مصطفى باشا عبد الرازق مقالاً في الجزء الأول من السنة الأولى من مجلة « المعرفة » ؟ . صحيح أن ماسينيون قال عنها إنها من عتيك « على وزن أمير — لامن عُتيك — كما ذكر ماسينيون » . وعتيك هذه من قبيلة قيس . ولكن الدكتور عزام ينفرد في تسميتها بالقيسية ، وصحيح أن ابن خلكان ذكرها باسم رابعة العدوية البصرية . ولكنه لم يذكر هذه النسبة القيسية .

ثم إن ذكرها مرة بالقيسية ص ٢٣ ومرة بالعدوية البصرية ص ٢٦ مما يوقع القارىء في كثير من الحيرة والاضطراب ، وكنا نود لو جرى الدكتور على تسمية صحيحة واحدة .

الحق أن الذي أوقع الدكتور عزام في هذا الاضطراب هو أستاذنا الجليل مصطفى باشا عبد الرازق . فقد قال معاليه في مقاله القديم بمجلة المعرفة(١) (ويقول عنها — أي رابعة العدوية — الأستاذ ماسينيون — وعن رابعة القيسية . . . . الخ) .

ويخيل إلى بعد تعب في الرجوع إلى المصادر، وبعد قراءة لكتاب ماسينيون بالفرنسية أنه ليست هناك رابعة قيسية وأخرى عدوية ، ولكن هناك رباح القيسي مواطن رابعة العدوية، وقد ذكره ماسينيون في صفحة ١٩٥ فى معرض الحديث عن التصوف البصري(٢).

***

يقول الدكتورعزام في صفحة ٢٨ إن طيفور بن عيسى البسطامي تنسب إليه الكلمة المعروفة : ما في الجبة إلا الله . وماسمعت — على قدر علمي — أن البسطامي قالها ، ولكن ابن خلكان يقول « إن الذي قالها وأنكرت عليه هو الحسين بن منصور الحلاج »(٣) . ولم يذكر صاحب وفيات الأعيان مسألة الجبة في ترجمته للبسطامي ولكنه ذكرها في ترجمة الحلاج منسوبة إلى الحلاج نفسه .

وإني أعرف الدكتور عزام شاعراً وبصيراً بالشعر وأوزانه فكيف فاته الكسر فى عجز البيت الرابع من أبيات جلال الدين الرومي المترجمة(٤) . ونص البيت كما أورده الدكتور :

---

(١) السنة الأولى ج ١ عدد مايو سنة ١٩٣١ ص ١٥ .

(٢) Essai sur les origines du Lexique Technique de La Mystique Musulmane, par Louis Massignon — Paris 1922.

(٣) وفيات الأعيان طبعة بولاق ج ١ ص ١٨٤ (٤) صفحة ٨٧ من الكتاب .

ليس لي إلا سمو نحوه كل شيء هالك إلا وجهه

فالبيت من بحر الرمل ووزنه « فاعلاتن فاعلاتن فاعلن » . والشطر الثاني غير مستقيم مع هذا الوزن .

وهناك في صفحة أخرى* كسر آخر ، ولعله من أخطاء الطبع . فقد ورد البيت الآتي على الصورة التالية :

قال ما تبتغيه يبدو محالاً قلت إن المحال مأمولي

ولعل الصواب :

قال ما تبتغيه يبدو محالاً قلت إن المحال من مأمولي

وبذلك يستقيم الشطر ويصح الشعر .

***

وكم كان جميلاً من الدكتور أن يدفع عن العطار ما قد يرمي به من التكرار والإطالة في مواطن كثيرة من كتبه . واعتذر عن ذلك بأن فيض التصوف والشعر يخرج من المعنى الواحد مئات من الصور . ولعل الدكتور بهذا الدفاع الطريف يمهد لنفسه العذر في تكراره في الكتاب في مواطن كثيرة . فقد أورد البيتين التاليين لابن الفارض في ص ١٢ :

وألسنة الأكوان إن كنت واعياً شهود بتوحيدي بحال فصيحة

وإن عبدوا غيري وإن كان قصدهم سواي وإن لم يظهروا قصد نيتي

وأوردهما في ص ١٧ لمثل ما أوردهما من أجله في ص ١٢ . كما كرر قولاً واحداً للجنيد في صفحتي ٢٩ و ٣١ وكرر مخالطة الروح للمادة في صفحتي ٨٤ و ٨٧ ولو أنه قال في الصفحة الثانية « إن النفس الإنسانية التي هبطت من عالم الروح وخالطت المادة فقدت صفاءها » لانتفى التكرار بين الصفحتين .

***

وأخشى أن يكون الدكتور عزام نسي في المقطع الثاني من الفصل الثاني الغرض من كتاب يترجم فيه للعطار ويشرح تصوفه ، فقد أطال في اقتباس أقوال من الزهاد الأولين إطالة لم يكن ذلك محلها من كتاب في تصوف العطار . ولقد كان في سوق مثالين أو ثلاثة أو أربعة غناء للاستشهاد على تمهيد هؤلاء الزهاد النساك للحياة الصوفية الآتية بعدهم في أواخر القرن الثاني والقرن الثالث كله .

---

* صفحة ٩٨ من الكتاب

ولقد أحسن الدكتور عزام في ايراد النصوص المختلفة للزهاد والمتصوفة على أصح وجوهها ، فقد رجع إلى «البيان والتبيين» للجاحظ حينما روى عن النساك ، ورجع إلى كتاب « التوهم » للمحاسبي حينما استشهد على أدب التصوف .

وفي كتاب التوهم الذي نشره الدكتور آربرى وقدم له أحمد بك أمين وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بعض التحريف الذي فات مصححه ولكنه لم يفت قارئاً كالدكتور عزام ، في « التوهم » هذه العبارة « فتوهم نفسك بعريك ومذلتك . . . في زحمة الخلائق عراة حفاة صموت أجمعون » (١) فجعلها الدكتور عزام « عراة حفاة صموتاً أجمعين » . وهو على حق فيما فعل . فما كان لهذه الأوصاف أن تقع في تلك الجملة إلا أحوالا منصوبة .

وفي « التوهم » « فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي » (٢)، فجعلها عزام (فلا تسمع إلا همس أقدامهم وصوت المنادي) وقد أنصف بحذف هذه « المدة » التي لم نفهم بها الكلام على وجهه .

وهذا التدقيق والتحقيق وحسن البصر في النصوص يدعو أن نسأل الدكتور عن تساهله أحياناً في إيراد القول الواحد على وجهين قد لا يتأثر بهما المعنى ولكن تتأثر بهما إرادة التحقيق . فقد روى في صفحة ٢٩ عن الجنيد أنه قال : « ليس الاعتبار بالخزقة إنما الاعتبار بالحرقة » ، وفي ٣٠ — أي بعد صفحة واحدة فقط ذكر أن الجنيد قال : « إنما الاعتبار بالحرقة وليس الاعتبار بالخزقة » . ومؤدى الروايتين وملفوظهما يكاد يكون واحداً . لولا الفرق بين إيراد النفي أولا والحصر بإنما ثانياً ، وما يتبع ذلك من فرق دقيق في المعنى من حيث علم المعاني .

والدكتور عزام فيه حسن فهم للنصوص كما أسلفت ، لانه يقرأ بعينه وعقله . وفي أقوال الصوفيين ما يحتاج إلى كثير من العقل لإدراك المراد منه . وقد يفوت القارىء المراد فيحمد الله على أنه ظفر بعقله .. وقد قرأت في صفحة ٩٥ قول القشيرى «فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من غير الوجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود» . فلم أفهم قوله «والأحوال تأتى من غير الوجود » . ألا يكون في كلمة «غير» تحريف من الناسخ أو تطبيع من الطابع ؟

وعلى الرغم من غموض المتصوفة في أقوالهم وآرائهم — وخاصة في الله والوجود

---

(١) التوهم للمحاسبي — صفحة ٥

(٢) التوهم للمحاسبي — صفحة ٥

والعدم — نرى الدكتور عزام قد عرض بعض هذه المسائل عرضاً شفى النفس من كثير مما بها . . . وكلامه في صفحتي ٣٢ و ٣٣ هو برهان هذا الكلام . وكذلك كان الدكتور في حديثه عن تصوف العطار وطريق المعرفة عنده ، والله والعالم والإنسان ، والقضاء والقدر ، وما أبرعه وهو يحاول التوفيق بين أقوال العطار المتباينة في المسألة الأخيرة ، أو يحاول على الأقل تفسير مايبدو من التناقض بينها .

٭٭٭

لقد فتح الدكتور عزام كثيراً من مغالق العطار، وأبان فلسفة الصوفية على خير ما يتبين عليه كلام . وما كان من قصدي أن أخلع عليه الثناء المحض ، وأنا لا أعرف أنه يحب الثناء على حال يخرج النقد عن وجهه ، أو يكره النقد على حال تخرج العالم عن قصده . والعذر عما أطلت فيه من أمور ارتأيتُ فيها الرأي وله هو رأيه . وما عرفت منه الغضب أو البرم بما يغضب منه المؤلفون حين يستهدفون . ولكن عزاماً ليس مؤلفاً فحسب ، ولكنه عالم جمله الله بالتواضع .

ونحن في نشدان الحق دائماً على طرفي الخطاء والصواب ، وأرجو مخلصاً أن يكون أخي وأستاذي « عزام » ثاني الطرفين . . .

محمد عبد الغني حسن

الأمير حيدر

تأليف الأستاذ ابراهيم جلال بك

٢٣٦ صفحة من القطع الكبير . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

هو كتاب جديد بموضوعه وأسلوبه ، لك أن تسميه قصة من طراز غير مألوف في هذا العصر الذي ينزع إلى التحليل والتأويل والغوص على البواعث التي يصدر عنها المرء فيما يفعل ويترك ، ولك أن تسميه ، إذا اعتبرت ما اقتضاه وضعه من التنقيب والبحث ، ودراسة لأحوال عصر من العصور التي مرت بمصر ، وإن كانت لا تعد شاملة محيطة ، ولا متعددة الجوانب ، كما سنبين في موضع من هذا الفصل .

وقد اختار المؤلف فترة من عصر دولة المماليك الذين حكموا مصر وسورية نحو ثلاثة قرون هي التي تولى الحكم فيها السلطان الأشرف قايتباى من سنة ١٤٦٧ الى سنة ١٤٩٥ ويظهر من البواعث على هذا الاختيار ما ذكره المؤلف في المقدمة من أن الرأي استقر « بين أكثر الباحثين في نقد القصص (يعني ألف ليلة وليلة) وعلى رأسهم وليم لين ،

على أن هذا الكتاب وضع وكتب بين عامي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ . ويتفق أن عام ١٤٧٥ يدخل في مبدإ حكم السلطان أشرف قايتباي سلطان مصر والشام الذي حكم قرابة ثلاثين عاما من ١٤٦٧ إلى ١٤٩٥ . فكأن حكايات ألف ليلة وليلة قد وضع أغلبها على التحقيق العلمي في عصر ذلك الملك العظيم الشأن ، وهو العصر الذي جعلت بعض أحداثه موضوعا لقصة الأمير حيدر » .

ولما كان عظيم الإكبار لهؤلاء السلاطين المماليك ، ولقصص ألف ليلة وليلة، فقد وضع قصته « على نسق ألف ليلة وليلة ، وحرص جهده على تصوير المجتمع المصري ، بين أتراك ومصريين ، والتحدث عن مجالسهم ولهوهم وسمرهم ، وزواجهم ومتاجرهم ودسائسهم وبعض الأحداث الخارجية » .

ومرجعه في ذلك كله المقريزي ، وابن تغري بردي ، وابن إياس ، وابن فضل الله ، والقلقشندي ، وابن خلكان ، وكترمير ، ودوزي .

ومن العسير أن نسوق للقارىء موجزاً للقصة ، فإن شجرتها سوف تتشعب من ساقها أغصان كثيرة ما بين دقاق وغلاظ ، ويتفرق من شعب أفنانها شماليل شتى ، وليس المعول في القصة — أية قصة — على ما يجري من الحوادث سواء أكان مدارها على الحب أو القتال أو غير ذلك ، وإنما المعول على التناول الفني للحادثة أو الحوادث . وما أكثر القصص التي يكون موضوعها غاية في البساطة والخلو من التعقيد ، وهي مع ذلك توضع في أسمى مرتبة بين نظائرها . والعكس أيضاً يصح في كثير من الأحيان ، فرب قصة لا يكاد القارىء يقرأ منها صفحات حتى يعكف عليها ويلتهمها لشدة حذق صاحبها ببواعث التشويق ، وهى مع ذلك لا ترتفع إلى مرتبة الأدب ، ولا تعد أكثر من مسلاة يُزجّى بها الفراغ أو يقتل بها الوقت كما يقولون . ومن هذا القبيل معظم الروايات البوليسية وقصص المغامرات التي يكون الشأن الأكبر فيها للوقائع وما فيها من غموض واستبهام وإشكال، أو ما تنطوي عليه من خطر ماثل أو محتمل ، وما تحفل به أحيانا من مفاجآت معقولة أو بعيدة في الاحتمال . والفن في أمثال هذه القصص هو فن التشويق ، ويتفاوت كتّابها بعد ذلك في أسلوب الكتابة وأسلوب التناول أيضا ، ومنهم من يرقى إلى مرتبة ملحوظة في هذا الباب ، ولكن هذا الضرب من القصص لا يحسب على كل حال من الأدب الرفيع .

وقد حرص المؤلف في روايته « الأمير حيدر » على التاريخ حرصاً أخرجه في مواضع كثيرة عن أسلوب القصة . مثال ذلك أنه يصف نظام الدولة في ذلك العهد ورتب الوزراء

وكيف يجلسون بين يدي السلطان ، ومن أية طبقة يختارهم ، وبأي الألقاب يخاطبون ، وما عملهم أو أعمالهم الموكولة إليهم ، ولا يدع هذا للقارىء يستخلصه من سياق الكلام على نحو ما يفعل كتاب القصة الغربيون إذا أداروا قصصهم على حوادث تاريخية . وطريقة الغربيين أقوم ، لأن القصة غير التاريخ ، وفي وسع القارىء أن يخرج بصورة واضحة للحقيقة التاريخية — إذا كان الكاتب حاذقا — دون أن يحتاج إلى ما يشبه الدرس يلقى على تلميذ أو جاهل .

ومن أمثلة التقيد بما في المراجع التى اعتمد عليها المؤلف ، أن وصفه للقصور وما فيها من زينة ورياش وأثاث وما إلى ذلك لا يكاد يختلف ، حتى ليخيل إلى القارىء أن كل قصر كمثل قصر آخر في المظهر والمخبر ، وأنها جميعاً صور مطابقة لأصل واحد . وليس الأمر كذلك ، وإن كان غير مستبعد أن تتشابه إلى حد ما ، ومعقول أن يقلد الناس بعضهم بعضاً ، غير أن الأمر لا يبلغ الحد الذى يتعذر عنده التميز ويمتنع الاختلاف والتفاوت . والعلة أن أوصاف هذه المراجع عامة ، وكثير منها على السماع .

على أن المؤلف عني مع ذلك ، وعلى الرغم من تشابه الأوصاف القديمة في عمومها ، بالتميز والتفريق ، فلست تجد بيت الطبيب كبيت الوزير أو كاتب السر ، ولا بيت المغنية كبيت الأميرة ، وهو يحرص حرصاً شديداً على الدقة في الوصف وتصوير ما جرت به العادة والعرف في ذلك الزمن .

فتراه يقول مثلا : « ودخل الغلام وفي عنقه حبل فيه إبريق الزيت ، وعلى كاهله طنجير فيه شواء الدجاج ، وبين يديه جام القطائف . . . »

« وكانت سقوفه كلها مذهبة قد موهت باللازورد ، يدخل إليه النور من طاقات من الزجاج القبرصي الملون كقطع الجوهر ، كما فرشت أرضه جميعها بالرخام الجميل » .

« وكانت البيسرية شاهقة البناء ، تمتد جدرانها إلى السماء خمسين ذراعا ، وقد طليت سائر (يريد جميع) الجدران بخالص الذهب ، وكان بها خمسون ثريا من خالص الفضة مطلية بذهب تضاء كلها ، وبصدر القاعة برج صنع من العاج والأبنوس المطعم ، فيه مقرنص قطعة واحدة ، وشبابيك وطرازات مصوغة وشرافات وقبة . كل ذلك صيغ من خالص الذهب وبلغت النفقة عليه خمسين ألف دينار » .

« وقد جمع في بستانه أنواعا من الورد والياسمين والبان والزنبق والسوسن ، وجعل في وسطه بركة ماء ، وحولها مجالس السرور ، ومناظر تطل على البستان ، واتخذ لنفسه دكة عظيمة مطعمة بالعاج والأبنوس ، وكساها بالمخمل والأنطاع اللطيفة لجلوسه بين

أنصاره وحاشيته حيث تظله فروع الياسمين ، وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذاب ، وتعلق بالأشجار أقفاص الطيور المغردة بين مطوق وهزار وقماري ، وقد أطلق بين الأشجار دجاج الحبش والبط الصيني وأنواع الحجل » .

«ودخل ابنه . . . ليلا وأمامه الغلمان يحملون المشاعل والشموع في الفوانيس ، وبينهم محفة يحملها بغلان صنعت من المخمل الأحمر المرقوم بالذهب ، فنزلت منها جارية هيفاء تمشي في مرط من حرير أخضر نسج بخيوط الذهب ، وقد تحجبت بنقاب من لانس ثمين ، وكان مرطها مسبلا فوق خفيها ، وجاء من خلفها جاريتان تحملان بقج الثياب . . . وجاء على أعقابهن غلمان ملك التجار يسوقون عشرين بغلا تحمل غرائر السلع الإفرنجية وصناديق فيها ألوان من البلور وأثواب المخمل وشقق الحرير والأطلس » .

« وصاح في الملاح خل القارب ودعا حيدراً للركوب وهرول أمامه يبسط له السجادة ، وجعل الملاح ينشر المظلة ويوقد القناديل ، فانطلق القارب يسبح بهم في ذلك المحيط الحافل بالزوارق والعشاريات ذوات الأمراس المجدولة من الحرير الأصفر والأحمر ، والمظال الأطلس وتعاليق الحرير التى تحمل عليها القناديل والثريات الملونة » .

« ومشى . . . من باب القصر في دهاليز مفروشة بالرخام ، ثم هبط على درج من المرمر الوردي ، إلى بستان يمتد على شاطىء البركة ، فرأى الخولة مجتمعين بباب البستان ، فانتقل إلى مجلس فسيح فرش بالنمارق من أوله إلى آخره ، وفي صدره سحابة من حرير أصفر بأعمدة من ذهب ، وأرضه مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر من بللور ، وبوسطه فسقية من المرمر الجميل عليها أنبوب من نحاس ، يزعج الماء بقوة ، وحولها أقفاص الزرازير وطيور الفواخت تغني» .

وقد أكثرت من الاقتباس عامداً لأدل القارىء على أسلوبه في الوصف ، أولا ، ولأقول إنه اقتصر في قصته على تناول الذين يحيون حياة البذخ والترف ، وأنه لم يكد يصور لنا شيئاً من حياة الشعب ، وطبقة المجاهيد من عامة الناس . وأحسب أن عذره أنه اعتمد على المراجع ، ولم يكلف خياله إلا ما يقتضيه حبك القصة وسبكها . ومعروف أن الكتب القديمة لم تعن إلا بالملوك والأمراء والكبراء والمشاهير من الناس ، وأنها قلما تذكر عامة الشعب إلا بكلام لا يفيد شيئاً خاصاً ، ولا يتعذر أن يقال مثله في حالة أي شعب في أي عصر .

وليس مما يعاب به المؤلف أنه اكتفى بأهل الثراء والسعة والخفض ، وأهمل الدهماء ، أو كاد ، ولكنه كان يستطيع — بقليل من الجهد لا يستكثر عليه بعد الذي تجشم —

أن يصور لنا حياة الشعب أيضاً ، فما تكاد تختلف بين عصر وعصر ، وإن كانت العادات والعرف والتقاليد يلحقها بعض التغير ، أو التطور .

وقد نقل في روايته من مراجعه ، ألفاظاً استعملها وحرص عليها ، وحسناً فعل ، وأكثر هذه الألفاظ مما يتقيه الكتاب في هذا العصر ويعدون استعماله غير جائز ، مثل « الفوانيس » و « البقجة » و « البخانق » و « الشاش » و « الزبادي » و « الفسقية » « والقماش » و « الخوخة » إلى آخر ذلك . وأقول حسناً فعل لأني لا أرى داعياً لاجتناب هذه الالفاظ وأكثرها مأنوس ، وكلها متداول ، والاعتياض منها ألفاظاً أخرى نستخرجها من بطون الكتب القديمة أو نشتقها أو ننحتها أو نفعل غير ذلك ، فليس من الضروري أن تكون الكلمة جاهلية ليجوز لنا أن نستعملها فإن هذا جمود يؤذي اللغة ، وكل لغة في الدنيا تقتبس ألفاظاً من اللغات الاخرى أو تضع وتسك ألفاظاً جديدة تعبر بها عن حاجاتها الجديدة ، ولا يضيرها ذلك ولا يزرى بها أو يفسدها ، بل يزيدها سعة ومرونة وقدرة على الأداء . وليس المهم أن تكون الالفاظ جاهلية أو مستحدثة ، بل المهم المحافظة على أوضاع اللغة وأحكامها وطريقتها في تأليف الكلام على « معاني النحو » كما يقول الجرجاني ، وإلا فمن الذي يجرؤ أن يدعي أن الجاهليين وضعوا كل لفظ يمكن أن يحتاج إليه العربي في كل بلد وكل عصر ؟ بل من الذي يجرؤ أن يزعم أن لغة ما من اللغات لا تحتاج في كل عصر من العصور التي تتعاقب عليها أن تهمل ألفاظاً تستغنى عنها وأن تتخذ ألفاظاً جديدة بحسب ما تقتضيه حياتها الجديدة ومطالب التعبير التي لم تكن لها وجود فيما مضى ؟

وأين في هذه الدنيا لغة لم تدخل فيها ألفاظ ليست في الاصل من معدنها ؟ وليس في وسع المتحرجين والمشددين أن يحولوا دون هذا ، وقد وجد في كل عصر ناس منهم فما استطاعوا أن يمنعوا اللغة العربية أن تستمد من اللغات الأخرى وأن يستحدث أبناؤها ألفاظاً لكل جديد لم يكن لأسلافهم به عهد ، وسيظل الحال كذلك — يتحدّر تيار التجدد ويقف المتشددون والمتحرجون كالصخور ، لا تمنع أن يتدفق التيار الذي يدور حولها غير عابىء بها ، وهي عاجزة حتى عن تعويقه .

***

وما دام أن الكتاب موضوع على نسق ألف ليلة وليلة ، فلا محل لملاحظات كثيرة كان يمكن أن يبديها المرء فيه ، مثل المبالغة في تصوير شجاعة حيدر ـ بطل القصة ـ وبراعته في القتال حتى ليصدق عليه قول ابن الرومي :

يهزم الجيش أوحديا ، ويُلوي بالصناديد أيما إلواء

ومثل حشو القصة بكثير من الشعر الذي لا قيمة له ولا خير في إثباته ، وكل ما له من قيمة أنه مثال للشعر في ذلك العهد .

ومثل إطالته في وصف بركة الرطلي وربع الزيتي ، وبركة الفيل وحمام السلطان وخيال الظل وخان الخليلي ومقياس النيل ، إلى آخر ذلك ، حتى يكاد ينتفي الشعور بأن هذه قصة .

ولكن إذا عرف السبب بطل العجب . والسبب أنه يقتاس بألف ليلة وليلة ، وأنه ينشر المطوي في أصول هذه الأحياء أو العادات .

ولا مفر من الاعتراف بأن القارىء يخرج بفوائد كثيرة عن جماعة الفتوة المشهورة والخلافة العباسية في مصر ، وكثير من المنشآت والمعاهد والأحياء الباقية إلى زماننا هذا ، وأصول بعض العادات ، ومتى دخلت القهوة مصر وكيف كانت تطبخ ، ومكانة العلماء ونفوذهم ، والملاهي والألعاب الخ الخ . وهذا إلى المتعة المستفادة من القصة نفسها .

ولا يخلو كتاب ما ، من نقص ، ولو خلا — وتلك مرتبة لا تنال — لما كان إنسانيًّا ، ولكان خليقاً بقارئه أن يحس أن صاحبه ليس من بني الإنسان ، وأن ينظر إليه نظرة فيها رهبة وأن يستوحش من جانبه . بل أنا أذهب إلى أن من البواعث الخفية على الإعجاب أن يفطن القارىء إلى مواضع النقص ومواطن الضعف ، وأن يحس ، ولو إحساساً غامضاً ، أن الكتاب من الكتب على جلال قدره وعظم شأنه وندرة مثله وعجز الأكثرين عن الإتيان بما يقاربه ، لا يخلو من زلات وعثرات ، ووهن هنا ، وسقوط هناك، أو إسفاف أو خمولة، أو قصور أو تقصير أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، ويلحق به . وهذا الشعور — ولك أن تقول هذه الثقة من القارىء بأن الكتاب لا يبرأ من العيوب والمآخذ حتى ولو كان يعييه أن يبينها ويضع إصبعه عليها ، يحفظ له احترامه لذاته أو يستبقي له القدر اللازم لحياته من الغرور ، ويشعره أن الكاتب مهما سما ، قريب منه وإنسان مثله ، فيهون عليه أن يوليه الإكبار الذي يستحقه ، دون أن يشعر بغضاضة من ذلك على نفسه . ومن هنا كان شر الكتب الإنسانية أو أشدها استفزازاً للنفس واستثارة لسخطها ، ذاك الذي يشعر القارىء بهوانه ويبرز له مبلغ ضعته وضآلته . وليست ثورة القارىء على الكتاب الذي يكون من هذا القبيل إلا مظهراً من مظاهر الدفاع عن النفس .

أقول هذا على سبيل البيان ، لا الاعتذار ، ومن أجل هذا كان مذهبي في النقد أن

أنظر إلى جملة ما في الكتاب من الإحسان مقيسة إلى جملة ما فيه من العيب ، فإذا أربى الإحسان على الإساءة تقبلته وتجاوزت عما فيه من نقص أو مأخذ ، وإلا رفضته . فهو ميزان ينصب وأي كفتيه رجحت أخذت بها . وهذا في مذهبي هو العدل الميسور في وزن الآراء والأعمال والحكم عليها .

ولهذا لا أتردد في الثناء على قصة « الأمير حيدر » على الرغم مما فيها من بواعث الملال ، ومن التكلف المتعمد على الأرجح ، ومن الهفوات القليلة ، والهنات المفردة ، ومن قلة العناية بالتنويع ، أو قل إذا شئت ضعف الخيال ، ومن كثرة الحشو وكظ الكتاب بما كان يحسن الاستغناء عنه لولا ما قصد إليه المؤلف ، فإن الحسنات — بعد كل هذا التقصي — أرجح كفة .

إبراهيم عبد القادر المازني

التعريف

الورقة

مخطوط لأبي عبد الله محمد بن داود بن الجراح

١

محمد بن داود بن الجراح كان من أدباء العربية وكتابها في القرن الثالث الهجري، وكان من أصحاب عبد الله بن المعتز ووزر له حين تولى الخلافة . فلما قتل ابن المعتز اختفى ابن الجراح إلى أن أخذ فحبس ثم قتل سنة ٢٩٦ بعد قتل ابن المعتز بسنة ، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست فقال :

لم ير في زمانه أفضل منه . ووزر لعبد الله بن المعتز في يوم خلافته . وكان عالماً قد لقى الناس ، وأخذ عن العلماء والعظماء والشعراء . وكتب بخطه مالا يحصى كثرة . وترجم له صلاح الدين الكتبي في فوات الوفيات . وروى من شعره .

وقال : كان كاتباً عارفاً بأيام الناس وأخبارهم ودول الملوك ، وله في ذلك مصنفات .

وذكر صاحب الفهرست من مؤلفاته كتاب الورقة في أخبار الشعراء وكتاب الشعر والشعراء .

وذكر الكتبي غير هذين الكتابين ، كتاب من سمي عمراً من شعراء الجاهلية والإسلام ، وكتاب الوزراء . وقال عن كتاب الورقة : « سماه كذلك لأنه في أخبار

الشعراء ، ولا يزيد في خبر الشاعر الواحد على ورقة . ولهذا سمى الصولي كتابه في أخبار الوزراء بالأوراق، لأنه أطال في أخبار كل واحد بأوراق » .

٢

لم يذكر صاحب كشف الظنون ولا غيره من أصحاب الفهارس المتأخرين كتاباً من كتب ابن الجراح . وكان الظن أن كتب هذا الأديب كلها قد ذهبت بها الغير فيما ذهب من الكتب العربية ، حتى عثر الأديب الشاعر المبدع أحمد الصافي النجفي في إيران على نسخة حديثة من كتاب الورقة منقولة عن نسخة قديمة جداً .

وهذه النسخة القديمة في خزانة صدر الأفاضل من علماء إيران وأدبائها. وقد كتب عليها اسم الكتاب ومؤلفه وأسماء اثنين ممن ملكوا هذه النسخة، أحدهما ملكها سنة ٦٣٦ هـ والثاني سنة ١٠٣١ هـ . وكتب على النسخة أيضاً : « كان ملكه سيدنا الزاهد الرئيس أبو علي أحمد بن مسكويه أطال الله بقاءه وكبت أعداءه » . فان صح هذا فهذه النسخة كتبت في القرن الرابع أو قبله في عصر المؤلف . ويشهد بقدمها خطها ، كما يتبين في صفحة مصورة ملحقة بالنسخة الحديثة .

وقد بين صدر الأفاضل من خصائص الرسم في النسخة القديمة ما يدل على قدمها وعلى براعة ناسخها وعنايته بها .

ولا أجد حاجة الآن لتبيين هذه الخصائص في هذا المقال الموجز ، ولعلي أتكلم عنها في مقدمة الكتاب حين ينشر إن شاء الله.

٣

يشتمل كتاب الورقة على خمسين ترجمة ونيف ، وبعض التراجم لأكثر من شاعر . وهي تراجم مختصرة غير متساوية في طولها كما يظهر من النسخة الحديثة التي في يدي . فكأن المؤلف اعتمد ألا تزيد الترجمة على ورقة ، ولم يلتزم ألا تقل عن ورقة .

والشعراء الذين اشتمل الكتاب على تراجمهم ليسوا من الشعراء النابهين الذين يتردد ذكرهم في كتب الأدب . وبعضهم من كبار الرجال وعظمائهم ولكنهم لم يعرفوا بالشعر ، مثل الرشيد وإبرهيم بن المهدي والأصمعي .

والنسخة التي في يدي ، وهي نسخة الشاعر الكبير أحمد الصافي النجفي ، فيها ثلاث وثمانون صفحة ، في كل صفحة ثمانية عشر سطراً .

٤

أطلعني على هذا الكتاب في دمشق منذ سنتين الأستاذ أحمد الصافي ، فرأيته جديراً بالنشر ، إنه يزيد في معرفتنا بأدبنا وتاريخه ، ولأنه من أقدم الكتب العربية التي انتهت إلينا . وحسبه أنه من مؤلفات القرن الثالث الهجري .

وعاقت عوائق عن نشر الكتاب، حتى اضطرب المشرق والمغرب بهذه الحرب المدمرة ، فأرجأنا نشره على الرغبة الشديدة في إخراجه للناس والتعجيل به .

ولعل قراء العربية سيظفرون عما قليل بهذا الكتاب الصغير حجماً والكبير فائدة وقيمة .

عبد الوهاب عزام

الأداة الحكومية

تأليف الدكتور ابرهيم بيومي مدكور والأستاذ مريت غالي
٣٣٨ صفحة من القطع الكبير . دار الفصول . القاهرة ١٩٤٥

لم تعالج أداتنا الحكومية بمثل هذه الصراحة التي عالجها بها المؤلفان في هذا الكتاب ومن حق هذا الكتاب على تاريخ التطور الاجتماعي والنظام الحكومي في مصر أن يتلقى بالفرحة في كل ندىّ ، وأن يقرأه الناس ويفهموه على الوجه الذي قصد إليه المؤلفان .

ولقد فطن المؤلفان إلى أن هناك عيوناً منفتحة على أهدابها . . . تقفو علينا الزلات وتعد علينا السيئات ، وما في ذلك بأس ، فليس من العيب أن نعرف العيوب ونذكرها ، ولكن العيب كل العيب أن ندع الداء يستفحل وأن نغمض عيوننا نحن على الأقذاء[١] . والمؤلفان لم يطوح بهما الاستبداد إلى حد الاستئثار برأيهما الشخصي ، ولكنهما ناقشا وجادلا وناظرا ، واتفقا حيناً مع المتناظرين، واختلفا أحياناً معهم وخرجا من ذلك كله بكتابٍ لم يعداه غاية القصد ومنتهى السؤل . . ولكنهما طالبا بالبحث المستمر والدرس المتصل من المختصين والمسؤولين[٢] .

وقد يبدو للناظر في الكتاب أول الأمر أن المؤلفين قسوا في غير لين ، ولكنها في الحق قسوة يقصد بها الازدجار . . وقد يقسو الراحم أحياناً على من يرحمه . . .

والمؤلفان يسلمان بما يلوح في جونا من أمور تبعث على التشاؤم ، ويسلمان بأن

(١) صفحة ٨ من الكتاب (٢) صفحة ٨

للمتشائمين عذرهم ، فقد بلغ الحال حداً لا تنفرج معه الشفاه عن ابتسامة . . .
ولكنهما مع ذلك يعتقدان أن التشاؤم أعدى عدو لأمة ناهضة ✡ ، وأن من الخير للأمة أن تخلق من أسباب التشاؤم جواً حافزاً للجد والعمل ، لا جواً مثبطا للعزائم والهمم . وذلك شأن طلاب القوة في الحياة ، يخلقون من ضعفهم أسباب قوتهم وينسجون من يأسهم أثواب أملهم ...

النظرية الاقتصادية العامة

تأليف الدكتور أحمد نظمي عبد الحميد
٣١٨ صفحة من القطع الصغير . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٤٥

الأصل في هذا الكتاب أن يكون بأيدي الطلاّب من كلية التجارة ، يرجعون إليه متناً من المتون التي تعينهم على اجتياز عقبة الامتحان . والمؤلف يعترف بذلك في مقدمته الموجزة الرصينة التي قدم بها بين يدي الكتاب .

إلا أن المؤلف وفق إلى أنه نحى عن الكتاب الميسم المدرسي المعروف . فكان من الخير أن يقرأه الطلاّب وغير الطلاّب ممن يهتمون بالدراسات الاقتصادية الحديثة . ونحن الآن في مرحلة نعد فيها القارئ العربي ليكون مثقفاً . والأدب المحض وحده لا يعين على الثقافة قدر ما يعين هذه الكتب التي تخلق في إبّان وعينا القومي جمهوراً من المثقفين .

وقديماً عرّفوا الأديب في الأدب العربي بأنه الذي يأخذ من كل علم بطرف . ولعل الذين وضعوا هذا التعريف لاحظوا حاجة الإنسان إلى أن يكمل نفسه بمعارف عصره ، حتى لا يكون عن زمانه خالفاً ولا قاعداً .

وليست حاجة الأديب إلى قراءة الاقتصاد مثلا بأقل من حاجته إلى قراءة الشعر والقصة وما إليها من موضوعات الأدب الصراح . فالأديب الكامل يقرأ ويقرأ ، لأنه يختزن من المعلومات والمعارف ما يعينه على إخراج أدب صحيح .

والقارئ العادي في حاجة إلى قراءة مثل هذا الكتاب ، فإن موضوع الاقتصاد يمس كل فرد من أفراد المجتمع مهما يكن مركزه ومهما تكن طبيعة عمله . والمجتمع الفاهم الواعي أقدر بكثير على التوجيه والإنتاج من مجتمع معطل الآراء ، فتتعطل بذلك آلة الأمة

وليس الغرض من هذا الكتاب إخراج علماء في الاقتصاد ، ولكن الغرض منه إخراج جمهور متنور يستطيع أن يتناول المشكلات الاقتصادية فيعالجها بسلاح من العلم

✡ صفحة ١٢

والمعرفة، بدلاً من الجهالة التي يخبط فيها الجهلاء . وبهذا يهون العمل على زعماء الاقتصاد، لأنهم يقودون جمهوراً مدركاً . وفي الكتاب فصول تهم التاجر والزارع والصانع والممول، وهؤلاء هم أحجار البناء في الأمم . وقد خرج المؤلف على تقاليد المدرسة النظرية التي لا تعنى بالعوامل الاجتماعية على ما لها من أثر في الحياة الاقتصادية .

نظرات في فلسفة العرب

تأليف الأستاذ جبور عبد النور

٤٦٤ صفحة من القطع المتوسط . دار المكشوف . بيروت ١٩٤٥

رسم المؤلف منهج كتابه بأنه « قسم من مباحث تناولنا بها مظاهر الفكر في حضارة العرب ، لم تتقيد فيها بسنة البرامج الرسمية في حصر الإنتاج العقلي بالمدرسة الإشراقية ، بل عنينا بتفهم النزعات التجريبية التي ساعدت على ترقي العلوم الوضعية ، من طبيعية وكماوية وطبية وفلكية وبنائية ». وهي أبحاث منثورة ، فيها تفصيل وفيها إجمال ، صنفها في ثمانية أقسام . الأول : « العقلية العربية في الجاهلية » و « العبادة في الحجاز » ، وأسباب ظهور الوثنية . والثاني : « الترجمات عن اليونانية » فتحدث عن الأسباب التي دعت إلى الترجمة وعن أشهر المترجمين ، وعما سماه « منابع الفكر العربي » . والثالث : في « الفرق الإسلامية » فتحدث عن نشأتها ، وعن الخوارج والشيعة والمعتزلة وأهل السنة ، ثم ترجم لأبي الحسن الأشعري ، ولخص مذهب الأشاعرة ، وختم البحث بالحديث عن الغزالي والباطنية وموقفه منهم ومن علم الكلام . والرابع : « الفارابي » فيه ترجمته ، و « التوفيق بين أفلاطون وأرسطو » و « مذهبه الفلسفي » و « الفارابي وأفلاطون » وعن آرائه في « الإنسان في معترك الحياة » . والخامس : « التصوف » تحدث فيه عن العنصر الروحي ، وأسباب نشوء التصوف ، وعناصره ، والتصوف العملي ، وطريق الحق . والسادس : «ابن عربي» وحياته ومؤلفاته ، وتصوفه وتفكيره ، وموقف المسلمين منه . والسابع : «ابن الفارض» . والثامن : «المعري» وفيه ترجمته والحديث عن المعري المفكر ، ثم رسالة الغفران ومنابعها ورسالة ابن القارح التي بنيت عليها ، وتحدث عن النصرانية والحشر الروحي ، والإسلام والحشر المادي .

وهي أبحاث كلها طريفة دقيقة ، تحتاج إلى عناية في التحقيق ، وإلى توثق من المراجع والاطمئنان اليها ، ثم التوسع في دراستها والتبحر فيها .

AN ENEMY OF THE PEOPLE : ANTI SEMITISM

by James Parkes (Penguin Books, London 1945)

هذا كتاب باللغة الإنجليزية لمؤلفه جيمس باركز . يعرض فيه تاريخ الحركات المناهضة لليهود في العصر الحديث حتى وقتنا الحاضر . والكتاب ثلاثة أقسام : الأول عرض موجز دقيق لاضطهاد اليهود في ألمانيا من عهد بسمرك إلى عهد هتلر . والثاني محاولة لتفسير هذه الحركة وبيان أثرها في ضحاياها بالطرق التي تقول بها علوم النفس والاجتماع . والقسم الثالث يشمل مقترحات لحل هذه المشكلة ، ويبدو أن المؤلف يدعو بها إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، ويرى أن هذا هو خير الحلول .

ويبدأ المؤلف كتابه بسرد ما جرى في ألمانيا سنة ١٨٧٩ من اضطهاد لليهود دام حوالي خمسة عشر عاماً . ويبين كيف أن بسمرك مع احتقاره لتلك الحركة ، قد استغلها للتخلص من حزب الأحرار الوطنيين . ثم سرد المؤلف تاريخ تلك الحركة في النمسا ثم في فرنسا ، حتى انتقل بالقراء إلى روسيا ، وانتهى بهم إلى ألمانيا النازية . وهنا يذكر المؤلف أن اضطهاد اليهود كان أمراً لازماً لتحقيق أحلام ألمانيا بالسيطرة على العالم ، ويوضح النواحي الاقتصادية لتلك الحركة ، وكيف أفادت ألمانيا من تلك الأموال التي صادرتها من اليهود .

ويشمل القسم الثاني من الكتاب عرضاً يقوم على تقارير كتبها علماء النفس والاجتماع عن العلاقات بين الأكثرية والأقلية .

أما القسم الأخير فيعرض لحلول المشكلة اليهودية ، على حساب فلسطين .

ولقد فنّدت جريدة التيمس مزاعم المؤلف ، ولا سيا فيا زعمه من أن «أكثر من نصف سكان فلسطين العرب» إنما هم مهاجرون اجتذبهم إليها الثراء الذي جلبه المستعمرون من الصهيونيين ، وفيما رآه من أن قلة السكان في البلاد العربية قد يسهّل نقل العرب من فلسطين وإخلاءها لليهود ...



عَفْــرَاء

من قصيدة عروة بن حزام في محبوبته عفراء ✡ :

خليـليَّ من عُلْياَ هلالِ بن عامرٍ ... بصنعاءَ عُوجَا اليومَ وانتظراني

ولا تزْهَدا في الأجر عندي وأجْمِلَا ... فإنَّـكما بي اليــومَ مُبْتَلَيانِ

أَلِمَّا عــلى عَفْراءَ إنكما غــداً ... بشَحْطِ النوَى والبَيْنِ مُعْتَرِفانِ

فَيَا واشِيَيْ عَفْـرا دعاني ونظرةً ... تَقَـرُّ بهـا عَيْناي َثم كِلاَني

أغرَّكما مـنِّي قميصٌ لَبِسْـتُه ... جَدِيدٌ وبُرْدَا يَمْنَةٍ زَهِيَانِ

متى ترفعا عـنِّي القَميصَ تَبيَّنَا ... بيَ الضُّرَّ من عفراءَ يا فتَيانِ

وتَعْتَرِفَا لَحْماً قليـلاً وأعْظُماً ... رِقاقاً وقَلْباً دائِمَ الخفقَانِ

على كبدِي من حُبِّ عَفْراءَ قُرْحةٌ ... وعَيْـنَايَ من وجدٍ بِها تَـكِفَانِ

فعفْراءُ أرْجَى الناس عندي مَوَدَّةً ... وعفراءُ عنِّي المُعْرِضُ المُتَوَاني

تحمَّلتُ من عَفْراءَ ما ليس لِي به ... ولا للجبالِ الراسياتِ يَدانِ

كأنَّ قطاةً عُلِّقَتْ بجَناحها ... على كَبدِي من شِدَّة الخفقانِ

جعلتُ لِعَرَّافِ اليمامة حُكمَهُ ... وعرَّافِ نَجْدٍ إنْ هما شَفَيانِي

فقالا : نعم نشفِي من الداء كلِّهِ ... وقاما مع العُـوَّادِ يبتـدرانِ

فمـا تركا من رُقْيـةٍ يعلمانهـا ... ولا سَلْوَةٍ إلَّا وقد سَقَيانِي

وما شَفَيا الداءَ الذي بِيَ كُلَّهُ ... ولا ذَخَرَا نُصْحاً ولا أَلَوَانِي

فقالا : شفاكَ اللهُ ، واللهِ ما لنَا ... بمـا ضُمِّنَتْ منك الضلوعُ يدانِ

✡ عروة بن حزام ، قتيل الحب : أحد عشاق العرب المشهورين ، مات في خلافة معاوية .

الشَّرق

للأستاذ علي الجارم بك

سَنا الشرقِ من أيِّ الفراديس تنبَعُ ؟ ... ومن أيِّ آفاق النبوَّة تلمعُ ؟
وفي أيِّ أطواءِ القرون تنقَّلَتْ ... بمصباحك الدنيا يشبُّ ويسطعُ ؟
طلعتَ على الأهرامِ والكونُ هامدٌ ... وأشرقتَ بالإلهامِ والناسُ هُجَّعُ
طلعتَ شعاعاً عبقرياً كأنما ... من الحق أو نور البصائر تطلُعُ
وجمَّعتَ أسرارَ العقول، فهل درتْ ... مخابئُ فرعونٍ بما كنت تجمعُ
وجمَّلتَ أفق الشرق والأرضُ كلها ... سُهوبٌ تَضلُّ العين فيهن بلقعُ
أذاكَ ابتسام الغيد ما أشرقتْ به ... ثناياك ، أم زهر الرُّبا المتضوِّعُ ؟
رأيتَ ابنَ عمرانٍ على الطور شاخصاً ... يُهيب به الوحيُ الكريم فيسمعُ
وأبصرتَ عيسى ينشر الرفق والرضا ... ويستلُّ أحقادَ القلوب وينزِعُ
وشاهدتَ وسْط الجحفلين محمداً ... وبين هدى الإيمانِ والشرك مصرعُ
إذا صال فالدنيا مجرٌّ رماحهِ ... وإن قال فالأيام عينٌ ومسمعُ
ألم تره في بُردة الليل ساجداً ... ومنه دروع الروم حيرى تفزَّعُ ؟

* * *

سنا الشرقِ ! أشرق وابعث النور ساطعاً ... يشقُّ دياجير الظلام ويصدعُ
أعدْ شمسك الأولى إلى الأفق مثلما ... أعاد ضياءَ الشمس للأفق يوشعُ
نزفنا دموعَ المقلتين تفجّعاً ... فهل مرّةً أجدى علينا التفجّعُ ؟
وعشنا بآمالٍ كأطياف نائم ... يروّعها من دهرنا ما يروّعُ
شعاعك تاريخٌ ، ونورك حكمةٌ ... ولمحك آمالٌ ، ونهجك مهيعُ
إذا ضيَّع التاريخَ أبناءُ أمّةٍ ... فأنفسَهم في شرعة الحق ضيّعوا

أبَى الدهرُ أن ينقاد إلاَّ لعزمـةٍ ... يخرُّ لها الدهر العتيُّ ويخنـعُ
وسرُّ العلا نفسٌ كما شاءت العلا ... طموحٌ وقلبٌ في الخطوب مجمَّعُ
ومن يتجنَّبْ في الحياة زحامها ... فليس له في مورد المجـد مشرعُ

* * *

خذي مصرُ أسبابَ السماء لموطنٍ ... من العزّ لا يسمو إليـه التطلُّعُ
فأنتِ لأهـل الفن للفن منهلٌ ... وأنتِ لأهل العلم للعلم منبعُ
سحرتِ عيونَ الخافقين كأنما ... بأرضك سحرٌ للفراعين مودعُ
قبابٌ تروم السحبُ إدراكَ شأوها ... ومن دونه أعناقهن تقطَّعُ
وآثارُ عرفانٍ تضيء كأنما ... تناثرَ حول النيـل عقدٌ مرصَّعُ
دعُونا نباهي بالحياة فطالما ... طوى أممَ الشرق الحياءُ المقنَّعُ

* * *

خلعنا رداءً رثَّ من طول لُبْسهِ ... وكلُّ رداءٍ رثَّ باللبُس يُخلعُ
صحا الشرق وانجاب الكرى عن عيونهِ ... وليس لمن رام الكواكب مضجعُ
إذا كان في أحلام ماضيه رائعاً ... فنهضتُه الكبرى أجلُّ وأروعُ
توحَّد حتى صار قلباً تحـوطه ... قلوبٌ من العُرْب الكرام وأضلعُ
وأرسلها في الخافقين وثيقـةً ... لها الحب يُملي والوفاء يوقِّعُ
لقد كان حُلْماً أن نرى الشرقَ وحْدةً ... وإنَّ من الأحلام ما يُتوقَّعُ
إذا عُـدِّدتْ راياته فهي رايةٌ ... وإن كثرتْ أوطانه فهي موضعُ
فليستْ حدودُ الأرض تفصل بيننا ... لنا الشرقُ حدٌّ والعروبةُ موقعُ
تذوب حُشاشات العواصم حسرةً ... إذا دَمِيَتْ من كفٍّ بغداد إصبعُ
ولو صُدِعتْ في سفح لبنان صخرةٌ ... لدكَّ ذرا الأهرام هـذا التصدّعُ
ولو بَرَدَى مُسَّتْ بخطبٍ مياهُهُ ... لسالت بوادي النيل للنيـل أدمعُ
ولو نال رَضْوى عاصفُ الريح مرّةً ... لباتت له أكبادنا تتقطّعُ

أولئـك أبنـاء العروبة ما لهم عن الفضل منأى أو عن المجد منزعُ
لهم أملٌ لا ينتهي عنـد مطلبٍ لقد ذلَّ من يُعطى القليلَ فيقنعُ
غبارُ رحى الهيجـاء في لهواتهم من الشهد أحلى أو من المسك أضوعُ
وقـد يدرك الغايات رأيٌ مدرَّعٌ إذا ناء بالأمر الكميُّ المدرَّعُ
سلوا عنهمُ عمراً وسعـداً وخالداً ومُلْكاً له يرنو الزمان فيخشعُ
تحدَّثتِ الدنيا بهم في شبابها وجاءت إلى أبنائهـم تتطلّعُ

* * *

فيا زعماءَ الشرق ، والشرقُ أمّةٌ على الدهر لا تَفْـنَى ولا تتضعضعُ
هنا عَلَمُ الشرق الذي في يمينكم ستعنو له الأيام والدهر أجمـعُ
فسيروا بحمد الله للحق عصبـةً وإن أسرعت دُهْمُ الليالي فأسرعُوا

على الجارم

أيُّها الجُنْديّ

عرف الناظم في أحد المصايف المصرية إبان هذه الحرب جندياً من جنود الحلفاء كان على جانب كبير من الثقافة وكان يجيد عدة لغات منها العربية فرغب إلى الناظم أن يهدي إليه إحدى قصائده على سبيل التذكار فنظم له هذه القصيدة :

وطنٌ في ساعةِ الهولِ أهابا والعوالِي دونه كنَّ الجوابا
وتقاضـاكَ على مذبحــهِ أنْفَسَ الذخرِ فقـدَّمتَ الشبابا
وتَخِـذتَ النـار والشـوك أخاً بعـد إذ فارقتَ أهـلاً وصحابا
وتبـــدَّلتَ بربعٍ مؤنسٍ مسكناً وحشاً وصحراءَ يبابا
يا لها في الأرض من تضـحيةٍ عظمتْ في المـلأ الأعلى ثوابا

* * *

قمْ إلى الحرب وخضْ منها العبابا وامتطِ الفولاذ في الروع ركابا
غُصْ بقعرِ البحرِ واسبقْ حُوته واعلُ في الجوِّ وسُقْ فيه السحابا

زلزلِ الأرضَ وروّعْ أهلها بزئيرٍ يُفزِعُ الأسْدَ الغضابا
وابعثِ النيرانَ سيلاً عاصفاً يجرف السّهل ويجتثُّ الهضابا
واملأِ القسوةَ جنبيْك وقلْ إنَّ عند الله للباغي العِقابا

✡✡✡

دمُك الطاهر إن يرْوِ الترابا ولئن يصبغْ من الأرض الجنابا
أو يمزّق جسمَك الغضَّ الردى ويزاحمْ فوقه النسرُ العُقابا
أو يوسِّدْك ثرًى غيرُ الذي ذقتَ من خيراته الشهدَ المذابا
تشترِ العِزَّ وترفعْ للحمى فوق أشلائكَ صرحاً وقبابا
وتكنْ فيه مسيحاً ثانياً حَمَلَ الآلامَ عنه والعذابا

✡✡✡

إنَّ صُبْحَ النصرِ مهما يكُ غابا فغداً تلقاه قد شقَّ الحجابا
فانتظمْ تاجَك من لألائه واخفضِ السيف وأودعه القرابا
خمدتْ نار الوغى فارجعْ إلى بيتك الحرِّ ولو أمسى خرابا
واسمعِ الأوطان تشدو طرباً وتغنّيك الأناشيدَ العِذابا
أيها الجنديُّ قد صُنْتَ الحِمى أيّها الجنديُّ حرّرتَ الرقابا

عادل الغضبان



المسرح والخيالة

للمسرح والخيالة فنون تلتمس فيها النفس ما تلتمسه في الأدب من جمال وطرب وعظة ، سواء عبرت تلك الفنون عن المرئيات والواقع أم علت إلى وصف العاطفة الإنسانية كما هي أو كما يجب أن تكون .

والشرق العربي حديث العهد بالمسرح والخيالة وقد يصل فيهما إلى أقرب درجة من الكمال إذا عرف المعراج إلى ذلك الكمال .

الرواية التمثيلية ولماذا لم يعالجها العرب

للأستاذ زكي طليمات مدير معهد فن التمثيل العربي

المسرح العربي كما هو :

فن التمثيل باللسان العربي يؤلف اليوم بمصر ناحية من نواحي النشاط الأدبي ، وركناً من أركان الحركة الاقتصادية والاجتماعية .

فدور التمثيل منتشرة في القاهرة ، وفي المحافظات وعواصم المديريات ، وفي مقدمتها مسرح دار الأبرا الملكية . والفرق التمثيلية كثيرة العدد ، وبعضها لا ينقطع له عمل طول العام ، وفي مقدمتها (الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى) ، وهي الفرقة التي أنشأتها وزارة الشؤون الاجتماعية وتمدها بالإعانة المالية في كل عام ، وترعاها بالتوجيه وأسباب العناية .

والحكومة معنية بشؤون المسرح العربي بدليل إنشائها الفرقة المصرية ثم (معهد فن التمثيل العربي) لتخريج وجوه جديدة تغذي الفرق العاملة .

ولفن التمثيل رياضة في المدارس الثانوية بعد أن عدّ لوناً من ألوان النشاط المدرسي .

وفئات كثيرة من الناس تعيش من هذا الفن باحترافها مهنة الممثل أو المخرج أو المنظم أو العامل أو القائم على شؤون الإدارة والمال . ودور الطباعة لا تني عن إصدار مسرحيات ، بعضها مترجم من الأدب الغربي ، وبعضها مكتوب بأقلام مصرية .

والصحف والمجلات تخصص بالتمثيل قسما فيما تكتب وتعلن عنه وتدعو إليه . وللممثلين نقابة ولنقاد المسرح رابطة .

وصفوة القول: أن فن التمثيل في مصر كائن حي بادي النشاط في حياتنا المصرية المعاصرة.

فن التمثيل حديث العهد بالمجتمع العربي :

ونحاول أن نتقصى في أدبنا نشأة هذا الفن ومراحل تطوره ، وذلك من ناحية المسرحية التي هي عماده الأول ، فإذا نحن أمام ظاهرة جديرة بالاعتبار تبعث على العجب ، ذلك بأن هذا الكائن المتدفق الحيوية ، إنما هو وليد الأمس القريب في بلادنا ، بل في الأقطار العربية عامة ، لم يسعد بمطالعة آثاره أجدادنا ، ولا من فاتهم العمر قبل أن يروا الخديو إسماعيل ينشيء دار الأبرا الملكية .

نعم إن فن التمثيل باللسان العربي حديث العهد بالمجتمع العربي عامة ، دخل إلينا فيما دخل من ألوان الثقافة الغربية ومظاهرها السائدة في الغرب حينما أخذت بصائرنا تتفتح على أوربا ، تنتحل من فنونها وأدبها بحكم ذلك الاتصال الاجتماعي والثقافي الذي ازداد توثقاً بين شاطئي البحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن الماضي .

ولست أقصد بالتمثيل مظاهره البدائية القائمة على التقليد والمحاكاة ، والعرض المرتجل لحوار وحركات ، غير مقيدة ولا منسقة ، وهي الظاهرة التعبيرية ، ولا أقصد إنشاد الشعراء الرُحَّل من عازفي الربابة لأخبار العرب ، ولا أعني مضحك الأمراء ومقلد الطير والحيوان ، وإنما أقصد التمثيل وقد تدرج على مر الزمن وتطور فأصبح «فنًّا» له قِيَمُه وأصوله ، بعد أن سعى إليه الأدب شعراً ونثراً ، فكنفه وأحال مظاهره البدائية خلقاً أدبياً واضح المعالم والحدود ، فكانت الرواية التمثيلية أو المسرحية ، التي غدت أحد الأشكال السامية للابتداع الأدبي .

المسرحية من صميم الأدب :

واعتبار المسرحية من صميم الأدب يرجع إلى أنها غدت ، بما انتهت إليه ، منتقل ألوان الحياة وصورها ، وإحدى مرائي النفس البشرية التي هي مادة الأدب ولحامه ، وقد سخر البيان اللغوي من منثور ومنظوم للتعبير عن معانيها ، بعد أن تعاونت على إقامة كيانها ملكات الخيال والعاطفة والذهن ، التي هي أساس كل عمل أدبي وفني ، وبعد أن خضعت لشرائط شكلية وقيم فنية من حيث البناء والتقسيم والسياقة ، فجعلت منها خلقاً أدبياً يختلف عن القصة والحكايات والمقال ، وذلك من حيث القالب والصيغة ،

ويتفق معها من حيث إنها تجعلك تحس انعكاس ما في نفسك من عوامل الوجود فيما تطالعه من آثارها ، سواء أكانت المطالعة بطريق القراءة أم المشاهدة في دور التمثيل .

المسرحية دخيلة في الأدب العربي :

والتساؤل المباشر الذي يراود الخاطر عقب هذا : كيف تأتىّ أن تكون المسرحية ، وهي لون من صميم الأدب العالي ، دخيلة في أدبنا العربي ؟ وكيف أنها لم تشغل الذهنية العربية في مختلف مدارجها إلا منذ الأمس القريب ، في حين أن العرب منذ القدم أهل فصاحة وبيان ، وتراثهم في الأدب والفقة ومختلف العلوم يزخر بما يقيم الحجة على اتساع أفقهم وخصب مواهبهم ، ونفاذ بصائرهم ؟ ؟ والإجابة عن هذا التساؤل شائقة ولا شك ، فهي تلقى ضوءاً على ناحية من نواحي الواعية الأدبية لدى العرب ، وتشهد بأنها واعية مرنة لا تتوانى عن الأخذ بكل جديد متى حان الوقت وساعفت الظروف ، أي لا تضيق بهذا الجديد، بل تتمثله وتستوعبه ، لتخلع عليه طابعها ومزاجها ، فتكون مع الزمن في تقدمه ومع الخلق الأدبي في أحدث تطوراته.

وأمهد لهذه الإجابة فأقول: إن المستقرئ مراحل الذهن البشري في تطوره من حيث النتاج الأدبي والفني ، يعلم أن الملكات البشرية التي ركبتها الفطرة فينا ، والتي هى أساس لهذا النتاج ، و إن أثبتت وجودها وأبانت عن كنهها منذ المراحل الأولى ، لم تعط كل مافي طاقتها دفعة واحدة ، ولم تخرج أكمل مظاهر نتاجها في وقت واحد* وأقرر أيضاً ، وهو أمر ثابت ، أن الأدب مرآة المجتمع ، وفيها تتراءى صوره ومعالمه . فبهاتين الحقيقتين وما يتفرع منهما أعالج الموضوع .

وجه من الواعية العربية في الجاهلية :

لم يكن عصر الجاهلية ليشذ في خصائصه الرئيسية ، عن عصور البداوة في الأمم الأخرى كقدماء اليونان والرومان ، فهو عصر يصطخب فيه كل شيء ويشتجر ، ليستخلص كيانه وليستوي في مستقره ،وهو عصر تغلب عليه المنازعات والغزوات والحروب التي تثيرها بواعث من حب الغلبة واستكمال الذاتية والبيئة والإقليم . ثم إن عهود الغزوات والغارات

---

* الأدلة على ما نذهب إليه كثيرة نزف منها في الأصول ، أن هوميروس مبدع (الإلياذة) وإسكلوس وسوفوكل ويربويد ، وهم مبتدعو المسرحية في نسقها الكامل ، كل هؤلاء قدموا ثمرات قرائحهم قبل أن يقوم (أرسطو) ويجعل من النقد فناً وأدباً ذا منهج وأصول وذلك في مؤلفيه (كتاب الشعر) و (كتاب الخطابة) بسبعة قرون .

والفلسفة الإغريقية ، وإن عالجت الكثير من شؤون الكون ومما هو وراء الطبيعة ، لم تتجه إلى علم النفس إلا بعد قرون من قيامها وإثبات كيانها .

وما يتبعها من دفع لغوائل الغصب والسبي والنهب يكون أظهر صفاتها ومثار الاهتمام فيها مواقف الشجاعة والبأس ، ومواطن النخوة والفداء ، ومظاهر الكرم والمروءة . فمن الأمور الطبيعية إذن أن يقوم الشعر الجاهلي على التفاخر والإشادة بالشجاعة ومكارم الأخلاق ، وأن يكون ، وهو أرفع أساليب البيان، لسان الحماسة ، تذكي به في القلوب أوار الجرأة والإقدام وتحمل على بذل النفوس بذل السماح في سبيل العشيرة — إن شعراً هذا شأنه في أكمل أهدافه ، لايعنى العناية كلها ، بالكشف عن أوهام القلوب وأغلاط العقول ومزالق الشهوات وما يجيش بالنفس من نزعات وخلجات لا يجمل بالرجل المحارب أن يبين عنها . ولا يعنى أيضاً بأن يوضح هذا كله في تعبير سافر مفصل يبعث على التأمل والسخرية مما ركب فينا من ضعف أمام أنفسنا وإزاء العناصر المحيطة بنا . هذه المرحلة من الشعر الحماسي مرحلة لها مابعدها ، تكون فيها متممة لما فاتها ، وتبتدع له الأوضاع والصيغ . هذا إذا قدر لها من الظروف الاجتماعية ماييسر أسباب التقدم والارتقاء.

أقول : إن الشعر الحماسي لايمكن أن يكون لمعالجة شؤون النفس على نطاق مفصل وفي سياقة دقيقة ، تدفع بالذهن إلى ابتداع مجالات اجتماعية وأوضاع للتعبير تكون لهذا الغرض ، ولا سيما إذا لم يكن هناك من مناسك العقيدة وشعائرها ما يعنى بالتعبير عن النفس تعبيراً يشترك فيه الإيقاع قولاً وحركة ، ويكون صدى للمخاوف والرؤى والأماني التي تنعكس بالنفس إزاء مواجهتها للقوى الخفية كالقدر والموت والحياة الأخرى ، وهي العناصر التي تكاد تكون لحمة كل عقيدة دينية ، وهي أساس كل مسرح ديني .

ويبدو لي أن الوثنية العربية ، وهي عقيدة العرب في الجاهلية ، لم تكن وثنية مترفة تخضع لشرعة التعبير المنسق الجميل كالوثنية الإغريقية مثلا ، بل هي وثنية لم تتجاوز المراحل البدائية من حيث المظهر والمخبر ، أي المبنى والمعنى ، فالأصنام التي كان يعبدها العرب والتي هي من صنع أيديهم كانت بدائية هزيلة من حيث الفنون الشكلية ، أي النحت والزخرفة والرسم . هذا وشعائر عبادة الأصنام كانت أيضاً بدورها على هذا الطراز .

ولا سبيل لمثل هذه الوثنية أن تخرج مسرحاً دينياً يعنى بشؤون الآخرة والأرباب ، ويكون مجازاً إلى المسرح الدنيوي الذي يعنى بأحوال الدنيا وسلوك الناس .

وعلى هذا تكون الجاهلية العربية مرحلة (إنسانية) لم تستكمل أسباب نضجها من حيث التقدم والحضارة ، ومن حيث الابتداع الذهني في عالم الأدب والفن ، هي عهد وثنية في دوره الأول ، أبين مظاهر التعبير الأدبي فيه شعر حماسي (épique) لم يصل تماماً إلى مرتبة الملحمة (épopée) ، وكل ما فيه من آثار التعبير الفني المجسم ، أصنام

وتهاويل ، ضئيلة الحظ من الحذق الفني والقدرة على الخلق الذي يحيل الطين اللازب والحجر وغيرهما من العناصر المادية إلى شعر وموسيقى يفيضان بحيوية معبرة وإيحاء جميل[١].

ولا شك في أن هذه المرحلة البدائية من الوثنية العربية كانت تحبو في مدارج التطور والارتقاء ، فتسلك الطريق نفسها التي سلكتها الوثنية لدى قدماء المصريين واليونان والإغريق ، مع الفارق الذي تقضي به أسباب الثقافة التقليدية وعناصر البيئة ، فتتمخض عن شعر تمثيلي (درامي) [٢] قد يتبعه قيام مسرح ديني .

ولا شك في أن مظاهر التعبير القائمة على المحاكاة والتقليد بواسطة الكلام والإيماء والحركة ، والتي وجدت في كل زمان ومكان ولدى كل شعب من شعوب الأرض ، كانت تتطور على الزمن ، ويجعلها نضوج ملكات النفس فنًّا يلاقيه الخلق الأدبي في صعيد المسرح ، فتكون المسرحية . كل هذا محتمل وقوعه لو لم يجد ذلك الحدث الكبير في الجزيرة العربية ، ألا وهو ظهور الإسلام .

وجه من الواعية العربية في الإسلام :

والإسلام هو دين التوحيد ، فلا بدع أن يناهض الوثنية التي تقوم على تعدد الآلهة ، ولا غرابة في أن يعمل على محو آثارها المادية المجسمة ، واستئصال جذورها المعنوية من نفوس العرب ، ولا عجب في أن يرمق بعين الكره والنفور فنون النحت والزخرفة وكل ما يقوم على نسخ مظاهر الطبيعة للتعبير عنها . بيد أن هذه حال ليس من شأنها أن تذكي ملكات التعبير والخلق الفني ودفعها إلى ارتياد آفاق جديدة يكون الإبداع الفني مستلهما من مظاهر الطبيعة ومن انعكاس صورها في النفس .

والمستقرئ تاريخ الفنون الجميلة ومراحل تطوراتها يعلم أن تعاليم العقيدة الإسلامية ، في دفعتها الحماسية الأولى ، قد أحدثت حدثاً عجيباً في الفنون الشكلية ، إذ حولت مواضع الإلهام فيها من الطبيعة وصورها إلى العقل وأخيلته ، بعد إذ تأثر بهذه التعاليم الدينية الجديدة . والفن الإسلامي بطرزه وزخارفه يشهد بهذا . ولسنا بما نقرر نحاول أن نتنقص الفن الإسلامي بهاءه وسحره وإنما نسوق هذا في موضع التدليل على عظم الأثر الذي أنزلته العقيدة الإسلامية في الفنون التعبيرية المجسمة ، حتى نكاد نقول إنه لو فرض

(١) الملحمة : قصيدة كبيرة من الشعر القصصي الحماسي تقص أخبار جيل أو أجيال ، إذ يواجه ناسه حدثاً له خطره في حياتهم ، فتضم بين دفتيها أحوال مئات من السنين ، وتعالج شؤوناً مختلفة بين خاصة وعامة ، وهي في هذا لا تتقيد بزمان أو مكان .

(٢) يلاحظ أن الشعر التمثيلي أو (الدرامي) لدى قدماء اليونان ، وهم واضعو التمثيلية الكاملة إنما جاء بعد نضوج الشعر القصصي الحماسي (épique) وشعر الملاحم والشعر الوجداني (lyrique)

وجود مسرح وثني ديني أو دنيوي لدى العرب في جاهليتهم — وهو ما لم ينته إلينا خبره إلى الآن — لقضت عليه هذه التعاليم، أو لأخرجته عن محاوره وأوضاعه ليماشي الروح الجديد[١].

جاء الإسلام ونزل القرآن فتوزعت الواعية الباطنة، والنشاط الحسي الظاهر لدى العرب، بين مناهضة أعداء الإسلام والخارجين عليه وحربهم في غير هوادة، وبين الإعجاب بما جاء في الذكر الحكيم من الإعجاز في التشريع وفي المعاني وفي الإسلوب البياني.

وسرعان ما فرض أدب القرآن طابعه على ما تخرجه القريحة العربية بعد أن بهرها بإعجازه في أسلوبه وتعاليمه، هذه التعاليم التي أنشأت بعد ذلك فلسفة إسلامية تخدم العقيدة الكريمة أكثر مما هي لحياة الفكر المجرد.

وعامل آخر له أهميته في صرف الذهنية العربية الإسلامية عن الأخذ بأسباب التعبير عن طريق المسرحية، ولو فيما يشغلها من شؤون الدين، ذلك بأن العقيدة الإسلامية هي على وضوح في أركانها، وجلاء في تعاليمها، ومنطق في أحكامها، فلا يشوبها لبس أو غموض يتطلبان تكلفاً في الإفصاح عنها وتحايلا في التفسير. الوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتمل الشرك، فلا آلهة ولا أنصاف آلهة. كما هو الحال في الوثنية، ولا عقدة يتعذر فهمها، فلا أب ولا ابن ولا روح قدس، كما هو الحال في العقيدة المسيحية. هذا وشعائر الدين الجديد ولا سيما في عهده الأول على بساطة غنية وتقشف ظاهر — ولا أقول رهبانية — فليست في حاجة إلى عازف يعزف على آلة موسيقية أو مغن يرفع صوته بالغناء والترتيل، أو راقص يدور على نفسه.

مثل هذه العقيدة القوية فى معنوياتها، البسيطة في شعائرها، القائمة على مناهضة كل مظهر من مظاهر تعدد الأرباب وما يتصل به من فنون تسخر لإحياء طقوسه ومناسكه، لا يمكن أن تتمخض عن فن تمثيل يكون لشؤون الدين أولا، ثم لشؤون الدنيا أخيراً[٢] كما كان الحال في وثنية قدماء المصريين والهنود واليابانيين، ثم وثنية الإغريق والرومان، ثم في المسيحية التي خرج منها مسرح ديني عالج بعضاً من التعاليم المسيحية، كما تناول وجوهاً من حياة السيد المسيح ومعجزاته، وخوارق الحواريين والقديسين،

---

(١) كما فعلت تعاليم الدين المسيحي في القرون الوسطى بأوربا، إذ أنشأت مسرحاً دينياً جديداً إلى ما كان قائماً من آثار المسرح الإغريقي الروماني، يستمد معينه من هذه التعاليم.

(٢) من مظاهر التمثيل الذي ترين عليه مسحة دينية والذي قد يمت إلى الإسلام بصلة هو إحياء ذكرى (مقتل الحسين) بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حفلات عامة يقيمها (الشيعة) في العراق وفارس، ولكنها في الصميم حفلات دعاية سياسية غايتها التذكير بهذا الحادث، لتوحيد الكلمة الشيعية وإذكاء الحماسة بين الأتباع.

هذا هو المسرح الذي ساد أوروبا بأسرها في القرون الوسطى ومهد الطريق للمسرح الغربي الدنيوي الذي امتد إلى هذه الأيام ، بعد أن غذاه المسرح الإغريقي الدنيوي بالأوضاع والصيغ والتقاليد . هذا ولاخفاء أن فن التمثيل كان دائماً لشؤون الدين والآخرة ، قبل أن يكون لأحوال الدنيا وسلوك الناس .

العرب وثقافة الاغريق :

والإغريق هم مؤسسو فن التمثيل ، وبناة دوره ، وواضعو قيمه وأوضاعه وتقاليده . والظاهرة الجديرة بالتأمل فيما نحن بصدده أن العرب ، ابتداءً من النصف الأول من المائة الثانية إلى منتصف القرن السادس الهجري ، اتصلوا بالثقافة الإغريقية اتصالاً وثيقاً ، فأخذوا عنهم الكثير من العلوم والمعارف ، ونقلوا من مؤلفاتهم الكثير إلى العربية ، والعجب العاجب أننا لانجد بين هذه المترجمات مسرحية واحدة ، هذا في حين أن المسرحية تعد من أروع وأرفع مظاهر الأدب الإغريقي ! !

فإذا صح أن الناقل لاينقل من آثار أدب أجنبي إلا مايحس الحاجة إليه ، أوما يصادف هوى في نفسه ، فالدليل أوضح على أن العرب لم يحسوا الحاجة إلى الاستزادة من أدب غريب عنهم ، لم يتذوقوا آثاره إلى المرتبة التي تحدو بهم إلى النقل والترجمة .

ومأتى هذا ، أن للذهنية العربية تراثاً مجيداً يزخر بألوان رفيعة في الأدب ، تمتد أعراقه وترجع تقاليده إلى الجاهلية . وأدب هذا شأنه ، يكون أدباؤه في إسار عزة قومية وتفاخر وشمم يحجزهم عن النزول جهرة إلى الإعتراف من منهل أدب وثني دخيل عليهم .

كذلك كان لما يشتجر في أعماق البيئة العربية العباسية ويسيطر على النفوس فيها ، أثر كبير في انصراف أذهان العرب عن الالتفات إلى أدب المسرح . . والبيئة العباسية ، في حياة الذهن وفي حياة الحس ، تمتاز بظاهرتين : فمن ناحية الذهن كانت بيئة تهيمن عليها قلقلة فكرية من أسبابها الأخذ بأسباب الفلسفة الإغريقية الوافدة ، فكانت بيئة تطاحن وتنازع في العقائد الدينية والنظريات الاجتماعية والمذاهب السياسية * ، جرى فيها نضال مروع بين العلم والدين والفلسفة ، ومن ناحية الحس كان قد أطلق فيها العنان لفنون الرقص والغناء والخلاعة من غير تكلف ولا حدود ، فافتنّ العرب في هذا الافتنانَ كله من غير كلفة لأن لهم عرفاً في هذا وتقاليد موروثة .

---

* كان المسلمون فى ذلك العهد منقسمين إلى فرق كثيرة تجادل في الفلسفة الدينية وتقوم في وجه (أهل السنة) وهم السواد الأعظم من المسلمين ، فمن تلك الفرق الدينية : الشيعة ، والمعتزلة ، والخوارج ، والقدرية ، والجبرية والمرجئة ، والمجسمة .

فالتمثيل ، أدباً — وهو فيما نحن بصدده — وافد جديد ، لا يمكن أن يكون من شغل ذهن موزع بين احتدام الآراء وتنازعها في النظر إلى أحوال العقيدة ، وبين الافتتان بزخرفة الكلام وتزويقه بالبدائع اللفظية من جناس وتقفية وغيرها مما يدخل في البهلوانية البيانية ، وهي أميز مظاهر الأسلوب اللغوي في ذلك العهد ، والأسلوب من الرجل ومن البيئة ،

والتمثيل ، مجالا من مجالات الترفيه والتسلية ، لا يمكن أن تقوم له قائمة وسط ضروب الترفيه وألوان المتعة الحسية ، كالرقص والغناء وغيرهما ، مما كانت تستسيغه جميع الطبقات وتقبل عليه لأصالته في نفوسهم .

العرب في الأندلس :

وهناك اتصال آخر بالغرب ، قام به العرب بطريق غزوهم إسبانيا المسيحية واستقرارهم فيها مدة طويلة ، تعرفوا في أثنائها إلى ما كان قائماً هناك من أدب وفنون . غير أنهم وإن تأثروا باتجاهات الفن الغربي في البناء والزخرفة والنحت والرسم والموسيقى ، وتفتحت الواعية العربية على ألوان جديدة من الأدب ، محال أن يتأثروا بمظاهر العرض التمثيلي لطقوس العقيدة المسيحية السائدة ، لأن الإسلام الذي يملأ قلوب هؤلاء الغزاة الفاتحين لا يمكن أن يسع مظهراً تعبيرياً مأتاه عقيدة تخالف عقيدتهم .

عصور الانحطاط :

هي عصور نزلت بالشرق العربي ، وكلها ظلام وفتن ومحن ، فليس من شأنها أن تنشط الذهنية العربية لأن تمتد أطرافها إلى الأخذ بأسباب جديدة عليها في الأدب والفن ، ولا سيما أن الاتصال بالغرب لم يكن قائماً على أحسن وجوهه ، ولم يكن الغرب قد فرض بعد مدنيته على الشرق .

أما كيف دخلت المسرحية إلى الشرق ، وكيف أصبحت مجالا من مجالات النشاط الذهني لدى الكاتب الشرقي العربي ، فهذا بحث قد نعود إليه .

زكي طليمات



دنيا القصص

دُنيا جديدة

للأستاذ محمود تيمور بك

غادر المنزل وقد بنى عزمه على أن ينفذ فكرته . . .

وسار في الطريق زائغ النظرات ، وفي رأسه أتون يتأجج . ولكن خطواته كانت متلاحقة محكمة تدل على عزيمة واقتدار كأنها خطوات جنديٍّ ماضٍ إلى حومة القتال . .

إنه يشبه الجندي فيما يقصد إليه من أداء مهمة ، وخوض معركة . . . ولكن الفارق بينهما أن الجندي يمضي وهو في فسحة من الأمل أن يعود ظافراً يعانق الحياة ويقتطف ما فيها من متع ومباهج . أما هو فيسير في مثل صلابة الجندي وعزيمته ، بيد أنه يعلم علم اليقين أن ذهابه إلى غير رجعة . . . خوض معركة يخرج منها مهزوماً قد طواه الردى .

ولكن كيف يعد نفسه مهزوماً إذا انتحر ؟

أليس الموت في حقيقة الأمر أكبر انتصار على الحياة ؟ وماذا لقي من هذه الحياة ؟ إنها لحرباءة خبيثة ، طالما خادعته وغررت به . . . هذه الحياة لقد كانت تتفنن في الكيد له ، وتسخر من إخفاقه ، وتذيقه ألواناً من التعذيب والإيلام . . . هذه الحياة لقد كانت تركله وتطؤه ، فينهض محنيّ الظهر معفر الوجه ليخفض هامته ثانية لتلك الجنية اللدود ، فلا تلبث أن تنحي عليه بسياطها حتى يخر مثخناً بجراح الخيبة والإذلال . . .

هيهات للحياة أن تنال منه منالاً بعد اليوم ! ... إنه سيقف أمامها وجهاً لوجه ويقول لها : لن تستطيعي منذ الآن أن تستعبديني وتستمرئي شقائي . كلا لن تستطيعي أن تفعلي شيئاً معي ستقفين أمام رفاتي قليلة الحيلة عاجزة الوسيلة ، مهما تحاولي فليس في مقدورك أن تلحقي بي أي أذى ! . . إنها ساعة انتصار لي ... أليس الموت في حقيقة الأمر أكبر انتصار على الحياة ؟

وحث خطاه إلى حيث ينفذ فكرته ... ولكن أية جهة يختار ؟ إنه يدري إلى أي ميدان يذهب ، ولكنه لايدري أي مكان في هذا الميدان يحل ؟

بأي أسلوب ينتحر ؟

ما أكثر الوسائل ! ... أيختار « الترام » ؟

ومثل في ذهنه « الترام » وهو يقطع الطريق مثقلاً براكبيه كأنه أتان حبلى ... أتان عجفاء نخرة العظام ! ... أيسلم لهذه الأتان رقبته طائعاً مختاراً ؟ أيرضاها لنفسه جلاداً ؟ هناك السم الزعاف ... هناك المدية الماضية ... هناك أفانين مما يكفل له بلوغ مأربه المنشود.

وأشرق وجهه بغتة بإشراقة الظفر .. لم لا يكون « النيل » جدثه العظيم ؟ إن هذا الإله القادر الذي يتدفق منذ الأزل يشق الصحراء الجرداء فيحيلها جنات فياضة ناضرة ... إنه ليلقي بنفسه عن طيب خاطر في هذا الفيض الزاخر بالخيرات ... ماأسعده حقاً إذ يشعر بأن ذراعي الأب الشفيق تضمانه إلى صدره فتخفيانه فلا يلبث أن يفنى فيه ! ... أي فخر أعز من أن يغدو جزءاً من ذلك الإله في قوته وعظمته ، يشاركه فيما يغدق على البلاد من نعم وبركات ؟

لقد جرب حظه في الحياة مرات ومرات ، فباء بالإخفاق المرّ ... هو الإخفاق دائماً... ذلك الوحش الهائل الذي تجمعت فيه كل مظاهر القسوة والعنف ، ذلك الحيوان الضخم الذي يماثل الحيوانات المنقرضة التي عاشت قبل التاريخ . إنه ليلاحقه حيثما حل ، يراه تارة رابضاً أمامه وهو في ساحة الامتحان يرمقه بالنظر الشزر ويبتسم له ابتسامته النكراء فيكشر عن أنياب قذرة مسنونة كرؤوس الحراب ... ويخيل إليه دائماً أنه يسمع منه فحيحاً كأنه يقول له : هأنذا لك بالمرصاد !

هو الإخفاق دائماً ... يعاجله أبداً في كسب رزقه ، في تحقيق مآربه ... وأخيراً وقد سقط مريضاً وطالت به العلة كان يرى ذلك الحيوان المنقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، وقد أرسل خرطومه يستنزف دمه على مهل ويستل روحه في بطء ... لقد لازمه ذلك الحيوان في مرضه ولم يدعه إلا خرقة إنسانية مهلهلة لاحيوية فيه ولانشاط ! ...

ماذا يستحق في هذه الحياة أن يعيش من أجله ؟ إنه يحيا في بيت خاله مع أسرته ، يحيا معهم كالغريب المنبوذ ، طالما قرع سمعه قول خاله : لوجه الله أطعمك وأؤويك فإلى متى ؟ وطالما تعالت حوله صيحات التذمر والسخرية فيخالها دخاناً كثيفاً يتعقد ويحيط به حتى لا يستطيع أن يتنفس ... وهذا الحيوان المنقرض ، حيوان ما قبل التاريخ ، مترصد له أبداً تتلاعب ابتسامته النكراء على فمه الغليظ الأدكن ، وهو يكشر عن أنيابه القذرة المسنونة كرؤوس الحراب ...

وسار الفتى ثم سار حتى دنا من ضفة النيل ... إن النخيلات الشامخة بهاماتها الملوكية

لترفّ بأغصانها ترحاباً بمقدمه ، وإن الشمس الغاربة بقرصها المتوهج لكأنها نار وليمة تشب لاستقباله . . .

النيل ! . . . نعم ، النيل . . . في عبابه الزاخر يودع عالم الشر والفناء ويستقبل عالم النعيم والخلود ، وهو محوط بتلك الأناشيد العذاب ترددها له أطياف لا تراها العيون ، تلك الأناشيد التي لا يسمعها إلا من أقبلوا على الأبدية بأرواح تخلصت من الشوائب وشملها الطهر والصفاء !

وأصبح من ضفة النيل على قيد خطوات . . . وأحس بقدميه تتثاقلان وقد بدأ يغشاه سحر غريب . . . واختار مكانه الملائم . . . ووقف هناك وقفته الأخيرة وعيناه تحدقان في الأمواج المتدفقة يحاول أن ينفذ إلى أعماقها . . . ماذا وراء هذه الأمواج التي تتراقص على متن النهر ؟ ! وانبعثت ضجة غير بعيدة منه ، فتلفت هنيهة حوله ، إنها حركة الطريق : أناس بين غاد ورائح ، ومركبات تضج بعجلاتها وتصيح بأبواقها . إنها ضجة الحياة ، ضجة الدنيا . . . وابتسم ابتسامة هازئ ، ثم عاد يحدق في الماء .

أحقاً إن هذه الدنيا ليست جديرة بأن يعيش من أجلها ؟ إن الناس من أجلها يعيشون ، إنهم يسعون إلى الرزق كادحين مجاهدين . . . أليس هو مثلهم إنساناً ؟ ألا يستطيع أن يسعى كما يسعون كادحاً مجاهداً ؟ . . . ولكن هذا « الإخفاق » . . . هذا الحيوان الهائل الكريه ، حيوان ما قبل التاريخ ، إنه رابض في طريقه يسد عليه المسالك ، ولن يستطيع هو بخور عزيمته أن يتغلب عليه وينحيه عن الطريق . أفي مقدور بعوضة أن تساور الأسد الجبار ؟ إنه ليشعر بالامتعاض والتأفف من نفسه . لماذا رضي أن يكون بعوضة على حين يرى الناس من حوله أسوداً ضارية ؟

وأطال التحديق في الماء أمامه . . . وتحفز ليقفز . . . فإذا به يسمع حركة طارئة ، حركة تصحبها همسات وزفرات ، وتلفت حوله ، فتبينت عينه في ظلمة الغروب شبحاً يضطرب على حافة الشاطئ عن كثب منه ، وألفى نفسه يكمن خلف جذع شجرة ، وأخذ يرقب الشبح من مكمنه ، ويُحِدُّ بصره ، فإذا الشبح فتاة تتعثر في خطاها وبين يديها لفيفة تضمها إلى صدرها ضمة رحمة وحنان . . . وتوقفت الفتاة ، وأطالت النظر إلى اللفيفة ، ثم مهدت لها مكاناً بين الأعشاب النابتة على حافة الشاطئ ووضعتها في رفق ، وما لبثت أن انحنت عليها تقبلها في شغف ، ونهضت بغتة مندفعة صوب النهر ، وفي لمحة هوت في الماء ، فانبعث لسقوطها صوت مكتوم مفزع ، كأنه صوت وتر في قيثارة شد إلى أقصاه حتى انقطع . . .

وألقى الفتى نفسه يهوي حيث هوت الفتاة ، ويغوص وراءها في ذلك الخضم المتلاطم ... وبعد جهد ومغالبة استطاع أن يصل إليها ، وأن يعود بها إلى الشاطىء خائرة القوى فاقدة الوعي . . .

وأخذ يسعفها بما هدته إليه الفطرة ، ونجح في مسعاه ، فإذا الحياة تضطرب بين جوانح الفتاة ، فوضع رأسها على ركبتيه ، وعيناه تتوسمان وجهها ، وقد بدأت مواكب الليل تتزاحم إثر الغارب تطارد فلول الضوء ... ولكن تلك المواكب لم تلبث أن وقفت خاشعة أمام ذلك الملك العظيم الذي بدأ يعلو من الشرق قرصاً أرجوانياً يتهادى في روعة وجلال ، فتصاغرت أمامه جحافل الليل الزاحف ، وأخذت تتزايل . . .

وسطع الضياء الفيّ على وجه الفتاة ، فإذا بمحياها هادىء لم يزده امتقاع الإعياء إلا وسامة على وسامة . وكان شعرها البليل مسدولاً حول رأسها تتناثر خصلاته على كتفيها ، وقد تدلت بعض هذه الخصلات تخفي ما ظهر من صدر ناهد كان قد شق القميص وأسفر . . .

ورفعت الفتاة جفنيها ، فإذا عينان زرقاوان تماثلان زرقة السماء الصاحية ، تختلج أهدابهما الوطاف حولهما كأنها أحراس ساهرون على ذلك النبع الفياض ... ونهضت الفتاة برأسها قليلا ، وهمهمت جزعة :

أين أنا ؟

فمسح الفتى شعرها ، وقال في لهجة ظفر ووثوق :

أنت في حرز أمين ...

وتلاقت عيناهما في ذلك الضوء الفضي الساجي الذي يشيع في النفس الأمن والصفاء ...

وجعلت الفتاة ترنو إليه في سهوم ، وهي ما برحت في شبه غيبوبة تختلط حيالها الحقائق بالأحلام . وأطال الفتى نظره إلى عينيها ، وأحس بأن هذا النبع قد أخذ يفيض بالخيرات... وإذا هو يرى فيه عوالم جديدة ذات سماوات وأرضين لاعهد له بها من قبل ... إنه ليسمع من ذلك النبع الفياض خريراً لم يمر بسمعه أبهج منه قط ...

ومرت على الفتى فترة وعيناه موصولتان بعينيها ... إنها لحياة جياشة تتفتح له ، حياة بعيدة عن واديه القديم بقفره وجدبه ...

واعتلجت في رأسه شتى الخواطر والأفكار ... ياللعجب ! ... إن الله قد بعث به إلى النهر لينقذ حياة هذه الفتاة التاعسة ... هناك قوانين قاهرة لايستطيع المرء أن يقع لها على تفسير .. ألسنا مسيرين حقاً لا مخيرين ؟ ... لقد أنقذ روحا ، روحا بشرية من صنع

الله ... أنقذ مخلوقاً من بني جنسه ، رد إليه الحياة ثانية بعد أن أوشكت أن تفر منه ... إنه غالب الموت فغلبه في هذه المعركة ... إن الله أراد الحياة لهذه الفتاة ، فكان هو في ساعته يد الله ! إنه يحس قوة الله في جسمه ، وعظمته تسري في أوصاله... !

واهتز الفتى اهتزازة اعتداد بنفسه واعتزاز ... وسمع الفتاة تهمهم :

لم أنقذتني يا سيدي ؟

فقال وعيناه مازالتا موصولتين بعينيها :

لم يكن لك أن تجرمي في حق نفسك هذا الجرم !

واستمع لصدى صوته في نفسه ، فكأنه يستمع إلى إنسان آخر يتكلم ، كأن جديد ينطق في لهجة جديدة ! ...

أجابت الفتاة :

وهل من العدل أن يحيا المرء في هذه الدنيا يعاني الظلم ويشقى ؟

— ليس لنا أن نتخير، بل علينا أن نصبر على ما نحن فيه . ثم نجاهد، ونكافح، ونأمل . . .

— لقد جاهدت ، فبؤت بالخيبة ، وفقدت كل أمل ...

— حاولي أن تخلقي الأمل خلقا ، وأن تتصيدي السعادة تصيداً ...

— حاولت فأخفقت ...

— حاولي أيضاً ولا تيأسي ... يجب أن يكون في قلبك إيمان بأن الحياة ليست عبثاً .

— كيف ؟

— فكري لحظة ... إن الله لم يخلقنا في هذه الدنيا سدى ... وإلا فما هي حكمته في أن يقذف بنا في هذا التيار نصارعه ونصاوله دون جدوى ؟ إن لكل منا رسالة يؤديها !

— وهل لمخلوقة حقيرة مثلي رسالة ؟

— أحقر كائن في الأرض له رسالة يجب أن يؤديها . . . وإن خفي علينا وعليه أمرها . .

وغمغمت الفتاة :

— رسالة ؟ أنا أؤدي رسالة ؟

وبغتة تلفتت حولها متفزعة ، وصاحت :

— طفلتي !

وهرع الفتى والفتاة إلى مكان اللفيفة ، فألفيا الطفلة مدرجة في لفائفها ، ناعمة العين بالنظر إلى القمر مبهورة بضوئه اللألاء ، تتحرك يدها في فرحة ، وهي مستغرقة في مناغاة ومناجاة ! . . .

فالتقطت الأم طفلتها ، واحتوتها في صدرها ، وجعلت تغمرها بقبلاتها الحنون . . . ثم شرعت تقص على الفتى قصة البؤس الذي دفع بها إلى القضاء على نفسها . . . إنها قصة تتلخص فى كلمات قلال : حب ، فعبث بالفضيلة ، فافتضاح ، فطرد من بيت الأسرة ، فتخلٍّ من الحبيب . . .

فأمسك بيدها يلاطفها وهو يقول وقد أشار إلى الطفلة يداعب وجنتها :

— ألا تعترفي معي بأن في الحياة نواحي جميلة طيبة ، وأن الله لم يخلقنا سدى ؟

. . . كان الفتى قد ترك في بيته كتاباً يخبر أهله بأنه معتزم التخلص من الحياة ، وكانت الفتاة قد تركت أيضاً في بيتها مثل هذا الكتاب . . .

إذن لقد انتحرا . . . تخلصاً من دنياهما القديمة التي شقيا بها وشقيت بهما حيناً من الدهر . . .

لقد أنقذ الفتى روحين ، وإنه لمسؤول عن مصيرهما ...

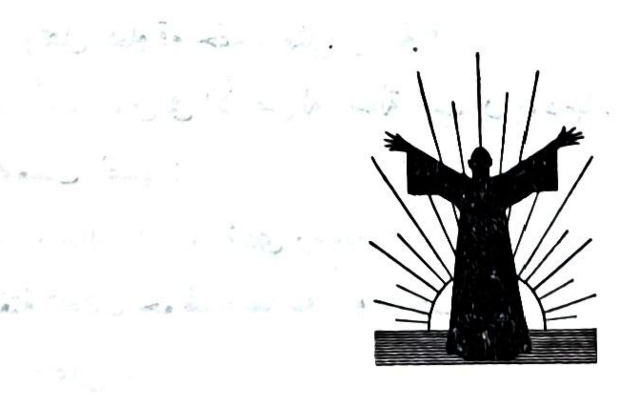
ونهضا ... وطفقا يسيران ... هو يخطو مرفوع الهامة تتقد عيناه عزماً وحيوية ، وهي بجانبه معتمدة على ذراعه يشرق على محياها سيماء الطمأنينة ...

إنهما يسيران ...

يسيران وقلباهما يخفقان بشعور واحد ، شعور نقي ناصع كضياء هذا الكوكب المتألق الذي يغمرهما بفيضه اللؤلؤي ...

يسيران نحو دنيا جديدة !

محمود تيمور



انبـاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتّاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج :

مصـر

لا يفتأ حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول مليك مصر المعظم يحيط رجال العلم والأدب بجليل رعايته وسامي عطفه؛ فمأثرات جلالته في تشجيع المؤلفين والمتفوقين من طلاب العلم أكثر من أن تحصى.

وأحدث سِفر تفضل جلالته فأمر بطبعه على نفقة الجيب الخاص «تاريخ مصور لمساجد القاهرة».

وقد علمنا أيضاً أن جلالته حفظه الله ذخراً وسنداً للعلم وأهله قد أصدر أمره الكريم بانشاء خمس جوائز من الجيب الخاص قيمة كل منها خمسون جنيها مصريا لأحسن رسالة يقدمها طالب مصري عن مصر في كل من الجامعات الخمس بانجلترا.

وتشجيع جلالته قد يشمل أيضاً الطلبة الذين يقدمون أطروحاتهم لنيل درجة الدكتورية.

✡✡✡

أقيمت في الساعة الرابعة من يوم الخميس الموافق ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٤٥ بحديقة قصر عابدين العامر حفلة شاي تكريماً لحضرات أعضاء بعثة الحكومة المسافرين إلى الخارج لتلقي العلم فتفضل الفاروق حفظه الله وأذن لوزير المعارف بأن يذيع على الحاضرين النطق الملكي الكريم الآتي :

« يرجو مولانا الملك أن تسيروا على سنن من أوفدوا قبلكم من عهد المغفور له محمد علي الكبير إلى اليوم، وأن تكونوا مثلا عالياً في الأخلاق الفاضلة وفي الجد والعمل وأن تعودوا موفقين ظافرين لتكرسوا حياتكم لخدمة الوطن. ويسر مولانا أن يستقبلكم عائدين كما ودعكم راحلين، ويرجو لكم الخير والتوفيق ».

✡✡✡

كانت لجنة الأدب بمجمع فؤاد الأول للغة العربية قد وضعت لائحة داخلية تنص على عقد مسابقات في فنون الأدب كل سنة ، وعلى دراسة لما يخرج من الآثار في العالم العربي في أثناء السنة ، ثم يعطى أحسن كتاب جائزة مالية ويتوّجه المجمع . وقد أدرج في ميزانية هذا العام مبلغ ٨٠٠ جنيه لهذا الغرض .

✡✡✡

تتسع الآن بمصر دائرة التأليف وتتعدى جهد الفرد إلى جهد المجموع ، فهناك الجمعية الملكية للدراسات التاريخية ، والجمعية الفلسفية المصرية ، وجماعة علم النفس التكاملي (ومجلتها التي أصدرتها أخيراً فريدة في نوعها) ، وجماعة الأمناء (نسبة إلى الأستاذ أمين الخولي وأعضاؤها من خاصة

تلاميذه) إلى غير ذلك من الجماعات التي تنوي أن تزود المكتبة العربية بنفائس العلوم التي تخصصت بها وأن تسير بالتأليف في طريق واضحة معبدة .

✡ ✡ ✡

بمصر اليوم نهضة صحافية واسعة الأفق ملموسة الأثر فقد غنيت الصحافة فيها بكثير من الصحف والمجلات الجديدة . وأحدث المجلات الشهرية عهداً هي مجلة الكاتب المصري التي يرئس تحريرها الدكتور طه حسين بك وقد صدر الجزء الأول منها في شهر أكتوبر الماضي حافلا بالمقالات الرصينة لكوكبة من أفاضل الكتاب المصريين وكفى بمجلة يتولى رياسة تحريرها الدكتور طه حسين بك حتى تكون مثالا عالياً للأدب الرفيع .

✡ ✡ ✡

أتمت لجنة إحياء آثار أبي العلاء طبع القسم الأول من السفر الثاني من آثار أبي العلاء . وهذا السفر الثاني يحتوي على شروح التبريزي والبطليوسي والخوارزمي لسقط الزند وهو أول دواوين أبي العلاء . والشرحان الأولان لم يسبق نشرهما من قبل . وينتظر أن يتم هذا السفر في أربعة أقسام يشرف على تحقيقها تحقيقاً علمياً أعضاء اللجنة وهم حضرات الأساتذة : عبد السلام هرون وإبراهيم الإبياري وعبد الرحيم محمود وحامد عبد المجيد . وتسعى اللجنة إلى اجتلاب المخطوطات والمصورات من جميع أنحاء العالم حرصاً منها على أن تظهر آثار أبي العلاء في أصح صورها وأكملها . ومتى فرغت اللجنة من هذا السفر فستعنى بتحقيق اللزوميات فالفصول والغايات فرسالة الغفران ثم باقي رسائل أبي العلاء وآثاره .

✡ ✡ ✡

قطعت لجنة ابن الرومي شوطا بعيداً في تحقيق ديوان ابن الرومي وإعداده للنشر وهو ديوان ضخم لا يقل عن ستين ألف بيت من الشعر والمنتظر أن يصدر السفر الأول منه في خلال شهرين أو ثلاثة أشهر ، وأعضاء هذه اللجنة هم حضرات الأساتذة: كامل كيلاني ومحمد شوقي أمين ومحمد جبر ومحمود لطفي .

✡ ✡ ✡

من مظاهر التعاون الثقافي بين البلاد العربية أن دور النشر بمصر أصدرت في هذا العام بعض المؤلفات النفيسة لأدباء من الأقطار الشقيقة نذكر منها : البيادر للأستاذ ميخائيل نعيمة من لبنان ، وكتابي حضارة العرب وحياة محمد ترجمة الأستاذ عادل زعيتر من فلسطين ، وكتاب مصر والشام للدكتور أسعد طلس من سوريا .

✡ ✡ ✡

من الكتب التي ستظهر قريباً عن لجنة التأليف والترجمة والنشر كتاب قصة الأدب في العالم (الجزء الثاني من القسم الثاني) للأستاذ أحمد أمين بك ، ورسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد علي بك والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة باشراف مكتبة جامعة فؤاد الاول .

✡ ✡ ✡

تكاد دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي تفرغ من طبع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وقد حققه وشرحه الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وكتاب وقعة صفين لنصر بن مزاحم

المنقري وقد حققه وشرحه الأستاذ عبد السلام هرون ، وكتاب الفائق للزمخشري وقد حققه وشرحه الأستاذان علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبرهيم .

✡✡✡

يشتغل الأستاذ عباس محمود العقاد بوضع كتاب جديد عن «أثر العرب في الحضارة الأوربية» .

✡✡✡

ترجم الأستاذ محمود إبرهيم الدسوقي كتاب نابليون للكاتب الألماني إميل لودفيج وذلك عن الأصل الألماني باذن خاص من المؤلف، وقد علمنا أن الأستاذ عادل زعيتر بفلسطين قد ترجم الكتاب نفسه عن الفرنسية .

«الكتاب» لعل فيما ننشره من أخبار الكتب والكتّاب منصرفاً عن ترجمة الكتاب الواحد أو معالجة الموضوع الواحد بقلمين مختلفين إلا أن يكون فى اتفاق التصور تباين فى التصوير .

فلسطين

أصدرت أخيراً دائرة المعارف العامة تقريرها السنوى لسنة ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ وهو يشتمل على إحصاءات تهم المشتغلين بتتبع تطور التعليم في البلاد العربية . وقد ورد فيه أنه في سنة ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ كان مجموع المدارس العربية في فلسطين ٧٧٠ مدرسة فيها ٩٦٩٢٨ طالباً . وفي سنة ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ كان عدد هذه المدارس ٧٤٥ مدرسة فيها ٩٨٨٠٠ طالب . وكان عدد المدارس اليهودية ٧٥١ مدرسة في سنة ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ ، وفي سنة ١٩٤٢ ــ ١٩٤٣ كان عددها ٧٨٥ مدرسة .

✡✡✡

عقدت محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية حلقات أدبية لأدباء الأقطار الشقيقة يجيبون فيها عن أسئلة المستمعين وكانت الطليعة من هؤلاء الأدباء الأساتذة : العقاد والمازني وعزمي والحكيم .

✡✡✡

تأسس في بيت المقدس في أثناء الحرب معهد لتدريس العربية وتاريخ العرب وعاداتهم للضباط البريطانيين الذين يشغلون المناصب السياسية .

✡✡✡

فرغت السيدة عنبرة الخالدي حرم أحمد سامح الخالدي بك من كتابها « قصة الإلياذة »، وهو ترجمة نثرية للالياذة أرادت بها المؤلفة أن تقرب للنشء الحديث منال هذه القصة العالمية .

✡✡✡

نال كتاب « الصهيونية » الذي ألفه الأستاذ سعدي بسيسو بالقدس رواجاً كبيراً فقد اعتمد المؤلف في أبحاثه على أوثق المصادر وأصدق المراجع من مؤلفات مختلفة في اللغات الثلاث : العربية والإنجليزية والفرنسية .

اشتهر الأستاذ نقولا زيادة ببيت المقدس بأبحاثه التاريخية وآخر كتاب ظهر له في القدس هو: « وثبة العرب » ، وله كتاب سيطبع قريباً وعنوانه : « صور من الأدب العربي »

✡✡✡

من أطرف الكتب التي تطبع الآن في بيت المقدس كتاب « الزيتونة » للأستاذ علي نصوح الطاهر المفتش في دائرة الزراعة ، والكتاب يضم أبحاثاً مفصلة في تاريخ هذه الشجرة المباركة التي تكثر في فلسطين ، وفي نشأتها وأنواعها وأمراضها الخ . . . ويختم بما قيل فيها من شعر .

لبنان

قلد فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية خليل بك مطران وسام الأرز من رتبة قائد . وقد شكر شاعر القطرين فخامة الرئيس وصحبه بأبيات رقيقة تجلت فيها عاطفة الشاعر نحو وطنه الأول ، وجاء فيها :

يا رئيساً في عهده عاد لبنا ن عزيزاً كما نحب قويا . . .
أي جهــد بذلته والمنايا دون مارمت أو منال الثريا . .

وفخامة رئيس الجمهورية منشىء أديب ، يتذوق الشعر الرفيع . ويطرب له ، ويفطن إلى مواطن الجمال فيه ، وهو ذو اطلاع واسع في الأدبين القديم والحديث : عربيه وغربيه . وفي الحقوق والفلسفة . ولما كان مقام الرئاسة يحول دون إجابة الشاعر عن أبياته شعراً ، فقد عهد فخامته إلى سميه الشاعر بشارة الخوري ، الأخطل الصغير ، في القيام بهذه المهمة فأجاب بأبيات منها :

شاعر الحب والجمــال ترفق أبياناً ســقيتنا أم مداما
كلما لحت للخيال لمحنا الا أرز في ناظريك والأهــراما
قلت إذ أهدوا الوسام إليه كيف أهدوا إلى الوسام وساما؟

وهكذا جمع فخامة الرئيس بين وقار الرئاسة ، وذوق الأديب .

✡✡✡

من المشاكل الكبرى في لبنان مشكلة المدرسة ، فهي موضع دراسة فريقين من المفــكرين .
وتتلخص مطالب الفريق الأول : بقصر التعليم الابتدائي على اللغة العربية وتدريس العلوم والرياضيات بهذه اللغة في التعليم الثانوي وإعداد الـكتاب إعداداً وطنياً وإطلاق الحرية في تعلم اللغات الأجنبية .

وتتلخص مطالب الفريق الثاني : بالإبقاء على اللغة الفرنسية كلغة أجنبية أولى تدرس في التعليم الابتدائي ويدرس بها العـلوم والرياضيات إلى أن توجد كتب عربية تقوم مقامها وإنشاء شهادة بكالوريا للغات القديمة ولا سيما اللاتينية واليونانية وحصر العناية بلبنان وحده والنظر إلى البلدان العربية كما ينظر إلى أي بلد آخر قريب من لبنان .

✡✡✡

أصدرت دار العلم للملايين منذ تأسيسها في بيروت سلسلة نفيسة من الكتب الشهرية السيكولوجية « ودار العلم للملايين » مؤسسة ثقافية للترجمة والتأليف والنشر تشرف عليها لجنة من الجامعيين

من أهل الاختصاص في الفلسفة والتاريخ والأدب برئاسة منير بعلبكي (أستاذ الأدب العربي في مدرسة البنات الأهلية ، وفي كلية المقاصد) وبادارة الأستاذ بهيج عثمان سكرتير تحرير مجلة « الأديب » .

✡✡✡

قال حضرة صاحب السعادة عبد الرحمن عزام بك أمين الجامعة العربية في حديث له مع مندوبي الصحف عند زيارته لبنان أخيراً : « نحن فخورون بلبنان وبأبناء لبنان لأنه عندنا بمثابة مصنع للرجال الذين يعملون في الأقطار العربية على نشر الثقافة والحضارة » .

✡✡✡

قال الأستاذ توفيق وهبة صاحب جريدة الدنيا ببيروت في الحفلة التي أقامها رجال الصحافة تكريماً للأستاذ شكري زيدان أحد صاحبي دار الهلال : « شكر الصحافة للطباعة مثل شكر الضيف للمضيف ، مثل شكر الزائل للخالد ، فاقبلوا كلمة الصحافة يا رجال الطباعة فكلانا نعمل للفكر والنفس والروح » .

✡✡✡

ينوي الصحفي الشاعر ميشال أبوشهلا صاحب مجلة « الجمهور » نشر ديوان « الأندلسيات » وهومجموعة من الشعرالوجداني، دوّن فيها الشاعر خواطره في رحلة قام بها إلى بلاد المجد المفقود .

✡✡✡

في أوائل هذا الشهر تصدر مكتبة صادر في بيروت للشاعر إلياس أبو شبكة كتابين أولهما «غلواء» وهي قصيدة قصصية وجدانية تقع فيتسعمائة بيت والثاني «فيذلك الزمان» وهو مذكرات أدبية سياسية كتبها الشاعر عما شاهده ، وعاشه في الحياة اللبنانية ويقف الكاتب بمذكراته عند مطلع الحرب .

سُوريَا

الحياة الفكرية في سوريا اليوم صورة صادقة للمتناقضات، فرجال الفكر فيها فريقان متغايران كل التغاير أولهما مغرق في الإشادة بالأدب القديم والدفاع عنه والنسج على منواله ، وطريقة تفكير هذا الفريق لاتختلف عن طرق العرب الأقدمين . والثاني متطرف إلى أبعد حدود التطرف في الأدب الحديث ينظر إلى الأدب والحياة الفكرية بعين العصر ويماشي في ذلك كبار أدباء أوربا وأمريكا . والذي يغتفر لهذا الفريق تطرفه هو أنه لم يفقد شرقيته باتجاهه في تفكيره إلى المناحي الغربية .

ومن المعلوم أن الأدب الأوربي الحديث إنما هو نتيجة منطقية لطلاب المثل الأعلى من أدبائه فانهم لما رأوا ما في المدرسة الرومنطيقية من ضعف واستكانة ولما رأوا أن المدرسة البرناسية لم تجلب لهم الدواء الذي طمعوا في الحصول عليه شعروا بوجوب إحداث أدب عالمي دائم فاستمدوه من الروحانيات وأنشأوا له المدرسة الرمزية .

والنشء السوري الجديد، بأنه شرقي ، متأثر بهذه الروحانية ، وبأنه متصل بالأدب الغربي ، متأثر بهذه الرمزية التي يرى فيها الأدب الإنساني الكامل .

وليس في سوريا أدب وسيط يأخـذ من هؤلاء وهؤلاء كأنما الطفرة قد نقلت القوم من الاستصباح بقنديل الزيت إلى الاستصباح بالـكهرباء ولم تعرج بهم على مصابيح الغاز .

والمتناقضات في الأدب بسوريا هي أيضاً صورة من صور الحياة الاجتماعية فيها فلا تقع العين من مظاهر الحضارة فيها إلا على قديم جداً أو حديث جداً .

✡ ✡ ✡

أنشىء في دمشق بهو (صالون) أدبي على غرار الأبهاء (الصالونات) الأدبية التي اشتهرت إبان النهضة الأدبية في الغرب ويرئس هذا البهو الأدبي السيدة زهرة العابد زوجة رئيس الجمهورية السورية السابق ويختلف إلى هذا البهو الأدبي في كل خمسة عشر يوماً أدباء سوريا وأديباتها يتناشدون الأشعار ويتجاذبون أطراف الأبحاث العلمية والأدبية والاجتماعية . وربما انتسب هذا البهو إلى نادي القلم .

✡ ✡ ✡

كان من شدة إقبال النشء على كليات الجامعة بدمشق وضيق الأمكنة بها أن أصبح قبول الطلاب بها مرهوناً بالنجاح في امتحان خاص يعقد لهم لدخول الجامعة مع وجوب حصولهم على شهادة البكالوريا.

✡ ✡ ✡

من المؤلفات التى ستظهر قريباً : « قوس قزح » لشكيب الجابرى ، و« نظرات في الصيام» للدكتور موفق الشطي ، و « مذكرات فيصل » للأستاذ سامي شمعة وموضوعه وثائق عن القضية العربية ويحتوي على الرسائل التي تبودلت بين الملك فيصل والمستر لويد جورج وبين الملك حسين والسير هنرى مك ماهون .

العراق

صدر في الآونة الأخيرة مرسوم ملكي بتأليف لجنة للترجمة والتأليف والنشر وقد نص المرسوم على أن تكون اللجنة العراقية مرتبطة تمام الارتباط بوزارة المعارف وأن تعمل على إغناء المـكتبة العربية بترجمة أمهات الكتب الخالدة وعلى تشجيع الأبحاث المبتكرة ونشر المخطوطات العربية ووضع المصطلحات العلمية باللغة العربية ونشرها بين الجمهور والنظر في المقترحات المتعلقة بتقرير الـكتب وطبعها وتقرير الجوائز لمؤلفيها ومساعدة كل من له صلة بعالم التأليف والترجمة والنشر .

✡ ✡ ✡

اتفقت الحـكومة العراقية مع الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني على أن يضع كتاباً عن العراق يصف فيه تاريخه المجيد ونهضته الحديثة وأثر محافل العلم والأدب في تلك النهضة والكتاب سيطبع بالقاهرة على ورق أرسل من العراق .

✡ ✡ ✡

أصدرت مديرية الآثار القديمة في العراق مجلة سمتها « سومر » برعاية الدكتور ناجي الأصيل المدير العام ومشورة المستر « سيتون » المستشار الفني فيها وفي عددها الأول بحث عن الآثار البابلية .

ظ. الجبوري المجمع العلمي العراقي ص ٢٥-٢٦

عين الأستاذ جميل سعيد مدرساً في دار المعلمين العالية ببغداد وهو خريج كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة وكانت رسالته التي حصل بها على شهادة الماجستير : « تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس » وقد طبعتها إحدى مطابع القاهرة .

✡ ✡ ✡

عاد من مصر الأستاذ محمد كامل النحاس المنتدب أستاذاً بدار المعلمين العالية ببغداد .

✡ ✡ ✡

قررت وزارة المعارف العراقية توزيع كتاب « التلميذة الخالدة » للأستاذ أحمد الصاوي محمد على مكتبات المدارس .

✡ ✡ ✡

كان المرحوم معروف الرصافي قد ألف كتاباً عن أبي العلاء فعاجلته المنية قبل أن يدفع به إلى الطبع ولقد اهتمت ورثة الرصافي بهذا الأثر واتفقت مع أحد الناشرين على إصداره في أول فرصة .

انجلترا

في السابع والعشرين من شهر أغسطس الماضي فقدت بريطانيا عالماً من كبار علمائها ومستشرقاً من مشاهير المستشرقين هو الدكتور «رينلد ألين نيكلسن» الذي يعد أعظم حجة أنجبته إنجلترا في التصوف الإسلامي .

ولد نيكلسن في التاسع عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٦٨ وتلقى علومه العالية في جامعات أبردين وكمبردج وسترسبرج وليدن وفي سنة ١٨٩٨ نشر أول مؤلفاته وهو قصائد مختارة من ديوان « شمس تبريز » . وامتاز نيكلسن بغزارة التصور وأصالة الرأي وسعة الاطلاع فقد اشترك في نشر « تذكرة الأولياء » للعطار ، وكتاب « اللمع » للسراج ، وكتاب « ترجمان الأشواق » لابن عربي ، وترجمة « كشف المحجوب » للهجويري ، و « أسرار أى خودي » للمرحوم السيد محمد إقبال ، فضلاعن مقالات كثيرة في دائرة المعارف والصحف وثلاثة كتب نفيسة هي: «متصوفو الإسلام » و « دراسات في التصوف الإسلامي» و « فكرة الشخصية في الصوفية » .

وكانت آداب اللغة العربية ولاسيا الشعر العربي تستأثر بجل اهتمامه بعد حبه التصوف فكتابه « تاريخ الآداب العربية » الذي كتبه وهو في سن الثلاثين يتجلى فيه سمو الذوق الأدبي ويزخر بالمعلومات الواسعة الممحصة ثم إن كتابه دراسات في الشعر الإسلامي لا يقل جودة عن سابقه، كما أن كتابه « ترجمات في الشعر والنثر الشرقي » يكشف لنا عن ناحية أخرى من نواحي نبوغه ومقدرته في ترجمة الشعر شعراً . وله أيضاً كتاب عنوانه « السيد والدرويش » نظمه شعراً وأودعه كثيراً من الملح والنكات والأغاني .

✡ ✡ ✡

أعلنت الآنسة إلين ولكنسون وزيرة المعارف الإنجليزية ، في خطبة ألقتها بلندن يوم ٢٨ من سبتمبر أنه لا يمكن الآن تنفيذ القانون الذي كانت الحكومة الائتلافية السابقة قد أصدرته ورفعت به سن التعليم الإلزامي إلى سن الخامسة عشرة ، ولن يكون ذلك مستطاعا قبل أول أبريل سنة ١٩٤٧ .

وذلك لسببين أولهما عدم توفر الأبنية اللائقة وثانيهما قلة المعلمات والمعلمين . ومما ذكرته أن رفع سن الإلزام سنة واحدة في إنجلترا وويلز فقط سوف يشمل حوالي ٤٠٠ ألف تلميذ ، مما يستلزم وجود حوالي ١٣٫٠٠٠ معلم على أساس معلم واحد لكل ثلاثين طفلا .

✡ ✡ ✡

توفي أخيراً الأستاذ سبرمان عالم النفس المعروف بأبحاثه في الذكاء ، والمشهود له بالفضل في تنبيه الأذهان منذ مطالع هذا القرن إلى خطأ نظرية الملكات القائلة : إن تعلم الرياضة هو لتقوية التفكير والأدب هو لتقوية الخيال . ولقد وصل سبرمان بأبحاثه في الذكاء الإنساني إلى وضع عدة مقاييس لقياسه .

✡ ✡ ✡

عثر في إنجلترا على مخطوط للكاتب الفرنسي جان جاك روسو يرجع عهده إلى الزمن الذي كان المؤلف يقيم فيه على ضفاف بحيرة نيو شاتل في حوالي سنة ١٧٦٣ .

مخطوط لروسو

أمريكا

أنشىء بمدينة نيويرك معهد للشؤون العربية الأمريكية لتحقيق المبادىء السامية التي أقرها المؤتمر الأمريكي العربي في سنة ١٩٤٤ وهي :

(١) تعريف الأمريكيين على ثقافة بلاد العرب وتاريخها .

(٢) توثيق الصلات والصداقة التقليدية بين الولايات المتحدة والعالم العربي .

(٣) إفهام الرأي العام الأمريكي قضايا البلدان العربية وأمانيها القومية .

✡ ✡ ✡

من الزنوج المتأمركين ثلاثة شعراء ينظمون بلغة شكسبير .

وإن الذي يرجوه هؤلاء من مدرستهم هو النهضة الزنجية الأدبية ، ويقول هيوز كبير شعراء الزنج المعاصرين : « نحن مبتدعي الجيل الجديدمن الزنج ، نريد أن نعبر عن طابعنا الأسود دون خجل أو خوف . . . حتى نعرف أن لنا جمالنا وقبحنا وأننا سنشيد معابدنا تلك المعابد المنيعة التي نحسن تشييدها فنعلو بها إلى قمم الجبال ونحن أحرار في نفوسنا .

وخصائص هذا الشعر بعده عن التكلف وقربه من الغناء ، فمعظمه ينظم ليتغنى به المغنون أو ينشده المنشدون والتزام الموسيقى من مميزاته البارزة ونقله إلى اللغات الأخرى شاقّ عسير .

والصور فيه نادرة والمفردات في معناها الوضعي ، وقصارى القول أن شعر الزنوج شعر الجسد والأرض ومن أجل هذا نراه معمما بموسيقى الجداول وحفيف الأوراق البراقة وخفق الأجنحة وبريق النجوم .

✡ ✡ ✡

من الجامعات التي زارها حضرة صاحب السمو الأمير عبد الآله الوصي على عرش العراق جامعة برنستن ، فاستدعى التفاته فيها شباك زجاج ملون يمثل الرازي الطبيب العربي الذي عاش في

الوصي عبدالاله كان معه برنستن

أواخر القرن التاسع وكان كبير أطباء مستشفى بغداد في ذلك الحين ، وشباك آخر يمثل القديس يوحنا الدمشقي صديق معاوية .

وفي مكتبة الجامعة المذكورة ما يزيد على عشرة آلاف مخطوط بين عربي وتركي وفارسي ، ومن هذه المخطوطات عدة نسخ مذهبة من القرآن الكريم ، وقطعة من القرآن الكريم بخط كوفي يرجع تاريخها إلى القرن الثامن المسيحي وترجمة كتاب جالينوس في الطب وكتاب الموسيقى للفارابي ومخطوط في علم النبات .

✡✡✡

أصدرت الكاتبة والشاعرة الأمريكية « بربارة يونغ » كتاباً عن الفيلسوف اللبناني المرحوم جبران خليل جبران بعنوان « هذا الرجل من لبنان » جمعت بين دفتيه الشيء الكثير عن أخبار جبران وآثاره ونوادره ورفعته فيه إلى منزلة الخالدين مستشهدة بآراء كبار الكتاب في إنجلترا وأمريكا فإن منهم من شبهه برابندرانات طاغور الفيلسوف والشاعر الهندي ومنهم من ساواه بوليم بليك الإنجليزي ، وذكرته المنشستر جارديان بين الستة المعاصرين الذين حازوا قصب السبق في التأليف بالإنجليزية .

روسيا

انتزع الموت في الأشهر الماضية من يد ألكسيس تولستوي قلما جرى على القرطاس ٤٠ سنة فرفع من شأن الأدب الروسي وزاد في ثروة الإنسانية الثقافية .

ولد تولستوي سنة ١٨٨٣ في مقاطعة سامارا على ضفاف الفولجا فكفله جده ونشأته أمه — وكانت كاتبة — نشأة أدبية . فلما شب أخذ العلم عن أساتذة بطرسبرج .

وفي سنة ١٩٠٧ ظهر له أول « ديوان » وكان قصائد غنائية أردفه بعد ثلاث سنوات بجزء آخر سماه « قصص غراب البين » وبينما كانت بوارق الثورة تلمع في مطلع القرن العشرين فيمس بها ذوو الإحساس المرهف من كبار الكتاب الروس أمثال جركي ومايا كفسكي ، إذا بتولستوي يحس إحساسهم فيلتقط من بوارق الثورة ما تلتمع به قصصه لذلك العهد، « كالسيد الأعرج » ، و « الحالم » و « حب » . في هذه القصص يصور صغار القوم من طبيب القرية إلى المدرس إلى الممثلة تصويراً واقعياً بكل ما ترك شظف العيش في حياتهم من ندوب ولكنه يجعلهم جميعاً ينظرون إلى فجر يحمل السعادة إليهم وإلى الناس أجمعين .

أما عظمة تولستوي فقد نهضت على قصته « طريق العذاب » وتقع في ثلاثة أجزاء عنوان الأول منها « أخوات » وعنوان الثاني « ١٩١٨ » وعنوان الثالث « صبح ضباب » وقضى في تأليفها من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٤١ وضمنها أخطر الأحداث التي عصفت بروسيا .

ويجمع النقاد على أن قصة « بطرس الأول » هي رائعة تولستوي . فكتب إليه جركي يقول : « إن بطرس الأول » قمينة بالخلود .

وأرسل اليه الكاتب الفرنسي رومان رولان يهنئه : « بأبطال ينسجمون مع الهواء والأرض والنور تحيط بهم وتغذيهم فيؤلف الكل وحدة لا تتجزأ » .

استنفدت قصة بطرس الأكبر عشرين سنة من حياة تولستوي ومع ذلك لم يتم منها إلا الكتابين الأول والثاني والفصول الأولى من الثالث إلا أن ما ظهر منها كان كافياً لأن يبعث عاملا مجدداً مؤسساً قد فتح للروس نافذة تطل على أوربا .

ولا يعني ما تقدم أن تولستوي وقف قلمه على الثورة وما سبقها ولازمها وتبعها، فان وراء قلمه كاتباً كبيراً ينتج الرائع من الأدب ، ولا أدل على ذلك من مسرحياته التي لم تنل الأحداث من قيمتها الأدبية منالا .

✡ ✡ ✡

مر على تأسيس مكتبة طاشقند الوطنية خمسة وسبعون عاماً وهي من أقدم المؤسسات الثقافية في جمهورية أوزبكستان السوفياتية الاشتراكية . وتملك هذه المكتبة اليوم مليوناً وثلاثمئة ألف مجلد في مئة وأربعين لغة . وقد وضعت الحكومة تحت تصرفها مبالغ طائلة لشراء الكتب القديمة وعلى الأخص ما يبحث منها عن آسيا الوسطى . وهي تقوم بجهد عظيم لجمع المخطوطات الشرقية النادرة فتوصلت إلى جمع خمسين ألف مخطوطة ونيف تختلف عهودها بين القرن العاشر والقرن العشرين .

فرنسا

وفاة ڤاليري

في أواخر شهر يوليو الماضي طوى الموت الشاعر الفرنسي «پول ڤاليري» وله من العمر ٧٤ سنة فطوى صفحة رائعة من الشعر الفرنسي .

ولد ڤاليري سنة ١٨٧٢ بميناء « سيت » من أب كورسيكي الأصل وأم إيطالية كريمة المحتد . وبدأ دراسته في مدرسة « سيت » وتابعها في جامعة « منبليه » .

وفي سنه ١٨٨٩ نظم ڤاليري أولى قصائده ثم انخرط في سلك الجيش وتعرف إلى پيير لويس ، فلما أنشأ هذا مجلته « لا كونك » وجمع حوله كبار الكتاب تألق نجم ڤاليري في قصائده : «الاحتضار العذب» و «حسناء الغاب الراقد» و «كاهن شاب .. .» .

وكان الإقبال على شعره ، وتشجيع النقاد لأدبه دافعا إلى أن يشد الشاعر رحاله إلى باريس ، فعين أمين سر لوزير الحربية ثم اختير أمين سر لوكالة الأنباء الفرنسية «هافاس» .

وفي سنة ١٩١٧ أنشأ « المجلة الفرنسية الجديدة » ، وأصدر أول ديوان شعر له فاحتفت به أندية الأدب والمجلات والنقاد في فرنسا وفي ما وراء البحار .

وفي سنة ١٩٢٥ انتخب عضواً في الندوة الفرنسية خلفاً لأناطول فرنس ، وفي سنة ١٩٤٢ منحته الندوة جائزة أوزيريس وقدرها ١٠٠٠٠٠ فرنك. وكان ڤاليري حائزاً لوسام جوقة الشرف وللدكتورية الفخرية من جامعة أكسفرد ، وكان عضواً في المعهد الدولي للتعاون الفكري .

ومن أشهر ما أعيد طبعه من شعره : « فجر أدونيس » و « المقبرة البحرية » و « الجنة » و «سميراميس» ،فضلا عن مباحث علمية وأدبية وفلسفية ظهرت في أربعة أجزاء بعنوان «متفرقات».

وهناك جائزة پول ڤاليري للشعر وقيمتها ٥٠٠٠ فرنك تمنح في ختام كل سنة دراسية للمتفوق من الطلاب في الشعر .

✡ ✡ ✡

استعادت فرنسا نشاطها الأدبي فظهر أثره في مختلف النواحي فقد منح المجمع العلمي الفرنسي جوائزه لسنة ١٩٤٥ في الأدب والقصة والتاريخ والعلوم .

ومنح مجمع جونكور أيضاً الكاتبة إلسا تريوله جائزته لسنة ١٩٤٥. ومنشىء هذه الجائزة أخوان فرنسيان أديبان عرفا في أدبهما المشترك بثلاثة أمور : بالواقعية وتوخي الحديث من الموضوعات والعناية بالأسلوب . أما الكتاب الذي نال الجائزة فعنوانه « الثقب الأول بمئتي فرنك » وهو مجموعة من القصص وصفت فيها المؤلفة المقاومة الخفية في فرنسا إبان هذه الحرب .

✡ ✡ ✡

أنشئت في فرنسا ثلاث جوائز باسم جائزة الحرية قيمة الأولى ٢٠٠٠٠٠ فرنك والثانية ١٠٠٠٠٠ فرنك والثالثة ٥٠٠٠٠ فرنك تمنح لثلاثة كتاب ناشئين أسروا أو أجلوا في أثناء الحرب .

✡ ✡ ✡

نشرت مجلة « رڤو دي باري » عشرين رسالة غير منشورة لأناطول فرنس وعنيت بها عناية خاصة لعلاقة الكاتب الكبير بها . فقد كان نشر فيها خير ما خط قلمه « كالزنبقة الحمراء » و« قصة هزلية » و« جان درك » و« الآلهة عطشى » و« المسيحية وآلهة آسيا » .

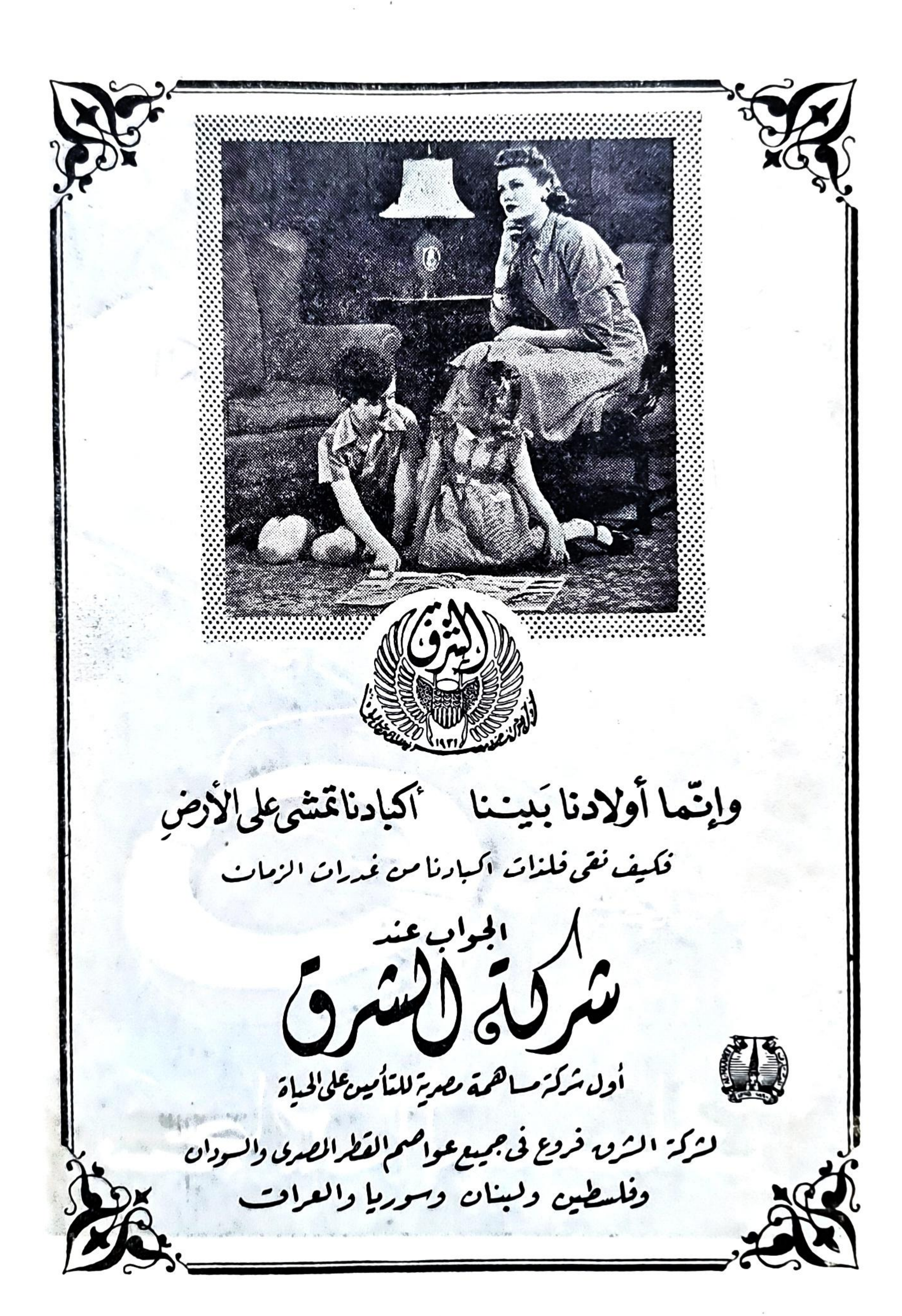
أما الرسائل فقد دفعها إلى المجلة حفيد أناطول فرنس وهي مرسلة إلى : مدام أرنست رينان وكريمته سوزان فرنس وبيير لويس وغيرهم .

أناتول فرانس





الأناقة رونق الجمال
والذوق السليم
عنصر السحر والفتنة
كل هذا متوافر
مع
جودة الصنف ورخص الثمن
بمحلات
سليم وسمعان صيدناوي وشركاهم ليمتد
القاهرة - الاسكندرية - المنصورة - طنطا - بورسعيد - الفيوم - أسيوط


وإنّما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرضِ
فكيف نقى فلذات أكبادنا من غدرات الزمان
الجواب عند
شركة الشرق
أول شركة مساهمة مصرية للتأمين على الحياة
لشركة الشرق فروع فى جميع عواصم القطر المصرى والسودان
وفلسطين ولبنان وسوريا والعراق


الكتاب القيّم
يلزمه
سيجارة قيّمة
سجاير البستاني

الكتاب

ديسمبر ١٩٤٥

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

بمصر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان



المجلد الأول

السنة الأولى • الجزء الثاني

ذو الحجة ١٣٦٤ • ديسمبر ١٩٤٥

بث الشكر

ليس للجميل إذا فاض ، والنعمة إذا اتالت ، غير الشكر تختلج به الحنايا ، ثم تصوّره البراعة كلماتٍ من الوفاء والولاء .

فلقدكان لإقبال القرّاء على الجزء الأول من هذه المجلة في طبعتيه الأولى والثانية ، ولاهتمام الكتّاب برسالتنا ورغبتهم في معاونتنا بأقلامهم الكفيّة النزيهة ، وللكلمات الطيّبة النبيلة التي تلقيناها من الوزراء والكبراء ورجال العلم والادب بمصر والخارج ، وللحفاوة البالغة التي استقبلتنا بها الزميلات الكريمات ، كان لكل ذلك أثر في النفس تقلّ فيه عبارات الشكر والثناء .

ولسوف نتخذ من هذه الثقة الغالية ، وهذا التشجيع الكريم ، سنداً قوياً في القيام بالعهد الذي قطعناه على أنفسنا ، وما هو إلا التوفّر على خدمة العرب ولغة الضاد . والله من وراء القصد .

توجيهات الكتاب

نشرنا في الجزء الأول من هذه المجلة آراء نفيسة لبعض رجالات مصر، في أمثل الطرق التي يجدر بقادة الفكر العربي أن يسلكوها بعد هذه الحرب ، في توجيه الشعوب العربية إلى الخير والحق والجمال . وننشر في هذا الجزء الثاني آراء كوكبة أخرى من زعماء الفكر بمصر والخارج في الموضوع نفسه .

رأي سعادة الدكتور علي إبرهيم باشا مدير جامعة فؤاد الأول :

أول طريق يجب على قادة الفكر أن يسلكوه هو طريق الدعوة إلى الاتحاد لأن الاتحاد هو أول أسباب القوة . فالتخاذل نتيجته الضعف ، والضعف لا يسير بالإنسان ولا بالأمة الواحدة ولا بمجموعة من الأمم المتجانسة إلى المثل العليا التي تصبو إليها النفوس .

والعلم الذي يجب أن يطلب «ولو في الصين» هو أحد مقومات الرقي والتقدم ، فالجهل مدعاة إلى الانحطاط، ومجلبة لكثير من البلايا والأرزاء وليس مثل العلم شيء يرفع الناس إلى درجات المجد والفخر والسيادة .

ومتى توفر للشعوب العربية اتحاد قوي وعلم صحيح فسوف تجد الطريق مفتوحاً أمامها لاستثمار ما في البلاد من خامات للصناعة المحلية، فيزدهر فيها الاقتصاد ، فالمال دعامة قوية من دعامات الرقي.

وإني أرى أن هذه الأسباب الثلاثة من شأنها أن تمهد للعالم العربي سبيل الخير والحق والجمال.

رأي الأستاذ أحمد أمين بك المدير العام للثقافة العامة بوزارة المعارف بمصر :

إن الظروف القاسية التي يواجهها الشرق العربي الآن ، والعبء الثقيل الذي ورثناه من غفلة الماضي وجهله، تتطلب من قادة الفكر العربي أن يدرسوا حالة الشرق والغرب دراسة مضنية عميقة ، سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو النفسية، ويرسموا الخطط التي تنهض بالشرق إما مجتمعين وإما منفردين ، فيكون لكل قائد برنامجه واضحاً كاملا ، وترتيب خطواته خطوة فخطوة، ومحاسبة نفسه ماذا فعل بالخطوة الأولى لتتبعها الثانية . أما ما سرنا عليه إلى الآن من ارتجال في الخطة وسطحية في الدرس فلا يليق بأمم ناهضة . إن على قادة الشرق العربي أعباء أشق من أعباء قادة الغرب ، لأن علينا أن نقطع الطريق الطويل الذي أبطأنا في السير فيه، وليس على قادة الغرب إلا أن يسايروا الزمان.

ولفتة أخرى إلى قادة الفكر من الأدباء ، وهي أن يعدلوا — ولو بعض الوقت — عن الإفراط في تطلب الجمال الشكلي في التعبير ، وعن الإمعان في أدب الحب والغرام ، ويلتفتوا إلى معالجة الحالة التعسة التي تقع فيها الشعوب العربية من ظلم وفقر وجهل ، ويوجهوا أقلامهم إلى انتشال الشعوب من هذه الوهدة، فمن الحمق إنشاء قصائد الغزل في وقت تحترق فيه منازل المحب والمحبوب .

رأي فضيلة الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة كبار العلماء :

أمثل الطرق التي يجدر بقادة الفكر العربي أن يسلكوها هي طريق الإسلام : فقد وضع للجماعة والفرد من المبادىء ما يضمن السعادة البشرية في أحسن صورها ، وما يوطد أسباب الأمن والطمأنينة والسلام .

لقد برهنت الحوادث الزمنية ماضيها وحاضرها على فشل الأوضاع البشرية في تحقيق السعادة والسلام للأفراد والشعوب ، ولم يبق إلا أن يعود الناس إلى الاستظلال بلواء القرآن « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . فإذا كان قادة الفكر العربي تعز عليهم عربيتهم ، ويذكرون سالف مجدهم ، فليركزوا قواهم في توجيه شعوبهم إلى الأسس الصالحة القوية المستمدة من تاريخهم وعزتهم ومبادىء كتابهم ، وليس من هذه الأسس — فيما أعتقد — ما تعارفوه اليوم وفتنوا بمظاهره من الاستجداء والمساومات والمفاوضات !

يقرر الإسلام أن العدل بين الأفراد والأفراد ، والجماعات والجماعات — تباينت الجنسيات أو اتحدت ، اختلفت الأديان أو اتفقت — أساس من أسس الخير والفلاح « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ويقف الإسلام وسطاً بين طرفين لاقت البشرية من كليهما عناء ورهقاً : فلا يرضى عن « الرأسمالية » الخانقة ، ولكنه يقر الملكية الفردية ويحترمها ويرتب عليها آثارها وحقوقها ، ثم يضع الحواجز المنيعة التي تحول بين الملكية الفردية والطغيان ، فيوجب بذل الأموال في موضع الحاجات فردية كانت أو اجتماعية ، ويجعله أصلا من أصول البر والخير « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » « وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب » ، وينذر أهل الغنى واليسار بأن الضن بالأموال عند الحاجة من موجبات الغضب الإلهي « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » « وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، ويجعل الأموال التي بأيديهم أموال الله قد استخلفهم فيها « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

ولقد بلغ من شأن الإسلام ، صوناً للجماعة من هذا الجانب أن جعل حق الفقير والبذل في المصالح العامة ركناً من أركان الدين ، وفرضه على الناس باسم « الزكاة » فيما يملكون ، وهذا غير ما تدعو إليه الطوارئ من الإنفاق في موضع الحاجات ، ويرشد إلى هذا أن القرآن جمع بين الزكاة وبين هذا الإنفاق في آية واحدة فقال : « وآتى المال على حبه » وقال « وآتى الزكاة » .

والإسلام الذي يقرر هذه المبادىء وأمثالها لا يعتمد في تنفيذها على سلطان الإرهاب بالقانون ولكن على الوازع الديني الذي يجعل من المرء رقيباً على نفسه ، ويقيم منه حسيباً في ماله لا يغيب عنه ولا يفارقه .

والإسلام يتخذ من رقابة الشعوب على الحكام سوراً قوياً للاحتفاظ بهذه المبادئ القويمة ، ويوحي بذلك توجيه خطاباته كلها إلى جماعة المؤمنين ، مما يجعلهم متضامنين في المسؤولية « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وهكذا . . .

هذا نموذج من المبادئ التي وضعها الإسلام سبيلا إلى الخير والحق والجمال ، على قادتنا وزعمائنا أن يتخذوه سبيلهم ، وأن يحلوه محل الفكر التي تهب علينا ريحها من جهات لم تزل مرتبكة في أمرها ، متعثرة في حياتها ، متحيرة بين المطامع والأهواء والشهوات .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا » .

والسلام على من اتبع الهدى .

رأي الأمير مصطفى الشهابي بدمشق :

تمخضت الحرب الكبرى الأخيرة في أفكار الناطقين بالضاد ، عن اتجاهات مهمة بعضها سياسي وبعضها اجتماعي :

أولاً ، الاتجاهات السياسية : — نشرت منذ إحدى عشرة سنة ، عدد ١٩٣٤/١/١٥ من جريدة الأهرام ، مقالا جاء فيه بالحروف : « ... وأخيراً أتمنى أن يتجه الهدف الأسمى في مصر نحو جامعة عربية قوية تكون مصر فيها مركز الدائرة الخ » . فهذه الفكرة التي لبثت سنين كثيرة أدعو إليها في محاضراتي ومقالاتي ، سواء في مصر أم في الشام ، أصبحت بعد هذه الحرب ، أهم حاجة يرى قادة الرأي ضرورة الاستمساك بها ، لصيانة استقلالنا السياسي وسيادتنا القومية . بل صار كثير من المفكرين يرون أن الجامعة العربية التي تحققت حديثاً هي اليوم دون الحاجة ، وأنه يجب أن نتدرج من جامعة الدول العربية إلى اتحاد الدول العربية ، فإلى وحدة الدول العربية .

ومهما تكن وحدة تلك الدول بعيدة المنال في أيامنا هذه ، فلا بد لنا من رسم خططها والعمل على تحقيقها في أول فرصة وأقصر مدى . وهي بعدُ غايتنا الوطنية السياسية العظمى . ولا حياة بعد اليوم للأقطار العربية إلا بالتضامن التام ، سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

ثانياً ، الاتجاهات الاجتماعية : — ولدت الحرب في العالم العربي تياراً من الاشتراكية المعتدلة أو المتطرفة ، فأصبح الناس لا يطيقون مشاهدة الثري البطر أمام الفقير المدقع ، ولا الصحيح المعافى أمام العليل المطرح ، ولا المثقف المكرم أمام الجاهل المزدرى . وصرنا في حاجة ملحة إلى نظم اجتماعية تكفل تعليم الفقراء ، ومداواة الأعلاء ، وإطعام العاجزين والمتعطلين ، وتوزيع الثروة العامة ولا سيما الأرض ، توزيعا عادلاً ومعقولاً بين أفراد الأمة ، ولا معنى للديمقراطية الصحيحة ، ولا للتمثيل النيابي في البلاد العربية ، إذا لم تحقق هذه الإصلاحات الاجتماعية عملياً لا على القراطيس . ومجال القول فيها واسع جداً .

هذه هي الاتجاهات السياسية والاجتماعية التي يجب أن يعالجها قادة الفكر العربي . وهي تنطوي على ما ننشده لأمتنا العربية الكريمة من الخير والحق والجمال .

رأي الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ببيروت :

كونوا جميعاً يابني إذا اعترى ... خطب ، ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح إذا اجتمعن تكسراً ... وإذا اجتمعن تكسرت أفرادا

هذي وصية قديمة عربية تدل على ما يجب أن يسير عليه الناس في مجتمعهم لترقية عمرانهم وازدهار بلادهم ورفع شأنها .

فإذا كانت كلمة (الحرب) منحوتة من (حاء) الحقد و (راء) الرياء و(باء) البلاء ، فالأولى (للسلم) أن تكون كلمته منحوتة من (سين) السلم للصعود و (لام) اللين للطباع و (ميم) المودة للانسانية . فيتحول بالسلم مجرى التفكير والسعي في الارتقاء ، وجمع الشمل واتحاد الكلمة وقتل النزعات والقضاء على التعصبات ، باتفاق الآراء واجتماع القلوب وتبادل العواطف الصادقة ، وحسن الإخلاص ، وجودة التدبير . فاللغة واحدة ينطقون بها في كل قطر ، والسماء التي تظللهم واحدة ، والمياه التي يرشفونها واحدة ، فلماذا لا نجاري الطبيعة في اتحادها وائتلافها وتعاضدها ، وهي سائرة على صراط مستقيم لا يتغير مهما تغيرت الفصول والأوقات ؟ فلنطرح العادات السيئة ، ولنمح الضغائن ، ولننبذ الأحقاد ، على حد قول معن بن أوس :

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمي عنه وهو ليس له حلم

يحاول رغمي لا يحاول غيره ... وكالموت عندي أن يحل به الرغم

وعندنا من أشعارنا وحكمنا وآياتنا في الكتب المقدسة ، وفي المؤلفات الأخلاقية والأدبية والتهذيبية ، ما يحضنا على انتهاج أقوم المسالك وأسد السبل وأنفع العلاجات لأدوائنا الاجتماعية التي سمعنا أنباء مضارها ، وشاهدنا وقع فواجعها ، وكدنا نذوب أسى على ما جرته إلينا من النوائب والويلات . أفلا يجب أن نتعظ بقول السيد عبد المطلب الهاشمي :

لنا نفوس لنيل المجد ظامئة ... ولو تسلت أسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

وقول الأخطل التغلبي :

والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خبال

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال

فلتتحد قلوبنا، ولترتبط نفوسنا، ولتتفق آراؤنا، ولتتوحد كلماتنا، على رفع منار الوطن وخدمة الأمة خدمة صادقة، فنصل بهذه العوامل الشريفة إلى الغاية التي تنزع إليها الأمم، فتتأيد مبادئها، وتتوطد دعائمها . وبهذا نصل إلى الغاية القصوى من الفلاح والاجتماع والعمران، بمساعي ذوي الفضل وأرباب النبل إن شاء الله .

رأي الأستاذ شفيق جبري بدمشق :

لست أرى الجواب عن سؤالك سهلا ، لأن هذه الألفاظ عامة ، لم تحدد معانيها ، فليس لها قيمة رياضية مثل قيمة الأعداد الثابتة ، فما يراه فلان خيراً قد يراه فلان شراً . إني أرى الخير بعد هذه الحرب في ظلال الحياة الروحية ، لأن البشرية قد اختنقت من دخان المعامل ، ولكن أكثر الأفراد والجماعات والأمم قد نسوا مصائب الحرب ، فاستأنفوا حياتهم المادية ولم يفكروا إلا في مغانم يجرونها ، وإني أرى الحق في أن يشعر الإنسان بسيادته في وطنه ، وقد ترى عصبة من أهل الوطن أن الحق في أن يقطع رجالها على جماهير الناس سبيل كل تفكير وإرادة وذوق وشعور ، وبعض الناس يرون الجمال في أنف صح مارنه، والمتنبي يرى الجمال في صحة العز لا في صحة الأنف .

فالذي يجب علينا عمله قبل كل شيء إنما هو الاتفاق على تحديد معاني الخير والحق والجمال ونظائر هذه الألفاظ ، وإني أعتقد أن تناحر الخلق في أغلب العصور ناشئ عن اختلافهم في تفسير ألفاظ عامة لاحدود لمعانيها ، فلو اتفقوا على تحديد معاني هذه الألفاظ لقل تناحرهم ، فمتى اتفقت العرب

هذا الاتفاق، وكان رأيها في تفسير معاني هذه الألفاظ وأخواتها واحداً، فحينئذ يسهل على رجال الفكر العربي أن يوجهوا العرب نحو الخير والحق والجمال ، وإذا كنت أؤمن بقدرة شيء في هذا التوجيه فلست أؤمن بسلطان مثل سلطان الأدب ، فهو وحده القادر على التوجيه نحو الخير والحق والجمال .

رأي الأستاذ طه الراوي ببغداد :

إن أمثل الطرق التي يجب على قادة الفكر العربي انتهاجها هي :

١ — توثيق أواصر الوحدة العربية ، سياسياً وثقافياً واقتصادياً ، توثيقاً تكون معه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى بعضه شعر سائره بأثر تلك الشكاة ، وعليه أن يعالج مشاكله بهذه القوة المتآزرة المتناصرة .

وقد وضع رجال السياسة الخطوط الأساسية لهذه الوحدة ، فعلينا أن نملأ الفراغ الحاصل بين تلك الخطوط ، وأن نؤيد بالأفعال ما خططناه بالأقوال .

٢ — تكييف ثقافتنا تكييفاً يؤدي بنا إلى اقتباس ما في الغرب من معارف تتصل بالحياة العملية، كالصناعة والاقتصاد، على وجه يضمن لنا شيئاً من الاستقلال الاقتصادي، وأن نقتبس من آداب الغرب ما يمكن مزجه بآدابنا القومية، لاستخلاص أدب عربي عصري يمتزج بالأرواح وتهش له النفوس .

٣ — محاربة الأمية محاربة تقتلعها من جذورها . فاليوم الذي يشيع العرب فيه جنازة آخر أمي بينهم هو اليوم الذي ينبغي أن يتخذ عيداً قومياً تعلن فيه الأفراح وتقام فيه الزينات . وعندي أن داء الأمية هو أفتك الأدواء وأشدها إعضالاً .

وأنا في رأيي هذا لم أذهب وراء الأحلام والخيالات، وإنما أشرت إلى ما هو في حيز الإمكان الذي يتيسر علينا تحقيقه . ولعل القارىء الكريم يقول : إن هذه المطالب التي أشرت إليها قريبة المنال ، بل قد تحقق بعضها . . . والجواب عن ذلك : أنني أفضل دائماً أن أمشي مع الواقع ولا أحب أن أسبح في عالم الأحلام والخيالات .



المنهاج إلى الخير والحق والجمال

طالع القرّاء في هذا الجزء وفي الجزء الأول من هذه المجلة آراء حصيفة صائبة في حياتنا الجديدة لفريق من زعماء الفكر والقلم.

والحق إن هذه الآراء ليتألف منها منهاج ضخم جدير بأن يصل بالأمم العربية إلى أبعد الغايات. وأي منهاج أقوى وأصحّ من هذا الذي جاء يتمم بعضه بعضاً وتؤلّف أجزاؤه هيكلاً متناسب الأعضاء والأطراف. ولو نحن أجملنا ما فصّله هؤلاء الزعماء لكانت الطرق إلى الخير والحق والجمال هي:

الاستظلال بلواء الدين.

الديمقراطية والفردية العادلة.

الحياة الروحية والإخاء الإنساني وإيثار خير المجموع.

التحلي بالنزاهة والشجاعة وتنمية قوى النفس.

الاعتصام بسلطان الأدب والعلم والبعد عن المجون.

الاتحاد وشدّ أزر الجامعة العربية والعمل على بعث تراث العرب.

⁂

لم يكن غرضنا كما أشار إلى ذلك معالي بدوي باشا أن يخوض الباحثون في نظريات فلسفية عن الخير والحق والجمال ولا أن يحددوا معاني هذه الألفاظ التي يرى فيها الأستاذ شفيق جبري ألفاظاً عامة لم تحدد معانيها. وإنما كان الغرض أن نعرف السبل إلى هذه الأمثلة العليا وإلى تنمية قوى النفس التي ألمع إليها الجميّل بك من حيث إن الخير والحق والجمال معانٍ محدّدة في القلب والعقل والخيال وإن اختُلف في التعبير عنها فقد يختلف الناس في ماهية الكهرباء ويتفقون مع ذلك على ضرورة الانتفاع بها وقد يختلف الناس في تحديد بعض أسماء المعاني كالحلم والمروءة ويتفقون في أنها صفات سامية يجب التحلي بها. وهكذا كان شأن الباحثين والمفكرين في تحديد معاني الخير والحق والجمال من عهد سقراط وأفلطون إلى يومنا هذا.

ولم يكن يهمنا أيضاً أن يردّد لنا قادة الفكر ما قاله الفلاسفة في الخير من أنه الأمر الذي ينصبّ عليه الإجماع أو أنه أرفع درجات الوجود والفهم أو أنه تمرين العقل وعمل

الإنسان بقدر ما يهمنا أن يوجهونا إلى إدراك الخير أو بذله تحقيقاً للعدالة الاجتماعية في الناس وبقدر ما يهمنا أن نعرف أن لا خير بغير عناء وأن الفضيلة هي أسمى مدارج الخير وأن هذه الفضيلة لا تقوم على تجنُّب الشرّ بل على فعل الخير حتى لا نكون عند قول أبي تمّام :

إنّا لفي زمنٍ ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

لقد جرّت هذه الحرب على أخلاق الناس الوهن والعطب وكانت ويلاتها في الأخلاق لا تقاس إليها ويلات التدمير والتخريب على ما جاء في الخطاب الذي ألقاه مدير جامعة يال في الشهر الماضي وعلى ما يراه كل ندس حكيم فالدعوة إذن إلى مكارم الأخلاق بعد هذه الحرب وفي كل زمن وعصر أمر لا مندوحة عنه فالأخلاق الكريمة هي سياج الخير الذي يتمناه الإنسان لنفسه وأخيه وبها تتمثّل معاني الشرف والاستقامة والعدل ونحن في حاجةٍ إلى هذه اللبنات النورانية نشيّد عليها صرح عزّتنا واستقلالنا .

كذلك كان انتشار الجشع في النفوس سبيلاً إلى تجاهل معنى الحق ولن نظفر نحن الشرقيين بحقنا كاملاً غير منقوص إلا إذا عرفناه وعرفنا غايته وحدوده. ولئن صحّ أن لا يموت حق وراءه مطالب به ليصحّنّ أيضاً أن الفوز بهذا الحق يختلف باختلاف الطرق والوسائل إليه . ثم إن المطالبة بالحق تحملنا على نشدان الحقيقة فالحقيقة لا يماط عنها اللثام اتفاقاً وإنما هي ثمرة البحث والجهد وعليها يجب أن تبنى الأحكام التي نصدرها وهذا الشرق العربي متعطش إلى إدراك حقه تعطشه إلى إدراك حقائق الحياة فما أصعب المطلب وما أشق السبيل وما أحوجنا إلى الأقلام الكفية تنفخ فينا روح الكفاح وتبثّ فينا نفثات الصبر والجلد .

ومن واجبات قادة الفكر أيضاً أن يبعثوا فينا حب الجمال وأن يجلوا لنا أسراره وعناصره على ما يلائم أذواقنا الشرقية وأمزجتنا العربية في هندسة مبانينا ولوحات رسّامينا في آدابنا وأشعارنا في تمثيلنا وأغانينا وليست بلاد الشرق العربي فيما تحويه من جبال وأنهار وسهول وأودية وبساتين وغابات إلا قطعة من الخلد فكيف نفهم هذه المجالي من الجمال وهذه الرقى من السحر وكيف نصوّرها في فنوننا وآدابنا إن لم نربّ في النفوس ملكات الفن . ولا سبيل إلى فهم هذا الجمال الطبيعي أولاً ثم إلى خلق روائع تحكيه أو تماثله إلا بنفوس صقلها العلم والتهذيب فبدت في مواهبها الفنية درّة صافية الفرند مشرقة السّنا . فإذا طبعت نفوسنا على حبّ الجمال عرفنا أن الجمال فكرة تتسلط على الإنسان في جميع أعماله وأن الجمال إنما هو التنسيق والمماثلة والدقة وأن

جمال المادة مستمدٌّ من جمال الروح وجنينا من ذلك كله رهافة الحسّ ورقة الشعور وحب النظام واتساع الخيال . وكل هذه حوافز إلى إدراك المثال الأعلى الذي لا يدرك .

تمثلت لنا هذه الخواطر في مستهل حياتنا الجديدة وأيقنا أن ستتأثّر هذه الحياة بالعوامل التي خلّفتها هذه الحرب أو انبثقت عنها ففزعنا إلى كوكبة من رجالاتنا لنتخذ من آرائهم هادياً ودليلا . ولا جدال في أن التأثر واقع لا محالة فالماء المتفجرمن رؤوس بعض الجبال لا يزال يتدفق منحدراً إلى الوادي وهو يسقي ظماء الغراس حتى تعترضه صخرة من الصخور أو تل من التلال يحوّل مجراه ويفرّعه جداول وسواقي . وحياة البشر مثل هذا النبع لا تزال تجري جرياً رتيباً حتى يعترضها ما يغيّر مجراها وينقلها من حالٍ إلى حال وقد يكون ذلك نتيجة اختراع علمي أو كشف مجهل من الأرض أو رأي جديد يثور معه الناس على الآراء القديمة المتوارثة وقد يكون كل هذا مجتمعاً في حرب طاحنة يتلمّس بعدها الناس آفاقاً جديدة في معايشهم وطرق تفكيرهم ومقوّمات أخلاقهم . أولم يهتزّ العالم للبارود والبنسلين والقنبلة الذرّية أولم تتغير أحوال الناس وتتبدّل طرق تجارتهم لكشف أمريكا أو رأس الرجاء الصالح مثلاً أولم يقم الناس ويقعدوا لما أذاع جاليله رأيه في دوران الأرض وثبوت الشمس أو لما نشر فيهم فلتير آراءه التي كانت أول شرارة الثورة . أما الحروب فحسبنا أن نشير إشارة عابرة إلى الفتح العربي لنذكر الآثار الضخمة التي ترتبت على ذلك الفتح في العرب أنفسهم وفي غيرهم من الأمم التي أخذوا عنها حضارتهم أو نقلوا إليها فيما بعد أصول مدنيتهم وحسبنا أن نشير كذلك إلى الحروب التي خاضت فرنسا قبيل نهضتها غمارها في إيطاليا لنذكر كيف أن الفرنسيين يعدّون هذه الحروب من الأسس التي قام عليها البعث العلمي والأدبي في بلادهم .

لقد خرج الشرق العربي اليوم من هذه الحرب وكله آمال في أن تكون خاتمتها فاتحة عهدٍ جديد له يؤتي فيه نبع الحياة بأشهى الثمار ويأخذ فيه أبناؤه من العوامل الحديثة ما يزيده تقدماً ورقياً ويضمن له الأمن والحرية والاستقلال .

ولعلّ هذا المنهاج الذي استخلصناه من آراء بعض رجال الفكر والقلم كفيل بتوجيهه إلى سبل الخير والحق والجمال .

عادل الغضبان

حديقة الأفكار

العراق بين ماضيه وحاضره

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

سمعت صديقاً عراقياً أديباً يقول: « إن العراق لا يقر له قرار، وإنه أبداً في قلق وتحفز، وليس من شأن ذلك أن يكفل له اطراد التقدم ».

وضحك وقال: « لعلك لم تنس ما قال فيه الحجاج ».

يشير إلى كلمته المشهورة: « يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق والله . . . إلخ ».

فقلت له: « إن ما زعمه الحجاج غير صحيح، ولست أحتاج أن أقضي في العراق عمري لأعرف ذلك، فإن به من مصر مشابه كثيرة. والحجاج وأمثاله من الطغاة هم الذين يجنون على الأمم، ويورثونها ما تسميه أخلاق الشقاق والنفاق التي تعيبها ».

والحقيقة أنه لم يظلم العراق أحد كما ظلمه الحجاج بهذه الكلمة. وأي شيء أظلم من أن يصبح العراق متهما بأنه — دون أمم الأرض — بلد النفاق والشقاق؟ أهو بدع في الخلق؟ أيدخل في عقل عاقل أن تتميز أمة من الأمم وتنفرد بهذه الأخلاق؟

وعندي أنه يجب التفريق بين الطباع الأصيلة، والأخلاق المكتسبة، وينبغي أن يسأل الإنسان نفسه: لماذا ينافق المرء؟ وماذا ينزع به إلى الشقاق؟ وأحسب أن الجواب أنه ينافق لأنه يخاف ولا يطمئن إلى عواقب الصدق والصراحة، ولا يري أنه في أمان من صروف الحذر، فهو يلفي نفسه مضطراً لاتقاء الشر أو اجتلاب الخير إلى المصانعة والتقية.

وكل امرئ في هذه الدنيا يحتاج إلى قدر من المصانعة، لأنه لا يسعه أن يكون صادقاً صريحاً في كل حال، وما أظن إلا أن الدنيا تفسد، والحياة تعود وهي مما لا يطاق لو كان كل إنسان يظهر ما يبطن، ولا يجري لسانه إلا بما يدور في نفسه. ولكن هذا

القدر من المصانعة الذي لا تطيب الحياة إلا به ، ولا تستقيم أحوال الناس بغيره ، شيء ، والنفاق الذي تضطر إليه الأمة شيء آخر ، مختلف جداً ، فالأول ليس أكثر من وسيلة تصفو بها العلاقات بين الناس من الأكدار . وأما الثاني فأثر من آثار الاستبداد ، وكل أمة إذا طال عهدها بالحكم الفردي الاستبدادي تلفي نفسها مكرهة على اصطناع النفاق وتوخيه ، حتي يصبح ذلك وكأنه طبيعة فيها أو مما فطرت عليه ، وليس الأمر كذلك ، فإن بضعة أجيال من الحكم الصالح القائم على الحرية وتحري العدل وإيتاء الناس حقوقهم ، والمساواة بينهم ، تغني الأمة عن ضرورة النفاق .

والنفاق وليد الخوف ، ولا خوف في ظل العدل والمساواة والحرية ، وقد ابتليت مصر ، كما ابتلي العراق ، بأدهار طويلة من الحكم الاستبدادي الغاشم ، فأورثهما الرغبة في إيثار العافية ، وهو ما نسميه النفاق ، وما هو إلا مظهر للمحافظة على الذات ، أو الدفاع عن النفس ، لأنه إذا كان المرء غير آمن على نفسه أو ماله ، أو غير واثق من العدل أو غير مطمئن إلى احترام الحقوق ، فما حيلته إلا أن يصانع ويداري ويماذق ليتحفظ بمصلحته ، أو يجتنب الأذى ويتقي السوء ويأمن الظلم والعسف ؟

والمرء ينزع إلى الشقاق إذا لم يرض عن حاله . ومن ذا الذي يرى العدل قائماً ، والحرية مكفولة ، والحقوق مرعية ، وفرص السعي والنجاح في كل ميدان متاحة لذوي المواهب ، ثم يذهب يتسخط ويثير الشقاق ويجنح إلى الفتنة ؟ ؟ لا أحد سوى الذين مُنوا بالعجز أو أسرفوا في الطمع ، واشتطوا في طلب ما ليس لهم بحق ، وهؤلاء لا يعتد بهم ولا تأثير لهم .

ومهما يبلغ من عدل المستبد المستأثر بالحكم ، فإن الأمر فيما يمس الشعب يكون أشبه بالمقامرة ، فهو موكول إلى الحظ لا إلى القانون والحق .

ومن هنا قلت لصديقي العراقي : إن الحجاج وأمثاله من الطغاة البغاة هم الذين يحوجون الأمم إلى أخلاق النفاق ، ويضطرونها أن تنزع إلى الشقاق . ومن هنا أيضاً كانت هذه أخلاق ضرورة ، تزول بزوال دواعيها وبواعثها ، أي متى حل العدل محل الظلم ، وقامت الشورى مقام الاستبداد ، واطمأن الناس إلى حرياتهم العامة والخاصة ، ووثقوا من أن حقوقهم في أمان من العدوان .

فإذا كان في العراق أو مصر نفاق — فإنهما سيان — فهذه علته ، أو شقاق فداعيه ما أسلفنا عليه القول .

وقد صار العراق — كمصر — دولة حرة مستقلة ، ذات دستور وبرلمان ، ولكن

الأمر لم يستقر بعد ، لا هنا ولا هناك ، وهو يحتاج إلى زمن غير قصير حتى تستوفي الأمة حظها من التعلم الصالح والتربية الاستقلالية القويمة ، وتتدرب على استعمال حقوقها، وتدرك قيمة هذه الحقوق فتحرص عليها ، وتضن بها أن يعبث بها عابث ، أو يغالطها في حقيقتها مغالط . وحينئذ يحل الأمن محل الخوف ، والعلم محل الجهل ، فتصبح الثقة والاطمئنان مدار السلوك .

ويقول صديقي العراقي : إن العراق قلق متحفز ، فهو لهذا لا يستقر . والظواهر تؤيده، فإن الوزارات تقوم وتسقط بسرعة ، ولا تكاد تبقى في الحكم زمناً يكفي للقيام بأعمال الإصلاح . وهذا أيضاً حال مصر ، وكل ما بينهما من فرق أن الجيش في العراق تدخل غير مرة لإسقاط وزارة وإقامة وزارة ، وقد سمعت غير واحد من إخواني العراقيين يقول: إن الشعب لا يطيق أن يطول عمر وزارة ، فإذا بقيت سنة بدأ يتململ ويضجر ، ويظهر السخط ويطلب تغيير الحال .

ولست أستغرب هذا أو أرى فيه شذوذاً أو خروجاً عن حد الصحة في الأمة ، فإن تعليله سهل ، ذلك أن الأمة إذا فازت بالاستقلال بعد معاناة عهد طويل من حكم لم يكن لها فيه رأي أو قول أو شأن ، تشتد رغبتها في تعويض ما فاتها وإدراك من سبقها ، وعلى قدر تنبهها ويقظتها يكون إلحاح هذه الرغبة وقوتها . فنراها بعد أن تستيقظ نفوسها تأسف على الماضي الذي ضاع وهي في غفلة من جراء الجهل والاستبداد بها ، وتحس بحاجة إلى الإسراع في السير لتصل إلى حيث تتطلع ، وتبلغ ما تعتقد أنها جديرة به من منازل الكرامة والعزة والرقي ، وتقيس حالها إلى حال غيرها ، وتوازن بين مرتبتها والمراتب التي ارتقى إليها سواها ، فتلفي نفسها متخلفة عن ركب الأمم ، فتستعجل ، وتستبطىء كل عامل مصلح ، مهما بلغ من اجتهاده لها وابتغائه لخيرها ، لأن كل ما ينجزه من الإصلاح يبدو لها قليلا يسيراً بالقياس إلى ما تنشد ، فتتململ ، وتتبرم ، ولا تحس أنها راضية ، لأن العمل دون الأمل ، ولأنها تنظر بعيونها فترى الأمم الأخرى تغذ السير بل تطير ، على حين تحس هي أنها تمشي بخطوات السلحفاة ، وقد لا يكون هناك بطء حقيقي ، ولكنها تشعر بالبطء وتستثقله ، لأن آمالها كبار ، ونظرتها إلى الهدف البعيد والغاية القصوى ، ولانها تنسى وهي تتطلع إلى ما تنشد ، قلة الوسائل عندها ، وتوفرها عند سواها من الأمم التي سبقتها في الميدان، وتغضي عن كونها حديثة عهد بتولي أمورها وأن الأمم الأخرى تتولى جميع أمرها بنفسها منذ قرون .

وهذه هي الحال في العراق ومصر على السواء . ومن هنا كان السخط الذي

لا ينفك يظهر ، والتذمر من بطء السير .

على أن هناك علة أخرى مشتركة ، بين مصر والعراق . ذلك أن الأمر في البلدين إلى الأمتين في الظاهر ، أما الحقيقة فهي أن الأجنبي لا يزال يملك من الأمر كثيراً ، ولأصابعه الظاهرة أو الخفية أثر فيما يكون ، فالأمر ليس كله إلى الأمة ، وإن كان هذا هو المفروض ، ومهما أخفى الأجنبي أصابعه وسترها فإن الأمة لا يخفى عليها أن الأصابع تلعب من وراء الستار ، إذا كانت لا تلعب جهرة . ومن الغفلة الشديدة أن يتوهم متوهم — أجنبياً كان أو مواطناً — أن الأمة لا تفطن إلى لعب الأصابع الأجنبية .

ثم إننا لطول عهدنا بالاستبداد — في مصر والعراق على السواء — أصبحنا نميل إلى سوء الظن ، وهذا بعض ما يجنيه الاستبداد على الأمم ، فنحن لا نصدق أن الأجنبي قد كفت يده عن العبث ، وأنه نفضها من شؤوننا كل النفض ، وكل عمل نراه نروح نبحث عن أثر الأجنبي فيه ، لأننا فقدنا الثقة من زمان طويل بحكامنا ، أي من تلك الأيام التي كانوا يتولون فيها أمورنا على الرغم منا ، وقد نكون مخطئين في قياس الحاضر على الماضي ، بل نحن مخطؤون في الأكثر والأغلب ، ولكن الإنسان إنسان ، وهو لا يستطيع أن يتخلص بسهولة مما ورثه في الماضي الطويل ، فله العذر إذا أساء الظن ، وليس مما يعين على إحسان الظن أن يكون للأجنبي قوة حربية في بلادنا بالغة ما بلغت من الضآلة أو قلة الكفاية ، ومهما قيل في صفة هذه القوة ، وأنه ليست لها صبغة الاحتلال ، فهي قوة أجنبية ، ووجودها معناه ومؤداه التلويح بها للضغط ، فلا اطمئنان مع وجودها إلى حرية التصرف ، وإمكان إهمالها كأنها ليست هناك .

والعراق ومصر على حق في سوء ظنهما بما يؤدي إليه وجود القوة الأجنبية في البلدين ، واعتقادهما أنها من عوائق الرقي ، فهي من بواعث الضجر والسخط وعدم الاستقرار .

وفي العراق ما ليس في مصر مثله ، مثال ذلك : أنه قريب من الاتحاد السوفيتي ، وأن فيه جماعات غير عربية لا يؤمن أن تستخدمها الدول المجاورة أو المتصلة به للتآمر على كيانه ، فهو لهذا في حيرة غير هينة : يكره أن يكون لبريطانيا مركز في بلاده ، مهما بلغ من هوان شأنه وقلة خطره ، ولكنه من ناحية أخرى يخشى غير بريطانيا ، ويحب أن يطمئن ، فيلفي نفسه محتاجاً إلى عون بريطانيا ، ويرى الدسائس الأجنبية تحاك ، ولو كان قد بلغ من القوة والبأس ما يتطلع إليه لاطمأن إلى قدرته على القضاء عليها بمفرده ، دون أن يحتاج إلى معين . ثم إن تعداده قليل ، وهو على قلة عدده لا يزال

في بداية النهضة ، فماذا يصنع ؟ أيعتمد على بريطانيا ؟ إنه لا ثقة له في قرارة نفسه ببريطانيا ، وإن كانت ظروفه تحوجه إلى صداقتها ، وقلة الثقة مرجعها إلى أن بريطانيا تنتهز الفرص لاستعادة نفوذها القديم بل سيطرتها السابقة ، وإذا لم يحرص على صداقة بريطانيا فكيف يأمن جانب الطامعين فيه وفي موارده الطبيعية وخيراته ، وفي مركزه الاستراتيجي ؟ وهؤلاء الجيران ماذا تراهم يضمرون له ؟ وهل يسعه أن يكافح روسيا وبريطانيا في آن واحد ؟ إن هذه حيرة مزعجة ولا شك ، لأنه يريد — بحقٍّ — أن يستقل بأموره استقلالاً تاما ، ولكن بريطانيا — في بلاده — وروسيا على مقربة منه (ودع تركيا وإيران) لا تدعان له سبيلا إلى الإطمئنان . أفلا يكون معذوراً إذا سخط وصب نقمته على من يستطيع أن يصبها عليه ؟ إن عذره واضح .

ولكن في العراقيين رجولة تبعث على الاحترام بل الإجلال . وستنفعهم هذه الرجولة في الخروج من المآزق السياسية التي زجت ظروفهم بها فيها . وأنا على يقين جازم من هذا ، لأني عظيم الثقة بهذه الرجولة التي تبينتها فيهم ، والتي جاءت الحوادث بالدليل الناهض عليها . وإنها لحسبهم . ومتى كانت الرجولة وافية ، فإن لك أن تثق بأن صاحبها لن تنقصه صفة من الصفات الجليلة في مواقف الشدة والحرج .

إبراهيم عبد القادر المازني

الشمس قنبلة ذرية كبيرة

للأستاذ حسن عبد السلام

لا بد أن القارئ قد سمع عن القنبلة الذّرّية الحديثة ، وعن مفعولها المروع في التدمير والتخريب ، وكيف أن تأثيرها يعادل تأثير عشرين ألف طن من الديناميت، حتى إن القنبلة الواحدة منها لتكفي لتدمير مدينة كاملة ودكّ معالمها ، فتصبح أثراً بعد عين.

ومع أن طريقة صناعة القنبلة الذرية لا تزال سراً في طيّ الكتمان ، وتكاد تكون حكراً لدولة كبيرة واحدة ، فإنه من الثابت والمفهوم أن الطاقة العظيمة التي تتولد عند انفجار هذه القنبلة مصدرها الأساسي تحطيم الذرات أو تهشيمها ، فما هو المقصود بهذا الاصطلاح ؟

الذرة هي أصغر جزء من المادة ، وكان رأي العلماء حتى أواخر القرن الماضي أنها مصمتة من الداخل ، وأنها لا تقبل التجزئة بأي حال ، أما الرأي الحديث في تركيب المادة فيقول : إن الذرة ليست بأصغر جزء في العنصر ، بل هناك ما هو أصغر منها بكثير، كما أن الذرات التي تتركب منها جميع العناصر ليست مصمتة من الداخل ، بل تكاد تكون فارغة أو مجوّفة .

فبعد أن كانت الذرة في نظر علماء القرن التاسع عشر تمثّل بكرة من البليَرْد (أي مصمتة) ، أصبح علماء القرن العشرين يشبهونها بكرة البنج بنج (أي مجوفة) . غير أن الذرة ليست تامة الفراغ من الداخل ، بل تحتوي على نواة صغيرة جداً في قلبها ، ويحيط بها عدد من الجسيمات السالبة التكهرب أطلق عليها « الإلكترونات » . وقد شبه البعض الذرة بمجموعة شمسية مصغرة ، فالنواة التى في مركز الذرة تمثل الشمس ، والإلكترونات التي في محيطها تمثل الكواكب السيارة التي تدور في أفلاكها حول الشمس . وحجم النواة مضافاً إليه حجم الإلكترونات صغير جداً إذا قورن بحجم الذرة، فالنسبة بينهما كالنسبة بين حجم الشمس وحجم الفراغ الذي تشغله المجموعة الشمسية بأكملها .

والذرة في مجموعها متعادلة التكهرب ، لأن النواة محملة بمقدار من الكهرباء

الموجبة يساوي مجموع الشحنات السالبة التي تحملها الإلكترونات . وكتلة الإلكترونات صغيرة جدا بالنسبة إلى كتلة النواة ، أي إن كتلة الذرة تكاد تكون مركزة في نواتها . وقد عُرف الآن أن قطر الإلكترون يساوي ١٠$^{-١٣}$ من السنتيمتر ، في حين يبلغ قطر الذرة بأكملها ١٠$^{-٨}$ من السنتيمتر .

والنواة نفسها ليست بوحدة منفردة ، بل تتألف هي الأخرى من جسيمات عدة ، تختلف فيما بينها في الحجم والشحنة الكهربائية والخواص . فبعض هذه الجسيمات موجب التكهرب ، ويعرف بالبروتونات ، وبعضها متعادل التكهرب ، ويعرف بالنيوترونات .

ومع أن الذرة تتركب من هذه الجسيمات المتباينة ، فإنه من الصعب جدا تجزئتها ، لأن هذه الجسيمات تشدّ بعضها بعضاً بقوة كبيرة جدا ، وهناك مقدار عظيم من الطاقة معتقل أو محبوس داخل الذرة ، بسبب قوة الشدّ العظيمة التي بين هذه الجسيمات ، فإذا ما استطعنا أن نهشم الذرة ، فإن هذه الطاقة العظيمة تنطلق من عقالها .

والذرة في حالتها الطبيعية المعتادة وحدة متزنة ساكنة مستقرة ، وذلك بفعل قوة الشد بين الجسيمات التي تتألف منها ، وكانت أمنية العلماء وأعز أحلامهم في الأربعين سنة الأخيرة الاهتداء إلى طريقة يمزقون بها أوصال الذرة لكي تتحول الطاقة المحبوسة فيها إلى طاقة حركة يمكن الانتفاعُ بها في حياتنا العملية .

وكان أول من نجح في تحطيم الذرة بوسائل علمية ناجحة الأستاذ رذرفرد بجامعة أكسفرد عام ١٩١٠ ، وكان العنصر الذي قام بتحطيمه عنصر النتروجين ، فحصل منه على كل من الإيدروجين والهليوم ، ثم تبعه موزلي في تحطيم عدد كبير من العناصر ، منها النيون والفلور والكلور والسليكون والبوتاسيوم .

وهناك من العناصر ما يتحطم من تلقاء نفسه ، فعنصر الراديوم مثلا تتحطم ذراته باستمرار تحطماً طبيعياً منتظما ، وينبعث منها في أثناء تحطيمها ثلاثة أنواع من الأشعة ، وهي أشعة ألفا وأشعة بيتا وأشعة جاما ، وعملية التحطم هذه هي ما نسميه النشاط أو الإشعاع الراديومي . وعلى ذلك فجميع العناصر المشعة ، مثل الثوريوم والأكتينوم وغيرهما من العناصر الأرضية النادرة ، تتحطم هي أيضاً من تلقاء نفسها ، وكلما كانت قدرتها على النشاط الإشعاعي ضعيفة كان تحطمها بطيئاً بطبيعة الحال . فعنصر اليورانيوم ، وهو أضعف في نشاطه الإشعاعي كثيراً جداً من الراديوم ، يستغرق في تحطمه تحطماً كاملا ملايين السنين ، يتحول في خلالها من حالته غير المستقرة التي هو عليها إلى حالة مستقرة جديدة ، ألا وهي معدن الرصاص المعروف .

وكانت القذائف التي استخدمها العلماء في تحطيم الذرات في مبدإ الأمر هي « جسيمات ألفا » وهي عبارة عن نوى ذَرَّات عنصر الهليوم ، وتتركب منها أشعة ألفا التي تنبعث من الراديوم . وقد وجد العلماء مطرقة أخرى لتحطيم الذرات ، ألا وهي قذائف من الديلون أو الديترون ، وهو نواة الإيدروجين الثقيل الذي يوجد بنسبة جزء من ٤٠٠٠ جزء في الإيدروجين العادي ، ووزنه ضعف الإيدروجين العادي ، وإذا ما اتحد بالأكسجين كوَّن ما يعرف بالماء الثقيل[١] .

والمادة المستخدمة في صنع القنبلة الذرية تعرف بيورانيوم ٢٣٥[٢] ، وهي شكل خاص[٣] من عنصر اليورانيوم ، وتوجد بكمية ضئيلة جداً مختلطة باليورانيوم العادي في صخور البتشبلند ، وعملية استخلاصها من اليورانيوم العادي والعناصر المشعة الأخرى التي في البتشبلند صعبة معقدة .

وعند انفجار القنبلة الذرية يتولد عنها قذائف ذرية جديدة تكسب الهواء المحيط بها طاقة عظيمة جدا ، فتعمل ذراته هدماً وتخريباً ، ويتضاعف أثرها أضعافا مضاعفة ، وتخرج كلّ كائن فيه عن اتزانه فيتهدم أو يموت .

ويجب أن يكون واضحاً في ذهن القارئ أن ما نتحدث عنه من الطاقة المخزونة في الذرات ، غير الطاقة التي تولدها هذه الذرات عند احتراقها أو دخولها في التفاعلات الكيميائية ، فالطاقة المتولدة من جرام واحد من الفحم مثلا مقدارٌ صغير لا يتجاوز بضعة آلاف من الأسعار وذلك حسب المعادلة :

$$ك + ا_2 = ك ا_2 + ٩٧٠٠٠ \text{ سعر}$$ [٤]

بيد أن مادة الفحم هنا لا يفنى شيء منها ، بل تتحد مع أكسجين الهواء ، وتكوّن مادة جديدة هي ثاني أكسيد الكربون ، وزنا بوزن .

أما الطاقة المحبوسة في ذرة الفحم والتي تنطلق إذا حطّمت فتقدّر بالملايين من الأسعار ، وقد حسب العلماء المقدار الناتج من تحطيم جرام واحد من هذه المادة ، فإذا به يكفي لتسيير قطار كبير حول الكرة الأرضية بضع مرات .

---

(١) يختلف الماء الثقيل عن الماء العادي اختلافا عظيما ، فهو مع كونه سائلا عديم اللون في درجات الحرارة العادية ، إلا أنه قاتل لكل شيء حي .

(٢) أي إن وزنه الذري ٢٣٥ ، في حين أن اليورانيوم العادي وزنه الذري ٢٣٨ .

(٣) Isotope

(٤) ك = ١٢ أي إن الجرام الواحد من الكربون يولد نحو ثمانية آلاف سعر ، والتفاعل هنا exothermic

وعلى أساس فكرة الطاقة المخزونة في الذرات ، وانبعاثها بمقدار عظيم عند تحطيم هذه الذرات ، استطاع العلماء أن يفسروا ذلك السر الغامض الذي حيَّر أفكارهم حقبة طويلة من الزمن ، ألا وهو مصدر الطاقة العظيمة التي تنبعث من الشمس باستمرار ، والتي لا يتضاءل مقدارها على مر السنين .

فلو أن الحرارة التي تولدها الشمس كان منشؤها إحتراق بعض العناصر فيها ، لتحوَّلت الشمس إلى رماد في بضع مئات من السنين ، وعلى ذلك لا يمكننا أن نتصور أن ثمة نوعاً من الاحتراق أو الاتحاد الكيميائي يمكن حدوثه في جرم الشمس ، ونحن وإن كنا نشاهد خطى الكربون والأكسجين — وهما عنصرا الاحتراق — واضحين في طيفها ، إلا أن شدة حرارتها العظيمة لا يمكن أن تدع مجالاً لاتحاد هذين العنصرين ، بل إذا وجد ثاني أكسيد الكربون أو أي مركب كيميائي آخر في الشمس فلا بد له أن ينحل إلى عناصره الأولى بفعل هذه الحرارة الشديدة ، فلا مفر إذن من القول بأن الغازات التي يتركب منها جرم الشمس هي في الواقع عناصر وليست بمركبات .

أما إذا فسرنا تولد الطاقة بتحطيم ذرات العناصر ، فإن الشمس تستطيع أن تستمد طاقتها العظيمة من الذرات التي تتألف منها ، وأن تمضي في إطلاق هذه الطاقة ملايين بل ألوف الملايين من السنين ، وفي هذه المدة الطويلة لا يتضاءل جرمها إلا تضاؤلا يسيراً جدا نسبياً .

وليس من الضروري أن نفرض وجود اليورانيوم والثوريوم وغيرهما من العناصر المشعة في جرم الشمس لتفسير تولد الطاقة التي تنطلق منها باستمرار ، لأن الحرارة في قلب الشمس على جانب عظيم جداً من الشدة ، وهذه تكفي لتحطيم العناصر العادية بتأثير الاهتزازات البالغة في الشدة بين ذراتها وتأثير الاصطدام الذي يحدث في نوى هذه الذرات ، وهو اصطدام يفوق في قوته مئات المرات أعظم وأقوى اصطدام أحدثه العلماء إلى الآن في معاملهم بوساطة القذائف السابقة الذكر .

ونستطيع أن نجمل ما تقدم بالقول بأن منشأ الطاقة العظيمة التي تطلقها الشمس هو تحول جزء يسير من مادتها إلى طاقة عن طريق تحطيم الذرات ، ومنشأ الطاقة التي تطلقها القنبلة الذرية هو أيضا تحول جزء يسير (نحو واحد في الألف) من مادة اليوارنيوم إلى طاقة عن طريق تحطيم ذراته ، وبمعنى آخر : إن الشمس ما هي إلا قنبلة ذرية كبيرة ، وإن شئت فقل : إن القنبلة الذرية هي شمس مصغرة .

حسن عبد السلام

الخالدون العرب

للأستاذ قدري حافظ طوقان بنابلس

يعتقد الكثيرون أن العقل العربي لم يستطع في كل الأدوار التي مرت به أن يقدم للمدنية خدمات عالمية جليلة كالتي قدمها العقل الأوربي ، وأنه لم يكن في الأمة العربية من استطاع أن يصل علمياً إلى درجة رونتجن وكبلر وفاراداي وباكن وغيرهم .

ومن حسن الحظ ، أنه وُجد من العلماء من قام يخدم الحقيقة لأنها حقيقة ، ومن قام يدافع عن الحق لأنه حق ، فقد ظهر في الغرب نفر من العلماء ينصف العرب .

قال الدكتور سرطون بشأن الذين ينتقصون من قدر العرب العلمي : « إن بعض العلماء يجربون أن يستخفوا بتقدمة الشرق للعمران ، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا لها شيئاً ما . . . » ، ويتابع الدكتور كلامه فيقول : « إن هذا الرأي خطأ . . . وإنه لعمل عظيم جداً أن ينقل العرب إلينا كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون » . ويعتقد الدكتور أن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم ، وأنهم زادوا كثيراً على العلوم التي أخذوها ، وأنهم لم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار ، من حيث النمو والارتقاء . وقال دي فو : « إن الميراث العلمي الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام عليه . أما العرب فقد أتقنوه وحفظوه ، وعملوا على تحسينه وإنمائه ، حتى سلموه للعصور الحديثة » . ويقول سيدلو : « وإن نتاج أفكار العرب والمسلمين تشهد بأنهم أساتذة أوربة في جميع فروع المعرفة » . إلى غير ذلك من الاعترافات لأكابر علماء الفرنجة .

ويتبين من هذه الاعترافات أن للعرب فضلا كبيراً على المدنية ، وعلى الاختراع والاكتشاف . وأمة هذا شأنها ، وهذا تاريخها ينطق بمآثرها ، لا تخلو ولا يمكن أن تخلو من علماء عالميين ، لهم مقام علمي ممتاز ، كالمقام الذي يتمتع به أرسطو وفيثاغورس وفاراداي وديكارت وكبرنيكس ومكسول ودلتي وكوري ولافوازيه . . . وغيرهم .

***

لا يخفى أن المدنية الأوربية تقوم على عدة أركان : أهمها الركن الاقتصادي ، وهذا

يقوم على ما أوجده العلم من صناعات ، واستحدثه من آلات وأدوات ، لتسهيل استغلال القوى والعناصر الطبيعية لمصلحة الإنسان ورفاهيته .

ولقد كان للكيمياء — ولا يزال — شأن كبير في هذا العصر ، فلولاها لما تقدمت الصناعة تقدمها الحاضر السريع ، ولما سيطر الإنسان على بعض العناصر سيطرته الحالية .

* * *

وإذا ذكرنا الكيمياء والصناعات التي خرجت منها وقامت عليها توجه نظرنا إلى الذين وضعوا أساسها ، وعملوا على تقدمها وارتقائها ، من كهنة مصر ، إلى علماء اليونان ، إلى فلاسفة الهند ، وإلى نوابغ العرب . ويهمنا ما أحدثه العرب في هذا الفرع من ابتكار واكتشاف ، فنجد أنهم ثبتوا هذا العلم ، وامتازوا على غيرهم برجوعهم فيه إلى التجربة والاختبار ، إذ بعد اطلاعهم على بحوث من سبقهم من الأمم أتوا بزيادات هامة ، جعلت بعض منصفي الغرب يعتبرون هذا العلم من نتاج القريحة العربية الخصبة . ويرجع الفضل في أكثر هذه الإضافات إلى « جابر بن حيّان » ، الذي قال عنه برتيلو : « إن لجابر بن حيان في الكيمياء ما لأرسطاليس من قبله في المنطق » . وقال أيضاً : « إن ابتكارات ابن حيان في الكيمياء كانت المعين الذي استقى منه كل الباحثين من بعده في ذلك العلم » .

جابر بن حيان

ظهر جابر في القرن الثامن للميلاد ، واشتهر باشتغاله بالعلوم ، ولا سيما الكيمياء ، وله فيها وفي المنطق والفلسفة تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة ضاع معظمها ، وترجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينية ، فكانت هذه نبعاً للإفرنج استقوا منه واعتمدوا عليه في الموضوعات الطبية والطبيعية . وكان لهذا النبع أثر كبير في تكوين مدرسة كيماوية ذات أثر في الغرب .

لقد كان جابر أول من استحضر الحامض الكبريتيك بتقطيره من الشبة ، وسماه « زيت الزاج » . ولست بحاجة إلى القول بأن هذا عمل عظيم له أهميته الكبرى في تاريخ تقدم الكيمياء والصناعة ، وكيف لا يكون له أهميته وتقدم الصناعة الحالية يقاس بما تخرجه الأمم من هذا الحامض . واستحضر أيضاً الحامض النتريك ، كما أنه أول من كشف الصودا الكاوية ، وأول من استحضر ماء الذهب ، وينسب إليه استحضار مركبات أخرى غير هذه ككربونات البوتاسيوم وكربونات الصوديوم . واستعمل ثاني أكسيد المنغنيز في صنع الزجاج ، ودرس خصائص الزئبق واستحضرها ، واستعمل

بعضها فيما بعد في تحضير الأكسجين . وجميع هذه المركبات ذات أهمية عظمى في عالم الصناعة ، فبعضها يستعمل في صنع المفرقعات والأصبغة ، وبعضها في السماد الصناعي والصابون والحرير الصناعي .

☆☆☆

ونأتي الآن إلى عالم آخر ظهر في عصر المأمون وهو « محمد بن موسى الخوارزمي » . برّز الخوارزمي في الرياضيات والفلك ، وكان له أكبر الأثر في تقدمها ، فهو أول من وضع علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب ، وفي قالب منطقي علمي . كما أنه أول من استعمل كلمة «جبر» للعلم المعروف الآن بهذا الاسم . ومن هنا أخذ الإفرنج هذه الكلمة واستعملوها في لغاتهم . وكفاه فخراً أنه ألف كتاباً في الجبر ، في علم يعد من أعظم أوضاع العقل البشري ، لما يتطلبه من دقة وإحكام في القياسية . ولهذا الكتاب قيمة تاريخية وعلمية ، اعتمد عليه علماء العرب في دراستهم عن الجبر ، ومنه عرف الغربيون هذا العلم. وليس المجال الآن أن نذكر تفصيلات عن الكتاب ، فقد أتينا عليها في كتابنا « تراث العرب العلمي » ولكن الذي يسترعي الانتباه هو وجود الابتكار والطرافة فيه ، ووجود تطبيقات على بعض النظريات الرياضية ، وطرق هندسية لحل المعادلات ذات الدرجة الثانية ، وقد استخرج لها جذرين إذا كانا موجبين ، وهذا من أهم الأعمال في علم الجبر، ولا شك أنه يدل على اتساع أفق تفكيره ، وعلى أنه يتمتع بعقل رياضي كبير .

إن من أكبر المآثر ، بل من أكبر النعم التي جاد بها العرب على العالم ، نقلهم الحساب الهندي ، وتهذيبهم الأرقام الهندية المنتشرة بين الناس ، والمعروفة عند الغربيين بالأرقام العربية ، لأنها وصلت إليهم عن طريق العرب . ويعود الفضل الأكبر في تناول الأرقام إلى الخوارزمي ، عن طريق كتبه ومؤلفاته ، فقد أوضحها وبين فوائدها وميزاتها ، ويمتاز الخوارزمي على غيره بأنه وضع كتاباً في الحساب كان الأول من نوعه ، مادة وترتيباً وتبويباً ، وقد نقله الغربيون إلى اللاتينية فاللغات الأخرى .

☆☆☆

يدهش المؤرخون في بعض الأحايين من حياة بعض العلماء ومن نتاجهم الضخم المليء بالمبتكرات والطرائف ، وترتقي دهشتهم إلى الإعجاب ، إذ يرون هؤلاء المنتجين يدرسون العلم للعلم ، ويعكفون عليه رغبة منهم في الاستزادة ، وفي الوقوف على ما يجري في الكون ، ومما لا شك فيه أن هذا النفر كان يرى في البحث والاستقصاء والمتابعة لذة هي أسمى أنواع اللذات ، ومتاعاً للعقل هو أفضل أنواع المتاع ، فنتج عن ذلك أن زادت

الثروة العلمية والأدبية زيادات عادت على كثير من العلوم بالتقدم والارتقاء ، وتعددت الإضافات التي أصابت فروع المعرفة ، مما أدى إلى ازدهار الحضارة .

من هؤلاء العلماء « ثابت بن قرة » ، فقد تعددت نواحي عبقريته ، فنبغ في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة ، ووضع في هذه كلها وغيرها مؤلفات نفيسة ، ودرس العلم للعلم ، وشعر باللذة العقلية ، فراح يطلبها في الرياضيات والفلك ، فكان من ذلك أن قطع شوطاً بعيداً ، وقد أضاف إليهما إضافات هامة ، مهد بعضها السبيل إلى إيجاد أهم فرع من فروع الرياضيات : التكامل والتفاضل Calculus .

ليس من موضوعنا أن نتعرض للنواحي التي كان يمتاز بها ثابت ، سواء في النقل والترجمة أم في الإضافات ، ولكن ألفت النظر إلى أن ثابتاً من الذين مهدوا للتكامل والتفاضل الذي له أكبر الفضل على الاختراع والاكتشاف ، فلولا هذا الفرع من الرياضيات لما كان بالإمكان الاستفادة من بعض القوانين الطبيعية واستغلالها في الصناعة على أنواعها ، ومن يدرس بحوث ثابت التي مهدت للتكامل والتفاضل يتجلّ له الإبداع في النتاج العربي ، والقريحة العربية التي تقدمت بكثير من العلوم خطوات واسعة .

* * *

ونترك ثابتاً ونأتي إلى عالم ثالث ظهر في القرن العاشر للميلاد هو « البَتَّاني » أحد الذين اشتغلوا بالرياضيات والفلك ، وقد أسدوا لها أجل الخدمات ، يعده الكثيرون من عباقرة العالم ، ومن الذين وضعوا نظريات هامة ، وأضافوا بحوثاً مبتكرة في الفلك والجبر والمثلثات ، ونظرة إلى مؤلفاته وأزياجه ترينا خصب قريحته ، وتجلو لنا صورة من عقليته الجبارة . اشتهر برصد الكواكب والأجرام السماوية ، وبالرغم من عدم وجود آلات دقيقة كالتي نستعملها الآن قد تمكن من إجراء أرصاد لا تزال محل دهشة العلماء ومحط إعجابهم ، لقد عده كاجوري وهاليه من أقدر علماء الرصد ، وسماه بعضهم « بطليموس العرب » . وقال عنه سرطون : إنه من أعظم علماء عصره وأنبغ علماء العرب في الفلك والرياضيات ، ووصل إعجاب لالَنْدِ العالم الإفرنسي الشهير ببحوث البتاني ومآثره إلى درجة جعلته يقول : « إن البتاني من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله » .

* * *

ولنأخذ عالماً من طراز آخر : « الرازي » ، فقد ظهر في منتصف القرن السابع للميلاد واشتهر بالطب والطبيعة والكيمياء والجمع بينها . ويعدُّه سرطون من أعظم أطباء القرون

الوسطى ، كما يعتبره غير واحد أنه أبو الطب العربي . كان الرازي منتجاً إلى أبعد حدود الإنتاج ، فقد وضع من المؤلفات ما يزيد على المائتين ، واعترف بفضله وعلو كعبه الأقدمون وعلماء هذا العصر .

ألف الرازي كتباً قيمة جداً في الطب ، أحدث بعضها أثراً كبيراً في تقدم الطب وطرق المداواة وامتازت بما جمعته من علوم اليونان والهنود ، إلى آرائه وبحوثه المبتكرة، وإلى ملاحظات تدل على نضج الفكر والنبوغ النادر ، وامتازت أيضاً بالدقة العلمية ، فقد نسب كل شيء نقله فيها إلى قائله وأرجعه إلى مصدره ، وقد يكون كتابه «الحاوي» من أعظم كتبه وأجلها ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية واعتمد عليه علماء أوربة وأخذوا عنه الشيء الكثير ، وبقي مرجعهم في مدارسهم وجامعاتهم إلى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد . وله كتب أخرى دفعت بالطب خطوات ، ككتاب المنصوري ، الذي يحتوي على وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم كلها ، وقد ترجم إلى اللاتينية ، وبقي معمولاً به إلى أواخر القرن الخامس عشر ، وفي هذا الكتاب بحث في قوى الأغذية والأدوية ومواد الزينة والتقطير ، كما أتى فيه بإرشادات صحية وطبية عملية .

وهو أول من أعدّ الأوتار الجلدية واستخدمها في تخييط الجروح بعد العمليات الجراحية .

***

البيروني

وهناك « البيروني » وهو من ألمع علماء الأمة العربية ، اشتهر كثيراً في العلوم ، وكان ذا كعب عال فيها ، فاق علماء الأرض وعلا عليهم ، وكانت له ابتكارات قيمة وبحوث نادرة في الرياضيات والتاريخ والفلك ، ولقد توصل سَخَو بعد دراسة حياته ومآثره ، وبعد اطلاعه على مؤلفاته ، إلى الوقوف على دقائق ما كانت معروفة ، وخرج من ذلك بالاعتراف الخطير : بأن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ . وأقسم ثلاثاً لو أن هذه الشهادة للبيروني صدرت من باحث عربي لرمي بالتحيز والمغالاة والمبالغة . وكيف لا يكون لهذا الإقرار قيمة ، وهو صادر عن عالم يزن كل كلمة تخرج منه ، ولا يبدي رأياً إلا بعد تمحيص وتنقيب واستقصاء. يقول سمث : « إن البيروني من ألمع علماء زمانه في الرياضيات ، وإن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها في العلوم ، وهو ذو مواهب جديرة بالاعتبار » . ويعترف سرطون بنبوغه وسعة اطلاعه فيقول : « كان البيروني باحثاً فيلسوفاً رياضياً جغرافياً ، ومن أصحاب الثقافة الواسعة ، بل من أعظم عظماء الإسلام ، ومن أكابر علماء العالم » . وامتاز البيروني عن علماء عصره

بروحه العلمية ، وتسامحه وإخلاصه للحقيقة ، كما امتازت كتابته بطابع خاص ، فهو يدعم أقواله وآراءه بالبراهين المادية والحجج المنطقية .

☆☆☆

ابن سينا

ونستعرض الآن عالماً معروفاً عند الناس أكثر من غيره هو « ابن سينا » . فقد كتب عنه المتقدمون والمتأخرون من العرب والإفرنج ، وأنصفوه بعض الإنصاف ، واعترفوا بأنه من أصحاب الثقافة العالية ، والاطلاع الواسع ، والمواهب النادرة ، والعبقرية الفذة . اشتغل بالفلسفة والطب والرياضيات والفلك والمنطق ، وكان له أكبر الأثر في تقدمها . يقول سرطون : « إن ابن سينا أعظم علماء الإسلام ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين » . ويلقبه بعض كتاب الإفرنج بأرسطو الإسلام وأبقراطه .

كانت مؤلفات ابن سينا غزيرة المادة ، تمتاز بالدقة والتعمق والترتيب ، وهذا ما لا نجده في أكثر كتب القدماء من علماء اليونان والعرب ، ويظهر أن الشهرستاني لاحظ ما امتازت به مؤلفات ابن سينا فقال : « إن طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة ، ونظره في الحقائق أغوص » .

وضع ابن سينا كتباً كثيرة جعلته في عداد الخالدين ، وفي مصاف كبار حكماء العالم ، وقد يكون كتابه « القانون » من أكبر مؤلفاته الطبية وأنفسها . اشتهر كثيراً في ميدان الطب ، وذاع اسمه وانتشر انتشاراً واسعاً في الجامعات والكليات . شغل هذا الكتاب علماء أوربة ، ولا يزال موضع اهتمامهم وبحثهم ودراستهم . ترجمه إلى اللاتينية « جيررد أف كريمون » وبقي بفضل حسن تبويبه وسهولة مناله الكتاب التدريسي المعوّل عليه في مختلف الكليات الأوربية حتى القرن السابع عشر للميلاد ، وقد جمع ابن سينا في هذا الكتاب ما عرفه في الطب من الأمم السابقة إلى ما استحدثه من نظريات وآراء ، وما ابتكره من ابتكارات هامة ، وما كشفه من أمراض سارية وأمراض منتشرة الآن « كالإنكلستوما » مما أدى إلى تقدم الطب خُطاً واسعة جعلت بعضهم يقول : « كان الطب ناقصاً فكمله ابن سينا » . ومن كتبه التي تلي « القانون » كتاب « الشفاء » يقع في ثمانية عشر مجلداً ، يحتوي على فصول في المنطق والطبيعيات والفلسفة ، وقد ترجم إلى اللاتينية واللغات الأوربية الأخرى ، ويتبين من هذا الكتاب أن لابن سينا آراءً جديدة في كل فرع من فروع العلوم والفلسفة ، وأنه أخرج آراء أرسطو بنظام تام وتسلسل محكم ، ووسع نطاقها بمذهب الأفلطونية الحديثة .

* * *

والآن نأتي إلى « ابن الهيثم » فنقول : إنه من عباقرة العرب الذين تركوا آثاراً خالدات في الطبيعة والرياضيات والهندسة ، ولولاه لما كان علم البصريات على ما هو عليه الآن ، ولا أظن أني بحاجة إلى القول بأن البصريات من عوامل تقدم الاختراع والاكتشاف ، وأن كثيراً من آلات البصر والكهرباء مرتكزة في صنعها على قوانين ومبادئ تتعلق بعلم الضوء . جاء في كتاب تراث الإسلام : « وقد وصل هذا العلم إلى أعلى درجة بفضل ابن الهيثم » ، وثبت أن كبلر أخذ معلوماته في الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بانكساره في الجو ، من كتب ابن الهيثم ، واعترف بهذا العالم الإفرنسي الشهير فياردو ويقول أحد كبار الباحثين من علماء أمريكا : « إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله » . وبقيت كتبه منهلا عاماً ينهل منها فحول علماء أوربة كروجر باكن وكبلر وفتري وبول وتيلو ، وقد سحرت بحوثه في الضوء « مكس ميرهوف » وأثارت إعجابه إلى درجة جعلته يقول : « إن عظمة الابتكار الإسلامي تتجلى لنا في البصريات » .

ومن الثابت أن كتاب « المناظر » لابن الهيثم من أكثر الكتب القديمة استيفاءً لبحوث الضوء وأرفعها قدراً ، لا يقل مادة وتبويباً عن الكتب الحديثة العالية ، إن لم يفقها في موضوع انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكية العين .

ونستطيع أن نقول جازمين : إن علماء أوربة كانوا عالة على هذا الكتاب عدة قرون ، وقد استقوا منه جميع معلوماتهم في الضوء ، وبفضل بحوث هذا الكتاب المبتكرة وما يحويه من نظريات استطاع علماء القرنين التاسع عشر والعشرين أن يخطوا بالضوء خطوات فسيحة أدت إلى تقدمه تقدماً ساعد على فهم كثير من الحقائق المتعلقة بالفلك والكهرباء .

وما دمنا في ذكر ابن الهيثم أرى أن أنوه بشيء جديد ظهر حديثاً من مؤلفاته : إن الطريقة العلمية والأسلوب العلمي — وهو الصفة المميزة لهذه الحضارة عن الحضارات السابقة — قد وردت في كتب ابن الهيثم كما سأبينه . ما كنت أظن أن للعرب أثراً في كشفه أو التمهيد إلى كشفه حتى بحثت في مآثر العرب في الطبيعة ، واطلعت على كتاب « تنقيح المناظر » . أنا لا أقول إن علماء العرب توسعوا في هذه الطريقة واستغلوها على النحو الذي استغلها به علماء أوربة ، أنا لا أقول إن العرب عرفوا الطريقة

بالصورة الواسعة العريضة التي أصبحت عليها الآن ، أنا لا أقول إنهم كانوا يدركون ما لهذا الاسلوب من شأن كما يدركه علماء أوربة ، ولكني أقول : إنه وجد بين علماء العرب من سار في بحوثه على الطريقة العلمية ، وإنه وجد بين علماء العرب من سبق بيكون في إنشائها ، بل من زاد على طريقة بيكون التي لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية .

أما العناصر الأساسية في طريقة البحث العلمي الحديث فهي : الاستقراء والقياس والاعتماد على المشاهدة أو التجربة أو التمثيل .

وكنت أظن كما يظن كثيرون أن هذه الطريقة في البحث هي من مبتكرات هذا العصر ، ولكن قراءة كتاب « تنقيح المناظر » و « محاضرات ابن الهيثم التذكارية » أظهرت لي أن ابن الهيثم أدرك الطريقة المثلى ، فقد قال بالأخذ بالاستقراء و بالقياس و بالتمثيل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود ، على المنوال المتبع في البحوث العلمية الحديثة . ومن أمثاله وأقواله تتجلى لنا الخطة التي كان يسير عليها في بحوثه ، وأن غرضه في جميع ما يستقريه ويتصفحه « استعمال العدل لا اتباع الهوى » ، وأنه يتحرى في سائر ما يميزه « طلب الحق لا الميل مع الآراء » ، وبعد ذلك نراه قد رسم الروح العلمية الصحيحة ، وبين أن الأسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالي ، فقواعده : التجرد عن الهوى والإنصاف بين الآراء ، فيكون قد سبق علماء هذا العصر في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي ، وكان يرى في الطريق المؤدي إلى الحق والحقيقة « ما يثلج الصدر » على حدّ تعبيره .

* * *

ابن خلدون

ونستعرض الآن مؤرخاً عظيماً وفيلسوفاً خطيراً ، هو « ابن خلدون » واضع المقدمة الشهيرة ، التي يقول عنها مكدونلد : « إن مقدمة ابن خلدون هي أساس فلسفة التاريخ وحجر الزاوية فيه » . ويقول آخرون : « إنها مقدمة تاريخية فلسفية ، لم ينسج أحد على منوالها قبلها ، حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم » .

أما روبرت فلنت فيقول : « من وجهة علم التاريخ وفلسفته يتحلى الأدب العربي باسم من ألمع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى ، يستطيع أن يقدم اسماً يضاهي في لمعانه ابن خلدون» . ويخرج فلنت من دراسة ابن خلدون ومقدمته بالتصريح الآتي : «إن من يقرأ المقدمة بأخلاص ونزاهة لا يستطيع إلا أن يعترف بأن ابن خلدون يستحق لقب مؤسس علم التاريخ وفلسفته » .

وفي هذه المقدمة يتجلى اتساع أفق تفكيره وغزارة علمه ، فقد اتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، وحاول أن يفهم هذه الظواهر ، وأن يعللها على ضوء التاريخ ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . وهذا ما جعل الباحثين يقولون بتفوق ابن خلدون على مكيافلّي تفوقاً عظيما في التفكير ونوع النتاج ، وفي نظريات العصبية وأعمار الدول وخواصها ومعالجتها من النواحي الاجتماعية مما حدا بالعالم الاجتماعي جميلوفتش أن يصرح بأن فضل السبق يرجع إلى العلامة الاجتماعي العربي ابن خلدون فما يتعلق بكثير من النظريات والآراء التي وردت في كتاب الأمير لمكيافلّي .

وقد قارن كلزيو بين ابن خلدون ومكيافلّي فقال في هذا الصدد : « إذا كان مكيافلّي يعلمنا وسائل حكم الناس فإنه يفعل ذلك كسياسي بعيد النظر ، ولكن العلامة التونسي ابن خلدون استطاع أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية عالماً اقتصادياً وفيلسوفاً راسخاً ، مما يجعلنا نرى بحق في أثره من سمو النظر والنزعة النقدية ما لم يعرفه عصره » .

ويمكن القول بأن مقدمة ابن خلدون هي فتح عظيم ، لا في التفكير الإسلامي فحسب ، بل في التفكير العالمي ، يضعها الغربيون بين أرفع ثمرات التفكير البشري وأنفسها .

٭٭٭

ولا نظن أننا بحاجة إلى القول أنه يوجد غير من ذكرنا ، ممن خدموا العلم والفلسفة ، وعملوا على نموها وارتقائهما ، أمثال ابن البيطار ، والبوزجاني ، وابن رشد ، والفارابي ، وابن الأفلح ، والكرخي ، والخيام ، والدينوري ، والمسعودي ، وحمزة المغربي ، والخازن٭ ، وغيرهم .

وكان لبعض هؤلاء مبتكرات واكتشافات ونظريات دفعت العلوم والفنون إلى التقدم . ولو قدر وكان بعض هؤلاء من أمة غير الأمة العربية لما أصابهم الإهمال الذي أصابهم منا ، ولباهت بهم تلك الأمة الأمم والشعوب ، ولكُتب عنهم المجلدات والموسوعات ولما حُجبت نجومهم اللامعة بسحب الغموض والإبهام ، ولكانت أسماؤهم ملء الأسماع ، وحديث الأندية العلمية ، ومادة المحاضرات ، ولرأينا عناية كبرى تخصص بدراستهم

٭ الكتاب : لا يعرف في أطباء العرب وفلاسفتهم ورياضييهم من يدعى « الخازن » ، وإنما هو تحريف من المترجمين ، ترجموا كلمة «الهازن» Alhazen إلى « الخازن » . و « الهازن » هو «ابن الهيثم» نفسه ، اسمه « الحسن » حرفه الأوربيون القدماء ، وسموه «الهازن» . وذلك مفصل في المحاضرة الأولى من « محاضرات ابن الهيثم التذكارية » لمصطفى بك نظيف .

ودراسة مآثرهم في الجامعات ، كالعناية التي تعطى لنيوتن ودَرْوِن وفراداي وغيرهم .

من هذا المجمل يتجلى أن لعلماء العرب مآثر قيمة في ميادين العلم المختلفة ، هو نتاج قرائح خصبة ، ورشح عبقريات متعددة ، وأن العقل العربي كان ذا حيوية ثمراتها يانعات ، عادت على المدنية بالتقدم والارتقاء . والآن وهذه أمتنا ، وقد خلفت هذا التراث الخالد وتلك المآثر ، وأنجبت علماء عالميين ، والآن ونحن من أولئك الذين أنشؤوا حضارة على أساسها تقدم العلم والعمران ، لجدير بالعرب أن يعتزوا وأن يباهوا أمم الأرض . ولكن ما لنا وللافتخار أو المباهاة إذا كان لا يصحب هذا الاعتزاز والمباهاة إرادة في اقتفاء آثارهم والسير على طريقهم .

إن الذي أصاب العرب هو ضعف نفسي ، وشعور بالنقص استولى عليهم ، فإذا هم يهملون تاريخهم ، وإذا هم يجهلون أنفسهم ، وإذا من العرب من ينكر على العرب تراثهم ومآثرهم ومفاخرهم ، وإذا الاستخفاف بكل ما هو شرقي عامة وعربي خاصة من فنون « المتعلمين » ، وإذا المزاعم تترى بأن العرب لم يكونوا غير نقلة وأنه لم يكن لهم أي جهد فكري في تقدم العلم والعمران ، وأخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرب إلى شبابنا ، وقد أصبحوا هدَّامين منكرين ميراث العرب ، لا يرون فيه جمالا ولا خيراً ، مفتونين بالحضارة الغربية عاكفين عليها ، يرون فيها كل الخير وكل الجمال ؟ !

لقد نسي هؤلاء أن لا كيان لأمة تنبذ تقاليدها ، ولا مجد لأمة تنتقص من ثقافتها وتاريخها ، وأن الأمة العربية خلفت آثاراً جليلة ، لولاها لما تقدمت الحضارة تقدمها المشهود ، وأن هناك من علماء أوربة من دفعه روح الإخلاص للحق والحقيقة أن ينصف العرب ، ويعترف بفضلهم وأثرهم ، وبأنهم أساتذة أهل أوربة .

ويدعوني الإنصاف إلى القول بأن في نهضة العرب العلمية الحديثة ما يدعو إلى الاطمئنان والارتياح ، فلقد أصبح العرب يدركون أن بعث الثقافة وإحياء القديم وربطه بالحاضر من أقوى الدعائم التي عليها يبنون كيانهم ، ويشيدون عظمتهم ومجدهم .

وإنها لنهضة تبعث على التفاؤل ، وتبشر بيقظة ثقافية ، ونهضة فكرية ، تعيد للعرب سابق مجدهم ، وتالدَ عزهم ، فيحتلون مكانهم الممتاز في المساهمة في خدمة الحضارة ورفع مستواها .

قدري حافظ طوقان

القصور الأموية في شرق الأردن

للدكتور زكي محمد حسن الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

أوفدت كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في صيف هذا العام بعثة من المعهد العالي للآثار الإسلامية ، لدرس المعالم الأثرية والمتاحف في فلسطين وشرق الأردن . وقد أصابت هذه البعثة توفيقاً كبيراً في مهمتها العلمية ، وحظيت برعاية سمو الأمير عبد الله ، ولقيت من رجال الحكومة وأهل الإمارة كل عون ومساعدة . وتفضل قائد الجيش الأردني فقدم لأعضاء البعثة ثلاث سيارات كبيرة لنقلهم بين آثار الإمارة . وقد استطاعوا بفضل هذه المساعدات أن يشاهدوا من الآثار الجليلة الشأن ما يشهد بما كان لشرق الأردن من شأن عظيم في العصور التاريخية المختلفة .

تعدّ بادية شرق الأردن متحفاً كبيراً يضم كثيراً من العمائر التي لا تزال أطلال بعضها قائمة حتى اليوم ، والتي ترجع إلى حضارة الرومان والنبط والأمويين . وبينها القلاع والكنائس والقصور والحمامات والمدرّجات ، بل إن بينها مدينة نبطية كاملة ، هي مدينة بطرا (أو الرقيم) ذات البيوت المنحوتة في الصخر الوردي اللون .

لقد وجد المسلمون في البلاد التي فتحوها صنّاعاً مهرة في فن البناء ، فأقبلوا على الإفادة من جهودهم . ولما اتسعت الإمبراطورية الإسلامية ، ظهر عند المسلمين الطموح إلى الأبنية الضخمة الفاخرة ، فشيدوا في عصر عبد الملك بن مروان قبة الصخرة في بيت المقدس ، ثم شيّد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك المسجد الجامع بدمشق . على أننا لا نريد هنا أن نفصّل البحث في العمائر الدينية الأموية .

ومما نلاحظه في العمارة الإسلامية بوجه عام أن المسلمين لم يعنوا بتشييد نصب تذكارية لتخليد ذكرى انتصاراتهم الحربية * ، كما فعل الرومان وغيرهم ، فالأمويون لم يخلفوا

* بل إننا لا نعرف إلا مثلا واحداً للنصب التذكارية في الإسلام : ذلك هو البناء المسمى مشهد النصر ؛ وقد شيده السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في الساحة التي انتصر فيها المماليك على المغول في عين جالوت (راجع كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ص ٤٤٦) .

أي عمائر من هذا الطراز مع سعة فتوحاتهم وعظم انتصاراتهم ، ولسنا نعرف شيئاً عن القصور الأموية في دمشق والرملة* وبقيّة المدن التي كان خلفاء بني أمية يحبون الإقامة فيها مثل الصِنبرة (على الشاطيء الجنوبي لبحيرة طبرية) وكان معاوية ومروان يشتوان بها ، ومثل حوّارين وأذرعات وقد أحب الإقامة فيهما يزيد بن معاوية ، ومثل الجابية وقد فضّلها عبد الملك بن مروان على غيرها ، ومثل أسيس في الجنوب الشرقي من دمشق ، واسمها الآن تل سيس) وقد أقام بها الوليد بن عبد الملك .

لم يبق إذن إلا ما شيّده خلفاء بني أمية من قصور وحمامات في البادية ، فقد كانوا يحنون إلى الصحراء ، وأقبل معظمهم على تشييد القصور الصحراوية في أودية الإقليم الذي يعرف الآن باسم شرق الأردن ، واتخذوها مقاماً لهم في جزء كبير من السنة .

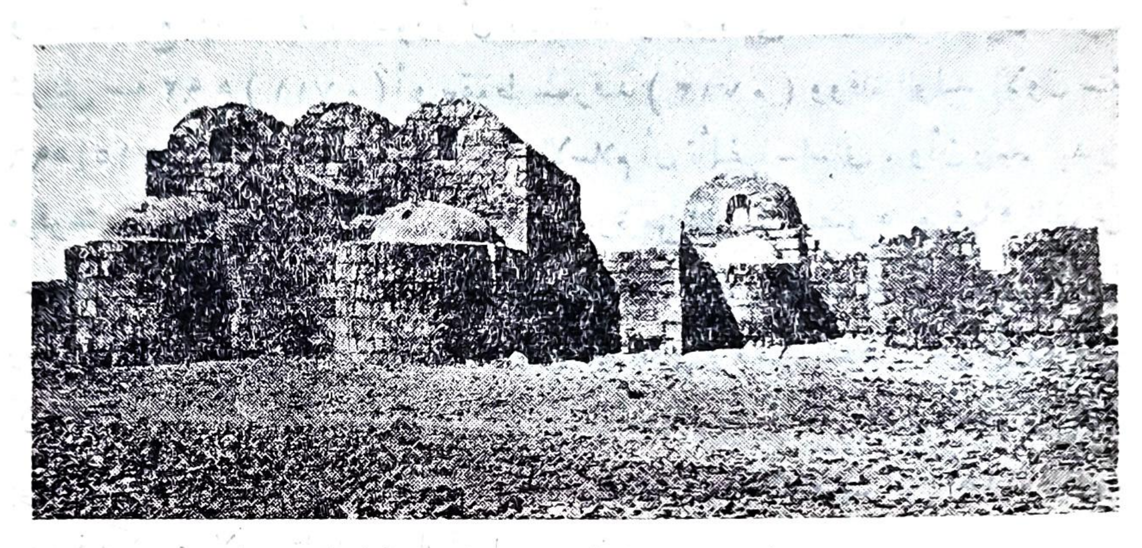
وكان بعض الخلفاء الأمويين ينزل في البادية قصوراً قديمة كان الروم قد شيدوها لتكون قلاعاً يتخذونها قواعد لصد غارات البدو قبل الإسلام ، ومن ذلك « الموقر » الذي نزله يزيد بن عبد الملك ، « والقسطل » الذي نزله الخليفة الوليد الثاني كما سكنه العباس بن الوليد بن عبد الملك .

والعمائر الأموية في بادية شرق الأردن تكاد اليوم تكون كلها خرابا ، لم يبق منها إلا أطلال متفرقة ، اللهم إلا قصير عمرة وحمّام الصرخ وقصر المشتى .

أما قصير عمرة فحمام وقصر صيد صغير على بعد خمسين ميلا شرقي عمّان ، يضم قاعة استقبال مستطيلة الشكل ذات عقدين يقسمانها إلى ثلاثة أروقة ، لكل رواق منها سقف أسطواني الشكل ، ويتصل الرواق الأوسط في الجهة الجنوبية بحنية كبيرة ، على جانبيها غرفتان صغيرتان بدون نوافذ . وإلى جانب قاعة الاستقبال حمام من ثلاث قاعات صغيرة : الأولى ذات سقف أسطواني الشكل ، والثانية سقفها من قبوين متقابلين والثالثة تعلوها قبة نصف كروية (شكل١) . وكانت جدران هذا القصر وسقوفه محلاّة بنقوش دب التلف إلى معظمها ، بعد أن صورتها البعثة العلمية التي كان يرأسها الأستاذ موزل Alois Musil والتي أتيح لها أن تكشف هذا البناء لعلماء الآثار سنة ١٨٩٨ . وتضم هذه النقوش رسوم صيد واستحمام ورسوم راقصات ونساء شبه عاريات ، ورسوماً رمزية لآلهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند الإغريق ، وأخرى لبعض مراحل العمر المختلفة : الفتوة والرجولة والكهولة ، ورسماً لقبة السماء وبعض النجوم فضلاً عن البروج المختلفة ، ورسوم طيور

* اتخذها سليمان بن عبد الملك مقراً للخلافة بين عامي ٩٦ و ٩٩ هـ (٧١٥ و ٧١٧ م) .

وحيوانات وزخارف نباتية ☆ . ولكن أهم نقوش هذا القصر نقشان : الأول رسم الخليفة على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة يحملها عمودان حلزونيان ، ويحف به شخصان ، وكان على عقد المظلة عصابة من الكتابة الكوفية تطرق التلف إلى كثير من



شكل ١ : قصير عمرة في بادية الأردن

أجزائها ، ويستنبط من الكلمات الباقية أنها كانت تشتمل على عبارات دعائية . أما النقش الثاني فالصورة المشهورة المعروفة باسم صورة أعداء الإسلام ، والتي اعتمدها علماء الآثار في تأريخ قصير عمرة . وقوام هذه الصورة ستة أشخاص ذوي ملابس فاخرة مرسومين في صفين : ثلاثة في الصف الأول وثلاثة في الصف الثاني . وفوق أربعة منهم كتابة بالعربية والإغريقية لا تزال باقية . فالأول من اليسار (وهو في الصف الأمامي) فوقه كلمة «قيصر» بالعربية واليونانية ، والثاني (وهو في الصف الخلفي) فوقه كلمة يظن أنها « لودريق » آخر ملوك القوط في إسبانيا ، وقد قتل حين قضى العرب على جيشه في معركة شريش سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) ، والثالث (وهو في الصف الأمامي) فوقه كلمة « كسرا» ، فهو ملك الفرس ، والرابع (وهو في الصف الخلفي) فوقه كلمة النجاشي ، فهو ملك الحبشة .

وقد رجَّح المستشرق السويسرى فان برشم Van Berchem أن الأشخاص المرسومين في الصف الأمامي ملوك إمبراطوريات كبيرة ، في حين أن المرسومين في الصف الخلفي ملوك دول صغيرة ، كما رجح أن ترتيب الأشخاص في الصفين من اليسار إلي اليمين يقابل موقع بلادهم الجغرافي من الغرب إلى الشرق ، واستنبط من ذلك أن الشخص الخامس (وهو في الصف الأمامي) ربما كان إمبراطور الصين (ولعل المقصود حاكم بخارى) ، وأن الشخص السادس ربما كان أحد الامراء الترك الذين حاربهم قتيبة بن مسلم

☆ انظر صور هذه النقوش في تعليقاتنا على كتاب « التصوير عند العرب » لأحمد تيمور باشا .

الباهلي قبل أن يفتح سمرقند سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) ، وربما كان داهر ملك السند الذي قتله محمد بن القاسم سنة ٩٣ هـ حين فتح تلك الأقاليم . وذكر فان برشم أن هذين الأميرين والأمراء الآخرين يمكن اعتبارهم أعداء الإسلام عامة وأعداء الوليد بن عبد الملك خاصة . وأننا نستطيع بوساطة هذه الصورة أن ننسب قصير عمرة إلى الفترة الواقعة بين معركة شريش سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) أو سقوط سمرقند (٧١٢ م) ووفاة الوليد الاول سنة ٩٦هـ (٧١٥م) . والملاحظ في صورة أعداء الإسلام أن تأليفها ساساني ، وأن رسم اليدين مرفوعتين إلى النصف ومفتوحتين إلى الأمام شارة من شارات الخضوع نعرفها في النقوش الساسانية ، وأن الصورة تشبه إلى حد كبير رسمين ساسانيين في « بيستون» و « نقش رستم » يمثلان بعض الأمراء يقدمون فروض الطاعة والولاء إلى عاهل الفرس . والحق أن وجود رسم كسرى في تلك الصورة ، مع أن سقوط ملكه كان قديم العهد في عصر بنى أمية ، يمكن تفسيره بأن الصورة كلها منقولة بشيء من التصرف عن أصل إيراني ، يبدو فيه كسرى لابساً تاجاً وحوله أمراء تابعون له .

ولكن طراز الصور في قصير عمرة هليني بوجه عام ، كما يظهر في رسوم الأجسام الآدمية ورسم آلهة الحب والنصر والشعر والتاريخ والفلسفة ، وكما يتجلى من الشبه بين الملابس والزخارف في قصير عمرة وفي مثيلاتها ببعض الكنائس والقبور السورية الهلينية . وأكبر الظن أن الفنيين الذين رسموا الصور في قصير عمرة كانوا من السوريين أو الآراميين ، وأنهم كانوا يعرفون العربية أكثر من اليونانية ، كما يظهر من الأسلوب الذي كتبت به بعض الأسماء والكلمات اليونانية التي جاءت على هذه الصور ، ومن استعمال لقب قيصر لإمبراطور الروم .

***

أما حمام الصرخ فقد كشفته لعلماء الآثار بعثة جامعة برنستون سنة ١٩٠٥ على بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الشرقي من القلعة الرومانية المعروفة باسم قصير الحلابات ونحو عشرين ميلا من حمام الزرقاء الواقع على طريق الحج على بعد اثني عشر ميلا شمالي عمان . وحمام الصرخ يشبه في تخطيطه قصير عمرة ، ففيه قاعة استقبال مستطيلة الشكل (٨,٩٥ × ٧,٩٠ متر) ، لها في الناحية الجنوبية الشرقية حنية يحف بها غرفتان ولكن لكل منهما ثلاث نوافذ صغيرة ، وإلى جانب قاعة الاستقبال حمام من ثلاث قاعات صغيرة : الأولى ذات سقف أسطواني الشكل ، والثانية سقفها من قبوين متقابلين ، والثالثة تعلوها قبة نصف كروية . وأكبر الظن أن بعض جدران حمام الصرخ كانت محلاة بالنقوش

الجميلة التي زالت آثارها تماماً ، بعد أن شاهد بعضها بتلر Butler ثم موزل Musil .

ولا ريب أن الشبه العظيم بين حمام الصرخ وقصير عمرة يحملنا على القول بأنه شيّد لأمير أو خليفة من بني أمية ، ولكنه أدق في البناء من قصير عمرة ، فضلا عن أن بعض العناصر المعمارية فيه — ولا سيما العقود — أكثر تطوراً فالأرجح أنه بُني بعد قصير عمرة بفترة قصيرة . وقد نسبه الأستاذ كرزول Creswell إلى ما بين عامي ٧٢٥ و ٧٣٠ بعد الميلاد .

والمعروف أن تخطيط هذه الحمامات لم يكن جديداً في العصر الإسلامي ، فقد كان المهندسون الذين شيدوها يسيرون على نهج عرفته الشام في العصر المسيحي . وقد درس الأستاذ كرزول بعض العناصر المعمارية في هذه الحمامات ، ولا سيما العقود المدببة ، فأثبت أن أقدم المعروف منها يرجع إلى الشام في القرن السادس الميلادي ، فلا وجه للقول بأن هذه العقود ظهرت لأول مرة في إيران .

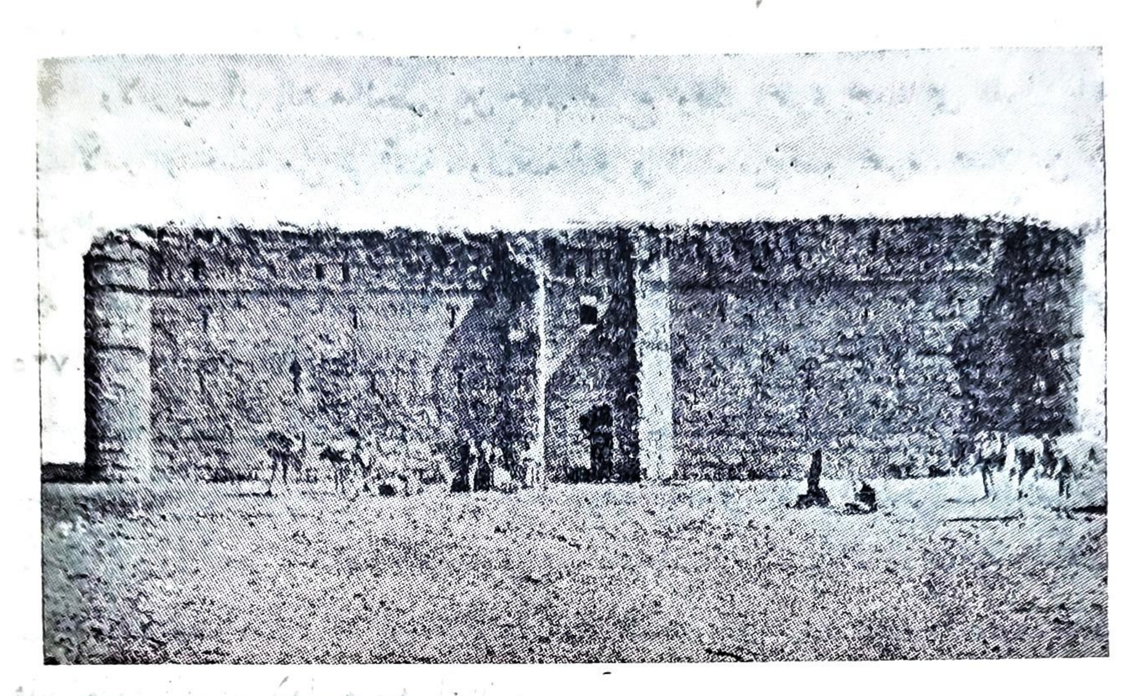
☆☆☆

وثمت قصر صحراوي آخر ، يعرف باسم قصر خرانة (شكل ٢) ويقع على بعد اثني عشر ميلا في الجنوب الغربي من قصير عمرة . ولسنا نريد هنا أن نفصل الحديث عنه ، لأن الراجح أنه يرجع إلى ما قبل العصر الإسلامي ، على الرغم من أن على أحد جدرانه كتابة كوفية بقي من نصها : .

اللهم ارحم عبدك عبد الملك بن عبيد واغفر له
ذنبه ما تقدم وما تأخر . . . . . أعان (؟)
. . . .
. . . . . . وكتب عبد الملك بن عبيد يوم
الاثنين لثلث بقين من القعدة من سنة اثنتين
وتسعين . . . . وقه في الدنيا
والآخرة☆

فلا ريب إذن في أن قصر خرانة كان قائماً سنة ٩٢ هـ (٧١٠ م) ، ولكن هذه الكتابة لا تدل على أنه أنشىء في تلك السنة ، بل إن بعض العناصر المعمارية فيه كالعقود والأركان والأقبية حملت بعض علماء الآثار — مثل فان برشم وكرزول — على نسبته

☆ انظر السجل التاريخي للكتابات العربية ج ١ ص ١٩ :
Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe
(Publié sous la direction de E. Combe, Y. Lauvaget et G.Wiet).



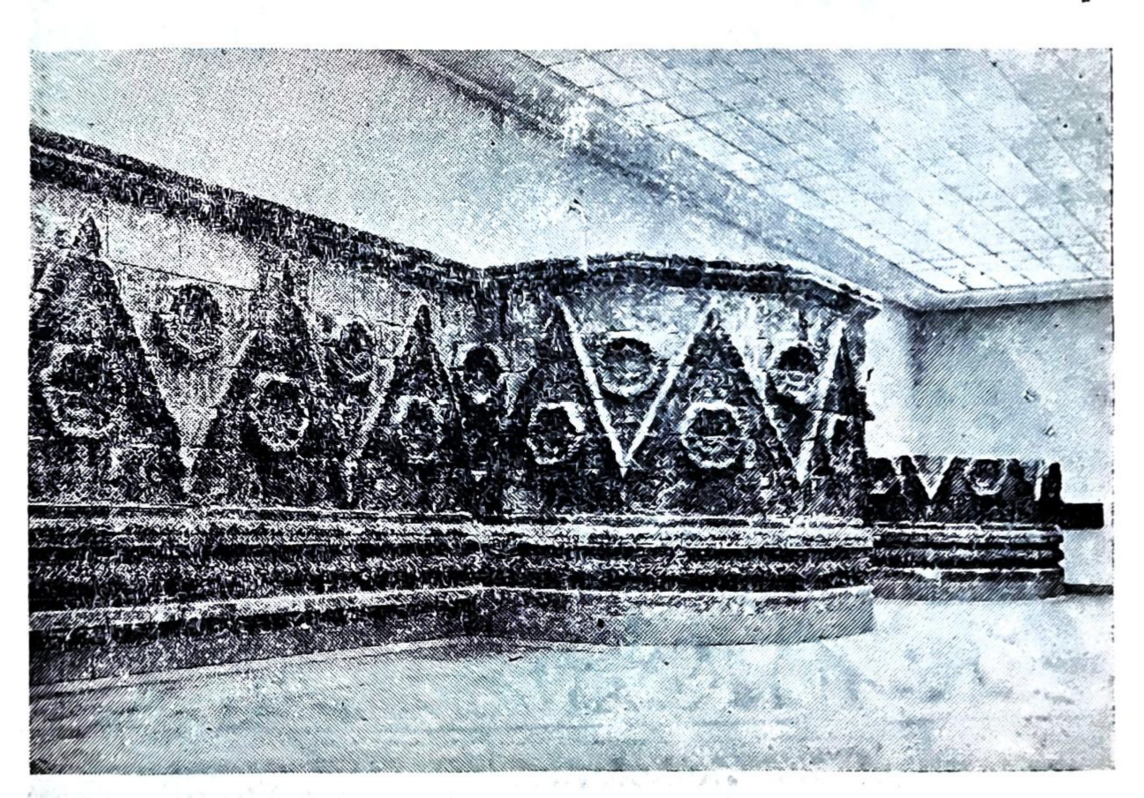
شكل ٢ : قصر خرانة

إلى ما قبل الإسلام . وقد ذكر الأستاذ مورتز Moritz أن عبد الملك بن عبيد الذي جاء ذكره في كتابة قصر خرانة ربما كان أحد أتباع الوليد في رحلته من الحجاز إلى الشام بعد أن زار مكة سنة ٩١ هـ .

أما قصر المشتى فبناء على بعد عشرين ميلا جنوبي عمّان . وقد كشفت أطلال هذا القصر على يد ليار Layard سنة ١٨٤٠ ثم ترسترام Tristram سنة ١٨٧٢ . على أن أعظم ما في قصر المشتى من الناحية الفنية الزخارف المحفورة في الحجر الجيري في الواجهة القبلية التي يقع بها المدخل ، وكان ارتفاع هذه الواجهة ستة أمتار . وقد لفت الأستاذستريجفسكي Strzygowski نظر حكومة القيصر غليوم إلى جمال هذا الأثر فعني به القيصر ، واستطاع أن ينال هذه الواجهة هدية من السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٣ ، ونقلت إلى متحف القيصر فريدريك في برلين حيث أصبحت نواة للمتحف الإسلامي الذي نقلت إليه وتم افتتاحه سنة ١٩٣٢ (شكل ٣) . ولسنا نعرف مصيرها في الحرب الحالية وإن كان آخر عهدي بها في أغسطس سنة ١٩٣٩ حين أقبل الدكتور كونل مدير هذا المتحف على الإشراف على تحصينها وحمايتها بالأبنية الخشبية وأكياس الرمل بوصفها من أنفس ما تحتويه متاحف الدولة الألمانية .

وتقوم زخارف هذه الواجهة فوق قاعدة منخفضة . وثمت شريط زخرفي من نبات شوكة اليهود (كنكر . أكانتس) ينخفض ويرتفع فيقسم الواجهة إلى مثلثات بعضها قائم

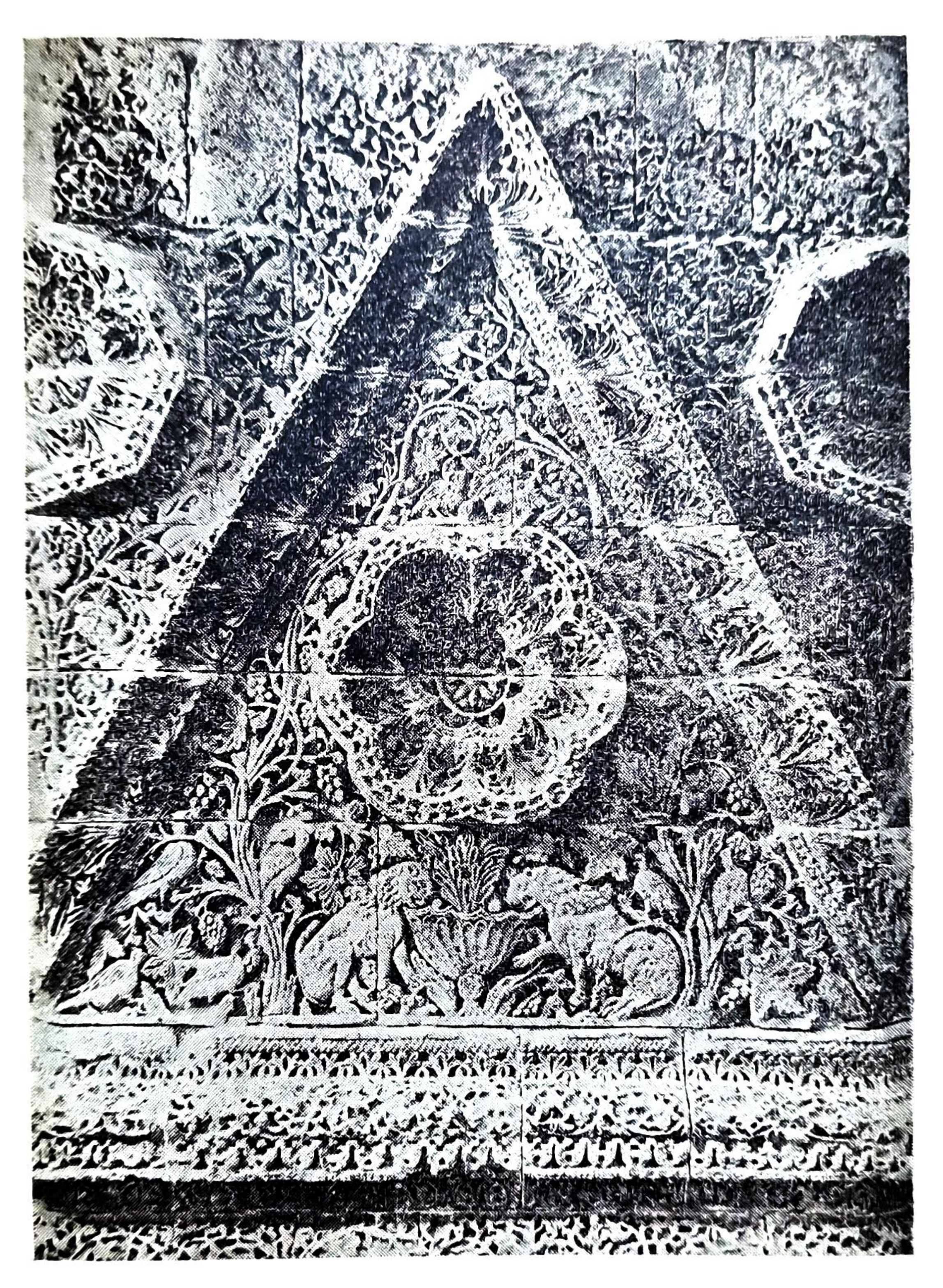
على قاعدته والبعض الآخر قائم على إحدى زواياه . وفي وسط كل مثلث زخرفة كبيرة على شكل وردة ، في قلبها رسوم مراوح نخيلية وكيزان صنوبر ونجوم صغيرة وأزهار لوتس (شكل ٤) . وقد كان المقصود أن تغطى مساحة هذه المثلثات كلها ببساط من الزخرفة الدقيقة المحفورة حفراً عميقاً ، ولكن الواقع أن المثلثات القائمة على قاعدتها هي التي كملت زخرفتها أو كادت ، في حين أن المثلثات الأخرى لم تكمل ، وإنما تم من رسومها أجزاء تختلف باختلاف المثلثات . وفي طرفي كل ناحية من الواجهة (حول المدخل) مثلث صغير ، أي نصف مثلث من المثلثات الكبيرة . وفي كل من هذه الأربعة المثلثات الصغيرة نصف وريدة فقط .



شكل ٣ : واجهة قصر المشتى كما أعيد تشييدها في القسم الإسلامي من متاحف برلين

وقوام هذا القصر بناء يحده سور مربع الشكل ، طول كل ضلع من أضلاعه نحو ١٤٤ متراً . وفي السور أبراج نصف دائرية ، وله مدخل في وسط الضلع القبلي . والمساحة المحصورة بين جدران هذا السور تنقسم إلى ثلاثة مستطيلات ، المتوسط فيها أعرض من المثلثين الجانبيين ، وهو الوحيد الذي تم بناء بعض أجزائه لأن المثلثين الجانبيين لم يشيد فيهما أي بناء .

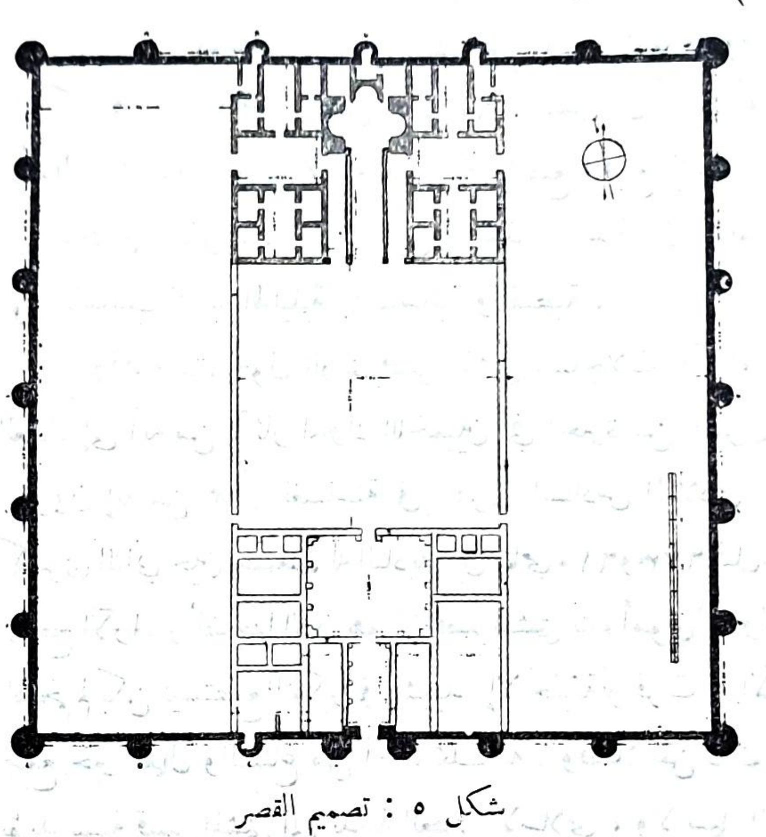
ويؤدي مدخل القصر إلى قاعدة، وتؤدي هذه القاعدة إلى بهو، ويحف بالقاعدة والبهو غرف أخرى . وخلف البهو فناء كبير . وفي شمالي هذا الفناء مدخل ذو ثلاثة



شكل ٤ : زخارف في قصر المشتى

عقود يؤدي إلى قاعة كبيرة مستطيلة ، تنتهي بشكل ذي حنيات ثلاث يشبه ورقة «السباتي » trèfle في أوراق اللعب . وهو شكل شائع في تخطيط الكنائس اليونانية. وعلى كل من جانبي هذه القاعة المستطيلة مجموعة من المباني ، قوامها فناء مستطيل في

وضع عمودي على القاعة ، وعلى كل من جانبي هذا الفناء ساحة عمودية عليه وحولها غرفتان مقبيتان (شكل ٥) .



شكل ٥ : تصميم القصر

وجدران القصر الداخلية وأقبيته من الآجر ، وفيه أعمدة من الرخام ، أما عقوده وأركانه فمن الحجر الجيري .

ويمكن بوجه عام أن نقسم زخارف واجهة قصر المشتى إلى أربعة أقسام لا مجال لتفصيل الكلام عليها هنا . وحسبنا أن نذكر أن عشرة من هذه المثلثات خالية من رسوم الطير والحيوان ، وفي بعضها رسوم زهور مركبة ومراوح نخيلية مجنحة ، فضلا عن الفروع النباتية وعناقيد العنب ، ونجد في سائر المثلثات ، وعددها اثنا عشر مثلثاً ، رسوم طيور وحيوانات خرافية وحقيقية . وعلى كل حال فإن الزخارف الواقعة على البرج الأيمن والجزء المستوي من الجدار المتصل به هي الخالية تماماً من رسوم الكائنات الحية ، وليس السبب في ذلك واضحاً ، فعلماء الآثار مختلفون في تفسير هذه الظاهرة : يرجح بعضهم أن صاحب البناء اقتنع بعد إتمام القسط الأكبر من الزخرفة بكراهية تصوير الكائنات الحية في الإسلام ، ففضل الزخارف النباتية في الجزء الباقي ، وذهب فريق آخر إلى أن الصناع أنفسهم ربما كانوا قبل ذلك ذميين ثم اعتنقوا الإسلام وعملوا على احترام تعاليمه في كراهية التصوير ، ورجح آخرون أن يكون المقصود الوصول إلى تباين بين الزخارف النباتية والحيوانية بجعلها مختلفة في كل جانب من جانبي المدخل عنها في الجانب الآخر ، وذهب الأستاذ هرزفلد Herzfeld إلى أن الفرق بين الزخارف في المثلثات المختلفة راجع إلى أن الصناع لم يكونوا من جنس واحد ، إذ اشترك في زخرفة الواجهة صناع من سورية والعراق ومصر ، ونحن لا نقر هذا الرأي لأن فيه شططا

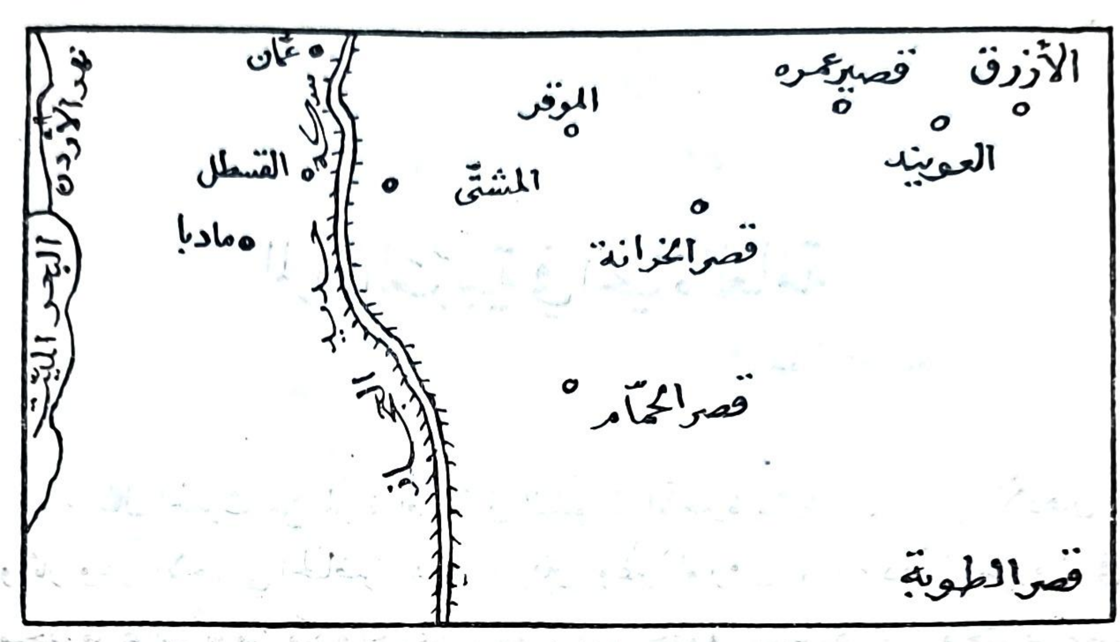
وإنكاراً للوحدة الظاهرة في الزخرفة بوجه عام . وفي رأينا أن الفرق بين الزخارف في المثلثات المختلفة مقصود به التنويع ، إذ أنه ليس عظما جداً بحيث يتطلب نسبة الزخرفة إلى صناع من جنسيات مختلفة . وإذا صح أن صناعاً سوريين ومصريين وعراقيين اشتركوا في زخرفة قصر المشتى فليس من المحتمل أن يُترك أولئك الصناع يتبع كل منهم الأساليب الفنية المتبعة في وطنه بدون أن يخضع الجميع لمشرف يؤلف لهم طراز الزخرفة التي يناط بهم حفرها . ولسنا ننسى في هذه المناسبة أن الشام كانت ملتقى تيارات مختلفة من الأساليب الفنية الهلينية والساسانية والقبطية .

وقد قامت حول تاريخ قصر المشتى مساجلات وآراء مختلفة ، فذهب فريق من العلماء إلى أنه من آثار الملوك اللخميين في الحيرة من القرن الرابع الميلادي ، وقال آخرون إنه من عمائر الغساسنة في القرن السادس الميلادي ، ونسبه فريق ثالث إلى كسرى الثاني حين خضعت له البادية بين عامي ٦١٠و٦٢٣ قبل أن يهزمه هرقل . ولكن أرجح الآراء وأنضجها الآن هو أن قصر المشتى بناء أموي✡. ولا غرو فإن مثل هذا البناء الضخم لم يكن ليستطيع التفكير في تشييده إلا خليفة توافرت له الأموال الطائلة، واستطاع أن يجمع خير العمال والصناع من أنحاء مملكته ، وفضلا عن ذلك فإن بعض العناصر المعمارية تؤيد نسبة قصر المشتى إلى بداية العصر الإسلامي ، ولا سيما الطوب والعقود والأقبية ؛ وكذلك نرى أن بعض العناصر الزخرفية في قصر المشتى تشبه زخارف قبة الصخرة . وقد وجد في الجدار القبلي من القاعة اليمنى بعد مدخل القصر حنية يرجح أنها كانت محراباً وأن القاعة كانت مصلى القصر .

وقد ذهب الذين ينسبون قصر المشتى إلى العصر الأموي مذهبين : الأول ينسبه إلى يزيد الثاني (١٠١ — ١٠٥ هـ . أي ٧٢٠ — ٧٢٤م) . والثاني إلى الوليد الثاني (١٢٥ —١٢٦ هـ . أي ٧٤٣ — ٧٤٤ م) . وقد فسر أصحاب الرأي الأول ترك القصر قبل إتمامه بوفاة يزيد بعد وفاة عشيقته حبابة . أما أصحاب الرأي الثاني وعلى رأسهم الأب لامنس Lammens فقد أشاروا إلى نص جاء في كتاب ساويرس بن المقفع ينسب إلى الوليد الثاني الشروع في بناء مدينة لنفسه في الصحراء ، جمع لها العمال والصناع من جميع البلاد ، ومات كثير منهم بسبب الإرهاق وقلة الماء إلى أن ثار على الوليد رجل اسمه إبرهيم ، قتله واستولى على مقاليد الأمور وأطلق العمال ، فتفرقوا قبل أن يتم البناء .

✡ أتى الأستاذ كرزول في الجزء الأول من كتابه Early Muslim Architecture بكل الآراء التي قامت حول تاريخ قصر المشتى وانتهى إلى القول بنسبته إلى العصر الأموي.

ومهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع أن نعرف تماماً إلى أي الخلفاء الأمويين يمكننا أن ننسب قصر المشتى .



شكل ٦

بقي أن نشير إلى قصر الطوبة . وهو قصر أموي آخر ، تقع أطلاله على بعدستين ميلا إلى الجنوب الشرقي من عمّان (شكل٦) ، وهو مستطيل الشكل (١٤٠,٥٠٥ × ٧٢,٨٥ متراً) ، ويشبه قصر المشتى في معظم عناصره المعمارية والزخرفية، وأكبر الظن أنه شيّد في العصر نفسه .

* * *

ولا ريب في أن القصور التي عرضنا لها في هذا المقال دليل قوي على حضارة العرب في فجر الإسلام وعلى حسن استعدادهم للافادة من مدنية البلاد التي فتحوها ، مع حنينهم إلى البادية وحرصهم على القرب منها .

زكي محمد حسن



عالم المرأة

المرأة العربيّة في الحياة العامّة

للسيدة أمينة السعيد

طال الحديث عن المرأة العربية في السنوات الأخيرة ، وشغلت قضيتها الأذهان ، وأثار وعيها الاجتماعي الحاضر اهتمام العارفين وغير العارفين ، وتردد الكثيرون في منحها ما تطالب به من مكانة اجتماعية لائقة ، ومن حقوق تساعدها على الاحتفاظ بهذه المكانة . ويدل هذا التردد على أن بعض الناس لا يثق بالمرأة العربية ، ويخشى إن هي اقتحمت الحياة العامة تعثرت في طريق لا تعرفه ولم تعتده من قبل ؛ وقد يصيب المجتمع من عثراتها شر هو في غنى عنه .

ولكن الحياة العامة ليست غريبة على المرأة ، ولا هي جديدة عليها ، وصفحات التاريخ تخالف هؤلاء المتطيرين ، وتسجل لها شأناً مجيداً ومكانة ممتازة لم تتمتع بمثلها ابنة أرقى الدول الأوربية في تلك الأزمان . ولو قارنا بين العربية والأوربية في القرون الوسطى لوجدنا أن الرجل الغربي كان يحتقر المرأة إذ ذاك ، ويعتبرها متاعاً منقولا يباع ويشترى ، في حين كان العرب يحترمون نساءهم ، ويقدرون كفايتهن ونبوغهن .

* * *

كانت المرأة العربية منذ عهد العمالقة ، وقبل نزول الشرائع والأديان، تتمتع بمكانة رفيعة في مختلف البلاد ، وخصوصاً في عهد الحمورابيين ، الذين سمّوا كذلك نسبة إلى حمورابي الذي سمت شريعته وارتقت إلى درجة لم تصل إليها قوانين الأمم الحديثة . ونصيب المرأة منها يدل على أنها كانت عنصراً هاماً من عناصر المجتمع، لا يستطيع المشرع تجاهله في إصلاحه وتجديده . والحقيقة أن حمورابي لم يساو المرأة بالرجل ، ولكنه منحها حريات كثيرة ، وقيده بما لم يعرف في العالم من قبل : فأحل تعدد



صورة مأخوذة عن لوحة فنية بمتحف الصور ببرلين يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٦١ بريشة الرسّام أنسلم فيورباخ وهي تمثّل « نانا » زوج الإله « بَلْدر » . وتشير الأساطير السكندينافية أن « نانا » هذه كانت تحب زوجها حبًّا جمًّا حتى إنها لما قتله إله الشرّ « لوك » ماتت على أثره حزناً وغماً .

الزوجات بشروط صارمة ، ولم يأذن للرجل بالزواج ثانية إلا إذا لم يرزق من امرأته أطفالا ، أو إذا مرضت لحال مرضها دون القيام بواجباتها الزوجية ، وبذلك أصبح تعدد الزوجات أداة إصلاح اجتماعي ، وليس وسيلة للعبث وإشباع الشهوات .

وأعطت شريعة حمورابي المرأة حقوقاً أمّنت حياتها العائلية ، ومكنتها من القيام بأعمال عدّة ، وأصبح للنساء حق مزاولة التجارة والزراعة والانتظام في سلك الكهانة ، واشتركن في مسؤوليات الحياة ، فإذا تأخر رجل عن وفاء دينه التزمت زوجه دفعه ، والعكس بالعكس[1]

ودارت الأيام دورتها ، وضعفت دولة الحمورابيين ، ثم زال سلطانها من العراق ، وتشتت عربها بعد ذلك فى أنحاء جزيرة العرب . ومن فلول هؤلاء قامت دولة الأنباط التي بدأت بمشارف الشام ، واتسعت تدريجاً فشملت سينا وحوران . وفي هذا العهد أيضاً نالت المرأة العربية مكانة ممتازة ، واشتركت في الحياة العامة أكثر منها في عهد الحمورابيين ، فنقش اسمها على اللحود للمرة الأولى ، وضربت النقود باسمها ، وارتقت العروش ، وحكمت البلاد ، ومن هؤلاء الملكة جميلة امرأة ريبال الثاني .

وعندما ظهرت المسيحية كان شأن العرب قد بدأ في الاضمحلال ، ومع ذلك ظلت المرأة العربية تساهم بنصيب موفور في الحياة العامة ، فارتقت العرش ، وحاربت من أجل استقلال ملكها واتساعه ، فظهرت زينوبيا والدة الملك الطفل «وهب للات» ولقبت ابنها بأغسطس تشبها بالقياصرة ، وأزالت اسم أرليان قيصر الرومان عن النقود ، وتولت قيادة الجيش ، فامتد سلطانها إلى مصر والشام والعراق وآسيا الصغرى ، ولكن جيوش الرومان هاجمتها في أنطاكية وحمص ، فتغلبت عليها ، وحاصرتها في تدمر ، وألقي القبض عليها ، ثم أطلق سراحها بعد أن جردت من قوتها ، فعاشت ما بقي لها من الحياة فى هدوء وسكينة[2]

أما المرأة العربية في الجاهلية فقد حرمت الكثير من الحقوق ، ومع ذلك كانت عنصراً بارزاً في الحياة العامة ، وساهمت فيها بنصيب موفور ، واستطاعت ، مع عيوب ذلك العهد ونقائصه ، أن تخلف وراءها سيرة تفوقها وبروزها . ونحن نعرف أن احترام العرب للمرأة في الجاهلية كان عظيماً حتى غدا مضرب الأمثال ، فكانت صرخة امرأة واحدة تشن حروباً طويلة بين القبائل . وممن اشتهرن بالوفاء في ذلك العهد فكيهة

---

(١) « المرأة في التاريخ والشرائع » لجميل بيهم .

(٢) « العرب قبل الإسلام » لجورجي زيدان .

التي استجار بها يوماً عدو قومها السليك بن سلكة ، فأجارته وحمته بعد أن امتشقت الحسام للذود عنه .

وعرفت هند امرأة ابي سفيان بالجسارة والشجاعة ، فخاضت المعارك مع قومها قبل إسلامها ، فلما عثرت على جثة حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرت بطنه ، وأخرجت كبده ولاكتها ، ثم جعلت تنشد الشعر في قومها زهواً وافتخاراً .

ومن شاعرات الجاهلية الخالدات ، الخنساء التي قال عنها بشار بن برد : « تلك فوق الرجال » . ولقد أدركت الخنساء الإسلام ، فجاهدت في سبيل الدين ، وتفوقت في عالم القريض ، وكان الرسول يرتاح إلى سماع أشعارها ، ويستزيدها منها .

وكانت المرأة في الجاهلية أيضاً تتبع الرجال إلى الحروب ، وتستنفرهم ، وتعالج المرضى ، وتحمل الماء إلى الجنود ، وتقاتل إذا اقتضى الأمر . وظلت هذه عادة النساء بعد الإسلام .

وجاء الإسلام فحمت الشريعة الحنيفة المرأة من صنوف الشرور التي كانت تقاسيها في عهد الجاهلية ، وأحاطتها بسياج قوي من الحقوق الاجتماعية التي لم تعرفها الأوربية إلا حديثاً ، وبذلك ارتفع شأن نساء العرب ، وازددن عزة وكرامة . ومن حيث الحقوق المدنية ساوى الإسلام بين المرأة والرجل أمام القانون وفي الأمور الجوهرية ، فشهدت، وورثت المال ، واشترت العقار ، وتصرفت فيما تملك بحرية واستقلال . وأشركها النبي في مسؤولية الحياة بقوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » . وحض القرآن على احترام المرأة وتبجيلها وحمايتها ، فمنع وأد البنات بقوله تعالى : « لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً » . وورد في تقديم الأم على الأب أن أعرابياً جاء الرسول وسلم عليه ، وقال : « يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال: ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك » .

وحض الإسلام على الرفق بالزوجة : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . فإن كان الدين قد قدم الرجل على المرأة ، فلم يكن ذلك عن احتقار لشأنها ، أو استهانة بمكانتها ، بل لأن الرجال حملوا أعباءً أدبية ومادية كثيرة : « الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » .

ولقد أطلنا الحديث في هذه النقطة بعض الشيء ، ولكننا أردنا بذلك أن ندحض

ادّعاء الغربيين الذين ينسبون تأخر المرأة العربية إلى قيود الدين وتشريعاته ، فالإسلام فى الواقع لم يظلم المرأة ، بل رفع مكانتها ، وزادها عزة وكرامة ، ومكّنها بمختلف الحقوق من أداء واجباتها كاملة نحو الأسرة والمجتمع ، فظلت أسماء النساء وسيرهن تتردد في أفق الحياة العامة ردحاً من الزمن . ومن نساء فجر الإسلام الشهيرات السيدة خديجة زوج النبي الأولى التي كانت تزاول التجارة ، والسيدة عائشة وكانت تفقه الناس في الدين ، والخنساء وكانت تنشد الشعر في حضرة الرسول فيطلب منها المزيد .

وفي العهد الأموي اشتهرت سكينة ابنة الحسين بن عليّ برجاحة العقل ، ومكارم الأخلاق ، وغزارة الثقافة ، حتى غدا بيتها كعبة الأدباء والشعراء ، يجتمعون فيه ، ويتبادلون بين جدرانه خير الأحاديث والأشعار ، وممن كانوا يقصدون بيت سكينة جرير والفرزدق وكثير عزة وجميل بثينة ، وغيرهم من أئمة الأدب والقريض .

وعني الأغنياء في العصر العباسي بتثقيف نسائهم وجواريهم ، وتعليمهن العلوم والفنون . وكان الرجل يفخر على غيره بما يملك من جاريات نابغات ، فاشتهرت قطر الندى في الأدب ، ودنانير في الموسيقى ، واشتهرت من سيدات البيوتات إذ ذاك العبّاسة بنت المهدي في العلم والأدب ورجاحة العقل ، وزبيدة زوج الرشيد في شؤون السياسة والمجتمع.

وظل شأن المرأة يرتفع في الحياة العامة عهداً بعد عهد ، حتى دخل العرب في طور الانحلال ، وزال سلطانهم عن ممالك متعددة ، وتقلصت إمبراطوريتهم العظيمة ، فتأثرت المرأة بهذا الطور ، وانحط مستواها الاجتماعي والثقافي تدريجاً ، إلى أن اختفت تماماً بين جدران بيتها .

* * *

بدأ دور انحلال المرأة المصرية في العهد الفاطمي عندما تولى حكم البلاد رجل شاذّ ، هو الحاكم بأمر الله ، فلم يعجبه حال النساء ، وما يتمتعن به من حقوق وحريات ، ولذلك عقد العزم على القضاء عليهن في المجتمع وفي الحياة العامة ، وأصدر أمراً ببقائهن بين جدران دورهن ، ومنعهن من الخروج منها لأي سبب من الأسباب ، وحرم على الحوانيت صناعة أحذية النساء أو بيعها ، وتوعد بالقتل من يخالف أمره ، فكان له ما أراد ، واختفت المرأة المصرية تدريجاً ، وتلاشت جهودها الاجتماعية تماماً ، وظلت تنحط من عهد إلى عهد ، حتى انتهى الأمر بأن غدت عضواً أشلّ في البلاد .

والحاكم بأمر الله لم يفعل ذلك عن عقيدة أو إيمان ، بل بدافع من شذوذه وجنونه ، والدليل على هذا الشذوذ والجنون أن حرم على الناس أكل « الملوخية » ،

وقلب دولاب العمل في البلاد ، فنام الناس نهاراً ، واشتغلوا بالليل ! !

وفي بدء القرن التاسع عشر تولى عرش مصر المصلح العظيم محمد علي الكبير ، فأحزنه ما وصلت إليه المرأة من تأخر ، وأراد أن يرفع شأنها بالعلم ، فافتتح مدرسة للقابلات ، تقوم خريجاتها بكفاية المرأة في النواحي النسوية وإذ لم يقبل أحد عليها اشترى جاريات ، وعلمهن الطب فيها ، وأمر العسس ، فجمعوا فتيات الأزقة والطرقات ، وأدخلوهن المدرسة ، ورسم لكل منهن مكافأة شهرية مرضية .

ولا شك أن الخديو إسماعيل هو صاحب الفضل الأكبر على المرأة العربية الحديثة ، فقد كان رجلاً عصرياً بمعنى الكلمة ، يحب التجديد ، وينشد من ورائه رفعة لبلاده ، ولذلك أوحى إلى زوجه « جشمت آفت أفندي » بأن تفتتح مدرسة السنية للبنات ، ونجحت المدرسة نجاحاً باهراً ، وأقبل الناس عليها ، فأعقبها بمدرسة ثانية ثم ثالثة ، ونظم في قصوره العدة دروساً للنساء ، يتعلمن الأدب والتاريخ والرقص والموسيقى والتمثيل ، ووضعت جوائز ثمينة للمتفوقات ، وعندما بنى دار الأبرا خصص بالسيدات مقصورات يشاهدن التمثيل منها ، وبذلك سجل لهن حقاً جديداً لم يتمتعن به من قبل .

وبدأت الحركة الفكرية التي قام بها جمال الدين الأفغاني ، وأنشأ هذا الرجل العظيم مدرسة فكرية جديدة ، فاجتمع المثقفون حوله يتلقون العلم عنه . ومن أهم أفكاره الجوهرية ضرورة تعليم المرأة وتثقيفها ، تبعاً لتعاليم الإسلام ، الذي منحها مختلف الحقوق ، وكرّمها ، واعترف لها بمقامها الجليل ، وساواها بالرجل في الأمور الجوهرية* . ولاقت دعوته نجاحاً ، فجعل تلاميذه ينشرونها في جميع أنحاء البلاد ، وفي هذه المدرسة الفكرية تعلم قاسم أمين رأس المصلحين في بلادنا ، وزعيم النهضة النسوية دون منازع .

ولكن نقطة التحول الفكرية الصادقة في تاريخ المرأة المصرية الحديثة هي ثورة عام ١٩١٩ ، فقد كانت ثورة سياسية واجتماعية في آن واحد ، فقامت إلى جانب الرغبة في أن يحكم المصريون أنفسهم رغبة أخرى شديدة ، هي أن يرتفع مستوى الشعب ليكون أهلاً لحكم نفسه ، وأن تتعلم المرأة لتكون عضواً مفيداً في المجتمع والحياة العامة ، وقامت المظاهرات الوطنية ، فاشترك النساء فيها وبذلن مجهوداً قوياً ، واحتملن العذاب والسجن بصبر وعزم وعقيدة لا تتزعزع ، وفي منازلهن قمن بدور خطير ، فبعثن الوطنية في قلوب أزواجهن وأولادهن ، وتحملن النتائج في قبول ورضاً .

* الإسلام والتجديد لآدمز ، ترجمة عباس محمود .

ومن دواعي الفخر والسرور أن نرى المرأة المصرية تقتحم مختلف نواحي الحياة العامة فتبرز وتنجح كل النجاح ، وبيننا الآن طبيبات ماهرات يعالجن المرضى ، ويواسين الجرحى بجهد لا يقل عن جهد الرجال إن لم يزد . ولدينا محاميات قديرات يترافعن في القضايا الهامة أمام المحاكم الأهلية والشرعية ، فيبلغن الكمال في عملهن مما يضاعف إقبال الناس على توكيلهن ، وتسليم زمام مشاكلهم إليهن . وعندنا مربيات فاضلات قامت وزارة المعارف على أكتافهن ، وقدمن إلى البلاد خدمات جليلة ، ورفعن مستوى التعليم بفضل جهودهن العظيمة ، وعلمهن الغزير ، وإخلاصهن الشديد . وفي مصر طيارات يقدن الطائرات على الخطوط الجوية المنتظمة ، ويعلمن هذا الفن الخطير للرجال .

ولن ننسى أبداً ما قامت به جمعيتا الهلال الأحمر للسيدات ومبرة محمد علي من جهد عظيم مشكور في محنة وباء الملاريا الذي اجتاح الوجه القبلي في السنوات الأخيرة ، ورأينا كيف ضحت المرأة الناعمة المترفة براحتها وبيتها وترفها ، لتسافر إلى المناطق الموبوءة ، وتسعف المرضى وتعالجهم ، وتطعم الفقراء وتكسوهم ، فترضي ربها ووطنها ، وتشبع نفسها المتعطشة إلى الخير .

فان كانت المرأة على الرغم من ذلك لم تصل إلى درجة الكمال بعد ، فما ذلك إلا لحرمانها حقوقاً اجتماعية كثيرة تكفل لها الاستقرار المنزلي ، والحماية الاجتماعية الواجبة ، وأعتقد أن الوسيلة الوحيدة لتلافي هذا النقص المعيب هي دخول المرأة المتعلمة البرلمان ، حتى يكون لها صوت تشريعي مسموع ، فتبدي رأيها في قوانين البلاد وسياستها الاقتصادية والاجتماعية ، وسيعود دخولها في البرلمان حتما بالخير العميم .

***

والنهضة النسائية المباركة التي بدأت في مصر ، تعدتها إلى مختلف الأقطار العربية ، فتيقظت العربية عموماً إلى خطورة مركزها في المجتمع ، أو إلى حقيقة المكانة التي يجب أن تنالها ، لتساعد العروبة على التقدم والارتقاء .

ففي لبنان تقل الأمية بين النساء ، ويكثر العلم ، وتنتشر الثقافة ، وتحتشد بالفتيات معاهد العلم وجامعة بيروت ، وتخرج منهن مئات كل عام . وهناك مدرسات ، وصحفيات ، ومتضلعات في القانون والاقتصاد ، وأديبات ، وشاعرات . ولا يقتصر جهد اللبنانية على العمل المهني ، بل هي تقوم أيضاً بكل أعمال البر ، والجمعيات النسائية الخيرية تنتشر في طول البلاد وعرضها ، وتساهم بنصيب موفور في مكافحة الفقر ، ونشر العلم ، ورفع

مستوى الشعب . والمرأة اللبنانية متحررة من التقاليد العتيقة ، ولذلك فهي دعامة المجتمع ، وزهرة المجالس والحفلات .

والمرأة السورية في الواقع مفخرة العروبة ، جمعت بين تقاليد الشرق الطيبة ، وتقدم الغرب ، فاستطاعت أن تقتحم الحياة العامة بحجابها ، وأن تبرز في تلك الحياة بما يثلج الصدور . وتعهدت تعليم البنات ، وحملت على أكتافها عبأه كاملا ، كما خصصت جهداً كبيراً بالبر والإحسان ، ولقد أنشأت جمعية الاتحاد النسائي السوري بإشراف المجاهدة الكبيرة السيدة عادلة حرم الأمير عبد القادر مدرستين للبنات ، إحداهما للفقيرات ، والثانية للقديرات ، وكلتاهما تحتل بناءً من أجمل أبنية دمشق وأكبرها .

وتقوم جمعية نقطة الحليب برياسة السيدة زهرة حرم المرحوم محمد بك علي العابد برعاية أطفال الفقراء ، ورفع مستواهم الصحي والاجتماعي والثقافي ، فتوزع يومياً كميات كبيرة من اللبن والطعام والكساء ، ويكشف الأطباء أسبوعياً على الأطفال لوقايتهم وعلاجهم من الأمراض .

وتدرّب جمعية الهلال الأحمر السوري سيدات البلاد على فن الإسعاف والتمريض ، فينتشرن بين الأحياء الفقيرة لمحاربة الأمراض والآفات . وما زلنا نذكر ما قامت به المرأة السورية خلال الثورة الأخيرة ، فقد خرج أعضاء الاتحاد النسائي والهلال الأحمر إلى المعمعة ، وسرن ملائكة للرحمة في ميادين القتال ، وحملن الجرحى ، تحت وابل من رصاص البنادق وقذائف المدافع ، وعرّضن حياتهن للأخطار ، غير خائفات أو مترددات ، فنلن ثناء العروبة ، وشكر رئيس الجمهورية ، وثناء حكومته الرشيدة .

وفي شرق الأردن نهضة حديثة مباركة ، فقد أحست الأردنية أخيراً أن ابتعادها عن الحياة العامة يعوق البلاد عن التقدم السريع المنشود ، فأقبلت على دور العلم ، وسافرت إلى البلاد الأخرى لتستزيد من الثقافة ، وعادت مربية فاضلة تحارب الجهل بين بنات وطنها ، وعندما عقد المؤتمر النسائي في العام الماضي عادت بعده ممثلات شرق الأردن إلى بلادهن راغبات في العمل والجهاد ، فاحتضن سمو الأمير عبد الله الحركة في الحال ، وشجعهن بقوته ونفوذه ، فتألف الاتحاد النسائي هناك ، وقامت سمو الأميرة أم طلال برياسة الشرف ، وسمو الأميرة زين زوج ولي العهد بالرياسة الفعلية ، ولم تمض أسابيع معدودات حتى اتسع الاتحاد وكبر ، وامتدت فروعه إلى مختلف الألوية والبلدان والقرى ، وانضوى تحت لوائه مئات من السيدات . وأنشأ الاتحاد دوراً ومراكز عدة للعمل ، وفي كل صباح يجتمع الأعضاء في هذه الدور والمراكز ، لحياكة ملابس الفقراء ،

ولتعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة ، ولعلاج من يصاب منهم بمرض أو داء .

وتمر فلسطين بمحنة سياسية قاسية ، شغلت أذهان الناس عما عداها ، واستنفدت تفكيرهم وجهدهم نساءً ورجالاً ، وقامت الفلسطينية بنصيبها الجليل في خدمة قضية بلادها السياسية ، ثم أعطت ما بقي من وقتها للحياة العامة ، وفي فلسطين مائة مدرسة للبنات ، يقوم العمل فيها على أكتاف المرأة فقط ، والعجيب أن الناس يقبلون على هذه المدارس ، ويرسلون إليها بناتهم مهما بعدت عن القرية التي يعيشون بها ، وهناك مئات من الفتيات الصغيرات يسرن ساعتين يومياً بين الجبال والأودية ليصلن إلى المدرسة ، ويأخذن نصيبهن من العلم والثقافة .

وتشتغل المرأة الفلسطينية بالأعمال الخيرية ، ففي كل بلد عدة جمعيات أنشئت لهذا الغرض ، وكلها تعمل من أجل رفع مستوى الشعب مادياً وأدبياً ومعنوياً .

هذا ما رأيته في بعض البلاد من اشتراك المرأة العربية في الحياة العامة ، ونجاحها فيها ، وكلها مشاهدات تبعث على الاطمئنان وتثلج الصدور . ولقد اقتصرت في حديثي على أقطار دون أخرى ، ولا يدل ذلك على أسبقية بلد على بلد ، وكل ما في الأمر أنني أردت أن أعرض على سبيل التمثيل صوراً مما رأيته بعيني ، وقد يكون فيما لم أر أعظم مما رأيت .

أمينة السعيد

٢ عبّاس حِلمي الثّاني

١٨٧٤ — ١٩٤٤

للدكتور محمود عزمي

كان نظام تولي الحكم في مصر ، وقد اعترفت به الحكومة العثمانية وأقرته الدول العظمى في معاهدة ١٨٤٠ التي حفظت لمصر استقلالها الذاتي ، للأرشد فالأرشد من أعضاء أسرة محمد علي الكبير ،

وهو النظام الذي كان متبعا لولاية الحكم في الأستانة بين آل عثمان . فولي الحكم على هذه الوتيرة محمد علي فإبراهيم فعباس الأول فسعيد فإسماعيل ، وكان مفروضا أن يتولاه من بعد إسماعيل أخوه مصطفى رياض . ولكن إسماعيل الذي كان توّاقا إلى أن يدخل على الحياة المصرية أقصى ما يستطيع من أنظمة الغرب ، سعى سعيه الحثيث لدى « الدولة العلية » ولدى الدول الموقعة على معاهدة سنة ١٨٤٠ ووفق إلى تعديل نظام وراثة العرش في مصر وجعله على غرار ما يجري في الممالك الأوربية ، منتقلا إلى البكر من الأولاد وأولاد الأولاد . فكانت ولاية العهد إلى أكبر أبنائه محمد توفيق تنتقل « الخديوية » — التي كان إسماعيل أول من اختص بلقبها — من بعده إلى أكبر أولاده عباس .

وكان توفيق منجباً عباساً ، وإسماعيل لا يزال مرتقيا عرش مصر ، إذ ولد عباس في الثامن والعشرين من شهر يناير لسنة ١٨٧٤ ، وقد شغف به جده وهو يرى فيه من سيستقر عن طريقه نظام الوراثة — الذي أدخله جديداً في الشرق كله .

ونشأ عباس تكتنفه أخطر فترة في تاريخ مصر الحديث : فقد تدخلت الدول باسم الدائنين من رعاياها ، وأنتج تدخلها قيام وزارة مختلطة في مصر بين أعضائها إنجليزي للمالية وفرنسي للأشغال العامة ، ثم عزل الخديو الأول إسماعيل نفسه ، كما قامت في عهد خلفه توفيق ثورة العرابيين واحتلال إنجلترا على أثرها وادي النيل . وكان عباس — ولما يبلغ التاسعة من عمره — في الإسكندرية حين نزل إليها الإنجليز وكان يشاهد خلال سور سراي مصطفى باشا ما نصبه العرابيون حولها من مدافع مصرية ثم ما استبدلت به هذه المدافع من أسلحة بريتانية .

وأنشئت مدرسة لولي العهد وشقيقه الأمير محمد علي يواظب عليها معهما فتية من أبناء الأسر . ثم أرسلا للتحصيل في « فينا » وطلب عباس العلم في معهد « تيرينويانوم » وظل به حتى آخر الأسبوع الأول من شهر يناير لسنة ١٨٩٢ إذ نعي إليه والده المتوفى بحلوان ، فعاد إلى مصر على ظهر باخرة أعدّتها له الحكومة النمساوية . وقد حدثنا سموه يوماً بفندق « منترو » حديثاً استمع إليه معي حسن خالد باشا أبو الهدى ونوري باشا السعيد فقال : « تملكتني وأنا عائد من النمسا على أثر وفاة والدي فكرة واحدة هي فكرة إنقاذ الوطن من غاصبيه . وكنت أردّد في نفسي أن والدي إذا كان يحسب أنه مدين للانجليز بمناصرته على العرابيين ، فإني لا أدين لهم بشيء على الإطلاق، إذ أتولى الحكم بحق الوراثة وبفرمان من الباب العالي ، ولا علاقة لهم البتة بالاثنين . إنما أنا أحب بلادي وأريد لها الحرية والسيادة » .

وقد لازم هذا الخاطر عباس الثاني منذ ولايته الحكم إلى يوم وفاته ، فكان أول من رفع من المصريين علم الجهاد في وجه الاحتلال ، وأول من اختار من بين الشبان والكهول من مدّهم بالرأي وبالمال لتنظيم ذلك الجهاد وتعهده طول الثلاثة والعشرين عاماً التي ارتقى فيها عرش البلاد ، ثم ظل إلى آخر حياته يتابع النهضة المصرية على بعده عن مصر وحكمها ، ويوالي اتصالاته بزعمائها وأولي الرأي فيها ، سراً وعلانية ، يفضي إليهم بما لديه من دفين المعلومات ، ويسدي نصحه المستند إلى ما اكتسبه من تجارب قاسية . وقد أضاف إلى ما تقدم من حديثه لنا قوله : « فلما وصلت إلى مصر ، اتجهت إلى الجيش أعتمد على ضباطه ، وأشير إلى شدّة اتصالي بهم باتخاذي اللباس العسكري لباسي العادي .

ولما أفلت الضباط من يدي ، إذ أدخلوا الماسونية الإيقوسية التي كان يرأسها السردار البريتاني تحولت إلى الشباب فلبست اللباس المدني ، وقربت مني مصطفى كامل ولجنته السرية التي كنت أجتمع بها ليلاً في مسجدٍ بناحية سراي القبة ».

وهكذا بدأ الخديو جهاده في الصفوف ، يضاعفه ما كان له من صفة رسمية وما كان لمصر من مركز دقيق . فقد كان هو الخديو ، وكانت له في قصره بطانة ، وكان يقرّب منه نفراً من كبار الموظفين في الحكومة ، وجماعة سرّية من الشباب الوطني ، وكانت مصر تابعة للدولة العثمانية وكان فيها جيش احتلال إنجليزي ، وكان له « نظار » وكان إلى جانبهم مستشارون إنجليز ، وكان هو الحاكم الشرعي في قصر عابدين ، وكان هناك اللرد كرومر حاكما فعلياً في قصر الدوبارة ، وكان متبوعه السلطان عبد الحميد وكانت تناوئه في الإستانة جماعة تركيا الفتاة ، وكانت إنجلترا صاحبة النفوذ الفعلي في وادي النيل ، وكانت فرنسا خصيمتها العالمية تحظى بنفوذ ثقافي وسياسي موروث في مصر وما يجاورها من بلاد ، ثم كان الاتفاق الودّي بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ ، وقد دعاهما إلى التفاهم على مصر والمصريين ومراكش والمراكشيين ، وكان الأزهر والرغبة في إصلاحه على يد الشيخ محمد عبده ، وقاضي القضاة التركي والاتجاه إلى إحلال مصري محله ، وإدارة الأوقاف والمطالبة بتحويلها « نظارة » ، وكانت مواقف الشيخ محمد عبده والشيخ على يوسف ومصطفى كامل من ذلك كله ، ثم كانت قيامة الأحزاب في منشئها : الحزب الوطني وحزب الإصلاح وحزب الأمة ، وكانت حملة السودان ، وكانت اتفاقية السودان ورفض الخديو إقرارها وانفراد ناظر خارجيته بالتوقيع عليها ، وكان خزان أسوان وكانت بورسودان والاحتفال بهما وحضور نائب ملك إنجلترا ومشكلة تقدمه أو عدم تقدمه على الخديو ، وكان المؤتمر القبطي يقوم في أثره المؤتمر المصري ، وكانت حدود مصر والبلاد العثمانية من ناحية السلوم مرة ، ومن ناحية العقبة وطابا مرة أخرى ، وكانت حادثة دنشواي وقد أطلق فيها جنود من الجيش البريتاني الرصاص على فلاحين عزل قامت لمحاكمة من نهضوا للدفاع عنهم محكمة مخصوصة قضت عليهم بالإعدام شنقا ، وكانت حركة « الجامعة المصرية » يريد المصريون أن تحقق فيهم ، ويريد الانجليز أن يعارضوها بمشروع « الكتاتيب » والمدارس الإلزامية ، وكانت حرب طرابلس ورغبة المصريين في تأييد تركيا والطرابلسيين ضد الإيتاليين ، وكان إعلان الدستور العثماني وحماسة المصريين في سبيل الحصول لأنفسهم على مثله ، وكان امتياز قناة السويس والمطالبة بمد أجله ، وكانت سكة حديد مريوط والاتجاه إلى بيعها للطليان أو لاستيلاء الحكومة المصرية عليها ، وأخيراً

كان قيام الحرب العالمية الأولى ومفاجأتها الخديو وهو يعالج في الأستانة من أثر الجراح التي أصابته ، ثم كان دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا ضد إنجلترا وحلفائها ، فكان قرار وزارة الخارجية البريتانية بعزل الخديو وإعلان الحماية البريتانية على مصر ، وكانت الحملة العثمانية على قناة السويس وانتظار أن يقودها الخديو بنفسه ، ثم كانت تصفية أملاك الخديو ومحاولته المقاضاة أمام المحاكم الدولية والمحاكم الإنجليزية ، ثم كان التفاهم على التنازل عن حقوقه في عرش مصر وحكمها ، وكان ترشيح الغازي مصطفى كمال لسموه ملكا على سوريا ومحاولة التفاهم عليه مع فرنسا .

كان عباس الثاني يجابه كل تلك المشاكل ، وكانت السياسة البريتانية تناهضه فيها كلها ، وكان عليه أن يوجه السفينة خلال خضمها المتلاطم ، وكان يحتمل في سبيل هذه المناهضة ما لا يستطيع احتماله غير الأبطال من أصحاب الهمم والقادرين على المقاومة . ولكنه كان يفيد كذلك من هذه المقاومة وتلك المناهضة ما يمكّنه من أعصابه ،ويعرّفه نقط الضعف ومواطن القوة من خصومه ، فيعالج كلا بما هو أهله . وطالما كان يقول : إنه « تعلم كثيراً من مدرسة كرومر » وقد كان يدخل عليه محتقن الوجه ، متسرع الحركة ، لا يمد إليه للسلام عليه غير طرف لإصبع ؛ فكان هو يطمئن لهذا المنظر ،ويؤمن أنه لاشك منتصر عليه ، لأنه سيعرف كيف يضبط نفسه ، أما كرومر فقد لاح غير مالك أعصابه ، وكان على العكس يتهيب المعركة التي يقابله فيها كرومر هادئاً مبتسما .

وإذا كان قد نعم بشيء من الهدوء بعد كرومر ، أيام كان السر ألدون غورست هو المعتمد البريتاني في القاهرة ، وكان العهد عهد ما سمي في ذلك الحين « سياسة الوفاق » ، فإن تلك الأيام لم تطل إذ توفي غورست وجاء بعده اللورد كتشنر ، فعاد معه النضال وعاد معه الاحتمال . وكان الخديو يذكر هذا النضال الأخير بمرارة : إذ كان هو الذي اختار « كتشنر » ليكون سرداراً للجيش المصري ورجا من الملكة فكتوريا أن توافق على اختياره . . .

على أن نضاله الذي امتازت به حياته في مصر ، قد هدأ مع الأيام وقد استحال صداقة وولاء ، بعد أن انتهى إلى التنازل عن العرش : صداقة للانجليز وولاء للجالس على عرش مصر . وقد تجلت هذه الصداقة وتجلى هذا الولاء خلال هذه الحرب العالمية الثانية ، وقد اتصل به الألمان فمنوه بأطيب الأماني ، وطلبوا إليه أن يدلي بتصريح يناوئ فيه الإنجليز العداء من ناحية ، ويعلن نفسه ملكاً على مصر من ناحية ثانية ، ويدخلها من الغرب ، فيحقق ما لم يتحقق له في الحرب العالمية الأولى من الشرق . ولقد

كانت إجابته على هذا العرض الالماني بالرفض البات قائلا : « لقد أفقدتموني عرشي في الحرب الماضية ، وأنا غير مستعد لأن تفقدوني شرفي في هذه الحرب الثانية . لقد تنازلت عن العرش وإني لعند كلمتي ، والعرش يعلوه حفيد إسماعيل وإنه لجدي » .

ولم يكن عباس الثاني عاملا طول حياته لمصر وحدها ، بل كان يعنى كذلك بشؤون سائر بلاد العربية ، وقد كانت تربطه بالبيت الهاشمي أواصر المودة منذ كان خديوياً ، وكان الهاشميون أشراف مكة . فلما كانت العربية السعودية وكان الجفاء بين ابن السعود والأمير عبدالله ، بذل الخديو جهوده للتوفيق بينهما قاصداً بنفسه في سبيل ذلك إلى عمان ، وباعثاً برسله إلى مكة والرياض . وكذلك كان على اتصال بالمراسلة مستمر مع ملك اليمن ، وباي تونس ، وسلطان المغرب ، كما كان متصلا بنظام حيدر آباد وبآغاخان .

وكذلك كان على اتصال وثيق بمن عرفهم ، أو عرف آباءهم من ملوك أوربا وأمرائها الحاليين والسابقين ، وظلت علاقته برجال الدولة التركية علاقة ودّ وصداقة متبادلين ، إلى أن وافاه الاجل المحتوم في العشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٤ .

وهذا كله إلى اتساع أفق معرفته بالناس ، على اختلاف مكانتهم الاجتماعية ، ووقوفه على تفصيل شؤونهم ، وجذبهم إليه بما كان يتحلى به من حلو الشمائل ، وجميل الخصال ، وحدة الذكاء ، وسعة المعلومات ، وحسن احتماله للآراء المعارضة ، وتقليب الأمور على عديد وجوهها ، وعدم تسرعه في الحكم على الحوادث والأشخاص ، حتى إنه كان لا يقضي أمراً قبل أن تمضي ليلة على تناوله .

وقد أنزلته مصر في السادس والعشرين من شهر أكتوبر الماضي — وهو آخر خديو بها — مثواه الأخير ، إذ أودعته ثراها الندي ، عارفة له صادق العرفان ما بذل في سبيلها من جهاد وتضحيات . وقد آلمه قبل موته أنه لم ير حفيده « عباس حلمي » بن الأمير محمد عبد المنعم الذي كان يود أن يحمله على كتفه ، كما كان يحمله هو في طفولته جده إسماعيل ، وقد شاء القدر أن تتقارب حياتهما في النضال على العرش ، وفي العزل عن العرش ، وفي الوفاة خارج مصر ثم في الدفن داخلها ، ووقوف أهل القاهرة على جانبي طريقهما إلى القبر ، كما كانوا يقفون على جانبي طريقهما إلى القصر .

ويقول المقربون لعباس الثاني في أيامه الأخيرة : إنه أملى مذكراته وأودعها محفوظاته . ولا شك أنها ستكون من أدق الأسانيد التي تعين المؤرخين على التدوين الصحيح .

محمود عزمي

التحدّي عند أسكار ويلد

ولد أسكار ويلد في « دبلن » سنة ١٨٥٦ ، فأبصر النور وعلى كتفيه الصغيرتين عبء من مثقلات الوراثة دفع به إلى مصيره المرعب ، فقد كان أبوه خليعاً مطلق العنان لمجونه ، وكانت أمه مترجلة مغرقة في ترجلها ، فاتفق الوالدان على تربية ولدهما تربية تمحو من نفسه أثر كل فضيلة ، فطرية كانت أم مكتبسة .

وشق على الوالدة أن يكون ولدها الثاني ذكراً لا أنثى ، فانتقمت لنفسها منه بأن خلعت عليه حلل النساء ، وأطلقت شعره رسْلاً على كتفيه ، وشجعه والده وهو في المدرسة على العناية بالأدب دون العلوم ، وعلى الأخذ بأدب الإغريق إلى جانب الأدب الإنجليزي ، فكان كلما أقبل عليه ازداد به تعلقاً وولعاً ، وحاول محاكاة أبطاله عظمة وسؤدداً ، وكان إذا ابتعد عن الحياة الواقعية ، فالمدنو من حياة الكتب . ثم خرج من مدرسته إلى أكسفرد وهو يعتقد اعتقاداً صادقاً أنه من غير طينة الناس ، وأن عليه رسالة يؤديها إليهم ، وزاد في صدق اعتقاده هذا نيله جائزة أكسفرد الشعرية ، فخرج بها يريد احتلال لندن .



وساعده على الرحيل ، موت أخته وأبيه وضيق أصاب أمه

فرحلت به . أما احتلال لندن فما يكون إلا في الخروج على عاداتها وأخلاقها وأفكارها ، فتزيّا بغير زيّ أهلها ، وراح يتأنق بسراويله الحرير ، وقميصه الفضفاض ، وحذائه ذي الأقراط ، ويتزين بزنبقة على صدره ، وزهرة عباد شمس في يمينه ، ويحب الظهور بهذا المظهر حب السكير شرابه المعتق ، كأنما الأناقة هي رسالته في الحياة ، وكان يتفكه في ذلك بقوله : « على المرء أن يكون تحفة فنية أو يحمل بين جنبيه تحفة فنية » ، أو قوله : « إن المظهر أول ما يجب على الإنسان أن يعنى به في الحياة ، أما الواجب الثاني فلا يعلمه أحد » .

وقد تقبل الرسامون الهزليون قدوم ويلد على لندن تقبلا حسناً ، فرضي من هزلهم بالشهرة التي أذاعوها حول اسمه ، ففتحت له أبواب بعض الأندية ، فاصطنع موهبته في الحديث ليزيد في هذه الشهرة ، ويمكن نفسه من احتلال لندن . وقد بلغ في أحاديثه مبلغ أحاديث ألف ليلة وليلة ، غرابة ودعابة ومجوناً ، حتى قال عنه أدمَر سلتر : « لو قدّر لمخلوق أن يتكلم بلغة الآلهة لكان أسكار ويلد غير منازع » . وكان يضفي على أحاديثه صوتاً غنائياً وحركات شعرية وسكنات موسيقية ، وكأنما هذه الأحاديث على روعتها ، لم تحله من لندن المحل الذي كان يرجوه ، فانقلب إلى آراء قَبُحَ بها في عيون القوم بقدر ما راقتهم أحاديثه ، وكانت كلها آراء متطرفة يعيها وينظمها ثم يلقيها إلى الناس بجرأة ما بعدها جرأة ، ليهدم كل ما تواضعوا على بنائه ، فكان يبث فيهم الفوضى ، لأن الشاعر في رأيه ، فوضوي قبل كل شيء ، ويحضهم على الرذيلة ، لأن فضولها يوسع آفاق الحياة أمامهم ، ويذيع فيهم أخبار رذائل لمّا يرتكبها ، ويأخذ نفسه بالطباق والتناقض في الكلام فيقول : « ليس الفن تقليداً للطبيعة ، وإنما الطبيعة تقليد للفن ، وعندما يجمع الناس على صواب رأي لي ، أشعر بأني مخطيء ، والكفر أول الإيمان » .

على أن ويلد لم يوفق إلى احتلال لندن ، لا بآرائه ولا بأحاديثه ، وإن طارت له في الاثنتين شهرة عظيمة . ولما ضاقت به سبل العيش وهو طالب متعة ، قصد أمريكا يحاضر عن مذهبه الجديد في الحياة ، وعاد منها ببعض المال وسراويل طويلة ، وترك فيها شعره وزنبقته وعباد شمسه . ثم رجع إليها مرة ثانية ليشهد سقوط مسرحيته الفكرية « فيرا » سقوطاً شنيعاً ، ولم يبق له من كل أمريكا سوى مشاهدات يحاضر عنها في أندية إنجلترا فتدر عليه بعض المال . وكيف يتحير في إنفاقه ، وأمامه باريس ؟ فيشد الرحال إلى مدينة النور ، ويتعرف إلى كبار أدبائها ويأخذ عنهم من أزيائهم أكثر مما يأخذ من أدبهم فيلتف بمعطف بلزاك ، ويتزين بزينة نيرون . . . حتى إذا نفد المال عاد أدراجه إلى

لندن ، ولكنه يرجع إلى باريس متزوجاً ليقضي فيها شهر العسل . وسرعان ما ينتهي هذا الشهر فيرزق الأولاد ، وتقع المسؤولية العائلية عليه وقعاً ثقيلاً .

ثم يتعرف إلى اللرد ألفرد دجلاس ، وهو شاعر في رونق الصبا فيفتح أمامه أبواب أربع سنوات من السعادة ثم ينتهي به المصير إلى قضاء سنتين في السجن محكوماً عليه بالأشغال الشاقة .

وكانت سعادة ويلد في سنواته الأربع لا حد لها ، فقد كتب فيها خير مسرحياته : « مروحة اللادي وندرمير » ، « وامرأة لا شأن لها » ، « وزوج كامل » فدرت عليه المال الوافر وسمت به إلى أوج الشهرة فاحتل لندن بالمال والشهرة .

ورحل هو واللرد دجلاس إلى إيطاليا فطوفا في بلادها ، وفتنهما جمالها ثم شاعت حول علاقتهما الشائعات ، وتقول الناس الأقاويل ، فكتب المركيز كنتربري كتاباً إلى ولده دجلاس يدعوه إليه ويهدده بالحرمان إن هو استمر على علاقته بويلد ، فرد عليه متحدياً مهدداً بالقتل ، فلما رجع الصديقان إلى لندن وعجز الأب عن ردع ابنه أرسل إلى نادي ويلد بطاقة مفتوحة حشاها بالذم والتنديد والتهديد ، فما كان من ويلد إلا أن رفع الأمر إلى القضاء ، ذهاباً منه إلى أنه إذا لم يحكم على المركيز فقد تكون الدعوى سبباً من أسباب شهرة ويلد .

ويسأله القاضي عن رسالة له إلى اللرد دجلاس ، فيجيب : « أن كل ما أكتبه وأفعاله غريب لا قبل لكم بفهمه » .

ويسأله عن قصة خليعة غفل من التوقيع : أهي له ؟

فيرد : كلا ! فيسأله : أليست خلاعية ؟ فيقول في شيء من التحدي : بل هي شر من الخلاعية لركة أسلوبها ، ثم يتحول إلى شرح نظريته فيقول : ليس في الحياة والأدب أخلاق أو خلاعة وإنما كل ما فيهما جمال وفتون ؟

— قلتَ : إن الإنسان يستطيع أن يعبد إنساناً !

— لم أعبد إلا نفسي !

— وهؤلاء الفتيان الذين كنت تغمرهم بالعطايا ؟

— إني أفضل الجلوس إلى الشباب على الجواب عن أسئلة القضاء !

وعلى أثر الجلسة خشي أصحابه عليه حكم المحكمة فنصحوه بالهرب إلى كاليه فقال : تأبى شيمتي على الهرب . وفي اليوم التالي اختفت كتبه من المكتبات ، ومسرحياته من المسارح ، ورفضت الصحف كل مقال تأييد له ، ووضعت السلطة يدها على داره وسيق إلى السجن

يقضي فيه سنتين من الأشغال الشاقة ، عاشهما متحدياً ، فلما انقضت ذهب إلى نابولي ومنها إلي الحي اللاتيني في باريس ، حيث كان المارة يرونه مترنحاً تحت وطأة الخمر والمرض ، حتى قضى سنة ١٩٠٠ .

هل أنصف الدهر ويلد ؟ . . .

لقد تحدّى ويلد كل شيء في الحياة وما أبقى على شيء ، وأنكر كل معروف وما اعترف بجميل ، وكفر بكل مذهب وما أبدع مذهباً ، من ذلك أنه كتب عن صديقه الرسام الشهير وستلر : « هو لاشك أكبر أساطين الرسامين في نظري ، وهو لاشك يشاركني في هـذا الرأي » . وقال عن زوجه : « إن الأمومة أحنت قوامها وشوهت جمالها وأنتنت فمها وماقبّلتها مرة إلا غسلت فمي وفتحت النافذة لأطهر شفتي من نتنها بنقي الهواء » . ثم نشر تاريخه « من الأعماق » فنقم على صديقه اللرد دجلاس صلته به ، فزعم أنه قضى على فنه وأنه يخجله أن يكون وضعه بينه وبين أدبه ، وامتنّ عليه بالمال الذي أنفقه في سبيله فبلغ ٢٠ جنيهاً إنجليزياً في اليوم .

وتسأله إحدى الصحف أن يقوّم لها مئة كتاب يعدّها أروع ما ظهر في الأدب فيجيبها باستحالة ذلك ، لأنه لمّا يكتب منها سوى خمسة ، وتعتب عليه إحدى السيدات تأخره عن موعد العشاء ثلاثة أرباع الساعة فيقول : « أتعتقدين أن هذه الساعة الصغيرة تدري ما تفعل الشمس العظيمة ؟ »

ويقبل دعوة أخرى للغداء ، فيطلب من ربّة المنزل أن تقفل النوافذ وتشعل الشموع وتغير أزهار المائدة وأطباقها ، لانه لا يتحمل نور الشمس ويتطير من لون هذه الأزهار .

يقول بعض نقّاد الأدب : « إن ويلد هو الذي جعل من الفن فلسفة ومن الفلسفة فناً ، وفاخر بأنه هدى الناس إلى أسلوب في التفكير جديد ، أخذ بالزخرف والزينة ، فما تحت فنه رجل أو مفكر » .

ولقد قضى ويلد نحبه وهو أشد الناس كفراً بما اعتقدوا .

ويذكر أندره جيد الكاتب الفرنسي سراً أفضى به إليه ويلد في إحدى الاماسي الهاجعة ، قال : حدثني ويلد قال : «أتودّ أن تعرف خبر أكبر فاجعة نزلت بي في حياتي ؟. هي أني وضعت كل عبقريتي في حياتي ، وما احتفظت لأدبي بغير مهارتي » .

في كفة الميزان

نشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النقد

حياة ابن الرومي وأعماله

تأليف المستشرق رفون جست
١٤٤ صفحة من القطع الكبير . لوزاك بلندن . لندن ١٩٤٤
نقد الأستاذ عباس محمود العقاد

المستشرقون طائفتان : طائفة — وهي القليلة — أقرب إلى نمط الأديب . فهي إذا كتبت في الأدب العربي عنيت بالناحية الفنية من الشعر أو الكتابة ، ونظرت في الجانب الحي من شخص الشاعر أو الكاتب .

وطائفة أخرى — وهي أكثر الطائفتين — أقرب إلى نمط المؤرخ أو صاحب اللغة والإحصاء . فهي إذا كتبت في موضوع من موضوعاتنا الأدبية جعلت همها الأكبر إلى تسجيل التواريخ وسرد الوقائع والإحالة إلى المراجع والأسانيد .

وللأديب زاد غير زاد اللغة حتى حين يكتب في آداب قومه بلسان أمه وأبيه . فمن كان عربي المولد والنشأة وافر المحصول من متون اللغة وقواعد نحوها وصرفها لا يغنيه ذلك عن سليقة الأدب وذوق النقد وملكة البلاغة حين يتصدى للموازنة بين الشعراء والأدباء ، وأحرى ألا تغنيه تلك المادة بعينها إذا كانت بالنسبة إليه مادة أجنبية يتعلمها ويتدرب عليها وهو غريب عن روحها ولبابها .

وأوجز من هذا أن نقول : إن الإنجليزي الذي لا يتذوق شكسبير وبيرون وهاردي لا يستطيع أن يحكم في أدب المتنبي وابن الرومي والشريف لأنه درس العربية وإن أجاد درسها أو قرأ تواريخ الأدب فيها وإن أطال قراءتها . ولو كانت اللغة وحدها كافية للحكم في هذه المطالب لكان الأولى بلغته الأصلية أن تهديه إلى شعراء بلاده وأدبائها ، وأن تجعله حجة في أدب اللسان الذي تكلم به من مهده وحذقه بالتلقين والتعليم .

كذلك للمؤرخ زاد غير زاد الأديب حين يتصدى للمراجع والأسانيد ويعتمد على

التنقيب والاستقصاء ، وقلما يتفق النمطان : نمط الأديب ونمط المؤرخ لكاتب واحد ، إلا أن يكون من الأفذاذ .

الرسالة التي بين أيدينا اليوم هي عمل مؤرخ موفور الزاد من موضوعه ، وهو دراسة ابن الرومي من ناحيته التاريخية ، ألفها الأستاذ رفون جست Rhuvon Guest وسماها «حياة وأعمال ابن الرومي علي بن العباس أبي الحسن ، وهوشاعر بغدادي في القرن التاسع لميلاد المسيح » وأحاط فيها إما بالنقل وإما بالإشارة إلى كل نص له علاقة قريبة بهذا التاريخ .

فذكر البلاد التي رحل إليها الشاعر ، والأمراء الذين قصدهم بالمديح أو أنحى عليهم بالهجاء ، والوقائع التي اتصلت بسيرة حياته ، والمؤرخين الذين ترجموا له أو ألموا بترجمته ، وجمع من ذلك كله « ملفاً » حاوياً للمعلومات المستطاعة ، لعله قد استقصى كل ما يودع « الملف » من هذا القبيل .

وخلاصة ما يقال في الرسالة أنها ما شئت من نصوص وإشارات ، ولكنها تتحرج بعد ذلك من كل تقدير أو تفسير كأنه حوبة في الدراسة التاريخية لا يجوز أن تلم بها الأقلام .

مثال ذلك قصة وفاة ابن الرومي التي تناقلتها الكتب القديمة والحديثة ، من ابن خلكان إلى دائرة المعارف الإسلامية التي يطبعها المستشرقون في أربع لغات .

خلاصة هذه القصة على ألسنة الرواة أن ابن الرومي « توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع وثمانين وقيل ست وسبعين » . و « أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله كان يخاف هجوه وفلتات لسانه بالفحش ، فدس له السم وهو في مجلسه ، فلما أحس بالسم قام فقال له الوزير : إلى أين تذهب ؟ فقال إلى الموضع الذي بعثتني إليه ! فقال له : سلم على والدي ! فقال له : ما طريقي على النار .. » .

وفي رواية أخرى أن عبيد الله — أبا الوزير — هو الذي أمر باغتياله حين سمع به ، ثم طلب رؤيته فاستجهله ورآه مضطرب العقل فقال : إنه رجل لا تؤمن عقاربه ، فأخرجوه !

أما سنوات الوفاة فقد أثبتنا منها سنة واحدة هي سنة الوفاة على التحقيق ، لأننا أتينا على أشعار قالها ابن الرومي بعد سنة ست وسبعين لمناسبات لا تحتمل الشك من جهة التاريخ ، ولأن سنة ثلاث وثمانين هي السنة التي يوافق فيها يوم الأربعاء ليلتين بقيتا من جمادى الأولى ، وهي السنة الوحيدة التي ذكر فيها اسم اليوم والشهر بهذا التحديد ، ويقوي هذا الترجيح كما ذكرنا في كتابنا عن ابن الرومي أننا ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الإفرنجي فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو ، أي يوافق إبان الصيف

في العراق ، وابن الرومي مات في الصيف كما يؤخذ من قول الناجم أنه دخل عليه في مرضه الذي مات فيه وبين يديه ماء مثلوج .

وأما حكاية السم فقد استبعدناها على الروايتين ، لأن الرواية الأولى يفهم منها أن عبيد الله كان قد مات حين قال القاسم : سلم على والدي . فقال ابن الرومي : ليست طريقي على النار ، مع أن أبا عبيد الله مات في سنة ثمان وثمانين ، أي بعد آخر تاريخ فرض لوفاة ابن الرومي بأربع سنوات .

والرواية الثانية لا تعقل لأنها يفهم منها أن عبيدالله لم ير الشاعر إلا قبيل اغتياله ، وهو قد عاشره وأنشده ست سنوات ، وتشفع لديه بين ولديه .

وفي هذا كله وافقنا مؤلف الرسالة الإنجليزية الأستاذ رفون ونقل ما كتبناه مشيراً في الهامش إليه .

ولكنه وقف عند باب النصوص والمقابلات الحسابية وقال : هذا مقامي . . . وعليك السلام .

لأننا لم ننف حكاية السم لنترك مسألة الوفاة بغير تعليل آخر أقرب منها إلى التصديق . فرجحنا غاية الترجيح أنه مات بالديابيطس أو مرض السكر ، وأن التسمم الذي توهمه إنما هو التسمم الذي يعرض للمصابين بهذا الداء مع الإهمال والمضاعفات .

فليس لداء السكر عرض لم يجتمع في قصة وفاة ابن الرومي كما نقلت إلينا ، لأن الناجم دخل عليه وهو يشكو من إلحاح البول فقال الشاعر :

غداً ينقطع البول ويأتي الهول والغول

ولأنه كان يشكو الظمأ الشديد فوضع بين يديه ماء مثلوجاً « فقلما يموت الإنسان إلا وهو ظمآن » !

ولأنه فُصد وفسد الجرح فقال في ذلك :

غلط الطبيب عليّ غلطة مورد عجزت موارده عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما غلط الطبيب إصابة المقدار

ولم يكن مثل ابن الرومي بعيداً من مرض السكر مع إفراطه في أكل الحلوى والدسم ، وإسرافه على نفسه في الشهوات والشراب وقلة عنايته بما يصححه ويشفيه . فإذا اجتمع الظمأ وإلحاح البول وفساد الجرح فتلك عوارض التسمم بذلك المرض ، التي يؤدي إليها الإهمال والإسراف ، ومن السهل أن تشيع حكاية السم بعد ذلك ، لما هنالك من التشابه بين هذه الحال وحال السم المدسوس ، ولما اشتهر به القاسم من سوء الطوية وسهولة الإقدام على ضروب الاغتيال .

وإنما نسوق هذا المثل لأنه نموذج صادق لما يلتزمه المستشرقون المؤرخون وما يتحرجون منه حين يعرضون للأدب والأدباء . نخذ ما شئت من نصوص وأرقام وفهارس وهوامش وإشارات ، ودع كل ما وراء ذلك من تقدير وتفسير ، أو من تخريج وتفكير.

والرسالة على هذا ، ومن أجل هذا ، قيمة في باب المراجعة والإحصاء ، لأنها تجمع للقارئ ما لو شاء أن يستقصيه لنفسه لما استوفاه إلا بالبحث الطويل في عشرات المراجع والأسانيد .

* * *

وقد كان لابن الرومي نصيب آخر من العناية في كتاب عربي ظهر منذ شهرين ، وهو كتاب « البدائع » للدكتور محمد سليم سالم الذي يرى من فصول كتابه أنه مختص بدراسة أدب اليونان القديم .

تكلم الدكتور عن أثر الأدب اليوناني في الأدب العربي فقال :

« ... هذا الأثر جاء على ألسنة الأدباء والشعراء المستعربين الذين هم من أصل يوناني أو من أمم أثرت فيها الحضارة اليونانية تأثيراً كبيراً ، كأقباط مصر مثلا ، فعند ما كتب أو شعر هؤلاء تسرب إلى لغتهم العربية كثير من الأساليب والأفكار اليونانية ، فامتزجت بنثرهم وشعرهم وآرائهم الشخصية وأصبحت جزءاً منها .

يقول ابن الرومي ، وهو يوناني الأصل :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها   يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها   لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه   بما سوف يلقى من أذاها يهدد

« ونجد في لوقريطس الشاعر الروماني نفس الفكرة . إذ يقول في كتابه عن طبيعة الأشياء : زد على ذلك أن الطفل ساعة تخرجه الطبيعة بالمخاض من رحم أمه إلى شواطئ النور ، كأنه بحار قذفت به الأمواج العاتية وهو ملق على الثرى لا يستطيع الكلام وهو في حاجة إلى كل ما يعينه على الحياة ، يملأ المكان عويلا حزيناً ، وحق له ، فقد كتب عليه أن يعبر هذه الحياة وسط شرور عديدة ».

ثم قال الدكتور وأصاب : « فهذا تشابه في الأفكار يستدعي النظر ، وقد يكون ابن الرومي يردد صدى ما اطلع عليه أو سمع بأذنيه ، ولكنا لا نستطيع أن نجزم بذلك ، ولا يستبعد أن يكون الأمر توارد خواطر ، ولكنه توارد غريب » .

ونقول نحن : إن استعارة شاعر من شاعر ليست بالأمر النادر في مقارنات الآداب

ولو تعددت اللغات ، ولكننا هنا نستبعد الاستعارة ، لأن ابن الرومي ولد من أب يوناني مستعرب وأم فارسية مستعربة ، فإذا تعلم لغة أمه فهو يتعلم الفارسية لا اليونانية ، وإذا قيل أنه تعلم اليونانية من مناغاة أبيه في صباه فهي يونانية السوق والطريق وليست يونانية الأدب والكتاب، وإذا قيل مع هذا أنه ألم باليونانية المهذبة فقصيدة لوقريطس نظمت باللاتينية ولم تنقل في زمن ابن الرومي إلى اليونانية ولا إلى العربية ، وقد كانت اللاتينية التي ينظم بها لوقريطس موصوفة بالعتق والإغراب فلا تسهل المطالعة فيها لغير المتعمقين في أدبها القديم .

وعلى هذا كله لم يكن التوليد والابتكار نادرين فى كلام ابن الرومي ، وهو أشهر شعراء زمانه بتوليداته ومبتكراته ، ولا سيما فى باب التشاؤم أو الاستدلال بالطوالع على العواقب وبالظواهر على الغيوب ، وقد استنبط المعاني المولدة من أخفى الملاحظات التي لا تتكرر في كل حين ولا يلحظها كل إنسان ، فلا جرم يستنبط المعنى ودلالاته من استهلال الوليد وهو أشيع ما يسمعه الناس في جميع الأزمان .

والأرجح عندنا إذا كان للاطلاع دخل في انتباه ابن الرومي لهذه الملاحظة أنه استفادها من بليني الأكبر لا من لوقريطس ، لأن بحوث الطبيعيات كانت أروج بين العرب من قصائد الشعراء الرومان أو اليونان ، وقد قال بليني الأكبر في الكتاب السابع من تاريخه الطبيعي : « إن الانسان وحده هو الذي يستسلم للصياح والعويل ساعة يقذف على هذه الأرض وهو عريان» .

وليس من مسوغ لهذا الفرض البعيد إلا سبق التاريخ دون غيره من فروض الاحتمال ، ويكون لابن الرومي مع هذا فضل التصرف والتصريف في معناه ، ثم يشاركه في هذا الاحتمال كل من أشار بعد لوقريطس وبليني الأكبر إلى استهلال الأطفال وهم كثيرون .

جاء في حكمة سليمان من الكتب « الأبكريفية » : إنني ولدت فاستنشقت الهواء وسقطت على الأرض التي تشبه طبيعتي طبيعتها ، وكان أول ما سمع مني البكاء كما سمع من غيري ، لأنه لم يوجد على الأرض ملك كان له استهلال غير هذا الاستهلال ، وكل الناس سواء في دخولهم إلى هذه الدنيا وسواء في خروجهم منها »

وقال ريشرد وتكنس Watkyns من شعراء الإنجليز في القرن السابع عشر : « يوم ولدت بكيت وأسيت ، وما انقضى علي يوم بعد ذلك إلا لأعلم فيه سر ذلك البكاء » .

وتتوارد الخواطر في هذا المعنى بين المشرق والمغرب كما تتوارد بين الحديث والقديم ،

فالشاعر الفارسي يقول في التهنئة بمولود : « أقبلت على الدنيا باكياً والناس من حولك يبسمون ، فعش حتى تفارقها باسماً والناس من حولك يبكون » . . وتوسون الإنجليزي يقول في موت الطفلة فيولا : « إن الأم بكت حين رحات فيولا إلى العالم الآخر ضاحكة ، وقبل ذلك ضحكت الأم حين أقبلت فيولا إلى هذا العالم باكية . . » .

ونحسب أن الغريب هو قلة المنظوم في هذا المعنى ، وليس الغريب تواتر الأقوال فيه ، ولا سيما من شاعر كابن الرومي ، لم يفته لمح طوالع الغيب من وساوس الأوهام ، فضلاً عما يطرق الأسماع والأفهام على مدى الأيام والأعوام .

عباس محمود العقاد

المسؤوليـــــة والجزاء

تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي
١٤٦ صفحة من القطع الأوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥
نقد الأستاذ إسمعيل مظهر

كررت من قبل في نقود عقدتها عن كتب أصدرتها الجمعية الفلسفية المصرية ذكر الخدمات التي تؤديها هذه الجمعية لأدبنا الفلسفي الحديث . ولا تفوتني هذه الفرصة ، فأسدي لهذه الجمعية الشكر وأضفي على أعمالها أطيب الثناء . غير أنه لا يفوتني أيضاً أن أنبه على أن بعض الظواهر التي بدت في الإعلان عن مؤلفات الجمعية قد مضت في سبيل أخشى أن تتمادى فيه ، فيصيبها هزال الدعاية الفارغة ، وتلفها مطامع الاتجار باسم الفلسفة . وذلك ولا شك أمر لا ينبغي أن تنحدر إليه جمعية فلسفية ناشئة ، نرجو أن نجني من عملها أشهى الثمرات .

ظهر كتاب « المسؤولية والجزاء » فأصبح شأنه شأن أي عمل خاص ، أصبح بعد أن عرض لجمهور القارئين ، ملكاً للناس ، أي ملكاً عاماً شائعاً ، هم يقدرونه ، وهم يزنونه ، ومعنى أنهم يزنون الكتاب ، أنهم يزنون أيضاً مؤلفه ، ذلك بأن المؤلف وصاحبه ، يضحيان فى ذمة الناس ، وفي ذمة النقد ، لا يهم فى ذلك الأمر أن تختلف الذمم ، فتختلف تقديراتها ، ذلك بأن الناقد نفسه ، يصبح أمانة أيضاً في ذمة العقل وفي ذمة الحقيقة وفي ذمة النقد ، ذلك السلطان الأعظم الذي تربع في العصر الحديث على عرش المعرفة .

تقدير الأثر الأدبي وتقدير صاحبه ، حق مطلق للناس . أما تقدير صاحب الأثر لنفسه أو لأثره ، فظلم فيه مسؤولية تستحق الجزاء . وفي إعلان نشر في الصحف نعت الدكتور علي عبد الواحد بأنه مؤلف كتاب « المسؤولية والجزاء » — و « عميد علم الاجتماع » . وفي هذا اعتداء صارخ على حق الناس وعلى حق النقاد ، وزلة نرجو أن لا يرضى بها رئيس الجمعية الفلسفية المصرية أو أحد أعضائها، احتفاظاً لها بالوقار الواجب أن يظل قائماً في صدور الناس ، إزاء جمعية تشتغل بأنبل ما تفتق عنه العقل الإنساني من صور المعرفة . وبعد فينبغي أن نجزم بأن الأدب العربي إن كان في حاجة إلى التحرر من شيء ، فإن حاجته إلى التحرر من نزعات الاتجار أبين الحاجات . كما ينبغي أن نعرف ونوقن بأن النقد قد ردّ على العقل اعتباره ، وحرره من ظاهرة التأثر بالألقاب أو بمختلف النداءات التي يلجأ إليها أصحاب الحناجر القوية في مظاهرات الدهماء .

نعقد من علمه

✡✡✡

هذا الكتاب هو الأول من نوعه في آثارنا الأدبية على ما أذكر . وموضوعه طريف ، بيد أنه واسع الجوانب ، شتيت المرامي . انحصر البحث في هذا الكتاب عن علاقة فكرة المسؤولية وما يترتب عليها من جزاء بمسائل الاجتماع . فمرحى إذن بكتاب يتناول مثل هذا الموضوع الذي رافقت الفكرة فيه الإنسان منذ أقدم عصوره فوق هذا السيار إلى الآن . لقد تطورت الفكرة في المسؤولية ، وتبع ذلك تطور الفكرة في الجزاء . وسوف تتطور الفكرة فيهما على مر العصور ، وبمقتضى ما يصيب الجماعات الإنسانية من تطور . على أن مدى التطور قد أسلم بنا إلى تحديد المسؤولية وفيمن ينبغي أن تتركز . وانتهى بالناس البحث كما انتهت التجربة إلى حصر المسؤولية في شخص تتوافر فيه صفات تجعله مكلفاً إزاء الجمعية . هذه الصفات : (١) أن يكون إنساناً (٢) أن يكون حياً (٣) أن يكون في طور معين من العمر (٤) أن يكون عاقلا (٥) أن يكون فرداً مشخصاً . هذه الصفات هي كلٌّ واحد ، إن سقطت منها صفة سقطت معها المسؤولية . فالإنسان الحي البالغ المشخص ، غير مسؤول إذا لم يكن عاقلا . والإنسان العاقل لا يكون مسؤولا إذا لم يكن في طور معين من العمر !

من هذه الصفات صفات أساسية ، ومنها تفاريع اقتضتها صور من التطور الجماعي . أما الصفات الأساسية فهي الإنسانية والبلوغ والعقل . أما أن يكون المسؤول حياً مشخصاً ، فتلك تفاريع نافية ، أريد بها أن تنفى المسؤولية عن الميت ، لأن بعض الشرائع

القديمة أخذت بمبدإ عقابه ، وأريد بالنص على أن يكون فرداً مشخصاً ، نفي للمسؤولية عن الذوات المعنوية .

فكرة المسؤولية والجزاء ترجع إلى أخص الغرائز الحيوية . فالحيوانات ، حتى الدنيا منها ، تدفعها الغريزة إلى القصاص ، والقصاص دال بطبيعته على اختفاء فكرة معينة من المسؤولية وراءه ، وفي تصرف الأطفال ما يدل على ذلك ، فالطفل الذي يخطىء في حق زميله أو يغتصب منه شيئاً هو ملك له ، مسؤول أمام صاحبه ، الذي ينزل به الجزاء ، على إفراط أو تفريط في تقديره ، بحسب ميوله وشهواته . كل هذه الأشياء تكاد تكون بديهية ، ولكن كيف نشأت فكرة مسؤولية غير العاقل ، الحيوان مثلاً ، في تقدير ذات عاقلة ، أي الإنسان ؟

لست من أصحاب القانون فأطنب في بحث النواحي الكثيرة التي حصرتها الشرائع في المسؤولية وفي الجزاء ، وإن كان نقدها ليس بالأمر العسير على من ألم إلماماً جيداً بحياة المجتمع ، ولا أميل إلى نقد النظريات التي قال بها المشترعون في المسؤولية وفي الجزاء . فذلك أمر يطول . ولكن أرغب بحكم ميولي أن أبحث ناحية غامضة من نواحي هذا البحث لم يعرض لها مؤلف الكتاب ، ولم يعرض لها ، على قدر علمي ، الأستاذ فوكونيه الفرنسي الذي اعتمد عليه المؤلف في استخلاص كتابه هذا✡. تلك ناحية البحث في نشوء الفكرة في مسؤولية الحيوان .

إن القول بمسؤولية الحيوان ليلوح أمراً عجباً في عصرنا هذا ! كائن ليس بإنسان ولا هو بعاقل ، يتخذ محلا للمسؤولية ، وموضعاً للجزاء ! ولكن الحقيقة الواقعة أن هذه المسؤولية ، إن اختفت من كل الشرائع الحديثة تقريباً ، لا تزال أمراً مقرراً عند الناس جميعاً ، وحقيقة واقعة نشهد آثارها لماماً ، ولا يفلت من موحياتها أجهل الناس ، وأعلم المشترعين ، على اختلاف بالضرورة في التقدير بين الناس بمقتضى ثقافتهم ومنزلتهم من المجتمع .

تعليل تطرق هذه المسؤولية ، مسؤولية غير العاقل ، إلى الشرائع أمر يسير ، يسير إذا تتبعنا نشوء الفكرة في هذه المسؤولية ، وعللنا نشوءها تعليلا علمياً إجماعياً . فإذا لم نقع على هذا التعليل ، فهي من أعسر وجوه البحث في روح القوانين .

نظريتي الخاصة في نشوء هذه المسؤولية وتسللها إلى الشرائع ، تنحصر في بضعة

✡ ذكر المؤلف في ص ٧ ما يلي : يتفق هذا المنهج في جملته وفي تفاصيله مع المنهج الذي سار عليه الأستاذ فوكونيه في مؤلفه القيم عن المسؤولية Fauconnet, La Responsabilité, 1920

بحوث حيوية ، ذاعت في أواسط القرن التاسع عشر ، وضع آساسها الثابتة العلامة الكبير « شرلز روبرت درون » . أول هذه الأسس العظمى نظرية الانتخاب : طبيعياً كان أو اصطناعياً أو لاشعورياً ، وثانيها بقاء الأصلح ، وثالثها أثر الوراثة في الأحياء ، وشرح هذه الأساسيات أمر يطول . ولكن مؤداها أن الطبيعة ، وكأنما لها عين بصيرة تطل بها على عالم الأحياء ، تنتخب من أفراد السلالات أصلحها للبقاء ، وأنها تنقل الصفات الفردية إلى الأعقاب في كل سلالة بعينها ، وأن الإنسان بفطرته الانتخابية جارى الطبيعة ، فكان انتخابه اصطناعياً حيناً ولاشعورياً حيناً آخر ، ومعنى الانتخاب الاصطناعي أن الإنسان ينتخب عامداً ، ومعنى اللاشعوري أن ينتخب بمجرد ميوله وفطرته وذوقه ، وليس لنا هنا من شأن بهذا النوع من الانتخاب ، بل إن قولنا ونظريتنا كلها تتعلق بقدرة الإنسان على الانتخاب الاصطناعي .

عند ما تكونت الجماعات الإنسانية الأولى زادت حاجاتها إلى استخدام الحيوان ، فعمدت إلى إيلافه ، ليكون لها من جلوده ولحومه وعضلاته سكن ورزق حسن ، غير أن الطبيعة بحكم بصيرتها الانتخابية قد زودت الحيوان بمجموعة من الصفات الجسمية والغرائز جعلتها مجالاً يعمل فيه الانتخاب الطبيعي . فالأفراد التي تكون بطبعها أقدر على احتمال الجوع هي أقدر الأفراد على البقاء في مجاعة ، وذوو المخلب الفاتك والناب الجارحة أقدر على الصيد ، وذوو الحيلة والخداع أقدر على التخلص من المآزق الحرجة . وهكذا ربّبَت الطبيعة في الحيوان من الصفات ، ما عمل الإنسان عند إيلافها على القضاء عليه ومحو آثاره لتكون رفيقاً نافعاً في مجتمع أفراده من بني البشر ، فالانتخاب الطبيعي من ناحيته ربّبَ في الحيوان صفات لا تأتلف مع حاجات الإنسان الاجتماعية ، والانتخاب الاصطناعي من ناحية أخرى قد حدا بالإنسان إلى أن يربب في الحيوان صفات تقضي على الصفات التي رببتها فيه الطبيعة ليصبح جديراً بالحياة الاجتماعية البشرية، هذا هو الموقف الحيوي الذي وقفه الإنسان إزاء الطبيعة في إيلاف الحيوان . أرادت الطبيعة أن تبث في الحيوان كل مقومات الحياة في بيئة طبيعية ، وأراد الإنسان أن يبث في ما يؤلف من حيوان كل المقومات التي يحتاج إليها في مجتمعه ، ولقد بالغ الإنسان في انتخابه الاصطناعي مستعيناً بعنصر الزمان وتلاحق الأحقاب ، حتى حرم بعض الضروب الحيوانية سلاحها الأول الذي نشّأه الانتخاب الطبيعي ، بحيث جعل ارتدادها إلى الحالة الوحشية الصرفة أمراً مستحيلاً ، ولم يقتصر على أن يحرمها سلاحها ، بل إنه بدّل من غرائزها الثابتة ، فلو أننا جمعنا اليوم جملة من الحيوان الأليف كالأبقار مثلا وتركناها

في مجهل من مجاهل أفريقية الوسطى ، لـكان نصيبها الانقراض المحتوم في بضع ساعات .

إذا أردت أن تتبـصّر هذه الحقائق فانظر كتاب « درون » «أصل الأنواع »[١] وكتابه « الحيوان والنبات في الإيلاف »[٢] . وفي تضاعيفهما تقع على السبب في نشوء فـكرة المسؤولية والجزاء إزاء الحيوان .

بأية من التأملات الفلسفية نعلل نشوء هذه الفكرة ؟ لم يجل في رأس الإنسان البدائي عندما شرع يؤلف نوع الكلب مثلا ، أية فـكرة في مسؤولية أو جزاء على الصورة التي ندركها اليوم ، وإنما أتصور أن الفكرة تدرجت على الصورة الآتية : شعر الإنسان بحاجته إلى الحيوان . فقد أ كل لحمه ، ولـكن بالصيد الذى يقتضي كداً ونصباً وسعياً ، فهل يمكنه أن يحصل على حيوان يعيش معه وينتفع بلحمه ولبنه ، بحيث يكون محرراً من طبائع الدفاع عن النفس التي ثبتتها فيه الطبيعة بحكم الانتخاب الطبيعي ؟ اتضح له أن ذلك ممكن بما تبين له من اختلاف طبائع الحيوان ، فإن أفراده تختلف وحشية ودماثة ، ونفوراً وتقرباً ، وقوة وضعفاً ، إلى غير ذلك . وإذن فعلى البدائي أن ينتخب من هذه الأفراد ما تتوافر فيه الصفات التي يطلبها ، أو بعض هذه الصفات ، ومن ثمّ أخذ يزكي هذه الصفات وينميها ويربها بالانتخاب الاصطناعي الذي قضي عليه أن يفني كل الأفراد التي تتصف بصفات غير مرغوب فيها ، والإبقاء على كل الأفراد التي تتوافر فيها صفات تنفعه . وعلى هذا يكون نشوء فـكرة مسؤولية الحيوان راجعاً إلى فـكرة من المنفعة مؤيدة بضرب من الانتخاب ، وإذن تكون مسؤولية الحيوان ظاهرة تترجم عن نوع من الاعتداء على المنفعة التي ينشدها الإنسان .

ورثت هذه الفكرة ، وتدرجت مع الإنسان أحقاباً حتى تطرقت إلى الشرائع . عند ما أصبح للانسان شرائع ، فالكلب الذي لا يحسن حراسة القطيع رِحمْلٌ يجب التخلص منه . والثور الثائر الذي يعتدي على الإنسان يجب قتله ، فينتفع بلحمه ويتقى تناسله . ومسؤولية الكلب أو الثور في هذه الحالة مسؤولية بالواسطة لا بالأصالة ، ذلك بأن الفكرة فيها تختفي من ورائها المنفعة التي ينشدها الإنسان ، وظروف هذه الحالات جميعاً مفصلة في كتاب « الحيوان والنبات في الإيلاف » فهو مرجع من المراجع الهامة للاستزادة والتفصيل .

---

(١) Origin of Species

(٢) Animals and Plants under Domestication

كل الشرائع التي ذكرها الدكتور مؤلف الكتاب تؤيد نظريتنا هذه تأييداً كبيراً . ونشوؤها ولا شك يظل غامضاً إذا لم تتخذ هذه النظرية سبيلا إلى تعليله .

انظر ما جاء بالصفحة ١٣ : إذ يقول المؤلف : « فأحياناً كانت تقع عليه (الحيوان أو النبات أو الجماد) المسؤولية لعمل أحدثه أو كان من أسباب حدوثه ، وأحياناً كانت تقع عليه لعمل لابسه في صورة ما بدون أن يكون له دخل في إحداثه ، وأحياناً كان يؤخذ في نطاق المسؤولية الجمعية مع أفراد الأسرة التي تملكه لجريرة ارتكبها بعض أفرادها ، وأحياناً كان يتواضع على إنزاله منزلة المجرم فتتجه نحوه هو جميع إجراءات المسؤولية والجزاء » .

ويقول في ص ١٤ : « إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة ، وأفضى ذلك إلى موت النطيح ، وجب رجم الثور ، وحرّم أكل لحمه ، ولا تبعة على مالكه إذا لم يكن الثور معتاداً النطح ، فإذا كان ذلك من عادته وأنذر الناس صاحبه ، فلم يعبأ بإنذارهم ، وأهمل رقابته حتى تسبب في هلاك رجل أو امرأة ، كان جزاء الثور الرجم وجزاء صاحبه الإعدام » .

إذا أردنا أن نترجم هذه العبارات بلغة الرجل البدائي الذي لم يعرف شريعة ولا قانوناً ترجمناها بما يأتي : أيها الثور النطاح إنك لا تصلح للإيلاف فلا ننتخبك للبقاء ، وأنت يا صاحب هذا الثور لم تحسن انتخابك فأنت مفرط في العرف الأعظم للجمعية ، فلك ولثورك الموت ! إذا نسينا حالات الإنسان البدائي ، نسينا معها هذه اللغة ، وصُغنا المعنى في الصورة التي عرفتها الشرائع ، وهذا هو الأمر الواقع .

نقل المؤلف عبارة عن قوانين أفلطون تؤيد ما نذهب إليه بصورة قاطعة وهذه هي عن ص ١٩ :

« إذا قتل حيوان إنساناً كان لأسرة القتيل إقامة دعوى عليه (على الحيوان) أمام القضاء ، ويختار أولياء الدم القضاة من المزارعين ، ولهم أن يختاروا منهم أي عدد يشاؤون . وفي حالة ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصاً وإلقاء جثته خارج حدود البلاد » .

كلام تام الوضوح . فالحيوان الذي يقتل إنساناً سيء الغريزة ، فلا ينبغي أن يتكاثر نسله ، ولا ينبغي أن ينتخب من سلالته شيء ، أما أن يكون المحلفون من المزارعين ينتخبهم أولياء الدم ، فذلك كلام أوضح ، ذلك بأن المزارعين هم أقدر الناس على تقويم الصفات التي ينبغي أن تتوافر في حيوان ليكون أداة للانتخاب من سلالته ،

أما إلقاء جثته خارج حدود البلاد ، فتمثيل يقصد به المبالغة في تحقير صفاته التي لا تلائم حاجات جمعية بَشرِيَّة .

الشعب اليوناني الذي لم يترك من صور الفلسفة والأخلاق شيئاً إلا أحصاه ، يحاكم ثوراً ويحكم عليه بالقتل قصاصاً ويلقي بجثته خارج حدود البلاد ! أشياء متناقضة جد التناقض ، بل هي متنافرة أشد التنافر ، فإذا رجعت إلى السبب في نشوء هذه المسؤولية وتتبعت تاريخها البدائي ، زال التناقض ، وذهب التنافر ، وأصبح العمل منطبقا كل الانطباق على حاجات الجمعية .

***

عجيب أن يكون للحيوان محاكم يحاكم أمامها ! وأعجب من هذا أن يكون للنبات والجماد مسؤولية يترتب عليها الجزاء ! ولكن لا المؤلف ولا فوكونيه أستاذه ، زودانا بعلة لهذه الظاهرة العجيبة ، والعلة عندي بسيطة وظاهرة ، وترجع تحقيقاً إلى اعتقاد البدائيين ، واعتقاد كثير من أرقى الأمم القديمة مجاراة لهم ، إن لكل شيء روحاً يتقمصه، فللنبات روح وللحيوان روح وكذلك للجمادات ، ألم يعبدوا الحجر والشجر والحيوان ؟ فكيف لا يكون لما يُعبَدُ روح ، وكيف لا يكون لروح مسؤولية ، وكيف لا يكون لمسؤولية جزاء ؟

إذا أردت أن تتبصر هذا فارجع إلى كتاب « هربرت سبنسر » الذي سماه «علم الاجتماع الوصفي»* فإنك واقع في كل صفحة من صفحاته على ما يؤيد هذه النظرية ويثبتها ويدخلها دائرة العلم الصحيح .

اسمعيل مظهر

أومن بالإنسان

تأليف الأستاذ عبد المنعم خلاف

٢٥٧ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ سيد قطب

هذا الكتاب محاولة قوية لبث روح الإيمان بالإنسانية ، والرجاء في مصيرها البعيد ، والتفاؤل بمستقبلها الموعود ، والثقة في ضميرها ، وفي عناية القوة الإلهية بها ، وتمجيد الكائن الإنساني ، وبيان أنه مقصود لذاته ، وللمهمة العظمى التي ندبته لها العناية الكبرى . فلم يكن مجيئه إلى هذا الكون فلتة غير مقصودة ، ولم يكن خط سيره رهيناً

* Descriptive Sociology

بالمصادفات العمياء ، وإنما هنالك وظيفة لا يؤديها سواه ، وهي وظيفة ملحوظة سامية ، يرقى إليها أفقاً بعد أفق ، حيث تنير له العناية طريقه المحوط بالأشواك ، وحيث توصوص له على بعد أنوار تهديه إلى الأفق المترامي المكنون .

ومن هنا كل قيمة الكتاب سواء اتفقنا مع المؤلف في أسباب إيمانه الإنساني أم اختلفنا ، وسواء وافقناه على النهج الذي رسمه لبلوغ الآفاق المرموقة ، أم كان لنا نهج سواه .

والمؤلَّف الذي بين أيدينا ليس كتاباً بالمعنى المفهوم من لفظ « الكتاب » ، ليس فصولا منسقة تتبع « تصميما » خاصاً ، إنما هو مقالات متفرقة نشرت في أوقات متباعدة بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٥ ، ولكن روحاً واحدة تشيع فيها ، وتؤلف بينها ، فتجعل العنوان « أومن بالإنسان » خير تلخيص لاتجاهها بوجه عام .

ويستمد المؤلف معظم أسباب إيمانه بالإنسان من مقدرته على كشف أسرار الطبيعة في العهد الأخير ، ومشاركته هذه الطبيعة في التكوين والتنويع ، ويرى أن خطواته الأخيرة في هذا المجال تعدل بل تسمو على مجموع خطاه منذ فجر الإنسانية إلى هذه القرون الأخيرة ، وأن هذه الفتوح العامية بدء مرحلة جديدة في تاريخ الإنسانية . وأن هذه الخطوة الأخيرة ينبغي أن نتخذ منها دليلا جديداً على الإيمان بالإنسان ، كما أنها دليل على الإيمان بالله رب هذا الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض ، دليل مادي ملموس يرقى على كل الأدلة التي لاحت للإنسانية في تاريخها الطويل، وهو شديد الإعجاب بالحضارة المادية إلى حد الافتتان .

ولكن مالي لا أدع للمؤلف نفسه شرح فكرته في دور « التعريف » بالكتاب ؟ فقد يكون هو أقدر من سواه على القيام بهذه المهمة !

« هتفت : "أومن بالإنسان" استجابة لنداء الحياة ونداء النفس . فقد نادتني الحياة الإنسانية الراهنة الزاخرة إلى الإيمان به وبمستقبله رغم إثمه وشره في عصره هذا ، وحملتني على ذلك بنبوتها ومعجزاتها ، والحياة المدنية الحالية نبوة ! نبوة شيوعية . . . أخذت جميع أمم الأرض بمعجزاتها ، وأخضعت أعناقهم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعة ، فلنعرفها على حقيقتها ، ولنعلم أنها باب الملكوت الذي وعدت به رسالات الشرق الأولى التي وجهت الإنسانية » .

« إنها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائق الأشياء وبراهينها ، لا نبوة الإرشاد والتربيب والكلام الذي ألقاه الرجال الآباء في سمع الإنسانية وهي في أدوار تكوين

وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والإخلاص والإيمان ، وسمو النظرة إلى الإنسان في حياته هنا وفي مصيره هناك ، وهي صفات لابد منها في المهود والمدارج » .

. . . « وحينما فجأتني صيحة هذه الحرب الفاجرة الجبارة ، التي تدور طواحينها الحمراء على جماجم الإنسان ، وتذرو فيها رياح النارمدنه. وآثاره العامرة بالجمال والحرمات. ويحيلها خرائب وأطلالاً تعمرها أشباح الهول ، وتتساقط على المصارع في صيحات وصعقات نكراء ترسلها أفواه وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة والطائرة . زلزلت فجأتها وفجراتها وجرائمها دعائم يقيني وعقيدتي في ذلك الجنس وأملي في مستقبله » .

« ولكني عدت وقلت لنفسي : هل يمكن أن يفعل مثل هذه الأفاعيل لو كان يدرك نفسه ، ويؤمن بها ، ويعلم مدى ما يريده رب الحياة منه ، حين أخرجه إلى الأرض ، وجعله خليفة يخلفه خلافة واسعة في عمارة الحياة وكشف أسرارها ومحاكاة نماذجها وإفساح مداها ؟ » .

. . . « فلا يحملنا واقع الحياة السيء على الكفر بها في نصابها الأعلى من الجمال والصلاح والكمال الذي يوصي به الحق والفن الرفيع والمثل الأعلى الذي يملأ مخيلاتنا ويثير أرواحنا : ذلك الذي يدل على أنه من الممكن أن الله شغل به أحلامنا وكلفنا السعي إليه ، فلو لم يكن ممكناً ما كلفنا إياه ، ولا شغل به أرواحنا ولا أودعه إلهامنا » .

. . . « ولنستعرض تاريخ الإنسان على هذه الأرض لندرك مدى مركزه فيها ولنعطيه من تاريخه مصباحاً يرى به نفسه : إن الله أسلمه الأرض وليس فيها شيء معقد التركيب غير الأجسام العضوية الحية ، وهي أجسامه وأجسام الحيوان والنبات ، أما الجوامد فأسلمها إليه بسيطة في صورها الأولى وخاماتها البكر ، فما زال يدور حولها ويعبث بها وينبش ويخرج أسرارها واحداً بعد آخر ، حتى حدثته أخبارها ، وأخرجت له أثقالها ، ووضعت بين يديه أجنتها وعيالها . . . واستفاد من تجاربه فيها عقله وحكمته — والعقل هو حفظ التجارب والحكم بمقتضاها — وعلمه ووثائق سيرته ومرونات فكره » .

. . . « وإني لأستعرض أعماله في الطبيعة منذ أن كان هائماً لا سقف له يصنع من ورق الشجر ستاراً لسوأته ، ويتخذ من الحجر خنجراً لسطوته ، إلى أن صنع لباسه الأوربي المعقد المنوع المزين الملون ، وصنع بيته من ناطحات السحاب ، وآلات سطوته من الطوربيد و " سلة مولوتوف " والقنابل الطائرة ودبابات " شرشل " ،

ومراكبه من الحصون الطائرة ، واستوعب جميع أجزاء الآلات المعقدة في رأسه مثل تركيبها بمساميرها وحذافيرها . . . وصنع له مجاهر ومقربات يقرب بها مشاهد السموات والسدم ، ويحلل عناصرها ، ويكبر بها مناظر الجراثيم ، ويقيس بها الخلايا ، ويحكم بها على كل أولئك حكماً صحيحاً خاضعاً لمقاييس الحس والفكر . . . أستعرض أعماله هذه ، فأراه بعد ذلك روحاً نامياً في ذاته ، ومنمّـياً للطبيعة وصورها وأشكالها كذلك » .

... « إن شئت فقل إن الإنسان أشبه بمجهر تمر من خلاله الطبيعة الأرضية بخصائصها التي كانت " غيباً " مستوراً قبل ظهور هذا النوع ، فتتساقط على عينيه أنوارها وظلماتها ، وعلى سمعه نغماتها وأصواتها ، وعلى خياشيمه عطورها ونغماتها ، وعلى ملابسه نعوماتها وخشوناتها ، ويقع على إحساسه العام ثقل المادة وصعق الكهرباء وشد الجاذبية ، وتمر على فكره معاني الوجود ومعاني العدم .... ثم يترجم كل هذه الكلمات الصامتة بكلمات ناطقة من بيانه الذي اختصه به بارىء الطبيعة . . . فكل شيء في الطبيعة الأرضية كان لابد أن يمر من حواس هذا النوع وفكره ليأخذ حدوده ومميزاته ، ويرمز إليه بكلمة بيانية يضعها خليفة الله في الأرض ، وإذا صح ما أثبته تحليل ضوء العناصر، من أن العناصر التي في النجوم والكواكب هي بعينها العناصر التي في الأرض، كان في هذا زيادة في النظر لقيمة الإنسان كمترجم ومحدد لعناصر الطبيعة في غير الأرض أيضاً » .

... « ولست أدري متى يفيق الإنسان لنفسه ويعنى بوضعه وتحولات حياته كما يعني بمستقبل المواد والقوى ، ويربط ما بينه وبين الله مفيض الفكر والحياة ، كما يربط ما بين نفسه وأجزاء الأرض . . . » .

... « إن الاستسلام لغيبوبة الحياة الآلية ضياع وتطبع بطبع الحديد البليد الأعمى الدائر في غير وعي ولا إحساس ، وأخوف ما يخاف على الإنسان أن يترك هكذا فريسة وضحية للآلات والماديات ، يعيش معها وحدها ، ويقدم لها وقودها إلى أن يفنى وقود حياته هو وينطفىء مصباحه ويذهب إلى ظلمة القبور بدون بصيرة روحية منيرة يسعى نورها بين يديه في العالم الباقي غير المنظور » .

« وعلى هذا ينبغي أن تنشط في الناس دعوات إلى الإحساس بالنفس واليقظة الدائمة لها وتزكيتها والرفع من قيمتها ، وهذا لا يكون إلا بالدين والفن الرفيع : الدين العقلي الطبيعي المبني على إسلام النفس لله البارىء وللطبيعة الأستاذة ! والفن الرفيع الذي يخلق جواً يحضر للقلب بعض المعاني الغائبة التي تُري الإنسان وضعه الممتاز الفريد الطليق

وسط ما في الكون من المواد والقوى والمخلوقات السجينة . . . تلك المعاني التي تتراءى وراء ذوي البيان النظيف وألحان ذوي الأصداء البعيدة ، وعيون ذوي الصفاء والإدراك » .

. . . « لقد صارت الحياة المادية بما أدخله عليها العلم والفن قيمة جداً تحمل على الثقة بالإنسان كعامل عظيم من عوامل التكوين والتنويع التي في يد الله . . . فيقبح جداً بالإنسان أن يترك نفسه تحت تأثير الغرائز العنيفة والحماقات القديمة التي تحمله على تدمير تلك الحياة المادية القيمة » .

. . . « ويخيل إليّ أن العالم الغربي — وخاصة الأوربي — على استعداد لأن يسمع كلاماً جديداً غير ما ألفه في السياسة والحياة والاجتماع ، ونحن — سكان الشرق الأدنى والأوسط — أقرب المجموعات البشرية — إلى المجموعة الأوربية ، وأدناها منها مزاجاً وروحاً ، ومثلنا العليا في الدين والخلق والاجتماع قد انتقلت إليهم ودانوا بها حقباً طوالاً من الزمان . فمن غير الصعب أن يستمعوا إلينا ، ولكن على شرط أن نكون مخلصين في دعوتنا ، محترمين لأنفسنا مؤمنين بما عندنا ، نقول لهم بأسلوبهم وعقليتهم في غير زهو ولا تعصب ، وإنما بتقديم مودة وشعور رحمة ، لهؤلاء الذين نفعونا وخففوا آلامنا بجهادهم المادي ، وسهلوا لنا سبل الحياة بالجسم » .

« ونحن ورثة إبرهيم وموسى وعيسى ومحمد . . . أولئك الآباء الذين عذبوا في سبيل الإنسانية ، وقدموا لها وهي في مهد حياتها رسالات الروح والخلق ، نستطيع أن نقدم شيئاً من ميراثهم في الهدى ، وإلا كنا غير جديرين أن نكون سكان ديارهم وأقرب الناس إلى فهمهم » .

..، « إن الشعوب الأوربية قد شربت من الدم والوحل حتى بشمت وزهدت . وتريد أن تسمع صوتاً يفتح لها حديث الرحمة والحب والتعاطف بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها . . . » .

. . . « الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ، ونود أن نقدم لهم عبقرية الروح ، وأن نريح أرواحهم كما أراحوا أجسامنا » .

* * *

في هذه الفقرات التى اقتطفتها من مقالات شتى — وإن حسب القارىء أنها مقالة متصلة — تعريف كاف بفكرة الكتاب وبطريقة تناولها ، وطبيعة تأليفه كذلك كما أن فيها تصوراً لطريقة الأداء ولأسلوب المؤلف ، وذلك ما قصدت إليه منها .

وقد عرضت فيها المواضع التى تصور فكرة الكتاب في عمومها ، وإن كانت

هنالك مواضع أخرى — جاءت في السياق — لو استعرضتها هنا لبدا في بعضها شيء من التصادم مع فكرة الكتاب المبسوطة هنا ، ولاستوجب بعضها تعليقاً عليه يخل بالسياق ويقطع التسلسل ، لذلك آثرت أن أؤجل هذا كله إلى مكانه المناسب ، في قسم النقد لا التعريف .

لا شك أن للقضية التي يبسطها المؤلف قيمتها ، وأن للدعوة التي يدعو إليها وجاهتها . والحق أنه بسط قضيته في قوة ودقة ووضوح ، لم تعطل منها أناقة التعبير البادية في كل موضع من الكتاب . والحق كذلك أن هذه الدعوة جديرة بأن تستمع إليها الإنسانية المعذبة الغارقة في الوحل والدماء ، فلا تغرق نفسها في ضجة الآلات كما هي الآن صانعة ، بل تحاول أن تفتح في شعورها ينابيع روحية أخرى . وتلك زبدة الدعوة التي يدعو المؤلف إليها — على طريقته الخاصة — فمن وراء المادة القدرة على الإبداع فيها ، ومن وراء هذه القدرة التسبيح للخالق الأعظم الذي أودعها ذلك المخلوق الفاني الخالد ، الفاني بجسده وأجله الفردي المحدود ، الخالد بخلاصة أفكاره وإبداعه في الوجود ، ومن وراء هذا التسبيح للاله الواحد الشعور بقداسة مخلوقه المفضل — الإنسان — واحترام هذا الإنسان في كل فرد من أفراده ، والعمل على أن يبلغ الآفاق التي قدرها له بارئه وأن لا يتردى في الرذائل والشهوات والأحقاد والجهالات التي تغض من قدره ، وتعوقه عن الوصول إلى الآفاق التي أرادها له رب الوجود .

هي سلسلة متصلة الحلقات ، من أمسك بطرفها — على هدي وبصيرة — أسلمته كل حلقة منها إلى تاليتها ، حتى تسلمه الحلقة الأخيرة إلى الفردوس الموعود في عوالم المثل الأعلى . . .

ومن هنا قيمة هذه الدعوة ، وإنها لقيمة كبرى .

***

ولكن هنالك أشياء تختلف فيها وجهات النظر ، فلنستعرضها :

التكرار ظاهرة ملحوظة في كتاب الأستاذ خلاف ، تكرار الأفكار وتكرار التعبيرات ، ولعل منشأ هذا هو أن الكتاب كما قلت مجموعة مقالات كتبت في أوقات متفرقة ، وأنه ليس هنالك « تصميم » معين للكتاب ، ثم لعل هناك سبباً آخر هو طبيعة هذه المقالات ، فهي أشبه ما تكون بدعوة جديدة ، تبلغ حماسة صاحبها لها مبلغ الشاعرية ، فهو يتأنق في أدائها ، ويكرر مقاطعها ويعيدها في صور من التعبير شتى !

ولعل هذين العاملين هما كذلك علة بعض التناقض بين الدعوات المختلفة التي

تتألف منها الدعوة الكبرى ، وذلك حسب مزاج الداعي في كل فترة من فترات دعوته !

فأنت فى بعض المواضع — كما في إحدى الفقرات التي نقلتها سالفاً — تحس أنه يجعل الفن الجميل واحداً من مقوّمات النفس الإنسانية وعاملا أساسياً من عوامل تربيتها وتنمية مقدراتها ووصلها بما يغيب عنها من معاني وجودها الكبرى، ولكنك تراه في بعض المواضع يزري باللمحات الشعرية كما يزري بالسبحات الوجدانية والفكرية المجردة ، ويعدها على هامش الحياة الإنسانية أو يراها أثراً من آثار الطفولة البشرية ، أو تزجية للفراغ لا تنمي الحياة ولا تضيف إليها شيئاً ، ذلك حين يقول :

« ويخيل إليّ حتى درجة الظن . . . أن فكر الإنسان لا يجدي عليه شيئاً إلا حين يتجه إلى فتح جديد في عالم أخلاقه ، أو فى عالم المادة للانتفاع بها وكشف خصائصها ، ولقط أسرارها، واستخدامها ، وأنه ماوضع في الحياة وضعاً أصيلا إلا في هذين الموضعين » .

« فمعرفته بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوي الذي ليس فيه عقبات وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقابيل الطفولة ، وتفرغه للعمل المثمر الدائم في المادة . ومعرفته بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها وتنتج له بركات من السماء والأرض وترقيه وتفرغه للعبادة بالفكر والعمل ، أما فترات التفلسف النظري والهيام وراء البدوات والفروض فتلك لا محصول وراءها ، أو هناك محصول ضئيل » .

أو حين يقول عن الإنسان المهدد بالموت :

« ماذا تريدون أن يفعل إذن ؟ أتريدونه ينام حالما يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب إنسانية الشرق المضيعة ؟ أم تريدون أن يجلس فارغاً ينتظر الموت وينشد الأشعار ولهو الأحاديث » .

فلا يرتفع الشعر في نظره عن الحشيشة والأفيون ولهو الأحاديث ! !

وتغلب على المؤلف فتنة جارفة بالحضارة المادية — وإن كان يريد أن يتخذها أداة لإيقاظ الشعور بقيمة الإنسان الذي صنعها وللايمان بالله الذي أقدر الإنسان عليها — ولكن هذه الفتنة تظل بارزة ، وحسبه أنه في تمجيده للانسان يكاد ينسى كل ينابيع عظمته النفسية ، ليدق دقاً متواصلاً على معجزاته في عالم المادة ، ولا يكاد يشير في هذا المجال إلى أشواقه الروحية وأحلامه في الرقي منذ نشأته الأولى إلا إشارة عارضة تغرق بين عشرات الإشارات القوية إلي مقدرته الصناعية .

إن نشيد الإيمان بهذا الإنسان لتتألف معظم مقاطعه في كتاب الأستاذ عبد المنعم من الإعجاب بما بلغت يداه ، ولقد كان هذا النشيد يكون أرفع وأقوى لو تألفت مقاطعه

كذلك من الإعجاب بأشواقه التي تشير إلى ما هو مقدر له في عالم الغيب من الآفاق، وأحلامه التي تعبر عن المذخور في طبيعته من الطاقة، ولو ضمت إليها كذلك مقاطع عن نزعاته الفنية وعن لحظاته الوجدانية: عن أغانيه وأناشيده، وعن ألحانه وموسيقاه التي يعبر بها عن أشواقه حين تتسامى على الألفاظ، وعن روائعه الفنية في التصوير والنحت، وعن كل ما هجس به خاطره أو انتظمته مقاطعه، أو خطته يداه.

وحينئذ كانت تلتقي في النشيد بدائع المادة الجامدة، وبدائع الفن الرفيعة، وأشواق النفوس الحالمة، وخطرات الوجدان المرفرفة، فيكون التعبير كاملاً عن عظمة هذا المخلوق الإنساني العجيب، الذي تنفسح نفسه لشتى الاتجاهات في آن.

إن الأشواق الحبيسة، والأحلام الطائرة، والخواطر المرفرفة والتأملات السابحة لا تقل في دلالتها على عظمة هذا الإنسان وتعدد جوانب نفسه وترامي آفاق طاقته عن أعظم المخترعات وأضخم الآلات، ولكنها في حاجة إلى نظرة رحيبة تدرك ما في النفس الإنسانية من طاقات متعددة المظاهر متوحدة الأصول، وكلها أصيلة في كيان الإنسان.

والمؤلف يريد من الشرق أن يحمل المشعل للغرب لينقذه من بلادة الحديد وقسوة الآلات، ويرده إلى حياة شاعرة بما لها من قيمة ومعنى أكبر من الآلات والماديات.

وأخشى أن لا تكون الفتنة بالحضارة المادية — مهما يكن وراء هذه الفتنة من تنبيه إلى قيمة الإنسان — هي الطريق القويم لإيقاظ روح الغرب المادية ... فما نزيد — في ظاهر الأمر — على أن نقدم لهم إعجابنا بما أبدعته أيديهم في عالم المادة ... وأيًّا ما كانت دعوتنا الكامنة وراء هذا الإعجاب فإنها لن تهز أولئك الغارقين في ضجيج الآلات.

إنما طريقنا إذا استطعنا — أن نبشر بحضارة روحية مستمدة من صميم اتجاهنا الروحي الأصيل، يعلو صوتها على صوت الآلات، فتكون كفيلة بإنقاذ الغارقين في ضجيج المادة وصخب العجلات!

طريقنا أن نؤمن بأنفسنا، أي أن نؤمن باتجاهاتنا الروحية الخالصة، وبما في الشرق من طاقة روحية مذخورة، تستطيع لو أحسن توجيهها وتنقيتها من الخرافة والجهل أن ترد العالم إلى يقين بعظمة النفس الإنسانية في ذاتها، لا بما استطاعت أن تبدع في المادة وحدها.

... تستطيع أن تهب الإنسانية المعذبة العطف والحب والسلام، بعد أن عجزت الحضارة المادية عن هذه الهبة، ذلك العجز الفاضح الذي لا بد أن نحسب حسابه ونحن نحصي مباهج هــذه الحضارة. فقيمة الفتوح العليمة إنما تقاس قياسها الحقيقي بمدى

ما توفره للبشرية من السعادة ، فهي وسائل لا غايات ، والبشرية تنأى عن السعادة كل يوم وتشقى !

إن هتافا روحياً يغفل بدائع التصوير وروائع الشعر وألحان الموسيقى وسائر الأشواق والخطرات ، لهو هتاف خافت ، كالطائر المقصوص الجناح ، لا يحلق في الآفاق ، ولا يملأ شعاب النفس ، ولا يهز مشاعر الإنسانية .

وأين يا ترى تلقي البشرية بروائع الفنون كلها ، وبتأملاتها المجردة ، وسبحاتها المرفرفة ... تلك الذخيرة الضخمة التي ذخرتها الإنسانية في وطابها على مدى الأجيال ؟ أتلقي ذلك كله إلى العدم ، أو تنظر إليه نظرة الساخر من طفولة مرت ولا رجعة لها بعد بلوغ الرشد ؟ وأي رشد هذا الذي يغلق جوانب النفس إلا من ابتكار في الطبيعة يبعثه العلم ، أو اهتداء في السلوك يبعثه الدين .. حتى العقيدة الدينية لا يراها المؤلف إلا من ناحيتها العملية : ناحية التوجيه الخلقي ، ولا يقيم وزناً لجانبها المشرق الروحاني إلا في النادر القليل !

إن في كل عقيدة قسطاً أصيلا من الفن ، تملأ به جوانب النفس التي يملؤها الاتجاه الخلقي وحده ، لأنها أكبر من كل اتجاه عملي فريد .

عيب هذا الكتاب « أومن بالإنسان » أنه يغلق جوانب النفس فما عدا ابتكار علمي أو اتجاه خلقي ... ولكنه بعد هذا يؤدي دعوته على طريقته أدق أداء وأوفاه . فإذا خالفنا مؤلفه في آفاق النظر فإننا لنوافقه في اتجاه النظر ، وهو — على أي حال — ثروة فكرية وثروة أدبية في آن .

سيد قطب

التعريف

حديث الأربعاء

تأليف الدكتور طه حسين بك

الجزء الثالث ٢٦٠ صفحة من القطع الكبير . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٥

هو قسم من المقالات التي كان ينشرها الدكتور طه حسين بك في السياسة الأسبوعية يوم الأربعاء من كل أسبوع ، بعنوان « حديث الأربعاء » وكانت تثير جدالاً بين الأدباء ، عنيفاً أحياناً ، ورقيقاً أحياناً ، وكانت حركة أدبية نافعة ، بما فيها من لين وشدة .

ثم رأى الدكتور أن يحفظها على القراء الذين لم يدركوا ذلك العهد ، أو الذين أدركوه ويتمنون أن تجمع هذه المقالات القوية الرائعة بين أيديهم في كتاب . فأصدر منها جزأين وهذا الثالث .

وفي هذا الجزء ما دار من جدال بين الدكتور والأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله . ومقال عن الأستاذ الشيخ محمد المهدي رحمه الله . وفيه فصل طويل عن كتاب الأخلاق لأرسطو الذي ترجمه سعادة أحمد لطفي السيد باشا . وفصول عن كتاب « مهذب الأغاني » للأستاذ الشيخ محمد الخضري رحمه الله . ثم نقد طريف لقصائد شوقي وحافظ ونسيم في تقريظ كتاب الأخلاق . ونقد مطول لكتاب « جان جاك روسو » لسعادة الدكتور محمد حسين هيكل باشا . وفيه إلى ذلك فصول في أخلاق الأدباء . ونقد لكثير من الكتب التي ظهرت في ذلك العهد . وهي كلها أبحاث من الطراز العالي ، شأن آثار الدكتور طه ، تستهوي القارىء ، وتأخذ بلبه ، ويغترف مما فيها من آراء صائبة مجلوّة في أسلوب طلي وعرضٍ دقيقٍ أخّاذ .

عودة السفينة

تأليف الدكتور إسحق موسى الحسيني

٧١ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة فلسطين العلمية . القدس ١٩٤٥

في هذا الكتاب إيمان بالقيم العربية الصحيحة ، وفيه إيمان فياض بالفكرة العربية المتوثبة في كل قلب من قلوب هذه الأمة الكريمة .

وفي هذا الكتاب دليل على حيوية الأمة العربية ، ففي كل عبارة من عباراته نبضات من الحياة .

والمؤلف واسع الأمل كبير الرجاء في مستقبل العرب ، وهو لا يسرف في التفاؤل إلى حد الغرور ، ولا يبالغ في التشاؤم إلي حد القنوط . ولكنه واحد من ركاب سفينة عثر حظها وقابلتها الرياح الهوج فلم ييأس الركب من رحمة الله ، ولم يستسلموا إلى الريح العاتية ، ولكنهم ضاعفوا الجهد حتى سكنت العاصفة وهدأت الرياح واستوت السفينة على اليمّ فواصلوا سيرهم حتى بلغوا الشط سالمين مستبشرين .

ويعد المؤلف ما نزل بالأمة العربية طوارىء عارضة تطرأ على كل أمة ، فليس من الخير أن يقال لها : ابدئي السير ، لانها أمة منتهية غير مبتدئة بشهادة الشهود من الشرق

والغرب ، ولـكنها تبدو اليوم كأنها مبتدئة لما نزل بها من أحداث ، وتحتاج هذه الأمة المنتهية إلى من يذكرها بماضيها القديم ، وليس ذلك سهلاً ، فلا بد من الجهود المتواصلة والتوجيه الدائم حتى لا ينقطع نَفَس المستذكر ولا يبرم بحاله .

وفي الأمة العربية اليوم — على رأي المؤلف — وعي بدت طلائعه ، وهو يسميه وعياً ، ونسميه نحن إرهاصا للوعي ، وشتان ما بين الاثنين . . . ونرجو أن لايخيب الله أمله . .

وأول ما ينقص الجماعة العربية هو أن يقدم فيها المجموع على الفرد ، وذلك حق فقد قتلتنا الفردية حتى غلبنا جماعة وأفراداً ، ولا يغلب الفرد حين يغلب إلا على أكتاف الجماعات ، فليس يعنيه أن يكون تفرده على حساب مجموعهم .

والمؤلف من أنصار المرأة العربية ، ويرى أن جميع مشكلاتنا ستظل على ما هي عليه من التعقيد ما دامت المرأة في هذا الموضع الذي نضعها فيه .

والسفينة العربية سائرة على الثبج ، ولن تعود إلى شاطىء السلامة إلا إذا تهيأ لها من عوامل الاقتصاد الصحيح والخلق الرجيح والعلم الحقيقي والإيمان القوي ما يعينها على أن تضرب في الغمرات . . . .

فيصل بن الحسين

لمديرية الدعاية العامة بيغداد
٣٢٦ صفحة من القطع الـكبير . مطبعة الحكومة بغداد ١٩٤٥

الملك فيصل الأول بن الحسين بن علي رحمه الله ، أحد باعثي النهضة العربية ، بل كان في الطليعة والمقدمة ، لم يهن ولم ينكص ، ولا تزال مواقفه ومفاخره ماثلة في الأذهان ، لقرب العهد بها . وهو أول ملك لدولة « العراق » الحديثة ، فكان من الوفاء أن توضع له سيرة مفصلة ، تكون مادة لتأريخه تأريخاً صحيحاً ، إذا ما آن الأوان ، فكان هذا الـكتاب .

ورُفع الـكتاب بمقدمة بليغة من الأستاذ أحمد زكي الخياط مدير الدعاية العام إلى الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق . ثم تلاها فصل في يقظة العرب . ثم سيرة الملك الراحل مفصلة ، من أسرته وعمود نسبه ، ومولده وأوصافه ، وطفولته وشبابه ، ثم قوده الثورة وزعامته . وتمثيله العرب في مؤتمر الصلح بفرساي . ثم اعتلائه عرش

الشام سنة ١٩٢٠ واضطراره إلى اعتزال العرش ، ورحلته إلى أوربة فلندن . ثم قبوله عرش العراق ، وتأسيسه الدولة العراقية المستقلة على أسس دستورية ونهج عمراني محض . وفي الكتاب تفصيل لحياة الملك الخاصة ، ولأخلاقه وعظمته الشخصية ، ولآثاره وجليل أعماله في المملكة وللأمة . ثم وفاته ودفنه . وفيه كثير من أقواله المأثورة وخطبه . مما يجعل الكتاب مرجعاً صحيحاً للتأريخ ، بني على الحقائق والوثائق الرسمية ، وحلي بكثير من الصور التاريخية للملك وآله .

السُّويد

للأستاذ طلعت محمد راغب ملحق المفوضية المصرية بإستكهلم
١٣٠ صفحة من القطع الكبير . طبع بإستكهلم سنة ١٩٤٤

وهذا كتاب أنيق . الظن أن مؤلفه لم يجد بإستكهلم مطبعة فيها حروف عربية ، فكتب على الآلة الكاتبة ثم طبع بطريقة التصوير ، على ورق ممتاز جداً ، فكان تحفة .

وهو في تأريخ مملكة « السويد » . تحدث فيه عن تاريخ ملوكها وأسرتها المالكة ، وعن الدولة ، والحالة الاقتصادية ، والتجارة ، والمواصلات ، والحالة المالية ، والحالة الاجتماعية والحالة الثقافية .

والكتاب يتحدث عن مملكة وأمة لا نعرف عنها إلا القليل ، وقد دعاه إلى الكتابة عنها ما رآه فيها من « درجة الرقي التي وصل إليها أفراد الشعب السويدي في النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، التي فاقوا فيها كثيراً من شعوب الدول المتمدينة الأخرى ذات الحضارة القديمة والحديثة » وأنها « قد فاقت دول القارات الخمس من حيث الوجهتين العملية والحيوية ، بسبب احتفاظها بمركزها وتوازنها منذ عام ١٨١٤ » .

ولقد قدمه للقراء الدكتور « نيبرج » أستاذ اللغات السامية بجامعة أُبسالة بالسويد ، بتقدمة يقول فيها : « لقد قرأت ما كتبه مؤلف هذا الكتاب في أحوال وطني السويد وتاريخه وعيون ثروته ومنتوجاته ، فأعجبني ما وجدته فيه من المعرفة الواسعة والعلم الدقيق بكل ما يتعلق بحياتنا » . ثم يقول : « ولا شك في أن هذا الكتاب سيملأ خلاءً ويكمل نقصاً ، وأنه ستكون منه منفعة عظيمة لكلي البلدين . فأقدم للمؤلف التهاني القلبية لما فعله خدمة لنا ولبلاد مصر . وأتمنى أن يقرأ كتابه كثير من جهابذة مصر وفحولها » .

رسائل النساء الجديدة

تأليف مرسيل بريفو وترجمة الأستاذ فرج جبران

١٨٧ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة النهضة . القاهرة ١٩٤٥

مَرسيل بريفو أحد أعضاء الندوة الفرنسية البارزين في فقه اللغة الفرنسية على وجه الخصوص . ولما أخرجت مطبعة المعهد الفرنسي بباريس الكتاب التذكاري للندوة سنة ١٩٣٥ * كان بريفو أحد أعضائها الأربعين الذين اشتركوا في تأليف الكتاب بمقال طيب عن معجم الندوة الفرنسية .

وتمتاز لغته بلون طريف من التعبير أتاحه له إطلاعه الواسع على أسرار الكلمات الفرنسية وتدرجها . وما ظهرت عاطفة الحب الفائر الثائر ، والحبّ المتهكم الساخر على قلم عضو من أعضاء الندوة كما ظهرت على قلم مَرْسيل بريفو . ولما أرّخَ للمعجم الفرنسي لم يجد غير لفظتي « الحب » و « الحبيب » يتتبع تطورها وتعريفهما في الطبعات الثامنة لهذا المعجم ، والتي كان آخرها سنة ١٩٣٥ .

وحينما قدّم لكتابة « رسائل النساء الجديدة » أنذر قارئته المجهولة التي قد يقع هذا الكتاب في يديها « أنه يحوي قصصاً موضوعها الحب » . . .

وفي رسائل النساء ألوان من حب المرأة ومن عقلها وتفكيرها ، وقد استطاع بريفو في هذه الرسائل أن يصور المرأة في شتى عواطفها .

وفي الكتاب كثير من الصراحة عن العلاقة بين الرجل والمرأة في هدآت الليل وساعات السكون . . . وهي صراحة جعلت من الكتاب أدباً مكشوفاً ، ورسالة « ليلة ريموندا » واحدة من الرسائل التي ميزها هذا اللون المفضوح ، وكذلك رسالة « الزوج الثاني » .. . وقد يكون بريفو على الحق حينما يصور المرأة الفرنسية على نحو تأباه تقاليدنا الشرقية الكريمة ، وقد يكون لبريفو من ذلك اللون الأدبي — أو غير الأدبي — غرض . أما نحن فما حاجتنا إلى هذه النزوات ؟

ويبدو الأدب المكشوف حتى في صور الكتاب وفي الصورة التي على غلافه ؛ فقد شاء المصوّر أن يكشف عن ساقي المرأة الجالسة على شكل لا يصح أن تقع عليه العيون ...

وفي لغة المترجم سهولة وفي أسلوبه خفة لولا ما وقع في الكتاب من أخطاء نحوية ومن ألفاظ كثيرة نبّه الخفاجي والحريري وإبرهيم اليازجي إلى أنها ليست من كلام العرب ! !

* Trois Siècles de l'Académie Française Paris 1935.

جزيرة بالي

تأليف فيلب هنيون هيس – روبرت هايل لندن ١٩٤٥

« بالي » هي أول مجموعة الجزر التي تقع شرقي جاوة ، ويفصلها عنها مضيق ضيق . وهي آخر ملجأ هناك للديانة الهندوكية . ولقد تم في القرن الثالث عشر الميلادي طرد البوذيين وأوثانهم من جاوة إلى جزيرة « بالي » على يد العرب المسلمين .

وفي عام سنة ١٩٠٦ أقام الهولنديون في تلك الجزيرة نظاما تاما للحكم .

وأهل « بالي » لا يزالون على حالة من الحياة البدائية وشواطئها صخرية جبلية في أغلب أجزائها . وقد أعان ذلك على احتفاظهم بكثير من العزلة ، وفي أخلاق سكانها الأصليين صلابة وكرم وطيب ولين جانب ، إلا أنهم يكرهون التدخل في تقاليدهم وطرق حياتهم العامة .

وتعد « بالي » بقية من العصور الخالية في عصرنا الآلي الحديث ، وهي على حالها هذه تعد في نظر المستر هيس أسعد مكان وأطيبه في العالم .

ولا تكاد تعرف هذه الجزيرة السعيدة نظام التعامل النقدي ، وليس للمصارف فيها وجود ، ولا يعرفون نظام « اللوائح » والأوامر : فكل فرد فيها يقوم بواجبه على وجه من الرضى ، والطعام والمأوى فيها مكفولان لكل شخص ، فلا يرى الزائر فيها شبحاً من أشباح العطلة أو التبطل .

ويرى المستر هيس أن في تلك الحياة البدائية السمحة الرخية دروساً لحياتنا المعقدة . وتقوم الحياة الاجتماعية فيها على أساس الدين . وللدين تأثير كبير في تاريخها وشعرها وموسيقاها وتوقيع رقصاتها . . .

ولو نحيت الدين عن الجزيرة لانهارت الجماعة فيها وتفرقت شيعاً .

وللحرية مفهوم في جزيرة بالي ، وهو أن يعطي المرء نفسه للجماعة حباً في الخير المشترك.

ومؤلف هذا الكتاب شاب أمريكي شرّق وغرّب وسار فى الأرض ومعه آلة تصويره ، فما وجد مكاناً آنس منه العافية والرضى ، حتى نزل فى جزيرة « بالي » التي من أجلها أخرج هذا الكتاب .

صَدَى النَقد

حول نقد لـكتاب الفاروق عمر (الجزء الثاني) :

في النقــــد الأدبي

للدكتور سيد نوفل

يظن البعض أن كلمة النقد الأدبي تعني ، قبل كل شيء ، توجيه المآخذ ، وإبراز المساوئ ، ويتوهم كثيرون أنهم حين ينتقصون من الأعمال الأدبية ، الكبيرة بذاتها وبأصحابها ، يكسبون سيرورة اسم أو ظهوراً في عالم الأدب . والحق أن في النزعتين تجافياً للصواب ، فغرض النقد الأدبي الأول تصوير الأثر الأدبي وتجلية محاسنه . والناقد الناجح هو الذي يكسب لما ينقد قرّاء . وقد رأى بعض المحدثين الغربيين أن يستبدلوا كلمة النقد القديمة « Criticism » ، وهي تشعر بمعنى الحكم ، بكلمة جديدة تؤدي معنى التقدير أو التجميل . ومن اليسير على المعدم مادةً ومعنى أن يقف أمام القصر الشامخ بعظمته المدل ببهائه وجماله ، ناقداً أو ساخراً . . ولا عجب إذاً أن يكون النقد بهذا المعنى يسيراً على الكاتبين ، وألا يؤدي بصاحبه إلى امتياز علمي أو فني . أما النقد المفيد للأدب ولصاحبه فهو الذي يبدأ الحياة الفنية لأصحاب الأدب الكبير ، إذ يقبلون على الأثر الأدبي ، فيمتثلونه ويتذوقون ثمراته ، ثم يعبرون عن مشاعرهم تعبيراً عالياً ، ويدلون على ما قد يعترض طريقهم من عقبات وشذوذ .

والحق أن مشكلة النقد قديمة ، وأن الناقد العام يخضع لمؤثرات خارجة عن موضوع النقد ، توجهه ، وتتحكم في آرائه عن قصد أو عن غير قصد ، وتركبه الصعب حيناً والذلول حيناً آخر . وقد تنبه إلى هذا أسلافنا القدماء ، فذكروا في القرن الثالث الهجري أن الناقد أحد ثلاثة : رجل يعطي الكلام المنقود ، من التعظيم والتبجيل ، على قدر ما لصاحبه في نفسه وموقعه من قلبه ، ورجل يتهم نفسه ، فيسرف في اتهام من يعظمه ، خشية أن تخدعه منزلته في نفسه . أما الذي يستطيع تقدير المعاني حق قدرها ، وتقويم الأشياء في صواب ، فهو العليم الحكيم ، المعتدل المزاج ، القوي المنة ، الوثيق العقدة ، الذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكثر .

ولكن ، هل العلم والحكمة وقوة النفس هي كل شيء في النقد الأدبي ؟ وهل من يظفرون بهذه الصفات ينحون منحى متشابهاً في أحكامهم ؟ ؟

الحق أن هنالك عوامل متنوعة تعمل في تكوين الحكم الأدبي . وبقدر وجودها كاملة أو منقوصة ، تكون قوة الأحكام الأدبية وضعفها . وبعض هذه العوامل ذاتي ، وبعضها كسبي .

فخصب القريحة ، وصفاء الذهن ، ودقة النظر ، ومرونة الطبع ، صفات ذاتية . ولا ريب أن بعض العقول تستفيد في أيامها الأولى أكثر من غيرها ، وتبدو أكثر انتباهاً ويقظة ، وحفظاً لما تستفيد من الجزئيات ، وقدرة على تكوين كل منها ، وعلى إبقائها متفرقة كما هي ، وبهذا تهيء أنفسها للاجابة عن مطالب الوجود الجديدة ، والحكم على المسائل المستحدثة . وآية أن هذه الصفات فطرية لا كسبية أنها قد تتهيأ للمتعلم كما قد تتهيأ للأمي ، وقد يحظى بها المهمل كما قد يحظى بها المثقف . ولكن ، لا ننس أن هذا الاستعداد الذاتي ليس صفة ثابتة كصلابة المعدن مثلا ، وإنما يعظم بالمران ، حتى يستطيع صاحب الاستعداد أن يبلغ به مبلغاً تضؤل بجانبه حاله الأولى ، ويتصل به التربية الأولى ، فالطفل في مطلع حياته تتشكل مداركه ، أو يتكون هيكله الخلقي الدائم طوال حياته ، ويتأثر بكل ما ينتقل إليه من الآراء والإحساس .

ومن الكسبي التربية المدرسية والثقافة الواسعة ، وهذا العامل مستمر التنازع مع سابقه ، وبمقدار غلبة أحدهما يكون الفرق بين الناس ، فمنهم ضعيف الاستعداد الذاتي السهل التصديق ، ومنهم الناقد المحقق الذي لا يرى الرأي إلا بعد البحث والتمحيص .

وأهم صفات الناقد الحق سلامة الفكر أو النزاهة . وهذه الصفة هي التي تجعل الحكم حكماً ، وتربط بين العقول ، أو تجعلنا إنسانيين حقاً . وأصدق التعاريف لها : تقدير كل الاحتمالات الممكنة ، وعدم ترجيح أحدها إلا بمرجح . فكل موضوع أدبي يحتمل مقاصد كثيرة ، وهذه المقاصد ميادين صالحة للمران العقلي ، وقد يؤثر بعضها في بعض ، وبقدر ما تنال من عناية الناقد ، تكون أحكامه بعيدة عن الزلل . وواضح أن الرأي القائم على هذه القاعدة لا يكاد يتسرب إليه الوهن ، لأن صاحبه ينقد ما عداه قبل اعتناقه.

ومن أقوى العوامل في توجيه الناقد فهم صاحب الأثر المنقود الخاصة ، فالعالم الشاملة ثقافته لا يصح أن يتصدى لنقده من لم يبلغ شأوه ، وذو الثقافة لا يصيب حين ينقد من جمع بين ثقافات متعددة ، واكتسب عقولا متنوعة ، فكلاهما ذو فكر مغاير وأسلوب مختلف . بل إن النقد العلمي الصحيح يحتم على الناقد أن يلم بآثار

الأديب كلها ، حتى يألف طريقته في التفكير وأسلوبه في الأداء .

وإذاً فحكم الناقد يتوقف على استعداده الذاتي ومدى ترقيه ، وكيفية حيازته للمعاني الاجتماعية الموروثة واستخدامها منسقة ، والبيئة التي نشأ فيها وحاكاها ، وتنازع استعداده الذاتي والنقل السيطرة على فكره وغلبة أحدهما للآخر ، وتعرف خلق المنقود وفنه ، والروح العلمية الصحيحة لكن الكثيرين ينسون هذه العوامل، ويخيل إليهم أن النقد مركب سهل ومطية ذلول ، يرضي حقداً أو يساير هوى . . .

***

هذه خواطر أثارها المقال الغريب الذي كتبه الشيخ أحمد محمد شاكر نقداً لكتاب الفاروق عمر للزعيم العلامة الدكتور محمد حسين هيكل باشا .

والحق أن هذا المقال تبدو فيه روح التحامل ، وصفات التزمت والمغالطة والجرأة .

تظهر روح التحامل حين يقرر القارىء أن المؤلف واسع الثقافة محيط بألوان العلم ، ويقرر كذلك أن كتاب الفاروق عمر جيد ، يقرب البعيد للأوساط ، ويقوم بين الرصين والمبتذل . . . أي كلام هذا ؟ ! إذا لم يكن البحث العلمي الكامل من سمات الدكتور هيكل باشا ، فمن سمات من في كتّاب الشرق العربي عامة ! ؟ أينقص من أسلوبه العلمي أن يقدمه لك في بيان رائع وتصوير جميل ؟ ؟ ألم تعلم أن التاريخ أدب ؟ ! إن الدكتور هيكل باشا يقوم لهذا الشرق في مقام الزعامة الأدبية، فوق زعامته السياسية المصرية . . لقد نقل القصة الحديثة إلى مصر ، منذ ربع قرن ، فسار الناس في طريقه ولم يلحقوه ، وعني بالتراجم الغربية ، فسلك الكتاب طريقه ، وأرخ لتاريخنا العربي الإسلامي تأريخاً علمياً ، أعجب به الشرقيون والغربيون ، ورأينا كبار الكتّاب يكتبون على هامش السيرة حيناً ، ويجلون عبقرياتها حيناً آخر . وكان أولى للكاتب أن يسائل نفسه : ماذا يكون حظ مكتبتنا العربية من الإنتاج الخصب الحديث لو لم يغنها الدكتور هيكل باشا بكتبه القيمة ؟ ؟

وإذا كان الكاتب ينقد نقداً علمياً ، ولم يجد إلا هذه الهنات التي أوردها ، والتي لا تقدم ولا تؤخر كما سنرى ، فما كان أحراه أن ينصف الكتاب والمؤلف ، وإن قرر حقاً أنهما ليسا في حاجة إلى هذا الإنصاف .

أما التزمت فيبدو حين يفرض فروضاً توحي بها المعاني الخاصة التي درج بينها ، ثم يريد أن يكره القارىء عليها إكراهاً لا هوادة فيه ، وحين يضيق بتقليب الرأي ومناقشة المؤيدين والمخالفين ، وحين يقول مثلا إن كتب القدماء عميقة . ! أي عمق يا سيدي

في المؤلفات التي تضطرب فيها المواد المنقولة ، ولا تظهر شخصية مؤلفها ؟ ! إن البشرية تتقدم ، وإذا لم يضف جيل الى سابقه ، فقل على الحضارة ألف سلام . . . !

وأما المغالطة فتبدو في كثير مما يقول . انظر إليه وهو يأخذ على المؤلف عبارته : « منف عاصمة مصر حين كان العالم كله يتطلع إلى مصر على أنها مهبط الوحي ، ومستقر الحضارة فيه » ، فيقول : « وهذا غلو في العصبية ، فما كان العالم إذ ذاك ينظر إلى مصر النظرة التي يراها بها المؤلف ، وإنما هو يرى بنظر أهل هذا العصر أو بعضهم . ثم لم يزعم أحد قط أن مصر كانت "مهبط الوحي" ! وأين كان هذا الوحي ؟ أهو وحي الفراعين والأوثان ؟ ! لم يعرف التاريخ نبياً أوحي إليه في مصر إلا ما أخبرنا القرآن الكريم عن يوسف وعن موسى عليهما السلام ، وهما يرجعان بأصلهما إلى جزيرة العرب . . »

ولا أريد أن أصنع صنيع الناقد ، فأحتكم إلى العاطفة ، وإلى العقوق للوطن الخالد ، والإسراف في الحملة على ماضيه التليد بغير هدى ، فتلك معان لا أراها جميلة في هذا الباب . وإنما أسأله : أي البلاد الأخرى كان ينظر إليها عالم يومئذ هذه النظرة ، إذا لم تكن هي مصر التي أخذت من بعض ألوان التقدم بما لم تصل إليه حضارتنا الحديثة ؟ ! ثم ، ما هذا النقد الطريف للوحي ؟ إنك ياسيدي تفسر تفسيراً فقهياً إصطلاحياً ، ثم توجه النقد للمعنى اللغوي ، وهو الإلهام ، وما أظن أن هذا المعنى يخفى على عامة القراء ، بله الفقهاء المحدّثين ! على أن لمعنى الوحي الاصطلاحي توجهاً في كلام الناقد نفسه ، فقد كان الوحي يهبط في مصر على يوسف وعلى موسى . . !

ومثل هذا قوله : « ثم عرض لشأن القصاص في الشريعة فقال : والقصاص هو من الحدود يقيمه ولي الأمر ، ويتولاه ولي الدم بنفسه . وهذا غير صحيح ، فإن حكم الشريعة أن يرفع الأمر إلى ولي الأمر أو نوابه من الولاة والقضاة ، فإذا ما ثبت حق القصاص ووجب ، وحكم به الحاكم تولاه ولي الدم بنفسه إن كان قادراً عليه » ، ويشير بعد ذلك إلى تفريعات الفقهاء في هذا الموضوع . . وواضح أن المعنى الذي يقصده يتفق مع ما أورده الناقد ، وهو أن ولي الأمر أو نائبه هو الذي يتولى التحقيق والحكم ، أما أن ينفذ ولي الدم أو ينفذ غيره فتلك مسألة أخرى لا تتصل بالنص . وقد أوقع الناقد في هذا الخلط بين معنى التولية في عمومه اللغوي ، ومعناه في خصوصه الفقهي . .

ونحو هذا اعتراضه على المؤلف في القول بأن من الحضر ، الذين يمتون بصلة القربى إلى البدو ، قوماً لا تزال فكرة الثأر متصلة في نفوسهم بكرامتهم وحياتهم ، ولا يكتفون بالقانون وقصاصه . فالناقد يقول : إن هذا تعبير موهم . أي إيهام ياسيدي ! ألم تسمع بقضية

العديسات التي اتصلت سنين طويلة ؟ ! ألم تسمع بجرائم الثأر الشائعة في أعلى مصر ؟ !

ويشبه ذلك كله اعتراضُه على المؤلف في موضوع عروس النيل ، لأنه نقل رأياً أو فرضاً لسليم بك حسن . والبحث العلمي ، كما سبق ، يمتدح هذه الخلة من احترام الآراء المختلفة ، ونقدها في حدود المنطق والعقل ، ولا يقر طريقة الناقد في صم الآذان عن الأقوال التي تجد طريقها إلى الأسماع .

وأما الجرأة فتظهر في أن يسمي هذا ونحوه أخطاء . . ، وأن يعتصم برواية معينة لنص أو حديث ، وإن ضعفها المحدّثون السابقون ، ثم ينتقد المؤلف على أساسها . وأن يأخذ على المؤلف عدم النص على مراجع تندرج في غيرها وليست في حاجة إلى نص خاص ، وأن يتخذ من كل ذلك ، ومن عدم معرفته بمواقع النصوص ، ذريعة إلى مهاجمة متكلفة . . .

وبعد فإن الفرق كبير بين عقلية العالم يعتصم بالأسلوب العلمى الحديث ، ويحلق بثقافته الشاملة وذهنه الوقاد في أجواء فكرية عالية ، وبين عقلية المتزمت يقيد نفسه بحدود ضيقة ، ويجد في ذلك راحة وطمأنينة .

سيد نوفل

كتاب التصوف وفريد الدين العطار

رد على نقد بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام

كتب الأخ الأديب الأستاذ محمد عبد الغني حسن في العدد الأول من مجلة الكتاب مقالاً قيما نقد فيه كتاب التصوف وفريد الدين العطار .

وأنا أبادر بشكر الأستاذ على عنايته بقراءة الكتاب قراءة مدقق ناقد . ثم اهتمامه بنشر ما رآه لينتفع به المؤلف والقارىء . وما أجدى النقد يبعثه التحقيق والإخلاص ، ويصحبه التواضع والأدب ، وما أحبه إلى كل مؤلف مخلص يتحرى الحق لا يبغي سواه .

وأدع المقدمة التي ذكر فيها محاسن الكتاب شاكراً ، وأخلص إلى ما أخذه الأستاذ على الكتاب :

قال : إن الفصل الذي تناولت فيه صلة التصوف بالأدب مختصر . وهو كذلك ، شعرت أنا بصغره وقلة جدواه ، ونبه إلى هذا الأستاذ المازني في مقاله القيم الذي نشره في جريدة البلاغ ، ولكني لم أجد مجالاً واسعاً في مقدمة كتاب عن العطار . وعسى أن أجيب رغبة الناقدين الكريمة في كتاب آخر أو مقالات في التصوف والأدب .

ورأيه في كتاب التوهم للمحاسبي أنه كتاب وعظ لا تصوف خالص ، رأي سديد . وإنما نقلت عنه لأن الوعظ متصل بالتصوف ، ولأن المحاسبي صوفي قديم كانت كتابته من طلائع الكتابة في التصوف على اختلاف مناحيه ، وأذكر أن كتاب المحاسبي قدم للجنة التأليف ليطبع فأحالته اللجنة إليّ فلم أشر بطبعه لأنه نهج في وصف نعيم الآخرة نهجاً حسّياً .

وقد تطور الأدب الصوفي مع التصوف ، فكان أوله وعظاً كوعظ المحاسبي ، وتلاه كلام ككلام البسطامي والجنيد والعطار والرومي الخ .

وأما ما أخذه في تواريخ وفيات أثبتها في الكتاب . فوفاة الكرخي والسهروردي تختلف فيها الروايات بسنوات قليلة ، ولا يهمني هذا الاختلاف في بحثي كثيراً . وأما وفاة الحسن البصري فقد وقع فيها التحريف ، والصواب أنها كما قال سنة ١١٠ هـ .

وأما فرفيروس فقد رسمته بهذه الصورة اتباعاً للشهرستاني الذي نقلت عنه الكلمة، وهو الذي يذكر في كتب أخرى باسم فروفوريوس فيما أظن .

وأما كتابة اسم المستشرق ونسند بالواو أو الفاء فالأمر فيه يسير . وحرف W الذي في هذا الاسم يلفظ في اللغات الأوربية «ف» أو «و» وكلها من حروف الشفة فرأيت تعريبها بالواو .

وأما ابن عربي وابن العربي فقد جرى بعض المؤلفين في المشرق على تسمية الشيخ محيي الدين بابن عربي بحذف أداة التعريف تمييزاً ، له من القاضي أبي بكر بن العربي الفقيه المتوفى سنة ٥٤٣ والذي ذاع ذكره قبل محيي الدين ، فجريت على هذا الاصطلاح إلا ما أدّى إليه السهو .

وأما رابعة العدوّية فهي ، فيما أحسبه ، رابعة القيسية . وقد عُرفت بالنسبة الأولى في كتب الصوفية . ولكن الجاحظ ذكرها مرات في كتاب الزهد من الجزء الثالث من البيان والتبيين وفي الكلام على النسّاك في الجزء الأول باسم رابعة القيسية ، فذكرتها بهذه النسبة في مواضع النقل عن الجاحظ . وللأستاذ الحق ، كان ينبغي أن أنبه القارئ إلى أن رابعة القيسية هي العدوية .

وأما مقال معالي الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق عن رابعة فلا أذكر أني اطلعت عليه ، ولا كان له أثر في نسبة رابعة .

وقال الأستاذ : « وإني أعرف الدكتور عزام شاعراً وبصيراً بالشعر وأوزانه ، فكيف فاته الكسر في عجز البيت الرابع من أبيات جلال الدين الرومي المترجمة ونص البيت :

ليس لي إلا سموٌّ نحوه كل شيء هالك إلا وجهه »

وجوابي : أن الشطر الثاني يقرأ كل شيء هالِكٍ إلاّ وجهه . وهذا الشطر غير مترجم ولكن جلال الدين ، كدأبه في المثنوي ، أخَذ جملة من القرآن وأدخلها في النظم بتغيير يسير ، وأثبتها أنا كما هي في الأصل ، ولو كانت العبارة لي ما رضيت بارتكاب هذه الضرورة . ولو نبهتُ على هذا لأرحتُ القارىء، فأعتذر إلى الناقد والقراء كلهم .

وأما البيت الذي ترجمت به بيت جلال الدين :

قال ما تبتغيه يبدو محالا قلت إن المحال من مأمولي

فقد صدق حدس الأستاذ إذ سقطت « من » في الشطر الثاني .

وأما تكرار جمَل في الكتاب، كبيتي ابن الفارض، وقول الجنيد ، فقد أدى إليه اختلاف الموضوع ، ورأيت أن إعادة جملة قصيرة أو بيتين من الشعر أيسر على القارىء من إحالته إلى صفحة أخرى ، والأمر في هذا يسير يختلف فيه النظر .

وأما الكلام على مخالطة المادة للروح في موضعين (ص ٨٤ ، ٨٧) فقد كان الكلام في الموضع الثاني تمهيداً للكلام في سكون الروح إلى عالم المادة وكراهتها مفارقته ، ولم يقصد العود إلى الكلام في اختلاط الروح والمادة .

وأما قول القشيري : « فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من غير الوجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود » . وسؤال الأستاذ عن معنى قول هذا المؤلف « والأحوال تأتي من غير الوجود » ، فقد فهمت أن المراد « غِيرَ الوجود » وأسقط الطابع الشكل . على أن الدكتور فؤاداً الأهواني قال في كلمة له نشرتها مجلة الثقافة إنه رأى هذه الجملة في موضع آخر وفيها « عين الوجود » بدل «غير الوجود» .

وأما ثناء الأستاذ عليّ وحمده فهمي النصوص ، وفتحي المغالق ، فأشكره عليه آملا أن أكون عند حسن ظنه ، وجميل رأيه . كما أودّ أن أكون كما حسب ، واسع الصدر للنقد الخالص ، فرحاً به ، حامداً صاحبه ، معترفاً بفضله .

والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص في الفكر والقول والعمل .

عبد الوهاب عزام

سَعْدَى

من قصيدة للمضرس المزني أحد شعراء صدر الإسلام

تُعَذِّبُنِي بِالوُدِّ سُعْدَى فَلَيْتَها تَحَمَّلُ مِنَّا مِثْلَهُ فتذُوقُ
أَذودُ سَوامَ الطَّرْفِ عَنْكِ وما لَه إلى أَحَدٍ إلاّ عليكِ طَرِيقُ
تُهَيِّجُني للوَصْلِ أيّامُنا الأُلَى مَرَرْنَ علينا والزمانُ وَرِيقُ
ليالِيَ لا تَهْوَيْنَ أن تَشْحَطَ النَّوَى وأنتِ خليلٌ لا يُلامُ صَديقُ
فأصبحتِ لا تجزينَني بمَوَدَّتي وَلاَ أَنَا لِلهِجْرانِ منكِ مُطِيقُ
وكادتْ بلادُ اللهِ يا أُمَّ مَعْمَرٍ بما رحبتْ يوماً عليَّ تضيقُ
تتوقُ إليكِ النفسُ ثمَّ أَرُدُّها حياءً ومثلي بالحياءِ حقيقُ
سَلِي هل قلاني من عشيرٍ صحبتُهُ وهل ذمَّ رَحْلي في الرجالِ رفيقُ
وهل يجتوي القومُ الكرامُ صحابتي إذا اغبرَّ مخشيُّ الفجاجِ عميقُ
وأكتمُ أسرارَ الهوى فأُميتها إذا باحَ مزّاحٌ بهنّ نزوقُ
شهدتُ بربِّ البيتِ أنكِ عَذْبةُ الـثنايا وأن الوجهَ منكِ عتيقُ
وأنكِ قسَّمتِ الفؤادَ فبعضهُ رهينٌ وبعضٌ في الحبالِ وثيقُ
صَبوحي إذا ماذرَّتِ الشمسُ ذِكْرُكم وذكرُكمُ عند المساءِ غبوقُ
وتزعُمُ لي يا قلبُ أنكَ صابرٌ على الهجرِ مِن سُعْدَى فسوفَ تذوقُ
فمُتْ كمَدًا أو عِشْ سقيماً فإنما تُكلِّفني مالا أراكَ تطيقُ

العاشِق المجهُول

للأستاذ خليل مطران

لو أن ما نَتَمَنَّى يكونُ منَّا بِطاقَهْ
أهديتُ جنَّةَ وردٍ وما رضيتُ بِطاقَهْ
لكنّني من دِمائي نظمتُ هذي البِطاقَهْ

✡✡✡

تحيّةً من محبٍّ مُدَلَّهٍ تجهلينَـــهْ
عن لحظةٍ تتسامى إليكِ لا تُمْهِلينَهْ
ومَنْ تجلّيتِ يوماً له ولا تذهلينَـــهْ

✡✡✡

ذاكَ الهوى هو سِرٌّ ما بين قلبي وعيني
عفواً ومن غير عَمْدٍ فرضْته فَرضَ عَيْنِ
هيهاتَ آمنُ فيهِ خيانةَ المودَعَيْنِ

✡✡✡

يا مُنْيَـةً تتلاقى فيها أمانيُّ رُوْحي
أراقبُ الناسَ حولي إنْ تغتدي أو تروحي
هل فيهمِ مستهامٌ جُرُوحُهُ كجروحي

* * *

لاحظتِني وكأنْ لم تُلاحظي فإلاما
أعِفَّةٌ أم دلالٌ يَزيدُني آلاما
أم قسمةٌ قُسِمَتْ لي فلم أُصِبْ إلاّما

* * *

وهبتُ نفسي ولو لمْ أَهَبْكِ قلتُ ومالي
لكنْ رميتُ بعيداً فأخفقتْ آمالي
لا عتْبَ والذنبُ ذنبي ما للغرام ومالي

* * *

نجمٌ نظرتُ إليهِ ولم أخلني أليمُ
من أين يعلم نجمٌ أن الصدود أليمُ
وأنّ في راقبيهِ صبًّا حشاه كليمُ

* * *

آهٍ أيقبلُ دهري يوماً فأنشد واها
أم ألبث العمر طرًّا مستيئساً أوّاها
يا ساقيَ الصاب ماذا أذقتني في هواها

خليل مطران

الشَمْسُ

للأستاذ خليل مردم بك بدمشق

ما لها تُشرقُ حَمْرا أتُراها — مقلةً وسْنى أفاقتْ مِن كَراها ؟
فتح المشرقُ عنها جفنَ مَنْ — بلغتْ منهُ الحمَيّا مُنتهاها
أم تُراها شعلةً والسّحبُ مِن — فوقها مثلُ دخانٍ قد علاها ؟
عصفرتْ دارتها فاتقدتْ — كشواظِ النارِ يستشري لظاها
ونضتْ أثوابَها الحمرَ على — جنباتِ الأفق واستبقتْ حلاها
فبدتْ عاريةً حاليةً — فإذا وضّاءةٌ يعشى سَناها

✡✡✡

ثبّتِ اللهمَّ إيماني فقد — ظنّها يوماً (أبو الرسل)✡ إلَهَا
أنتَ عظّمتَ الضحى والشمسَ إذْ — قلتَ (والشمسِ) يميناً (وضحاها)

✡✡✡

نظرةً للشرق في رأدِ الضحى — تُلفِ من رونقهِ مالاً يُضاهَى
صوراً أبدعَ مَن صوّرها ، — ماله أثبتها ثم محاها ؟
زينةٌ في الأفق مِن بهجتها — وصلتْ ما بين أرضٍ وسماها
مَسَحَ النورُ دموعَ الليلِ عن — وجنةِ الأزهار إذْ قبّلَ فاها

✡ إشارة إلى قصة إبرهيم في القرآن الكريم : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي . . . . . »

لجَّ في تقبيلها مستهتراً فيه فاحمرّتْ خدوداً وشفاها
كلُّ غصنٍ مرسلٌ مِن ظلّهِ ذيلَ مختالٍ على الأقرانِ تاها

✡ ✡ ✡

هي مرآةٌ على صفحتها نورُ وجهِ الله مذ لاحَ جلاها
ولها في كلّ يومٍ رحلةٌ بين شرقِ الأرض والغربِ مداها
لا تراها في مكانٍ واحدٍ ومحالٌ أن ترى العينُ خُطاها
وإذا ما اعترضَ الغيمُ لها نفذتْ داميةً منه ظباها
لم تزلْ وهي التي شاهدها آدمٌ ، في عنفوانٍ مِن صباها
كل شيءٍ باسمٌ إنْ سفرتْ فإذا ما احتجبتْ خلفَ غطاها
عبسَ الجوُّ اكتئاباً وأسىً وبدمعِ المزن مِن وجدٍ بكاها
حليةٌ تزهو السمواتُ العلى بسناها فإذا الغربُ طواها
بَثَّتِ النجمَ عيوناً خلفَها يتطلعن إلى أين سُراها

✡ ✡ ✡

ليت شعري وهي تُجْلى للورى كلَّ يومٍ بحلاها وضياها
هل ترى مَن قال فيها مثلَ ما قلتهُ من سائراتٍ أو رواها ؟

خليل مردم



مسرحيّة العبّاسة

دراسة فنية في المسرحية التاريخية الشعرية

للأستاذ زكي طليمات مدير المعهد العالي لفن التمثيل العربي

افتتحت الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى موسمها في هـــذا العام بمسرحية العباسة ، وهي مأساة عربية شعرية ، تؤلف الحلقة الثانية مما يكتبه للمسرح الشاعر الرقيق الملهم عزيز أباظة باشا . وكتابة المسرحية بالشعر ، ســواء وفت بشرائط الفن المسرحي أم لم تف به ، إنما هي محاولة حديثة قام بها كبار أدباء العرب متخذين منها وشائج قربى ونسب بين الأدب العربي الذي لم تكن المسرحية لوناً من ألوانه ، وبين فن التمثيل باللسان العربي . والروّاد في الأرض المجهل الوعرة تجري عليهم القولة العربية المعروفة : « قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضاً عالمها » ، وإن كان للرائد في الحالتين فخر الجهاد والاستكشاف .

ليست المسرحية الشعرية سلسلة قصائد يتعشق ذنب الواحدة منها فم الأخرى ، أو مواكب من البيان اللفظي تتوالى فيها العرائس بين حسن الديباجة وإشراق المعاني وزف الحكم والأمثال ، وإنما هي خلق أدبي أكمل من هذا وأرفع ، وأعمق غوراً ، وأبعد شأواً ، يكون فيـــه البيان الشعري كساء لا جوهراً ، ووسيلة لا غاية .

فكتابة المسرحية بالشعر ، لا تقوم على مقدرة الشاعر على النظم ، بل تقوم فوق هذا ، على مواهب أخرى قد لا تكون متوافرة في الشاعر الذي نظم والناظم الذي شعر ، أو هي تكون فيه ، ولكنها لم تروض بعد على الابتداع الحاذق الذي ينشىء من اللفظ هيكلا مجسّداً لشخصيات من الحياة الواقعة بحيث نحس دفء أنفاسها ونلمح سمات وجوهها واضحة بارزة ، فإذا طالعناها وهي تحيا حياتها المرسومة فوق المسرح أو هي تتنفس بين دفتي الكتاب الذي ينتظمها ، أحسسنا بأن ما ركب فينا كائن فيها ، والعكس بالعكس . فما كل شاعر تعرض لهذا أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله إلا من لمسته العبقرية بإحدى أصابعها الوردية .

مسرحية العباسة من وحي مخلفات هذه الحرب

ومسرحية العباسة التي نحن بصددها لا تعالج شأناً من شؤون حياتنا الجارية المتأثرة بهذه الحرب التي اكتوينا بنارها مدة ستة أعوام ، بل هي مسرحية مقتبس موضوعها من التاريخ العربي ، بما فيها من وجوه عربية انقضى أكثر من ألف عام على مفارقتها وجه الدنيا ، بيد أنها مسرحية تتصل بطريق غير مباشر بمخلفات هذه الحرب ، فهي صورة من عهد له أشباه ونظائر فيما يجري في غير مصر ، من انقراض دول ، وزوال سلطان ، واختفاء زعماء وأقيال .

وكتابة هذه الحادثة المروّعة وتصويرها بالشعر في زمن طغت فيه الماديات على المعنويات ، وأخفى ضجيج الآلة وسوسة عناصر الطبيعة ، وتلوثت فيه الوجوه والنفوس بنظاف من الدم وبسواد من الثكل والتيتيم ، ظاهرة جديرة بالالتفات تدل على أن للشعر راية لا تخفض ، وأن الشعر وسيلة خالدة من وسائل التعبير لدى الإنسان .

على أنني لن أدير قلمي في مبلغ توفيق المؤلف في كتابة مسرحيته ، قبل أن آتي بصورة عاجلة من المؤلف نفسه ، لأنه الأصل والمصدر ، ولأن ما كتبه إنما هو صورة من صور ذاتيته ، وآية من آيات تعبيره ، وقديماً قالوا « إن الأسلوب من الرجل » و « إن الجبال تعرف بلون صخورها » .

الشاعر عزيز اباظه

لا أوجّه القول لمن رأى عزيز أباظة باشا رأي العيان ، واستفحص ملامحه واستخرج معانيها ، وإنما أوجّه الوصف للتاريخ ولمن لم يشاهد هذا الفارس المختال (chevalier) في امتشاق قوامه ، وفي قلق ملامحه وتوفز لفتاته .

رأس كبير ينبسط فيه الجبين ويعلو ، ويأكل منابت الشعر في الجبهة ، هذا والشعر غزير متهدل إلى الوراء ولو لم يتداركه التمشيط لاندفع مستشزراً في كل ناحية . وحول العنق الطويل كثيراً ما كانت تتراءى ربطة سوداء قد عقدت على شكل أجنحة فراشة .

والوجه على طول القامة وامتلاء الجسم ، ترقص فيه عرامة الفتى الشابل وهي تعانق خيال المراهق الحالم ، وصفاء الطفل الغرير ، والوجه في هذا وبين هذا ، مرآة شديدة الحساسية تنعكس عليها بجلاء تعبير كل خالجة تختلج بها نفسه ، وما أرهف



منظر من الفصل الثاني من مسرحية العباسة

الرشيد ينادي جعفرا ويقول له : « تعال ادنُ من عرشي فأنت قوامه . . . . »



منظر من الفصل الثالث من مسرحية العباسة

جعفر يقول للعباسة : « فيناجي المنى حبيب حبيباً ويساقي الهوى أليف أليفا »

ما تختلج به نفسه ، وما أذخر ! ! وجه شاعر مضطرم القلب وكفى ! ! وما من مرة قابلت فيها صاحب الوصف هذا إلا تذكرت لوحة زيتية للشاعر الفرنسي الكبير فكتور هوجو بأحد متاحف باريس ! !

فإذا كان الحديث سمعت صوتاً فتياً يشع منه وهج عاطفة مشبوبة ، وتدوي فيه أصداء من وجيب قلب كبير ، وحكمت بأن المتحدث يفكر بقلبه .

فالمتأمل مؤلف مسرحية العباسة لا يلبث أن يحس بأن الزمان قد انشق عن أنموذج إنساني ممن كان يعيش في أواسط القرن الماضي بباريس ، أيام كان المذهب الرومنسي Romantisme في إبانه وقد فرض طابعه على الأدب والفن والزي بعد أن تغلغل في أعماق القلوب . ولا يلبث أن يشعر بأنه أمام رجل قلبه على طرف لسانه ، ومظهره لا يجافي مخبره ، وظاهره قلما يختلف عن باطنه . ومثل هذا الرجل ، يكون في العادة مفطوراً على الإخلاص لنفسه ، مجبولا على أن لا يظهر في غير ما يكون عليه قلبه .

وقد ذكرت كلمة «القلب» مراراً في سياق الوصف لأن عزيز أباظة يعيش بقلبه أكثر مما يعيش بذهنه ، ولا سيما في حياته الخاصة ، والأدب من الحياة الخاصة ، وهو لديه خفق قلب أكثر مما هو نبض ذهن ، وهو طبع لا ينبض النبض الصادق المدوي إلا إذا أهوى صاحبه بيده يضرب بها قلبه ، وهذا شأن شعراء الرومنسية (*) ، بل هو شعارهم . وهكذا يتجلى لنا بعض من حوافزه فيما يكتب ، وهي حوافز مستمدة من عصف القلب وليس من خفقه ، ومن ثورة العاطفة وليس من اهتزازها المألوف ، ومعينه فيها اتقاد عصبي وحماسة عاطفية ، ومن هنا كان أسلوبه البياني الحار الذي يتقد ويضيء ، فيهز المستمعين ، والقارئين . وإذا نظمنا عزيز أباظة فى سلك الرومنسية ، فليس هذا انتقاصاً لقدر شعره ، فللرومنسية مفاتنها ولها مآخذها .

عزيز اباظه المؤلف المسرحي

دخل عزيز أباظة رحاب المسرحية ، يحمل أزواداً كبيرة من الطبع الذي يعلي شأن العاطفة على العقل ، ومسرحية العباسة ، كسابقتها قيس ولبنى ، تحمل في طياتها كل خصائص المسرحية الرومنسية في طرازها الجيد . ومن الحرج والتجني أن نحاسب شاعرنا المؤلف على غير ما يجب أن يكون عليه هذا اللون من الأدب المسرحي .

(*) الرومنسية مذهب أدبي معروف يقوم نتاجه فيما يقوم عليه على غلبة العاطفة على الفكر وسيطرة القلب على الذهن ، ويعزى إلى بعض شعرائه مغالاة في الجنوح إلى إتيان ما لا يقره المنطق كله من أخيلة وآراء ، فلهم فيها شطحات كما أن لهم فيها إشراق البيان وجودة الاختيار في الألفاظ .

وحسبنا لمسات رقيقة وجسّات عابرة للتبصير وللمراجعة . ذلك بأننا نضن بشاعرنا المؤلف أن يقف عند ما انتهى إليه ، وهو صاحب قيثارة في الشعر ساحرة ، وصاحب همة وجلد ، وله من سنه وثقافته وآماله نصير من الغد . وما أظنه يجهل أن الشاعر الفرنسي الرقيق ألفريد دي موسه بدأ حياته في الشعر والمسرحية رومنسياً خالصاً ، وانتهى منها وقد خلص من الكثير من رومنسيته ، وأنه خالد في الأدب العالمي الرفيع بمسرحياته المعروفة باسم «الأمثال» Les Proverbes أكثر من «لياليه» ومن مسرحيته الكبيرة «رومنزاسيو» .

المؤلف واقتباسه من التاريخ

لا حرج على المؤلف المسرحي في أن لا يكون أسيراً للتاريخ في كل ما يورد ، حتى لا تكون المسرحية التاريخية حواراً قد انتظم في فصول ومشاهد لما ورد في الكتب .

ولقد عاب النقاد على مؤلف العباسة في اقتباسه من التاريخ ، انحرافاً عن المنهاج السوي المتفق على صحته ، وأخذاً بالرواية المريضة المدخولة ، بل بما أنكره بعض ثقات المؤرخين كابن خلدون والطبري ونبهوا إلى بطلانه ، فالمؤلف يرجع السبب في قتل الوزير جعفر البرمكي ونكبة آله ، وهذا محور المأساة التي تقوم عليها مسرحيته ، إلى نكث جعفر بعهده للرشيد في أن يبقي عقد الزواج الذي عقده له على أخته العباسة غير نافذ ، وغير معمول به . وعدّ النقاد هذا تشويها للحقائق لامبرر له ، وتجريحاً لسمعة خليفة إسلامي عظيم ، ولأميرة ينتهي نسبها إلى عترة الرسول . ولا سيما أن المراجع التاريخية صريحة في هذا ، إذ قد أرجعت أسباب هذه المأساة التاريخية إلى فزع الرشيد مما انتهى إليه سلطان البرامكة ، وخوفه من أن ينفلت زمام الخلافة من بين يديه ومن الهاشميين ، والواقع أن نكبة البرامكة إنما هي خاتمة الصراع الذي قام بين العرب والفرس منذ أن قامت الدولة العباسية على أكتاف جنود فارس وأمرائهم ، وقد جرى الفصل الأول من هذه المأساة يوم أن أطاح سيف أبي جعفر المنصور ، جد الرشيد ، برأس أبي مسلم الخراساني الفارسي الذي أبلى في خدمة بني العباس .

وإحقاقاً للحق نقول في صدد هذا المأخذ ، إن المؤلف مزج بين ما هو متفق على صحته ، وبين ما هو مدخول في أسباب نكبة البرامكة ، ولكن في ميل واضح إلى الارتكاز على ما هو مدخول وغير متفق على صحته ، بدليل أنه جعل ما هو متفق على صحته من الأسباب «قولا» يجري على ألسنة بعض شخوص مسرحيته ، في حين أنه جعل ما هو مدخول من الأسباب «عملاً» من صميم حوادث المسرحية .

ولعله تعمد هذا، وهو أغلب الظن، ابتغاء الدفاع عن جعفر وإرادة نصفته والبرامكة الذين كانت لهم ولا شك أياد في ازدهار دولة العباسيين وفي خدمة الإسلام ؟ ؟

أو لعله تعمد هذا ليعالج عقدة نفسية لمحها في خلق الرشيد، وليظاهر حقيقة إنسانية خالدة، وهي أن الغريزة الجنسية تكون أحياناً أقوى من كل وعد وقسم ؟ ؟ وردنا على هذا، أن الدفاع عن جعفر واه من أساسه، وفيه على جعفر أكثر مما له، لأنه يقدمه في صورة الحانث بالعهد، وهو أيضاً دفاع إن أفاد جعفراً بعض الفائدة، فإنه يحكم على الرشيد بالخرق وخبال العقل. والرشيد، كما نقرؤه في التاريخ، خليفة موفور العقل والدين ! !

ولو كان المؤلف تعمد علاج عقدة نفسية في خلق الرشيد... الخ. لرأينا المسرحية تجري على غرار آخر من المشاهد، ومن التحليل النفسي الحديث، الذي كان يجب أن يقوم، وهو يفسر تصرفات شخوص المسرحية، على تسجيل لوامع (العقل الباطن) حيث تربض الغرائز، ثم معارضتها بالبادارت السطحية التي مبعثها (العقل الظاهر) أو الواعي، وطراز التحليل الذي أخذ به المؤلف غير هذا العناء.

والذي أراه، أن المؤلف انجذب إلى الأخذ بما هو مدخول في أسباب هذه النكبة لأنه لم يجد في سواه المجال الرحب الذي يرتاح إليه ليرخي فيه العنان لطبعه المشبوب، والموطن الذي يعلن فيه شأن العاطفة والخيال على سائر ملكات الذهن المبتدعة. والمؤلف يميل بطبعه الذي أجملت وصفه، إلى أن يبكي ويستبكي، وهو لا يحلق، ولا يكون في أوج شاعريته إلا في هذا، أو فيما هو قريب منه ومتداخل فيه.

المؤلف وشرائط المسرحية

ومسرحية العباسة تتسم ببطء في الحركة المسرحية، وفتور في تتابع المشوقات، وفي نشاط العرض، ومرجع هذا أن المؤلف، وشأنه في هذا شأن المسرحيين الرومنسيين، مسوق عادة إلى الأخذ بالكلام، وهو الحوار، مبالغ في إيراده، معني بتنسيقه، وبرز محسناته البيانية بحيث يجعل شخوص المسرحية يتكلمون أكثر مما يعملون، والحركة المسرحية ونشاط العرض أساسهما ما يعملون وما يقولون في إيجاز معتدل. كما أن مفاجآت المسرحية ومشوقاتها يتصلان بالحركة أكثر مما يرجعان إلى القول، وهما عدة المؤلف المسرحي لدفع السأم عن الجمهور الذي لا يقنع ببلاغة الأسلوب.

والمؤلف المسرحي إذا جعل عامة شخوصه يعملون بقدر ما يقولون، أو أزيد،

يكون قد اختار وسيلته الأولى إلى الكشف الدقيق عن طوايا نفوسهم ، لأن الإنسان يفصح عن حقيقته ، ويحكم على نواياه ، بما يقدمه فعلا لا بما يتشدق به قولا ، وهذا الكشف الدقيق مجاز إلى التحليل النفسي الذي هو عماد المسرحية الحقة .

والتحليل النفسي في المسرحيات مراتب وله فيها منازل ، وهو اليوم ظاهر وباطن ، بفضل ما أضافه على نظرياته الأولية الفيلسوف برجسون والعلامتان في علم النفس فرويد و أدلر ، ومن التحليل النفسي ما هو صادق وما هو كاذب ، وما يلبس وجه الحق وهو باطل ، وما هو سطحي وشاحب ، وما هو عميق وواضح . وما من مسرحية مهما قل حظها من القيمة الفنية ، إلا ولها نصيب من هذا التحليل النفسي ، ولكنه نصيب لا يكتب لها البقاء إلا ريثما يشبع الجمهور من مطالعة مشوقاتها ومفاتن إخراجها وتمثيلها . وأحسن التحليل النفسي ما ينفخ في شخوص المسرحية دفء الحياة ويقربهم إلينا ويبرز سماتهم ، وأفضله ما يرسم به هؤلاء الشخوص بحيث يجعل من تصرفاتهم وأقوالهم مرائي صافية لما هو كائن فينا ، مما نحسه ونفعله ، أو نشعر به ولا نعمله ، وأحذقه وأحدثه ما يعمل على رد الأفعال والأقوال إلى لمعات العقل الباطن وحوافز الغريزة المقنعة في أعماق النفس تومىء ولا تفصح .

أسلوب المسرحية

من اللطيف الجيد ولا شك ، وسيكون لنا بحث مفصل فيه يوم تطبع المسرحية وتصير بين أيدينا ، نراجع ونوازن ونتأمل ونرد الفرع إلى الأصل ، لأن المؤلف جدير بهذا ، إلا أننا نبادر فنقرر أن الشعر الذي سمعناه موفق الروي ، وفي عباراته سبك ، وفي نسجه تلاؤم ، وفي ألفاظه سلاسة ، ترتفع موسيقاه الفينة بعد الأخرى فتكون للتطريب وهز المشاعر ، وليس للمعاني فحسب من حيث إيرادها في مستحقها من النغم ، والشعر بجملته يشرق أحياناً ، ويومض كثيراً ، وقلما يخبو له وميض . وقد راعتنا فيه أصداء بعيدة من ديباجة أبي تمام وإشراقات البحتري ، تبطنها حماسة عاطفية بالغة ، ولعلّ وقدة الألم السوّار في نفس المؤلف من جراء فقد حليلته ، ما زال يلهب أعصابه ويبعث الوهج في عباراته كلما دار قلمه في جنبات المواقف المفجعة .

التأثير العام

بيد أنه على الرغم مما أخذناه على المؤلف — وكفى المرء فخراً أن تعد معايبه — تحظى المسرحية كل يوم بإقبال الجمهور ، وأوكد أن من يشهد هذه المسرحية لن يعدم سماع نشيج يرتفع هنا ، وبكاء ههنا . وهذه ظاهرة لا تحلل ما وراءها إلا من الناحية التي تشهد بأن الجمهور المصري يهزه الشعر ويطربه البيان المنغم ، وتهزه العاطفيات والوجدانيات ، وأن المؤلف قد حلق في بيانه الموصوف وأجاد إلى القدر الذي يبعث النشوة والطرب . وقد زاد في تطريب الجمهور وانتشائه ، طريقة أداء الممثلين والممثلات أدوارهم ، فقد كانوا ينشدون الشعر في أدوارهم إنشاد شاعر يستهويه الوزن والإيقاع ، وليس إنشاد ممثل حاذق يخضع الوزن والوقف في نهاية العبارات وفاقاً للمعاني وللعوامل النفسية المتمشية في الكلام ، مع الأخذ بالاعتدال المطلوب في إيراد الصوت .

والحق الذي لا يجحده غير الحسود والمتجني ، أن مسرحية العباسة تعتبر إضافة ذات قدر إلى الأدب العربي المستحدث ، وأن الفرقة المصرية قد أحسنت بتقديم هذه المسرحية ، وأن من واجب القائمين عليها أن يرعوا جهود هذا الشاعر الذي يتألق له نجم . وإنني على ما أخذته على مسرحيته الأخيرة ، أرجوه أن يواصل جهوده ، فالزمن ، والمحاولة المستمرة ، والدأب على توخي التجديد بالاعتبار والتبصر ، كل هذا كفيل بأن نطالع منه ما يجب أن يكون عليه قلمه في تأليف المسرحية الحقة .

زكي طليمات

ذلفاء أختُ الصّقوُر

أقصوصة لبنانية للأستاذ كرم ملحم كرم بيروت

مزرعة الشوف الغارقة في البداوة حتى ناصيتها، الصلبة في صخرها وهوائها ومائها، الواقفة وقفة التحدي إزاء قرى المختارة وعين قني وعماطور، المنجبة الغيارى المندفعين في الشدة كالسيل الجراف، صورة ناطقة للقرية اللبنانية الصرف. فلم تنحرف بها الحضارة عن الطابع الأثيل. وما مزرعة الشوف ؟... بلدة لا نظام فيها وقد نبت عن كل نظام، فكأن منازلها تدحرجت من القمة الصلعاء إلى روائس الوادي. صخور هوت عن مرابضها فتبعثرت في كل صوب. لا روعة في البناء ولا قاعدة في الرصف. فهي على فوضى كأنها تتنكر للرونق والديباجة، على أن الإقدام يطل منها عارماً، فإن ساحتها ميدان لقوة الأعصاب، فمن أجران يرفعها ذوو القدرة إلى ما فوق رؤوسهم، إلى مقابضات تلتوي بها السواعد الحسيرة، إلى أهداف يثقبها الرصاص السديد.

وفي ذاك النهار من سنة ١٨٤٢، وقد تحطم مقعد الإمارة الشهابية في لبنان وهوى الأمير بشير الثالث في أثر الأمير بشير الثاني الكبير، تصاول شبان المزرعة المغاوير في رفع جرن ضخم مطروح في ساحة القرية باعتزاز. والمزرعة على شطرين، في قمتها الدروز وفي صدرها النصارى، غير أنها لم تكن تدري أنها ذات لونين في الدين. فالنصارى والدروز على مودة. ولم تشعر القرية بأنها على انفصال في سوى طابعها السياسي. فهي في السياسة قبيلان، يزبكي وجنبلاطي.

واحتشد على الجرن الراسخ في كبد الساحة ذوو السواعد المفتولة ينظرون إليه بخشية ويزونه بعيونهم الواعية. وتنحى من أحس في نفسه الضعف. فلن يقدم على ما يخزيه. واستقر في المضمار ثلاثة: جرجس خالد الصائحة فيه القوة الهازئة بالويل، وحسين نجم، وقاسم أبو عين، وهما ممن صلبت عضلاتهم واستطالت على الحديد تغمزه وتلويه.

وقبض جرجس خالد على الجرن ورفعه بعزيمة قاهرة إلى ما فوق رأسه، ثم

أهوى به ليعود فيشيله ويمسك به دقيقتين مرفوعاً على مدة ذراعه وعروقه تكاد تنفزر في جبينه ، ولونه يميل إلى الزرقة وقد احتبس فيه الدم المكدود .

وجمدت الأنفاس في الصدور إعجاباً وتقديراً ، فكأن الجميع يشاطرون الظافر العناء . وطرح جرجس الجرن عند قدميه بين هتاف الإكبار والتصفيق : عشت . عشت ! ... أنت لها في المواقف البيض !

وحسين نجم لم يعجز عن رفع الجرن وهو من الصلابة على مكنة ، إلا أنه قعد عن التثنية ، فما ضارع جرجس خالد في الشوط . وأقبل قاسم أبو عين ينتخي ، فشد بالجرن وارتفعت به يمينه إلى رأسه، وإذا به يرتجف ويسيل عرقاً ، فسقط الجرن من يده وهو يلهث . على أنه أعلن بثقة بالنفس : لقد رفعته !

فاعترض حسين نجم بقسوة : بل أنت قصرت فيه !

— رفعته إلى رأسي ، مثلك !

فسخر به حسين قائلا : بلغ جبينك وقد كدتما تتدحرجان معاً . الحمد لله على بقائك على قدميك !

فاستشاط قاسم أبو عين غاضباً ورشق حسيناً بالمقال الدامي ، فارتد إليه حسين والخنجر بيمينه . واحمرت العيون ، وكادت تقع الواقعة . فالحزبان اليزبكي والجنبلاطي يكادان يشتبكان. ووقفت النساء في العين على أهبة كالرجال. وإذا فتى وافر الجلال، بادي الهمة ، ينسل من الحشد ويقف بين المتخاصمين ويقول بلهجة آمرة : على رسلكما !

وأمسك باليد الشاهرة الخنجر ينتزع منها خنجرها ويقول : حسين ، لن تمس قاسماً بأذى !

فلم ترتفع نأمة بمعاندة ، فالمتكلم شاهين أبو كرم عميد القرية ، الباذل درهمه لكل من يأتيه وصاحب الكلمة الفاصلة في إخوانه . وجمع بين حسين وقاسم وانحدر بهما إلى منزله يحي لهما أسخى وليمة . وانحنى الفريقان أمام الحكمة البليغة التدبير . ولهجت القرية بالإطراء والمحمدة . فليس كشاهين أبي كرم لفض المشاكل على جسامتها والتوفيق بين مضطرب النزعات .

***

وذلفاء شاهدت وسمعت ، ذلفاء امرأة قاسم أبي عين أجمل فتاة في القرية ، ذات المقلتين الدعجاوين والقامة النسيقة . فكانت بين حاملات الجرار حول عين الماء الشحيحة المورد ، المتهادية إلى الحوض بإمساك . ولقد راعتها من شاهين أبي كرم نخوته . هذا فتى

الفتيان وصديق البيت ، لا ينقضي عليه يوم إلا وقد جالس زوجها مراراً وآكله . فالألفة تربط بعضهما ببعض بوثاق غليظ . وذلفاء على إعجاب بهذا الصديق النصراني العالي المكانة ، المبسوط اليد . وتعاظم به إعجابها وقد أنقذ زوجها من ورطة خطرة . فأسرعت إليه في اليوم التالي ، في فم الصباح ، تموج فيها روائعها وفي عينيها بريق من الشكر وعرفان الجميل . قالت وفي لهجتها رعشة من حنين : أبا ملحم ، أجزلت لنا المعروف ، ولسنا ندري كيف نقر بالفضل ، قاسم مدين لك بالحياة !

وشاهين أبو كرم من المكبرين في ذلفاء رواءها وسناها . فرماها بنظرة ما خلت مما توهجت به باصرتا هذه الروعاء . إنها لذات وضاءة ندية . وهو مع رؤيته إياها في كل يوم يشتهي أن يتملى أبداً منها ، ففي وسامتها ما يأسره . إلا أنها امرأة صديقه ، وصديقه أثير عنده ، فما لبث أن أطرق بنبل مطبوع فيه . فلا يجوز لمثله أن يثير الشك في قلب امرأة ذات تقى وفضل ، عدا أن الصديق لا يخون صديقه في نظرة ، في إغماضة من فكر ، فكيف في أعز وأمنع ما لديه ؟

ونادى شاهين أبو كرم إليه امرأته لتجالس ذلفاء ، ولم يكن العهد يجيز أن ينادي الرجل امرأته باسمها ، بل باسم ابنها البكر ، فصاح : يا ملحم !

فأطلت زوجته ترحب بالزائرة . ولم ترقب ذلفاء هذه المفاجأة وقد جاءت تعلن ما في صدرها ، فقطع عليها شاهين أبو كرم المجال وانطلق إلى ساحة القرية يلتمس فيها التمويه . غير أن التمويه نبا عنه ، فهو يحترق فيما تحترق فيه ذلفاء من صبوة وجوى . منذ عهد بعيد وهما على ضرم ، والأنفة والأمانة تمسكان بهما عن الجهر بمكنون الضمير . أما الآن ، وقد أنقذ شاهين صديقه قاسماً من الغائلة فضاق خاطر ذلفاء عن العاطفة المستعرة فيه وشعر بما يكرهه على الإعلان . وجاءت الولهى تفضي بما يجيش في بالها فتنكب شاهين أبو كرم عن الإصغاء إلى شكوى يشتاق سماعها ويخشى أن يعيرها أذنيه .

ومما راع ذلفاء في فتاها إقدامه ، فهو في الملمات فارس همام . وجوده ، فإن منزله لمفتوح الباب أبداً للضيف ، يستدين المال لإطعام الناس . ووسامته ، ففي قسماته جلالة وأبهة . فما إن يقبل إلى القرية على متن فرسه حتى تتسابق ذوات الجهارة إلى رؤيته في حسن هندامه ونضارة طلعته . ثم هو وجيه يخالق الوجهاء . فليس بين كرام اللبنانيين من يجهله . وله في النضال جولات . فلا يحجم عن مجاهدة العظماء لأجل مبدإ يراه صواباً ويجدهم في مناوأته على ضلال .

وذلفاء امرأة متحمسة للذكاء والمروءة ، ولم تكن تخفي إكبارها لشاهين

أبي كرم ، فتحدثت عن سجاياه الغرّ في أذن القرية وعينها . فهو مثال يحتذى . وخاطبها ناظراه بحبه الصادق ، ولكن بجانب هذا الحب صداقة زوجها . فما إن تقع عليها باصرتا شاهين حتى يضطرب الفتى ويشمر في الفرار . ليس يبغي مع هيامه بذلفاء إن يخرق حرمة الأخوّة بينه وبين قاسم المقيم وإياه على هوى سياسي أيّد وعلى وفاء أثيل .

ولدى جلوسه في ساحة القرية — وكان يجلس فيها لماماً — لا تحين منه التفاتة إلا لتقع على ذلفاء ، فكأنها أبداً على خطوة منه . ويغضي على استحياء ويواثبه الخجل . وتخونه عينه في لفتة مرتجلة فتلوح له ذلفاء بعينها قابضة على عصام جرتها ونظرها إليه . وتتيه عن جرتها فتمتلىء ولا تحس بها وقد شخصت بكل ما فيها إلى سيد القرية الحصيف الرزين .

وتطول وقفة ذلفاء . ويطول إطراق شاهين وقلقه ، فينصرف إلى منزله حزيناً . وتتوقل ذلفاء إلى دارها على مسرة ووجوم . فهي واجمة لكونها أحبت من لا يجوز أن تحب ، وناعمة بالمسرة لكون من أحبت مفخرة من المفاخر ، فالقدرة والمناعة تنتهيان إليه .

وتوالت الزيارات . فهي مما ليس منه بد . شاهين لا يقوى على النكوص عن دار قاسم ، وقاسم لا ينقطع عن شاهين . وكلما اندفع شاهين إلى منزل صديقه دق الباب وصفق. ويتفق أن قاسما ليس في المنزل فتبدو ذلفاء ومنديلها لا يستبقي من وجهها سوى إحدى عينها ، وتقول بغبطة : تفضل يا أبا ملحم ، قاسم في غيبة !

فيرتجف قلبه وقد لاحت له في صباحتها ، وينكفىء وفي صدره حسرات . حبه يشدّ به إلى الدخول وحفاظه يأبى عليه الإثم حتى في نظرة . فيتوارى وهو يعض شفته تألماً ، إنه لصريع حبه الممنوع !

***

وتوالت الأيام على اضطراب وغليان . يسعى الحبيبان للقاء ويبتعدان عنه . يحاولان الإفضاء بما يتأجج فيهما من لهيب ولا يملكان الجرأة على الإفضاء به . وربما لا يجدان الإفشاء حلالاً ، مع أنهما في ميولهما على تعتعة . فإنه لمجتاح هذا الحب الصامت ، المتجافي عن البيان . يحاربه المبتليان به فيزداد اشتعالا . وهو لو لقي منفذاً إلى المصارحة لعرف بعض الهدوء والاطمئنان .

ولم يكن من سبيل إلى الابتعاد . فالصداقة تفرض التداني . وإذا هجر شاهين أبو كرم القرية لرحلة من الرحلات غادر المزرعة وفي حناياه تتواثب سورة الهوى جائحة

كالثورة ، وعاد وهو يبدي مناعة الجانب ، على حين يثلمه حبه ويذيقه الألم العصي .

***

وذات يوم مرض قاسم أبوعين . مرض في الصيف . موسم الحرير مضى وموسم الزيت لم يطل . فأدركته الحاجة ، ومن للصديق غير الصديق ؟... إلا أن ما أصاب قاسما أقعده عن الكلام . فلم يكن يقوى على الإيضاح . والأولاد صغار لا يدرون ما هم فيه ، ولا يدركون ما يتعرض له أبوهم من علة . فالاعتماد على الأم دون سواها ، على ذلفاء ساحرة القرية . وذلفاء من لها في الضيق ؟... لم تجد غير شاهين الخدين الصفيّ !

وشاهين يعود صباح مساء صديقه العاني . فيؤانسه ويؤاسيه . ولقد حبت إليه ذلفاء تقول بلهجتها الحلوة ، المرنان : جئنا نستمطر الفضل يا أبا ملحم وقد عوّدتنا إياه !

فالتفت إليها مدهوشاً . ماذا تريد ؟ .. ولم يلبث أن فطن إلى ما تريد . قال : أتكونون بحاجة إلى المال ؟

وكم كان يزدري المال . فالذهب عنده أحقر ما في دنياه . ولم يفسح لها إلى الإيضاح . فقفز إلى منزله وعاد منه بصرّة طفحى . وألقى الصرة بين يدي ذلفاء وهو يقول : لا تعفيني من مطلب . إذا مرض قاسم فكلنا في خدمته . اعتمدوا عليّ في حاجاتكم كافة !

وغلت الحمية في مقاله . ففار الدمع في عيني ذلفاء . هذا دمع الشكر النديان والحب الرويّ . حمية شاهين أبي كرم نطقت بأروع آية . وانصرف شاهين وقد أدى ما عليه . فلم تكن أنفته تجيز له البقاء مع شدة حنينه إليه . ولكن ذلفاء أضحت أشبه بإناء قد طفح فلم يبق فى الاحتمال وسع . فإنها لمدفوعة على كره منها إلى بسط خلجات نفسها . وارتفع صوتها بنبرة آمرة ، مستجيرة : أبا ملحم ، ارجع ، لك عندي مقال !

فتكشّف لذكائه الوارف ما تسعى للادلاء به وأحجم عن العودة . لن يرجع لسماع المشتهى الحرام . فليتعذب وليحترق فى هيامه . الشقاء في هواه ولا الغدر بنجيّه ، ذلفاء الناصعة الجبين والرواء يجب أن تظل على نصاعة في الجبين والرواء . فلن يخدش شاهين أبوكرم نقاوتهما . وسبقته ساقاه في قهر فؤاده . ولكن ربما كان فيما اعتقد على وهم . ما يدريه أن ذلفاء لا تحتاج إليه في مبغى عفيف ؟.. وارتد على مضض . قال وعيناه في الأرض : ماذا ياحرمة ؟

وما ناداها باسمها ، بل ناداها بما يعلنها أنها حرام عليه . وكانت تمسح دمعها ، قالت : اجلس ، ماذا عليك إذا جلست قبالتي ؟ .. أنت صديق هذا البيت وسنده ،

ولا أراك إلا ممعناً في التنائي ، بم أسأنا إليك يا شاهين ؟

فلمس القصد من دعوتها إياه وتململ ، غير أن الفرار بات عليه من المحال . فتناول غليونه ، وهو من خشب الورد ، وحشاه تبغاً وأخذ في التدخين . إن الموقف ليفرض عليه الإصغاء والبيان . قال : لست أنأى تأففاً . كوني مما أجاهرك به على يقين . ولكني أنأى إجلالا . فأحارب شوقي إليك بالانصراف عنك لتظلي تلك المرأة الطاهرة العرض ، البعيدة عن الأقاويل . إن ما في صدرينا ليتعادل في صراخه وفي وثوبه ، إلا أن الفضيحة لست أرتضيها لي ولك . كل منا يحب الآخر ، فلا مكابرة . بيد أن هذا الحب يجب أن نقف به حيث لا نخجل منه . أنا أضطرم في جحيمه ، ولكني أذكر أنك امرأة صديق حبيب ، وأن على مثلي أن يدخل منزلكم كشقيق . أدركت لماذا تذرفين الدمع ، إن هوانا لمحرق ، فكل منا يتعذب فيه . ولكن على كل منا أن يتمثل قاسما ، زوجك ، بجانبه وهو يهمّ بأن يفاجىء الآخر ببادرة تخزيه !

ونطق فيه الإباء بضلاعة وفحولة . هذا أمير بيان وحفاظ . ولقيت فيه ذلفاء نجداً أروع . من هذا المستوى تريد الرجال . يحبها ولا يستجيز أن يشوه فيها عهد الأمانة . ولم تكن دونه سمواً في الجوى . فهتفت متحمسة : أبا ملحم ، ما أرفعك وأ كملك . الصداقة عندك تنسخ الهوى الحرام . وهو ما تصبو إليه روحي . فالعار في التبذل ، والدناءة في الدعارة . وحبنا أرفع من الإسفاف . إنه ليغمغم فينا ، ويجب أن يظل على غمغمة . فلا يبلغ الإفصاح . هذه حدوده . تتكلم الأعين ونكتفي منها بما تنضنض به من كلام . ما كنت أرغب في أن أفضي إليك بما ألقى من هذا الحب المشتعل في جناني ، إلا أني ما استطعت خنق صوته وقد غلبني . إنها لفضيحة . بيد أنها تتقى . ففي إماطة اللثام عن سرنا بعض العزاء يا شاهين !

وحرصا ، مع حبهما، على الرسوخ في عفافهما . ولم يطلق شاهين أبو كرم إلى ذلفاء عيناً يجلو بها محاسنها . ولا هي أزاحت منديلا تتلألأ في مطاويه قسماتها ، فالعين الواحدة ، السافرة ، ظلت عيناً واحدة . قال شاهين : إننا لنعاني المرهقات في حبنا ، والفضل في أن نعانيها . فما أجمل الحياة وكل منا ينطوي للآخر على وجد صيّاح ويميل بهذا الوجد عن تدنيس الصداقة . فلا يهاوده في لمسة . لنبق كما نحن . يكفينا أن يرى بعضنا بعضاً وأن يخاطب أحدنا الآخر . فاللذة الفائقة في الحب الشريف العفيف !

ونهض يبغي الرحيل وفي نفسه من ذلفاء وفور هيام . وفي نفس ذلفاء منه رفعة مكانة . والحبيب الصدوق من اتقى المخازي وصان الأعراض . وسرّها أن تكون باحت

له بخوابسها ووعت حديثه عن هواه . إنه ليبادلها العاطفة على مداها ، عاطفة لا تذل فيها جباه ولا تحمرّ خدود !

وانقضت عليهما سبع سنوات وقد قنعا فيها بحبهما المقصوص الجناح ، يغرّد ولكن لا يطير . وإذا لبنان يعتكر جوه . فتبددت فيه الأيام السمان وأطلت الربد العجاف . هذه هي السنة الألف والثمانمائة والستون . فما تذوق اللبنانيون من رغد وألفة أذابوه في هذه السنة الحمراء . فالشقاق ثار فيهم ، وعرفوا أنهم دروز ونصارى وكانوا يجهلون انطباعهم على فواصل يفرضها الدين . فلم يكن من مصلحة الدول أن يسعد لبنان . وامتدت الأيدي إلى الصدور تهزها . وغاصت الخناجر في الحناجر . فالشمس اعتلت في ذلك اليوم وقد أثخن لبنان جراحاً ، ولطمت عذارى الجبل وجوههن خيبة والتياعاً ، وتجهم الأفق الموشى بالورود ، وتنكر الأخ لأخيه وقد فتنهما الواشي بالمقال الكذوب ، فاقتتلا وخضبهما الدم البريء . وفي هذا الدم البريء انتفضت دير القمر وزحلة ومزرعة الشوف ، فالأخوة صارت إلى الوأد ، والمودة طواها الديجور !

وفي المزرعة لجأ المسيحيون إلى موئلين ، إلى الكنيسة وإلى دار عميدهم شاهين أبي كرم . فازدحموا في عليّة منزله يناوئون مهاجميهم . والمهاجمون أرادوا العميد . فإذا التوى الرأس تضعضع الجسم ، وانقضوا على العليّة يهدمونها حجراً فحجراً ويصطادون فيها كل قصير العمر . وتلفّت شاهين أبو كرم إلى ما حوله فإذا به يقاتل وحده وقد ذهبت المنايا بالرفاق الشُّوس .

وأظلم الليل والرجل وحده وراء متراسه يمضي في الذود عن حوضه . على أن الليل أبو السكون . فما لفّ هاتيك الأنحاء بدثاره الفاحم حتى هدأت الفورة . وماجت عينا شاهين أبي كرم في الجثث يتبينها على وهج إطلاقات من النار ، تروّع آناً بعد آن الصفاء الفاجع ، فهاله أن يقيم في مقبرة بلا غطاء . وصبر على المحنة . سيموت كما ماتوا ، بهمة المستبسل الأنوف ، فلن يجبن وهو المقدام . وعمد إلى البنادق والغدارات المتراكمة أمامه يحشوها ليطلقها على دفعات . لئلا يدري الخصوم أنه فرد . وإذا همس حادّ يرتفع وراءه : أبا ملحم ، أبا ملحم !

من يناديه ؟ . . وعلا الهمس فأضحى جمجمة : أبا ملحم ، أنا ذلفاء . الحق بي . جماعتنا يبغونك ، أنت هدفهم الأوحد ، إخوانك غلبوا على أمرهم فجئت لإنقاذك من الويل الداهم ! تعال .

فارتعش وقد عرف ذلفاء . ارتعش . وأكبر المسعى . هذا هو الإخلاص

الزكيّ . ذلفاء تغامر وتجازف في سبيله . إذا شعر بها بنو قومها سفكوا لا محالة دمها . فما هذه الحمية النافخة فيها ؟ . . وجمدت يمينه وهو يحشو إحدى الغدارات . قالت ذلفاء : أسرع ، أسرع ، لا تعرضني للغائلة !

فأجاب بعنجهية : لن أبرح الساحة . سأموت كما ماتوا . هذه الضحايا النقية الجباه بحاجة إليّ . علي أن أثأر لها . انصرفي . صنيعك يزيد في مضاء عزيمتي . شكراً لك وقد فكرتِ في مثل هذه الساعة في صديق حرج الموقف !

فأبت الانصراف . ما جاءت لتعود خالية اليدين . انحدرت من القمة إلى السفح لتستله من الجائحة ، فلن ترجع على إخفاق . قالت بإلحاح : لا تطل الجدل . تعال . إذا شعروا بي قتلوني . تظاهرت بأني أحمل إليهم الطعام وأنت مطلبي . لا تنس أنك أنقذتنا مرتين . نحن قوم نحفظ اليد البيضاء . تعال !

وأشارت إلى يوم المصاولة على الجرن ، وقد أوشكت الواقعة أن تقع بين حسين نجم وزوجها قاسم، فأصلح شاهين أبو كرم بين المتخاصمين . ولمحت إلى إنجاده إياهم في الضيق . فهز برأسه وهو يقول : محال . هنا مثواي . لن تبعديني عن معقل الشرف . قمتِ أجمل قيام بما عليك حيالي . فالوفاء أدركِ في مغامرتك النبيلة أسمى الذرى . هذا يومه الأغر . فدعيني أضارعك في الوفاء لبني قومي واذهبي على بركة الله . اذهبي . أخاف أن ينالوا منك ، ولست أرضى أن يصيبك مكروه لأجلي !

فلم تشأ أن تسمع . لن تنصرف إلا ويده بيدها . قالت بقوة لا تلين : سأبقى هنا مادمت تأبى أن تكون رفيقي. ليقتلوني . لا بأس أن ألقى مصيرك ما دمت تريد لنفسك الموت!

فأحرجته . ولم يكن منه إلا أن غمغم بشدة : انصرفي ، انصرفي !

وخشي أن يسمعوه فجاهد في دفعها عنه . ولكنها مانعت في الرحيل إلا وهو إلى جانبها . فكلما دفعها عنه ارتدت إليه . قالت : طاب لي الموت على مقربة منك ، فلا حرج علي إذا شابهتك في المصير ما دمت تعاند في توفري على نجاتك . ها هم أولاء أقبلوا . ليقتلوني قبل أن يقتلوك !

وسمع وقع أقدام . وخشي على ذلفاء من حز المدية الرهيفة . بل خشي كل منهما على الآخر . ولم يجد شاهين أبو كرم بداً من صد الفضيحة عمن جاءت تصد عنه الموت . فإنه ليكابر في المقدور ويطرح امرأة ذات معروف أثير في أشداق الهلكة إذا تنكب عن الإجابة . قال على مضض وإكراه : أنا منطلق في أثرك ، فسيري أمامي !

فشدّدت عليه في أن يسير وإياها جنباً إلى جنب مخافة أن يميل عنها

ويعود إلى معتصمه . والتحفا الليل إلى منزل قاسم أبي عين . وإذا اعترضهما معترض في الطريق رفعت ذلفاء صوتها تعلن نفسها بجرأة لا تميع . فكأنها الصقر في مسبح الغيوم يردّ عمن يحرسه العوادي . وفي منزلها فسحت لشاهين أبي كرم أرحب مكان . قالت : أنت هنا في منجى مصون !

ولكن الصباح انجلى ولم يقصف البارود في عليّة شاهين أبي كرم ، فأين المحاصرون فيها ؟... ودنا منها الدروز فإذا بهم أمام أكوام من القتلى وليس في العلية ذو نفس يتردد . وبحثوا عن شاهين أبي كرم ، عميد القوم ، بين القتلى فلم يجدوه . فأين هو ؟ . . . هل انسلّ إلى الضواحي يطلب النجدة ؟

وذكروا أن ذلفاء شقت إليهم الليل ، فهل عرّجت على شاهين وأنقذته ؟ . . . وكلهم مطلع على الصداقة المعقودة بين شاهين أبي كرم وقاسم أبي عين ، فما يمنع أن تكون ذلفاء انحدرت إلى العليّة المحصورة لإنقاذ الصديق الأوفى ؟

وطفروا إلى منزل قاسم ، فابتسمت لهم ذلفاء وقالت بمنطقها المرنّ : عافاكم الله ، ماذا تريدون ؟ ... أتكونون بحاجة إلى الزاد ؟

فصاحوا معربدين : نريد شاهين أبا كرم . هو هنا ، فأين يختبىء ؟... أبصرناك تجوبين إليه الليل ، فأين أخفيته عنا ؟ ... هاتيه . جئنا لامتصاص دمه !

فلم تجمد فيها ابتسامتها بل انطلقت في قهقهة ساخرة . قالت ذلفاء : أيكون شاهين أبو كرم هنا ؟... إنكم لمجانين . فكيف يعرض لكم أني أجيء بعدوي إليّ ؟... هذا هو المنزل على وسعته ، فابحثوا فيه عمن تبغون !

فبحثوا وما اهتدوا . وانصرفوا على ارتباك . خلاص شاهين أبي كرم منهم شر مستطير والرجل لا يعدم الأنصار الأقوياء . إلا أن شاهين أبا كرم لم يبرح المنزل . ذلفاء ، أخت الصقور ، ذات الدماغ الخصب والسلطان الطاغي ، أكرهته على الاختباء تحت أوراق التوت ، في رحبة القز ، والفصل فصل الربيع ، وفيه تربية دود الحرير . قالت وهي تراهم مقبلين إليها : شاهين ، عليك بهذا المخبأ ، ففيه طمأنينتك !

فمانع : أأنا أختبىء عنهم ؟... ولكني سأقاتلهم وجهاً لوجه !

فهاج فيها الذعر . قالت باضطراب : وأين تقاتلهم ؟ ... عندي ؟ ... أراك تريد لي في القرية الافتضاح . أي ألسنة نهّاشة تثير عليّ ؟

وفزعت إلى سمعتها تشهرها عليه . هذا هو السلاح القاطع . وضنّ بسمعتها أن تصاب بالشين فأطاع وفزع إلى المخبإ . إن ذلفاء لناهية آمرة . وفي المساء ، وقد تلاشت المقاومة ،

وسكت البارود ، وماج النعاس في العيون الثقيلة الأهداب ، دلفت ذلفاء إلى شاهين أبي كرم تقول : بقيتْ أمامنا مرحلة ليبلغ الوفاء حده . عليّ أن أخرج بك من القرية دون أن يشعروا بك !

واجتازت به مكامن الخطر وهي تقول : اذهب بسلام !

وأقامت تصغي إلى وقع قدميه وهو يلطم بهما وجنات الهضاب إلى أرض الأمان ، حتى إذا ما انقطع الصدى التفتت إلى السماء تغمغم باسترحام : ربي ، أنقذه من المكاره . هذا عفيف عيوف ، قليل الأنداد !

وذرفت دمعة هتّانة . وعادت إلى منزلها بخطوات ثقال وهي تردد قولها : لعن الله من أثارها بيننا . كنا على شمل نظيم فإذا بنا على شتات !

وسمع الليل نحيبها . فهي تتفجع على شحوب الصفاء الخميل !

كرم ملحم كرم

انبـاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتّاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصـر

نعمت الفنون كما نعم العلم والأدب ، بنصيب واف من عطف جلالة الملك فاروق ورعايته وتشجيعه ، وشملت لفتة المليك كثيرين من المشتغلين بفنون التمثيل والخيالة والموسيقى فأنعم عليهم بالرتب والأوسمة .

ومأثرات جلالته على الفنون سلسلة متصلة الحلقات فقد تعطف جلالته على أثر شهوده رواية « العباسة » فأمر بدعوة أفراد الفرقة المصرية إلى تناول الشاي في قصر عابدين العامر فكان يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٥ عيداً من أعياد الفن أنعم فيه جلالته برتبة الباشوية على صاحب السعادة عزيز أباظة باشا مؤلف رواية « العباسة » وغمر فيه رجال الفن وفي مقدمتهم زينب صدقي ويوسف وهبي بك وجورج أبيض بك وسليمان نجيب بك بآيات من عطفه وتشجيعه . وكان مما قاله لهم : « أنه يريد منهم أن ينظروا إلى عملهم على أساس أنه عمل وطني وأن يقدموا هذا الاعتبار على أشخاصهم » .

وبعد ما أبدى جلالته بعض الملاحظات الفنية تحدث إلى عزيز أباظة باشا عن روايته الجديدة وعما يود أن يراه ملحوظاً فيها فوعد سعادته بإحلال رغبات جلالته محلها من العناية والتنفيذ .

ولمـا هم جلالته بالانصراف حيا الحاضرين تحية كريمة وعزفت الموسيقى السلام الملـكي وغادر المـكان مشيعاً بالدعاء والهتاف .

✡ ✡ ✡

في اليوم التاسع والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ أقام المجمع اللغوي بمصر حفلة استقبال علنية لحضرة صاحب المعالي عبد الحميد بدوي باشا احتفاء بتعيينه عضواً بالمجمع .

ولقد جرى المجمع في استقبال معالي بدوي باشا على التقليد الذي يجري عليه المجمع الفرنسي ويقوم هذا التقليد على خطاب ترحيب بالعضو الجديد يلقيه أحد الأعضاء ثم يرد عليه العضو المنتخب بخطاب يعالج فيه موضوعاً من الموضوعات اللغوية أو الأدبية وما إليهما ، ويختمه بكلمة ثناء على سلفه .

أما خطاب الترحيب فقد ألقاه الدكتور طه حسين بك مبيناً فيه جوانب النبوغ المتعددة في المحتفى به . وكان رد بدوي باشا بحثاً نفيساً في اللغة العربية ألم فيه إلماماً تاماً بنشأتها ونموها واتصالها بغيرها من اللغات . ويطيب لنا أن نسجل من خطاب بدوي باشا فقرة عاطفية طالعها القراء ولا شك ، في الصحف اليومية التي نشرت هذا الخطاب النفيس قال :

« ولست بالقائل بأن لغتنا أفضل اللغات وأوسعها ؛ فإنما يستطيع ذلك من وعاها ووعى غيرها ، وأحاط بها جميعاً إحاطة كاملة ، فكان قادراً على أن يرسل فيها كلما يبين الفاضل والمفضول ولكني أشعر ، في غير زهو أو مكاثرة ، بأنها عزيزة علينا ، وأنها لن تعدلها في نفوسنا لغة أخرى مهما غنيت بالآثار ، ولها — بوصف أنها لغة الكتاب — عزة فوق عزة ، وسلطان على النفوس لا يجارى » .

✡ ✡ ✡

يستأنف المجمع اللغوي انعقاده بهيئة مؤتمر في ١٤ يناير القادم وقد بعث معالي رئيس المجمع كتاباً إلى وزارة الخارجية للاتصال بالسلطات المختصة في ألمانيا للوقوف على حال الأستاذين ليتمان وفيشر عضوي المجمع .

✡ ✡ ✡

رصد المجمع اللغوي بمصر في ميزانيته هذا العام مبلغ ألف جنيه مصري لوضع معجم لألفاظ القرآن وكان قد ألف لجنة لهذا العمل من حضرات محمد حسين هيكل باشا والشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وعلي الجارم بك والشيخ إبرهيم حمروش . ولقد وضعت اللجنة خطتها وأقرت النموذج الذي تسير عليه في شرح الكلمات القرآنية لغوية كانت أم تاريخية أم علمية أم عمرانية .

✡ ✡ ✡

من المشروعات المقدمة إلى مجلس النواب بمصر في دورته المقبلة : مشروع « معهد فؤاد الأول للبحوث العلمية » . وسيتناول المعهد المشار إليه الإشراف الفني على طائفة من المصالح الحكومية ذات الصبغة العلمية وعلى الهيئات العلمية المعترف بها ، وسيزود بأكبر مكتبة علمية في الشرق العربي . ومشروع إنشاء « معهد فن المكتبات » على أن يلحق بكلية الآداب وذلك لتخريج متخصصين بفنون حفظ الكتب والمحفوظات والوثائق وستكون الدراسة فيه مسائية على غرار معهد الصحافة ويلحق به الطلاب المتخرجون في كلية الآداب أو دار العلوم .

✡ ✡ ✡

عقد في ١٩ و ٢٠ و ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٤٥ مؤتمر للتعليم نظمته ودعت إليه جمعية المعلمين العليا . وقد افتتحه سعادة أحمد لطفي السيد باشا بكلمة أشار فيها إلى الغاية من التربية القومية الديمقراطية التي لخصها في الجملة الآتية : « إنقاذ أفراد الأمة من الجهل ومن العوز أيضاً » .

وتكلم الدكتور أحمد زكي بك في « التعليم والتقدم العلمي » والدكتور إبرهيم مدكور في « التعليم الديني والمدني » وأحمد أمين بك في « الثقافة الشعبية » والدكتور علي مصطفى مشرفة بك في « سياستنا التعليمية واستقرارها » وتلي بحثان باللغة العربية عن نظام التعليم في إنجلترا للمستر رولي وعن نظام التعليم في الولايات المتحدة للآنسة إموري سيبلي .

وقد انتهى المؤتمر إلى قرارات حول أهداف التعليم وسياسته وطريقة التنفيذ ، ومن أهم الأهداف تمكين جميع أفراد الشعب من الحصول على قدر كاف من التعليم يشمل العناصر الضرورية لفهم الحياة الحديثة والمشاركة فيها على أن يتم ذلك في أقرب وقت ، والتدريب على التعاون والنظام وممارسة الحياة الديمقراطية وفهم روحها الصحيحة . ورأى المؤتمر أن تكون سياسة التعليم مستقرة ولكنها ليست جامدة ، بحيث يكون إلى جانب السياسة المرسومة المستقرة هيئات تربيبية .

✡✡✡

تكاد دار الكتب المصرية تنتهي من تحقيق الكتب الآتية : الأغاني (الأجزاء الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر) ، والنجوم الزاهرة (الجزء العاشر) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (الجزئين الخامس عشر والسادس عشر) ، وأشعار الهزليين (الجزء الثاني) ، ونهاية الأرب (الجزء الخامس عشر) ، وديوان كعب بن زهير .

✡✡✡

وجه الشيخان المحترمان الأستاذان خليل ثابت بك وأنطون الجميل بك الدعوة إلى فريق كبير من المعجبين بشعر الأستاذ خليل مطران وأدبه ومكارم أخلاقه للتداول في إقامة حفلة تكريم كبيرة يزاح في أثنائها الستار عن تمثال جميل صنع للخليل .

✡✡✡

أقام طلبة معهد الصحافة بكلية الآداب حفلة تكريم للدكتور محمود عزمي عميد المعهد وذلك لداعي اعتزاله خدمة الحكومة وعودته إلى الاشتغال بالصحافة

✡✡✡

قدم إلى مصر الدكتور فؤاد عقل الطبيب العربي في مستشفى نيويرك فأدب له الأستاذ حسين أبو الفتح مأدبة غداء تحدث فيها الضيف عن العرب في الولايات المتحدة وما أصابوا هناك من نجاح وعن حنينهم أبداً إلى أوطانهم الأولى . ولقد اشترك الدكتور عقل في المؤتمر الطبي الذي عقد بالقاهرة وألقى بحثاً نفيساً عن جراحة الأوعية الدموية ثم عرض شريطاً سينمائياً عن عملية جراحية للفتق قام بها في أمريكا ووافقت عليها جمعية الجراحين الأمريكيين .

فلسطين

لبى الدكتور أحمد زكي بك مدير مصلحة الكيمياء في الحكومة المصرية دعوة « الاتحاد الثقافي » بيافا ، وألقى محاضرتين الأولى موضوعها : عراقيل في طريق الشباب العربي . والثانية : النفط ، وقد طاف بكثير من المدن الفلسطينية وحاضر فيها .

✡✡✡

بدأ فصل المحاضرات في فلسطين . وافتتح محاضرات هذا العام في جمعية الشباب المسيحية في القدس الأستاذ قدري طوقان بمحاضرة عن « القنبلة الذرية » من الناحية الرياضية والفلكية .
وألقى عدد من الشبان المثقفين محاضرات في الأندية البريطانية في نابلس وغزة والخليل ويافا وعمان وطولكرم الخ . . .

✡✡✡

بدأت محطة الشرق الأدنى مسابقة جديدة باسم « ركن المحدثين والمستمعين » وألفت لجنة من أدباء فلسطينيين للحكم فيما يرد على المحطة من موضوعات ، وللاجابة عن أسئلة المستمعين ، وعقدت اللجنة جلستين نال الجائزة الأولى (في الجلسة الأولى) السيد وديع فلسطين والسيد سليمان عبد الله المقداوي مناصفة ، والجائزة الثانية السيد راتب دروزة . ونال الجائزة الأولى (في الجلسة الثانية) الأستاذ خليل تقي الدين ، والثانية السيد محمد رشيد الشريف .

***

في فلسطين اليوم سبع عشرة فرقة تمثيلية أكثرها يقتصر على الإذاعة دون المسرح . وهناك مساع لتوحيدها في فرقتين .

****

وضع الأستاذ رفيق بك التميمي كتاباً عن « الحروب الصليبية » في ٣٠٩ صفحات . وتناول في فصوله الأربعة عشر تاريخها باسهاب . وللأستاذ التميمي عدة مؤلفات من أهمها « ولاية بيروت » في جزئين ، يعد من أفيد المراجع في تأريخ الحياة السياسية والاجتماعية والروحية والأدبية لسوريا وفلسطين في بداية هذا القرن . وصدر له حديثاً كتاب عن « تاريخ أوربا الحديث » .

***

غادر فلسطين في الشهر الماضي خمسون طالباً من فلسطين وشرق الأردن للالتحاق بالمعاهد المصرية العالية .

لبنان

سيبدأ في فصل الربيع القادم بتشييد مستشفى جديد وكلية للطب في الجامعة الأمريكية ببيروت وقد قدرت تكاليف البناء بنحو نصف مليون جنيه مصري .

***

صدر عن « دار المكشوف » كتاب « الدراسة الأدبية » للأستاذ رئيف خوري عالج فيه المؤلف أصول النقد الأدبي وأصول التاريخ الأدبي وأشار فيه إلى خلو الأدب العربي من الملحمة والمسرحية والقصة ودعا إلى بناء التاريخ الأدبي على أساس الفنون والأساليب الأدبية لا على أساس العصور السياسية .

وصدر عنها أيضاً الترجمة العربية لمبحث « قصر الحير الغربي ، الذي وضعه العالم الأثري دانيال شلوبرجه عام ١٩٣٩ ، ونشره في مجلة «سيريا» المختصة ببحث الفنون والآثار الشرقية . والترجمة العربية محلاة بخارطات ورسوم كثيرة تمثل مناظر عامة لقصر « الحير » ولقاعاته ، وزخارف الجدران والسقوف ، ومشاهد من أطلاله الحاضرة ، ولاسيما واجهته الجميلة . وقد قام بترجمة هذا المبحث الأستاذ الشاعر إلياس أبو شبكة . فظهر بثوب قشيب يليق بذلك الأثر الهندسي الرائع الذي اتخذ منه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك متنزهاً يتناسى فيه مشاغل الحكم وهموم السياسة .

☆☆☆

يزيد عدد الجرائد اليومية في لبنان على ثلاثين جريدة وفيه مثل هذا العدد من المجلات الأسبوعية والشهرية التي يقبل عليها القاريء اللبناني إقبالاً شديداً وكلها منتشرة رائجة رواج المجلات المصرية .

☆☆☆

كان المرحوم معروف الرصافي قد عمد إلى مجموعة « لزوم مالايلزم » للمعري فبوب أبياتها في خمسة وثلاثين باباً حسب الموضوعات وعلق عليها شروحاً كثيرة ودفع بالنصوص والشروح إلى « دار المكشوف » ببيروت لطبعها غير أن الدار تريثت قليلاً في تمثيل الكتاب بالطبع لأن التعليق يحوي بعض آراء في العقائد قد تكون مثار جدال طويل . وهذا الكتاب هو غير الكتاب الذي ورد ذكره في الجزء الأول من هذه المجلة بين أنباء العراق .

☆☆☆

تعنى إدارة الآثار بترميم قصر بيت الدين الأثر الهندسي الفني الذي بدأ بناءه الأمير بشير الشهابي في أوائل القرن التاسع عشر وأتمه سنة ١٨٤٠ واستقبل فيه غير مرة إبرهيم باشا وسليمان باشا قائد الجيوش المصرية بلبنان . ويعد هذا القصر رائعة من روائع البناء تمتزج فيه الأصول الهندسية العربية بالأصول العثمانية وأحياناً بالإيطالية ويسبغ الأثر اللبناني المحلي على هذا المزيج لوناً خاصاً .

ويسعى الأمير موريس شهاب المدير العام لدائرة الآثار في تحويل القصر إلى مقر صيفي لفخامة رئيس الجمهورية وإلى متاحف عامة للآثار المنقولة من أسلحة وألبسة ، ولمظاهر الحياة العامة والخاصة في عهد الأمير بشير الشهابي .

☆☆☆

صدرت سلسلة قصصية مصورة باسم « شهرزاد » ينشرها الأستاذ رئيف خوري والرسام رضوان الشهال وغاية هذه السلسلة إثارة الوقائع التاريخية من التاريخ العربي وتاريخ الشرق الأدنى فضلاً عن روائع القصص العالمية .

☆☆☆

من المسائل التي تعنى بها وزارة التربية الوطنية زيادة عدد المدارس الابتدائية ولاسيما في القرى وعدد هذه المدارس الآن نحو من ٤٣٠ مدرسة في حين كان عددها عام ١٩٣٨ نحواً من ١٥٠ مدرسة .

☆☆☆

تقوم بعض الجماعات العلمية بجمع المخطوطات والمراسلات التي ترق إلى القرن السادس . وتفكر وزارة التربية الوطنية باتخاذ دير القمر مقراً لهذه المجموعة القيمة . وضمن الوثائق رسائل ومذكرات تجلو العلاقات التي كانت قائمة بين لبنان ومصر في عهد الأمير بشير الشهابي .

سوريا

للمدارس السورية اليوم أثر طيب في بث العلم ، فالأساتذة كلهم من المختصين المتمكنين من المواد التي يدرسونها ، وجلهم من الشباب الذين تختلج في جوانحهم روح وطنية قوية ويلاحظ في الطلاب طموح شديد إلى المثل العليا وحماسة وطنية تجعلهم يقبلون على تلقي العلم في جشع ونهم . ومن الظواهر الاجتماعية الجديرة بالتسجيل أن العلاقة بين الأستاذ والطالب تسودها روح ديمقراطية عالية تجعل منهما رفيقين متآلفين في داخل المدرسة وخارجها .

والطالب السوري اليوم له شخصيته فهو مع احترامه أستاذه وتقديره لعلمه لا يقبل منه المسائل العلمية إلا بعد مناقشة واقتناع وسيترتب على روح الحماسة المتجلية في كليات الجامعة وفي المدارس الثانوية أثر في الحياة الفكرية والاجتماعية سيظهر أقوى ما يكون في خلال السنوات القلائل المقبلة .

✡✡✡

الإنتاج الأدبي في سورية مضطرب في هذه الآونة باضطراب السياسة . ويمكن القول إن الأدب السياسي هو المجلي في هذه الأيام وذلك لتحول كثير من الأدباء إلى الكتابة السياسية وقد يعودون إلى الأدب الصرف إذا إستقرت الحالة السياسية .

على أن ضيق المحيط السوري لا يشجع على الإمعان في التفرغ للأدب فالعبقرية يصقلها النشر الواسع الأطراف وهو ما يطمع فيه أدباؤنا ولا يتحقق لهم على الوجه المرجو وكثير منهم شغلتهم الوظائف الحكومية والتدريس عن التفرغ للأدب .

✡✡✡

في دمشق وحلب اليوم كثير من الأندية الاجتماعية والأدبية معاً فضلا عن الأندية الفنية . ففي دمشق ناديان للتمثيل وفي حلب ثلاثة أندية لهذا الفن وأعضاء هذه الأندية يؤلفون المسرحيات التي يمثلونها أو يترجمونها ، وهناك الأندية الموسيقية أيضاً . والمأثور عن نادي الفارابي بحلب أنه شديد المحافظة على الموسيقى العربية الشرقية القديمة وعلى الرقص التقليدي الحلبي المسمى رقص السماح وأحد مؤسسي هذا النادي هو الأستاذ علي الدرويش وهو ممن اشترك في المؤتمر الموسيقي الذي عقد بالقاهرة .

✡✡✡

لعل كلية الطب في الجامعة السورية هي في الشرق الكلية الوحيدة التي تجري الدراسة فيها باللغة العربية أما المصطلحات فتدرس بلفظها الأجنبي وبما يقابلها من ألفاظ مترجمة أو معربة .

✡✡✡

جاء في مجلة « الدنيا » الدمشقية لصاحبها الأستاذ عبد الغني العطري في مقال « الرقصات العربية القومية » أننا لا نجد رقصات عربية بحتة إلا لدى القبائل البدوية كرقصة « الضحية » مثلاً ويرقصها أفراد قبيلة العزازمة وغيرهم في جنوبي فلسطين .

العراق

الثالجية

عثر في ضواحي المدينة المدورة في الثالجية على قارورة من الخزف تحتوي على بعض النقود الفضية التي يرجع عهدها إلى زمن الخليفة العباسي المعتقد بالله . وتتوقع مصلحة الآثار العراقية أن تعثر في هذه المنطقه على نفائس أخرى . والعملة المشار إليها مرسوم على أحد وجهيها صورة الخليفة العباسي ممتطياً صهوة جواده ، ومدرعاً بدرع طويلة ، وعلى رأسه خوذة حديدية وإلى جانبه سيفه الطويل وقد كتبت في الزاوية اليمنى كلمة «الله» وفي الزاوية اليسرى كلمة «جعفر» . أما الوجه الثاني ففيه صورة ثور قد يكون رمزاً للقوة ولاستخدام العراقيين له في الزراعة .

✡✡✡

من المجلات الشهرية الجديدة التي ظهرت في العراق مجلة «الفكر الحديث» لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ السيد جميل حمودي . وهي بموضوعاتها الحديثة المبتكرة وتبويبها الفني وروحها الوثابة تعد من المجلات الراقية التي سيكون لها شأن في تثقيف الرأي العام ، وصدرت أيضاً مجلة «الوادي» لصاحبها ومديرها الأستاذ خالد الدرة المحامي . وقد حفل العدد الأول منها بطائفة من المقالات النفيسة والقصائد الرصينة واللمحات الطريفة مما يجعلها حبيبة إلى القراء .

✡✡✡

بعثت وزارة المعارف إلى مديري المعارف في الألوية ترجو منهم حث المعلمين والطلاب في المدارس الثانوية إلى تأليف لجن علمية وأثرية وخيرية وصحية لتكون المدرسة أسرة واحدة تبث في الطالب روح النشاط والعمل . وسيكون من مهمة هذه اللجان تنظيم المحاضرات العلمية وزيارة الأمكنة الأثرية والجوامع والمكتبات والمتاحف وخلق روح التعاون الاجتماعي بين الطلاب والاهتمام بصحة الطلبة وعلى الجملة كل ما من شأنه أن يوجه الطلاب إلى حياة قوية نافعة .

✡✡✡

صدرت فى الآونة الأخيرة بالعراق جملة كتب مفيدة نذكر منها كتاب «بيني وبينك» للدكتور مظفر الزهاوي يبحث في المشاكل الاجتماعية والنفسية والخلقية والصحية المتفرعة من الزواج . والجزء الثاني من كتاب «وادي الفرات» للدكتور أحمد سوسة يبحث عن تاريخ الفرات وتطورات مجراه الرئيسي وتحليل مشروعاته الفنية ومعالجة مشاكله منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر . وكتاب فيصل بن الحسين أصدرته مديرية الدعاية العامة .

✡✡✡

تبدي السلطات الأمريكية رغبة شديدة في الوقوف على أحوال العراق الاقتصادية والاجتماعية . ولما كانت العراق منضمة إلى اتفاقية تبادل المطبوعات مع الولايات المتحدة فقد أعدت وزارة المعارف العراقية مجموعة كاملة من التقارير والنشرات ومجلتها الشهرية الصادرة منذ أول سنة ١٩٤٤ لإرسالها إلى الولايات المتحدة .

انجلترا

اتفق المعهد المصري بلندن مع إحدى الجامعات الفنية على إخراج مسرحيات شوقي وتمثيلها على مسرح خاص يقام في بهو المعهد . وكان أول من ترجم شوقي إلى الإنجليزية المستعرب الإنجليزي أربري فقد نقل مسرحية مجنون ليلى عام ١٩٣٢ وأعجب بها لفيف من المثقفين الإنجليز بيد أنها لم تمثل إلى اليوم على مسارح إنجلترا . أما وقد يسر المعهد المصري بلندن إخراج هذه المسرحيات فقد أصبح في وسع الإنجليزي المتعلم أن يشاهد مسرحية مصرية منقولة إلى لغته الإنجليزية ولعلها أول مسرحية عربية شعرية نقلت إلى لغة أوربية .

✡✡✡

وضعت المستشرقة المعروفة الآنسة فريا ستارك كتاباً بعنوان « الشرق في الغرب » تناولت فيه أمهات المسائل والقضايا التي تشغل أذهان الشعوب العربية وبسطت فيه مشكلة فلسطين بروح مشربة بالعطف على العرب، والمعروف عن المؤلفة أنها كاتبة ورحالة اشتهرت بصداقتها للعرب ونهضت للدفاع عن قضيتهم في كل من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة .

✡✡✡

من محاسن الاتفاق أنه في الوقت الذي ظهر في سلسلة « اقرأ » سيرة « الغزالي » القطب الصوفي العربي نشرت دار لوزاك بلندن مؤلفا طريفاً للسيدة مرغريت سميث بالإنجليزية بعنوان : « الغزالي الصوفي » . والمؤلفة باحثة صوفية وقد سبق لها أن نشرت كتاباً عن رابعة العدوية ، وفي كتابها الحديث صورة واضحة من حياة الغزالي ودراسة عامة لتعاليمه ومصادر معلوماته .

✡✡✡

عقد في إنجلترا مؤتمر لوزراء معارف الدول المتحدة للبحث في ضرورة التعاون العالمي في ميدان الثقافة والتربية ، وقد انتخب المسيو بلوم أحد رؤساء وزراء فرنسا السابقين رئيساً للمؤتمر تساعده المس ولكنسون وزيرة المعارف البريطانية . ويمثل مصر في هذا المؤتمر عبد الفتاح عمرو باشا سفير مصر في لندن يساعده الأستاذ أحمد نجيب هاشم مدير المعهد المصري بلندن .

ولقد ألقى عمرو باشا الذي انتخب وكيلا للمؤتمر كلمة نفيسة ذكر فيها ما تقاسيه الأمم العربية من انتشار الأمية ونقص الوسائل اللازمة لتربية أبناء الشعب جميعاً وقال : إن الأمم العربية تجمعها بعض المشاكل العامة مع الأمم الكبيرة وإنها ترغب مثلها في إيجاد تعليم ديمقراطي وتهيئة فرصة متكافئة للناشئة كافة حتى تستطيع أن تواجه المدنية المعاصرة التي تعيش فيها ، واقترح سعادته إيجاد تعاون عالمي بتبادل الأساتذة وإصدار كتب يتداولها تلاميذ المدارس في الأمم المختلفة وتكوين إتحاد عالمي للمفكرين والعلماء .

✡✡✡

انتهى مؤتمر الشباب العالمي الذي عقد في لندن واستغرقت جلساته أسبوعين ولقد أوفد إليه مندوبون عن ٦٢ أمة من أمم العالم وكانت الغاية منه بحث الوسائل التي تؤدي إلى توطيد السلام وتوثيق عرى التفاهم بين ناشئة الأمم في بقاع العالم كافة .

✡✡✡

أوصت لجنة التعليم الفني بتأليف مجالس إقليمية لتنظيم البحوث العلمية وإنشاء لجنة استشارية خاصة بالأبحاث الصناعية الفنية للاشارة بما تراه على وزير المعارف وافتتاح ست كليات صناعية تستطيع أن تخرج في العام ٢٧٠٠ مهندساً .

✡✡✡

تلاقي جامعة لندن عناء شديداً في قبول من يودون الالتحاق بها من الطلبة حتى لقد اضطرت إحدى كلياتها إلى قبول حوالي ١٩٠٠ طالب في حين كانت قد قررت أنها تتسع لألف ومائتين فقط .

✡✡✡

وضع الأستاذ إدورد عطية مديرمكتب الدعاية العربية بلندن كتاباً عنوانه « منتهى الولاء » صور فيه العلاقات العاطفية التي قامت بين العرب والبريطانيين في خلال ربع القرن الأخير . والأستاذ عطية من خريجى كلية فكتوريا وجامعة أكسفرد وكان يشغل منصب ضابط اتصال بين أهل السودان والحكومة السودانية وله مساع موفقة في الدفاع عن القضية العربية .

أمريكا

دلت الإحصاءات الأخيرة في مدينة نيويرك على أن فيها ١٠٤٤ مكتبة لإعارة الكتب للقراء وأنه يطبع فيها كل يوم أكثر من خمسة ملايين نسخة من الصحف ، وأن فيها ٨٥٥ مدرسة و ١٧٢ مستشفى و ٢٨ جريدة يومية .

✡✡✡

عقد بمدينة نيويرك مؤتمر « للغات الأجنبية والعلاقات الإنسانية » واشترك في هذا المؤتمر المستر أنطوني كامبانيا عضو مجلس التعليم بمدينة نيويرك فاقترح إنشاء مدرسة ثانوية بمدينة نيويرك لتعليم اللغات لأن تعليم اللغات يفيد فائدة كبيرة في معرفة تواريخ الأمم وأحوالها كما اقترح أيضاً أن يمهد السبيل لطلاب المدارس الثانوية زيارة إخوانهم من الطلاب في البلاد الأخرى على غرار ما يقوم به طلبة الجامعات .

✡✡✡

أنشئت في نيويرك مدرسة لتدريس اللغة العربية للجنود والضباط الأمريكيين الذين سيخدمون في الشرق الأدنى وفي إفريقيا الشمالية ويعمل كل من الدكتور فيليب حتى ووليم بربر بنشاط وعزم وحماسة . والأول ينحدر من أصل لبناني وهو في طليعة من أدخلوا دراسة العربية الدارجة في أمريكا أما الثاني فقد قضى شطراً من حياته في صحبة البدو الرحالين في صحراء سوريا وفي حوران واتجه إهتمامه إلى دراسة عصر المماليك وكلاهما يشغل منبر اللغات الشرقية بجامعات الولايات المتحدة .

✡✡✡

لما سافرت وفود البلاد العربية إلى مؤتمر سان فرنسيسكو أدبت لها الجالية العربية مأدبة كبيرة تأنقت فيها كل التأنق فقد جيء في مستهل المأدبة بتماثيل كبيرة منحوتة من ألواح الجليد رمز بها إلى البلدان العربية وبقيت منصوبة أمام مائدة الضيوف طول المأدبة فرمز بأبي الهول إلى مصر وبالنخلة إلى بلاد العرب وبمنارة شط العرب إلى العراق وبجامع بني أمية إلى سورية وبالأرز إلى لبنان

✡✡✡

قرر مجمع العلوم في إستكهلم عاصمة السويد منح جائزة نوبل في العلوم الطبيعية عن سنة ١٩٤٥ للأستاذ « ولفانج بولي » أستاذ الطبيعيات بجامعة برنستون بالولايات المتحدة . ويبلغ الأستاذ بولي من العمر الخامسة والأربعين ، وهو من مواليد فيينا وممن أسهموا في أبحاث الطاقة الذرية .

✡✡✡

قبل الدكتور علي مصطفى مشرفة بك عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة الدعوة التي وجهتها إليه جامعة هارفرد الأمريكية ليحاضر في الرياضة البحتة لمدة عام وللاشتراك في أبحاث القنبلة الذرية وسيحضر إلى أمريكا في شهر مارس القادم لهذا الغرض . وهذه أول مرة يدعى فيها أستاذ مصري للتدريس في جامعات أمريكا .

روسيا

نشر المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكفسكي دراسة نفيسة عن المؤرخ العربي المرحوم بندلي جوزي لمناسبة وفاته في الصيف الماضي . وقد كان المرحوم جوزي يتولى التدريس في جامعة باكو بجنوب روسيا منذ عام ١٩٠٢ وظل مواظباً على عمله حتى وافته المنية . وقد نشر أبحاثاً شتى في أمهات المجلات العربية والاستشراقية ووضع عدة مؤلفات من أشهرها : « تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام » و « تاج العروس في معرفة لغة أهل الروس » وهو معجم عربي روسي ، وألقى عدة محاضرات في وطنه فلسطين تناولت الشؤون الثقافية والاجتماعية .

✡✡✡

أصدرت السيدة كلثوم عودة فاسلفا مدرسة اللغة العربية في الكلية الشرقية بموسكو الجزء الثاني من المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية يتضمن عرضاً لما ظهر من الإنتاج الفكري عند العرب منذ عام ١٩٢٨ إلى اليوم .

✡✡✡

تدل الإحصاءات على مقدار انتشار كتب الأدب في روسيا ومن ذلك أن مؤلفات الشاعر بوشكين قد طبع منها من سنة ١٩١٧ — ١٩٤٥ حوالي ٣،١١٨،٠٠٠ نسخة في اثنتين وسبعين لغة من لغات الشعوب التي تكوّن اتحاد السوفييت .

✡✡✡

طبع ديوان الشاعر سيمونوف عن الحرب خمس مرات وبيع منه ما يقرب من سبعماية ألف نسخة .

فرنسا

إدمون وجول جنكور أديبان فرنسيان شقيقان توفي الأول سنة ١٨٧٠ وتوفي الثاني سنة ١٨٩٦ وكانت لهما شهرة أدبية مترامية الأطراف وهما اللذان أنشآ الجائزة المعروفه باسمهما .

ولقد اشترك الشقيقان فى كتابة « مذكراتهما » وسلخا فى كتابتها حوالي أربعين سنة وأوصيا بعدم نشر هذه المذكرات إلا بعد عشرين عاماً من وفاة ثانيهما . وكان موعد نشرها في سنة ١٩١٦ إلا أنه رئي تأجيل النشر ثلاثين سنة أخرى وينتظر أن تنشر هذه المذكرات قريباً بعد أن ظلت مطوية خمسين عاماً . ويترقب الناس نشرهذه المذكرات بشوق وشغف لما قد تحويه من آراء وأسرار ووقائع سوف ترضي أناساً وتغضب آخرين وسيكون لها في البيئة الأدبية أثر قوي ربما نقض كثيراً من أحكام التاريخ المعروفة حتى اليوم .

✲✲✲

اتفق المسيو ألبير لبران رئيس الجمهورية الفرنسية السابق مع إحدى دور الطباعة على نشر مذكراته التي كتبها في أثناء الاحتلال الألماني .

✲✲✲

صدر في سلسلة « أعظم القضايا المعاصرة » كتاب عن قضية جيرار وسيصدر قريباً في هذه السلسلة كتاب عن قضية بيتان ، ولا تعتمد هذه السلسلة إلا على الوثائق الرسمية .

✲✲✲

من السلاسل الأدبية التي صدرت أخيراً في فرنسا سلسلة مقصورة على نشر روائع الشعر ولا يزيد ما يطبع من هذه السلسلة على ٢٣١ نسخة ، وقد صدر منها حتى الآن أربعة أجزاء الأول لشكسبير والثاني لمرسيل دوفرني والثالث لموريس سيف والرابع لجان راسين ، وكلها مزدان بالصور لأشهر الرسامين .

✲✲✲

انتخب المسيو إدوار لوروا الفيلسوف والعالم الرياضي المعروف عضواً في الندوة الفرنسية خلفاً للفيلسوف هنري برجسون .

والعضو الجديد ولد في باريس سنة ١٨٧٠ وهو عضو في مجمع العلوم الفلسفية وتلميذ هنري برجسون وخليفته أيضاً في كرسي الفلسفة في كوليج دي فرنس منذ عام ١٩١٩ . ولقد طبق نظريات أستاذه في نقد النظريات والحقائق العلمية مستنداً إلى أن القانون العلمي لايعبر عن الواقع ، بل هو مجرد ذريعة لاستخدام قوى الطبيعة في التطبيق الصناعي . فيقول مثلا : « ليست الوقائع أساس النظريات العلمية ، بل هي النظريات العلمية التي تخلق الوقائع » . وهو كاثوليكي العقيدة ، غير أنه حاول تفسير المعتقدات الدينية على ضوء فلسفة برجسون التطورية .

✲✲✲

طلب مجمع الآداب والفنون في باريس إلى وزارة التربية إنشاء متحف خاص بالفنون الشرقية مجاور لمتحف اللوفر ومتصل به ، ومما جاء في مذكرة المجمع أن إنشاء هذا المتحف يساعد على دراسة الفنون الإسلامية والشرقية المسيحية دراسة مباشرة .

رسائل القرّاء

تحيّـــة وأمنيّـــة

أذكر أنني عند ما كنت في الجامعة الأمريكية في بيروت طلب مني أستاذي أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي في الجامعة أن أقوم بإعداد محاضرة أوازن فيها بين الشعر اللبناني والشعر العراقي ، وكان غرض أستاذي من ذلك تعريف إخواننا اللبنانيين وكذلك أبناء العروبة الآخرين بالشعر العراقي الذي لا يعرفون عنه شيئاً ، وأذكر أنني وجدت صعوبة كبيرة في العثور على مادة أرجع إليها غير الأبيات التي أرويها ويرويها أستاذي وإخواني العراقيون وهو ما لا يكفي لهذه الغاية لأن الناس عادة يروون جيد الشعر دون رديئه . وأذكر جيداً وأخيراً أن الحاضرين على كثرتهم كانوا يتهامسون فيما بينهم قائلين : أيمكن أن تكون الموازنة بين شيء ولا شيء ! ولكنني عند ما قرأت عليهم ما استطعت الحصول عليه من شعر عراقي بمختلف نواحيه عادوا يتهامسون معجبين آسفين على أنهم لم تتح لهم الفرصة للاطلاع على شعر إخوانهم وأبناء عمومتهم من قبـل ، هذا الشعر الذي كانت العناية بهم وبأحوالهم من أهم أغراضه ونواحيه .

ذكرت هذه المقدمة على علمي بضيق المقام لأبين مبلغ جهل إخواننا بهذه الناحية المهمة من نواحي حياتنا في العراق ، ولعلني لا أعدو العدل والحق إذا وزعت اللوم في هذا بين شعراء العراق وأدبائه وبين صحافة البلاد العربية وأدبائها وأبنائها ، فإن الكثيرين من الشعراء والأدباء العراقيين لا يزالون — كما كان أسلافهم — يؤثرون الانزواء وكأنهم يخافون على ثمار قرائحهم الضياع وهم لا يعرفون أن هذا هو الضياع بعينه . ثم إن الصحف والكتب العربية — بكتابها ونقادها — لم تكن إلى العهد القريب لتفسح المجال الكافي لأقلام العراقيين وقرائحهم ، بالرغم من أن في العراق — كما كان في الماضي البعيد والقريب — شعراء وأدباء لا يقلون عن إخوانهم في مصر وسوريا ولبنان مثل الشبيبي والجواهري والرصافي والعبيدي وغيرهم كثيرون ، وبالرغم من أن في العراق الآن دواوين وكتباً كثيرة لا يصعب عليها دخول الأسواق اللبنانية والمصرية لو تم التعاون في هذه الناحة المهمية من نواحي حياتنا .

وإنني إذ أتمنى وأتوقع « للكتاب » الأغر كل خير ونجاح في خدمة العروبة وآدابها أتمنى عليه أن يجد الأدباء العراقيون في صفحاتها متسعاً لأقلامهم وثمار عقولهم ، ثم هل لي أن أهمس في آذان المعنيين بالأدب العربي والثقافة العربية بأن الاطلاع على الإنتاج العقلي في جميع البلاد العربية وتبادل الآراء والمطبوعات فيها هما من أهم الخدمات التي يمكن أن يؤديها رجال الفكر والثقافة للأمة العربية العزيزة .

كاظم محسن الخلف
ملحق المفوضية الملكية العراقية بالقاهرة

تعليق على « أنباء » الأدب السوري

جاءنا من الأستاذ عدنان الذهبي كلمة استهلها بقوله :

« الآن انتهيت من قراءة مجلتكم الزاهرة ، وإنها لباكورة طيبة تبشّر بكل خير إن شاء الله . . . إلا أنه قد لفت نظري فيها ما جاء في " الأنباء " عن الأدب السوري قال المحرر : " إنه ليس في سوريا أدب وسيط يجمع بين ميزات أصحاب القديم وميزات المجددين . . . " وقال أيضاً : " إن النشء السوري الجديد متأثر بالرمزية التي يرى فيها الأدب الإنساني الكامل . . . " وفي كلا هذين القولين غلو كبير ؛ نعم لا ننكر أن الهوة التي تفصل بين أنصار القديم وأنصار الجديد في سوريا لا تخفى على المرء حتى للنظرة الأولى التي يلقيها على الأدب هناك . . . ولكن ليس معنى هذا أن الأدب السوري قد خلا من معتدلين " يأخذون من هؤلاء وهؤلاء " ! فني سوريا أدب وسيط ؛ ويكفي أن أذكر من أعلامه : عمر أبا ريشة وأنور العطار ونسيب الاختيار وأمجد الطرابلسي — وكلهم كهول — ولكل ميزته الخاصة ، ومكانتهم في الفن هي الوسطى بين تطرف أنصار القديم الذين يعنون كل العناية بالديباجة العربية أمثال محمد البزم وشفيق جبري وخليل مردم وفؤاد الخطيب وبدر الدين الحامد — وكلهم شيوخ — وبين تطرف أنصار الجديد الذين يلتفتون كل الالتفات إلى الموضوعات الجديدة أمثال ناجي مشوّح ونزار قباني شاعرَي الغريزة ، وبديع حقي وصاحب هذه الكلمة شاعرَيْ الإشارة — وكلنا شباب . »

وختم كلمته بما يفيد أن الرمزيين قليلون في سوريا قلة الذين يجربون أن يتفهموا الرمزية . . .

« نعم الكلمة لها »

وتلقينا من الأستاذ أحمد فتحي محمد كلمة بالعنوان المتقدم نجملها فيما يلي :

قرأت وأنا في أقاصي الصعيد بإحدى قرى مديرية أسوان كلمة السيدة ابنة الشاطىء في الجزء الأول من مجلة « الكتاب » الشهرية بعنوان « الكلمة لها » فوقفت عند بعض فقراتها .

فلقد ألحت السيدة الفاضلة باللائمة على الرجال لأنهم لم يحسنوا إبراز الصورة اللائقة لأنوثة المرأة ، ورأت أنه لا يحسن رسم هذه الصورة إلا من أوتي فطرة أنثى وعقلها وقلمها ثم عقبت على ذلك بأن ابتعاد المرأة عن الحياة العامة — في الشرق بنوع خاص — ونأيها عن الاشتراك في الإنتاج الأدبي هو السبب الذي حدا بالرجل إلى أن يتكلم بلسانها بعد أن عجزت هي عن أن تمدنا بشيء من الأدب النسوي الأصيل .

من البدهيات أن المرأة متممة للرجل كما أن الرجل متمم للمرأة ، والمرأة بالنسبة للرجل هي حياته كلها بما اجتمع فيها من آمال وأحلام وكد وجد وجهد ونَصَب وراحة واستجمام وسعادة وشقاء . فكل كل ما يعمله الرجل في الحياة يرجع سببه من قريب أو من بعيد إلى المرأة . فهو إذن أقدر من المرأة على استجلاء صورة الأنوثة في المرأة .

تقول السيدة بنت الشاطىء إن المرأة — منذ النهضة الحديثة — أخرجت من دارها وكان الرجل صاحب الدعوة وكان له التوجيه وفي يده القياد فسار بها حيث شاء ثم راح يحاسب ويؤاخذ ويعترض ويتهم وهو هو الذي دعا ووجه وقاد . . . وهذا هو التجني بعينه فالرجل أراد بهذه الدعوة وهذه القيادة وهذا التوجيه أن يشعر المرأة بأنها إنسان وليست قطعة أثاث تقضي حياتها بين جدران أربعة في سجن المنزل وظلام الجهل فأراد أن يخرجها للنور ويوجهها إلى تعرف نواحي الحياة ويقودها إلى العرفان وهو في كل ذلك حسن النية سليم الطوية معتقداً أن زمامها سيظل بيده — ولكن ... أدّى بها الطموح إلى أن أصبحت تطلب المساواة بالرجل في كل شيء حتى في الصعب من الأعمال.

وما دام زمام المرأة في يد الرجل يدعوها ويوجهها ويقودها ويثقفها وفق رغبته في الحدود المفضلة فهي المرأة الأنثى أما ما عدا ذلك فهي المرأة المستهترة، المرأة الفوضوية ، المرأة البوهيمية تجمعها كلها « المرأة المسترجلة » ومعنى ذلك واضح والكلمة لها .

فوائد

الطاقة الذرية والسرطان

ما زال الناس يتحدثون بموضوع القنبلة الذرية ، وهم يتساءلون فيما بينهم : أهي شر أحاق بالإنسانية ، أم أن بها نفعاً ؟ وربما كان أهم موضوع لتطبيقات تحطيم الذرة هو النشاط الإشعاعي لمزدوج الجرافيت واليورانيوم ، فقد كان عنصر الراديوم في الماضي هو المصدر الوحيد الذي يحصل منه على إشعاع راديومي قوي ، أما بعد اهتداء العلماء إلى مزدوج الجرافيت واليورانيوم ، فقد أصبح لدينا عشرات من المصادر ذات الإشعاع القوي ، وأصبح من المستطاع أن نولد الإشعاع الراديومي على نطاق واسع وبنفقات غير باهظة ، وإن لم تكن الأشعة المولدة بطرق صناعية أقوى في قدرتها على علاج السرطان من الأشعة الطبيعية ، فستكون على الأقل في متناول الجميع .

ومن المعلوم أن من العناصر ماله ميل خاص إلى بعض أعضاء الجسم ، فعنصر اليود مثلا تمتصه الغدة الدرقية ، وعنصرا الكلسيوم والفسفور يمتصهما الهيكل العظمي ، فإذا استطعنا أن نضيف إلى هذه العناصر خاصية الإشعاع الراديومي قبل إدخالها إلى الجسم فقد يصبح لها أثر فعّال عظيم في العلاج والمداواة .

وبدلا من تسليط الأشعة على الأجزاء المصابة بالنمو السرطاني الخبيث ، وفي هذه الحالة قد تؤذي الأشعة بعض الأنسجة السليمة ، سيكون إمداد الجسم ببعض العناصر بعد إكسابها خاصية الإشعاع الراديومي من ضمن وسائل معالجة ذلك النمو الخبيث .

ولمعالجة العظام في طور النمو ، يمد الجسم بعنصر الإسترانسيوم بعد إكسابه خاصية الإشعاع الراديومي ، ولمعالجة الأمراض التي تنشأ عن خلل في الغدة الدرقية يمد الجسم بعنصر اليود المنشط وهكذا .

اجهزة حديثة للأشعة السينية

تستخدم العناصر المنشّطة في معالجة النمو الخبيث كما تستخدم لتوليد الأشعة السينية بطرق تجارية . ولقد كان من الضرورى في الماضي استخدام أجهزة ثقيلة كبيرة لأخذ الصور بالأشعة السينية عندما يراد فحص المنشآت المعدنية لا كتشاف ما قد يوجد بها من العيوب . أما الآن فبدلا من استخدام الأشعة التي تولدها أجهزة كهربائية ، نستطيع أن نستخدم مقادير صغيرة من بعض العناصر المنشطة ، وبدلا من استخدام أجهزة كبيرة معقدة يمكننا أن نحصل على صور واضحة بمساعدة أجهزة صغيرة يستطيع أن يحملها معه الإنسان لتوليد هذه الأشعة وربما كان عدد الأنفس التي نستطيع إنقاذ حياتها في العشرين سنة المقبلة أزيد من عدد الذين ماتوا بسبب القنابل الذرية .

مئات من الفوائد الأخرى

ومن التطبيقات الهامة الأخرى للطاقة الذرية ، استخدامها في تحضير الفيتامينات المنشطة والهرمونات المنشطة ، وكذلك الأطعمة المنشطة .

وقد تستخدم للتحكم في أحوال الجو . وقديماً أخفقت جميع المحاولات التي أجريت للتحكم في الطقس ، لأن القوى التي كانت في حوزتنا كانت صغيرة جداً بالنسبة لقوى الطبيعة . ولكن عندما نستطيع أن نودع ما يكافىء ٢٠٫٠٠٠ طن من أشد المواد المتفجرة في قدم مكعبة واحدة ، فاننا نكون قد قربنا من المنسوب أو المعدل الذي توجد عليه القوى الطبيعية في الجو .

هذا وأمامنا اتجاه جديد للبحث ، ألا وهو كيفية انطلاق الطاقة الذرية بمعدل بطيء نستطيع أن نتحكم فيه لتوليد مقادير غير محدودة من الكهرباء يمكن استخدامها في الإضاءة والتدفئة .

وقد يمضي عدد كبير من السنين قبل أن يتحقق حلم الحصول على الطاقة مجاناً ، على أنه من المحقق أنه قبل أن يتحقق مضي وقت طويل سيصبح في وسعنا الحصول على ملابس أحسن مما لدينا الآن ، وعلى مستحضرات جديدة ، ووسائل حديثة للمداواة والمعالجة ، وعلى سبائك معدنية متينة ، ومئات من المزايا والاستعمالات الأخرى الناشئة من تقدم الأبحاث الذرية .

هذا وجميع الاكتشافات الخاصة بالطاقة الذرية ، تقوم على البحث الذي بدىء به عام ١٩١١ بجامعة مانشستر بإنجلترا .



عدد ممتاز

يناير ١٩٤٦

دار المعارف للطباعة والنشر

بمصر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .

- جميع الحقوق الخاصة بما تنشره المجلة من مقالات ورسائل ورسوم محفوظة لدار المعارف للطباعة والنشر بمصر .

- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .

- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .

- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :
١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان و ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى .

- ترسل المجلة بالبريد العادي إلى المشتركين ولا تكون الإدارة مسؤولة عما قد يفقد منها .

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً



المجلد الأول

السنة الأولى • الجزء الثالث

محرم ١٣٦٥ • يناير ١٩٤٦

تهنئة

يصل هذا الجزء إلى أيدي القراء وهم في فرحة عيدين : عيد ذكرى الهجرة النبوية وقد احتُفل بها منذ عهد قريب ، وعيد العام الميلادي الجديد وقد أشرق على العالم بلأْلاء صبحه .

و « الكتاب » تقدّم أخلص التهاني للعالم الإسلامي والعربي بهذين العيدين السعيدين ، وتبتهل فيهما إلى الله أن يجلو لمصر وجاراتها الشقيقة آفاقاً جديدة من العز والسؤدد ، وأن يفيض عليها من منّه وكرمه بسحائب النعم والآلاء ، وأن يبسط للعالم أجمع جناح رحمته ورضاه .

الموكبان

بين عامٍ تصرّم وعامٍ تبلّج ألّف الناس موكبين انبثق الثاني من الأول كما ينبثق النور من الظلمة والزهر من الأكمام .

موكبان متغايران يتمثل فيهما الانتهاء والابتداء والزوال والشروق والموت والحياة . ومع ذلك حفل الناس بهما معاً فشيعوا الآفل واستقبلوا الطالع بأغاني الأفراح وأهازيج الأعراس كأن الموكبين يتمم أحدهما الآخر على ما بينهما من صلةٍ بعيدةٍ في الرمز رمز الفناء والبقاء قريبةٍ في الزمن هي طرفة عينٍ أو أقل .

وقف الناس منذ أيام عند العام الهجري ووقفوا اليوم عند العام الميلادي يودعون منهما الراحل ويحتفون بالمقبل متخذين من هذه الألفة في الزمن رمزاً إلى ألفةٍ مكينةٍ في القلوب تختلج حناياها لصوت الأذان اختلاجها لنغم الناقوس ساعة يحملهما الأثير في موجه السبّاح إلى الأباطح والهضاب فتردد صداها الجوّال القائل : حي على الإخاء .

أيّ ماردٍ أنت أيها العام المنصرم وأيّ ساحرٍ أنت أيها العام الجديد لمستما الخلائق بعصاكما السحرية فهبت من أداني الأرض وأقاصيها تنشدكما أناشيد الوداع والاستقبال كأنما يحلو لكما أن يدرج غائبكما في الكفن ويزف طالعكما إلى الحياة على مزامير الدنيا ودفوفها ولو كانت ألحان تلك المزامير وأصوات تلك الدفوف مزيجاً من نشيج الثكالى والأيتام ومن نشيد السعداء الهانئين .

وداعاً أيها العام المغيّب في لحد الزمن فإن كنت خيراً على الإنسانية فاذهب ذهاب المزنة أثنى عليها السهل والأوعار أو اذهب ذهاب الوردة ذبلت في الأصيل بعد إذ تركت للنسيم والشمس والحياة سبحات عطرها الفوّاح وإن كنت شراً على الإنسانية فامض إلى غير رجعة تشيعك أنات القلوب الجريحة وحسرات النفوس الكليمة . وسواء كنت هذا أم ذاك فارحل مذكورةً لك حسناتك وإن قلت مغفورةً لك سيئاتك وإن كثرت فقد أصبحت اليوم في عالم الأموات والأموات يذكرون أبداً بالخير والجميل ولا سيما أنك صفحة قد طويت من كتاب أعمارنا وعمر الإنسان مهما طال في هذه العاجلة لا يعدو أن يكون قطرة ندى تذيبها شمس الحياة أو زبد موج تلاشيه ريح الأجل .

لقد درت أيها العام بالأرض حول الشمس ثلاثمئة وخمسة وستين يوماً كنت فيها الكريم البخيل والعادل الظالم فغمرت قوماً بالسنا والنور وأصليت آخرين الشواظ واللهب. على أننا إن جردناك من فضيلة العدل في الناس فلن نجردك من حسنة كبيرة نعمنا بها في أيامك فقد وقفتْ فيك رحى الحرب وسكتت المدافع وجُنّب البشر ويلات البشر وأطلقت الحمائم تحمل أغصان الزيتون ولكن عجزتْ فيك النفوس عن أن تمحو منها آفات الجشع والأثرة لتنتشر في الأرض راية الأمن والحرية والمحبة والسلام.

فانزل إلى مغاور الزمن والزم ناووسك بين نواويس الحقب والعصور إلى يوم يبعثك التاريخ وينصب لك الميزان في صفحات الكتب والأسفار.

٭٭٭

أما أنت أيها العام الجديد فرجاؤنا عند الله ألا نبكي منك وألا نبكي بعدك عليك.

أقبلت في مضطرب الأنواء وجوامح الأهواء فهل يقوم فيك من يأمر هوج الرياح فتسكن وثوائر الأمواج فتهدأ حتى يمشي الناس على أثباج الماء كما يمشون على صفحات الأرض.

أنت الحبيب الجديد فأنسنا ما ذقناه من إخفار الذمام ونكث العهود.

أنت الجميل المحيا ما دمتَ غير موجود فعسى أن نراك على مثل ما تصورتك عليه الأوهام والأحلام.

أنت المستقبل المجهول وكم في المجهول من أسرار حبيبة تجلوها بسمة النفس للمستقبل.

طلعتَ على العالم فخياك الطفل في لعبه وزاهي ثيابه والعربيد في لهوه ورقصه وعشيق الطلا في طاسه وكأسه والتقي الورع في صلاته ودعائه وجريح القلب في يأسه وأشجانه: أفانين من الصور رسمها الرجاء والأمل عن شيخ يصبو إلى حياة لُبد وكهل يرغب في ريق العيش وشاب يهوى المغامرة إلى فقير يلتمس بعض السعة ونَصَف يرجو الغنى وغني يطمح إلى مكانة الأشراف إلى أمٍ ناشئة تدرج في معارج الرقي وأخرى مظلومة تنزى في الأغلال والقيود وأمٍ ضخمة الثراء واسعة الأرجاء تطمع في المزيد.

كل أولئك يطلبون فيك السعادة على مختلف توهمهم للسعادة ويؤثرون أن يروا فيك الورد بلا شوك والنور بلا ظل والماء بلا قذى وما دروا أن لا سعادة بلا سلام وأن نشر لواء السلام أفضل من كسب معركةٍ حربية وأن السلام إنما هو صنع القلوب الكبيرة والضمائر الحية والنفوس المتجردة إلا من فضيلة الرحمة والمحبة.

أي سعادة يتمناها البشر إذا غاب الإنسان عقله على كل شيء وتناسى أن ينابيع الأحزان لا تتفجر إلا عن صخرة الظلم والجشع .

قد تغضب الطبيعة وتثور فلا تبلغ ضحاياها ضحايا الإنسان إذا غضب وثار هذا الإنسان الذي تمر جيوشه بالأرض فتحيلها جدباء قاحلة لا ينبت فيها غير الشوك والقتاد وتحلق طائراته في الجو فتمطر الحمم والدمار وتمخر سفائنه عباب البحار فتنقل الحديد والنار لتقذف به المدن الوادعة وعباد الله الآمنين . كل هذا يفعله عقل الإنسان الجبار وقلبه القاسي وهو الجدير بأن يسخر عقله وقلبه لخدمة أخيه الإنسان . كان أهل أثينا القدماء يحكمون بالقتل على من يستضيء بنور شمعة ويحرمه أخاه فما بالك بمن يحرم أخاه نور الحياة .

أيها العام إننا نعزو إليك ما نصيب من خير أو شر في حين أنك من صنع الناس حددوا بدءك وانتهاءك وقسموا شهورك وأيامك وعينوا مواسمك وفصولك فما أنت إلا إناء تضع فيه العقول والقلوب قطرات من ماء خيرها أو شرها فتبدو فيك تلك القطرات صافية اللون أو قاتمة . فمن للإنسانية بعقول وقلوب تقطّر في إناء العام الجديد أنداء الرحمة وقطرات الخير فنستمتع بصفاء حرمناه سنوات طوالا .

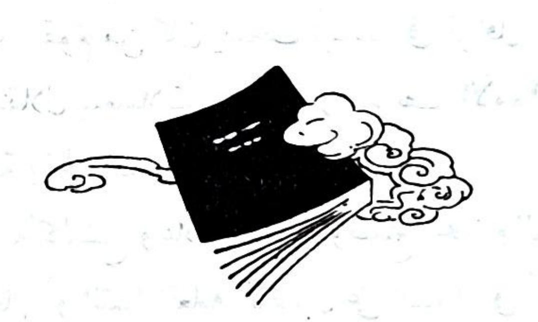
إن من حق الإنسان أن ينعم بما في هذه الحياة من مباهج وفتون أفننصرف عنها إلى التفنن في اختراع أدوات التهلكة والضر . لقد أودع الله جوانحنا قلباً يخفق للجمال ونفساً تتأثر بالسمو فمتى نخلو إذن إلى أنفسنا وقلوبنا لنسبح الله ونشكره على ما أحاطنا به من روضة أنُف ووادٍ جميل وجبلٍ رائع وسيلٍ دفاق وغابةٍ نضرة وسهل خصيبٍ . ومتى نمتع العين والقلب والنفس بآثار الوحي والعبقرية المتمثلة في قصيدة شاعر ولوحة رسام وتمثال نحات ولحن عازف وصوت منشد . أما لو أننا قسمنا الوقت بين تأمل هذه الفاتن وبين تسخير العقل في كشف ضروب الأذى لما أصبنا من مواطن هذا الجمال إلا النصيب الضئيل فأسرار الحسن والجمال لا تتجلي إلا لنفس مطمئنة وقلب راض . وفيم نعنى إذن بكنوز الفنون ونحرص عليها ونجد في مضاعفتها عاماً بعد عام إذا كانت هذه الكنوز رميَّة مدفع أو هدف قنبلة تجعلها أثراً بعد عين .

ترى أيعقل الإنسان ويعتبر بمواعظ الأيام وعبرها وتصيح في نفسه صيحة الخير فتتغلب على نزعة الشر ويحقق أبناء هذا الجيل ما لم يحققه أبناء العصور الغابرة .

أيها العام الجديد لقد قرن الناس مولدك بآمال وأحلام أعربت عنها شفاههم وهمست بها نفوسهم أما أمانينا فأن نرى فيك السلام منشور اللواء في كل بقعة وصقع

وأن تحتل مصر وبلاد الشرق العربي مكانها اللائق بها تحت الشمس لا سلطان عليها إلا سلطان نفوس أبنائها المشربة حب العدل والخير والكمال وأن يجنح حملة الأقلام في هذه البلاد العزيزة إلى الأدب الإنساني الكامل يبثونه في النفوس ويتخذونه المرقاة إلى السمو والخلود وأن تكون لهذا الشرق أيها العام فاتحة عهد جديد يشفي فيك العليل ويغني الفقير ويسعد المتعلم ويتعلم الجاهل ويخفف البطر الترف من غلوائه ويعلم الصلف المتكبر أنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا . فإن ضن علينا القدر بتحقيق هذه الآمال والأماني فحسبنا أيها العام يوم نحتفي بوداعك أن نتلفت إلى الوراء فلا تأخذنا حسرة على عمل أو أسف على فرصة أو لهفة على ماض .

عادل الغضبان



حديقة الأفكار

التعليم عند العرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان التعلم عند عرب الجاهلية يجري على سنّة الفطرة الأولى ، وهي أن يتلقى الأبناء عن الآباء ما يحتاجون إليه من الصناعات والمعارف ، سواء في معيشة المجتمع أو في المعيشة البيتية . فكانوا يتعلمون الفروسية وما تشتمل عليه من ركوب الخيل والمصارعة واستعمال السلاح وبعض الألعاب الرياضية ، ويضيفون إلى العلم بالفروسية علماً آخر بشؤون الثقافة التي كانت ميسرة في ذلك الزمان ؛ وهي تتلخص في رواية الأخبار وحفظ الأشعار والدراية بالأنساب والأمثال ، مع طرف من العلم بالنجوم والأنواء ودلالات الطريق .

ومن سَرَوَات القوم من كان يصحب أبناءه في قوافل التجارة حين يبلغون أشُدَّهم ويتهيأون للاستقلال بالمعاملات التجارية وتصريف الأموال ، ولا يندر في هذه الحال أن يعلموهم الكتابة والحساب .

أما الأعمال البيتية كالنسج وعلاج الألبان وصنيع الخبز والطعام ونصب الخيام فما كان منها من عمل الرجال أو النساء تعلمه الأطفال على السواء في أحضان الأسرة على ذلك الأسلوب الفطري . وكان معوَّلهم في تعلمه على المشاهدة والتدرب والمحاولة المتكررة ، كما يتعلم صبيان الصناعات في قرى الريف إلى هذه الأيام .

ولما عرفوا حياة المدن درجوا على عادة تنم على الحصافة وبعد النظر في تقويم أبدان الناشئة وخلائقها واستدامة الصلة بين روح البداوة وروح الحضارة العربية ، وهي إرسال الأبناء في سن الطفولة إلى الصحراء ليتعودوا فيها مقاومة العناصر الجوية ومزاولة الصعاب ويتحرزوا بهذا الحرز الطبيعي من ترف المدنية ووباله على النفوس والأجساد ، وطرأ بعد ذلك سبب آخر للمثابرة على هذه العادة إلى ما بعد أيام الجاهلية ، وهو تصحيح اللسان من العجمة واللحن واستحياء خلائق المروءة العربية في الجيل الذي فارق الجزيرة إلى الأمصار القصية بعد الفتوح . ولم ينس أول خليفة أقام ملكه في الشام أن يرسل ابنه إلى

باديتها ليتربى فيها على هذه السنة العربية العريقة ، فنشأ يزيد بن معاوية مع أمه ميسون بنت بَحْدَل الكلبية في صحراء بني كلب ، وأخذ من الصحراء خير ما كان فيه ، وهو الفصاحة وحب الصيد ورياضة الحيوان .

وكانت للعرب صناعات خاصة ، كالشعر والكهانة والطب والعيافة والدلالة يتعلمونها كذلك على أسلوب النقل والتلقين . فالشاعر يتبعه الراوية ويحفظ عنه شعره وشعر غيره ثم ينظم هو الشعر حين يقدر على نظمه ، والكهان والأطباء والعيافون والأدلاء يصحبون أبناءهم وذويهم ليدربوهم ويزودوهم بأسرارهم ، ويتركوهم من بعدهم خلفاء لهم على ذلك الميراث .

وربما اجتمع تعليم الحرب والأدب في أستاذ واحد كما يؤخذ من هذين البيتين :

أعلمه الرماية كلَّ يومٍ فلما اشتَدَّ ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هَجَاني

أو ربما تعلم الولد في أحضان الأسرة كل هذا أو معظم هذا كما يؤخذ من هذين البيتين :

وربّيتُه حتى إذا ما تركتُه أخا الحربِ واستغنى عن المسح شاربُهْ
تعمد حقي ظالماً ولوى يدي لوَى يَدَهُ اللهُ الذي هو غالِبُهْ

ولم تزل هذه هي طريقة التدريب والتنشئة في الصحراء من أزمنة الجاهلية إلى الزمن الحديث .

ثم اتسعت الحضارة العربية في الآفاق ، وقصرت تلك الأساليب الفطرية عن الوفاء بحاجة الدولة إلى المتعلمين والعمال الصالحين ، فنشأت صناعة التعليم ، ووجدت في المدن والقرى طوائف المعلمين المنقطعين لهذه الصناعة ، وهم درجات يمكن أن نحصرها في درجتين اثنتين :

أولاهما : تعليم الأطفال إلى السن التي يحفظون فيها القرآن كله أو بعضه ، ويلمون فيها بقواعد الكتابة والحساب ، وكان ذلك موكولا إلى أناس من الحفاظ يتوسطون بين مرتبة الأميين ومرتبة المثقفين ، ولا يحسبون منهم في كثير من الأحوال .

ويرتقي الطالب من هذه المرتبة إلى ما فوقها ، وهي مرتبة التوسع في التحصيل ، أو مرتبة التخصص والاستقصاء ، وينشدها الطالب في حلقات الدروس العامة ، وأكثرها في المساجد التي يجلس فيها الأساتذة لإلقاء دروسهم على كل من يحضرها ، ويواصل حضورها على اختلاف موضوعاتها ، من فقه ولغة وأدب ومنطق وطبيعيات ورياضيات ،

وقد كانت دروس الرياضيات والمنطق أيضاً مما يلقى في مساجد العبادة صدراً من بداية الدولة الإسلامية ، ثم عكف طلابها على بيوت أساتذتها أو على المدارس التي كانت تفتح للدرس دون العبادة ، ولا سيما المدارس المقصورة على تخريج الأطباء .

ولا شك أن هذا « البرنامج التعليمي » العامّ قد صاحب الدولة العربية إلى العهد الأخير الذي أدركناه ، ولا تزال بقاياه مشهودة في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية ، فلم تزل الحلقات والمكاتب المعروفة عندنا باسم « الكتاتيب » هي أماكن التعليم التي يؤمها الكبار والصغار منذ أوائل الدولة العربية إلى عهد قريب .

لكن الحلقات والمكاتب لم تستأثر بالتعليم كله في عصور الدولة العربية ولا سيما عصورها الذهبية ، وإنما كانت هي مثابة « التعليم العام » المباح لكل من يحضره ويواصل حضوره ، ووراء ذلك تعليم لا يباح لكل طالب ، ولا يحضره غير أهله في رأي أساتذته القادرين عليه . وهذا التعليم المضنون به على غير أهله قسمان : قسم يتصل بحكمة الدين ، وقسم يتصل بالحكمة على الإطلاق ، أو قسم المتصوفة وعلماء الكلام ، وقسم الفلاسفة وعلماء الطبيعيات والرياضيات .

فالغزالي ، وهو قدوة الأساتذة الأولين ، يرى أن يقصر العلم في مسائل الكلام العويصة على صفوة المتعلمين الأطهار درجات بعد درجات ، أو كما قال في كتابه إلجام العوام عن علم الكلام : « فقد خلق الناس أشتاتاً متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر . فانظر إلى تفاوتها وتباعد ما بينها صورة ولوناً وخاصية ونفاسة ، فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف . فبعضها معدن النبوة والولاية ومعرفة الله تعالى ، وبعضها معدن للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية . . » .

والغالب في المتصوفة أنهم كانوا يمتحنون قدرة المريد على الوصول بما ينشده من معرفة « السر الأعظم » الذي يتوق إليه جميع الباحثين عن الحقيقة ، فما دام مقصده منه قوة التسلط أو القدرة على تسخير العناصر المادية والإتيان بالخوارق فهو بعيد من مرتبة الوصول ، فاذا أنست نفسه إلى سعادة المعرفة لغير مأرب من هذه المآرب الجسدية ، واكتفى من البحث بأن يعرف ليعرف ، وأن يخلص إلى الحقيقة ليسعد بالخلوص إليها ، فهو قد استغنى عن القيادة الروحية وبلغ الغاية التي لا يفاجأ فيها بإنكار تلك المطالب أو إنكار السعي إليها ، ويومئذ لا يسوءه أن يعلم كما علم الغزالي « أن الخلائق وإن اتسعت معرفتهم وغزر علمهم فإذا أضيف ذلك إلى علم الله سبحانه فما أوتوا من العلم إلا قليلا . . »

وحجر الغزالي على التعليم بهذه القيود لا يحسب من الحجر الديني على العقول كما

وهم بعض المتأخرين ، لأن مذهبه في ذلك مذهب العارفين بعقول الناس من قديم الزمن، وفي طليعتهم سقراط أستاذ أفلاطون ومن بعده أرسطو وسائر حكماء اليونان ، فقد كان سقراط ينكر الكتاب لأنه علم مفتوح لمن يدرك ولا يدرك ، ويؤثر التعليم بالاختصاص والانتقاء والاستبراء ، ولم يكن بين الغزالي وفلاسفة الإسلام فرق يذكر في جوهر هذا المذهب ، لأن أولئك الفلاسفة كانوا يدينون بقصر العلم على أهله وتخصيصه بمن هو قادر عليه ، ونحسبهم على صواب فيما اعتقدوه من « إلجام العوام » عن هذا المقام ، ولو كانت هناك وسيلة لتمييز العامي الذي سيظل عامياً طول حياته لوجب أن يمتنع العلم عن العوام ولا يسمح لهم منه إلا بما هم مضطرون إليه قادرون على فهمه ، لكن المحظور في هذه المسألة آت من صعوبة التمييز بين العامي بحكم البيئة والعامي بحكم الطبيعة التي لا تقبل التبديل ، ورُبّ رجل من سواد الناس يفتح له باب العلم فلا يقف فيه دون أقصى الغايات .

وإذا كان الغزالي قدوة الأساتذة الأولين ، وهم المتصوفة وعلماء الكلام ، فلعل الفارابي هو قدوة الأساتذة الآخرين، وهم الفلاسفة وعلماء الطبيعيات والرياضيات ، وهو كالغزالي في تحريمه العلم الرفيع على سفلة الناس ، وقد خطر له أن أرسطو كان يتعمد «الإغماض» تعمداً لثلاثة أغراض، وهي استبراء طبيعة المتعلم هل يصلح للتعليم أولا يصلح ، وأن تبذل الفلسفة لمن يستحقها لا لجميع الناس ، وأن يروض الفكر بالتعب في الطلب .

وقد استوجب الفارابي على طالب العلم الرفيع أو الحكمة الخالصة دروساً عددها « فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » ومنها الهندسة والطبائع والمنطق ورياضة النفس على حب الحق والأنفة من الشهوات ، ومتى استعد بهذه العدة تهيأ له أن يبلغ « الغاية التي يقصد إليها في تعلم الفلسفة ، وهي معرفة الخالق تعالى وأنه واحد غير متحرك ، وأنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء ، وأنه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمته وعدله . وأما الأعمال التي يعملها الفيلسوف فهي التشبه بالخالق بمقدار طاقة الإنسان » .

ولسنا نستوعب « برنامج التعليم » كله عند العرب بما قدمناه على وجه الإجمال .

ففي هذا البرنامج المطلق برنامج « مخصوص » لأنه مقيد بمطالب القصور والبيوتات من أعلى تلك المطالب إلى أدناها ، وأقرب ما نشبهه به في عصرنا الحاضر هو « الدرس الخصوصي » الذي يستأثر به العلية ومن هم منهم في حكم الحاشية والأعوان .

ويدخل في هذا البرنامج تعليم الملوك والأمراء والكبراء ، وهو فن من التعليم له شروط ومؤهلات جمع زبدتها شهاب الدين بن محمد بن أبي الربيع في الكتاب الذي ألفه للخليفة المعتصم بالله باسم « سلوك المالك في تدبير الممالك » وجاء فيه بما ينبغي أن يتعلمه

الرئيس لسياسة نفسه وسياسة الشرفاء والرعية والعبيد ، وقسم العمل على ثلاثة أنحاء ، وهي: « سياسة الإنسان نفسه وبدنه ، أي سيرته في نفسه بالأعمال الصالحة ، وسياسة المنزل، أي سيرته مع أهله وماله وولده وعبيده ، وسياسة أهل نوعه ، أي سيرته التي لا يستغني عنها ما دام حيا . . . » ثم أحصى فيه الصفات التي تطلب في الوزير مثلا ، وهي : « حسن العلم بالدين وحسن العقل والحلم وحلاوة اللسان وبلاغة القلم وكرم الأخلاق وسهولة الحجاب واعتقاد الخير والصلاح وقلة اللهو وكتمان السر وصحة الجسم وجودة التفكير . . . »

وقد كثر عدد المعلمين الذين يستجيبون مطالب القصور والبيوتات من أعلاها إلى أدناها ، فكان منهم من يعلمون الجواري والوصفاء ويخرجونهم في فنون الأدب والموسيقى والمحاضرة وتربية الأبناء ، ويغالون بأثمانهم على قدر حظهم من العلم والتدريب، وكان منهم معلمو الصناعات البيتية والدقائق الفنية التي لا ترام في غير القصور والبيوتات.

وأهم من هؤلاء جميعاً أولئك المعلمون الذين يستدعون لتخريج أبناء السراة في كل ضرب من ضروب المعرفة التي تكمل بها مروءة الشرفاء ، وكان لهؤلاء المعلمين فن يشبه فن التربية الحديثة والنظم « البداجوجية » فيما يساس به الطفل وما يباح له وما يحرم عليه وما يُشَجَّع به على التعلم ويبسط له بعد إيجاز أو يفصل له بعد اقتضاب . ويبدو لنا أن ما كتب عن فن التدريس باللغة العربية إنما كتب لهذا الطراز من المعلمين « الخصوصين » لأن طبقة المعلمين في المكاتب الشعبية لم ترتفع إلى هذا المقام من التخير والاصطفاء ، ولأن العلماء أصحاب الحلقات لم يكن من شأنهم تعليم الصبيان ، وقد وُفِّي شرح هذا الفن في كتاب الباحث الفاضل الدكتور « أحمد فؤاد الأهواني » عن « التعليم في رأي القابسي » فهو أفضل المراجع العربية في هذا الباب .

* * *

وخلاصة ما يقال عن التعليم عند العرب أنهم كان لهم تعليم يغنيهم ولا يقصرون به عن شأو حضارتهم ، وأن منه ما هو أنفع من تعليمنا الآن ، ونعني به تعليم الحلقات وتعليم الاصطفاء والاستبراء . فلولا أن تعميم التعليم فريضة من فرائض العصر الحاضر لكانت الحلقات أنفع من الجامعات ، وكان استبراء المريدين أنفع من التخصص على النظام الحديث ، لأن التعليم قبل كل شيء هو اتصال روح بروح ، واقتباس حياة من حياة ، وليس هذا على أتمه بميسور مع التعميم الذي لا محيص فيه من بعض الآلية في النظام ، وفي كل آلية جور على حرية الإنسان .

عباس محمود العقاد

دخان المعامل

للأستاذ شفيق جبري بدمشق

رجع إلى دمشق من زمنٍ غير بعيد فريق من الطلاب والأساتيذ الذين قضوا خمس سنين في « باريس » في سبيل التحصيل ، وقد اجتمع بي أحدهم وأخذ يحدثني عن العيشة التي عاشها خلال الحرب . كانت عيشته بالنسبة إلى رفقائه وسطاً ، لأنه استطاع أن يدبر أموره ، وقد مال بنا الحديث إلى أن كشف لي عن حالةٍ من حالات نفسه ، قال : لا أستطيع أن أصور لك الألم الذي ألمته لما كنت أنزل ضيفاً على تاجرٍ من دمشق رزق في باريس مالا غير يسير بسبب الحرب ، وصف لي هذا الصديق عيشة التاجر في داره ، إنه يتقلَّب في أعطاف النعيم ، وصف لي أثاث داره وطعامه وما شابه ذلك ، ولم يكتم في أثناء الوصف أمراً في نفسه ، قال لي : كم يكون عذاب صاحب الفكر والثقافة أليماً إذا كان يعيش في كوخه في شيء من الضيق ، ورأى من حوله ناساً دون فكرٍ وثقافةٍ يعيشون في قصورهم عيشة النعيم ، بسبب مغانم جلبتها لهم متاجرهم .

لقد اضطررت بعد هـذا الـكلام إلى أن أقطع عليه حديثه وأحول فكره من مجرى إلى مجرى ، قلت له : خطؤنا معاشرَ رجال الفكر أنّـا ننظر إلى التجارة وإلى الثقافة نظرة واحدة ، ثم نوازن بينهما من الناحية المادية ، فنتهاون بعد هذه الموازنة بثقافتنا ، فيقل شأنها في نظرنا ، ويعظم في أعيننا شأن المادة أو كل شيء يجر إلى الإنسان مالاً ، على أنـّـا ينبغي لنا أن نفرق بينهما ، فللتجارة غاية ، وللثقافة غاية ، لم ندرس الهندسة أو الـكيمياء أو الأدب لنصبح أغنياء ، وإنما درسنا هذه الأنواع من العلم والأدب لأنها أرفع مظاهر العقل البشري . وهذا ما حملنا على أن نهدم شبابنا في سبيلها حتى ساءت صحتنا وضعف بصرنا ، درسنا هذه الأنواع من العلم والأدب لأنها غذاء روحنا وعقلنا ، ولذة الحياة الروحية أو العقلية في مذهبنا أعظم شأناً من لذة الحياة المادية ، لا شك في أنه ليس من الضروري أن يموت العالم أو الأديب من الجوع ، ولـكن العالم حسبه في هذه الدنيا الحصول على ما يسد به عوزه ، حسبه فيها الظفر بما يصلح حالته وحالة أهله ، فإن له في حياته الروحية أو العقلية عوضاً عما يفوته من المال .

إن الحياة في الدنيا نسبية ، فالتاجر الذي بلغت ثروته مليون جنيه في هذه الحرب لا يعد غنياً إذا قيس بالتاجر الذي بلغت ثروته مليوني جنيه ، ثم إن التاجر الذي جمع ثلاثة ملايين لا تهنأ عيشته بها ، لأن همه أن تكون الملايين أربعة أو خمسة ، ولما كان العدد لا حدّ له فالطمع في تكثيره لا حدّ له ، وهذا الطمع مشغلة للذهن ، متعبة للبال ، فرجال الفكر والثقافة انصرفوا عن هذا الشكل من الحياة المادية إلى شكل آخر من الحياة الروحية أوالعقلية ، والفرق بينهما ظاهر ، فلا تتسع أفياء الحياة المادية إلاّ ازدادت المتاعب فيها ، فلست أعتقد أن التاجر الذي كسب مائة ألف جنيه يقتصر عليها فلا يطلب الاستزادة منها ، وليس من الضروري أن يكون في هذه الاستزادة شيء من المتاعب ، ولكنها في الأغلب من الأحوال لا تخلو من المتاعب .

أمّا الحياة الروحية أو العقلية فلا تتسع أفياؤها إلاّ اتسعت لذّتها ، فالعالم الذي يخترع شيئاً لم يخترعه غيره تعظم لذته باختراعه ، وينسى التعب الذي تعبه في سبيل الاختراع ، وكذلك الفيلسوف الذي يهتدي إلى نمطٍ من التفكير لم يهتد إليه غيره من أصحاب الفلسفة .

والخلاصة أنه يجب علينا معاشر رجال الفكر أن نفرق بين الحياة المادية التي ينزع إليها رجال المادة ، وبين الحياة الروحية أو العقلية التي ينزع إليها رجال العقل والروح ، فلكلٍ منهما غاية ، ولكل منهما أساليب ، ولا ينبغي لصاحب فلسفة أو علم أو أدب أن يقيس نفسه بصاحب مادة ، فإن صناعته أرفع صناعات العقل البشري ، ولا أبالغ إذا قلت إنه يكاد ينفصل عن أفق البشر ويتصل بأفق آخر أرفع منهم ، فإذا لم تكن نظرته إلى صناعته على هذا الشكل فقد يكثر تعبه ويشتد ألمه في الحياة ، ولكنه إذا انصرف نظره إلى رفعة صناعته قل تعبه وخف ألمه ، وتهاون بالمادة فلم يعطها أكثر مما تستحق .

لا شك في أن الكلام على النزعتين المادية والروحية قد كثر بعد هذه الحرب ، فأخذت أقلام طائفة من رجال الفكر العربي ومن رجال الفكر في الغرب تخوض في هذه الموضوعات ، والسبب في هذا النحو الجديد من التفكير ناشئ عن الحرب نفسها ، لقد أحدثت هذه الحرب ضرباً من الرّكس ، وهو ما نسميه : رد الفعل ، سفك فيها من الدماء ما سفك ، وخرب فيها من المدن ما خرب ، وشاهت فيها هيآت كثير من الخلق ، وساءت صحة كثير من الأطفال والشيوخ ، ولا يتسع المجال لإحصاء البلاء الذي جرته هذه الحرب ، وحسبي القول أن البشر قاسوا حرباً في هذه السنين لم يقاسوا مثلها من بدء الخليقة ، فالناس قد تعبوا من الحرب وشقوا بسببها ، ولا ريب في أن شقاوتهم

ألهبت تفكير المفكرين ، فذهب اعتقادهم إلى أن هذه الحرب إنما هي نتيجة نزعة مادية نزعتها أكثر الأمم ، فهم يحاولون أن يحولوا مجرى تفكير هذه الأمم من النزعة المادية التي كانت سبب خراب الدنيا في هذه السنين الأخيرة ، إلى النزعة الروحية التي قد تكون سبب راحة الخلق في المستقبل ، ولهذا شرع رجال التفكير في كل أمة يرسلون أقلامهم في الموضوعات الروحية ، ولقد نحا كل منهم منحى في هذا المعنى بحسب أسلوبه .

إني لا أنسى مباحث الأستاذ الجليل أحمد أمين بك في الحياة الروحية ، ولا مباحث أستاذ الفلسفة في جامعة « سنت أندروس » فإن هذا الأستاذ قد بادر ذهنه إلى الأفكار والمثل العليا بعد الحرب قبل أن يبادر إلى عمارة المنازل والمصانع . من هذا يتبين لنا عظم شأن المثل الأعلى في نظر أصحاب الفلسفة ، فلم تعش أمة من أمم التاريخ في القديم دون مثل أعلى ، لقد كان لكل من بوذا وعيسى ومحمد مثل أعلى ، نشأ عنه ظهور دول وخفاء دول ، وإذا جاوزنا آفاق الأديان إلى آفاق ثانية ، فإنا نجد في كل عصر مثالا أعلى في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو غير ذلك ، يتغير في خلال قليل من البطون ، فمرة نجد الملكية المطلقة ، ومرة نجد الملكية الدستورية ، ومرة نجد السيادة الشعبية ، ثم نجد الاشتراكية أو الشيوعية أو غير ذلك ، فلكل شكل من هذه الأشكال مثال أعلى .

ولهذا السبب أخذ رجال الفكر يفتشون للأمم بعد هذه الحرب عن مثال أعلى روحي، ينسيهم الشقاوة التي شقيتها البشرية ، ويجلب لهم النعيم في المستقبل، ولقد تضافر هؤلاء المفكرون على أن راحة الخلق في الآتي من السنين إنما هي في الحياة الروحية .

لقد أفسد دخان المصانع والمعامل طبقات الهواء ، وإذا كانت هذه المصانع والمعامل وغيرها من مظاهر المادة قد جلبت للأمم بعض الخير فقد جلبت لها كثيراً من الشر ، وما هذه الحرب التي كابدناها إلا من دخانها ، وإذا كان لا غنى بنا عن نصيبنا منها فنحن إلى نصيبنا من الروح أفقر ، على أنه ليست المصيبة من المصانع والمعامل وحدها ، ولكن المصيبة من اقتصار فكر البشرية عليها دون سواها ، لا بأس بأن تفكر الأمم في أشكال الحضارة المادية ، ولكن البأس كل البأس في أن تغفل عن أشكال الحضارة الروحية ، قد تفكر الأمم في الثروة العظيمة التي تنشأ عن معاملها ومصانعها ومخابرها ، ولكنها هل تفكر في توزيع هذه الثروة على صورة عادلة ؟ فليس من الضروري أن أن يكون صاحب معمل في غاية النعيم ، ومن حوله جماهير من الناس في غاية الشقاوة ، وليس من الضروري أن تعيش أمة أرغد عيشة ، وإلى جنبها أمم في فقر مدقع .

هذا هو المثال الأعلى الذي أخذ المفكرون يصرفون البشرية إليه . إنهم يريدون

أن يوجهوا الخلق نحو آفاق من الأخلاق ، يقل فيها الطمع والجشع والأثرة وأشباهها ، ونحو آفاق من الروح لا تكون المعامل والمصانع والمخابر فيها صاحبة السلطان وحدها في هذه الدنيا .

على أنه قد مضى زمن من أزماننا معاشر العرب عاش فيه بعض أهله بأرواحهم أكثر من عيشتهم بأجسادهم ، وحملهم هذا الطرز من العيشة على أن ينظروا إلى من حولهم مثل نظرتهم إلى أنفسهم ، فريق منهم كانوا يهتمون بجيرانهم وإخوانهم ومساكنيهم اهتمامهم بأنفسهم ، وفريق منهم كانوا يعتقدون أن ابن آدم إن كان لا يغنيه ما يكفيه فليس ههنا شيء يغنيه ، وإن كان يغنيه ما يكفيه فالقليل من الدنيا يكفيه .

فهذه نماذج من العيشة الروحية التي عاشها فريق من العرب في الماضي ، فما الذي يمنعنا عن أن نبعث هذا المثال الأعلى الروحي من مدفنه في عصرنا هذا ؟ فالذي يقلق الناس ، على ما قاله أحد كتّاب الغرب إنما هو جعلهم للناحية المادية في الحياة شأناً أعظم من الشأن الذي يجعلونه للمثال الأعلى .

فيجب علينا أن نتعلم كيف نعيش بأرواحنا وعقولنا في مثالنا الأعلى الذي نخلقه لأنفسنا ، فإذا أردنا أن نقنع القناعة المادية وجب علينا أن نعيش العيشة الروحية التي تنشىء لنا هذه القناعة ، فإن الرجل الذي يعيش في مثاله الأعلى الروحي يقضي بهذا الشكل من العيشة على كل نقصان مادي ، إنه لا يفكر في المال ، لأن مثاله الأعلى جلب له نوعاً من الغنى الروحي أغناه عن كل مال .

لقد اختنقت البشرية من دخان المعامل ، فلتبعد قليلا عن هذا الدخان ، فإن في بعدها عنه راحةً وسلاماً .

شفيق جبري

فلسفة الجمود

للأستاذ إسماعيل مظهر

المفكرون في أشياء الاجتماع الإنساني فريقان : فريق يرى أن الإنسان يتقدم نحو الكمال ، وفريق يرى أن هذا التقدم ليس إلا ظاهرة خداعة ، وأن ليس لشيء يقال له التقدم من أثر في الاجتماع .

والسبب في هذا أن طبيعة الإنسان قد انطوت على قدر كبير من الجمود يظهر التقدم إلى جانبه كأنه لا شيء . ولكن عنصر الزمان قد أقنعنا بأن هنالك تقدماً يسير بخطوات متئدة نحو غايات لا نعلمها . فإذا نظرت في الماضي عند ما كان الإنسان في طور المدنية الحيوانية يتخذ من الجبال والكهوف بيوتاً ومن الشجر سكناً ومن الأجم مربعاً ومستراحاً ، ونظرت في مدنية القرن العشرين ، والفارق الزماني بين العهدين عشرات الألوف من السنين ، أبان لك عنصر الزمان وإن شئت فقل القياس الزماني ، أن الإنسان يكتمل ويرتقي ويتقدم ، ولكن بخطوات اتسعت في بعض المناحي وضاقت وذلت في بعض المناحي الأخرى ، على قدر ما في الصفات الإنسانية من استعداد للتقدم في وجه ، والجمود في وجه آخر من وجوه المدنية . ومظاهر المدنية الإنسانية انعكاسات على لوحة الحياة ، تنشئها استعدادات خاصة في الأفراد والجماعات . والأفراد في جملتهم ارتقائيون فلسفتهم التقدم والنظر إلى الاكتمال . أما المجتمع في كليته فجامد فلسفته الثبات والاستقرار والنفور من كل جديد ، حتى تنقله إليه خطوات متئدة رزينة لا يكاد يشعر بأنها تسوقه إلى ما قام في عقلية الفرد وخيالاته ، وما تشبعت به أفكاره ونظرت اليه أمانيه . والفرد من ناحية أنه وحدة مستقلة في الحياة العضوية يسبق بفكره الجيل الذي يعايشه . أما الجماعات فهي في الغالب منبتّة عن المدى الذي يصل إليه خيال الأفراد . فإذا كان للتقدم فلسفة يمثلها شذوذ الفرد عن جمود الجمعية ، فهل للجمود فلسفة يمثلها شذوذ المجتمع عن تقدم الأفراد ؟ الواقع أن للجمود فلسفة ، وفلسفة ثابتة الأركان أيضاً ، ولو أن إدراكها يفوت الكثيرين ، بل يفوت أغلبية المفكرين بحكم ذلك السوق الهادىء الذي ينساق فيه الإنسان مجتمعاً فتمر به الأحداث الصغيرة التي هي عناصر التقدم

غير المحسوس ، وكأنها أحلام تهوّم في خيال صنم ، لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن شيء شيئاً .

منذ عهد غير بعيد علت صيحة في عالم الفكر عنوانها « الصراع بين الدين والعلم » وخيل إلى كثير من المفكرين ومن غير المفكرين أيضاً أن هناك صراعاً حقيقياً بين الدين ، سنادة المدنية الأولى ودعامتها العظمى ، وبين العلم معبود الفئة المختارة من الناس. نشأ الدين والإنسان في طفولته بين الأودية والحراج والكهوف وقاد خطى الإنسان نحو المدنية يسوقها سوقاً هادئاً نحو اشتراع الشرائع وتكييف النظامات وتأسيس المعاهد والنظم، ونشأ العلم بين جدران المدارس والمعامل ومن فوق برج بيزا المائل عند ما صعده غليليو ليلقي من قمته حجرين ، حتى يثبت فساد نظرية لأرسطوطاليس ظلت من مقومات العلم زهاء ألف من السنين . في العهد البدائي كان الإنسان ذا دين ، وكل فرد ذو عقيدة . ولكن لم يصبح في عصر المدنية ذا علم موزع على جميع الأفراد توزع الدين عليهم . فلما نشأ ما نسميه العلم ، وهو في حقيقته السيطرة على قوى الكون وأفاعيلها وكائناتها ، واقتنع فريق من العلماء بأن الدين عقبة في سبيل العلم ، لم يحدث ما سماه بعضهم صراعاً بين الدين والعلم ، وإنما حدث تسابق إلى « الزّلفى » كما يقول بلفور ، ففريق أهل العلم سابق فريق أهل الدين ليكسب الأنصار والداعين إليه ، وسابق أهل الدين رجال العلم يبثون في الناس روح الغيب ، ملاذ الإنسان ومنجاه ، ونصيره إذا خذله العلم وعجز عن أن يرضي نزعته نحو التشوف إلى عالم ما بعد العقل ، عالم اللانهاية ، عالم الخيال الطليق من قيود المعادلات الجبرية ، ونواميس الجاذبية ، وعكس مربعات الأبعاد .

هذا التسابق إلى « الزّلفى » ظهر في صورة صراع ضخمه بعض رجال الجامعات وغذاه كتاب فتنوا بالعلم فتنة أنستهم أن الدين برغم ما يقوم به من تركيز قوى الخلق في الأفراد ، هو الحكمة التي تصد الجماعات عن الانفلات من أقطار التطور الهادىء الذي هو في الحقيقة جوهر التقدم الصحيح .

يقول العلامة كارل بيرسون : « إن ما نجد في بحوث دروين من نفوذ البصيرة وقوة الإدراك وما عقبها من مؤلفات سبنسر ، تلك المؤلفات التي سوف تكون على قوتها وبالغ أثرها أقل ثباتاً وأسرع زوالا من مؤلفات دروين ،وما زودتنا به مبادىء النشوء في الحياة الفردية والاجتماعية ، قد اضطرتنا إلى تعديل أفكارنا القديمة وتقويمها ، وأخذت تقوي من دعائم مثلنا الأدبية وتوسع من ميدانها ؛ ولكن ببطء تدرجي . ولا ينبغي أن يحزننا هذا البطء ولا أن ييئسنا ، لأنه من أقوى الأسباب التي تحتفظ

بالثبات الاجتماعي وتحول دون تخلخله ، تلك الصفة التي نبغضها ، صفة الجمود على القديم . لا بل نقول بأن العداء الصارخ الذي تقابل به الجماعات الإنسانية كل الفكرات الجديدة هو من أخص تلك المؤثرات. وأن هذه الصفات هي بمثابة الكير الذي ينفخ في النار فيوري لظاها وبدونها لا نستطيع أن نفصل بين المعدن الصحيح والنفايات الزائفة ، وهي التي تصهر جسم المجتمع لتظهر منافعه وتذهب بزبده ، وهي التي تحميه من التعرض لتغيرات فجائية ، قد تكون غير مفيدة حيناً ، وبالغة أقصى الضرر أحياناً أخر . »

هذه لغة الاجتماع . أما لغة الفلسفة فتوحي إلينا بأن الأضداد من ضرورات الطبيعة ومن ضرورات الحياة . ففي العالم الطبيعي كهارب موجبة وأخرى سالبة تحفظ بناء الذرة . وفي الدقائق المادية قوتا جذب ودفع . وفي الاجتماع الإنساني تقدم وجمود . وفي الحياة موت هو لزام لوجودها. ومن هنا نرى أن صفات السلب التي نمقتها في المجتمع ، هي في الواقع صفات لازمة لتقدمه وارتقائه والاحتفاظ بكيانه ليظل جسماً حياً تنعكس على صفحته صورة من صفات الفرد وأخرى من صفات الجمعية .

في نشوء الأديان ديناً تلو دين شيء من هذا . وفي نشوء المذاهب الفلسفية والعلمية أشياء أخر . فاذا كان في المجتمع من المرونة وميوعة الطبع ما يجعله يتقبل كل فكرة جديدة على أنها حق وكل معتقد ناشىء على أنه دين ، وكل مبدأ طبيعي على أنه علم ، ونظرنا بعد ذلك في تضارب جهات الفكر والمعتقد ، وتصورنا المجتمع الإنساني عجينة لينة تقبل كل هذه الصور على تلاحقها في الزمان ثم رفضها على تقارب الفترات التي تظهر فيها المذاهب والمعتقدات والمبادىء العلمية ، فهل كنا نجد في بناء المجتمع ما نجد فيه الآن من الثبات والاستقرار ، وهل كنا نجد أن للحق ما نرى فيه الآن من صفات البقاء والخلود ؟

وأنت إذ تنظر في السياسة والدين واللغة والآداب والفلسفة ، بل في كل ما تقوم عليه الحضارة من صفات الاجتماع الإنساني ، تجد أن التقدم والارتقاء قوة إيجابية تعضدها وإن كانت تقاومها ، قوة سلبية هي الجمود والمحافظة على القديم كما لو كان المجتمع الإنساني دقيقة من المادة تجذب جواهرها بعضها بعضاً ، في حين أنها تتدافع . وهذا لزام لبقاء المجتمع جوهراً حياً متماسك الأجزاء . فالتطلع إلى الأمام والتطلع إلى الخلف صفتان لازمتان لبقاء المجتمع الإنساني ، مستكملا لصفات النشوء والارتقاء .

ولقد ضل أولئك الذين ينظرون إلى الجامدين من أهل العلم والفلسفة والدين ، ولكل من مظاهر الفكر أفراده الجامدون ، نظرة من يعتقدون أنهم يمثلون ما سميناه

خطأ بالرجعية . لأن الرجعية في حقيقة معناها هي النكوص إلى الخطأ بالرغم من ظهور الصواب . أما الجامدون فهم القوة السالبة التي تحفظ على الجماعات نصيبها من التوازن اللازم لثباتها ، وخطوها نحو الارتقاء في خطا متعادلة بطيئة ، ولكنها تدرجية .

***

يقول الأستاذ بنيامين كِدْ صاحب الكتاب المعروف في التطور الاجتماعي : « إن الروح الحربية التي تملكت زمام المدنية في عصور الوثنية ، هي التي شكلت تاريخ الغرب برمته ، فخرجت الشعوب الغربية من تلك الحروب ، حروب التدمير والتخريب ، بمدنية هي أغرب ما وصل إليه الإنسان في تاريخ الدنيا . وما من ثمرة من ثمار هذه المدنية ، وما من نظام من نظاماتها الاجتماعية أو شكل من أشكالها ، إلا وجدتَ للروح القديم أثراً فيه كبيراً . يرجع ذلك إلى اعتقاد ثابت راسخ في روع الشعوب منذ نشأتها لحمته أن حيازة القوة والانتفاع بثمراتها هو المبدأ الذي يجب أن تعمد إليه الأمم ، إذا ما شاءت أن تحتفظ بكيانها . غير أن هذا الكائن الناطق الذي خرج من جوف الأزمان الأولى وفي يده آلات الحرب وأدوات التخريب ، كان ذا عقيدة دينية . عقيدة تخالف في أساسها ومبعثها الذي ترتكز عليه في طبيعة النزعات الإنسانية ، نزعته إلى القوة من أية طريق أتاها وبأية من الوسائل التي تذرع بها . وظلت نزعة الإنسان إلى القوة تحارب تلك العقيدة الموروثة حرباً عواناً تشهرها على ذلك المعتقد نزعات الإنسان وبواعث انفعالاته طوال القرون الأولى . ولا يزال الشجار قائماً حتى الآن . وإنك إن قلبت تاريخ الإنسان تجلى لك مقدار ما جالد ذلك الحيوان الناطق المفكر في سبيل التخلص من قيود تلك الوراثة الدينية التي خرج بها من حياته الأولى مستعيناً بها على هدم ذلك المعتقد بكل ما أوتي من قوة الفلسفة والعقل . فكم زجت تلك النزعة بالإنسان في غمرات حروب تهدم بها ما أقام السلم من صروح العمران ، وكم تمزق بها ما رأبت شريعة الآداب من صدوع الإنسانية » .

يظهر من هذا أن روح الجمود على القديم ، ذلك الجمود الذي تزكيه العقائد المستمدة مما فوق العقل البشري ، جوهر ثابت في الزمان ، مرتكز على طبيعة الإنسان المفكر المعتقد المدرك لحقيقة الشريعة الأدبية ، المحكوم بنوازع مما فوق عقليته ، تخضع عقله لحاجات الاجتماع . وذلك هو الأصل الثابت للمدنية .

فالمجتمع الإنساني إذن يقوم على قوتين : قوة مفرقة ، وقوة مؤلفة . فالأولى تقوم في عقل الفرد الأناني المحب لذاته النازع إلى التفوق والاستعلاء . والثانية يمثلها

معتقد ديني يستمد مما فوق عقلية الفرد . ولذلك المعتقد وظيفة جوهرية ، هي أن تحتفظ في تطور الجماعات بإخضاع مصالح الفرد لمصالح الجمعية .

خيل إلى بعض الفلاسفة والمفكرين في القرن التاسع عشر أن الإنسان فرداً وجمعية ، من خصائصه القدرة على الخروج عن ذلك القطر الذي رسمته غرائزه ، قطر الجمود على القديم الذي تمثله متعقدات الدين أفضل تمثيل . وخيل إليهم أيضاً أن هذه القدرة مكبوتة ، لأنه ينقصها الصورة التي تتكيف بها . وحدسوا أن هذه الصورة يمكن أن تكون مذهباً فلسفياً في « النفعية » نشأه ستيوارت ميل وغيره من الجهابذة وبنوه على جملة من المذاهب الفلسفية القديمة وظنوا أن هذه الصورة كافية لأن تخرج هذه القدرة من حبسها القديم . وعقب عليهم آخرون فاصطنعوا ديناً سموه « دين الطبيعة » ورسموا لكل ذلك حدوداً وأقاموا نظريات ووضعوا مبادىء ، ظانين أن الصورة التي اصطنعوها كافية لأن تخضع طبيعة مابعد العقل للعقل ، ونسوا أن استمداد الإنسان من قوى خياله واستشرافه بتلك القوة على عالم المادة الجامدة ، هو الجوهر ، وأن علوم المادة والحياة هي العرض في كل مايتعلق بحياته .

ذهبت تلك الفلسفة بخيالاتها ومبادئها وقضت روح الإنسان الاستشرافية على تلك المادية الجامدة . وأنى لهذه المادية أن ترضى في الإنسان خليقته الأصلية ، خليقة الاستمداد من قوة فوق قوته ، وعقل فوق عقله ، وتدبير فوق تدبيره ؟ تلك طبيعة الإنسان : وثوب يسنده جمود ، وعقل يسنده خيال ، وفكر تقويه عقيدة .

***

العلم والدين والفلسفة ، ثلاث صور من صور الفكر تستمد من ثلاث كفايات مختلفة في الغريزة الإنسانية ، وإن شئت فقل في التكوين الإنساني . فالعلم يستمد من كفاية التجربة والبحث في ظواهر الأشياء ، والدين يستمد من كفاية الاعتقاد والفلسفة من كفاية التأمل . وعندي أن هذه الكفايات كلها تدخل في ناحية الضرورات الحيوية والاجتماعية ، بل إنها في ناحية الضرورات الاجتماعية أدخل . والضرورات الاجتماعية كثيرة متباينة ، هي على كثرتها وتباينها ، بل على تناظرها إن شئت ، إنما تستمد من طبيعة الكائن المجتمع . وليس من هذه الضرورات ما ينزل عن حد الضرورة ، ليكون أكثر ضرورة أو أقل ضرورة من غيره ، وليس منها مما هو أقرب إلى الكماليات من الحاجيات . فإن هذه الضرورات كلها تنزل منزلة واحدة من حاجة المجتمع إليها .

وهي فوق ذلك مستمدة من صفات غريزية تتشكل في صور مختلفة بمقتضى ظرف الزمان وظرف المكان أو نشأة وحالة المجتمع ذاته . من هذه الضرورات أن يكون في الإنسان صفات نفسية تقابلها صفات عقلية . منها أن يكون فيه خيال وفيه تصور ، يقابلهما فكر ومنطق . وهذه الصفات أو الضرورات ، بعيداً عن ظواهرها الخارجية وباعتبار أنها أشياء كائنة في تضاعيف الفطرة ، لا يمكن أن يكون بين ما تنتج تضارب وتجالد واصطراع . قد يكون بين بعض ما تنتج من الحالات جمود يناظره في أخرى نزعته إلى التقدم والارتقاء . وقد يكون في ناحية منها حركة ، يناظرها في أخرى ما يتطلب الهوادة والسكون النسبي لتتعادل الكفة ، ويحدث الثبات الاجتماعي الذي هو أول الصفات المطلوبة في جماعة إنسانية ، يصح أن يقال فيها إنها متحضرة وإنها تقيم عمراناً .

الكفايات الثلاث التي ذكرنا أن العلم والدين والفلسفة تستمد منها كفايات لها ظواهر تفسرها لغة خاصة بها . فالعلم إن استمد من كفاية التجربة والبحث في ظواهر الأشياء فمعنى ذلك أن مجاله العقل . وإذا كان الدين يستمد من الاعتقاد فمعنى ذلك أن مجاله تصور ما فوق العقل. فالدين بهذا يسد فراغاً لا يسده العلم . وبين العلم والدين فجوة لا تسدها إلا الفلسفة ، التي تستمد من التأمل . فهذه الدرجات الثلاث أو هذه الصفات أو الضرورات ، ضرورة أن الإنسان يعلم ، وضرورة أن يعتقد أو يتدين ، وضرورة أن يتأمل أو يتفلسف ، حتى يوفق بين طرفي العقل وما فوق العقل ، صفات فطرية أصبحت بالطبيعة ضرورات اجتماعية ليس بين شيء منها والآخر صراع أو جلاد ، وإلا أصبح الإنسان مجموعة صفات متناقضة ، وهيكل من الفوضى المتحركة .

هي في الواقع متناسقة متكاملة كالقضية المنطقية التي تتألف من طرفين ووسط . وهي فوق ذلك لا تنتج إنتاجاً صحيحاً إلا إذا صحت مقدماتها . هذا مثل الإنسان في العلم والدين والفلسفة . كلها ضرورات لا بد منها ، وإن استمدت من نواح مختلفة من الفطرة الإنسانية . هي ضرورات اجتماعية من ناحية أن الإنسان مجتمع ، وضرورات فكرية من ناحية أن الإنسان قد خلق على ما فيه غير مخير هواه .

فيا أهل المستقبل الارتقاء الارتقاء ، ويا أهل الماضي الجمود الجمود . ففي ذلك توازن القوى التي لا يكون للتطور خطوات ثابتة إلا به . الارتقاء خطوات وئيدة تقوم كل منها على أساس من الماضي والماضي ركيزة المستقبل الثابتة .

إسماعيل مظهر

الزخارف الكتابية في الفن الإسلامي

للدكتور زكى محمد حسن

لم يكن المسلمون أول من استعمل الكتابة في زخرفة العمائر والتحف وسائر الآثار الفنية ، فقد سبقهم إلى ذلك أهل الشرق الأقصى ، كما عرفه الغربيون في العصور الوسطى ، ولكن ليس ثمت فن استخدم الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الإسلامي . ولا غرو ، فإننا إذا استثنينا الكتابة الصينية — وهي نوع قائم بذاته — لا نجد خطاً أوفق للزخرفة من الخط العربي ، فحروفه أصلح من غيرها لهذا الغرض ، بما فيها من استقامة وانبساط وتقويس . والخطوط العمودية والأفقية في هذه الحروف يسهل وصل بعضها ببعض ، كما يسهل وصلها بالرسوم الزخرفية الأخرى وصلا يتجلى فيه الجمال والاتزان والإبداع .

ولا يفوتنا أن نذكر في هذه المناسبة أن العرب أفلحوا في أن يفرضوا لغتهم على معظم الأقاليم التي فتحوها ، وأنهم حين لم يفلحوا في القضاء على اللغات القومية في كل طبقات الشعب في بعض البلاد التي دانت لهم استطاعوا أن يحوّلوا تلك البلاد إلى كتابة لغتها القومية بالخط العربي . وهكذا انتشر الخط العربي في الإمبراطورية الإسلامية كلها وقد أتيح له بعد ذلك أن يصل في نحو أربعة قرون إلى جمال زخرفي لم يصل إليه خط آخر في تاريخ الإنسانية قاطبة .

شكل ١ : كتابة بالخط الكوفي المورّق في مدينة آمد القرن ٥ هـ (١١ م) [عن فلوري]

والحق أن انصراف معظم الفنيين المسلمين عن تصوير الكائنات الحية وعن استعمال الزخارف الآدمية ، أظهر عبقريتهم في الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية ،

ولكن الزخارف الهندسية والنباتية التي أبدعوا في ميدانها إنما قامت على أساس ما عرفته الفنون القديمة في هذا الميدان ، في حين أنهم كانوا في الزخارف الكتابية مبتكرين تماماً ، حتى أصبحت هذه الزخارف من أبين مميزات الفنون الإسلامية عامة ، واشتركت فيها أمم الإسلام قاطبة واستعملها الفنيون في شتى العمائر والآثار الفنية .



شكل ٢ : صفحة بالخط الكوفي الزخرفي في مصحف من القرن الخامس أو السادس الهجرى (١١ — ١٢ م)

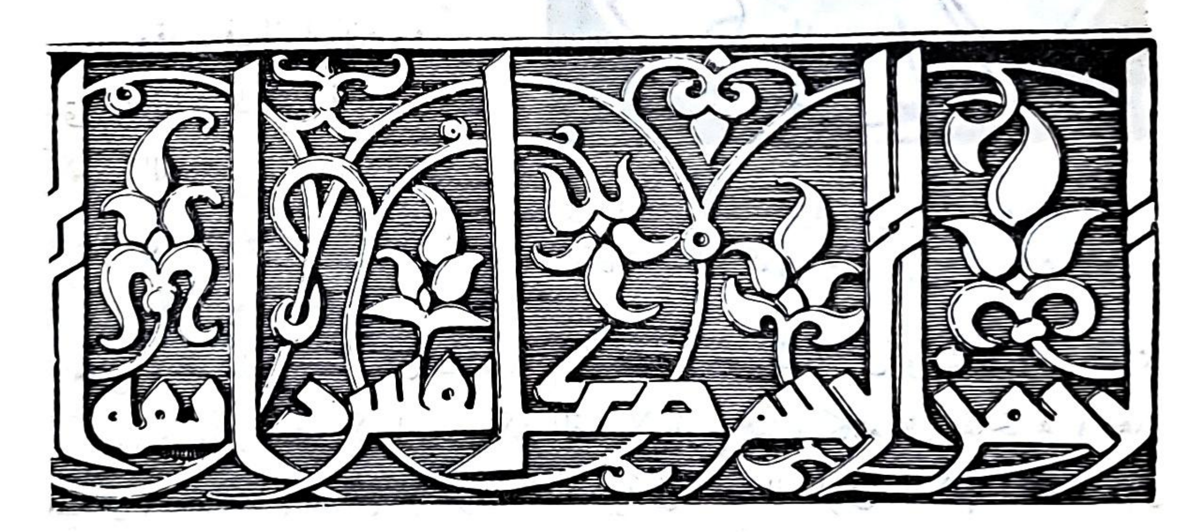
وحسبنا أن معظم الكتابات التي نراها على العمائر والتحف الإسلامية لا يقصد بها تسجيل اسم صاحب التحفة أو مشيد البناء أو تاريخه أو التبرك بعض الآيات القرآنية أو العبارات الدعائية فحسب ، بل قصد بها أن تكون عنصراً زخرفياً بذاتها .

وللكتابة الزخرفية شأن عظيم في تاريخ الفنون الإسلامية ، إذ أننا نستطيع أن نتخذها أساساً وسبيلا لتأريخ العمائر والتحف ذات الكتابات ، لأن لكل عصر ولكل إقليم في العالم الإسلامي أسلوبه في الخط وزخرفته ، فيمكن لذوي الخبرة أن يدرسوا الزخارف الكتابية ، وأن ينسبوا البناء أو التحفة الإسلامية إلى العصر أو الإقليم الذي صنعت فيه .

وفضلا عن ذلك فإن أشرطة الكتابة الزخرفية توجد تنويعاً في الزخرفة ، وتبعد ما قد ينشأ من ملل بسبب سيادة عناصر زخرفية من نوع واحد ، سواء أكانت

هندسية أم نباتية ، ولا سيما في فن كالفن الإسلامي ، يفرط في استعمال الزخارف إفراطاً كبيراً ، ويحرص على تغطية المساحات بها كلما استطاع الفني إلى ذلك سبيلا .

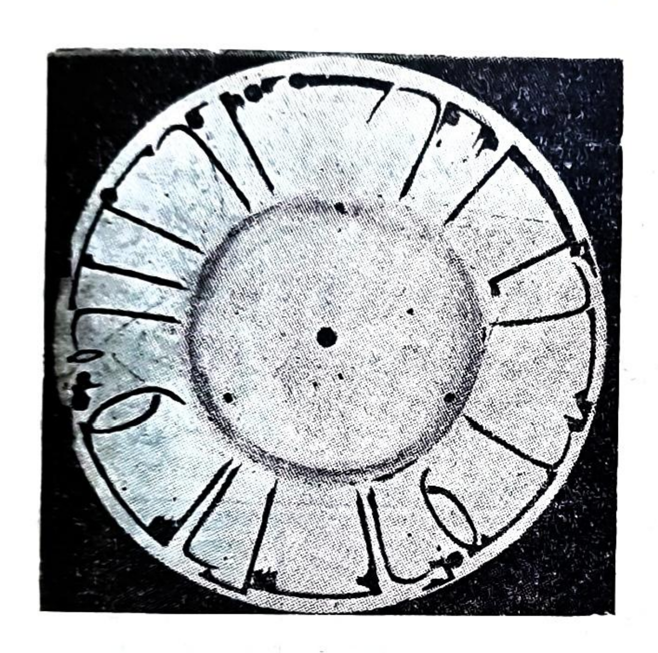
وكانت أنواع الخطوط العربية في فجر الإسلام تنسب إلى المدن الإسلامية المختلفة : مثل مكة والمدينة والأنبار والحيرة والكوفة . والظاهر أن القوم في الكوفة عنوا عناية خاصة بتجويد الخط والإبداع في رسم الحروف ، وغلب عليها عندهم اليبوس والصلابة والجفاف والميل إلى التضليع أو التربيع ، فألبسها كل ذلك طابعاً هندسياً . وانتشر الخط الكوفي في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، واستعمل في كتابة المصاحف وعلى قطع النقود ، وفي العمائر وشواهد القبور ، وسائر الكتابات التذكارية . أما أعمال التدوين العادية والمكاتبات المختلفة فقد استعملت فيها الخطوط اللينة أو المدوّرة أو المرسلة ، لأنها أطوع وأكثر مرونة وأوفر للوقت . ولا ريب في أن الخطوط المدوّرة اللينة عاشت منذ بداية الإسلام جنباً إلى جنب مع الخط الكوفي المضلع اليابس ، ولم تكن مرحلة متأخرة في تطوره ، كما ظن بعض المشتغلين بالفنون الإسلامية حين تبينوا أن الفنيين المسلمين أخذوا في الانصراف عن الخط الكوفي منذ القرن السادس الهجري (١٢ م) وأقبلوا على استخدام الخطوط المدورة .



شكل ٣ : كتابة كوفية على أرضية نباتية . في قبر محمود الغزنوى . من القرن ٦ هـ (١٢م) [عن موسوعة الفن الفارسي]

والمعروف أن العناية بجودة الخط كانت عظيمة في الإسلام . وأن الخطاطين كانوا أرفع الفنيين مكانة في العالم الإسلامي ، لاشتغالهم بكتابة المصاحف ونسخ كتب الأدب والشعر وخدمة الخلفاء والسلاطين ، فلا غرو أن ظرُف ذوق أولى الأمر وأهل اليسار فأقبلوا على شراء المخطوطات الكاملة ، أو النماذج من كتابة الخطاطين المشهورين .

وكانت أكثر هذه النماذج من الآيات القرآنية الكريمة أو الأدعية أو أبيات الشعر ، وجمع منها الهواة المرقّعات (الألبومات) الفاخرة . وحرص الخطاطون على الفخر بآثارهم الفنية فذيلوها بإمضاءاتهم . وجدير بنا أن نلاحظ أن الخط عند المسلمين كان في معظم الأحيان غرضاً مقصوداً لذاته ، ولم يكن وسيلة فحسب كما هو عند الغربيين . ومما يتصل بذلك أن الغربيين يعنون بجمع نماذج من خطوط عظماء الرجال حرصاً على اقتناء آثارهم . أما في الشرق فإن نماذج الكتابة تجمع لنفسها وحرصاً على ما فيها من إبداع . ونلاحظ كذلك أن الخطاطين المعروفين عند المسلمين كثيرون على عكس الحال عند الغربيين والحق أن تجويد الخط هو الميدان الوحيد في الفنون الإسلامية الذي نعرف أبطاله ونستطيع أن نستقصي أخبارهم بفضل ما كتبه لهم علماء المسلمين من التراجم بينما أهملوا سائر الفنانين فلم يصلنا من أخبارهم شيء كبير .



شكل ٤ : صحن خزفي من بلاد ماوراء النهر عليه كتابة بالخط الكوفي الجميل من القرن ٣هـ (٩م)

وقد عرف المسلمون ضروباً شتى من الخطوط العربية المدورة، كخط النسخ والثلث والرقعة والريحاني والديواني والمغربي ، وأبدع الإيرانيون منهم في خط التعليق والنستعليق[1] . وكان لكتاباتهم في هذه الخطوط اتزان ورشاقة ورونق مما أكسبها طابعاً زخرفياً كبيراً ، ولكن المقام لا يتسع هنا للكلام على مفاخرهم في هذا الميدان ، فحسبنا أن نعرض للزخارف الكتابية في الخط الكوفي ، لأنها تكاد تكون مستقلة عن تجويد الخط نفسه .

ويرجع البدء في زخرفة الخط الكوفي في مصر إلى نهاية القرن الثاني الهجرى . ثم انتشرت الزخارف الكوفية بعد ذلك في أنحاء العالم الإسلامي . ولكن القسم الشرقي من الإمبراطورية الإسلامية كان بوجه عام أخصب وأغنى في تلك الزخارف من القسم الغربي ولعل أجمل الأمثلة لإتقان الزخارف الكتابية الكوفية ما نجده في عمائر مدينة

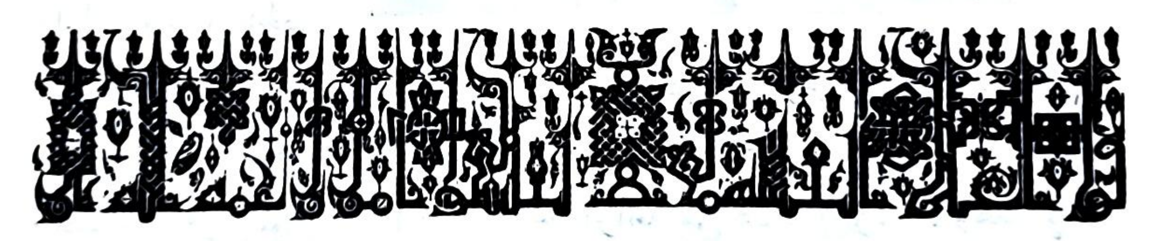
(١) راجع كتابنا « الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي » ص ٦٣ — ٦٦

آمد (ديار بكر) وقد عنى بدراستها المستشرق السويسري فلوري Flury كما عنى بدراسة الزخارف الكوفية الفاطمية .

ومهما يكن من الأمر فإن استعمال الزخارف الكتابية ازداد شيوعاً في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري (١٠ م) وبلغ ذروة مجده في القرنين الخامس والسادس .

وقد كان الخط الكوفي بسيطاً في مبدإ أمره : لا توريق فيه ولا تعقيد ، ولا ترابط بين الحروف . ومع ذلك كله فإن المتقن من هذا النوع البسيط لا يخلو من طابع زخرفي رصين وهادىء . ورأي الفنيون أن في خطوطه العمودية والأفقية عنصراً يمكن استغلاله من الناحية الزخرفية ، فأقبلوا على ذلك وأبدعوا فيه وخلفوا ضروباً من الكتابة الكوفية الزخرفية متعددة الجوانب والصفات .

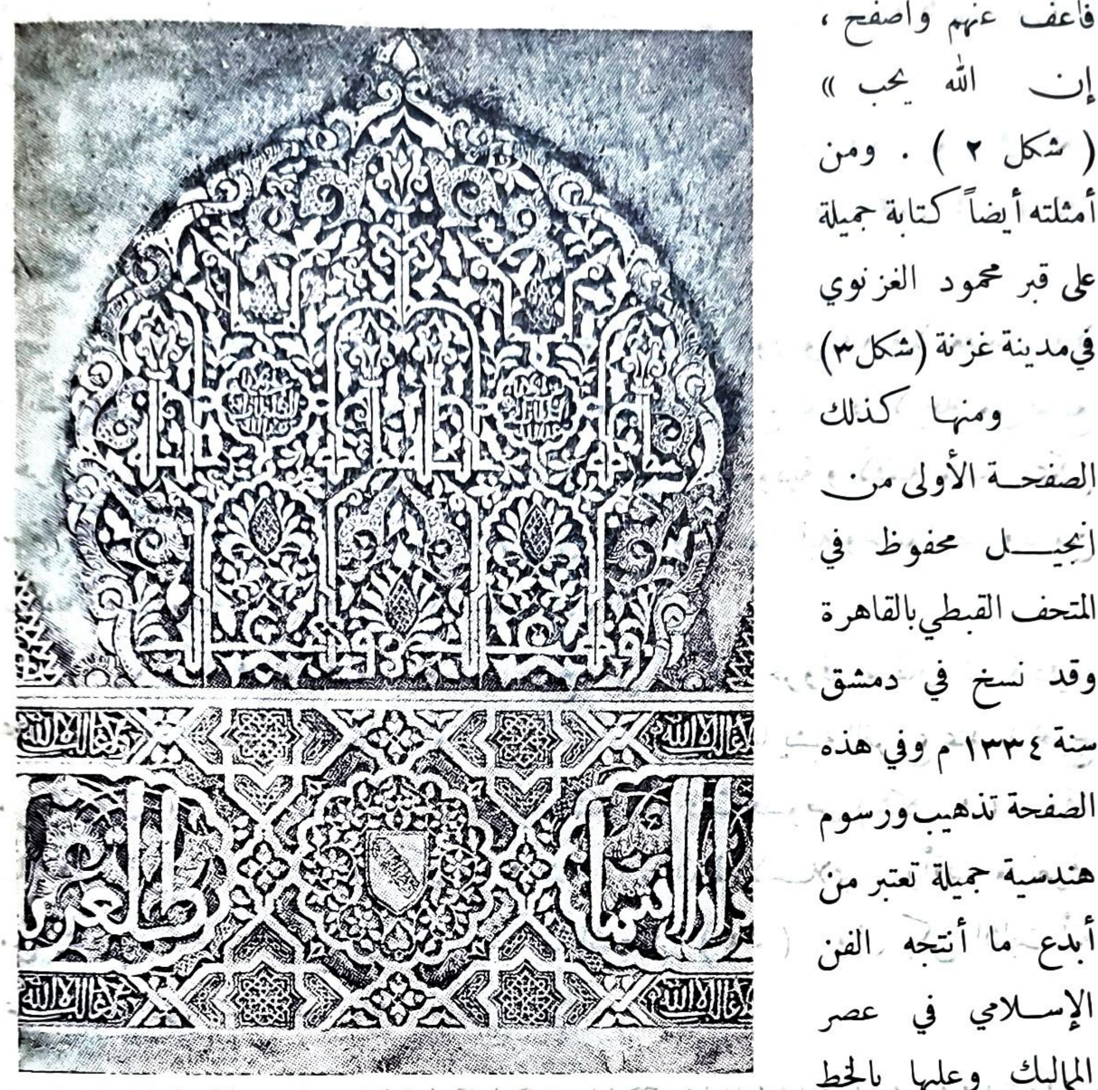
فمنها الكوفي المورق والمشجر ، تخرج من أطراف حروفه سيقان نباتية دقيقة محملة بالوريقات المختلفة الأشكال ، وتزخرف نهايات حروفه بما يشبه الفروع عند ما تخرج من السيقان ، أو بزخارف أخرى ورقية الشكل أو ذات فصوص (شكل ١) . وقد شاع هذا النوع من الزخارف الكوفية في شتى أنحاء العالم الإسلامي . وأقدم ما نعرفه من النماذج المتقنة منه ترجع إلى القرن الثالث الهجري (٩ م) . وإن يكن الثابت أنه عرف في وادي النيل منذ نهاية القرن الثاني



شكل ٥ : كتابة كوفية زخرفية من ضريح بيري عالمدار في ايران ٤١٨ هـ
[عن موسوعة الفن الفارسي]

ومن أنواعها الأخرى كتابات كوفية تقوم على أرض من الزخارف النباتية المستقلة عنها . وقوام هذه الزخارف النباتية فروع وسيقان ووريقات لاتتصل بالكتابة ، بل تبدو كأنها تنحدر في اتجاه واحد ، فتزيد من جمال الحروف ، ولاسيما إذا امتازت هذه بالدقة والأناقة والاتساع وحسن التوزيع . ومن أمثلة ذلك صفحة من مصحف من القرن الخامس أو السادس الهجري (١١ — ١٢ م) . ونص ما فيها من إحدى آيات سورة المائدة : « حظا مما ذكروا به ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم

فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب » (شكل ٢) . ومن أمثلته أيضاً كتابة جميلة على قبر محمود الغزنوي في مدينة غزنة (شكل ٣) ومنها كذلك الصفحة الأولى من إنجيل محفوظ في المتحف القبطي بالقاهرة وقد نسخ في دمشق سنة ١٣٣٤ م وفي هذه الصفحة تذهيب ورسوم هندسية جميلة تعتبر من أبدع ما أنتجه الفن الإسلامي في عصر المماليك وعليها بالخط الكوفي الجميل ، « الإنجيل الطاهر



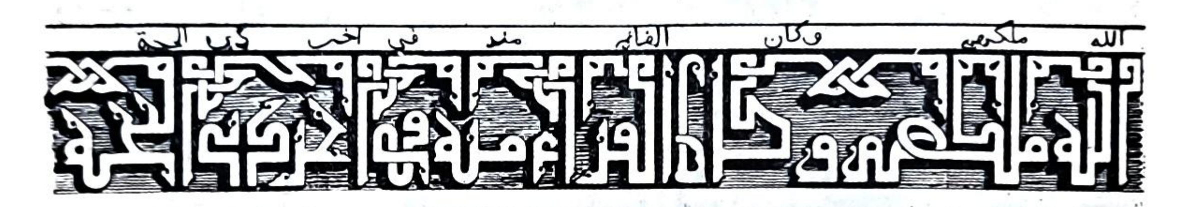
شكل ٦ : زخارف كتابية في حوش الريحان بقصر الحمراء في غرناطة . القرن ٧ هـ (١٣ م)

والمصباح الزاهر ينبوع » . (انظر اللوحة الرابعة من هذا الجزء) . وهذا الإنجيل من التحف التي تشهد بأن أساليب الفن الإسلامي لم تكن وقفاً على المسلمين وحدهم ، بل اتبعها سكان الإمبراطورية الإسلامية من مسلمين ومسيحيين .

وقد نرى على العمائر زخارف في سطحين متباينين ، فالأرضية — أو الخلفية كما يريدون تسميتها — تكسوها رسوم دقيقة من الزهور والفروع والسيقان النباتية ، ثم تقوم الكتابة الكوفية بينها منقوشة نقشاً وافر البروز .

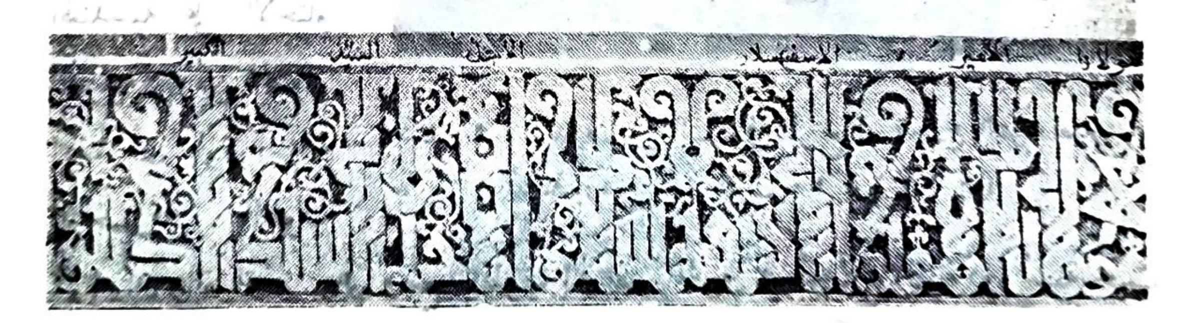
وقد يعمد الخطاط في استعمال الخط الكوفي في الزخرفة إلى الانصراف عن العناصر النباتية ، فيعمل على الوصول إلى قوة التعبير والجمال الزخرفي بحسن التوزيع ورشاقة الرسم والإفادة من التقويسات والدوائر فضلاً عن جعل النهاية العليا لأصابع

الحروف تشبه قط قلم البوص حين يقطع رأسه عرضاً في بريه . ومن أمثلة ذلك صحن خزفي جميل محفوظ في متحف اللوفر ، يرجع إلى القرن الثالث الهجري (٩ م) وهو من صناعة سمرقند ، وعليه عبارة بالخط الكوفي الجميل نصها : « العلم أوله مرّ مذاقته . لكن آخره أحلى من العسل . السلامة » (شكل ٤) والحق أن بلاد ما وراء النهر أنتجت نماذج بديعة من الخزف ذي الزخارف الكتابية ، ولا سيما في سمرقند وبخاري ، ولعل ذلك من آثار الحضارة السامانية .



شكل ٧ : كتابة بالخط الكوفي المضفر في مدينة شلا بمراكش من القرن ٨ هـ (١٤ م) [عن مجلة هسبريس]

ومن ضروب الزخارف الكتابية الكوفي المضفر ذو الحروف المترابطة . وقد يربط الفني بين حروف الكلمة الواحدة أو الكلمتين ليصل إلى تأليف إطار أو شكل هندسي . وقد تتعانق هامات الحروف فتبدو كأنها شقا مقصّ . وقد يزداد التعقيد حتى يصبح من العسير أن نميز العناصر الزخرفية المختلفة بعضها من بعض . ومن أبدع أمثلة الكوفي المضفر كتابة في مشهد بيري عالمدار ترجع إلى القرن الخامس الهجري



شكل ٨ : كتابة زخرفية في مدينة آمد من القرن ٦ هـ (١٢ م) [عن فلوري]

في إيران (شكل ٥) . وقد أقبل الفنيون في المغرب والأندلس على استعمال هذا النوع من الزخارف الكوفية . ومن أمثلة ذلك الزخارف الكتابية في حوش الريحان بقصر الحمراء . وتتكرر فيها عبارة « ولا غالب إلا الله » (شكل ٦) . ومن أمثلته أيضاً كتابة من باب مدينة شلا من أعمال الرباط في مراكش (شكل ٧) .



شكل ٩ : زخارف من الكوفي المربع في ضريح الشيخ صافي بمدينة أردبيل من القرن ١٠ هـ (١٦ م)

ومن أمثلة الكتابات الكوفية التي تجمع بين التضفير والتوريق والأرضية النباتية مانراه في إحدى كتابات مدينة آمد وترجع إلى القرن السادس الهجري (شكل ٨) .

وثمت نوع آخر من الزخارف الكتابية هو الكوفي المربع وهو هندسى الشكل قائم الزوايا . ومن المحتمل أن تكون نشأته في إيران ناتجة عن التأثر بالزخارف الهندسية على الأختام الصينية . ومن المحتمل أيضاً أن يكون أساسه الزخرفة بالطوب في إيران والعراق ، وهي وضع الطوب المختلف الحرق في أوضاع أفقية ورأسية بحيث تتألف منه أشكال هندسية وقد ذاع استعمال هذه الزخارف الكتابية المربعة في العصر التركى المتأخر . ومن أمثلة الزخارف الكوفية المربعة ما نراه في ضريح الشيخ صافي بمدينة أردبيل (شكل ٩) . ومما يتصل بهذا النوع من الخط ، الكتابات الكوفية ذات الأشكال الهندسية المختلفة ، من مثلثات ومسدسات ومثمنات ودوائر ، وقد ذاع استعمالها في العصور المتأخرة ، ومن أمثلة هذه الأشكال الهندسية شكل نجمي قوامه اسم « محمد » مكتوب بالخط الكوفي ثمان مرات (انظر رسم هذا الشكل

في ذيل المقال) .



شكل ١٠ : كتابة على شكل طائر من القرن ١١ هـ (١٧ م)
[عن كونل]

ولا تفوتنا الإشارة إلى ضرب آخر من الزخارف الكتابية غير الكوفية ، قوامه الكتابة بالخطوط المدوّرة ، بحيث تبدو العبارة على هيئة طائر أو حيوان أو شكل مقصود كشكل الطغرا (شكل ١٠) أو سفينة نوح . وليس من السهل في كل الأحيان أن نصل إلى قراءة مثل هذه الكتابات التى يعمل الخطاط فيها على إظهار عبقريته في الخيال والإبداع . ولا ريب في أن من أبدع أمثلها ما نراه في الفرمانات وبراءات التعيين والرتب والأوسمة التي كان يصدرها سلاطين آل عثمان .

زكي محمد حسن



أشياؤنا الضّائعة

للسيدة نجلاء السكفوري ببيروت

يكتب لبعض الأجيال ، بين فترة وأخرى من الزمان ، أن تشهد تغيُّر وجه الدنيا ، وقد تغيَّر ذلك الوجه مرات ، نتيجةَ ظهور دين جديد ، أو قيام حروب وفتوح ، أو ظهور اكتشاف خطير ، أو اختراع كبير .

على أني لا أعتقد أن التاريخ سجَّل في صفحاته انقلاباً كالذي سجَّله في عصرنا الحديث ، فقد اتسع المدى الذي انتشرت فيه آثار المدنية الغربية الجبارة ، حتى شمل وجه الأرض كلها . وقد تغلغل فعل هذه المدنية في كل مكان ، وفي كل شيء ، حتى لمس أعماق النفوس ، وأثَّر في العواطف والعقائد والأفكار . ولقد امتدت يدُ هذه المدنية لا إلى الإنسان وحده ، بل إلى الحيوان والنبات كذلك ، فتحكمتْ في كل جنس ، وتسلطت على أعماق اليَمّ ، وعلى أجواء الفضاء ، كما تسلطت على الأرض . وكان سيرها في كل مكان سيراً سريعاً ينهب الزمان .

كم من أشياء ألفتها هذه الكرة منذ آلاف السنين تودعها في هذا العصر ! وكم من أشياء جديدة تستقبلها كل صباح وكل مساء في كل ناحية وفي كل شأن !

هذه هي الصحارى المخيفة تودع الجمل أليفها مذْ كانت الرمال ومذْ كان العطش والصبر ، وتلقيه عن ظهرها لتحمل مكانه السيارة .

وهذه هي الأعالي العصيَّة والمجاهل السحيقة ، تودع شعلة الزيت التي استنار بها السكان هنا منذ اهتدى الساري بالكواكب ، لتستنير من مصابيح الكهرباء بأسطع نور في أيسر جهد .

وهذه هي القرية المقيمة على سذاجة الفلاح الذي عاش في عهد الفراعنة الأوَّلين ، والسائرة في الفلاحة والزراعة والحصاد على طريقة الأقدمين ، تستقبل الآلات الجبارة التي تشق الأرض ، وتبذر الحب ، وتحصد السنابل ، وتخرج حبها طحيناً ، فتفعل في ساعةٍ ما لا يفعله الفلاح في أيام .

وذلك الإنسان الذي يعيش بحكم موطنه في عزلة عن سائر العالم ، كأنما هو العالم

كله ، ها هو ذا يتصل ببني الإنسان الذين في أقاصي الدنيا من مختلف الألوان والأجناس ، فيعرف ما جرى عندهم اليوم ، ويسمع غناءهم وحديثهم ، ويرى صور حياتهم ، كأنما هو بينهم مقيم . كل ذلك في خلال آلة صغيرة عجيبة ، ظنها أول عهده بها شيطاناً رجيماً .

٭٭٭

تلك المدنية الجديدة الجبارة ، الشاملة المتغلغلة ، السريعة ، قد اكتسحت ديارنا فيما اكتسحت من بقاع الدنيا ، مجتاحةً في طريقها كلَّ قديم ، جارفةً كلَّ عتيق .

وكما يقف فلاَّح النيل أمام فيضانه المحي ، وقد داهمه فيضانه قبل أن يخرج من طريق مياهه المتدفقة الجبارة بعض أشيائه الغالية ، المتروكة في حقله أو في بيته ، كما يقف ذلك الفلاح حامداً للنيل العظيم فضـله ، آسفاً مع ذلك على « أشيائه الضائعة » ، وقفتُ أمام قوة هذه المدنية المندفعة الجبارة ، الهادمة البانية ، أفكر فيما تأخذه من جميل عندنا ، متمنيةً لو أمكن أن نحتفظ « بأشيائنا الضائعة » ، وأنا في الوقت نفسه معترفة لتلك المدنية بكل جميلها ، سعيدة بما أفاضته علينا من نعمها العظيمة ، وددت لو لم تَـضَعْ ، شيئاً فشيئاً كلُّ تقاليدنا الموروثة وعاداتنا المحمودة .

ذلك الحياء الذي يصبغ وجه الصبية من بناتنا لأتفه الأسباب بحمرة هي أبهى من نور الفجر ، والذي طالما كان سياجاً للأخلاق يصونها . ألم يُقـلْ : « إذا لم تستح فاصنع ما شئتَ » !

والتماسك في العائلة ، واجتماع أفرادها باندفاع حول كيانها ، يأخذون منه حرارةً للقلب ، كاجتماعهم في أيام البرد حول موقد النار .

والحرمة للسن التي تجعل أحدَنا يعاملُ من يكبره سناً بإجلال وتكريم . أليس مع السن تأتي حكمة التجاريب ؟

وحبنا للضيافة ، وحرصنا على حسن استقبال الضيوف حتى لنجعلهم يشعرون في بيوتنا كأنما هم أربابها .

وتلك السذاجة التي تلقي على قريتنا وفلاحنا ظـلّة محببة تجذب إليهما قلوب المتعبين.

واعتدال النفس في مطالبها ، القليل من الخير يرضينا ، والشرّ مهما كثر نتلقاه دون جزع ، ونستقبله بصبر وإيمان .

والوقار الذي نـكتسيه على اختلاف مراتبنا ، هو ثوب لـكل سنٍّ ، وزينة في كل مجلس .

والحرص الشديد على احترام الاعتبارات المعنوية بحيث لا يفتننا عنها ربح مادي ،

ولقد كانت لنا أيام غير بعيـــدة كان فيها حرصنا على تلك الاعتبارات يقوم بيننا مقام الحكومة ومقام القوانين في تنظيم علاقات بعضنا ببعض . سقى الله أياماً كان فيها صاحب الدكان يقول للشاري : ليتك تشتري من جاري بدلاً من أن تشتري مني فإن جاري لم يستفتح اليومَ ببيع ، أياماً كان تجارنا فيها لا يتعاملون بأوراق مكتوبة وعقود مسجلة ، بل كانت الكلمة المقولة أضمنَ عهدٍ وأصدق عقد . وسقى الله أياماً كان فيها فلاحنا إذا التقط خروفاً ضالا عن قطيعه ، لم يأ كله ولم يخفه ، بل « دلل » عليه في كل مكان ، واعتبره ضيفاً ، له حق الطعام والرعاية حتى يجد صاحبه ، أو حتى يهتدي إليه صاحبه .

وملابسنا الشرقية ، الجميلة القديمة بألوانها الزاهية .

ودورنا الساحلية والجبلية الجميلة ذات الفناء الواسع والغرف الرحبة تحيط به ، وذات السقوف العالية . ودورنا في الداخل تتوسطها الجنائن المزدانة بالزهر المعطرة بالرياحين . وبرك المياه المتدفقة تتوسط صحن الدار ، تلك البيوت التي تعب أسلافنا كثيراً حتى توصلوا إلى جعلها على هـذا الشكل الذي يتطلبه إقليمنا الساحلي والداخلي ، على اختلاف فصول العام .

وزينة بيوتنا البسيطة الثمينة ، فيها الدواوين الشرقية والوسائد نتربع عليها حول النار أيام البرد ، ونتحدث ونلعب الألعاب البريئة البعيدة عن روح المقامرة .

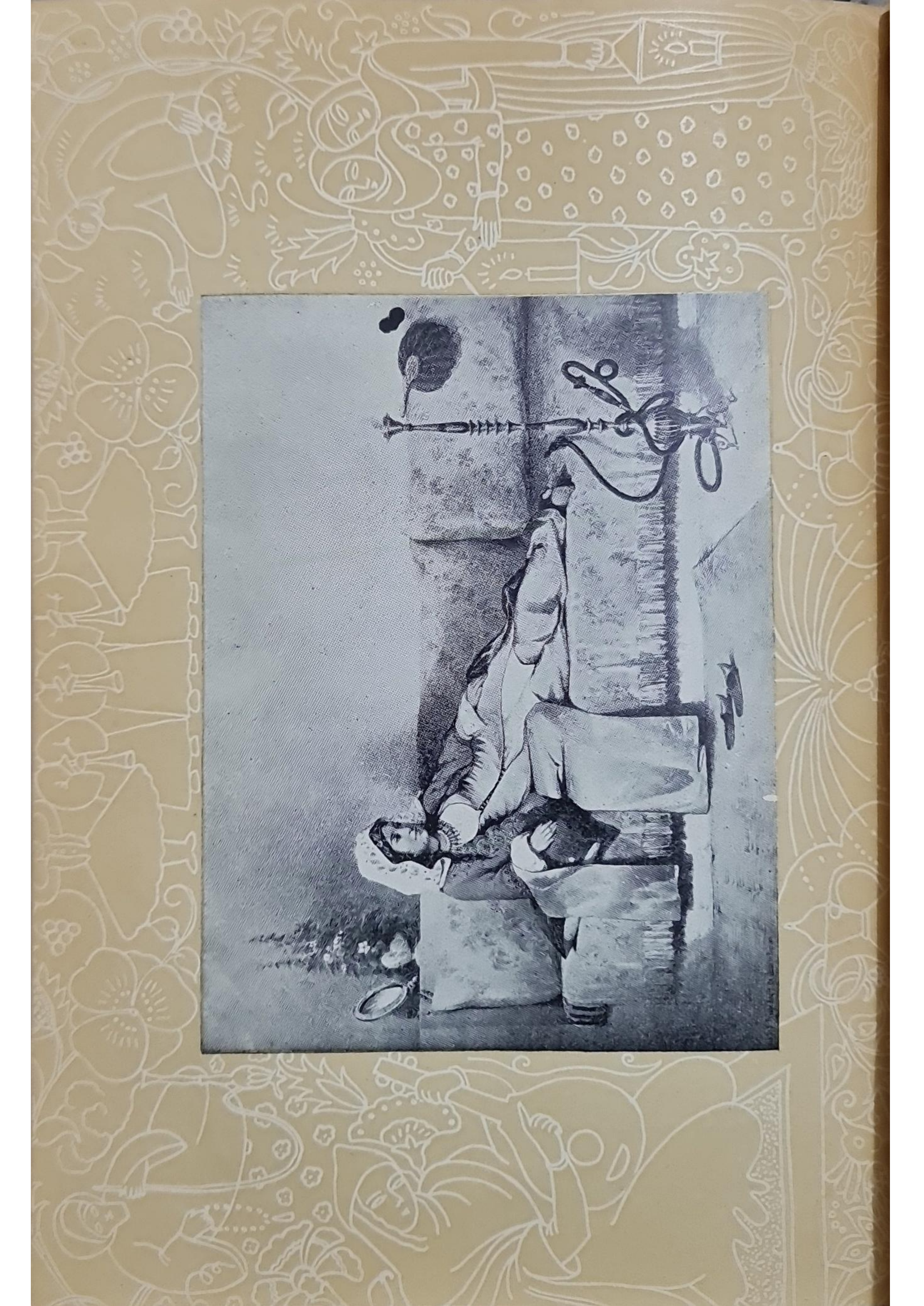
إنها لـكثيرة أشياؤنا التي نضيعها يوماً فيوماً ، كأن اتخاذ المدنية الغربية ذات المحاسن العظيمة والتي نحن في حاجة إليها يقضي علينا بأن نضيع كل شخصيتنا ، الحسن منها وغير الحسن .

إنني كلما نظرت إلى أشيائنا تذهب مع الأيام شيئاً فشيئاً ، وتذهب معها الصلة بين ماضينا وحاضرنا ، شعرت بأسف كأنما أضيع شيئاً من نفسي .

والإنسان يقف أسفاً على ضياع أي شيء من نفسه حتى ما لم يكن حلية له أو سروراً.

خُلِقتُ أُلوفاً لو رَجعتُ إلى الصبا لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلب باكيا

نجلاء الكفوري



اللوحة الأولى

حسناء عربية في خدرها الذي يبدو فيه بعض أشيائنا الضائعة .

المؤرّخون المصريّون المنسيّون

للدكتور مصطفى جواد بغداد

خصائص مصر في العروبة والتاريخ :

لقد امتازت مصر منذ عرفت العروبة والعرب والإسلام، بصبغتها العربية وحماستها القومية، وثقافتها الإسلامية، وحرصها وغيرتها على اللغة العدنانية، وذلك الحرص وتلك الغيرة بقيا من الخصائص الاجتماعية المصرية، وكان لهما أثر كبير في صيانة هذه اللغة الكريمة، منذ صدر الإسلام حتى هذه الأيام.

وتميزت بوفرة الآثار العربية التي أثّرها العرب والمستعربون فيها، في كثير من مدنها ولا سيما الفسطاط ووارثته القاهرة، وبكثرة التواريخ باللغة العربية في كل عصورها الإسلامية حتى العصر الذي ذهب فيه سلطان العرب وكسرت شوكتهم وتقصدت قناتهم. فلقد حكم في مصر بعد العرب أجيال مختلفة كالغزّ وغيرهم من التركمان والشراكس ومن سواهم من الأمم الأعجمية، وسكنتها طوائف من كثير من الأمم حتى المغول، وارتحلت إليها أخلاط من الشعوب من تجار ومهاجرين ومطاردين ولائذين، وجلب إليها الجلابون ضروب المماليك، فصبغتهم كلهم بصبغتها العربية، وجعلت اللغة المضرية، وإن عراها بعض التغيير لغة لهم، ولدواوينهم؛ إذ لم يجد ندحة عن تعلمها الأمراء والسلاطين والملوك والتجار والمهاجرون فضلا عن الجنود وأولادهم.

ولرب معترض يقول: كيف يكون هذا والآثار المؤلفة والكتب المصنفة تشهد بأن الكوفة والبصرة وبغداد وسامرّا وغيرها من مدن العراق هي التي كانت مظنة للتآليف العربية على اختلاف مواضيعها وتباين ضروبها؟ فنقول: إن مصر إلى مشاركتها لتلك البلاد في كثير من آثار العرب، تميزت عنها، ببيئتها العربية، وحافظت على آثار العرب وتراثهم باستمرار ودوام، وقوة الاستمرار في حفظ هذه الآثار مع تكانف* الغير عليها وتعاضد الأحداث في مسخ عروبتها، هي التي جعلت لها الفضل والسبق

---

* التكانف بالنون لا بالتاء وهو الصواب.

بين الأقطار العربية ، فهي على الضد من غيرها من البلاد العربية التي تغيرت أقبح التغير وتبدلت أطوارها وأحوالها ، وهزلت فيها اللغة العربية واحتضرت بل ماتت في عدة عصور ، فقوة الخصيصة الاجتماعية في أمة ما يعرف مقدارها بمقدار استمرارها ودوامها ، لا بأنها عظمت في عصر ما عظماً خارقاً للعادة ، فإن لذلك العظم أسباباً أخرى .

فلا جرم أننا وجدنا مؤرخي مصر إلى كثرتهم ومع اختلاف أجيالهم [١] قد حرروا تواريخهم بالعربية ، وكتبوا آثارهم بها ، وجعلها القصاص لغة لقصصهم ، والملوك والسلاطين لغة دواوينهم .

التاريخ بمصر في القرن التاسع للهجرة :

وإذ كان القسم الأول من بحثنا خاصاً بالقرن التاسع للهجرة رأينا أن نذكر بين يدي بابه كلمة في التاريخ بمصر في القرن المذكور ، فقد كان حافلا بالتواريخ والمؤرخين ذوي الآثار الكثيرة ، ذكر جلال الدين السيوطي منهم تقي الدين أحمد بن على المعروف بالمقريزي، وشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، وشيخه — أعني شيخ السيوطي — عز الدين أحمد بن إبرهيم بن نصر الله الكناني [٢] ، ونسي بدر الدين محمود بن أحمد العيني، وجمال الدين يوسف بن تغري بردي ، ونور الدين علي بن داود بن إبرهيم الخطيب المعروف بابن الصيرفي ، وشمس الدين محمد بن محمد المشهور بابن آجا القاضي ، ومحمد بن محمود بن أبي الجود الشافعي، وغيرهم ، وتناسى قرنه وقريعه شمس الدين محمداً السخاوي .

وقد ذكر الإمام المؤرخ شهاب الدين بن حجر العسقلاني في أحد كتبه التاريخية عدة من مؤرخي القرن الثامن والذين أدركوا أوائله حسب [٣] ، قال : « هذا تعليق جمعت فيه حوادث الزمان الذي أدركته ... وغالب ما أورد فيه ما شاهدته أو تلقفته ممن أرجع إليه، أو وجدته بخط من أثق به من مشايخي ورفقتي، كالتاريخ الكبير للشيخ ناصر الدين ابن الفرات ، وقد سمعت عليه جملة من الحديث ، ولصارم الدين بن دقماق وقد اجتمعت به كثيراً، وغالب ما أنقله من خطه ومن خط ابن الفرات عنه، وللحافظ العلامة شهاب الدين أحمد بن علاء الدين حجي الدمشقي [٤] ، وقد سمعت منه وسمع مني ، والفاضل البارع المفتن تقي الدين أحمد المقريزي ، والحافظ العالم شيخ الحرم تقي الدين محمد بن أحمد بن على الفاسي

---

(١) أي أقوامهم كما يقولون . (٢) جلال الدين السيوطي في «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ج ١ ص ٢٣٧ طبعة المطبعة الشرفية . (٣) قال الجوهري في الصحاح: « ولك أن تتكلم بحسب مفردة تقول : رأيت زيداً حسب يافتى ، كأنك قلت : حسبي أو حسبك ، فأضمرت » . (٤) اسم هذا المؤرخ يلتبس باسم شهاب الدين أحمد بن حجر .

القاضي المالكي ، والحافظ المكثر صلاح الدين خليل بن محمد الأقفهسي ، وغيرهم .
وطالعت عليه تاريخ القاضي بدر الدين محمود العيني وذكر أن الحافظ عماد الدين بن كثير عمدته في تاريخه ، وهو كما قال ، لكن منذ قطع ابن كثير صارت عمدته على تاريخ ابن دقماق ، حتى كاد يكتب منه الورقة الكاملة متوالية ، وربما قلده فيما يهم فيه ، حتى في اللحن الظاهر مثل "أخلع على فلان" وأعجب منه أن ابن دقماق ذكر في بعض الحادثات ما يدل أنه شاهدها فكتب البدر كلامه بعينه بما تضمنه وتكون تلك الحادثة وقعت بمصر وهو بعد في عينتاب . . .» [1]

ويجد المؤرخ المحقق في هذا القرن التاسع للهجرة ، كما يجد في غيره ، تواريخ منسية ومؤرخين منسيين . وسبب النسيان إما ضياع أسمائهم من مؤلفاتهم وبقاؤها أغفالا ، وإما صعوبة العثور على تراجمهم ، وإما إدماج تاريخ في تاريخ ، فيغطي الأصل على الذيل أو يغطي الذيل على الأصل ، فمن ذلك ما نراه في الكتاب المرقوم بـ «١٦١٧» من العربيات بدار الكتب الوطنية بباريس ، فإن اسمه : « الجوهر الثمين في أخبار الخلفاء والسلاطين » وهو لابن دقماق ، ومنه نسخ في برلين وأكسفرد والمتحف البريطاني وأيا صوفيا [2] . وقد نقل منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، ولما بدأنا قراءته وبلغنا ترجمة مروان الحمار الأموي منه وجدنا قول المؤلف[3] : « وتخلف عبد الرحمن الداخل هو وجماعة من ذريته ذكرنا من أمرهم نبذة في تاريخنا النجوم الزاهرة . . . فلينظر هناك » وأشار إلى النجوم في عدة مواضع[4] ، فالكتاب إذن لابن تغري بردي لا لابن دقماق .

ومنه ما نراه في الكتاب المرقوم بـ « ٥٧٦٢ » من العربيات بدار الكتب الوطنية بباريس أيضاً ، فقد كتب على جلده : « هذا كتاب الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والسلاطين لإبرهيم بن دقماق » مع أنه مجموع هو وذيله الذي لتقي الدين المقريزي ، فقد جاء في حوادث سنة «٨٠٦» منه ما نصه : « هذا ما انتهى إلينا من تاريخ المرحوم برهان الدين إبرهيم بن محمد بن دقماق رحمة الله عليه ، وما وصل إلينا من كلام غيره من استقبال سنة سبع وثمانمائة » [5] . وورد في حوادث سنة «٨٢٣» منه قوله : « يوم السبت

---

(١) ابن حجر العسقلاني في « إنباء الغمر بأبناء العمر » مخطوط في دار الكتب الوطنية بباريس رقمه « ١٦٠١ » من العربيات في الورقة ٢ . (٢) جرجي زيدان في « تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٧٤ » . (٣) الورقة ٢٤ . (٤) الورقة ٣٤ .
(٥) الورقة « ١٤٣ » .

ثالثه (١) مات أخي ناصر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محيي الدين عبدالقادر المقريزي وكان عمره خمسين سنة تتضمن شهرين » (٢).

فهذا تصريح من مؤلفه بأنه تقي الدين المقريزي ، وقد انتهى به إلى سنة ٨٣٩ ، وهي داخلة في عداد سني عمره ، بل لو وجدناه بعد ذلك الدليل تجاوز سنة وفاته لعددنا الزيادة ذيلا عليه ، كما جرى لكثير من التواريخ العربية .

ترجمة نور الدين ابن الصيرفي :

ومن المؤرخين المصريين المنسيين الذين أرّخو القرن التاسع وعاشوا فيه نور الدين علي بن داود بن إبرهيم القاهري الحنفي الجوهريّ المعروف بابن داود وبابن الصيرفيّ الخطيب ، ولد بالقاهرة سنة ٨١٩ ونشأ بها في كنف أبيه ، وكان أبوه صيرفياً من جهابذة دولة المماليك بمصر ، وحفظ (٣) القرآن الكريم والعُمدة وكتاب القدوري في الفقه الحنفي وألفية ابن مالك والخزرجية ، وجوّد في القراءات ، ودرس الأصول والعروض ، وتردّد في كل ذلك إلى الشيوخ والعلماء والفقهاء ، ولازم مجلس الإمام ابن حجر العسقلاني في الإملاء وغيره واشتغل بالنسخ مكتسباً ، ثم أسندت إليه الخطابة في الجامع الظاهريّ وغيره فلقب بالخطيب ، ثم صار نائباً عن القاضي الحنفي إذ ذاك ، وكانت نيابته سنة ٨٧١ ثم تصدّى لكتابة التاريخ ، فألف كتاب « نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان » من زمن آدم عليه السلام إلى القرن التاسع للهجرة (٤) ، وألف سيرة للنبي صلى الله عليه وسلم سماها « الجوهرية » نسبة إلى نسبه ،

---

(١) الضمير في « ثالثه » عائد إلى شهر ربيع الآخر

(٢) الورقة « ١٣٦ » ، ولعله أراد بالتضمن زيادة شهرين . (الكتاب) : بل لعل صحة الكلمة « تنقص شهرين » فشبه على الناسخ فنقلها محرفة .

(٣) قال شمس الدين السخاوي : « وزعم أنه حفظ القرآن والعمدة والقدوري وألفية النحو والخزرجية وأنه عرض على النظام يحي الصيرفي والمحب بن نصر الله الحنبلي ونصر الله وغيرهم ، وزعم أنه جوّد في القراءات على الزراتيني وقرأ الفقه على ابن الديري والزين قاسم والشمني ، ومما قرأ عليه شرحه للنقاية وشرحه لنظم والده النخبة . . . وعلى هذا النمط سار في ترجمته « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ج ٥ ص ٢١٧ — ٢١٩ » .

(٤) جاء في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون « ع ١٩٤٩ طبعة دار المعارف في الجمهورية التركية » و « ج ٢ ص ٥٩٨ طبعة إستنبول سنة ١٩١٠ » ما هذا نصه : « نزهة النفوس والأبدان ، مجلد في تواريخ الزمان من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٨٥٠ لعلي بن داود الخطيب الجوهري ذكر فيه الوقائع بمصر » . اهـ . وفي طبعة فلوغل إلى سنة ٨٩١ . والظاهر أن الحاج خليفة اطلع على مجلد واحد من هذا التاريخ فظنه كله مجلداً واحداً .

وكتاباً في التاريخ وسمه « بأنباء الهصر في أبناء العصر »[١] والقسم الأول من هذه السجعة مبهم ولعل الاسم مصحّف ، وهو من التواريخ المفصلة أحسن التفصيل ، وسننقل عنه ترجمة طريفة ليوسف بن تغري بردي .

وقد ترجم شمس الدين السخاوي ، هذا الفقيه المؤرخ ، ونسب إليه الجهل ووصفه بأشنع وصف ، ووَصمه بأفحش وصم ، قال : « ونسخ بداية ابن كثير ونحوها أشياء في مجلدات يضحك أو يبكي عليه فيها ، والعجب أنه قرظها له كثيرون ، ثم آل أمرهُ إلى أن نفد غالب ما معه واحتاج فناب في القضاء . . . وجلس ببعض الحوانيت وصار يكتب الدرر والأنباء وغيرهما من تصانيف شيخنا ، وغيره ، ويرتفق بذلك مع مخالطة بعض الرؤساء ، خصوصاً الزّين بن مزهر . . . ونصب نفسه لكتابة التاريخ ، فكان تاريخاً ، لكونه لا تمييز له عن كثير من العوامّ إلا بالهيئة ، مع سلوكه لما يستقبح بحيث أمسكه جماعة الوالى وصار الفقهاء والقضاة به مثله ، وصُرف بأمر السلطان مرة بعد أخرى ، ومات الأمشاطي وهو مصروف ، فلما استقر ابن عيد لبّس عليه حتى ولاه ، ثم لما تبين له أمره صرفه ، ولم يوله الذي بعده إلا بعناية القطب الخيضري ، بل حسن له عمل سيرة الأشرف قايتباي وتوسط في إيصاله له ، فكان ذلك من المضحكات ، واستدل من لم يعرف الواسطة بتقديمه على تأخره ، سيما وقد أخذ له من الملك[٢] مبلغاً لزعمه أنه تكلف على نساخته وتوابعه ما استدان أكثره . ورحم الله يشبك الدوادار، فإنه ليقظته لما علم بحقيقة شأنه بالغ في إبعاده ورام ضربه ، ومنعته رياسته من استرجاع ما كان أعطاه له حسبما بلغني ، وبالجملة فهو من جملة سيئات الزمن ، غني بشهرة سيرته عن مزيد البيان وجهله واضح الظهور[٣] . . . وكنت قديماً سمعته ينشد لغزاً زعمه لنفسه في علي :

ما اسم ثلاثي أرى | لو كان حظي مثله
ثلثاه لي حقاً يرى | وثلثه عين له

ثم لما كثر تردده[٤] إليّ توقفت في كونه يحصل شيئاً ... وأما أنا فعملت له مقامة

---

(١) منه مجلد في دار الكتب الوطنية بباريس رقمه ١٧٩١ وهو الجزء الخامس ، فيه الحوادث التي من سنة ٨٧٣ إلى سنة ٨٨٧ وفي أثنائه نقصان . (٢) تطرق المؤرخ إلى مثل هذا الأمر يدل على حسده ، والحسد ظلم فاحش . (٣) ورماه بعد ذلك بتهمة قبيحة .

(٤) ذكر المؤرخ قبل هذا اتصال الجوهري به وقال : « وتردد إلي في مجالس الرواية والدراية، وكتب علي أشياء » و يعلم من كلامه أن الجوهري نسخ عدة تواريخ لابن تغري بردي ونسخ الذيل الذي جعله السخاوي تتمة لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الإصر عن قضاة مصر » .

بعد أخرى للزين بن مزهر ومع كونه كرر قراءتها عليّ غير مرة لم يُحسن قراءتها عنده ، ومما نظمه الشهاب الحجازي فيه :

قال ابن داود الأديب : لم أكن فرداً ، أجيب : أنت تابعهم
هلك السمو أل وابن سهل وابن إسـ رائيل قلت : وهو رابعهم»[1]

ولم أقف على تاريخ وفاة الجوهري الخطيب هذا ، إلا أن معاصرته لشمس الدين السخاوي تدل على أنه أدرك أواخر القرن التاسع . وقد ذكرنا في حاشية سابقة أن الموجود من تاريخه ممتد إلى سنة ٨٨٧ ، وإذ كانت ولادته سنة ٨١٩ ، كما أسلفنا في أول ترجمته رأينا من المستبعد أن يبلغ القرن العاشر ولو السنة الأولى منه ، أعني سنة ٩٠١ .

وقد ذكر ابن إياس في تاريخه هذا الجوهري الخطيب عدة مرات ناقلاً عن تاريخه ، وذكر هو نفسه في مواضع عدة ، منها قوله في حوادث سنة ٨٧٣ . « وكنت حاضراً المجلس مع قاضي الحنفية وكل ذلك بالحوش السلطاني بقلعة الجبل . . . »[2] وقوله في حوادث سنة ٨٧٥ : « يوم الخميس ثامن عشريه[3] طلب كاتبه لبيت عظيم الدنيا المقر الأشرف الكريم العالي السيفي يشبك بن مهدي الدوادار الكبير ، دامت سعادته ، وسبب هذا الطلب أن امرأة رفعت لقاضي القضاة مجد الدين بن الشحنة الحنفي مضمونها بعد البسملة :

" المملوكة قريبة فلانة البكر المعصر تقبل الأرض وتنهي أنها قديرة وتعبتْ من الشحاتة وأبويها غائبين (كذا) مدة تزيد على ثلاث سنين عن القاهرة وأعمالها ، وسؤالها إذن كريم لأحد من السادة النواب بتزويجها ممن يرغب في تزوجها بمهر المثل والكفاءة صدقة عليها " ، إلى آخره ، فكتب عليها القاضي نور الدين الخطيب ، أعزه الله ، " ينظر في ذلك على الوجه الشرعي بعد اعتبار الكفاءة متحرياً " .

فاستوفى كاتبه الشرائط وقامت عنده بينة أن والدها ووالدتها غائبين (كذا) الغيبة الشرعية عن القاهرة وأعمالها وزكواهم (كذا) ثلاث نفر منهم خاصكي ، وعقد العقد ودخل بها وهي بنت اثنتي عشرة سنة ، غير أنها دميمة من جهة الهيئة ، ولم آذن له في الوطء ، فاتفق أن طلقها عند شهود غيرنا بعد الدخول والوطء ، وسألته خالتها في جميع حقها وكتبت عليها مسطوراً له تسعة دنانير حتى طلقها ، والزوج غلام لشخص

---

(١) شمس الدين السخاوي في « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ج ٥ ص ٢١٧ - ٢١٩ . وأصول الأدب والتاريخ من مجموعاتنا الخطية « مج ٢٧ ص ٨ ، ١٢ » .

(٢) الورقة ١٤ . (٣) بحذف النون من عشرين للاضافة والهاء عائدة إلى شهر جمادى الأولى.

من الجند يسمى فارس من المماليك السلطانية [١]، وكانت بلغتني المسألة فركبت، فعند موافاتي لباب الأمير الداوادار الكبير أجدُ الطلب قد توجه لي، فدخلتُ إليه ووقفت بين يديه، فقال لي: يا قاضي أنت زوجت هذه بهذا؟ قلت: نعم، قال: كيف؟ قلت: أذن لي مستنيبي في ذلك بقصة مشمولة بخطه فقال: هذه تزوج ويومئ إلى أنها صغيرة، فقلت له: مذهبي ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت تسع سنين، فقال: تشبه هذه بمثل هذه أو: يمثل هذا بهذا؟ فقلت: لا يامولانا، وإنما النبي مشرع ونحن أمته ومتبعين (كذا) سنته. فسكت عني ...». [٢]

وذكر هو شمس الدين السخاوي ووصفه بـ «صاحبنا الحافظ الشيخ شمس الدين السخاوي» وقال: إنه من أهل التحديث وزيادة[٣].

ترجمة ابن تغرى بردى بقلم ابن الجوهرى الخطيب:

وقال في وفيات سنة ٨٧٤: «يوسف بن تغري بردي بن بشغبا الظاهري برقوق الأتابكي والده، الكفيلي بدمشق أيضاً، مولده بدار الأمير منجك اليوسفي الملاصقة لجامع السلطان حسن خارج القاهرة، في العشر الأخير من شوال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة تخميناً في الشهر لا في السنة، ونشأ تحت كنف والده إلى أن انتقل والده من الأتابكية إلى نيابة دمشق فصحبه معه (كذا)، وأقام بدمشق إلى أن توفي والده في سنة خمس عشرة وثمانمائة، فأخذه صهره زوج أخته قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم الحنفي وعاد به من الشام إلى القاهرة وولي تربيته، فأقرأه القرآن الكريم، ثم توفي ابن العديم زوج أخته وتزوجت بعده بقاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني الشافعي فصار تحت كنفه وختم عنده القرآن وجوّد عليه غالبه، وأخذ عنه أشياء، وحضر سماع البخاري غير مرة، واستمر على ذلك إلى أن توفي الجلال المذكور في سنة أربع وعشرين وثمانمائة، صار تحت كنف جماعة من أكابر مماليك والده، وذكر أنهم علموه أنواع الفروسية فتعلم منها طرفاً جيداً، على ما قال[٤]، ثم حفظ بعد ذلك من العلم الشريف كتاب مختصر القدوري في الفقه وألفية ابن مالك في النحو وإيساغوجي في المنطق، بذكره، وذكر أيضاً أنه قرأ قطعة جيدة من المختار على الشيخ محمد وهذا الشيخ

---

(١) وقص الحكاية وهي طويلة. (٢) الورقة ٨٩ — ٩٠ وأصول التاريخ والأدب «مج ٣ ص ١٢١ — ١٢٢». (٣) الورقة ١٨٣

(٤) يراجع خبر خروجه مع السلطان الأشرف برسباي إلى حصار مدينة آمد سنة ٨٣٦ وقلة غنائه وغناء غيره في تلك الجريدة، وقد فصل هو الخبر في النجوم الزاهرة.

محمد لا أعرفه[١] ، وذكر أيضاً أنه قرأ القدوري على العلامة قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي كاملا ، وحضر دروس العلامة علاء الدين الرومي الحنفي في تفسير الهداية كاملا ، بذكره ، وذكر أنه قرأ شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل على العلامة تقي الدين الشمني ، وقرأ علم المعاني والبيان على شيخنا شيخ الإسلام محيي الدين الكافيجي ، وقرأ عليه شرح العقائد لسعد الدين ، وذكر أنه قرأ أيضاً مقامات الحريري على العلامة قوام الدين حسين القمي الحنفي (كذا) ، وذكر أنه قرأ عليه قطعة جيدة من علم الهيئة والرياضيات وغير ذلك ، وقرأ علم العروض أيضا ، بذكره ، على الشيخ شمس الدين النواجي ، وذكر أيضاً أنه أخذ علم النغمات والموسيقى وأدوار صفي الدين عبد المؤمن عن الشيخ الإمام فتح الدين العجمي وعن غيره .

قال عفا الله عنه : وأخذت علم الفروسية عن خلائق يطول الشرح في ذكرهم ، وذكر أنه سمع الحديث كثيراً ، وأعلى ماسمعه « سُنن أبي داود الترمذي » و « الشمائل » و « مسند ابن عباس » على المشايخ بقراءة الحافظ تقي الدين عبد الرحمن القلقشندي الشافعي في مجالس مضبوطة ، وذكر أنه سمع كتاب « فضل الخيل » للحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي بقراءة الحافظ العلامة الحجة المحقق المدقق شيخ السنة وناصرها قاضي القضاة قطب الدين محمد الخيضري الدمشقي الشافعي في مجالس مضبوطة ، عامله الله بخفي لطفه ، على شيخنا العلامة الأستاذ آخر من أدركناه حاوي فضيلة التاريخ وعلمه بل والحديث أيضاً تقي الدين المقريزي الشافعي ، وعنه أخذ علم التاريخ وبه تخرج ومن فوائده استفاد وعلى منواله صنف وكتب ، هكذا ذكر . « انتهى ما ذكره بفصه ونصه » وأما نظمه ففي الطبقة السفلى ، وادعى هو أنه في الطبقة الوسطى .

ومصنفاته فمورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة ، مختصر إلى آخر دولة الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق[٢] في مجلد لطيف ، ثم صنف « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » في ست مجلدات ضخمة مرتبة على حروف المعجم من الدولة التركية إلى آخر دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم اختصر المنهل الصافي في كتاب لطيف[٣] سماه « الدليل الشافي على المنهل الصافي » وسلك فيه على ترتيب أصله ، وله « النجوم الزاهرة

---

(١) ورب معترض يعترض لهذا المؤرخ بأن جهله للشيخ محمد لا يدل على أنه غير معروف ، والجواب أن المؤرخ أحد من اشتغل بالفقه الحنفي وناب عن القاضي بمصر ، وابن تغري بردي حنفي أيضاً ، فيجب أن يكون الشيخ الذي يدرس الفقه الحنفي مشهوراً ولاسيما بين السادة الحنفية .

(٢) أي صغير . (٣) ذكرنا في حاشية سابقة ماذكره الحاج خليفة في وصف هذا الكتاب وظنه إياه مجلداً واحداً ، وسنذكره ثانية في آخر هذه الترجمة .

في ملوك مصر والقاهرة » في سبع مجلدات ضخمة ، وافتتح فيه بفتح مصر ، ثم من وليها في الإسلام إلى يومنا هذا ، ثم اختصره في مجلد لطيف أيضاً وسماه « الأنوار الطاهرة من الكواكب الظاهرة » وذكر أن له كتاباً سماه « نزهة الألباب في اختلاف الأسماء والألقاب » وله « حلية الصفات في اختلاف الأسماء والصناعات » مرتب أيضاً على الأبواب والحروف ، في مجلد يشتمل على نحو ثلاثة آلاف مقطوع من الشعر غير القصائد المطولات ثم كتاب « البشارة » ذيّله على كتاب الحافظ شمس الدين الذهبي وله « الإشارة » مختصر في مجلد لطيف من سنة سبعمائة إلى سنة سبعين وثمانمائة ، وله « حوادث الدهور في الأيام والشهور » ذيّله على كتاب السلوك من تاريخ المقريزي ، ابتدأ فيه من أول سنة خمس وأربعين إلى ثالث عشرين (كذا) شهر رمضان المعظم سنة أربع وسبعين وثمانمائة[1] وهو مرتب على السنين والشهور والأيام ، وذكر أن له كتاباً في الرياضي والموسيقي ، وكتاباً في بيان معاني اللغة التركية على نوع علم البديعية ، هكذا ذكره ، وسماه « الانتصار للسان التتار » وله الكتاب الذي سماه « البحر الزاخر من الأول والآخر » ذكر أنه ألفه عندما بلغه أني ألفت كتابي الكبير في التاريخ الذي سميته « نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان » من لدن سيدنا آدم عليه السلام وإلى تاريخه .

وذكر أنه كان يطلع إلى القلعة في أيام الملك الأشرف برسباي ويسوق المحمل ويسوق البرجاس ، وصار في أيام الملك الظاهر جقمق يطلع إلى القلعة في كل جمعة مرة لاشتغاله بالعلوم ، وفي أيام الأشرف إينال لم يطلع القلعة إلا في السنة مرة واحدة (كذا) أو مرتين ، وذلك عن حاجة ضرورية ، وصحب في الدولة الظاهرية خشقدم[2] الأمير جانبك القصير شاد بندر جدة ، (بل في دولة الأشرف إينال فحصل منه غاية الملاءة والقدرة والجاه والمال ، حتى أمره بالصعود في غالب الأيام إلى القلعة في سلطنة الظاهر خشقدم بسفارة الأمير المذكور لما صار داوداراً ، وكان زين الدين الأستادار قد قطع جامكية[3] صاحب الترجمة وعليقه ولحمه ومعبده (كذا) حتى صار فقيراً مملقاً ، فأغاثه الله بصحبة الأمير جانبك المذكور فردّ له جميع ما ذكر وأنعم عليه بالجمل من الأموال والخلع وغير ذلك ، ثم لما مات أخو صاحب الترجمة المسمى « قاسم » كان بينه وبينه إقطاع شركة ، فأخذ الأمير جانبك المذكور الإقطاع له لحسن حاله ، وهذا ما أخبر

---

(١) (الكتاب) : النسخة المطبوعة في « مطبعة جامعة كلفرنيا سنة ١٩٣٢ » ليس فيها إلا إلى يوم ١٢ محرم سنة ٨٧٤ .

(٢) قدمنا مثل هذا التعبير وهو مما جرى عليه مؤرخو مصر ، والصحيح « الظاهرية الخشقدمية » .

(٣) الجامكية هي الراتب ، والراتب هو ما يتغذى به الإنسان من لحم وخبز مجرى عليه ما شاء الله .

به مع زيادات لا طائل تحتها حذفتها قصد الاختصار والله تعالى هو الواحد القهار .

ولا بأس بالتعريف بما نعرفه من حاله مفصلا من غير مين ولا إطناب ولا إسهاب: فحاصل الأمر فيه أنه عامي داص (كذا) ، والمصداق لما قلته يشهد من خطه في كتبه التي سردناها ، فإنه يكتب كتابة ما تصدر عن صغار الكتاب المتعلمين ، من تصحيف وزيادة في الأحرف ونقص ولحن مفرط ، حتى إن الضاد الساقط يكتبها مُشَالة[1] ، وضد ذلك ، ووصل في الأمور المضحكة أنه إذا كتب « حتى » كتب آخرها هاءً ، وأمثال ذلك في كتبه المسطورة بخطه لا يسع أحداً إصلاحها لكثرة ما فيها من اللحن المفرط البشع المغير لمعاني الألفاظ ، وأما إذا نقل حكاية فتجد غالبها تصحيفاً ولحناً وما أشبه ذلك ، وأما الذي يستحسن مما نسبه إليه فهو تسمية الكتب المذكورة ، وقد ثبت عندي بالطريق الصحيح الذي لا يزول من اعتقادي أن سيدنا وشيخنا قاسم بن قطلوبغا الحنفي عفا الله عنه ، هو الذي سماهم له (كذا) ، ولقد سألت الشيخ المذكور عن ذلك فتغافل عن الجواب ، فألزمته وألحيت[2] عليه فأخبرني بذلك من لفظه . ولعمري فهذه العلوم التي سردها والشيوخ الذين حضر عليهم ما استفاد منهم مسألة ؟ وسلمنا أنه ما استفاد فلعمري هذا الصنيع الصادر منه في تاريخه وغيره من اللحن والتصحيف والزيادة في الحروف المكتوبة والنقص ما استيقظ أنه كلما فرغ (كذا) من تصنيف يتوجه به إلى من يعرف العربية فيصلحه له ويصير له به مزية ؟ ! لكن إذا أراد الله أمراً بلغه[3]. وقد ذكر غيري ممن هو مشتغل بهذا الفن نحو ما ذكرت ، ونقل عنه أشياء مفصلة من التصحيف والتبديل والتغيير ، بحيث إن كتبه إذا نظر فيها من له أدنى معرفة يرميها من يده ، كما يمجه الطبع المستقيم مما يراه (كذا) واقع (كذا) فيه من اللفظ والخباط المتقدم ذكره .

وأما تعصبه في تاريخه فهو خارج عن الحد ، لأن منصور بن صفي الدين الذي كان كاتباً في بيت الأمير قانم بن صفر خجا صاهر الأمير زين الدين الاستاذ فقربه وأكرمه وزوجه ابنته ، وجعله ناظر الديوان المفرد ، فرافعه فأخذ وظيفته وفعل به ما يجوز ، وهذا دأب المباشرين ، غير أنه كان يطنب في وصف منصور ويرقيه إلى الأوج ويبالغ في الحط على زين الدين حتى يبلغ به إلى الحضيض ، كون زين الدين قطع معاليمه وكون منصوراً (كذا) أعادهم له ، وعندي أن هذا ليس تحته طائل ، فإن الحق أحق أن يتبع ، والصدق جدير بأن يسمع ، وكان عفا الله عنه مغرضاً في مثل هذه الأمور ،

(١) الحروف تؤنث وتذكر ويجوز استعمال الوجهين معاً كما فعل الجوهري الخطيب .

(٢) أي ألحت ، وهذا من اللغة العامية ولا تزال شائعة عندنا أعني بالعراق .

(٣) قلنا : أجل بلغه وطبعت دار الكتب المصرية كتابه « النجوم » فصار نجوماً مضيئة بشهرته .

فإنه بالغ في التعصب أيضاً مع الأمير جانبك الطاهري الجدّاوي ، سيما لما استقر في الداوادارية الكبرى ، وحط على أقوام يستحق أن يمدحهم بلسانه وجنانه ، وهكذا دأبه مع طائفة الأتراك والقبط ، وأما الفقهاء فغيّر أسماءهم وألقابهم ، وجعل الشيخ طالباً والطالب شيخاً ، ومع ذلك فكان له حظ وافر ، وانتهت إليه الأمور من جهة العطايا الجزيلة ، حتى إنه خلع عليه بكاملية مخمّل أخضر بسمّور بمقلب سمور لما ضعف مرة (كذا) ، وصعد للسلطان لكن بسفارة الأمير جانبك المذكور ، وترجم المقر الصاحبي الجمالي يوسف بن كاتب جكم بترجمة ادعى أنه كذا وكذا ، وبلغ بها إليه ، فأرسل إليه جملة وافرة من الذهب ، وكذا ترجم غيره ، وهكذا كان دأبه وشيمته وصفته .

ولقد حاضرته مراراً فإنه كان يحضر عند مخدومنا وصاحبنا وجارنا المقرّ الزيني فرج أمير حاجب ابن المقر الأشرف العالي السيفي يردبك أحد المقـــدمين الألوف ، أعزه الله ورحم سلفه الكريم ، فكنت أمشي معه في الحوادث فلم يمش ، وأتكلم معه في شيء من الفقه فأجده عارياً منه ، وكذا في النحو والعروض ، ومن حين عرف أني اشتغلت بفن التاريخ لم أعارني (كذا) كتاباً من كتبه ولا أوقفني على شيء من مصنفاته ، فأوقفته أنا على عدة مصنفات لي ، منهم « نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان » المقدم ذكره ، وأوقفته على تأليفي للسيرة الشريفة النبوية الملقبة بالجوهرية ، على من هي منسوبة له أفضل الصلاة والسلام ، فكاد أن يتجنن ، وصار يحلف لي أنه ما وقع بصره على تأليف في هذا الفن مثل هذا التصنيف من الانسجام والاختصار مع المعاني الجمة الوافرة ، وسألني أن يستوعبها مطالعة، فأذنت له ، وأعادها بعد ذلك وقد كتب عليها تقريظاً مع جملة كتب من السادة المشايخ الأعيان ، كالشيخ محيي الدين الكافيجي الحنفي ، والشيخ أمين الدين الأقصرائي الحنفي ، والشيخ عضد الدين السيرامي وقاضي القضاة عزالدين أحمد الحنبلي ، والشيخ قاسم الحنفي ، وغيرهم من العلماء والفضلاء ، وأردت كشط ما كتبه لي فما كان ذلك ، والله الولي المالك . توفي رحمه الله في يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة سنة تاريخه بعد العصر ودفن من الغد بتربته التي أنشأها بالصحراء المقابلة لتربة الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب ، حكم وأوقف عليها أوقافاً ، وجعل فتاه الذي كان في خدمته المعروف بزين الدين مالكها وجعل ما فيها من الوظائف باسمه وغالب الوقف له ، فجحف (كذا) ذلك بإخوته البنات (كذا) وورثته ، عفا الله عنه [*] » اهـ

مصطفى جواد

(*) الورقة «٦٩-٧٢» وأصول التاريخ والأدب من مجموعاتنا الخطية «مج٣ص١١٢ ومج١٦ص١١٢» .

زيت البترول في الشرق الأوسط

للدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوي أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول

للبترول قصة طريفة ، تستمد عناصرها الأساسية من بقاع العالم المختلفة ، وتقوم دعاماتها الأصلية على مجهودات فريقين متناظرين متنافسين ، كان لهما أكبر الأثر في صياغتها على صورتها الحالية .

ويمكن القول : إن الكفاح من أجل البترول يشبه إلى حد كبير ، مسرحية دولية ذات فصول عدة ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً ، وتتميز إلى جانب ذلك بظاهرة فريدة في بابها ، إذ يجري تمثيل هذه الفصول في أكثر من مسرح ، وتجتذب أقطارُ العالم ، التي أثبت الكشف والبحث وجود ثروة بترولية فيها ، نفراً خاصاً من الممثلين الماهرين ، للقيام بتمثيل أدوار هذه الفصول من مسرحية الكفاح البترولي العالمي في هذه البقاع المنشودة . ويختلف حظ هؤلاء الممثلين باختلاف ما يصيبون من نجاح في الحصول على أكبر قدر ممكن من ثمرات هذا الثراء الطائل والغنى الطارىء والمجد الاقتصادي الرائع .

لم يكن للبترول ، حتى عهد قريب ، شأن يذكر ، وظل الناس ينعتونه بأنه سائل مجهول القيمة والمنفعة ، وقد تناقلت كتابات الباحثين والرواد والمؤرخين في العصور السابقة ، جل ما كان معروفاً عن النيران الهائلة الدائمة التي كانت تستعر بشدة في جهات كثيرة من أقطار القوقاز وإيران ، نتيجة احتراق ينابيع هذا السائل الذي كانت تفيض به طبقات الأرض في هذه الأقاليم . وهكذا ظلت فائدة البترول في عالم الغيب حتى كان كشف نبع بترولي في الولايات المتحدة الأمريكية في أواسط القرن الماضي ، وقد أعقب ذلك الكشف ، بطبيعة الحال ، بدء التفكير الجدّي للوصول إلى خير طرائق الانتفاع بهذا المصدر الجديد من مصادر الوقود ، بعد أن شاع استعماله في كثير من المرافق المتنوعة . ولم يكن البنزين معروفاً حتى سنحت صدفة كريمة أنبأت عن معرفة جليلة ، كان لها ولا تزال ، أكبر الأثر في توجيه البحث صوب الانتفاع بهذا السائل في أهم نواحي استثماره في الوقت الحاضر ، وبعد أن اكتشف المحرك ذو الاحتراق الداخلي وبخاصة آلات الديزل ، وصنع الدكتور بنز أول سيارة تستخدم البنزين ، فأصبح هذا

السائل أهم عناصر البترول الخام . ثم أثبتت التجارب أفضلية البترول في معظم الحالات التي يستخدم فيها الفحم وقوداً ، ومعنى هذا أن الحقائق العلمية والعملية قد تعاونت وتكاثرت حتى أصبح للبترول الشأن الأعظم ، لا في سياسات الدفاع الوطني للدول العظمى ، بل إن هذه العناية أصبحت تفرضها ضرورات رعاية مصالح الإنتاج الصناعي والاقتصاد القومي .

ومنذ كشفت بئر البترول الأولى في الولايات المتحدة سنة ١٨٥٣ ، اندفعت الدول العظمى في سباقها الطويل المرير ، باحثة منقبة عن البترول في كثير من جهات العالم ، ولم تقف أعظم الصعوبات الطبيعية والبشرية حائلاً دون بذل الجهود الخطيرة في شؤون البحث والتنقيب ، وفي كثير من الحالات كادت خطورة هذا السباق تؤدي في مناسبات عدة إلى الاحتكاك والتصادم .

وقد نشبت معارك البترول بعد أن شاعت معرفة استخدامه عنصراً من عناصر الوقود الرئيسية في أوائل القرن الحالي ، وشهدت السنوات العشر الأولى بصفة خاصة صراعاً عنيفاً ، واجتذبت مشكلات البترول عدداً من الدول العظمى ، ونخص بالذكر بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا وألمانيا . غير أن خروج ألمانيا مقهورة في الحرب العظمى الماضية ، أخرجها بتاتاً من مضمار هذا السباق ، ونراها تولي وجهها شطر ناحية أخرى تكفل لها حاجتها وتستعيض بها عن خسارتها ، ونعني بذلك الاتجاه نحو اختراع الوسائل العلمية لاستنباطه من الفحم بصفة خاصة . وقد وهبتها الطبيعة ثروة فحمية عظيمة ، وكان إنتاجها منه يفوق كلّ ما عداه في قارة أوربا باستثناء بريطانيا . وهكذا تركت ألمانيا الدول الثلاث الأخرى تسيطر على موارد البترول المعروفة ، وتبحث عن غيرها ، وتعمل من أجل الانتفاع به في أغراض الاستثمار الصناعي والاقتصادي .

وقد سبقت الإشارة إلى تعدد فصول مسرحية البترول وتعاقبها واختلاف أزمانها ، وتباين بيئات تمثيلها ، وبالتالي كان الفصل الخاص ببترول الشرق الأوسط لاحقاً لفصول أخرى سبقته وشكلته . ومن ثم أصبح من اللازم التمهيد له بهذه النبذة السريعة واللمحة الخاطفة عن الصراع البترولي العالمي .

كانت الولايات المتحدة تحتل مركز الصدارة من هذه الدول العظمى الثلاث . ويرجع سبب ذلك إلى أنها كانت أسبق دول العالم إلى الانتفاع بالبترول وإذاعة معرفة استعماله في جميع أنحاء العالم . وتحقيقاً لهذا الغرض أسس ركفلر شركة «ستندرد أويل» لاستخراج البترول وتكريره وتجارته ونقله في أمريكا ثم في أقطار العالم الأخرى .

أما البريطانيون فقد اشتركوا في السباق البترولي متأخرين بعض التأخر ، إذ كانت الشركة الأمريكية قد نشرت نفوذها وأصبحت تتمتع بنوع من السيطرة الكاملة والنفوذ المطلق في معظم منابعه وجل أسواق تجارته . وقد كانت عدة البريطانيين في نضالهم شركتين رئيسيتين ، هما شركة « رويال دتش — شل » وشركة البترول البريطانية الإيرانية .

ومما يجدر ذكره أن شركة « رويال دتش » كانت في بدء الأمر ، ذات صبغة هولندية وتعمل في جزائر الهند الشرقية وتستثمر بعض الموارد البترولية هناك . غير أنه بعد أن ولي رياستها «دتردنج» أخذت توسع نطاق تجارتها إلى السوق الصينية العظيمة ، وبطبيعة الحال لم يكن مثل هذا العمل يروق في نظر الأمريكيين الذين هبوا يقاومونه بمختلف الوسائل . وهكذا بدأت المنافسة الشديدة ، وتمخضت عن خفض الأسعار إلى أقصى حد ، وتأرجحت كفتا النضال ، وبذل الفريقان الجهد والمال والوقت عن طيب خاطر . وقد حدث إبان ذلك إدماج شركتي « رويال دتش » و «شل» معاً ، واستمر الكفاح بشأن السوق الصينية زمناً غير قصير ، ورأى الأمريكيون في النهاية أن لا فائدة ترجى من هذا النضال الخاسر ، فانسحبوا من المعركة .

غير أن النضال بين الشركتين المتنافستين لم يقصر الكفاح على السوق الصينية ، بل نراهما تتغالبان وتتصارعان في أسواق أوربا كذلك . وهنا أيضاً كتب النصر لشركة « رويال دتش — شل » التي كانت حتى أوائل الحرب العظمى الماضية تتخذ لاهاي في هولندة قاعدة لها ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى إنجلترا لتنتفع بما للامبراطورية البريطانية من النفوذ والسلطان في جهات العالم المختلفة ، بل إن رئيسها نفسه ، الذي تجنس بالجنسية البريطانية غدا قائد بريطانيا في هذا الميدان ، وبفضل ذكائه ونشاطه وحسن تدبيره نجحت بريطانيا في الحصول على امتياز كثير من حقول البترول في جهات العالم المختلفة . ويمكن القول أنه لم يبق في العالم حقل بترولي إلا ولهذه الشركة البريطانية بعض السيطرة عليه أو المساهمة بنصيب يذكر في الانتفاع به ، وحتى في أمريكا نفسها عمد « دتردنج » إلى مصارعة الشركة الأمريكية في عُقر دارها ، وكأنه لم يقنع بالتغلب عليها في أسواق أوربا وآسيا . وقد كاد ينجح إذ أخذ يبتاع بمختلف الوسائل كل ما يمكن ابتياعه من شركات البترول الأمريكية أو المنابع البترولية الأخرى الخاضعة لها ، غير أن الحكومة الأمريكية ، وقد راعها هذا التوسع ، أخذت تعمل جدياً لوضع حد لهذا النشاط ، وبهذا فقط أمكن الشركة الأمريكية أن تتنفس الصعداء .

ولما كشف عن بترول المكسيك ، أمكن بريطانيا أن تحصل على نصيب كبير منه

على الرغم من أن هذا القطر قد شهد نضالا عنيفاً بين الفريقين المتنافسين ، وقد حاول كل فريق الانتصار على الآخر بمختلف الوسائل ، حتى إنه ليكفي أن نذكر أن معظم الثورات والمصادمات التي نشبت في المكسيك منذ أوائل هذا القرن كانت في الواقع حركات أثارتها مطامع شركات البترول ممثلة في الصراع القائم بين الولايات المتحدة وبريطانيا .

ومثل ذلك يقال عن النضال بشأن موارد البترول في فنزويلا ورومانيا وغيرهما ، بعد أن ثبت غناها بهذه الثروة الطبيعية العظيمة ، فقد نجحت بريطانيا في الاستيلاء على معظم هذه الثروة ، وتوسلت بمختلف الطرائق للاحتفاظ بها .

وحين جاء دور الشرق الأوسط وبدأ تمثيل هذا الفصل من مسرحية البترول ، لم تكن معارك البترول في إيران والعراق وتركيا والبحرين والمملكة السعودية ومصر أقل شأنا من حيث خطورتها وشدتها منها في الولايات المتحدة والمكسيك وفنزويلا والأقطار الأمريكية الأخرى ، وكذلك في رومانيا والقوقاز . وقد نشطت المنافسة البترولية في الإمبراطورية العثمانية ، ولكنها ازدادت عنفاً في عصر السلطان عبد الحميد ، الذي تكونت في غهده شركة البترول التركية والتي أصبحت تعرف فيما بعد باسم شركة البترول العراقية . وقد كان عبد الحميد حريصاً ، إذ احتفظ بمعظم أسهم هذه الشركة لنفسه وترك الباقي للبريطانيين والألمان ، غير أنه حدث بعد ذلك أن باع الأتراك نصيبهم من هذه الأسهم واشترتها شركة البترول البريطانية الإيرانية ، فأصبحت تمتلك أكثر من ٧٧ ٪ من أسهم شركة البترول التركية .

وقد تركت المعاهدات والاتفاقيات التي ختمت الحرب العظمى الماضية بالنسبة لتركيا وإمبراطوريتها مشكلة البترول داخل ربوعها ، بدون أن يصل هؤلاء الذين يعنيهم الأمر إلى اتفاق ، ثم كانت الحرب التركية اليونانية ، وعجزت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ عن أن تجيء بالحل المنشود . وقد زاد الطين بلة بروز مشكلات التحديد السياسي بين الوحدات الجديدة التي قامت على أنقاض تصفية التركة التركية ، وظهرت مشكلات الجنس واللغة والدين ، وطريقة توزيع موارد الثروة الطبيعية ، ونشأ من ذلك كثير من الصعوبات في طريق التفاهم السياسي والتعاون الاقتصادي . وإلى جانب مشكلات تعيين الخطوط الفاصلة بين هذه الوحدات السياسية وندرة وجود الخطوط الطبيعية التي يمكن أن تقوم بهذه المهمة ، فإن عمليات التحديد قد أخذت تتعقد وتتشكل بسبب العوامل الجغرافية ، والاعتبارات القومية ، والميول البشرية ، والأهمية

الاقتصادية والحربية ، والتعصب الجنسي ، والفروق اللغوية ، والقيمة النسبية ، محلية كانت أم خارجية .

ولم يقتصر النقاش والجدال حول تحديد الحدود بين الوحدات السياسية الجديدة على هذه الوحدات وحدها، بل اشتركت أيضاً الدول المنتدبة ممثلة في بريطانيا وفرنسا، وبعد عقد اتفاق سان ريمو ، هال شركة « ستندرد أويل » أن لا يكون لها نصيب من بترول العراق ، وأخذت تعمل بكل الوسائل للحصول على أكبر قدر ممكن ، وأيدتها الحكومة الأمريكية كل التأييد ، وانتهى الأمر بإعطائها ٢٣,٥٪ من البترول الذي تستخرجه شركة البترول العراقية ، وإعطاء مثل هذا النصيب لكل من شركة « رويال دتش — شل » وشركة « البترول البريطانية الإيرانية » وشركة البترول الفرنسية ، وترك الباقي للرجل الذي كان له فضل الحصول على الامتياز وهو نوبار سركيس جلنبكيان الأرمني . أما تركيا فقد رضيت بإتاوة مالية سنوية مقابل موافقتها على تعيين الخط السياسي الفاصل بينها وبين العراق . وتوجد حقول الزيت العراقية في إقليم الموصل ، ويقدر الخبراء طول منطقة البترول بنحو ٥٠ ميلا على حين يروح عرضها بين ميل واحد واثنين ، وهذه على الأرجح أعظم مساحة لمنطقة بترولية عرفت في العالم حتى الوقت الحاضر . وقد استغلت هذه الموارد البترولية . وفي أوائل سنة ١٩٣٥ تم توصيل أنابيب البترول العراقي إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي . ويبلغ طول خط الأنابيب من كركوك في الموصل إلي طرابلس على الساحل نحو ٥٣٠ ميلا . أما الخط بين كركوك وحيفا فيبلغ ٦٢٠ ميلا ، ويبلغ الناتج السنوي نحو ٥ ملايين من الأطنان .

ويلحظ أن خط الأنابيب يكون مزدوجا فيما بين كركوك والحديثة غير أنه بعد الحديثة يتجه الأنبوب الأول صوب الغرب اتجاها مستقيما مع انحراف قليل ، وهذا هو الخط الفرنسي أو خط طرابلس الشام ، ويتجه الأنبوب الثاني غرباً مع انحراف أكبر إلى الجنوب ، وهذا هو خط حيفا البريطاني . وتوجد محطات الدفع على طول امتداد هذه الأنابيب ، منها ثلاث على الخط المزدوج الشعبتين ، أي فيما بين كركوك والحديثة ، وأربع على الخط الشمالي لطرابلس ، وخمس لخدمة الخط الجنوبي إلى حيفا . وتقع الثلاث الأولى في رقعة العراق ، أما الاثنتان الباقيتان فتقعان داخل حدود شرق الأردن . هذا وتختلف المسافة بين محطة وأخرى ؛ وأقلها ٥٥ ميلا وأطولها ١٣٦ ميلا . وتبلغ سرعة سيلان الزيت في هذه الأنابيب نحو ميلين ونصف ميل في الساعة ، وعلى هذا الأساس يتطلب جريان الزيت من كركوك إلى حيفا مثلا نحو ١٢ يوماً .

أما فيما يتعلق بإيران فقد تكونت شركة البترول البريطانية الإيرانية سنة ١٩٠٩ بعد أن نجح « دارسي » في الحصول على امتياز استخراج البترول في ربوعها . وليس أدل على مبلغ رعاية بريطانيا لهذا العمل ، من أن الحكومة البريطانية تملك جل أسهم هذه الشركة منذ سنة ١٩١٤ . ويشمل هذا الاحتكار البترولي مساحة تقرب من نصف مليون ميل مربع ، أو نحو $\frac{3}{4}$ مساحة إيران جميعها . ومن الطبيعي أن تتقابل هنا ، بل تتعارض لدرجة عظيمة ، التيارات السياسية البريطانية والروسية ، وقد لعب الروس دوراً عظيماً ، واستخدموا مختلف الوسائل لمناهضة النفوذ البريطاني السياسي والاقتصادي ، غير أن ذلك لم يجد فتيلا ، واحتفظت بريطانيا لنفسها بهذا المورد البترولي الخصب ، وأمكنها أن تضاعف إنتاج هذا المورد الفياض ، حتى بعد استبدال امتياز « دارسي » بامتياز آخر يحصر لدرجة ما احتكار مناطق البترول البريطانية في نطاق معين محدد ، ويزيد نصيب الحكومة الإيرانية من الأرباح زيادة محسوسة ، ويزيد الناتج السنوي على ١١ مليون طن .

ويستخرج معظم البترول الإيراني من حقول « ميداني نفطون » التي تقع على مسافة نحو ٢٠٠ ميل إلى الشمال الشرقي من رأس الخليج الفارسي . ويحمل البترول الناتج خط من الأنابيب ينتهي عند « عبدان » التي تقع على شط العرب عند رأس الخليج الفارسي ، ويبلغ طول هذا الخط نحو ١٣٠ ميلا . وإلى جانب هذه المنطقة البترولية مناطق أخرى غنية تنتظر أن يستقر الأمر ، وأن يستتب الأمن ، وأن تصلح نظم الحكم والإدارة ، وأن يشتد الطلب ، لتبدأ مرحلة استثمارها الاقتصادي .

وإذا كانت المصالح الأمريكية قد خرجت من النضال البترولي الإيراني تجر أذيال الخيبة فإنها قد نجحت نجاحاً عظيماً في جزائر البحرين والمملكة السعودية العربية . ذلك أنه على الرغم من أن جزيرة البحرين تدخل ضمن نطاق الإمبراطورية البريطانية فإنه على عكس ما ينتظر ، قد حدثت المعجزة ، ونتج عن تردد رؤوس الأموال البريطانية وإحجامها ، أن اغتنمت رؤوس الأموال الأمريكية هذه الفرصة النادرة ، ووضعت يدها على هذه الثروة البترولية العظيمة ، وسارت في استثمارها بخطى سريعة موفقة ، على الرغم من ظروف البيئة الجغرافية الطبيعية القاسية ، والعوامل البشرية المجهدة ، حتى أصبحت هذه الجزائر الواقعة في الخليج الفارسي تدر سنوياً أكثر من مليون طن من البترول .

ومثل ذلك يقال عن بترول المملكة السعودية العربية ، إذ نجحت رؤوس

الأموال الأمريكية في الحصول على امتياز الاحتكار والاستثمار ، وعلى الرغم من حداثة عهد الاستقلال الاقتصادي الذي بدأ سنة١٩٣٦ ، وكان الناتج حينئذ لا يزيد على ٢٧١٣ طناً ، فإن هذه الموارد الغنية قد أخذت تعطي ثمارها الجيدة في فترة قصيرة ، بدليل أن إنتاجها السنوي أصبح يزيد على مليون طن ، وليس من شك في أن مستقبل الإنتاج البترولي في هذا القطر يبشر بالخير العميم والفيض الكريم ، بدليل أن أمريكا قد أخذت تفكر جديًا في مشروع مد خط من الأنابيب يحمل هذا البترول السعودي إلى البحر الأبيض المتوسط ، اقتصاداً في الوقت والجهود والنفقات . وهكذا دخلت الولايات المتحدة ميدان السياسة في الشرق الأوسط لرعاية مصالحها المادية ، أو بالأحرى مصالحها التجارية والاقتصادية .

أما في مصر فقد كان الحظ مع بريطانيا ، وتكونت شركة البترول البريطانية المصرية لاستغلال الموارد البترولية المصرية . وقد دل على وجود البترول في الأراضي المصرية ما كان يعلو منه سطح الماء منذ القدم ، عند سفح جبل الزيت ، على شاطئ خليج السويس ، ثم كشف بعد ذلك بمنطقة جمسة سنة ١٨٨٥ ، في مغارات قد حفرت قرب الشاطئ لاستخراج معدن الكبريت ، وكانت نتيجة ذلك أن بدأت عمليات البحث والتنقيب . غير أن استثمار منطقة جمسة لاستخراج البترول لم يبدأ إلا في سنة ١٩١٠ ، واستمر ذلك حتى سنة ١٩٢٧ ، حين نضبت آبارها ، واختلط الماء الملح تدريجاً بجميع آبار هذه المنطقة ، وترتب على ذلك إهمالها .

وفي سنة ١٩١٤ كشف عن البترول في منطقة الغردقة ، التي تقع جنوبي جمسة ، وتبعد عنها بنحو ٤٠ ميلا ، وقد تقدمت منطقة الغردقة في ذلك حتى أصبحت إلى وقت قريب المورد الأكبر للبترول المصري ، ولو أن النوع الناتج هنا أقل جودة من بترول جمسة ، وحتى سنة ١٩٣٨ كان الناتج المصري لا يزيد كثيراً على مائتي ألف طن سنوياً . ثم حدث الكشف الهام عن بترول منطقة رأس غارب الغنية التي أصبحت المصدر الرئيسي للبترول المصري ، وقد تضاعف الناتج المصري بسرعة عظيمة حتى أصبح يزيد على مليون طن سنوياً . وما زال البحث جارياً عن منابع بترولية جديدة، سواء في شبه جزيرة سينا أو في الصحراء الغربية ، وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط بصفة خاصة . ومما يجدر ذكره أن رؤوس الأموال الأمريكية تحمل الآن العبء الأكبر في مجهودات البحث والتنقيب .

هذه العجالة المختصرة ترمي إلى توضيح الفصل الخاص بالشرق الأوسط من

مسرحية البترول الدولية ، والواقع أن الفصول الأخرى الخاصة ببترول رومانيا وروسيا القوقازية تظهر مثل هذا الصراع، الذي يزداد شدة وعنفاً بمضي الوقت . ذلك أن الخبراء الذين درسوا موارد البترول في العالم كله يتوقعون أن يأتي اليوم الذي ينضب فيه هذا المعين ، فلا يتسنى للعالم استخدام هذا السائل الثمين ، وقد نضبت آبار كثيرة حتى الآن ، وسينضب معين غيرها أيضاً . وإذا كان الباحثون والمنقبون قد عثروا على غيرها ، فإن مستقبل البترول يحوطه الغموض ، ويدعو إلى اليقظة والانتباه ، وهـذا هو سر هذا الكفاح المتجدد . ويرى الخبراء الأمريكيون أنه إذا استمر الاستهلاك الحالي في الولايات المتحدة على ما هو عليه الآن ، فإن الموارد الأمريكية لن تكفي البلاد أكثر من ثلاثين سنة . ويعتقد الخبراء البريطانيون أن موارد البترول العالمية لن تكفي أكثر من قرن من الزمان . وللباحث في هذه الحال ، أن يتساءل : « ماذا يحدث عند ما تنضب موارد البترول في العالم » ؟

ولعل الحل الذي يخطر بالبال هو أن يستعاض عن البترول بمادة أخرى ، أو أن تتقدم صناعة استخراج البترول من الفحم وغيره تقدماً كافياً يسمح للعالم بأن يستعيض بالبترول الصناعي الكيمائي عن البترول الطبيعي . وفي النهاية لعل الكشف عن الطاقة الذرية ، التي أثبتت التجارب الأخيرة إمكان استخدامها في أغراض الحرب ، وهلل الحربيون وكبروا لمقدرتها العجيبة على التخريب والتدمير ، يمكن أن يؤدي إلى خدمة البشر في وقت السلم ، ويصبح صمام الأمن لدرء كل ما عساه يجيء نتيجة اختفاء بعض مصادر القوة أو تعذر الحصول عليها .

محمد عبد المنعم الشرقاوى

الأورانيوم

للأستاذ نقولا الحداد

أصبحت كلمة أورانيوم على الألسنة اليوم كما كان اسم هتلر على الآذان ، قبل أن يأخذ طريقه إلى عالم النسيان . وقد تصير كلمة أورانيوم بهاراً في الأفواه كأسماء روزفلت وتشرشل وستالين . ذلك لأن الخاصة والعامة سمعوها مقرونة بالقنبلة الذرية التي روعت الجنس البشري ، فعسى أن يسمعوها مقرونة بالعمل المنتج والقطار الناقل والباخرة والطائرة إلخ .

الأورانيوم هو جوهر القنبلة الذرية ، فيه مكمن القوة الكونية العظمى ، فيمكن أن يكون في يد عزرائيل أو في لسان جبريل كبشير ، كما يشاء هذا الإنسان الطيب أو الشرير .

الأورانيوم ملك العناصر الكيمية ، كالأسد ملك الوعر ، وكالنسر ملك الجو . وهو كذلك لأنه قائم في قمة سلسلة الذرات العنصرية ، هو أثقل العناصر ، يزن ٢٣٨ ضعف وزن الهيدروجين الذي هو أخف العناصر ، هو أثقل من الحديد ٤ ½ مرة ، وأثقل من الرصاص مرة ونصف مرة ، والرصاص آخر حفدائه والراديوم رابعهم والأكتنوم ثالثهم ، والثوريوم ثانيهم . ونجله الأورانيوم الثاني الذي يزن ٢٣٥ . على أن هذا الشبل أقوى جداً من ذاك الأسد . وفي أثناء عمليات العلماء لاختراع القنبلة الذرية نتج عندهم عنصر آخر أثقل من الأورانيوم وزناً واحداً ، أي ٢٣٩ ، أسموه نبتونيوم مأخوذاً عن نبتون السيار الثامن من أنجال الشمس ، وهو أيضاً إله البحر في خرافات اليونان ، واكتشفوا أيضاً عنصراً آخر وزنه ٢٤٠ أسموه بلوتونيوم ، اسم إله في أساطير الرومان ، وقد سمي به السيار التاسع بلوتو .

واسم الأورانيوم مشتق من أورانوس الكوكب السابع من أنجال الشمس ، وقد اقتبسه له مكتشفه العلامة كلابروث منذ سنة ١٧٨٩ تفاؤلا باسم هرشل الفلكي العظيم الذي اكتشف السيار السابع أورانوس سنة ١٧٨١ واستعار لكوكبه هذا الاسم .

فهذا الاسم المحظوظ انتقل من عالم الألوهية الوهمي إلى عالم الوجود المرصود ، ثم إلى عالم الذرة غير المنظور ، وله في كل عالم من هذه العوالم قوة عظيمة وأصغرها أقواها . ترى ، هل الشيطان مقيم في هذه الذرة ؟ !

* * *

عنصر الأورانيوم الكيماوي موجود في حجر معدني يسمى بتش بلند ، ومعناه المزيج القاري (نسبة إلى القار وهو الزفت) ومزيج آخر يسمى كارنوتيت ، وهو خليط من عناصر أخرى معه ، بعضها من أسرته كالثوريوم والأكتنوم ، وأنواع الراديوم الثمانية ، ثم الباريوم والسلكا ومركبات الرصاص والحديد والجير والمنازيا والنفتر والبزموت الخ .

وأهم مقالع المزيج المذكور في جو شيمتال في النمسا ، وكورن ول في الولايات المتحدة ، وفي كندا وروسيا وأسوج ونروج ، وفي كاتانجا في الكونغو البلجيكية ، وفي جنوبي أستراليا والبرتغال .

* * *

الأورانيوم النقي معدن أبيض ألين قليلا من الحديد ، وقلما يتمغنط ، يحترق بالأكسجين في حرارة ١٧٠ سنتغراد ، فينتج من احتراقه أكسيد الأورانيوم .

* * *

في سنة ١٨٩٦ اكتشف العلامة هنرى بكرل القوة الإشعاعية التي في هذا المزيج ، إذ عرض للتشعع الضئيل الذي يبدو منه في الظلام صفحة فوتغرافية ملفوفة بورق أسود ، فظهر عليها التأثير النوراني ، وثبت له أن للأورانيوم قوة الإشعاع . وبعد ذلك ظهر أن للراديوم المسلسل من الأورانيوم إشعاعاً أقوى جداً من إشعاع الأورانيوم نفسه

ثم اكتشفت مدام كوري وزوجها بيار الراديوم في المزيج القاري المذكور ، وثبت لهما أنه متسلسل من الأورانيوم وهو أكثر إشعاعاً من أبيه هذا .

ثم استمر البحث في هذا الصنف من العناصر الشاعّة ، وظهر منه أنه من الجرام الواحد من الأورانيوم يستخرج من الراديوم ١ من ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٫٤٠ ، وأن قوة إشعاع الراديوم نحو ألف ضعف لإشعاع الأورانيوم . ما هو هذا الإشعاع ؟

هذا الإشعاع هو مادة ذات قوة تظهر بشكل حرارة ونور يصدران من العنصر نفسه ، ومعناه أن العنصر يذوب رويداً بسبب هذا الإشعاع كما يذوب الشمع المضيء ، فيتحول إلى عنصر آخر كما يتحول الفحم المحترق إلى رماد .

الجرام الواحد من الراديوم يذوب في مدة ٢٥٠٨ سنة متحولا من درجته الأولى

إلى درجاته المتتابعة حتى الدرجة الثامنة . وأخيراً يصبح رصاصاً كأن الرصاص رماده .
أما جرام الأورانيوم فيذوب في نحو ٤٥٠٠ مليون سنة على هذا النحو متحولا إلى السلالة
أو السلسلة المذكورة آنفاً ، أي إلى ثوريوم فأكتنوم فراديوم على درجاته إلخ .

نعيد القول بعبارة أخرى : إن ذوبان الأورانيوم (أو حفيده الراديوم) إنما
هو انبثاق جسيمات بأدق ما في الوجود من الدقة ، حاملة القوة الشعاعية نوراً وحرارة
ومنتثرة في الفضاء .

تصور أن هذه القوة انطلقت من جرام واحد من الأورانيوم (أو الراديوم)
كلها دفعة واحدة في أقل من لمحة فكر — نجنايا رب — فكم تكون قوية مدمرة ؟

هذا هو سر القنبلة الذرية التي دمرت مدينتين يابانيتين في لحظة واحدة . . .
وكان همُّ العلماء في بضع السنين الأخيرة أن يجدوا طريقة لإطلاق هذه القوة دفعة واحدة
من رطل أو عدة أرطال أورانيوم .

***

قلنا إن الأورانيوم أثقل المعادن ، فهو كثقل الحديد ٤ ½ مرة وثقل الماء ٣٤
مرة . والذرة الواحدة منه كثقل الهيدروجن ٢٣٨ .

والمراد بالذرة هو الجسيم المادي الأصغر الذي لا يتجزأ كماوياً من أي عنصر ،
وكنا نسميه الجوهر الفرد ، ولكن ظهر في أواخر القرن الماضي أن هذا الجسيم ليس
بسيطاً كما كانوا يظنون ، بل هو مركب من جسيمات أصغر منه جداً .

ذرة الهدروجن مركبة من جسيمين مكهربين : أحدهما إيجابي الكهربة ، وسموه
بروتون ، ونحن نسميه كهرباً ، والآخر سلبي الكهربة ، وسموه ألكترون ، ونحن
نسميه كهيرباً .

الكهرب الإيجابي في الوسط ، وهو نواة الذرة ، والكهيرب يدورَ في دائرة
بعيدة عن النواة ، فالذرة هي هذا النظام الفلكي ، يحدها المدار الذي يدور فيه الكهرب .

كلما تدرجت على العناصر الكيمية صُعُداً بحسب ثقلها رأيت هذه الكهارب
أكثر فأكثر عدداً وهي متجمعة في النواة ، ورأيت الكهيربات كذلك تتزايد عدداً
في مدارات متعاقبة حول النواة . فالحديد مثلا ذو ٥٦ كهرباً في النواة منها ٣٠ غير
متكهربة ، ويسمى واحدها نيوترون ، أي «متعادل» والبقية ٢٦ مكهربة إيجابياً يقابلها
في دوائر فلكية حول النواة ٢٦ كهيرباً مكهربة سلبياً ، حتى إذا صعدنا إلى عنصر
الأورانيوم الأعلى وجدنا في النواة ٢٣٨ كهرباً منها ٩٢ مكهربة إيجاباً والبقية متعادلة ،

أي لا كهربة فيها . ويقابلها مثلها أي ٩٢ كهيرباً سلبياً . وهكذا الأمر في جميع العناصر التي عددها ٩٢ عنصراً .

***

في الجرام الواحد من الأورانيوم ملايين الملايين من هذه الذرات . فلا تراها لا بالمجهر « ميكرسكوب » ولا بأية وسيلة أخرى ، وإنما التفاعلات الكيمية تؤكد لك وجودها . وهي تذوب شعاعاً نورانياً وحرارياً إلى أن يصبح الجرام أخيراً بعض جرام رصاص . وهذا الشعاع المنبثق منها هو القوة العظمى ، هو عبقري الزمان .

كيف يحدث هذا الذوبان ؟

في كل لحظة أو جزء من ألوف من الثانية تنفجر ذرة من هذه الذرات فتصدر القوة بشكل نور وحرارة ضئيلين (وفي انفجار ذرات الراديوم نحس بالحرارة والنور) ، وعلى التوالي تتناثر هذه القوات الذرية منفجرة ، ولو كان لنا أذن مرهفة كما لنا أعين حساسة لكنا نسمع صوت هذه الانفجارات الخافتة .

كان غرض مخترعي القنبلة أن يفجروا ملايين الذرات دفعة واحدة ، وهو ما توصلوا إليه أخيراً كما علم العالم كله .

لذلك لا تتعجب إذا كان لقوة تلك القنبلة الهائلة ذلك الفعل الفظيع ، هي قوة كانت مدّخرة في ملايين ذرات الأورانيوم بحيث لا تنفلت إلا تدريجاً في ملايين السنين . فما قولك إذا انطلقت كلها دفعة واحدة في لحظة من الزمان .

من جرام واحد من الأورانيوم تصدر قوة تكفي أن تحرك آلة كالآلة البخارية او الدينمو ذات الـ٣٠ حصاناً مدة سنة ، وانفجار القنبلة ذات الكيلو الواحد يساوي عدة آلاف انفجار الترينيتروتالين المعروف بأنه أقوى جميع المنفجرات الكيماوية التي توصل المخترعون إليها إلى اليوم .

وأما النور الذي يلمع منه عند انفجاره فأشد من نور الشمس ، يعمي العيون ، وأما الحرارة فتبلغ إلى ٢٠٠ مليون درجة وهي أضعاف حرارة الشمس في مركزها ، بيد أنها تتبدد في لحظة واحدة في الفضاء .

***

الأورانيوم الذي له هذه القوة الهائلة هو واحد من أصنافه الثلاثة ، لأن أصنافه ليست كلها صالحة للانفجار السريع ، الصنف الأول هو الصنف الذي وزنه ٢٣٨ ، فهذا لا يصلح ومثله الصنف الذي وزنه ٢٣٤ ، وأما الصنف الذي وزنه ٢٣٥ فهو الصنف

الذي يسهل إطلاقه منفجراً أكثر من الصنفين الآخرين . ولكنه لسوء الحظ مختلط مع الصنف الأول بنسبة واحد إلى ألف ، واستخراجه منه صعب جداً . وله عمليات كيماوية متوالية ، وهذا ما كان يشغل العلماء الذين كانوا يصنعون القنبلة .

كان عليهم أولاً أن يستجلبوا ألوف الأطنان من المزيج القاري من مقالعه البعيدة ، ثم عليهم أن يطحنوا حجارته الصماء طحناً كالدقيق ، ثم عليهم أن يستخرجوا منه الأورانيوم بالوسائل الكيمية ، وهو قليل بالنسبة إلى المواد الأخرى الممتزجة معه .

كانت هذه الأعمال تشغل لا أقل من مئة ألف نفس ، قليلهم يشتغلون به مباشرة ، وكثيرهم يشتغلون لخدمة العاملين ، كانوا ٧٥ ألف نسمة في بلدة واحدة تدعى حرف البلوط من ولاية تنيسي في أميركا . وقد أنشئت هذه البلدة لهذا الغرض في غابة بلوط منذ ٣ سنين ، وهي تحتوي على كل معالم المدنية اللازمة من أسواق وملاه ومدارس ومستشفيات ، الخ .

وكان في نيومكسيكو أناس آخرون يشتغلون أيضاً ، وكذلك في ولاية وشنطون ، وفي جامعة كولومبيا ، فلا تستغرب إذن إذا قيل لك أن اختراع القنبلة الذرية استنفد ٥٠٠ مليون جنيه .

لم يكن العاملون في صنع القنبلة الذرية يدرون ماذا يعملون ، كانوا كالآلات الصماء ، يعملون ما يطلب منهم عمله صامتين . لم يكن يعلم الغرض من هذا العمل إلا العلماء ، وهم قليلون ، وأخيراً كان الذين يعرفون سر الاختراع الصميم اثنين فقط . وقاهما الله من كيد الكائدين .

لم يعمل في التاريخ عمل عظيم مشترك كهذا يشغل ألوف العاملين بإيعاز من دولتين أنفقتا عليه بسخاء .

لولا هذه الحرب الطاحنة لما اخترعت القنبلة الذرية ، ولا أطلقت قوة الذرة . إن إطلاق الذرة فتح فصلا جديداً في الحضارة ، ولا يمكن الآن تصوير التطور الجديد الذي سيطرأ على المدنية البشرية .

ما قول القارىء ؟ أنقول : لا كانت الحروب ولا كان إطلاق القوة الذرية ؟ الإنسان اخترع وصنع ودمر ، هل كان في طوقه أن يفعل غير ما فعل ؟ !

نقولا الحداد

كنك

نهر الهند المقدّس

للأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

١

حين ننعم النظر في الأدب الهندي القديم ونستنفضه نجد أن أصحابه ، أي الهنود الوثنيين ، لم يقيموا فارقاً بين الأسطورة والحقيقة . فكانت ولا تزال الأسطورة والحقيقة عندهم شيئاً واحداً ، أنزلوا الأسطورة منزلة الحقيقة ، كما قلبوا الحقيقة إلى الأسطورة في كل زمان . ولم يكن دأبهم هذا في شأن الغائب أو الميت ، بل في شأن المنظور والمحسوس كذلك ، فلم تعترضهم شبهة ولا أخذهم عجب إذا رأوا إلههم « يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » حالا في أنبيائهم وعظمائهم[٢] ، أو رأوا مظهراً من مظاهر الطبيعة سكناً له أو وسيلة لأسطورة حول أعماله ومقاصده .

على أن الأساطير والقصص ليست بحجيّ أن تستصغر كلها أو تهمل جلها ، إذ هي

---

(١) يسمى هذا النهر بالسنسكريتية « كَنْكَ » (بالكافين الفارسيتين) ولما كانت الكلمات بالسنسكريتية دائماً متحركة الأواخر فأشبعت حركته الأخيرة بفروعها مثل الأردية وغيرها فأصبح « كَنْكا » وذكره أهل الغرب مثل اليونان وغيرهم الذين هم أقدم صلة بالهند باسم Ganges أما العرب فذكروه في الغالب باسم « كِنك » (معجم البلدان طبع مصر ج ٧ ص ٢٨٦) ولكن يظهر أن المؤرخ الشهير أبا الحسن المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ كان على علم باسمه الغربي فقد ذكره في كتابه التنبيه والإشراف (راجع طبع مصر ص ٥٠) باسم « حنجس » .

(٢) كان هذا الاعتقاد موجوداً عند المصريين القدماء كذلك . فكانوا يعتقدون أن ملكهم هو الإله الذي ظهر على الأرض في صورة الإنسان ، أو هو ابنه . ولم يعتقدوه وكيل الإله أو ممثله أو ترجمانه قط . فكانوا يلقبونه « ابن الإله المحبوب » الذي أصبح ابناً حقيقياً برضاعة الآلهات من صدورهن عند تبنيه . فكان أخطر الصفات شأناً هي التي يصفونه بها « الإله الصالح » . فكانت الفراعنة عندهم من سلالة « الوجود الصالح » الذي يسمى « أوزيريس » والذي كان أول إله حكم على الأرض في صورة الإنسان وكان أيضاً يلقب « الرب الأعلى » و « هوروس » . (راجع تاريخ مصر للأستاذ برستد ص ٧٤ ؛ وديانة المصريين القدماء للأستاذ ودمان ص ٣٩ ؛ ودائرة المعارف للأديان والأخلاق مجلد ٧ ص ٧١٢) .

الأثر الأدبي الوحيد الباقي مما فهم الإنسان وشعر به نحو الحقائق المحيطة به مدفوعا بحاجاته من القدم ، وقد عادت هي أيضاً بنجح مطلبها ونيل مرادها من أكثرية الإنسان في كل زمن ، وذلك بطبع صورة الحقيقة على ذهنه الساذج الصافي طبعاً خاصاً أطول بقاء وأكثر أثراً من البيان العملي .

نعم قد تكون الأسطورة في الظاهر من حيث الحقيقة واهية القواعد ضعيفة الأسباب ، ولكن مما لا شك فيه أنه أريد من كل واحدة منها مغزى خاص ومعنى خفي يسترهما ظواهرها ، وهوأمر اعترف به قديماً أهل العلم والأدب في الأدب السنسكريتي كما اعترف به « أناكساغوراس » و « أمبيدوقليس » في الأدب اليوناني ، والرواقيون في الأدب الروماني .

على أننا إذا بحثنا هذه المغازي الخاصة ، وقلبنا تلك المعاني الخفية ، وجدنا أن معظمها يرجع إلى ثلاثة أمور : الخوف ، والمنفعة . والبهت أمام عظمة المنظر . فهذه الدوافع الثلاثة هي التي حملت الإنسان على نسج الأساطير وحبك القصص حول الوجود في هذا العالم حسبما بلغت إليه مداركه العقلية ، سواء أكان ذلك الوجود وهمياً أم طبيعياً أو عقلياً .

لما كان للأنهر في حياة الإنسان من جهة المنفعة منزلة جليلة لا يستهان بها ، إذ هي العامل الهام في إحياء الموات واستنطاق اليباب من الأرض ، كانت هي منذ القدم مهوى فؤاد الأمم ، ومنتجع خواطر الشعوب ، فأقبلت إليها الأمم والشعوب حيناً بعد حين ، مرهقات العزم ، نافذات الهمة ، تنشر لها آذانها ، وتمد لها أعناقها ، لتضرب بجرانها في أوديتها . ولذلك كانت أودية الأنهر مهد الحضارات الإنسانية ، ومنبع بثوق نورها في كل زمن . فمن وادي مسيسيبي انبثق نور الحضارة الأمريكية ، ومن أودية التيمس ، والرين ، والسين ، والدانيوب وغيرها ، ظهر نور الحضارة الأوربية ، ومن وادي النيل أضاء نور الحضارة المصرية ، ومن وادي دجلة والفرات استطار نور الحضارة القديمة والعربية ، ومن وادي يانغ تيسي كيانغ أنار نور الحضارة الصينية ، ومن واديي سِنْدهو وكنك سطع نور الحضارة الهندية .

لذلك كان تقديس الأنهر وعبادتها عريقين في القدم ، فقد ذكر هوميروس عند كلامه في الخيول أنها كانت تطرح في نهر سكامندرا إكراماً له ، كما أبان خريسيبوس في كتابه الخامس من الطبيعة : أن إيسيدذس كان يمنع البول في الأنهر والعيون تقديساً لها . ووصف المؤرخ هيرودوتس أهل إيران القدماء « بأنهم لا يبولون في الأنهر

ولا يغسلون بمائها أيديهم ، ولا يأذنون لأحد أن يمارس شيئاً من ذلك ، لأنهم كانوا يعبدون الأنهر »(١) وقد ألّهَ الماء في أقدم وثيقة وجدت عن المجتمع الزردشتي المسماة « يسنا هبت هاتي » .(٢) وكان النيل في مصر يؤله ويقدس بتقديم الضحية الإنسانية إليه (٣) وكان البابليون والأشوريون يقدسون نهري « دجنات » و « بوراتو » وهما اللذان يسميان الآن دجلة والفرات(٤) . وكان بعض الأمم يتصور ظهور آلهة الأنهر هذه أحياناً في صورة الثيران ، وأحياناً في صورة الثعابين(٥) .

كانت قبائل الغال في القرون الوسطى في أوربا تقدس الأنهر والعيون ، حتى القاطنة على شواطىء « الرين » كانت تغرس أولادها الحديثة الولادة في مياهه ، فاذا طفت قبلت حسب الترتيب كأخلاف الرين في حماية الجد العام (أي الرين) واعتبرت ذرية شرعية . فكان هذا إحدى التجارب التي أبقتها القرون الوسطى تحت عنوان : « أحكام الله »(٦) .

على أنه لم يبق للآن من تلك القداسة للأنهر والعيون أثر يذكر ، ما عدا نهر كنك ، الذي يمتاز عنها جميعاً بأن له دونها في القداسة من أقدم الأزمنة إلى العصر الحاضر القدح المعلى ، حازه من الناس بعمل يقوم به لهم منذ قرون لا يعرف الكلل ، فهو ومساعدوه من الأنهر تحمل الماء بغير ملل لمقاطعات الهند الشماليه المزدحمة بالأهالي ، فيبجل الفلاحون « النهر الكريم » الذي يخصب حقولهم ويوزع محصولهم ، ولا واحد من الأنهر الهندية يباريه في تلك الأعمال الجليلة .

نعم : إن النهرين برهمابترا وسندهو أطول من كنك ، ولكن معظم مجراهما الأعلى يقع وراء السد الجبلي المنيع في مجاهل همالايا (٧) بينما كنك يبتدىء توزيع الخصب على

---

(١) تاريخ هيرودوتس الكتاب الأول فقرة ١٣٨ وأيضاً ذكر ذلك من مؤرخي العرب اليعقوبي في تاريخه (راجع تاريخ اليعقوبي طبع العراق ج ١ ص ١٤٢) .

(٢) H.S. Nyberg : Die Religionen des Alten Irans., S. 284

(٣) راجع : Lexikon der Alten Geschichte, S. 332 وأيضاً :
J.W. Draper : the Intelectual Development of Europe, Vol. I p. 96 (Bohn Library Series).

(٤) راجع : E.V. Starck : Babylonien und Assyrien S. 199

(٥) راجع :
F.R. Jevons : An Introduction to the History of Religion, p. 230

(٦) راجع : S. Reinach : Orpheus, p. 121

(٧) همالايا أرفع الجبال في العالم ، وقممه مكسوة بالثلوج على الدوام ، وعليه فهو يسمى بالهند « همالايا » ومعناه باللغة السنسكريتية الهندية « بيت الجليد » .

البلاد بالريّ حالما يصل السهول على مسافة أقل من مائتي ميل من مصدره ، كما يصلح للملاحة . ومن تلك السهول يتدحرج النهر الجميل بروعة وجلال إلى البحر بغير أن يكون جرافاً متلفاً في شدة المطر ، ولا ضئيلا شحيحاً في وقدة الحر . ففي كل ساعة يوزع على البلاد ملايين من الأقدام المكعبة من مائه ، بواسطة القني والترع للسقي ، يعوضه ذلك الأنهر المساعدة له . وقد لعب دوراً هاماً في التقدم التجاري في شمال الهند قبل انتشار السكك الحديدية فيها ، حيث قدرت الحركة التجارية في كلكتة سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ م . بواسطة الملاحة فيه بمبلغ ١٤,٠٠٠,٠٠٠ جنيه أسترليني ، كما أن تلك الحركة اليوم بعد انتشار السكك الحديدية في ازدياد . فهو ليس بمنافس للسكك الحديدية بل معضد لها . وعليه فالمدن التي على شواطئه أو على شواطىء مساعديه كانت ولا تزال أهم مراكز التجارة مثل كلكتة ، وبتنة ، وبنارس ، على شواطئه ، ودهلي ، وآجرة على شواطىء مساعده جمنا . وأما «الله آباد» فهي ، عدا كونها مركزاً تجارياً ، موضع اجتماع الأخوين : كنك وجمنا ، ومنظر اتحادهما بعد صدورهما من صلب أبيهما همالايا ، وركوبهما أكتاف الشدائد في اجتياز الصخور والسهول ، وخوضهما غمرات الحوادث في عبر الأودية والتلول ، هي مهجة سرور ينتاب القلبين المشتاقين عند الوصال ، ومذرف دموع تنزل فرحاً من عيون العاشقين عند العناق ، ومشهد حب يتحول به جسمان إلى جسم ينزع إلى رؤيته العشاق ويبتغي السلوى به الأحباب .

٢

يمثل نهر كنك وغيره من الأنهر الكبيرة في الهند عموماً ثلاثة أدوار في الحياة ، ففي الدور الأول ينطلق انطلاقاً شديداً مصادماً من مصدره في جبال همالايا حافراً أخدوداً عميقاً في صخورها الصمّ ، شاقاً طريقاً له في تنفانفها المعقدة ، ويبتدىء الدور الثاني من موضع انتقاله من الأراضي الجبلية إلى الأراضي السهلية ، ففيها يجري هادئاً بين الأودية والسهول ، متتبعاً أرضاً أكثر انخفاضاً ، وأما الدور الثالث فيمثله عند مصبه حين يعوق سرعة سيره الأراضي المسطحة ، ويرفع قاعه رواسبه .

قل أن يجاري كنك نهر آخر في حمل الرواسب ، فقد بذل غير واحد من كبار المهندسين قصارى جهدهم في تقدير كمية تلك الرواسب بخاصة عند مدينة غازيبور ، أهم هؤلاء

الأستاذ الكولونل بيرداسمث[١] ، والأستاذ أيورست[٢] ، والأستاذالسر شارلس لي يل[٣] فقد اتفق الجميع على أنه يفرغ ٦٣٦٨ مليون قدم مكعبة من الرواسب كل سنة عند غازيبور ، وهو ما يكفي لبناء ستين هرماً مثل الهرم الكبير بالجيزة في مصر . يقول الأستاذ السر شارلس لي يل : « إنه لا يمكن أن يقدم أي صورة للفكر يمكن أن تعطيه تصوراً كافياً لقياس عظمة هذا العمل الذي يقوم به كنك بهدوء واطمئنان دون أن يشعر به أحد » .[٤]

هذا تقدير رواسب نهر كنك وحده عند غازيبور ، وأما عند مصبه ، أي بعد انضمام الأنهر جها جهـْرا ، وسُوْن ، وجنْدَك ، وكوْسي ، وبِرَهْما بُترا ، ومِيْغنا فتزداد حسب تقدير السر شارلس لي يل إلى ستة أو سبعة أضعاف عما هي عند غازيبور ، ولا تقل على أقل تقدير عن أربعين ألف مليون قدم مكعبة ، وتلك كمية تساوي خمسة أضعاف ما يحمله النهر الأمريكي الشهير مسّيسيبي إلى خليج المكسيكو . لذلك كانت دلتا الكنك التي كونتها تلك الكمية الهائلة من الرواسب أكبر دلتا على وجه البسيطة ، تبلغ مساحة مثلثه خمسين ألف ميل مربع ، تساوي تقريباً مساحة إنجلترا أو ثُمن مساحة المملكة المصرية بأسرها . فكما كانت مصر هبة النيل كانت مقاطعة بنغال بالهند هبة كنك .

أما تفريغ المياه فأقصى ما يبلغ في أيام الفيضان مليون وثمانمائة ألف قدم مكعبة من الماء في كل دقيقة ، وهي أكبر كمية بالنسبة إلى الأنهر الشهيرة الأخرى ، فإن أقصى تفريغ مسيسيبي مليون ومائتا ألف قدم مكعبة من الماء في كل دقيقة ، وأقصى تفريغ النيل عند القاهرة ثلاثمائة واثنان وستون ألف قدم مكعبة من الماء في كل دقيقة ، وأقصى تفريغ التيمس ستة آلاف وستمائة قدم مكعبة من الماء في كل دقيقة [٥].

إن كنك في طفولته ، أي عند صدوره من مهده الثلجي ، الذي يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ثلاثة عشر ألفاً وثمانمائة قدم ، لا يزيد في العرض عن سبع وعشرين

---

(١) راجع تحقيقاته في : Calcutta Journal of Natural History Vol. I, p. 324

(٢) المصدر نفسه .

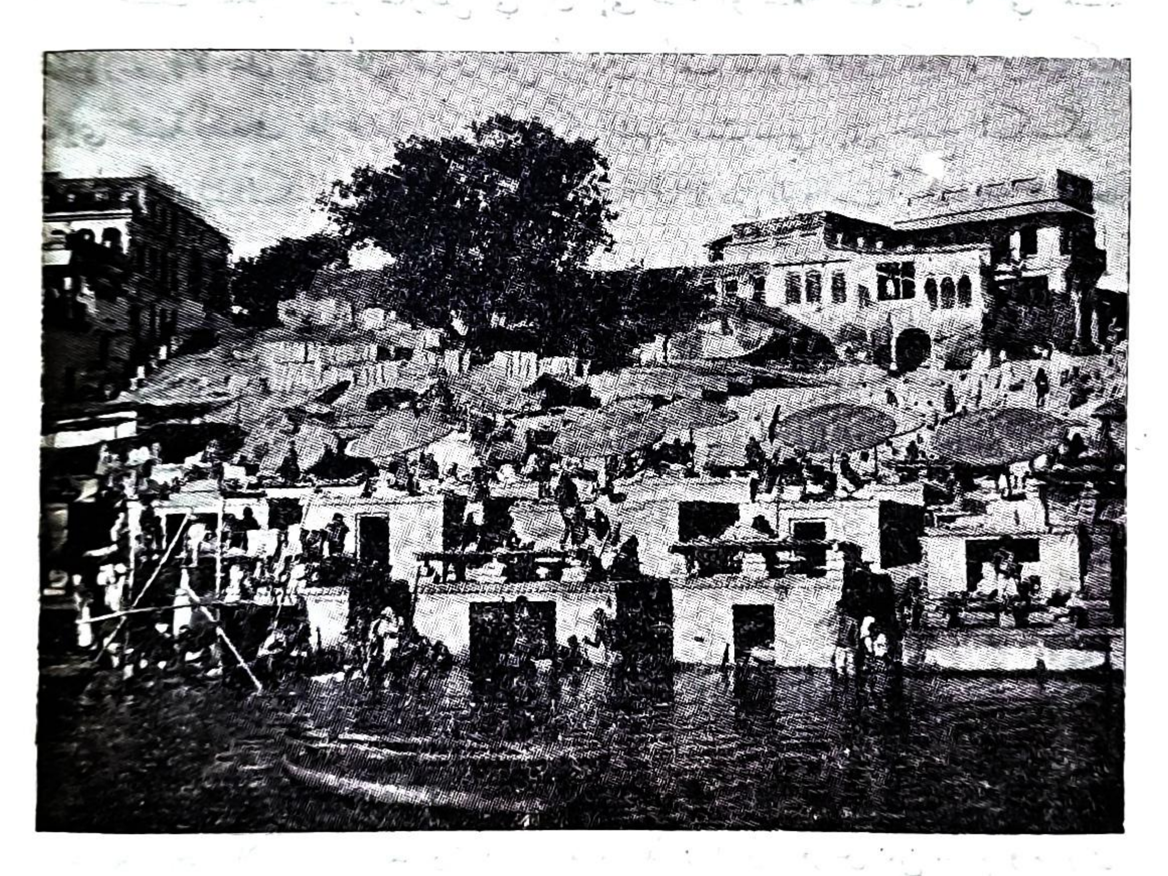
(٣) راجع مصنفه : Principles of Geology Vol. I, P. 478

(٤) راجع مصنفه : Principles of Geology Vol. I, p. 478

(٥) راجع : Jackson : Hydraulic Manual. Hydraulic Statistics Table II

قدماً وفي العمق عن خمس عشرة بوصة ، ولكن بقرب مصبه يبلغ عرضه حتى في أيام الصيف عشرين ميلا ، وعمقه ما يزيد على ثلاثين قدماً .

أما قداسته عند الهندوكيين فلا واحد من الأنهر الكبيرة على وجه البسيطة يجاري فيها كنك أو « كنك ماتا[1] » كما يلقبه المتعبد الهندوكي . فجميع شواطئه من مصدره في همالايا إلى مصبه في خليج بنغال أرضون مقدسة . وكل نقطة يتصل فيها بأحد مساعديه من الأنهر جديرة بأن تقدس . بيد أن النقطة التي يتصل فيها بالنهر الكبير « جمنا » تعتبر « پرَاياج » حقيقياً (أي موضع الحج الحقيقي) ، يقصدها مئات الألوف من متعبدي الهنود ، ليطهروا في مياهها المقدسة المطهرة ذنوبهم وآثامهم ،



جانب من نهر كنك يستحمّ فيه الناس ليتطهروا من آثامهم

وليحملوا منها تبركا في قوارير إلى أقاربهم وأصدقائهم الذين لم يساعدهم الحظ لينالوا سعادة الطهارة من الآثام فيها ، ولا يزال يرى جمع من هؤلاء النساك المتعبدين مقبلين

---

(١) معناه « كنك الأمّ » ولا يخفى أن النهر بالسنسكريتية وبجميع فروعها يؤنث .

بقضهم وقضيضهم ، ضاربين جؤوشهم للحجة الكبرى « برادكشنا » ، وهي التي تستغرق ست سنين حول شواطئه ، متتبعين مسلكه من مصدره إلى مصبه ، ثم من مصبه إلى مصدره .

إن قداسة كنك عندهم فوق قداسة جميع الأنهر ، فإذا وجدت قداسة لنهر آخر فذلك لصلته بكنك في باطن الأرض في اعتقادهم . إن مجرد ترديد اسمه « كنك » ! « كنك » ! عن مسافة مائة فرسخ كاف عندهم للتكفير عن ذنوب ثلاثة أدوار من الحياة التناسخية السابقة . ويجلون شأنه ويعظمون قدره حتى إنهم باسمه وبمائه ليحلفون ويستحلفون .

إن أقصى أمنية للملايين منهم أن يدركهم الموت وهم في جنب كنك وأن يدفنوا في شاطئه أو ترمى جثثهم فيه . ولا أزال أذكر أني زرت مدينة بنارس في سنة ١٩١٩ م ، وهي على شاطىء كنك ، من مدنهم المقدسة القديمة ، وتشمل بعض معابدهم العريقة في القدم ، وكنت نازلا بتاجر ، فصحبته يوماً إلى دكانه ، وكان في شارع عام بقرب شاطىء كنك ، لأشاهد منظر السوق وسير البيع والشراء فيها ، فلم أكد أجلس في الدكان إذ دوّت في أذني كلمة « رام نام سَتْه هي »[١] ثم لاح موكب حافل لتشييع جنازة ، وبعد برهة تبعه موكب آخر ، وهلم جرا . إن بضع ساعات قضيتها في الدكان لم تنقطع فيها مواكب التشييع عن نظري ، حتى دهشت وخيل إليّ أني نزلت مدينة مصابة بالوباء ، فسألت التاجر فقال لي : إن هؤلاء الموتى ليسوا من المدينة بل من الأطراف البعيدة والقرى النائية عن المدينة ، يأتون بها ليرموها في كنك .

يتطرق إلى البال سؤال ، وهو : ألا تفسد تلك الجثث الكثيرة ، التي قد يكون منها ماهو مصاب بالأمراض المعدية مثل الكوليرا ، والطاعون ، والتيفوس وغيرها ، ماء كنك ؟ فالجواب : أنهالا تفسده ، يثبته التحقيقات العلمية الحديثة التي قام بها غير واحد من أهل العلم ذوي الشخصيات البارزة في العالم . قال الدكتورهريسون Dr. C. F. Harrison العالم البكترولوجي الشهير والعميد بكلية مكدنلد من جامعة مكجيل Mecgill University بكندا في مقال له « العضوية الميكروبية في الماء » :

« إن الأمر الغريب الذي لم يفسربعد تفسيراً يثلج الصدرهو أن وبريو كوليرا (Cholera Vibrio) يموت سريعاً في ماء كنك ومساعده « جمنا » ولايعيش فيه أكثر

(١) ومعناها « اسم الله حق » ينادون بها الهندوكيين عند تشييع جنائزهم .

من ثلاث ساعات إلى خمس ساعات . وعليه فاعتقاد الهنود ، مع اتصال المجاري الكثيرة بهما ، ورمي جثث الأهالي فيهما وكثيرمنها مصاب بالأمراض المعدية مثل الكوليرا وغيرها ، وكذلك مع اغتسال ألوف منهم كل يوم في مائهما ، أن ماءهما نقي لا يمكن أن يدنس ، وأنهم يقدرون أن يشربوه ويغتسلوا فيه بسلامة وأمان دون أى ضرر لصحتهم ، جدير بالاعتبار، تؤيده التحقيقات الحديثة البكترولوجية . ومن الغريب أيضاً أن قوة ماء جمنا البكترولوجية تفقد عند إغلائه ، وأن وبريو كوليرا ينمو حالا إذا وضع في ماء الآبار التي بجوار النهرين، ولكنه يموت في ماء النهرين »[١] .

وقام طبيب فرنسي شهير وهو الدكتور د . هرل Dr. D. Herelle بمثل تلك التحقيقات لمعرفة سر كنك ، ففحص بعض الجثث الطافية على مائه ، وهي لمن توفوا بالكوليرا أو الدوسنطاريا ، فأخذه العجب حين لم يجد تحتها إلى عمق بضع أقدام ميكروبات الكوليرا ولا الدوسنطاريا ، وكان يتوقع أن يجد ملايين منها ثم أخذ الميكروبات من المصابين ورباها وأنماها ووضع فيها ماء كنك فدهش حين شاهدأن الميكروبات أتلفت بعد هنيهة إتلافاً تاماً[٢] .

يقول طبيب إنجليزي شهير آخر ، وهو الدكتور نلسون Dr. C.E. Nelson :

« إن البواخر التي تقلع من كلكتة لإنجلترا تأخذ الماء من « هوجلي » وهو أحد مصابّ كنك العكر، فلوحظ أنه يبقى جديداً طول الطريق إلى إنجلترا ، بينما الماء الذي تأخذه البواخر المقلعة من إنجلترا للهند لا يبقى جديداً حتى إلى بومباي ، وهي أقرب الموانىء الهندية إلى إنجلترا ، لذلك تضطر أن تغيره في الطريق ، إما في بورسعيد وإما في السويس وإما فى عدن[٣] .

تلك أمور تزيدهم إيماناً بقداسة كنك وتؤكد عندهم ثقتهم بحرمته ، أما حقيقته عندهم فتتوسم مخايلها فى الأساطير المحبكة حوله .

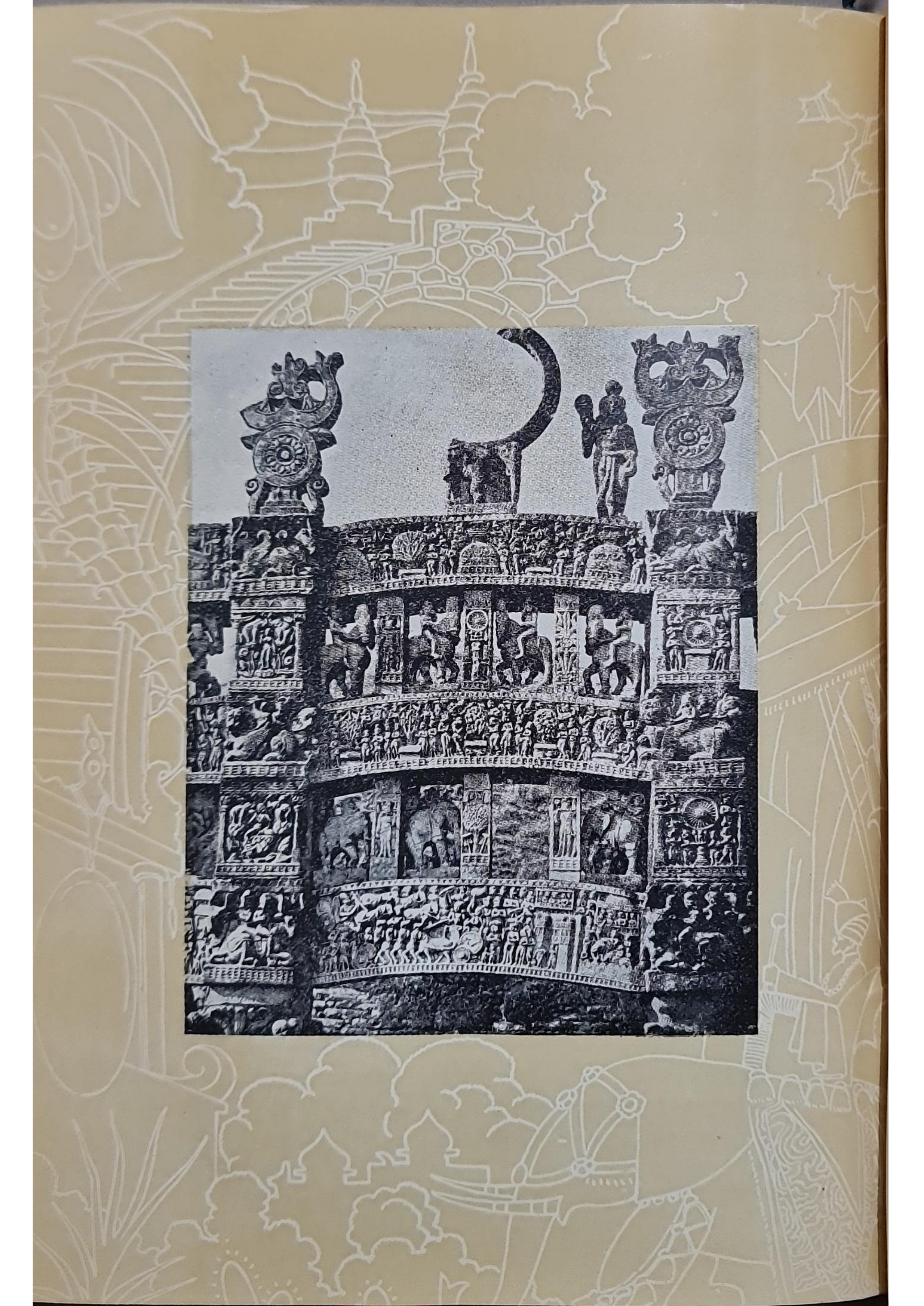
٣

ذكر نهر كنك في الكتب الأربعة الهندية المقدسة الشهيرة مراراً ، فذكر فى

(١) راجع : The Indian World Vol. I, No. 9, p. 25

(٢) المصدر نفسه .

(٣) راجع : The Indian World Vol. I, No. 9. p. 25



اللوحة الثانية

جزء من الباب الشمالي لأحد المعابد الهندية في مدينة سانشي يرجع عهده إلى القــرن الأول قبل المسيح .

« رج ويدا »[١] مرتين ، وفي « پورانا »[٢] باسم « وياد كنك » ومعناه كنك الجني[٣] ، وكذلك ذكرت أسطورة صدوره من الجنة . ونسبة الأنهر إلى الجنة عقيدة عريقة في القدم ، وجدت تقريباً في جميع الأديان . فقد ذكر في نصوص الديانة البابلية القديمة أن أربعة أنهر من الجنة ، وهي : — ١ — نارو (وهو يسمى اليوم الفرات) . ٢ — سي جال . ٣ — سي ليم . ٤ — روديج (وهو يسمى اليوم في الغالب دجلة)[٤]. كذلك في التوارة بيان عن صدور أربعة أنهر من الجنة[٥] وهي : — ١ — فيشون[٦]. ٢ — جيحون . ٣ — حِدَّاقل[٧] . ٤ — الفرات .

وفي الإسلام أيضاً ورد حديث رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة[٨] . وفي حديث آخر عن ابن عباس مرفوعاً : أنزل الله تعالى من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون ، وجيحون ، ودجلة ، والفرات ، والنيل ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها ، على جناحي جبريل ، واستودعها الجبال وأجراها في الأرض وجعل فيها منافع للناس[٩] . وفي حديث آخر : نهران مؤمنان ونهران كافران ، أما المؤمنان

---

(١) راجع رِجْ ويدا باب ١٠ فقرة ٧٥ . ورِجْ اسم رِشي (حكيم) نزل عليه هذا الكتاب ، و « ويدا » من كلمة سنسكريتية « وِيْدْ » معناها العلم . ومعنى « ويدا » : العلم الإلهي . والكتب الأربعة المقدسة كما يلي :

١ — رِجْ ويدا . ٢ — ياجور ويدا . ٣ — ساما ويدا . ٤ — أثاروا ويدا. ويعتقد أتباعها أنها أنزلت من عند الله على حكماء دينهم ، لذلك يلقب جميعها أيضاً بلقب « سروتي » أي « المسموع » وأقدم تلك الكتب الأول ، وآخرها الرابع .

(٢) راجع بريهات دهرماپورانا باب ٢٢ وپورانا اسم يطلق على ثمانية عشر كتاباً من الديانة الهندية العامة ، وتحتوي على المسائل الكونية ، والإلهية ، والتاريخية ، وقصص الأبطال ، والأعمال الاجتماعية ، ونظريات النجاة ، في أسلوب عامّ سلس .

(٣) الجنِّي نسبة إلى الجنة على قياس المكيّ من مكة .

(٤) راجع : F. Hommel : Aufsätze und Abhandlungen (1892-1902). S. 326

(٥) راجع في التوراة سفر التكوين باب ٢ فقرة ١٠ — ١٤

(٦) يختلف المحققون في تعيين هذا النهر ، وبينهم من يرى أنه نهر كنك الذي نحن بصدد بيانه (راجع المجلد الثاني ص ١٩٠ — ١٩١ من قاموس الكتاب المقدس طبع بيروت) .

(٧) يذهب بعض المحققين إلى أن المراد به دجلة .

(٨) ذكره السيوطي في حسن المحاضرة طبع مصر ج ٢ ص ١٧٩ نقلاً عن الإمامين أحمد ومسلم.

(٩) قال السيوطي : أخرجه الخطيب في تاريخه وابن مردويه في تفسيره ، والضياء المقدسي في صفة الجنة .

فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ . وقد فسر إيمانهما بأنهما يفيضان على الأرض فيسقيان الحرث بلا مؤنة وكلفة ، وفسر كفرهما بأنهما لا يسقيان ولا ينتفع بهما إلا بمؤنة وكلفة[1] .

حاول العلامة الألماني الأستاذ فرتز هومل وبذل قصارى جهده في إثبات أن النهرين المذكورين في النصوص البابلية ، وكذلك في النصوص اليهودية والنصرانية ، والنصوص الإسلامية ما عدا دجلة والفرات كانا في الحقيقة في بلاد العرب وأنهما نشفا الآن[2] .

أما الأساطير عن كنك ومساعديه فكثيرة ، إذ لكل جزء من مسالكهما أسطورة يحتاج بيانها إلى كتاب ضخم . على أننا سنحصر كلمتنا فيما يتعلق بكنك وحده على وجه الإجمال .

تنقسم الأساطير عن كنك من حيث مجموعها إلى قسمين . قسم يتعلق بظهوره إلى حيز الوجود ، وقسم يتعلق بتألهه .

أما ظهوره إلى حيز الوجود فتبين لنا كتب الديانة الهندية أن كنك صدر من إصبع القدم للإله « وشنو » فهو نهر جني سماوي كان مختصاً بالجنة . أما سبب نزوله على الأرض فهو أن « سجارا » ملك بلاد « أجودهيا » وهي التي تسمى اليوم « أوَدْه » طمح إلى ذرية ، وقام من أجل ذلك بتكفير خطاياه السابقة والطقوس الدينية الأخرى ، فنجم عنه أن ولدت إحدى زوجتيه ابناً واحداً والأخرى ستين ألف ابن . فأراد الملك أن يضحي حصاناً[3] شكراً لذلك ، ولكن سرق هذا الحصان المقدس « اندرا » أخو «أجنى» إله النار . فخرج أبناؤه للبحث عنه وحفروا الأرض إلى عمق فرسخ متوجهين إلى مركزها ، فالتهمتهم جميعاً نار « كابيلا »[4] وأخبر الملك «سجارا» أنه لو نزل كنك إلى الأرض أمكن إعادة الحياة إلى أبنائه وارتفاعهم إلى الجنة . فقام أحد أحفاده

---

(١) راجع النهاية لابن الأثير طبع مصر ج ١ ص ٥٤ .

(٢) وهو يرى أن الأثر الباقي منهما اليوم هو وادي سرحان ووادي الرمة ، غير أن بعض المحققين لا يوافقون رأيه هذا . راجع مصنفه :

Die Vier Paradiesesflüsse in Altbabylonischer und Altarabischer Ueberlieferung.

(٣) لا يخفى أن في العهد الويدي الطاعن في القدم كان « پروشاميدها » أي تضحية الإنسان ، و « اشواميدها » أي تضحية الحصان يعتبران أعظم رتبة وأكبر منزلة من بين الضحايا الأخرى المنتشرة حينئذ .

(٤) في بعض الروايات « كاپيلا » هو «أجنى» نفسه ، وفي بعض الروايات من أذنه صورة من « وشنو » تحرس إلهة الأرض زوجته .

بمجاهدات قاسية ، ورجا من الكاهن « بهاجيرته » الدعاء لنزول كنك إلى الأرض ، فأجاب « برهما » [١] الدعاء ، وأمر بنزول كنك إلى الأرض عن طريق همالايا . ولم يكن كنك راضياً بالنزول من الجنة إلى الأرض ولكنه نزل امتثالا لأمر « برهما » غضبان، فاستقبل نزوله الإله « شيوا » [٢] على جبهته خشية أن تهلك صدمة نزوله الأرض ، فانتشر ماؤه على خصله المتلبدة في سبعة أنهر . فلما بلغت مياهها رماد الأمراء (أي أبناء الملك سجارا) قامت أرواحهم وصعدت إلى الجنة ونالت بذلك السعادة الخالدة . وحين نزول كنك كان الكاهن « جهنو » يقوم بتقديم ضحية ، فأزعجه نزوله ، فغضب عليه وشرب جميع مياهه ، ثم عطف عليه وسمح لمياهه أن تسيل من أذنه . ولذلك كان من أسماء كنك « جهنوي » كما أن من أسمائه « بهاجيرتهي » نسبة إلى الكاهن بهاجيرته الذي كان دعاؤه سبباً لنزوله من الجنة إلى الأرض .

أما الإلهة المشخصة به فهي أيضا تسمي « كنك » . والإلهة أو الإله لنهر خاص أو للأنهار عامة ، إذا استثنينا الديانة اليهودية والنصرانية والإسلام ، توجد في معظم الأديان . في الديانة البابلية القديمة كان للأنهر إله يسمى « لاتاراك » [٣] وفي ديانة المصريين القدماء كان للنيل إله يسمى « هب » [٤] وفي بعض الأديان القديمة كانت آلهة الأنهر تمثل بصورة الثيران ، وفي بعضها بصورة الثعابين [٥] .

الإلهة كنك بنت الملك « هماوت » [٦] والملكة حورية الهواء « منا كا » ولها أخت تسمى « أوما » . أرهف عزم كنك بإلحاح متوال على أن تبسط نفوذها على الأرض وتطهرها من الذنوب والآثام ، فبسطته ، فانفردت به عن مواقف الأشباه من

---

(١) برهما كبير الآلهة في الديانة الهندية بخاصة في العهد الويدي القديم .

(٢) أحد آلهة الديانة الهندية ، كان يسمى في العهد الويدي القديم « رودرا » يمثل الرحمة والهلاك ، فهو سيد الأناشيد والضحايا ، يشفي المرضى ويرزق الناس ويغفر لهم ويسعدهم ، وهو مع ذلك أكبر قوة في القساوة والفظاعة والهلاك . وهو في الفلسفة الهندية رمز لتصور التغير القاسي في الطبيعة التي يظهر إما في صورة التحليل أو التركيب أو الإعادة مرة أخرى .

(٣) راجع : F. Hommel : Aufsätze und Abhandlungen 1892-1902 S. 332

وأيضاً المرجع الآتي : E.V. Starck : Babylonien und Assyrien S. 199

(٤) راجع :

W. Budge : The Literature of the Egyptians, London 1914 p.86 & 176

(٥) راجع :

F.R. Jevons : An Introduction to the History of Religion, p. 230

(٦) اسم آخر للجبال همالايا .

الأنهار الهندية قاطبة . فهي عندهم أكرمها غير مناظر ، وأقدسها غير معارض .

تزوجت الإلهة كنك بالملك الورع العادل القوي « شنتانو » حفيد الملك الشهير « بهارت » . وقصة زواجها به : أن البرهمن « فاشيستها » كان مشغولا في التفكير فأزعجه مرور « واسوات »[١] بينه وبين الشمس ، فدعا عليهم في الغضب ، قائلا : « فلتولدوا بين الإنسان » . وكان نفوذ البرهمن على المخلوقات السماوية واسعاً إلى درجة أنهم لم يقدروا أن ينجوا من أثر دعائه ، فبادروا إلى الإلهة كنك مستنجديها ، فرضيت على أن تكون أمهم الإنسانية ووعدتهم أنها ستلقي كلا منهم عقب ولادته في نهر كنك ليتسنى لهم العود إلى حالتهم الأولى السماوية . وحدث أن الملك « شنتانو » كان يدلف يوماً بجوار نهر كنك فظهرت له الإلهة كنك في جمال بارع إنساني ولباس فاخر سماوي ، فتأثر الملك ورغب في زواجها ، فرضيت كنك أن تتزوج به ، ولكن بشرط أن لا يتكلم معها بخشونة ولا يعترض على أعمالها ، وإلا هجرته حالا ؛ فقبل الملك الشرط وتزوج بها . وبعد زمن ولدت له ابناً ، ولكنها ألقته في النهرعقب ولادته قائلة : « هذا لأجل غيرك » ففزع الملك من عملها هذا ، ولكنه كان مضطراً أن لا يعترض عليها وإلا هجرته وفقد أجمل زوجة . واستمرت كنك تلقي مولوداً بعد مولود في اليم إلى أن ولدت الثامن ، وأرادت أن تلقيه أيضاً في اليم ، ففقد الملك صبره وانفجر غيظه المكبوت فوبخ كنك على عملها القاسي ، فنكث بذلك عهد الزواج ، فهجرته كنك ، وقبل أن ترتحل أخبرت الملك وأماطت اللثام عن نفسها وشخصها ، وعن سبب إلقائها أولادها في نهر كنك ، ثم أخذت طفلها الأخير واختفت عن نظره .

وبعد مدة قليلة رجعت الإلهة كنك إلى الملك « شنتانو » لتسلم إليه ابنه الشاب الجميل النبيل الموهوب أوصاف « واسو » وفضائله فتأثر الملك حين رأى أن الطفل الذي هجره قد تحول إلى شاب جميل قوي ظريف سمي « ساتا[٢] » ثم غابت كنك عن الملك غيبة أبدية .

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

---

(١) واسوات جمع واسو صنف من الآلهة ثمانية في العدد ، وهم من أتباع الإله « إِنْدرا » ويظهر أنهم كانوا في العهد الويدي يمثلون مظاهر الطبيعة ، فكان « آپا » يمثل الماء ، « ودهروا » نجم القطب ، و « سوما » القمر ، و « دهارا » الأرض ، و « إِنِيلا » الهواء ، و « أَنَالا » النار ، و « پرابهاشا » الفجر ، و « پراتي يوشا » النور .

(٢) وهو أيضاً يسمى « ديوابَرتَّا » و « كنك بَرتَّا » و « بهشمَا » .

عالم المرأة

الرّجل والمـرأة

للأستاذ أحمد خاكي

حاول علماء الأحياء المحدثون أن يدرسوا العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ، فرأوا أن الإنسان يتفق وأغلب أنواع الحيوان والنبات في أن بين ذكره وأنثاه ارتباطاً جنسياً . ففي الحيوانات الدنيا يتوالد العنصر الحي بالانفصال ، وفي بعضها الآخر يكون الفرد الواحد خنثى ، أي ذكراً وأنثى في وقتٍ واحد . لكن اختلاف الجنس كان من شأن الحيوانات العليا والإنسان ، لما في ذلك من المزايا ؛ فإن ذلك الاختلاط عملية تضمن للإنسانية البقاء أولاً ، كما أنها تضمن تخالف الصفات . لأن انحدار الذكر من فصيلة من الفصائل والأنثى من فصيلة أخرى يضمن أن يتصف نتاجهما بصفات من صفات الفصيلتين . لذلك أصبح لكل مولود شخصية قائمة بنفسها ، وأصبح لكلّ شخصية صفات تختلف اختلافاً كبيراً عن الشخصيات الأخرى . ثم إن العلاقة الجنسية جددت شباب كل فرد من أفرادها ، لأن كل خلية من الخلايا تبدأ الحياة من جديد ؛ هذه المادة المتحفزة هي التي تضطرب ثم تنشأ إنساناً يمتاز بالقوة المجددة التي تنشأ وتكبر . كذلك كان الاختلاط الجنسي مفيداً ، لأنه وزع العمل بين اثنين من أفراد الجنس ، وخصّ كل جانب منهما بواجب خاص .

والتركيب البيولوجي للمرأة يختلف عن التركيب البيولوجي للرجل ، لأن التوالد والتجديد والتخصيص ، نتجت من اختلاف المرأة والرجل . وليس الاختلاف اختلافاً تافهاً ، فإنه في صميم الجسم نفسه ، ولأن التركيب البدنيّ للمرأة أثر في نفسيتها ، فنتج من ذلك أن نفسية المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن نفسية الرجل . لذلك ينبغي لكل من عرَض للفروق بين المرأة والرجل أن يدرك أولاً الأساس الطبيعي أو البدني الذي تقوم عليه المرأة ، وكذلك عليه أن يدرك الأساس البدني الذي يقوم عليه الرجل .

لقد يحلو لبعض المدافعين عن مركز المرأة أن ينكر هذه الفروق ، ولكن لقد برهن العلم الحديث أن هذه الاختلافات ليست وليدة العادات الاجتماعية فحسب ؛ فالاختلافات في الطول والوزن والعضل ، والاختلافات في الشكل وضغط الدم والحرارة وغير ذلك ، لم تكن اختلافات عارضة ، نشأت مع النوع الإنساني في تاريخه الطويل . بل هي اختلافات بيولوجية أصيلة جاءت من طبيعة الذكر وطبيعة الأنثى .

وقد تبدو هذه الاختلافات في الجماعات التي تعمل فيها النساء جنباً إلى جنب مع الرجال ، على الرغم من أن الرجل والمرأة يقومان فيها سواسية بأشق الأعمال . ففي جماعات الهنود الحمر تقوم المرأة إلى جانب الرجل بواجبات واحدة ، علاوة على واجباتها المنزلية فيما يتصل بالولادة ورعاية الطفل . ولكن هل قلل ذلك من الفروق بينها وبين الرجل ؟ لا ، بل إن هذه الفروق قد اتسعت بينهما بقدر ما اتسعت بين الرجل والمرأة في أوربا . وقد حاول عالم هو الدكتور « إيلس هردليكا » أن يختبر حالات النساء والرجال هناك ، فوصل إلى نتائج عن الهنود الحمر ، لا تقل عن النتائج التي قد يصل إليها طبيب مصري إذا هو حاول أن يستنتج الفروق بين المصريين والمصريات . وصل الدكتور هردليكا إلى أن الهنود الحمر أطول بكثير جداً من نسائهم ، وأن ضربات قلوبهم أبطأ من ضربات قلوبهن ، وأن قوتهم أشد من قوتهن ، وأن الهنديات الحمر يملن إلى السمن في فترات من حياتهن ، على الرغم من العمل المضني الذي يقمن به ، أما الرجل فلا.

نقول : إن هذه الاختلافات البيولوجية كانت اختلافات أصيلة ، ونقول : إن علماء النفس المحدثين قد كشفوا أن بين الرجل والمرأة اختلافات نفسية ، قد تكون نتيجة لهذه الاختلافات البدنية الأصيلة . فجرثومة الذكر نشيطة متحركة ، وجرثومة الأنثى سالبة هادئة ، وهذا مبدأ الاختلاف الجنسي بين الرجل والمرأة . فالرجل يقوم بالعمل الإيجابي ، أما المرأة فتقوم بالعمل السلبي ، والرجل مبتكر فعّال ، أما المرأة فمستقبلة غير فعّالة ، والرجل يمتاز بالتفكير ، أما المرأة فتمتاز بالوجدان ، والرجل يهتم بنفسه ، أما المرأة فتهتم بصغارها وسلالتها .

على أن العلم الحديث قد برهن على أن هذه الاختلافات البدنية والنفسية لم تكن كلها في مصلحة الرجل . فإذا كان الرجل متفوقاً على المرأة في القوة الجسمية فإن المرأة تبزه في القدرة على اللمس ، فحاسة اللمس عند المرأة أحدّ من حاسة اللمس عند الرجل ، وهي كذلك أشد صبراً من الرجل على احتمال الألم والبرد ، والرجل والمرأة بعد ذلك يكادان يتساويان في بقية الحواس . فإذا نحن خرجنا من منطقة الإحساس إلى منطقة التفكير

والتمثيل ، رأينا أن المرأة تتفوق على الرجل في الذاكرة . فالنساء يتذكرن أكثر مما يتذكر الرجال . وأما من حيث التمثيل فالنساء — كالأطفال — يستطعن أن يتخيلن صوراً عقلية حية ، وهنّ بعد ذلك يفكرن مستعينات بهذه الصور العقلية التي يتخيلن .

وليس هناك كبير فرق بين الرجل والمرأة في الذكاء . وقد يحسب بعض الناس أن المرأة أقل ذكاءً من الرجل ، لكن ذلك لا يرجع إلا للاضطرابات الوجدانية التي يتعرض لها النساء ، فإذا سلمت مجموعة من النساء من مثل تلك الاضطرابات تبين للباحث أن المرأة والرجل في مستوًى واحدٍ من الذكاء . فإن قيل : إن أغلبية المفكرين والمخترعين من الرجال ؛ فقد يقال : إن أغلبية المجرمين والمجانين كذلك من الرجال ! وقد برهنت البحوث النفسية الحديثة على أن جوهر ذكاء المرأة هو جوهر ذكاء الرجل سواء بسواء .

أما من حيث المزاج والخلق فإن ذلك يتصل بالغرائز ، والمرأة والرجل كلاهما يرثان غرائز واحدة . على أن الرجل قد أتيح له أن ينمي غرائز الكفاح والاعتداد بالنفس أكثر مما أتيح للمرأة ، لذلك كان الرجل دائماً هو الذي يبحث عن المرأة ، ولذلك حاولت المرأة أن تكبت في نفسها هذه الغرائز التي أتيحت للرجل ، والمرأة بعد ذلك صاحبة ضمير أقوى من ضمير الرجل ، وهي ترضى بأن تحيا حياة نمطية تساعدها على الصبر والمثابرة ، إذا هي كلفت عملا من الأعمال .

***

ذلك موجز للاختلافات الحيوية والنفسية بين الرجل والمرأة . وقد بقي علينا أن نبحث حياة المرأة الاجتماعية ، فذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن شخصية الرجل مركزة فيه ، فهو يعيش لنفسه ، وهو يستطيع أن يقول إنه يملك منزلا يأوي إليه ، وأولاداً يعطف عليهم ، وزوجاً يسكن إليها . إنه مركز هذه الدائرة التي تحيط به من كل أفق ، وكلُّ الشخصيات التي حوله من زوج وأولاد وأحفاد إنما يستمدون وجودهم منه ، أما المرأة فشخصيتها خارجة عنها غير مركزة فيها ، فهي تعتمد على زوجها في شؤون الحياة ، وهي تظهر شخصيتها في أولادها الذين تنجبهم ، وهي في ذلك مثل أعلى للجود بالذات ، ولا شك أن الأمومة هي أساس الفضائل ، ففي الأمومة يتمثل الإيثار والتضحية وغير ذلك من الخلق الكريم .

وتاريخ المرأة منذ العصور الأولى هو الذي ساعد على الوصول إلى تلك النتيجة ، هو الذي فرّق شخصية المرأة فجعلها مقسمة بين خلطائها ، موزعة بين زوجها وبنيها .

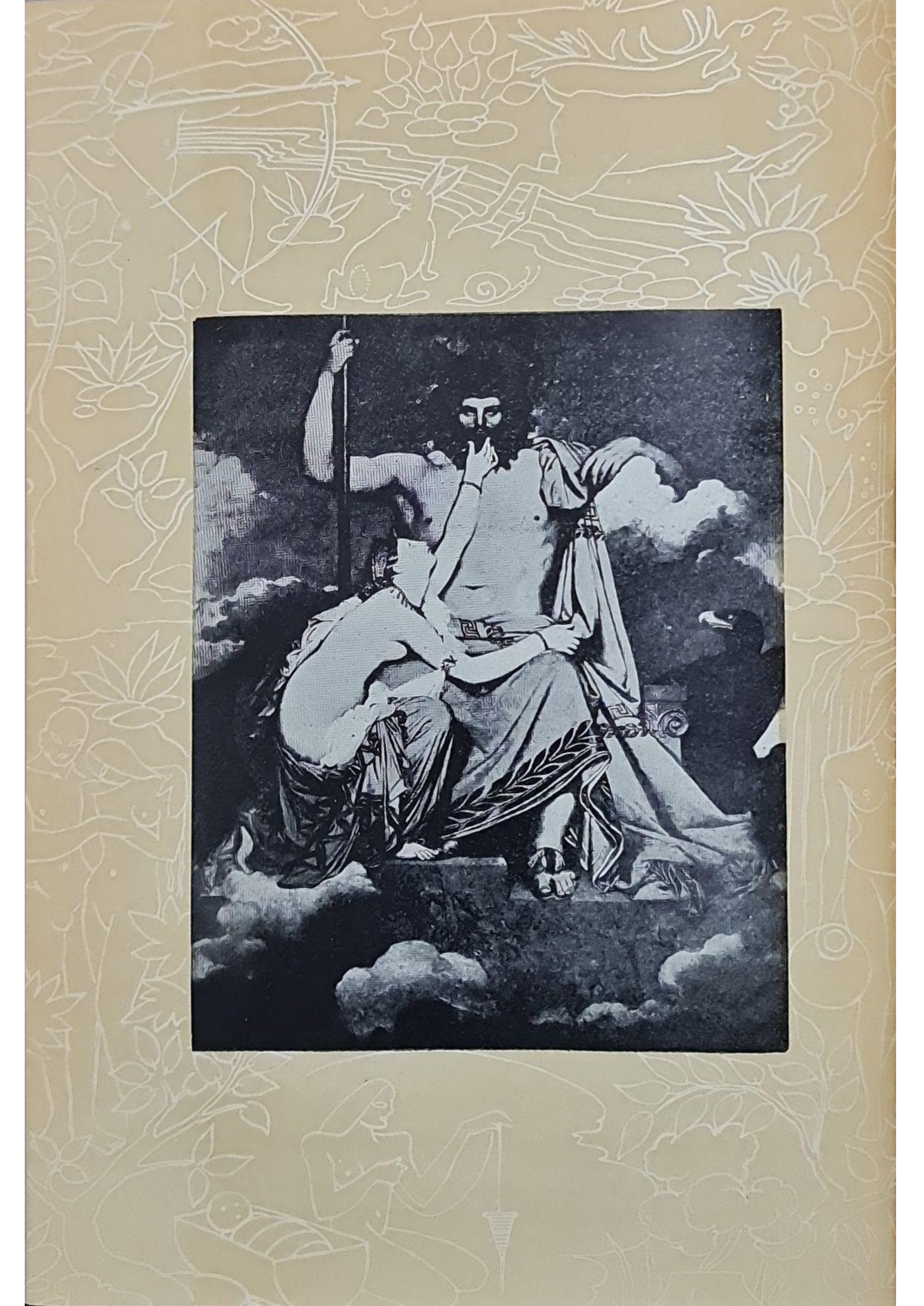
لقد هيأتها الاختلافات الجنسية والنفسية إلى ذلك المركز الثانوي الذي وضعتها فيه البيئات جميعاً ، وقد أثرت فيها أربعة عوامل ، نريد أن نوجز كل واحد منها حتى نرى لِمَ نزلت المرأة منزلة أقلّ من منزلة الرجل :

لقد رأيت أن المرأة أضعف من الرجل ، وأنها قد اختصت بقسط من العمل الجنسي غير قسط الرجل ، ولأنها كانت ضعيفة ، ولأن الرجل كان قوياً ، فقد استضعفها في طول عصور التاريخ ، فهذا أول هذه العوامل وأكبرها شأناً .

ثم إنه قد غبرت عصور طويلة ، والإنسان يحيا حياة الخوف والحرب ، وكانت حياة الكفاح التي يعيشها الجنس الإنساني بوجه عام أدعى إلى أن توكل السلطة للأقوياء الذين يستطيعون أن يحموا أنفسهم وذويهم ، وكانت المرأة مستضعفة ساكنة ، فكانت هذه الحياة الحربية الخطرة وبالاً عليها ، لأنها أصبحت شيئاً من المتاع الذي يسلبه المحاربون ، وكذلك تأثر مركز المرأة وجعل لها المكان الأدنى بعد الرجل في كل هذه البيئات المحاربة ، فذلك ثاني هذه العوامل .

ثم إن القوى الاقتصادية كانت كلها تعاكس المرأة في تاريخها الطويل ، فحيث أرادت المرأة أن تشارك الرجل — ما لم يكن زوجها أو أباها — في الأعمال المأجورة التي اختص بها نفسه وجدت سياجاً يحول دونها وتلك الأعمال. تعرضت المرأة في حياتها الاقتصادية لكثير من الغبن ، مما صدها عن أن تنافس الرجل في الصناعة والتجارة والزراعة وغير ذلك من الأمور ، فإنه لم يسمح لها بالأجر الذي سمح به لنفسه ، فإن كان زوجها أو أباها استولى على ما كسبته وحسب أنها وما كسبته مِلكٌ له ، وكذلك خرجت المرأة في هذه القرون الحديثة وهي كلٌّ على الرجل ، بل هي قد خرجت في حياتنا الاقتصادية الحاضرة ، وهي خصم للرجل ، ينظر إليها شزراً لأنها تشاركه في الرزق ، ولأنها تتقاضى أجوراً أقل مما يتقاضاه هو نفسه ، فهذه القوى الاقتصادية هي ثالث تلك العوامل التي فرقت بين الرجل والمرأة .

وقد كان في تاريخ الفكر الإنساني جانب عظيم يدور حول المرأة وعلاقتها بالرجل، وقد تراكمت كل النظريات والمبادئ والمذاهب ، فكان ملاكها أن يكون للمرأة من العفة ما لم يلتزمه الرجل في كثير من الأحيان ، ولعل الأمر في عفة المرأة والاستعلاء بشرفها عن أن يمس كان دائماً السبب الأكبر في اعتزالها بمنأى عن الرجل . وقد أقامت الجماعات المتحضرة وغير المتحضرة وزناً كبيراً لفضائل المرأة الجنسية ولعفافها ، حتى لقد تأثر تاريخ المرأة بذلك أشد التأثر ، فذلك هو رابع العوامل التي فرقت بين الرجل والمرأة .



اللوحة الثالثة

الإلهة تيتيس تستعطف جوبتر . وهي صورة مأخوذة عن لوحة فنية يرجع عهـــدها إلى سنة ١٨١٩ بريشة الرسام الفرنسي إنجر .

وإذن فقد تأثرت منزلة المرأة الاجتماعية بهذه العوامل الأربعة التي ذكرنا ، لا فرق في ذلك بين جماعة وجماعة . ولنذكر دائماً أن عمر الإنسانية على ظهر الأرض يمتد إلى أعماق سحيقة في التاريخ القديم ، بحيث لا يقاس إلى مداها ذلك المدى القصير الذي أنتج الحضارة قديمها وحديثها ، فنحن إذ نتحدث عن مركز المرأة الاجتماعي ، وعما صادفها في تاريخها من عوامل الانحطاط والتدني إنما نتحدث عن مئات من القرون ليست القرون الحديثة منها إلا كما تكون القطرة في البحر المحيط .

***

وينبغي بعد أن درسنا الاختلافات بين الرجل والمرأة أن نعجل بذكر بعض الاستنتاجات :

أما أول هذه الاستنتاجات : فهو أن كل عصر من عصور التاريخ وكل مدنية من المدنيات قد نظرت إلى المرأة نظرة خاصة ، بعضها قد كبّر هذه الفروق حتى نزلت المرأة إلى الحضيض الأدنى ، وبعضها قد قلل من شأنها حتى ارتفعت المرأة إلى السماك الأعلى ، وقد نقصت هذه الفروق وقل شأنها في البيئات التي شاركت المرأةُ الرجلَ في أعماله وساعدته ، ولم تكن عبئاً عليه . وقد زادت وعظم شأنها في البيئات التي اتسعت فيها الفجوة بين المرأة والرجل ، ففي بيئات الصيـد والقنص مثلا لم يكن للمرأة من القوة ولا من الاستعداد ما يؤهلها لمساعدة الرجل فانحط شأنها ، وفي بيئات الزراعة والتجارة ساعدت المرأة الرجل فعلا شأنها ، كذلك كانت الحال في بيئات البداوة حيث انحطت النساء ، وكذلك كان الشأن في بيئات الصناعة حيث ارتفعت النساء ، ولكن لم تخلُ بيئة من هذه البيئات مما يرفع شأن المرأة مهما انحط مركزها ، ففي أحط البيئات ، وفي أقلها عناية بشؤون النساء ، وجدت عناصر سامية كان من الممكن أن تنشأ إذا لقيت جواً صالحاً ، وفي بعض بيئات الصيد والقنص كانت حكومة الأمومة ، وفي أثينا كانت الفلسفة الأفلاطونية عنصراً هاماً سما بمركز المرأة فيما بعد .

وثاني هـذه الاستنتاجات : أن تاريخ المجتمع الإنساني كان عرضة لتيارات متوالية من الجمود والحرية ، من التزمّت والتحلل ، أو من الحجر على النساء والتفريط في ضبط النساء ؛ ففي عصورٍ كان يبلغ الشعور الديني أو الاجتماعي حداً يجعل المرأة مخلوقا يخاف منه ويخشى عليه ، لذلك كان يُضرب عليها كثير من الأوضاع الخاصة المتزمتة ، بحيث كان يقام لها موضع من البيت لا تبرحه ، فإذا ما بلغت الحياة الاجتماعية حداً كبيراً من هذا الحجر على حرية النساء ، انقلب الأمر ، وتلا ذلك عصر التحلل

الخلقي ، تخرج فيه النساء متبرجات يندفعن في طريق شائك من التهتك والفوضى . ولعلك تستطيع أن تلحظ عصور الجمود في المدنية الرومانية الأولى في القرون الوسطى في أوربا ، وفي عصر الخلفاء الراشدين ، وفي حكومة المتطهرين من إنجلترة ، وفي القرن التاسع عشر في مصر ، وكذلك تستطيع أن تلحظ عصور التهتك في العهود التي تلت هذه العصور ، فقد انتهت المدنية الرومانية إلى عصر من التهتك ، وكذلك قل عن عصر النهضة في أوربا ، وعصر بني أمية والعباسيين في دمشق وبغداد ، وعصر رجعة الملكية في إنجلترة ، والعصر الحاضر في مصر ، بحيث كان هناك كبت لحرية المرأة كان بعده انفجار لهذه الحرية ، ولعل الأمر في كل ذلك يجب أن يكون توفيقا بين الحرية وبين الإباحة ، فالمشرع والمصلح الاجتماعي والمعلم يجب أن يختطوا خطة وسطاً بين الحرية والحجر .

وثالث هذه الاستنتاجات : أن هذه الفروق التي ذكرنا لم تمنع المرأة أن تقوم ببعض الأعمال العامة والخاصة ، وقد رأيت أن الاختلافات التي ورثتها لم تكن كلها في مصلحة الرجل ، بل كان جزء كبير منها في مصلحة المرأة ، زد على ذلك أن هذه الاختلافات عامة تتسع إذا أخذنا النساء بوجه عام ، والرجال بوجه عام ، لكنها تضيق ثم تضيق إذا قارنا بين أفراد من الجنسين ، لذلك ظهرت نساء في العصر الحديث يقمن بما يقوم به الرجال ويحسنّ القيام به ، فهناك طبيبات وطائرات وصاحبات شركات ومديرات وسفيرات ووزيرات ، لم يحل ضعفهن الجسمي ، ولا مزاجهن الحاد ، ولا اضطرابهن الوجداني ، بينهن وبين قضاء هذه الأعمال على خير ما يكون .

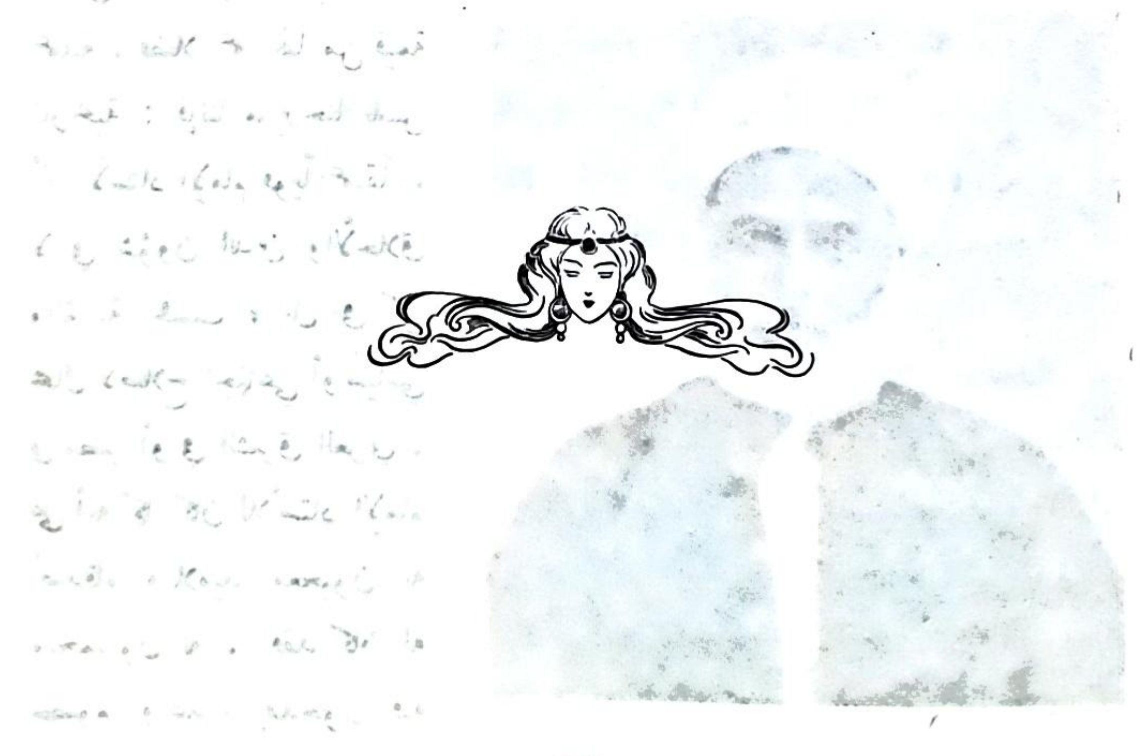
ورابع هذه الاستنتاجات : أننا ، حتى لو سلمنا بكل هذه الفروق ، ولو صورناها كما يصورها خصوم المرأة ، فإنها لا تحول دون المرأة وما لها من الحقوق . لقد غبر عصر كان بعض المفكرين والعلماء يصورون الفروق بين الأجناس البشرية تصوراً مبالغاً فيه ، كان منهم من يضع حدا بين الجنس السامي وبين الجنس الآري ، ويجعل للجنس السامي كل الرذائل وللجنس الآري كل الفضائل ، ثم كان هناك قوم يسوّغون الرق ، لأنه كان يقوم على اختلاف الأجناس البشرية . ثم كان هناك مفكرون وعلماء أيضا يكبرون الاختلافات بين كل طبقة وطبقة ، ويذهبون إلى أن ذكاء الطبقة الغنية أحدّ من ذكاء الطبقة الفقيرة ، ثم يسوّغون الرأسمالية في أخبث صورها تبعاً لذلك ، ولكن الاتجاه الحر الذي سار في تاريخ القرن التاسع عشر لم يعترف بكل تلك الفروق التي عدّت يوماً مّا من بعض الحقائق المفروضة ، بل لقد هدمت الحركات الحرة كل هذه

الفروق ، فلم تصبح الحقوق السياسية رهينة باختلاف الحجم بين جمجمة ساكن الشمال وجمجمة ساكن الجنوب ، ولم تصبح الحقوق الاجتماعية رهينة باختلاف عدد الجنيهات التي يقبضها ساكن المدينة وساكن القرية في آخر كل شهر .

لذلك نحسب أن هذه الاختلافات التي ذكرنا لا تسوّغ أن تحتقر المرأة ، ولا أن توضع في مكان خاص كبعض المتاع ، بل عليها أن تدرس واجباتها من حيث الأمومة ورعاية الطفل ، ثم عليها أن تكون فرداً له شخصية ، وعليها بعد ذلك أن تقوم بقسط كبير في الحياة الاجتماعية ، سواء أكان هذا بتربية أطفالها أم بالإدارة والوزارة والتعليم والتطبيب إذا أتيح لها ذلك .

وخامس هذه الاستنتاجات : أن مركز النساء لم يكن تابعاً لحالة الثقافة العامة في أية مدنية من المدنيات ، فمن الناس من يحسب أن المرأة قد بدأت في العصور الفطرية ضعيفة مهانة ثم بدأ مركزها يسمو كلما تقدمت بها المدنية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم . وهذا خطأ ، فقد كان للمرأة في بعض البيئات الفطرية مركز ممتاز ، ولا يزال للمرأة في جزائر أندمان هذا المركز الممتاز ، ولكن الأمر كان يتصل بكثير من العوامل الأخرى ، ولم تكن الثقافة إلا أحد هذه العوامل ، فلو حاول أحد أن يختط رسماً بيانياً لتاريخ مركز المرأة لوجد أن خطه البياني يتذبذب ذبذبة شديدة بين كل عصر وعصر ، وبين كل بيئة وبيئة ، فهو لا يرتفع إلى الأعلى قُدُماً كما يتوقع بعض الناس .

أحمد أمين



محمد عبده

١٨٤٩ — ١٩٠٥

للدكتور عثمان أمين أستاذ تاريخ الفلسفة بكلية الآداب في جامعة فؤاد الأول

محمد عبده من الشخصيات الكبيرة التي أنجبتها مصر الحديثة ، فمثلت أقوى وأجمل ما في الفكر الإسلامي الحديث ، وعبرت أجلى وأنق تعبير عن الروح العربية التجديدية؛ ولم يزل فكر محمد عبده ملهماً للحياة الروحية في مصر وفي الشرق العربي : فإن متأملا منصفاً لا يسعه إلا أن يلاحظ أننا إذا تقصينا الحركة الفكرية المصرية مثلا منذ أيام قاسم أمين وسعد زغلول ، إلى المفكرين المعاصرين من مثل مصطفى عبد الرازق وحسين هيكل وعباس العقاد وجدنا أنهم جميعاً — مهما تختلف نزعاتهم وتبتعد اتجاهاتهم — لا يخلون من أن يكونوا قد تلقوا من محمد عبده بعض وحيهم ومدد أفكارهم.



والحق أن لتعاليم محمد عبده قيمة عملية ، فضلا عما لها من قيمة تاريخية : فإننا ما برحنا نلمس أثر الأستاذ الإمام قوياً عميقاً ، لا في شؤون الدين والأخلاق والتربية فحسب ، بل في كل مجال لإصلاح اجتماعي أو سياسي في مصر أو في الشرق العربي . على أنه كما كان للأستاذ الإمام أصدقاء وتلاميذ معجبون به متحمسون له ، فقد كان له خصوم وأعداء يقدحون فيه

وينقمون عليه . ومن هنا كانت الصعوبة في عرض آراء هذا المفكر على حقيقتها ، وتخليصها مما علق بها من تأويلات مشهورة وخلافات لم تزل حاضرة . أما نحن فنرى أن الشيخ محمد عبده أصبح في عداد رجال الماضي المجيد ، ومنزلته عندنا في تلك الدائرة المضيئة ، دائرة المجد الصحيح الذي يبقى بعد هدوء العواصف ، وخلو النفوس من ثوران الحقد وانفعال الإعجاب .

***

ولد محمد عبده في قرية مصرية سنة ١٨٤٩ ميلادية ، من أبوين مصريين متوسطي الحال ، وتعلم الصبي القراءة والكتابة في منزل والديه . وبعد أن جاوز العاشرة من عمره ، أتم حفظ القرآن على حافظ خاص ، ثم أرسله والده سنة ١٨٦٢ إلى الجامع الأحمدي بطنطا ليتعلم تجويد القرآن ، فقضى في ذلك سنتين ، ثم جلس بالجامع يتلقى قواعد اللغة العربية . ولكن منهج التعليم بالجامع الأحمدي كان منهجا وعراً شاقاً يخالف ما تقضي به أبسط قواعد التربية . . فانصرف الفتى عن العلم ، موقناً أنه لا نجاح له في طلبه ، وعاد إلى بلده ، وفي نيته أن يشتغل بالزراعة . كما يشتغل الكثير من أقاربه ، وعلى هذه النية تزوج سنة ١٨٦٥ وهو في السادسة عشرة من عمره . ولكن والده حمله على العودة إلى المسجد الأحمدي . وشاء الله أن يلتقي الفتى وهو في عنفوان أزمة نفسية خطيرة بأحد أخوال أبيه ، وهو رجل صوفيّ طيب القلب ذكي الفؤاد ، استطاع في خمسة عشر يوماً أن يروض جماح الفتى ، وأن يوجهه إلى المعاني القدسية واللذائذ الروحية.

ذهب محمد عبده إلى الأزهر ، فحضر فيه ثلاث سنين ، قرأ فيها جميع الكتب المقررة ، واستمع إلى الدروس المعتادة ، حتى سئمها ، وتطلعت نفسه إلى علوم جديدة غير العلوم الأزهرية ، التي كان يتلقنها الطلاب في مختصرات لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة . ولما وفد على مصر زعيم النهضة الفكرية وفيلسوف الشرق في القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الأفغاني ، انبعثت تعاليمه في تلك البيئة القاتمة كما ينبثق النور الباهر ، وتتلمذ محمد عبده لجمال الدين ، وأصبح يلازمه كظله . ونشط الأفغاني لبث تعاليمه الحرة التي لم يكن للناس عهد بها ، وأخذ يقرأ لتلاميذه طائفة من الكتب العربية القديمة ، والكتب الأوربية المعربة ، في مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والسياسة والاجتماع ، وكان ذلك فتحاً جديداً في موضوعات التعلم . ووجد الشاب المصري عند السيد الأفغاني روحاً جديدة لم تكن مألوفة عند شيوخ الأزهر : وجد عنده مذهباً فلسفياً واحداً ، ونظرة إلى الحياة عميقة ، وصورة عن الكون

منظمة . وقضى محمد عبده في صحبة جمال الدين شهوراً يحيا فيها حياة الفكر والروح ، وهو مبتهج نشوان ، متعطش إلى ارتشاف المعرفة من ينابيعها الصافية .

وفي سنة ١٨٧٧ ، تقدم محمد عبده لامتحان العالمية في الأزهر ، فظفر بالشهادة على الرغم من الشكوك التي حامت حول اسمه ، لاتصاله بالسيد جمال الدين ، ولكتابته الفصول التي يدعو فيها إلى التجديد وترك الجمود والتقليد . وأصبح من حق محمد عبده أن يقوم بالتعليم في الأزهر . فأخذ يلقي فيه دروساً في التوحيد والمنطق والأخلاق . ثم عين مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم ومدرساً للغة العربية في مدرسة الألسن . فبدأ التعليم في دار العلوم بمحاضرات عن فلسفة ابن خلدون . ومضى الشيخ في التدريس حتى تولى الخديو توفيق، فأمر بنفي جمال الدين من مصر ، وعزل محمد عبده من دار العلوم ؛ ولكن رياض باشا أراد إصلاح جريدة « الوقائع المصرية » وكانت لسان الحكومة الرسمي ، فعين الشيخ محمد عبده محرراً بها ، ثم جعله رئيس تحريرها ، فكان الشيخ فيها بحق مصلحاً ومعلماً في آن واحد : كانت غايته رفع مستوى الأمة ، وتقويم أخلاقها والنهوض بها نهضة اجتماعية أخلاقية ، في تدرج وأناة وتطور ، ومن غير عنف ولا طفرة ، وكان يعتقد أن ذلك يتم إذا سلك قادتها سبيل التثقيف والتربية ونشر التعليم ، لا سبيل تقليد الغرب من غير فهم ولا إدراك عميق ، أو التمسك بظواهر المدنية المادية مع الغفلة عن صميم المدنية الروحية الصحيحة . . وسار الشيخ في تحرير « الوقائع المصرية » تلك السيرة الإصلاحية ، فكان عجيباً حينئذ أن ترى صاحب عمامة أزهرية يشرف من غرفة تحرير الجريدة الرسمية على الأمة ، فيقوّم من أخلاقها ، ويصلح ما فسد من عاداتها ، ويعلم جرائدها حسن التحرير ، ويربيها على الصدق في القول والإخلاص في العمل .

ثم نفي الشيخ — في أثر الثورة العرابية — إلى سوريا ، وبقي في بيروت زماناً ، إلى أن دعاه أستاذه السيد جمال الدين للقدوم إلى فرنسا . وتوجه الشيخ المصري إلى باريس أوائل سنة ١٨٨٤ فألف مع السيد الأفغاني « جمعية العروة الوثقى » لجمع شتات المسلمين ، ومحو ما بينهم من شقاق ، وإيقاظهم من رقادهم . ثم أصدر الأستاذ وتلميذه جريدة « العروة الوثقى » للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً ، وتنبيه الغافلين إلى ما فيه خيرهم . وتوجه الشيخ محرر العروة إلى لندرة لمحادثة رجال السياسة الإنجليزية في الشؤون الشرقية ، ولاستطلاع آرائهم ونواياهم بشأن القضية المصرية . وجرت للشيخ أحاديث مع كثير من الشخصيات البارزة في البرلمان الإنجليزي، ثم عاد إلى باريس وسافر إلى تونس وغيرها بقصد العمل على إحكام العروة وتمكين عقودها .

عاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت أوائل سنة ١٨٨٥ وعهد إليه في التدريس في « المدرسة السلطانية »، فكان من أثر وجوده بها أن سما بأنظار الأساتذة إلى أفق أعلى، ووجّه أكبر العناية إلى الجوانب الروحية والأخلاقية في التربية والتعليم، ولم تكن تفوته في بيروت فرصة إلا انتهزها، ليبين علة تأخر الشرقيين، وليدعو إلى العناية بدراسة علوم الحياة البشرية، وينبه إلى الحاجة إلى التغذي بتعاليم الأخلاق والتربية الدينية والوطنية.

ثم صدر العفو عنه، وعاد إلى استئناف جهاده في مصر، فتعلم اللغة الفرنساوية، واشتغل بالقضاء أعواماً، فكان قاضي العدل والإنصاف، لا قاضي القانون والرسوم، وكان يتوخى في أحكامه تربية الجمهور وإيقاظ ضميره، وإصلاح ذات البين بين العائلات.

ثم حاول إصلاح الأزهر، ووضع لذلك مشروعاً كاملا لإصلاح تلك الجامعة الإسلامية الكبيرة إصلاحا مادياً ومعنوياً. وللأسف لم يستطع أن ينفذ ذلك الإصلاح، لكثرة العراقيل التي أقيمت في وجهه من كل صوب. وفي سنة ١٨٩٩ عين مفتياً للديار المصرية، فلم يجعل ذلك المنصب مقصوراً على الإفتاء فيما يحال إليه من مسائل، على غرار من سبقوه، بل وسع اختصاصه وزاد من نفوذه. وامتازت فتاوى الأستاذ الإمام بالميل إلى التسامح، واستقلال الرأي والبعد عن التقليد، والملاءمة بين روح الإسلام ومطالب المدنية الحديثة. ثم عين الشيخ عضواً في مجلس شورى القوانين، فكان واسطة العقد، يسعى للتوفيق بين وجهتي نظر الحكومة والمجلس، وإزالة الخلاف بين الأعضاء، وكان فوق ذلك يرمي إلى تربية الرأي العام في مصر، وتعويد الأمة دقة البحث، والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصة، والنظر في الأمور العامة والمصالح الوطنية الكبرى. وعمل الأستاذ، من طريق الجمعية الخيرية، إلى تحقيق إصلاح اجتماعي يذكي في أفراد الأمة روح الاعتماد على النفس، وتعويد المسلمين الاجتماع لأجل التعاون، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان إلى الفقراء. فكان صوته أول صوت ارتفع في مصر منادياً بوجوب العمل على استتباب السلام بين الطبقات، والاتجاه إلى تحقيق مبادئ العدالة الاجتماعية.

وتصدى الأستاذ الإمام للدفاع عن الإسلام في موقفين مشهورين: أحدهما موقفه مع المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا، في موضوع الإسلام والعقائد السامية والآرية ومايتصل منهما بالإسلام والمسيحية، والثاني رده على مجلة « الجامعة » لفرح أنطون في الموازنة بين الإسلام والنصرانية من حيث التسامح الديني، وتأييد العلم والمدنية.

وأخيراً كان للأستاذ الإمام الفضل في التفكير في إنشاء جامعة مصرية، تقوم إلى

جانب الجامعة الأزهرية . وبالجملة نقول : إن أعمال محمد عبده كثيرة لا يتسع المقام لاستقصائها ، ولم يكلّ الأستاذ يوماً عن العمل ، إلى أن أصبح شيخاً اقترب من الستين، فكان يطالع ، ويتعلم ، ويعلم ، ويفتي ، ويجلس في جلسات مجلس شوري القوانين ، ومجلس الأوقاف الأعلى ، ويترأس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ويضع المشروعات للأزهر والمحاكم الشرعية ، ويمتحن طلبة العلم ، ويؤلف الرسائل الدينية ، وينشر المقالات الفلسفية ، ويدافع عن الدين إذا طعن عليه عدو ، ويراسل علماء المسلمين في جميع الأقطار التي يسكنونها ، ويفاوض رجال الحكومة لتنفيذ مقاصده . وكان مع كل ذلك يجد وقتاً ليزور أصحابه ويشاركهم في جميع أفراحهم وأحزانهم . ولا غرو فقد كان رجلا موفور النشاط ، قوي العزيمة ، شديد الإخلاص ، واسع أفق النظر ، متسامحاً كريماً ، اشتغل بعلوم الدين والدنيا معاً ، فكان في كلا المجالين رجل الفكر الحر والتجديد الصحيح.

* * *

وتتلخص رسالة حياته في أمرين : الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد ، ثم التميز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

وهو في فلسفته رجل عصر حقاً . إنه ينتمي إلى عصرنا هذا بروحه ، وبالاتجاهات العامة لفكره . وإنه شديد القرب منا ، من حيث إنه يعبر عن طبيعة سيطر عليها الشعور الأخلاقي ، ومن حيث إنه يجعل لذلك الشعور منزلة الصدارة بالقياس إلى فنون الجدل والمحاجة والنقاش عند المدرسيين . وعلى الجملة فقد أوتي محمد عبده استعداداً إنسانياً كبيراً ، فبدلا من ذلك الإيمان المسرف بقدرة العقل وقضايا الذهن ، ذلك الإيمان الذي نلحظه قوياً عند ابن سينا مثلا ، نجد عند محمد عبده اتجاهاً أدنى إلى أن يكون إنسانياً ، فهو لا يصطنع موارد الجدل والمنطق إلا بقدر واعتدال .

ثم إن الأستاذ الإمام لم يكن من أهل الميول الدجماطيقية (التقريرية) ، لا في الفلسفة ولا في الدين : فبينا نجد ابن سينا يقرر ويعتقد بقضية واحدة ، متعصباً لرأيه أحياناً ، نجد محمد عبده قليل الثقة بالمذاهب المغلقة ، ميالاً دائماً إلى ما يمكن أن نسميه " بالحقيقة المفتوحة " ؛ ولذلك بدت فلسفته مذهبا ضافياً ينطوي على عناصر القوة والمرونة معاً ، ويرحب بالاحتمالات والإمكانيات اللامتناهية التي قد يأتي بها المستقبل . فإذا كان ابن سينا قد يروقنا لأنه عمد إلى تأليف مذهب عقلي ونظام محكم ، فمحمد عبده يعجبنا يقيناً لما أظهر من روح الاتزان ، والحسّ الأخلاقي ، والشعور بالإنسانية في

صورة رائعة . فمحمد عبده يبدو لنا من هذه الناحية ، أقرب إلى الغزالي منه إلى ابن سينا ، ولم يكن من المتشككين في العقل بل كان له ثقة بالعقل وآثاره ، إذ للعقل عنده نصيب كبير في الأخلاق وفي الدين . ومع ذلك ، فلم يستهدف محمد عبده للوقوع في هوة النزعة التقريرية ، كابن سينا . ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الشيخ محمد عبده يبدو لنا في طريقه إلى المذهب التأليفي الذي طال انتظاره في الفلسفة الإسلامية ، وهو العمل على الجمع بين فلسفتي ابن سينا والغزالي .

والمسألة العامة التي كان لا بد لمحمد عبده أن ينظر فيها هي موضوع الصلة بين الفلسفة والدين . كان الناس يميلون في ذلك العهد إلى فصل الدين عن الفلسفة ، وكانوا يقولون بأن لكل منهما مجاله الخاص ، وليس لأحدهما أن يجاوز الحدود الفاصلة بينه وبين الآخر ؛ وإذن فليس من الممكن في نظرهم أن يكون شخص واحد فيلسوفاً وعالماً دينياً ، لأنهما عندهم متنا كران ومتنافيان . ولكن الذي يسترعي الانتباه أن الفيلسوف ورجل الدين ملتئمان في شخص محمد عبده التئاماً لم نعهده منذ قرون خلت : فمن جهة ، نجده يميل إلى النزعة العقلية الديكارتية ، نزعة الأفكار الواضحة والمعاني المتميزة . ولقد عمل هو نفسه على تثبيت دعائم المذهب العقلي في الشرق الحديث ، ولولاه لما استطاعت تلك الحركة العقلية أن تظفر في مصر بما ظفرت به بعده من نصر وتأييد ، ومن جهة أخرى يستبين الناظر في آثار محمد عبده نزعات عملية أخلاقية عميقة : فقد كان الإمام يرى أن الفلسفة ينبغي أن لا تقدر لها قيمة إلا بما تستطيع أن تهدي الناس في حياتهم وسلوكهم ؛ ولقد صرح هو نفسه بأن درجات العلم متفاوتة ، « ولا شيء من العلم يعد صحيحاً إلا العلم الذي يهدي إلى العمل ، وهو ذلك العلم المتمكن في النفس ، الذي تصدر عنه الآثار مطابقة له » ؛ أما ما دون ذلك فحفظ لا علم ، «وكل من اعتقد شيئاً ولم يقف على سره ، ولم ينفذ إلى باطنه ، فهو عبارة عن خيالات تزول بمجرد الشبهة » .

فالشيخ محمد عبده كفيلسوف إسلامي ، وإمام مصلح ، إذا كان لا يميل إلى الميتافيزيقا البعيدة عن مجال العمل ، ولا إلى النظرة الصوفية المتشائمة المتواكلة ، ولا إلى الفلسفة المادية ، فهو يقيناً ينحو بالفكر منحى إنسانياً ، بأوسع مالهذه الكلمة من مدلولات . وإذا كان على الفلسفة الإسلامية واجب ، فواجبها اليوم هو أن تظل فكراً فلسفياً وإسلامياً معاً ، وأن تحافظ على كمال الانسجام بين العقل والإيمان ، كما أراد محمد عبده.

***

استطاع محمد عبده ، بما بث من تعاليم خصبة عالية قوية أن يرفع مرتبة القيم

الروحية ، وأن يؤدي للعقل احتراما غير منقوص ، وأن يعلن أمام مظاهر القوة المادية حقوق الضمير والكرامة الإنسانية ، واستطاع — بحرصه الدائم على أن لا يفصل الفكر عن العمل ، ولا العلم عن الأخلاق — أن يعود بالفلسفة إلى أحسن تقاليدها ، وأن يفتح لها في الشرق آفاقاً واسعة . فإذا أضفنا إلى نصيبه في الفلسفة ما ساهم به في إصلاح حال المسلمين ، وإذا وقفنا على إلهام روحه ، ذلك الإلهام المؤلف من محبة الخير والحق والجمال ، صح لنا أن نقول : إن محمد عبده خليق أن يقدَّم اليوم للناس قدوة وإماماً ، وإن آثاره جديرة أن يتأملها هذا الجيل وما يليه من أجيال .

عثمان امين

الجمال في الشعر

للأستاذ نجيب العقيقي

ليس للجمال ، على إطلاقه ، نموذج خاص أو شكل مستقل ، فلو اختص بنموذج أو استقلّ في شكل لكانت تماثيل عصر وألحانه وقصائده نموذج الجمال وشكله وانعدم الذوق الشخصي وحلّ المحدود محل غير المحدود واضمحلّ الفن .

إن الجمال وليد نوع من العاطفة يسمو عن النفع ، فالمرء يعجب بأثر جميل ، وإن كان في زمان ومكان غير زمانه ومكانه ، ويفرح به وإن كان من صنع إنسان من غير جنسه ودينه .

فمن الناس من تعود — بالمعرفة — أن يعجب بالبشرة السمراء والعينين السوداوين والفم القاني على شكل من الأشكال ، فهو ما لقيها في غادة إلاّ سماها جميلة . فإن هي تصدّت لعبد أسود مال عنها لأن ما تعوده من جمال لا يجده فيها ، ومثل ذلك مثل جميع الفنون كالنحت والموسيقى والشعر . ومن الناس من تثقف — بالإدراك — ثقافة أعدته إعداداً خاصاً لتذوق نوع من الجمال ، فهذا يرى جمال قصيدة لأبي نواس في عواطفها ، وذاك في معانيها ، وآخر يجده في أسلوبها ، فإذا تجاوز المتجاوزون القصيدة الواحدة إلى ديوان الشاعر أعجب عصبة المجان بمجونه ، وراع جماعة القانتين زهده ، وبهر جمهرة البيانيين واللغويين بديعه وغريبه .

فإذا كان في ذلكم الجمال قيمة يجهلها الجاهلون ، طلبوا إلى من يعرفها ويدركها تيسيرها لهم ، فتنحصر حرفة نقاد الفن ، أكثر ما تنحصر ، في تذوق الجمال وتيسيره للعامة ولا سيما الجمال الذي لا يتصل بها اتصالا وثيقاً ، لبعده عن بيئتها ، كالتماثيل الفرعونية ، أو لضعف السبب بينه وبينها ، كالموسيقى الأجنبية ، أو لسموه فوق مداركها كالشعر الصافي .

إن الجمال عرضي في الطبيعة تقدمه عفواً وتعدمه عفواً ، وجوهري في الشعر

فالشاعر يفتن في التفتيش عنه وفي انتقائه وتجميله وإبداعه حتى يجعله في الخالدات .

وجمال الشعر يتعدى المألوف في الجمال الذي يخضع للموازنة بين الصدق والكذب، والصالح والطالح ، ويتجاوز المتداول من الجمال الذي يقتضي التحديد والوضوح فمن أجل كل هذا لم يوفق العلم والفن كلاهما إلى كلمة فصل في تعريفه وتوكيده كما اتضح من آخر محاولة عنه[1] .

١ — يتخذ بعض النقاد علم ما وراء الطبيعة لتعريف الجمال الشعري فيقول : إن كل حقيقة جميلة ، وكل جمال حقيقة ، وكل أسلوب علمي صادق جميل . وهذا قول مردود ، فإنّ ضربنا اثنين في اثنين وحصولنا على العدد أربعة حقيقة علمية ولكنها ليست جميلة . والشعر العلمي الذي نظم العرب به قواعد العلوم ، كاللغة والفقه والمنطق ، ليس عليه مسحة من جمال ، في حين تضمن وصفهم الخرافات والجن والعباقرة والغيلان والعنقاء كثيراً من الجمال كما انطوى شعر الأمم الغربية على قصص وثنية وخرافية وميثولوجية وحيوان زاخرة بالجمال ، وتقع على الجمال في الكذب ألم يقولوا : أعذب الشعر أكذبه ؟ أو ليس شعراً ما يقال كل يوم وليس فيه من الحقيقة والصدق مثقال وفيه من الجمال مثاقيل ؟ من ذلك حكاية المطرز الشاعر الذي أنشد الشريف الرضي قصيدة منها :

إذا لم تبلغني إليكم ركائبي فلا وردت ماء ولا رعت العشبا

فأشار الشريف إلى نعله البالية وقال : أهذه كانت من ركائبك ؟ فأجاب المطرز : لما عادت هبات سيدنا إلى مثل قوله :

وخذ النوم من جفوني فإني قد خلعت الكرى على العشاق

عادت ركائبي إلى مثل ما ترى ، فقد خلعت ما لا تملك على من لا يقبل . كذلك أبو الحسن العكوك الذي قتله المأمون في قصيدة مدح بها أبادلف العجلي قال منها :

كل ما في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

فاستحل المأمون دمه ، ولم يغن عنه اعتذاره بأن بيت الخلافة فوق الناس .

وليس كل صالح في الشعر جميلا ، ولا كل طالح فيه قبيحاً ، فالنبات أو الحيوان الذي تم به مجموعة من المجموعات وتكتمل فيه فصيلة من الفصائل هو صالح لنا دون أن يكون جميلا عندنا ، وقد لا يكون صالحاً ويكون جميلا . قال أبو نواس :

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قصر الدهر

---

(١) Feldman. L'Esthétique Française Contemporaine.

فلو تجاهلنا جمال الشعر واتبعنا العقل في تعريف الصالح والطالح قلنا : إنه كلام خليع جاهل لأشرف صلاح إنساني ، وأمثلة ذلك كثيرة في بخلاء الجاحظ ومتسولي المقامات وأهاجي ابن الرومي ، وهي أكثر وأجلى في نيرون لراسين وياجو لشكسبير . . فكل بطل من هؤلاء طالح شرير ولكنه جميل جمالا شعرياً لا يقل عن طلاحه وشره .

وفي هذا المعنى يقول جوتة : قالت لي سيدة يوماً : إنك أسففت في كتابك «ميول مختارة» فأغريت بالطلاح ولا أنصح زوجة صبية أن تقرأه ، قال جوتة : لقد همني همها فأطرقت أفكر في أمرها حتى انتهيت إلى هذا الرد : آسف ياسيدتي ، ولكن الكتاب أجمل ماخط قلمي .

وقد كان معظم قدماء الإغريق والرومان يلقي على عاتق الشاعر رسالة أخلاقية في الحض على الفضيلة والتحذير من الرذيلة ، فلما كان القرن الثامن عشر فصل متطرفو الإبداعية الشعر عن الأخلاق كما فعل جمهرة نقاد العرب ومنهم الجرجاني والثعالبي والآمدي وغيرهم .

٢ — يتجاوز الجمال في الشعر التحديد والوضوح . قال بشار :

إن في بردي جسماً ناحلاً ... لو توكأت عليه لانهدم

وقال ابن الرومي :

أنا من دق واستدق فما يشـ ... ـغل أرضاً ولا يسد فضاء

وقال المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فالشعراء الثلاثة قصدوا إلى معنى واحد هو شدة النحول ، فلو قال قائلهم : إني ضعيف ضعفاً شديداً ؛ أي إنه عبر عن فكرته تعبيراً مباشراً فيه التحديد والوضوح لما كان قوله شعراً لخلو الفكرة من الجمال .

وأغلب مايكون هذا الجمال في جو الوصف وأثر اللحن ، مما لايرى فيه القارئ إلا خيالات صور ولا يسمع منه السامع إلا نغمات ألحان توفر له جمالا يحدث اللذة الفنية دون أن يحاول تتميم القصيدة أو أن يسعى إلى تكميل اللحن (الدور) ودون أن تتولد في نفسه حاجة إلى تحديد هذا الشعر وتوضيح هذا اللحن ، وليست الحال كذلك في العلم، فصاحبه مضطر إلى فهمه كله وإدراكه جميعه أولا حتى يتلذذ به .

وقد تنبه الشعراء إلى هذا الجمال الشعري فطووا قصائدهم على الأسرار والأحلام والرؤى والنادر من الطبيعة والإنسان مما لاتحديد له ولا وضوح فيه ، كالشعاع والنسيم

والندى والزهر ، فإنها لا تقل جمالا عن الشمس والريح والمطر والشجر ، وما ضعف جمال الطيور التي لا ترى إلا نادراً والطيور التي لا ترى أبداً عن الدجاج والأوز العامرة بها الحظائر .

وكلما امتد الزمان واختلف المكان ضاع بينهما التحديد والوضوح فأفاد منهما الشعراء لابتداع جمال شعري ، ومرد ذلك إلى أمرين :

أولهما : انتزاع المادة والإبقاء على المعنى ، وثانيهما : عمل المخيلة فما تبقى إذ لا يقوى الشعراء على تمثل الماضي والمستقبل تمثلا منفرداً مستقلا ، بل يضيفون إليهما ما يعرفونه من أمرهما ومالا يعرفونه فيمزجونه بأجمل مافي نفوسهم بحنين إلى الماضي وبأمل في المستقبل مما يخلف عالماً متعدد العواطف مختلف المعاني خصب الجمال ، فإذا عبّر عنه شاعر كان في بعض أبياته جمال أكثر مما قصد إليه أو قاله أوظن أنه قاله .

٣ ــ وما الجمال الذي مر بنا كل ثروة الشاعر ، فإنه يبدع الجمال الشعري من المهمل والقبيح والتافه . قال شاعر في ثوب خلق :

ولي ثيابٌ رثاث لست أغسلها   أخاف أعصرها تجري مع الماء

وقال ابن الرومي في أحدب :

قصرت أخادعه وغار قذاله   فكأنه مترقب أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة   وأحس ثانية لها فتجمعا

وقال ميخائيل نعيمة في ورقة خريف :

تناثري تناثري   يا بهجة النظر
يا أرغن الليل ويا   قيثارة السحر

فشعراؤنا الثلاثة أبدعوا جمالا شعرياً من عناصر أبعد ما تكون عن الجمال ، فهي من المهمل والقبيح والتافه في الثوب الخلق والأحدب وورقة الخريف عند ما انتزعوا منها مادتها الثخينة ونقوها من مشوهاتها القبيحة وأعطوها قيمة لم تكن لها فانتبهنا إليها وأعجبنا بها ولذت لنا ؛ أي إنها ولدت فينا اللذة الفنية التي يبعث الجمال عليها .

وهذا الجمال يفتش عنه الشاعر بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان فينتقي من الحجر بريقه ومن الوردة بهاءها ومن دودة القز حريرها ومن الفم الكبير ابتسامته العذبة ، ثم يجمل هذا الجمال فيضع للابتسامة لمس الحرير في شفتيها وحمرة الوردة عليها وبريق الحجر الكريم عند إشراقها .

قال طرفة في حسناء :

وتبسم عن ألمى كأن منوراً تخلل حر الرمل دعص له ندي

فوكد الشاعر الابتسامة العذبة الرطبة الجميلة ، لا يعبأ من بعدها بالأسنان إذا كانت نخرة ولا باللسان إذا كان ألثغ . وهكذا لاح الفرق بين غاية الطبيعة في النفع وغاية الفن في الجمال .

وقال ابن خفاجة في زهرة :

ومائسة تزهي وقد خلع الحيا عليها حلى حمراً وأردية خضرا

يذوب لها ريق الغمائم فضة ويسكن في أعطافها ذهباً نضرا

فقد فتش الشاعر عن الجمال فرآه في الأحمر والأخضر من الزهرة فانتقاه ، ثم جمله بما أضفاه عليه من جمالات طبيعية كالغمام والفضة والذهب ، وما زينه به من جمالات إنسانية كالزهو والحياء والريق ، وماجمعها فيه من ألفاظ شعرية وموسيقى الوزن والقافية، ولكل هذه الجمالات بالجمال الأول صلة ، فزاده جمالا على جمال . وما يقال عن الشعر يقال عن الرسم ، فرفائيل عندما التقى في أحد شوارع روما بفلاحة نبيلة الأمارات نخور بتكوير جسدها ، أثار منظرها في نفسه لذة الجمال ، فعند ما رسمها نزع ما عليها من مبتذل وانتقى منها أجمل ما فيها ثم أضفى عليها ما في نفسه من جمال ، فخرجت من بين يديه آية من آياته الخالدات .

فإذا كان من طبيعة النفس أن تسر بمشاهدة ماسبق لها مشاهدته أو تخيله أو توقعه مقروناً باللذة فسمته جميلا ، فكم تكون لذتها عظيمة إذ ترى الجمال على أحسن وجه وأتمه ما دام الفن يحوي جميع الخصائص التي توجد في أشباه الشيء أو تحتمل أن توجد فيه ، وكم تكون لذتها عظيمة إذ تجد هذا الجمال من الجماد والنبات والحيوان والإنسان لايذهب بذهابها ، بل يخلده الشعر فتنقله الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة متعة للناس حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . .

نجيب العقيقي

ابتهال

لعمرو بن أحمر الباهلي ✡

إليكَ إلٰهَ الحق أرفع رغبتي ... عياذاً وخوفاً أن تُطيل ضَمانياَ

فإنْ كان بُرْءاً فاجْعَلِ البُرءَ نعمةً ... وإنْ كان فَيْضاً فاقْضِ ما أنت قاضياَ

لقاؤكَ خيرٌ من ضَمانٍ وفتْنَةٍ ... وقد عِشْتُ أياماً وعِشْتُ لياليَا

أُرَجِّي شباباً مُطْرَهِمّاً وصِحّةً ... وكيف رجاءُ المرءِ ما ليس لاقيَا

وكيف وقد جرَّبْتُ تسعينَ حِجَّةً ... وضَمَّ فؤادي نَوْطَةٌ هِيَ ماهيَا

وفي كل يومٍ يَدْعُوان أطِبَّةً ... إليّ ، وما يُجْدُونَ إلاّ الهَوَاهِيَا

فإنْ تَحْسِمَا عِرْقاً من الداءِ تَتْرُكا ... إلى جَنْبِهِ عِرْقاً من الداء ساقِياَ

فلا تحرقا جلدي ، سواءٌ عليكما ... أَدَاوَيْتُمَا العَصْرَيْنِ أم لا تُداوِيَا

شَرِبْتُ الشُّكاعَى والتَدَدْتُ أَلِدَّةً ... وأَقْبَلْتُ أفْوَاهَ العُرُوقِ المَكاوِيَا

شَرِبْنَا وداوَيْنا ، وما كان ضَرَّنَا ... إذا اللهُ حَمَّ القَدْرَ أَن لا تُدَاوِيَا

(✡) عمرو بن أحمر الباهلي جاهلي أدرك الاسلام ، عمر تسعين سنة وسقي بطنه فمات في عهد عثمان . شاعر فصيح كان يتقدم شعراء أهل زمانه . وهو صحيح الكلام كثير الغريب . الضمان : ما يصيب من الزمانة أو البلاء أو الكسر أو نحو ذلك . الفيض : الموت . المطرهم : الشباب المعتدل التام . النوطة : ورم في الصدر . الأطبة : جمع قلة لطبيب . الهواهي : التخاليط والأباطيل . الشكاعى : نبات يتداوون به : اللد : إيجار الدواء في أحد شدقي المريض . أقبل المكواة الداء : جعلها قبالته . القدر ، بسكون الدال : هو القدر بفتحها . حمه : قضاه وقدره .



اللوحة الرابعة

كتابة زخرفية على الصفحة الأولى من إنجيل مخطوط نسخ بدمشق سنة ١٣٣٤ ميلادية وهو محفوظ في المتحف القبطي بالقاهرة .

العصفور الصّغير

مهداة إلى أنطون بك الجميّل

للأستاذ محمد الأسمر

وناشئ من الطيو ر، لاح ما بين الشَّجَرْ
منتقلٌ وأُمُّه وراءَهُ على الأَثَرْ
مضطربٌ في طيرهِ مرتجفٌ إذا استقرْ
مسقسقٌ كالطفلِ يه لو ما وعى من السُّوَرْ
كأنَّهُ في طَيْرِهِ شرارةٌ من الشَّرَرْ
كأنَّهُ من ضعفِهِ يطيرُ بعد ما سَكِرْ

* * *

يا ناشئ الأطيارِ وُقِّيتَ من الدهرِ الغِيَرْ
ومن شرارِ الطيرِ ما زاحمَ يوماً فنقَرْ
ومن أليفِ الوكرِ ما ساء العشيرَ أو غدَرْ
ولا وقعتَ في يد ال أطفالِ أيامَ الصِغَرْ
هُمُ العفاريتُ النفا ريتُ شياطينُ البَشَرْ
وهُمْ وإن كانوا الأزا هيرَ شرارٌ يستعِرْ
النّازعو ريش الطيو رِ الناتفو شعر الهِرَرْ
العابثون بالنبا لِ الواخزون بالإبَرْ
الصائحون الصاخبو ن اللاعبون بالأُكَرْ

كم أيقظوا الآباء بعـــد الكدّ أو طولِ السَّهَرْ

وشرّدوا النوم من الـ أجفانِ ظهراً أو سَحَرْ

وحطّموا ما كان في الـــدّار سليماً فانكسرْ

وأهرقوا ما أهرقوا من حِبْرِهِمْ فوق الحِبَرْ

وأتلفوا ما أتلفوا من الثمـين المدَّخَرْ

أفسدُ من جرذانِ بـــدّالٍ إذا الليلُ اعتكَرْ

لا السوسُ يَفْري فَرْيَهُمْ ولا الجرادُ المنتشِرْ

الفاعلونَ الشرَّ لا يدرون ما خيرٌ وشَرْ

والنائمو الأجفانِ عَـــمّا ساء في الدنيا وسَرْ

أخطاؤهُمْ منسيّةٌ وكلُّ ذنبٍ مُغتفَرْ

وهُمْ على ما قد ذكرْ ناهُ وأشياء أُخَرْ

قلوبُنا أمامَنا والسمعُ منّا والبصَرْ

* * *

يا ناشئ الأطيارِ عِشْ بين الرياضِ والنَّهَرْ

الحبُّ والماء وما ترجوه من كل الثَّمَرْ

فاسعدْ بهذا الملكِ واهـــبطْ حيثما شئتَ وطِرْ

وامرحْ وداعبْ ما ترا هُ من أفانينِ الزَّهَرْ

واشكرْ على النُّعمَى فإنَّ الله يجزي من شَكَرْ

محمد الأسمر

حطم الذكريات

للأستاذ ميشال أبي شهلا بيروت

يا لماضيكَ لو ذكرتَ الماضي أنتَ لولاهُ وردةٌ في الرياضِ
حدثوني عنه غنيًّا بألوا ن الهوى والوصالِ والإعراضِ
مُثْقلاً بالشّقاء واللهو واللـذّاتِ يمشي بجانحٍ منهاضِ
وليالي الآثام حول صباك الـ غضِّ عرسُ العطاشِ حول الحياضِ
صدق القائلون : إنّ غرامي زلّ في كبوةٍ بلا إنهاضِ
قد حسبتُ الهيام فيك نعيماً من ربيعٍ وطيّباتٍ غضاضِ
وهناءً يعالجُ العمر حتى نتفانى في غَمْرهِ الفيّاضِ
ما حسبتُ الغرامَ يُشقي فيُمسي مرضاً قاتلاً من الأمراض
بئس ماضيكَ يا حبيبي وما جـرَّرْتَ من هون ذيلهِ الفضفاضِ
بئس ما فيكَ من شروقِ جبينٍ واخضرارٍ في العين كالسيف ماضِ
بئس ما فيكَ من حياءٍ نديٍّ واحتشامٍ مدلّلٍ وانقباضِ
بئس ما فيكَ من غضاضةِ وجهٍ أزهرِ اللون دائم الإيماضِ
لكَ في الحبِّ شهوةُ الداء في قلـ ـبٍ أثيمٍ مدرّبٍ مرتاضِ
ما عرفتَ الوفاءَ يوماً ولا كنـ ـتَ حبيباً منزّهَ الأغراضِ
أفسدوا فيكَ كل حسٍّ نبيلٍ وأصابوكَ بالنفوسِ المِراضِ
حطّمِ الذكريات إن عليها طابعاً من خضابهم غير ناضِ

ذلك الإثمُ لن يكفِّر بالدمـ ـع فدعه يجفّ تحت التغاضي
أنا راضٍ به على الرغم مني أُترى أنت يا حبيـبيَ راضي
لم يَرُعْني ماضيكَ لكن شجاني أن أشيد الهوى على أنقاضِ

ميشال ابو شهلا

العربية

سطعتْ بأفقِ العُرْبِ شمسُ بيانِها ورنتْ إلينا من ذرى قحطانِها
غمرتْ أشعّتها الأباطح والرّبى وسرتْ إلى المأهولِ من بلدانِها
لغةٌ وإن قدُمَ الزمانُ فإنها ريّاً الشبابِ تميسُ في ريعانِها
ملأتْ شواردها البلاد فرجّعتْ آفاقُها طرباً صدى ركبانِها
وجرتْ على لهواتِهم فتسابقوا فيها وكان الوحيُ خيلَ رهانِها
وقفوا بها فوق الطلولِ وساءلوا تلك الطلولَ الخُرْسَ عن غزلانِها
كانتْ لهم أمضى السّلاحِ فجالدوا بحسامِها وتغلّبوا بسنانِها
طابتْ أصولاً واستطالتْ أفرعاً وتوشّحتْ بالخلدِ في قرآنِها
وسبتْ بلاغتها النفوسَ فشيّدَتْ درجاتِ عزّتِها على سلطانِها
إنّ الشعوبَ هي اللغاتُ ، حياتُها بحياتِها والموتُ في خذلانِها

⁂

جُمعتْ بها سُوَرُ الفنونِ ولم يضقْ عن فنّ أهلِها فسيحُ كيانِها
من ناثرٍ دررَ البيان وشاعرٍ نَظَمَ القلائدَ من فريدِ جمانِها

من واصفٍ بنتَ الدّنانِ بها وقد ... دَرَجَ الزمانُ على عتيقِ دنانِها

من راسمٍ صُوَرَ القصورِ وما بها ... من فتنةٍ بنقوشِها وجنانِها

من منشدٍ غنّى بها فترنّحتْ ... مهجٌ سكرنَ على طلا ألحانِها

من جهْبذٍ متضلّعٍ ومؤرّخٍ ... متبحّرٍ ومحدّثٍ بلسانِها

من شارعٍ متفقّهٍ أو راصدٍ ... فلكاً ومن هادٍ إلى أديانِها

من ماهرٍ في الطبِّ أو من مِدْرهٍ ... لَسِنٍ يذودُ الضيمَ عن أوطانِها

من واضعٍ في الجبرِ أسَّ بنائهِ ... أو ناطقٍ بالعدلِ في ميزانِها

هذي هي الفصحى فهل هي قصَّرَتْ ... عن غايةٍ فنلجَّ في نقصانِها

إن الكنوزَ هي الدفائنُ لا تُرى ... إلاّ على التنقيبِ في جدرانِها.

أئذا ألمّتْ علّةٌ بعزيزةٍ ... يوماً نعيناها إلى جيرانِها

ماذا على الأبناءِ لو هم خففوا ... من يأسهم وسعوا لرفعةِ شانِها

هي هجعةٌ وتهبُّ تسبقُ غيرها ... فيما استجدَّ من اختراعِ زمانِها

أصناعةُ التجديدِ في التقطيعِ من ... أوصالها والنَّيْلِ من أركانِها

إن الجديدَ جديدُ معنى مُفْرَغٍ ... في قالبٍ يُرضي صحيحَ بيانِها

عادل الغضبان



ثابت بن قرة والعرب

قال أبو حيّان التوحيدي : حدثنا أبو سعيد السيرافي ، وهمّك من رجل ، وناهيك من عالم ، وشرعك من صدوق ، قال : حدثنا جماعة من الصابئين الكتّاب : أن ثابت بن قرة قال : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس ، فإنه :

عُقِمَ النساءُ فلا يلدْنَ شبيهه   إنّ النساء بمثله عُقْمُ

فقيل له : احص لنا هؤلاء الثلاثة ، قال : « أولهم عمر بن الخطاب ، في سياسته ويقظته ، وحذره وتحفظه ، ودينه وتقيته ، وجزالته وبذالته ، وصرامته وشهامته ، وقيامه في صغير أمره وكبيره بنفسه ، مع قريحة صافية ، وعقل وافر ، ولسان عضب ، وقلب شديد ، وطوية مأمونة ، وعزيمة مأمومة ، وصدر منشرح ، وبال منفسح ، وبديهة نضوح ، وروية لقوح ، وسر طاهر ، وتوفيق حاضر ، ورأي مصيب ، وأمر عجيب ، وشأن غريب . دعم الدين وشيد بنيانه ، وأحكم أساسه ورفع أركانه ، وأوضح حجته وأنار برهانه . ملك في زي مسكين ، ما جنح في أمر إلى ونىً ، ولا غض طرفه على خناً . ظهارته كالبطانة ، وبطانته كالظهارة . جرح وأسا ، ولان وقسا ، ومنع وأعطى ، واستخذى وسطا . كل ذلك في الله ولله . لقد كان من نوادر الرجال .

والثاني الحسن بن أبي الحسن البصري، فلقد كان من دراري النجوم علماً وتقوى، وزهداً وورعاً ، وعفة ورقة ، وتألهاً وتنزهاً ، وفقهاً ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة . مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانياً ، لا قريباً ولا مدانياً . كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته في وزن سريرته ، عاش سبعين سنة لم يقرف بمقالة شنعاء ، ولم يزنّ بريبة ولا فحشاء . سليم الدين ، نقي الأديم ، محروس الحريم ، يجمع مجلسه ضروب الناس ، وأصناف اللباس ؛ لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه . هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع الحلال والحرام، وهذا يتبع في كلامه العربية ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكي الفتيا ، وهذا يتعلم

الحكم والقضاء ، وهـذا يسمع الموعظة . وهو جميع هذا كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالـكلام الفصل ، واللفظ الجزل، والصدر الرحب ، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلانٍ وفلانٍ ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى ، لا تثنيه لائمة في الله ، ولا تذهله رائحة عن الله ، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الـكلام ، وابن أبي إسحق صاحب النحو ، وفرقد السبخي صاحب الدقائق ، واشباه هؤلاء ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ، ومن يجري مجراه ؟ !

والثالث أبو عثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين . إن تكلم حكى سحبان البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدال ، وإن جدَّ خرج في مسك عامر بن عبد قيس ، وإن هزل زاد على مزيد . حبيب القلوب ، ومزاج الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب . كتبه رياضٌ زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له متعرض إلا قدم له التواضع استبقاءً . الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه . جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم . طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به . لقد أوتي الحـكمة وفصل الخطاب » .

⁂

هذا قول ثابت ، وهو قول صابيء لا يرى للاسلام حرمة ، ولا للمسلمين حقاً ، ولا يوجب لأحد منهم ذماماً . قد انتقد هذا الانتقاد ، ونظر هذا النظر ، وحكم هذا الحكم ، وأبصر الحق بعين لا غشاوة عليها من الهول . ونفس لا لطخ بها من التقليد ، وعقل ما تحيّـل بالعصبية . ولسنا نجهل مع ذلك فضل غير هؤلاء من السلف الطاهر ، والخلف الصالح . ولـكنا عجبنا فضل عجب من رجل ليس منا ، ولا من أهل ملتنا ولغتنا ، ولعله ما خبر عمر بن الخطاب كل الخبرة ، ولا استوعب كل ما للحسن من المنقبة ، ولا وقف على جميع ما لأبي عثمان من البيان والحكمة ، يقول هذا القول ، ويتعجب هذا العجب ، ويحسد أمتنا بهم هذا الحسد ، ويختم كلامه بأبي عثمان ، ويصفه بما يأبي الطاعن عليه أن يكون له شيء منه .

حَديث

بين فتاتين : مخطوبةٍ تحتضر ، وشقيقةٍ تتألم .

للشاعر البلجيكي موريس ماترلنك

وماذا أقول له لو عاد يوماً ؟

— قولي : انتظرته حتى قضى عليّ الانتظار . . .

فإذا ألحف في السؤال وما عرفني ؟

— حدّثيه حديث الأخت الشقيقة ، فقد يكون المعذَّبَ المتألم . . .

وإذا سألني عن مكانك ، فماذا أجيب ؟

— أعطيه خاتمي الذهبي ، ولا تحيري جواباً . . .

وإذا قال : ما بال خدرك قفراً موحشاً ؟

— أريه أنْ قد فُتح البابُ وانطفأ السراج . . .

وإذا استوضحني : كيف جدت بالنَفَس الأخير ؟

— قولي له : إني تبسمت مخافة أن يبكي . . . *

* (الكتاب) هذا الختام البديع الذي يختم به الشاعر البلجيكي العصري قصيدته الجميلة قد سبقه إليه الشاعر العربي حيث يقول :

يا عبلَ لا أخشى الحمام وإنَّما أخشى على عينيك وقت بكاكِ

مصير الإنسان

للكاتب الإنجليزي هـ . ج . ولز
عرض وتلخيص بقلم الأستاذ عبد الحميد يونس

يسير الكاتب الإنجليزي هـ . ج . ولز في تأليفه أسرع مما يسير الموكب الإنساني ، حتى أصبح رائداً من رواده ودليلاً من أدلائه . وتمتاز نظرته بالشمول ، فالحياة عنده وحده لا تتجزأ وإن تعددت صورها وتنوعت أشكالها ، والإنسان جنس كسائر الأجناس وإن تقدم عليها جميعاً ، حتى أصبح تاج الخليقة كما يقولون . ويمتاز أسلوبه ، حتى في قصصه الخيالي ، بهذه البراعة المنقطعة النظير في المزاوجة بين مقتضيات العلم والفن . وهو على الرغم من بلوغه ختام العقد الثامن من عمره ، لا يزال عقله على نشاطه في جميع الحقائق والموازنة بينها واستخلاص النتائج ، حتى إذا رأى تزعزع الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتحفز الدول العظمى للحرب أخرج في أغسطس سنة ١٩٣٩ كتابه المشهور « مصير الإنسان » ، ومن عجب أن الحرب العالمية الثانية قد حث شرارتها الأولى في أوائل سبتمبر من العام نفسه .

ولقد اختار لكتابه هذا العنوان « مصير الإنسان » واستعمل اللفظ اللاتيني Homo Sapiens للدلالة على الإنسان باعتباره جنساً من هذه الأجناس الحية في عالمي النبات والحيوان ، يخضع لما تخضع له من قواعد وقوانين ، وإن كانت صفته التي تميزه منها جميعاً صفة العقل Sapientia . ونحن نعلم أن الكائنات الحية إذا كانت منسجمة مع بيئتها احتفظت بصورها وخصائصها عصراً بعد عصر ، ولكن هذا من الندرة بمكان ؛ لأن البيئة قلما تجمد على حالها ، ومن ثم تسلحت الحياة بالقدرة على التكيّف وفقاً لهذه البيئة المتغيرة أبداً ، وهي في هذا التكيف إما أن تعدل من صور أحيائها وإما أن تغير في هذه الصور ، وفقاً لما يصيب البيئة من تحول أو تغير . ومن البديهي أن هذا النزوع إلى الانسجام مع البيئة يقتضي بعض الضحايا ممن لا تتساوق خطواتهم في التحول وخطوات البيئة التي أريد لهم أن يعيشوا فيها . وتاريخ الحياة بصفة عامة في الماضي كما يعرف كل امرئ هو تاريخ الخيبة والهزيمة أكثر منه تاريخ التوفيق في الحصول على هذه الملاءمة بين الحي والبيئة . فقد ظهرت جماعات كبيرة من الأحياء وعاشت ثم أخلت مكانها لجماعات أخرى أقدر منها على التكيّف وأمرن . وقد كشف لنا العلم عن تلك

الزواحف العظيمة التي ظهرت ثم اختفت ، وعن تلك اللبونات المهولة التي لم يبق منها سوى هياكلها الدوارس ، وما من شك اليوم في أنها انقرضت ، لأنها على عظم جثتها وضخامة هياكلها لم تستطع مقاومة التغير البيئي ، بله المرونة على التكيّف والقدرة على التحول ، مما يجعل خطواتها منسجمة مع التطورات التي تصيب بيئاتها . والجنس الإنساني واحد من هذه المجموعة العظيمة التي نستطيع أن نسميها في شيء من التعميم « الحيوان المخي » وهي اللبونات التي غلبت على الارض في حقبة من أحقاب التاريخ الجيولوجي ، ومن ثم أصبحت هذه الأنواع من الحيوان قادرة على الملاءمة بين حياتها وبين البيئات التي تعيش فيها بواسطة هذا المخ الذي يستطيع أن يختزن التجارب السابقة ويتنكب عما مرَّ به من أخطاء . بل إن بعض هذه الأنواع يمكن أن تدرب في حداثتها على الحياة في بيئات أخص من بيئاتها الطبيعية ، وهذا ظاهر في اللبونات والطيور ، ونحن نستغله في حياتنا كل يوم ، عندما ندرب كلب الصيد أو الحراسة أو الحمام الزاجل . وإذن فالتاريخ الإنساني عبارة عن باب صغير من أبواب التاريخ الطبيعي ، والحوادث الإنسانية لا يمكن أن تفهم على وجهها الصحيح إلا إذا أخضعت للمنهج العلمي الذي يخضع له علم البيئة ، ومن العبث أن نتتبع هذه الخطوات الجزئية ، في قيام ملك أو نشوب حرب ، أو زوال دولة مما تكتظ به كتب التاريخ ، كما أننا في تقسيم هذا التاريخ على الأعوام والقرون إنما نحصر تجاريب الحياة في أضيق دوائرها ، ونفقدها ما ينبغي لها من التناسب . والأصل في التاريخ أن يدرس التغير في الزمان ، كما أن الجغرافيا تدرسه في المكان . ونحن إذا نظرنا إلى صور الحياة القديمة نجد أن النوع الواحد منها لا تكاد تتفاوت أفراده ، ونجد أنها كانت تعيش فيما يمكن أن نسميه بالحاضر الأبدي الذي لا تغيير فيه ولا تعديل ، ولكن الإنسان يختلف عن الأنواع القريبة منه في سلم التطور ، تتفاوت مجموعاته بل تتفاوت أسره وأفراده في السلوك .

وارتقى المخّ البشري وأصبح الإنسان قادراً على التفاهم بواسطة الكلام والإشارة ، فربط ذلك بين أفراده ، وجعل تجاريبه تنتقل في الزمان والمكان جميعاً ، مما أكسبه هذا التفوق على سائر الكائنات ، وجعله أقدر على الملاءمة بينه وبين البيئة العامة والخاصة على السواء . . . وهذه هي الوظيفة الأصلية للتعليم .

وسار العقل البشري قدماً حتى بلغ شأواً عظيماً منذ نهاية القرن الماضي إلى يومنا هذا ، فتقدم العلم خطوات سريعة هي بالوثبات أشبه ، وأخذت المخترعات يقفو بعضها بعضاً ، حتى تبلبلت الأوضاع القديمة ، وتغيرت المقاييس ، وزالت الحواجز بين الجماعات

البشرية ، وألغيت المسافات ، وغيّرت هذه المخترعات من البيئة التي يعيش الإنسان فيها ، فإذا لم يعمل على الملاءمة بينه وبين هذه البيئة المتقلبة أبداً فإن الجنس البشري سيواجه أزمة من أشدّ الأزمات التي اعترضته في تاريخه كله .

وكانت الحرب في الماضي ضرورة من ضرورات الحياة ، لها وظيفة بيولوجية واضحة الأهداف . فنحن إذا نظرنا إلى جماعات الزنوج التي تعيش في أواسط أفريقيا مثلاً فإننا نجد جماعاتها كلما تكاثرت عدداً أمسك بعضها بخناق بعض إبادة للعدد الزائد من الشبان . . ولكن المخترعات الحديثة خرجت بالحرب عن وظيفتها الأولى ، لأنها أصبحت لا تفرق بين الشيوخ والشباب ، ولا بين الذكور والإناث ، والأزمة التي يواجهها العالم اليوم ، والتي تدفع بالإنسانية إلى الحرب ما بقيت ، هي هذا العدد الزائد من الشباب الفارغ اليد من العمل ، والعاطل من المعرفة الحقيقية . . هؤلاء الشبان يدفعون الإنسانية كلها إلى الحرب ، وليسوا وحدهم وقودها كما كانوا في الماضي . وهم فريسة الطغاة ، باسمهم يحكمون ، وباسمهم يقودون أنفسهم وأممهم إلى الخراب ، بل وهم الذين يهيئون الفرصة لقيام هؤلاء الطغاة المغامرين في كثير من الأحيان .

ونحن نسمع اليوم أن الناس يتقاتلون لتحقيق مثل أعلى هو « الديمقراطية » فمن الخير أن نتساءل إذن : ما هي هذه الديمقراطية ؟ . .

إن الناس يختلفون في تعريفها ، وكثير منهم من يلوك كلمة « الحرية » ويقول بعضهم : إنها حق الفرد والجماعة في الحكم . . والبعض الآخر يجعل التصويت في الانتخاب رمز الديمقراطية ، ولكن الجميع يتفقون على أنها قيام الدولة بتحقيق رغبات الفرد العادي ورفاهيته . والشائع في هذه التعريفات هو الشيء السلبي ، فالديمقراطية عند هؤلاء حركة مضادة ، الغاية منها حماية الفرد من الدولة ، فهي مناهضة للفاشية والنازية والشيوعية والحرب جميعاً . . . وما دامت الحرية لا تقوم في عالم من التضييق فهم ينكرون قيام الدولة بالتدخل في شؤون الفرد العادي إلا فيما يتصل بالأمن العام ، ولا يكون هذا إلا بالموافقة العامة .

ونحن نعلم أنه لا توجد حرية مطلقة . . . فالحرية المطلقة هي الفوضى التي لا تكون إلا عند الهمج في الغابات والأدغال ، والحرية كلها في أي جماعة من الجماعات البشرية شرطية ، أو بتعبير آخر : إنها عمل من أعمال التوفيق بين الأفراد يقوم به القاضي مثلا .

وليس من شك في أن الحياة الإنسانية بعد هذه المخترعات تقوم على أسس قوانين أو سنن لا تنسجم مع الانقلابات التي أحدثتها تلك المخترعات ، حتى كانت تصبح هذه

القواعد عقبة في سبيل التقدم البشري ، بعد أن كانت تعمل على تنظيم خطاه في مدارج التقدم والارتقاء . فلم يعد هناك طريقة من طرائق الحياة تتناسب والبيئة الجديدة ، بل إن قواعد الأخلاق قد أصبحت متخلفة غاية التخلف ، والوطنية والدين والعنصرية وما إلى هذا كله عبء من أعباء الجنس البشري لا يستطيع النهوض به في ظروفه الحاضرة .

ولا نجاة للانسان من الكارثة العالمية ما دامت عوامل التخريب الثلاثة ، وهي : الوطنية والدين ، وآلات التدمير والحرب ، وهذا العدد المتزايد من الشباب العاطل ، يتفاعل بعضها مع بعض . والحرب إذا قدحت شراراتها استنفدت القوة، واستهلكت الزاد، وأتت على مفاخر المدنية التي شيدها الإنسان في زمن ليس بالقصير ، وهي خسارة على الغالب والمغلوب معاً . . وسينتج عنها أن تعيش الأمم في أجيال سقيمة ممعودة منهوكة الأعصاب قليلة الحظ من العلم والتربية ، وقد تنتكس الحرب ببعض هذه الأجيال فتقربها من الضواري وتبعدها عن المثل العليا . وهذه الحرب إذا انتهت بإعلان هدنة أو توقيع صلح فسوف تمثل من جديد المأساة التي طالما مثلت، وهي إ كراه المغلوب على تقديم الجزية في صورة التعويض . وسوف يعجزون عن دفعها ما في ذلك شك، وسوف يستعد أولئك وهؤلاء للحرب من جديد ، فيستهدف النوع البشري لتقويض حضارته وإبادة نوعه وانتكاسه .

ومن واجب هؤلاء الساسة أن يصطنعوا أساليب العلماء ، وأن يعملوا على الملاءمة بين الإنسان وبين هذه البيئة التي لا يقف تغيرها عند حد بفضل هذه المخترعات التي تعمل للخير والشر جميعاً . والناس يتعلمون وحدهم أو على مدرس محترف ويقرؤون ويفكرون في شغف ليس كمثله شغف ، ولكن زادهم العقلي لمَّا يخلُ من شوائب الدعايات الدينية والوطنية والحزبية ، وإن كانت الرقابة التي تفرضها دولة من الدول على آراء أبنائها قليلة الجدوى ، لأن الأفكار أصبحت تنتقل إليهم على أمواج الأثير من الخارج، فتلقح أفكارهم وتجعلهم يستطيعون أن يكونوا لأنفسهم رأيا يتفق وأمزجتهم، أيّا كانت درجته من الصواب أو الخطأ . وهذه المجموعات السياسية العظيمة التي تسيطر على العالم اليوم لا تزال أنظمتها بعيدة عن تحقيق الحرية الفردية في القول والفكر ، ففي بعضها تسيطر شركات الإذاعة والصحافة والأخبار على تنقل الآراء ، وتلونها باللون الذي تريد ، وفي بعضها تتغلب طبقة من الطبقات الاجتماعية على مرافق الحياة العامة كلها ، ولا تسمح لغيرها من الطبقات إلا بالآراء والأخبار التي تتفق ومصلحتها ، ويجلس على قمة الكيان السياسي للمجموعة الثالثة رجل واحد أو حفنة قليلة من الرجال ، تشتغل

بصياغة الآراء التي تتغذى بها الأجيال الناشئة . ولو أنهم أباحوا انتقال الأفكار والآراء إلى الرجل العادي دون رقابة ، لتقاربت عقليات الأمم وكادت تتحد أمزجتها ، ولكن هذا ليس في مصلحة أولئك الساسة المتخلفين .

والناس في حبهم للقوة يجنحون إلى القمع ويساعدون عليه . . وستمر الإنسانية بعهد من عهود الهمجية ، يخالف الهمجيات السالفة في قدرته على الإرهاب والتدمير والإتلاف ، ولا مخرج للانسانية منه إلا بنهضة عقلية أخرى ، فسينخفض مستوى الحياة وستنهك الصحة ، وستفتك الجراثيم بالأجسام ، وستجول قلوب الناس تطلب عالماً آخر خيراً من عالمهم وراء الكواكب ، وتنشأ طائفة من الأولياء والقديسين تعالج الأمر بالصلاة.

ترى .. هل « الإنسان العاقل » من الغفلة بحيث يتجاهل كل هذه الظروف ؟!

إنه في حاجة إلى أن ينقذ نفسه ، ولا يزال أمامه بريق من الأمل ، ولا يزال هناك شيء من حرية الرأي والقول والحركة والعمل ، وإلا فإنه سيفقد صوابه بعد خمسين أو مائة سنة ، من الخوف والقسوة والاستعباد وفقدان القدرة على الإدراك . ولا يصدق أحد أن الطبيعة ستمنح الإنسان أكثر مما منحت أسلافه من أنواع الحياة البائدة . ويخيل إلى مؤلف هذا الكتاب على الرغم مما هو عليه من تفاؤل ، أن الكون قد ضاق بالإنسان وبدأ يتجهم له ، وأنه يشقى كما يشقى كل كائن حي لا ملاءمة بينه وبين بيئته وأنه يسير في طريق الاضمحلال فالفناء . . .

فعلى الإنسان أن يستعيد ما بينه وبين بيئته المتحدة من الملاءمة ، وإلا هلك كهذه الزواحف المهولة واللبونات العظيمة ، التي غلبت على الأرض يوماً قبله ، ثم انقرضت وأصبحت أثراً بعد عين . .

عبد الحميد يونس
دائرة المعارف الإسلامية

النَقـد

مخزن الأسرار

للشاعر الفارسي نظامي الـكنجوي

ترجمه إلى الإنجليزية الأستاذ غلام حسين داراب

٢٥٤ صفحة من القطع الـكبير . أرثر بروبستين . لندن ١٩٤٥

نقد الدكتور عبد الوهاب عزام

١

أبو محمد نظام الدين إلياس بن يوسف المعروف بنظامي الـكنجوي ، شاعر من أئمة شعراء الفرس في القرن السادس الهجري ، وأحد أعلام الأدب الفارسي في عصوره جميعها . ولد في مدينة كنجة سنة ٥٣٥ ﻫ

وكنجة هذه التي ينسب إليها الشاعر مدينة في الإقليم الذي عرف قديماً باسم أرّانه ، وتسمى في الـكتب العربية جنزة . قال ياقوت :

« جنزة اسم أعظم مدينة بأرّانه . وهي بين شِروان وآذربيجان . وهي التي تسميها العامة كنجة . بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخاً . خرج منها جماعة من أهل العلم . . ويقول بعضهم في النسبة إليها جَنزوِيّ » .

وجنزة اليوم من المدن التابعة للروس . يسمونها إلزابت پول ☆ . وهي مركز إقليم مسمّى بهذا الاسم .

توفي والد نظامي وهو صغير ، فكفله أحد أقاربه . ونشأ في طلب العلم والأدب قويمَ الخلق ، مرضيّ السيرة ، وعاش تقياً زاهداً أبياً ، يدعوه ملوك عصره إلى صحبتهم فيأبي ، ويهدي إليهم مؤلفاته من بعيد . إلى أن توفي آخر القرن السادس ، على اختلاف الروايات في تاريخ وفاته .

☆ Elizavetpol

٢

وقد ذاع صيت نظامي وشاع ذكره في عصره والعصور التالية إلى يومنا هذا ، بخمس منظومات فارسية في القَصص الغرامي الصوفي ، ألقت إليه مقاليد الزعامة في هذا الفن بين شعراء الفرس أجمعين ، وجعلته المثل الأعلى لمن ينظم في هذا الموضوع من بعده ، حتى أولع كثير من الشعراء في بلاد الفرس والترك وفي الهند بأن ينظموا خمس منظومات على طريقة نظامي .

ففي اللغة الفارسية : خمسة الشيخ عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة ٨٩٨ هـ وخمسة خسرو الدهلوي المتوفى سنة ٧٢٠هـ ، وخمسة خواجو الكرماني من شعراء القرن الثامن .

وفي اللغة التركية الشرقية، لغة جغتاي ، خمسة الوزير عليشير نوائي المتوفى سنة ٩٠٦هـ

وفي اللغة التركية الغربية (العثمانية) بدأ هذه السنّة الشاعر سنان بن سليمان في عصر السلطان بايزيد . وتبعه شعراء على مرّ العصور ، منهم يحيي من شعراء عصر السلطان سليمان القانوني ، والعطائي المعروف باسم نوعي زاده المتوفى سنة ١٠٤٤ .

٣

المنظومات الخمس التي أشاعت صيت الشاعر ، وخلدت ذكره هي :

١ — مخزن الأسرار .

٢ — خسرو وشيرين .

٣ — ليلى والمجنون .

٤ — اسكندر نامه . وهي قسمان : شرف نامه وإقبال نامه .

٥ — هفت بيكَر (بهرام نامه) .

وقد توالى نظم هذه القصص من سنة ٥٦١ هـ إلى سنة ٥٩٥ . وتنافس أمراء العصر في التقرب إلى الشاعر الكبير والظفر بمدحه ، وتخليد أسمائهم في كتبه . فأهديت هذه المنظومات إلى أمراء آذربيجان وشروان والموصل . وكان أعظم الأمراء حفاوة بنظامي ، وأكثرهم نصيباً من مدائحه وكتبه أتابكة آذربيجان ، إلدِكز وذريته الذين تداولوا السلطان في آذربيجان ، مؤمّرين من قبل السلاجقة ومستقلين ، ما بين سنتي ٥٣١ و ٦٢٢هـ . وهم خمسة أمراء لم يدرك نظامي آخرهم ومدح الأربعة الأولين وأهدى إليهم بعض منظوماته . وهم إلدكز وابناه : محمد جهان بهلوان وقزل أرسلان ، وحفيده أبو بكر نصرة الدين .

الموصل

٤

مخزن الأسرار أول هذه المنظومات ختم نظمه سنة ٥٦١ ، ويقول بعض مؤرخي الأدب ، ومنهم الأستاذ براون : إن هذا الكتاب أهدي إلى إلدكز أتابك آذربيجان (٥٤١ — ٥٦٨ هـ) ولكنا نجد ذكر فخر الدين بهرامشاه بن داود صريحاً في مقدمة الكتاب . وبهرامشاه هذا أحد الأمراء من بني مكوجيك الذين تأمروا في جهات أرزنجان وكاخ (في ولاية أرضروم الحاضرة) . وكانت إمارته من ٥٦٣ إلى ٦٢٢هـ ، وهو يخالف المنظومات الأربع الأخرى ، هي قصص طويلة متصلة . وهو كتاب مواعظ ونصائح وأخلاق ورياضة صوفية ، تفصّلها قصص قصيرة ، كدأب شعراء الفرس الصوفية أصحاب المنظومات المطوّلة .

ومخزن الأسرار هذا يشبه منظومة لشاعر صوفي كبير هي حديقة الحقائق ، التي نظمها الشاعر الكبير مجد الدين سنائي الغزنوي المتوفى سنة ٥٧٦ .

وفي الكتاب ٢٢٦٢ بيتاً يتقسمها عشرون مقالة غير المقدمة والخاتمة ، وأثبت هنا فصول خمس مقالات متوالية لتكون مثالا مما يتضمنه الكتاب :

المقالة الأولى : في صفة الإنسان المخلص وترك الدنيا — قصة الملك البائس الذي غفر له.

المقالة الثانية : في العدل والإنصاف — قصة أنوشروان والوزير والبوم .

المقالة الثالثة : في حوادث العالم وتقلب الإنسان — قصة سليمان والزارع .

المقالة الرابعة : في رعاية الملك للرعية — قصة السلطان سنجر .

المقالة الخامسة : في عمر الإنسان واختلاف أحواله — قصة الشيخ ضارب اللبِن .

والمقالات كلها ترمي إلى مقاصد دينية وصوفية وخلقية واجتماعية .

٥

ترجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية لأول مرة ، الأستاذ غلام حسين داراب مدرس اللغة الفارسية بمدرسة اللغات الشرقية في لندرة .

وهو — جزاه الله خيراً — أحد أساتذتي في تلك المدرسة ، أحفظ له مودة ، وذكراً طيباً ، وأعترف بفضله .

ترجم الأستاذ مخزن الأسرار ترجمة منثورة ، وكتب مقدمة طويلة في تاريخ الشاعر وعصره ، استغرقت من الكتاب تسعين صفحة . وقد أحسن في استخراج طائفة من أخبار الشاعر وأحواله من منظوماته ، فهدى الباحثين في سيرة الشاعر وزاد كثيراً

من الأخبار الصحيحة إلى الأخبار القليلة المضطربة التي يرويها أصحاب التراجم .

وقد كتب المترجم فصولاً في أخبار السلاجقة وأتابكة آذربيجان ، والخلفاء العباسيين والفاطميين في عصر نظامي . وأحسبه قد زاد في هذه الفصول على حاجة قرّاء الكتاب ، وبَعُد قليلاً عن مجال البحث ، حين كتب هذه الأخبار فصولاً مستقلة لا يذكر فيها الشاعر وما يتصل بسيرته إلا عرضاً . ولو أنه مزج هذه الأخبار بعضها ببعض ، وساقها تأريخاً مجملاً لعصر نظامي ، وجعلها إيضاحاً لسيرته وسيرة من زعاه من الأمراء ، لكان في رأيي ، أقرب إلى النهج ، وأدنى إلى الإفادة .

ثم يؤخذ على الكتاب أيضاً خلوّه من تعليق يوضح الأسماء والحوادث التي تضمنها ، ويبين المغلق من العبارات والإشارات في نصوصه .

وأما الترجمة فسهلة واضحة تؤدي إلى القارئ مقاصد الشاعر بغير تكلف .

ولا ريب أن الأستاذ داراب قد أحسن إلى قراء الإنكليزية بهذه الترجمة القيمة ، وأحسن إلى الأدب الفارسي ، والشاعر نظامي خاصة ، بتعريفه إلى قراء الإنكليزية في العالمين القديم والحديث .

عبد الوهاب عزام

أبو حنيفة

تأليف الأستاذ عبد الحليم الجندي

٢٢٠ صفحة من القطع الكبير . دار سعد مصر . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ أحمد محمد شاكر

الأستاذ عبد الحليم الجندي كاتب قوي ممتاز ، ما في ذلك شك . لم يك معروفاً من قبل في عالم التأليف والكتابة ، أو لم أكن أنا أعرفه في ذلك على الأقل . فإن يكن كتابه هذا هو أول ما ألف يكن خير فاتحة يبدأ بها مؤلف إنتاجه العلمي ، ويكن دليلا على قوة مخبوءة تبدو ثم تَصَّاعد وتعلو حتى تصل إلى الغاية في الإفادة أو تكاد . وظني أن سيكون ذلك إن شاء الله . وأبو حنيفة « الإمام الأعظم » مفخرة من مفاخر الإسلام ، وعلم من أعلامه الكبار ، وثق به الناس والعلماء ، فاتبعه كثير منهم ، اجتهاداً من الأقدمين إلا قليلاً ، وتقليداً من المتأخرين إلا قليلاً . وهو جدير بما لقي في الأمة من قبول وإجلال .

وقد أحسن الأستاذ عبد الحليم إذ عني بدرس هذا الإمام العظيم ، دَرَس سيرته

وفقهه وأصوله التي يرجع إليها ، ثم أخرج لنا كتابا قيماً ، جديراً بالقراءة ، بل جديراً بالتقدير والعناية .

ولربما كانت كلمته في وصفه لكتابه ومقصده منه أصدقَ بيان :

« في هذا الكتاب صورة لاسيرة ، وليس فيه من التفاصيل قدر مافيه من ألوان ، حاولت أن أرسم بها شخصية الإمام الأعظم لأهل الإسلام » .

« وإذا كان من الرجال من يعتبر بذاته حادثاً ضخما في تاريخ البشرية تفوق آثاره حضارة كاملة ، أو كان الرجل الشجاع وحده جحفلاً لجباً ، فليس كهذا الإمام مصداق لهذا الكلام » .

« فإلى الجيل الذي يتلفت يمنة ويسرة يبحث عن الرجل الحرّ الشجاع ، هذا المثل العالي للحرية والشجاعة والكفاح » .

والكتاب فوق هذا درس لتاريخ التشريع الإسلامي وفقه الإسلام ، وبيان لما امتاز به التشريع الإسلامي من دقة وعدل واستقلال ، وأنه يساير كل نهضة ، ويصلح لكل أمة ، وأنه تشريع ثابت على الدهر ، لاتؤثر فيه أحداث الزمان ، إذ هو التشريع الذي يساير كل زمان .

فيقول المؤلف فيما يقول من ذلك (ص ٤٣) : « تلك شريعة أمية تتسع لجمهور الخلق في كل الأمم وكل الأعصر فهماً وتطبيقاً ، يفهمها الأميون ، كما يفهمها الأعلون من الخاصة ، لأنها فطرة الله التي فطر الناس عليها ، قوامها الصفاء والسهولة والصراحة . ففي حلبات البحث مضمار للأفذاذ والأفراد ، وللملوك أيضاً ، كل ميسر لماخلق له . فلا غرو أن يرقى إلى الأوج العليّ فيها أصحاب الحرف ، وأن يسود فيها الرجل بهمته ، لابمهنته ، في حضارة لحمتها وسداها الإخاء ، يحب المؤمن بها لأخيه المؤمن مايحبّ لنفسه ، والمؤمنون فيها كالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

« تلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التي نشهدها في الحضارة الإسلامية تصدر عن أصل عميق ، يبتدىء لك كلما وازنت تاريخ الفقه الإسلامي بتاريخ الفقه في سائر الأمم : فهنالك يصدر فقه العبادات من الصوامع والبيع ، وهنا يصدره رجل الدنيا . . . وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان ، وهنالك بين المعاملات والعبادات خلافات أي خلافات » .

ويقول أيضاً (ص ٢٠٨) : « فالفقه الإسلامي في المعاملات أو العبادات أعلى كنوز الحضارة الإسلامية مكانةً ، وأبعدها أثراً في الأمة جيلاً بعد جيل ، لاتصاله ،

بالقرآن والحديث في منابعه الأولى . ولئن كان للغة العربية وآدابها — وهي لغة القرآن — ذلك الشأن الجليل الذى تفاخر به كل اللغات ، إن للفقه منها مكان الصدارة » .

« فهو الذي مكن للحضارة الإسلامية في بقاع الهند والصين وتركيا وروسيا وأفريقيا وأوربا وآسيا ، وحيث لم تصمد اللغة العربية صمد الفقه الإسلامي وسيطرت مبادئه في نظام الأسرة والملكية والحرية في الرأي والعقيدة ، والأصول العامة للشريعة ».

« ولئن كان الإسلام غزا هذه الأمم بالسلاح ، لقد استقر فيها بالشريعة » .

« لقد غلب السلاجقة المسلمين في القرن الحادي عشر الميلادي ، ولكنهم أسلموا . وغلب المغول المسلمين في القرن الثالث عشر ، ولكنهم أسلموا أيضاً » .

« إن الإسلام ينتصر وإن هزم المسلمون » .

وقد ادعى ناس من الإفرنج ، ممن ملأ التعصب إهابهم ، أن التشريع الإسلامي في المعاملات يمت إلى التشريع الروماني بصلةٍ ، صلة تأثر الحديث بالقديم واقتباسه منه ، وشايعهم على ذلك بعض المقلدين منا ، الذين باعوا عقولهم وأسلموا نفوسهم لسادة القوة المادية ، واستدلوا بما ترجم المترجمون من علوم اليونان وغيرهم في الطب والفلسفة والموسيقى ونحو ذلك . فكان للمؤلف في الرد عليهم قول بليغ حازم موجز ، ينقض به حجتهم ، ويبرئ التشريع الإسلامي مما زعموا . قال في (ص ١١٤ — ١١٥) :

« ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم في عهد المنصور أو تولته أيدي الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ، إن الفقه الإسلامي كان له من أصالته ، ونظم شريعته ، ومميزاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وخصوبة تربته ، ووفرة منابعه ، ما فاق ألواح جوستنيان الاثنى عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت إلى ألواحهم أو شرائعهم أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقي الفقه في صفاء جوهره نقي الصفحة ، خالص الديباجة ، تجمعه العروة الوثقى في جملته وأجزائه بأصوله الجامعة في الكتاب الكريم وسنة الرسول » .

« زعم بعض المستشرقين أن هناك " آثاراً لا تنكر traces indéniables " من تأثير الفقه الروماني في الفقه الإسلامي . وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبي حنيفة خاصة ، والفقه عامة . وإذا كان لأبي حنيفة بصر بالفارسية ، أو كانت تحيط به ثقافة منحدرة من المحيط الجغرافي والاجتماعي الذي يتوارثه العراق عن فارس ، فإنه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات في حياته ، مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات . ولقد كان الفقه في حلقته ، وفي سائر الحلق بالمسجد الجامع ، إسلامياً

صراحا في منابعه وسواقيه ، لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشيء أجنبي ، أو عالج أثراً أجنبياً » .

« وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أواليونان عن طريق الشأم ، فلا أثر للفرس ولا للرومان في الشريعة . ولا يُسمع القول بوجود التشابه أو التأثرإلا بعد أن تقدّم الخصوصيات المتشابهة التي يستند إليها الزاعمون ، في الأصول والفروع ، وفي اتجاهات التشريع . وهو مالايسوقه إلينا القائلون بوجود هـذه الآثار " التي لاتنكر " ، كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتناقش موضوعا ، كما يقول رجال القانون » .

« وليس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة في مظاهر التفكير ، ليقال من جرائها بتشابه الفقه في الشرائع . فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشري توافق العقل ، وإذا تشابه العرف في البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات » .

« ومن المسلم به أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر إلا في عهد أبي جعفر ، أي بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبي حنيفة قد بلغت أوجها في مسجد الكوفة ، وكان أستاذها في أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاماً » .

«أما الشافعي فقد ترعرع بين الشأم والحجاز واليمن والمدينة ومكة ، حتى إذا انتقل إلى بغداد ومصر في خاتمة القرن ، لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التي ادعاها المستشرقون . والذين تتبعوه في دراساته ومقولاته يدركون كيف كانت كلها إسلامية خالصة » .

« فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة . وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة » .

والكتاب ، أو أكثره ، على هذا النهج القويم ، والنفس العالي الممتاز ، على أنه لايخلومن مواضع تؤخذ عليه ، ومواضع فيها نظر كثير ، قد لاتسلم له ، إذا محصت ونوقشت . وكنا نرجو أن يخلو من الأغلاط المطبعية الكثيرة . وسنسرد بعض مانأخذه عليه ، أو نخالفه فيه ، ونذكر بعض الأغلاط المطبعية الهامة ، ليكون ذلك موضع نظر المؤلف عند إعادة طبع الكتاب ، إن شاء الله .

ونرى في الكتاب معنىً عاماً يغلب عليه ، يرجع كله إلى الغلو في مدح الإمام وإكباره، وهو حقيق بالمدح والإكبار ، ولكن الباحث العلمي والمؤرخ المتوثق ، لايجاوز بالمدح حقائق التاريخ ، ولا يغلو في النظر إليها نظر الهوى والعصبية .

١ — فمن مثل ذلك أنه يصف أبا حنيفة (ص ٩) بأنه « الرجل الذي أعلن الحرية في كل مكان ، وفي كل زمان : في الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي التجارة وفي المِلْك وفي التصرفات، وفي حقوق النساء ، وفي حقوق الرعية . حرية وتسامح في كل شيء ، يسموان باسمه في معارج الخلود » . وهذا كلام عام لا يحسن أن يؤخذ على علاته ، فليس التسامح مطلق التسامح ، من صفات المدح ، ولا مما ينبغي أن يوصف به الأئمة الأعلام ، الذين يتبعون الكتاب والسنة . ولم يكن أبو حنيفة وحده هو الذي أعلن الحرية في كل مكان إلخ ، بل هو الفقه الإسلامي المستند إلى الكتاب والسنة ، بل هو الإسلام الذي جاء به رسول الله . وما بِنَا في مثل هذا حاجةٌ إلى الدليل .

٢ — ومن ذلك أيضاً قوله (ص ١١) : « لم يدع فيضُ الفتوة النعمان على حاله ، بل دفعه إلى الأسفار في سبيل العلم ، فكان يرحل بين البصرة والكوفة » . وما كان هذا شيئاً خاصاً بأبي حنيفة ، وكل من قرأ تراجم علماء الإسلام ، من عهد الصحابة فمن بعدهم ، يعرف أنهم كلهم ، أو أكثرهم ، كانوا يعشقون الرحلة في طلب العلم ، ولا يزالون يرحلون ويرحلون ، شباناً وكهولا وشيوخاً ، حتى إن علماء السنة جعلوا « الرجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث » ممن لا يؤنس منهم رشد . فما كانت رحلة أبي حنيفة إلا كما يرحل أهل العلم طلباً له وحرصاً عليه .

٣ — ومثل قوله (ص ٩) : « لم يتلق العلم في مدرسة ولا جامعة ، وإنما دخل المسجد الجامع ، وتخرج في مدرسة الدنيا » . وشأنه في هذا شأن أهل العلم جميعاً إذ ذاك ، لم تكن هناك مدارس ولا جامعات ، كان العلم في المساجد ، وقليل منه في دور الشيوخ .

٤ — وأشد من ذلك غلوًّا وأبعد في الإغراق ما قال في (ص ٤٧ — ٤٨) : « وإذا كان من المسلّمات في العصور الحديثة أن حضارة المدن تقاس بما تنطق به عدادات المياه ، وأن أعظم المدن حضارة أكثرها استعمالاً للماء ، وكانت الرابطة بين الماء والحضارة هي كالصلة بين النظافة والماء ، فأي ذوق كان لأبي حنيفة من ألف ومائتي عام ! بل أي طهارة وأي حضارة ! وإذا كانت النظافة من الإيمان فمن كأبي حنيفة في نظافته وفي إيمانه ! من أجل النظافة يقول أبو حنيفة إن السواك من سنن الدين ، وينصح الحنفية بالاستواك عند كل صلاة » ! ! هكذا يقول ، ثم يقول بعد ذلك بأسطار : « ومن قبل ذلك قال عليه الصلاة والسلام : لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » . فماذا في هذا من الخصوصية لأبي حنيفة أو غيره من الأئمة ؟

هذا تشريع عام منصوص في السنة ، معروف لكل أحد ، ليس أبو حنيفة فيه إلا متبعاً أمر رسول الله كغيره من العلماء . النظافة والطهور مأمور بهما في القرآن والحديث ، والسواك مع الوضوء ومع الصلاة ثابت بالسنة القولية والسنة العملية . فالنظافة مفخرة من مفاخر الإسلام ومظهر من أعلى مظاهره ، وعن المسلمين وتشريعهم أخذ الآخرون .

٥ — ساق المؤلف قصة فيها برٌ من الإمام وتربية لتلميذه أبي يوسف ، مساقاً فيه شيء من الخيال ، ثم قال (ص ٨٥) : « ذلك مثل من برّ الشيخ بتلميذه وبالعلم . ولو حاولنا أن نستقصي مظاهر هذا البرّ لكنا كمن يحاول أن يحصي نجوم السماء » ! وما أظن إلا أن المؤلف موافقي على أن لا محاولة لإحصاء نجوم السماء ، وعلى أن الخيال طار به إلى الغلو في الثناء .

٦ — ومما يتصل بهذا النوع ادعاؤه في (ص ٤٧) أنه من أجل حكم الإمام بعدم جواز التطهر بالماء المستعمل « اتخذ أتباع أبي حنيفة للوضوء حياضاً ذات صنابير ، فنسبت هذه الصنابير إليه "الحنفيات" لأن استعمالها للوضوء يمنع من استعمال الغير للماء ، والماء المستعمل غير طهور عند أبي حنيفة » ! وهذا خيال عجيب ، ما أظن أحداً غيره ذهب إليه ، وتسمية الصنبور « حنفية » تسمية عامية متأخرة ، لا ينبغي أن يتخذها رجل عالم محقق حجة في تأريخ إمام جليل عظيم .

٧ — ويتصل بهذا من بعيد ، بحثه في سبب كنية الإمام « أبي حنيفة » وأعجب ما فيه قوله (ص ١٤٥) : « ولهذا ننتقل إلى قول آخر قاله الكافيجي ، وأورده ابن حجر ، وردده صاحب عقود الجمان ، وهو أن سبب تكنيته بذلك هو ملازمته للدواة ، لان الدواة تسمى حنيفة بلغة أهل العراق . وسواء أصح القول أم لم يصح فإنه يصل بيننا وبين عقيدة ثبتت في التاريخ عن ارتباطه بالدواة ، أو ارتباط اسمه بها ، وارتباط مذهبه بالتدوين والتحرير » . وما هذا إلا كلام متهافت ، فلا قول الكافيجي له أصل ثابت ، ولا هو شيء معقول . ولو نفاه المؤلف كان أجدر به وأحرى أن يقرب إلى الصواب . والكناية كانت عادة عند العرب ، يكنون من له أولاد ومن لم يكن له ، ويكنون الطفل الصغير ، وإنما الكنية نوع من أنواع الاسم ، تقول « أبو حنيفة » كما تقول « أبو بكر » كما تقول « أبو حفص » ولا تزال هذه العادة باقية الأثر في كثير من البيوت التي تستمسك بالعروبة إلى عصرنا هذا الذي نحيا فيه . وأعجب ما في الأمر أنه يستدل بالقول « سواء أصح أم لم يصح » ! وهذه بدعة

ابتدعها بعض الكاتبين ، لا يسيغها عقل ولا منطق ، فما لم يصح إنما هو الباطل ، لا يحتج به ، ولا يكون دليلا أبداً .

٨ — وقد روى المؤلف كلة للشافعي في الثناء على أبي حنيفة (ص ٣٣) ففهمها على غير وجهها ، واستدل بها على ما لا تدل عليه ، قال : « وتناقل الرواة إكرامه للنساء واحترامه ، حتى قال الشافعي بعد عشرات السنين : ما قامت النساء عن رجل أعقل من أبي حنيفة » ! وصدق الشافعي ، ولكنه ما ذلك أراد ، وإنما أراد « لم تلد النساء » وهي كناية ظريفة فصيحة ، أحالها المؤلف إلى معنى لا يتصل بالكلام من قريب أو من بعيد ! !

٩ — ولقد أرى المؤلف — أحياناً — يخدع بالأقاصيص المكذوبة فلا يمحصها ولا يردها ، أو هو لا يعرض عن روايتها ، وقد كانت له عنها مندوحة . كروايته في (ص ٩٤) قصة زعموها عن الرشيد أنه غاضب زوجه زبيدة « فحلف يميناً بالطلاق أن لا تبيت ليلتها في بلد يدخل في ولايته » ! ثم فتوى أبي يوسف أن تبيت في المسجد لأنه لا ولاية لأمير المؤمنين على المسجد ! وهي قصة ظاهرة البطلان ، غير محكمة السبك ، فليته نزّه كتابه عنها .

١٠ — ثم إن المؤلف أعمل فيها خياله ، فجاء بألفاظ لم ترد عن الأقدمين قط ، وما خطر ببال أحد منهم أن يقولها : « يا أبا يوسف أفتنا في أمير المؤمنين وأميرة المؤمنين » ! ثم يضع على لسان أبي يوسف : « فلتبت أميرة المؤمنين بالمسجد » ! ومعاذ الله أن يقول ذلك أبو يوسف أو غير أبي يوسف من علماء الإسلام ، بل ما عرف عن المتقدمين ، من علماء أو غير علماء ، أن يقولوا « أميرة المؤمنين » وما كانوا يرضون أن يقال هذا لو قيل ، فليس للمؤمنين أميرة ، إنما رضي المؤمنون أن يكون لهم أمير ، أما أن تكون لهم أميرة فكلا ثم كلا .

١١ — والمؤلف يجري على سنن كثير من كتاب هذا العصر ، الذين يضعون كلة « الرسالة » في غير ما وضعت له ، فيقول في (ص ١٣) عن الإمام الأعظم : « واستوى في سن الأربعين — سن الرسل — فأضحى يستطيع أن يؤدي رسالته ، وهيأت له السماء كل الظروف » . ويقول (ص ٢٠) : « كان يدرك أن رسالته حرب على الجهالة والحسد والتعصب » . ويقول (ص ٥٦) : « واشتمله جلال رسالته التي يحملها للناس » . ويقول (ص ٥٨) : « قضى عليه القدر أن ينهض برسالة من الرسالات التي تدين لها الحضارة الإسلامية بأسباب البقاء » . ونحو ذلك كثير . فما هذه الرسالة

المفتراة ؟ ! إن المعنى الإسلامي استقر لكلمة « الرسالة » بأنها الرسالة التي يوحي الله بها لبعض أنبيائه يدعون الناس إلى دينهم ، فما يرضى مسلم أن يعبث بهذا المعنى الذي استقر لها في العقول والقلوب ، ولن تكفي المعذرة بالمجاز أو التشبيه أو الاستعارة أو نحو ذلك ، فليس لرسالة الله أنبياءه شبيه ، حتى تطلق كلمة « الرسالة » من غير قيد على غير ما وضعت له في هذا الإطلاق ، وقد صار حقيقة إسلامية ، نقلها — عند الإطلاق — عن المعنى اللغوي الأصلي . ومن أعجب ما رأيت من سوء هذا الاستعمال ، أن يضعه كاتب كبير على لسان بطل من أبطال قصته ، يصف به بطلة القصة التي وصمها بأسوإ ما توصم به المرأة ، فيقول لها فيما يقول : « أحقر كائن في الأرض له رسالة يجب أن يؤديها ، وإن خفي علينا وعليه أمرها » ! ! ولعل في هذا مقنعاً لكتابنا ، يسمو بهم عن أن ينزلوا بهذه الكلمة عما رفعها الله إليه ، من خصوصها بالأنبياء .

وفي الكتاب غير ذلك من الملاحظات . لا يسع المقام تفصيلها .

١٢ — وفيه كثير من الخطأ في التعبير ، ومن الغلط المطبعي، وسنشير إلى بعضه : فمن ذلك قوله منسوبا لأبي حنيفة (ص ١٨) : « فليفرغ بالك » وصواب مثل هذا أن يقال : « فليفرخ روعك » أي ليخرج عنك فزعك . ومثل قوله (ص ١٩) : «في نفس الوقت » وصحته : « في الوقت نفسه » . ومثل قوله (ص ٣٧) : « أذن النبي صحبه » وصوابه : « أذن النبي لصحبه ». ومثل قوله في نقل كلام عن أبي حنيفة (ص ٧٦) : « لأن الله عز وجل يقول إنه لايغفر أن يشرك به » . وصحة تلاوة الآية : « إن الله لايغفر أن يشرك به » . ومثله في الصفحة نفسها آية « إن تعذبهم فإنهم عبادك » كتبت « فهم عبادك » خلافا للتلاوة . ومثله في (ص ٥٣) في الآية : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً » كتبت : « ومن أعرض عن ذكري كانت له معيشة ضنكاً » ! ومن الأغلاط أيضاً قوله في (ص ١٣١) عن عمر أنه « قضى في عام من الأعوام بحرمان الإخوة والأشقاء مع إخوة الأم والزوج في الميراث » و « إخوة الأم » هم الأخوال ، وهم لايرثون في هذه الحال ، وإنما الصحيح « مع الإخوة لأم » كما هو واضح . ومن الأغلاط المطبعية الهامة (ص ٢٢) « مجاهد بن جبير » صحته « مجاهد بن جبر » . وفي قصة ورود المأمون مصر (ص ١١٨) أن ذلك كان « في أول سنة ٣١٧ » وصوابه « ٢١٧ » وتسميته الذي ردّ على المأمون من علماء مصر « سعد بن عفير » وصوابه «سعيد بن عفير» وهو سعيد بن كثير بن عفير عالم مصر ومحدثها المتوفى سنة ٢٢٦ . وفي (ص ١٤٤) : « وأبي بكر بن محمد بن عمر » وصحته « وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ».

« وفي (ص ١٤٥) « كالإيقاني » وصوابه كالإتقاني » . وفي (ص ١٧٥) « حياة بن شريح » وصوابه « حَيْوَةُ بن شريح » .

احمد محمد شاكر

دفاع عن البلاغة

تأليف الأستاذ أحمد حسن الزيات

١٦٤ من القطع الكبير . مجلة الرسالة . القاهرة ١٩٤٥

نقد السيدة بنت الشاطىء

اخترت هذا الكتاب من بين الكتب التي ظهرت في الموسم الحاضر لسببين ، أولهما أنه يعالج موضوعات تتصل من قرب ، وفي قوة ، بحياتنا الأدبية المعاصرة ، وثانيهما أنه يعطي صورة من تفكير المدرسة القديمة وأسلوبها .

وليس لي بمؤلف الكتاب ، الأستاذ أحمد حسن الزيات معرفة شخصية ، لكني أعرفه في « الرسالة » وفي كثير من آثاره الأدبية ، وفي حديث مَن لهم به معرفة واتصال . وقد وصف لي ثقة منهم ، ما يتكلفه الأستاذ من المشقة والجهد في سبك عباراته ، وتأليف جمله ، وحدثني عن صبره العجيب على نحت الألفاظ ، واختيارها مما لا يدور على ألسنة الناس .

وليس يعيب الأستاذ أنه من صميم المدرسة القديمة وتلاميذها الخلص ، فحسبه عندنا أنه من النفر القلائل الذين لهم مذهب بعينه ، يعتنقونه ويخلصون في الدعوة إليه .

وكتابه « دفاع عن البلاغة » هو أحدث مطبوعات الرسالة التي تحمل جميعاً طابع المدرسة القديمة ، وهي مدرسة تكره حرية التعبير ، وبساطة الأداء ، وقرب المأخذ ، وتشتد في طلب التركيب الضخم ، والسبك الجيد ، والصنعة المتقنة ، والتعبير الفخم ، وتفتن بالألفاظ الموروثة عن أصائل البداة .

الكتاب في جملته عرض عام لآراء في الأدب والبلاغة نشرته « الرسالة » مقالات متفرقة . ولو أنصف الأستاذ لسمى كتابه « مقالات في البلاغة » لأن هذا الاسم أصدق دلالة على موضوعه من ذلك العنوان الذي استعاره من كتاب « دوهاميل » « دفاع عن الأدب » ، وقد ترجمه الدكتور محمد مندور إلى العربية في الصيف الماضي . ذلك لأن كتاب الأستاذ الزيات لا يعرض موضوعاً واحداً يعالجه الكاتب من جميع أطرافه

ونواحيه ، وإنما هي مقالات شتى ، تحمل طابع أسلوب المقالة الذي يتسم بالتسرع والعجلة ، ويعوزها التركيز ، والدقة ، والضبط ، والاطمئنان .

يبدأ الكتاب مثلا بحديث عن « جريرة السرعة والصحافة والتطفل على الأدب » يتلوه حديث عن « العلاقة بين الطبع والصنعة » ثم مقالة ثالثة عن « حد البلاغة » فرابعة عن « آلة البلاغة » . أفما كان الأولى أن يتحدث عن « حد البلاغة وآلتها » قبل أن يبحث في أسباب التنكر لها ، وفي جريرة السرعة والصحافة عليها ؟ أو ما يرى الأستاذ أن هذا شبيه بما يسميه علماء البلاغة : « عود الضمير على متأخر » وهو عندهم عاهة في الكلام ، ينزل به عن مرتبة الفصاحة ؟

وندع الآن حديث المآخذ العامة ، فهي هينة على كل حال ، وننتقل إلى الموضوع :

أما لغة الكتاب ، فلا تسلم من أخطاء لغوية ، منها قوله في (ص ١٥ سطر ٧ ص ١٦ سطر ٧) : «المران» يقصد به التمرين ، واللغة لا تعرف هنا إلا المرانة ، أما المران فشيء آخر بعيد كل البعد عما نحن فيه .

ومنها قوله في(ص٠٤سطر١١) : «ما هو الذوق» والصواب أن تقول ما الذوق ؟ على أنا نتجاوز عن هذه الأخطاء لأنها قليلة ، وشائعة في الناس .

وما نحتاج بعد هذا التجاوز ، إلى وصف لغة الكتاب بالفخامة ، والأناقة ، والبراءة من الشيوع والقرب ، لأن هذا هو الطابع الأول للمدرسة التي ينتمي اليها الأستاذ . كذلك يُعد فضولا أن نتحدث عن المشقة البالغة التي يحتملها في معاناة الكتابة ونحت الألفاظ ، وتنميق العبارات ، فذلك هوطابع الأستاذ فيما يكتب ، ولكن يبدو لنا أن عناية الكاتب بألفاظه قد صرفته عن رعاية الدقة في معانيه ، والصحة في أحكامه .

***

في المقالة الأولى حديث عن « السرعة » يبدأ ببيان جريرتها على الفكر بوجه أعم ، إذ « استحال تقدير القيم فظهر الخبيث في صورة الطيب ، ودخل الرديء في حكم الجيد ، وقيس كل عمل بمقياس السرعة لا بمقياس الجودة » وعلى البلاغة بوجه أخص إذ « أصابت الأذهان فلم تعد تملك الإحاطة بالأطراف ولا الغوص إلى الأعماق (ص ٥).

ومعاذ الله أن يقيس أحد بهذا ، وأن تكون السرعة جانية على الأدب ، إنما تقابل الجودة « بالتسرع » لا بالسرعة المستطيعة المتيسرة الأداة .

والكاتب ينسى هنا أن « الإلهام سر الفن » ، ويرى العكوف البطيء على صنعة

الكلام ونحت الألفاظ سر جماله . أما البلاغة الفنية التي نعرفها ، فتعجب بالبديهة المسعفة ، والخاطر الحاضر ، وما زالت اللمحة والخاطرة ، سرّ بناء العربية لغة وفناً . فمتى كان بليد الذهن مثال الفنان ؟ ومتى كان البطيء الموسوس مثال المفكر ؟

ويقول الأستاذ : إن « السرعة أصابت الأذواق فلم تعد تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة ، فاختلط الحلو بالمر ، والتبس الفج بالناضج » (ص ٦) فهل عند الأستاذ أن التفرقة بين الحلو والمر ، والفج والناضج ، تمييز لفروق دقيقة ، ودلالة على صحة الأذواق وسلامتها ، وأين إذن الفروق الكبيرة الواضحة ؟ أما إني لأعرف أن ما بين الحلو والمر ، ليس فرقاً دقيقاً يميزه الذوق السليم ، إنما تكون الأذواق سليمة إذا ميزت الفرق الدقيق بين حلو وحلو ، وأدركت درجة الحلاوة في كلٍّ ، وأحست نوعها على ضآلة الفرق ودقته ، فأما أن يتواضع الذوق فيصير مقياس صحته أن يميز بين حلو ومر ، وبين ناضج وفج ، ويصبح هذا التمييز إدراكا « لفروق دقيقة » فتلك مرتبة يدركها الأطفال الرضّع قبل أن يراضوا على دقة الحس ، ويسمو إليها الجفاة الغلاظ قبل أن يهذب لهم ذوق .

ويمضي المؤلف في حديثه عن السرعة فيلقي أحكاماً مرسلة من مثل قوله بعد ذلك مباشرة : « فالكاتب البليغ قد يعجله "الحافز الملح" عن تعهد كلامه ، فيأتي بالركيك التافه ، ونحن نسأل عن هذا الحافز الملح ، أعملي هو أم نفسي ؟ إن كان عملياً مما تدعو إليه الحياة اليومية ومشاغلها فما دخله هنا وما هو من البلاغة ولا الفن ؟ وإن كان فنياً فذلك هو « الإلهام » الذي لا يوصف بالركاكة أبداً . وكثير من روائع الفنون وليد هذه اللمحات السريعة التي يندفع فيها الفنان ، يكتب أو يرسم أو يغني ، وهو ملهم مسحّر ، في غيبوبة النشوة ورؤى اليقظة .

ثم يقول : « والكلام البليغ قد يسرع فيه النظر فلا يفطن إلى عبقريات الفن في تصوره وتصويره ، فيذهب في ذمة الغث » (ص ٦) .

فهل يصح أن يكون الكلام بليغاً وغثاً في آن ؟ وهل يجوز أن نُبقي له وصف « البليغ » وقد ذهب في ذمة الغث .

أما القول بأن السرعة « قد تقع خطأً في موازين بعض النقاد فيحسبونها شرطاً في حسن الإنتاج ، وربما عابوا الكاتب المروّي بالإبطاء ، وغمزوه بالتجويد ، وسفهوا قول الحكيم القائل : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده » (ص ٦) .

أما القول بذاك ، ففيه خلط بين التروية والإبطاء ، وبين السرعة والتسرع ،

وبين العمل والفن . والنقاد ما سفهوا التجويد قط ، ولا غمزوا أحداً به أبداً ، وإنما سفهوا من ينحت من صخر ، حين فضلوا القريحة المواتية والسرعة المسعفة .

وإلى هنا ينتهي حديثه عن السرعة ، فلننتقل معه إلى الصفحة التالية ، حيث نسمعه يتحدث عن الصحافة « ثانية البلايا التي تكابدها البلاغة في هذا العصر » .

ونلاحظ أولا أن إطلاق القول في « الصحافة » بعامة ، بعيد عن الدقة ، وعن التروي الذي يبكيه المؤلف ويفتقده . فالصحافة أدبية وغير أدبية ، وعيب ما في صحافتنا ، صبغتها التجارية التي لم يمسسها الأستاذ في حديثه ولو من بعيد .

وندع هذا الملحظ ، لنتبع حديث الأستاذ عن الصحافة « إطلاقاً » فنراه يرسل الكلام في غير حرص ولا حذر ، ويلقي الأحكام سراعاً في غير دقة ولا ترو ولا أناة . من ذلك قوله :

« ولكن عمل الصحافة رواية الأخبار العالمية ، وتسجيل الأحداث اليومية ، ونشر الثقافة العامة . وهي في كل أولئك تخاطب الجمهور ، فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسط والإسفاف والمط ، مراعاة للموضوعات التي تكتب فيها ، وللطبقات التي تكتب لها ، وللسرعة التي تعمل بها » (ص ٧) .

والكلام هكذا لا يستقيم ، لأن السرعة لا تحتمل التبسط والمط ، ولأن « رواية الأخبار العالمية ، وتسجيل الأحداث اليومية ، ونشر الثقافة العامة » لا يقتضي « التبذل والإسفاف » . والأستاذ نفسه ينقض هذا مسرعاً حين يقول بعد أسطر قلائل في الفقرة ذاتها ، من الصفحة نفسها : « ولو كان للصحافة كتابها ، وللتأليف كتابه ، لما لقيت البلاغة منهما أذاة ولا مضرة » (ص ٧) وهذا إبراء للعمل الصحافي من هذه التهمة ، وإلقاء بالتبعة على الفقر في الكتاب . فكأن الأستاذ يقرر أن عمل الصحافة لا مندوحة لها فيه عن التبذل والإسفاف والمط ، ثم يقرر في الوقت عينه ، أن العيب في فقر الكتاب « الذين لو وجدوا لبطلت الشكوى » .

ثم إن الصحافة فنون ، بعضها الإخباري اليومي ، ومنها الأسبوعي والشهري ، وليس من عملها تسجيل الأحداث اليومية ، وهناك وراء ذلك صحافة غير إخبارية لا شأن لها برواية الأخبار العالمية وتسجيل الأحداث يومية أو غير يومية ، فما هذا الجمع بين نشر الثقافة العامة ، وبين رواية الأخبار العالمية ، وتسجيل الأحداث اليومية ؟

⁂

فإذا تركنا هذه المقالة الأولى ، وانتقلنا إلى المقالة الثانية ، وقعت أعيننا في رؤوس

الموضوعات على تناقض ظاهر ، فهناك فقرة عنوانها : « البلاغة كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة » تتلوها مباشرة فقرة عنوانها : « الطبع والقريحة لا يغنيان في البلاغة عن الفن » يليهما كلام عنوانه : « الذوق مهما سلم لا يغني عن القواعد » ؟ فكيف يجتمع في وقت واحد ، ومن كاتب واحد ، أن تكون البلاغة طبيعة موهوبة ، وأن يكون الطبع لا يغني فيها ؟ وكيف ننفي أن تكون البلاغة صناعة مكسوبة ، ثم نقرر أن الذوق مهما سلم لا يغني عن القواعد ؟ وهل القواعد إلا نتيجة الصنعة ، وكسب الدرس ؟ ثم كيف يسلم للمؤلف حكمه بأن البلاغة طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة ، وهو يقرر في (ص ١٤) أن لا بد من « حذق الصنعة وهدي القواعد ؟ » ثم يقرر في (ص ٣٠) أن « آلة البلاغة الطبع الموهوب والعلم المكتسب ؟ » .

ويدافع عن القواعد قائلا : « إن القواعد البيانية لم يضعها الواضعون إلا بعد أن رجعوا إلى أصول الأشياء ودرسوا علائقها بالنفس والحس ، وعرفوا نتائج هذه العلائق من الألم واللذة ، ثم استخلصوا من تجارب العصور المستنيرة النتائج الصحيحة (ص١٥) فهلا حدثنا الأستاذ عن أثارة يسيرة من رجوع مقعّدي القواعد في البلاغة العربية إلى أصول الأشياء ؟ وهلاّ دلنا على أثارة من فهم علائق النفس والحس بالفن ؟

ويقول الأستاذ إن الذوق « لا يمكن أن يكون بغير القواعد طريقاً مأمونة إلى عمل من أعمال الأدب ، فإنه موهبة طبيعية تختلف في الناس والأجناس ، وتحتاج إلى المران — الصواب هنا أن تقول المرانة لا المران — بالدرس والعادة » (ص ١٦) .

أما إن الذوق يمرن فنعم ، وأما أنه يمرن بالقواعد أو بالدرس فهذا مالا يقال . ومتى قُعّدت القواعد فقد ضاع معنى الذوق ، لأن القاعدة ليست إلا ضبطاً عقلياً ، والكاتب نفسه قد فرق في (ص ١٤) بين العقل والذوق .

ثم ماذا تصنع القواعد لما هو بطبعه متغير كما يقول حضرته ؟ أتلزم صورة عصر بعينه ؟ وذلك هو الجمود الذي كان أقتل ما قتل فصحاهم ؟ أم تلزم بشيء مؤقت يتغير ؟ وذلك ما ليس من طبيعة القاعدة ، والخطأ هنا في جعل « القواعد طريق الأمن للوجدان » لأن الوجدان له ملاحظ ولافتات ، لا قواعد ولا منطق .

***

نكتفي بهذا في المقالة الثانية ، لننتقل إلى المقالة الثالثة ، وعنوانها «حد البلاغة» يفتتحها الكاتب بعرض سؤال عن البلاغة التي يدافع عنها : أهي بلاغة العقل العربي ، أم بلاغة العقل اليوناني ؟ والأستاذ يعرف أن العقل للحق والذوق للجمال ، فما للعقل

والبلاغة التي هي فن وجمال ؟ وأعجب من ذاك أن يقول بعد ذلك : « وفي العرب مذهب المعنويين ومذهب اللفظيين ، أو مذهب أهل العراق وأهل الشام » (ص ١٨) . فمن الذي سمى هذه المذاهب ؟ أين عثر الأستاذ على هذه التسمية التي جعلت العراقيين أصحاب معنى لا لفظ ، والشاميين أصحاب لفظ لا معنى ؟

وأعجب منهما جميعاً أن لا يحضره مثل لما بين المذهبين من البعد ، إلا فيما بين براعة ابن خلدون ، وغثاثة القاضي الفاضل (ص ١٨) وما كان القاضي الفاضل مثالا للغثاثة ، ولا كان ابن خلدون مثالا للبراعة الأدبية الفنية ، لسبب بسيط جداً ، هو أن ابن خلدون بالعلماء والفلاسفة أشبه منه بالأدباء الفنانين .

ويعرّف الأستاذ البلاغة بأنها — في معناها الشامل الكامل — « ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم . من طريق الكتابة والكلام » (ص ٢٠) ولو أخذناه بمنطق الضبط في التعريف ، لكان التنويم المغناطيسي ، والرقية ، والعزيمة ونحوها ، مما يدخل في البلاغة ، لأنها جميعاً تؤثر في العقل والقلب من طريق الكتابة والكلام .

ولقد تعب الأستاذ وأتعبنا في عرض تعريفات للبلاغة ، حشد فيها أقوال طائفة من الغربيين ، والعرب القدامى ، ثم استخلص منها هذا التعريف الطويل العريض ، على حين اكتفت المدرسة الأدبية الحديثة بتعريف لا يتجاوز كلمتين اثنتين ، حين سمت البلاغة « فن القول » ✲ وهذا التعريف على إيجازه دقيق جامع مانع ، كما يقول المناطقة .

ويحدثك الأستاذ في هذا الباب الذي عنوانه « حد البلاغة » فيتصورها جدلا وقضاءً ودفاعاً ، حتى ليرى « الجدل عصب البلاغة » (ص ٢١) ويصوّر لك معركة بينها وبين العقل والهوى ، معركة يتردد فيها ذكر « العدو ، والهجوم ، وحشد القوى ، والاستعداد » فيقول : « لقد حشد العدو — يعني العقل والهوى — جميع قواه ، فيجب أن تربع حجره (كذا !) وتستعد له » (ص ٢٢) ثم يمط هذه العبارة حتى يملأ بها صفحة كاملة ، يذيلها بشرح طويل لعبارة القدماء « بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال » ويقع في الخطأ الذي وقعوا فيه من اعتبار حال المخاطب وحده ، مع أن الفنان — في أكثر الحالات — ينتج أدبه ليتنفس ، ويعبر عن شعوره ، ويصور

✲ بهذا تسمى البلاغة الحديثة في كلية الآداب بالجامعة ، وفي معهد الدراسات العليا ، وبهذا تعرفها مدرسة الأمناء .

إحساسه ، دون أن يعنيه أمر المخاطب في قليل أو كثير ، بل دون أن يكون أمامه مخاطب ما ، حقيقة أو اعتباراً .

والأستاذ يذكر في بيان أحوال المخاطبين ، ومهمة البلاغة في مطابقة مقتضياتها ، ألفاظ « التعليم ، والإقناع ، والأدلة ، والتأثير ، والإمتاع » (ص ٢٣) وهذا خلط بين معنى البلاغة بما هي فن ، وبين مواطن الانتفاع بهذا الفن في واقع الحياة ، ومثله في ذلك مثل من يتحدث عن فن التصوير ، فيذكر جزيل فوائده ، ومواطن الانتفاع بآلة التصوير في ضبط المجرمين ، أو تحرير الوثائق ، أو تحقيق الشخصيات .

٭٭٭

ولكن دع ذلك كله ، وانظر إلى النهاية التي انتهى بها المؤلف في حديثه عن « حد البلاغة » ذلك الحديث الذي بدأه في (ص ١٥) بتقريره أنه يدافع عن « البلاغة التي لا تفصل بين الفكرة والكلمة ، ولا بين الموضوع والشكل ، إذ الكلام كائن حي ، روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل ، والجسم جماداً لا يحس » . فقد وقف في أربع صفحات كوامل ، يدافع عن « اللفظ وحده » دفاعاً حاراً ، ويرى في الصياغة اللفظية « سر البلاغة ! » وأنه « ليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب ، من أن المعنى المبذول ، أو المرذول ، أو التافه ، قد يتسم بالجمال ويظفر بالخلود إذا جاد سبكه وحسن معرضه ، ولا بأس أن قدم إليك مثلا من آلاف الأمثلة ، بلغ معناه الغاية في السوقية والفحش ، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده ، لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تظلع دونها أكثر الأقلام » (ص ٢٦) .

« . . . فأنت ترى أن الصياغة وحدها ، هي التي سمت بهذه المعاني الخسيسة إلى أفق البلاغة ، فتداولتها الألسن وتناقلتها الكتب ، وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ ، فإن اللفظ في ذاته كالموسيقى ، يخلب الأذن ويلذ الشعور ، أما المعنى فكالكهرباء ، إن لم يكن لفظه جيد التوصيل ، انقطع تياره فلا يعرب ولا يطرب » ! (ص ٢٨) .

وهذا صريح في أن اللفظ يستغني عن المعنى ، ولا كذلك المعنى ، فهل من تناقض أصرح من ذلك الذي تراه بين مقدمة تدافع عن البلاغة لفظا ومعنى ، أو جسما وروحاً ، ثم تنتهي إلى أن اللفظ في ذاته كالموسيقى يخلب ويطرب ، وأن المعنى بلا لفظ ، كالكهرباء انقطع تيارها ! ؟

وفي الفقرة الأخيرة من تلك المقالة يقول الأستاذ الزيات :

« . . فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول : إن القذر يوضع في آنية الذهب فيقبل ويحمل ، ولون المسك يوضع في نافجة الطين فيرفض ويهمل » (ص ٢٨) .

لقد كان الأقدمون أرحم بأذواقنا ، حين دافعوا عن مذهب اللفظ بقولهم « إن العبرة في حسن الصياغة ، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أوسوار » وقولهم : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي . . . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ . . . وجودة السبك » وأمثال هذه العبارات التي قرأناها لعبد القاهر في دلائل الإعجاز ، والجاحظ في بيانه ، والخطيب القزويني في إيضاحه .

ثم إن المؤلف يرى أن « الدهر عقم بمثل عبد القاهر . . . وأصبح الكتابان — دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة — في أول الطريق مناراً لا ترى بعده إلا أغفالا ومجاهل ، فهل في البيانيين من أساتذة جامعاتنا الثلاث ، من يحاول في البلاغة الحديثة ما حاول عبد القاهر في البلاغة القديمة » ؟

وأنا أتبرع بإجابته عن هذا السؤال ، فأؤكد له أن كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول قد بدأت هذه المحاولة التجديدية منذ عهد بعيد ، وأنها نجحت في تقرير فنية البلاغة ، وإقامتها على مقدمات فنية من علم النفس والفن والجمال . ثم نجحت في أن تصلها بالحياة ، إذ ضنت بها أن تدرس وسيلة لفهم الإعجاز كما أراد الشيخ الجرجاني ، وأعلنت أنها تدرسها لذاتها ، باعتبارها من مقومات الحياة لكل أمة تشعر بنفسها وتحس شخصيتها وتؤمن بحقها في الحياة .

وبعد : فلعل من الحق أن أقرر هنا ، أن كثيراً مما جئت به اليوم ، قد تحدث به « الأمناء » في نقدهم للأدب المعاصر ، وكان لي فضل حمله ، وإبلاغه . . .

بنت الشاطىء
من الأمناء

أبو تمام الطائي

حياته وحياة شعره

تأليف الأستاذ نجيب محمد البهبيتي

٢٤٣ صفحة من القطع الكبير . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة سنة ١٩٤٥

نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

شغل المتنبي الدنيا زماناً وشغلته. واختصم الناس في شعره بين متعصب له ومتعصب عليه ، ورافع من قدره وغاضٍّ من شأنه . وكان ذلك في زمانه . وبعد ألف سنة شغل المتنبي الدنيا من جديد ، وكثر الكلام فيه عَوداً على بدء . فتناوله من أدبائنا الدكتور طه حسين بك ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور محمود محمد شاكر .

والأدب كالرزق حظوظ وأرزاق ، وجدود وأقدار . فإن حظ أبي تمام من السعد لم يكن مستوياً مع حظ المتنبي . وإن كان أبو تمام في رأي بعض الناس شاعرَ العربية الأكبر .

ومن هؤلاء القوم الأستاذ نجيب محمد البهبيتي مؤلف كتاب « أبو تمام الطائي — حياته وحياة شعره » فقد أخرج كتاباً في حبيب بن أوس ، بلغت صفحاته فوق المائتين ودون الثلثمائة ... وختمه بهذه العبارات : « ولقد بلغت الفكرة الشعرية في يد أبي تمام أوجها ، فلما بلغت المتنبي التبست عنده بالفلسفة ، ولم يكن حسه بالجمال يعدل حس أبي تمام به ، وكان أكثر شغلا بمظاهر القوة في الوجود . فأخذ معنى الشعر عنده ينحدر شيئاً ، وتلك العاطفة الرقيقة العذبة — برغم قسوتها حيناً — تستحيل عنده إلى عاطفة ، خشنة شيئاً ، صاخبة ، هي لون من ألوان صراع نفس معذبة مع الحياة الجبارة في ذلك العصر الغريب . فأبو تمام عندي شاعر العربية الأكبر ، لا أعدل به شاعراً آخر من شعرائها » . وجميل جداً أن يلقى أبو تمام بعد أكثر من ألف عام هذا التقدير الكبير من كاتب مصري ، بعد الذي قاله أبو تمام في ذم سيره إلى مصر بعد مفارقتها [1].

---

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي ص ١٨٠ .

أليس هذا دليلاً على أن مصر لا تتعصب ولا تصدر في الرأي عن هوى ، ولكنها تصدر فيه عن تدبر وتفكير ؟

ولقد هجا أبو تمام ، وهو دمشقي المولد — أو على التحقيق قريب منها — قوماً بمصر ، منهم عياش بن لهيعة ويوسف السراج الشاعر المصري الذي كان مع المفسدين بين عياش وبينه . ووصف وجهته إلى مصر بأنها « بلا طالعٍ سعدٍ ولا طائرٍ سهلٍ » . ولكنه وجد في مصر من ينصفه ويدفع عنه ويلتمس له العذر فيما قال من الهجاء وخاصة عند رحيله عنها . ويقول المؤلف في ذلك : « فانفتل أبو تمام غاضباً في شيء من يأس الشباب ، ولكنه لم يكن نذلاً ، فلم يخلط بين الوطن الذي آواه ، وبين الرجل الذى ضن عليه — يعني عيّاشاً » .

ولكن أبا تمام الذي هجا أمير مصر وهجا أحد شعرائها لم يسلم من لسانه أمير الشام موسى أبو المغيث أحد أمراء دمشق من قبل المعتصم العباسي .

ويجري المؤلف في كتابه على طريقة في البحث يحمدها له فن التأليف الصحيح . فقد خص طيّئاً ، وهي قبيلة الشاعر ، بصفحات . ومن الضروري في دراسة الأديب أن تدرس قبيلته ، وأن يرد إلى مكانه منها . وما في ذلك بأس . ولكن البأس أن تخرج هذه الدراسة القبلية بالمؤلف إلى ما ليس غرضَ الكتاب . والذي أفهمه — أو فهمته على الأقل — أن غرض الكتاب هو أبو تمام وشعره ، وليس الغرض أن يطول الحديث في قبيلته إلى حد يبلغ من الكتاب سدسه . وعذرُ المؤلف أن الأصل في كتابه أن يكون رسالة جامعية . وفي هذه الرسائل قد يحلو الكلام ويطول النفس ، ولو لم يكن في المقام حاجة إلى طول . . .

ولقد فطن المؤلف نفسه إلى طول هذا الباب ، ولم يحتج إلى من يذكره به أو يدله عليه . فذكر في المقدمة — الطويلة أيضاً — أنه « دراسة مطولة لتاريخ طيّء في الجاهلية والإسلام » . وقد كان في مكنة المؤلف أن يردّ شبه المستشرقين وأتباعهم في نسب أبي تمام ونصرانية أبيه في كلام موجز ، وكان في استطاعته أن يثبت أن طيئاً عنية في كلام موجز ، كما كان في استطاعته أن يوجز في علاقة طيء بالحيرة والغساسنة .

والحق أن هذه الإطالة في الكتاب لم تملل ، ففيها من التاريخ كثير لعشاق التحقيق التاريخي ، وفيها رجوع إلى كثير من المصادر التاريخية ، أمثال : معجم البلدان وابن الأثير وابن خلدون ومروج الذهب وجمهرة الأنساب وغيرها .

٭٭٭

أما حياة أبي تمام فقد بدت في الكتاب حية ناطقة . وقد طال هذا الباب حتى أربت صفحاته على المائة . وهو طول لم يكن منه بد ، ولا عنه معدل . ولذلك حمدنا هذا الطول حينما وضع موضعه .

ويشهد القارىء هنا مولد أبي تمام في حديث طويل ، كما يشهد نشأته ورحلته إلى مصر والعراق ، واتصاله بمن اتصل من أمثال عياش وأبي المغيث وآل عبد الكريم وابن طاهر والأفشين وابن أبي داؤد وابن الزيات والمعتصم . كما يشهد اضطراب الشاعر في البلدان ، تسلمه أرض إلى أرض ، كما فعل الأعشى من قبله والمتنبي من بعده .

وفي الكتاب باب عنوانه « القدماء والمحدثون » . فللقدماء طريقهم في نهج القصيدة وافتتاحها بالنسيب ووصف الطلول والبيئة ، وللمحدثين طريقهم في الصنعة ووصف البيئة الجديدة . وبين الأولين والآخرين فترة من الانتقال ، أعان عليها تحول الخلافة إلى ملك بعد قيام معاوية .

ولقد أجاد المؤلف هنا في تصوير الصراع بين شعر العرب وشعر الأعاجم ، كما أجاد في عرض الصورة الجديدة للشعر العربي ، والخصومة بين أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى . والمؤلف هنا أفاد كثيراً مما كتبه « ابن رشيق » في العمدة ، « وابن الأثير » في المثل السائر « والقاضي الجرجاني » في الوساطة « والآمدي » في الموازنة ٭. إلا أنه كان مستقلا في رأيه ، فلم يمض مع الماضين فيما ذهبوا . ولكنه اتخذ لنفسه معايير ظهرت فيها شخصيته .

وأكثر ما يتبين استقلال المؤلف ووضوح شخصيته حين يتحدث عن الخصائص الفنية لشعر أبي تمام ، فهو يشير إلى تزاوج حسه وعقله ، أو بعبارة أخرى إلى التجاوب بين شعوره وفكره ، وإلى وحدة القصيدة عنده ، وإلى كثرة الاختراع في معانيه ، وإلى إحساسه بجمال الطبيعة ، وإلى اهتمامه بخلجات النفس التي تخفيها المادة والصورة ، وإلى اعتماده على الواقع والحقيقة ، وإلى انتفاعه بالقصص ، وخاصة حين يمدح ، وإلى الصورة الشعرية عنده ، وإلى غلبة التكرار في لفظه غلبة واضحة ، وإلى كثير غير ذلك ، مما انتزعه المؤلف من شعر أبي تمام انتزاعاً .

٭ رجع المؤلف إلى هذه المراجع وكثير غيرها . ولكنه لم يرجع إلى كتاب « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » للبديعي وقد نشره المرحوم الأستاذ محمود مصطفى . وهو كتاب لا بد من الرجوع إليه لمن يكتب في أبي تمام .

وجميل من المؤلف أن يتتبع ديوان أبي تمام من باب الهمزة إلى باب الياء، فيخرج منه بمحصول وافر من الخصائص الفنية . ولكن معنى الخصائص أنها صفات ينفرد بها الشاعر أو الكاتب ويمتاز بها من غيره . فهل انفرد أبو تمام بالتزاوج بين الحس والعقل ؟ وأين إذن تلميذه ومعاصره البحتري ، وقد أربى عليه في هذا ؟ وهل انفرد أبو تمام بالتسلسل الفكري ووحدة القصيدة ؟ فأين إذن ابن الرومي ، وهو الذي تظهر الوحدة كاملة في أغلب شعره ؟ ويظهر أن المؤلف أعوزه في ديوان أبي تمام العثور على أمثلة صالحة ، أو على قدر طيب ، من وحدة القصيدة ، فلم يجد إلا قصيدة واحدة دالية فصل فيها الشاعر بين المبتدإ والخبر ببضعة من الأبيات . . . مع أن الخصائص لا تظهر بالمثال الواحد أو المثالين أو الثلاثة ، ولكنها تظهر بالأمثلة الكثيرة ، كما فعل المؤلف في موضع آخر حين استشهد بأثر الثقافة القرآنية في شعر أبي تمام .

والكلام في الثقافة القرآنية يجرنا إلى كلة لا نجد بأساً من ذكرها . فالمؤلف أحياناً يجدُ حين يستحضر المثال على تأثر أبي تمام بأسلوب القرآن ، كما في قول الشاعر :

أيهذا العزيزُ قد مسَّنا الضُّـــرُّ جميعاً وأهلنا أشتاتُ
ولنا في الرجال شيخ كبير ولدينا بضــاعة مزجاةُ

فكأنما كان يستحضر بين يديه المصحف ويقرأ من سورة « يوسف » . وأحياناً يتلمس المؤلف المثال ويتصيده كما في قول أبي تمام :

مكرا بنى ركنيه إلا أنه وطد الأساس على شفير هارِ

فيقول « ففيه شفير هارٍ ، وما أقربها من جُرُف هار » . ونحن لم نعلم أن الله أخذ على العرب موثقاً أن لا يستعملوا كلة « هار » لأنها من ألفاظ القرآن . . . !

وموضوع الوحدة في القصيدة العربية كان عيباً يعدّه الناقدون على الشعر العربي . أفما كان أجدرَ بالمؤلف ، وهو يتعصب لأبي تمام ، أن يستشهد في هذا المقام بما تطمئن إليه القلوب ، لا أن يعالج هذا الموضوع في بضعة من السطور ؟

ويجرنا الحديث عن تعصب المؤلف لأبي تمام إلى تعصبه الشديد للعرب[1] . وهو محمود على تلك الروح الكريمة ، التي يسرنا أن تشيع في كل نفس ، وأن تجري في كل عرق . إلا أن الاعتدال في هذه السبيل أجدى علينا كثيراً من الإسراف ، والقصد فيها أنفع من المبالغة ، وإذا كان للفرزدق في أيام بني أمية — وهم من هم — أن يقول :

---

(١) صفحة ٣٦ من الكتاب .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

فمن الخير لنا أن لا نقول ذلك أو شبهه حتى نبني كما بنى آباؤنا أو نفعل كما فعلوا . . . .

* * *

والمبالغة عند المؤلف ظاهرة في الكتاب ظهوراً بيناً ، فهي لم تكتف بمتن الكتاب حتى عدته إلى مقدمته . وهي مقدمة ما كان لها أن تكون في تقديم كتاب عن أبي تمام . وما ذنب القارئ حين يقرأ في المقدمة كلاماً عنيفاً عن (مؤامرة قبيحة) [١] حبست الكتاب عن الطبع والظهور تسعة أعوام ؟

وما ذنب القارئ حين يثور المؤلف ثورة لأمر يعنيه وحده فيبتلي القارئ ، بأن يكره على الاشتراك معه في ثورته الخاصة ؟

وما ذنب القارئ حين يرجو أن يرى من المؤلف في مقدمته طريقته ومنهجه في التأليف فيرى بدلا من ذلك صيحة عالية عن الكرامة وإيقاظ الضمير ومرضى النفوس وذوي الأهواء ؟

وما ذنب القارئ حين يتوقع في المقدمة بياناً لبحث ، فيرى فيها كلاماً عن منجبين تلقوا الحياة فلم ينجبوا ، وعن كيسين ماهرين تلقوا الحياة بالمرونة والكياسة فعادوا بالظفر الماديّ ؟ ؟

وما علاقة ذلك كله بأبي تمام وحياة أبي تمام ؟

ومن المبالغة أن يقول المؤلف : « ولقد خرج — يعني كتابه — لهذا الأمر بعيداً عن أن يكون محاكاة لعمل آخر من نوعه ، أو نقلا لمنهاج شرقي أو غربي » . ونسي — جمله الله بالتواضع — أنه بقي من الجهات الأربع جهتا الشمال والجنوب . . . !

ومن المبالغة أن يقول أيضاً : وهذا الكتاب . . . . أشبه بهذه الأيام الجبارة الثائرة ، في طريقته ومنهجه ، وفي وسيلته العلمية . . . . إلخ » . والله ، يا أخي ، جبار ولكنه — على ما نعلم — لا يحب الجبابرة . . .

* * *

أما التحقيق والتصحيح لشعر أبي تمام فقد بلغ في هذا الكتاب حداً يهنّأ عليه المؤلف أطيب تهنئة . والمؤلف يعتمد على بصيرة مهدية ، وحسن فهم للشعر ، حين يرويه وينقله . وتلك يد يسلفها إلى الشعر . فقد قرأنا في الطبعات الرخيصة على « الوساطة »

(١) المقدمة صفحة جـ

« والموازنة » « والمثل السائر » ما زهدنا في شعر الفحول .

ولكن الأستاذ الفاضل المحقق البهبيتي جنبنا السخط الذي نصادفه حين نقرأ شعراً مشوهاً ممسوخاً . فقد حقق شعر أبي تمام وأخرجه على أحسن الوجوه ضبطاً . وأشهد أنني أقرأ الطبعة البيروتية من ديوان أبي تمام وأقرأ آخر الطبعات المصرية فألقى فيهما مايعنّيني . ولكنني كنت أقرأ في كتاب البهبيتي شعر أبي تمام كأنه هو .

٭٭٭

والمؤلف يبالغ في التحقيق فلا يرجع إلى النسخة المطبوعة من كتاب « أخبار أبي تمام للصولي » وهي محققة من ثلاثة أفاضل ، ومطبوعة في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ولكنه يرجع إلى النسخة المخطوطة . ولو أنه أحال القارىء في هوامش الكتاب على النسخة المطبوعة المحققة لكان ذلك أسهل على من يبعد المخطوط عن متناول أيديهم .

ولكني أظنه رجع إلى النسخة المشوهة من كتاب « الوساطة » فوقع في تصحيف اسم علم واسم موضع ، لم يفوتا على الأستاذين محمد ابي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، حين أخرجا « الوساطة » إخراجا علمياً صحيحاً في الطبعة التي نشرتها مطبعة عيسى الحلبي .

فقد نقل المؤلف في هامش صفحة ١٧٧ قصة « رياش القيسي » في شعر البحتري ، فذكر أن اسمه « أبو رياش » . وأرجح أن اسمه « رياش » من غير كنية كما ورد في الوساطة .

ونقل المؤلف أيضاً من شعر البحتري هذا البيت على هذه الصورة :

نظرت إلي ظران فقلت : ليلى هناك ، وأين ليلى من ظرانِ

وهو ينقل من « الوساطة » . وليس في ديوان البحتري — طبع هندية — ظران هذه ، ولكنها « طدان »[1] بالطاء والدال المهملتين . قال ياقوت في معجمه (« طدان » هو موضع بالبادية في شعر البحتري) . لقد حقق شارحا الوساطة في طبعتها الجديدة هذا الاسم ونقلا نص ياقوت الرومي[2] .

وفي صفحة ٧٤ ضبط المؤلف البيت الآتي على هذه الصورة :

مناسبُ تحسب من ضوئها منازلاً للقمر الطالع

---

(١) ديوان البحتري طبع هندية ص٢٨١ . (٢) الوساطة طبعة عيسى الحلبي الجديدة ص٥٠ .

فوضع على باء كلمة مناسب ضمة واحدة — أي منعها من الصرف ، والصواب أن تصرف ويوضع عليها ضمتان لأن البيت من البحر السريع .

وقراءته بضمة واحدة تنقله إلى بحر المتقارب وشتان بين البحرين . . . والممدوح في هذا البيت نوح بن عمرو الكندي لا السكسكي كما ذكر المؤلف ، وإن كان يقول أبو تمام فيه بعد بيت آخر :

وسَكْسَكيُّ المجد كنديُّه وأدديُّ السؤدد الناصع

إلا أنه لم يشتهر بالأددي والسَّكسكي كما اشتهر بالكندي ، وأدد بوزن عمر ، وسكسك بفتح السين الأولى والثانية * : قبيلتان من أحياء اليمن .

* * *

بقيت هنوات في الطبع كقوله في ص ٧٤ — « وفي شرح البيت منقول عن الخارزنجي ما يأتي » ، والصواب « منقولاً » . وفي ص ١١٤ « وتأزرُ » والصواب بفتحة على الراء . وفي هامش ص ٢٠٩ « Lagacy » والصواب « Legacy » . وفي ص ٢١١ «بالنَّدَّى» والصواب « بالنَّدَى » وهي أمور لاتقلل من قيمة هذا الكتاب الذي يعد بحق أوفى دراسة منظمة منهجية لأبي تمام وشعره .

محمد عبد الغني حسن

التعريف

الإسلام والمرأة

تأليف الأستاذ سعيد الأفغاني

١١٢ صفحة من القطع الكبير . مطبعة الترقي . دمشق ١٩٤٥

هو دراسة للمرأة العربية بين جاهليتها وإسلامها ، دراسة كما يقول المؤلف « تستند إلى النصوص المجمع عليها والوقائع الصادقة المتواترة ، مقتصراً على عصرها الأول ، وهو للمرأة العربية عصرها الذهبي بلا مراء ، إذ فيه رفع الإسلام من النساء طبقة رفيعة مختارة ، جعل لها من السمو والتقديس والاحترام منزلة دون الأنبياء وفوق الخلفاء ، وحسبك بهذا تشريفاً لمقامها إلى الأبد » يريد بهن أمهات المؤمنين أزواج رسول الله

* تراجع المادتان في القاموس المحيط .

صلى الله عليه وسلم ، لأن « عصر صدر الإسلام هو العصر الوحيد الذي سلم من تسرب العادات والتقاليد الأجنبية بالنسبة للمرأة ، وأنه هو وحده عصر المرأة العربية الخالصه ، كما كان فهم أهله للاسلام وروحه هو الفهم الصحيح » .

والكتاب في بابين . تحدث في الباب الأول عن المرأة قبل الإسلام ، وما لقيت من مظالم الجاهلية . ثم ما صنع الإسلام لها من إبطال هذه المظالم ، وعن شخصيتها الحقوقية ، وتحدث إلينا في هذا الفصل عن شيء غريب ما كنا نظنه يكون ! ضربه مثلا للخطأ في التقليد في التشريع ، نقله عن محاضرة في مؤتمر المحامين العرب بدمشق سنة ١٩٤٤ ، وذلك أن المادة (١١) من قانون التجارة اللبناني تنص على أن « المرأة المتزوجة مهما تكن أحكام القانون الشخصي الذي تخضع له لا تملك الأهلية التجارية إلا إذا حصلت على رضا زوجها الصريح أو الضمني » . فهذا النص رجوع بالمرأة العربية إلى القهقرى ، إذ كانت من قبل تعامل بحكم الشريعة الإسلامية : أن لها كل الحقوق التجارية التي للرجل ، من غير قيد ولا شرط . فهذا القانون ردها أجيالاً إلى الوراء ، إلى أحكام جاهلية أوروبية ، برئت منها جاهلية العرب . ثم عقد المؤلف فصلاً في « جهاد الرسول في سبيل المرأة » وهو فصل جليل نفيس . وعقد الباب الثاني على الحديث عن أمهات المؤمنين ، والتشريع الخاص بهن ، وإجمال سيرة الرسول معهن ، وعن منزلتهن الاجتماعية ومشاركتهن في الأمور العامة ، ثم ختم الكتاب بوصف بيوتهن وأن الوليد ابن عبد الملك أمر في خلافته بهدم تلك البيوت وإدخالها في المسجد .

والكتاب جيد نفيس ، كله تحقيق وفوائد جليلة ، إلا أن في مقدمته كلمة جاءت عرضاً ، لا نستطيع أن ندعها دون أن نستدرك عليها . وذلك أنه ذهب في (ص ٦) إلى أن الشريعة الإسلامية لا تشير بالطلاق وتعدد الزوجات « إلا عند الضرورة القصوى والحاجة الملحة ، وبشروط مقررة » . ثم علق على ذلك في الحاشية بما نصه : « شروط تعدد الزوجات من الصعوبة بمكان حمل المعتزلة على القول بتحريمه ، لاستحالة تحقيق العدل بينهن في رأيهم . أما الطلاق فلم يستحبه الإسلام إلا حين استحالة معيشة الزوجين معاً وبعد إخفاق كل الجهود » ! وهذا كلام باطل كله أو أكثره . فإنه لم يقل أحد من المسلمين ، لا المعتزلة ولا غيرهم ، بتحريم تعدد الزوجات ، وهذا زعيم المعتزلة ورأسهم وفقيههم الزمخشري ، لو قرأ المؤلف كلامه في الكشاف (ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، ٣٠٢ — ٣٠٣) لم يقل شيئاً من هذا ، ولم يرم المعتزلة بما هم برءاء منه ، وبما يخرجهم من الإسلام إن قالوا به . وما كان خصومهم ليسكتوا عنهم لو كان بعضهم قال شيئاً من

أهذا ، مثال الفخر الرازي وغيره من علماء الكلام الكبار . ثم ماذا يقول المؤلف ومن يظن ظنه ، من أن الدفاع عن الإسلام في هذا الأمر يكون بمحاولة الذهاب إلى أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات ، أو لا يبيحه إلا بشروط تقرب من الإحالة ! ! ماذا يقولون في أصحاب رسول الله ، وقد كانوا يتزوجون أكثر من واحدة ، لم يشذ منهم أحد تقريباً ، وأكثرهم كان متزوجاً بأكثر من واحدة في حياة رسول الله ، هل كانوا كلهم جهلاء بمعنى « العدل » الذي أمر الله به في القرآن عند التعدد ؟ ! وهل أقرهم رسول الله على جهلهم هذا فلم يعلمهم ولم يمنعهم عن عقود محرمة ؟ ! حتى جاء في هذه العصور أولئك الذين لم يجدوا في أنفسهم قوة على رد « الشبهات المغرضة » إلا بإنكار شريعة صريحة في القرآن معلومة من الدين بالضرورة ! ! لا أريد بذلك « الأستاذ سعيد الأفغاني » مؤلف الكتاب ، فاني أرى أنه سار في تيار قوي غلبه لم يستطع دفعه ، وإنما أريد من كانوا قبله ممن أخطؤا الطريق في الدفاع عن دينهم ، فكان من أثر آرائهم الضعيفة ما نرى ! وكذلك كلامه في الطلاق ليس على الوجه الذي قال ، فالطلاق قبل الدخول — مثلاً — جائز بنص القرآن صريحاً ، ولا يستطيع أحد أن يزعم أنه لا يكون « إلا حين استحالة معيشة الزوجين معاً وبعد إخفاق كل الجهود » فإن « معيشة الزوجين معاً » لا تكون إلا بعد الدخول ، ونساء العرب والمسلمات لا يعاشرن الرجال قبل الزواج . وأظن أن هذا من البديهيات التي لا يخالف فيها المؤلف الفاضل ولا أمثاله من العلماء الراسخين .

أحمد محمد شاكر

الدين والوحي والإسلام

تأليف معالي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

١٠٦ صفحات من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥

الأستاذ العلامة الشيخ مصطفى عبد الرازق عالم حجة ثبت ، من أكبر علماء الإسلام في هذا العصر ، ومن أدقهم بحثاً وآنقهم قولا . في كتبه التحقيق البديع ، والسهل الممتنع .

وهو — في هذا الكتاب — يكتب في موضوعه ، كما يقولون ، فإنه أستاذ الفلسفة في جامعة فؤاد ، قبل أن تفوز به المناصب السياسية ، وإن لم يحرم أهل العلم ومحبو

البحث الإفادة من علمه ومؤلفاته . ثم هو الرئيس الفخري للجمعية الفلسفية ، فهو يمدها من آن لآن بطرائف من كتبه .

وقد عرض في هذا الكتاب لثلاثة ألفاظ خطيرة ، تدور على ألسنة المتكلمين والفلاسفة ، إلى ذيوعها في كل علم وكل قول . « الدين » . « الوحي » . « الإسلام » . فهو يريد في كتابه أن يحدد المعنى الدقيق لكل واحدة من هذه الكلمات .

وخير تعريف بالكتاب ما عرفه به مؤلفه ، وقد حرر فيه موضوعه . وأبان عن مقصده أحسن بيان :

« عالجنا في هذا الكتاب ثلاثة موضوعات يكمل بعضها بعضاً ، ويرتبط بعضها ببعض أوثق الارتباط ، وهي : الدين والوحي والإسلام . فأولها بحث في حقيقة الدين على العموم ، وثانيها تفسير لظاهرة هامة صاحبت معظم الأديان وتوقفت عليها نشأتها ، وهي ظاهرة الوحي ، وثالثها توضيح للدين القائم على الوحي بمثال عال من أمثلته ، وهو الإسلام » .

« وقد عرضنا في الموضوع الأول لثلاثة مباحث : أحدها في العلاقة بين العلم والدين ، وثانيها في تحديد الدين وبيان أصله في نظر الباحثين من الفرنجة (بداية الاهتمام بهذا البحث وصلة ذلك بتكون علم اللغات ، معاني الكلمة الأوربية الدالة على الدين وأصل مادتها اللاتيني ، مذاهب علماء النفس ومذاهب علماء الاجتماع في أصل الدين ، مناقشة التعاريف المختلفة للدين ، حيرة العلماء في تعريف الدين ودلالتها) ، وثالثها في الدين في النظر الإسلامي (أصل مادة الدين ومعانيها اللغوية المختلفة ، الدين فى لسان القرآن ، المعنى الشرعي لكلمة دين ، الدين عند الفلاسفة الإسلاميين والفرق بين الدين والفلسفة) . وعرضنا في الموضوع الثاني لمبحثين : أحدهما في المعاني المختلفة لكلمة " الوحي " في اللغة والقرآن والسنة ، وثانيهما أهم النظريات في تفسير ظاهرة الوحي (مذاهب المتكلمين ، مذهب الفلسفة الإسلامية ، رأي الصوفية ، مذهب ابن خلدون ، آراء المسلمين في العصور الحالية) . وأما الموضوع الثالث فقد عرضنا في قسمه الأول للنظريات المختلفة بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي لكلمة " إسلام " وبسطنا في قسمه الثاني رأينا في هذا الموضوع » .

فهذه دقائق لا يحسن البحث فيها كل من عرض لها من العلماء ، إنما يحسنه رجل محقق متثبت ، يدرس فيحسن الدرس ، ويفكر فيحسن التفكير ، ثم يضع القول مواضعه . وقد فعل المؤلف الجليل ذلك كله .

فن القصص

تأليف الأستاذ محمود تيمور بك

١٣٦ صفحة من القطع المتوسط . مجلة الشرق الجديد . القاهرة ١٩٤٥

ليس الفن عند محمود تيمور أمراً كمالياً أو شيئاً ثانوياً يلجأ إليه للترفيه والتسلية ، ولكنه أمر ضروري للحياة التي لو خلت من الفن لكانت بالعدم أشبه وإلى الفناء أقرب . ومحمود تيمور — ككل فنان أصيل — يرى أن حاجة البشرية إلى القطعة الفنية لا تقل عن حاجتها إلى القنطرة الهندسية .

ويرى تيمور فوق ذلك أن العالم على جلاله صورة للفن في أروع مظاهره ، فالذرات في العالم ، ونظام سيرها حول نفسها وحول بعضها بعضا هو مثال للتناسق الذي يعد أرقى ما ارتقى إليه الجمال . والتجاذب بين العوالم نوع من الحب الذي لو عدم وحل محله النفور لاختل نظام الجذب واختل تبعاً له نظام هذا العالم الجميل .

وتلك نظرة فلسفية إلى الحب الذي جعله تيمور شيئاً فوق غرائز الجنس وشهوات الحس . . .

ولذلك بدأ المؤلف الفصل الثاني من كتابه عن الفن والفنون . وكذلك كانت القصة عند تيمور فناً جميلا .

وليس كل أديب فناناً عند تيمور ، فهناك الأديب الصادق في فنه ، وليس الفن في الشعر وحده أو الكتابة وحدها . فالمزارع فنان حين يزرع أرضه على نحو يشعرك لأول وهلة أنه يحب الجمال . والطاهي فنان حين يقدم طعامه على وجه ترتاح فيه إلى تذوق الطعام من يديه . . .

وفي هذا الفصل خلص المؤلف إلى وضع قواعد لكتابة القصة كالوحدة الفنية ومراعاة جانب اللمح والعناية برسم الشخصيات وإبراز وجودها المستقل عن وجود منشئها واشتمالها على الغرض ، وإلا كانت لغواً من الكلام .

وتيمور حين يكتب لا يغفل عن هذه القواعد التي يضعها بين يدي القصاص ، ومقام محمود تيمور في القصة العربية الحديثة يجعل لكلامه محلا من الاعتبار .

وفي نهاية الكتاب نماذج ثلاثة من قصص تيمور ، وبالطبع ظهر فيها فنه وقواعده التي يدعو الناس إليها . وما هي في الحق قواعده ، ولكنها قواعد الفن القصصي

الأصيل . وإحداهن — قصة إحسان لله — تمثل روح تيمور ، تلك الروح الهادئة التي لا تغلظ ولا تعنف ولكنها تصور وتمضي في التصوير ، غير عابئة بمثارات الشعور . وبطلها « أبو المعاطي » غلام ريفي أنكده موت أمه وقسوة امرأة أبيه ، جاء إلى القاهرة لعمل خاص بأبيه ، وبينما هو يزور ضريح السيدة إذ امتدت إليه يد بالعطاء تحسبه سائلا لما يبدو عليه من مظاهر الحرمان ، فاستمرأ الغلام المرعى وأصبح زعيما للسائلين . وما أبدع المؤلف وهو يصور حياة السائلين واصطناعهم الحيل لاستدرار عطف المحسنين .

وفي الكتاب مقدمة عن قضية اللغة العربية وموقفها من القصة ، ويبدو تيمور في هذا المقام شديد الحفاظ على العربية ، ويقترح لبسط سلطانها أن نزودها بالاشتقاق وأن نبسطها ونيسر نحوها ونعمم ضبطها[١] . على أن تيمور بعد هذا يعود فيرتضخ العامية لغة المسرحية الممثلة . . . وحجته أن لا يؤذي أسماع المشاهدين العوام بالفصيح من الكلام . . . ![٢] وهي حجة لا يقره عليها حتى هؤلاء المشاهدون . . .

بين الفلسفة والأدب

تأليف الأستاذ علي أدهم

١٤١ صفحة من القطع المتوسط . دار أحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥

الأستاذ علي أدهم أديب يميزه من أدباء عصرنا نزوع نهم إلى قراءة الفلسفة والاجتماع والتاريخ ، وهو يقرأ في الإنجليزية أكثر مما يقرأ في العربية . وقراءته الدائمة في اللغتين تضفي على كتابته ألواناً من الجد والجدة اللذين يفتقر إليهما أدبنا الحديث .

فهو حين يكتب عن أبي العلاء مثلا يأخذ ناحية الفلسفة فيه ، ولا يكتفي بحكم عام يضعه كما يضع كتاب العجلة أحكامهم ، ولكنه يقرأ المعري مرة فمرة ، ويطيل الوقوف عند ما قرأ ، ولا يزال يتقصى جوانب النفس الفلسفية عند شاعر المعرة حتى يحملك على الإيمان معه بأن أبا العلاء ليس فيلسوفاً من باب التوسع والمجاز ، أو لأنه أخذ بطرف من الفلسفة ، وإنما هو فيلسوف بالمعنى الشامل الحديث لكلمة الفلسفة . وهو بهذا الكلام رد على من يقولون إن المعري كانت له خطرات فلسفية ولم تكن له فلسفة قائمة بذاتها .

(١) ص ٧ من الكتاب . (٢) ص ٧٤ .

ويعقد المؤلف فصلاً للموازنة بين أبي العلاء وشوبنهاور ، فهما يتقاربان في اتجاه التفكير ولون المزاج وأسلوب الحياة ، ويختلفان في منهج البحث والمقدرة على كبح جماح النفس . وفي كليهما تبرم بالحياة وسخط عليها ونظر قاتم إليها .

وفي الكتاب فصل عن العلاقة بين الفن والفلسفة . وهو فصل على إيجازه في بضع صفحات يكشف بإيضاح عن الصلة بين شيئين : أحدهما يهدف إلى الحق والآخر يرمي إلى الجمال . فالفلاسفة معنّون بالبحث عن (حقيقة الجمال) ، وهل الشيء الجميل مادة تلمس أو صوت يسمع أو شيء يبدو من وراء الألوان والأصوات ؟ ومن هنا كان اهتمام الفلسفة بالفن وتقديرها له .

أما فصل « البطل والإنسان الأعلى » فهو إلى الفلسفة أقرب منه إلى الأدب . ويبدو المؤلف فيه قارئاً واعياً لتوماس كرليل ولنتشه ولكثير مما كتب منهما أو كتب عنهما . وينتهي الكاتب إلى إبراز الفرق بين تقدير الإنجليز والألمان للأبطال والعظماء ، فالأولون عمليون يطلبون تسويغ المظاهر ، والألمان خياليون يقدرون البطل الذي يثير خيالهم .

عيب ما في الكتاب عمقه لو كان العمق عيباً في الكتاب ، ولكن « علي أدهم » لا يكتب ليسلي قارئه ، ولكنه يكتب له ليجنبه عناء المطالعات في كتب إنجليزية قرأها المؤلف وهضمها وقدمها إلى القراء في لون من ألوان الغذاء الأدبي لا تقوى عليه إلا المعد الصحاح .

العمل لمصر

تأليف الأستاذ محمود كامل المحامي

١٢٦ صفحة من القطع المتوسط . دار الجامعة للطبع والنشر . القاهرة ١٩٤٥

لا تزال طلائع الوعي القومي الذي أشار إليه الدكتور قسطنطين زريق في كتابه النفيس يبدو لنا منها كل يوم أثر جديد . وتلك علامة من علامات الزمن تبشر بأن السبات الطويل الذي كنا فيه بدأ اليوم ينتفض عن الأجفان .

فكتاب « عودة السفينة » للدكتور إسحق موسى الحسيني ، وكتاب « الأداة الحكومية » للدكتور إبرهيم مدكور والأستاذ مريت غالي فيهما دليل جديد على وعي جديد ، وفيهما من التفاؤل أكثر مما فيهما من التشاؤم .

وكتاب « العمل لمصر » فيه أهداف جليلة وضع المؤلف لها برنامجاً بدأه باحداث انقلاب في نظم التعليم بمصر . إلا أنه لم يشرح لنا هذا الانقلاب بل اكتفى بثلاثة أسطر في موضوع كان يقتضيه الإبانة والتطويل .

ولم تسلم الأداة الحكومية في هذا الكتاب من كلة عاجلة عن تنظيمها على أساس إلغاء الاستثناءات التي حدثت منذ قيام النظام النيابي في مصر سنة ١٩٢٤ ، وعلى أساس آخر من العدالة التي يجب أن تسود في معاملة الموظفين ، وعلى الهبوط بميزانيتهم إلى الحد الذي يتناسب مع إنتاجهم ومع حاجة العمل .

ويرى المؤلف أن التربية العسكرية هي أقوم طريق لتكوين جيل تملؤه الرجولة والفتوة وصلابة الجسم ومتانة الخلق . واقترح جيشاً كامل العدة في البر والبحر وفي الأرض والسماء . يبلغ عدده خمسمائة ألف مقاتل تزاد في الحرب إلى ضعفها .

وقد يقول قائل : إن هذا الكلام طائف من الأحلام . ولكن المؤلف الفاضل لم يكن حالما ولا واهما . فقد قطع الطريق على المعترضين والبائسين والمعتذرين بقلة الموارد وعجز المصادر ، وكتب فصلا في آخر الكتاب يدبر فيه مالا جديداً وموارد جديدة لمواجهة برنامج قد يُظن ضرباً من المحال . . .

وأول الموارد عند المؤلف الضريبة التصاعدية التي يجب أن لايفلت منها ممول مصري أو أجنبي ، والمؤلف محام إلا أنه لم يفته وجه المصلحة العامة حين يحتم على الحكومة أن تتقاضى من المحامين الضريبة التصاعدية ، فليس من العدل التفرقة بين طوائف المهن الحرة .

ماذا في الحجاز

تأليف الأستاذ أحمد محمد جمال

٦٢ صفحة من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥

يذكرنا هذا بالمقالة التي كتبها الأستاذ الأديب الحجازي إبرهيم هاشم فلالي في الجزء ٦٢٨ من مجلة « الرسالة » ، وبالمقالات المتابعة التي يكتبها الأستاذ أحمد أبو بكر إبرهيم في المجلة نفسها بعنوان « الحياة الأدبية في الحجاز »*.

* انظر مجلة الرسالة الأجزاء ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ .

والحق أن الأستاذ أبا بكر المصري قد أتى في مقالاته بما لم يأت به كاتب حجازي ، وتلك حسنة لمصر نرجو أن لا يسقطها من حسابه الأستاذ أحمد جمال مؤلف كتاب « ماذا في الحجاز » . . .

والمؤلف عاتب على صحافة مصر أنها تهمل رسائل الحجاز كما تهمل رسائل الأقطار العربية ، وهو عتب سمعناه من أدباء الشام وأدباء لبنان ، وقام المصريون يوماً يقولون لإخوانهم في العروبة قولاً . . . « لكل سؤال يا بثين جواب » .

وما ضاع من أدب الاقطار الشقيقة في صحافة مصر ماله وزن ومقدار ، وها هي ذي أسماء عربية — غير مصرية — تظهر في مجلات مصر الأدبية فيكون لها فيها المحل والمقام .

على أن عتب المؤلف لا يمنعنا من النظر في كتابه الذي يحمده له التاريخ الأدبي المعاصر ، لولا أنه أوجز القول في مقام يقتضيه الإطناب . فما تكفي هذه اللمحات الخواطف إلى ذكر أسماء لأدباء الحجاز لا تشفي غلة الباحث الذي يريد التفصيل والتحليل . فلم يعد هذا الكتاب أن يكون « قائمة » بأسماء بعض الأدباء الحجازيين ، وتحت كل اسم سطران أو ثلاثة ، لا تبين اتجاهاً أدبياً ولا توضح العوامل الفعالة في أدب الكاتب أو شعر الشاعر .

لكن الكتاب على إيجازه محمود ، فلعله يفتح سبيلاً لبحث واسع يفي بأدب هذه الرقعة من الجزيرة العربية التي أسدت إلى الأدب العربي يداً من حقنا اليوم أن نسألها عنها . . .

وبالكتاب قسم عن معاهد التعليم في الحجاز والبعثات العلمية إلى الخارج ، وعيب هذا القسم هو عيب الكتاب كله ، وهو الإيجاز . وللصحافة الحجازية كلمة عابرة في الكتاب ، فما ضر لو طال البحث كله ؟

وفي آخر الكتاب نماذج من الشعر الحجازي ، لاحظنا فيها جميعاً قصر النفس ، حتى كاد أغلبها يكون مقطعات قصاراً . وقد اكتفى المؤلف بهذه النماذج المسطورة التي تمثل « الآثار الأدبية المطوية في الصدور » والتي هي « أبلغ في البيان وأدفع في الحجة لو أردنا بياناً وحجة لأدبنا المجهول » . . . والحق أن عذرنا في جهل الأدب الحجازي — بعد ذلك — عذر مقبول ومعقول . . .

اتّجاه التأليف في عام ١٩٤٥

لما كان من أهداف هذه المجلة خدمة الكتاب العربي ومسايرة النهضة الفكرية رأينا لزاماً علينا في مطلع هذا العام الجديد أن نجلو للقرّاء صورة صادقة من اتجاه التأليف العربي في بعض البلاد العربية خلال عام ١٩٤٥ لعلّ فيها تذكرة نافعة وبياناً يستفيد منه المؤلفون والقرّاء على السواء :

مصر

كانت سنة ١٩٤٥ آخر سنوات الحرب العالمية الثانية ، وكأنما كانت بشائر السلام قد بدأت تلوح في الأفق ، فظهر كتابان يحملان طابع السلام العام المنشود هما : كتاب « التعاون الدولي والسلام العام » لمحمد رفعت ، وكتاب « دعائم السلام » الذي ترجمه الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، وظهر في الوقت نفسه كتابان يحملان لفظة الحرب الكريهة إلى النفوس وهما : كتاب « مطالب الحرب الحديثة » للواء أحمد حمدي باشا ، وكتاب « بين حربين » للصاغ محمد عبد الفتاح إبرهيم .

وفي خلال العام المنصرم أخرجت كتب تعالج المشكلات السياسية والاقتصادية ، وتدرس البلاد والمواقع التي تكون في الغالب موطناً للنزاع بين الدول أو البلاد السائدة في هذا النزاع ، والمواطن التي تصطرع فيها الآراء في الحرب والسلم على السواء فظهر كتابا « نهر الرين » ، و « الولايات المتحدة » لعبد المنعم الشرقاوي ، والكتب الآتية : « قناة السويس » لشنفلد وترجمة أحمد خاكي ، و « النيل » و « روسيا » لمحمد صبيح » ، و « أمريكا » لستيفن فنسنت بنيه وترجمة عبد العزيز عبد المجيد . «وجنيف» لبرنرد شو وترجمة محمد فتحي ومصطفى طه حبيب ، و « عصر الخرافة الذي نعيش فيه » للدكتور شتولبر وترجمة محمد أبو درة ومحمد بكير خليل ، و « جغرافية الحدود » لفاوست وترجمة محمد سيد نصر ، و « نحو عالم جديد » لراشد البراوي .

ولقد قلبت الحرب الثانية أوضاعاً وفتحت العيون على كثير من العيوب التي ضاعفت سنوات الصراع من شدتها ، فاتجه بعض الكتاب إلى أداة الحكم يتحسس أدواءها ويلتمس العلاج لها ، واتجه واحد منهم إلى الإنسان يلتمس بناء الحضارة والسلام

في أعماق ضميره وأسرار تأملاته ، أما كتب الفريق الأول فهي « الأداة الحكومية » لإبرهيم بيومي مدكور ومريت غالي ، و « العمل لمصر » لمحمود كامل ، و « مشكلة الفلاح » لصادق سعد . وأما كتاب الاتجاه الثاني فهو : « أومن بالإنسان » لعبد المنعم خلاف .

***

ولقد ظل الإنتاج العلمي ضئيلاً في عام ١٩٤٥ إذا قيس بالإنتاج الأدبي في العام نفسه . وهذه الضآلة عجيبة في عصر يسميه الناس عصر الذرة التي ستحدث انقلاباً كبيراً في كل شيء والتي ستتجه إليها أنظار العلم لاستغلالها أداة تعمير لا أداة تخريب وتدمير . والحق أن جماعة النشر العلمي قد أسهمت في التأليف العلمي بإخراج أربعة كتب كانت على صغر حجمها مشاركة طيبة في ميدان العلوم وهي : « نحن والعلم » لعلي مصطفى مشرفه ، و« وحي العلم » لمصطفى عبد العزيز ، و« في أعماق الفضاء » لعبد الحميد سماحة ، و « الذرة والقنابل الذرية » لعلي مصطفى مشرفة . وظهر خارج هذه السلسلة كتاب « أدب العلوم » لمحمد عاطف البرقوقي ، وهو تبسيط لمسائل العلوم في أسلوب أدبي ، و« النظرية النسبية » لعلي مصطفى مشرفة ، و« الكيمياء ومسائل الحياة اليومية » لحسن عبد السلام ، و « النار والنور » لأمين كحيل . ومن باب القصص العلمي كتاب « مع الحيات » لحسين فرج زين الدين . وظهر في الفنون كتاب « قضية الجمال والحب » لحلمي عبد الجواد السباعي .

وكان لعلم النفس والتربية والاجتماع في العام الفائت نصيب غير قليل ، فقد لجأ الكتاب إلي الترجمة فيها حيناً وإلى التأليف حيناً آخر . فظهر « الحاسة السادسة » ليوسف سيتيل ترجمة محمد بدران وأحمد محمد عبد الخالق ، « ومشاكل الشباب النفسية » لأحمد عزت راجح ، و«مشكلات الأطفال اليومية» لدجلاس توم وترجمة إسحق رمزي ، و« تحليل النفس » لمحمود محمود ، و« علم النفس العملي » لعزيز فريد ، و « الذاكرة والنسيان » لأحمد عطية الله . وظهرت ثلاثة كتب في التربية لمؤلف واحد وهي : « جان جاك روسو » ، و « التربية والحياة » ، و « التربية الإنجليزية » لمحمد عطية الإبراشي ، وكتاب « في التربية » لبرزندرسل وترجمة أحمد عبد السلام الكرداني ومحمد أحمد الغمراوي ، و« التعليم في رأي القابسي » لأحمد فؤاد الأهواني ، و« الطفل في المدرسة الابتدائية » ترجمة محمد مختار ، و« نفسية المراهق » لرياض محمد عسكر .

وظهر في الاجتماع الطبعة الثانية من كتاب « المذاهب الاجتماعية الحديثة » لمحمد

عبد الله عنان وكتاب « الأسرة ومشاكلها الاجتماعية » للويس إسكندر ، و« الأزمات الزوجية وعلاجها » لمحمد زكي شافعي ، وكتابا « الأسرة والمجتمع » و« المسؤولية والجزاء » لعلي عبد الواحد وافي . وقد أثار الكتاب الأول مناقشة بين المؤلف والعقاد حول نظام الأسرة الإنسانية[١] : أيقوم على دوافع الغريزة ومقتضيات الطبيعة أم يقوم على مواضعات اجتماعية لا تخضع لدوافع الغرائز . أما الكتاب الثاني فطريف في المكتبة العربية ؛ وهو مؤلف إلا أن صاحبه استفاد كثيراً من كتاب الأستاذ فوكنيه (Fauconnet) المطبوع في باريس سنة ١٩٢٠ بعنوان (La Responsabilité) . وقد أثار هذا الكتاب بحثاً للأستاذ إسمعيل مظهر في مسؤولية الحيوان عند بعض الأمم وفي بعض القوانين، يردُّ فيه هذه المسؤولية إلى قاعدة بيولوجية معروفة في علم الأحياء وهي بقاء الأصلح .[٢]

ولعل كتاب « الرسائل والغايات » لهكسلي وترجمة محمود محمود أدخل في باب علم الاجتماع منه في علم آخر ، فهو يبحث في طبيعة المثل العليا للمجتمع ووسائل تحقيقها . وكتاب « العناصر النفسية في سياسة العرب » لشفيق جبري هو محاولة جديدة لتطبيق السلوك العربي في سياسة الحكم على قواعد علم النفس ودراسات النفوس . ويدخل في علمي التربية والأخلاق الجزء الثاني من المنتخبات لأحمد لطفي السيد باشا .

وللفلسفة في العام الماضي حظ واف ، فقد أربى عدد ما ظهر فيها من الكتب على عشرين كتاباً ، وهو عدد يدل على حسن تلقي القراء للموضوعات الفلسفية . وهذه النقلة في تأليفنا العربي من الجانب الأدبي المحض إلى الجانب الذي يبحث في الكون كله على وجه كلي تفسر لنا الفرحة التي استقبل بها العقاد الحركة الفلسفية في مصر[٣] والحق أن ظهور الجمعية الفلسفية المصرية يعد حدثاً جليلا في ذاته ، فقد أخرجت لنا « فيلسوف العرب والمعلم الثاني » لمصطفى باشا عبد الرازق ، و« شخصيات ومذاهب فلسفية » لعثمان أمين ، و « الحياة الروحية في الإسلام » لمحمد مصطفى حلمي ، و « الملامتية والصوفية وأهل الفتوة » لأبي العلا عفيفي ، و « التصوف وفريد الدين العطار » لعبد الوهاب عزام ، و « التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام » لتوفيق الطويل ، و « الدين والوحي والإسلام » لمصطفى باشا عبد الرازق .

وظهر في غير هذه السلسلة كتاب « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » لمصطفى باشا عبد الرازق ، و« الفلسفة الرواقية » لعثمان أمين ، و « المدخل لدراسة الفلسفة الأسلامية» لمحمد يوسف موسى ، و « منبعا الأخلاق والدين » لبرجسون وترجمة سامي الدروبي

(١) مجلة الرسالة الجزء ٦٢١ (٢) مجلة الكتاب الجزء ٢ (٣) مجلة الرسالة الجزء ٦٤٧

وعبد الله عبد الدايم ، و « من تاريخ الإلحاد في الإسلام » ، و « الزمان الوجودي » لعبد الرحمن بدوي ، و « الأحلام » لتوفيق الطويل ، و « ابن الفارض والحب الإلهي » لمحمد مصطفى حلمي ، و « بين الفلسفة والأدب » لعلي أدهم . ويعد ظهور مجلة علم النفس التي يحررها يوسف مراد ومصطفى زيور حدثاً لا يقل عن ظهور الجمعية الفلسفية جلالا وخطراً .

على أن التاريخ لم يظهر له في خلال العام المودع على شكل السرد التاريخي الزمني المألوف ؛ إلا كتاب لمحمد حافظ رمضان باشا عنوانه « أبو الهول قال لي » وهو لم يعرض لتاريخ قطر معين أو عصر معين ولكنه جمع أقطاراً وأعصاراً وتنقل بين الشرق والغرب. وقد ظهر عدد من الأدباء يعرضون التاريخ في معرض القصة التاريخية وهي أكثر تشويقاً للقارىء وأدخل إلى قلبه من الحوادث المجردة . وظهر في هذا اللون من التأليف كتاب «مع الزمان» لمحمد فريد أبي حديد ، و «غادة رشيد» لعلي الجارم بك ، و «على ضفاف دجلة والفرات» لطاهر الطناحي، و «الأمير حيدر» لإبرهيم جلال ، و «وإسلاماه» لعلي أحمد باكثير ، و « الفرعون الموعود » له كذلك ، و « ملك من شعاع » لعادل كامل . والأخيران يستمدان أحداثهما من التاريخ المصري القديم . وكان نصيب التاريخ العسكري كتابين للبكباشي عبد الرحمن زكي مدير المتحف الحربي ، هما « الجيش المصري الحديث » و « معارك حاسمة في تاريخ مصر » .

ولم يذهب من كتاب القصة التاريخية إلى غير الوطن المصري الضيق والوطن الإسلامى الواسع غير أحمد الصاوي محمد ودريني خشبة . فأخرج الأول قصة « عرش وقلب » ، وهي تصور كيف آثر لويس الرابع عشر مجد عرشه على غرام قلبه ، وذهب الثاني إلى اليونان القديمة يجلو منها أحداث الحب والحرب في كتابه « قصة طروادة » .

وظهر في تاريخ الأمكنة والبقاع والرحلات عدد قليل من الكتب . وللحرب وتعذر الانتقال والترحل أثر في قلة كتب الرحلة . فظهر من ذلك كتابا « العالم العربي كما رأيته » و « العالم الديمقراطي كما رأيته » لمحمد ثابت ، و « بغداد مدينة السلام » لطه الراوي، وظهرت « رحلة ناصر خسرو » الرحالة الفارسي المشهور في القرن الخامس الهجري مترجمة بقلم يحيى الخشاب ، و « الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » لزكي محمد حسن . ومما يتصل بالبلدان كتاب « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » لأبي عبيد البكري الأندلسي من علماء القرن الخامس وقد ظهر الجزء الأول منه بتحقيق مصطفى السقا . ومما يتصل بهذه الموضوعات كتاب ظهر منذ أيام عنوانه « ماذا في

السودان » لجلال الدين الحمامصي ، فيه وصف وسياسة وعلم .

واتجهت السير والتراجم في أغلبها إلى أعلام الشرق والإسلام ، وهو اتجاه نرجو أن يكون للشرق منه بعث جديد ، فإن الأمة التي لا تقدر أسلافها لا يرجى منها تقدير ، وللجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية في ذلك فضل كبير .

وظهر في هذا الباب لونان من السير : لون البحث التاريخي المجرد القائم على الدرس والتحليل ، ولون الترجمة على صورة القصص . وأول ما يعرض لنا فى اللون الأول كتابا « أبو الشهداء — الحسين بن علي » و « داعي السماء — بلال بن رباح » لعباس محمود العقاد . وكلام العقاد في الثاني فيه أقوى رد على المنادين بسيادة الجنس في الزمن الأخير . ومن هذا الباب كتب « الإمام الشافعي » لمصطفى عبد الرازق باشا ، و « الفاروق عمر » لمحمد حسين هيكل باشا ، و « أبو حنيفة » لعبد الحليم الجندي ، و « قاسم أمين » لأحمد خاكي ، و « ابن تيمية » لعبد العزيز المراغي ، و « الشعراني » لتوفيق الطويل ، و « رفاعة الطهطاوي » لجمال الدين الشيال ، و « أبو تمام الطائي » لنجيب محمد البهبيتي ، وهو دراسة منهجية أدبيـة ، و « توفيق الحكيم » لإسمعيل أدهم وإبرهيم ناجي ، و « أبو العلاء المعرى — دفاع ابن العديم عنه » لسامي الكيالي ، و « الغزالي » لطه عبد الباقي سرور ، و « حكم قراقوش » لعبد اللطيف حمزة ، و « محمد عبده » لعبد المنعم حمادة ، و « محمد عبده — آراؤه الفلسفية والدينية » بالفرنسية لعثمان أمين ، و « كتاب إسمعيل » الذي طبعته وزارة المعارف واشترك في كتابته نفر من رجال الأدب والعلم والتاريخ .

وكان لمحمد رسول الله في باب التراجم نصيب نرجو أن يزيد على الأيام لتجلية هذا المثل الإنساني الأكرم . فظهر كتاب « محمد القائد » للصاغ محمد عبد الفتاح إبرهيم وهو دراسة للمجاهد الإسلامي الأول من حيث القيادة والحرب ، و « محمد رسول الله » لمولاي محمد علي الهندى وترجمة مصطفى فهمي ، و « حياة محمد » لأميل درمنغهم وترجمة محمد عادل زعيتر .

ومن اللون الثاني القصصي من التراجم كتاب « فارس بني حمدان » لعلي الجارم و « قطر الندى » لمحمد سعيد العريان ، و « سعد بن أبي وقاص » لعبد الحميد جودة السحار ، « وخالد بن الوليد » لعامر محمد بحيري وهو مسرحية شعرية ، و « نفرتيتي » لسنية قراعة .

وتلك النظرة « السلفية » إلى التراجم قد أحسن الدفاع عنها العقاد في مقال له

بعنوان « السلفية والمستقبلية »* على أن بعضا من الكتاب اتجهوا إلى الغرب في التراجم ، وما في ذلك بأس على المغربين كما لا بأس على المشرقين . . . ومن التراجم الغربية ، « فرنسيس باكون » لعباس محمود العقاد ، و « جوته » لصديق شيبوب ، و « بشكين » لنجاتي صدقي ، وقد أعانه على نجاحه في السيرة معرفته بالروسية ، و « دزرائيلي » لراشد البراوي ، و « نابليون على فراش الموت » لمصطفى الديواني وفيه لذة يشيع فيها الحزن على مصير الرجل العظيم .

***

وكان الإنتاج القصصي والمسرحي وافراً في العام المنصرم على الرغم من حداثة القصص في الأدب العربي ، وللجنة النشر للجامعيين جهدها في هذا السبيل ، وقد ظهرت القصة القصيرة ، الموضوعة بجانب المترجمة ، فترجم محمد عوض إبرهيم للشاعر شكسبير مسرحيتين : « الليلة الثانية عشرة » ، و « أنطوني وكليوباترة » وترجم وديع فلسطين مسرحية « الأب » للكاتب السويدي سترندبرج ، وترجم محمود إبرهيم الدسوقي مجموعة من القصص الألماني عنوانها : « عبرات وبسمات » ، وترجم فرج جبران « رسائل النساء الجديدة » لمرسيل بريفو ، وترجم عبد الرحمن بدوي « الأنساب المختارة » للشاعر جوته ، وترجم توفيق أحمد البكري « الجلنار » لأسكار ولد ، وظهرت « قصص روسية » للمرحوم محمد السباعي .

وصدر في القصص والمسرحيات الموضوعة : نفر رس أس» لسمو الأميرة شويكار ، و « خان الخليلي » لنجيب محفوظ ، وهي قصة زاهية بألوان فاتنة لهذا الحي العتيق ، و « رجلان وامرأة » لمحمد علي غريب ، وهي وصف للحياة في القرية المصرية ، و « مرايا الناس » للسيدة وداد سكاكيني ، وفي أسلوبها أسْر وتنوُّق في اختيار اللفظ ، و « هتاف الجماهير » لأمين يوسف غراب ، وفي ريشته سخرية ، و « شيلوك الجديد » لعلي أحمد باكثير ، وفيها طغيان عنصر السياسة على عنصر الفن ، و « الكأس السابعة » لصلاح ذهني ، وفيها رضا الفنان عن فنه . . . و «الشيخ قرير العين» لكرم ملحم كرم ، وفيها نفحات من الجبل الأشم . . و « كليوباترة في خان الخليلي » لمحمود تيمور .

ويدخل في هذا الباب « حماري قال لي » لتوفيق الحكيم ، وفيها خفة وسخرية ، و « فن القصص » لمحمود تيمور وفيه ثلاث قصص على سبيل المثال ، و « الأطياف

* مجلة الرسالة ، الجزء ٦٢٧

الأربعة » لسيد قطب وإخوته ، وهو مزيج من القصة وخطرات الأنفس الحساسة .
وقد أعاد إبرهيم عبد القادر المازني طبع قصته المصرية « إبرهيم الكاتب » ،

***

وكذلك ظفرت اللغة العربية بعناية بعض الكتاب ، وقد صوّرها بعضهم في شكل مشكلة وحاول أن يجد لها من الحلول ما تستطيع به أن تساير الزمن الذي لا يتوقف عن المسير . فظهر من ذلك كتاب « مشكلة اللغة العربية » للشيخ محمد عرفة ، وكتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » لسلامة موسى .

وفي الكتاب الأول اعتراف من عالم لغوي بإخفاقنا في تعليم اللغة العربية وفيه بحث في طرق تعليمها . وفي الكتاب الثاني نظرات تجديدية جريئة إلى اللغة العربية وفيه ثورة على أوضاعها المألوفة ونزعة متطرفة إلى التجديد اللغوي . . . وقد أثار هذا الكتاب الانقلابي حماسة نفر من المحافظين وناقشه أحمد محمد الحوفي في مجلة الرسالة في سلسلة من المقالات .*

وظهر كتاب « دفاع عن البلاغة » لأحمد حسن الزيات ، هو دفاع بليغ عن مذهبه في الكتابة ، مذهب الصدور من أمراء البيان العربي . وطبع كتاب « البديع » لعبد الله بن المعتز . وكتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين » لابن الأنباري وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، وكتاب « شرح الأشموني » بتحقيقه أيضاً وهما في النحو .

***

ولم يكن الأدب وما يتصل به من التاريخ الأدبي بأقل حظاً من عناية الأدباء، فقد ظهر منه في المقالة الأدبية والنقد كتاب حديث « حديث الأربعاء — الجزء الثالث » ، و « فصول في الأدب والنقد » لطه حسين ، و « ساعات بين الكتب — الجزء الثاني » لعباس محمود العقاد ، و « فيض الخاطر — الجزء السادس » لأحمد أمين ، و « البيادر » لميخائيل نعيمة ، و « عطر ودخان » لمحمود تيمور وكأنما أراد أن يثبت مقدرته على معالجة المقالة . وفي الوقت الذي ظهرت فيه كتب المقالة العربية الموضوعة ظهرت ترجمة دقيقة لكتاب « مقالات مختارة من الأدب الإنجليزي » لمحمد بدران ، و « فنون الأدب » للأستاذ شرلتون وترجمة زكي نجيب محمود . ويدخل في هذا الباب كتاب « جنة الشوك » لطه حسين ، « وهذه الشجرة » للعقاد ، و « نظرات في الحياة

---

* مجلة الرسالة ، الأجزاء ٦٢٤ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨

والمجتمع » لعلي أدهم . وظهر الجزء السادس من كتاب « الحيوان » للجاحظ بتحقيق عبد السلام هرون وتعليقه وناهيك به في الأدب من كتاب .

ولابد من الإشارة إلى كتابين في النقد الأدبي على أسلوب لم ينهج ، وهما كتاب « التصوير الفني في القرآن » لسيد قطب ، و « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » لشوقي ضيف .

وظهر في التاريخ الأدبي والثقافي الجزء الثاني من قصة « الأدب في العالم » بقسميه الأول والثاني في مجلدين كبيرين لأحمد أمين وزكي نجيب محمود ، وكتاب « ظهر الإسلام » لأحمد أمين . وينتهي إلى آخر القرن الرابع ويعد تكملة لكتابيه « فجر الإسلام » « وضحى الإسلام » ، كما ظهر « تاريخ الشعر السياسي » لأحمد الشايب وينتهي إلى منتصف القرن الثاني الهجري ، و « دولة النساء » للمرحوم عبد الرحمن البرقوقي وهو معجم واسع يدور حول المرأة وليس ترجمة لأعلام النساء ، وفيه من ملح الأدب النسائي شيء كثير ، و « حضارة العرب » لجستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر وفيه إنصاف كثير للعرب والمسلمين وبعد عن التعصب ، و « تطور الخمريات في الشعر العربي » لجميل سعيد ، و « تطور الصحافة المصرية » لإبرهيم عبده ، و « تطور النهضة النسائية في مصر » لدرية شفيق وإبرهيم عبده ، و « مصر والشام في الغابر والحاضر » لأسعد طلس ، وهو يبحث في إيجاز عن العلاقات بين القطرين الشقيقين وأثرها في الفكر والأدب ، و « العشاق الثلاثة — جميل وكثير وابن الأحنف » لزكي مبارك و « شعر الطبيعة في الأدب العربي» لسيدنوفل ، و « أدب الخوارج في الإسلام » لسهير القلماوي ، و « رأي في أبي العلاء المعري » لأمين الخولي ، و « جامعة الإسكندرية » لإبرهيم جمعة ، و «الأدب المصري القديم» للأثري سليم حسن ، وهو بحث واسع اقتضاه أعواماً طوالا ، ويعد الكتاب العربي الأول في موضوعه ، و « البدائع » في درس نماذج خالدة من الأدب اليوناني القديم لمحمد سليم سالم ، و « ماذا في الحجاز » لأحمد محمد جمال . وأخرجت دار الكتب المصرية الجزء الحادي عشر من الأغاني .

ولعل كتاب « في بيتي » لعباس محمود العقاد من أحفل كتب سنة ١٩٤٥ بالأفكار والدراسات المركزة على صغر حجمه ، وأبرز ما فيه تفضيل العقاد الشعر على القصة .

* * *

بقي أن الشعر لم تكن سوقه رائجة في العام المنصرم ، فأربعة دواوين في وسط ذلك المزدحم من الإنتاج الأدبي عدد قليل ، وعزاؤنا أنها على قلتها جيدة . فديوان «من

وحي المرأة » لعبد الرحمن صدقي هو أنات قلبه على زوجته التى اختطفها الموت من بين يديه ، وهو يذكرنا بديوان « أنات حائرة » لعزيز أباظة باشا الذي أظهر ته اللوعة على الزوجة الوفية قبل عامنا هذا . وديوان « الشوق العائد » لعلي محمود طه فيه من برح الحب وعواطف القلب شيء كثير . وديوان البعث لمحمد محمود، وهو شاعر يحاول التجديد إلا أنه في وثاق القديم ، وديوان « أصداء بعيدة » للعوضي الوكيل، وهو تعبير صادق عن نفس صاحبه . ويتصل بالشعر كتاب « حدائق السحر في دقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط وكتاب « أغاني شيراز — الجزء الثاني » وقد نقلهما من الفارسية إلى العربية إبرهيم أمين الشواربي .

وقد أعادتنا دار الكتب المصرية إلى أصالة الشعر القديم ورصانته بإخراجها « شرح ديوان زهير بن أبي سلمى » و « ديوان الهذليين » فنقلتنا في عام واحد من طرافة الجديد الى عراقة القديم .

ولا يشمل هذا البيان الكتب المدرسية المقررة، وغير المقررة، ولا كتب الأطفال ولا التقارير والنشرات الرسمية، كما أنه لا يضم متفرقات الكتب التي لم تصدر عن دور النشر المعروفة .

فلسطين

أما في فلسطين فقد كان عام ١٩٤٥ أخصب الأعوام في الإنتاج العقلي منذ عام ١٩١٩ ذلك بأن عدد المؤلفات العربية التي ظهرت في فلسطين خلال ذلك العام بلغ ٢٨ كتاباً ، وإن كان ثمة سهو فهو في الزيادة لا في النقصان .

وأكبر عدد عرفته البلاد الفلسطينية كان ٢٠ كتاباً في عام ١٩٢٠ ، ثم ١٨ كتاباً في كل من عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٠ . ثم ينزل العدد إلى ١٦ كتاباً في عام ١٩٣٥ . وفي أسوإ الأعوام نزل إلى (صفر) عام ١٩٢٢ وإلى كتابين عام ١٩٢٠ . ومعنى ذلك أن الزيادة في هذا العام هي نحو من ٤٠ ./. بالنسبة إلى أفضل الأعوام .

وهذه الأرقام — في الواقع — تقريبية ، إذ لا مصدر يعول عليه في الوصول إلى أرقام صحيحة مضبوطة ، ولكنها أقرب شيء إلى الصواب . وربما وصل العدد في ختام عام ١٩٤٥ إلى ٣٠ كتاباً فتكون الزيادة ٥٠ ./. .

أما سبب هذا الخصب النسبي فيرجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية . أولها : الوعي الذي تبدو مظاهره في مختلف نواحي الحياة العربية . وثانيها : زيادة عدد الطلاب في المدارس

الابتدائية والثانوية في المدن والقرى . وثالثها : ما أثارته الصحف في سنوات الحرب من رغبة في القراءة .

ومع أن أزمة الورق ما زالت على حالها فإن المؤلفين يشقون طريقهم كما تشق النبتة طريقها في وسط التربة الصخرية . ولا شك في أنه لو كان الورق على حاله قبل الحرب لزاد العدد زيادة كبيرة .

وإذا استثنينا المطبوعات التي تصدرها الشركات والهيئات كدليل المعرض الصناعي العربي الذي أقيم في يافا صيف عام ١٩٤٥ ، ومنشورات لجنتي اليتيم العربي في القدس وحيفا وصندوق الأمة في القدس والغرف التجارية وما إليها ، أمكن حصر التأليف في البيان الآتي :

تحتل الكتب المدرسية الصدارة ، لأن رواجها مضمون إلى حد كبير، وقد ظهر منها عدة كتب في مختلف الموضوعات المألوفة، غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى كتابين منها لما فيهما من الطرافة أولهما : « الديك الشاطر » لإسطفان حنا إسطفان وهو أول أقصوصة شعبية تطبع للأطفال في فلسطين ، وثانيهما : « العروض السهل » لإسحق موسى الحسيني وفايز الغول، وقد اتجه فيه المؤلفان اتجاهاً جديداً في الأسلوب والعرض متبعين لأول مرة طريقة الرموز المستعملة في تدريس العروض الأوربي .

وكان للتاريخ نصيب من اهتمام المؤلفين ، وأغلب المؤلفات التاريخية يدور حول العرب والإسلام فصدر في هذا الباب : «الإقطاع في الإسلام» لرفيق التميمي «والحروب الصليبية » له أيضاً و«شخصيات عربية تاريخية» و « وثبة العرب » لنقولا زيادة ، فضلاً عن كتابين طبعا بمصر ، هما « حضارة العرب » و « حياة محمد » ترجمة عادل زعيتر ،

وجال المؤلفون كذلك جولات صادقة في ميدان الاجتماع وإن كانت جولات محصورة في كتابين اثنين هما : « خطرات ريفية » لحسن مصطفى و « عودة السفينة » لإسحق موسى الحسيني، وفي الكتابين يدعو المؤلفان إلى رفع مستوى الفكر والمعيشة ، ويعالجان المشكلات التي تعرقل سير المجتمع ويتفقان في الهدف وهو صلاح المجتمع وخيره ويختلفان في أسلوب المعالجة ونطاق البحث .

وعني بعض رجال الدين المسيحي بالكتب الدينية فظهر منها ثلاثة كتب هي : « التكريس لقلب مريم والحياة المسيحية الحقة » و « فلنكون الشبيبة ولنهذبها » بقلم مطران اللاتين ، والكتاب الثاني مترجم عن الإيطالية ، و « دروس التاريخ المقدس » للخوري أنطون الفرغاني .

وعالج السياسة التي تشغل البال في كل حين كتابان : «الصهيونية» لسعدي بسيسو، و « العقدة الفلسطينية » لعصبة التحرر الوطني ، والأول ينحو نحواً علمياً ويحتوي على وثائق وأرقام مهمة للغاية ، والثاني يعالج القضية بإيجاز عن طريق التحرر القومي الشامل.

ولم يكن للأدب في مختلف فروعه غير كتابين هما : « فن إنشاء الشعر العربي » لإسحق موسى الحسيني والأب إسطفان سالم، و «قصة شهرزاد ولز» لميرزا بشير الدين. كذلك كان للشعر ديوانان هما : « أفراح الربيع » لحسن البحيري ، و « الذكريات » لقيصر الخوري ، والمعروف أن أزمة الورق هي التي تحول دون ظهور عدد من الدواوين للشعراء الفلسطينيين . ويضاف إلى ما تقدم كتاب « المعرفة التجارية » لمحمد يونس الحسيني وفيه عناية ملموسة بشؤون التجارة ، وكتيب عنوانه ؛ من « طرائف العلماء » لعلي شعث ، وهو الجزء الأول من سلسلة شهرية تصدر لأول مرة في تاريخ التأليف بفلسطين ، وأمر هذه السلاسل سنّة حميدة استنتها دار المعارف بمصر يوم أصدرت سلسلة « اقرأ » وتبعتها فيها دور النشر في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق .

لبنان

وأما في لبنان فحسبنا نظرة عجلى نلقيها على الكتب التي صدرت في خلال عام ١٩٤٥ لندرك أنه ليس لهذه المؤلفات اتجاه موحد ، وإنما هي متعددة مباحث ، مختلفة ألواناً ، متباينة عمقاً وابتداعاً ورصانة، ولا نجد رابطة في الموضوعات إلا فيما تصدره «دار العلم للملايين » ، لأنها تعنى عناية خاصة بالمباحث السيكولوجية والثقافة الجنسية . ومرد الأمر في تعدد الألوان والاتجاهات هو أن اللبنانيين لا يقتصرون في غذائهم الفكري على ما يصدر في لبنان وحده من مجلات وكتب ، وإنما يتتبعون ما تصدره دور النشر المصرية ويفيدون منها في ثقافتهم العامة ، كما أنهم يطالعون عادة إلى جانب اللغة العربية القومية كثيراً من مؤلفات اللغات الأجنبية ، ولا سيما الموضوعات التي تعرض للمباحث الفكرية العالمية والقضايا التاريخية والدراسات الفلسفية والأدبية . ولسنا نخطىء في حكمنا إذا قلنا إن نتاج دور النشر اللبنانية والمصرية لا يقدم للبنانيين إلا جزءاً ضئيلا من غذائهم العقلي. ولذلك نرى المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية تزيد في شوارع بيروت على المكتبات التي تعنى ببيع الكتب العربية .

والسبب الثاني فيما نراه من تفاوت في قيمة المطبوعات اللبنانية هو أن « دور النشر » بالمعنى المعروف في البلدان الراقية تكاد تكون معدومة الأثر بلبنان ، اللهم إلا دوراً

قليلة جداً من مثل « دار المكشوف » التي أدت خدمات جليلة للكتاب وللمؤلف اللبناني .

ولطالما شكا المؤلف اللبناني بوجه عام من أن السوق المصرية مقفلة في وجهه ، فهو يروّج للكتاب المصري ويقرؤه ويقتنيه . وأما القارىء المصري فلا يقبل على الكتاب اللبناني ، ولا يعنى به عناية العراقي الذي يتابع بدقة حركة النشر في لبنان ويطالع أكثر ما تخرجه المطابع اللبنانية ، حتى رأينا بعض الأدباء يعنون عناية خاصة بالمباحث التي تهم العراقيين ، فيؤلفون ويطبعون في بيروت وينشرون في العراق كالشيخ عبدالله العلايلي مثلا ، غير أن هذه الشكوى قد أخذت تضمحل شيئاً فشيئاً ، والمأمول أن يزداد التعاون الثقافي بين البلاد العربية توثقاً وتمكناً على الأيام .

ونستطيع بعد هذه المقدمة أن نلمّ بالمؤلفات اللبنانية ونذكرها بحسب موضوعاتها :

في المباحث السيكولوجية ظهرت عشرة كتب من سلسلة « دار العلم للملايين » التي يرأسها الأستاذ منير البعلبكي ويديرها الأستاذ بهيج عثمان ، وهذه الكتب هي : « علم النفس يدلك على الطريق » و « شخصيتك كيف تقويها » و « القوة الإرادة » و « الموت للخجل » و « عدوك الأول : الخوف » و « ذلك الشعور بالنقص » و « النرفزة » و « حذار من الهم » و « فن معاملة الناس » و « كيف تحل مشاكلك » .

وفي الثقافة الجنسية صدر أيضاً من سلسلة أخرى لهذه الدار الكتب الآتية :

« ما يجب ألا يجهله كل شاب » و « ما يجب ألا تجهله كل فتاة » و « ما يجب ألا تجهله كل زوجة » .

ويلي علم النفس العلوم الفلسفية ، ولم يبرز فيها خلال العام المنصرم إلا كتاب واحد عنوانه : « نظرات في فلسفة العرب » لجبور عبد النور ، وهو دراسات في نشوء الفكر الفلسفي عند العرب وجلاء لأبرز الشخصيات التي تمثل المذاهب الإشراقية والذوقية والاختبارية .

وفي عالم الشعر صدرت عدة دواوين شعرية ، هي « الحرية » ليوسف نحال ، و « رباعيات عمر الخيام » لأحمد الصافي النجفي ، و « ثورة وجهاد » لفكتور ملحم البستاني ، و « الجبل الملهم » لشارل القرم نقله إلى العربية الأب أسطفان فرحات ، وهي كلها من جيّد الشعر وعيون الإلهام ، ويتصل بهذه الدواوين كتاب « معنّى رشيد نخلة » لأمين نخلة والمعنّى هو ضرب من الزجل اللبناني ، وله في لبنان أساطين وفحول ، وميزة أصحابه قدرتهم على الارتجال مع التحليق في سماء المعاني .

ولقد كان للثقافة والأدب نصيبهما أيضاً من أقلام المؤلفين ، فرأينا المكتبة العربية

تضم إليها مؤلفات جديدة تتسم بسمة الرصانة والبحث العميق والجدة ، فإن « زوبعة الدهور » لمارون عبود دراسة عميقة في شاعر معرة النعمان ، وينتظم في هذا السماط أيضاً كتاب « أبوالعلاء المعري » للأب يوحنا فاخوري، و« الشعراء الفرسان »لبطرس البستاني دراسة طريفة في الفروسية عند العرب وفي سير الشعراء الفرسان وأخلاقهم في العصر الجاهلي ، و « خمسة شعراء جاهليين » لعمرفروخ وعارف أبو شقرا دراسات أدبية من الطراز الأول وإن قل حجمها . و« التعاون الثقافي بين الأقطار العربية » لعبد الله مشنوق من أهم الكتب التي تجلو هذا التعاون الثقافي الذي تطمح إليه البلاد العربية اليوم وتعمل على توثيقه ، و « الدراسة الأدبية » لرئيف خوري معالجة جديدة لأصول النقد الأدبي ودراسة أساليبه على أسس جديدة .

ولم يغفل المؤلفون شأن القصص وما يحتله في هذه الأيام من منزلة مرموقة جعلت كثيراً من الكتّاب يتخذونه مجلى لعرائس أفكارهم في مختلف نواحي التاريخ والعلوم والاجتماع والسياسة وما إلى ذلك ، فقد ظهر من القصص : « وجوه وحكايات » لمارون عبود ، وهي مجموعة قصص تتناول وصف الحياة والعادات والتقاليد في القرية اللبنانية ، و« في حنايا الدرج » لأحمد مكي ، و« أنا مخطوبة » ليونس يوسف ، وفي كليهما نظرات صائبة في الحياة الاجتماعية ، فضلا عن سلسلة قصصية مصورة صدرت حديثاً باسم «شهرزاد» وقام على نشرها رئيف خوري والرسام رضوان الشهابي . ومما لا يخرج عن نطاق القصص الموشح بالخيال الخصب كتابان استوحيا قصصهما من الأساطير هما : « من أعماق الجبل » لصلاح لبكي ، و« أساطير شرقية » لكرم البستاني ، والأول مجموعة أساطير لبنانية قديمة وحديثة ، قدمها ببحث عن أثر الأسطورة في الأدب الأستاذ بطرس البستاني والثاني دراسة طريفة في الخرافات القديمة .

كذلك كان للعلوم القانونية نصيبها من ثروة لبنان القلمية في العام الماضي فخفل المهتمون بهذه العلوم بكتابين هما : « مجموعة النصوص القانونية » لأمين مشحور ، وهومجموعة نفيسة في القوانين العقارية ، و «الشفعة» لزهدي يكن ، وهودراسة حقوقية واسعة المدى .

وظفرت كل من السياسة والرحلات والاجتماع وعلم الترجمة بكتاب واحد، فإن « الحقيقية اللبنانية » لعمر فاخوري مجموعة دراسات في النشاط الفكرى السياسي . والتوجيهات الوطنية ، و « وحي الرافدين » لمحمد علي الحوماني كتاب ضخم يحتوي على مشاهدات عراقية جليلة الأثر ، و « المفكرة الريفية » لأمين نخلة صور اجتماعية

ظريفة ، كما أن «مناهج الترجمة» لإدوار البستاني لا يستغني عنه المشتغلون بفن الترجمة.

وينتهي بنا المطاف إلى كتاب «قصر الحير الغربي» ترجمة إلياس أبي شبكة ، وهو وصف للحفريات التي أجراها العالم الأثري دانيال شلومبرجة في صحراء سوريا قرب تدمر فكشفت عن قصر هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي .

سوريا

وأما سوريا ففيها اليوم يقظة عظيمة في مختلف سبل الحياة والفكر ، فهذا القطر الصغير يموج حركة وتقدماً . وهو أمر لا يشعر به الفرد السوري ، بل هو لا يقدر أن شيئاً من ذلك صحيح ، فهو يتذمر من كل شيء . ويظن الظنون في كل شيء ، ولعل في هذا سر تقدمه ورقيه .

كثيراً ما تسمع في سوريا شكاوى الشاكين من ضعف التأليف فيها وقلة نصيب مؤلفيها من الإنتاج ، بل يذهب الكثيرون إلى أنها خالية من التأليف والنشر . وأولئك فئة المتذمرين أو المرتابين ، وفي تذمرهم وريبهم الخير والتحفز، على أننا إذا نظرنا في حقيقة الأمر تجلى لنا الصواب .

بلغت قيمة الورق وأجور الطبع حداً باهظاً في سوريا ، وخلا هذا البلد من دور للنشر تشجع المؤلفين على التصنيف أو ترغبهم بحسن النشر واتساعه وسرعته ، هذا والقارىء السوري يبتاع الكتب كثيراً أو قليلا ، ولكنه لا يخص مؤلفي سوريا ولبنان، بل المؤلفون العرب عنده سواء ، إذا لم نقل إنه كثير النقد لمؤلفي بلده يتتبع سقطاتهم ويشهرها . أما اللجان الأدبية والعلمية فقليلة حتى الساعة بحيث لا يرى المؤلف السوري تشجيعاً عاماً . ووزارة المعارف منهمكة في إصلاح نظم التعليم ومناهجه، ولما تفرغ إلى وضع الأساليب لتنشيط التأليف وتوجيهه .

في هذا الجو يعمل مؤلفو سوريا اليوم ، وماذا بوسعهم أن يعملوا ؟ ألا تعجب إذا عرفت أنهم نشطوا بأكثر مما توحيه حالهم . وهذه أعمالهم في عام ١٩٤٥ تشير إلى نشاطهم.

عكف قسم منهم في هذا العام على البحث عن حضارة العرب ، وهي محببة إلى قلوبهم، فأكثروا من التأليف فيها وإظهار محاسنها ، فأخرج جورج حداد وراتب الحسامي في سلسلة دار اليقظة « مختصر تاريخ الحضارة العربية » بحثا فيه عن إدارة الدولة الإسلامية وحياتها الاجتماعية والاقتصادية وحركاتها الفكرية والفنية ، وأصدرت هذه السلسلة أيضاً كتاباً لعمر فروخ عن « عبقرية العرب في العلم والفلسفة » ، وأخرج

سعيد الأفغاني في مجموعة المكتبة الهاشمية كتاباً في «الإسلام والمرأة» ، وصدر لمحمد يس الحموي في المجموعة نفسها كتاب عن « تاريخ الأسطول العربي » ، وذيل اسم الكتاب بقوله : إنه «صفحة كبيرة من تاريخ العرب» ، وأعاد زكي الأرسوذي طبع كتابه عن « عبقرية العرب في لسانهم » وهو بحث فيه استخراجات لم يسبق إليها ، وتابع السيد محسن الأمين كتابه الضخم عن «أعيان الشيعة» فطبع الجزأين السابع عشر والثامن عشر، ونشر سعيد الأفغاني في مجموعة المكتبة الهاشمية أحد أجزاء كتاب « سير النبلاء للذهبي » وفيه ترجمة عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وأصدرت مصلحة الآثار أول كتب « سلسلة الأبنية التاريخية بدمشق» وهو بحث عن «دمشق القديمة وأسوارها وأبراجها وأبوابها» لصلاح الدين المنجد ، وأخرج يوسف العش في مجموعة المكتبة العربية كتاباً عن «الخطيب البغدادي ، مؤرخ بغداد ومحدثها » .

وتلك حركة طيبة في التأليف عن التراث العربي وأعلام الفكر فيه . والبحث عن التاريخ الأدبي عند العرب لا يقل شأناً عند مؤلفي سوريا، بل في طبعهم سائق إلى العناية به . وهذا المجمع العلمي العربي ينشر كتاب « المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري » ويجمع فيه ما قيل في حفلة من نثر وشعر، وأخرج جماعة من الأساتذة في سلسلة دار اليقظة كتاباً سموه «الوجيز في الأدب العربي»، ووضع سليم الجندي كتاباً عن «النابغة الذبياني» ظهر منه في « منشورات أصدقاء الكتب » الجزء الأول وهو في الشاعر نفسه حياته وشعره ، وسيكون القسم الثاني في شرح ديوانه ، وأخرج السيد محسن الأمين كتاباً عن « أبي فراس الحمداني » ، ووضع جميل سلطان سلسلة عنوانها « الخالدون » أصدر منها ثلاثة أجزاء أولها عن « النابغة الذبياني» وثانيها عن «الحطيئة» وثالثها عن « أبي تمام» وكل واحد منها بحث مختصر يعرف بمن وضع عنه ، وخرجت الأجزاء في مجموعة المكتبة الهاشمية . وأخرج الأستاذ سامي الكيالي بحثاً عن « أبي العلاء المعري ودفاع ابن العديم عنه » (طبع بمصر) .

والأدب في سوريا أكثره قصص، وقليل منه أبحاث أو مقالات مجموعة، وقد ظهر في هذه السنة كتاب ضخم لخير الدين الأيوبي اسمه « السلوان الكاذب » قص فيه الكاتب «حياة حزن وأسى ليستعين بالبث والشكوى على السلوان » .

وصدرت أيضاً قصة « هاروت وماروت » لخليل هنداوي، و «الفضيلة العربية» لزهير ميرزا وبحث عن « فنون الحب » لسامي الشمعة ، ولخص صلاح الدين المنجد قصصاً تصور عشق بعض الشهيرات من نساء فرنسا وجمعها في جزء أسماه « نساء

عاشقات» يقع في نحو من مائة صفحة ظهر في منشورات أصدقاء الكتاب . وأخرج زهير الشوا قصة مسرحية عن « جيشنا السوري » ، وأصدرت السيدة وداد سكاكيني مجموعة قصص أسمتها « مرايا الناس » طبعت بمصر .

أما التأليف العلمي فله ممثلوه هذا العام. وهذا أحمد السمان يخرج كتاباً يسميه «الوقائع والنظريات الاقتصادية في العصر الحديث » طبعه في مطبعة الجامعة السورية . وطبع في هذه المطبعة حسني سبح كتابه الضخم عن « مبحث الأعراض والتشخيص » . وهذا حافظ الجمالي يصدر له كتاب في « الأخلاق » في سلسلة دار اليقظة . وتنشر هذه الدار أجزاء في موضوعات شتى من « نظرات في الصيام » لشوكة موفق الشطي ، إلى «خفايا الحياة الجنسية » لكَرْنو ترجمة وجيه الصباغ القسم الأول والثاني ، إلى « مذكرات علم النفس » لأحد أعضاء أسرة دار اليقظة . وأخرج أسعد طلس في مجموعة دار المعارف للطباعة والنشر بالقاهرة كتاباً في « مصر والشام في الغابر والحاضر » ، ووضع عمر رضا كحالة كتاباً ضخماً ضمنه « جغرافية شبه جزيرة العرب » ونشره في مجموعة المكتبة الهاشمية .

وألف بعض المؤلفين في سوريا كتباً في البحث عن قضايا السياسة ، فكتب سعد معتوق « الكتاب الأسود» تناول فيه الاستعمار الإفرنسي في الجزائر والاستعمار الصهيوني في فلسطين العربية . ووضع منير الشريف كتاباً في سلسلة دار اليقظة أسماه «أيها العرب اتحدوا » . وذكر سامي الشمعة رأي كتاب العالم عن « القضية السورية والقضية العربية » ونشر مذكرات فيصل عن القضية العربية واحتلال سورية في جزء ، وكلا الكتابين من جملة سلسلة دار اليقظة . وظهر لوديع تلحوق كتاب عن « فلسطين العربية » نشرته مجلة أنوار .

ولسنا بصدد ذكر الكتب المدرسية التي ظهرت هذه السنة أو هي على وشك الظهور ، فهي كثيرة تنوف على الخمسين بين ابتدائية وثانوية .

العراق

وأما في العراق فإن الحركة العلمية والأدبية التي نشطت فيه بعض النشاط أصيبت بتوقف وركود في الطبع والنشر خلال سنوات الحرب العالمية الأخيرة ، وذلك لشح الورق وحاجة المطابع العراقية إلى الحروف الجديدة — وليس في طول البلاد وعرضها مسبك حروف — وقد حظر تصديرها من مصر والشام إلا بقيود وحدود صارمة وتكاليف

باهظة . وكانت سنة ١٩٤٥ من أشد السنوات العجاف في الطبع والنشر ، وإن كان بعض علماء العراق وأدبائه لم ينقطعوا عن الكتابة والتأليف والتدوين .

ومع هذه الصعاب جهدت وزارة المعارف في طبع الكتب المدرسية ، وقصرت ما استطاعت الحصول عليه من الورق على طبع تقاريرها ونشراتها الرسمية ، منها مجلتها العلمية « المعلم الجديد » التي توقفت لأزمة الطباعة ثم استأنفت الوزارة إصداها هذه السنة ، وهي خاصة بالتربية والتعليم ، وتظهر ست مرات في العام .

واستطاع بعض رجال المعارف نشر بحوث ودراسات فنية تخصهم ، فأصدر الأستاذ حسن أحمد السلمان مدير التعليم الريفي رسالة « مرشد المعلمين في المدارس الابتدائية » وقد سبقها برسالة في « التعليم الريفي في العراق وما يرجى منه » . وكتاب « مباحث في علم النفس الحديث » نقلها عن طائفة من أساتذة هذا العلم بالإنجليزية .

وأخذت دار المعلمين العالية في بغداد في نشر سلسلة كتب علمية يفتقر إليها طلابها، بدا منها : « دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي للعصر العباسي الأول » للدكتور عبد العزيز الدوري خريج جامعة لندن، وهو منهمك الآن في طبع الجزء الثاني من كتابه هذا .

ونشرت جانباً من كتاب « تاريخ العرب » الذي وضعه بالإنجليزية الدكتور فيليب حتى الأستاذ بجامعة برنستون في أمريكا وقد نقله إلى العربية المصري المنتدب للتدريس في الدار الأستاذ محمد مبروك نافع .

ونشر عميد هذه الدار الدكتور متى عقراوي كتاب «التعليم والديمقراطية» ترجمه عن الأستاذ جون دوي الأمريكي . ونشر الأستاذ عبد الحميد كاظم كتاب « علم النفس » ترجمه عن روبرت . س ودورث أستاذ علم النفس في جامعة كولمبيا . بطبعة الكتاب الإنجليزية الثانية عشرة سنة ١٩٤٠ إذ سبق للأستاذ أحمد سامح الخالدي في فلسطين أن ترجم هذا الكتاب سنة ١٩٢٩ بشكله السابق وكان مقتضباً .

وساعدت المعارف مديرية الآثار القديمة على نشر مجلتها الاختصاصية العلمية الأثرية «سومر» وهي الأولى من نوعها في اللغة العربية ، وقد حوى مجلدها للسنة الأولى دراسات وبحوثاً عميقة في تاريخ العراق القديم وأثرياته .

ومن الجهود المقدرة في الحركة العلمية في عالم القانون ودراسة الحقوق ما يضطلع به أساتذة كلية الحقوق في بغداد ، فهم يهتمون اهتماماً بالغاً بإغناء المكتبة العربية العراقية بالتآليف الحقوقية، وكان محصول هذه السنة منها جملة صالحة من هذه الأسفار. ومما يجدر

التنويه به أن بين هؤلاء الأساتذة جماعة من فضلاء الأساتذة المصريين الذين يعززون التعاون الثقافي بين العراق ومصر . وأهم هذه الكتب :

« علم المالية العامة » للدكتور عبد الحكيم الرفاعي عميد كلية الحقوق بغداد لسنة ١٩٤٥، و« أصول المالية » للأستاذ ضياء الدين عارف ، و « شرح القانون التجاري العراقي » للأستاذ حسن جاد ، و « القانون الدولي الخاص الجزء الأول» للدكتور جابر جاد عبدالرحمن ، و « القانون الدولي العام» ، و « أصول القانون » للدكتور عبد المجيد عباس ، و « الالتزامات والعقود في الشريعة الإسلامية » للأستاذ حامد مصطفى ، و « القانون الروماني » للأستاذ جبرائيل البناء، و « التحقيق الجنائي» للأستاذ عبد اللطيف أحمد ، و « الإدارة المحلية» للأستاذ محمد فخر الدين الجميل المحامي و « أحكام الأوقاف » و« الأحوال الشخصية — جزآن » للأستاذ حسين على الأعظمي، و « أحكام الأراضي والأموال غير المنقولة » ، و « أحكام تصرف الأجنبي بالأموال غير المنقولة في العراق » للأستاذ شاكر ناصر حيدر .

وتواصل وزارة الدفاع ترجمة الكتب العسكرية وتأليفها ، وقد كون هذا المسعى مكتبة عسكرية باللغة العربية الفصحى لا نظن أن لها نظيراً في بلد عربي آخر . ومع ندرة الورق وحداثة عهد مطبعة الجيش العراقي وانشغالها في هذه السنة بطبع « المعجم العسكرى بالإنجليزية والعربية » الفريد في بابه ، أصدرت رياسة الأركان للتعليم والتدريب العسكري ثلاثه كتب هي : « قيادة الحظيرة في الميدان » وهو كتاب وضعه المجلس الحربي البريطاني سنة ١٩٤٣ ونقله إلى العربية ديوان الترجمة بوزارة الدفاع العراقية ،وكتاب « هندسة الميدان » ، وكتاب « تعليم مدفع قوس عيار ٣ $\frac{٧}{١٠}$» .

واهتمت مديرية الدعاية العامة بوزارة الداخلية هذا الحول بنشر مجلة شهرية أدبية راقية اسمها « منبر الاثير » وأفردت رسالة خاصة بذكرى ٩ شعبان ، وأصدرت كتاباً تاريخياً سياسياً « فيصل بن الحسين » في سيرة الملك فيصل الأول وأعماله وآثاره في النهضة العربية وتأسيس مملكة العراق مع نخبة من خطبه وأقواله في الشام وأوربا والعراق ، والكتاب مزين بصور تاريخية لآل الحسين أبي النهضة وللملك فيصل بوجه خاص . كما كان لهذه المديرية الفضل في صدور كتب تختص بأبحاث عن رجالات البيت المالك في العراق بينها « الملك فيصل الثاني » الجالس على عرش العراق تأليف المحامي عبد المحسن القصاب ، و « حياة الوصي الأمير عبد الإله » ، لشيخ العراقيين عبد الرضا

كاشف الغطاء ، و « ذكرى ميلاد الأمير الوصي » جمعها ناصر جرجيس صاحب جريدة « النديم » الأسبوعية .

ولما احتفل بمرور جثمان الزعيم الشرقي الشهير السيد جمال الدين الأفغاني بالعراق ، من إستنبول إلى عاصمة الأفغان نشر المحامي عبد المحسن القصاب كتاب « ذكرى الأفغاني في العراق » أودعه وصف الحفلات العراقية بالجثمان وخطب الخطباء وقصائد الشعراء وتعليقات الصحافة العراقية وختمه بنبذ في الصلات بين العراق والأفغان .

ولجمعية الرابطة الثقافية ببغداد عناية بنشر الثقافة العامة في الشعب ، عدا مجلتها « الرابطة » نصف الشهرية لسان حالها ، وهي مجلة راقية تبحث في السياسة والاجتماع والأدب وتهدف إلى إذاعة الآراء الحرة والأفكار الجديدة بنزعة دمقراطية تقدمية ، وقد نشرت كتاب « الإنسان في فجر حياته » وهي قصة تطور الإنسان حتى نهاية العصر الحجري القديم تأليف دوروثي ديفدسن وترجمة الأستاذين طه باقر وفؤاد سفر من الموظفين الفنيين في المتحف العراقي ، تخصصا بالآثار في جامعات أمريكا ، و « خلاصة الفكر السياسي منذ الثورة الفرنسية » تأليف ستيفن سوينكلر وترجمة الأستاذين مجيد عبد الله وخدوري خدوري .

وتنزع نزعة الرابطة وجمعيتها دار « المجلة » وهي مجلة ثقافية تحريرية كانت تظهر بانتظام في الزوراء شهرية فنصف شهرية، ثم أخلت أزمة الطبع والورق بموعد صدورها ، فقد نشرت في السنة الحاضرة رسالة في موضوع « لنين » تأليف يوسف ستالين زعيم روسيا الحاضرة ترجمها بشير مصطفى ، ويذهب هذا المذهب جماعة من الشبان المتعلمين في عاصمة العراق ، أخذوا في السنين الثلاث الأخيرة ينشرون رسائل عنوانها « رسائل البعث » — في سبيل التحرير القومي والحياة الديمقراطية ، برز منها في خلال عام ١٩٤٥ : « النضال الوطني في سوريا ولبنان » للأستاذ عزيز شريف المحامي ومنشيء مجلة « الوطن » السياسية الأسبوعية ببغداد ، وكتاب « سقوط الجمهورية الفرنسية الثالثة » تأليف د . ن . برت عضو مجلس العموم البريطاني نقله إلى العربية الأستاذ كامل قزانجي المحامي ، ورسالة « ماذا تريد الهند » تأليف جوهر لال نهرو وترجمة أ . قطان ، ورسالة « تحقيق السلام » تحوي مقالات في استقلال الأقطار العربية وحريتها لعزيز شريف و « هل لابد من حرب أخرى » بقلم ع . ج . وهبي ، و « السبب الرئيسي للحروب الحديثة » بقلم ح . عبد العلي ، وغيرهم من المفكرين العراقيين التقدميين ،

ورسالة « المسلمون والوحدة الوطنية في الهند » تأليف ج . م . أدهيكاري ترجمة الدكتور عبد الفتاح عبد القادر .

وظهر كذلك الكتب الآتية : « كيف نربح السلم » تأليف هاري پوليت السكرتير العام للحزب الشيوعى البريطاني ترجمة الأستاذ كامل قزانجي . وللمترجم رسالة « تضامن الدمقراطية السوفيتية والدمقراطيات الغربية » .

و « الرسائل » وهي مقدمة في الاقتصاد السياسي تأليف ب. آرنوت ترجمة بشير مصطفى ، و« نظرات في الأوضاع العالمية الجديدة » بقلم هاري بوليت . و« المارشال تيتو » بقلم ميشيل باديف . و« مستقبل العراق الصناعي « للدكتور يوسف عبود المتخصص بالكيمياء ، و « التنظيم العلمي في العمل و « الحركة الستخانونية » ليوسف عبدالقادر ، و« كيف أنشئ الاتحاد السوفياتى » ، و« نقابات العمال السوفياتية» ، و« العقل والثقافة وأخذ مكانه في النفس من الحرية والانطلاق وعلاقته بالمذاهب المعاصرة » بقلم محمد الصفار . و« الصهيونية والمشكلة اليهودية » ترجمة الأستاذ موسى حبيب ، و « القصة البولونية » ترجمة سليم طه التكريتي ، و« فلسطين رمز جهاد العرب » بقلم الدكتور وليم أرنست هوكنغ والسرجون هوب سمبسن ترجمة الأستاذ هاشم الحلي والأستاذ حسن الدجيلي .

وأخذ البعض يذيع رسائل عنوانها « رسائل الثقافة الحديثة » تجلى منها كتاب « نظرات في الأدب الكردي » ألفه الأستاذان عبد السلام حلمي وعبد المجيد لطفي ، بحثا فيه الشعر الكردي وثقافة الأديب الكردي وهذا الأدب والتوجيه الاجتماعي والكتابة الكردية ومقتطفات من الأدب الكردي .

وفي الثقافة الكردية وتاريخ الكرد نشر معالي الأستاذ محمد أمين زكي وزير المواصلات والأشغال السابق وعضو مجلس الأعيان الجزء الأول من كتاب موضوعه : « مشاهير الكرد وكردستان في الدور الإسلامي » وهو يترجم لشهوري الكرد من أقدم الأزمنة إلى الآن ، ألفه باللغة الكردية ونقلته إلى العربية كريمة المؤلف الآنسة سانحة ، وهو مرتب على حروف المعجم وهو حري بأن يكون «معجم أعلام الكرد» وانتهى في جزئه الأول إلى حرف الظاء ، ولصاحب هذا الكتاب أسفار كثيرة في هذه الموضوعات .

ومن الكتب التي ظهرت في العراق في عامنا هذا « رحلة بنيامين » للرحالة الربي بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي (١١٦٥ — ١١٧٣ م) ترجمه عن الأصل العبري بعد تحقيق النسخ المخطوطة والمطبوعة وعلق عليه الحواشي الأستاذ عزرا حداد الأديب العراقي المعروف ، وافتتحه بمقدمة ضافية في جغرافي المسلمين وروادهم في

القرون الوسطى، وفي ذكر اليهود والمسيحيين الذين ساحوا ورحلوا في تلك القرون، وترجم للمؤلف ، وبحث في رحلته ونسخها وترجماتها وطبعاتها ، وألحق هذه الرحلة بأربع ملاحق في السامريين والقرائين وغاؤونية بغداد ورياسة الجالوت وفتنة داود بن الروحي ، وكلها مباحث عزيزة في العربية .

ويجب أن يضاف إلى الآثار العراقية الصادرة في العام الماضي كتابان طبعا بمصر هما : « تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس » للأستاذ جميل سعيد و « بغداد مدينة السلام » للأستاذ طه الراوي الذي نشر في سلسلة « اقرأ » .

ووضع بين أيدي القراء الكتاب الذي ألفه بالإنجليزية الكبتن سمرسيث دوشير عضو البرلمان البريطاني عن حوادث العراق سنة ١٩٤١ باسم « البساط الذهبي » وقد ترجمه الأستاذ موسى حبيب .

وأنتجت مطابع العراق كتاب « الطرب عند العرب » يبحث في الموسيقى العربية في العهد الجاهلي فالأموي فالعباسي فالأندلسي والغناء المصري والمقامات العراقية وأصولها والأغاني الشعبية العراقية ومعرفة الأصوات وتاريخ آلات الطرب ، ألفه الأستاذ عبد الكريم العلاف من الشعراء الذين ينظمون الأغاني في المراقص العراقية والملاهي وصاحب مجلة « الفنون » المحتجبة . ويمكننا أن نسوق في هذا المعرض رسالة « نظريات الموسيقى » والجزء الأول منها في مباديء الموسيقى للأستاذ حنا بطرس المدرس في معهد الفنون الجميلة ببغداد .

وفي العراق عالم عراقي مختص بهندسة الري هو الدكتور أحمد سوسه من خريجي الجامعات الأمريكية، انصرف إلى التأليف والكتابة في موضوعات الري في العراق ، وقد أغنى الخزانة العربية بجملة منها، فظهر له في هذه الشؤون في هذا العام « في ريّ العراق » الجزء الأول ومعه ١٧ خريطة ألفه وطبعه أولا بالإنجليزية باسم Irak Irrigation Handbook وترجمه إلى العربية بنفسه . كما نشر حديثاً الجزء الثاني من كتابه « وادي الفرات ومشروع سدة الهندية » يبحث في تاريخ نهر الفرات وتطورات مجراه الرئيسي وتحليل مشروعاته الفنية ومعالجة مشاكله منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر .

ومن الكتب الطريفة الكتاب الذي ألفه وأصدره الدكتور مظفر الزهاوي « بين وبين » يبحث في المسائل الجنسية والحب والجمال ومشاكل الزواج بأسلوب محبب للقارىء .

وأصدر الأستاذ أمين المميز أحد موظفي السلك الدبلوماسي العراقي كتاباً عن الإنجليز عنوانه « الإنجليز كما عرفتهم » يتضمن مطالعات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني،

وأصل الكتاب بالإنجليزية — ولما يطبع — وقد ترجمه المؤلف نفسه إلى العربية ونشر جزأه الأول .

ويلذ قراء العربية أن يعلموا أن أديباً في الموصل هو السيد داود سلمان بابل قد جمع شعر جبران خليل جبران — الأديب اللبناني الشهير الذي عاش في أمريكا — في ديوان أطلق عليه عنوان « جبرائيل الشاعر » وقدم له بمقالة ونظرة في أدب جبران، وقد تفنن في الطبع والزركشة على قدر ماتسعف مطابع الموصل في سحابة الحرب . و« ديوان جبران » هذا يذاع في مجموع لأول مرة .

والعراقيون قد سجلوا افتتانهم بأدب المهجر قبل اليوم ، فقد قام في النجف طابعان متنافسان بطبع ديوان « الجداول » للشاعر المشهور إيليا أبو ماضي ، وقدم له أحد الناشرين بمقدمة في شاعرية أبي ماضي ، وقد نفدت النسخ بسرعة . وفي شعر أبي ماضي نشر في هذه السنة ببغداد دراسة عن « إيليا أبو ماضي والحركة الأدبية في المهجر » للأستاذ نجدة فتحي صفوة ، في سلسلة دراسات عن الشعراء المعاصرين، وقد أتم منها إلى اليوم اثنتين . و « المازني الشاعر » وسيدفع إلى المطبعة بعد أيام .

ومن الآثار الأدبية رسالة الأستاذ نعمان ماهر الكنعاني « شعراء الواحدة » أودعها ذكر الشعراء القدامى الذين اشتهروا بقصيدة واحدة مع إثبات هذه القصيدة .

وفي العلوم ظهرت بعض كتب للمدارس الثانوية وأعيد طبع بعضها مع التنقيح ، والجديد فيها « مبادىء علم البكتيريا » للأستاذ حميد جواد .

ونشر من القصص « نهاية موسيقار » للأستاذ عبد المجيد لطفي . وفي « قري الجن » للأستاذ جعفر الخليلي صاحب مجلة «الهاتف» الأدبية في النجف. وديوان لشاعر شاب في العاصمة هو الأستاذ إبرهيم عوبديا باسم « خفقان قلب » .

وبإشراف معهد الثقافة البريطاني ببغداد تألفت لجنة من بعض الأفاضل العراقيين والإنجليز وأخذت تنشر سلسلة رسائل في اللغة الإنجليزية تطبعها في الهند أوفلسطين منسوبة إلى الناشرين الجدد في العراق ، وقد ظهر منها إلى الآن خمس حلقات هذه أسماؤها بالإنجليزية: "The Government of Irak" عن دولة العراق ونشوئها وسيرها للدكتور مجيد خدوري ، و "Health services in Irak" في الإدارة الصحية العراقية تأليف الدكتور هاشم الوتري، و "Malaria & Malaria in Irak" للدكتور علي غالب ، و "The Social Structure" في حال العمل والاجتماع للأستاذ هاشم جواد مدير دائرة العمال في العراق، و "Irrigation in Irak" عن ري العراق بوجه الإجمال للدكتور

أحمد سوسة ، وقد وسع المؤلف هذه الرسالة عند وضعها بالعربية وستنشر قريباً .

* * *

هذا عرض سريع ولكنه شامل للمؤلفات التي صدرت في بعض البلاد العربية خلال عام ١٩٤٥ . بسطناه للقراء على قدر مايحتمله المقام من البسط والإطناب وهو في جملته دليل على اتجاه التأليف في تلك البلاد. ولئن اشتمل هذا العرض على محصول وافر إنه مع ذلك دون المرجو من بلاد يزيد تعدادها على خمسة وعشرين مليون نفس قدسرت فيهم كهرباء الوعي القومي فهبوا ينشدون النور والحرية عن طريق الثقافة والعلم. ومامن شك في أن مفتاح باب الزيادة في المحصول هو في أيدي القراء، غير أن هؤلاء القراء إنما هم وديعة يتحتم على المؤلفين أن يراعوها بالحفظ والرعاية. فهل أدىّ الكتّاب الأمانة في هذا العام المنصرم وقاموا بالعهد لوجه الله ثم العلم والوطن؟ إن الجواب عن هذا سيخطه التاريخ بأحرف من نور في الخالد الباقي من هذه المؤلفات ، ونرجو أن يكون عددها كبيراً .



المسرح والخيالة

خيط من الفن السينمائي بمصر

للأستاذ زكي طليمات

التليفون ، ثم الفونغراف ، ثم الراديو [1] ، معالم باهرة ثلاث ، في مراحل تطور الآلة ، وهي تحاول أن يكون لها صوت الإنسان تهتف بما يريد قوله ، وتذيع بلسانه ما يود الإفصاح عنه . وأخيراً جاءت « السينما » فإذا هي منتقل ألوان الحياة الواقعة والمتوهمة ، مسجلة على شريط من جماد ، وإذا هي الآلة تنظر وتعكس ما تنظر على الشاشة البيضاء ، وتسمع وتردد ما تسمع بصوت جهير واضح النبرات . وإذا هي ، وقد انتظمت في مقاييس للتعبير الإنساني ، وصارت بحكم هذا ، وباعتبار أنها وسيلة من وسائل الأداء للقصة ، فناً جديداً ، هو فن السينما تغراف [2] ، له عناصره وأركانه ، وله أصوله وقواعده .

---

(١) وهي كلمات غريبة لها أصل فى اليونانية القديمة واللاتينية ، وقد اتفق العرف هنا على تعريبها ، أو كاد ، فإذا هي الهاتف ، والحاكي ، والمذياع ، ولكن هذه المعربات على فصاحتها ، لم يكتب لها الانتشار ، ولم تدخل في أذواق الناس فتجري على ألسنتهم .

(٢) الاصطلاح الجديد لها بالعربية هو (الخيالة) من غير تشديد الياء ، ولا أميل إلى الأخذ به ، لأن كلمة الخيالة ، في معناها اللغوي أو في المجاز ، لم تحط بكل مدلولات « سينما تغراف » ولم تشر إليها إشارة واضحة حاسمة . هذا فضلا عن اللبس الذي يحيط بها إذا نطقت خطأ بتشديد الياء . فكلمة Cinématographie ومختصرها Cinéma ، إذا رددناها إلى أصلها اليوناني القديم الذي اشتقت منه ، وجدناه يتألف من ثلاث كلمات هي Kinèm و Atos وهما يفيدان الحركة ثم Graphein ومعناها الكتابة ، وتكون الترجمة لهذه الكلمات الثلاث « الحركة مكتوبة » وقد يكون التسجيل بالرسم والصورة . ولهذا أطلق الإنجليز عليها عبارة Moving-pictures ، وترجمتها « الصور المتحركة » وهي في هذه العبارة من أدل ما يكون على الجوهر ، وهو الحركة المصورة .

أما كلمة « الخيالة » فمعناها كما ورد في متن اللغة ما تشبه لك في اليقظة والحلم من صورة ، أو « شخص الرجل » « أو طلعته » وجمعها خيالات ، وبين هذه الكلمة وكلمة خيال مشابهة فى المدلول ، فكأن الرباط بين « الخيالة » وبين « سينما تغراف » مقصور على « التشبية » لا أكثر

« والسينما » صناعة وفناً ومجالا من مجالات التسلية ، تعتبر من أحدث واردات الغرب ، وقد دخلت مصر في العقد الأول من هذا القرن ، كما قام فيها فن التمثيل باللسان العربي ، منتحلا من فنون الغرب ، قبل ذلك بثلاثين عاماً .

ولا أعلم حتى الساعة هل انتحل قطر من أقطار الشرق العربي هذا الفن قبل المصريين ، وإنما الذي أعلمه علم اليقين ، أن مصر هي مهد هذا الفن باللسان العربي وفي الصبغة الشرقية العربية ، وكانت مصر ملتقى أصداء تطوراته في أوربا ، ثم كانت ولا تزال الحقل الأول لتجاريب تمصيره وتعريبه ، ومحاولة جعله فناً مصريا وصناعة مصرية ، وقد انتهت مصر إلى أن تكون « بيت السينما » العربية ، ومنها تخرج الأشرطة السينمائية في الصبغة العربية ، وتسير شرقاً وغرباً إلى جميع الأقطار العربية .

كيف جاءت السينما إلى مصر

دخلت السينما مصر في أشرطة سينمائية مصنوعة في أوربا ، فهي بمواضيعها وحوادثها وصبغتها وممثليها غربية خالصة. ولعل أول دار شيدت لعرض هذه الأشرطة هي «سينما سنتي» القائمة بالشقة الشرقية من حديقة الأزبكية ، في الناحية المطلة على ميدان الخازندار، والمبنى ما زال قائماً ، ولكن تغير ناسه ، وتبدلت أغراضه ، فأصبح منذ زمن بعيد ، أي منذ بداية الحرب الكبرى الماضية ، منتدى ومطعماً لجنود الحلفاء . وقدكانت هذه الدار لعرض الأشرطة السينمائية منذ عام ١٩٠٨ حتى قبيل تلك الحرب .

وكان عرض الأشرطة يجري مرتين في الأسبوع ، لا في كل اليوم كما هي الحال الآن . ومن هذه الدار تعرف المصريون إلى هذا الفن ، فشغفوا به ، شأنهم بكل جديد وافد ، فسرعان ما قامت دور أخرى على طرازه في القاهرة والإسكندرية ، وكانت السينما ما زالت « صامتة » وكانت الأشرطة التي تقدم إذ ذاك أكثرها فرنسي وأقلها إيطالي ، إذ لا يخفى أن السينما اختراع استكمل أهم عناصر كيانه في فرنسا على يد الإخوة لومير Fréres Lumière في أواخر القرن الماضي ، وكانت هذه الأشرطة قصيرة ، حتى

ولا أقل ، وقد يكون « التشبيه » ساكنا لا يتحرك ، فالرباط بحكم هذا غير متين ولا يوحي بشيء أصيل في مدلول الكلمة الغربية ولا يشير إلى جوهرها الأول وهو تسجيل لمشاهد من الحياة تتابع سراعا ، وهو الأمر الذي يميز السينما عن الفوتغرافيا .

(الكتاب) : أول ما تجب مراعاته في تعريب الألفاظ الأعجمية أن تصاغ في قوالب عربية ليأنس بها نثرنا ولا سيما الشعر . فإن أردنا أن ندل على المعنى بلفظ عربي له به اتصال ، ولم يكن اللفظ العربي دالاً تمام الدلالة على ذلك المعنى كان الاصطلاح كافياً في تحديد المعنى الجديد . والشواهد على ذلك متوافرة في مصطلحات العلوم والفنون القديمة .

إن عرض الشريط الواحد منها لا يستغرق أكثر من ربع ساعة أو نصفها . وكانت بمواضيعها في مستوى غير رفيع من الأدب والفن .

المسرح العربى والسينما فى دورهما الأول

ولم يكن الإقبال على مشاهدة هذه الأشرطة مثله اليوم ، بل لم يكن مقدراً له أن ينتهي إلى ما هو عليه الآن ، لأن المسرح إذ ذاك كان مزدهراً في ظل الموسيقى ، وعلى رأسه «سلامة حجازي» يجتذب الجماهير برخامة الصوت وقوة الطبع ، جاعلا من مسرحه مستراداً محبوباً لمختلف طبقات الشعب ، والجمهور المصري عامة تغريه الموسيقى ويميل إلى الطرب أكثر من أي لون آخر من ألوان الترويح والتسلية . غير أن دار «سينما سنتي» كانت تمتلئ في كل عرض بجمهور أكثره من الأجانب ، وأقله من المصريين ، وفي مقدمتهم كبار الناس وأوساطهم وطلاب المدارس .

السينما وخيال الظل

ولم يكن مستغرباً بعد ذلك أن يقبل العامة على مشاهدة السينما ، ومرجع هذا لا نرده إلى التقليد ونزعة التشبه بعلية الناس وطبقة المتعلمين فحسب ، بل نعزوه أيضاً إلى أن العامة كانت تعرف منذ القدم «خيال الظل» وتقبل على حفلاته ، ولها فيه تقاليد. و « خيال الظل » أمره معروف ، فهو رسوم مقطوعة محدودة ، تمثل بعض الكائنات من إنسان وحيوان وجماد ، ترتمي ظلالها على شاشة بيضاء من ضوء نار موقدة خلفها ، وتحرك بعض هذه الرسوم ، وفاقاً لحوادث قصة بسيطة ، بعصاً مثبتة فيها ، يديرها أشخاص ينتحون من خلف الشاشة نواحي لا يقع عليها ضوء النار ساطعاً قوياً .

ولاشك أن بين السينما وخيال الظل صلة من تشابه ونسب ، وذلك بأن الرسوم والظلال تقوم بالتعبير مقام الكائنات الطبيعية من إنسان وحيوان وجماد .

السينما قبل الحرب الكبرى الماضية وفى أثنائها

واطرد إقبال الجمهور على مشاهدة الأشرطة السينمائية باطراد تقدم صناعة الأشرطة نفسها واتساع أفق مواضيع رواياتها ، وفطن الأجانب إلى دلالة هذا من الناحية التجارية الخالصة ، فأكثروا من إنشاء دور العرض ، ونحّوا الوطنيين عن استيراد الأشرطة من الخارج .

وجاءت الحرب الكبرى الماضية ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وفي غضونها قلّ مجيء الأشرطة من الخارج لاشتغال دول أوربا وأمريكا بحرب قاسية وقف من أجلها دولاب

العمل والإنتاج إلا في الناحية الخاصة بالإنتاج الحربي وما يتصل به ، فكان أن امتد نشاط الأجانب إلى حقل جديد ، وأخذ بعضهم يفكر في إنتاج أشرطة سينمائية في مصر بخامات وآلات من الخارج ، وأن يحول السينما إلى ناحية جديدة لم تكن بعد معروفة في مصر ، وهي الإعلان والدعاية .

وكان أول شريط سينمائي أنتج في وادي النيل ، وهو شريط لم يكن يستغرق عرضه أكثر من خمس دقائق ، يمثل صاحب فندق ومقهى معروف ودار للسينما ، في أحد الأحياء الوطنية وهو جالس إلى الباب يدخن نرجيلته ويحيي زبائنه [١] .

محاولات أولية

وهذا الشريط السينمائي ، إن صح أن ندعوه هكذا ، لايمت إلى الفن السينمائي إلا من حيث الصبغة الشكلية ، ولا يعتبر محاولة لإقامة فن سينمائي مصري ، لأن بواعثه وأغراضه إنما هي الإعلان والدعاية فحسب .

ولكن الوقت لم يطل ، فقد جاءت هذه المحاولة والحرب الكبرى يوشك لهيبها أن ينطفىء . فقد تألفت شركة للسينما من بعض الأجانب — وذلك في مدينة الإسكندرية — وأنتجت شريطين هزيلين موضوعاً وصناعة ، وقامت على أنقاض هذه المحاولة الأولية محاولات أخرى جمعت بين ممثليها وجوهاً مصرية ممن لهم شهرة في التمثيل الهزلي[٢] وبعض الغواني الأجنبيات ، وكانت مواضيع هذه الأشرطة فكاهية خالصة ، تتفق ومهازل المسرح الفكاهي (الفرنكوأراب) الذي كان سائداً في زمن الحرب ومزدهراً على يد الأستاذين نجيب الريحاني وعلي الكسار ، ولكن تلك الأشرطة لم تكن تحمل من الفن السينمائي الحق إلا ناحية التصوير وسرعة تتابع المشاهد .

والأمر الجدير بالالتفات أن ممثلة مصرية واحدة لم تشترك في هذه الأشرطة .

فجر السينما المحلية

انبثق هذا الفجر الوردي ، والحركة الاستقلالية[٣] في البلاد توشك أن تنتهي إلى بعض أهدافها، بعد أن تفتحت الواعية القومية وأحست مصريتها ، وما أظنه خافياً

---

(١) هي سينما الكلوب المصري في الحي الحسيني لصاحبها عبدالرحمن صالحين ، ولاغرابة في أن يكون أول وجه مصري تسجله عدسة السينما لشخص أنشأ داراً لعرض الأشرطة السينمائية .

(٢) أمثال فوزي الجزايرلي وعلي الكسار والمرحومين أمين صدقي وجبران نعوم .

(٣) ثورة سنة ١٩١٩ التي قام بأعبائها الزعيم سعد زغلول واستمرت سنوات بعد ذلك .

امر الهزة الاجتماعية التي أنزلتها هذه الحركة ، بمصر خاصة وبالشرق العربي عامة ، كما أنه من المعروف أمر الانتقال الكبير الذي وقع بفعل الحرب العظمى الماضية في مختلف نواحي الحياة المصرية ، فكان من تأثير هذا كله أن استكملت المرأة المصرية أمر سفورها ، وأن نزلت إلى ميادين الحياة العامة . وكان هـذا أمراً طبيعياً ، لأن المرأة المصرية التي حملت أعلام الثورة وسارت في صفوف المجاهدين أصبحت لاتستطيب حياة « الحريم » فجزت جدائل شعرها وصففته على أحدث طراز وارد من أوربا ، واختفى الحجاب ، وحل مكانه رباط للرأس ملفوف في شبه عمامة سوداء مزركشة ، يشرق تحته الوجه الصبيح ، وسرعان ما اختفى هذا الزي لغطاء الرأس تاركا الشعر يتهدل كما يشاء الزي الغربي .

المرأة المصرية تتقدم الصفوف

وكان الحدث الاجتماعي الكبير نزول سيدة مصرية هي السيدة « عزيزة أمير »[١] إلى ميدان السينما ، بأن أسست بمالها الخاص ومن غير شريك لها أول شركة مصرية لها باسم « إيزيس فلم » عام ١٩٢٦ وعملت ممثلة ومنتجة لأفلام محلية ، بعد أن ارتقت خشبة المسرح أشهراً قليلة .

والمقام يضيق بذكر الظروف والملابسات التي أحاطت بقيام هذا العمل ، والتأويل يتسع مداه لتحديد البواعث الباطنة التي دفعتها إلى خرق التقاليد الاجتماعية السائدة ، ولـكن ما لنا ولهذه البواعث ، فالعبرة بالعمل نفسه ونتيجته ، وهما جديران بأن ينزلا اسم هذه السيدة الجريئة المغامرة في مقدمة مؤسسي هذا الفن في الشرق العربي عامة . وخرج شريطها الأول باسم « ليلى » في موسم ١٩٢٧ — ١٩٢٨ وهو يعالج موضوعاً محلياً بحتاً ، يتنقل المشاهد له بين الضحك والبكاء ، وهو يرى النيل ومفاتنه والدور المصرية الحديثة وتأنقها وهي تتطوح بين القديم والحديث .

وفي أعقاب هذا الفلم خرج شريط « زينب » مأخوذاً في موضوعه عن القصة التي تحمل الاسم نفسه وهي للكاتب الكبير « محمد حسين هيكل باشا »[٢] فإذا الريف المصري في أوضح معالمه وأبلغ موحياته ، وإذا نحن نطالع وجه سيدة مصرية أخرى هي السيدة « بهيجة حافظ »[٣] وقد نزلت بدورها إلى ميدان الفن الجديد ، تغذيه بثقافتها

---

(١) واسمها في الأصل مفيدة محمد ، وكانت زوجة لأحمد بك الشريعي نجل المرحوم محمد باشا الشريعي .

(٢) تعتبر قصة (زينب) أول قصة طويلة roman في الأدب العربي المستحدث ، وهي فيه أفق جديد .

(٣) كريمة المرحوم حسن باشا حافظ محافظ الإسكندرية سابقا ، وهي موسيقية بارعة في التأليف والعزف على البيانو ، ولها ملحنات متداولة .

أكثر مما تنشطه بمالها ، وكانت لها شركة باسم « فنار فلم » بعد ذلك .

وفي وسط ضجيج هذا الحدث الاجتماعي ، قامت سيدة ثالثة لبنانية الأصل والمولد ، هي السيدة « آسيا داغر » تساهم في هذه الحركة النسوية ، وتنشىء شركة سينمائية باسم « لوتس فلم »[1] وتقدم شريط « غادة الصحراء » .

وجاء دور الممثلة المعروفة السيدة « فاطمة رشدي » فنزلت في الميدان لا بمالها بل بفنها كممثلة ، وأسست شركة سينمائية في ذلك الوقت .

وفي خلال ما تقدم ذكره قامت بعض شركات سينمائية على أكتاف الرجال بين القاهرة والإسكندرية ، ففي القاهرة قام الأخوان « بدر وإبرهيم لاما » يعملان باسم شركة لهما هي شركة « كندور فلم »[2] وكان شريطها الأول « قبلة في الصحراء » ولعلهما من أسبق المتمصرين إلى إنشاء « أستديو » أي مرسم ، لإخراج الأشرطة السينمائية بعد « أستديو محمد بيومي » بالإسكندرية . وإلى صاحب هذا الأستديو يعزى أول مجهود لإنتاج جريدة سينمائية لأهم حوادث القطر ، وكان اسمها « آمون » .

وفي الإسكندرية هب « توجو مزراحي » يعمل وينتج أفلاما ويدعم صناعة السينما .

والظاهرة الجديرة بالاعتبار فيما تقدم ذكره ، أن المرأة المصرية أو المتمصرة كانت أسبق من الرجل إلى تولي أمر السينما المحلية في مشاريعها الكبيرة ، لا في محاولتها العابرة . فالمرأة المصرية حملت على أكتافها العبء الفادح ، ورفعت بيد غير مرتعشة شعلة الفن الجديد ، وهذه ظاهرة غير عسير تفسيرها إذا أرجعناها إلى طبيعة المرأة عامة ، وإلى ما نزل بالمرأة المصرية خاصة بفعل تحطيم قيودها دفعة واحدة بتأثير حرب عالمية وثورة محلية دفعتا بالحياة المصرية إلى مرحلة انتقال بعيدة . فالمرأة عامة تستهويها المرآة ، كما أنها لا تملّ مطالعة صورتها ، ولاسيما إذا كان لها صورة تمثلها في أوضاع مختلفة وأزياء متنوعة. والمرأة المصرية خاصة كان مقدراً عليها أن تبحث عن مجال جديد تنطلق فيه منفسة عما هو مكبوت في أعماقها بفعل الحجاب .

ولا تزال هذه الظاهرة بادية إلى اليوم ، أي في عام ١٩٤٥ — فإن كثيراً من الشركات السينمائية المسجلة في السجل التجاري ، هي لسيدات مصريات ، وبعضها قد أنتج أشرطة ، وبعضها الآخر لم تتح له بعد فرصة الإنتاج .

---

(١) ما أظن أنه يغيب عن القارىء أمر العلاقة بين أسماء هذه الشركات وهي (إيزيس ، لوتس ، فنار) وبين شخصيات أصحابها ، وكلهن سيدات ، وما في ذلك من دلالة ، من حيث النزعة إلى إحياء الصبغة « المصرية » وفرضها على الفن الدخيل .

(٢) أول اسم غربي لشركة سينمائية في مصر ، ومرجع هذا أن بدراً وإبرهيم لاما قضيا سنّ المراهقة والشباب الأول في أمريكا الجنوبية .

مع الخيط من جديد

ونعاود وصل ما انقطع من سيرة النشاط السينمائي المحلي فنقول : إن ما بين عامي ١٩٢٧ و ١٩٣٠ ، أي في ثلاثة أعوام ، بلغ النتاج المحلي أحد عشر شريطاً ، ذكرنا أسماء بعضها ، باعتبار أنها أشرطة الطليعة ، ويبقى أن نذكر اسم الاخير من بعضها الآخر ، وهو شريط « تحت ضوء القمر » باعتبار أنه أول شريط « ناطق » إذ استعملت فيه طريقة تسجيل الأصوات على أسطوانات ، وهي طريقة قديمة تعتبر من المحاولات الأولى الناقصة لجعل السينما ناطقة ، وقام بالتمثيل في هذا الشريط ودفع نفقاته الأستاذ عبد المعطي حجازي .

وفي عام ١٩٢٨ أخرجت أمريكا أول شريط غنائي ناطق (غناء الجاز Jazz بعد أن انتهت شركة « وسترن ألكتريك » من اختراع الجهاز الذي تسير عليه الأفلام الناطقة اليوم . فما كانت بداية عام ١٩٣١ حتى أنتجت السينما المحلية « شركة بهنا فلم » شريطاً باسم « أنشودة الفؤاد » وقد أخرج في « أستديو جومون » بباريس ، واشترك في تمثيله علمان من أعلام المسرح ، وهما الأستاذان جورج أبيض والمرحوم عبد الرحمن رشدي ، والمطربة نادرة ، فكان أول شريط محلي غنائي ، وعلى إثره شُقّ حقل جديد للموسيقى العربية .

وسرعان ما أنتج الأستاذ يوسف وهبي شريطاً ناطقاً باسم « أولاد الذوات » بالاشتراك مع الممثلة المعروفة أمينة رزق وممثلة سينمائية فرنسية اسمها كلوديت درفوي ، وكان إخراجه في « أستديو » بباريس أيضاً ، لأن آلة تسجيل الصوت لم تكن قد وردت بعد إلى مصر . وهذا أول شريط سينمائي محلي أخذ موضوعه من رواية للمسرح ، سبق أن ألفها الأستاذ يوسف وهبي وقدمها على مسرح رمسيس في عام ١٩٢٤ .

وقبل هذا بقليل ، وفي عام ١٩٣٥ ، رأينا الأستاذ نجيب الريحاني سيد أبطال التمثيل الفكاهي في شريط بعنوان « كشكش بك » .

وهكذا اجتذبت السينما المحلية كبار رجال المسرح وزعمائه ، وأصبحوا لها كما كانوا للمسرح قبل ذلك ، ثم صاروا لها أكثر من المسرح بعد ذلك .

الأشرطة الغنائية

وبارتقاء صناعة الأفلام الغنائية نزل المطربون والمطربات إلى ميدان السينما ، وفي مقدمتهم محمد عبد الوهاب بأشرطة « الوردة البيضاء » عام ١٩٣٣ ثم « دموع الحب » و « يحيا الحب » ، والآنسة أم كلثوم بأشرطة « وداد » عام ١٩٣٥ و « نشيد الأمل »

وغيرهما، وليلى مراد، وفريد الأطرش، ونجاة علي، ورجاء إلخ ... فدخلت الموسيقى العربية في مرحلة جديدة من النمو والارتقاء، إذ اتسع المجال للتلحين، بأن صار يعبر عن خلجات نفسية مختلفة، قلما كان ينطلق فيها على ما يهوى ويريد، وصارت الموسيقى عنصراً هاماً في الأشرطة السينمائية عامة، فالألحان تقحم في مشاهدها أحياناً إقحاماً يجفوه المنطق والمعقول.

أستديو مصر

وبإنتاج شريط « وداد » للآنسة أم كلثوم بدأ أستديو مصر ، الذي تقوم عليه شركة مصر للتمثيل والسينما*، إحدى شركات بنك مصر، يتخذ دوراً إيجابياً في الإنتاج، بعد أن ظل طويلا يتخذ الأهبة له ، وهو اليوم أكبر مرسم « أستديو » للسينما في الشرق العربي ، وأكمله استعداداً من حيث الآلات والمهمات .

خلاصة

والمقام يضيق إذا أزمعنا أن نتقصى كل المراحل التي اجتازها الإنتاج السينمائي المحلي حتى انتهى إلى المرحلة التي هو عليها الآن ، وأن نحدد في كل مرحلة نصيب الأشرطة ، من حيث الأدب في القصة ، والفن في الإخراج والتمثيل ، والصناعة في النواحي الحرفية الخالصة ، ومن حيث الاتجاهات الاجتماعية ، ومن حيث مكان السينما المصرية في التعبير عن الحياة المصرية . وأسطع دليل نسوقه على أن النشاط السينمائي المحلي يخطو كل عام خطوات واسعة ، أنه قد جاوز عدد الأشرطة التي أنتجتها الشركات السينمائية المصرية في هذا الموسم ١٩٤٤ — ١٩٤٥ الأربعين شريطاً ، وهو عدد يربي على ما أخرجته السينما المصرية في التسعة الأعوام الأولى من نشأتها ، وأن عدد الشركات التي تعمل الآن والتي تستعد للعمل يبشر بأن السينما المصرية سيكون لها شأن وأي شأن ، في المستقبل القريب .

زكي طليمات

---

* تعتبر هذه الشركة أكبر مؤسسة مصرية للانتاج السينمائي في الشرق العربي ، وقد افتتحت رسمياً بمسرح حديقة الأزبكية في عام ١٩٢٧ حيث ألقى المرحوم طلعت حرب باشا خطبة شاملة عن « السينما كصناعة مستحدثة في البلاد ، وكأداة للتعليم والتهذيب » وكان عمل الشركة مقصوراً قبل إنشاء أستديو مصر على إنتاج أشرطة قصيرة . بعضها علمي ، وبعضها الآخر للدعاية لشركات بنك مصر .

نجلاء

للأستاذ إبرهيم جلال بك

كنا في حاضرة صغيرة بصعيد مصر ، يجري من تحتها النيل زاخراً فياضاً والرعاة في غياضها ، ويرهج وقد الضحى كأسنة الرماح من سعف النخيل البواسق فوق نجدها.

ويلوح من أقصى المدينة خليج رقيق النبع ، ينساب تحت ربوة عالية ، بها جماعة من البدو عدتهم بين العشرين والثلاثين ، منهم الشيخ والطفل ، وفيهم فتيان دون العشرة ، رقاق الأبدان كبقية السلائل العربية بأساً ونجدة ، بنوا أكواخهم وضربوا خيامهم حول عنزات لهم وأباعر .

ولهم حقل صغير فوق الربوة عز عليهم سقيه، فشقوا له في السفح ثلاثة شواديف ، يستقي أدناها من ماء الخليج فيسقي الذي يليه وذاك يرفع ما تعلل به من البلل إلى الثالث ، وذلك هو الذي يسقي الحقل .

وإنك لترى أولئك الفتيان جاثمين أبداً في السعير المتقد من جمرات الصيف في أسمال تكشف عن سواعد دونها الفولاذ ، يشتدون جذباً ودفعاً في ساريات الشواديف ثم يفيؤون إلى ظل الصفصاف وقد استوفى الحقل رياً .

وكنا في دهشة الحرب الأولى ، وقد خيّم بظاهر المدينة كتائب الجند البريطاني ، يحرسون شعاب الصحراء ومفاوزها من السنوسيين ، فكنا نصطبح بفرسانهم دارعين ، يمشون إلى المصاف ثم يعرجون إلى المضارب .

وجاء فيض النيل غمراً رخاء كأحسن عهده بالوفاء ، فجرى الماء كثيفاً إلى خليج أولئك البدو . ورفع الله عنهم عناء الشواديف إلى حين .

وكان بالنجع خباء لغانية من البدو فياضة الحسن مشرقة المحيا ، كأن غرتها البدر وحدقتها المها ، تمشي بين الربى في قميص عقد حول خصرها نطاقاً من القرمز القاني ، وتلوح للناظر من وراء نقابها الأحمر كأنها شمس يحاول الشفق أن يحجبها . ودرجت

نجلاء بين يتامى النجع تحت جناح أخيها وحنانه ، وهو الذي جمع لها زخرف الحياة بين ثياب وعقود وغلائل ، وجمّل قدميها بخفين من صنع المدينة ، وضرب لها في الذروة خدراً كريماً وربض ببابه ، فإذا أكنها الخدر بات جبهة الأسد .

وكرت نجلاء إلى مشرع الخليج بين الولائد من بنات الحي ، فأشرق النجد أغواره ورباه ، ونضت ثيابها ، وراحت تشق الخليج بين أتراب يلذن بها كالحلقة المفرغة .

وقدمت بعض كتائب من الإنجليز إلى الخليج أفراداً وجماعات حتى أكملوا المائة ، فانتزعوا نعالهم الغليظة وبعثروا فوق الثرى قلانسهم ومناطقهم ، وافترشوا أديم الأرض يستقبلون جمال النهر في فورته واندفاعه إلى الخليج ، وكانوا بمعزل عن أهل الحي ، تحجبهم هضاب وشعاب .

وخرج من بين صفوفهم فتيان يسبحان في الماء ، وظلا في مرح واستباق وتراشٍّ بالماء ، حتى رنت في أفقهما أغاريد بنات الحي من أقصى الخليج ، فهوى أحدهما إلى القاع يسترق الخطى ويسبح وئيداً ، حتى كشف له عذارى النجد يتواثبن حول نجلاء كرصائع الجوهر حول جيد الغانية ، فخلب لبه ذلك الأفق الشرقي الكامن الحسن في أفنان النخيل ، وطيف النسيم العليل ، وصفو الماء السلسبيل ، وروعة القد الأسيل .

وسرح الإفرنجي حدقاته في دمية النجد ، فبهره وضح جبينها وحلاوة تكوينها ، وسولت له الفتنة أن يستقي من حمياها ، ونمّ على الذئب أنفاسه الحرى ، فذعر الولائد ، وتسربن إلى الحمى ، وتخلفت نجلاء قليلا تجمع العصائب والعقود ، فأدركها الفتى في قميصه الندى يكاد يلوكها بماضغ عينيه فرأت بشراً من غير معدنها .

فأفلتت من قانصها حتى لحقت بذروة خدرها ، والرجل يشتد في أثرها ، واستصرخت قومها بالنداء ، ولوحت بعصائبها القرمزية كأنها نفير النجدة .

وأبطأ الفتى الجندي على الرفاق ، فخفوا في إثره ، يتسنمون إلى النجد ، فخرج عليهم من ظلال النخيل حفنة الفتيان غضاباً للأحساب الكريمة ، وبأيديهم ساريات الشواديف وأعجاز النخيل ، فانهالت الساريات تدق الضلوع وتفلق الهام ، وتطهر خدر نجلاء بالدماء ، حتى لقد صرع من عامة الجند ثلاثون ونيف .

وجاء النذير إلى شرطة المدينة ، فقدموا على ضوامر الخيل ، وطوقوا الحي ، وساقوا أهله إلى السجن مصفدين في الأغلال ، وحمل الجرحى إلى المضارب .

وخرج أهل المدينة إلى رؤوس الدروب يستعرضون تلك الفئة القليلة التي غلبت فئة كبيرة بإذن الله ، فإذا بضعة نفر من البدو غراً محجلين ، يمشون في سكينة ويقين

وعزة ، مشية آبائهم الذين دانت لهم اليرموك والقادسية ، ودكوا عروش الروم وفارس ، وجاء على أعقابهم نساء النجد يبكين حماة الحريم ورعاة المجد القديم ، وبينهم نجلاء تهتك الحجاب ، وتندب الأهل والأصحاب .

واستفاض التحقيق وطال أمده أياماً .

وجاءت البينات من الجنود تشهد جراحهم وما خلفت الساريات بأضالعهم وسواعدهم وأعجازهم وهامهم . وأنف أهل النجد من أن يكذبوا ، فجعلوا يصورون للقاضي حياة الدعة والسكينة التي ألفوها ، حتى وثب الجند بالأهل والولد يستبيحون المحارم ، فقامت السواعد على ما عودوها من غريزة الذود وسجية الدفاع . وكشف للناس فرسان من الإنجليز يمشون في ركاب أميرهم إلى المحكمة ، ودخل القائد مجلس التحقيق ، ودارس المحقق ما كتب في السجل ، ثم جمع الوثائق وأحكم رتاجها ، وحملها إلى مضاربه ، وبين يديه أهل النجد .

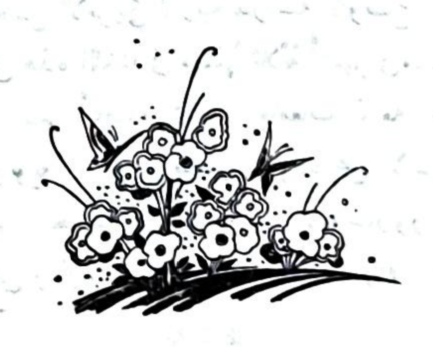
فساور الناس قنوط ويأس ، وظنوا بالله الظنون ، وباتوا في همّ مقيم مقعد .

وأضاء الفجر فغصت محاريب المساجد بأهل الدعاء ، يرفعون العقائر ويعلنون السرائر ، واحتسب الناس شهداء النجد .

فكشف لهم أفق الصبح قوافل من سيارات الجيش تنوء بالجنود والعتاد ، وتطوي الطريق إلى المحطة . لقد كان ذلك الركب كل من استباح حمى النجد ، طوح بهم القائد إلى سحيق بعيد ، فطوى معهم صفحة تشوب كرامة جيشه وأدب أمته .

وخرج على الناس بعد ذلك من أطراف المضارب حفنة الفتيان حماة النجع ، يلوّحون بعمائمهم ويملؤون الأفق هتافاً بالحمد والثناء على قائد الجند ، وعلى أعقابهم نجلاء بين الولائد يغنين نغم البيد ، ويرتلن حلو الأغاريد .

إبراهيم جلال



أنباء

نتشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتّاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

للبلاد العربية مكانة خاصة في نفس مولانا الملك المعظم فاروق الأول ، وله ، حفظه الله ، في نفوس رؤسائها وأهليها ، منزلة رفيعة يحوطها الحب والإجلال . فعطف جلالته على تلك البلاد ، وتأييده لحقوقها ، مشهود ملموس . ولقد كان للّفتة الملكية السامية التي تجلت في الزورة الكريمة المفاجئة للمفوضية السورية بالقاهرة ، ليلة المأدبة التي أدبها دولة جميل مردم بك في الشهر الماضي ، أثر هز القلوب كما هز أسلاك البرق وشبوات الأقلام .

✡ ✡ ✡

كان من بين القرارات التي اتخذها المؤتمر الكيميائي الذي عقد بالقاهرة : تشجيع الأبحاث العلمية التي تجري في المصالح الحكومية ، والنظر إليها بعين الاعتبار عند « تقييم » الموظفين ، والتوجه إلى مجمع فؤاد الأول للغة العربية بأن يكون للمصطلحات الكيميائية باللغة العربية ، نصيب أوفر من عنايته ، حتى يمكن الانتفاع بها في تعريب العلم والتعليم بمصر والأقطار العربية .

✡ ✡ ✡

احتفلت كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول بافتتاح متحف للآثار الإسلامية لتيسر للطلاب رؤية تلك الآثار والانتفاع بها في دروسهم وأبحاثهم . وقد شهد حفلة الافتتاح معالي وزير المعارف .

✡ ✡ ✡

تقيم بالقاهرة لجنة ألفها المجلس الأمريكي للتربية لدراسة الأوضاع التربوية في بلدان الشرق الأدنى التي تتكلم اللغة العربية ، وستنفق هذه اللجنة في مهمتها ثلاثة أشهر في مصر ونحو عام في البلاد العربية .

والمجلس الأمريكي للتربية يضم أعضاء يمثلون جامعات تابعة لحكومة الولايات المتحدة أو لمؤسسات خاصة أو جمعيات تربوية ، وهو يقصر جهوده على الاستقصاء العلمي ويوفر وسائل التشاور في شؤون التربية وتعزيز التجارب في هذا المضمار . وستزور اللجنة فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسوريا ، وقد انتهت من زيارة العراق وجمعت بيانات وافية عن نظم التعليم فيه .

✡ ✡ ✡

من زوار مصر المستشرق الإنجليزي جنسون دافيز أحد خريجي مدرسة اللغات الشرقية

بجامعة لندن ومن الذين تخصصوا بالأدب العربي الحديث واللهجات العامية الشائعة . وسيلقي سلسلة محاضرات بدار المعهد البريطاني بالقاهرة .

☆☆☆

شرعت وزارة المعارف في تهيئة معهد الصحراء بمصر الجديدة وتزويده بالتحف والنفائس والمطبوعات بعد أن أخلته السلطات العسكرية .

☆☆☆

يظهر قريباً للأستاذ أحمد راسم بك مدير المطبوعات كتاباً بالفرنسية عنوانه : « بريك أبراك » أي - ألف صنف - وهو مجموعة مقالات ونقدات للمجتمع وتحليل لفن طائفة من المصورين والرسامين ، ونقد لبعض المؤلفات المصرية التي ظهرت عن مصر من مثل كتاب « بودنج » لمؤلفته السيدة قرينة الأستاذ ممدوح رياض بك ، والكتاب مزين برسوم ومشاهد بريشة المرحوم سنتيز سجلها قبيل وفاته ، وكانت آخر عمل فني أنجزه .

☆☆☆

في ٢٣ ديسمبر الماضي أتم معالي الأستاذ الجليل عبد العزيز فهمي باشا عامه الخامس والسبعين ، وقد رأى أن يتوج يوبيله الماسي بعمل أدبي خالد فترجم « القانون الروماني » إلى اللغة العربية مع ذيول وحواش .

☆☆☆

قررت جمعية العاديات بالإسكندرية انتخاب السيدة « بنت بطوطة » المؤرخة المعروفة عضواً عاملا فيها تقديراً لتآليفها التاريخية ، وفي مقدمتها كتابها عن تاريخ فينيقيا وشرح الصلات الدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت بين الفينيقين والمصريين قديماً .

☆☆☆

طلبت إيطاليا إلى وزارة المعارف المصرية أن ترسل إليها بعض الطلبة المصريين لإتمام دراستهم على نفقة الحكومة الإيطاليه على أن ترسل إيطاليا عدداً من طلبتها لتلقي العلوم العربية بالمدارس المصرية وفي جامعتي القاهرة والإسكندرية .

☆☆☆

ينتظر أن يختار المجلس البريطاني ستة من نوابغ الطلبة لإرسالهم في بعثة إلى الجامعات البريطانية كما هي عادته منذ أعوام ، وقد علمنا أن المجلس يمنح كل طالب مكافأة سنوية قدرها ٣٦٠ جنيها.

☆☆☆

عنيت وزارة المعارف هذا العام بإرسال بعثات لا تتصل بأعمال الحكومة فأوفدت إلى أمريكا وإنجلترا بعثة للطباعة وأخرى للتجليد وبعثتين لصناعة الورق كما أرسلت بعثات لإدارة الفنادق والسياحة .

☆☆☆

يسافر نحو ١٢٠ عضواً فى البعثات المصرية إلى أمريكا في السادس من هذا الشهر للحصول على

الدكتورية في المواد المختلفة التي امتازت بدراستها تلك البلاد ، وهذه أول مرة في تاريخ مصر يرسل فيها العدد الكبير .

وقد رحبت الجامعات الأمريكية بقبول هؤلاء الطلبة توثيقاً للرابطة الثقافية بين مصر وأمريكا

✡ ✡ ✡

علمنا أن الحكومة الفرنسية رغبت إلى الحكومة المصرية في تبادل بعض أساتذة الجامعتين المصريتين مع أساتذة الجامعات الفرنسية لمدة لا تقل عن عام ، وذلك لتوطيد الأواصر الثقافية بين مصر وفرنسا .

فلسطين

أصدرت الجمعية الطبية العربية في القدس مجلة طبية يحرر نصفها بالعربية ونصفها الآخر بالإنجليزية . وهذه أول مجلة طبية عربية تصدر في فلسطين . وأصدرت غرفة حيفا التجارية مجلة خاصة بالشؤون التجارية . وهناك مسعى لإصدار مجلة اقتصادية في القدس مرتين في الشهر ، تعاون في إصدارها الغرف التجارية . والمجلات الاختصاصية هي التي تحتاج اليها البلاد في الظروف الحاضرة ، إذ عليها المعول في توجيه نواحي النشاط توجيهاً صحيحاً .

✡ ✡ ✡

ستصدر أجزاء سلسلة الثقافة العامة في منتصف كل شهر . والعدد الثاني موضوعه « شخصيات عربية تاريخية » للأستاذ نقولا زيادة .

✡ ✡ ✡

ظهرت غير مرة الدعوة إلى تأسيس جامعة عربية في القدس . وذكر أخيراً أن مدينة نابلس تفكر في هذا المشروع . وكان المجلس الإسلامي الأعلى قد اتخذ في سنة ١٩٣٥ خطوات أولية لتأسيس جامعة إسلامية في بيت المقدس ولكن المشروع ما لبث أن توقف بسبب التطورات السياسية المعروفة .

والظاهر أن تأسيس « جامعة » يجب أن تسبقه خطوات تمهيدية ، من أهمها دعم التعليم الثانوي ، وإعداد الأساتذة ، وإيجاد الأماكن الخاصة بالتدريس والسكن ، ونحو ذلك . وكل بحث جدي يجب أن تسبقه مؤتمرات صغيرة تمثل فيها البلاد العربية . ولعل جامعة الدول العربية تعنى بهذا الموضوع .

✡ ✡ ✡

ذكر نائب مدير المعارف في مقال له أن ٣٤ ولداً من كل مائة ولد عربي يذهبون إلى مدارس الحكومة الآن .

✡ ✡ ✡

صدرت مجلة جديدة اسمها « الهدف » لمعالجة شؤون الرياضة والسينما والحياة الاجتماعية . وستصدر قريباً مجلة باسم « المستقبل » . وستدخل مجلة « المنتدى » في طور جديد في أول العام .

✡✡✡

ترجم السيد أنور نسيبة كتاب «فلسطين — الحقيقة» لمؤلفه جفريز الإنجليزي . وهو من أهم الكتب عن القضية الفلسطينية .

✡✡✡

أصدر الشاعر الدكتور قيصر خوري ديواناً له عرض في آخره تراجم بعض الشخصيات الفلسطينية البارزة .

لبنان

ينصرف الأستاذ بطرس البستاني في هذه الأيام إلى إعداد دراسة علمية رصينة عن « الأساطير العربية القديمة » ، بعد أن فرغ من طبع كتابيه الجديدين : « الشعراء الفرسان » و « معارك العرب » .

✡✡✡

يصدر في مطلع السنة الجديدة كتاب «الرؤوس» لمارون بك عبود مدير الجامعة الوطنية بعالية . والكتاب دراسات مسهبة في « رؤوس » أدباء العرب منذ الجاهلية إلى يومنا الحاضر . يبدؤها المؤلف بالحياة العربية قبل الإسلام ويلخصها بأنها « حياة حب وشرب وحرب » ويختمها بمبحث في اليقظة الأدبية في لبنان ، ومبعثها ونتائجها .

✡✡✡

عين الشاعر بشاره الخوري ، المعروف بالأخطل الصغير ، مستشاراً فنياً للغة العربية في وزارة التربية الوطنية . ولأول مرة منذ سنوات كثيرة يرضى الشاعر اللبناني الكبير بالتوظف في دوائر الدولة . ولعله نزل عند رغبة أصحاب الأمر الذين ألحوا عليه بالقبول لحاجة دوائر المعارف إلى شخصيات أدبية بارزة كشخصية الأخطل الصغير الشاعر الذي يتناقل العرب قصائده في جميع أقطارهم .

✡✡✡

في خزائن الأدب العربي القديم كنوز مدفونة في مناجمها لما تستخرج . وهذه الكنوز وإن كانت في نفسها لا تفي بشروط الفن الأدبي الحديث ، تصلح مع ذلك أساساً يبنى عليه إنتاج أدبي عصري رفيع . وهذا ما توخاه الأستاذ رئيف خوري في كتاب: « صحون ملونة » إذ عمد إلى المجلدات العربية القديمة فنقب فيها عن نوادر وأساطير صغيرة اتخذها مادة لتأليف مسرحيات قصيرة ، تحمل الهيكل القديم ما يتحمله من المعاني الجديدة ، وأجرى فيه دماً جديداً . والكتاب يحوي نحواً من خمس عشرة قطعة . ويصدر قريباً في « دار المكشوف » .

✡✡✡

عهدت الحكومة إلى الدكتور نقولا فياض في طبع دواوين الشعراء اللبنانيين الأحياء والأموات أو بإعادة طبعها ونشرها . ويقوم الدكتور فياض بتحقيق الأصول والإشراف على الطبع

والإخراج . وقد رحبت البيئات الأدبية بهذا التكليف لما تعهده في الدكتور نقولا فياض من ذوق رهيف ، وأدب رفيع .

☆☆☆

انتهت اللجنة التي ألفتها الحكومة لتعديل المناهج والبرامج التعليمية في القسم المتعلق بالدروس الابتدائية ، ورفعت تقريرها إلى رياسة مجلس الوزراء ، ليعرض على مجلس النواب في الجلسات المقبلة . ويظهر أن اللجنة أدخلت تعديلات أساسية فيما اقترحته من إصلاح ، منها جعل التعليم الابتدائي باللغة العربية وحدها .

☆☆☆

طلب الدكتور شارل مالك إعفاءه من منصب وزير مفوض في واشنطون ، ليعود إلى تدريس الفلسفة في جامعة بيروت الأمريكية . وقد نزلت وزارة الخارجية عند طلبه ، وعينت محله الأمير رئيف أبي اللمع .

☆☆☆

بلغت ميزانية وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة لعام ١٩٤٦ أربعة ملايين ونصف مليون من الليرات اللبنانية ، أو ما يقدر بنصف مليون جنيه مصري ، في حين أن ميزانية الدفاع الوطني بلغت ثلاثة عشر مليوناً ، والأشغال العامة اثني عشر مليوناً . ومما تجدر ملاحظته أنه ليس في لبنان مدارس ثانوية أو كليات رسمية ، وإنما تعنى المدارس الرسمية بالتعليم الابتدائي وحده .

☆☆☆

دعت الحكومة اللبنانية الدكتور فيليب حتي أستاذ اللغات السامية بجامعة برنستون بأمريكا إلى الحضور إلى لبنان ليطلع الحكومة على شؤون المغتربين من أبناء لبنان ، وسينتهز الدكتور حتي فرصة إقامته في لبنان لنشر بعض مؤلفاته العربية ، ومنها تاريخ المهاجرة العربية وحق العرب في فلسطين.

☆☆☆

من بين المغتربين اللبنانيين في الشرق الأقصى الأستاذ نقولا بارودي الذي قضى نصف حياته في ربوع الصين ، فقد وضع معجماً باللغتين الصينية واللاتينية ليسهل على المثقفين الإلمام بشوارد هذه اللغة ، ثم عمد إلى وضع كتاب آخر في الترجمة من اللاتينية إلى الصينية وبالعكس .

سوريا

غيرت وزارة المعارف مناهج التعليم كلها هذه السنة وأحدثت من القوانين والمدارس ما لم تقدر على مثله في سنين كثيرة سابقة ، ونظمت الإدارة المركزية في المعارف تنظيما جديداً ، وزادت في عدد الأساتذة زيادة عظيمة وانتهى إلى معاهدها من التلاميذ عدد لم تشهد له مثيلا من قبل . والقائم على توجيهها الأستاذ ساطع بك الحصري .

☆☆☆

افتتح في دمشق مدرستان ثانويتان خاصتان هما : « المعهد العربي » وقد أنشأته جمعية الشبان المسلمين و « مدرسة التمدن الإسلامي الثانوية » وقد أحدثتها جمعية التمدن الإسلامي .

☆☆☆

أصدر المجمع العلمي العربي بدمشق كتاب « المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري » وهو يشتمل على وصف المهرجان الذي أقامه المجمع المذكور لمرور ألف سنة على مولد أبي العلاء، وما قيل فيه من القصائد والخطب. وقد قدم له الأستاذ خليل مردم بك أمين السر العام للمجمع بكلمة بليغة أحاط فيها بنواحي نبوغ أبي العلاء . والكتاب مصدّر بكلمة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي بك، وقد وصف الحفلات الدكتور جميل صليبا وورد فيه ٢٧ خطاباً لسبعة وعشرين عالماً وكاتباً وشاعراً . وزين بالكلمات التي وردت متأخرة فألحقت بالحفلة السادسة ، وبالكلمات التي بعث بها أصحابها لتنشر في الكتاب بعد أن تعذر حضورهم إلى دمشق في أسبوع المهرجان . والكتاب من القطع المتوسط في ٤٠٠ صفحة .

☆☆☆

سيخرج في مطبوعات المجمع العلمي العربي ديوان ابن عنين الشاعر الدمشقي المتوفى سنة ٦٣٠ بتحقيق الأستاذ خليل مردم بك وقد قابله بسبع نسخ مخطوطة .

☆☆☆

استهل المجمع العلمي العربي موسمه الأدبي بمحاضرة ألقاها في اليوم السابع من ديسمبر الأستاذ محمد كرد علي بك رئيس المجمع عن شيخ الأزهر الراحل العظيم محمد مصطفى المراغي .

☆☆☆

كثرت بسورية في الآونة الأخيرة دور الكتب ، وقد احتفل في ٦ من ديسمبر بتدشين دار الكتب الوطنية بحلب ورأس التدشين الأمير مصطفى الشهابي الذي يعود إليه الفضل في إنشاء هذه الدار ، وسيحتفل بعد أمد وجيز بافتتاح دار الكتب الوطنية باللاذقية ، وهي من آثاره أيضاً . وهنالك مساع لإنشاء دار للكتب في حماة وأخرى في حمص وثالثة في دير الزور .

☆☆☆

تسلمت دار الكتب الظاهرية ٢٩٣ مجلداً أرسلها معالي الدكتور عبد الرزاق السنهوري بك هدية إليها باسم وزارة المعارف المصرية ، وقد وجد قراء تلك الدار فيها أبحاثاً كانوا يتلهفون إليها.

☆☆☆

في دار الكتب الظاهرية مخطوط يعتقد أنه من أقدم المخطوطات المكتوبة على الورق في العالم ، وهو مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، وقد كتب سنة ٢٦٦ هجرية .

☆☆☆

أتم الأمير مصطفى الشهابي عضو المجمع العلمي العربي ووزير المعارف والمالية السابق وصاحب معجم الألفاظ الزراعية وغيره من المؤلفات النفيسة كتاباً خاصاً عن الاستعمار ومثالبه .

☆☆☆

توفى إلى رحمة الله الأستاذ عبد القادر المبارك عضو المجمع العلمي العربي ؛ وكان آية في علمه باللغة العربية وقد تركت وفاته فراغاً عظيماً .

☆☆☆

وضع الأستاذ يوسف باسيل شلحت من حلب كتاب « علم الاجتماع الديني » يبحث فيه عن الديانة ومختلف النظريات المتعلقة بها وأثرها في ميادين الحياة المختلفة .

العراق

تألفت في وزارة المعارف لجنة لإصلاح مناهج التعليم وتنقيحها وتعديلها لمدارس الحكومة الابتدائية والمتوسطة والثانوية . وشرعت في درس المناهج الحالية وتمحيصها لترسم خططها في التعديل المطلوب .

☆☆☆

قررت لجنة الترجمة والتأليف والنشر بوزارة المعارف القيام بطبع كتاب تاريخي مخطوط هو « النبراس في تاريخ بني العباس » تأليف الحافظ عمر بن حسن بن محمد المعروف بابن دحية الكلبي. وهو أندلسي انتقل إلى مصر وعاش فيها واشتهر بالحديث . ويتناول «النبراس» تاريخ الفترة بين قيام الدولة العباسية إلى أواسط عصر الناصر لدين الله — وقد عاصره المؤلف — والنسخة الخطية الأصلية عثر عليها أحد أعضاء اللجنة الأستاذ عباس العزاوي المحامي في « خزانة كتب بايزيد » في القسطنطينية ، وقد كتبت في عهد المؤلف المتوفى سنة ٦٣٣ هـ . وصورت بالتصوير الشمسي ويقدر حجم الكتاب عند الطبع بمائتي صفحة من قطع مجلة (الكتاب) .

☆☆☆

اعتذر الأب أنستاس ماري الكرملي عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة إلى رياسة المجمع عن عدم حضور الاجتماع الحالي الذي سيعقد هذه الأيام ، وذلك لضعف صحته .

☆☆☆

تألفت « شركة الأفلام السينمائية العراقية » في بغداد ، وتستعد الشركة لإنتاج أفلام عراقية . وستستعين ببعض المتخصصين الإنجليز والأمريكيين والمصريين في عملها .

☆☆☆

أنجزت « مطبعة الجيش العراقي » هذا الأسبوع طبع « المعجم العسكري — الإنجليزي العربي » وقد انقضت عشرون سنة وتزيد وديوان الترجمة في وزارة الدفاع يدأب في التنقيب والبحث لإيجاد المصطلحات العسكرية وتعريبها . وكان في رأس هذا الديوان أديب كبير هو المرحوم الأستاذ عبد المسيح وزير الذي تخصص بهذا العمل العلمي الأدبي، توفي سنة ١٩٤٣، ويحسن أن نسجل هنا فضل المرحوم أحمد تيمور باشا المصري في نواة هذه المصطلحات ، إذ قد استعين بالعالم اللغوي لتزويد

الجيش العربي في الشام في عهد ساكن الجنان الملك فيصل بما كان مستعملا في الحياة العسكرية العربية القديمة من مصطلحات، فوضع تيمور باشا جريدة ثمينة بهذه الأسماء والاصطلاحات في الجندية العربية. فلما انتقل كبار الضباط والملك فيصل من سورية إلى العراق وتأسس الجيش العراقي نقلوا إليه هذه البداية الفصيحة لمصطلحات جيشنا . وممن ساهموا في المجهود أيضاً المرحوم الفريق أمين المعلوف باشا مؤلف « معجم الحيوان » و « المعجم الفلكي » وقد رأس طبابة الجيش العراقي أكثر من عشر سنوات .

وهذا القاموس العسكري هو الأول من نوعه في اللغة العربية ، وقد بلغت صفحاته نحو ألف صفحة من القطع الصغير بطبع مجوّد .

✡✡✡

انتهز معالي الدكتور ناجي الأصيل مدير الآثار القديمة في العراق فرصة وجوده في إنجلترا رئيساً للوفد العراقي في مؤتمر التعليم والتربية للأمم المتحدة بلندن، فتداول مع الهيئات والمعاهد العلمية الأثرية والمنقبين الأثريين لاستئناف بعثاتهم للتحفريات والتنقيب في أطلال العراق ، وقد انقطعت هذه البعوث العلمية من أمريكا وأوربا في خلال الحرب الأخيرة ، ولم يعد لحركة التنقيب إلا الهيآت العراقية الفنية التي ألّفها المتحف العراقي، وهي تقوم هذا العام بالتنقيب في أطلال (عقرقوف) و (تل حرمل) ، وينتظر أن تقدم إلى هنا بعثات أثرية أمريكية وإنجليزية قريباً .

✡✡✡

وضع سماحة مفتي الموصل الأستاذ السيد محمد حبيب العبيدي ديوان شعر سماه « الملحمة العربية » في ألف بيت ، أودعها وصف حال الأمة العربية ومنها العراق في هذا الطور ، من النواحي السياسية والاجتماعية والدينية .

✡✡✡

أتم الأستاذ عباس العزاوي المحامي ببغداد كتابه الجديد « تاريخ الأدب التركي في العراق » من فتح سليمان القانوني بغداد إلى العصر الحاضر، ويتناول الأدباء العراقيين الذين نشؤوا في هذه البلاد واشتغلوا بالأدب باللغة التركية ووضعوا آثاراً بهذه اللغة وآخرهم « أحمد هاشم » الأديب الشاعر التركي الشهير المتوفى قبل بضع سنوات في إستنبول ، وقد كان أول شاعر تركي انضم إلى الحركة الكمالية وهو من آل الآلوسي ، الأسرة العلمية المعروفة في ديارنا ، وأخو الأستاذ موفق الآلوسي عميد كلية الحقوق ببغداد سابقاً ومن السلك الدبلوماسي العراقي .

✡✡✡

بمناسبة صدور كتاب « ذكرى أحمد تيمور باشا » في مصر ، أعد الأستاذ كوركيس عواد أمين خزانة دار الآثار العراقية رسالة تحتوي على رسائل أحمد تيمور باشا إلى الأب أنستاس ماري الكرملي في شؤون تتصل باللغة والمخطوطات والأدب والتاريخ ، وعلق عليها تعليقات تاريخية ومكتبية ، وستطبع قريباً .

انجلترا

تحفل الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية هذه الأيام بالإعلانات والأحاديث عن الكتب على مختلف أنواعها حتى ينتقي الجمهور منها هدايا لعيد الميلاد . ومن أشد ما يسترعي النظر كثرة الكتب التي تصدر خاصة بالأطفال من مختلف الأعمار وفي مختلف ألوان المعرفة .

٭٭٭

صدرت الطبعة الثانية من كتاب في « تاريخ الطب » لمؤلفه دجلاس جثري .

ويقول برنردشو عن هذا الكتاب : « إنه خير موسوعة تقرأ في تراجم الطب الحديث وهو كتاب فريد يساوي ثمنه حقاً » وقالت عنه جريدة السنداي تيمس : « إنه أحسن كتاب من نوعه باللغة الإنجليزية » .

٭٭٭

قال المستر أتلي في خطابه الذي ألقاه أخيراً بالجمعية الملكية « إننا لفي حاجة إلى زيادة قوانا من رجال العلم ، ولتحقيق ذلك ينبغي أن نضمن أن الكفايات التي قد توجد في أية طبقة من طبقات الجماعة لا يدفنها فقر ولا يقف دون نمائها حاجة إلى مال . وينبغي أن نعمل على أن تكون المشرعات الحكومية قائمة على أسس علمية ، وأن نستعين في رسم أية سياسة، بمشورة رجال العلم » . ووافق المستر أتلي على الرأي القائل بأن العلم ينبغي أن يكون دولياً ، وأن التجربة والبحث ينبغي أن يكونا حرين ، كما وافق على حرية تبادل المعرفة وعلى أن محاولة قصر المعرفة على بعض الدول أو بعض الأفراد أمر ينبغي القضاء عليه . على أنه قال : إنه لايمكن تحقيق هذا إلا في عالم قد اختفى منه شبح الحرب ، ومن ثم ينبغي العمل على توثيق العلاقة السياسية والاجتماعية بين شعوب العالم حتى يمكن تجنب كارثة أخرى سوف تكون ، لو وقعت ، أسوأ من الكارثة الأخيرة .

٭٭٭

أصدر الكاتب العالمي المعروف ولز كتاباً صغيراً اسمه « العقل في آخر نطاقه » وهوكتاب تنبأ فيه بنهاية العالم القريبة التي لا محيص منها ، ويقال أنه انتهى منه قبل الكشف عن القنبلة الذرية . وقد عرض الملحق الأدبي لجريدة التيمس في تحليل هذا الكتاب لتشاؤم ولز . وقيل في هذا النقد إنه إذا أنتج رجل طاعن في السن كتاباً مليئاً بألوان التشاؤم القاطع حق للقارئ أن يتساءل عن مقدار ما في هذا التشاؤم من نتائج البحث والملاحظة الموضوعية وعما فيه من نتائج السن والمزاج . ذلك لأن المستر ولز يجزم في خاتمة كتابه عن طبيعة الحياة والزمن « أن نهاية كل ما ندعوه بالحياة ، قريبة ، وأنه لا مفر منها ، وأن ليس في هذه الدنيا نظام يقبله العقل ، وأن هذه الدنيا تقترب من النهاية التي تنطفئ عندها معالم الحياة . »

ويقول الناقد : « إن مثل هذه الأحكام الجارفة تستلزم من صاحبها البرهان والحجة ، على أن المستر ولز لا يقدم للقارئ من هذه وتلك سوى القليل اليسير الذي لايدفع إلى الاقتناع أواليقين» .

٭٭٭

بدأت القصص عن الحرب تكثر وتزيد حتى كادت تصبح سيلا غامراً ، ومن هذه القصص كتاب

ظهر أخيراً باسم «ملحمة الصحراء» لمؤلفه س . جرنفلد ، وقد نال هذا الكتاب جائزة القصة التي تمنحها دار مكميلان . وهو يعرض لجانب من الخبرة وألوان الانفعال التي مرت برجال فصيلة من المشاة في الصحراء الغربية قبيل معركة العلمين وخلال الليلة الأولى من المعركة نفسها .

أمريكا

ورد على نيويرك من نورنبرج بألمانيا أنه لما انتحر أحد مجرمي الحرب الألمانيين الدكتور روبرت لي في سجنه تولى طبيب بالجيش الأمريكي شق جمجمته واستخراج دماغه لينقل إلى أمريكا ويفحصه المتخصصون ، لأن صاحبه كان من كبار زعماء النازي . وذلك الطبيب الأمريكي هو الكبتن نجيب كلام سوري الأصل من دمشق .

✡✡✡

اشتد الإقبال على الكتب في الولايات المتحدة ، وصادف كتاب الجيب رواجاً عظيما . ففي سنة ١٩٤٥ طبعت أمريكا ٢٥٠ مليون نسخة من كتب منوعة على رغم تقنين الورق الذي لم يترك لطباعة الكتب إلا ٢٥٪ مما كان لها قبل الحرب .

ولهذه الكتب سبعة آلاف عنوان خمسها قصص وزعت مصالح الجيش والحربية ٧٥٠,٠٠٠ نسخة في شهر واحد على يد مصلحة النشر في الجيش .

وإن دلت هذه الكتب على شيء فانما تدل على أن القارىء الأمريكي يريد من مطالعاته أمرين : أن يتسلى أولا وأن يتعلم ثانياً ، فيبحث فيها عن الآفاق البعيدة والبلاد الغريبة التي لم يكن يعرف عنها غير الاسم . والناشرون يتطلعون إلى كل كتاب يتعرض للحرب في جميع الجهات .

ولما كان من الجنود كتاب يصفون الحرب وصف عيان ويحسون ما يصفون ويفهمونه فقد اكتسب الأدب الأمريكي طابع الواقعية الصادقة .

✡✡✡

قررت الجالية السورية اللبنانية في المكسيك تأسيس جامعة لدراسة اللغة العربية وآدابها بإشراف الحكومة المكسيكية .

روسيا

نشرت مجلة « السوفيات » الأسبوعية ، بمناسبة الاحتفال الذي عقد في الأسبوع الأخير من نوفمبر لبلوغ الرئيس كالنين السبعين من عمره ، النبذة الآتية عن تاريخ حياته :

ولد كالنين سنة ١٨٧٥ من أبوين من صغار الفلاحين على مقربة من موسكو . وتعلم في مدرسة القرية حتى بلغ الرابعة عشرة ثم قرر الذهاب إلى مدينة بطرسبرج التي تعرف اليوم باسم لننجراد .

وهنا بدأت في حياته مرحلة جديدة فإذا به يصبح عاملا في مصانع تلك المدينة ويتصل لأول

مرة بالحركة الثورية في روسيا ، تلك الحركة التي استغرقت حياته كلها فيما بعد . وفي سنة ١٨٩٦ صار من أنشط أعضاء « جماعة الكفاح لتحرير الطبقة العاملة » التي ألفها لنين والتي أصبحت نواة لحركات العمال جميعاً .

وفي سنة ١٨٩٨ التحق « بحزب العمال الديمقراطي الاشتراكي » . ثم قبض عليه البوليس في العام التالي وأخرجه من بطرسبرج فواصل نشاطه في بلاد القوقاز ، ثم في بلاد البلطيق، وألقي في السجن غير مرة .

وعاد إلى بطرسبرج في سنة ١٩٠٥ واشترك في الثورة التي قامت في هذا العام . وفي العام التالي اشترك في المؤتمر الذي عقده هذا الحزب في أستكهلم ، مع لنين وستالين وفوروشيلوف . وواصل نشاطه واشتراكه في الحركات السرية وألقي في السجن حتى سنة ١٩١٠ . وفي هذه الفترة كان محرراً في جريدة برفدا البلشفية وعلى صلة وثيقة بلنين وستالين .

وكان كالنين من أنشط من اشتركوا في ثورة ١٩١٧ ، وفي سني الحرب الأهلية التي نشبت بعد ذلك زار غير مرة جبهات القتال وألهب الجنود حماسة لمقاتلة أعداء الثورة .

وفي مارس سنة ١٩١٩ انتخب رئيساً للجنة المركزية للحزب الشيوعي فأصبح بالفعل رئيساً للحكومة السوفياتية وبقي في هذا المنصب حتى اليوم. وقد حاز كثيراً من الأوسمة جزاء له على خدماته لروسيا والجيش الأحمر .

✡ ✡ ✡

عاد إلى موسكو جماعة من علماء الطبيعة بعد أن قضوا شهرين في دراسة الأشعة الكونية من قمم جبال السياسير التي تعرف بسقف العالم . وكانت قاعدتهم الرئيسية على ارتفاع ١٣,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وكانوا يلبسون خمس طبقات من الملابس حتى يستطيعوا العيش والعمل. وكانوا يأخذون أرصادهم ويسجلون ملاحظاتهم من ارتفاع يبلغ ما بين ١٦,٧٥٠ قدماً و٢١,٣٥٠ قدماً فوق سطح البحر . أما أهم الوسائل التي استخدموها لرفع أجهزتهم العلميــة الدقيقة فقد كانت ظهور الحمير ! .

✡ ✡ ✡

منح عمال المناجم في ستالينو ، جزاء لهم على تفوقهم في إنتاج الفحم ، مبلغ ستة ملايين روبل، خصصوا جانباً كبيراً منها بشراء مجموعات كاملة من مؤلفات شكسبير ومن مؤلفات بشكين ، كما خصصوا جانباً منها بشراء الآلات الموسيقية للأفراد، وشراء الآلات لجوقات الجاز والموسيقى النحاسية.

فرنسا

توفي في مقاطعة بريتانيا الكاتب الفرنسي المعروف أوجست هامون . ولقد اشتهر هذا الكاتب بدراساته الاجتماعية وبترجمته لمؤلفات برنردشو وكان على صلة وثيقة به .

✡ ✡ ✡

ستنتخب الندوة الفرنسية في شهر يناير سنة ١٩٤٦ عشرة أعضاء جدداً وستقصر اختيارها على رجال الأدب لترفع بهم سمعة هذه المؤسسة القديمة .

نعت أنباء جنيف العالم الأثري ألفرد بوازيه عن ٧٨ عاماً قضى معظمها في دراسة الآثار الأشورية والبابلية حتى عد من كبار مؤرخي حضارتها وله فيها أبحاث نفيسة في أشهر مجلات الآثار وقد كان عضواً في مجامع علمية وأدبية كثيرة .

☆☆☆

أنفق الكاتب الكندي مرسيل ديجا خمس سنوات في إعداد كتاب باللغة الفرنسية عن « الأدب الكندي المعاصر » وصف فيه تعلق الكنديين بوطنهم القديم والأثر الأليم الذي تركه في نفوسهم الاحتلال الألماني لهذا الوطن .

☆☆☆

يبحر إلى مصر من ميناء طولون في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٥ الفرقة الفرنسية التي ستحيي موسم « الكوميدي فرنسيز » بدار الأبرا الملكية ، وتتألف هذه الفرقة من أعلام الممثلين والممثلات، من مثل جان هرفيه وجان فلكور وكلاهما عضو ببيت موليير ، والسيدتين إفلين فلني وسوزان دلفي من مسرح الأديون ، وغير هؤلاء من أشهر المسارح الباريسية . وستكون رواية الافتتاح للمؤلف المسرحي هنري برنشتين وهي من أروع مسرحياته وعنوانها « الرسول » .

☆☆☆

عادت إلى الظهور مجلة شعرية كانت تصدر قبل الحرب بعنوان « الزجاجة في البحر » وهو عنون إحدى قصائد ألفرد دي في المشهورة. وتنشر هذه المجلة كثيراً من الشعر الرائع والنقد القاسي.

☆☆☆

استأنفت جماعة أصدقاء مونتين نشاطها برياسة أبل لفران ، وستباشر طبع يوميات مونتين لسنة ١٥٥١ ، وقد أودعها أهم حوادث حياته .

☆☆☆

أسفرت الحرب عن أدب غني أوحت به المعتقلات بما فيها من قسوة وصعاب وضجر ، يضاف إليها ثلاثون لوحة رسمها بيار كولو تمثل حياة الأسر ومحنها .



رسائل القرّاء

حول مسرحية العباسة

نشرنا في الجزء الثاني من هذه المجلة نقد رواية « العباسة » ثم وقفنا على كتاب أرسله مؤلف الرواية سعادة الأستاذ عزيز أباظة باشا إلى صاحب ذلك النقد الأستاذ زكي طليمات فاستأذنا في نشره ليطلع القراء على صورة جميلة من السمو والكرم بين الناقد والمنقود وهذا هو نص الكتاب :

أسيوط فى ٢/١٢/٤٥

عزيزي الأستاذ زكي طليمات

قد أختلف معك في بعض ما أحصيت مخلصاً كريماً من مآخذ في مسرحية العباسة. وقد تكون منزلتي في هذا الخلاف هي المنزلة المرجوحة . وإن كنت لا أرى ذلك إلى ساعتي هذه .ولكن الأمر الذي لاخلاف عليه أن هذا النقد الذي طالعت به قراءك في مجلة الكتاب الغراء ، هو نقد رائع قيم ، يهدى ، ويوجه ، ويبني ! وتلك فيما أعلم هي رسالة النقد في سموّها وأناقتها . ثم هو إلى جانب ذلك سريّ الموضوع غنيُّه ، مشرق الأسلوب ناصعُه ، عفّ المسّ كريمه . والمسّ إذا عف وكرم ، جمع إلى تجمل الهداة شرفَ المقصد وبلاغة الأداء .

أما الصورة التي رسمتها لشخصي ، أو على الأصح لذات نفسي ، فلقد عرّفتني فيها إلى نفسي ! ! . وكنت هممت أن أثبت منها بعضاً وأنكر بعضاً . غير أن أولادي وهم مني ، رأوا رأيك ، وتشيعوا له وقالوا : إنني لكذلك ، وإنهم يشرفهم أن أكون كذلك .

أما بعد . فلقد أحاول إن ساعفتني الفرصة أن أجلو لك أنني لم أجعل حادث العباسة وجعفر — إن صح أن يسمى حادثاً — هو السبب العامل في نكبة البرامكة ، وذلك ما تحصل لك فأخذته عليّ . وإنما جعلت هـذا الحادث قطرة الماء التي يفيض بارتشافها الإناء .

وأرجو أن أبعث للأستاذ الكبير بأصدق الشكر لفضله والتقدير لأدبه وفنه .

المخلص

عزيز أباظة

حول القصور الأموية في شرق الأردن

ونشرنا في الجزء نفسه مقالاً عن « القصور الأموية في شرق الأردن » للدكتور زكي محمد حسن فجاءنا عليه تعقيبان ندرجهما بنصهما ، وندرج رداً عليهما من الدكتور صاحب المقال .

١

في ٢ المحرم سنة ١٣٦٥ و ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥

... وبعد فقد استمتعت بمطالعة المقال الشائق الذي دبجته يراعة الدكتور زكي محمد حسن بتلك البراعة الفنية عن القصور الأموية في شرق الأردن (م ١ ص ١٥٧) فاستوقفني قوله بعد مدينة بطرا : (أو الرقيم) ذات البيوت المنحوتة في الصخر الوردي اللون .

أقول : والمعروف أن مدينة بطرا اليونانية (وهي بمعنى الصخر) هي سالع العبرية وسَلْع العربية (والسلوع شقوق في الجبال والأسلاع طرق فيها) فوجدتني أمام تسمية جديدة وهي الرقيم التي وضعها الدكتور بين عضادتين .

أما الرقيم فقد قال عنه الرحالة علي بن أبي بكر الهروي في كتابه المخطوط «الإشارات إلى معرفة الزيارات» : البلقاء بلد بها الكهف والرقيم وعنده مدينة يقال لها عمّان بها آثار قديمة ذكروا أنها مدينة دقيانوس .

وقال ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي الذي نقل عن الأول أكثر الأعلام الجغرافية الواردة في معجم البلدان ورتب الكلمات : بقرب البلقاء من أطراف الشام موضع يقال له الرقيم يزعم بعضهم أن به أهل الكهف .

بيد أن القرية المزعوم أنها الرقيم تعرف اليوم باسم رجيب وهي تقع في الشرق على مسافة اثني عشر كيلومتراً من مدينة عمّان عاصمة إمارة شرق الأردن. ولا يزال في هذه القرية من الآثار القديمة أنقاض هيكل وكهف جميل الصنع منحوت في الصخر الأصم يقال أنه الكهف المذكور في القرآن الكريم .

ولعل هذا القول هو الذي جعل الهروي والحموي ومن جاء بعدهما من الرحالين والجغرافيين يظنون أن اسمها الرقيم .

ومما يستغرب حقاً أن تعرف القرية اليوم باسم رجيب وهي تحمل اسم الرقيم من نحو تسعة قرون . فقد جاء في أخبار الحروب الصليبية أن « سلع » وهي المعروفة

الآن بوادي موسى كانت قلعة للصليبيين بينا كان جيش الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكي يخيم بالرقيم انتظاراً لقدوم صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر الذي جاء بعد أيام وانتزع الحصن من الصليبيين .

وكانت تلك القلعة قائمة على هضبة مرتفعة منفردة من الصخر وهي حصن طبيعي في حد ذاته . ويطلقون اليوم على تلك الهضبة أو التل كما يسمونه اليوم مع بقايا الحصن اسم« الحبسي » نسبة إلى الحبس الذي هو السجن .

فيستدل من التسمية الحالية للرقيم أن الاسم الصحيح هو رجيب وعندما يلفظها البدو المخيمون هناك يرققون الجيم فيظنها السامع قافاً كما يتوهم بالسماع الباء ميماً .

يضاف إلى ماتقدم أن الهروي وياقوت نفسهما يقولان إن الكهف والرقيم في بلاد الروم عند أبسس مدينة دقيانوس وأن ذلك هوالصحيح .

وعلى ذكر النصب التذكارية لتخليد الانتصارات الحربية التي عرض لها الدكتور بقوله إنه لايعرف لها إلا مثلا واحداً هو البناء المسمى مشهد النصر الذي شيده السلطان الظاهر بيبرس على أثر انتصاره على المغول في عين جالوت ، أذكر له أن الأمير شمس الدين سنقر الملكي الكاملي العادلي أنشأ مسجد النصر في قرية بيت حانون من أعمال غزة على أثر ظفره بالصليبيين وهذا نص الرقيم الحجري الذي نقلته عنه بنفسي والمرفوع فوق أسكفة باب غرفة في المسجد المذكور .

السطر

١ بسم الله الرحمن الرحيم . إنما يعمر مساجد اللهمن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتا (كذا) الزكاة .

٢ أنشأ هذا المسجد المبارك الأمير الأجل الإسفهسلار الكبير الغازي المجاهد المرابط المثاغر .

٣ شمس الدين سنقر الملكي الكاملي العادلي عند كسرة الإفرنج خذلهم الله تعالى ببيت حانون .

٤ يوم الأحد النصف من ربيع الآخر سنة سبعٍ وثلاثين وستمائة سماه مسجد النصر عند من استشهد من أصحابه .

٥ في الوقعة . عمره ابتغاء وجه الله (وطلباً) للرحمة والمغفرة لجميع المسلمين ولكاتبه الفقير محمد بن بلال .

فيكون هذا النصب التاريخي الأيوبي هو أول نصب تذكاري أقيم في فلسطين وخلد على وجه الدهر. والغريب أن كتب التاريخ لم تشر إلى هذه الوقعة بتاتاً ولولا هذا الرقيم لما علمنا من أمرها شيئاً .

بيت المقدس

عبد الله مخلص

رد الدكتور زكي محمد حسن

إن « الرقيم » ليست تسمية جديدة لمدينة بطرا كما ظن الأستاذ السيد عبد الله مخلص ، فقد جاء في كتاب العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان (ص ٧٠) : " ولكن العرب شاهدوا آثار هذه المدينة (بطرا) بعد الإسلام وسموها « الرقيم » وهو تعريب أحد أسمائها اليونانية ، لأن اليونانيين كانوا يسمونها أيضاً أركه Arke حرفه العرب وقالوا « الرقيم » " وجاء في (ص ٦٧) من كتاب History of the Arabs للأستاذ فيليب حتي Philip Hitti (الطبعة الثانية) : Petra, a Greek word meaning rock, is a translation of the Hebrew Sela mentioned in Isaiah 16 : 1, 42 : 11 and 2 Kings 14:7. Al-Raqim is the Arabic correspondent and the modern name is Wadi Musa.

وفضلا عن ذلك فإن في مادة « أصحاب الكهف » بدائرة المعارف الإسلامية عرضاً للآراء المختلفة بشأن الرقيم .

أما عن النصب التذكارية فإني أشكر الأستاذ الجليل عبد الله مخلص على بياناته النفيسة عن مسجد النصر في قرية بيت حانون ، ولكني لا أطمئن إلى اعتبار هذا المسجد نصباً تذكاريا بمعنى الكلمة ، لأنه يقصد بالنصب التذكارية أقواس النصر والأعمدة ومايشبهها من العمائر . أما المساجد التي تشيد تخليداً لذكرى شهيد أو شهداء فيفضّل اعتبارها من العمائر الدينية .

٢

في المقال الموجز الذي كتبه الدكتور زكي محمد حسن في عدد ديسمبر الحالي من هذه المجلة الغرّاء ، هنات ، أورد عليها الملاحظات الآتية :

ا ـــ أغفل الدكتور ، في التمهيد لمقاله ، ذكر كثير من قصور الأمويين، والمدن التي كانت مبعثرة في الشام ، التي ترك الأمويون فيها تلك القصور . فهو لم يذكر حرّان ولا قنّسرين ، ولا البخراء ، ولا القطيفة ، ولا حمص والزيزاء ، ولا الرصافة ورقّة

واسط ، ولم يذكر دير سابر ، ودير أبان ، ودير قيس ، ولم يذكر محلة الراهب بدمشق ، وشام في الجولان ، وبيت سابا ، وبيت لهيا في الغوطة ، والسبع من أرض فلسطين ، ولم يذكر الخضراء ، ولا قصر حجاج ، ولا قصر عاتكة ، ولا الأغدف ، ولا قصر أم حكيم . وفي هذه وتلك ، ما هو أعظم شأناً من الصنبرة أو الجابية اللتين ذكرهما الأستاذ ، فتمهيده من هذه الوجهة ، ناقص .

ب — وأغفل الدكتور أيضاً التنويه تماماً بقصرين أمويين عظيمين ، لا ينبغي إغفالهما ، في تمهيد يذكر عن قصور الأمويين ، وهما قصر الحير الشرقي الذي يقع في البادية ، على بعد ثلاثين كم شمال قرية الشخنة ، وقصر الحير الغربي الذي كشفته مصلحة الآثار السورية بين تدمر وحوارين (القريتين) ، وأخرجه العالم الأثري (شلمبرجه) ، ونقلت أجزاؤه إلى متحفنا بدمشق ، فأعيد تركيب واجهته الرائعة في غرب المتحف . وما دام الدكتور قد نوّه بالموقر فكان من الأحرى التنويه بهذين القصرين ، لأن ذاك مفقود ، وهذين موجودان .

حـ — أدخل الدكتور قصير عمرة وحمام الصرخ في عداد القصور ، والمعروف أن هذين حمّامان ، ومقال الدكتور مقصور على قصور الأمويين لا حماماتهم ، ولو أن الدكتور أفرد بحثاً لحمامات الأمويين ، كهذين ، وكحمام قصر الحير الشرقي الذي اكتشف في جنوب القصر ، وكالحمام الذي اكتشف في حفريات (حلبية) أخيراً ، لكان أولى .

ء — ومن المفيد أن نذكر أن هذا الموضوع الذي طرقه الدكتور الفاضل ، كان قد طرقه قبله الأمير جعفر الحسني محافظ متحف دمشق السابق ، في المجلد السابع عشر من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (سنة ٩٤٢) . وفي بحث الأمير تفصيلات ، وتخطيطات تامة للقصور ، وكذلك فيه ذكر المراجع التي اعتمد عليها . وقد أهمل الدكتور بعض ذلك في مقاله .

دمشق — صلاح الدين المنجد
رئيس ديوان مديرية الآثار القديمة في سورية

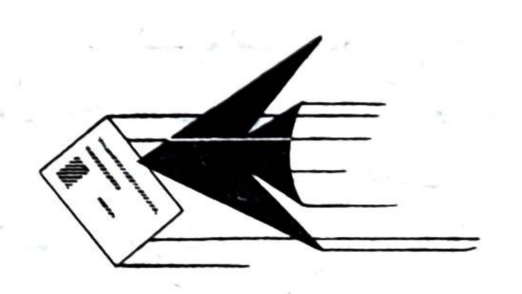
رد الدكتور زكي محمد حسن

الظاهر أن حضرة الكاتب الفاضل لم يقرأ عنوان المقال ؛ فإنه معقود للكلام على « قصور الأمويين في شرق الأردن » . ومن الاستطراد الذي لا يغتفر إلا لكتاب العصور

الوسطى أن يخرج الكاتب من ذلك إلى الحديث عن آثار الأمويين في سورية وفلسطين ، وهي التي سرد حضرته بعضها ؛ وإلا لما كان ثمة محل للتخصيص في عنوان المقال . ومن يدري ! ربما ظهر معقب جديد وأخذ علينا أننا لم نكتب عن آثار الأمويين في الأندلس !
أما المدن الشامية التي أشرنا إليها في التمهيد لمقالنا فقد ذكرناها على سبيل المثال : — مصدرة بكلمة « مثل » — حين أردنا أن نقرر أننا لا نعرف شيئاً عن القصور الأموية في المدن وأنه لم يبق إلا ما شيده بنو أمية من قصور وحمامات في البادية . ثم دخلنا في الكلام على موضوع المقال وهو ما يقع من تلك القصور والحمامات في شرق الاردن . فهذه « الهنات » التي يشير إليها الكاتب ليست في رأينا إلا أول الأساليب الصحيحة في البحث العلمي .

أما ذكر قصير عمرة وحمام الصرخ بين قصور بني أمية فقد سار عليه علماء الآثار . وسببه أن هذين الحمامين فيهما قاعات استقبال ولم يكونا وقفاً على الاستحمام . وحسبنا لفظ « قصير » في اسم « قصير عمرة » .

أما « المفيد » الذي ذكره الكاتب في الفقرة الاخيرة من تعقيبه فتحامل بحت لأن مجلة « الكتاب » لا تستطيع أن تفسح لنا من صفحاتها ما يتسع للتفصيلات والتخطيطات التي يشير إليها . وإنما مجال ذلك الكتب والمجلات الفنية الخاصة .



زهرات منثورة

فوائد

استعمال الكربون

الكربون عنصر ينتفع به الإنسان في نواحي مختلفة مدهشة . فحين يكون ماساً يعتبر ملك الجواهر ورمز الجاه العريض ، ولكن فائدته تبلغ الدرجة القصوى حين يكون فحما نباتياً أوحيوانياً متواضعاً .

ويعرف كل فرد منا كيف يمتص الفحم الحيواني الروائح الكريهة والغازات المؤلمة ، وقد أوحت قوة الامتصاص هذه في بدء الأمر استعمال ما سمي « بالكربون الفعّال » .

و « الكربون الفعال » هو كربون أو فحم نباتي أو حيواني عولج بطريقة تجعله كثير الثقوب . وكلما كان الكربون أكثر ثقوبا كان أفضل ، لأن معنى ذلك زيادة السطح في وحدة الحجم ، والأهمية كلها في السطح ، لأنه يثبت جزيئات الغاز أو البخار أو السائل المراد حصره .

ويصنع « الكربون الفعّال » إما بزيادة مسام الفحم النباتي أو الحيواني أو الكوك ، وذلك بتعريضه للتأكسد بواسطة تيار من بخار الماء ، أو بمعالجة الخشب بمواد كماوية بحيث يكون الفحم النباتي الذي ينتج منه كثير المسام .

وتوجد درجات مختلفة من « الكربون الفعال » لها أوجه استعمال متباينة . فمنها مايكون أصلحها لامتصاص الغازات والروائح ، ومنها لامتصاص الألوان غير المرغوب فيها . وكان أهم أوجه لاستعمال « الكربون الفعّال » قبل الحرب هو تحويل السكر الأسمر إلى سكر أبيض . وقد زاد استعماله في هذه الحرب لإزالة الطعم الكريه من موارد المياه ، ولا سيما فيما يقتضي استعمال كمية كبيرة من الكلورين ، فلولا الكلورين لكانت موارد المياه التي أصابتها الغارات الجوية الخاطفة غير صالحة ، ولولا « الكربون الفعّال » لكان الذين لم يتذمروا من الغارات الخاطفة أشد تذمراً ولا شك من طعم مياه شربهم .

ومما يجعل « الكربون الفعّال » مهماً في الوقت الحاضر هو أن التجارب التي

أجريت في بريطانيا في أثناء الحرب أوحت بأنواع كثيرة من أوجه استعمال جديدة ، لايزال كثير منها سراً وأغلبها في دور التجربة .

ويقول المهندسون الذين يقومون بهذه الأبحاث : إنهم يكتشفون يومياً ميادين جديدة لاستعماله . ويكتب إليهم أرباب الصناعة عن معضلاتهم التي يظن أن بعضها خيالي ، وفي غالب الأحيان يكون ، « الكربون الفعّال» هو الردّ الصائب على أسئلتهم .

أمثلة من وجوه استعماله

إن استعمال الخميرة في مخبز من المخابز ينتج مقداراً صالحاً من الكحول . وقد حدث أن خبازاً صرّح بأن حالة التسمم التي يعانيها ناتجة عن أبخرة الكحول المتصاعدة في أثناء صناعة الخبز . ويمكن للممتنعين عن تعاطي الخمور أن يطمئنوا لأنهم بأكلهم الخبز لا يخرجون على القاعدة التي استنوها لأنفسهم . ذلك لأن الكحول يتصاعد في أثناء عملية الخبز ، ويجد سبيله إلى خارج الفرن بطريقة خاصة للتهوية . وقد تبين أنه بوضع مرشح من « الكربون الفعّال » في مواسير التهوية ، يفصل الكحول عن الهواء ويلتصق بسطح « الكربون الفعّال » ذي المسام بقدر يساوي ما تمتصه قطعة إسفنج من الماء . وعند ما يصبح « الكربون الفعّال » مشبعاً بالكحول ، ينزع المرشح ويستخرج منه الكحول . وليست كمية الكحول المتصاعدة كبيرة ، غير أنه على مدار السنة تصبح كمية نافعة نستطيع بها استخلاص مادة ثانوية من صناعة خبزنا اليومي .

وهناك تجربة أخرى في خميرة صناعة الجعة .

ذلك بأن اختمار الجعة ينتج خميرة كريهة رغوية تحوي مع ذلك سائلا غنياً بالفيتامين . وتستخرج هذه الخميرة لأغراض طبية ، ولكنها لسوء الحظ تفقد في أثناء استخراجها جزءاً كبيراً من فيتامينها . وقد ثبت الآن أن السوائل المهملة الناتجة من عملية الاستخراج إذا عولجت بنوع خاص من « الكربون الفعّال » أمكن استرجاع الفيتامين الضائع . هذان مثلان من أمثلة كثيرة سيكون فيها « للكربون الفعّال » أثر قوي تستفيد منه الصناعات في أيا السلم .

استدراك

ورد في مقال « المنهاج إلى الخير والحق والجمال » المنشور في الجزء الثاني من هذه المجلة بيت من الشعر نسب إلى أبي تمام والصواب أنه للمتنبي وهذا هوالبيت :

إنّا لفي زمنٍ تركُ القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمالُ

فرائد

• من المأثور عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه تعلم صناعة الكيمياء على راهب رومي اسمه مريانوس كان في جملة من استقدمهم من علماء مدرسة الإسكندرية . ثم نقل له ذلك العلم رجل اسمه إسطفان القديم . وربما كان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة .

• يروى عن الفرزدق أنه كان أمّياً وأن شعره يحوي الكثير من أساليب العرب وألفاظهم حتى قيل فيه : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب » .

• كان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره فقال له قيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه . قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضي به الحقوق .

• دخل الأحنف بن قيس على معاوية ويزيد بين يديه وهو ينظر إليه إعجاباً به فقال : يا أبا بحر ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد فقال : يا أمير المؤمنين ، هم عماد ظهورنا ، وثمر قلوبنا ، وقرة أعيننا . بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلف منا لمن بعدنا . فكن لهم أرضاً ذليلة ، وسماء ظليلة . إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك فأعتبهم . لا تمنعهم رفدك فيملوا قربك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطؤوا وفاتك . فقال : لله درّك يا أبا بحر ! هم كما وصفت .

• قال هشام بن عبد الملك يوماً لزيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان شجاعاً زاهداً :

— بلغني أنك طامح إلى الخلافة ولست أهلا لها لأنك ابن أمة . فقال له زيد :

— لقد كان إسمعيل بن إبرهيم عليهما السلام ابن أمة . وكان أخوه إسحق ابن حرة فأخرج الله من صلب إسمعيل خير ولد آدم . فقال له هشام :

— قم فما أسدّ جوابك ! فقال زيد :

— إذن لا تراني إلا حيث تكره !

فلما خرج من دار الملك قال : — ما أحب أحد الحياةَ إلا ذلّ !

لطائفُ

جواب سديد

تفقد أحد الخلفاء نديماً له غاب عن مجلسه فقيل له إنه مريض ، فتفقده بعد أيام قيل له إنه مات ، فسأل عن علته فعلم أنه قضى في حب جارية اسمها ليلى . فاشتهى الخليفة أن يراها ، فلما مثلت لديه وجدها عوراء فسألها ملمحاً إلى عاهتها :

— بأي عين رآك حتى مات في هواك ؟

— بالعين التي رآك بها الناس يا أمير المؤمنين فولوك خليفة عليهم !

فبهت الخليفة لجوابها وقال معجباً بطلاقة لسانها :

— يحق له أن يموت . . . ويموت . . . ويموت . ! !

يطالع في الروح

مرض المرحوم حفني بك ناصف العالم اللغوي الشهير في أواخر أيامه مرضاً عصبياً حتى إن الطبيب حرم عليه القراءة والكتابة . وفي ذات يوم دخل عليه الطبيب فوجد بين يديه كتاب « روح الاجتماع » لمؤلفه فتحي زغلول باشا فقال لحفني بك على الفور :

ألم أنهك عن المطالعة ؟

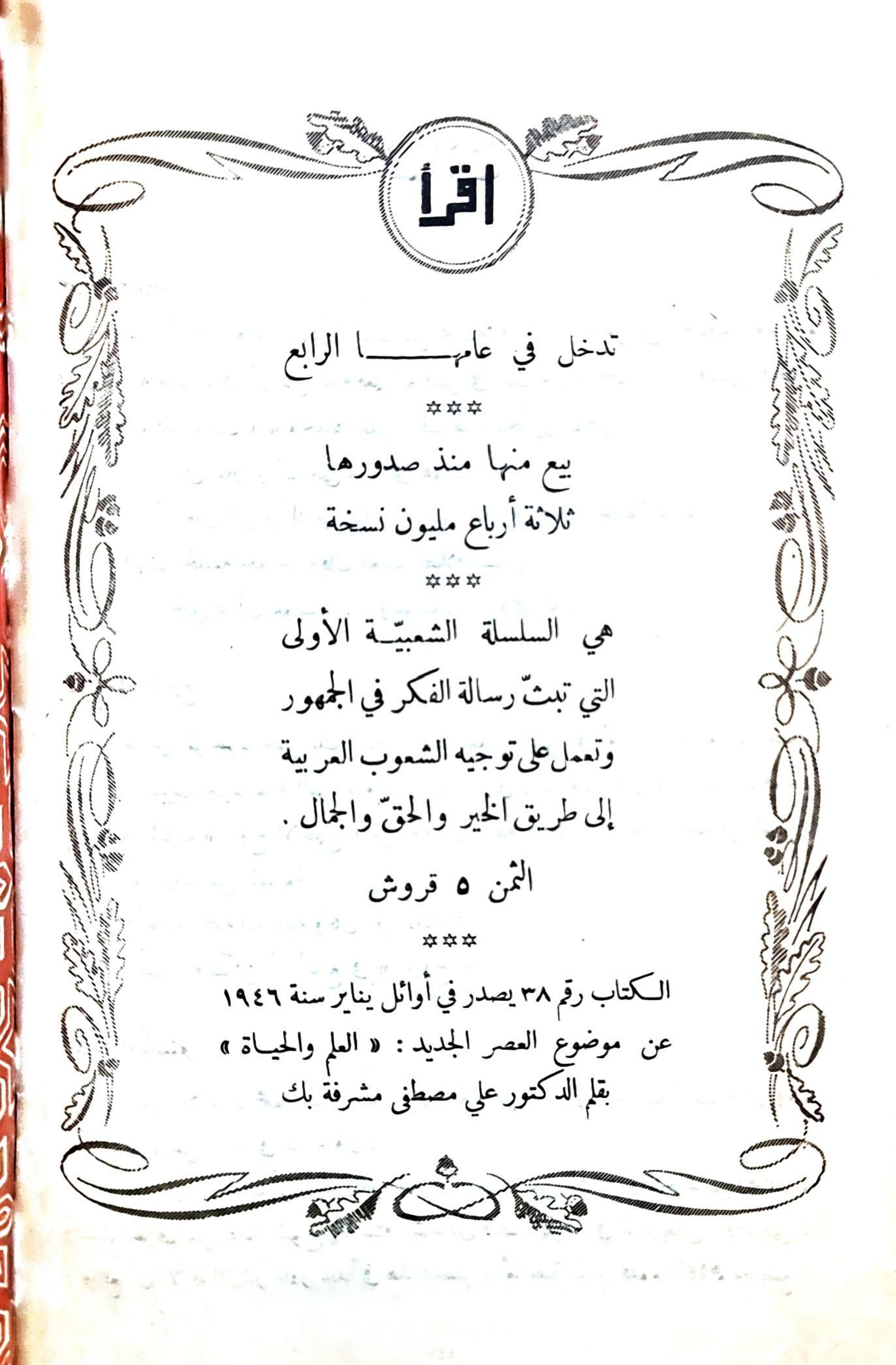
فأجابه رحمة الله عليه وكان ابن نكتة :

طيب ! ولكن أنا أطالع في « الروح » !

الذكاء المصطنع

اتفق للأستاذ محمود تيمور بك أن أصغى طويلاً إلى أحاديث أديب ثرثار ولما سأله سمّاره عن السر في صبره قال :

— إن التحدث إلى أبله ثرثار يغمرني بأطياف من المشاعر والأحاسيس المختلفة ، ولست أعرف من هذا النوع إلا ستة أشخاص فقط ظهروا في ثنايا بعض أقاصيصي ، والواقع أن الأبله الثرثار نادر جداً في هذا العصر ، أما بقية الناس فقوم ذكاؤهم مصطنع !



اقرأ
تدخل في عامهـــا الرابع
✡✡✡
بيع منها منذ صدورها
ثلاثة أرباع مليون نسخة
✡✡✡
هي السلسلة الشعبيّـة الأولى
التي تبثّ رسالة الفكر في الجمهور
وتعمل على توجيه الشعوب العربية
إلى طريق الخير والحقّ والجمال .
الثمن ٥ قروش
✡✡✡
الكتاب رقم ٣٨ يصدر في أوائل يناير سنة ١٩٤٦
عن موضوع العصر الجديد : « العلم والحياة »
بقلم الدكتور علي مصطفى مشرفة بك

الكتاب

فبراير ١٩٤٦

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر
بمصر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .

- جميع الحقوق الخاصة بما تنشره المجلة من مقالات ورسائل ورسوم محفوظة لدار المعارف للطباعة والنشر بمصر .

- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .

- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .

- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :
١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان و ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى .

- ترسل المجلة بالبريد العادي إلى المشتركين ولا تكون الإدارة مسؤولة عما قد يفقد منها .

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً

الكتاب

السنة الأولى | المجلد الأول | صفر ١٣٦٥
الجزء الرابع | | فبراير ١٩٤٦

الملك عبد العزيز آل سعود
على ضفاف النيل

في السادس من شهر صفر سنة ١٣٦٥ والعاشر من شهر يناير سنة ١٩٤٦ ، نهضت مصر تستقبل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وقد حدا بها إلى الاحتفاء بالضيف العظيم ، واستجلاء طلعته النبيلة ، ودٌّ ملأ شغاف القلوب فنمت عليه صفحات العيون وأسارير الوجوه ، وقربى في العروبة العرباء متينة الأواخي كريمة الوشائج ، وحماسة للقاء سيِّد عربي يجمع في بردته النخوة والنجدة والإيمان ، وتتمثل في فعاله عزيمة لا تخور ، وقناة في الحق لا تلين .

ولقد تزينت مصر في ذلك اليوم البهيج بأبهى حلة من الرايات والأعلام وأقواس النصر ، وازدحم الناس وراء صفوف الجنود ردوداً متلاحمة متلاصقة ، واكتظت بهم قِنان المنازل ، وبدت ربودها غصوناً تحمل عناقيد البشر ، وكُواها عقوداً رصعت بالمحاجر والأحداق . حتى إذا أقبل الموكب المهيب يقلّ الفاروق وضيفه ، وخلفهما أمراء الجزيرة ورجالات مصر ، انطلقت الأكف على طول الطريق بالتصفيق الشديد ، وارتفعت العقائر بالهتاف لبلاد العرب والدعاء للملكين الجليلين . وظلت ضفاف النيل في عيد سعيد بسّام ، ومهرجان تلو مهرجان حتى ودعت ضيفها الأثيل ، وتملت منه أكمل صورة وأجمل تذكار .

و « الكتاب » تزهى اليوم بأن تسجل في صدرها زورة عاهل الجزيرة ، وتشرف بأن تنشر في الصفحات التالية طُرفاً من مآثر جلالته وتاريخه وأحاديثه ، عربوناً عن ولاء خالص وتجلّة فائقة ، بهما ينبض الفؤاد وتخفق الجوانح .

في جو العروبة

مع عاهل الجزيرة العربية

للأستاذ عباس محمود العقاد

تحدثنا الفكاهة المصرية عن حاكم جاهل من حكام القرون الوسطى سمع مصرياً يقول : النبي عربي ! وكان هو تركيا فأخذته عزة العصبية وصاح فيه : نبي عربي ولكن الله تركي !

ذكرت هذه الفكاهة المصرية في ليلتنا الأولى بيخت المحروسة على متن البحر الأحمر ، وكنا نتهيبه لأننا لا نطيق دوار البحر وإن كنا قليلاً ما نشعر بالدوار في الهواء ، ولكن الله بارك في الرحلة من بدايتها إلى نهايتها ، فركبنا البحر الأحمر شتاء كأننا نركب النيل في أيام الصفو والهدوء ، وكانت السماء في الليلة الأولى على الخصوص صافية مصحية لا تحجب عنا ذخيرة واحدة من ذخائرها الكثيرة ، ولم تكن الليلة من الليالي القمراء ، فعرضت علينا السماء كل ما وسعت من جواريها وثوابتها على السواء ، ولم تدع عندها من نجم بعيد أو قريب تستره في الخفاء ، وصعدنا إلى سطح اليخت الأعلى عند مرقب الربان لنتملى بأعيننا ونفوسنا هذا المنظر الجميل ، كأننا نرتفع من الماء إلى الآفاق العلوية ، ونعجب لقول القائل : أين الماء من السماء ؟ لأن الإنسان في الماء أقرب ما يكون إلى السموات والأفلاك ، فهي الدليل الذي يستقبله هناك حيث يسير .

وكان اليخت في قيادة البحري الكبير صاحب السعادة أمير البحر سالم البدن باشا وهو من أبناء البحر المعرقين ، إذا صح هذا التعبير ، لأنه ينتمي إلى أسرة تقدمه فيها الآباء والأجداد إلى قيادة السفن الكبيرة منذ مئات السنين ، وقد تعلم فنون صناعته الدقيقة ، ومنها الفلك والظواهر الجوية وأحياء البحار المختلفة ، فرأيناه — كما قلنا له — يعلم من طرق السماء وطرق البحار فوق ما يعلم من طرق القاهرة والإسكندرية .

وقد كانت الفرصة في تلك الليلة سانحة لنستمع إليه وهو يشرح لنا مواقع النجوم الثوابت ومواقع الكواكب السيارة التي تظهر على الأفق في ذلك المساء ، وشفع ذلك ببيان الأساليب العلمية التي ينتفع بها لتحقيق مكان السفينة من رؤية تلك النجوم والسيارات

أو من المقابلة بين زواياها ومواقعها من السمت والأفق في ساعات الليل : هذه الجوزاء، وهذا النطاق ، وهذه المنطقة ، وهذا النظام ، وكلها على ما نذكر تعرف في اللغات الأوربية بألفاظها العربية ، فيقولون : Alnitak و Mintaka و Alnilam . . حتى إبط الجوزاء — أو يد الجوزاء كما هو مشهور — يسمونها Bételgeuse ويسمون عاتق الثريا atik ويسمون السرة من مجموعة السلسلة Sirrah ،وغير ذلك كثير يطول بنا إحصاؤه في هذا المقام .

خطرت لي تلك الفكاهة المصرية التي أشرنا إليها في مطلع هذا المقال وأنا أنظر إلى النجوم والكواكب التي يعرفها الشرقيون والغربيون بأسمائها في لغة الضاد . فقلت: إن السماء عربية أيها الاخوان ! ولو جرينا على طريقة بعض الأثريين ووجدنا مدينة محفوظة المعالم بأمثال تلك الأسماء لما ترددنا في نسبتها على وجه من الوجوه إلى قوم من أبنا يعرب وقحطان .

السماء عربية . . . .

والبحر الذي نحن عليه ماذا يكون ؟

إن جو العروبة قد غمرنا منذ خطوات الرحلة الأولى فتعودنا أن نلتمس العلاقة بينه وبين كل ما رأيناه وسمعناه ، وقد عرفنا مكان السماء من العروبة ، فبقي أن نعرف منها مكان الماء ، ولم نقل كما قال الأسبقون : وأين الماء من السماء ؟ . .

وجزى الله أصحابنا اللغويين من أصحاب التمحل والتأويل . . . فإنهم لا يضيقون بنسبة شيء إلى العربية ولو كان بينه وبينها ما بين الماء والسماء . . !

فلا تنس أن البحر الأحمر يدعي ببحر القلزم ، وأن القلزمة على قول أصحابنا اللغويين المتأولين مقلوبة من الزلقمة وهي الابتلاع من الزلقوم أو الحلقوم . . . قالوا : ولعله سمي بذلك لأنه ابتلع فرعون وجنوده وهم يطاردون موسى الكليم .

لكن أصحابنا اللغويين هؤلاء ينسون مدينة « كليزما » التي كانت على مقربة من السويس قبل أن ينحسر البحر عن موقع السويس الجديد ، وينسون أن البحر قد استمد اسمه من هذه المدينة فسمي ببحر كليزما وصحف إلى بحر « القلزم » على الألسنة العربية ، ثم استعير هذا الاسم للبئر الغزيرة ، فعرفت في العربية باسم القليذم والقليدم وقال شاعرهم في بعض هذه الآبار :

إن لنا قليذماً قذوماً يزيده مخج الدلا جموما

فحسب أصحابنا اللغويين إذن من العلاقة بين هذا البحر وبين العروبة أنه البحر

الذي أحيطت شواطئه جميعاً بمعاشر الناطقين بالضاد ، وأنهم قلدوه بعد ذلك اسماً عربياً موصوفاً بالحمرة فقالوا : إنه « البحر الأحمر » لما يبدو عليه من احمرار اللون من أثر الشعاب الحمراء التي فيه والجبال الحمراء التي عليه ، ولا سيما عند مدخله في خليجي العقبة والسويس .

ولقد كان جوّ العربية يغمر الرفقة جميعاً في الإياب كما غمرهم في الذهاب . فلم نجتمع قط في مجلس على متن اليخت إلا عرضت فيه مسألة من مسائل العربية أو مسألة من مسائل العروبة منذ نشأتها الأولى . واتفق أن سأل سائل : لم سُميَ العرب عرباً على ألسنتهم وألسنة غيرهم ؟ واتفق أنني سئلت هذا السؤال ونقلت محطة الإذاعة في الشرق الأدنى جوابي عليه قبل سفري إلى الحجاز ، وخلاصته أن كلمة «العرب» مأخوذة من كلمة الغرب بحرف الغين وهو حرف ضعيف في اللغات السامية غير العربية ، فكان سكان ما بين النهرين ينظرون إلى الشرق ويسمون اليمن يمناً لأنها على يمينهم ، والشآم شمالا لأنها على شمالهم ، والصحراء الغربية غرباً لأنها في الجهة الغربية من بلادهم ، وتمت بذلك مواقع الجهات الأربع في نظر الساميين المقيمين بين النهرين .

فلما سئل هذا السؤال أصغيت إلى رأي الرحالة البحاثة الأستاذ فلبي فسرني أنه يطابق كل المطابقة ما اعتمدته بين مختلف الآراء ، وزاد عليه الأستاذ فلبي أنه يردّ كلمة أوربة إلى هذا المصدر لأنها غربية ، وهو رأي له قيمته الراجحة لما عرف من اشتغال الأستاذ بهذه المباحث واطلاعه على مراجعها النادرة في الأوراق والحجارة المكتوبة.

وهنا اختلف رأي الأستاذ فلبي ورأي الأمير العالم عبد الله بن عبد الرحمن — أخي جلالة الملك عبد العزيز — كل الاختلاف ، والأمير عبد الله كما هو مشهور عنه أعلم الإخوان النجديين بالثقافة الإسلامية والتواريخ العربية ، ويقول عنه جلالة أخيه كلما استطرد الحديث إلى مسألة من مسائل الفقه أو العلم متواضعاً صريحاً في تواضعه الجميل : إن الحروب شغلتني عن التبحر في العلوم والتوسع في الدراسة ، أما الذي استوفى نصيبه منها فهو هذا . . . ويشير إلى سمو الأمير حيث كان في مجلسه بجواره .

فلما عرضت الإشارة إلى الحجارة المكتوبة شك صاحب السمو في قيمتها التاريخية ، وقال : إنها قابلة للزيف وسوء التفسير ، واستشهد بحجر مكتوب تنسب الكتابة التي عليه لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهي نسبة مقطوع ببطلانها ، وكان من رأيي أن هذه الحجارة قيّمة في الدلالة التاريخية على شريطة واحدة : وهي أن تقترن بغيرها من الدلائل وأن تتفق في مجموع دلائلها فلا تتناقض ولا تتضارب . ولو شئت أن أذهب إلى

بطلانها معتمداً على بطلان القول بانتماء السماء إلى الناطقين بالضاد كما يطلق على معالمها من لغاتهم لذكرت ذلك في هذا السياق ، ولكن القياس هنا قياس مع الفارق كما لا يخفى لان صعود العرب إلى الكواكب أمر نستطيع أن نشك فيه ، ولكننا لا نشك في نزولهم القديم بتلك المنازل التي عثر فيها الأستاذ فلبي على ألوف الحجارة المكتوبة ، ثم قابل بينها وبين ما عنده من الأسانيد الأخرى .

وسئل عن الأصل في اسم مكة فقيل كما قال الأصمعي : إنها من تمككت المخ إذا استخرجته لأنها تمك الفاجر عنها ، أو إنها « بكة » لأن الناس يبك بعضهم بعضاً فيها ، أي يتدافعون ويتزاحمون ، ومن ذاك قول الشاعر :

إذا الشريب أخذته أكهْ فخله حتى يبك بكهْ

ومن المعلوم أن القرآن الكريم ذكرها بأسماء ثلاثة ، وهي مكة وبكة وأم القرى ، وليس أصل الاسم القديم بالمعروف على وجه التحقيق .

قال الأستاذ فلبي : إنه لا يعرف أصل هذه التسمية ، ولكنه لا يشك في وجودها منذ عهد إبرهيم عليه السلام .

وقلت : ومصداق ذلك أنها وردت في كتاب بطليموس الجغرافي وسماها Macoraba ولعله مزج بين اسم مكة واسم سكانها العرب بهذا التركيب .

***

ذلك مثل من الجو التاريخي أو الجو اللغوي الذي كان يحيط بنا في رحلتنا إلى الحجاز بحراً وبراً وفي الذهاب وفي الإياب .

ولكننا اشتملنا على جوّ العروبة من جميع نواحيه حين دار الكلام على الجامعة العربية في مجلس العاهل العظيم صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، لأن جلالته ولا ريب ركن من أثبت أركان هذه الجامعة وسند من أعظم أسنادها ، فإذا تكلم عنها فرأيه فيها يقوّم بأقوم الأوزان ويناط به أقوى الرجاء في مصيرها .

وجلالته يؤمن بلزوم الجامعة ، ويعتقد أن كرامة الأمم العربية جميعاً مرهونة ببقائها ونجاحها ، ويسميها مناراً ودريئة لكل دولة عربية تشترك فيها ، ويشرح ذلك شرحاً وافياً فيقول : إنها منار لنا لأنها تصدر في أعمالها عن بحوث مشتركة بين ذوي الرأي والبصيرة يرون في جملتهم ما لا يراه أهل كل بلد على انفراد ، وأنها دريئة للدول العربية لأن حجة الدولة التي تحتج بقرار الجامعة قائمة ، وعذرها فيما ترضاه أو تأباه مقبول .

ويشفع جلالته هذا البيان في بعض أحاديثه بمثل بليغ كعادته في توضيح آرائه بالمواعظ والأمثال . فقال : كان في مملكة من الممالك منار مغناطيسي يكشف البحار من حولها وينتزع الحديد من السفن التي تغير عليها فلا يقدر أحد على فتحها ، واشتدت شوكة هذه المملكة فحسدها جيرانها وأخذوا في تدبير المكايد لهدم منارها ، فدسوا عليها جاسوساً من جواسيسهم يتزيا بزي النساك الصالحين ثم تركوه يقيم فيها ردحاً من الزمن حتى يستجمع الثقة والمودة من أبنائها ، وطفق هذا الجاسوس يصنع لهم الكرامات ويدلهم على مخابئ الكنوز ويمخرق عليهم بالعجائب حتى أنسوا به واطمأنوا إليه ، فلما عرف مكانته عندهم جاءهم في بعض الأيام برؤيا يزعم أنه رآها ويزعم لهم أنه يخاف عقباها . وسألوه عما يخافه فأحجم ثم أحجم وهو يغريهم بالإلحاح عليه كلما اصطنع لهم الإحجام وتردد في الجواب ، فلما شوّقهم غاية التشويق إلى استطلاع الخبر قال لهم : إني مطلعكم عليه والعهدة عليكم ، وإن تحت هذا المنار كنزاً من الذهب والجوهر يغنيكم عما في الأرض وما رحبت من النفائس والخيرات ، ولا تنالونه إلا بهدم المنار ، ولكن حذار حذار من الإقدام على هدم المنار .

وكان الرجل كاذباً في نية التحذير صادقاً في نية الإغراء ، فما هو إلا أن سمعوا منه إغراءه بالنفائس والخيرات حتى دكوا المنار دكا ، فعرفوا غفلتهم واستبيحت حوزتهم ، وفقدوا الدريئة وفقدوا النور ، فتمكن منهم من كان يتقيهم من الجيران والأعداء .

قال جلالته : وكل عربي يمس هذا المنار طمعاً في المال والحطام إنما يصيب قومه بمثل ما أصاب أولئك الغافلين .

وأجمل ما يسمعه السامع من عاهل قدير في هذا السياق قول جلالته : إن مستقبل الجامعة العربية مرهون بمشيئة الشعوب ، لأن الرؤساء والأمراء ينفعون الجامعة بتأييدهم إياها ، ولكنهم لا يثابرون على تأييدها إلا إذا عرفت الشعوب مزاياها واتفقت على الرغبة فيها وحالت بهذه الرغبة القوية النيرة دون تنافس الرؤساء وتنازع الأمراء .

كلام حق مبين ، وإنه لفأل حسن بنجاح الجامعة التي يرعاها ملوك العروبة وأبناؤها بمثل هذه الصراحة ومثل هذا اليقين .

عباس محمود العقاد

وحي العيد

للأستاذ خير الدين الزركلي مستشار المفوضية العربية السعودية

تتجاوب اليوم أسلاك البرق بين عواصم العالم وعاصمة العربية السعودية بتهنئة عاهل الجزيرة وسيدها المطاع الملك عبد العزيز آل سعود بعيد جلوسه.*

وتعيد هذه الذكرى إلى الأذهان، أحداث نصف قرن لم يعرف قلب الجزيرة مثلها منذ عصر النبوة.

إمارات تتوحد، وأمة تتكون، ودولة تبنى، وحضارة تشاد، وتحول في الأخلاق والعادات من فوضى إلى نظام، ومن إسفاف إلى إصعاد.

في أقل من خمسين سنة استطاع رجل واحد أن ينشئ بين البحر الأحمر وخليج العرب ما عجز اثنا عشر قرناً عن إنشائه أو الإتيان بمثله.

بين أيدينا وتحت أبصارنا سطور من التاريخ الحديث تتحدث عن آل سعود قبل مائتي عام، فتعرفنا أنهم ناصروا الدعوة إلى التوحيد، أيام عاد محمد بن عبد الوهاب إلى

---

* احتفل بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود في الرابع من صفر والثامن من يناير.

نجد ، ونظر فإذا الناس من حوله لا زاجر لهم من دين أو نظام : أتباع أهواء ، كلٌّ حربٌ لـكل . فقال : « إن لم يكن الوازع لهم من سلطانهم ، فليس الوازع من إيمانهم . إنهم في خصام ؛ فليؤمنوا بدعوة السلام . كلٌّ أخ لـكل » .

وانتشرت الدعوة تؤيدها القوة . فتكاثر جمع «المتدينة» من «الإخوان» . وكان لآل سعود من السلطان في ذلك العهد ما كان .

ولد عبد العزيز في الرياض عاصمة آبائه وأجداده ، فلم يكد يعي حتى سمع السُّمارَ يتحدثون عن ملك ذهب ، ودولة طغى عليها عدوان الجيران . لقد كان آل الرشيد تغلبوا على آل سعود . بل لقد وجد عبد العزيز نفسه محمولا في خرج على بعير في رحلة مع أبويه وخاصتهما ، يبرحون الرياض ويضربون في الآفاق، نائين عن أعين آل الرشيد، يقيمون في هذه القبيلة حيناً ، وفي الربع الخالي حيناً ، ثم يلقون عصا التسيار في الكويت، ويترعرع عبد العزيز في عشرة آل صباح وداهيتهم « مبارك » .

وأبت على عبد العزيز نفسه الوثابة إلا أن يثب . لقد خلق عبد العزيز لغير ما خلق له غيره من أبناء جيله ، إن عليه أن يعيد ملك آبائه ، وعليه أن يقيم الملك على دعائم تمر بها الأعاصير وهي شامخة .

استرد الرياض في مغامرة هي أشبه بالأساطير منها بالوقائع ، وانتزع الخرج والحريق والحوطة والأفلاج ووادي الدواسر من بين شدقي عدوه .

ومضى يدفع غارات ابن رشيد بيد . ويمتد إلى ما يفتح الله عليه بيد . وتألب الترك وآل رشيد بعد استيلائه على القصيم ، فكانت له معهم ملاحم « البكرية » وخرج منها يطارد عدوه ، حتى رآه يخر صريعاً بين يديه .

وعمدت سياسة الترك لضرب سلطان نجد بشريف مكة ، فأمدت هذا بالمال والرجال، فزحف إلى أطراف نجد ، فظفر بأسير أطلقه مرغماً بعد يسير . وكانت لا تزال للترك قلاع في الأحساء والقطيف ، فجعل ابن سعود رده على الترك اكتساحها .

ونشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فدار حديث في إحدى خيام ابن سعود...قال السر برسي كوكس : « أتذكر، ياطويل العمر ، ما قاسيت من نجدات الترك لعدوك ابن رشيد ؟ . قال : « ما حان لي أن أنسى » . قال : « ألا ترى ما يراه الناس من تحفز العراق والشام والحجاز للثورة على الترك ؟ » . قال : « أرى » قال : « ألا تكون رايتهم رايتك ، ولك بعد ذلك ملك العرب ، وإن شئت لخلافة الإسلام ؟ » قال : لا . قال : « ألا تنتهزها فرصة فتنتقم ؟ » قال عبد العزيز : «لا . . . لن يقول الناس ثار

عبد العزيز على دولة تتسمى بدولة الخلافة في عهد محنتها » .

وبعد عام أو عامين كان ساسة لندن يقولون : « فشل برسي كوكس في الرياض ونجح لورنس بمكة » .

وتتابعت الحوادث فتنمر آل عائض في عسير ، وقامت للأشراف دولة في الحجاز. فتلفت عبد العزيز ، فلم يكن أمر « عسير » بالعسير . وكانت له دولة الحجاز .

خلص الملك لابن سعود في نجد والأحساء والقطيف والحجاز وعسير وتهائم اليمن ، وضرب بيد من حديد على كل قوة طائشة ، فأخضع العَصي ، وآمن الخائف ، فكان الاستقرار ، وكان الأمن الذي لم يألفه أهل هذه الأقطار .

وجاء دور الامتحان . هل ثبت الملك ؟ ذر قرن الفتنة في الملك الفسيح ، ثورة عمياء في نجد يقـوم بها الدويش وابن بجاد وابن حثلين . . . وثورة في شمال الحجاز يبرز بها ابن رفادة . وثورة إدريسية في الجنوب . وقال العرب وغيرهم : أتنهض بابن سعود عزيمته وتجاربه ؟

ابن سعود موفق ، له من الغيب عون . ذهب الدويش وصاحباه ومن معهم مع الريح ، ولم يخرج من جموع ابن رفادة حي . . . واندرست دولة الأدراسة .

وكان لصداقة الأخوين في صنعاء والرياض ثمن . ولو كتبت معاهدة لوزان بالقلم الذي كتبت به معاهدة الطائف ما نشبت حرب العالم الثانية .

هذه هي الصفحة الحمراء من سيرة ابن سعود : صفحة الفتوح والوقائع ، صفحة الدم . . .

وللصفحة البيضاء من سيرة الإمام عبد العزيز جمالها وجلالها .

ابن سعود رجل عرف كيف يعيش .

يعيش لطاعة ربه ولرعيته ولأبنائه ولنفسه .

لقد عمر ما بينه وبين الله فلم يعرف الشيطان إلى قلبه سبيلاً . وهو يعد نفسه مسؤولا عن كل فرد من رعاياه كأنما هو من أبنائه ، يحب كل ابن من بنيه كأنه ليس له سواه . ويتمتعَ بكل ما أحل الله من متع الحياة .

ابن سعود منشىء عرف كيف يبني .

كل حجر من بناء الدولة السعودية هو من صنع يده ، وكل نظام أخذت به الجزيرة هو من وحي عقله ، وكل خطوة تقدمت بها في مضمار الحضارة هي من ثمار تجاربه .

سلخ الترك خمسمائة عام في بعض أطراف الجزيرة جاهدين لتحضير آحاد من البدو

فلم يفلحوا . وفي بضع سنوات من حكم ابن سعود انقلب العدد الجم من أهل المضارب والخيام إلى سكان قرى ومدن .

عشرات الآلاف من السنين مرت بالجزيرة والحكم فيها لمن غلب — غزو ونهب — لا أمن لضعيف ولا سلامة لأعزل .

ولم تعرف الطمأنينة إلا مرة كانت الأولى من نوعها في عهد ظهور الإسلام . وجددها عبد العزيز فأصبح الأمن في بلاده الواسعة وصحاريه الشاسعة مضرب المثل .

ابن سعود يغضب ككل إنسان ويرضى ككل إنسان .

ولكنه إذا غضب أسرع لحاسب نفسه ، و إذا رضي عرف لماذا يرضى.

ابن سعود حَذِر يَألف ويُؤلَفُ ولكنه لا يثق . . . وإذا وثق تزلزلت الجبال ولم تتزلزل ثقته .

للمرح ساعته عند ابن سعود وللعمل ساعاته.

خمسة وأربعون عاماً من حياته الطويلة ، إن شاء الله ، لم يختلف في يوم منها برنامجه ونظامه إلا لطارئ . خمسة وأربعون عاماً يتلى بين يديه ساعة معينة كل يوم منها فصل من التفسير وفصل من التاريخ يختم على الأكثر بالمناقشة في أهم ما اشتمل عليه .

ما رأيت أحداً يعنى بتربية أبنائه بنفسه وتدريبهم وتخريجهم في حال طفولتهم كالملك عبد العزيز .

كرم لايجارى : أمر عاملا له بأن يكرم فلاناً بثلاثة آلاف ، وكتب المبلغ بالأرقام فجاءت الأصفار أربعة ... فتردد العامل وأبرق يسأل . فلما عرض الأمر على الملك قال : لا يكون قلم عبد العزيز أكرم من عبد العزيز . وصُرِف لفلان ثلاثون ألفاً .

حفظ الله مولاي عبد العزيز

وأطال عمره .

خير الدين الزركلي

جهاد بطل

للأستاذ عبد الله علي القصيمي

يبتدىء تاريخ البيت السعودي منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري، حينما وفد الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٧ هجرية على الأمير محمد بن سعود جد السعوديين في بلدة الدرعية ، فتحالفا على النهوض بالعرب وبالجزيرة العربية ، وعلى تطهيرها من البدع والآثام الكثيرة المنتشرة في ذلك العهد ، ومن الفوضى المتدخلة في كل أمر من أمور العرب . ويقف اليوم هذا التاريخ عند أعظم رجال هذا البيت ، وهو صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز . . . ويرجع نسبهم إلى بني ذهل بن شيبان، من عدنان ، فهم عدنانيون .

والملك عبد العزيز أول من سمي من آل سعود ملكاً بالمعنى المعروف القانوني ، وكان آباؤه من قبل يسمون بالأئمة، ويرون أن هذه التسمية أكثر انطباقاً عليهم وأصدق معنى ، لأنهم إنما يقومون بوظيفة الأئمة من الإصلاح الديني ومن محاربة الفساد والباطل المحسوب ديناً . . . وإلى اليوم لا يزال الكثيرون من أبناء المملكة العربية يفضلون دعوة مليكهم بالإمام لهذا القصد نفسه .

وجلالته أول ملك أخرجته البلاد النجدية ، وأول من وحّد هذه المملكة الواسعة المترامية الأطراف المكونة من الحجاز ونجد وعسير والأحساء والقطيف وتوابع ذلك ، وأول من عمل على استخراج الثروة الطبيعية المخبوءة في أرجاء المملكة ، وأول من أعطى الشركات الامتيازات لاستنباط النفط والذهب وغيرهما ، وأول من أدخل الأساليب الزراعية الحديثة في بلاده للقيام باستغلال المناطق الخصبة ، وأول من أوجد لها كياناً دولياً قانونياً اعترفت به الدول الكبرى والصغرى .

أما مبدأ أمر جلالته ومبدأ الفكرة عنده في إيجاد هذه المملكة فما أشبه ذلك بالقصص الروائية . على أنه الحقيقة الرائعة الواقعة المعاصرة التي لا تمكن المماراة فيها .

لنرجع إلى الوراء أربعة وأربعين عاماً لنجد جلالته غلاماً يافعاً لم يتخطّ العشرين من حياته ، يقيم مع والده الإمام عبد الرحمن في تلك المدينة الساحلية — الكويت — في ضيافة أمرائها من آل الصبّاح ، بعد أن تغلب أمراء حائل من آل الرشيد على سائر

أطراف نجد ، فلم يجد الإمام عبد الرحمن بداً من الخروج بأهله — وفيهم الأمير عبد العزيز — إلى هذه الإمارة العربية المناوحة للبلاد النجدية . ثم لنجد جلالته يشهد إعلان الحماية البريطانية على إمارة الكويت ، بعد التنافس الشديد عليها بين البريطانيين والأتراك زمناً طويلا ، يرمق ذلك بعينين تريان ما يرى وتنفذان فيه إلى الصميم . ثم لنرى جلالته يبصر في هذا الحدث الجديد أملاً يومض وفرصة تبتسم .

ذلك أن أمراء الكويت —قبل أن يحموا بالحماية الإنجليزية — كانوا غير قادرين على مغاضبة آل الرشيد حلفاء الأتراك وخصوم آل سعود، ولا على مغاضبة الأتراك أنفسهم ، فلن يستطيعوا إذن أن يأذنوا للأمير عبد العزيز بالخروج من بلدته غازياً محارباً ، ولن يستطيعوا أن يبسطوا إليه يد العون . . . أما بعد نزول الوكيل البريطاني في الكويت باسطاً ظل حمايته فقد جاءت الفرصة النادرة التي لا مثيل لها . ومن هنا تبدأ القصة العجيبة الرائعة :

لقد جمع الأمير عبد العزيز — وعمره نحو العشرين — أربعين رجلا من آل سعود ومن المحبين الموالين لهم ليخرج بهم من منفاه غازياً ومسترجعاً ملك آبائه وأجداده ، الذي اغتصبه آل رشيد الأقوياء ، تؤيدهم الدولة العثمانية مقتطعة لنفسها أخصب وأغنى بقعة هناك . . . وهنا تقف في سبيل الأمير الصغير كل ضروب المخذّلات والمعوّقات ، لو أن شيئاً يستطيع أن يعوق التصميم أو يخذل الهمة الصادقة . وكان من أصغر هذه الأمور التي اعترضت سبيله وأهونها أن والده الإمام كان يميل إلى الإبقاء على رضا الأتراك ، ولقد تغلب تصميم الأمير على كل شيء ، فسار في طريقه . ومن أفعال العبقرية التي لا يعرف المنطق لها تعليلاً أن الأمير حينما هيأ كل أموره للخروج في غرضه هذا ، يصحبه هؤلاء الأربعون ، لم يحاول أن يحيط خروجه بالكتمان كما هي العادة المتبعة ، بل عمد إلى شيء عجيب جداً ، إذ برز قبل انفصاله من الكويت بيوم واحد إلى أكبر ميدان في المدينة ، وركز رايته الصغيرة المتواضعة فيه ، وأمر منادياً من أتباعه أن ينادي: إن الأمير عبد العزيز سيخرج غداً من أجل كيت وكيت فليعلم ذلك القاصي والداني ! ! وفي الموعد المحدد خرج يتحدى كل قوة ، وكانت وجهته الرياض، التي كان يقيم فيها الوالي من قبل آل الرشيد ، وبعد أيام شاقة من أيام التاريخ المعدودة وصل إليها ليلا ، ومعه أولئك الأربعون من أصحابه الأوفياء . . . وهنا تبدأ المغامرة الفذة التي قد تفوق كل مغامرة ؛ فقد ترك أكثر هؤلاء الأصحاب في ضواحي المدينة ، ودخلها بأقلهم متسوّرين سور البلدة ، وفي صباح تلك الليلة نفسها قتلوا الوالي الرشيدي ، وسلمت لهم المدينة . .

وبهذه الضربة القاصمة المباغتة وضعت قواعد الدولة العربية الحديثة ، وفي تلك الليلة الغراء من ليالي التاريخ أنجزت أعظم مهمة قام بها إنسان لبناء مجد أمة . . . ولقد كانت ضربة مفاجئة حقاً ، فاقت كل تصور وتقدير ، حتى إن الإمام عبد الرحمن نفسه والد الأمير الفاتح لما أبلغ الخبر لم يكد يصدقه ، وحينما أرسل إليه ولده المنتصر يبشره ويطلب إليه القدوم عليه في عاصمتهم القديمة الجديدة حسب أن الأمر لا يعدو أن يكون خدعة وأن ابنه قد أحيط به .

* * *

لقد دأب عبد العزيز منذ ذلك اليوم على تدمير سيادة آل الرشيد وسيادة الترك وسيادة غيرهم من حكام الجزيرة بحكمة وثبات ، فراح ينتقص مملكة ابن الرشيد ، بادئاً بأقربها إليه مكاناً وأدناها منه قلوباً وأهواء . فبدأ بالقسم الجنوبي من نجد ، لأنه أقربها إلى الرياض ، ولأن أهله أشد الناس ولاء لآل سعود وكرهاً لغيرهم من الحاكمين ، فاستخلصه بسهولة وسرعة ، ثم استخلص أكثر البلاد النجدية ، وأنقذ فيما أنقذ أعظم تلك البلاد تجارة واتصالاً بالخارج وأكثرها رفاهية ومدنية ، وهي مقاطعة القصيم . وهكذا سار أمر الأمير الشاب على ما يحب ويرضى .

ولقد يحار المرء من الحكمة والبراعة التي وضعت الخطط لفتح الجزيرة وللقضاء على الخصوم كلهم ، أو التي جاءت عفواً وكأنما وضعها أبرع قائد أخرجته المدارس الحربية وأنضجته الحروب في ميادينها . ذلك أنه لم يفكر حينذاك في أن يصطدم بقوات ابن الرشيد في بلاده ، ولم يفكر في القضاء عليه قبل الأوان ، ولم يخدعه النصر الأول . ولو أنه فعل لكانت العاقبة مشكوكا فيها ، وإنما اكتفى بطرده من البلاد الموالية لآل سعود والتي كانت من أملاكهم . وكذلك لم يفكر في الاصطدام بالأشراف ولا بالأتراك في الأحساء والقطيف ، لأن هؤلاء كانوا يومذاك أقوياء .

انتظر الفرص التي كانت تنتظره ، والتي كانت كأنما صنعت من أجله أو كأنما صنعها . كان يرنو بعينيه النافذتين الحادتين إلى تلك المقاطعة الخصبة التربة الغزيرة الحياة التي كانت تحكمها تركيا حكماً لم يستطع أن يسعد أهلها ولا أن يحميهم من الغزاة ومن قاطعي الطريق ، فانتظر طويلا حتى جاءت سنة ١٩١٣ ، وكانت تركيا قد نهكتها حروب البلقان وحروبها ضد روسيا وضد الطليان ، فأبصر هذه الدولة قد أصبحت طعمة هينة سائغة تتقاسمها الأفواه دون أن تقدر على الدفع عن نفسها ، فرأى ذلك الغرض البعيد قد أصبح قريباً ، فانقضّ على إقليم الأحساء الغني ، فانتزعه وضمه إلى مملكته الناشئة الصغيرة ، وهب

ينظم هذا الإقليم ويعيد إليه الاستقرار والأمن المفقودين فيه منذ أزمان . ثم عاد إلى الانتظار ، على خطته البديعة المحكمة ، ارتقاباً للفرص ، منطوياً على أعظم المغامرات والمفاجآت التي كان يلمع أوانها القصيّ يتراءى له في أفق الغيب مشرقاً بساماً .

وبينما كان في انتظاره إذا بالحرب العالمية الأولى تضطرم، وإذا بالأتراك من جانب والبريطانيين من جانب آخر ، كل منهما يغريه بالانضمام إليه ، ولكنه ببداهته الفذة يختار الحياد ، لأنه علم أن دخوله الحرب لن يكسبه شيئاً . وقد ثبت أن الضعيف إذا خاض الحرب إلى جانب القوي كان — في الغالب — خاسراً على كل حال ، لأنه إذا انتصر الجانب الذي انضم إليه فلن ينال منه خيراً ، لأنه القوي القادر المنتصر ، ولأن النصر كله سيضاف إليه وحده دون الضعيف المشارك ، وسيعدّ هذا الضعيف محمياً منقَذاً ممنوناً عليه بحياته وبنجاته من التدمير . أما إذا انتصر الجانب الآخر فالعقبى معروفة . وقد صدقت بداهته ، فإن شريف مكة الذي انحاز إلى الحلفاء ، وأمراء حائل الذين ذهبوا في ركاب الأتراك ، قد عرف مصيرهم .

فكانت الحكمة اختيار ما اختار . فظل ينتظر ويرتقب على عادته متطلعاً إلى الأفق البعيد، إلى الأمام دائماً . وأخيراً وبعد تلك الأهوال المذهلة وضعت الحرب أوزارها فسقطت أمم ونهضت أمم ، ونظر إلى الفريقينْ راضياً عن رأيه الذي ارتآه بالبقاء خارج ذلك الجحيم . ولكن ماذا تراه يصنع هذه المرة ؟ فقد خرج الشريف حسين صاحب الحجاز منتصراً مع المنتصرين ، معتقداً أنه قد أضحى مليك العرب أجمعين ، وأن البلاد النجدية ، بما فيها من سلطان ورعية ، ما هي إلا ولاية من ولاياته الكثيرة ، فما المخرج من هذه الورطة المفاجئة ؟ ! لقد كان موقفاً فيه كثير من الحرج والضيق ، وكان من أعظم ما يزيد الموقف حرجاً أن الإنجليز كانوا يتظاهرون بالميل نحو الشريف والانتصار له ، لأنه حليفهم المحارب معهم ! فماذا يفعل السلطان عبد العزيز إزاء هذه المشكلة الحقيقية ؟ لقد أنجدته عبقريته المطبوعة وألهمته أن يفعل ما يجب أن يفعل في مثل هذا الموقف : لجأ إلى الملاينة الظاهرة في مراسلاته وصلاته بالشريف وبالإنجليز معاً ، وأظهر أعظم استعداد للمسالمة والمصافاة ، وأنه لا يريد إلا أن يُترك وأن لا يُعتدى عليه . فنهت هذه الخطة البديعة من حدة الموقف ، وعطفت عليه البريطانيين الذين كانوا يتولون الفصل في هذه المسألة، ويتولون التوفيق بين الفريقين، ووجدوا منه إنساناً مسالماً متواضعاً لا يريد الشر بأحد ، فاعتدل موقفهم منه .

وفي هذه الأثناء التفت إلى جانب طالما شغله أمره ، وطالما فكر فيه ورأى الوقت

مواتياً للاستراحة منه ، ذلك أنه كان لا يزال في حائل عاصمة أمراء آل الرشيد الخصوم القدماء ، أمير منهم يدين له بالطاعة أغلب قبيلة شمر القوية الكبيرة . وقد وجد أن أمر آل الرشيد قد هان بعد اندحار حلفائهم في الحرب ففرغ منهم وقضى على آخر أمرائهم وضمت بلادهم إلى الدولة العربية وذلك سنة ١٩٢٢ وانتهى كل شيء . ولكن لا ، فإن الأفق لا يزال مظلماً منذراً بالأخطار ، إذ لا يزال الشريف المنتصر موجوداً ، ولا يزال يدّعي أنه ملك العرب ، ولا يزال الإنجليز يقفون أمام آماله ودعاواه موقفاً فيه شيء من التهاون . وقد زاد في هذه الأخطار وجود الملك فيصل على عرش العراق ووجود الأمير عبد الله في شرق الأردن . إن المخاوف إذن موجودة بل عظيمة ، ولكن عبقرية عبدالعزيز الفياضة لا تعيا أيضاً هذه المرة بهذه الحالة الدقيقة، ولا تضيق بها مسالكها الضيقة : فلقد استعان بأعظم ما يمكن من الصبر والاحتمال ، وأعظم ما يتصور من الحيلة والدهاء ، وبقي يرقب هذه الحال بعين ساهرة ، حتى جاءته الفرصة الكبرى . ذلك أن الشريف حسيناً رحمه الله كانت تعوزه الأساليب السياسية المرنة ، فغاضب الناس جميعاً ، وعجز عن ضبط الحالة في الحجاز ، وعن حماية طريق الحجاج ، ثم خطا خطوة واسعة في سبيل تقويض دعائم ملكه ، حيث أصر على منع رعايا السلطان ابن سعود من الحج ، إلى أشياء أخرى معروفة. فاجتمعت كل الأسباب التي ألهمت عبقرية عبد العزيز بأن أوان العمل قد أتى فأمر بالتقدم إلى الحجاز ، فاستولى عليه وسلمت مدينة جدة وهي آخر ما سلم ، سنة ١٩٢٥ . وبعد هذا بسنة واحدة بويع ملكا للحجاز ونجد وتوابعها ، وبهذا ارتفع شأنه ، إذ أصبح ملك الحجاز وحامي الحرمين الشريفين وصاحب هذا الملك الواسع الكبير ، وعظم اتصاله بالعالم . وبكل ما تقدم أوجد هذا الذي يسمى اليوم بالمملكة العربية السعودية .

وقد صرف بعد ذلك كل تفكيره واهتمامه إلى الشؤون الداخلية للإصلاح والتجديد، واهتم بوجه خاص بإنعاش الحالة العلمية والحالة الاقتصادية . وقد فتحت في عهده عدة معاهد ، من أعظمها مدرسة تحضير البعثات ، وهي تعد للالتحاق بالجامعات في الخارج ، والمعهد السعودي وهو معهد جديد فتح في العام الماضي لتخريج القضاة الشرعيين، وكثرت البعثات العلمية إلى الخارج ، وأكثر هذه البعثات أرسل إلى مصر ، وبعضها قصد بيروت وبعضها سافر إلى أوربا .

ويوجد في مصر الآن ما يزيد على مائتي طالب ، مفرقين في المعاهد المختلفة ، وهم في ازدياد مضطرد .

وأما أعظم ما فعل من أجل تحسين الحالة الاقتصادية فالاتفاق مع شركة كبيرة لإخراج النفط الموجود في البلاد بغزارة ، وكذلك الاتفاق مع شركة أخرى للبحث عن الذهب ، ثم القيام بتجارب واسعة لزراعة مساحات كبيرة معروفة بالخصب ، على الأساليب الحديثة ، تحت إشراف فنيين استدعوا من الخارج ، ويوجد اليوم عدة مناطق تجري فيها هذه التجارب ، من أشهر هذه المناطق الخرج والأحساء والقطيف .

***

إن الإنسان ليقف أمام هذا التاريخ الممتلىء بالأعمال مبهوتاً معجباً ، إذ ليس مما يتفق كثيراً لإنسان ما أن يظل قرابة خمسين عاما في بناء مثل هذا المجد ، الضخم دون أن يغلط غلطة واحدة حقيقية تودي بما تم بناؤه أو تقف في سبيل البناء والإتمام ، لا في الداخل ولا في الخارج . إنه أقدم على كل هذه الأعمال الفاصلة في تاريخه وتاريخ هذه الدولة الفتية العربية فأنجزها ، وكأنما صاغ نتائجها ووضعها وفاق ما أراد وقدر. وما رجع عن عمل بدأ به لأنه أعياه ، أو لأنه اصطدم بما لم يكن له في حسبان ، أو لأنه قدره تقديراً خاطئاً .

ومعنى هذا أنه لم يكن يقدم على الأمر إلا بعد أن تكون النتيجة مضمونة محققة كالأخذ باليد ، فكيف تيسر له هذا ؟ الجواب أن هذا هو سرّ النبوغ الإنساني . لقد كانت مصالح مملكته ومصالح جيرانه الأقوياء والضعفاء متجاذبة متنافرة في أحيان كثيرة ، وكان التوفيق بينها والخلاص من الارتطام بما يوجب الفشل يحتاج إلى الحيلة وإلى الذكاء العبقري . فمر بهذا التجاذب والتنافر كله بسلام ، دون أدنى اصطدام .

لقد اجتاز هذا الملك العظيم من المشاكل الداخلية والخارجية في هذه الأربعة والأربعين عاماً التي قضاها في تشييد هذا الملك بما لعل واحدة منها تكفي لأن تطيح بأعظم رجل شاد أرفع مجد ، ولكنه اجتازها كلها كما يجتاز أحدنا أصغر مشكلة تواجهه فيقال له ما أحذقه .

لقد أعلنت هذه الحرب فاستغوت نتائجها المقدرة أرجح الألباب ، واستطيرت بها أثقل الأحلام ، فأفسدت على عباقرة السياسيين وعباقرة العسكريين أمورهم ، فخرجوا من معسكر إلى معسكر ، واندفعوا في سبيل هذه النتائج التي قدروها خطأً ، فكانت عاقبتهم الهلاك الذي شهدنا . ولكن أليس من أعجب العجائب أن شيئاً من هذا لم يستطع أن يفسد على هذا الملك نظراته البعيدة الثاقبة ، ولا أن يزحزحه عن مكانه ، أو يغير رأيه ، فنجحت به عبقريته من الانزلاق والهويّ في مهاوي التقديرات الخاطئة .

لقد جهدت الإذاعات والدعايات الأجنبية بأساليبها البارعة المتقنة كل سني الحرب، راجية ومقدرة أن تغرر به ، وقد قدر هذا أغلب العالم ، وراجية أن تميد بهذا الطود عن مستقره ، وتخرج به عن استقراره ، وقد حدثت في أثناء ذلك حوادث في بلاد العرب وفي جوار بلاد هذا الملك ، كان يخشى أن يكون لها أثر في تغيير موقفه ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، لأنه كان مزوداً دائماً بمانعة الاصطدام ومانعة السقوط .

* * *

يظن كثير من الناس أن هذا الملك يحكم بلاده وشعبه حكماً مطلقاً ، ولكن لا يجب الذهاب مع هذا الظن ، فإن جلالته قد قيد نفسه بقانون رضيه هو وآمن به ، ورضيه شعبه وآمن به . هذا القانون هو الشريعة الإسلامية ، وهو لا يتدخل فيه، وإنما يعمل على حمايته . وإذا كان يسمى ملكا دستورياً مَنْ كان مقيداً بدستور وضعه الناس ، لهم أن يغيروه أو يبدلوه أو يبطلوه ، فماذا يسمى مَنْ قيد نفسه بدستور وضعه الله ، يرى أنه لا يصح أن يبدل ولا أن يغير ولا أن يبطل ؟ ! إننا أمام أحد رجال التاريخ الحقيقيين الذين سيظل التاريخ يذكرهم كلما ذكر الأعمال الخالدة والرجال الخالدين . وإننا لا نحتاج أن نرجع إلى الوراء لننقب في زوايا تاريخنا عن العظمة الحقة في رجالنا ، وما علينا إلا أن نلتفت إلى هذه العظمة المعاصرة ، لنقول : إننا رأيناها بأبصارنا .

عبد الله علي القصيمي



حديقة الأفكار

أدبُنا وسَيْرُه

السير إلى الأمام أو إلى الوراء يقتضي قوة محرّكة تحرك السائر وتعيّن له الاتجاه . وهذه القوة المحركة قوامها في الإنسان الحياة والفكر فمن لا يتقدم يتأخر لأن الحياة حركة دائمة وتفكير متواصل والوقوف هو الجمود والجمود هو الاضمحلال والزوال .

ولقد يختلف سير الناس باختلاف القوى التي تحركهم ففريق محدود الغاية بطيء الحركة وفريق يسير به جهده سير الهوادة واللين وثالث لا تقنع همته بغير القفز والوثوب . وإذا كانت حركة جسم من الأجسام لا تعيّن إلا بقياسها إلى غيرها فتقدير النسبة بين حركات الناس يقوم على ذلك القياس ولا حاجة في هذا التقدير إلى البحث عن عوامل تلك الحركة فقد تكون في البطء عجزاً طبيعياً أو غفلة وإهمالاً وقد تكون في الوثوب همةً لا تحفل بالحوائل والصعاب. وحسبنا من بيت الطغرائي مثلا أن نعيّن نسبة تلك الحركة دون الاهتمام بالسبب في قوله :

تقدمتني رجالٌ كان شوطهمُ وراء خطويَ إذ أمشي على مهلِ

ونحن كأمة حيّة مفكرة سائرون بأدبنا إلى الأمام ولكن ما نوع هذا السير أهو مشي الخيزَلَى أم مشي الهيذبى كما يقول المتنبي . أهو السير الوئيد الهادئ في طريق سهل معبد ، أم الجري المتوثب الذي يستهين بالحواجز والعراقيل . ولا غنى لنا في تقدير هذا السير عن أن نقيس عصرنا إلى العصور الماضية لنعرف أين نحن من التقدم والرقي .

إننا إذا قسنا عصرنا بالعصور الذهبية المعروفة في التاريخ كعصر بركليس أو عصر أغسطنيوس أو العصر العباسي أو عصر لاون العاشر أو سواها من العصور التي ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون بدا لنا عصرنا بطيء الحركة ولكن إذا قسناه بالعصور الأخيرة التي ران على أجفانها الكرى فغرقت في سبات طويل عرفنا المراحل الواسعة

التي تفصلنا عن تلك العصور وأخذتنا نشوة العزّة بأن نكون صانعي عصر جديد سيفرد له التاريخ مكاناً ملحوظاً بين العصور الذهبية ما لم تبرقع غمائم الأحداث وجه هذا الفجر الجميل فلا يبدو من أدبنا غير لمعات تبرق بين حين وآخر من شقوق تلك الغمائم .

وهذا الضمير ضمير الجماعة الداخل على كلمة أدب يعود إلى البلاد العربية جمعاء فالحديث عن أدبنا يشمل الحديث عن أدب هذه البلاد على حد قول أبي تمام :

أو يختلفْ ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدّر من غمام واحدِ
أو يفترقْ نسب يؤلفْ بيننـــا أدب أقمناه مقـــامَ الوالدِ

وبعد فما المقصود بهذا الأدب الذي نتحدث عنه لانريد أن نعرض لمتباين الآراء القديمة والحديثة في تحديد الأدب وتقسيمه ولا لوجاهة الآراء التي تحدد علاقة الأدب بالجمال والحقيقة والفن إذ المقصود بالأدب هنا ثمرته أي مجموع نواحي التفكير الإنساني في هذا العصر وبيان وسائل التعبير عن ذلك التفكير. فالأدب إذن هو العقد الذي يجمع في سمطه فرائد الفنون والعلوم منحوتة من منجم العصر مصقولةً مهذّبة يعكس فرندها صفاء فكر الأديب ولألاء وحيه .

بدأت قافلتنا الأدبية تسير سيراً منتظماً في عهد المغفور له ساكن الجنان محمد علي باشا وكان سيرها قبل ذاك سير عربة البريد لا تجري عدّة فراسخ حتى تتعب خيلها وتنهك ويستبدل بها غيرها ، وكثيراً ما كانت تقف عن السير في انتظار خيل جديدة .

ولئن كان لإنشاء المطابع شأن يذكر في الإلماع إلى عصر النهضة والإشارة إلى الخدمة الجلى التي أدتها المطابع للتأليف والنشر ليصحّنّ القول : إن المكان الذي جرت منه تلك القافلة كانت مدينة حلب . ذلك أن نفراً من المرسلين العازريين كانوا قد هبطوا هذه المدينة وأخذوا ينشرون فيها تعاليمهم ويُوجهون النشء إلى الوجهة الدينية التي يريدونها فلم ترق تعاليمهم رجال الشهباء فهبوا يجادلون هؤلاء المرسلين ويسفهون آراءهم وانتهى الأمر بالبطريرك أثناسيوس إلى أن يشدّ الرحال إلى عاصمة رومانيا وهناك أنشأ مطبعة عربية نقلت فيما بعد إلى حلب ، ثم أنشأ الشماس عبد الله الزاخر مطبعة دير الشوير بلبنان فانصرف العلماء الوطنيون إلى التأليف والنشر واشتهر منهم في ذلك العهد الشيخ سليمان النحوي والمطران جرمانس فرحات والسيد حسن بن عبد الله البخشي ونصر الله الطرابلسي وفتح الله النحاس وعبـــد الله اليوسفي ومكرديج الـكسيح والخوري نقولاوس الصائغ وغيرهم .

وقفت القافلة بهؤلاء الأعلام في منتصف القرن الثامن عشر حتى إذا كان عهد محمد

علي باشا طلع على الشرق فجر جديد ونهض العلماء من مختلف الأقطار العربية يسيرون بالأدب سيراً حثيثاً وما هو أن وصلوا به إلى عتبة القرن العشرين حتى استبدلوا بعربة البريد سيارة جرت بالأدب خبباً. وهذه آثارهم شاهداً عدلا على أنهم وفوا قسطهم للعلى وبلغوا بالأدب في طريق الكمال إلى مرحلة بعيدة تاركين للجيل الجديد القيادة أفيكتفي الجيل الجديد بسيارة من أحدث طراز أم يستعيض عنها بطائرة تسابق الريح.

أغلب الظن أنه لن يرضى إلا بأسرع الوسائل. ولئن كان الشرق إلى يومنا هذا يمشي على هامش الحياة إنه اليوم يجري في متنها وصميمها. ولئن كان أدبنا منذ بدء النهضة استيحاء وتقليداً إنه اليوم خَلْق وابتكار. ومهما تكن قيمة هذا الأدب فهو موسوم بطابع من الوعي القومي هو الخيط الأبيض الذي سينفرج عنه وجه فجر جميل. كان الأدب في مستهل نهضة الشرق صورةً جامدة من الأدب العربي القديم ثم استحال إلى صورة مشوّهة من الأدب الغربي الحديث ثم أصبح اليوم صورة صادقة من حال العصر تعبر قسماتها عن آلامنا وآمالنا ويرمز إطارها إلى أغلالنا وقيودنا كما يبين جوّها جمال نفوسنا وسمو أمانينا. وليس يضيرنا أن تلتقي في أدبنا اليوم تيارات آداب مختلفة وأن يكون خليطاً من الآداب التقليدية والواقعية والرمزية، فعمّا قليل تنصهر هذه الآداب في بوتقته ويخلص منها الأدب الإبريز الصافي موسوماً بالطابع الشرقي الذي يميزه عن غيره من الآداب. وهذه سنّة لا معدى عنها في كل نهضة وفي كل انبعاث من الجمود إلى الحركة.

نحن نسير بأدبنا إلى الأمام لا شك في ذلك وإن شاب سيرَنا في بعض الأحيان عوائق تحد من جهدنا ونشاطنا أو اعتور فنوننا وعلومنا التي يتألف منها أدبنا بعض هنات تقصيها عن وثبة الكمال. فلغتنا — واللغة ميزان رقي الأمم — قد أخذت تصفو من اللكنة التي ألمت بها واستعادت سابق نصوعها وجرت أقرب ما تكون فصاحة على ألسنة المتكلمين بها من طلاب العلم كما جرت ناصعة فصيحة على ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب واهتم بها الغُيُر عليها فألفوا فيها المصنفات الطوال ومضوا يزيدون إلى غناها ثروة جديدة في العلم والاختراع. وحسبها أنها اليوم لغة كل قطر ناطق بالضاد. وسواء حذقها الأعاجم أم صعب منالها عليهم فستبقى حيث هي أصولا وفروعاً ومنابت. فالجبل الذي فيه الثمر الطيب والأدوية النافعة لا يُدك لأنه صعب المرتقى وإنما يحتال على الصعود فيه وبلوغ قمته للانتفاع بما يحوي. وهذا فردريك الثاني البروسي نظم ونثر باللغة الفرنسية ولم يطلب تقريب مجانيها إليه وهذه كاترين الثانية ملكة روسيا اهتمت بالأدب الفرنسي وعملت على نشره ولم تفكر في تغيير مقوّماته وأصوله. ولعل الداعين إلى تسهيل اللغة العربية بتغيير حروفها

يذكرون صيحة الأب تلمان في خطابه الذي ألقاه في الندوة الفرنسية حيث قال : « ألا ياقوم كفوا الحديث عن التغيير في لغتنا فهي راسخة الأصول ثابتة الأركان بما فيها من المؤلفات النادرة . ولتحفظ السماء أولئك الذين يحملوننا على أن نراها متبدلة متغيرة » .

ولغتنا في هذا العصر وهي أداة التعبير عن تفكيرنا تزداد يوماً بعد يوم قوة بما يخرجه الكتّاب من نفائس العرب وذخائرهم مجلوّة في حلة جميلة من التحقيق والتدقيق. ولا نخال من الصواب ولا من الحكمة أن نلقي بهذا التراث الضخم في هوّة الزمن لنتقرب إلى موائد الغرب فنكون فيها غرباء الوجه واليد واللسان .

نحن نسير بأدبنا إلى الأمام لا شك في ذلك فبلاغة خطبائنا لم تعد محصورة في تلك الأساليب الباردة الغثة والجمل المسجوعة الجامدة ، وإنما تعدتها إلى الكلام السهل الأنيق الفياض بالروح والفكر والحياة والمتدفق بالعلوم والمعارف يرسله الخطيب قطعة من نفسه تحت قبب المجالس النيابية أو على منابر الأندية الأدبية أو في حلقات الأفراح والأتراح . وقصائد شعرائنا لم تعد مقصورة على معارضة المشهور المعروف من القصائد ونسخ صورها أو مسخ أساليبها وإنما تجاوزوا هذا الضرب من التقليد إلى استلهام الروح والطبيعة والمجتمع ، قصروا فيها أم أبدعوا . وأغانينا وإن لم نبلغ بها الذروة في سمو المعاني وشرف القصد وجمال الأداء فقد أخذت تنال القسط الوافر من عناية شعرائنا يضمنونها الوصف الجميل والمعنى السامي وبدأ الشعر الرصين يزاحم العامية في الغناء ولعل يوم نصره على خصمه لا يطول . كذلك نحا القصص والتمثيل منحى صادقاً في التعبير عن خلجات النفس وتصوير الحياة في مآسيها وملاهيها بارزةً فيها العبرة المتوخاة من جمال الفضيلة وشناعة الرذيلة غير أننا لا نزال في هذين الفنين نقيم وزناً كبيراً لذوق العامة ومرضاتها. وللتصوير والنحت والنقش أثر بارز في نهضتنا والمبرزين منا في هذه الفنون صيت طائر يتجاوز حدود الشرق إلى آفاق الغرب . وقل مثل هذا في العلوم الشرعية واللسانية والعسكرية وفي الفلسفة والنقد والتاريخ والقانون والطب وما إليها فضلاً عن صحافة راقية ممتازة تشدّ أزر الأدب الرصين وتحمل في طياتها إلى القراء ريّ النهى وغذاء النفوس .

نحن سائرون بأدبنا إلى الأمام لا شك في ذلك وإنه لحكم يستند إلى جامعاتنا وبعثاتنا ومدارسنا وجماعاتنا العلمية والأدبية والفنية ومجمعينا اللغويين بدمشق والقاهرة كما يستند إلى الإنتاج الوافر الذي ينتجه رجال القلم كل عام في كل قطر من الأقطار العربية وفي كل مهجر نزل به قوم من العرب . فليس ثمة علم من العلوم إلا ولنا فيه أسفار

مشهودة وليس ثمة فن من الفنون إلا ولنا فيه آثار بارزة سواء عبرت هذه الأسفار والآثار عن الروحانية التي هي طابع الشرق أم أعربت عن الحقائق المجردة . وهذا الإنتاج الذي نطمع فيه بالمزيد لا يمكن أن يدل على الجمود القاتل وإنما يدل على الحياة والحركة ويدل على أن فكرنا الوثّاب يدفع بنا إلى الأمام وإن شذ فينا قوم تجنبوا طريق السمو والكمال إلى طريق اليسر والعافية ستراً لعجز فاضح أو إشباعاً لشهوة ملحّة وما لمثل هؤلاء كتب الخلود . أو شذ فينا قوم تنكروا لماضيهم وأوسعوا الفجوة بينهم وبينه أو برز فينا قوم قصروا تفكيرهم على دوائر ضيقة من الأدب القومي معرضين عن الأدب الإنساني الكامل الذي به نستطيع أن نحمل مشاعلنا إلى أطراف العالم كما حملها قبلنا أجدادنا الخالدون .

عادل الغضبان

إخوة غرباء

للأستاذ ميخائيل نعيمة بيسكنتا (لبنان)

يا أخاً لم تلده أمّي !

ها أنا ذا اليوم بين ذراعيك . وها أنت ذا بين ذراعيّ . وعناقنا عناق الراح للماء ، والنور للعين ، والحلم للمنام . فما أحبّ هذا اليوم إلى قلبي وأشهاه ، وما أجمله تاجاً أتوّج به دهوراً من حياتي أودعتها ذمة الزمان الذي ما خان ولن يخون .

لا يهولنّك يا أخي عياءٌ في مفاصلي ، وشحوب في وجنتيّ ، وضباب في مقلتيّ ، وذهول على شفتيّ . فما أذكر — ولعل الزمان يذكر — كم فلك قطعتُ ، وكم دهر طويت قبل أن أدركتُ هذا اليوم .

لقد نهكني السير يا أخي . نهكني حتى الموت . ولكنّ الموت ما كان أضعف منّي ساعة مثله في هذه الساعة . فأنا ، ويدي في يدك — يد الأخوّة الجبارة — أمنع من أن تظفر مني براثن الموت وأنيابه ولو بخدش طفيف . وأنا ، وقلبك نابض في قلبي نبضَ الأخوة التي لا تقهر ، أقوى من أن يُخرس الفناء إنباضي .

تعبتُ . إي تعبت . إلا أنني ما استسلمت يوماً للتعب ولا يئست . فمنذ أن حبلتِ السماء بالحياة فوضعت الأرض ، ثم حبلت الأرض بالإنسان فوضعتنا في مفازة الوجود توأمين أعزلين إلا من الشوق إلى المعرفة ، وقالت لنا : « امضيا في هذه المفازة وتعارفا » — منذ تلك اللحظةمشينا كل واحد في سبيله . ومشت بنا الأرض في سبيلها بين النجوم تقسم لنا الزمان أياماً وأعواماً ، والحياة أدواراً وأعماراً ، فتسوقنا من مهد إلى لحد ، ومن لحد إلى مهد .

وتمادى بنا السير وشطّت بنا الدار . فإذا أنت في واد وأنا في واد . وحملتنا أرحام كثيرة ، وأرضعتنا أمّهات كثيرات . فنسيتني ونسيتك . فلا أنا أعرف لي إخوة إلا الذين ولدتهم أمي . ولا أنت تعرف لك إخوة إلا الذين ولدتهم أمك . أما الشوق فيك وفيّ — ذلك الشوق الذي زودتناه الأرض يوم وضعتنا في مفازة الوجود — أما ذلك الشوق فكان يعرف ما لا نعرف . وكان يذكرنا فما نذكر .

وإني ، وإن غاب عني الكثير مما كان مني ومنك ، ما نسيت يوماً أدركتني فيه عاصفة مجنونة . وكنت في قعر واد مظلم، والجوع قد هدّ حيلي وكاد يجفف أمعائي . فلجأت في العاصفة إلى كهف في بطن ذاك الوادي . وإذا بك جالس هناك وفي يمينك ضمة من نبال ، وعن يسارك موقد فيه نار ، وأمامك ظبي طريح وأنت تقطع من لحمه وتشوي على النار وتأكل بِنَهَم ما بعده نهم .

كان ذلك أول عهدي بالنار والنبال . وإذ مددت يدي الجائعة إلى الشواء زجرتني وزمجرت ، فألححتُ وزمجرتُ ، وكان بيننا صراع . فكويتني بجمرة ، وطعنتك بنبلة ، وسال منك دم ، وسال مني دم . وامتزجت دماؤنا في بركة واحدة . وصرعتك في النهاية ، فأكلت من صيدك وشبعت . وخرجت من كهفك ونبالك في قبضتي ،وصيدك في جوفي ، وسرّ نارك في فكري ؛ أما في قلبي فكره لك قتال . وعداوة لا تنام .

هكذا تلاقينا من بعد فراق ، فلا أنت عرفتني ، ولا أنا عرفتك .

وتلاقينا بعد أجيال . وكنتُ قد ابتدعت آلة أحوك بها الكساء للعراة . فجئتني أنت وبنوك وبنو بنيك وعليكم ثياب من حياكتي . وظننتكم آتين تشكرون لي جميلي . فرحبت بكم أجمل الترحيب . ولكنكم جئتم بالسيوف والقسيّ ، فتركتموني وبنيّ وبني بنيّ عراة ومُثخنين بالجراح . وسلبتموني منوالي وانطلقتم .

فلا أنت عرفتني يومذاك ، ولا أنا عرفتك .

ودار الزمان فإذا بك بحار ماهر وبنّاء سفن عظيم . فجئتك لآخذ عنك فن بناء السفن وتذليل البحار . وكنت كريماً فما بخلت عليّ بذلك . وبعد أعوام زحفت بسفني فحطمت سفنك وتركتك ورجالك ألعوبة للأمواج وطعاماً للأسماك .

فلا أنت عرفتني يومذاك ، ولا أنا عرفتك .

ولقد تلاقينا من بعدها مرات بغير عدّ . وإني لأذكر فيما أذكر ، مرة وجدتك فيها جالساً تحت شجرة من التين الهندي وفي يدك كتاب . وكنتَ الأسبق إلى اختراع فن الطباعة ، ووجدتك تنشد ما في الكتاب إنشاداً وتترنح إذ تنشد . وكان الكتاب ديواناً من الشعر ، وكنتُ صاحب الديوان ، فأعززتني وأكرمتني وما بقيت تعرف كيف تظهر إعجابك بي وتقديرك لي . وكانت من بعدها حرب ما بيْن قومك وقومي والتقينا في حومة الوغى . فما كان منك إلا أن سددت بندقيتك إلى صدري وصحت : « خذها يا أبغض الناس وعدو الله» .

فلا أنت عرفتني يومذاك ، ولا أنا عرفتك .

وإني لأذكر حرباً أخرى كنتُ فيها طبيباً ، فجاؤوني بك مهشم العظام ، ممزق الجلد واللحم ، وكنتَ عدواً. فانكببت عليك أجبر ما تحطم من عظمك وأرتق ما تفتق من جلدك . وما زلت بك حتى أعدتك رجلا سوياً قوياً . فما كادت الحرب تنتهي وكدتَ تعود إلى بلادك حتى انكببتَ على استنباط سموم فتاكة تنفثها في الهواء فتقضي عليّ وعلى أبناء قومي .

فلا أنت عرفتني يومذاك ، ولا أنا عرفتك .

وإني لأذكر فيما أذكر أنك سمعتني ذات يوم أحسد الحوت سابحاً في بحره . فخلقت لي سفينة أقوى من الحوت تجري في غياهب اللجة . وركبتُ سفينتي الجديدة ورحت أطارد بها الحيتان في بحارها . فآناً أغوص ، وآونة أعوم . وإذا بسفينة كسفينتي تجري نحوي . وإذا بك أنت — لا غيرك — تقود تلك السفينة . فما راقني أن تقاسمني البحار . لذاك دعوتك للقتال . وكان قتال . وكان أنين . وكانت بقع حمر على وجه اليمّ . لقد جمعتنا اللجة بأعماقها السحيقة وأبعادها الهائلة . فما اتسعت لكلينا .

فلا أنت عرفتني يومذاك ، ولا أنا عرفتك .

وإني لأذكر فيما أذكر أن سمعتك ذات يوم تحسد النسر يشق الهواء بجناحيه القويتين ويجول حراً في قباب الفضاء . فابتدعت لك أجنحة أين منها أجنحة النسور . وانطلقتَ في الجو بجناحيك . وانطلقتُ بجناحيّ . فما راقك أن أقاسمك الفضاء . لذلك انقضضت علي ولا انقضاض الصاعقة . وكان نزالٌ . وكان برق ورعد . وفي النهاية هوينا — أنا وأنت — إلى الحضيض نسرين مهشمين .

ونظرت إليّ بعينيك الحمراوين من الغضب فما عرفتني. ونظرت إليك بعينيّ الملتهبتين بغضاً فما عرفتك .

وإني لأذكر فيما أذكر آلة عجيبة اخترعتها لتسمعني بها صوتك وأسمعك صوتي وإن تكن أنت في أقاصي المشرق وأكن أنا في أقاصي المغرب . فلكم هللتُ لاختراعك وكبرت . ولكم قلت في داخلي : « الآن نتعارف أنا وأخي التوأم . فبهذه الآلة سأسمع صوته في كل حين . وفي صوته سأسمع نبضات قلبه وخلجات فكره . وفي نبضات قلبه وخلجات فكره سأسمع أشواقه إليّ. ومتى سمعت أشواقه وأسمعته أشواقي عرفته وعرفني من غير شك » .

هكذا كنت أقول في داخلي . ولكنني أصغيت وأصغيت . وماذا عساني سمعت منك ، وماذا عساك سمعت مني ؟

سمعتك تقذفني بالشتيمة تلو الشتيمة ، وتنعتني بأشنع النعوت، وتصب عليّ صفراءك

وسويداءك ، وتهددني بالويل والفناء . فأسمعتك من الشتائم أمرّها ، ومن النعوت أفظعها . وصببت عليك جامات صفرائي وسويدائي . وهددتك بالنار والدمار .

وهكذا تلاقينا في رحاب الأثير . وحتى في الأثير لا أنت عرفتني، ولا أنا عرفتك.

أجل . إني لأذكر أشياء وأشياء لا تحصى ولا تعدّ فعلتها من أجلي وفعلتها من أجلك . على أنني ما أذكر شيئاً واحداً أذقتني حلوه إلا أذقتك مُرّه . أو رفعتك به إلا خفضتني به . فكأن السمّ في فمي شهد في فمك . وكأن النواح في قلبك إنشاد في أذنيّ . وكأن ضرع الأرض لا يجود عليّ إلا إذا جف عنك ، وبساط الفضاء لا يتسع لجناحيك إلا إذا كان شركاً لجناحيّ ، وأمواج البحار لا تنقاد لي إلا إذا امتنعت عليك ، وأوتار الأثير لا تهتز لأفراحك إلا إذا ثملت بأحزاني . فلا أنت مني بخمر أو بخلّ، ولا أنا منك بخلّ أو بخمر .

كذلك كنت وإياك حتى أمس الدابر — أمسي وأمسك الأعميين . فقد كنا نقول ونعتقد ما يقوله ويعتقده البُكم والعميان الذين لا يعرفون أخوّة إلا التي تقذفها الأصلاب والأرحام : « أنا وأخي على ابن عمّي ، وأنا وابن عمّي على الغريب » .

الغريب . . .

ومن هو الغريب ؟ لقد كنتُ حتى الأمس أعرف ما تعنيه تلك الكلمة . أما اليوم فمعناها قصيّ عن فهمي ووقعها ثقيل في أذنيّ . فهي والخنفشار عندي من مقلع واحد .

ذاك لأني اليوم غيري أمس . فما أدري أية يد ساحرة مسحت عينيّ ، وأية نسمة قدسية لثمت شفتيّ . وإذا بحياتي منذ أن ولدتني الأرض حتى الآن تتكشف لي بغتة بكل خُطاها وخطاياها ، وبكل تعاريجها وأسرارها . وإذا بي لا أبصر لي أثراً في الأرض أو في البحر أو في الجو إلا أبصرت بجانبه أثراً مماثلا لك . وحينئذ أدركت ما كنت أجهل .

أدركتُ يا أخي أنني ما خطوت خطوة في حياتي إلا كانت يدك في يديَ ، وساعدك إلى ساعدي ، وكتفك إلى كتفي . وأنني ما تنفست نفساً إلا كنت شريكي فيه ، ولا فكرت فكراً إلا وخاتم فكرك عليه . وأنني حييت لا بما فيّ وحدي من حياة ، بل بما فيك وفيّ من حياة . فكنت أبصر بعينيك ، وتبصر بعينيّ . وكنت أسمع بأذنيك ، وتسمع بأذنيّ . وكنت أتكلم بشفتيك ، وتتكلم بشفتيّ . وكنت أمشي برجليك ، وتمشي برجليّ . وها أنا ذا أستغفرك جميع ذنوبي إليك — وما أكثرها ! فهلا غفرت ؟

أدركت يا أخي أن ما من نجم أضاء في الفلك إلا لي ولك ؛ وما من عصفور غرّد

إلا لي ولك ؛ وما من زهرة باحت بوجدها ، أو ثمرة جادت بشهدها ، أو نسمة همست سرّها ، أو ديمة نثرت دُرّها إلا لي ولك . فالأرض لنا — وما أجملها وأسخاها . والسماء لنا — وما أفسحها وأبهاها . ولنا الأخوّة التي لا تقهر الدهور — فما أغنانا ، وما أقوانا !

لقدكنا إلى اليوم أخوين غريبين . أما اليوم فقد عرفتك . إي ، لقد عرفتك فأحببتك .

وها أنا ذا أصافحك فأصافح فيك الحياة . وأعانقك فأعانق فيك الناس أجمعين ، يا أخاً ما ولدته أمي .

ميخائيل نعيمة

آلة العَيْش

للدكتور سليمان عزمي باشا

ليس جسم الإنسان وتركيبه وشكله وبناؤه مجرد مادة كيميائية نجري عليها اختباراتنا الكيميائية فنقرر محتوياته ومشتملاته بكل ما وصل إليه العلم من الدقة ، ولا مجرد شكل هندسي نطبق عليه المقاييس الهندسية والحسابية الحساسة ، ونقرر شكله وقوامه وطوله وعرضه ووزنه وثقله النوعي ، إلى غير ذلك باستعمال الأجهزة والآلات الخاصّة بذلك . بل هو مجموعة من الخلايا والأنسجة ارتبط بعضها ببعض لتكوّن مجموعة أو عضواً أو جهازاً ، كل منها يؤدي وظيفة ما ، أو وظائف متعددة متنوعة يختص بها ، متخذة شكلا وقواماً خاصاً بكل منها . وليس جسمنا مجرد آلة لها أجزاء نصلح فيها ونفسد أو نعدل ما تلف منها ؛ بل إن له حيوية وارتباطاً بعضه لا يسمح بهذا التغيير أو التبديل .

ولقد بدأت دراسة الأمراض حسب التغيرات التي تصيب الخلية من سنة ١٨٥٠ ، وذلك عند ما وضع رودلف فِرْشو (Rudolf Virchow) نظرية تغيرات الخلية المرضية .

وجسم الخلية به مادة بروتينية داخلها نواة ، ومعظم جسم الخلية وبروتبلزما الخلية مكون من مادة بروتينية ومواد دهنية وكربوايدرات وأملاح . والمواد البروتينية الموجودة بها والتي تكوّن معظم محتويات الخلية هي مواد بروتينية حية تسمى « أحماضاً أمينية Amino Acids » ، والنواة تعد المركز المنظم لحيوية الخلية . فأساس الحياة هو ما تحويه الخلية من البروتبلزما الحية . وحيوية الخلية تمكنها من استساغة المواد التي تصل إليها عن طريق الدم ، فتقوّم كيانها مما تأخذه ، وتستعيض منه عما فقدته من مواردها في أثناء نشاطها في تأدية وظيفتها ، وترد إلى الدم فضلاتها .

وإذا ما أخفقت الخلية في تأدية وظيفتها نتيجة لتغيرات مرضيّة تصيبها في جوهرها أو اضطرابات في تأدية وظيفتها ، سواء أكان ذلك من تأثير مرضيّ في البنية عامة أم من نقص في وظيفة أعضاء أخرى تؤثر في الخلية من بعيد أو قريب ، أو إذا حرمت الخلية وصول الدم إليها لسبب موضعي أو عام ، فإنها تصير خلية مريضة . وإذا فقدت وظيفتها تماماً فإنها تصير خلية ميتة .

ولقد أظهرت الأبحاث الابتدائية لمن بحثوا في الخلية أن بعض الأمراض قد لا ينشأ عنه في العضو المريض تغيرات ظاهرة للنظر العادي . ولكن البحث المكرسكوبي يظهر تغيرات واضحة في العضو المريض وفي خلاياه تنبئ عن منشأ المرض وعلاماته . ولذا فإن استعمال المكروسكوب في فحص الأنسجة قدم الأبحاث ، وكان له أعظم الأثر في تقدم مختلف العلوم والفنون .

وسادت نظرية التغيرات المرضية في الخلية عالم الأبحاث الطبية . واتجه البحث نحو الوقوف على تأثير المكروبات وسمومها ، والإصابات والشيخوخة ، وأسباب الأمراض الأخرى على الخلية . ثم ظهر بعد ذلك بوضوح أن بعض الأمراض لا يحدث تغيرات نسيجية في الخلية ، وإنما يحدث اضطرابات وتغيرات كيميائية حيوية في سوائل الجسم المختلفة وخلاياه ، لا تظهر بالفحص المكروسكوبي للأنسجة . واستعان الطب بمختلف الأبحاث الكيميائية الحيوية لتفسيرها . فالأمراض إذن ليست مجرد تغيرات في الخلية ، بل هناك عامل الوسط الذي تعيش فيه وتركيبه وحسن ملاءمته لحياتها وسلامتها .

ثم ظهر فوق ذلك أن للخلية قوة مقاومة ودفاع خاصين بها للتغلب على الأمراض وسمومها ، فإذا وصلت إليها دافعت عن كيانها بوسائلها . فكما وجدت أسباب الأمراض وجدت في البنية قوة المقاومة أيضاً ، لأن جسمنا في مجموعه سلسلة من القلاع الدفاعية ، تبدأ من الجلد والأغشية المخاطية لدفع المكروبات المغيرة ، ولعصير المعدة قوة دفاعية بفضل حموضته لقتل المكروبات إذا كانت قليلة العدد ، كما أن بعض كرات الدم البيضاء تهاجم المكروبات وتلتهمها . والأنسجة اللمفاوية وجدت أيضاً لتكون خط دفاع آخر، حين تتغلب المكروبات على خطوط الدفاع الأمامية .

وإذا وصلت المكروبات وسمومها إلى الخلية فإن للخلية أيضاً قوة دفاع خاصة بها ، تتخلص في تجنيد ما يسمى « الأجسام المضادة » مهمتها مقاومة الأجسام المغيرة ، مما يطول شرحه . فإذا نجحت المقاومة هزمت أسباب الأمراض وتم النصر للبنية . فإذا فشلت البنية في مقاومتها ودفاعها تغلبت أسباب المرض ، ومرض المصاب مرضاً يختلف في درجاته ، قد تقاومه البنية فيشفى المريض شفاء تاماً ، وقد تهزم البنية فيموت المريض . وبين الشفاء والموت كثير من الاحتمالات يطول شرحها .

وتحدث داخل البنية تغيرات كيميائية دقيقة متباينة الأغراض ، تبدو كأن بعضها مستقل عن بعض ، كما يظهر كل جهاز أو عضو كأنه مستقل استقلالا ذاتياً عن الآخر . وواقع الأمر أن بعضها مرتبط ببعض ، يهدئ أو ينشط ، يثبط أو ينبه ، يعوق أو

يساعد بعضها بعضاً بنظام خاص تشترك فيه الغدد ذات الإفراز الخارجي وشقيقاتها ذات الإفراز الداخلي ، كما يشترك فيه المجموع العصبي العام ، والمجموعة العصبية المستقلة بذاتها «Autonomic System» وهي المكونة من مجموعتي السمباتيك والبارا سمباتيك .

ولقد وجدت طرق لخص لدراسة التغيرات الدقيقة التي تحصل داخل البنية ، خلاف مشاهدة التغيرات الظاهرة الواضحة لحواسنا المجردة أو استعمال الآلات القديمة والحديثة كالمسماع والمنظار والأشعة وغيرها . وترتكز هذه الطرق على الأبحاث الكيميائية الحيوية للدم وسوائل الجسم المختلفة وإفرازاته ، واختبار وظائف أعضاء الجسم المختلفة للوصول إلى معرفة عمل الخلايا والأعضاء والغدد ، ولإدراك أي اضطراب في أي عضو يعوقه عن تأدية وظيفته ، سواء أكان تقصيراً جزئياً أو تاماً أم كان ازدياداً في نشاطه ، وكل ما يتبع هذا التقصير أو النشاط من اضطراب في وظائف عضو آخر من أعضاء الجسم أو البنية على وجه العموم . ولقد أتت هذه الأبحاث بأجل الفوائد ، وسهلت إلى حد كبير تشخيص الأمراض وتبين مدى مقاومة الجسم ، وهدت الأطباء المعالجين إلى الوسائل الوقائية والعلاجية ، بمختلف طرقها ، من غذاء ودواء وعمليات ، وإلى العلاج بالوسائل الطبيعية ، قديمها وحديثها .

فللجسم ووظائف أعضائه المختلفة في ظروف الحياة اليومية المتقلبة حالات متغيرة متباينة بدون أن تفقد ما بينها من ارتباط وتنسيق .

فليست البنية في أثناء الجوع في الحالة نفسها التي تكون عليها في أثناء الشبع والامتلاء ، كما أنها تختلف في أثناء الراحة عنها في أثناء العمل ، وفي حالة السرور عنها في حالة الغضب .

وتختلف البنية في الحالة الواحدة حسب درجاتها . فالجوع درجات ، والشبع درجات ، وكذلك العمل والراحة ، وفي كل من هذه الدرجات تكون البنية على غير ما تكون عليه في الدرجة الأخرى ، غير أن البنية في مختلف هذه الظروف ودرجاتها تتكيف بحيث لا يختل اتزانها .

وتختلف حاجة البنية في أثناء هذه الفوارق ، من حيث كمية ونوع غذائها وإفرازاتها وفضلاتها ونشاطها ، ليتوفر بين مختلف وظائف أعضائها التنسيق والانسجام . ويجب أن تكون البنية متزنة اتزاناً داخلياً حسب كل هذه الظروف ، لأن اختلال أي عضو في وظيفته زيادةً أو نقصاً أو إحجاماً يؤدي إلى اختلال الاتزان الجسمي العامّ ، اختلالا قد يكون أثره عميقاً ، كما قد يكون سطحياً لا يشعر به الشخص نفسه ، ولا يدركه

الطبيب بطرق فحصه العادية ، ولذا تستدعي معرفة الصحة والعافية والمرض والسقم والتوعك ، والاضطراب والانحراف العصي أو النفسي ، أو اضطراب وظائف الغدد ذات الإفراز الداخلي ، خبرة خاصة لتمييزها ، وقد يلجأ الطبيب لمعرفة كنهها وليتبين له نوعها ومداها إلى أبحاث معملية ، وإلى الاستعانة بأجهزة خاصة على تشخيصها .

الحياة غير ثابتة ، والوسط الذي نعيش فيه غير ثابت ، وظروف الحياة غير ثابتة ، والصحة والمرض مرتبط بعضها ببعض منذ وجدت الحياة على الأرض . والصحة والمرض ظاهرتان من ظواهر تناسق هذا الارتباط وانسجامه ، أو تفككه وتباينه وتداعيه . فإذا انسجم الجسم الحي مع الوسط الذي يعيش فيه وتكيّف مع حره وبرده وهوائه ، ومع نوع العمل الذي يقوم به ، ومع كل ظروفه الأخرى العاديّ منها والطارئ ، السارّ والمزعج ، وتكاملت له حاجاته الغذائية وغيرها ليؤدي وظائفه ويقوم بها ، وبعدت عنه أسباب الأمراض المختلفة التي إذا أصيب بها اختلّ انسجام أعضائه وارتباطها . وبعبارة أخرى : إذا حصل واستمر الاتزان بين الجسم والوسط الخارجي الذي يعيش فيه ، وإذا حصل واستمر الاتزان الداخلي للجسم ، اعتُبر هذا صحة عافية .

وأما إذا انقطع عقد هذا الانسجام والارتباط ، وتغير الوسط الخارجي للإنسان ، وأصبح غير صالح لوجوده ، بأن تغير الجو ، أو زاد العمل عن مقدرته ، أو قل طعامه في كميته ونوعه ، أو فسد في تكوينه وتركيبه ، أو إذا تلوث بالمواد المضرة بالصحة — سميّة أو مكروبية أو طفيلية أو غيرها — أو إذا أصيب الجسم بالإصابات الميكانيكية من جروح وكسور وحروق أو أورام خبيثة أو غير خبيثة ، أو إذا أصيب بأي سبب من الأسباب المرضية الكثيرة المباشرة أو غير المباشرة ، وتغلبتْ على قوة مقاومته ووسائله الدفاعية ، اختلّ الاتزان والانسجام الجسميّ وأصيب الجسم بالمرض .

وفوق ما ذكرنا عن نقص الغذاء، كسبب من أسباب الأمراض، فقد ظهرت في هذا القرن وأواخر القرن التاسع عشر فوائد الأملاح والفيتامينات ، وتأثير نقصها في البنية ، وزادت أهمية الفيتامينات وكثر البحث فيها ، ودُرست دراسة شاملة مفصلة ، وعرفت جملة أنواع منها ، تمكن الطب من دراستها وتجربتها ، كما تيسر تعليل كثير من الأمراض التي كانت غامضة الأسباب ، إذ ظهر أن سببها يرجع إلى نقص في الفيتامينات أو في نوع من أنواعها .

ولا يزال البحث في دراستها متتابعاً باستمرار . وستظهر على مدى الأيام أمور أخرى ، وفيتامينات أخرى مما هو مجهول لنا الآن .

كما ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن أهمية الوسط الخارجي للانسان ، من كساء وسكن ومحل عمل ، وازدادت العنـاية بها يوماً عن يوم ، إذ ظهرت جلياً أهميتها في المحافظة على صحة الإنسان وسلامته ومنع الأمراض عنه . وقد عرف أحد العلماء الحياة بأنها الرابطة بين العوامل الداخلية في بنية الإنسان حسب العوامل الخارجية التي تحيط به .

ومن المؤسف أن تغيرات الحياة ومضايقاتها ومصائبها ونكباتها وأزماتها وحروبها وكل ظروفها الأخرى التي لا تقع تحت حصر قد جَعلت الجسم أدنى إلى المرض منه إلى الصحة .

ولسنا نعني بهذا ما يسبب تغيرات «باتولوجية» فحسب في أنسجة الجسم وخلاياه ، بل نعني أيضاً التغيرات والاضطرابات الوظيفية في وظيفة العضو دون أي تغير في تركيبها أو شكلها أو تكوينها ، كما نعني الاضطرابات النفسية والعصبية والعقلية واضطرابات الغدد ذات الإفراز الداخلي — نقصاً أو زيادة في إفرازها — التي كثرت للأسف الشديد في فترات الأزمات والمصادمات التي بليت بها الإنسانية عامة ، والتي تصادف المرء في كل ظروف حياته ، لكثرة المشغوليات والمسؤوليات التي استلزمتها المدنية الحديثة .

ومادامت الحياة تسير على نحوها الحالي ، فلا بد من أن تصيبنا الأمراض ، وهيهات أن نصل إلى منع الأمراض منعاً باتاً ، لتعدد أسبابها . فإذا تركنا جانباً الأمراض الوراثية والخلقية ، والإصابات والأورام والسموم والتغيرات والتقلبات الجوية ، وأمراض نقص التغذية وفسادها ، وفكرنا فقط في الأمراض المعدية الميكروبية أو الطفيلية أو ما شابهها ، وفكرنا في عديد أسبابها ، وتعدد وسائل انتقالها ، من هواء وماء وأتربة وأطعمة وذباب وبعوض وحشرات وملابس إلى غير ذلك ، عرتنا الدهشة مما يحيط بنا ويهددنا من مختلف الأمراض ، وما تتعرض له أجسامنا من مختلف الاضطرابات والتغيرات ذات الأثر البالغ في حياتنا .

وكل ما تصبو له الإنسانية وعلم الطب هو مقاومتها ومنع انتشارها ، وشفاء ما يمكن شفاؤه منها ، ومنع مضاعفاتها وتخفيف مصائبها وتسكين آلامها . وقد تقدمت وارتقت وتحسنت كل هذه الوسائل لدرجة محسوسة جداً في هذا العصر . وكل انحراف أو اضطراب في الصحة مهما تنوعت أسبابه يعد مرضاً ، وبمقدار هذا الاضطراب ومدى تأثيره في البنية ومكانه من الجسم وسببه وسيره وكيفية ابتدائه وانتهائه يعطي الطب لكل حالة اسماً خاصا بها ، وبهذا تعددت أسماء الأمراض ، واتخذ كل مرض صفة خاصة

وأعراضاً وعلامات خاصة به ، عرف بها وميزته عن غيره . فمن الأمراض ما يكون شديد الوطأة مصحوباً بردٍّ فعل شديد فنسميه صاعقاً ، أو واضح الأثر فنسميه حاداً ، ومنها ما يسير سيراً خفياً بطيئاً وتطول مدته فنسميه مزمناً ، ومنها ما يعقب مرضاً حاداً لم يتم شفاؤه، ويستمر بطيئاً في سيره وتخفّ وطأته قليلا فنسميه تحت الحاد «Sub-acute.» ، ومنها ما يزول تماماً ولا يترك أثراً ، ومنها ما يتضاعف وتتخلف عنه العاهات ، ومن الأورام ما يشفى ويسمى حميداً ، ومنها ما لا يشفى ويسمى خبيثاً . إلى غير ذلك من مختلف الاحتمالات .

بعد أن عرفنا الصحة والمرض وعرفنا أن الأمراض جسمية ونفسية ، وتكلمنا بقدر ما يتسع له نطاق هذا المقال ، نرى أن نبين أن أسباب الأمراض المختلفة تؤدي إما إلى اضطراب واختلال في وظيفة العضو بدون أن تؤدي إلى تغيرات باثولوجية شكلية في أنسجته وتكوينه ، كما قد تؤدي إلى تغيرات شكلية مرضية في نسيجه فتتغير صفاته ، ويتبع هذا تغيرات في خلاياه ، من هدم أو استحالة أو التهاب ، ولنضرب مثلا لذلك :

بينما أنا جالس على الكرسي أمام مكتبي أكتب هذا الموضوع شعرت بتنميل في ساقي وقدمي وفخذي الأيمن . وعند ما تركت الكرسي وأردت المشي تعذر عليّ ذلك لمدة دقائق . فما السبب ؟

سببه أن حافة الكرسي الصلبة ضغطت على عصب الفخذ « السمباتيك » فأحدثت فيه اضطراباً عابراً في وظيفته ، جعلني أشعر على أثرها بالتنميل أو الخدل الذي منعني عن المشي . وبعد أن زال هذا الضغط بدقائق زال بزوال هذا السبب المباشر التنميلُ وغيره ، وعادت رجلي إلى حالتها الطبيعية ، ولم يترك هذا الضغط أثراً مَرَضياً مطلقاً ،وكل ما حصل منه إنما هو اضطراب وقتي في وظيفة العصب . فلنفرض أن هذا الضغط كان نتيجة وجود نتوء عظمي أو ورم ضاغط باستمرار على هذا العصب في أثناء سيره ، واستمر على هذه الحالة مدة طويلة ، فإنا نرى بعد مدة ، قد تكون شهوراً أو أقل ، حدوث ضعف في عضلات الساق ، مع خدل وتنميل وألم . ولنفرض أننا استبعدنا هذا النتوء العظمي أو الورم بالعلاج في الوقت المناسب ، فإنا نرى العصب والعضلات التي اضطربت في وظائفها تعود تدريجياً إلى حالتها الطبيعية ، لأنها لم تحصل فيها تغيرات مرضية . ثم لنفرض أن هذا النتوء العظمي أو الورم ازداد ضغطه وكان بحيث لا يمكن استئصاله بالعلاج ، فإنا نرى بعد مدة حدوثَ التهابات وتغيرات في نسيج العصب ، ويتبع ذلك استمرار الحالة المرضية ، فيكون إذن ما حصل في العصب هو تغيرات مرضية فعلاً ، قد تكون بعيدة المدى ، لا مجرد اضطراب في وظيفته .

فالأمراض الجسدية أمراض لها أسباب متعددة متنوعة ، ونتيجتها إما اضطرابات في وظيفة العضو فقط ، وإما تغيرات في خلاياه وأنسجته وتكوينه وشكله . ويقال عن الأولى : أمراض وظيفية أو غير عضوية ، وعن الأخرى : أمراض عضوية . والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومن الأمراض ما هو وراثي ، ومنها ما هو خلقي نتيجة تغيرات في أثناء تكوين الجنين ، ومنها ما هو مكتسب ، أي حادث للانسان بعد الولادة وهو في كامل تكوينه ، كالحروق والإصابات والكسور والحميات وأمراض التغذية والغدد ذات الإفراز الداخلي والعدوى بالمكروبات والطفيليات وما شابهها .

والأمراض المكتسبة إذا ما أصابت الجسم بعد كمال نموه وتكوينه ، أي بعد سن العشرين ، فإنها لا تؤثر غالباً في تمام تكوين الجسم ونموه بعد شفائها . أما إذا أصابت الجسم في سن الطفولة ، أي في سن التكوين والنمو ، فإنها قد تترك أثراً أو عاهة أو تشويهات قد يبقى أثرها ظاهراً مدى الحياة .

ومن الأمراض ما يرجع إلى سبب شخصي ، أو استعداد شخصي ، من وجود حساسيّة عند بعض الناس بحيث يتأثرون بمادة من مواد الطعام ، أو بإفراز المكروبات ، أو باستنشاق بعض الروائح ، خصوصاً طلع الزهور ، مما قد لا يؤثر في غيرهم ، مما نسميه استهدافاً «Allergy» أو «Anaphylaxis» فقد نجد من يحدث عندهم السمك طفحاً جلدياً وأعراضاً معدية معوية عامة لا تحدث عند غيرهم ، ومنهم من يحدث عنده استنشاق رائحة مّا أو طلع الزهور ضيقاً في التنفس، أو نوازل أنفية حلقية ، أو احتقاناً في جفن العين ، إلى غير ذلك .

وهذا النوع من الأمراض غريب غاية الغرابة ، ويعتبر مجموعة من الأمراض تصيب بعض الأشخاص حسب استعدادهم ، وتتأتى من عدم موافقة صنف مّا من أصناف الطعام لشخص ما بالذات ، ممن عندهم استعداد وراثي أو مكتسب ، وحساسية خاصة نحو هذا الطعام ، مثل البيض أو السمك أو الجبن أو اللبن أو غيرها ، كما تحصل من حساسية خاصة نحو أشياء أخرى ، ولا تحدث هذه الأعراض لغيره . وهذا أول وجه من وجوه غرابتها . وتختلف الأعراض المرضية عند الذين لديهم هذه الحساسية ، فمنهم من تصيبه بالربو ، ومنهم من تصيبه بطفح في الجلد ، ومنهم من تصيبه بنوازل أنفية أو برمد أو باضطرابات هضمية . وهذا ثاني وجه من وجوه الغرابة ، فالسبب واحد في الجميع ، والآثار مختلفة في كل منهم عن الآخر .

وتأثير الوراثة أيضاً قد يكون مباشرة عن الأب أو الأم أو كليهما ، وقد يكون بالواسطة، أي عن أحد الأجداد من أول طبقة أو من طبقة أعلى . وإذا عرفنا أن لكل منا أربعة أجداد أقربين ، اثنان من الأب واثنان من الأم ، قدّرنا تأثيرالوراثة وتباينها. وقد لا يرث المرءُ المرض الذي يصيب نسله الذي ورثه منه ، وإنما يرث الاستعداد فقط ، فقد تكون أعراض المرض عند المورّث الربو ، وتكون أعراضه عند الوارث طفح الجلد أو غيره . وإذا تعددت الورثة فقد يكون نصيب أحدهم الربو ، وثانيهم تقلصات الأمعاء ، وثالثهم رمد الربيع ، والآخر غير ذلك . وهذا ثالث وجه من وجوه الغرابة .

فالأسباب كثيرة ، والأعراض متغايرة متباينة ، قديكون تغايرها وتباينها لاختلاف الأسباب ، كما قد يكون لاختلاف الاستهداف والاستعداد الشخصي .

وما ذكرناه للآن من اختلاف أسباب الأمراض عامة ، واختلاف أسبابها ، واختلاف أنواعها ، لا يشمل كل ما يصيب النوع البشري منها ، وإنما يشمل بعض ما عرف منها ، وسيكشف العلم والبحث عن غيرها .

ولا يسعني إلا الإشادة بفضل الطب وفروعه ، لما نلمسه من النقص الواضح في الإصابة بكثير من الأمراض ؛ فقد اختفى بفضل الجهود العلمية كثير من الأمراض المعدية في بعض البلدان ، أو خفت ويلاتها ومضاعفاتها .

ولقد ظهرت بوضوح وجلاء في هذه الحرب الحالية سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ فائدة طرق الوقاية المختلفة ، إذ قلّت الإصابة بالأمراض المعدية وأمراض التغذية وغيرها في الجيوش المحاربة ، بفضل ما اتخذ من العناية بمقاومتها بمختلف الطرق ، كما ظهر بجلاء فوائد طرق العلاج الحديثة التي اكتشفت في عالم الطب بعد الحرب العالمية السابقة سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ .

سليمان عزمي

ذنوب الدّهر والشّعر العربيّ

للأستاذ بطرس البستاني ببيروت

يتميز الشعر العربي في مختلف عصوره بما بينه وبين الدهر من التحام مستمر يجتمعان فيه على عداء مستطير ، وقلما يجتمعان على صفاء . ذلك بأن الحياة الدنيا لا تخلو من الآلام والمصائب . ومن طبيعة الإنسان أن يتظلم ويشكو في محنته وحرمانه أكثر مما يشكر على النعمة ورغد العيش . فأصبح الدهر — بعد أن جعل مسؤولا عن الحوادث التي تطرأ على الناس — عرضة لشتائمهم ، ولا سيما الشعراء . فكان بين الشعر والدهر عداوة متوارثة ، ترجع بعهدها إلى العصر الجاهلي ، مذ انتقلت إلى العرب عقيدة الدهرية متحدة بالقضاء والقدر .

وكان هذا المذهب قد عرف في بلاد الفرس أيام يزدجرد الثاني (٤٣٨ — ٤٥٧ م) وغلب على مذهب الثنوية التي تقول بإله النور وإله الظلام ، فجعل الدهر المبدأ الأسمى ، والقدر الذي يتحكم في حظوظ الناس ، ويدبر شؤونهم على هواه . وقد لقيت هذه العقيدة أرضاً صالحة في بادية العرب ، فنمت بذورها على قحط الطبيعة ، فإذا الجاهلي شديد الاتكال على القدر ، لوجوده في صحراء بخيلة لا تدرّ له سوى القليل من خيرها ، فهو مضطر بحكم طبيعته أن يذعن لتلك القوة الخفية التي أطلق عليها اسم القضاء والقدر ، في ترحله المستمر وتعرضه للأخطار . وهو مضطر أيضاً أن يتوكل عليها في أخص ما يحتاج إليه : الماء والعشب ، ليؤمن حياته وحياة إبله : فلا يزال يترقب الغيث إلى أن يسقط ويروي جفاف أرض لا تغنيه مياهها إلا إذا فاضت الغدران والآبار . وقاده إيمانه بالقدر إلى أن يقصد الأصنام يستشيرها في عمل أو سفر ، مستقسما عندها بالأزلام . وإذ كان مستغرقاً في المادة ، خاضعاً لظواهر الطبيعة كل الخضوع ، لم يستطع أن يبتعد عنها في تصور القدر ، فأعطاه أسماء متشابهة كالدهر والزمان والأيام والليل والنهار فالدهر على اختلاف مرادفاته ونظائره ، هو الذي يتصرف في أحوال الناس ، وآجالهم ، يَسر ويُحزن ، ويحي ويميت . ولذلك كثر كلامهم على الدهر ، فأحالوا عليه جميع ما ينالهم من كدر وصفاء . فيقولون : أبادهم الدهر ، وأصابتهم قوارع الدهر وحوادثه ، ونام الدهر عنهم وصافاهم . قال أبو ذؤيب الهذلي :

أمن المنون وريبها تتوجعُ والدهر ليس بمعتب من يجزعُ

وأشار القرآن إلى عقيدتهم هذه بقوله : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر) . حتى إن الشعراء المسيحيين مع جحدهم عقيدة الدهرية المعطلة ، جعلوا للدهر وحدثانه نصيباً وافراً في شعرهم ، فاتهموه كما اتهمه سواهم دون أن يتحرجوا من إعطائه القدرة على تقليب مصاير الإنسان . فكأنهم أرادوا شيئاً يتشفون به من أرزائهم فلم يجدوا غير هذا الذي تعودوا أن يسمعوا شتمه من معاصريهم ، فساروا على خطتهم متمثلين فيه قوة خفية تبدل أيامهم من حال إلى حال . قال عدي بن زيد العبادي :

إنما الدهر لين ونطوحٌ يترك العظم واهياً مكسورا

ولم يكن الشعراء المسلمون أقل نقمة على الدهر من شعراء الجاهلية ، فقد ثاروا عليه ، ورموه بكل معرة ، وأثقلوا كاهله بأعباء حظوظهم وكوارثهم ، فما أنقذه منهم تأثم بعض رجال الدين من شتمه مستندين إلى حديث يروى عن النبي : « لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله » وفي رواية « فإن الله هو الدهر » .

ثم إن العادة المتبعة تقضي بمهاجمة الدهر ، فأباح الشعراء المسلمون لأنفسهم ذمه ، ومثلوا حظهم في دورانه كما مثله أسلافهم من قبل ، فبقي الدهر المنكود وسيلة لشفاء النفوس .

وكان من تتابع الحروب والمحن واستفحال الفقر والعوز أن تفاقم تذمر الناس على زمانهم ، فصاروا لا تحدث لهم حادثة إلا أضافوها إليه حتى غلب ذلك على كلامهم ، وتلوَّن به شعرهم ، ولا سيما الرثاء . ثم أصبح في بني العباس غرضاً مستقلا برأسه ، سموه شكوى الدهر أو الدهريات . فنشبت بينهم وبين الزمان حرب عوان، حشد فيها الشعراء جميع قواتهم الهجومية ، ولم يتخلف فيهم قعدي واحد عن القتال . وحسبنا منهم أبو تمام في مراثيه :

لقد نهش الدهر القبائل بعده بنابٍ حديدٍ يقطر السم عاندِ

وابن الرومي في تشاؤمه وحرمانه :

تباً لدهر أنت فيه مقدَّم ومرأَسُ

والمتنبي في طموحه وإخفاقه :

أطاعنُ خيلا من فوارسها الدهرُ وحيداً ، وما قولي كذا ، ومعي الصبرُ ؟

على أنهم كانوا يرجعون أحياناً إلى حقيقة الدهر ، فيعترفون بأن حوادثه لا تصدر

عن شخص مسؤول يستحق الهجو أوالثناء ، كما قال المتنبي :

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذما فما بطشها جهلا ، ولا كفها حلما

وتمتد هذه الحرب الطويلة بين الشعر والدهر إلى أيامنا هذه ، فيصلى شعراؤنا بنارها ، فمنهم من يتحدى الزمان بصبره وقلة مبالاته كما تحداه أبو الطيب ، ومن ذلك قول شوقي :

فاترعْ وناولْ يا زمان فإنما ندیمك سقراط الذي ابتدع السما
قتلتك حتى ما أبالي أدرت لي بكأسك نجماً ، أم أدرت بها رجما

وقول الصافي النجفي :

خسئ الدهر كم تصدى لحربي ثم ولى وفيه مني جراحُ

ومنهم من يضن عليه باللوم لأنه لا يعقل ، فيمر بحوادثه كما مر ميخائيل نعيمة :

والدهر ذوالعجائبِ وباعث النوائب
وخانق الرغائبِ لا يفهم الخطابْ
سيري ولا تعاتبي

بيد أن التجديد الذي انتهى إليه الشعراء المحدثون في لبنان قطع ما بينهم وبين الخيال القديم والصور الموروثة . فليس القدر عندهم بمعنى الدهرية الملحدة ، ولا هو القضاء المحتوم الذي أنكرته القدرية والمعتزلة في الإسلام ، وإنما يعني تعاقب الحوادث اضطراراً دون أن يكون هناك قوة غيبية تتحكم فيها وتسيرها . وخفت الحملة على الدهر في شعرهم ، فصاروا يذكرونه كبرهة من العمر تمرّ بهم وتتلوها برهة أخرى ، أيام وأحداث تدول وتتجدد ، لا تدعو إلى اليأس والنقمة ، ولا إلى اللوم والذم . قال إلياس أبو شبكة :

وكم نكر الزمان علي حقاً وكم في الزمان وما فنيتُ

وقال صلاح لبكي :

رث الزمان وألوى وظلت غضاً مجسي

ويقيناً إن الشعر العربي قد مل من هذه الحرب التقليدية . أفلم يأن لها أن تضع أوزارها وترفع التبعة عن الدهر المسكين ! . .

بطرس البستاني

الديمقراطية في الأمم الديمقراطية

للأستاذ سلامة موسى

للأمم الديمقراطية سمات كثيرة .. تميزها مثلاً من الأمم الفاشية أو الدكتاتورية . ومن حقنا في مصر والشرق العربي أن نعرف ما يبرز من هذه السمات ، كي نقف على الأسباب والأصول التي ينبني عليها رخاء هذه الأمم ، سواء أكان اقتصاديا أم اجتماعياً أم ثقافياً . ومن الظواهر الواضحة في أوربا، أن الأمم الصغيرة تسبق الأمم الكبيرة في النزعات الديمقراطية والأنظمة الشعبية التي تخدم السواد الأكبر وتعمل للمساواة والحرية . ففي سويسرا والسويد والدنمرك ونروج وفنلندا نجد أن الاتجاهات الديمقراطية الدستورية والاقتصادية تتجاوز نظائرها في الأمم الكبيرة مثل بريطانيا أو فرنسا . ولا نذكر بالطبع هنا ألمانيا أو إيطاليا لأنهما رزحتا تحت حكم فاشيّ سنين كثيرة . وهو حكم حاول بطرق متعددة القضاء على جميع الأنظمة الديمقراطية . وأعظم السمات الديمقراطية تجنب التفاوت الكبير أو الإفراط في التفاوت ، سواء أكان هذا من الناحية الاقتصادية أم من أية ناحية أخرى . فالدولة الديمقراطية تهدف إلى المساواة ، فإذا وجدت ما يعوقها هدفت إلى ما يقاربها من حال تجعل فيها الفقراء يحصلون على فرص التعليم التي يحصل عليها الأثرياء ، أو تجعل العمال يعيشون في رفاهية تقارب الرخاء الذي يعيش فيه الأثرياء .

وجميع هذه الأمم الديمقراطية الصغيرة ، على الرغم من قلة مواردها ، بل على الرغم من أنها لا تملك مستعمرات وليس لإحداها نفوذ عالمي يفتح لها الأسواق أو يميزها بالمواد الخامة ، تعيش في رخاء ورفاهية لا تحصل على مثلها الأمم الكبيرة . مثال ذلك أن فرنسا دولة إمبراطورية تملك المستعمرات في إفريقيا وآسيا ، وتجاورها دولة صغيرة هي سويسرا ليس لها مستعمرات وليس لها مقام عالمي كبير . ومع ذلك يزيد المستوى الاقتصادي بين السويسريين عليه في فرنسا . وكذلك تزيد فرص التعلم ، بل تزيد السعادة العامة كذلك بين السويسريين عليها بين الفرنسيين ، وكذلك الشأن في المقارنة بين الدنمرك وبريطانيا العظمى . ومن هنا يتضح أن المستعمرات التي تستمتع بها فرنسا وبريطانيا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا (سابقاً) لم تخدم شعوب هذه الأمم في زيادة رفاهيتها . وإنما هي خدمت وما زالت تخدم بعض الأسر دون سواد الشعب . وربما

لا تزيد هذه الأسر المنتفعة بالمستعمرات على واحدة في المئة ، بل ربما واحدة في الألف من مجموع السكان .

السويد

انظر مثلاً إلى دولة شمالية هي السويد . فإن هذه الدولة لا تملك أية مستعمرات في إفريقيا أو آسيا . وهي تستمد ثروتها من غاباتها التي نعرف منها الخشب السويدي ، ومن مساقط المياه من جبالها التي تستخدمها في توليد القوة لإدارة مصانعها وإنارة مدنها ، وأخيراً من تبر الحديد الذي تستنبطه بمشقات كبيرة من المناجم ، وليس فيها من الزراعة ما يؤبه له ، ولكنها استطاعت أن توجد المصانع العظيمة لصناعات كثيرة حديثة .

ففي هذه الدولة الصغيرة نجد أن الحكومة مجندة لخدمة الشعب ، سواء أعنينا المركزية أم ما نسميه « الحكومة المحلية » التي تقوم بها المجالس البلدية . فالانتخاب للبرلمان يجري على الطريقة النسبية . أي أن كل حزب يحصل على مقاعد في البرلمان بنسبة ماحصل عليه من مجموع الأصوات في الأمة كلها . وهذا النظام النسبي يتيح للأقليات الحزبية الحصول على مقاعد برلمانية لم تكن لتحصل عليها لو كان النظام قائماً على الانتخاب المستقل في كل دائرة على حدة . فإذا كان هناك مثلاً مئة دائرة انتخابية ، ومتوسط الأصوات التي يجب أن يحصل عليها الفائز في الانتخاب هو ٣٠٠٠ صوت في كل دائرة ، وإذا كان في جميع هذه الدوائر مرشحون لحزب ما لم يحصل أحدهم إلا على متوسط يبلغ ألف صوت فقط في كل دائرة ، فإن هذا الحزب بالطبع يسقط في الانتخابات التي تجري على النظام المستقل ، كما هو الشأن عندنا في مصر ، ولا يكون له من يمثله في البرلمان ، ولا عضو واحد . ولكن النظام النسبي في السويد ينصف هذا الحزب ويجمع له مئة ألف صوت من جميع الدوائر ، باعتبار أنه كسب ألف صوت في كل دائرة . ثم يكون له الحق في ٣٣ نائباً في البرلمان باعتبار أن الفوز يحتاج في المتوسط إلى ٣٠٠٠ صوت .

فنحن نرى هنا سمة ديمقراطية هي العناية بإنصاف الأقليات الحزبية ، لا نجد ما يضارعها في الأمم الكبيرة . وبديهي أن هذا النظام النسبي لا يتيح لحزب ما أن يحصل على أكثرية عظيمة ساحقة . ولهذا السبب تؤلف الوزارات عادة من أحزاب مؤتلفة ، وتراعى جميع مصالحها التي تمثل مصالح الشعب .

وسمة أخرى تمتاز بها الأمم الصغيرة هي التوسع في الحكومة المحلية ، أي التوسع في

حقوق المجالس البلدية . فالمجلس البلدي في أستكهلم ، العاصمة السويدية ، برلمان كبير عظيم الموارد متعدد الواجبات والحقوق . وهو يقوم بعمل ما أحرانا بأن ندرك مغزاه في القاهرة أو غيرها من المدن ؛ إذ هو يمنع المضاربة في أرض البناء ، وهو بهذا المنع يجعل الأرض رخيصة فيزيد الإقدام على البناء ، ولا يقف غلاء الأرض حائلاً دون الإقبال على زيادة المساكن . وكل ما يعمله هذا المجلس أنه يشتري لنفسه جميع أرض الضواحي التي يمكن أن تبنى في مستقبل منظور ، وهو يشتريها بأثمانها الزراعية ، لأن أصحاب هذه الأرض يجدون أن أمل البناء بعيد، ثم هو يبنيها أو يبيعها بأثمان معتدلة بل رخيصة لمن يرغب في البناء . وعلى هذا النظام قد أصبح المجلس البلدي في أستكهلم يملك ٨٠ في المئة من أرض الضواحي ، كما يملك ٣٣ في المئة من المساكن في أستكهلم . وبديهي أن هذا النشاط لا يهدف إلى الكسب أو الاستغلال المالي الجائر ، لأن الغاية الأولى هي خدمة السكان بمساكن قد بنيت على مبادئ الصحة والرفاهية . وفرق كبير بين مسكن يبنيه تاجر للإيجار والاستغلال وبين مسكن آخر يبنيه المجلس البلدي للخدمة العامة .

وهذا المجلس البلدي نفسه يقوم في الأزمات الاقتصادية بخدمات رائعة للشعب ، ففي سني الأزمة بين ١٩٣٠ و ١٩٣٣ عمت العالم المتمدن موجة من التعطل ، فعمد هذا المجلس إلى إرصاد مليون جنيه لاستخدام العمال المتعطلين في المنشآت والمباني ، بل إن الحكومة المركزية نفسها في تلك السنين تعمدت أن لا تتوازن الميزانية ، بل كانت تنفق أكثر من إيراداتها كي تكافح التعطل . وذلك بالتوسع في المرافق العامة .

وكي نقف على الاتجاه الذي يتجهه مجلس بلدي لمدينة صغيرة في السويد يجب أن نذكر مدينة جوتنبرج التي يبلغ سكانها ٢٦٠ ألفاً ، فإن المجلس يستخدم مئة طبيب لكفالة الصحة العامة فى هذه المدينة . ومن هذا المثل يتضح أنه ليس في جوتنبرج ثمن للشفاء ، لأن جميع المرضى يحصلون عليه بالمجان أو ما يقارب المجان في المستشفيات والمستوصفات.

ومما تتسم به الأمم الديمقراطية نزوعها — كما ذكرنا — إلى مكافحة التفاوت بين الفقراء والأثرياء ، ولذلك تثقل الضرائب على الأثرياء وتزيد كلما زاد الدخل . بل هناك في هذه الأمم تمييز بين الدخل المكسوب والدخل غير المكسوب ، فإذا كان هناك مثلاً موظف في إحدى الشركات أو في الحكومة يتناول مرتبا قدره ٥٠٠ جنيه في السنة ثم في الوقت نفسه يتناول مثل هذا المبلغ من مال موروث ، فإنه يؤدي من الضرائب على هذا المال الموروث (غير المكسوب) أكثر مما يؤدي على المبلغ الذي يحصل عليه بخدمته وتعبه . ولذلك فإن الضرائب تجري على هذا النسق :

إذا كان الدخل المكسوب ١٠٠ جنيه فالضريبة ٥ في المئة .
وإذا كان الدخل غير المكسوب ١٠٠ جنيه فالضريبة ٩ في المئة .
وإذا كان الدخل المكسوب ١٠٠٠ جنيه فالضريبة ١٦ في المئة .
وإذا كان الدخل غير المكسوب ١٠٠٠ جنيه فالضريبة ٣٢ في المئة .
وإذا كان الدخل المكسوب ٥٠,٠٠٠ فالضريبة ٤٠ في المئة .
وإذا كان الدخل غير المكسوب ٥٠,٠٠٠ فالضريبة ٦٧ في المئة .

وهذه الأرقام قد أخذناها عن السنين التي سبقت الحرب . أما في مدة الحرب فلا بد أنها زادت كثيراً . ولذلك نجد أن الفرق بين الفقير والثري ليس كبيراً ، فإن الكناس في السويد يبلغ مرتبه في السنة ٢١٠ من الجنيهات ، ومدرس المدرسة الابتدائية يبلغ مرتبه ٣٨٤ جنيهاً ، وأستاذ الجامعة ٧٣٥ جنيهاً ، والوزير ١٣٠٠ جنيه ، أي أن مرتب الوزير لا يزيد على ستة أمثال مرتب الكناس الذي يعمل في المجالس البلدية .

سويسرا

ولو كان للمثل الحسن قيمة من حيث الاقتداء به واتخاذ أساليبه ، لكان يجب على الأمم الديمقراطية في أوربا أن تقتدي بسويسرا ، فإن السويسريين لا يزيدون على أربعة ملايين ، وهم من اختلاف اللغات والمذاهب بل السلالات ، بحيث كنا ننتظر بينهم — باعتبار ما نجد في أمم العالم الأخرى — الشقاق بل الحرب الأهلية . فإن حروباً أهلية نشبت في أمم أخرى لأقل من هذه الاختلافات ، ولكن السويسريين سعداء يعيشون في وئام عجيب ، والحكومة تعترف بأربع لغات رسمية ، وهناك نحو عشرين مذهباً تعيش جنباً إلى جنب في تسامح ، بل في ألفة يغبط عليها المؤمنون بها .

والشعب السويسري من سلالات مختلفة . ففي الشمال والشرق نجد السلالة النوردية التي كان يفخر بها هتلر ، واللغة هنا ألمانية ، وفي الغرب نجد السلالة الألبينية التي يمتاز أشخاصها بالقامة القصيرة والوجه المتكتل والرأس المستدير ، واللغة هنا فرنسية ، وفي الجنوب نجد السلالة الميدترانية التي ينتمي إليها سكان حوض البحر المتوسط ، واللغة هنا إيطالية . وثم عدد من السكان يبلغون بضعة عشر ألفاً يتكلمون لغة أولغية رومانية ، يقيمون في الجنوب ، لم تبخل الحكومة السويسرية عليهم بالاعتراف الرسمي بلغتهم .

وتكاد المذاهب الدينية الأوربية جميعها تجد المجال الحيوي في سويسرا . ومع هذا الاختلاف في السلالة والدين واللغة وما يستتبع هذا من اختلاف في العواطف والميول

نجد السويسريين راضين عن أنفسهم مطمئنين إلى حكومتهم الاتحادية . ولما شبت الحرب الكوكبية الأولى ، ثم تلتها الحرب الكوكبية الثانية ، توجس كثيرون من الساسة من موقف سويسرا ، فإن الأكثرية من السكان في الشرق والشمال من الألمان ، وكان يخشى أن ينضموا إلى ألمانيا في هاتين الحربين أو يؤثروا في الحكومة السويسرية حتى يحملوها على اتخاذ موقف معين ، تلحظ فيه المراعاة أو المحاباة لألمانيا ، كما أن هناك الفرنسيين في الغرب والإيطاليين في الجنوب ، ولكل منهما عواطف سياسية قد أثمرتها اللغة وأحياناً العقيدة . ولكن هذا التوجس لم يكن قائماً على أساس ، لأن سويسرا بقيت في هاتين الحربين كالجزيرة الهادئة وسط بحر مصطخب وزوابع هوج ، لأن سكانها عرفوا قيمة النظام الديمقراطي الذي يعيشون في أمنه وطمأنينته، ورفضوا أي اشتباك سياسي أوحزبي قد يؤدي في النهاية إلى زعزعة هذا النظام .

وتربط السويسريين ، على اختلافاتهم المتعددة ، رابطة واحدة هي الحرية . ويكفل هذه الحرية نظام ديمقراطي يختلف عن النظم الديمقراطية في الدول الكبرى ، ويشبه في أساسه نظام أثينا قبل ألفي عام ، ذلك أن الشعب نفسه يجتمع في القرية ويقرر لون الحكم لمدة أربع سنوات كما سنرى . والمقياس المالي من أحسن المقاييس ، لأنه يدلنا على حال المجتمع من حيث إنه ثمرة هذا النظام . ونعني بالمقياس المالي حال الأجور والمرتبات ، ففي سويسرا نجد أن المرتبات ، كما كانت قبل الحرب الكوكبية الثانية ، تجري على هذا النسق :

المرتب السنوي للكناس في المجلس البلدي	٢٢٣ جنيهاً
أعلى مرتب سنوي لموظف المجلس البلدي	٦٣١ جنيهاً
المرتب السنوي لمعلم في مدرسة ابتدائية	٣٥٤ جنيهاً
المرتب السنوي للأستاذ في الجامعة	٦٢٠ جنيهاً
المرتب السنوي للمستشار في محكمة عليا	١٢١٤ جنيهاً
المرتب السنوي لمدير الموظفين	٧٢٦ جنيهاً
المرتب السنوي للوزير	١٦٠٠ جنيه

ومعنى هذا أن مرتب الوزير يبلغ سبعة أمثال مرتب الكناس فقط . ونفهم من هذه المقارنة أن للكناس في سويسرا شخصية محترمة لا تتدنس باضطرار الفاقة التي تجلب القذر والحرمان والضعة . لأن مرتبه الشهري يقارب عشرين جنيهاً ، وهذا مبلغ يتيح له أن يعيش بعزةٍ وكرامة .

وهذه المقارنة تبين لنا اتجاه الحكومة السويسرية نحو التخفيف من الفروق في

المرتبات بين موظفي الدولة ، وهي بالطبع لا تستطيع أن تتدخل في الثروات الفردية إلا بالضرائب . ومبدأ الضرائب التصاعدية عام في جميع الأمم الديمقراطية كبيرها وصغيرها ، كما أن ضريبتي الموت والأيلولة تحول دون تراكم الثروات في العائلات وتمنع التمييزات الميلادية لأبناء الأثرياء ، أي تمنع التطرف الفاحش في هذه التمييزات ، فكأن الحكومة الديمقراطية تتجه نحو المساواة الاقتصادية ، فإذا لم تحققها عمدت إلى التقريب بين الطبقات بمنع الثراء الفاحش . اعتبر هذا مثلاً في رجل إنجليزي يبلغ دخله السنوي خمسين ألف جنيه ، فإن الحكومة الإنجليزية تحصّل منه ضريبة على هذا الدخل تبلغ ٤٥٤٢٤ جنيهاً أي تترك له أقل من خمسة آلاف جنيه (١٩٤١ — ١٩٤٢) .

وتحرص الحكومات الديمقراطية في جميع العالم على توفير السكنى الحسنة بمنع المضاربة في الأرض أو احتكارها . فالمجلس البلدي في زوريخ مثلا يملك ثلث المساحة في هذه المدينة كما يملك ثلاثة آلاف فدان تحيط بها ، وهو يبيعها بالأثمان اللائقة للمباني أو يبنيها هو بنفسه ، وهو بهذا العمل يمنع الثراء الفاحش من ناحية كما ييسر البناء من ناحية أخرى ، وأساس الحكومة في سويسرا هو « الكومين » أي القرية التي يتولاها عمدة. وفي مصر نحو ٤٠٠٠ قرية . وفي سويسرا نحو ٣٠٠٠ قرية . ولما كان سكان سويسرا أربعة ملايين فقط ، فإنه يتضح من هذه الأرقام أن القرية السويسرية أصغر من القرية المصرية .

ونظام الحكم في القرية السويسرية أثيني ، أي يشبه ما كان يجرى في أثينا قبل ألفي عام ، فإن جميع البالغين في القرية ممن بلغوا العشرين عاماً يجتمعون مرة كل أربع سنوات لاختيار العمدة ووكيله ، ولهذين الاثنين الحق في أن ينفقا على شؤون القرية أيَّ مبلغ لا يزيد على ألف فرنك (الآن نحو ٦٥ جنيهاً) ، أما إذا احتاجا إلى أن ينفقا مبلغاً أكبر من هذا ، فإنهما مضطران إلى عقد اجتماع خاص من سكان القرية البالغين للحصول على تصديقهم . والعمدة ووكيله يمثلان الهيئة التنفيذية ، ولهما أن يعينا لجاناً من السكان للإشراف على شؤون القرية وإدارتها كمثل القضاء للصلح وإطفاء الحرائق ومعونة الفقراء وإقامة المنشآت والصحة والتعليم وجباية الضرائب المحلية . ومن هذا النظام نفهم أن للقرية نظاماً نيابياً ، أي أنه ليس لها برلمان ينوب عن السكان ، لأن السكان أنفسهم هم البرلمان ، وإنما يسهل هذا للقرية السويسرية لأن سكانها قليلون ، وكذلك كان الحال في أثينا قبل ألفي عام . وفي سويسرا ٢٥ كنتوناً ، والكنتون عندهم يشبه المركز عندنا ، وهو يصل بين القرية وبين الدولة . وليس في سويسرا « مديريات » كالتي عندنا .

والحكومة المركزية للدولة تتألف من مجلسين أحدهما «المجلس الوطني» والانتخاب فيه نسبي مثل السويد ونروج ، والآخر يسمى مجلس الدولة ، وهو يمثل الكنتونات لكل كنتون عضوان .

وإذا اختلف المجلس أرسل موضوع الاختلاف إلى جميع الأفراد البالغين في الأمة السويسرية كلها لاستفتائهم . وقد كانت الكنتونات الخمسة والعشرون مستقلة استقلالا يكاد يكون تاماً لكل منها قانونها الخاص ، ولكن في سنة ١٩٣٨ وضع قانون عام للعقوبات لسويسرا كلها فاختلف فيه المجلسان ، فاستفتيت الأمة فيه وقبلته بأكثرية صغيرة دلت على أن هذه الكنتونات تغار على استقلالها وتحتفظ به .

الدنمرك

الكلام عن الدنمرك لا يستوفيه كتاب ضخم . وكل ما فيها يجب أن ينبهنا نحن المصريين ، ففي مدينة صغيرة مثل نيكوبنج لا يزيد سكانها على خمسة آلاف ، نجد ثلاث جرائد يومية . وبديهي أن هذه الجرائد لا تنشر أخباراً فقط ، إذ لو فعلت ذلك لكف الناس عن قراءتها لتكرر المواد فيها ، ولكن هذه الجرائد في مدينة صغيرة مثل نيكوبنج إنما تعيش لأنها منابر حرة للآراء الحرة ، فهي سمر ومناقشة وأدب وعلم وسياسة واجتماع ، فالقارئ في هذه القرية الصغيرة يجد فيها المدرسة المنيرة التي تواليهم بالنور والمعرفة ، أما جرائد الأخبار في العادة كبيرة تصدر في المدن الكبرى ولها مراسلون في أنحاء العالم .

والسمة البارزة في الدنمرك هي سمة التعاون . ولكن قبل أن نذكر التعاون الذي عمم الثراء والسعادة بين الشعب الدنمركي ، يجب أن نذكر شيئاً اخترعته الدنمرك ، هو تعليم الفلاحين والعمال وأبناء الشعب عامة من الجنسين تعليماً عالياً ، فإن المألوف في مصر أننا نخص الفقراء بالتعليم الإلزامي أو الابتدائي ، والمعارف التي يحصل عليها المتعلم في هاتين المدرستين قليلة جداً ، ثم يخرج أبناء الفقراء من هذه المدارس وقد جهلوا الثقافة العالية ، ويستمر جهلهم إلى وفاتهم . ولكن في الدنمرك تجري الآن الحال على غير ذلك ، فقبل نحو مئة سنة كان يعيش هناك رجل يدعى جرونتفيج ، رأى هذه الحال التي تشبه ما هو قائم عندنا الآن ، فأسس ما يسمى « المدارس العالية الشعبية » وجعل قواعد التعليم فيها تنهض على الأسس التالية :

١ — أن تكون غاية هذه المدارس غير « عملية » بمعنى أنه لا يقصد منها تعليم حرفة أو التمهيد في صناعة ، بل تكون مدارس للحياة تكسب الطالب قيماً سامية ذهنية ونفسية وفنية تجعله يستمتع بالحياة والاستمتاع الروحي .

٢ — هذه المدارس داخلية يعيش فيها الطلبة مع عائلات الأساتذة في بيت واحد يأكلون على مائدة واحدة .

٣ — الطالب يدخل متطوعاً دون امتحان ويتركها دون امتحان ، لأن الغاية الوحيدة ترقية شخصيته ببسط آفاق ذهنية جديدة له .

٤ — يتعلم الطالب تلك المواد التي تبسط له القيم الإنسانية والواجبات المدنية والأماني الروحية ، كالفلسفة والعلوم واللغة والأدب والتاريخ .

٥ — يهدف التعليم فيها إلى البناء لا إلى الانتقاد .

والطلبة والطالبات يفدون إلى هذه المدارس في أي سن ، ويؤدي الطالب جنهاً كل أسبوع ، ومصروفات الطالبة أقل من هذا المبلغ الذي يدخل فيه التعليم والطعام والمأوى . ويقضي الطالب خمسة أشهر في الشتاء والطالبة ثلاثة أشهر في الصيف ، وقد روعيت هذه الأوقات لأنها تتفق وقلة العمل في الريف بالنسبة إلى الجنسين . وفي الدنمرك من هذه المدارس أكثر من أربعين مدرسة ، والحكومة تؤدي إعانات مالية لها . ولكنها ، كما رأينا ، ليست بالمجان . فالفلاح في الدنمرك يترك معزقته أو منجله ، والفلاحة تترك بقرتها أو زهورها ، ويقصد كل منهما إلى هذه المدارس كي يتعلما الفلسفة والعلوم والفلك والكيمياء والسياسة الأوربية .

وإذن نحن نرى هنا سمة ديمقراطية تستحق التفكير .

وسمة ديمقراطية أخرى تستحق أيضاً التفكير ، هي التعاون الزراعي .

وأصل هذا التعاون أن الدنمرك وجدت حوالي ١٨٧٠ أن أستراليا وكندا وبعض أقطار أمريكا التي تمتاز بالمزارع الواسعة ، تستطيع أن تمون أوربا بالقمح بأثمان منخفضة لا تستطيع الدنمرك أن تباريها فيها ، فعمد المزارعون إلى ترك زراعة القمح ، وجعلوا مرتكز اهتمامهم في إنتاج اللحم والبيض والجبن والزبدة ، أي أنهم تركوا الزراعة المستفيضة الخفيفة إلى الزراعة المركزة المحتكرة التي تحتاج إلى الأيدي العاملة الكثيرة ، والذكاء المدرب أكثر مما تحتاج إلى الأرض الواسعة . فالفلاح الدنمركي يربي الدجاج أو الخنازير أو العجول ، ويصنع الجبن ، ويبيع كل هذا بالرطل ، وقد ترك القمح الذي كان يبيعه بالطن ، ولم ينجح في هذا الانقلاب إلا بفضل التعاون .

انظر إلى التعاون الخاص باللبن ومشتقاته :

في الدنمرك ١٤٠٠ ملبنة يشرف على كل منها مدير متخصص بصنع الزبدة والجبن ، وهو يحصل على مرتب يعلو على مرتب رئيس الوزارة . وقد نجحت هذه الملابن في صنع

الجبن الممتاز الذي كانت تتخصص به فرنسا، وصارت فرنسا نفسها تستورده من الدنمرك.
وإليك مثلا من ملبنة تعاونية :

هنا ١٤٥ مزارعاً يترجح ما يملك كل منهم بين ٥ و ٥٠ فداناً ، ويملك كل منهم في المتوسط ثماني بقرات حلوب ، فمجموع ما يملكون نحو ١١٠٠ بقرة ، وهم أو معظمهم يربون أيضاً الخنازير إلى جنب البقر . وقد أسس هؤلاء المزارعون « جمعية تعاونية » ، ثم استقدمت هذه الجمعية خبيراً في صنع الجبن بأنواعه العالية التي تجد الأثمان العالية في أسواق العالم كله . وأسس هذا الخبير المصنع الذي يرسل كل صباح عربته إلى هؤلاء المزارعين فيجمع منهم اللبن ، ثم تعود العربة إلى كل منهم في بيته فترد له المخيض ، وقد لايمضي بين أخذ اللبن ورد المخيض أكثر من نصف ساعة ، والمزارع يحتاج إلى المخيض كي يخلطه بالنخالة أو الدقيق ويغذي به الخنازير ، وثمن هذا المخيض يقتطع من ثمن اللبن.

والجمعية تجتمع مرة كل سنة ، ولكل عضو صوت مهما يكن عدد ما يملك من البقر ، والربح يوزع على الأعضاء بنسبة ما قدم كل منهم من لبن قد أحيل إلى أنواع مختلفة من الجبن . وهناك جمعيات تعاونية للدجاج والبيض (الذى يباع بالوزن وليس بالعدد ، وذلك كي يتوخى الفلاحون الدجاج الذي يبيض البيض الكبير) .

وفي الدنمرك ٢٠٥ آلاف مزارع ، كل منهم يزرع أرضه ما عدا ٦ في المئة يؤجرون أرضهم . وقد كانت الجمعيات التعاونية في سنة ١٩٣٣ تزيد على ٨ آلاف جمعية بلغ أعضاؤها في تلك السنة ٦٦٢ ٩٦٢ عضواً ، وهذا عدد غير صغير إذا تذكرنا أن سكان الدنمرك كلهم يبلغون ٦٠٦ ٥٥٠ ٣ .

وليس في الدنمرك ثراء فاحش ، فإن المزارعين الذين زاد دخل كل منهم على ألف جنيه في ١٩٣٠ لم يزيدوا على ٢١٤ مزارعاً . ومرتب الوزير في الدنمرك ٩٠٠ جنيه، ومرتب الكناس في المجلس البلدي ١٥٠ جنيها ،ولكن مرتب الخبير الذي يشرف على مصنع الجمعية التعاونية لتحضير لحم الخنزير يبلغ ألف جنيه .

وللتلخيص نقول : إن الديمقراطية الدنمركية تمتاز بميزتين : هما مدارس الشعب العالية وجمعيات التعاون . الأولى حققت الرخاء الذهني والثانية حققت الرخاء المادي .

سلامة موسى

مجاعة الفحم في أوربا

للأستاذ إبرهيم إبرهيم يوسف

لعل الحلفاء لم يواجهوا بعد استسلام ألمانيا مشكلة في أوربا أعقد من مشكلة الفحم ، تلك المشكلة التي لا يقتصر خطرها على اقتصاديات الشعوب الأوربية فحسب ، بل يتعداها إلى النواحي الاجتماعية والسياسية . وقلَّ أن تنجو أمة من الأمم المتحدة من آثار هذه المشكلة ، التي قد تكون قوية أو ضعيفة ، وفقاً لما يستغرقه حلها من زمن ، وتبعاً للصلات الاقتصادية والاجتماعية وللعلاقات السياسية التي بين كل من هذه الأمم وبين الشعوب الأوربية .

ومن بشائر الخير أن نرى الحكومة البريطانية عازمة على أن تشرف إشرافاً فعلياً على مناجم الفحم في منطقة الرور ، وذلك إلى أن يتم إنشاء هيئة دولية يشـــترك فيها البريطانيون وممثلو روسيا وفرنسا وأمريكا ، فتتولى الإشراف المباشر . وأغلب الظن أن فرنسا لا تعارض في ذلك ، إذ المعروف أنها ألحت في طلب وضع منطقتي الرور والرين الألمانيتين تحت إشراف دولي .

وحين تواجه هذه الهيئة الدولية الجديدة مشكلة الفحم في منطقة الرور ، ستجد أن لا مناص لها من النظر في مشكلة الفحم في أوربا عامة . وعندئذ يتاح لها التثبت من أن أسباب مجاعة الفحم في أوربا هي : (١) كثرة ما فيها من مناجم مهدمة تهديماً كلياً أو جزئياً ، (٢) النقص المروع في عدد عمال مناجم الفحم المهرة ، (٣) الصعوبات التي تواجه مشكلة النقل في كل رقعة من أوربا . وقد لا يستبعد أن تنقلب هذه المجاعة يوماً إلى كارثة اقتصادية تلازمها كارثة أخرى اجتماعية ، ويتبعهما أزمة أو أزمات سياسية خطيرة .

ولعله لا توجد عظة أبلغ ، ولا درس أفيد مما هو واقع في أوربا اليوم . وما أجدرنا بأن نتعظ ونستفيد ، ما دمنا نبغي إصلاح ما فسد . وإنه لواضح لنا كل الوضوح أن لا إنتاج للصلب على أساس واسع النطاق بدون فحم ، وأن لا إنتاج لآلات أية صناعة إنتاجية بدون صلب ، وأن لا إنتاج للسلع التي يحتاج إليها الناس بدون مصانع .

وهكذا يبقى الملايين من الناس في أوربا عاطلين عن العمل ما دام الفحم غير ميسور . وهذا هو الواقع .

وبينما هذا قائم نرى أن مشكلة النقل قد تحرجت إلى حد بقيت معه أكداس من البضائع والمواد الغذائية حيث هي متراكمة بعضها فوق بعض في ناحية أو أكثر من نواحي أوربا ، في حين يتنسم ريح تلك المواد الغذائية وهاتيك البضائع الضرورية غالبية مطلقة من سكان أوربا . ولا يمكن بحال من الأحوال حل تلك المشكلة إلا إذا توافرت القطارات والسيارات وكل أداة من أدوات النقل وكل وسيلة من وسائله . إلا أن صنع مهمات السكك الحديدية ، وكذلك صنع كل جزء من أجزاء السيارة متوقف على إنتاج الصلب . وهكذا يتبين أنه لا يمكن الاستغناء عن الفحم بحال إذا ما أريد إنتاج أدوات النقل . هذا فضلا عن أن القطارات تسير بالفحم .

واليوم ونحن في صميم الشتاء ، والحاجة تشتد يوماً بعد يوم في أوربا كلها إلى مواد الوقود للتدفئة ، نجد أن الكميات التي تحتاج إليها بلاد شمال أوربا وغربها حتى نهاية شهر أبريل عام ١٩٤٦ هي ٦٠ مليون طن من الفحم . إلا أن الكمية التي يمكن الحصول عليها هي أقل من ذلك بكثير . ذلك لأن ما تنتجه المناجم الألمانية الواقعة في منطقة الرور يقدر بنحو أربعين مليون طن . ولا ينتظر أن تزداد هذه الكمية ازدياداً ملحوظاً قبل نهاية الشتاء . وقد تنتج فرنسا نحو ١٨ مليون طن . أما بلجيكا فيقدر ما يمكن أن تنتجه بنحو ٨ ملايين من الأطنان . كما أنه لا يزيد إنتاج هولندا على أربعة ملايين طن من الفحم .

وكانت نهاية الحرب في الباسفيك ، ضد اليابان ، قد عززت الأمل في مضاعفة المعونة التي تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية للدول الأوربية ، غير أن هذه الآمال قد انهار أغلبها حين اقترح المستر هارلد إكس ، وزير الداخلية الأمريكي آنئذ ، أن تبعث الولايات المتحدة بنحو ٨ ملايين طن من الفحم إلى أوربا ، ولاقى رأيه هذا معارضة شديدة في الدوائر الأمريكية المحلية . ومهما يكن من أمر فمعونة قدرها ثمانية ملايين طن من الفحم لا تقدم ولا تؤخر كثيراً في حل مشكلة الفحم في أوربا .

ورغم هذا كله فمجاعة الفحم هذه ليست من المسائل الميؤوس من حلها ، ولا يصح الاستسلام إلى التشاؤم حين يعرض لحلها . والواقع أن منظمة الفحم التي أسست في لندن في شهر يونية من سنة ١٩٤٥ ، تسعى جهدها لحل المشكلة ، رغم أن الدول المعنية بالأمر لم تشترك بكاملها في هذه المنظمة ؛ إذ لا وجود فيها لغير ممثلي الولايات المتحدة

الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا واليونان والنرويج والدنمرك وهولندا ولكسمبرج وتركيا . ولم تشترك فيها روسيا السوفيتية ولا بولونيا . أما تشكسلوفاكيا ويوغسلافيا فقد اكتفتا بتعيين مراقبين فيها .

وبينا تعمل هذه الهيئة الدولية على حل أعقد مشكلة اقتصادية تواجه أوربا منذ نهاية الحرب ، نجد أن الخلافات السياسية القائمة بين بلاد شرق أوربا وغربها لما تسوَّ ، بل إنا لنرى أن المسائل الاقتصادية ، وأهمها مشكلة الفحم ، لم تلق عندهم الاهتمام والتقدير اللائقين بها .

ورغم هذا وذاك فإن الدول الواقعة إلى الشمال الغربي من أوربا تتوقع استيراد فحم من الولايات المتحدة ومن بريطانيا العظمى ومن اتحاد جنوب أفريقيا يقدر مجموعه بنحو خمسة ملايين طن ، والمنظور أن تتسلمه قبل نهاية شهر أبريل عام ١٩٤٦ . كذلك تتوقع هذه الدول أن تحصل على مقدار أربعة ملايين من الأطنان من فحم ألمانيا ، وقد تزداد هذه الكمية بنسبة معقولة إذا ما حسن الإنتاج في مناجم الرور .

وإلى جانب هذا توجد زيادة متوالية في إنتاج الفحم من مناجم سليزيا العليا التي يشرف البولونيون عليها إشرافاً مباشراً . إلا أن المنظمة الدولية للفحم الأوربي لا تدخل في حسابها ذلك الإنتاج . ذلك لأن بولونيا ليست عضواً في هذه المنظمة . بل إن حكومة بولونيا استغلت الحالة التي نتجت عن اكتسابها الحديث لهذه المناجم ، فدخلت في مفاوضات مع عدد من الدول الأوربية ، التي هددتها مجاعة الفحم ، لتعقد معها اتفاقيات تجارية على تبادل السلع . وكان من بوادر نجاح مفاوضاتها أن تم عقد اتفاقية مع السويد التي تعهدت بأن تصدر إليها الحديد الخام والخشب والآلات وغيرها من المنتجات الصناعية مقابل أربعة ملايين طن من الفحم وثمانية آلاف طن من فحم الكوك ، تشحنها بولونيا إلى السويد قبل أول ديسمبر سنة ١٩٤٦ . كذلك قامت بولونيا بمفاوضات مع النرويج لتشحن إليها مقدار نصف مليون طن من الفحم ، ومع رومانيا لتشحن إليها مقدار ٨٣٠ر٠٠٠ طن من الفحم ، ذلك إلى جانب مفاوضات قامت بها بولونيا مع الدنمرك في الصيف المنصرم على كميات معينة من الفحم . وهذا ما فعلته أيضاً مع عدد آخر من الدول . وجميع هذه الاتفاقيات والمفاوضات بنيت على أساس تقديم بولونيا للفحم الحجري والفحم الكوك . وكان إنتاج الفحم في سليزيا العليا قبل هذه الحرب يقدر بنحو ٢٠٠ر٠٠٠ طن يومياً ، وهو يوازي ضعف ما أنتجته بولونيا قبل الحرب ، كما أن كمية فحم الكوك التي كانت تستخرج من سيليزيا العليا قبل الحرب عالية نسبياً . وكان يعمل

في مناجم سيليزيا العليا قبل الحرب نحو ٥٢٫٠٠٠ عامل . في حين كانت تستخدم بولونيا في كل مناجمها إذ ذاك نحو ٨٢٫٠٠٠ عامل . وكانت مناجم سيليزيا العليا تنتج عقب تراجع الألمان عنها ٢٢٫٠٠٠ طن يومياً . وما إن كان شهر مايو حتى كان الإنتاج قد وصل إلى ٥٥٫٠٠٠ طن يومياً ، ثم ازداد في شهر يونية فبلغ ٦٥٫٠٠٠ طن . ولم يزد الإنتاج اليومي عن هذا الرقم حتى الآن .

ولهذا فمقدرة السلطات البريطانية التي تحتل الرور على إنتاج الفحم من غرب أوربا تزداد مع الزمن . وإذا ذكرنا ذلك إلى جانب تعاون بولونيا الذي قد تم أو يتم على صورة من الصور مضافاً إليها مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية التي قد تكون أكثر مما قد يظن ، علمنا أن هذا سيكون سبباً في حل مشكلة الفحم في أوربا حلا موفقاً . وإذن فما هي الفرص التي يتاح فيها لهذه العوامل الثلاثة أن تعمل على إبعاد الخطر عن القارة الأوربية ، ذلك الخطر الناتج عن نقص الفحم ؟ لنستعرض كلا منها على حدة :

(١) بلغ الإنتاج من مناجم الفحم في الرور خلال صيف سنة ١٩٤٥ ، وهو الوقت الذي ازدهر فيه العمل والإنتاج طول مدة الإشراف البريطاني ، خمس ما كان عليه أيام السلم . وذلك على الرغم من أن عدد العمال الذين يعملون في هذه المناجم اليوم يقدر بنحو ٣٥٠٫٠٠٠ عامل ، وهو نصف عدد عمال هذه المناجم في أيام السلم . فإنتاج هؤلاء العمال اليوم أقل بكثير مما كان ينتجه زملاؤهم في السنين الماضية ، إذ هم ينتجون نحو ثلث الإنتاج . وقد يدعو بحث هذا النقص في إنتاج الفحم إلى وجوب الوقوف على العوامل النفسية للانتاج عند العمال . ومنها يرى أنه لا يمكن استغلال منجم فحم بقوة السلاح ، ذلك لأنه لا يمكن أن يقف جندي على رأس كل عامل في المنجم ، ولا بد أن النقص في الإنتاج مرجعه إلى الإتلاف المقصود أو غير المقصود الذي يقوم به العمال في المنجم ، وإن يكن الجزم بشيء من هذا غير مستطاع الآن . لا يخفى إن العمل في المناجم شاق ، وليس لغير المدربين عليه قدرة على الإنتاج المناسب دون أن يتعرضوا للخطر . وكان المسؤولون عن إنتاج الفحم في الرور قد عمدوا إلى اتخاذ إجراءات مضادة إذا ما نقص إنتاج الفحم . وكانت مقادير التموين التي تقدم إلى عمال المناجم قد زادت إلى ٢٫٨٠٠ وحدة حرارية يومياً ، أي أنها ضعف ما يحصل عليه المواطن الألماني العادي . ثم زيدت أخيراً إلى ٣٫٤٠٠ وحدة حرارية يومياً . ولكن ليس هذا بكاف ، فقد اعتاد عمال المناجم أن يجدوا في مقاصفهم الخاصة كل ما يحتاجون إليه من غذاء أو شراب بأثمان معتدلة . وهل تسعى السلطات البريطانية لتوفر للعمال الألمان كل

ما يريدون في حين أن هذه السلطات كانت عرضة من وقت لآخر لانتقام أفراد من الألمان بإتلاف الإنتاج في المناجم ، على الرغم من أن الفحم المستخرج ستنتفع به ألمانيا وبقية البلاد الأوربية ؟ والثابت الآن أنه لا يمكن الزيادة في إنتاج الفحم إلا تدريجاً ، وحين يستخدم أكبر عدد ممكن من العمال المهرة ، وتستخدم وسائل أحدث وطرق أحسن لاستخراج الفحم من باطن الأرض .

(٢) إن الأمل ضعيف في أن تنضم بولونيا إلى منظمة الفحم الأوربية . فمركزها وهي خارج الهيئة — التي من مهمتها الإشراف على إنتاج الفحم في أوربا — يسمح لها أن تساوم من تشاء . والحكومة القائمة اليوم في ورسو مغتبطة بهذه السياسة التي سارت عليها . نعم إن بولونيا قاست الأمرين في الميدان الاقتصادي مدة الاحتلال النازي وزمن الحرب التي كانت بولونيا مسرحاً لها . واتباعها سياسة المساومة مع كل من روسيا السوفيتيه والدول الإسكندنافية والدول الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أوربا سيمكنها من الحصول على البضائع التي هي في حاجة إليها . وكان لبولونيا قبل الحرب صناعة نسج لا بأس بها ، وقد بدأت تنتعش بعد ما أصابها من دمار في أثناء الحرب . كذلك كانت صناعة المباني ، وهي في طريق الانتعاش أيضاً . وهكذا نجد أن الحكومة البولونية ترى أن إعادة بناء بولونيا يجب أن يجري على خطة غاية في البساطة : إرسال فحم إلى السويد مقابل الآلات ، و إلى روسيا مقابل القطن ، وإلى الدنمرك مقابل اللحوم ، وإلى النرويج مقابل الأسماك المقددة ، وإلى تشكوسلوفاكيا مقابل المنسوجات ، وإلى فرنسا مقابل مواد كيمائية وهكذا .

وإذا لم تظهر الولايات المتحدة بعصاها السحرية فتقدم فحماً إلى أوربا فمن المتوقع أن يجرف هذا الشتاء البقية الباقية من آثار الانتعاش في أوربا . وإذا كانت الأسس التي وضعت في مؤتمر سن فرنسسكو والتي تجلت في تصديق الولايات المتحدة على اتفاقية برتون وودز سيعمل بها حتماً فلا مفر للولايات المتحدة من وضع حد لمجاعة الفحم التي عمت أوربا اليوم . هذا ولا يمكن الصناعات الأمريكية التي تهيأت لإنتاج سلع السلم أن تنتج كل ما تستطيعه ما لم تبعث بما تنتجه من هذه السلع إلى الأسواق الخارجية ، وقد تكون الأسواق الأوربية في حاجة شديدة إلى القسم الأكبر من هذا الإنتاج ، ولا سبيل لرواج هذه السلع ما لم يحصل العمال في أوربا على أجور لعملهم في مصانعهم . وفي ميسور أمريكا أن تحقق لهم ذلك .

ابرهيم ابرهيم يوسف

الفنّ الإسلاميّ : نشأته ومدارسه

للدكتور زكي محمد حسن

إذا كان للعرب كل الفضل في انتشار الإسلام وقيام الإمبراطورية الإسلامية وازدهار بعض مظاهر الحضارة التي امتدت في ربوع هذه الإمبراطورية ، فليست الحال كذلك تماما في ميدان الفنون ؛ إذ من الإنصاف أن نسلم بأن العرب لم تكن لهم قبل الإسلام أساليب فنية ناضجة ، اللهم إلا في أطراف شبه الجزيرة حيث قامت الممالك والإمارات التي اتصلت بالأمم الأجنبية وتأثرت بأساليبها الفنية تأثراً كبيراً ، كما حدث في اليمن والحيرة وبلادالنبط والغساسنة . فكان طبيعياً إذن أن يكون نصيب العرب في قيام الفنون الإسلامية روحياً فحسب ، وأن يصبح من العسير أن ننسب إليهم أي عنصر فني في العمائر والتحف الإسلامية ، سواء أ كان ذلك في الشكل أم في الزخرفة أم في الأساليب الصناعية . وإنما تنسب هذه العناصر إلى الشعوب الأخرى التي تألفت منها الإمبراطورية الإسلامية والتي كانت لها قبل الإسلام أساليب فنية زاهرة : كالفرس والمسيحيين في الشرق الأدنى ، ثم البربر والترك والهنود والصقالبة .

أما نصيب العرب الروحي فصعب تحديده ؛ ولكنه ظاهر في جمعهم شتى الأساليب الفنية القديمة ، وطبعها بطابع دينهم الجديد ، وإنشاء فن إسلامي يتميز عن غيره من الفنون . وقد ظهرت حكمة العرب وحسن استعدادهم في إقبالهم على استخدام الفنيين في البلاد التي فتحوها ، وارتاح الفنيون من أهل الذمة إلى تسامح العرب واعترافهم بمهارتهم الفنية فقام الفن الإسلامي على أسس من الفنون المسيحية الشرقية في مصر والشام ، ومن الفنون الإيرانية القديمة في بلاد الجزيرة وهضبة إيران ، ومن الأساليب الفنية التي نشأت من التقاء الفنون الإيرانية والهلينية والهندية في إقليم بكتريا منذ فتوح الإسكندر[1] ، ومن الأساليب الفنية في التركستان وما يتصل بها من أقاليم آسيا الوسطى .

---

(١) بكتريا Bactriane اسم قديم لجزء من آسيا الوسطى موزع الآن بين أقاليم أفغانستان والتركستان وإيران . وكانت بكتريا في العصور القديمة حلقة اتصال تجاري بين الهند والصين من ناحية وأقاليم بحر الخزر والبحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى . وقد فتحها الإسكندر وأنزل فيها أربعة عشر ألف إغريقي .

والغريب أن كثيراً من الغربيين، حين ينسبون شتى العناصر الفنية الإسلامية إلى بعض الفنون القديمة، يلحون في ذلك كأنهم يعملون على الحط من شأن العرب، بل يذهب المتعصبون منهم إلى رمي العرب بالتأخر وبالإقبال على النهب والسلب وبالبعد عن الحضارة والاستقرار. والحق أن هذا ظلم فادح؛ فالأمم كالأفراد لا تستطيع أن تحيط بكل شيء. وبداوة العرب وطبيعة بلادهم لم يكن من شأنهما أن يشجعا ازدهار العمارة والفنون الزخرفية بين ظهرانيهم، ولكن قامت بينهم فنون أخرى



شكل ١: إبريق من البرنز ينسب إلى الخليفة الأموي مروان بن محمد. من الطراز الأموي. القرن الأول أو الثاني الهجري (٧ – ٨ م)

كالشعر والخطابة والأدب، واستطاعت جحافلهم أن تخضع لسلطانهم الجزء الأكبر من العالم المعروف في ذلك الوقت. وفضلا عن هذا وذاك فإن سنة الفنون واحدة: كل منها يأخذ من الفنون التي سبقته، ولا يمنعه هذا من أن تكون له ذاتيته وعناصره المستنبطة.

ولما بدأ الغربيون في دراسة الفن الإسلامي أطلقوا عليه أسماء غير جامعة ؛ لأن بعضها لا يصلح إلا لجانب من هذا الفن ، أو أسماء بعيدة عن الدقة ؛ لأنها تخالف الحقائق التاريخية الثابتة .

فبعضهم سماه الفن الشرقي Saracenic Art (١) وهو اسم يصح أن نطلقه على الفنون الإسلامية التي ازدهرت في بلاد العرب والشام والعراق وربما في مصر وصقلية والأندلس ؛ ولكنه لا يصلح للفنون الإسلامية في إيران وتركيا والهند . وسماه آخرون الفن المغربي Moorish Art (٢) ولكن هذا الاسم لا يصلح أن نطلقه إلا على الفنون الإسلامية التي ازدهرت في الأندلس ومراكش والجزائر وتونس دون غيرها

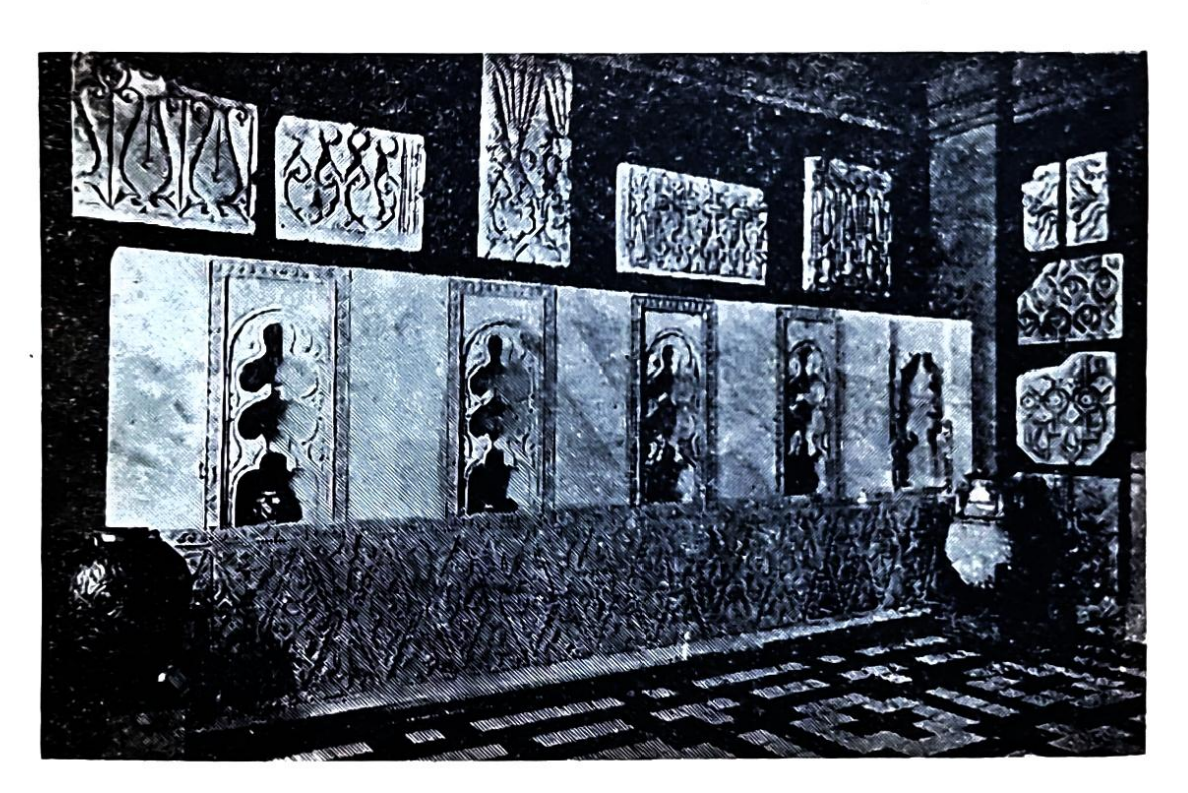
شكل ٢ : علبة من العاج من الطراز الأموي الغربي . القرن ٤ هـ (١٠ م)

---

(١) أكبر الظن أن كلمة Saracens من أصل يوناني Saraceni ، كان الإغريق القدماء يطلقونه على البدو الذين كانوا ينزلون بادية الشام . ولعله مشتق من كلمتي « شرق » و« شرقيين » ثم اتسع مدلول هذا اللفظ حتى شمل سكان شبه الجزيرة العربية عامة . وفي عصر الحروب الصليبية غلب على سكان الشرق الأدنى من المسلمين الذين كانوا يقاتلون الصليبيين وامتد أحياناً إلى المسلمين في صقلية والأندلس . راجع معجم E.Littré الفرنسي مادة Sarrasin وكتاب Ph. Hitti History of the arabs P. 43 (2nd. ed.)

(٢) مشتق من لفظ Mauri الذي كان الرومان يطلقونه على أهل بلاد المغرب الحالية وقد كانت تعرف عندهم باسم Mauretania .

من الأقاليم الإسلامية .وسماه فريق ثالث الفن العربي؛ ولكنها تسمية يعترض عليها بأنها تبخس حق الإيرانيين والترك والشعوب الأخرى التي اشتركت في الإمبراطورية الإسلامية وكان لها فضل كبير في ازدهار الفنون الإسلامية . وفضلا عن ذلك فإن أصحاب هذه التسمية يقتطعون من الفن الإسلامي بعض أقسامه فيطلقون عليها أسماء مستقلة ويقيمون إلى جنب الفن العربي فناً فارسياً وفناً تركياً وفناً هندياً، وربما فصلوا عنه « الفن المغربي » أيضاً . وذهب فريق من الأوربيين مذهباً جديداً فأطلقوا على الفن الإسلامي اسماً شاملا هو « الفن المحمدي » Muhammedan Art ، ولكن المسلمين ينفرون من هذه التسمية ، لأنها تنسب إلى النبي عليه السلام ظاهرة دنيوية وجانباً من جوانب الحضارة لم يكن له شأن



شكل ٣ : زخارف جصية كانت تغطى بها الجدران في الطراز العباسي من القرن ٣ هـ (٩ م)

به ولا علاقة له بوظيفته الدينية . والحق أن هذه التسمية في العربية ثقيلة على السمع . فلا ريب إذن في أن أفضل الأسماء للفنون التي ازدهرت في العالم الإسلامي هو : «الفن الإسلامي» ، لأن الإسلام كان حلقة الاتصال بينها ، ولأنه جمع شتاتها وألف منها وحدة متمايزة على الرغم من تباين أصولها ، ولأن هذه الفنون ازدهرت في ظل الإسلام وبرعاية الدول الإسلامية ، سواء أ كان الفنيون أنفسهم من المسلمين أم من أهل الذمة ، وسواء أ كانت العمائر والتحف للمسيحيين أم للمسلمين .

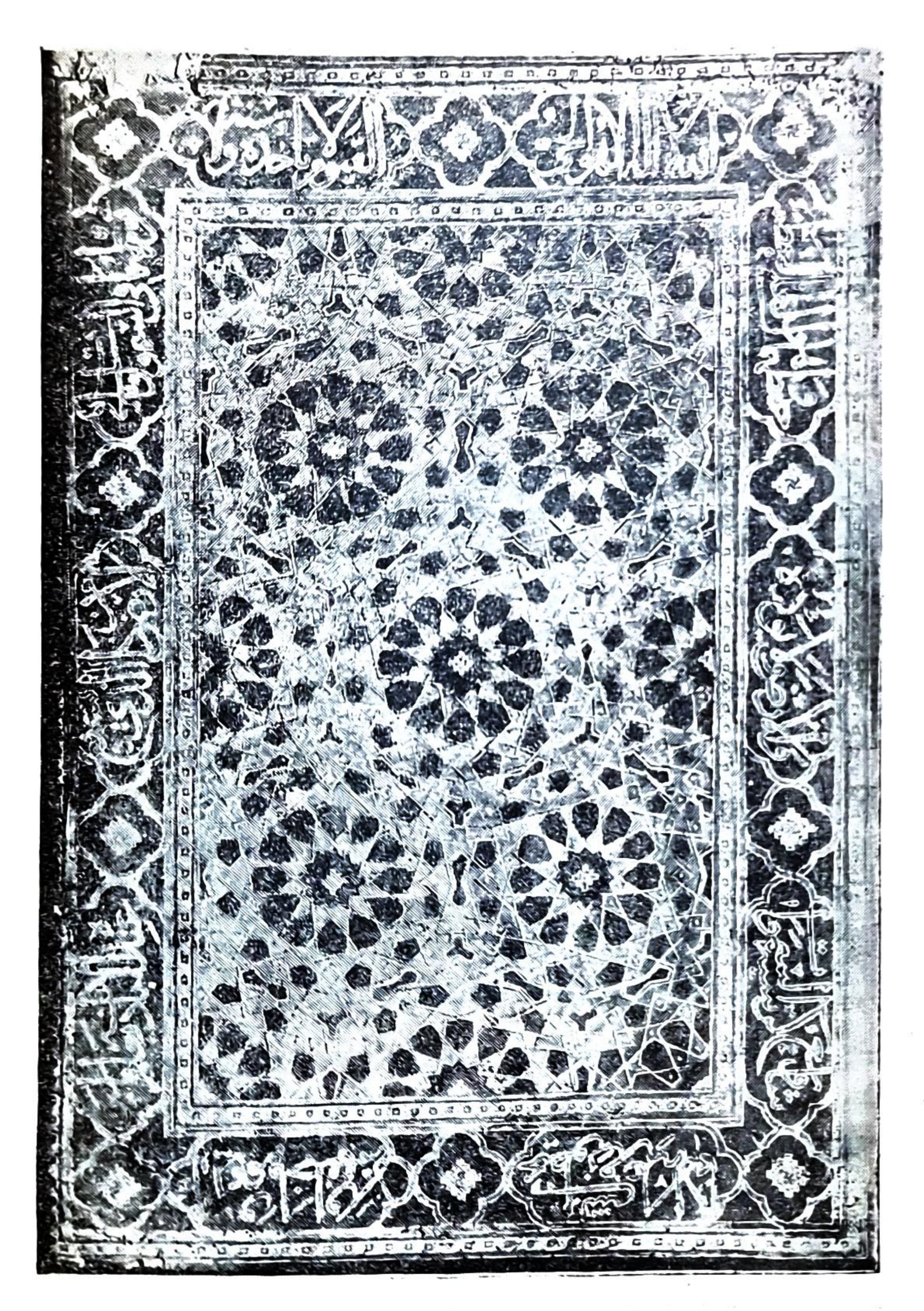
والفن الإسلامي أوسع الفنون انتشاراً وأطولها عمراً ، إذا استثنينا الفن الصيني ، فقد امتدت الإمبراطورية الإسلامية من الهند وآسيا الوسطى شرقاً إلى الأندلس والمغرب الأقصى غرباً ، ومن حوض الطونة وإقليم القوقاز وصقلية شمالا إلى بلاد اليمن جنوباً . وازدهر الفن الإسلامي في هذه الإمبراطورية الواسعة الأرجاء .

ولد هذا الفن في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، وظل ينمو ويترعرع، وبلغ عنفوان شبابه في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد) ، ثم دب إليه الهرم والضعف منذ القرن الثاني عشر (الثامن عشر الميلادي)، حين تأثر المسلمون بمنتجات الفنون الغربية وأقبلوا على تقليدها ، وقل تمسكهم بأساليبهم الفنية الموروثة، وضنوا بالوقت اللازم لإتقانها حين أصبحت السرعة في الإنتاج والاقتصاد في النفقات أساس الحياة الاقتصادية .

وطبيعي أن العمائر والمنتجات الفنية في الإمبراطورية الإسلامية الواسعة لم تكن ذات طراز واحد في القرون الطويلة التي ازدهر فيها الفن الإسلامي . وطبيعي كذلك أنها لم تكن واحدة في كل أقاليم الإمبراطورية الإسلامية . فإن الحرف والصناعات ظلت بعد الفتوح الإسلامية فترة من الزمن في يد أهل البلاد المفتوحة ، فكانت الأساليب الفنية المحلية تتطور في كل إقليم تطوراً لا تفقد فيه كل صلتها بماضيها ، ولكنها تخضع لكثير من القواعد التى يفرضها العرب الفاتحون أو التى ينقلونها عن إقليم آخر من إمبراطوريتهم الواسعة . ونشأت من امتزاج العرب بأهل البلاد التى أخضعوها لسلطانهم ومن الاختلاط بين أهل تلك البلاد المختلفة فنون متشابهة في جملتها ، يمكن تمييزها عن غيرها من الفنون ، ولكنها متباينة في جزئياتها ، يستطيع ذوو الثقافة الفنية العادية أن يميزوا بينها في بعض الأحيان . ويتطلب هذا التمييز في بعض الأحيان خبرة فنية ودراية خاصة .

قامت في العالم الإسلامي إذن طرز أو مدارس أوأساليب فنية كانت تتطور بتطور العصور وتتأثر بالأحداث السياسية والاجتماعية . وكانت الفروق بين هذه الطرز الفنية المختلفة أظهر ما تكون في العمارة ؛ فإن فن البناء أكثر الفنون اتصالا بالإقليم الذي ينشأ فيه ، بينما كان تبادل العناصر الفنية وتأثر بعضها ببعض أسهل في ميدان الفنون الزخرفية . وحسبنا أن المنتجات الصناعية التى تتجلى فيها الأساليب الفنية الزخرفية كانت تنقل من إقليم إلى آخر في الإمبراطورية الإسلامية على يد التجار الذين كانوا يجوبون أنحاء هذه الإمبراطورية والذين امتد نشاطهم في العصور الوسطى إلى الشرق الأقصى وجزر المحيط الهندي وصحارى السودان وجنوبي الروسيا وسواحل بحر البلطيق وجنوبي أوربا وغربيها .

وهكذا نرى أن العمائر والتحف الإسلامية لها طابع خاص ولكنها تتميز بعضها من



شكل ٤ : جلد كتاب من الطراز المملوكي في القرن ٩ هـ (١٥ م)

بعض ، وتختلف بحسب الأقاليم والعصور المختلفة . فالعمائر تختلف في مواد العمارة نفسها ، وفي أنواع الأعمدة والأركان أو الأكتاف ، وفي أنواع تيجان الأعمدة والعقود أو الأقواس ، وفي المآذن والقباب والدلايات أو المقرنصات ، وفي أنواع الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية ، وفي المواد التي تغطى بها الجدران كالجص والقاشاني ، أما التحف فتختلف في موادها الأولية وطرق صناعتها وأساليب زخرفتها والألوان المفضلة فيها والأشكال التي يقبل عليها إقليم دون آخر .

٭٭٭

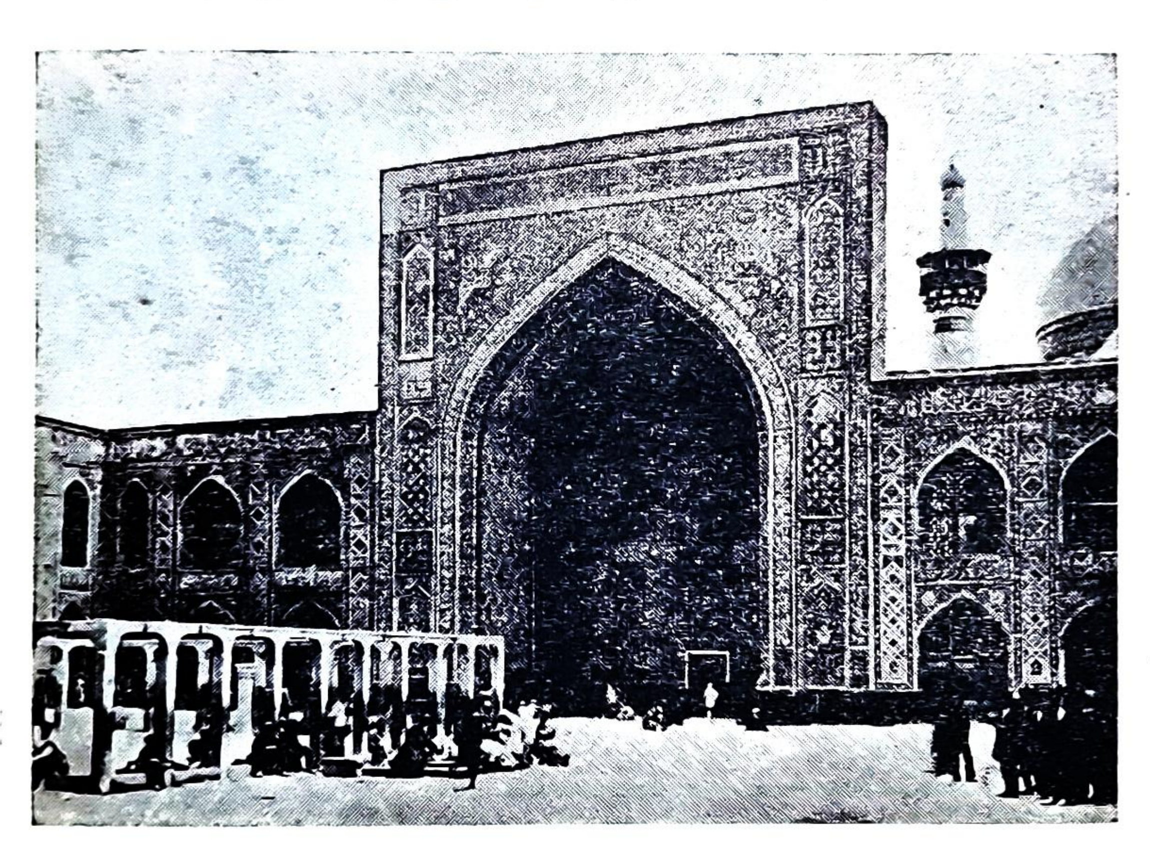
أما في عصر النبي عليه السلام ، وفي عصر الخلفاء الراشدين من بعده ، فقد كان الغالب على الجماعة الإسلامية الناشئة البساطة وخشونة العيش والجهاد في سبيل الله ؛ فلم يكن المجتمع الإسلامي حينئذ مرتعاً خصيباً للفنون الجميلة بأنواعها ، ولو استمرت الحال على هذا المنوال لما شيد المسلمون المساجد الشاهقة والقصور الفاخرة والعمائر الضخمة ، ولما صنعوا الثياب الغالية والآنية النفيسة وغير ذلك مما لا يتفق وبداوة العرب .

ما الذي جنبهم تلك البساطة وساقهم إلى طريق العمائر الرشيقة والتحف النفيسة وغير ذلك من وسائل الترف ؟ هو فتح الأمصار العريقة في المدنية ، ورؤية ما فيها من الآثار وما ينتجه أبناؤها من آيات الفن الجميل ، ثم اعتداد العرب بأنفسهم وحرصهم على أن لا يظهر المسلمون فقراء في عمائرهم بسطاء في مظهرهم ، وهم سادة البلاد وحكامها . وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا « في أن المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول» كتب فيه : «والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه ، إذ العرب أعرق في البداوة وأبعد عن الصنائع . . . . وأيضاً فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير القصد ، كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة ، وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل ، فقال : افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة . وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر : قالوا : وما القدر ؟ قال : ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد . فلما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد وغلبة طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف ، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع » .

٭٭٭

قام الفن الإسلامي إذن في عصر بني أمية ، وكان الطراز الأموي الذي ينسب إليهم أول الطرز أو المدارس في الفن الإسلامي (شكل ١) . وقد اتخذ بنو أمية مدينة دمشق عاصمة للعالم الإسلامي . وكانت السيادة الفنية في عصرهم للفنيين السوريين الذين قام على أكتافهم هذا الطراز الأموي ، وهو طراز انتقال من الفنون المسيحية في الشرق الأدنى إلى الطراز العباسي. وقد نقل الولاة والقواد وأتباعهم أساليب هذا الطراز إلى سائر الأقاليم الإسلامية على يد الصناع الذين كانوا يستقدمونهم من الشام ومصر إلى تلك الأقاليم .

وقد حدث أن ثبتت هذه الأساليب الفنية الأموية في الأندلس حتى بعد أن زال



شكل ٥

الإيوان الشمالي الشرقي في مسجد بمدينة مشهد ، من الطرز الإيرانية في القرن ٩ هـ (١٥ م)

ملك بني أمية في المشرق . وذلك لأن هذا الإقليم خرج عن الدولة العباسية وقامت فيه دولة أمويّة غربية كان لها طراز أموي غربي احتفظ بمعظم الأساليب الفنية في الطراز الأموي الشرقي، وإن يكن قد تأثر في الوقت نفسه ببعض الأساليب الفنية العباسية .(شكل٢)

ولما آلت الخلافة إلى العباسيين سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) نقلوا مقر الحكم إلى العراق ، وأصبحت السيادة في العالم الإسلامي للعراق وإيران، واتخذ الفن الإسلامي اتجاهاً جديداً ، فقام الطراز العباسي الذي غلبت عليه الأساليب الفنية الفارسية . (شكل ٣)

وبلغ هذا الطراز أوج عظمته في مدينة سامرا في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، ولكن دبّ إليه الضعف حين وهن سلطان الحكومة المركزية العباسية وبدأت الأقاليم الإسلامية المختلفة في الاستقلال عنها ، وقامت في أنحاء العالم الإسلامي دول مستقلة ، وأدى هذا الاستقلال السياسي إلى استقلال فني ، فنمت منذ القرن الخامس الهجري طرز فنية مستقلة في شتى أنحاء الدولة الإسلامية .

ولاريب في أن مؤرخ الفنون يعجب لنجاح العرب في فرض الطراز الأموي ثم الطراز العباسي على الإمبراطورية الإسلامية كلها في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة . فقد أصابوا في ذلك توفيقاً لا يعدله إلا توفيق الإسكندر وخلفائه في نشر الثقافة الهلينية في ربوع الشرق الأدنى والأوسط .

٭٭٭

ولما فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) وجعلوها مقراً لخلافتهم قام على يدهم الطراز الفاطمي وازدهر هذا الطراز في مصر والشام بفضل استتباب الأمن واستقلال البلاد وما سادها من رخاء وتسامح ديني ، وامتد تأثيره إلى صقلية .

شكل ٦ : صورة من الطراز الهندي في القرن ١١ هـ (١٧ م)

وكان حكم الدولة الايوبية في مصر عصر انتقال من الطراز الفاطمي إلى الطراز المملوكي الذي ازدهر في مصر والشام فيما

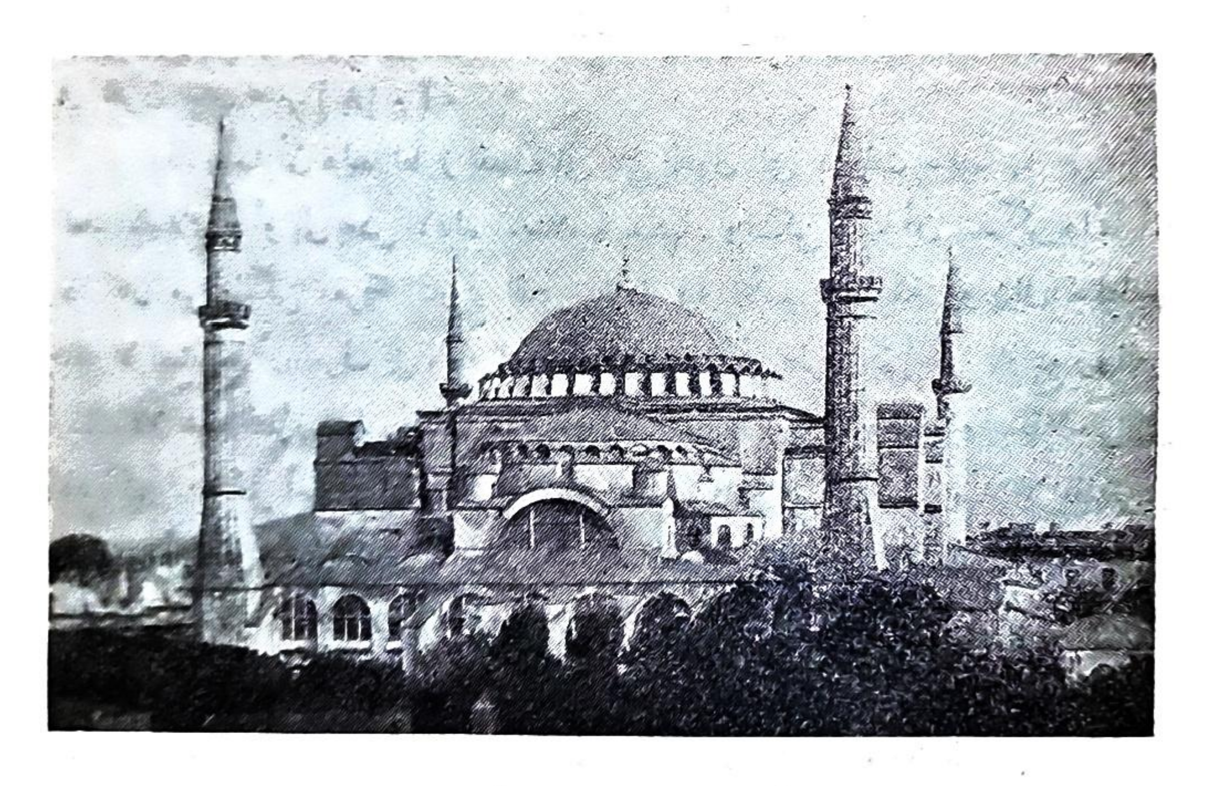
بين القرنين السابع والعاشر بعد الهجرة (١٣ — ١٦ م) . وهو الطراز الذي تدين له القاهرة بمعظم آثارها الإسلامية (شكل ٤) . ولما قضى العثمانيون على دولة المماليك سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) فقدت البلاد استقلالها ورحل عنها كثير من مهرة الصناع فيها ، وقل نشاط من بقي فيها من الفنيين ، وأصبح العصر التركي في مصر عصر ركود فني كما كان عصر ركود سياسي .

وأما في الأندلس فقد ازدهر الطراز الأموي الغربي إلى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بينما احتفظت بلاد المغرب بأساليبها الفنية القديمة فترة طويلة بعد الفتح العربي، ولم تتأثر بالأساليب الفنية في الطراز العباسي إلا تأثراً بطيئاً لا يكاد يظهر تماماً قبل القرن الرابع الهجري . ثم أتيح للأندلس والمغرب أن يتحدا تحت حكم دولة واحدة ، هي دولة المرابطين . وهم أسرة من المسلمين البربر، كانوا يحكمون في المغرب منذ القرن الخامس الهجري وضموا الأندلس إلى دولتهم سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م) . ولما سقط المرابطون سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) خلفتهم في حكم المغرب دولة الموحدين ، وقد مدت سلطانها إلى الأندلس أيضاً ، وظلت تجاهد المسيحيين فيها إلى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥ م) حين تم النصر لهم وصار نفوذ المسلمين في إسبانيا مقصوراً على مملكة غرناطة التي كان يحكمها بنو نصر والتي سقطت سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م) فانتهى بسقوطها حكم المسلمين في الأندلس.

وطبيعي أن المرابطين ثم الموحدين كانوا حلقة اتصال بين الأندلس وبلاد المغرب ، فكان الجند من المغاربة يرحلون إلى الأندلس لقتال المسيحيين بينما كان الصناع والفنيون من أهل الأندلس يرحلون إلى بلاد المغرب ويحملون إليها الأساليب الفنية التي ازدهرت في بلادهم. وهكذا قام الطراز الإسباني المغربي على يد الموحدين في القرن السادس الهجري (١٢ م) ، وبلغ أوج عظمته في غرناطة في القرن الثامن . وكانت الزعامة في هذا الطراز للأندلس ومراكش ثم تم تطوره في القرن التاسع . ولكن المغرب الأقصى احتفظ حتى العصر الحاضر بكثير من الأساليب الفنية في هذا الطراز . أما بلاد الجزائر فقد دبت إليها الأساليب التركية والأوربية منذ القرن العاشر ، بينما استطاعت تونس أن تقاوم هذه الأساليب فترة طويلة من الزمن، وأن تحتفظ في آثارها الفنية بالطابع المغربي . وكان للطراز الإسباني المغربي أثر عظيم في طراز المدجّنين، وهم المسلمون الذين كانوا يدخلون في طاعة المسيحيين بعد أن يفلحوا في استرداد أي إقليم في شبه الجزيرة من يد المسلمين ، وقد كاد المدجّنون يفلحون في خلق طراز إسباني قومي لولا الاضطهاد الذي وقع على المسلمين في إسبانيا وانتهى بهجرتهم إلى المغرب في القرن السادس عشر الميلادي .

أما في شرق البحر الأبيض المتوسط فقد قام على أنقاض الطراز العباسي طراز جديد هو الطراز السلجوقي ، نسبة إلى السلاجقة الذين قدموا من آسيا الوسطى وأتيح لهم منذ القرن الخامس الهجري (١١ م) الاستيلاء على السلطان في الشرق الأدنى ، ولكن دولتهم الواسعة ، في أفغانستان وإيران والعراق والشام وآسيا الصغرى ، لم تلبث أن تمزقت وورثتها دويلات صغيرة أسسها بعض أفراد أسرتهم أو كبار قوادهم ، ثم قضى عليها المغول في نهاية القرن السابع الهجري (١٣ م) .

وقامت في إيران بعد الطراز السلجوقي طُرز قومية إيرانية (شكل ٥) ، أولها الطراز المغولي الذي ازدهر فيها منذ وطد المغول حكمهم في القرن السابع الهجري (١٣ م) إلى أن سقط خلفاء تيمور وقامت الدولة الصفوية سنة ٩٠٧ هـ (١٥٠٢ م) ،



شكل ٧ : جامع أياصوفيا . من الطراز التركي في القرن ٩ هـ (١٥ م)

وازدهر الطراز الصفوي في القرنين العاشر والحادي عشر وبداية الثاني عشر (١٦ — ١٨ م) ، ثم زاد التأثر بالفنون الغربية وساء نوع المنتجات الفنية وكثر الإنتاج بالجملة للأسواق والسياح .

أما في الهند فلسنا نعرف شيئاً كثيراً عن الآثار الفنية منذ بداية الإسلام فيها إلى القرن العاشر الهجري . ولكنّ العمائر والتحف التي ترجع إلى الهند الإسلامية منذ القرن العاشر تنسب إلى طراز هندي تأثر بالطرز الإيرانيـة إلى حد كبير ، ولكنه

امتاز بظواهر معمارية خاصة وبضروب من الألوان والزخارف والأساليب الفنية (شكل ٦) .

وفي آسيا الصغرى آل الحكم إلى العثمانيين منذ القرن الثامن الهجري ، ثم امتد سلطانهم السياسي في القرن العاشر حتى وصل إلى وادي الطونة شمالا وإلى العراق ومصر ونشأ على يدهم الطراز التركي (شكل ٧) . واتصل الترك بالعالم العربي اتصالا كبيراً ، وتأثر الطراز التركي في القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) بالأساليب الفنية في طراز الباروك الأوربي، ثم بطراز الروكوكو .

٭ ٭ ٭

وصفوة القول أن تاريخ الطرز الفنية التي استعرضناها في هذا المقال يؤلف تاريخ الفن الإسلامي منذ نشأته في القرن الأول الهجري إلى أن غزته الأساليب الفنية الأوربية في القرن الثاني عشر (١٨ م) .

وقد رأينا أن هذه الطرز تنسب إلى شتى الدول التي بسطت سلطانها على أنحاء العالم الإسلامي ، أو إلى بعض الأقاليم الإسلامية نفسها . ولكن علينا أن نتذكر دائماً أنه إذا كان من الممكن معرفة التاريخ الذي بدأت فيه الأسر الحاكمة أو زال سلطانها فإننا لا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد تاريخ قيام أي طراز فني أو تاريخ زواله ، وذلك لأن هذه الطرز تتطور فينشأ بعضها من بعض. فالفصل بينها وضعي واصطلاحي إلى حد كبير . والحق أنها تتصل ويؤثر بعضها في بعض . فالطراز الفاطمي مثلا لا يظهر في مصر تماماً إلا في الجزء الأخير من القرن الرابع الهجري ، في حين أن حكم الفاطميين في وادي النيل بدأ منذ سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . كما يجدر بنا أن نتذكر أيضاً أن الأمراء المسلمين كانوا ينقلون الفنيين من بعض أنحاء العالم الإسلامي إلى بعض أقاليمه الأخرى ، كما كان التجار ينقلون الآثار الفنية بين أرجاء الدولة الإسلامية ، وكان لهذا كله أكبر الأثر في التقريب بين الطرز الفنية المختلفة .

ويشهد مؤرخو الفنون الإسلامية بأن أبسط هذه الطرز وأقلها تعقيداً وأعظمها اتزاناً وأرفعها ذوقاً وأبعدها عن الإفراط ، هي الطرز التي ازدهرت في مصر والشام . ولعلنا نستطيع — إن شاء الله — أن نبين ذلك في المقالات التالية .

زكي محمد حسن

رسالتان من القدس إلى لندن

للدكتور إسحق موسى الحسيني   بالقدس

١

عزيزتي ماري :

وقع لي اليوم حادث أثار عواطفي وهزّ مشاعري . فبينما كنت أقف في باب المعهد الذي أعمل فيه أقبلت سيدة ملتفة بملاءة سوداء وسألتني عن ابن لها . فقلت لها : إنه في الدرس . فسألتني هل أعرفه ؟ فقلت : إني أعرفه وأعلّمه . فقالت لي بأدب جم : ما اسمك ؟ فقلت : فلان .. فهجمت عليّ وأكبّت على يدي تريد تقبيلها . فسحبت يدي وابتعدت عنها قليلاً ، لأني أكره أن يقبل يدي أيّ مخلوق ، فكيف بسيدة ! وانطلقت السيدة تتحدث بصوت رقيق فقالت : ياسيدي ، أعرني سمعك قليلا ، إني أمّ ، والأمّ معذورة إن أحبت ولدها وفلذة كبدها إلى حدّ العبادة . وهذا الذي سألتك عنه ، له قصة عجيبة . إنه ولد ثلاث نساء لا امرأة واحدة . لقد تزوج والده امرأة فلم تلد له ولداً . فتزوج الثانية فلم تلد . ثم تزوجني فرزقه الله مني ابني فلاناً الذي سألتك عنه . ثم توفي والده الشيخ بعد مولده ببضع سنوات . وكنا — نحن زوجاته — نحبه ونجله لرفقه بنا وحدبه علينا . ونحن اليوم ، نحن الثلاث ، نوجه بصرنا إلى الولد مرة ، ونرفعه إلى الله مرات ليحفظه لنا . فهو ليس ابنَ امرأة واحدة ، إنه ابن ثلاث نساء .

وقد كتب إلينا يذكرك بخير ، وما عرفتك حتى هجمت أودُّ تقبيل يدك اعترافاً بجميل صنعك ، واستدراراً لعطفك عليه في الأيام المقبلة . فلا تبتئس ياسيدي . إني امرأة كسيرة القلب . وهذا فلذة كبدي ، وابن زوجي الشيخ ، ووحيد تربيّ . فلئن نشدتك اللهَ أن تجعله أمانة في عنقك وأن تحيطه بعنايتك ، فإني أفعل ذلك مدفوعة بعاطفة جامحة .

وما أتمت المرأة حديثها حتى سرت عاطفتها المتأججة إليّ . فقلت لها : ياسيدتي هوّني عليك، إن ابنك بحراسة الله ، وحراسة أساتذة يعتبرون طلابهم أبناء لهم . وابنك مهذب وذكي . وما أحسبه إلا بالغاً ما تريدين له من نجاح وتوفيق ، بدعائك له أولاً ، وجدّه واجتهاده ثانياً .

فأخذت المرأة تدعو لي بصوت متهدج . وانصرفتُ إلى عملي ، وقصتها تشغل

بالي . ومرّ الطالب بعد ذلك من أمامي ، فلم أحدثه بما وقع ، ولكني لا أكتمك أني رأيته بعين غير العين التي كنت أراه بها . رأيته بطل قصة مشجية . ورأيت حقوقه عليّ أضعاف ما كنت أراها من قبل .

وتعدّى تفكيري في هذا الشاب إلى سائر رفاقه . فهذا شاب قد شاء اللهُ أن يكشف لي عن سرّه . أو ليس من الجائز أن يكون لكثيرين من زملائه أسرار كسرّه ، وقصص كقصته ؟

وربما تعجبين لهذا الفرض . لأن الناس في بلادكم لا يحرصون هذا الحرص على أن يكون لهم أولاد . ولا يتوسلون بما توسل به الشيخ . فالقانون لا يبيح تعدد الزوجات. والمجتمع لا ينظر إلى الولد هذه النظرة ، ولا يُعنى بشأنه كلّ هذه العناية .

ولكن الأمر في بلادنا على خلاف ذلك . فالذي يموت عقيما يعتبرونه كأنه ما عاش . ويتفاخر الناس بالبنين ويتكاثرون بهم ويعتزون . هذه هي النظرة السائدة في مجتمعنا —على الأقل — والشرع يُقر هذا الاعتبار ، ويجعل للذكر مثل حظ الأنثيين .

ولا شك في أن العلاقة الأبوية والبنوية تفرض واجبات لا تعرفونها أنتم في بلادكم . فاحترام الوالد وطاعته منصوص عليها في القرآن . وهو ينهى الولد عن أن يقول لأبويه «أف» أو أن ينهرها . وحب الوالدين لابنهما حبٌّ ممزوج بالاعتزاز والتفاخر . وإساءة الولد — في المجتمع — تلحق أبويه وأسرته جميعها .

وأنتم تفرضون على الأبوين واجبات تنتهي عند بلوغ سن الرشد . ثم تتركونه يتصرف في حياته كيف شاء . فإن أحسن فلنفسه ، وإن أساء فعليها . وتعتبرون البنت في ذلك كالولد ، فلها حرية كحريته ، ومسؤولية كمسؤوليته .

ولا أفاضل بين النظامين . لأن ما من عاقل إلا يرى لكل من النظامين محاسن وعيوباً . وأنت تعلمين رأيي في هذه المسألة ، وقد أفضنا فيها غير مرة . وتحدثت بذلك إلى كثيرين غيرك . وكان بنو قومك يعجبون أشد العجب حين أشرح لهم تفاصيل نظامنا الاجتماعي ، بقدر ما كنت أعجب حين أسمع تفاصيل نظامكم . وكنا حين ننتهي من الحديث إلى هذا السؤال : أي النظامين أفضل ؟ يقولون : لاشك في أن لكل نظام عيوبه ومحاسنه ، ولكنكم مغالون بقدر ما نحن مغالون . وأقول أنا أيضاً قولهم .

وكنا — نحن الشرقيين — إن سمعنا قصة غير مألوفة عن العلاقة الأبوية عندكم نذكرها ونحن لا نكاد نصدقها ، وربما بالغ بعضنا في الرواية على الطريقة الشرقية . وهناك قصتان لا أنساهما ، وما أظن أني ذكرتهما لك .

أولاها : أن مواطناً منكم استأذن مرة تاجراً شرقياً — يتاجر بالسجاجيد في لندن — بأن يسمح له بالتغيب بعد ظهر يوم من أيام العمل . فقال له التاجر الشرقي : حباً وكرامة ، ولكني أود أن أسألك عن سر طلبك هذا ، فقد مضى عليك عشرون عاماً دون أن أسمع منك مثل هذا الطلب ؟ فأجاب المواطن : أريد أن أقابل أمي . فقال التاجر : ولم لا تقابلها يوم الأحد ؟ فأجاب ، لأني ما رأيتها منذ العشرين عاماً ، واليوم — فقط — علمت بوجودها في لندن ، واتفقنا على أن نلتقي بعد الظهر . فأذن له التاجر بالتغيب وهو لا يكاد يصدق ماسمع .

والثانية : أن رجلا من مواطنيك قال لأحد جيرانه الشرقيين في الشقة التي يسكنها : لقد بعثت لأمي رسالة أستأذنها بضرب موعد للمقابلة . فقال له جاره : وهل تقابل أمك بميعاد ؟ فقال : وهل يصح أن أقابلها بغير ميعاد ؟ .

وهناك قصص كثيرة في هذا الموضوع لا تجدين لها أشباهاً في مجتمعنا . وفي رأبي أن كلا المجتمعين مغال . ولا بد من أن يأتي وقت تخف فيه هذه المغالاة ، ويدنو المجتمعان أحدهما من الآخر .

ولست — كما قلت — أقصد التفاضل ، ولكني أخرج من قصة الطالب ونظائرها بنتائج مهمة لا تتسع لها هذه الرسالة .

وموعدنا الرساله التالية .

آه يا عزيزتي . لا أدري كيف يتشقق الحديث . فإني أمسك القلم لأحدثك عن نفسي ولأبثك شوقي ، فأرى قلمي يشط ولا يترك لي مجالاً للتعبير عن عواطفي . وعسى أن يكون في ذلك بعض الخير ، وإلى اللقاء .

٢

عزيزتي ماري ،

لا بد من أن تترك التربية أثراً كبيراً في نفسية الطفل . وتربيتنا التي حدثتك عنها في رسالتي السابقة تورث الولد صفتين : الأولى اضطرام العاطفة . والثانية الاعتزاز بالنفس . وهاتان صفتان بارزتان في النشء العربي ، بل في الأمة العربية وخلقها وأدبها .

فالطفل الذي يُحاط بالحب من كل جانب ، ويلمس عواطف الأبوين ومن يليهما بالقربى ، ولا سيما الإناث ، ويرى أنه — في كثير من الأحوال — موضع الرجاء ، ومعقد الأمل ، تنفعل نفسه بهذه المظاهر ، وتنمو فيه عاطفة قوية هائجة .

أليس من البديهي أن يحب المرء من يحبه ؟ وأن يفرط في حبه بقدر ما يفرط المحبون

في حبهم ؟ وإن أحبه عشرون شخصاً فلا بد أن يحب هو العشرين شخصاً ؟ وإن أحبه العشرون بحرارة فلا بد من أن يحبهم هو أيضاً بحرارة ؟

والنتيجة أن العربي مشبوب العاطفة متأججها . واللغة العربية والأدب العربي مملوءان بالشواهد على ذلك .

فالشعر العربي عاطفي ، والنثر العربي عاطفي . وإنه لمن أشق الأمور أن يحاول المرء ضبط هذه العواطف أو كبحها . وأذكر أن الطلاب حين يكلفون كتابة رسائل إلى والديهم يستهلون رسائلهم بعبارات الاحترام التي تبلغ حد التقديس . ومن ثم إن كلفوا كتابة رسالة إلى صديق — أو على الأصح رفيق ، حسب اصطلاحكم — يكيلون له عبارات الحب بالمكيال نفسه . وقد يبدو أنهم مراؤون . والحقيقة أنهم صادقون كل الصدق . فعواطفهم ينابيع متفجرة من أرق المشاعر وأصفاها .

وقد عرف العربي بالوفاء ورعاية الذمة . وما هاتان الصفتان ؟ إنْ هما إلا مظهران لاستقرار جذور الحب في أعماق النفس .

ولا أكتمك أني حين أكتب إلى أساتذتي من الأوربيين ، أو حين أكتب إليك أنت ، تهب في نفسي عواطف كالعواصف . وأعالج نفسي وأحتال لها حتى لا ينم أسلوبي عما يكنه صدري ، لأني أخشى أن أتهم بالرياء .

وعبارة Flowery Language سمعتها ألف مرة من أساتذتي الأوربيين في معرض الحديث عن اللغة العربية . وما كنت أتحسس في ذلك الوقت هذا الذي أشرحه لك لأقول لهم : إن هذه اللغة « الزهرية » لغة قلوب عامرة بالحب الصادق . ويؤلمني أن أقول لك : إن جهل هذه الصفة في الخلق العربي يحدث مشاكل لا عد لها لمن يساكننا أو يعاملنا من الأوربيين .

وقد قيل : إن ثورة في ناحية من نواحي البلدان العربية شبت لأن رجلا أجنبياً هاج عواطف السكان . وقد يبدو ذلك مبالغاً فيه . ولكنه لا يعدو الحق .

وابن الأمير وابن الأجير سواء في اضطرام العاطفة ، فكلاهما يحب بإفراط ، ويغضب بإفراط ، ويثور بإفراط . والسبب أن ابن الأجير يحاط في بيئته بالعواطف نفسها التي يحاط بها ابن الأمير . وربما كان لوالد الأمير أولاد كثيرون ، ولم يكن لوالد الأجير ولد سواه . وعواطف البشر لا تخضع للجاه والمال . وليس ما يمنع في الطبيعة البشرية أن تحب امرأة فقيرة ابنها كحب امرأة غنية . وقد تكون للأولى ظروف تضاعف عواطفها .

والاعتزاز بالنفس صفة ثانية . وهي نتيجة تيقظ الحس بالكرامة . والكرامة تتولد عن التكريم والحبّ والإيثار . فالعواطف التي تمنح تتجمع في النفس ، وتحفظ حقاً مكتسباً . وأقل محاولة لسلب هذه العواطف الممنوحة افتآت على الحقوق . وهذا سر من أسرار النفس العربية التي لا يفطن اليها أكثر من يعاملنا من الأوربيين . فالعربي يحتمل الجوع والظمأ والعري ، ولكنه لا يحتمل أن تمس كرامته . وجميع ضروب الحرمان مألوفة عندنا إلا حرمان الكرامة . ومن أجل ذلك تضيق صدورنا بالنقد ، ولا سيا إن شممنا فيه سوء النية ، لأننا نحمله على أنه ضرب من الافتآت على الكرامة . ومن أجل ذلك تعمل الوشاية في نفوسنا عملَ السم . ويحدث الفساد والتضريب في صفوفنا من الانشقاق ما لا يحدثه سلاح آخر .

ونبالغ بالاعتزاز بالنفس إلى حد أننا نأبى تحري الوشايات والدسائس ، ويبلغ غضبنا أقصاه عند سماع الطلقة الأولى من بندقية الواشي النذل ، ولا نبقي مجالاً للتثبت من صحة ما قيل ، ولا تطيق أعصابنا تحمّلَ الإهانة ، فتنهار الصلات في لحظات انهيار الرمل .

ما هذا ، أيتها العزيزة ، أهذه رسالة مشوق أم بحث يعرض على أستاذ ؟! اكتبي إليّ أيتها الصديقة وأسمعيني صدى أحاديثي هذه في نفسك . فإني لا أفتأ أفكر فيك وفي مطارح الهوى والفتنة . أتذكرين رحلتنا على الأقدام في مروج « كِنْت » ؟ لكأنها كانت أمس ، نعم أمس ، وإلى اللقاء .

اسحق موسى الحسيني



هل المرأة وفية

للسيدة وداد سكاكيني

تجول في خاطري قصتان . إنهما لتلوحان كما تتلوى أفعيان ، كل واحدة منهما تحمل السم الزعاف . وقد ذكرت وأنا أفكر فيهما قول الجاحظ في أول كتاب «العصا» : لا تلد الحية إلا حية . فقلت أي الحيتين ولدت الأخرى ؟

أما السم الزعاف فسيرى القارئ مكنونه ، وأما القصتان فإحداهما لأديب التهكم الفرنسي فلتير ، والثانية للسيدة الصينية زوجة شنج كاي شيك . ولئن كان فلتير حيًّا بيننا فلا يعنيني ما سيكون من أمره مع السيدة الصينية ، هل كان يشكوها إلى محاكم الأدب أو يترك أمرها إلى أهل النقد ؟ وإنما الذي يعنيني ويجب أن لا يفوتني الاهتمام ، به أن كلتا القصتين تخلعان لباس الخيانة على المرأة وتدعيان أن لا وفاء عندها ما عاشت بين الرجال .

ففي القصة الصينية يؤتى الشيخ الوقور « تشوانج تشو » لباب الحكمة ويوهب إتيان المعجزات ويزهد في مناصب الحياة وألقابها ، فلما عرضت عليه الوزارة فرَّ بزوجته يخبط في البوادي هائماً على وجهه ، فراراً من هذه الوزارة التي رأى فيها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، قانعاً بزوجته المخلصة الأمينة التي كانت تهدهد نفسه بالحب والوفاء ، فمرَّا في بعض الطرق بامرأة مجلببة بالحداد مكبة على قبر رطب التراب ، وبيدها مروحة تلوّح بها ، فسألها الحكيم الصيني عن سبب فعلتها ، فقالت : إنها عاهدت زوجها على أن تبقى وفية له بعد موته حتى يجف تراب قبره ، وقد جاءها خاطب قبل أن يجف هذا التراب ، فأكبت على الجدث تنشفه بالمروحة . فيجفل الحكيم من هذه المرأة ويسري في ظنه ريبة بوفاء زوجته ، وطالما ادعت له أنها وفية مخلصة .

وكان شيخاً أشفى على الفناء . فلما دَمَر عليه الموت اصطنعت زوجته الجزع والحنان ، فأخذ عليها أن لا تتزوج بعده ، وأن تدفنه في جانب مكتبته بداره ، ولبست عليه الحداد فلم تدّهن ولم تتزين ، حتى وفد تلميذه من القرية النائية فاتخذ إليها الأحابيل ؛ ظاهرها

الأسى وباطنها الهوى ، ثم أغراها بالزواج فنقضت عهدها ونكثت وفاءها وغدت بالتلميذ متيمة مغرمة ، وقد أرادها على أن تنقل ضريح أستاذه إلى خربة خلف الدار ، وأن تعطيه المال وتعترف أنها لم تكن تعد زوجها حكيما عليما ، وما كانت تواتيه حبّاً .

فعلت كل هذا راضية مطمئنة ، فإذا أقبلت عليها البهجة ليلة العرس بوغتت بنازلة موجعة تفري حشا عروسها الذي أخذ يستغيث طالباً إليها أن تعالجه بمخ رجل مات منذ قريب فإذا أكل المخ عاجله الشفاء ، فتسارع المرأة إلى ضريح زوجها . وإنها لتهده ، وإذا بحكيم الصين يناديها من جوف القبر ، فتبهت المرأة لهول الخيانة .

هذا مجمل القصة الصينية . وأما القصة الفرنسية فإن الحكيم البابلي زاديج وقد أصاب عينه العور في سبيل زوجته الأولى ، فكانت هذه الزوجة تكره أن تمد بصرها إلى سحنته فترى عواره ، وبقيت تنازعه أمرها حتى طلقها ، وجعلته لا يركن بعدها لوفاء النساء ، وما لبث أن تزوج بعدها امرأة كانت تظهر له من البرّ والوفاء مالا حدّ لتصوره ؛ فغدا بها يوماً على ضاحية فرأيا امرأة في لباس الحداد مكتئبة حيال قبر وهي تحفر مجرى لساقية ، فسألاها الخبر ، فقالت : إنها نذرت أن تبقى لزوجها وفية بعد وفاته ما دامت الساقية تجري إلى جانب قبره ، وقد جاءها خاطب مُلِحّ في زواجها متعجل ، فقامت إلى الساقية تحول مجراها لتمضيَ بعيدة عن القبر ، فيكون ذلك تحلةً لها من نذر الوفاء .

فيوقر الشك نفس الحكيم زاديج بزوجته الوفية ، وتدور أيام فيدركه الوهن ثم تنخذل قواه فإذا هو على سرير الموت ، وامرأته أمامه باكية لاهفة ، حالفة أن تبقى على الوفاء له ، فيموت قرير العين بعد أن وصاها بدفنه في بيته ، ففعلت وأقامت على قبره نادبة ناحبة ، حتى أتاها صديق له كان يعرف سره ودخيلته ، فاصطنع الوجوم لخطبها ، وبذل لها الود والمواساة ، ثم آل أمرهما إلى الغرام ، فتعاهدا على الزواج .

وإن المرأة لفي ثوب عرسها ، إذا بعروسها صديق الحكيم زاديج يصرخ من ألم في بطنه وهو مطروح أرضاً فتكب عليه فزعة مفدّية ، فيقول لها : لا يشفيني سوى أرنبة رجل مات منذ قريب ، فتهب وبيدها سكين فتفتح عن زوجها المتوفى غطاء ضريحه ، وإنها لتهم بجدع أنفه إذا به يمسك بيدها ويقول لها :

— لقد كنت يازوجتي أعظم وفية !

وسيعلم القارئ الذي يشغلني وعيه ، أيّ سم عنيت في القصتين ، وأية أفعى رقدت كل واحدة منهما تفح وتتلوى ، وسيعرف معي أن هاتين القصتين — بما أكلت الواحدة من لحم الأخرى — عليهما سمات الوضع والتخيل وفيهما عنصر التهكم والتطرف.

وهكذا تمضيان في آفاق الأدب ودنيا المرأة ، ويمضي معهما كثير من هذه الأقاويل التي نسجها الخيال وأملاها الحقد ، على أنها حقائق راهنة وحجج دامغة على غدر المرأة وبعدها عن الوفاء .

وليس لي أن أحاسب السيدة الصينية التي طالما شغلتها السياسة عن مثل هذه القصة وقد جاءت بها مقتدية مقلدة ، وإنما آخذ شيخ الساخرين فلتير بما آخذه به قريع جنسه الشاعر ألفريد دوموسيه الذي قال : إن فلتير بث الإلحاد والفساد في نفوس الشباب بعصره . وصور الشاعر موسيه في كتاب اعترافاته كيف جنى الشعراء والأدباء بآرائهم ومقولاتهم على الحقيقة والواقع .

ومن هذا القبيـــل ما يردده رواة الأخبار من نوادر وأحاديث يتفكهون بها ويتهكمون ، على غدر المرأة ومكرها ، وإنها لأقاويل تجري في إيثار وفاء الرجل فتزعم أنه وحده الوفي الأمين وأن المرأة هي الخوانة الجحود .

وتأملت إلى أية غاية من إفساد المجتمع يمكن أن تجري بالإنسانية مثل هذه الألهيات الهازلة ، فيكون منها أبداً غذاء لمظنة الرجل بالمرأة ظن السوء ، وقد خلقت من نفسه ليعيشا في مودة ورحمة ، حتى استقر في ظن أكثر الرجال خشية من المرأة وريبة فيها ، فنفروا من الزواج ، وآثروا الوحدة والعزوبة . وبلغ من سوء ظنهم أن ارتابوا في كل امرأة ؛ فلو رأوها قانتة لله لقذفوها برجم الظنون ، وإذا لمحوها في درب تجاوبت أصداء نفوسهم بالريبة ، فحسبوها ذاهبة للقاء عاشق ، وإن أبصروها تتبسم ظنوا تبسمها شباكاً لصاحب ، ولم يقصروا معرتها في الزواج وإنما عمموها ؛ فهي عندهم ماكرة غادرة في كل مرافق الحياة ، وشواجر الصلات .

وانتصبت لهؤلاء المرجفين منارات دلتهم على عطفات الطريق الذي سلكوه في عداوة المرأة ، وكانت تلك المنارات فلاسفة وأدباء ابتلاهم الله بالعزلة وسوء الظن والوسواس ، فصرخ في أواسط أوربا شوبنهاور معلناً فساد المرأة وغدرها ، ملعلعاً صوته كناقوس على ميت ، فأفزع رجال الغرب من النساء ، وصاح في الشرق شيخ المعرة منددا بخبث المرأة ومكرها ، فصب عليها في لزومياته سوط عذاب ، وجردها من كل الفضائل ، وأعمها وأهمها الوفاء . وكان أبو العلاء يرحمه الله بعيداً عن المرأة ، مصاباً بالوسواس العقلي الذي جرّ عليه لوم الناقدين حين بحثوا عقيدته وتحيروا في إيمانه .

ولم يخل هذا العصر من لمز المرأة في وفائها كشيخ المتهكمين في الغرب برنردشو ، ومثله فريق من أدباء الشرق وخاصة في مصر ؛ فكان من دأب هؤلاء الأقربين أن يتندروا

بمقالاتهم ويتطرفوا بتجريح المرأة في وفائها وثقافتها ، بدلا من أن يزحزحوا العوائق من دونها ، ويأخذوا بيدها ويسددوا خطاها ، فلو رجعت إلى هؤلاء المتندرين أو المتطيرين لرأيت في حياة كل منهم امرأة لفحت نفسه بجاحم من كيدها فراح يأخذ النساء بجريرتها تشفياً وانتقاماً .

ولكن رُوَيْدَ الرجال ! أفكان الغدر وقلة الوفاء مقصورين على المرأة وحدها دونهم ؟ أليس فيهم من لم يمس الوفاء قلبه ؟ دأبه الغدر والتنكر ، وما أهون عليه إذا أيسر أو تحلل من الشرع أن يطلق أو يفارق فينسى من كانت تألفه في المنزل الخشن !

قيدوا الرجل بقيود المرأة ثم انظروا في مواطن وفائه إن كان يظل فيها مكان لوفاء واحد . على أنه ، وهو في بحبوحة حريته ، ضنين بالوفاء إلا ما ندر ، ولو وفى لملأ الدنيا إشادة بصنعه ، وقل أن يفي بالحياة الزوجية ؛ إذ في الرجال من يبني بالمرأة الجديدة والزوجة السابقة لم يغبر كفنها ، أو يفكر في الثانية وهو يمشي مطرقاً وراء نعش الأولى !

والرجل بطبعه أقدر على الغدر من المرأة وأكثر فزعاً إلى التحايل والتعليل فيما ينقض من عهود ويخلف من وعود ، وإن في مكر رجال السياسة ونكثهم للمعاهدات لأكبر حجة للمرأة على غدر الرجل . وقد شاهدنا في حرب الأمس أية قيمة للمواثيق المحرجة والعهود المغلظة ، التي كانت من طواغيت العدوان .

وما كانت كل النساء وفيات ؛ فالغدر والجحودُ من شيمة الإنسان ، وهما من الأدواء التي يشكو منها المجتمع منذ كان . ولعمري إن غدر المرأة وتنكرها في كثير من الأمر لآتيان من الرجل نفسه . ففي القصة التي نشرتها المرأة السياسية ، نتبين أن الحكيم الصيني هو الذي أرسل تلميذه الجميل ليغوي زوجته الوفية ، فغلبها على أمرها بالحيلة ، والمرأة أضعف من الرجل ، كما أن الحكيم البابلي هو الذي بعث بصديقه ليغري زوجته بالاحتيال فترضى به زوجاً جديداً .

فهات الرجل الوفي تلقَ المرأة الوفية . وليس على من ندّ المعول . ولو شئت الاستشهاد لضاق المجال ؛ ففي تاريخ العرب تقرأ العجب فيما أثر عن المرأة من وفاء ، كحديث نسوة أيامى — حساناً وغنيات — أبين أن يتبدلن بأزواجهن أزواجاً آخرين ، ولو أمراء وسلاطين ! كان فيهن من لم تتحرج من إيثار الوفاء لزوجها بعد موته ولأولاده على ان ترضى بمحمد زوجاً ، فامتدحها النبي مثنياً عليها ، بل كان وفاؤها للزوج حياً أو ميتاً ، لا يعد له وفاء . وليس بفائتي أن أذكر عمرة بنت النعمان بن بشير التي قتلت باطلاً على غير ذنب ، لأنها أبت أن تقر لأعوان مصعب بن الزبير بكفر زوجها وتبرأ منه كما

فعل قومه ، فُجلدت وقتلت وفاءً لزوجها وبُقيا على ذكراه ، وفيهن من شوهت محاسن وجهها ، فدقت ثناياها أو جدعت أنفها لترد خطابها وتصدهم عن إغرائها وابتغائها ، كنائلة زوج عثمان ، وخولة بنت زيان بعد مقتل زوجها عبدالله بن الزبير .

وبدا غدر الرجل في كثير من حوادث العرب ، فإن النوار بعد أن سلمت قيادها إلى ابن عمها الفرزدق ليزوجها من يراه لها أهلا ويعده كفواً ، جاء بها إلى مسجد قومه بني مجاشع وقال لهم : اشهدوا أنني زوجت نفسي من نوار ، فرمحته نوار نافرة وهربت منه إلى الحجاز ، مستجيرة بابن الزبير ، وكانت قيود الأحكام تمنع مثل نوار أن تنكل عن التزوج بعد أن وكلت إلى رجل أمر هذا الزواج .

ولكم كشر رجال مستبدون عن نيوب الغدر والجحود ، فإذا قلبت صفحة الزواج ونشرت صفحة السياسة وجدت في تاريخ الشرق والغرب قديماً وحديثاً مثالب ليس مع مثلها نهوض حجة للرجال على وفائهم أكثر من النساء .

فويح حظ المرأة من الرجل ! إنها لهفتي بعد أن كتب الرجل التاريخ وسجل الحوادث حسبما أملى هواه ، ولكن من يدري لعل عهداً يُقبل على المرأة فتكتب هي فيه التاريخ ، ويقرأ بعدها الرجال حوادث يقول يومئذ ناقدوها : إن المرأة كتبتها حسبما أملى هواها .

وفيمَ لا يعود الإنسان بجنسيه إلى التصافي والإنصاف ؟ فينزع الرجل من صدره الغل للمرأة ويتبادلان المودة والرحمة ، وما الحياة داراً نتعادى فيها ونتفانى ، وهي أهون — كما قال أبو الطيب — من هذا التعادي والتفاني .

وداد سكاكيني



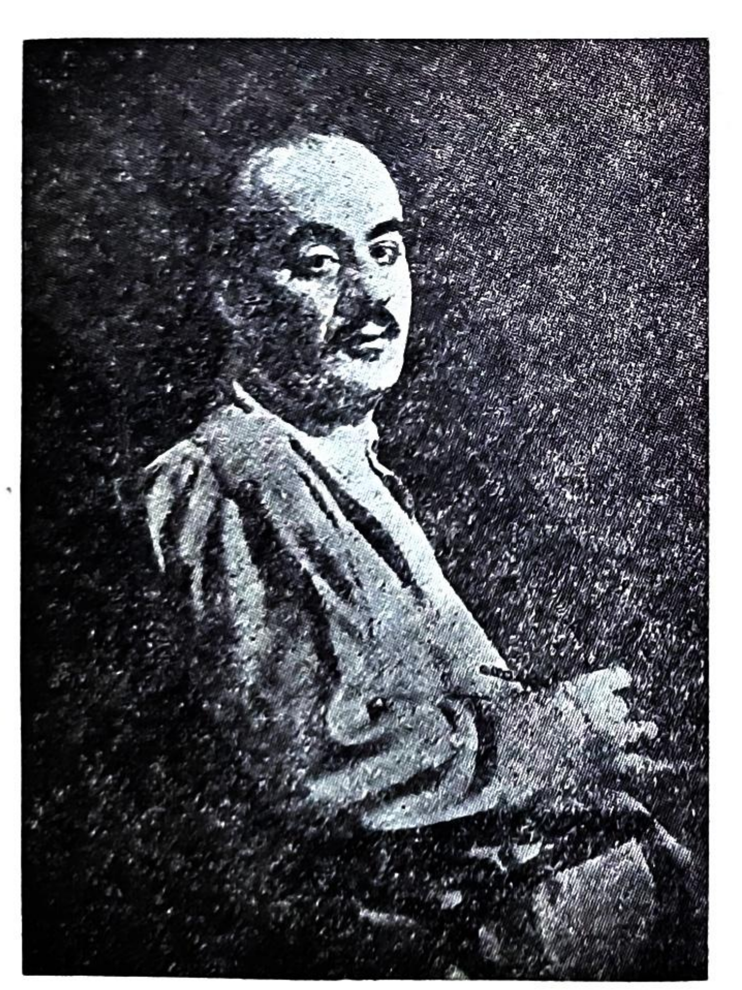
أعلام النهضة الحديثة

٤

جُبران خليل جُبران

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

زارني ذات يوم قبل هذه الحرب أمريكي ، فجلسنا نتسامر في الحجرة التي كنت أفردها للكتب ، وكانت يومئذ بضعة آلاف ، بعت معظمها بعد قيام الحرب ، وكان الحديث ذا شجون ، فاستطردنا إلى الكتب وأدباء أمريكا ، وكانت عندي من آثارهم طائفة صالحة متخيرة ، فقام إلى الرفوف يجيل فيها عينه ، ثم تناول كتاباً صغير الحجم وسألني أن أعيره إياه .



قلت : « حباً وكرامة... أي كتاب هذا ؟ » .

قال : « النبي لجبران » .

فشاع في نفسي السرور ، لأن اختياره لم يقع إلا على كتاب لرجل شرقي ، آثره على ما عندي من براعات الغرب ، فتناولته منه ، وكتبت عليه كلمة إهداء ، وقدمته إليه .

وكان هذا أيسر ما أجزيه به على ما أدخل على نفسي وأفعمها به من سرور .

***

« والنبي » خير كتاب أخرجه جبران — بالإنجليزية والعربية جميعاً — وفيه يتخيل أن من سماه « مصطفى » وجعل الناس يخاطبونه بقولهم « يانبي الله » ، قضى اثني عشر عاماً في مدينة « أرفليس » ينتظر أن تعود إليه سفينته لتحمله إلى الجزيرة التي ولد بها . ثم يرى من فوق أكمة سفينته مقبلة ، فيهبط إلى المدينة ليودع أهلها ، فيحفون به ويلحفون عليه أن يبقى بينهم ، فيمضي بهم إلى ساحة أمام الهيكل فتخرج إليه «ألميترا» وكانت أول من آمن به بعد يوم واحد من قدومه إلى المدينة ، فترجو منه أن يحدثهم ويعظهم قبل الرحيل ، فيلقي عليهم خمساً وعشرين عظة ؛ يتناول فيها نواحي شتى من نواحي الإنسانية ، ثم يركب السفينة ، ويكر راجعاً إلى بلاده .

ويقول الأستاذ ميخائيل نعيمة صديق جبران الأثير ، ومترجمه ، إن مصطفى هو جبران نفسه ، وإن « ألميترا » هي ماري هسكل التي فطنت إلى عبقرية جبران ، وهو فتى ، فأعانته على السفر إلى فرنسا ودرس التصوير فيها ، وكانت تبعث إليه كل شهر بخمسة وسبعين دولاراً يستعين بها على العيش ، وواظبت على أداء هذه الضريبة التي فرضتها على نفسها ؛ حتى بعد أن استغنى عن معونتها . وإن أرفليس التي كان فيها مصطفى غريباً ، هي نيويرك أو أمريكا ، وإن الجزيرة التي ظل اثنتي عشرة سنة يتلهف على العود إليها ، هي لبنان .

ثم يقول نعيمة : « وما وعده لأهل أرفليس بأنه سيعود إليهم سوى إيمانه بعقيدة التناسخ القائلة إن الموتى الذين لم ينهوا دورة الحياة الكاملة ، يعودون حتما إلى الأرض ليجددوا عليها ويكملوا فيها العلائق التي تركوها عند موتهم . ولك إذا شئت ، أن تتخيل في غربة مصطفى في أرفليس ، غربة الروح عن ربها أثناء دورتها الأرضية ، وأن ترى في عودته إلى الجزيرة ، عودته إلى مصدر الحياة الأسمى . فالشاعر يترك المجال فسيحاً لخيالك ، وفي ذلك سر من أعظم أسرار فنه » .

وملاحظة الأستاذ نعيمة في الصميم من حبة الصواب ، فإن خير الأدب ما أفسح لخيالك المجال ، ولم يأخذ عليه مُتَوَجَّهه . وهذه مزية جبران في أدبه ، وفي صوره ، فكل ما تقرؤه له ، أو تتأمله من صوره ، يغريك بالتفكير ، ويستحث خيالك . ولعل الفضل في هذه المزية راجع إلى القصور ، فقد كان لا ينفك يقول إنه لم يُلق إلى الناس بكل ما عنده ، وعسى أن تكون راجعة إلى أنه لم يعرف في حياته الاستقرار وسكينة النفس .

وقد بلغ من أثر كتاب النبي أنهم كتبوا على ضريحه في « مارسركيس » بقرية بشرّي ، « هنا يرقد نبينا جبران » ، ثم كأنما استحيوا أو رأوا أنهم أسرفوا ، فغيروا مواضع النقط في كلمة نبينا ، وجعلوها « بيننا » .

ومثل « النبي » في بعض الكنائس وبعض مدارس البنات بأمريكا .

ومن ظريف ما أثمره هذا الكتاب أن فتاة بعثت إلى جبران رسالة إعجاب تفيض إخلاصاً وحباً وإكباراً ، وكان في الرسالة عنوانها ورقم تليفونها ، فخاطبها شاكراً لها طيب ثنائها ورحب بما رغبت فيه من زيارتها ، فأقبلت عليه تصف له وقع الكتاب في نفسها، وكانت لم تقرأ له سواه ، وانصرفت عنه وبها نشوة من حديثه ، وتوالت الزيارات ، وكان ما لا بد أن يكون ، فما كان جبران نبياً ، وإنما كان بشراً مثلنا ، فعصرت الندامة قلب الفتاة وأكلته ، وخاب أملها بعد الأوان ، فكتبت إليه تعنفه ، وتلوم نفسها ، وتندب حلمها الجميل الذي انتسخ ، وإيمانها الذي ولّى ، فدعا إليه الفتاة واستغفرها وعرض عليها الزواج . ولكن عمره لم يكن قد بقي منه إلا شهور .

وقد استنكر نعيمة أن يصور جبران نفسه « نبياً » ولو تحت نقاب من التمويه الفني ، وليس يسع أحداً إلا أن يستكثر هذا الشطط ، غير أن حياة جبران تفسره ، وتجعله غير مستغرب من مثله ، وإن كان في ذاته مما يُستهجن .

ففي حداثته ، رأى في فجر الجمعة « الحزينة » أخاه وبعض لداته حفاة على أهبة الخروج ، وفي نيتهم أن يصعدوا في الجبل « ليتعذبوا » مع المسيح ، ويأتوا بأزهار يضعونها في حفلة جنازه في الكنيسة ، وأراد أن يكون معهم فأبوا . وقبيل الغروب ألفى القوم جبران الصغير في المقبرة خلف الكنيسة ، ومعه طاقة من الزهر ، وقد قال لهم إنه ذهب إلى البرية وحده « ليتعذب » مع المسيح ، وإنه جاء بأزهار ليضعها في الكنيسة فوجدها موصدة ، فانثنى إلى المقبرة يبحث بين القبور عن قبر المسيح ليضع الزهر عليه .

ولسنا نغالي بحادثة كهذه كانت في الصغر ، ولو كانت مفردة لأهملناها ، ولكنها تصبح ذات دلالة لا تخفى إذا ذكرنا أن جبران ، بعد ان أخرج كتابه « النبي » ، ألف كتابه « يسوع بن الإنسان » ثم كتابه « آلهة الأرض » فأولى الرجل معقودة بأخراه كما ترى .

وثم أمر آخر وثيق الصلة بما أسلفنا ، هو أن جبران كان في سريرته يشعر بنقص ويتمرد عليه .

يروي نعيمة هذا الحديث بين جبران ، وهو ما زال صبياً — في بُسطن — وبين امرأة متزوجة عشقته ، وكان يومئذ يرى فيها « ملاكاً حارساً » له :

« إلى مَ تعذبني يا خليل » ؟

« لا تسميني خليل » اسمي "المستر" جبران » .

« ما كنت أظنك حقوداً قاسياً إلى هذا الحد . أمن أجل أني قلت عن صورتي الزيتية التي كانت سبب تعارفنا ، إنها كانت أجمل من صورتي التي رسمتها أنت بقلم رصاص ، تمزق ما رسمت وتفعل بي ما فعلت » ؟

« لم أفعل جزءاً من مائة مما كان الواجب أن أفعل . أنت لا تفهمين من الفن شيئاً ، ولا تميزين رأسه من ذنبه . لقد صورتك شفافة كروح ، جميلة كخيال ، بعيدة كحلم . صورتك كما أراك بعين حي ، فاستغربت الصورة لأنك من تراب ، ولا تبصرين نفسك إلا بعين من تراب ، ومن كان من تراب فهو لا يعرف العذاب ، أما صديقك الذي صور هذه الصورة ، فهو لا يفهم فى الفن أكثر مما تفهمين ، فالحقي به ودعيني وشأني » .

« عيب عليك أن تقول ذلك ، فللرجل مقامه وشهرته في عالم الفن ، ولعلك متى بلغت سنه ، وكان لك اختباره ، تكون أعظم منه ، أما الآن فإنك ما تزال في أول عمرك » .

« في بنصري من الفن أكثر مما فى كل رأسه . ومن ثم فاعلمي أني أكبر منك ومنه . وإذا كنت لا تزالين تحسبيني صبياً ففي مقدوري أن أريك كيف يستغني الرجال عن النساء » .

وكان يومئذ فى الرابعة عشرة من عمره ! وكان قد خرج قبل ذلك بأسابيع لأن هذا المصور ، الذي يقول الآن إنه هو أعظم منه وأدرى بالفن ، أعطاه حزمة من الأقلام الملونة !

ويقول لأخيه بطرس « لقد نسي الناس فن الكتابة يا بطرس ، وشغلوا عنه بصناعة رصف الكلام ، فلا روح ولا جمال فيما يكتبون . ولو عادوا إلى سفر أيوب والمزامير ونشيد الأناشيد لعرفوا أن العواطف إذا ما فارت ، والأفكار إذا ما ثارت ، ضاقت عنها القوالب المحدودة وغصت بها المجاري المألوفة . . . »

ومن صوره الأولى « عودة الروح إلى الله » و « فوارق الألم » .

وقد سئل مرة : « لماذا تكثر من رسم الأجسام العارية ؟ » فقال : « لأن الحياة نفسها عارية ، والجسم العاري هو أجمل وأقرب رمز للحياة » .

وقال لماري هسكل يوماً « الطبيعة أعظم من أن تقلد . ومهما تسامى الفن ، فهو لا يأتي بمعجزة من معجزاتها . فما الحاجة إلى تقليد الطبيعة وهي محسوسة لكل ذي حس! إنما الفن أن نفهم الطبيعة ونؤدي معانيها لمن لا يفهمونها . الفن أن نؤدي « روح » الشجرة لا أن أنصور جذعاً وفروعاً وأغصاناً وأوراقاً تشبه الشجرة . الفن أن نأتي " بضمير " البحر لا أن نرسم أمواجاً مزبدة » .

ومن كتبه « الأرواح المتمردة » و « يوحنا المجنون » . ومن صوره ما أراد به أن يصور جانباً من عقيدة التناسخ . وكان وهو في باريس يدرس الفن — بمال ماري هسكل — يقرأ بليك الشاعر الإنجليزي الغامض والمصور البارع ، ويسأل نفسه : « أترى روحه قد عادت إلى الأرض وارتدت جسدي ثوباً ؟ » .

وقال لنفسه يوماً وقد انصرفت عشيقته عنه : « أنت مصاب بداء الكلام ياجبران، ولأنك تخجل مما فيك من ضعف بشري ، تعكف عليه فتستره بحلة من الكلام الجميل والألوان البهيجة » .

ويقول مترجمه نعيمة في وصف علاقته بماري هسكل : « لم يكن يتعب ماري في علاقتها مع جبران غير أمر واحد ، هو أنها وجدته كثير الشكوك ، شديد الحرص على شخصيته ، يخشى عليها أن تمس بأقل ملاحظة أو إشارة ، حتى إنه ليعادي صديقاً وفياً من أجل كلمة بريئة قد يخيل إليه أن فيها مساً بكرامته ، ويصادق عدواً لدوداً إذا سمع منه أو عن لسانه كلمة إطراء . وبقدر ما يستمرّ النقد من أي نوع كان ، يستعذب المديح مهما كان مصدره ، ويفعل المستحيل للحصول عليه . ثم إنه لشدة نهمه بالمديح ، وخوفه من النقد، ولأنه تعود التفكير والكلام والكتابة والتصوير بالمجاز ، كان يستخلص من الكلمة الواحدة معاني كثيرة حيث لا يستخلص سواه غير معنى ، ويقرأ سطوراً في سطر ، ويبصر ألواناً عديدة حيث لون واحد لا غير » .

وقد عرض الزواج على ماري هسكل ، على سبيل الشكر لفضلها عليه ، « ولتعرف ماري أن جبران يعرف قيمة الجميل إذا رافقته المحبة » . فسألته ماري : « وهل أنت نظيف ياخليل ؛ هل جسمك نظيف ؟ » . فانصرف عنها « وقلبه في ديجور ، وفكره في بركان » ، وكيف تجرؤ أن تشك في نظافته ؟ وماكان يريد بما عرض عليها إلا أن يتركها مدينة له ، بدلا من أن يكون هو مديناً لها !

ثم فتن بفردريك نتشة الألماني ، وبمثل الإنسان الأعلى — السوبرمان — وظهر أثر هذا الافتتان في كتابه النبي الذي احتذى فيه القالب الذي صب فيه نتشة كتابه «هكذا

قال زاردشت» . ولكن هذه الفتنة لم ترحه مما كان يشعر به من الوحدة والوحشة والغربة، وصار يخجله كل ما كتبه من قبل ، وكاد يعدل عن نشر كتابه « الأجنحة المتكسرة ».

وكتب إلى صديق له استأذنه في جمع مقالات « دمعة وابتسامة » يقول :

« إن الشاب الذي كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودفن في وادي الأحلام ، فلماذا تريدون نبش قبره ؟ افعلوا ما شئتم ولكن لا تنسوا أن روح ذلك الشاب قد تقمصت جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال، ويميل إلى الهدم ميله إلى البناء فهو صديق الناس وعدوهم في وقت واحد » .

ويروي مترجمه أنه بعد افتتانه بنتشة « صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة كبشرّي ، في بلد صغير كلبنان ، ويحسب أن من كان مثله يجب أن تكون ولادته ملتحفة بلحاف من السر والسحر . وأي البلاد أكثر سحراً وسراً من الهند ؟ لذلك عند ماطلب إليه نسيب عريضة بعض معلومات عن حياته لينشرها في مجلة الفنون ، قال له إنه ولد في بمباي بالهند ، إنما لا يهمه أن يشيع السرّ بين الناس ، ولا بأس بأن يضعه نسيب عريضة بين هلالين وهي أكفل طريقة لشيوعه » .

ولهذه القصة الطريفة بقية . قال المترجم : « وهكذا كان ، وظهرت تلك المعلومات في « الفنون » وهي تقول : إن جبران ولد سنة ١٨٨٣ في بشرّي من أعمال لبنان ، (ويقال بل في بمباي الهند) » إلخ . وقد نقل هذه المعلومات بحذافيرها ناشر « البدائع والطرائف » في مطلع الكتاب ، وجاء فيها علاوة على ذلك أن جبران حاز شهادة الامتياز ، من كلية الفنون الإفرنسية ، وسمي عضواً في جمعية الفنون الإفرنسية ، ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الإنجليزية . والمرجح أن جبران لم ينل شيئاً من كل ذلك ، بل كان « يشتهي » لو يناله ، لأن هذا الناقم على الناس ، والمتقزز من صغارهم واستعباد تقاليدهم لهم ، كان أشدهم تعلقا بتلك التقاليد » .

ونكتفي بهذا القدر .

وبعد : فإن جبران شاعر وكاتب وفنان ، ولكن صوره أجمل من شعره ، وأعظم شأناً ، وهو شاعر مطبوع ، ولكن الأداة ، ولا سيما في العربية ، كانت تنقصه . أما التصوير فقد أتقن أداته ، وحذقها ، حتى صار من أعلامه حتى في الغرب . ومحصوله في الأدب والفن وافر ، ولكنه ليس على استواء . ولا قيمة لهذا ، فإن حسب أيّ كاتب أو شاعر ، أو فنان ، كتاب واحد ، بل فصل من كتاب ، أو قصيدة مفردة ، أو صورة.

إبراهيم عبد القادر المازني

محمد عبده وشهادة العالمية

للأستاذ عبد المنعم حمادة

نشرنا في الجزء الماضي من الكتاب مقالاً عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، للدكتور عثمان أمين ويسرنا أن نتبع ذلك المقال بوثيقة تاريخية بعث بها إلينا الأستاذ عبد المنعم حمادة مصحوبة بالكلمة الآتية :

انتقلت قيادة الفكر في العصور الأولى من تاريخ الإنسانية من الشعراء إلى الفلاسفة . ولم يكن هذا الانتقال في أيام ولا في أعوام ، ولكنه حدث خلال فترات طويلة من الزمن ، استطاع أولئك الفلاسفة في نهايتها أن يسيطروا على عقول الناس ويوجهوها الوجهات التي يريدونها ، وأن يؤثروا فيهم التأثير الذي يرسمون خططه . غير أن الفلاسفة لم يكونوا جميعاً على حظ واحد من حسن التقدير واقتناع الناس بآرائهم وأفكارهم ، فقد كان بعضهم سيء الحظ ، فلقي في سبيل دعوته ونشر آرائه الكثير من العنت والإرهاق ، حتى لقد انتهى تاريخ حياتهم بفواجع دامية ومآس قاسية .

وهناك ظاهرتان واضحتان في حياة الفلاسفة خلال الأزمنة الماضية ، فأما الأولى فهي أن الفلسفة لم تكن بقادرة وحدها على أن تمتّع صاحبها بالحياة التي تتوق إليها نفسه ، أو أن تمكنه من الظهور بالمظهر الذي يهواه . ولذلك كان الفيلسوف كثيراً ما يلجأ إلى الملوك والأمراء ضماناً لرزقه وكسائه ، وظهوره في المظهر اللائق بعلمه وفضله . ولم يكن التقرب إلى الملوك والأمراء مأمونَ العاقبة في جميع الحالات ، فالتاريخ يحدثنا بأن هذا التقرب كان سبباً في نكبة بعض هؤلاء الفلاسفة واضطهادهم .

أما الظاهرة الثانية فهي أن الفلاسفة كانوا إلى عهد قريب موضع ارتياب العامة والخاصة : إما خوفاً من آرائهم وأفكارهم الطريفة المستحدثة ، وإما حسداً على مكانة من العلم لم يستطيعوا البلوغ إليها . ولذلك كان الفيلسوف يعيش في وطنه وكأنه غريب عنه . وقد أدّى هذا الشعور أو هذه الحقيقة ببعض الفلاسفة إلى الارتحال عن أوطانهم بحثاً عن عقول نيرة مستعدة لسماع آرائهم وأفكارهم ، وأراضٍ خصبة صالحة لنمو هذه الآراء والأفكار .

ولم تكن هاتان الظاهرتان ملحوظتين في ناحية من نواحي العالم دون غيرها ، ولكنهما كانتا في الغرب والشرق على السواء ، وتعرض لها الفلاسفة في كلا الطرفين على درجات متفاوتة ، وفي صور مختلفة .

ولم يكن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلا واحداً من هؤلاء الفلاسفة الذين تعرضوا لهذا العنت وهذا الإرهاق ، فقد اتهم بالزندقة والإلحاد منذ أن كان طالباً بالأزهر الشريف ، ولم يكن الدافع إلى ذلك غير آرائه وأفكاره التي سبق بها زمنه ، وتفوّق بها على معاصريه .

ولعل أكبر دليل على هذا العنت وهذا الإرهاق ما لقيه من أساتذته الأزهريين في سنواته الأخيرة من طلب العلم ، وما تعرض له من محنة في أثناء تأديته امتحان شهادة العالمية ، فقد تقدم عام ١٨٧٧ ميلادية لهذا الامتحان ، ولكنه رأى وجوه الممتحنين عابسة ، وأحس قلوبهم منه نافرة ، ورأى في الأسئلة الموجهة إليه صعوبة وشدة ، رغبة فى إحراجه ، وتشوقاً إلى تعجيزه . ولم يكن من الصعب على محمد عبده معرفة أسباب ذلك كله ، فقد كان مكروهاً من شيوخ الأزهر الذين اشتدت حفيظتهم عليه لأسباب كثيرة : منها دراسته للفلسفة على السيد جمال الدين الأفغاني ، ومنها نزعته التجديدية التي جاهر بها دون حرج أو خوف ، ومنها الغيرة التي تملكت قلوب المحيطين به من أساتذة وطلبة . وقد كان على رأس المتحرجين الغاضبين ، على الأزهري الشاب ، المرحوم الشيخ عليش ، بسبب ترجيح الشيخ محمد عبده مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية ، وهو أمر لم يكن من الجائز في عرف مشايخ ذلك الزمن أن يخوض فيه طالب ناشىء . وقد ظهر أثر هذه الكراهية كلها في أثناء تأدية محمد عبده لامتحان العالمية ، وفي هذا يقول :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ ، وابتليت في الامتحان أشد البلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش ، وكان يعاديني على الغيب اتباعاً لآراء من لا رشد عندهم من بلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا على أن لا يمنحوني درجة ما في العلم ، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها ، ولكن كان أمر الله أغلب ، فخرجت من الامتحان بالدرجة الثانية ، وصرت مدرساً من مدرسي الجامع الأزهر ، وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية » .

ولقد وقعت لنا النسخة الأصلية للكتاب الذي بعث به الشيخ العباسي شيخ الجامع الأزهر في ذلك الوقت ، إعلاناً منه بنجاح الشيخ عبده ، وحصوله على شهادة العالمية من

اعلان من مشيخة الجامع الازهر

انه بناء على المخاطبة الصادرة من حضرة الشيخ محمد عبده خير الله الحنفي الازهري والاستعلام الصادر من هذا
الطرف في غاية رجب ٩٢ عما تلقاه حضرة المومى اليه من كتب المعقول والمنقول وعن اهليته واستعداده
للتدريس بالازهر لمن يرغب بشهادته تحرى ذلك وادا الشهادة من حضرات افاضل العلما المدرسين
بان المذكور قد تلقى من كتب الفقه على مذهب الامام الاعظم ابي حنيفة من ابتدا مراقي الفلاح الى غاية
الدر المختار ومن التوحيد عقيدة السنوسي بحاشية الباجوري وبشرح الهدهدي وبشرح المصنف وحاشية الدسوقي
عليه وجوهرة اللقاني بحاشية الباجوري وبشرح عبد السلام وحاشية الامير عليه ومن الحديث الجامع
الصغير بشرح العزيزي وصحيح البخاري بشرح القسطلاني ومن التفسير تفسير الجلالين بحاشية
الجمل وشرح الخطيب ومن النحو من ابتدا شرح الكفراوي على متن الاجرومية لغاية الاشموني ومن
المنطق السلم بحاشية الباجوري وبشرح الملوي مع حاشية الصبان عليه وايساغوجي بشرح شيخ الاسلام
وحاشية الحفني عليه وشرح مختصر السنوسي ومن الآداب السمرقندية بحاشية الباجوري وبشرح الملوي
مع حاشية الامير عليه وبشرح العصام مع حاشية الصبان عليه ورسالة الصبان ورسالة الدردير بحاشية
الصاوي ومن الصرف ما بالبنا ولامية الافعال بشرح بحرق وبشرح تصريف العزي ومن المعاني
والبديع والبيان ما بالتلخيص بشرح السعد المختصر مع تجريد البناني عليه ومن الاصول معظم جمع الجوامع
وهو الان فيه لياقة واستعداد للتدريس بالجامع الازهر وعملا بالامر الصادر في شان من يطلب التدريس
قد عقد المجلس المركب من حضرات افاضل العلما المتعينين للامتحانات وجرى امتحان حضرة المومى اليه في احد
عشر علما المعينة بالامر بحضورنا ووردت من حضراتهم الشهادة الاشتهارية في ١٤ رجب ٩٤ بان فيه لياقة
واستعداد للتدريس بالجامع الازهر ويستحق ان يكون في الدرجة الثانية فقد اذنا له بالتدريس بالجامع
المشار اليه وفوضنا له تدريس الكتاب الذي يرغبه باتمامه وهو الشيخ خالد وبذلك صار معدودا
من مدرسي الجامع الازهر وتحرر له هذا الاعلان للمعلومية وحفظا لهذا الامر الهم لعلنا الله تعالى واياه ستر
ما بهم ولما ان كتب للداخلية في ١٤ رجب ٩٤ بالاستحصال على البيورلدي العالي من لدن المراحم السنية
من الدرجة المذكوره باسم حضرة الشيخ المذكور فوردت افادة من سعادة رونلتو قدم ناظر الديوان مورخة
في ١٨ رجب ٩٤ نمرة ٨٧ وبها بيورلدي عالي مورخ غرة رجب ٩٤ من تلك الدرجة ولقد صار تسليم
البيورلدي لحضرته وهذا بطرفه وقد تاشر بقيد ذلك بدفاتر الجامع الازهر حفظا لما صار نساله تعالى
التوفيق لاقوم طريق وحسن الختام بجاه المصطفى عليه الصلاة والسلام ٢٤ رجب ٩٤

الفقير
محمد العباسي المهدي
الحنفي
عفي عنه

الدرجة الثانية ، وأهليته للتدريس بالجامع الأزهر ، ويسرني أن تنشر مجلة الكتاب الغراء صورته على صفحاتها ، إثباتاً لوثيقة تاريخية أصلية في حياة الأستاذ الإمام .

ومن الغريب أن يتعرض الفلاسفة طوال مدة حياتهم لكثير من الإيذاء والاضطهاد في سبيل ما يجهرون به من آراء حرة ، حتى إذا ما انقضت حياتهم ، وودعوا الدنيا وما فيها ، وأصبحوا في ذمة التاريخ ، وعرضت حياتهم للبحث البريء من كل غرض، ظهر للكتاب والمؤرخين أنهم كانوا على حق وصواب فيما نادوا به وأذاعوه . غير أن محمد عبده من القلائل الذين اعترف بفضلهم وعلمهم ، وشهد لهم الناس بمكانتهم واجتهادهم قبل وفاتهم ، فبعد مضي ست وعشرين سنة من حصوله على شهادة العالمية من الدرجة الثانية عادت مشيخة الأزهر فصححت موقفها منه ، تكفيراً عما لحقه في شبابه من غبن ، وردت إليه حقه المسلوب ، ونقلته إلى الدرجة الأولى ، وأخطرته بذلك في كتاب بتاريخ ١٥ مايو من عام ١٩٠٤ ، موقع عليه من السيد علي الببلاوي شيخ الجامع الأزهر إذ ذاك .

وإذا كان محمد عبده قد شهد له بالفضل وعلو المكانة قبل وفاته ، فإن نوره وضياءه لا يزالان يرتفعان في سماء التاريخ ، ولا يزال تقدير الناس له في ازدياد ، ولا تزال مصر في حاجة إلى عالم كالشيخ محمد عبده يجدد للدين شبابه ، ويعيد له مكانته ، ويرفع رايته في كل مكان ، وينتشل العقول من مهاوي الركود ، حقق الله الآمال .

عبد المنعم حماده



من أدب العرب

أم إياس

لما بلغ الحرثَ بن عمرو ملك كندة جمالُ أم إياس بنت عوف بن محلّم الشيباني، وكمالها وقوة عقلها ، أراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من كندة ، يقال لها عِصَام ، ذات عقل ولسان، وأدب وبيان ، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامة بنت الحرث ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت: أيْ بنيّة ، هذه خالتك أتت لتنظر إلى بعض شأنك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق، وناطقيها فيما استنطقتك فيه . فدخلت عصام عليها ، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط بهجةً وحسناً وجمالاً . فإذا هي أكمل الناس عقلاً ، وأفصحهم لساناً ، فخرجت من عندها وهي تقول : «ترك الخداع من كشف القناع» فذهبت مثلاً، ثم أقبلت إلى الحرث فقال لها : « ما وراءكِ ياعصام » ؟ فأرسلها مثلاً قالت : « صرّح المحض عن الزبد » ، فذهبت مثلاً . قال : أخبريني ، قالت : أخبرك صدقاً وحقّاً .

« رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل، وحاجبين كأنهما خُطّا بقلم، أو سوّدا بحمم ، قد تقوّسا على عيني الظبية العبهرة ، التي لم يرعها قانص، ولم يذعرها قسورة ، بينهما أنف كحد السيف المصقول، لم يخنس به قصر ، ولم يمض به طول، حفت به وجنتان كالأرجوان ، في بياض محض كالجمان، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غر، ذوات أشر ، وأسنان تبدو كالدرر ، وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر، يتقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقي دونه شفتان حمراوان كالورد ، يجلبان ريقاً كالشهد ، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة ، ركب في صدر كصدر تمثال دمية ، يتصل بها عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس، ولا عرق يجس، ركبت فيهما كفان، دقيق قصبهما ، لين عصبهما، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، وتركب الفصوص في حفر المفاصل ، وقد تربع في صدرها

حقان كأنهما رمانتان ، يخرقان عليها ثيابها . . . .

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوجه إياها .

فلما حملت إلى زوجها قالت لها أمها أمامة بنت الحرث :

« أيْ بنيّـة ، إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل . ولو آن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أي بنية ، إنك فارقت الجوّ الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً ، فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً .

يا بنية ، احملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموقع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود . والتعهد لوقت طعامه ، والهدوّ عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة . والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير .

ولا تفشي له سراً ، ولا تعصي له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره ، وإن عصيت أمره ، أوغرت صدره .

ثم اتقي مع ذلك الفرحَ إن كان ترِحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرِحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير .

وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين ، حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك . فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك » .

في كفة الميزان

ننشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النقد

الآثار الإسمعيلية في قيام الدولة الفاطمية

تأليف المستشرق و . إيفانوف

٣٣٧ صفحة بالإنجليزية و١١٣ صفحة بالعربية من القطع الكبير . أكسفرد لندن ١٩٤٢

نقد الأستاذ محمد عبد الله عنان

يحتشد سواد الطائفة الإسمعيلية في الهند ولا سيما في إقليم السند ، ولذا غدت الهند مستودعاً لتراث الأدب الإسمعيلي ، ومركزاً للبحوث المتعلقة بتاريخ الإسمعيلية وعقائدهم وآثارهم الدينية والأدبية .

والإسمعيلية كما هو معروف فرقة من فرق الشيعة ترجع إمامتها إلى إسمعيل ابن جعفر الصادق من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب ، ومن ثم كانت التسمية . وإسمعيل هو الإمام الذي يسوق الفاطميون إليه نسبتهم ، ويرجعون إمامتهم ، ويستمدون دعوتهم . وعلى ذلك فالفاطميون هم إسمعيلية بهذا المعنى ، وهم فواطم ينتهون بنسبتهم إلى علي بن أبي طالب وزوجه السيدة فاطمة ابنة الرسول .

وقد كانت نسبة الفاطميين وظروف نشأتهم ، وقيام دولتهم ، على كر العصور مثاراً لكثير من الجدل والريب . ذلك أن معظم الروايات المتعلقة بنسبتهم وتاريخهم مستمدة في الغالب من المصادر الإسلامية السّنية ، ولا يمثل بينها سوى القليل من المصادر والوثائق الفاطمية ، ومن ثم فإن هذه الروايات السنية تعتبر في نظر الشيعة عامة والإسمعلية خاصة، عرضة للريب والمطاعن ، ولا سيما متعلق منها بنسبة الفاطميين وإمامتهم ودعوتهم .

ولهذا يرحب البحث الحديث بكل أثر أو وثيقة فاطمية ، تلقي ضوءاً جديداً على هذه المسائل الخطيرة التي يفضي تمحيصها وتحقيقها إلى إعطائنا أصدق الروايات عن تاريخ الدولة الفاطمية والخلفاء الفاطميين .

وبين أيدينا الآن مؤلف جديد في صميم هذا الموضوع كتبه المستشرق الروسي الأستاذ إيفانوف بالإنجليزية بعنوان :

Ismaili Tradition concerning the Rise of the Fatimids « الآثار الإسمعيلية في قيام الدولة الفاطمية » ونشرته جمعية المباحث الإسلامية الهندية . والأستاذ إيفانوف يشتغل في الهند منذ أعوام طويلة بتقصي الآثار الإسمعيلية العربية والفارسية وتحقيقها ونشرها ، وقد نشر عدة بحوث عن الإسمعيلية والأدب الإسمعيلي ، كما نشر عدة نصوص عربية وفارسية من الآثار الإسمعيلية . وكتابه الحاضر مجهود جديد في هذا الميدان يمتاز بضخامته واستيعابه ، وفيه يحاول على ضوء طائفة مختارة من الآثار والوثائق الإسمعيلية الصميمة ، أن يقدم لنا عرضاً تاريخياً نقدياً للحركة الشيعية التي أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية . ويقول لنا إن الوثائق والمعلومات التي يقدمها إلينا لبثت عصوراً في طي الخفاء ، ولم يسمح بظهورها سوى تطور روح العصر الحديث ، ويقدم إلينا في الوقت نفسه فصولا مختارة بنصها العربي من الآثار الإسمعيلية التي اعتمد عليها في بحثه ، مع ترجمتها باللغة الإنجليزية .

١ — آثار ووثائق إسمعيلية

ويجدر بنا قبل أن نستعرض بحث الأستاذ إيفانوف من الناحية التاريخية أن نلقي نظرة سريعة على الأصول والوثائق الإسمعيلية التي كانت مستقى بحثه وعماد تدليله .

فهو يحدثنا أولا عن كتب القاضي أبي حنيفة النعمان بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله ، باعتبارها أقدم الآثار الإسمعيلية وأكثرها اتزاناً وتحرراً من محاولة تنسيق الوقائع الدينية ، وهي: « كتاب الأخبار » أو « شرح الأخبار » وكتاب « افتتاح الدعوة وابتداء الدولة » وكتاب « دعائم الإسلام ».ويقدم إلينا الأستاذ إيفانوف فصلا من كتاب « الأخبار » يضم الأحاديث التي رُويت عن إمامة المهدي ورسالته ، وفصلا من كتاب « افتتاح الدعوة » يتعلق بهجرة المهدي من الشرق إلى الغرب . وأما كتاب « دعائم الإسلام » فلا يقدم لنا منه شيئاً . ونود أن نسجل هنا أننا في مصر نعرف الكثير عن كتب القاضي النعمان قبل أن يعرفنا بها الأستاذ إيفانوف ، ومن حسن الطالع أنه توجد لدينا بدار الكتب نسخة مصورة من كتاب « الأخبار » وهي في مجلدين كبيرين . وقد ذكر لنا مؤلفه موضوعه والغاية من تأليفه فما يأتي :

« أثرت منه الأخبار في فضل الأئمة الأبرار ، حسبما وجدته وغاية ما أمكنني

واستطعته ، فصححت ما بسطته في كتابي هذا وألفته ، بأن عرضته على ولي الأمر وصاحب الزمان والعصر ، مولاي المعز لدين الله أمير المؤمنين عليه السلام وعلى سلفه وخلفه ، وأثبتُ منه ما أثبته وصح عنده وعَرَفه وأثرَه عن الأئمة الطاهرين . . . وأسقطت ما أنكره من ذلك ، وذلك مما نسبه إلى أهل الحق المبطلون ، وحرّف من قولهم المحرفون » . وأما عن « دعائم الإسلام » فلدينا بدار الكتب نسخة مصورة من المجلد الأول منه . ويقول القاضي النعمان في مقدمته : إنه «لما رأى اضطراب الأحكام واختلاف المذاهب وانقلاب أوضاعها ، رأى عملا بوصية رسول الله أن يضع كتاباً جامعاً مختصراً بما جاء عن الأئمة من آل البيت ، من جملة ما اختلف فيه الرواة عنهم في دعائم الإسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام . وهذه الدعائم حسبما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق . . . » وقد لبثت كتب النعمان القيرواني في الواقع عصراً مرجع الفقه الشيعي والدعوة الفاطمية ، وكانت أول كتب قرئت بالجامع الأزهر[1]

ثم يقدم إلينا الأستاذ إيفانوف رسالة « استتار الإمام » التي وضعها في عهد العزيز بالله أحمدُ بن محمد النيسابوري ، ويقدمها إلينا باللغة الإنجليزية فقط ، لأنه سبق أن نشر نصها العربي مع رسالة أخرى عنوانها « السيرة » لجعفر الحاجب ، في مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية[2] . واستتار الإمام رسالة تاريخية موجزة يقص علينا المؤلف فيها ظروف نشأة المهدي، وكيف أنه حينما افتقد الدعاة أثر الإمام ، اجتمعوا وقرروا البحث عنه ، ثم تفرقوا في الآفاق حتى عثر أحدهم بأثره في دير على مقربة من معرة النعمان ، وتعرفوا عليه ، واسمه عبد الله ، ثم أنزلوه في مكان أمين ببلدة سلمية ، ولما توفي هناك خلفه في الإمامة ولده أحمد ، ثم خلفه بعد موته ، ولده الحسين ، ثم ولد للحسين ولده « المهدي » وكان قاصراً حين وفاته ، فكفله عمه ، وحاول عبثاً أن يغتصب منه الإمامة ليسبغها على أحد أولاده ، فكلما اختار أحدهم للامامة توفي ، وعندئذ عدل عن محاولته . ولما بلغ المهدي أشده وأخذت الأخطار تهدده ، غادر الشأم مع ولده القاسم وبعض حشمه ، ولبث يجوز الخطوب حتى استطاع الفرار إلى المغرب وهنالك اعتقل ، حتى قام بإنقاذه داعيته أبو عبد الله الشيعي .

ويحدثنا الأستاذ إيفانوف بعد ذلك عن طائفة أخرى من الآثار الإسمعيلية الأخرى ، مثل رسائل حميد الدين الكرماني داعي الدعاة في أواخر عهد الحاكم

---

(١) راجع كتابي « تاريخ الجامع الأزهر » ص ٨٣ و ٨٤

(٢) المجلد الرابع سنة ١٩٣٩ ص ٨٩ — ١٣٣

بأمر الله ، ومنها : « المصابيح في إثبات الإمامة » و « مباسم المباشرات الكافية » ، و « تنبيه الهادي والمستهدي » ، وكتاب « غاية المواليد » المنسوب « لسيدنا الخطاب » المتوفى سنة ٥٣٣ هـ وكتاب « عيون الأخبار » لإدريس بن الحسن اليمني المتوفى سنة ٨٧٢ هـ وكتاب « زهر المعاني » من تأليفه أيضاً ، وقد نقل إلينا الأستاذ إيفانوف منه فصلاً بنصه العربي ، كما نقل إلينا فصلاً من كتاب «أسرار النطقاء» لجعفر بن منصور اليمني ، وفصلاً من كتاب « الشموس الظاهرة » لحاتم بن إبرهيم المتوفى سنة ٥٩٦ هـ .

تلك هي أهم المصادر والوثائق الإسمعيلية التي ذكرها الأستاذ إيفانوف ، بيد أنه يذكر إلى جانبها عدداً آخر من الكتب والرسائل التي تتصل بموضوعه ، وكلها مما يتعلق بنشأة المهدي ، وقيام الدعوة الفاطمية . ولهذا نكتفي بالإشارة إليها .

ومما تجدر ملاحظته أن معظم هذه الآثار الإسمعيلية مما يدخل في حيز الآثار « الباطنة » أو التي لا يسوغ للمؤمنين أن يكشفوا سرها لغير أولياء الدعوة ، كما أن منها بعض الآثار الظاهرة التي لا حرج في إذاعتها .

٢ — مادة البحث

بعد هذا الاستعراض الدقيق للآثار والوثائق الإسمعيلية ، يحاول الأستاذ إيفانوف أن يتقدم إلينا بنتائج بحثه وتحقيقه ، وأن يطالعنا بآراء ونظريات جديدة عن أصل الفاطميين وحقيقة دعوتهم .

وبالرغم من أن الأستاذ إيفانوف يؤكد لنا في مقدمته أنه لا يرمي في مؤلفه إلى تأييد أو تفنيد حقيقة الآثار التي يقدمها إلينا ، أو دعاوى الفاطميين أو غيرها ، فإنه مع ذلك يبدي في بحثه ميلاً واضحاً إلى الإشادة بقيمة هذه الآثار ، والانتفاع بها في تفنيد الروايات السنية ، وفي الدفاع عن الفاطميين ودعوتهم . وفي رأيه أن المصادر الإسمعيلية قد شوهت وحرفت على يد المؤرخين المتأخرين من خصوم الدعوة ، وأن الإسمعيلية أشد فرق الشيعه تمسكا بمبادئ الإسلام وأكثرها اكتمالا ونضجاً .

ولما كانت نسبة الفاطميين هي محور الطعن في إمامتهم وصحة دعوتهم ، فإن الأستاذ إيفانوف يحاول تمحيص هذه المسألة بإفاضة على ضوء المصادر الإسمعيلية . ونحن نعرف أن نسبة الفاطميين قد لبثت على كر العصور موضعَ الخلاف والجدل في الرواية الإسلامية ، وما زالت إلى يومنا يحيط بها الخفاء والغموض . ففريق من العلماء والمؤرخين ، وهم في الغالب أولياء الشيعة ، يؤيد الفاطميين في دعواهم وفي شرعية إمامتهم ، ويرجع نسبةَ

المهدي مؤسس دولتهم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول ؛ وفريق آخر ، وهم الكثرة الغالبة في الرواية الإسلامية ، ينكر عليهم هذه الدعوى ، ويرى أنهم أدعياء لا يمتّون بصلةٍ إلى عليٍّ وعقبه ، وأنهم إنما استتروا بالتشيع والإمامة ليكسبوا عطف العالم الإسلامي . ويرجع سوادُ هذا الفريق المنكر نسبةَ الفاطميين إلى عبد الله ابن ميمون القداح ، وهو فقيه فارسي من الأهواز وافر الذكاء والمعرفة ، يرجع إلى أصل مجوسي ، وقد كان يدعو سراً إلى مذهب إلحاديّ سرّي ، رتب على عدة درجات أو دعوات ، وكان يستتر بالتشيع ويدعو لإمام من آل البيت هو محمد بن إسمعيل ابن جعفر الصادق من ولد الحسين بن علي ، فلما توفي قام بدعوته السرية ولده أحمد ، ومن بعد أحمد ولده الحسين ، فأخوه سعيد ، واستقر سعيد بسلمية من أعمال حمص ، واستمر في نشر الدعوة سرّاً ، ثم فر إلى المغرب حينما شعر بالسلطات تطارده ، وهنالك بشّر له دعاته ، وزعم أنه المهدي ، وأنه سليل آل البيت ، وما زال حتى استطاع أن ينتزع لنفسه ملك الأغالبة . ويقول البعض الآخر : إن الذي قام بالدعوة في سلمية هو الحسين حفيد عبد الله بن ميمون ، وكانت له زوجة يهودية ولها من زوجها الأول ، وهو يهودي ، ولد فائق الذكاء والحسن ، فتبناه الحسين وعلمه وأدبه ولقنه أسرار الدعوة ، وزعم أنه هو الإمام وأنه وصيه وكفيله . وهو الذي انتحل فيما بعد صفة المهدي . وهناك غير ذلك روايات صريحة أخرى في أصل الفاطميين المجوسي أو اليهودي ، ومنها رواية القاضي أبي بكر الباقلاّني وغيره . وكان هذا الطعن في نسب الفاطميين وشرعية إمامتهم سلاحاً سياسياً في يد خصومهم العباسيين ، يشهرونه للنيل من مقامهم وهيبتهم في العالم الإسلامي ، ومن ذلك أن بلاط بغداد أصدر في سنة ٤٠٢ هـ في عهد الخليفة القادر بالله محضراً رسميّاً موقعاً عليه من كبار الفقهاء والقضاة ، يتضمن الطعن في الفاطميين خلفاء مصر ، وأنهم ليسوا من آل البيت ، بل هم ديصانية ينتسبون إلى ميمون بن ديصان (القداح) وأنهم كفار زنادقة ، وفساق ملاحدة ، إلى غير ذلك . وفي سنة ٤٤٤ هـ كتب ببغداد محضر آخر يتضمن المطاعن نفسها ، وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون إلى أصل يهودي أو مجوسي .

ويحاول الأستاذ إيفانوف أن يناقش هذه الروايات على ضوء مصادره الجديدة ، فيعقد لنا فصلا عن المهدي وآبائه وأسرته ، يشير فيه إلى سخف الرواية القائلة بانتساب الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون ، بالرغم من ذيوعها ، وينقل إلينا ثبت نسب المهدي كما تورده بعض المصادر الإسمعيلية « عيون الأخبار لإدريس اليمني » . ثم يحدثنا عن الحلقة

المفقودة في نسبة المهدي ، وهي الثغرة التي تفصل بين الإمام السابع محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق وبين المهدي ، وهي أعظم مصادر الغموض والجدل في نسب الفاطميين . وتقول لنا الروايات الإسمعيلية : إن الأئمة الذين يملؤون هذه الثغرة ويصلون نسب المهدي بالإمام السابع من ولد علي ، وهو محمد بن إسمعيل ، ثلاثة وهم : عبد الله ابن محمد بن إسمعيل الملقب بالراضي ، فابنه أحمد أبو الحسين الملقب بالتقي ، فابنه الحسين أبو عبد الله الملقب بالزكي ، وقد توفي في «عسكر مكرم» في خوزستان ، وحمل الإمامة من بعده ولده عبد الله ، وهو الذي استمر في سلمية طفلا في كفالة عمه سعيد ، ثم غدا بعد ذلك أمير المؤمنين المهدي بالله ، وهو أول الأئمة الظاهرين ؛ أما الثلاثة الذين سبقوه فيعرفون بالأئمة الباطنين أو المستورين . وتلك هي الرواية الذائعة في الآثار الإسمعيلية . بيد أن هناك روايات أخرى عن الأئمة المستورين تخالف هذه ، مثال ذلك أن داعي الدعاة حميد الدين الكرماني ، الذي سبقت الإشارة إليه ، يقدم إلينا أسماء الأئمة المستورين كما يلي . (١) عبد الله (٢) فولده محمد (بدلا من أحمد) (٣) فولده أحمد (بدلا من الحسين) . وهناك رواية صاحب « غاية المواليد » وهي تذهب إلى أن المهدي لم يكن عبيد الله الذي يعرفه التاريخ ، ولكنه هو محمد الملقب بسعيد ، وهو الذي تتفق معظم الروايات على أنه كان عم المهدي ووصيه ؛ وهناك روايات أخرى لا يتسع المقام لذكرها .

وهكذا تضطرب المصادر الإسمعيلية ذاتها في ذكر نسبة المهدي وفي تحديد شخصيته . ويحاول الأستاذ إيفانوف أن يوفق بين الروايات المتناقضة (ص ٥٩) فيقول لنا : إن أرجح تفسير لذلك هو أن الحسين بن أحمد ، وهو الإمام الذي توفي نحو سنة ٢٦٨ هـ ، قد خلفه أخوه محمد بن أحمد الملقب بسعيد ، وهو يومئذ أكبر أبناء الأسرة سناً ، ولكنه توفي سنة ٢٨٣ هـ ولم يعقب ، حسبما يقول صاحب « استتار الأئمة » ، والظاهر أن الذي خلفه هو أكبر أبناء أخيه أبو محمد ، وهو الأخ الأكبر للمهدي ، ولكنه لما كان ضعيف العزم والهمة فقد حل محله أخوه الأصغر ، وقد كان يفوقه عزماً وذكاء ، وهذا الأخ الذي اتخذ الإمامة هو الذي عرف فيما بعد بالمهدي .

وأما قصة عبد الله بن ميمون القداح فيعتبرها الأستاذ إيفانوف أسطورة نمت واستفحلت واتخذت علماً لدعوة إلحادية عظيمة ، ويرى أن عبد الله هذا لم يكن سوى رمز للامامة الإسمعيلية ، وأن مؤامرته المزعومة لم تكن سوى رمز لنشاط الحركة الشيعية . وقد أنكر الفاطميون هذه الأسطورة ، وفنّدها المعز لدين الله في رده على أحد الدعاة ، إذ قال : إن « عبد الله » هذا إنما هو الإمام عبد الله الذي خلف أباه محمد

ابن اسمعيل ، وأن كلمة ميمون ليست إلا تحريفاً لكلمة « الميمون » التي يقرن بها أسماء الأئمة عادة ، وكذا كلمة « القداح » ليست إلا صفة ونعتاً (ص ١٤٣) وفنّدها أيضاً حميد الدين الكرماني في محاولته أن يرجع نسب الحاكم بأمر الله إلى علي بن أبي طالب ، ولكن روايته تنم عن الركاكة والضعف . وتميل بعض الروايات الإسمعيلية إلى القول بأن عبد الله بن ميمون كان وصيًّا لإمام لم يبلغ أشده ، وأنه كان وليًّا من أولياء الدعوة (ص ١٥٥) وهذا ما يقرره صاحب « زهر المعاني » (ص ٣٧ من النص العربي) .

والخلاصة أن قصة عبد الله بن ميمون حسبما تعرفها الرواية السنّية ، لا تعتبرها الرواية الإسمعيلية سوى خرافة ؛ والمصادر الإسمعيلية لا تذكر قصة القداح إلا منذ عصر المعز لدين الله وحفيده الحاكم على يد داعي الدعاة حميد الدين . ومما يلفت النظر أن رواة الإسمعيلية لم يعمدوا إلى الإنكار المطلق لهذه السيرة ، ولكنهم فقط ينزلون بعبد الله ابن ميمون وولده إلى مرتبة الحجّاب ، ويسميه بعضهم « حجة الإمام » أي مشيره وناصحه (ص ٦٠ من النص العربي) .

ويرى الأستاذ إيفانوف من كل ما تقدم أنه من سقم القول أن يعزى إلى عبد الله ابن ميمون ذلك الدور العظيم الذي ينسب إليه في تنظيم الدعوة الشيعية وقيادتها ، كما أنه ليس هنالك على الإطلاق ما يدل على أنه من أصول الفاطميين .

هذا ، وأما الدعوة السرية الفاطمية التي ينقلها إلينا مؤرخون متأخرون ، مثل النويري والمقريزي ، بمراتبها ونصوصها المعروفة[1] فليست في نظر الرواية الإسمعيلية ونظر الأستاذ إيفانوف سوى تحريف وتشويه للدعوة الفاطمية الحقيقية ، وهنالك ما يدل على أن هذه الدعوة الدخيلة إنما هي دعوة متأخرة ، وأنها شوهت على يد خصوم الفاطميين ، وأدخلت فيها نصوص وآراء زائفة (ص ١٣٤) ، يؤيد ذلك أنه لا يوجد أثر لمثل هذه الدعوة في الآثار الإسمعيلية الأولى ، والظاهر أنها لم تظهر إلا بعد قيام الدولة الفاطمية بنحو مائة عام .

ويستعرض الأستاذ إيفانوف خلال بحثه حركة القرامطة وظروف نشأتها ، ويدلل على أنها كانت بدايةً للحركة الفاطمية الثورية ، لولا ما نشب بين القرامطة وبين الإمام من خلاف جعلهم في حكم الخوارج . ثم يعطف على مذهب الدروز ، ويقول لنا إنه عبارة عن مزيج من الخرافات الروحية ، وأنه لا يمت إلى مذهب الفاطميين بشيء ، إذ هو يقوم في جوهره على فكرة الحلول الإلهي التي لا وجود لها في المذهب الفاطمي .

---

(١) راجع كتابي « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » ص ١٦٠ وما بعدها

وكذلك يعنى الأستاذ إيفانوف بأن يقدم لنا ثبتاً للأحاديث الخاصة بقيام المهدي والدولة الفاطمية ، وقد أورد هذه « الأحاديث » وعددها خمسون حديثاً ، القاضي النعمان في كتابه « شرح الأخبار » وجمعت في العصر الأخير طائفة كبيرة من هذه الأحاديث في كتاب « بحار الأنوار » لمحمد الباقر بن محمد المتقي في عدة مجلدات (أصفهان سنة ١٣٠٨ هـ) وفي هذه الأحاديث إشارات كثيرة إلى نسبة الفاطميين والتنبؤ بظهور إمام من ولد علي بن أبي طالب ، والتدليل على صحة قيام المهدي ، وغير ذلك مما يستمد منه الفواطم تأييد دعوتهم وشرعية إمامتهم . وقد ترجم الأستاذ إيفانوف في كتابه منها طائفة كبيرة ، كما أوردها بنصها العربي .

٣ – تعليقات ونتائج

والآن وقد استعرضنا مجهود الأستاذ إيفانوف ، نقف قليلا لنرى إلى أي حد يمكن أن تتأثر به بحوثنا وآراؤنا عن الفاطميين والدولة الفاطمية .

إن الأستاذ إيفانوف يقدم إلينا أعظم مجهود بذل حتى اليوم لإلقاء الضياء على الآثار والروايات الإسمعيلية التي تتعلق بهذا الموضوع ، وهو في ذاته مجهود قيم جدير بالعرفان والتقدير .

وغاية الأستاذ إيفانوف من بحثه الفياض واضحة ، وهي أن يقدم لنا مادة جديدة من التراث الإسمعيلي يمكن أن تمحص على ضوئها معلوماتنا وآراؤنا عن الفاطميين والإمامة الفاطمية ، فهذه المعلومات والآراء تستمد في الغالب من الروايات السنية الخصيمة ، وهي في نظر الشيعة روايات خاطئة مغرضة ، وبعبارة أخرى يرمي الأستاذ إيفانوف بمحاولته هذه إلى تصحيح هذه الروايات المغرضة ، وتطهير تاريخ الفواطم مما يعلق به من شوائب الريب .

فإلى أي حد نجح الأستاذ إيفانوف في تحقيق هذه الغاية ؟ إنه يرتكز في بحثه على دعامتين : الأولى ، وهي المحور الأول ، هي نسبة الفاطميين ، والثانية هي الدعوة الفاطمية .

فأما عن الأولى فقد رأينا الأستاذ إيفانوف يدحض بشدة نسبة الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون ويعتبرها أسطورة فقط . وقد يستطيع الأستاذ بتدليله المدعم بكثير من النصوص الإسمعيلية أن يحملنا على الشك في هذه النسبة ؛ فلنفرض معه أن هذه القصة أسطورة ، وأن الخلفاء الفاطميين لا يمتون بأية صلة إلى عبد الله بن ميمون ، فما الدليل

على أنهم من الناحية الأخرى يتصلون في نسبتهم بآل البيت ، وأنهم حقاً من ولد محمد ابن إسمعيل بن جعفر الصادق ، أو بعبارة أخرى أنهم من ولد علي وفاطمة ؟ ذلك هو لبّ المسألة كلها ، ولا يكفي أن نهدم رواية لنحل محلها أخرى دون دليل ! وقد حاول الأستاذ إيفانوف أن يهدم « أسطورة » عبد الله بن ميمون ، ولكنه لم يستطع إلى جانبها بناءً . وعلى ذلك فإن الموقف لم يتغير ، ومازلنا حيث كنا ، من عدم الاقتناع بصحة انتساب الخلفاء الفاطميين إلى آل البيت . وقد لبثت الرواية الذائعة عن نسبة الفاطميين ونشأة المهدي مؤسس دولتهم قائمة مدى القرون ، ولم تستطع أن تحل محلها رواية أخرى في مثل إجماعها وأسانيدها . ومن الغريب أن معظم الروايات الإسمعيلية عن الأئمة الثلاثة المستورين تتفق في أن أول هؤلاء الأئمة يدعى « عبد الله » ، أفلا يمكن أن يكون « عبد الله » هذا هو عبد الله بن ميمون الذي ينكر الفاطميون انتسابهم إليه ؟ إن المسألة ما تزال برمتها مثار الغموض والجدل ، خصوصاً متى ذكرنا أن الروايات الإسمعيلية ذاتها كثيرة الخلاف والتناقض في شأن الأئمة المستورين وأسمائهم وتواريخهم .

وأما عن الدعوة الفاطمية السرية فلسنا نجد في نسبتها إلى الخلفاء الفاطميين تعنتاً أو كيداً ، فهي ، بالرغم مما قد يطبعها من ألوان الإنكار ، تعتبر قطعة من الفلسفة الكلامية القوية . والواقع أن الخلافة الفاطمية كانت تقوم على فلسفة خاصة حرة التفكير ، وقد اشتهر كثير من الخلفاء الفاطميين بنزعتهم الدينية الحرة والإلحادية أحياناً . والروايات الفاطمية المعاصرة تؤيد قيام هذه الدعوة السرية وإلقائها بالقصر في مجالس خاصة ثم تلقينها بعد ذلك للدعاة في دار الحكمة الفاطمية . وما نقله النويري ثم المقريزي قد نقل في الواقع عن مؤرخي الدولة الفاطمية وكتّابها ، مثل المسبحي وغيره . ولدينا أكثر من وثيقة فاطمية تشير إلى هذه الدعوة السرية وإلى شروط تلقينها ✡ ولم تحاول الرواية الإسمعيلية ولم يحاول الاستاذ إيفانوف إنكار هذه الدعوة ، ولكنه ينوه بتحريفها وتشويهها ، وهو احتمال ممكن في ذاته ، بيد أنه لا يكفي لإقناعنا بأن نصرف النظر عن نصوص الدعوة الفاطمية ، كما وصلت إلينا ، مالم تقدم إلينا عنها نصوص أخرى أدعى إلى الصحة والاطمئنان .

وأخيراً لسنا نرى في مجموعة « الأحاديث » التي تقدمها إلينا الروايات الإسمعيلية ، تأييداً لإمامة المهدي وقصة ظهوره ، ما يصح أن يوضع في صف الأدلة التاريخية ، فليس هنالك ما يدل على صحة أي حديث منها . ونحن نعرف كيف كانت الفرق الإسلامية

✡ راجع كتابي « الحاكم بأمر الله » ص ١٦٣ و ١٦٤

المختلفة تصطنع الأحاديث النبوية لتستعملها في دعايتها السياسية ، ولم تشذ الفرقة الإسمعيلية عن هذه القاعدة المأثورة .

على أن ذلك لا يعني أننا لا نجد مادة جديدة في بحث الأستاذ إيفانوف ، بل الأمر بالعكس ، ففي بحثه أضواء كثيرة جديدة على مسائل فاطمية كثيرة ، ولا سيما عن حياة المهدي الأولى ، ونظام الدعاة ، ونشأة القرامطة ، وغيرها . هذا فضلاً عما يقدمه إلينا من المعلومات القيمة عن الآثار والوثائق الإسمعيلية التي لبثت عصوراً محجوبة عن البحث الحديث . وبالرغم من أن الأستاذ إيفانوف يعمل منذ أعوام طويلة في الهند في بيئة إسمعيلية محضة تتأثر بآراء واتجاهات مذهبية خاصة ، فإن ذلك لم يجن على أسلوبه العلمي النقدي البديع .

محمد عبد الله عنان

سير النبلاء

ترجمة عائشة أم المؤمنين

تأليف الحافظ الذهبي . قدم له وعلق عليه الأستاذ سعيد الأفغاني بدمشق
٨٨ صفحة من القطع الكبير . مطبعة الترقي . دمشق ١٩٤٥

الحافظ الذهبي (٦٧٣ — ٧٤٨) من أكبر مؤرخي الإسلام وأوثقهم ، ومن شيوخ حفاظ الحديث في عصور النور في الإسلام . وهو حجة العلماء بعده في نقد الرجال وتراجم العلماء والرواة . وهو أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي . ومؤلفاته في التاريخ والتراجم كانت ولا تزال عمدة المؤرخين في عصره وبعد عصره . ولو لم يكن له إلا « تاريخ الإسلام » لكفاه مجداً وفخراً ، ولعلي واصفهُ في كلمة خاصة قريباً إن شاء الله . ومن أجل كتبه وأعظمها هذا الكتاب الذي نشرت منه هذه الترجمة ، وهو « سير النبلاء » . وهو كتاب كبير عظيم ، في عشرين مجلداً تقريباً ، سمعنا به كثيراً ولم نره ، بما عرض لكتب المسلمين من أحداث الزمن ، حتى ضاع منها الكثير النفيس ، ثم عرفت نسخة منه لدى حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ملك اليمن حفظه الله . واستنسخ بعضه صديقنا الكبير العلامة السيد محمد بن حسين نصيف ، أحد نبلاء الحجاز وأعلامه بمدينة « جدة » . وتفضل حفظه الله فيسر للأستاذ سعيد الأفغاني

نسخ هذه الترجمة « ترجمة عائشة » ومن قبلها « ترجمة ابن حزم » فنشر ترجمة ابن حزم سنة ١٩٤١ ثم نشر هذه الثانية التي نصف .

والمحدثون هم أئمة علم التاريخ وأساطينه ، وهم الحفَظة عليه بما وضعوا من قواعد دقيقة متقنة لنقد الرواية والراوي ، وعلى مناهجهم سار من قلدهم من المؤرخين وغير المؤرخين ، حتى إنا لنجد الأقدمين كانوا يروون الشعرَ ومتن اللغة وكثيرًا من القواعد في العلوم الأخرى على طريقة المحدثين ، وإن كان تقليد هؤلاء لم يبلغ شأوَ أولئك ولا قاربه ، وأقرب مثال لذلك كتاب « الأغاني » وكتاب « مصارع العشاق » ، وهما أبعد ما يكون عن صناعة الحديث ، ولكنّ مؤلفيهما رويا القصص والشعر فيهما بالأسانيد على طريقة المحدّثين ، وإن لم ينقدا الأسانيد ولم يتحريا في الرواية كما يصنع المحدّثون . وسأدع وصف هـذا الجزء « ترجمة عائشة » ليصفه ناشره ومحققه الأستاذ سعيد الأفغاني بقلمه في مقدمته قال :

« ترجم السيدة عائشة كثيرون من أعلام المؤرخين ، إلا أن هذا المصدر (سِيرَ النبلاء) يتفرد بمزايا ليست في مصدر آخر : إنها ترجمة فنية من الوجهة (الحديثية) ، ونحن نعلم أن التاريخ في الحضارة العربية ولد في أحضان علم الحديث ، وتعهده المحدّثون حتى نشأ وترعرع وبلغ أشده واستقل قائماً بنفسه . وأعاظم المؤرخين الأولين هم كبار أئمة الحديث، وقد تفنن فيه هؤلاء فنوناً كثيرة تستعصي على الحصر، واتسعوا فيه اتساعاً استطاع معه (مغلطاي) أن يقول : " رأيت من مَـلك نحواً من ألف تصنيف في التاريخ " . بل إن الحافظ السخاوي مؤرخ المئة التاسعة قرأ خط الذهبي : يذكر فنون التاريخ التي تدخل في تاريخه الـكبير . . . فأوصلها إلى الأربعين فناً ، ثم قال : " ولم أنهض له ، ولو عملته لجاء في ستمائة مجلد" اهـ . قلت : لقد أمعنتُ أنا في عناوين هذه الفنون مسرودة في كتاب السخاوي[1] ، فرأيت (مشروع) الذهبي أشبه بموسوعة (دائرة معارف) كبرى في التاريخ » .

« ولـكي يخرج القارىء بفكرة مجملة مجلى عن المجهود العظيم المعجز ، الذي قام به المحدّثون ، وخاصة الذهبي في (سير النبلاء) أذكر أن الإمام الزركشي في كتابه عن السيدة عائشة : (الإصابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة[2]) ذكر من الرواة عنها اثني عشر راوياً ، وأني أضفت عليهم نحواً من ثمانين راوياً جمعت أسماءهم في أعوام

---

(١) يعني كتاب « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ » المطبوع بمطبعة الترقي ١٣٤٩ هـ

(٢) مخطوط نادر حققه الأستاذ سعيد الأفغاني ونشره في المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٥٨ هـ

متطاولة ، بعد الاطلاع على كتب الطبقات المخطوطة والمطبوعة ، وعلى مصادر كثيرة جداً ، حتى التي لا يظن أن يكون فيها شيء عن السيدة ، فأوصلت — بعد هذا العناء — عدد الرواة عنها إلى التسعين ، وأنا أرى أني أتيت بما لم يأت به الأولون ولا الآخرون ، لكنني لم أكد أقرأ هذه الرسالة للذهبي وأراه قد زاد على هؤلاء التسعين نحو المئة ، وأدهشني أنه أورد أسماءهم مرتبة على الحروف. . . أقول : لم أكد أجد ذلك حتى انطفأ فيّ ذلك الزهو المنتفخ ، وعرفتُ أني وألوفاً من أمثالي مهما جهدنا لا نبلغ أن نكون من أصغر تلاميذ مؤرخينا من أهل الحديث : لقد وقفوا أنفسهم على خدمة العلم فأخلصوا له الخدمة ، فآتاهم الله في ذلك المعجزات » .

« وأمر آخر تمتاز به هذه الرسالة : وهو أن كثيراً من مؤرخي الحركة العلمية والأدبية في عصرنا هذا الحديث ، إذا بلغوا الكلام على المحدّثين والمؤرخين العرب ، تابعوا المستشرقين فقرروا : " أن العرب عُنوا عناية بالغة بالنقد الخارجي (نقد السند) فبذّوا بذلك غيرهم من الأمم ، إلا أنهم وقفوا عاجزين دون النقد الداخلي : (نقد المتن) . ونقلوا هذه الشبهة التي لا تستند إلى أدنى اطلاع : لاحق عن سابق ، نقلاً أعمى دون تحقيق أو بذل عناء . في هذه الرسالة التي ننشرها ، يورد الذهبي روايات وأخباراً يشبعها نقداً : تعديلا وتجريحاً ، ويضع عيوننا على شواهد محسوسة في النقد الداخلي : نقد المتن ، فنوقن حينئذ أننا لم يكفنا جهلنا و (سطحيتنا) وحتى (بغباويتنا) وإصدارنا الأحكام دون إعداد العدة اللازمة لها من درس جادّ ، وصدر واسع ، ودؤوب طويل ، وعلم غزير ... لم تكفنا هذه (القَعَدية) بل نستطيل بجهلنا ، أو بعلمنا الناقص المترَجم — وهو شر من الجهل — على من بلغوا في إحكام أعمالهم حدّ الإعجاز » . . . . .

« الحق أن (الترجمة التاريخية) فنّ العرب الخالص ، برعوا فيه براعة خالدة ، وأن الذهبي أحد نوابغهم العظام في هذا الفن » .

وهذا الذي قاله الأستاذ سعيد الأفغاني من تقليد بعض الباحثين للمستشرقين في زعمهم أن المحدّثين والمؤرخين من العرب كان همهم نقد السند في الرواية دون المتن ، قد أصاب فيه كلّ الإصابة ، فإن أهم شيء في تعليل الرواية عند المحدثين هو البحث في علل المتون وأخطاء الرواة فيها ، وهو الأساس الذي بنى عليه الأئمة الحفاظ نقدهم الأحاديث ، يعرف ذلك كل من مارس هذه الفنون الجليلة « علوم الحديث » .

فما جاء في هذا الجزء من « سير النبلاء » من نقد الحديث بنوعي النقد ، اللذين يريد هؤلاء المعاصرون أن يسموهما تبعاً لغيرهم « النقد الداخلي » و « النقد الخارجي » :

أن الحافظ المؤلف نقل (في ص ٥٥) عن مسند الإمام أحمد بن حنبل حديثاً رواه أحمد عن عثمان بن عمر عن يونس الأيلي عن أبي شداد عن مجاهد عن أسماء بنت عميس قالت : كنت صاحبة عائشة التي هيَّأْتها وأدخلتْها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي نسوة ، فما وجدنا عنده قِرًى إلا قدحاً من لبن ، فشرب منه ثم ناوله عائشة ، فاستحيت الجاريةُ ، فقلت : لا تردّي يد رسول الله ، خذي منه ، فأخذت منه على حياء ، فشربت ثم قال : ناولي صواحبك ، فقلت : لا نشتهيه ! فقال : لا تجمعن جوعاً وكذباً ! فقلت : يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه : لا تشتهيه أيعدُّ ذلك كذباً ؟ قال : إن الكذب يكتب حتى تكتب الكُذَيْبَة كذيبةً » . وهذا الحديث في مسند أحمد (ج ٦ ص ٤٣٨) وفيه هناك خطأ مطبعي : كتب « شداد » وصوابه « أبو شداد » . وقال الحافظ الذهبي بعد أن نقله : « هذا حديث منكر ، لا نعرفه إلاّ من طريق أبي شداد وليس بالمشهور ، قد روي عنه ابن جُريج أيضاً » . فهذا هو « النقد الخارجي » نقد السند . ثم قال : « ثم هو خطأ ، فإن أسماء كانت وقت عرس عائشة بالحبشة مع جعفر بن أبي طالب ، ولا نعلم لمجاهد سماعاً من أسماء ، ولعلها أسماء بنت يزيد ، فإنها روت عجُزَ هذا الحديث» فهذا هو « النقد الدخلي » نقد المتن ، إذ بين الحافظ أن التي نسب إليها الحديث لم تكن وقت زفاف عائشة بالمدينة ، فظهر أن هذا الراوي أخطأ ، فنسب واقعة روتها أسماء بنت يزيد بن السكن إلى أسماء بنت عميس التي لم تروها ولم تشهدها ، وقد ذكر الأستاذ الأفغاني مصحح الكتاب رواية أسماء بنت يزيد عن مسند أحمد .

فهذا مثال من النقد الداخلي الصحيح . وهاك مثالا آخر من النقد الداخلي ، ظاهره الصحة وهو غير صحيح ، قلد فيه الأستاذ الأفغاني عالماً كبيراً من المتقدمين ، قلد عالماً كبيراً قبله ، فإن المؤلف الحافظ نقل حديث الإفك بطوله ، وهو حديث معروف عن إفك المنافقين وبعض الضعفاء على عائشة رضي الله عنها ، حتى نزلت براءتها في القرآن ، ورواية المؤلف منقولة عن البخاري ، وفيها (ص ٣٧) أن رسول الله صلى عليه وسلم دعا عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما في فراق أهله ، قالت عائشة : « فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم [لهم] * في نفسه من الودّ ، فقال : يا رسول الله أهلُك ولا نعلم إلا خيراً ، وأما علي فقال : لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير ، واسأل الجارية تصدُقك .

* هاتان الزيادتان من صحيح البخاري .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ، فقال : أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك ؟ قالت [بريرة] ✡ : لا والذي بعثك بالحق » إلى آخر الحديث . و « بَريرة » بفتح الباء : أمة كانت بالمدينة اشترتها عائشة وأعتقتها فكانت مولاتها . فعلّق الأستاذ الأفغاني هنا في الهامش بما نصه : « كون الجارية بريرة : وهمٌ قد نبه عليه الإمام الزركشي قال : تنبيه جليل على وهمين وقعا في حديث الإفك في صحيح البخاري . أحدهما قول علي " وسل الجارية تصدقك " فدعا رسول الله بريرة . . . إلخ وبريرة إنما اشترتها عائشة وأعتقتها بعد ذلك . ويدل عليه أنها لما أعتقت واختارت نفسها ، جعل زوجها يطوف وراءها في سكك المدينة ودموعه تتحادر على لحيته ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : لو راجعتيه ، فقالت : أتأمرني ؟ فقال : إنما أنا شافع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عباس ألا تعجب من حب المغيث لبريرة وبغضها له ! والعباس إنما قدم المدينة بعد الفتح . والمخلص من هذا الإشكال : أن تفسير الجارية ببريرة مدرج في الحديث من بعض الرواة ، ظناً منه أنها هي . وهذا كثيراً ما يقع في الحديث من تفسير بعض الرواة ، فيظن أنه من الحديث . وهو نوع غامض لا يتنبه له إلا الحذاق » ، فهذا أيضاً من « النقد الداخلي » وإن كان نقداً غير صحيح ، ولم يكن الزركشي بابن بجدته ، وإن ظن الأستاذ الأفغاني ذلك ، إنما قلد فيه الإمام الحافظ ابن القيم ، كما أثبت ذلك الحافظ ابن حجر في (فتح الباري شرح البخاري ج ٨ ص ٣٥٨ من طبعة بولاق) وكلام ابن القيم في هذا في كتابه (زاد المعاد ج ٢ ص ١١٦ من طبعة المطبعة المصرية) وابن القيم ، على علمه وجلالة قدره ، لم يستطع الجزم بهذا النقد كما استطاعه الزركشي ، وإنما ساقه إشكالا نسبه إلى مبهم ، ثم قال : « وهذا الذي ذكره إن كان لازماً فيكون الوهم من تسمية الجارية بريرة ، ولم يقل له علي سل بريرة ، وإنما قال : فسل الجارية تصدقك ، فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها بذلك ، وإن لم يلزم ، بأن يكون طلب مغيث لها استمر إلى بعد الفتح ولم ييأس منها ، زال الإشكال » . وليس في الأمر إشكال ، إنما هو اعتراض عن انتقال نظر ، حكاه العلامة ابن القيم وأجاب عنه إجابة مجملة ، فجزم به الزركشي وجعله من دقائق العلم التي لا يتنبه لها إلا الحذاق ! وأعجب به الأستاذ الافغاني أيما إعجاب . ولو كان المدرج في الحديث ، أي المزاد ، اسم « بريرة » وحده لكان الأمر قريباً ، ولكن في لفظ الحديث أن رسول الله قال لها « أي بريرة » فناداها باسمها ، والإدراج في مثل هذا قد ينافي الثقة بالراوي ، والحديث

✡ هاتان الزيادتان من صحيح البخاري .

رواه أئمة ثقات كبار ، الزهري يحدث به عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيَّب وعلقمة ابن أبي وقاص وعبيد الله بن عبد الله ، ثم يرويه عن الزهري الثقات الأثبات من أصحابه ! فنسبة هذا الوهم إليهم ليست مما يقبل على علاته . وبريرة لم تظهر في المدينة فجأة حتى ينكر المعترض وجودها حين وقعت قصة الإفك . وإنما كان الذي بعد الفتح بعد أن جاء العباس بن عبد المطلب إلى المدينة هو شراء عائشة إياها وعتقها لها . فإن بريرة جاءت إلى عائشة فقالت : « إن أهلي كاتبوني على تسع أواق في تسع سنين كل سنة أوقية ، فأعينيني » فقالت لها عائشة : « إن شاء أهلك أن أعدها لهم عدةً واحدة وأعتقك ويكون الولاء لي فعلتُ » (صحيح مسلم ج ١ ص ٤٤٠ طبعة بولاق) فهذه جارية مكاتبة ، أي باع سادتها نفسها لها ، تعمل وتؤجر ، حتى تجمع الثمن الذي اتفقوا عليه ، فإذا أدته إلى سادتها ملكت نفسها وعتقت . فأين في الحديث ما يدل على أنها حين وقعت قصة الإفك كانت مملوكة عائشة أو عتيقتها ؟ أليس الأقرب أنها كانت تمتهن الخدمة في البيوت تسعى في جمع بدل المكاتبة ، ومن القريب جداً أن تكون ممن يخدم السيدة عائشة في بيتها وتكثر ، حتى لتقع في نفس عائشة فتشتريها من أهلها وتعتقها !

وقد بذل الأستاذ سعيد الأفغاني جهداً مشكوراً في تصحيح هذا الجزء ، ويبدو لي أن النسخة التي وقعت له لم تكن أصلا جيداً ، فعانى كثيراً من المشقة في تصحيحه ، ولست أدري أالخطأ الكثير من الناسخ الذي نسخ في اليمن أم من أصل النسخة ؟ وليت الأستاذ الأفغاني رجع في تصحيح بعض الأحاديث إلى مواطنها من كتب السنة المعروفة ، وهي في متناول اليد . فإني رأيته — مثلا — غير في إسناد حديث عائشة عن قصة الإفك كلمة «عن» فجعلها « من » وذكر ذلك في هامش الصفحة ، ظناً منه أن ما كان في الأصل خطأ (ص ٣٣) فإن الإسناد فيه هكذا : « يونس عن ابن شهاب : أخبرني عروة وابن المسيب وعلقمة بن أبي وقاص وعبيد الله بن عبدالله من حديث عائشة حين قال لها أهل الإفك ما قالوا » وكتب في الهامش على قوله « من حديث عائشة » : « في الأصل : عن » والذي في الأصل هو الصواب ، لأن الحديث نقله الذهبي عن صحيح البخاري ، وهو فيه : « عن حديث عائشة » (ج ٨ ص ٣٤٣ من فتح الباري و ج ٦ ص ١٠١ من صحيح البخاري الطبعة السلطانية ببولاق) ومثل صنيعه في الحديث نفسه (ص ٤٠) في قول عائشة « إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث » وكتب في الهامش « في الأصل : لقد علمت لقد سمعت هذا الحديث والتصحيح عن كتب الحديث ، وانظر السمط الثمين ص٦٧) وما في الأصل خطأ ، وما أثبته عن العقد الثمين خطأ ،

والصواب في البخاري « لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث » (فتح الباري ٨ : ٣٦٤ والبخاري ٦ : ١٠٤) . وما كانت نسخة « العقد الثمين » المطبوعة حجة ، وكلمة « التصحيح عن كتب الحديث » مجملة ، البيانُ والتحديد خير منها وأوثق .

ورأيت للأستاذ في صدر الجزء (ص ٩) تنبيهاً فيه شيء من الإبهام ، إن لم يكن من الخطأ ، قال : « جرى المؤلف على عادة المحدثين لحذف كلمة (حدثنا) أو (روى) من أول السند ، مبتدئاً باسم الراوي رأساً ، فعلى القارىء أن يلاحظ ذلك ويضيف بذهنه (حدثنا) أو نحوها في رأس كل سند » .

صحيح أن كثيراً من المحدّثين يفعلون ذلك ، ولكن المؤلف ، الحافظ الذهبي ، لم يحذف في هذا الجزء كلمة « حدثنا » من أول إسناده هو إذا رَوَى الحديث بإسناده ، وهو قد روى فيه ثمانية أحاديث بإسناده ، في (ص٤٨ ، ٥٨ ، ٦٥ مرتين ، ٦٦ ، ٧٩ مرتين ، ٨٠) وهو يقول في أكثرها : « أخبرنا » فلان ، وفي اثنين منها : « قرأت على » فلان .

وإنما الأسانيد التي حذف المؤلف أولها هي الأسانيد التي علقها عن كتب السنة ، اكتفاءً بمعرفة المحدّثين إياها ، فيذكر بعض الإسناد من أعلاه ، كأن يقول: «يونس عن ابن شهاب » «سفيان بن عيينة عن أبي سعيد» « معمر عن الزهري» « مالك عن عبد الرحمن بن القاسم» . فمثل هذه الأسانيد ، لا يجوز للقارىء أبداً أن« يضيف بذهنه حدثنا » في رأس السند ، إذ يكون محالا أن يقول الحافظ الذهبي « حدثنا يونس » « حدثنا مالك » إلخ ، وإنما يقدر المحدّثون في مثل هذا : « روينا بإسنادنا أو بالإسناد المتصل عن يونس ، أو عن سفيان ، أو عن معمر » أو نحو ذلك المعنى . وهو شيء معروف لا يحتاج إلى بيان .

وبعد : فإن موسوعتي الذهبي « تاريخ الإسلام » و «سير النبلاء» من الدواوين الكبار ، من مفاخر أئمة العرب والإسلام ، ومن أوثق مصادر التاريخ للباحث المحقق ، وللمؤرخ المتوثق . فمن التقصير الشديد أن يظلا مطويين مهجورين في دور الكتب . أفيقدم على نشرهما رجل موفق حازم، يكونان في ميزانه أجراً وذكراً ؟ نرجو إن شاء الله.

أحمد محمد شاكر

البيـــــادر

تأليف الأستاذ ميخائيل نعيمة بسكنتا (لبنان)

٢١٨ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ سيد قطب

صدر هذا الكتاب منذ شهور كثيرة ، ولكني حريص على أن أكتب عنه بعد هذا الأمد الطويل .

إنه في نظري كتاب الموسم — موسم ١٩٤٥ — لا لأنه أحسن الكتب التي ظهرت في هذا العام أو أعظمها ، ولا لأنه يفتح في عالم الفكر أو الفن صفحة جديدة ، ولا لأنه مبرّأ من المآخذ سليم من العيوب ... ولكن لأنه يحاول أن ينظر إلى الكون وإلى مشكلات الحياة الإنسانية واليومية بعين خاصة — هي عين الشرق — وأن يحل هذه المشكلات ويعالج أمور الحياة بطريقة خاصة هي طريقة الشرق . . . وهذا وحده يكفي لأن يجعل للكتاب قيمة خاصة ، ثم تختلف الآراء بعد ذلك في تقدير هذه القيمة كما تشاء .

والذي يجعل لمثل هذا الاتجاه قيمة أن موجة العقلية الأوربية قد غمرتنا في بدء نهضتنا الحديثة ، وهي موجة عقلية قوية صادفت تضعضعاً في روح الشرق وضعفاً في مقدرته على إثر الخمول الطويل والأحداث الميئسة في تاريخه ، فجرفت هذه الروح وغمرتها . وكانت هذه الظاهرة أشد بروزاً في الأدب المكتوب ؛ لأن الثقافة الأوربية تسيطر سيطرة تامة على مؤلفيه ، كما كانت هذه الظاهرة بارزة في الحياة الاجتماعية المدنية ، وإن بقي الريف سليماً في معظم البلاد العربية ، محافظاً على طابعه في التفكير وفي النظر إلى الحياة ومشكلاتها ، وفي مواجهة هذه المشكلات بطبيعته الخاصة الموروثة .

ومن هنا كانت هناك فرجة واسعة بين الأدب الذي ينشئه أدباء الجيل ، وبين صميم الطبيعة النفسية والفكرية للشعب . . . فالأدب يستقي من عناصر أجنبية ، ولا يجد شخصيته المستقلة ، لأن هذه العناصر قوية طاغية ، بينما الشعب — في صميمه — لا يزال محافظاً على طبيعته الخاصة ، وسماته الفكرية والشعورية التقليدية .

وما من شك أن هناك فروقاً فكرية وشعورية بين الشرق والغرب ، لم تقو عليها إلى اليوم عوامل التقارب والامتزاج ، وليس منشأ هذه الفروق اختلافاً في الطبيعة

البشرية ، ولكنّ للعوامل البيئية والتاريخية آثاراً لافكاك منها . وهذه الآثار من العمق والشمول بحيث تكاد تنشيء فروقا في جوهر الطبيعة ، أو على الأقل فروقاً في النظرة إلى مسائل الكون والحياة ، وفي مواجهة هذه المسائل ، والسلوك حيالها على نحو معين .

والغيبية القدرية سمة واضحة في تفكير الشرق وشعوره ، تقابلها الواقعية العملية في تفكير الغرب وشعوره . وعن هذه السمة تنشأ سمات أخرى في التفكير والشعور ، وفي التصرف والسلوك ، وهذا كله يترك طابعه في الفن إذا كان صادقاً بحيث يعطي صورة من الحياة .

فإذا نحن نظرنا إلى أعمال أدباء الطليعة عندنا لم نكد نعثر على السمات الشرقية الأصيلة إلا في القليل من هذه الأعمال الأدبية ، بينما نجد في سلوكهم العملي كثيراً من هذه السمات ! . ذلك أنهم في سلوكهم مخلصون لطبيعتهم ولوراثاتهم ، بينما هم في أعمالهم الأدبية خاضعون لثقافاتهم وقراءاتهم . ومعنى هذا في النهاية أن ثقافتهم جاءت أكبر من شخصياتهم فغمرتها وطمست معالمها ، وأننا لا نزال ننتظر الطبائع الفنية القوية التي تهضم الثقافة الأدبية ، ثم تبقى لها بعد ذلك خصائصها الأصيلة . وأقرب مثال يحضرني الآن هو « تاجور » شاعر الهند العظيم .

***

هذا الكتاب الذي بين يديّ الآن يحاول أن ينبه الشرق إلى خصائصه الروحية والفكرية ، وأن يكشف له عن حقيقة قواه وعن الممكنات المهيأة لهذه القوى ، وأن يرشده إلى ميدانه الأصيل الذي يناسب طبيعته ، ويتسع لرسالته ، وتبدو فيه قوته بلا معوّقات . كما يحاول أن ينظر إلى مشكلات الكون والإنسانية بعين الشرق ، بعد أن يزيل عنها الغشاوات الطارئة ، والشيات العالقة ، ويجلوها كما كانت في يوم مضى ، وكما يرتقب لها في يوم من الأيام . ومن هنا كل قيمته في هذا الأوان . وهو ليس كتاباً ذا تصميم خاص في تأليفه ، إنما هو مجموعة خطب أذيع بعضها بالراديو وألقي بعضها في مختلف الأندية في لبنان وسوريا وفلسطين بين سنتي ١٩٤٠ — ١٩٤٤ .

وأنا أوثر — متى كان ذلك ممكنا — أن أدع المؤلف دائماً يشرح وجهة نظره بألفاظه ، قبل أن أعلق عليها بشيء ، لأن في ذلك إنصافاً له وللقارىء ، وفرصة للمشاركة في الحكم والنقد مع سائر القراء .

عقد المؤلف سلسلة مقالات تحت عنوان « التوأمان : الشرق والغرب » أودعها

خلاصة دعوته ، وحدد فيها حقيقة مواهب الشرق والغرب ، وطبيعة دوريهما في الحياة ، نقتطف منها هذه الفقرات :

« من أكمل كمالات العربية وأسماها تمييزها ما بين "البصيرة" و "البصر" وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة ، بل توأمين من بطن واحد ، ولكن ذاك الفرع غير هذا . ولكن هذا التوأم غير ذاك . فكأنهما واحد وليسا بواحد. فالعين إذ تمر بهما تحس ما بينهما من تجانس ، ولكنها تحس مع التجانس تبايناً ، والأذن إذ تلتقطهما تستأنس في الاثنين برنة تكاد تكون واحدة ، ولكنها غير واحدة ، فهما أبداً متلاصقان متباعدان ، ومتشابهان متناقضان . أما التلاصق والتشابه ففي المصدر ، وأما التناقض والتباعد ففي الطريق والواسطة » .

« فالبصر — ومركزه العين — يحصر كل همه في التقاط أشكال الأشياء وألوانها، ومن أشكالها وألوانها يحاول أن ينفذ إلى كنهها . حين أن البصيرة — ومركزها القلب أو الوجدان — همها الوصول إلى بواطن الأشياء دون التلهي بظواهرها . فالاثنان يدأبان وراء المعرفة . لكن سبيل الواحد غير سبيل الآخر ، أما أي السبيلين أفضل وأكفل بالوصول إلى المعرفة ، فأمر لكل منكم الحق أن يبتّ فيه بحسب هواه » .

« أما أنا فقد قلت من زمان — وما أزال أقول — بأسبقية البصيرة على البصر في بلوغ الغاية المنشودة التي هي الفهم الأقصى المؤدي إلى الحرية القصوى» .

« لن يبلغ البصر قلب الحقيقة قبل أن يبلغ حدوده ويدرك عجزه وقصوره ، ويلوذ بالبصيرة فينقلب بصيرة، أما البصيرة فلاحدود لها مثلما لاحدود للحقيقة التي تتوخاها. فهي وإن توكأت على البصر لا تسير على نوره . فالمحدود لايسع سوى المحدود ، وما كان بغير حدود لا يسعه إلا ما كان بغير حدود » .

«والآن إذا قلت لكم إن الشرق هو بصيرة العالم ، وإن الغرب هو بصره .فما إخالكم تسيئون فهم ما أقول ، فتحسبون أن الشرق كله بصيرة ولابصر ، وأن الغرب كله بصر ولا بصيرة . ذاك يعني تجريدكم الشرق عن كل حسن خارجي ، وتجريدكم الغرب عن كل شعور باطني . وهو غير الواقع وغير المعقول . وجل ما أرمي إليه هو القول بأن زبدة الشرق في بصيرته ، وزبدة الغرب في بصره ، وأن الاثنين توأمان متلاصقان يبدوان كأنهما واحد ، ولكنهما غير واحد . لقد اتبع الشرق هدى البصيرة ، واتبع الغرب هدى البصر فأنجب الأول الأنبياء ، وأنجب الثاني العلماء . فكانت هدية الأنبياء إلى العالم أدياناً ترفع الأرض إلى السماء . وكانت هدية العلماء علوماً تهوي بالسماء إلى الأرض»

« لكنما الإنسان، وقُوى الإنسان ، من ظاهرة وباطنة ، في مدٍّ وجزر متلازمين . فللبصيرة — مثلما للبصر — مدّ يتلوه جزر ، وجزر يتلوه مدّ . ومنذا ينكر أن من بصيرة الشرق قد فاض على العالم مد جارف من الكمالات والجمالات الروحية ؟ منذا ينكر على الشرق قوةً اندفعت من قلبه وفكره وروحه إلى كل قلب وفكر وروح ، فتغلغلت في نبضاتها وسيطرت على خلجاتها ، وتسلطت على أقدس أشواقها وأعز أمانيها ؟ » .

« منذا ينكر على الشرق سلطانه على كل أبناء الأرض منذ كانت الأرض وكان الشرق؟ وأي سلطان يتوخاه إنسان على إنسان أقوى من السلطان على القلب والفكر والوجدان ؟ » .

« ماهي بالهدية الطفيفة أن تهدي إلى العالم بأسره إلها ، ومع الإله اليقين بأنه أبوك الشفوق الرحوم العادل ، ومع اليقين الرجاء بالانعتاق من ربقة الموت وآلام الموت » .

« تلك هدية الشرق إلى العالم . وهي هدية ما تلقفها العالم حتى أصبح كله معبداً لإله تعددت أسماؤه ولكنه واحد . وإذا الناس يفتحون أبواب قلوبهم وأفكارهم وبيوتهم لذلك الإله ، فلا يأكلون ولا يشربون ولا يزوجون ولا يتزوجون ، ولا يعملون ولا يستريحون ، ولا يولدون ولا يموتون إلا باسمه ومشيئته » .

ثم يعرض للحضارة الغربية المادية التي هي أثر من آثار البصر فيقول :

« هو ذا الإنسان يهزأ بالنسر في جوّه ، وبالحوت في بحره ، وبالأسد في عرينه ، وهو يمنطق بصوته الأرض ، ويحبس نور النهار في أسلاك يسلطها على الليل فتمحو ظلامه ، ويجترح من العجائب أشكالا وألواناً في مختبراته العجيبة . ولا ينقصه — على حد قول البسطاء — إلا أن يخلق إنساناً نظيره ثم أن يغلب الموت ! » .

« حقاً إنه لتيار هائل جارف تتعالى أمواجه وتتدافع في كل ناحية . وفي تدافعها صخب الزلازل وعتوّ العواصف ، مع شيء من بهجة الفصول ورونق السماء وسحر الفوز بالغنيمة ، وجاذبية القوة الظافرة . فلا غرو إذا ما غمرت المعمورة وبهرت الأبصار ، فهي بنت البصر ، وللبصر الحق أن يعتز بها . فهو ما أنجبها إلا لينعم بمواهبها وخدماتها » .

« لا غرو أن يقف العالم ، وفي جملته هذا الشرق ، مشدوهاً تجاه مدنية الغرب المبصر ، وأن يهلل لها ويكبر ، وأن يغفر لها كل زلاتها ، ثم أن يعقد عليها آمالا أبعد بكثير من مدى سلطانها ، فهي — على ما فيها من مرارة — غنية بالحلاوة التي لا يصعب على أي إنسان تذوقها ، لأنها حلاوة يتذوقها الحس . أما حلاوة المدنية القائمة على البصيرة فدون تذوقها شق النفس وقهر الجسد . لذلك كانت الأولى أقرب إلى متناول الناس وأذواقهم من الثانية . ففيها كما جاء في بعض الحكايات — "مايحلي ويسلي ويعشي الحمار !" » .

« ذلك إذا ما أخذتموها من حيث هي تريد أن تؤخذ ، أي من حيث محاسنها لاغير. أما إذا تفحصتم مساوئها فلن تجدوا مدنية قبلها بلغت مابلغته من التكالب والتباغض والقساوة مع الكثير من التبجح بالعكس . وإما عجبتم لمشهد غريب فاعجبوا معي لهذا الشرق — وقد أهدى إلى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخي — يقف اليوم على مفرق طريق البصيرة والبصر كسير القلب ذليل الجفن ، ضامر الصدر والبطن ، ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، وفي يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه . ثم اسمعوه يستعطي بصوت متهدج فيه الانسحاق ، وفيه المسكنة والاندحار . وماذا عساه يستعطي ؟ إنه ليستعطي طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل . وإني لأسمعه يقول : »

« من يقايضني قنبلة محرقة بآية منزلة ؟ وطيارة أو دبابة بسفر مقدس ؟ بل من يقايضني مخترعاً واحداً بعشرة أنبياء ؟ ! » .

« ما هذا ؟ ما هذا ؟ أبصيرة تستجدي بصراً ؟ أشمس تستغيث بذبالة ؟ » .

« أجل إن بصراً نشيطاً لخير من بصيرة كليلة . وبصيرة الشرق حلّ بها كلال منذ أن بلغت من مدِّها أقصاها . وإن ذبالة تشتعل لخير من شمس اعتراها الكسوف . وشمس الشرق حلّ بها كسوف منذ أن انكفأ الشرق على ذاته في جزره الطويل . ألا إن الكلال يزول بالراحة ، والكسوف بعد أن يبلغ حده ينجلي عن شمس كلها نار وكلها نور . ومن ثم فالحياة — وهي أم التوأمين بالسواء ، أم البصيرة والبصر ، أم الشرق والغرب — ما درجت بالشرق إلى أسمى ذراه حتى عادت فدرجت بالغرب . والذروتان ستلتقيان حتماً في ذروة واحدة ، هي ذروة الإنسان الموحَّدة ، والمالك زمام نفسه ، وزمام الأرض والسماء » .

وفي موضع آخر يقول :

« أصحيح ما يزعمه الزاعمون أن أنبياء الشرق قد جنوا على الشرق ، وأن أديان الشرق هي أكبر آفات الشرق ؟ أصحيح أن السماء قد شغلت الشرق عن الأرض ، والآخرة عن الدنيا . وأن الاعتقاد بالقدر قد غلّ يديه ، وشلّ فكره ، وسدل حجاباً على عينيه ؟ أصحيح أن الشرق مات لأنه آمن بالإله الحي الذي لا يموت ؟ » .

« لا ، ثم لا ، ثم لا ، فالذي فعله الشرق حتى اليوم ما كان أكثر من صنع أهداف له وللعالم أجمع . وتلك الأهداف تتوحد كلها في هدف واحد ، هو هدف الكمال لهذا المخلوق الذي ندعوه إنساناً — هدف الانفلات من قيود اللحم والدم والتغلب على الحيرة وما في الحيرة من وجع ، وعلى الموت وما في الموت من ألم ، والتسلط على طلاسم الوجود ،

ثم الانطلاق في حياة لاحدود لها ولا قيود ، يرفّ عليها سلام المعرفة ، ويتألق في جوّها بهاء الألوهة ، ويندمج في قبضتها النقيض بالنقيض ، ويتلاشى في فضائها الزمان والمكان . وهذا الهدف قد نفذ إليه الشرق ببصيرته البالغة منتهى النقاوة والصفاء في بصائر أنبيائه . فهو في حقيقته لا مجاز ، وهو رؤية لارؤيا . وهو واحة حية لاسراب خداع » .

« أما أن الشرق بمجموعه ما بلغ ذلك الهدف بعد فأمر لا نزاع فيه على الإطلاق . والقائل بعكس ذلك كالقائل بأن كل رجل في الشرق نبي وكل امرأة نبية ، أو كالقائل بأن كل رجل في الغرب عالم أو مخترع وكل امرأة عالمة أو مخترعة ، وفي ذاك ما فيه من السذاجة والبلاهة » .

« ليس يعيب منارة أن لايستنير بنورها الحارس الساكن في كنفها ، مثلما لايعيب قمة نابتة في بقعة من الأرض أن لايتسلقها أبناء تلك الأرض . فهدف الشرق هو هو حقيقة وضاءة ثابتة أبدية — سواء أفي هذه الحقبة من حياته أدركه الشرق أم بعد حقب طويلة » .

. . . « ما هو بالشنار على الشرق أن لايدرك الهدف بوثبة أو وثبتين ، أو في خلال قرن أو قرنين . فما هو بالهدف الذي يدرك بألف وثبة وفي ألف جيل . وإنما الشنار أن يقعد الشرق بمجموعه ، من بعد أن وثب ولم يصل — قعدة اليائس البائس ، قعدة المنهوك المقهور ، قعدة الخاسر الحائر . ثم أن يشيح بوجهه عن هدفه قائلاً : إنه خيال وإن الوصول إليه ضرب من المحال ، وأن يدير وجهه شطر الغرب باحثاً هناك عن هدف وعن طريق » .

« أقول لكم : لا هدف للإنسان أبدع وأسمى وأقوى على الزمان من الذي نصبه الشرق وراح يدعو إليه الناس أجمعين ، وهو إذا ما تحجب عن العصر المقنع بألف قناع ، فلأنه ابن البصيرة النيرّة الصافية ، وهو إذا ما عزّ مناله فلأن الكمال عزيز المنال . وهو حقيقة مثلما الوجود حقيقة ، بل هو الحقيقة قبل كل حقيقة وبعد كل حقيقة » .

« ثم أقول لكم : إن الغرب لعاجز عن خلق مثل هذا الهدف ، بل عن خلق أي هدف للإنسان يقوى على الزمان وتقلباته . ذلك لأن الغرب سائر على ضوء بصره . والبصر لا يثبت على حال ، لأن الأشياء التي يتناولها لا تثبت على حال . ولكن للغرب رسالة كما للشرق رسالة . . . إن تكن رسالة الشرق البصير خلق الأهداف ، فرسالة الغرب المبصر هي تعبيد الطريق إليها » .

ثم يمضي بعد ذلك يذكر فتوحات العلم الحديث ، ويرى أنها مما يساعد على تعبيد

الطريق إلى الهدف الأعلى الذي رسمه الشرق منذ أجيال، لأنها عجائب يدركها البصر — وإدراك البصر مهيأ لأكبر عدد من الناس — ثم يقول :

«وعندما تبلغ علوم الغرب المادية أقصى مداها . عند ماتفلق الذرة أو ترتد عاجزة عن فلقها . ستراها وجهاً لوجه مع ما يجعل المادة مادة وليس بمادة — مع القدرة التي أسماها الشرق (الله) ورفعها هدفاً للانسان المخلوق على صورتها ومثالها . وبكلمة أخرى سينتهي الغرب من المحسوس إلى غير المحسوس . وبذاك تنتهي مهمته في هذه الدورة من حياة الإنسانية ، وتبتدىء من جديد مهمة الشرق » .

« ومهمة الشرق إذ ذاك ، وقد مهد الغرب له الطريق إلى الهدف ، هي جلو ذلك الهدف كما يظهر في كل بهائه ، نقيًّا من السفاسف والترهات التي حجب الجهل بها سناء وجهه باسم الله والدين ، وما هي من الدين والله لا بخمر ولا بخل . ثم لمّ شعث الإنسانية التائهة ما بين بصرها وبصيرتها ، وبث النشاط في مفاصلها المفككة ، وبعث الإيمان الدفين في قلبها بجمال ذلك الهدف وحكمته وعدله ، ثم السير بهذه الإنسانية المتجددة نحو هدفها بخطىً لا تردد فيها ، وعزم لا التواء فيه ، وإرادة تعرف ماتريد ، ولا تريد غير ما تعرف ، فلا يقهرها شك ولا يثنيها عياء . . . »

* * *

هذه السلسلة من المقالات التى اقتطفنا منها الفقرات الطويلة الماضية هي العمود الفقري في الكتاب، وهي أجود محتوياته على العموم؛ وفيها يبدو إيمانه بالشرق وبصيرته ، وهو في الوقت ذاته لا يغمط الغرب وبصره حقه .

وللشرق إذن دوره الخالد في بناء هذه الحياة ، وأمامه أدوار أخرى عليه أن يؤديها بطريقته الخاصة ؛ وليست طريقته أن يقلد الغرب في وسائله ، ولا أن ييأس إذا سبقه الغرب في مجاله الخاص ، أو يصغر من شأن معتقداته وشعوره ، ولا أن يحني هامته أمام الآلة وحضارتها المادية المروّعة .

وأنا أوثر أن يُهتف للشرق دائماً بهذا الهتاف ، وأنكر الدعوات التى تبعثها الفتنة بحضارة الغرب المادية إلى حد التذاوب فيها والفناء .

والذين قرؤوا مقالي في العدد الثاني من مجلة «الكتاب» عن كتاب الأستاذ عبدالمنعم خلاف ، « أومن بالإنسان » ومقالي في مجلة الثقافة منذ أكثر من عام مضى عن كتاب الدكتور حسين فوزي « سندباد عصري » يعرفون إنكاري للزراية على الشرق وطعنه في روحه الصميمة تأثراً بما هو فيه اليوم من ضعف وتخلف . . . إنه يجب أن نفرق دائماً

بين الضعف والتخلف الموقوتين وبين روح الشرق الأصيلة وتعاليمه الصميمة . ولان تأخذنا الفتنة بالحضارة المادية إلى حد الزراية على الأهداف الروحية الخالصة والتعاليم المثالية المجردة ، والسبحات الروحية المرفرفة ، والومضات الإشراقية حتى شطحات الخيال !

ومؤلف «البيادر» يرد لهذه الاتجاهات الشرقية الصميمة اعتبارها ، ويعرضها في حماسة شعرية ، وفي وضوح ذهني كذلك ، في سلسلة المقالات التي عقدها بعنوان : التوأمان : الشرق والغرب . وهذه الروح تتمشى كذلك في محتويات الكتاب كله من خطب وأقاصيص ومثلات ، على تفاوت بينها في الجودة والوضوح وحسن الأداء والتوفيق .

وأبرز ما تبدو محاكاة روح الشرق الفكرية والشعورية وعقيدته الغيبية القدرية في مقال بعنوان : « إن شاء الله » وفيه يقول :

. . . يشقى العالم بغروره وسيظل في شقائه إلى أن يتعلم ما تعلمه هذا الشرق من زمان ثم نسي معناه — إلى أن يتعلم قول : « إن شاء الله » . فالمشيئة لا تكون بغير معرفة ، والمعرفة لا تكون بغير مشيئة . بل إن المعرفة هي المشيئة ، والمشيئة هي المعرفة . أما الجهل فلا مشيئة له » .

« كيف لمن يجهل من أين أتى أن يشاء إلى أين يمضي ؟ أم كيف لمن لا يعرف علة وجوده أن يحتم هذه الغاية أو تلك لوجوده ؟ كيف لمن لا علم له بالأسباب أن يقرّ النتائج ؟ لا . ليس يعرف شيئاً من ليس يعرف سوابق ذلك الشيء منذ الأزل ولواحقه إلى الأبد . من كان في مستطاعه أن يقول : " أنا أعرف " حق له أن يقول : " أنا أريد " . أما الإنسان الذي مابرح في عالم البدايات والنهايات والقناطير والفراسخ ، فقصيّ عن هذه المعرفة ، ومشيئته وبال عليه ، كلما عاكست المشيئة الكلية ، فما له — إن هو أراد التخلص من شقائه إلا أن يقول : " أنا أشاء كيت وكيت ، إن شاء الله كيت وكيت " .

« لو تعود الإنسان قول : " إن شاء الله " بقلبه لا بلسانه لما عتمت المعرفة أن سكبت نورها في قلبه . وإذ ذاك لآزرت المشيئة العامة مشيئته فأسعدته بدلا من أن تسحقها فتشقيه . لكنه لاهٍ عن مشيئة الحياة المبصرة ، وما في طاعتها من طمأنينة لا تدرك ، وغبطة لا توصف ، بمشيئته العمياء ، وما تبذره في كل يوم من مشاكل وهموم » .

« أولا ترون كيف أنه يرهق جسده بتوسيع نطاق حاجاته إلى حد لا يطاق ، ويخنق روحه بتضييق نطاق حاجاتها إلى حد لا يطاق . ما أبسط حاجات الجسد وأقلها لمن يعقلون . فالذي وهب الإنسان الفكر وما فيه من سحر ، والخيال وما فيه من قوة ، والشعور وما فيه من جمال ، لن يبخل عليه برغيف وقميص ومأوى . . . » .

وهكذا وهكذا من قبل هذه التوجيهات في مواضع متفرقة من الكتاب ، وبعضها يرتفع إلى حد الإبداع ، ويكون فيه فصل الخطاب في الموضع الذي يعرض له ويستعرضه .

***

وبعد ، فالمؤلف يظل موفقاً ما ظل في الدائرة الواضحة ، وما ظل يواجه المسائل التي يبحثها مواجهة . ولكن يعنُّ له في بعض الأحيان أن يدخل في دائرة الرمز ، وأن يعبر بالأمثولة أوبالأقصوصة ، بدل أن يعبر بالبحث أوبالمقال . . . وهنا يفارقه التوفيق .

ومن هذا الطراز الأماثيل والأقاصيص التالية : في العاصفة . والهزيمة . والقصر والمعمل . وهدية الهمّ . وحكاية دمعة . وواحة السلام . ورغيف وإبريق وماء .

كما أن هناك بعض الموضوعات التي تهبط عن مستوى الكاتب والكتاب ، مثل مقالَي : « البيادر . والصخور » فليس فيهما من ميزة فنية أو ذهنية تجعلهما جديرين بالنشر في مثل هذا الكتاب الذي يحوي في جانبه الآخر قضايا كبيرة عولجت أحسن علاج .

ويسير تعبير المؤلف وأسلوبه في مستوى جيد يبلغ روعة الشعر في بعض المواضع ، ولكنك تعثر هنا وهناك على عبارات وتصورات يبدو تأثر المؤلف فيها بأسلوب الترجمة العربية السقيمة للكتاب المقدس. وهي تحجب كثيراً من الجمال الفني في العهد القديم .

وهناك تلاعبات لفظية وذهنية تقلل من الأصالة الفنية والصدق الشعوري في الكتاب في بعض الأحيان . ولعل هذه الظاهرة هي التي تعوق هذا الكتاب أن يرتفع إلى مستوى الأعمال العظيمة ، لأن القارىء يحس عندها أنه أمام ذهن يعرض المسائل الروحية ، لا أمام طبع يفيض ، وشعور يتدفق ، وقد يجد في هذا العرض براعة ودقة وتوضيحاً للمسائل التي يتصدى لها في مستوى معجب ، ولكنه يظل في حاجة إلى عنصر آخر ، عنصر الطبع الدافق الفياض .

فمثلا عرض المؤلف لمشكلة الشر في الحياة . وهذه المشكلة نفسها عرض لها تاجور في كتاب «السادهانا» والموازنة بين العرضين تكشف عن الضخامة والأصالة في تاجور ، كما تكشف عن الفهم والبراعة في « ميخائيل نعيمة » . والمجال هنا لا يتسع لإثبات النصوص ، فليرجع إليها من يشاء .

ولكني أحب أن لا يفهم أحد — بعد هذا كله — أن كتاب البيادر كتاب صغير . إنما هما جانبان عرضتهما للكتاب ولمؤلفه ، وبهما معاً يكون تقويمه الصحيح .

سيد قطب

التعريف

من أعماق الجبل

تأليف الأستاذ صلاح لبكي ببيروت

١١٤ صفحة من القطع الكبير . دار المكشوف . بيروت ١٩٤٥

أساطير الشعوب صورة حية من هجسات الضمير الشعبي العام ، وهي — لأنها من عمل الضمير الشعبي — قد تكون أصدق في الدلالة على طبائع الأمم من الفلسفة المنظمة ، بل من الأعمال الفنية التي يتدخل الوعي الفردي فيها على وجه من الوجوه .

وكتاب « من أعماق الجبل » هو محاولة لاستنقاذ بعض الأساطير اللبنانية — في عصر الوعي العلمي — وإخراجها في صورة فنية حديثة ، وقد صدرت بمقدمة قيمة بقلم الأستاذ بطرس البستاني ، عرض فيها لمنشأ الأسطورة بوجه عام ، وقيمتها في ضمير الشعب ، وتأثير المعتقدات الدينية بها على شتى الوجوه ، ثم حلل فيها عمل الأستاذ صلاح لبكي في هذه المجموعة ، والعوامل التي تأثر بها فيها . . . ثم تليها هذه الأساطير بالعناوين التالية :

« النغم التائه . طليق وسجين . الشاعر والشيطان . ملكرت . الكلب المجنح . العرعار . الرصد . بعل مرقد » .

وقد قام الأستاذ قيصر الجميل بعمل ستة رسوم فنية مستلهمة من جوّ بعض الأساطير ومعبرة عنها . وهي مجموعة قيمة من الصور المعبّرة .

وفي الوقت الذي نعجب فيه باتجاه المؤلف إلى هذه الناحية من إحياء التراث النفسي اللبناني الأصيل في هذه المجموعة ، لا يسعنا إلا أن نلاحظ أنه قد أدخل في صلب هذه الأساطير زيادات مستمدة من أساطير أخرى أجنبية ، أو إشارات وحوادث مستقاة من التاريخ المعاصر .

وكم كنا نود أن يقدم لنا الأستاذ المؤلف أساطير لبنان نقية من هذه الشوائب ، كيما تكون مصورة لنفسية الشعب اللبناني العميقة ولضميره الشرقي الخالص .

وعنوان « من أعماق الجبل » يفهمنا أن المؤلف قصد أن يعرض علينا صوراً

من « أساطير الجبل العميقة » . وفي هذه الحالة يكون التصرف بالإضافة والازدواج عملا لا يتفق والقصد الأساسي من هذه المجموعة .

فإذا نحن تجاوزنا عن هذا ونظرنا في صميم العمل الفني الذي قدمه لنا الأستاذ صلاح لبكي ، وجدنا الروح الفنية تطاوعه في بعض أساطيره ، كما نجدها تستعصي عليه في بعضها الآخر . وفي الوقت الذي نثني فيه على « النغم التائه . والشاعر والشيطان . وبعل مرقد ، . . . نفتقد خفة الروح وجمال الفن في : « الكلب المجنح . والعرعار . وطليق وسجين » . وهذه الأسطورة الأخيرة لها أصل هندي في أغاني تاجور المعروفة باسم « رعاة الحب » ولكنها تخرج من بين يدي تاجور لطيفة مرفرفة ، وتخرج من بين يدي صلاح شبه جامدة !

على أن هذا الاتجاه الذي اتجه إليه صلاح لبكي في هذه المجموعة حقيق بالثناء ؛ فإذا كان في نيته أن يتابع خطواته في استنقاذ أساطير لبنان القديمة وعرضها في صورة فنية جديدة ، فرجاؤنا إليه أن يحافظ على نقاوتها من الأساطير الدخيلة ، وأن لا يشوه جمالها بإدخال الملابسات العصرية في صميمها .

ولو أنه صنع ذلك لقدم للروح اللبنانية وللشرق على العموم رصيداً طيباً من ذخيرة الشرق ، ينعش روحه ، ويساعده على صراع الحضارة المادية . وهذا عمل فني جميل ، وعمل إنساني جليل .

العالم القديم

تأليف الأستاذ نقولا زيادة أستاذ التاريخ بالكلية العربية بالقدس

٢٦٤ صفحة من القطع الكبير . المكتبة العصرية . يافا ١٩٤٥

مؤلف هذا الكتاب شاب عربي متحمس لعربيته وقومه . تعلم في انجلترا ، وأجيز في التاريخ من جامعة لندن ، وعاش في الغرب قطعة من عمره ، ولكنه عاد إلى فلسطين عربياً شديد الإيمان بالعرب . وتتجلى هذه الروح فيما أخرج من كتب ، فله « القومية والعروبة » و « مرتبة العرب » و « شخصيات عربية » وهي من مطبوعات فلسطين في عام ١٩٤٥ . وله كذلك كتاب سيصدر قريباً بمصر عنوانه : « صور من التاريخ العربي » .

أما كتاب اليوم فقد رجع فيه المؤلف إلى الشرق القديم وإلى بلاد اليونان ،

يتحدث حديث المؤرخ الواسع الاطلاع عن مصر القديمة وبابل وأشور وسورية القديمة ومملكة الفرس ، وعما دار عليها من أحداث وانتابها من خفض ورفع .

ونصيب العالم اليوناني يزيد على نصف صفحات الكتاب ، فقد أطال فيه المؤلف ، على حين أوجز الكلام عن مصر أو سورية مثلا . وهي قسمة ما كان ينبغي لها أن تجور في يد الاستاذ المؤلف ، فقد جمع دول الشرق كلها في أقل من نصف الكتاب ، وأعطى اليونان وحدها أكثر من النصف .

والمؤلف حرٌّ في أن يمنح الأمم ما يشاء من صفحات كتابه ، ولكننا نطالبه بأن يعتدل الميزان في يديه ، فلا نرى الحضارة اليونانية مفصّلة في عصورها المختلفات حتى العصر الهليني ، ولا نرى الحضارة المصرية ، مثلا ، إلا موجزة في كلمات .

والكتاب في الأصل مدرسي ليسد حاجة الطلاب — في بعض الفرق — إلى كتاب بأيديهم يجمع لهم تاريخ الشرق القديم وتاريخ اليونان . ولكن المؤلف نجح في أنه نحّى عن الكتاب الطابع المدرسي ، وجعله مقبولا عند طبقات كثيرة من القراء يهمها أن تضرب في أعماق الماضي السحيق لتتخذ منه لذة أو عبرة .

وليس الكتاب مجرد سجل للحوادث ، ولكنه يجمع إلى ذلك دراسة موجزة لكثير من نواحي الحياة في البلاد التي يعرض تاريخها السياسي . فبعد الحديث مثلا عن بلاد اليونان من سنة ٥٠٠ ق م إلى ٣٠٠ ق م يتحدث عن الحياة السياسية فيها ومجالسها النيابية ، وخصائص الديمقراطية اللاتينية والحياة الاقتصادية ، والحياة الفنية في البناء والآداب ، والحياة الفكرية ، والفلسفة والدين .

وتلك أحاديث تطول فيها المجلدات ، ولكن المؤلف استطاع أن يُجملها على القدر الذي يبلغ الزاد ، واستطاع أن يوضح كتابه بلوحات فيها صور وخرائط ورسوم ، يستعين بها القارئ على أن يرى من الألطاف والآثار ما بعدت به الديار .

الحروب الصليبية

تأليف الأستاذ رفيق التميمي بالقدس

٣١٠ صفحات من القطع الكبير . مطبعة اللواء . القدس ١٩٤٥

كانت هذه الحروب صراعاً بين أوربا والشرق ، صوّرها موقدوها حرباً دينية ، وهي حرب العدوان والطغيان . أرخها المؤرخون العرب ، كل بما يستطيع وما يعلم ،

ما بين مسهب وموجز ، وأرخها المؤرخون الإفرنج كذلك . والباحث المنصف يجب أن يرى وجهتي النظر من غير عصبية في البحث . ومؤلف الكتاب يقرر أنه فعل ذلك، نقب عن المؤلفات العربية والإفرنجية ، فوجد « أن مؤرخي الغرب قد تعمدوا تشويه بعض الحقائق المتعلقة بالجبهة الإسلامية ، وانتهج المسلمون الخطة نفسها ، فجاءت مؤلفات الفريقين مشحونة بأغلاط فادحة ونظرات خاطئة فيما يتعلق بالجبهتين » . وكتابه هذا كتاب وسط بين الإيجاز والإطناب ، فيه كثير من التحقيق وكثير من الإنصاف . وهو مقسم تقسيماً علمياً منظماً ، في أربعة عشر فصلا ، آخرها فصل بديع عنوانه « نظرة خاطفة في الحروب الصليبية » كأنه عرض عام لهذه الحروب ونتائجها القريبة وآثارها البعيدة ، التي أيقظت المعتدين ، وغيَّرتهم على مرّ العصور من وحشية سافرة ، إلى وحشية مقنعة ، تكشف عنها المطامع وأحداث الزمان .

وذُيل الكتاب بسجل المراجع العربية والفرنسية والإنجليزية ، وبفهارس مفصلة للأعلام والأماكن والمواضيع ، وفي آخره شجرتان : إحداهما لملوك الدولة الأيوبية ، والأخرى لملوك المملكة اللاتينية ، ثم مصور جغرافي لسورية وبعض المملكة المصرية .

ولم يخل الكتاب من أغلاط مطبعية حتى إن المصور الجغرافي لم يخل من خطأ فقد رأينا فيه حصن «شيزر» مقر إمارة آل منقذ شمالي حلب، كتب اسمه « شيراز » !

وبمناسبة هذا الكتاب القيم ، يجدر بنا أن نسجل كلمة قوية عادلة ، كتبها الأستاذ خليل بك ثابت ، في افتتاحية « المقطم » يوم ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٤٥ فى شأن هذه الحروب ، قال : « إننا نحن الشرقيين نؤمن بالعدل الإلهي ، فقبل اليوم حاول الأوربيون باسم الدين المسيحي ، والدين المسيحي بَرَاء من الذين حاولوا ما حاولوه — حاولوا أن يملكوا فلسطين ولبنان وسورية ، وأضرموا نارها حرباً عواناً لقبوها بالصليبية ، وكانت في الواقع وثنية لا صليبية ، بدليل ما ارتكبوا في خلالها » .

« انتهت تلك الحروب بخسارة عظيمة حلت بهم وعادت البلاد إلى أهلها ؛ والتاريخ يعيد نفسه ، وما ربك بظلام للعبيد » .

الأثمان

تأليف الأستاذ مصطفى القوني

٣٥٨ صفحة من القطع المتوسط • مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٤٥

هذا كتاب قيم ، بسط فيه المؤلف مشكلة الأثمان من الناحية الاقتصادية . وقد استهله بتفسير الكثير من الاصطلاحات الاقتصادية ، ليسهل على القارىء متابعة درس الكتاب دون عناء .

بدأ المؤلف كتابه بعرض عام للمشكلة الاقتصادية ، ثم تكلم على النظام الاجتماعي وتطوره من حالة النظام الاقتصادي للفرد إلى حالة النظام الاقتصادي للجماعة — وبعد ذلك أفرد فصلا عن الرأسمالية ومميزاتها . وكنا نودّ أن يفرد فصلاً آخر عن الاشتراكية ومميزاتها ومساوئها — وقد يكون عدم تعرضه لهذا الموضوع بدراسة وافية ، راجعاً إلى أن « نشره تلبية لحاجة تلاميذه » .

وبعد هذا العرض العام بدأ الأستاذ كتابه ، وهو مقسم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : يتناول نظرية الأثمان فتكلم عن الثمن ، والأسواق ، والطلب ، والعرض ، والثمن في ظل المنافسة الحرة ، والثمن في حالة الاحتكار .

والقسم الثاني دراسة لموضوع « الإنتاج » ، وقد قسمه إلى خمسةفصول ، هي : مقدار الإنتاج ، وتخصص عناصر الإنتاج ، والتأليف بين عناصرالإنتاج ، ورأس المال ، والإنتاج في ظل الدكتاتورية الاقتصادية .

أما القسم الثالث فقد تناول فيه بالشرح موضوع الأثمان في ظل الرأسمالية ، وقسمه إلى ثلاثة فصول : الأول عن تأثير الطلب في الإنتاج ، والثاني عن المشروعات الرأسمالية ، والثالث عن تنقل عناصر الإنتاج .

وبعد ذلك اختتم المؤلف كتابه بالقسم الرابع ، وهو دراسة مسهبة لموضوع التوزيع ، مبيناً في أربعة فصول الفرق بين كل من : الأجور ، والفائدة ، والريع ، والربح . ثم اختتم القسم الرابع ، بفصل خامس عن توزيع الدخل الأهلي .

وقد تكلم المؤلف في الفصل الأول من القسم الرابع في سياق شرحه لموضوع الأجور عن الطبقات الاجتماعية في النظام الرأسمالي مقسماً إياها إلى : (١) الطبقة العليا (٢) الطبقة العالية (٣) الطبقة الوسطى (٤) الطبقةالدانية (٥) الطبقة الدنيا ، وهذا

الترتيب هو من حيث مقدار دخل الفرد منها قائلا بعد ذلك : إن من النادر أن ينتقل فرد من إحدى هذه الطبقات إلى طبقة أخرى أعلى — وهذا حقيقي في النظم الرأسمالية — أما في النظم الاشتراكية ، وهي التي يسير نحوها العالم الآن بخطى واسعة ، فنجد أن الدول ، أو بمعنى أدق — الشعوب — تعمل على إزالة هذه الفوارق بين الطبقات ، لتحقيق المساواة الاجتماعية .

ماذا في السودان

تأليف الأستاذ جلال الدين الحمامصي

٢٠٣ صفحات من القطع الكبير . دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٥

حين يسأل المرء نفسه « ماذا في السودان ؟ » يتذكر بضعة من الكتب ارتفعت فيها أصوات مصرية كريمة بالحرص على الوحدة المنشودة بين القطرين ، من مثل كتاب « المسألة السودانية » للمغفور له الأمير عمر طوسون ؛ و « مذكرتان للمرحومين أمير اللواء محمد باشا لبيب الشاهد وأمير الألاي أحمد بك رفعت عن أعمال الجيش المصري في السودان ومأساة خروجه منه » .

وكتاب اليوم يشبه الكتابين السابقين من حيثُ روحه ، ومن حيث الملابسات التي ألف فيها ؛ فقد ظهر كتاب الأمير عمر طوسون والمحادثات تجري بين الوفدين المصري والبريطاني في القاهرة تمهيداً للمفاوضة النهائية في إنجلترا في المسائل المحتفظ بها ومن أهمها المسألة السودانية . واليوم يطلع كتاب الأستاذ الحمامصي على أبناء وادي النيل في اللحظة التي ينتظر أن يبت فيها في مصير بلادهم ، لعله يكون حافزاً لهم « إلى أن يراجعوا أنفسهم ، ويتدبروا موقفهم ، ويحددوا أهدافهم ، ويذكروا أن لمستقبل هذا الوادي شأناً جليلا دونه شأن ماضيه على ما امتاز به من جلالة قدر ؛ وأنه بالغ هذا الشأن ما لم ينزغ بين أهله الشيطان محاولا تفريق ما جمعت الطبيعة واللغة والدين » .

والأستاذ الحمامصي في كتابه هذا نقل إلينا في مصر ، وما حثنا ركاباً إلى السودان ، حياة السودان السياسية وحياة الأحزاب وبرامجها فيه . وقد كان هذا العمل ضرورياً لنا حتى نكون على بينة من تيارات محلية لا بد من معرفتها ، لأن المعرفة الحق أساس التعارف الحق الوطيد .

وإذا كانت تيارات السياسة العالمية تحتم علينا أن نعرف شيئاً عن الحزب الجمهوري

والحزب الديمقراطي في بلد كأمريكا مثلا أفليس من الحتم الذي لا معدى عنه أن نعرف أشياء عن حزب « الأحرار » وحزب « الأمة » وحزب « الأشقاء » في السودان . وهي أسماء نقرؤها في الصحف اليومية على سبيل الخبر الواقع ، ونقرأ الأنباء الموجزة عن الصراع بينها ، ولكننا لا نعرف حقيقتها وبرامجها ودعائمها وعوامل قيامها .

وتفصيل ذلك كله في كتاب « ماذا في السودان » . حتى لقد ظهرت صور الأحزاب فيه على وجه لا يحوج القارئ إلى استفهام أو استفسار . ويضاف إلى ذلك حديث واضح صريح عن المجلس الاستشاري في السودان ، ومؤتمر الخريجين وموقف الحكومة منه ، وسلخ الجنوب عن الشمال ، ومياه النيل وقلق السودانيين بشأنها ، وسياسة مصر في السودان والعلاقة بينهما ، وغير ذلك من الموضوعات التي يطيب للمصريين والسودانيين أن يقرؤوها ، لأنها قلب مفتوح يصل بين قلبين . . .

وهناك بعد ذلك جانب تاريخي من الكتاب يشتمل على وثائق تاريخية منذ اتفاقيتي يناير ويوليو سنة ١٨٩٩ إلى محادثات سنة ١٩٣٦ .

ومعرفة المؤلف عن السودان هي معرفة المشاهدة والعيان ، أما معرفته بالتاريخ السياسي لتطور المسألة السودانية فمعرفة المؤرخ المعتمد على الوثائق . والمعرفة الأولى تكشف لنا في المؤلف عن وطني مؤمن بالوحدة عامل في سبيلها . فقد ذهب إلى السودان في أكتوبر سنة ١٩٤٥ لا ليجد فيه مصطافاً ولا مرتبعاً ولا مشتى ، ولا مستمتعاً بجمال الطبيعة ، ولكنه ذهب ليقول لأخيه السوداني : إنما جئت لك . . .

والأخوّة بين المصري والسوداني لا تكفي فيها الكلمة تقال ؛ ولكن لا بد لها من الفعل أن يُفعل . وهي أخوّة عطلتها أمور — ما لنا بها يدان — عن الاشتراك والمعاونة . وما أصدق معالي مكرم عبيد باشا وزير المالية وهو يقدم لهذا الكتاب ببعض قوله : « إني أعرف في السودانيين رجولة وأخلاقاً كريمة تجعل منهم بالاشتراك مع إخوانهم المصريين وحدة جنسية أو مجموعة خلقية يكمل بعضها بعضاً ويشدّ بعضها بعضاً ».

ولقد تكون قراءة كتاب عن السودان واجباً علمياً لمن يهتمون بمسائل التاريخ وأحداث الزمان ، وهو واجب ندعو الله أن يضاعف الشعور به عند المشتغلين بالعلم عندنا . ولكن قراءة كتاب عن السودان هي واجب وطني لمن يريدون أن يبنوا ثقافتهم القومية وروحهم الوطنية على أساس من المعرفة الصحيحة ، وهي معرفة توطدت أركانها في كتاب « ماذا في السودان » .

صدى النقد

١

« دفاع عن البلاغة »

زميلي الأستاذ رئيس تحرير الكتاب

قرأت في العدد الأخير من الكتاب ذلك الكلام الطويل الذي ينتهي بإمضاء من تسمي نفسها : (بنت الشاطىء — من الأمناء) . وقد ترددت وأطلت التردد قبل أن أعقب على هذا الكلام بهذه الكلمة ؛ لأن الغرض من الكتابة عن (دفاع عن البلاغة) بهذا الأسلوب إنما هو تصغير الكاتب وتحقير الكتاب ؛ والرد الطبيعي على هذا الغرض هو تصغير الناقد وتحقير النقد ؛ ولكن الكاتب الذي ارتضى لنفسه هذا الأسلوب هو سيدة كما يظهر من الإمضاء ، وللنساء مهما يكنّ على الرجال حق الرفق والإغضاء . وأنا بطبعي أبغض الجدال ، وهو أبغض ما يكون إلى حين يتصل بي اتصالا مباشراً أو غير مباشر .

على أنني بإزاء سيدة تمردت على طبيعتها وحقيقتها فلفت على رأسها الصغير عمامة الشيخ وضمت أناملها الخرعة على قلم غليظ خشن يقطر بالدعوى العريضة والنية المريضة والجدل العقيم ، وعمدت إلى المقالات الثلاث الأولى من (دفاع عن البلاغة) فمزقتها وفرقتها ، وسلت بعض الجمل من بين أخواتها سلا وحاولت أن تجعل لكل جملة معنى مستقلا لتستنتج منها ما حلا لها أن تستنتج ، كما صنعت بالمقالة الثانية مثلا ، ومثل هذا لو صُنع بالقرآن الكريم لعاد باطلا كله ! ثم أخذت بعد ذلك تناقش في بعض الألفاظ وتجاحش عن بعض المعاني ، وتتكلم في القديم والجديد ، وتتبجح بالتحرير والتجديد ، وعلمها بما خاضت فيه من كل أولئك لا يزيد على علمي بالهيرغليفية أو بالنسبية !

ولا يعنيني مطلقاً أن أنبه إلى غلطاتها و (مغالطاتها) فإن الكتاب في أيدي الناس يقرأونه بالنظر السليم ويفهمونه بالعقل الخالص ؛ إنما يعنيني أن أبين للذين أساءوا الظن بأدب السيدة أنها لم تكن إلا بوقاً من الصفر نفخ فيه من نفخ لسبب يسأل عنه صاحب السعادة عبد العزيز فهمي باشا ؛ فقد نشرت (الرسالة) له رأياً في (دفاع عن البلاغة) جاء فيه قوله : « ... وخرجت من قراءة هذا الكتاب الممتع

بأن دراسته لا تصلح للمبتدئين ولا لأنصاف المتعلمين لأنه مقارنة قوية لبلاغة العربية ببلاغات اليونانية واللاتينية والفرنسية وغيرها ؛ ودراسة هذه المقارنة إنما تصلح للمتخصصين في علوم العربية . ويسرني أن أسمع يوماً أن إدارتي جامعتينا قد قررتا تدريس هذا الكتاب لطلاب التخصص في اللغة العربية ؛ فإنهم بالمقارنة بين ما قاله علماؤنا وبين ما قاله العلماء الأجانب قديماً وحديثاً يستطيعون أن يحددوا مركز علمائنا السامي بين رجال البلاغة في كل بلد . وهذه المقارنة ولا ريب تفتق الأذهان وتوسع الآفاق ، وهي خطوة لا بد منها لشرقنا حتى يستطيع الناقص أن يتم ، والتام أن يكمل ، والكامل أن يكون على بينة من كماله . . .»

ولم يكن قاضي القضاة أطال الله عمره يدرى أن في كلية الآداب شيخاً من شيوخ الدين يزعم لنفسه رياسة التجديد في البلاغة والأدب والأسلوب حتى في الزي ، ويجمع من حوله طائفة من تلاميذه سماهم باسمه ووسمهم بوسمه ، وجعل في يد كل واحد منهم سكيناً ، ثم أغراهم بجلود الذين أوتوا نصيباً من الذكر والكرامة . كبير الأمناء هذا عز عليه هو وأتباعه أن يحكم كبير القضاة لكتاب ليس لهم ، ولكاتب ليس منهم ، وننوه بالدفاع العقاد والمازني ، فوغرت الصدور وورمت الأنوف ، وتصايح الأمناء قائلين ؟ وأين نحن إذن؟ وهل يجوز لأحد غيرنا ان يدخل في شؤون البلاغة ؟ ثم سوّل لهم كبيرهم أن يسقطوا حجة هؤلاء المتطفلين على اختصاصهم بتشويه الكتاب ، فتعاووا على الصفحات الأولى منه فعبثوا بها هذا العبث ثم حمّلوه هذه السيدة وهي زوج الشيخ فحملته وتولت كبره .

من السهل يازميلي على أي طفل أن يمزق أي كتاب بأي سكين ؛ ولكن التمزيق الصارم كالتشريح بالمبضع المرهف لايستطيعه إلا الجهابذة الموهوبون .

ولو كنت أعرف السيدة بنت الشاطىء لقلت لها : ليس من طبعك ولا في وسعك يا سيدتي النقد النزيه ، وليس من طبعي ولا في وسعي الرد السفية ،فردي هذا القلم الغليظ إلى صاحبه ، واستردي قلمك الرقيق من سالبه ؛ وثقي بأن الفرق بين الكلام في الشواطىء والحقول ، وبين الكلام في ثمار القرائح والعقول ، كالفرق بين تكسير الجرة وبين تحطيم الذرة .

أما أنت يا زميلي الفاضل فإني أعتذر إليك وإلى قرائك من كلام كنت أرجو أن أكتب في (الكتاب) غيره . على أن الذين استساغوا سخافة ذلك النقد ، يسهل عليهم أن يستسيغوا تفاهة هذا الرد . والسلام عليك ورحمة الله ؟

أحمد حسن الزيات

٢

كتاب « أومن بالإنسان »

رد على نقد بقلم الأستاذ عبد المنعم خلاف

عرّف الأستاذ سيد قطب في العدد الثاني من هذه المجلة الموفقة بكتابي « أومن بالإنسان » ، ونقده نقداً أدرك به روحه وكثيراً من أهدافه وسماته ووسيلته وخصائص تعبيره ، ونوه بقضيته تنويه مؤمن بدعوته سائر إلى اتجاه نظرته ، وإن خالف مؤلفه فيما ارتضاه من آفاق النظر . . فله الشكر الموفور الخالص .

وقد بنى مآخذه فى النقد على ناحيتين : واحدة من جهة الشكل ، والأخرى من جهة الموضوع .

أما الشكلية فتتلخص فى قوله : « والمؤلف الذي بين أيدينا ليس كتاباً بالمعنى المفهوم من لفظ " الكتاب " ، ليس فصولاً منسقة تتبع " تصميماً " خاصاً ، إنما هو مقالات متفرقة نشرت في أوقات متباعدة بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٥ ، ولكن روحاً واحدة تشيع فيها . . »

وأحب أن أدفع هذا المأخذ ولو أنه شكلي ، إذ أن إخراج الكتاب منسقاً قد استنفد جهداً كبيراً يعلم الله به ، لأني من المؤمنين « بالإخراج » الفني في الآثار الأدبية ، وأراه جديراً أن يستنفد من المؤلفين جهداً وعناية . وأنا راض عنه من ناحية التنسيق والتبويب والتصميم ، وأحمد الله على التوفيق فيه .

ونظرة عابرةٌ إلى فهرس الكتاب وتبويبه والعنونة الجزئية لمعاني فصوله كافية لتذكير الناقد الفاضل بأن الكتاب يتبع تصميماً خاصاً ، وأنه في حكمه على هذه الناحية قد صدر عن تأثره بقراءته لكثير من فصول الكتاب حين نشرت مقالاتٍ في مجلتي « الرسالة » و « الثقافة » ، لأن الكتاب يتضمن دعوة وسيلتها النشر الواسع والتكرار للمعاني التي تتصل بلبّ الدعوة . ولكن وضعها في كتاب اتبع تصميماً خاصاً دقيقاً منسقاً ، قارب بين الأشباه والنظائر من الفصول وبوّبها ، وجعل العناية بالشكل واضحة وضوحاً لا أدري كيف فات الأستاذ سيداً أن يراه ، والذي يفهمه القارىء من النقد السابق أن الكتاب « دشت » مجموع تحت عنوان واحد ، مع أنه ليس فيه ما يشعر أنه مقالات نشرت إلا ما ذكرته أنا في التمهيد حرصاً على التاريخ . أما التكرار في بعض

الأفكار والتعبيرات فقد علله الأستاذ سيد التعليل الوافي ، وقد رأيت أنه لازم « كالدور » في التواشيح والأغاني لأن معانيه لباب الدعوة ولحنها الأصيل الملحوظ المقصود . .

✡ ✡ ✡

أما المأخذ على الموضوع فيتلخص في قول الأستاذ : « عيب هذا الكتاب "أومن بالإنسان" أنه يغلق جوانب النفس فيما عدا ابتكار✡ علمي أو اتجاه خلقي . . . » وإني أعرف الأستاذ سيداً قارئاً يجيد القراءة ، وناقداً مستوعباً لما يقرأ ، فكيف فاته الكثير مما أوردته في الكتاب تنويهاً بجميع قوى الكائن الإنساني المادية والروحية ، وخطراته الشعرية ، وأحلامه المرفرفة الطليقة ، وأشواقه الدافعة ، ومذخور طاقاته ونزعاته العنيفة ، والوجدانية في أغانيه وأناشيده وألحانه ومخلوقاته الفنية ، إلى آخر عوالمه التي تنفسح على مدى الأزمان والثقافات والأجيال ؟ إنني نوهت بجميع جوانبه ، ووجهت النظر إلى كل مسرح من مسارح حياته ، حتى ما يتصل منها بالجوانب التي تعد في المعيار الخلقي نواحي ضعف وانحطاط . وما تركت مقطعاً من مقاطع النظر إلى الإنسان إلا أخذت القارئ ليطل منه فيدرك سراً من أسرار هذا المخلوق العجيب الذي وزع الله عقوله وقلوبه على جميع الآفاق سافلة وعالية . . وقد نظرت إليه نظرة طليقة من جميع القيود ، رأيت بها سطوحه وأعماقه وضعفه وقوته ، وبره وآثامه ، ظواهرَ جديرة بالتأمل والتفكير في أسرار الحياة ، حتى قلت : « وإني لأحرج بعد هذا الاستعراض وأنا أشعر أنه كان لابد أيضاً في الأرض مما نسميه الشر والضلال ، ليدوم ظهور أسرار التكوين ! » . بل قلت في معرض آخر : « هل رأيت نوعاً آخر يسكر و "يحشش" ويدخن و "يشم" ويقامر ويقيم مهازل ومساخر بذكاء ومهارة ؟ » .

هكذا أقف من هذا الكائن كراصد غريب عنه وعن معاييره الخلقية والعلمية ، لأرى في كل عمل مادي أو نفسي منه مشهداً يشهد له بالتفرد والسمة الخاصة الطليقة بين الكائنات السجينة الرتيبة الجامدة . .

وقلت في موقف آخر : « إن شئت فقل إن الإنسان أشبه بمجهر تمر من خلاله الطبيعة بخصائصها التي كانت "غيباً" مستوراً قبل ظهور هذا النوع ، فتتساقط على عينيه أنوارها وظلماتها ، وعلى سمعه نغماتها وأصواتها ، وعلى خياشيمه عطورها ونفحاتها ، وعلى ملامسه نعوماتها وخشوناتها ، ويقع على إحساسه العام ثقل المادة وصعق الكهرباء وشد الجاذبية ، وتمر على فكره معاني الوجود ومعاني العدم . . ثم يترجم كل هذه

✡ كذا وردت العبارة في النقد . ومستثنى (عدا) واجب النصب إذا دخلت عليها (ما) .

الكلمات الصامتة بكلمات ناطقة من بيانه الذي اختصه به بارئ الطبيعة . . » .

فمن الذي فتح جوانب النفس البشرية ورأى فيها عمقاً واتساعاً أكثر من هذا ؟ إنني جعلتها شيئاً موازياً لعرض السموات والأرض وميزاناً لما فيهن ! ولم أترك جزئية ولا دقيقة ولا لمحة في أعماق الزمان والمكان ، ولا خطرة ولا حلماً ولا شوقاً ولا طرباً ، إلا أخذت منه أفقاً من آفاق النظر إلى هذا الكائن ، بل نظرت نظرة جديدة إلى الكون من خلال نظرة جديدة إلى الإنسان . فكيف يقول الأستاذ سيد بعد ذلك إنني أغلقت جوانب النفس فيما عدا ابتكاراً علمياً أو اتجاهاً خلقياً ؟ ألأني قررت فكرة واحدة وردت في سياق جزئي لا يفهم منه ما يفهمه الأستاذ ؟ إني أرجوه أن يعيد قراءة الفقرة التي استشهد بها على أن الكتاب يغلق جوانب النفس فيما عدا الناحيتين السابقتين ، يعيد قراءتها مسبوقة بقراءة ما يحفظ لها جوها الخاص الذي يوضح معناها ، موصولا بأسرة المعاني التي تسبقها وتنتسب إليها ، فسيرى فيها غير ما رأى .

فإذا لم يفهم فيها غير فهمه الأول فسيكون هذا على الأكثر عيب تلك الفقرة وحدها ، لا عيب الكتاب كما يعمم الأستاذ ، فإن الكتاب تفيض فصوله فيضاً زاخراً بما يفتح جميع جوانب النفس الإنسانية فتحاً لست مغالياً ولا مغروراً ولا فخوراً إذا قلت إنه غير ضيق ، ولا أقول إنه غير مسبوق ، فإن ذلك من اختصاص التاريخ . . وحسبي أن أزيده هنا بنقل فقرة مركزة تصور موقفاً من مواقف استعراض جوانب النفس المختلفة كما ورد في ص ٢١٢ : « وحين أجلس مجلساً تثار فيه الأفكار عن الكون والفساد والحقائق والأباطيل ، وتصول فيه العقول ، وينبري بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللاقفة . أو حين أقرأ كتاباً يعرض فكرة من أمهات الأفكار ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد . . أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تخفق بالأصوات والبرقيات ، مما أخرجه عقل مهندس ذي قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار . . أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة في محراب تتلو صلوات أو ترتل آيات في إطراق وخشية واستحضار لعظمة الكون وجلال بارئه . . أو حين أسمع نشيداً من شاعر ذي قلب اتسع وتيقظ للأحاديث الصامتة والناطقة في الطبيعة ، وأسترق السمع للنغم الذائب في الكون والموسيقى الأبدية في حركات نجوم السماء ونجوم الأرض . . حين هذا وذاك وذلك أقول : هنا موضع تكريم هذا الجنس ومؤهلات خلافته ! هنا الإنسانية التي تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال ! هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته ،

وملكوت واسع يصح أن نستند إليه في تخيل مستقبله ، وفي تبين موضعه وسط ما يعمر الكون من المخلوقات ! » .

فهل ترى هتافي الروحي واستغراقي في استعراض الحياة الإنسانية قصّرا عن جانب من جوانب الدين أو الشعر أو العلم أو الفن أو العمل ؟

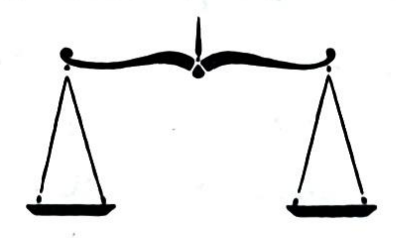
ألم أطرح ذلك كله في موازين قضية الإيمان بالإنسان حين قلت في مفتتح التمهيد :

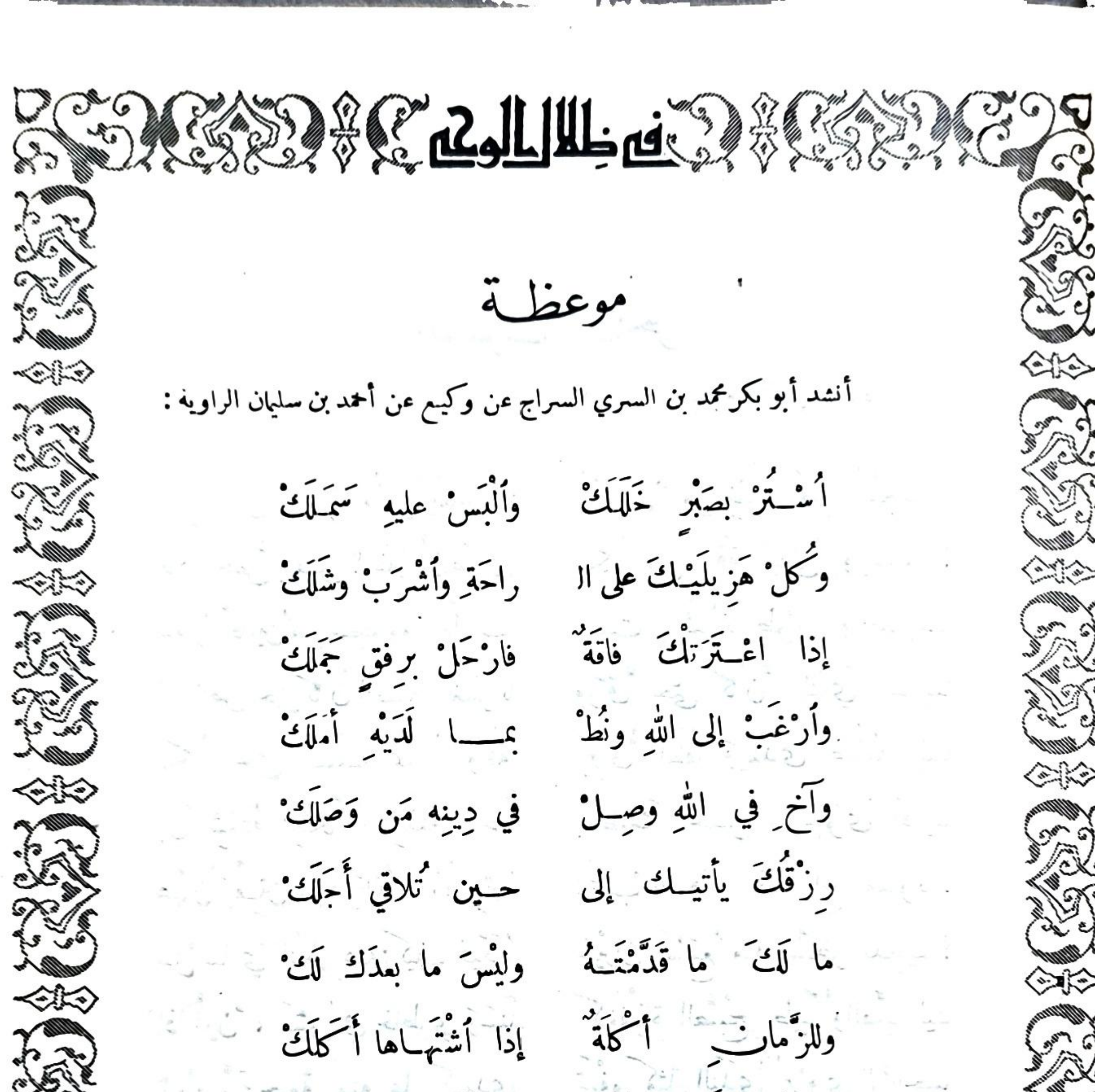
« أطرحها قضية ! هي قضية الإيمان والثقة بالإنسانية ، وأطرح في موازينها مواريث تلك الأرواح والعقول والقلوب التي استعلن سرها العظيم ، وتجلى جوهرها الكريم في آباء الإنسانية الأولين والآخرين : من الأنبياء والمرسلين والحكماء والصديقين ، والعلماء المنتهين والأدباء الملهمين ، والرواد المقتحمين ، والشهداء المجاهدين ، والجنود المجهولين من الزارعين والعاملين الخادمين الصابرين ! » .

هكذا لم أترك جهد خادم ولا زارع ولا عامل ولا فاكر ولا حالم إلا وقفت معه وآمنت بالإنسانية من أجله ، جعلت ذلك كله في صدر الكتاب حتى يبدأ القارئ أول ما يبدأ القراءة فلا يغيب عنه، فكيف غابت عن الأستاذ سيد، وهو القارئ الناقد ! حتى يقول غير ما سبق فيما نسبه للكتاب : «حتى العقيدة الدينية لا يراها المؤلف إلا من ناحيتها العلمية : ناحية التوجيه الخلقي ، ولا يقيم وزناً (كذا) لجانبه المشرق الروحاني إلا في النادر القليل ! » . ولو رحت أنقل نصوصاً للرد على هذه « التهمة » لنقلت باباً في الكتاب ذا أربعة فصول تقع في أربع وثلاثين صفحة ، هو باب « نحو أساس روحي للحضارة المادية » . وهذا عدا الكثير جداً من العبارات المختلفة في سائر فصول الكتاب ، ولا أغلو إذا قلت إنها « الدور » أو « اللازمة » في أكثر فصوله . ومع ذلك يقول الناقد الصديق إنني لم أتعرض لهذا الجانب إلا في النادر القليل . .

هذا ما أردت التعقيب به على نقد الأستاذ سيد، الذي سرني منه تلك الحرارة في تقدير دعوة الكتاب ، وذلك الحرص على استيفاء أدوار تلك الدعوة على طريقته ، حينما توهم فيها النقص . فأكرر له الشكر ؟

عبد المنعم خلاف





موعظة

أنشد أبو بكر محمد بن السري السراج عن وكيع عن أحمد بن سليمان الراويه :

أُسْتُرْ بصَبْرٍ خَلَلَكْ　　　وَالْبَسْ عليهِ سَمَلَكْ

وكُلْ هَزِيلَيْكَ على الـ　　　راحةِ وأشْرَبْ وشَلَكْ

إذا اعْتَرَتْكَ فاقَةٌ　　　فارْحَلْ برِفقٍ جَمَلَكْ

وارْغَبْ إلى اللهِ ونُطْ　　　بمـا لَدَيْهِ أَمَلَكْ

وآخِ في اللهِ وصِلْ　　　في دِينِه مَن وَصَلَكْ

رِزْقُكَ يأتيك إلى　　　حين تُلاقي أَجَلَكْ

ما لَكَ ما قَدَّمْتَهُ　　　وليْسَ ما بعدَكَ لَكْ

وللزَّمانِ أَكْلَةٌ　　　إذا اشْتَهاها أَكَلَكْ

وللرَّدَى قَوْسٌ فإنْ　　　رَماكَ عنها قَتَلَكْ

يا ربِّ إنّي راغبٌ　　　أدْعُو وأرْجو نفَلَكْ

أنتَ حَفِيٌّ لم تُخِبْ　　　دَعْوَةَ راجٍ أَمَلَكْ

فأعْطِني من سَعَةٍ　　　يا مَن تعالى فَمَلَكْ

سُبْحانك اللَّهُمَّ ما　　　أجَلَّ عِندي مَثَلَكْ

الصّوت السّاحر

للأستاذ محمد بهجة الأثري ببغداد

رُوحٌ من المَلَإِ الأعلى يُناغِينا — أمْ باغِمٌ من ظِباء الخُلدِ يُشجينا ؟

ماذا أُحِسُّ بنفسي ؟ غيرَ أنّ صدًى — يكادُ من رِقّةٍ يَفنَى ويُفنِينا !

شَدْوٌ أفانينُ من شَجْوٍ ومن طَرَبٍ — يَبيتُ ينشرُنا طوْراً ويَطْوينا

قد فاضَ حتى كأنّ الصُّبْحَ يَغْمُرُنا — ورَقَّ حتى كأنّ النّايَ يُسْلِينا

يكادُ حتى الصّفا ممّا يُرَوّقُه — يَرِقُّ لُطفاً ويَنْدَى عِطفُه لِينا

إنْ شِئْتَه ضَحِكاً أو شِئْتَه شَجَناً — يُعْطِيكَ أحسنَ ما تهوَى أفانينا

هَيمانُ يُفتِنُ، وَهْوَ الدّهْرَ مُفْتَتِنٌ — أَعْجِبْ به فاتناً قد راحَ مفتونا !

سَلْ ساريَ النَّجْمِ عنه: كيفَ قَيَّدَه — حَيْرانَ يَسْمعُ منه السِّحْرَ تَلْحِينا ؟

إذا أرنَّ ، مَشَى في خاطري وَسَناً — كغفْوَةِ الصُّبْحِ طِيباً والصَّبا لِينا

يا رُبَّ تَرجيعةٍ منه على كبدي — تَهفُو كمثل النّدَى يَرْوِي الرّياحينا

* * *

حَمامةَ الأيْكِ ، والدُّنيا على قَدَمٍ — مَدَّتْ إليكِ بآذانِ المَشُوقينا ،

رِفْقاً بأرواحِ مَخمورِينَ قد ثَمِلُوا — لمّا هتَفْتِ ، وهامُوا فيكِ صابِينا

إنّ الدّموعَ الّتي رقرقتِ لؤلؤَها — أرواحُنا الهِيمُ تَهْمِي من مآقينا

نحنُ الصُّحاةُ السُّكارَى إن شَدَوْتِ لنا — والهائمونَ وقد غابتْ رَواقِينا !

محمد بهجة الأثري



حُطام

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

« مضت عنه كما تمضي كل أنثى كفرت بنعمة الحب الطاهر ثم عادت إليه فلم تجد إلا هيكلا ليس وراء جدرانه مؤمن . . . »

يا عاشقي بالأمْسِ ، يا هاجري ... اِفتحْ ليَ البابَ الذي توصِدُهْ
أبالِسُ الليلِ تحثُّ الدُّجى ... وتوقظُ الرِّيحَ ... فمَنْ أَوْصَدَهْ ؟

* * *

جَهِلْتَ صَوْتي أمْ تجاهلْتَهُ ... وصَوْتُك العَذْبُ مديدُ الصَّدَى
القلبُ لا يُنكِرُ مَنْ ضَمَّهُ ... في يَقظَةِ العُمْرِ ، وَبلَّ الصَّدَى

* * *

يا هاجري ، والكأسُ لمّا تَزَلْ ... فيها بقايا من عصيرِ الهوى
فافتحْ ليَ البابَ لأَسْقِيكَها ... قبل خُبُوِّ النورِ ، قبل النَّوَى

* * *

نَسِيتَ ما كان . . . وأنكرتَهُ ... ولستُ أنسَى حُبِّيَ الأوَّلا
إنْ كنتُ قد أقفلتُ فيما مضى ... قلبي ، فقلبي اليومَ لن يُقفَلا

* * *

خطيئةً كانت . . . وما حيلتي ... فيما يجرُّ الطبعُ من شِقْوَةِ
مَضَيْتُ لا أسمعُ في خاطري ... إلاَّ نداءَ الإثمِ في نَشْوَةِ

* * *

أخطأتُ ، لكن كنتُ مشدودةً ... إلى وَثاقٍ ليس منه انعِتاقْ
لا الحبُّ يحميني ، ولا مَسْكَةٌ ... من رَشَدٍ تقطعُ هذا الوَثاقْ

* * *

غريرةً كنتُ . . وكانت يدٌ مُدَّتْ إلى الظَّلْماء تقتادُني
الفتنةُ الحمـــراء أطيافُها والرغبةُ الهـوْجاء تهتاجني

* * *

طبيعةُ الأنثى تجـاهَلتَها وأنتَ أنتَ العالِمُ العارفُ
إذا اطمأنَّتْ هاجَ أطماعَها هوًى خفيٌّ ثائرٌ عاصِفُ

* * *

تفرُّ ممَّنْ يشتهي قُرْبَها وترتمي للســاخرِ الهازِئ
ولن تراها غــيرَ مفتونةٍ مخبولةٍ تبحثُ عن شاطئ

* * *

غرَّتْنيَ الأضـواء برَّاقةً فانسَقْتُ في تيَّارِها العارِمِ
أخذتُ من كَفِّ الأسى كأسَهُ وبِتُّ أُسْقَى من هوًى آثمِ

* * *

دَوَّى نداءٌ صاخبٌ في دمي يسخرُ مِنْ هذا الهوى الطاهرِ
يكشفُ لي عن عالمٍ راقصٍ على غِناء العابثِ الفاجرِ

* * *

خصْران مَشْدُودان ، صَدْرَاهُمَا تأجَّجا بالرغبـةِ الجامحهْ
وأعْيُنٌ مَعْصُـوبةٌ لا ترَى إلاَّ لهيبَ الشهوة اللافحـهْ

* * *

وأكْؤُسٌ جفَّتْ عليها المنَى وامتزجَتْ بالخمر فيها الدموعْ
وأرْجُلٌ سِيقَتْ إلى هُوَّةٍ سحيقةٍ يوشِكُ فيها الوقوعْ

* * *

وضحكة تطفى على أنَّة   وآهة محبوسة في اختناق
وأكبد تشقى بهجرانها   وأذرع ممدودة للعناق

***

كبوتُ ، والأنثى إذا ما كبتْ   لن يستطيعَ العقلُ إنهاضها
ضعُفتُ ، والأنثى إذا استضعفتْ   شكا كفاحَ النصرِ مَنْ راضها

***

ضحيّتُ بالحبِّ على مذبحٍ   قُرْبانُهُ : خمرٌ ورقصٌ ونار
كُهّانُهُ عُبّادُ أهوائهم   ودِينُهُ : لهوٌ وقصْفٌ وعار

***

حاولتَ أنْ ترْقى بهذا الثّرى   ولم تصُنْهُ من هُبوب الرِّياح
والعاصفُ الثائرُ في جوِّهِ   يذْرُوهُ ما بين الرُّبى والبِطاح

***

حطَّمْتُ فيكَ القلبَ مجنونةً   وكبريائي أنتَ حطّمْتَها . . .
اِغفِرْ لمَنْ تشقى بآلامها   فأنتَ بالآلام أضْرَمْتَها !

***

غسلتُ بالدمع ذنوبي ، فهل   تكفكفُ الدمعَ يدٌ آسِيَه ؟
لا تجْنِها بعد انقضاءِ المدَى   كفى اعتقادي أنني الجانيه

***

لا تقسُ فالإعصارُ قد هدَّني   وليس لي من ملجأٍ آمِنِ
فرَرْتُ من وَهْمِي ومن خاطري   ومن شرورِ العالَمِ الماجنِ

***

فافتحْ ليَ البابَ ، ووَقِّ الرَّدَى	خاطئةً جاءت هنا لاجئهْ
وكنْ يَسُوعي وأُعْفُ عن زَلَّتِي	كما عَفَا عن « مَرْيم الخاطئهْ » ...

* * *

أُصيخ سَمْعي ، ثَمَّ لا نَبْأَةٌ	ولا نداءُ هاتفٌ في حنانْ
غير صفير الرِّيح مستهزئاً	بوَحْدَتي بين خَلاءِ المكانْ

* * *

لا تَسْخَرِي يا ريحُ من وَحْدَتي	ومن شقائي تحت جِنْحِ الظلامْ
ثُوري على غيري ، ولا تعصفي	إني حُطامٌ باحثٌ عن حُطامْ !

حسن كامل الصيرفي

الوردة الحمراء

للأستاذ رشدي ماهر

إيهِ ياوردةُ ماذا تضمرينْ	من لظى الشوقِ ومن نار الحنينْ
قد كتمتِ الوجدَ ناراً في الحشى	فإذا بالنار فيما تُعلنينْ
وسقاكِ الجدولُ الصافي وما	زلتِ ظمأى في الهوى لا ترتوينْ
أنتِ رمزُ الحبِّ في أشواقهِ	أفلا تلقين مما ترمزينْ
أنتِ في الجنّة أبهى شعلة	تتلظّى من جحيمِ العاشقينْ
صاغك اللهُ رسولاً للجوى	والمُنى بين قلوبِ المغرمينْ
قد حملتِ النارَ والنورَ لهم	فكساكِ اللهُ مما تحملينْ

رشدى ماهر

نجوى قبّرة

للأستاذ محمد مجذوب بطرطوس (سوريا)

كنت أجتاز الطريق المنداة بآثار الغيث وعلى كاهلي ثقل من عباءتي وأشياء غيرها عندما لمحت عيني هذه القبرة تنكت الأرض بمنقارها الذهبي، فوقفت أرقبها عن كثب، ولكنها ما إن بصُرت بي كذلك حتى توقفت عن النقر وجعلت تلحظني بحذر متحفزة للفرار ...

الناظم

حنانكِ.. لا تخشيْ أذايَ ولاضرّي فما أنا ذو نابٍ ولا أنا ذو ظفر

حنانكِ. لايخفقْ جناحاكِ رهبةً ولا ترميني عيناكِ بالنظرَ الشزْرِ

أَحذراً وفي جنبيَّ، يا طيرُ للورى وللطيرِ، دنيا من رؤى الحُبّ والشِعرِ

أراعكِ هـذا الحِملُ ينآد تحته مطايَ فلا ينفكّ ينجده صبري

وخَطْوٌ يُثير الأرض لولا نداوةٌ ذرتها على ميْتِ الثرى أدمعُ القطرِ

وسورة أنفاس يكاد زفيرها يسيل شَعاعاً في لوافحه سَحري(١)

فالململتِ أطراف الجناحِ تحفزاً وأمسكتِ خوف الغائلاتِ عن النقرِ

وقلتِ، وقدأسرفتِ: باغٍ من الورى أخو شَرَكٍ يطوي الضلوعَ على مكرِ

حنانكِ.. بعضُ الظن إثم، فما أنا ـ ودنيا الورى ـ إلا الغريب مع السفرِ!

حنانكِ.. لستُ المرء يطلب يسره بآلام مخلوقٍ سواه، على عسري

سلي دَفَقاتِ النور في ماتع الضحى سلي الشَفَقَ المغفي على أذرع البحرِ

سلي خَفَقات النجم في لجّة الدجى وعربدةَ الأسحار في يقظة الفجرِ

سلي عَرْفَ هاتيك الأزاهير في الربى وهينمةَ الصفصافِ في عُدوة النهرِ

سلي الواديَ النشوانَ بالعطر والندى يطل عليه السفح بالحلل النضرِ

(١) السحر بفتح السين: الرئة.

سليها فمن قلبي على كل نفحةٍ بها أثر يروي المكتَّم من سري
سلي عن أغانيَّ الحياة فلم يزلْ بمسمعها رجعٌ من النَّغَم البكرِ
لئن أخفتتها قسوةُ الدهر حقبةً لفي النفس لحنٌ عزَّ عن قسوة الدهرِ
فقد يخرس الطير الحبيس وملؤه حنينٌ يهز الروح للأفق الحر..

☆☆☆

وددت لوأني جارُكِ العمرَ كلّه أذود بنفسي عنك عادية الغدرِ
تضوء عشيَّاتي بريَّاك فتنةً وتسكرني نجواكِ في الُعكر الخضرِ
ويسبقني في الحقل ظلُّك عابثاً فأقفز فوق الشوك في إثْرِه أجري
وأنعم تحت العشّ في حضن مضجع يسيل عليه الطلُّ من أكؤس الزهرِ
فراشيَ فيه العشب غضاً ممهّداً وثيراً ولكنَّ الوساد من الصخرِ
ومن وَرَق الدِّفلى عليَّ غلالة تقي جسميَ العاري أذى البرد والحرِّ
.. مُنى من تهاويل الخيالات حاكها صناعٌ من الوهم المجنّح في صدري
حلمتُ بها في سكرة الدهر برهةً فلما صحا جفَّتْ رؤايَ من الذعرِ
وهمت بذكراها وقد حال بيننا غياهبُ من ليل الحقيقة والفكرِ
أعدتِ إلى القلب المحطَّم طيفَها جديداً فعاد السحرُ في دمه يسري
وأنسيته أوجاع دنيا هوتْ بها زعازعُ تذرو الموت في البر والبحرِ
طفا في مغانيها الدمار وصوَّحتْ مفاتنها ، رغم النهى ، شهوةُ الشرِ
نخلي جفوني المغمضاتِ تضمُّها قليلاً ، وخلي الطيف يلمسه ثغري
ولا تفسدي بالشكّ نشوة حلمنا فما هي إلا فترة ثم . . . لاندري !

محمد مجذوب

المسرح والخيالة

كيف دخل التمثيل بلاد الشرق

للأستاذ زكي طليمات

وافدات الغرب

اكتسحت مبادئ الثورة الفرنسية ممالك أوربا تغيّر في الأوضاع الاجتماعية وتحوّر، وهي تنادي بحرية الرأى وبمساواة جميع الطبقات في الحقوق والالتزامات، فامتدت أصداؤها إلى الشرق العربي القريب فهزت أصلابه هزة عنيفة نفضت عنه سباته الطويل، فهب مبهوراً مدهوشاً بما يرى ويسمع ، مضطرباً حائراً بما يختلج في واعيته من تحفز وتوثب . وما إن فترت سورة الدهشة حتى تلتها فترة ترقب سلبي وتطلع مشوق إلى ما وراء البحر ، وسرعان ما تدفقت عليـه وافدات مختلفة من مدنية الغرب في الزي والنظم والأدب والفنون .

وفي وسط هذه الغمرة الطافحة يصعب على المتقصي أن يحدد بالدقة كيف تسرب فن التمثيل إلى هذه الأقطار ؟ وعلى أي وجه ؟ ومتى مثلت أول مسرحية باللسان العربي ؟ وفي أي قطر من أقطار الناطقين بالضاد ؟ وأي ركب من الشرق العربي قد سار إليه وحمله إلى أقطاره ؟ فالأسانيد العلمية والمادية يفتقر إليها كل الافتقار ، كما أن المحاولات الفردية الأولى التي لا بد أن تكون قد قامت لانتحال هذا الفن من بلاد الغرب ، لم تكن قد تبلورت ونهض لها كيان ، وتحولت إلى حركة إجماعية ذات معالم وحدود .

بيد أننا نكاد نجزم بأن هذا الشرق العربي لم يطالع مسرحية باللسان العربي قبيل منتصف القرن الماضي ، وأن لبنان وسوريا هما بين الأقطار العربية القطران الأولان اللذان تعرّفا إلى فن التمثيل، لأن ما بين أيدينا من أسانيد قليلة تقيم الحجة على ما نذهب إليه.

ويزيد في ثقتنا بهذا الرأي أن لبنان خاصة ، كما هو معلوم ، هو أول قطر عربي جاوب رسالة المدنية الغربية منذ أوائل القرن الماضي ، وذلك بحكم موقعه الجغرافي ، واشتغال أهله بالتبادل التجاري بين موانئه وعواصم أوربا ، وبما عرف عن أهله من حب الهجرة إلى الغرب .

أول محاولة للكتابة المسرحية

وفي الواقع إننا في لبنان نعثر على أول الخيط الذي يسير بنا إلى تتبع أول محاولة لكتابة المسرحية باللسان العربي . ففي (بيروت) جرى تمثيل أول مسرحية عربية الأسلوب ، وكانت المسرحية « البخيل » [١] وكان كاتبها والقائم على إخراجها وتمثيلها أديباً لبنانياً اسمه « مارون النقاش » [٢] وقد مثلت في عام ١٨٤٨ ، وقام هو نفسه بالتمثيل مع نفر من الأدباء هواة الفن الجديد . وقد أعقب «النقاش» المسرحية المذكورة بأخريين هما « أبو حسن المغفل » و « الحسود » . وللمسرحية الأولى أصل معروف في الأدب الفرنسي ؛ إذ هي من مؤلفات«موليير» سيد كتاب المسرحية الفكاهية الأخلاقية . أما المسرحيتان الأخريان فلم نعثر لهما حتى الساعة على أصل غربي معروف ، وإن كانتا بحبكتهما المسرحية وقالبهما والعرض والسياقة فيهما تنمان على أنهما مأخوذتان من مسرحيتين أجنبيتين .

ثم إن المتفحص هذه المسرحيات الثلاث ينتهي بعد التأمل إلى تقرير ما يأتي :

(١) أن مارون النقاش في محاولته كتابة المسرحية لم يبتدع صبغة غير معروفة ولم يأت بجديد من حيث البناء والقالب ، بل جرى في عمله على نماذج بين يديه ، كلها منتحل من غير الأدب العربي الأصيل .

(٢) أنه لم يعمد إلى ترجمة أصل هذه المسرحيات إلى العربية ، بل قام « بتعريبها » ، أي أنه صاغ حوادث المسرحية الأصلية في جو عربي ، غير جوها الأصيل بالطبع ، جوٌ له صبغته المحلية من حيث الأشخاص واللباس والمزاج ولغة الحديث .

(٣) أنه أقحم الموسيقى في المسرحيتين الأخيرتين ، بحيث جعل الغناء يتخلل بعض مشاهدها . والسبب في أن النقاش صدف عن الترجمة وعمد إلى « التعريب » هو رغبته في تقريب هذا اللون الجديد من الأدب إلى أذهان الناس ، وجعله مستساغاً من أذواقهم ، مستطاباً في أسماعهم ، كما أن إقحامه الموسيقى في مشاهد بعض مسرحياته إنما هو استجابة لما ألفه الجمهور في ملاهيه ، وهي مجالات قوامها الأغاني والطرب .

---

(١) كما ورد في كتاب « دوحة لبنان » المطبوع في بيروت عام ١٨٩٠ .

(٢) من مواليد مدينة صيدا عام ١٨١٧ وقد توفي في مدينة طرسوس عام ١٨٥٥ وكان منذ نشأته محباً للأدب وينظم الشعر . وقد أجاد اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وكان يشغل وظيفة كاتب أول في جمرك بيروت، وكان عضواً في مجلس التجارة ، ثم اشتغل بالتجارة وزار مصر في عام ١٨٢٦ وسافر إلى إيطاليا ورجع بعد ذلك إلى بيروت .

القافلة الأولى إلى وادى النيل

ومن لبنان سارت قافلة التمثيل هذه ، يقودها إلى النيل « سليم النقاش » ابن أخي « مارون » الذي توفي في مستهل رجولته ، وهبطت القاهرة ، في وقت كان يتربع على عرش الوادي الخديو إسمعيل ، الذي يرحب بكل جديد وافد يحمل في طياته أقباس نور وإلهامات هداية وحرية ، وكانت مصر في إبان مرحلتها الثانية من يقظة واعيتها القومية وتنبه نهضتها الفكرية ، بعد أن تفتحت نوافذ فيها على أوربا منذ عهد محمد علي باشا ، موفد البعوث إلى أوربا ، ليغترف أعضاؤها من معارفها وينتحلوا من نظمها وعلومها . وكان إسمعيل العظيم قد أنشأ « دار الأوبرا » (١) على غرار أكبر مسارح أوربا ، وجعل افتتاحها مقروناً بافتتاح قناة السويس ، مما حداه إلى أن يستقدم من إيطاليا فرقة تمثيلية غنائية .

ما الذى حملته القافلة ؟

لم تخرج حمولة هذه القافلة الوافدة من لبنان عما سبق ذكره من مسرحيات إلا ما هو على طرازها من حيث المصدر والأسلوب . (٢) فالمسرحيات الأولى التي طالعها الجمهور ، وشغلت أذهان أهل الأدب في مصر إنما هي مسرحيات مأخوذة من الأدب الفرنسي خاصة ، بعد أن أجريت عليها عمليات التعريب والترجمة ، ولكن في حذق بدائي يصح أن نسميه نسخاً ومسخاً . هذا وأسلوب الحوار يجري فيها بعربية ركيكة ، تشوبها أحياناً اللهجة اللبنانية وترين عليها نزعة إلى التفاصح .

أول محاولة مصرية للكتابة المسرحية

ولقد عاصر مجيء هذه القافلة الأولى من لبنان ، قيام محاولة أخرى لكتابة المسرحية باللسان العربي الإقليمي في وادي النيل ، قام بها أديب مصري من بني إسرائيل ، وهو « الشيخ يعقوب بن روفائيل » المعروف باسم « الشيخ سانو أبو نضارة » .

والفقرة التالية ، وهي مقتطفة من كتاب « تاريخ الصحافة العربية » لمؤلفه الفيكونت فيليب دي طرازي ، تلقي ضوءاً على ماهية هذه المحاولة وصاحبها :

---

(١) افتتحت دار الأوبرا الملكية في عام ١٨٦٩ بتمثيل رواية « عائدة » التي وضع موسيقاها الإيطالي النابغ « فردي » باتفاق مع الخديو إسمعيل . ومن المؤرخين من يذهب إلى أن تمثيل هذه الرواية قد سبقها تقديم رواية « ريجلبتو » وألحانها من وضع الموسيقي « فردي » .

(٢) عدا الروايات الثلاث السابقة الذكر ، جاءت مسرحيات « أندروماك » و « شرلمان » و « المظلوم » .

« وفي سنة ١٨٧٠ أنشأ الشيخ سانو أبو نضارة أول مسرح عربي في القاهرة بمساعدة الخديو إسمعيل[1] الذي منحه لقب « موليير مصر » ونشطه على عمله ، وشهد مراراً تمثيل رواياته ، فألف صاحب الترجمة حينئذ اثنتين وثلاثين رواية هزلية غرامية ، منها ما هو بفصل واحد ، ومنها ما هو بخمسة فصول » .

ونستطيع أن نقف على أسلوب هذا الشيخ الكاتب المسرحي ، وعلى وجهة نظره إلى التمثيل من المقدمة التي صدر بها روايته المسماة « موليير مصر وما يعانيه »[2] .

« أهديكم يا سادتي سلامي ، وتحيتي واحترامي ، وأتمنى لكل أفندي ومسيو وسنيور ، العز والهناء والسرور ، وأرجوكم يا أعز إخواني ، من مؤمن وإسرائيلي ونصراني ، المحشي من حبكم فؤادي ، المحبوبين عندي كأولادي ، أن تسامحوا كل الغلط اللي تجدوه في دي الرواية ، وربنا يرزقكم من الملايين بالماية ، والآن رخصوا في أن أقص عليكم يا كرام ، ما قاسيته في إنشاء التياترو الذي أسسته من أربعين عام ، أيام إسمعيل اللي في ذلك الزمان ، كنت عنده من أعز الإخوان . . . » .

والبيان على صراحته يحمل في طياته ظاهرة جديرة بالالتفات ، هي أن المؤلف وهو أول من يدري أنه يقدم للجمهور جديداً ليست لديه علاقات ثقافية أو تقليدية ، كان يلتمس من الجمهور سماع ما يقدم ، التماساً يشوبه القلق . وهذه الظاهرة قد صاحبت جميع حفلات التمثيل حتى العقد الأول من هذا القرن ، ولكن في زي آخر ، فقد كانت حفلة التمثيل تبدأ عادة بنشيد للافتتاح ، وآخر للختام ، وكلاهما محشو بالثناء على الجمهور بعد رفع آيات الاحترام والخضوع للخديو صاحب الأمر في البلاد .

وما هي مسرحيات الشيخ أبو نضارة ؟ ؟

هي « معربات » عن أعمال المؤلف المسرحي « موليير » وبعض مؤلفي المسرحية الفكاهية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولكنها معربات يمتاز « بعضها » بصبغة مصرية محلية فاقعة اللون ، فهي بحق مسرحيات أجنبية « ممصرة » .

---

(١) هذا يقيم الحجة على أن الخديو إسمعيل لم ينشئ دار الأوبرا لمجرد المباهاة بأن القاهرة تضم مسرحاً لا يقل فخامة عن مسارح أوربا ، تجد فيه الجاليات الأوربية مجالا للتسلية والترفيه ، وإنما أنشأها بعد أن فطن لما لفن التمثيل من أثر فعال في التثقيف العام ، وفي رفع مستوى الذوق والأخلاق .

(٢) طبعت هذه الرواية في بيروت سنة ١٩١٢ ، وقد أهداها إلى الفيكونت دي طرازي السابق الذكر ، وكتب تحت اسم الرواية ما يأتي : « تمثيلية هزلية بقلم الشيخ يعقوب المشهور بأبي نضارة المصري ، شاعر الملك ، ومؤسس التياترات العربية في وادي النيل » .

وبمقارنة مسرحيات لبنان الوافدة ، ومسرحيات « أبي نضارة » التي نبعت في مصر نلاحظ ما يأتي :

(١) أن النقاش والشيخ « أبا نضارة » يتفقان في أنهما يأخذان من مسرحيات أوربية ، وأنهما « يعربان » ولا « يترجمان » .

(٢) أنهما يجريان مع « التعريب » تبديلا وتحويراً في حوادث المسرحيات الأصيلة التي يأخذان عنها ، بما يتفق ومزاج الجمهور الشرقي .

(٣) أن الاثنين اغترفا من الأدب الفرنسي خاصة ، ولم يعرجا على أدب ممالك الشمال ، وفي مقدمتها إنجلترا . ولهذا الانتشار الأدبي الفرنسي في أقطار الشرق العربي أسباب يضيق المقام بذكرها .

(٤) أن كليهما يطعم أسلوبه العربي في « التعريب » باللهجة الإقليمية ، وإن كان الشيخ «أبو نضارة» يغلب العامية المصرية على العربية الفصحى أكثر من زميله .

(٥) أن مسرحيات « أبي نضارة » تتميز بأنها تنحو نحواً ظاهراً نحو (المصرية) ، وغايتها انتقاد شؤون المجتمع المصري خاصة .

وبهذه الميزة الأخيرة يصح لنا القول بأن مسرحيات « أبي نضارة » هي الأساس الأول للمسرحية الفكاهية المصرية الانتقادية ، المكتوبة باللهجة العامية .

ويطالعنا من وراء ما تقدم ذكره ، أن أول دعاة المسرح العربي في الشرق هم من المسيحيين والإسرائليين . وهـذه ظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا بأن العرف الديني الإسلامي في ذلك الوقت لم يكن على مرونة وتسامح بحيث يجرؤ مسلم على معالجة هذا اللون السافر من الأدب المستحدث .

بيد أن هذه الظاهرة لم يطل أمدها ! ! ففي دمشق الشام ، قام مسلم عريق في إسلامه ، هو « الشيخ أحمد أبو خليل القباني* » يضع مسرحيات عربية « مقتبسة » مواضيعها وحوادثها من التاريخ العربي ، ويؤديها فوق المسرح ، بعد أن شحنها بألوان من الإنشاد الفردي والاجتماعي ، والرقص العربي السماعي . قام بهذا في سوريا الرازحة في قيود من التزمت ومن استبداد الحكم العثماني ، هذا الحكم الذي كان يغتفر كل جريمة إلا جريمة القول والكتابة وتنوير الذهن ، فسرعان ما هبت على الرجل المغامر بهذا الجديد تيارات عنيفة من تأييد وإنكار ووعد ووعيد ، وسرعان ما هدد في عيشه

* يعتبر (القباني) من أكبر أساتذة الموسيقى العربية علماً وتلحيناً وبراعة أداء ، وإن لم تخصه الطبيعة بالصوت الجميل الأخاذ ، وهو فوق هذا أديب وشاعر .

وفي حياته ، فهرب إلى مصر يحمل تحت إبطه مسرحيات عربية من طراز فيه جديد .

على أن « القباني » لم يأت بجديد من حيث قالب المسرحية وأقسامها ، فهو في هذا كسابقيه متبع لا مبتدع ، يصب على قالب المسرحية الغربية كما انتهت إليه في أواسط القرن الماضي ، كما أن نصيب شخوص مسرحياته من التحليل النفسي ضئيل ومضطرب .

وإنما الجدة فيما أعتقد هي أنه كان يقتبس مواضيعه من حوادث التاريخ العربي ، ومما ورد في كتب الأخبار ، ومن أساطير « ألف ليلة وليلة » ، مع ابتداع بعض الحوادث التي تساعد على إظهار الموضوع وتمهد له وتحسن خاتمته . وبهذا جاءت هذه المسرحيات، في حبكة ضعيفة وسياقة ساذجة ، إذا قيست بالمسرحيات المعربة والمترجمة .

وفي هذه المسرحيات جدة في الأسلوب ، فهو فيها أفصح عبارة « وأبين عربية» من أسلوب المسرحيات السابقة ، وأكثر حمولة من السجع والزركشة البيانية ، إلا أن السياقة اللغوية كانت تنتقل بين النثر والنظم بلا قيد ولا شرط، كما هي الحال في مسرحيات النقاش ومن نهج نهجه . وكأن المؤلف يرمي بهذا إلى أن يقيم بين المسرحية الناشئة الدخيلة ، وبين ألوان الأدب العربي القديمة والأصيلة ، وشائج قربى ولو في الأسلوب والمظهر .

وفوق هذا وذاك ، فإن عامة هذه المسرحيات لم تكن مقصورة على مقومات فن التمثيل فحسب ، بل تجاوزتها إلى صميم الموسيقى والرقص ، فقد استقام خلط الكلام بالغناء على حال أتم وأبرز مما ورد في المسرحيات الأولى ، كما أنه أفسح مجالا لنوع من الرقص العربي الإجماعي القائم على السماع . وربما كان القباني[١] هو مبتدع المسرحية الغنائية القصيرة opérette في المسرح العربي .

بيد أن أكثر تلاحينه لم يجاوز ما كان شائعاً في عهده من الأغاني ، وما ورد في كتاب السفينة[٢] من التواشيح والضروب في الألحان ، فهو في تلحينه مبدع لا مبتدع .

هذه هي وسائل النقل

ومما تقدم ذكره يتضح لنا كيف أتت المسرحية إلى أقطار الشرق العربي ، وكيف

---

(١) من مسرحياته : هرون الرشيد ، الولادة ، عنتر بن شداد ، السلطان حسن ، أنس الجليس ، ملتقى الخليفتين ، أبو جعفر المنصور ، هرون الرشيد والصياد .

(٢) كتاب في الموسيقى وضعه في القرن الماضي السيد محمد شهاب الدين ، جمع فيه الكثير من التواشيح والأدوار والمواويل والأناشيد القديمة والمتداولة ، ثم أحاط بضروب الموسيقى العربية كافة وموازينها ، وصاغها في قصيد كبير من الشعر، كما فعل ابن مالك بقواعد النحو والصرف .

أن التعريب والترجمة ، والتمصير ، والاقتباس ، تؤلف الوسائل الأولى التي أخذها بها الكتاب العرب من لبنانيين وسوريين ومصريين ، في انتحال فنّ من فنون الغرب وفي إذاعته بين الجمهور .

وهذه وسائل ما زالت قائمة حتى اليوم بعد أن تطورت على مر الزمن ، وارتقت بمتابعة العمل بها ، واتساع أفق الاغتراف من أدب الغرب ، وارتقاء مستوى الجمهور ، وانتشار الثقافة الغربية في البلاد ، فاتسمت بحذق أوفى وبمهارة أتم ، بل تجاوزت مراحل الغصب والإغارة والنسخ والمسخ المفضوح ، إلى ما هو أوفر حمولة من الحس الصائب المثقف ، وإلى ما نعده بحق توليداً لطيفاً وابتداعاً سائغاً . ولا يخفى أن لهذه الرسائل ما بعدها .

وهكذا استطاع هؤلاء الكتاب أن يشدوا المسرحية إلى الأدب العربي المستحدث، وأن ينشؤوا ، بين قديمهم في الأدب وحديثهم منه ، أواصر قربى ورحم ، بطريق تهيئة الطبع العربي لهضم أفاويق هذا الفن واستساغته ، وتسخير البيان العربي وما يتبعه من لهجات إقليمية ، للتعبير عن معنوياته .

وهكذا استطاع الأولون من رواد كتاب المسرحية أن يؤلفوا الصيغة المثلى لما يجب أن تكون عليه المسرحية العربية من حيث القالب والمقومات والمشوّقات ، وكلها تتلخص في أن تكون المسرحية خليطاً من سهل مستساغ في الموضوع ، ومألوف من الأناشيد ، في أسلوب لغوي مفهوم يخاطب أذهان الناس بما يعرفون .

وهكذا نشأ المسرح العربي في ظل الموسيقى العربية ومحاسنها وسحرها .

وهكذا استطاع « القباني » بمسرحياته « المقتبسة » أن يقيم حداً واضح المعالم بين القصة والمسرحية ، وهذا في ذاته حدث هام .

وهكذا استوطن فن التمثيل أرض مصر في النهاية ، بعد أن اجتاز سوريا ولبنان إليها ، وغدا له بيت مشيد هو « دار الأوبرا الملكية » تطور في رحباتها وماشى سنة التقدم والارتقاء .

زكي طليمات



دنيا القصص

اللقيط

للأستاذ حبيب الزحلاوي

لقد رأستُ هذا الملجأ يا سيدي من نحو ثلاثين سنة ، ولم يسألني أحـد سواك هذا السؤال من قبل ، ولست أعرف عن اللقطاء إلا أنهم وجدوا — كما تقول تقارير البوليس — على أرصفة الشوارع ، أو قرب صناديق القمامة ، أو عند أبواب الجوامع والـكنائس ، ولا أذكر من السيدات غير واحدة جاءت من وقت قريب تحدثني عن طفلها قبل إيداعه الملجأ . أما الرجال فلا أذكر أن جاء واحد منهم يفتش عن جنايته .

عندي في الملجأ مئات من اللقطاء من كل جنس ، وقد صيرتني المرانة خبيرة بعلم الأجناس ، صحيحة الفراسة ويمكنني أن أدعي أن النظرة الواحدة إلى رأس طفل تجاوز أربعة أشهر من عمره تجعلني أحدد عنصره ، وأميز بين الأصل المصري والعربي والتركي واليوناني ، واستطردت تقول وهي تبتسم : لا أشك يا سيدي في يسرك واقتدارك ، فما إن قرأت اسم سعادتك في البطاقة التي شرفتني بها حتى وثقت بأن الطفل الذي ستتبناه سيكون من السعداء ، ولعلك أول رجل في رونق الشباب جاء يطلب لقيطاً يتبناه .

قلت لك يا سيدي إن سيدة واحدة فقط أتت تحدثني عن طفلها قبل أن تودعه الملجأ . لم يطاوعها قلب الأم أن تلقي بطفلها إلى الأقدار فلجأت إليَّ لتتخذني أمًّا تودعها سرها ، ثم تلقي بفلذة كبدها بين يدي . هل يطيب لك يا سيدي سماع حكايتها كما سمعتها منها ؟

الفتاة يا سيدي يونانية وسيمة الطلعة ، ساحرة النظرة ، متوثبة الروح ، لاتكاد تهدأ لها حركة ، تتكلم فتفيض نفسها على لسانها ، وهاك ما قالته لي :

« قذفت بي موجة الحرب إلى شاطىء السلامة بمصر عقب أن اجتاح الألمان بلادنا وصبت طياراتهم علينا الخراب والعذاب والموت .

لقد كنت واحدة من مئات أمثالي نجهل ماذا حل بوالدينا وأخواتنا وأهلنا ،

ولا نعلم إلا أن السفن الإنجليزية قد حملتنا إلى مصر، ثم نقلنا إلى معسكرات في الصحراء، ولم نلبث أن ارتدينا ثياب الجندية، وأخذنا نقوم بالتمرينات العسكرية وبكل ما يطلب إلينا عمله .

شعرت بعد أشهر قليلة بالوهن يدب إليّ والضعف ينوش جسمي، فالمسرات التي كانت السلطات العليا تدخلها على نفوسنا، إن هي إلا مخدرات تذهل العقل وتقعد به عن التفكير الصحيح .

تمارضت على ما فيّ من حيوية فوّارة، فركنت إلى الفراش أستعرض في عزلتي حالي التي لا يطيقها عاقل، ولا يرضى بها سوى مستكين يائس أو مرغم مقهور، وتبين لي في استجمامي أن حياتي إن هي إلا مغامرة شريرة دفعت إليها دفعاً، وأني فقدت أشياء كثيرة عزيزة، أهمها مستقبلي ثم أنوثتي ثم غايتي من الوجود، وصرت من شذاذ الآفاق من أجل لقمة أتبلغ بها وكساء ألبسه . هجرت المعسكر ونضوت ثياب المجندات، ورحت أضرب في عرض الحياة، لا أتعفف عن بيع متعة، لقاء لقمة، أو كسوة، أو مأوى .

أرجوك ياسيدتي أن لا تحدجيني بنظرة نكراء إذا أنا فتحت لك مغاليق صدري، وبحت لك بأسرار نارية كامنة فيه، وأرجو أن ترحميني إذا أنا اعترفت لك بأني استهولت الشر المطلق في حياة الجندية، فلذت بشر محدود جعلت عنانه بيدي، وصرت إذا اقتنصت جنيهاً واحداً من شيطان رجيم أو إنسان رحيم، ضممت عليه أصابعي، وأنفقت منه القرش الواحد تلو القرش أشغل معدتي بما أشتريه بالقرش والمليم عن الركود والجوع، وكنت بعد ذلك ياسيدتي أتعفف حتى تنفد قروشي .

نفحني مرة ضابط عاد من ميدان الموت بهبة من المال تلقاء متعة عربيدة مجنونة، فخطر ببالي أن أقامر في سباق الخيل .

ربحت مرة ثم ربحت وربحت فلم تأخذني نشوة الربح، ولم تقو على الدفع بي إلى مغانم اللذة، بل أحسست بميل ملحاح إلى الاعتكاف في غرفتي لا أبارحها إلا لقضاء حاجة لا محيد عن قضائها ثم ألوذ بها من جديد لتكتنفني وحدةٌ أحبها وانزواءٌ يشعرني بالكفارة والندم .

اتخذت سباق الخيل ديدنا ولكني كنت حريصة جد الحرص على أن لا أجازف فأخسر كل ما أملك، مخافة أن أجبر على الانحدار فأستهين من جديد بأعز ما أملك .

همس الشيطان ولا أدري كيف همس في أذني وأنا في ميدان السباق أن أراهن على الحصان الجديد "فايز" .

ما كنت أعرف هذا الحصان ، ولا رأيته قبل اليوم ولا في هذه الساعة أيضاً ، ولا سمعت به إلا وأنا في طريقي إلى السباق من متكلم همساً عنه ، ولا أحسب أيضاً أن غيري من هواة الرهان على خيل السباق أو مدمنيه سمع باسم هذا الحصان الجديد الذي أقحم اليوم على الخيل المتسابقة إقحاماً .

تركت مكاني على عجل ، واختطفت قائمة أسماء الخيل التي تجري في الشوط فإذا باسم الحصان " فايز " بذيلها .

أسرعت إلى شباك التذاكر ولم يبق على إيصاده سوى بضع دقائق وإذا بي ألمح رجلا كأنه يراكضني .

سمعت لهاث الراكض ، ولا شك عندي في أنه سمع دقات صدري . اصطدم رأسي بكتف هذا المزاحم حين بلوغنا شباك بائع التذاكر ، وشعرت بيده القوية ، ندية بالعرق تنحط فوق يدي الصغيرة فتغطيها ، وسمعته يقول للبائع : أعطني عشر تذاكر من فئة الجنيه على الحصان " فايز " ، وقلت أنا على التو وبالنبرة الآمرة نفسها وبالجملة اللهثى أن يعطيني عشر تذاكر من فئة الجنيه على الحصان " فايز " .

نظر البائع إلينا نظرة فيها من معاني الاستفسار والاستغراب ما فيها ، فعمد إلى دفتره فانتزع منه عشرين تذكرة ودفعها إلينا كأننا مشتر واحد .

تناول هذا الرجل الغريب التذاكر كلها وأخذ يعد عشراً منها عداً وئيداً بادي التعمد .

كدت أصفع هذا الرجل المديد القامة ، العريض المنكبين ، السابل عينيه فوق التذاكر يعدها كأني شيء لا يستأهل النظر إليه .

ناولني التذاكر فوقعت نظرتي الحادة الشرسة على نظرته الهادئة ، ولكن سرعان ما تبدلت نظرته وظهرت الانفعالات الفجائية عليه فقبض يده عن إعطائي تذاكري ، وأخذني بحركة عصبية من ذراعي ، فجذبني إليه ، وسمعته يقول لي ونحن نهرول صوب حلبة السباق : لقد أشركتك في حظي كما وقع قلبي في شراك لحظك ... هيا أسرعي فإننا سنستريح . . . أجل سيفوز الحصان " فايز " بالسبق وسيندمج حظي في حظك فنسعد معاً .

كان يجرني وهو يركض ، وكنت أطاوعه متهالكة منقادة فاقدة الإرادة ، ولما بلغنا الشرفة المطلة على حلبة السباق ، كانت الخيل قد شرعت تجري ، فتعلق بصري بالحصان " فايز " وبالرقم البارز على ظهر فارسه القزم ، ولم أفطن إلى ذراعي أنها مكبلة

بقبضة هذا الرجل الغريب إلا وقتما عمدت إلى حركة يدوية أستفز بها حماسة فارس الحصان "فايز" فقد فطنت عند ذاك إليّ أني مقيدة، فانتزعتها بعنف، والتفت صوب الرجل الغريب فصفعته بكل ما أوتيت من قوة عضلية وقلت وأنا فرحة ... سيربح الحصان ... سيربح الحصان ... ولم أكد أهدأ من انفعالي وألتفت إلى خيل السباق وهي في نهاية جولتها مقبلة تنهب الأرض ، ممدودة الأعناق ، حتى رأيت الحصان كأنه يطير بقوائمه ولا يقفز ، ورأيت أن راكبه القزم منبطح فوق السرج ، وأنه يسبق الخيول المصلية بأمتار ، فلم أتمالك من الالتفات إلى الرجل الغريب شريكي ، فرأيت صدره قبالة صدري ووجهه المشرق كذلك ، فتعلقت بعنقه كما لو كان خطيبي أو حبيبي ، وأحسست مع انفعالي العصبي بقبلة منه تتغلغل هادئة مطمئنة في كياني ، فتراخت مفاصلي وكدت أفلت ، ولكنه كان يحملني ويضمني بذراعيه القويتين .

مشينا صامتين صوب خزانة السباق فقبضنا مبلغاً باهظاً من الأوراق دسها الرجل كلها في حقيبتي ، وإذ كنا في السيارة عائدين صوب المدينة قال لي بصوت خافت هادئ كأنه يستوحيه من أعماق نفسه :

أكون من أسعد الناس يا آنستي لو رضيت أن أعايشك .

قلت وكأني أفيض بوجداني وعقلي : على أي نحو تريد معايشتي يا سيدي ؟

فقال : على نحو يرضي الله والضمير وقوانين المجتمع .

استسلمت لزوجي استسلاماً مطلقاً وعشت معه عيشة زوجية رضية هانئة لا تكدر صفوها التفاتة إلى الماضي وقد دفناه ، ولا طموح إلى مستقبل يزهر بأكثر مما نزهره نحن من سعادة متبادلة .

عرضاً عرفت أن لزوجي الحبيب والدة وإخوة وأخوات ، ولكني تعمدت التجاهل حتى لا أزعجه في أمر كتمه عني لغرض ما ، ثم تبين لي أنه من أصحاب المكانة والصيت الطيب ، تردد الصحف اسمه مقروناً بالتبجيل ، وقد سكتُّ عن ذلك أيضاً مغتبطة مسرورة بزوجي الحبيب .

لم يعوّدني زوجي الابتعاد عني ولا التخلف عن البيت ، لأن حياتنا كانت شبه رتيبة ، هو في ديوانه إلى ما بعد الظهر وأنا في بيتي أدبر شؤونه ، وقلما كان يصحبني في نزهة أو تسلية من التسالي . أما أنا فقد كنت أوثر البقاء في البيت على الخروج وحدي ، ولكني كنت أحرص على جعل وكرنا جنة للغبطة والسرور وفرح النفس .

قال لي ذات عشية إنه ذاهب لقضاء ساعة مع معارفه فلم أعارض في ذهابه ،

بل حببت إليه قضاء بعض الوقت مع الأصدقاء ، لأن في مجالسة الناس فوائد اجتماعية وأدبية .

همست في أذن زوجي الحبيب خبر اضطراب الجنين في أحشائي ، وكنت أتوقع أن يضمني إلى صدره يقبلني قبلة الأب العتيد للأم العتيدة ، ولكنه اكتفى بالابتسام والسكوت .

أخذت ساعات جلوسه إلى رفاقه تتكرر وتطول ثم تزداد ، ولكني ما كنت أحمل ذلك على محمل التباعد المقصود ، أو الإهمال المنتوى .

رغبت إليه مرة ورجوته مرة ثانية أن يمدني بقماش أو بإذن من مصلحة التموين للحصول على أقمشة تصلح لثياب الطفل ، فدهشت لما نفحني بالمال أشتري أنا ما يلزم لطفلي ! !

احتملت هذه الصدمة من زوجي الحبيب وكأني رميت بنار السعير .

أخذت أخيط ثياب مولودي وقد بللتها بدموعي ، وأسهر في خياطتها حتى ينتصف الليل في انتظار عودة الزوج الحبيب .

ثقل حملي وكدت أنوء بخدمة البيت ، ولكني جاهدت بقدر ما أسعفتني قواي حتى أجعل كل شيء في بيتي على ما تعوده زوجي الحبيب .

لم يبق للوضع سوى أيام معدودات ، ولكن زوجي الفطن اللبيب تجاهل الأمر كأنه لا يعنيه ، ولما سألته أن يمدني بأي الرأيين أصوب ، أألد في بيتي فأكون مشمولة برعايته ، أم ألد في المستشفى وهو أضمن لحياتي وأبقى على راحته هو ؟ فأجاب إجابة من يستوي عنده هذا الرأي أو ذاك .

كاد الدمع يطفر حمماً من عيني ، ولكني كظمت لوعة تأججت في صدري وجحيماً استعر فيه ، وصبرت حتى لا أؤذي جنيناً في أحشائي .

يممت المستشفى وحدي ، وقد ودعني زوجي بقبلة ناعسة ذكرتني بقبلته الأولى ، تلك التي صيرتني من أسعد الناس ، وها هي ذي قبلته النعسى تنعق منذرة بشقاء قريب .

أدركني المخاض فأخذت أتلوى من الوجع وأصرخ من الألم . لم ألذ بربي أستمد منه الخلاص ، بل استصرخت زوجي العزيز ، ولجأت إليه أستدعيه بنداء من روحي ، لا لأني أشرفت على الموت لعسر في الولادة ، بل ليستقبل ولده وهو ثمرة حب طاهر مقدس .

سمعت صرخة مولودي الأولى فكدت أجن من الفرح ، وقد نسيت آلامي كلها .

آه كم تمنيت أن أتبين أذكر مولودي أم أنثى ولكني أغمي عليّ ، ولم أعد أحس بما كان يدور حولي .

قالت لي الراهبة المواسية : إن زوجي سأل عني بالتلفون وإنه قادم لزيارتي ظهر اليوم ، وقالت لي كذلك إنها لم تلمس فيه فرحة الوالد بولده البكر .

رغبت إلى الراهبة أن تكون إلى جانبي ساعة حضوره لزيارتي ، وعندما حضر حياني بابتسامة عريضة باهتة لا حياة فيها ، وقد صده وجود الراهبة بجانب سريري عن تقبيلي . سألني عن صحة مولودي وهنأني بسلامتي .

لقد اعتذر عن غيابه الاضطراري بحجة أن الحكومة انتدبته لعمل بعيد عن العاصمة لم يتمكن من الإفلات منه ، وأنه عائد في الغد إلى إتمامه ، وأن ظرفه الخاص هذا سيقهره على الغياب مدة قد تطول إلى عشرة أيام أو أكثر ، وقد نصحني بالبقاء في المستشفى مدة شهر أستعيد فيه صحتي بالتزام الراحة ، وهمس في أذني أنه دفع الأجر كاملا ، ولم يبخل على الخدم بإكرامية تفرحهم .

تعمدت السرور وشكرته على حسن اهتمامه بي .

رغب إليّ قبل انصرافه أن يرى الطفل فقالت الراهبة الخبيثة : إنه يغط في نومه فلم يلح في رؤية ولده .

كدت أنفجر فأفيض بكلام يظهر آلامي المكبوتة ، لولا نظرة من الراهبة المواسية استوقفتني فألجمت لساني .

عجبت لأمر زوجي وانقلابه فجأة من حال إلى ضدها . قلت لا بد من حدث خطير لا شأن لي فيه صيره إلى حاله تلك وقد بيت النية ، رغم النفاس ، على استكشاف سريرة زوجي .

مضت عشرة أيام على تلك الزيارة لم أنقطع خلالها عن مطالعة الصحيفة التي كانت تنشر أخبار زوجي أكثر من غيرها من الصحف .

آه لو عرف المسكين أنه هو الذي علمني قراءة اللغة العربية وكتابتها ، وأني ما أقبلت على تعلمها إلا لأقرأ أخباره وحده ، وأن الخبر الذي قرأته اليوم هو الذي فسر لي حال زوجي وأوضحها لي بأجلى بيان ؟ ! !

أعرف أن زوجي يدين بدين سمح يبيح تعدد الزوجات وييسر الطلاق ، وأعرف أني تقبلت دينه حباً له ، وما عرفت قط ، قبل الآن أن شريعة قومي ، وعادات أهلي متأصلة في نفسي إلى الحدود التي يظن بها أنها طبيعية لا مكتسبة ، وأن الشرك بالله

أهون على قلب امرأة مثلي لا تفقه للتحقيقات العقلية معنى من احتمال مشاركة ضرة .

لقد عزمت على إتيان عمل حاسم يزيل كل عقبة في طريق زوجي ويمهد له حياة جديدة هنيئة ، ولكن كيف الوسيلة إلى تحقيق هذه الأمنية دون أن أعرض موقفي إلى تصفية نهائية بغيضة ؟ أريد حقيقة اختزال طريقي ولكني أنكر تصفية حياتي الزوجية ، لا من إفلاس لأني ما زلت في مستهل الصبا ، بل لأني أحب زوجي .

لقد وقفت في مفترق الطريق حيرى هادئة ، قلقة وجلة ، مقدامة متخاذلة ، لا أستقر على رأي ، ولا أبت في أمر ، وأخيراً يممت دار القنصل اليوناني ، فلفقت لرجالها قصة من نسج الخيال استدرت عطفهم علي ، فرضوا إعادتي إلى بلدي .

سكتت هنيهة ريثما كفكفت دموعها وقالت :

ها أنا ذا أقف بين يديك يا سيدتي ، لأسمع منك الحكم ببراءة طفلي من وصمات الإنسان ، تلك الوصمات الباطلة التي تخدم الشر ، وتبذر الإثم ، ويتطوع واصموها في خدمة الشيطان .

ستقلني الباخرة بعد غد يا سيدتي ، وإني أودعك فلذة كبدي ، وقد أودعت زوجي قلبي من قبل ، فليقدر الله لابني ما يشاء وليفعل زوجي بقلبي ما يشاء ، لأني كنت له وفية منذ عرفته ، وسأحتفظ بوفائي لحبي حتى النهاية » .

واستطردت مديرة الملجأ قائلة : إن الطفل بهي الطلعة يا سيدي ، بسام الثغر ، إن بكى خلت أنغاماً من ألحان الملائكة .

دفعت الباب صبية في ثياب بيض تحمل بين يديها طفلاً قدمته للسيدة مديرة الملجأ .

هو ذا الطفل الوديع يا سيدي ، هاكه يا سيدي . . . انظر إلى وجهه فهو يبتسم ... يا الله ما الذي يبكيك يا بني ؟ . . . إنك تصرخ ولا شك صرخة الفرح بحياتك السعيدة المقبلة ، وإنك ستكون خير ولد لخير والد . . .

نهض الرجل وهو لا يقوى على كفكفة دموعه مادًّا يديه للطفل وقال :

تعال يا ولدي الحبيب فإني سأسكب فيك روحي . . . ليغفر الله لوالدتك . . . وأسأله تعالى أن يغفر لي .

حبيب الزحلاوي

انبـــاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتّاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصـــر

في الرابع عشر من يناير افتتح مجمع فؤاد الأول للغـة العربية مؤتمره السنوي في حفل شهده أعضاء المجمع ورجال التربية والتعليم وأساتذة كليات الجامعة وكوكبة من أهل العلم والأدب والدين .

واعتذر عن عدم شهود هذه الدورة الأساتذة : عيسى إسكندر المعلوف والأب أنستاس ماري الكرملي والمستعرب الإنجليزي المستر جيب .

✡✡✡

يصدر قريباً لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخ الجامع الأزهر كتاب عن «محمد عبده» ، وقد تناول فضيلته فيه الكلام على حياة محمد عبده وأخلاقه ومذاهبه في الإصلاح .

✡✡✡

يعنى الأستاذ محمد الأسمر في هذه الأيام بالإشراف على طبع الجزء الأول من ديوانه ، وقد سماه « تغريدات الصباح » . والديوان مصدر بمقدمة للأستاذ أنطون الجميّل بك .

✡✡✡

تدرس وزارة الأشغال إنشاء معهد للنيل على غرار المعاهد المنشأة في الخارج لدراسة المحيطات ومساقط المياه والفحم والبترول ، على أن يضم المعهد الجديد شتى الدراسات والأبحاث المتعلقة بحوض نهر النيل، وأن يتكون من أقسام لدراسة الظواهر الجوية والظواهر المائية للنيل وروافده وبحيراته ثم دراسة التربة والنبات والحيوان والأحياء المائية ، ودراسة الشعوب والقبائل وعاداتها وعقائدها .

وسيزود هذا المعهد بمتحف يتضمن خرائط مسطحة ونماذج للجسور والخزانات وبمكتبة شاملة، ثم بمدرسة عليا تخرج أشخاصاً من ذوي المؤهلات العلمية الذين يتخصصون بالأبحاث المتعلقة بحوض نهر النيل .

✡✡✡

تقيم مراقبة الثقافة بوزارة المعارف معرضاً ثقافياً لتنوير الطبقة المتوسطة من المتعلمين ، على أن يحوي المعرض صوراً ورسوماً لـكبار العلماء والساسة ورجال التاريخ الحديث، والأبنية القديمة ذات الشهرة الخالدة ، والحدائق ذات الرسوم الشائقة ، وبعض المؤلفات العربية والآنية الخزفية والزجاج الملون ومجموعة من طوابع البريد والنقود يتبين منها مراحل التطور في تاريخ مصر الحديث .

☆☆☆

أنشئت الجامعة الشعبية بمصر لتنظيم أوقات فراغ البالغين من الجنسين بواسطة دراسات عقلية وفنية ومهنية تعمل على تكوين شخصية أصحابها وترقية ملكاتهم واستعداداتهم . وقد عهد في إدارة هذه الجامعة إلى الأستاذ أمين إبرهيم كحيل ، كما عهد إلى الأساتذة : محمد بك حسن والدكتور سامي جنينة ومحمد عبدالغني حسن وعباس مصطفى عمار وعبدالوهاب خلاف وأحمد يوسف والآنسة كريمة السعيد ومحمود على فضلي وأحمد عزت في الإشراف على شعابها الفنية والسياسة والأدبية والاجتماعية والدينية والكتابية والنسوية والعلمية والتاريخية .

☆☆☆

حضر إلى القاهرة من فلسطين الأستاذ عارف العارف للبحث عن مخطوطات ومطبوعات تتعلق بكتابه « تاريخ القدس » الذي يشتغل في تأليفه وجمع المعلومات له منذ أكثر من ثلاث سنوات .

فلسطين

تألفت في فلسطين لجنة باسم « لجنة الثقافة العربية » للتأليف والترجمة والنشر . وتوالي هذه اللجنة اجتماعاتها في كل شهر . وقد اتخذت أخيراً عدة قرارات ، منها البحث في إصدار كتب في الثقافة الشعبية ، وإصدار مجلة للأبحاث العلمية والأدبية العالية ، والشروع في أوائل فبراير بإلقاء محاضرات في مختلف مدن فلسطين في موضوعات ثقافية . وسيبدأ هذه المحاضرات أمين سر اللجنة الدكتور إسحق موسى الحسيني في مدينة يافا .

☆☆☆

سافر في هذا الشهر خمسة طلاب عرباً إلى أمريكا ليتخصص ثلاثة منهم بالزراعة واثنان بالهندسة .

☆☆☆

بدأت « كلية الإذاعة » محاضراتها من دار الإذاعة الفلسطينية . وهي الآن تشمل أربع سلاسل : الأولى في العلوم والثانية في اللغة والأدب والثالثة في التاريخ والرابعة في الجغرافية .

☆☆☆

يطبع الآن الأستاذ أحمد سامح الخالدي كتاب « الإعلام بفضائل الشام » للمنيني ، وكتاب « مثير الغرام » لابن غانم مع تحقيقات وشروح . ويعد كتاباً مهماً عن مدارس القدس في العهد الإسلامي مع مقدمة وافية عن تاريخ التعليم في الإسلام .

☆☆☆

ترجم السيد هاشم عبد الوهاب ياغي إلى العربية كتاب « الإنجليز — هل هم بشر ؟ » ، وسينشر في القدس . كما وضع كتاباً عن أدب الإمام الشافعي .

✡✡✡

فتح اتحاد النهضة العربية مدرستين يؤمهما نحو ٤٠٠ طالب . وهو عازم على فتح مدرسة ليلية لمكافحة الأمية تتسع لمائتي أمي ، وعلى إقامة وحدة صحية في قرية تتوسط أربع قرى صغيرة يبلغ مجموع سكانها ألفين .

✡✡✡

طلبت الجمعية الطبية العربية الفلسطينية إلى أولياء أمور الطلاب الذين يدرسون الطب في مختلف الجامعات أن يرسلوا إليها أسماء الجامعات التي يدرسون فيها وسنة تخرجهم فيها . وقد عاد أمين سر هذه الجمعية الدكتور محمود الدجاني من إنجلترا ، بعد أن أقام فيها زهاء شهرين متفقداً المستشفيات والمؤسسات الطبية بدعوة من المعهد البريطاني في فلسطين .

لبنان

يصدر قريباً عن « دار المكشوف » مسرحية مترجمة عن أدمون رستان بعنوان «أسكارويلد أمام القضاء » نقلها عن الفرنسية الشاعر إلياس أبوشبكة . ويدور موضوع المسرحية حول الدعوى التي أقامها المركيز ده كنسبري والد اللرد دجلاس على أسكارويلد بتهمة تغريره بولده دجلاس ، وهي القضية التي أثارت ضجة كبيرة في أواخر القرن التاسع عشر في الأندية الأدبية في لندن وباريس وكان من نتائجها الحكم على أسكارويلد بالأشغال الشاقة لمدة سنتين .

✡✡✡

يعد الدكتور سليم حيدر ملحمةً بعنوان « الخليفة » يتناول فيها الأساطير القديمة قدم العالم ، كآدم وحواء ، وقابيل، وهابيل ، والطوفان ، وبرج بابل . وملحمة « الخليفة » هي جهد سنوات كثيرة ، انصرف خلالها الشاعر إلى النصوص الدينية ، وإلى وحي قلبه وينابيع خياله لإعداد طرفته الفنية .

✡✡✡

أبدت بعض الجماعات الأدبية والعلمية في بيروت نشاطاً ملموساً في الأيام الأخيرة ، ترمي من ورائه إلى تأسيس شركة مساهمة لتكوين دار للصحافة ، غايتها إصدار مجلة أسبوعية وأخرى شهرية تعرفان الأدب اللبناني إلى العالم العربي ، وتكونان له صلة الوصل بينه وبين شقيقاته العربيات .

✡✡✡

قدم المجلس الثقافي البريطاني منحة تعليمية لثمانية طلاب وطالبات من خريجي الجامعات لتكميل تحصيلهم العالي في جامعات إنجلترا أو المؤسسات الأخرى في العام الدراسي ١٩٤٦ — ١٩٤٧

✡✡✡

يصدر قريبا في بيروت كتاب « أطياف من لبنان » للأستاذ كرم ملحم كرم صاحب مجلة « ألف ليلة وليلة » . والكتاب هو الثالث من سلسلة « كتاب الأديب » بعد الكتابين السابقين وهما : « المعري ذلك المجهول » للشيخ عبد الله العلايلي و « سارق النار » لخليل الهنداوي .

☆☆☆

أنشأت « دار المكشوف » جائزة أدبية قيمتها ألف ليرة لبنانية تمنح لأحسن كتاب يختار نوعه كل سنة بين أربعة أنواع على الترتيب التالي : رواية ، شعر ، قصص ، دراسة عن شخصية سياسية من لبنان . ومن شروط المباراة أنه يحق لجميع الأدباء العرب الاشتراك فيها . ويشترط في الرواية والقصص أن تكون « محلية » بحوادثها وأشخاصها ومكانتها ، ومصطبغة بصبغة بلد من البلدان العربية ، ومستمدة روحها من أرضه وسمائه ، وحياة أهله . تبدأ المباراة في أول يناير ، وتنتهي في ٣٠ سبتمبر ، وتعلن النتيجة قبل ٣١ ديسمبر من كل سنة .

☆☆☆

زار بيروت الأستاذ رشاد البيبي مراقب البرامج العربية في محطة الشرق الأدنى ، وسجل أحاديث طريفة تدور في حلقات المتأدبين ، وإدارات المجلات الكبرى ، والأندية النسائية ليحملها إلى يافا حيث تذاع في محطة الشرق الأدنى . ومن أطرف الجلسات التي سجلها « نصف ساعة في إدارة مجلة الأديب » حيث كان يدور النقاش حول « الصحافة والأدب » واشترك فيه نخبة من الصحافيين والأدباء منهم الأساتذة محيي الدين نصولي صاحب جريدة « بيروت » وجبران التويني صاحب جريدة « النهار » والدكتور نقولا فياض وعبد الله العلايلي وإلياس زخريا وكرم ملحم كرم .

☆☆☆

صدرت في بيروت مجموعة من وثائق ومعلومات عامة ، باسم « قرأت لك في الصحافة العالمية » يقوم بانتخابها وتنسيقها وترجمتها نخبة من رجال الأدب بإشراف الأستاذ الشيخ فؤاد حبيش صاحب « دار المكشوف » .

☆☆☆

أنهى الأستاذ يوسف إبرهيم يزبك كتابه « مؤتمر الشهداء » ، وهو دراسة تاريخية رصينة للجهاد العربي في مستهل القرن العشرين ، يعرض فيه الكاتب للمؤتمر العربي الذي عقده المجاهدون في باريس عام ١٩١٣ ؛ ولكل ما تقدمه من جهود الجماعات والأفراد ، ولما عقبه من مقررات ونتائج . وقد أطلق المؤلف على كتابه اسم « مؤتمر الشهداء » لأن أكثر الذين شاركوا فيه علقوا في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ على مشانق بيروت ودمشق .

☆☆☆

نشرت « دار الكشاف » للدكتور صبحي محمصاني كتاب « فلسفة التشريع في الإسلام » وهو بحث قيم يقع في ٣٥٠ صفحة ويعرض لتعريف علم الفقه وتقسيمة ، ولتاريخ نشوئه ، ولمصادره ولبعض القواعد الكلية .

☆☆☆

يقوم سعادة فؤاد باشا الخطيب بعد أن اعتزل السياسة واستقر في موطنه بإعداد كتاب موضوعه « نظرات جديدة في الأدب العربي » كاد يفرغ من تبييضه .

☆☆☆

لدى الفيكنت فيليب ده طرازي مجموعة طريفة من الصحف العربية دأب على جمعها منذ حداثته .

فلديه العدد الأول من كل صحيفة عربية صدرت في البلاد العربية ، فهي بذلك مجموعة نادرة فريدة في بابها . وقد عرضها للبيع فدفعت الحكومة السورية ١٢ ألف ليرة ، وعلمت بالأمر إدارة مكتبة جامعة فؤاد الأول فأرسلت اثنين من أساتذتها لفحص المجموعة ، فعرضا بعد ذلك على صاحبها ألفي جنيه ، أي ما يوازي ١٨ ألف ليرة لبنانية . وقد سعى بعض رجال الأدب في أن تبقى هذه المجموعة في لبنان ، فعرضوا على صاحبها باسم الحكومة اللبنانية ٣٥ ألفاً ثمناً لها ، والمأمول أن تستولي عليها المكتبة الوطنية بهذه الشروط .

سوريا

بلغت موازنة وزارة المعارف السورية لعام ١٩٤٦ ثلاثة عشر مليوناً ونصف مليون ليرة سورية ، أي نحواً من مليون ونصف مليون جنيه مصري ، وازدادت عن السنة الماضية بنحو ثلاثة ملايين ونصف مليون ليرة سورية ، أو ما يقارب أربعمئة ألف جنيه مصري . وفي هذه الموازنة اعتمادات لمشاريع جديدة .

✡✡✡

سينشر المجمع العلمي العربي كتاب « الرسالة الجامعة » للمجريطي بتحقيق الدكتور جميل صليبا . والرسالة الجامعة هذه من الأهمية بمكان كبير ، فهي ذيل على رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ، مفسرة لها مبوبة تبويبها . وقد أشير إليها في الرسائل وعملت لمن فهمها وأراد أن يتوسع بأكثر منها . أما مؤلفها ، أي المجريطي فشخصية تشابه شخصية جابر بن حيان . ويقال أنه هو الذي أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس ، على أن من العلماء من يعتقد أنه لم يوجد إلا وهماً وتخيلا . وستلقي الرسالة الجامعة ضوءاً جديداً على البحث عن القرامطة والإسمعيلية ، وستعطي مادة طيبة في الفلسفة وعلوم الأوائل .

✡✡✡

ترجم الأستاذ إبرهيم الكيلاني المدير المعاون لمدرسة التجهيز الثالثة المسرحية المشهورة لجول رومان الكاتب الفرنسي وعنوانها « الدكتور كنوك » وهي التي امتد عرضها التمثيلي سنوات كثيرة في باريس دون انقطاع .

✡✡✡

أعد الأستاذ أحمد الصافي النجفي مجموعة أشعاره التي لم تطبع فألف خمسة دواوين أسماها بالتتابع :

١ — التيار ، وهو ما نظمه منذ عشر سنوات إلى أوائل الحرب .

٢ — ألحان اللهيب ، وفيه ما نظمه خلال الحرب .

٣ — اللفحات ، وهو ما أوحاه إليه مصيفه في السنة الماضية .

٤ — هواجس ، وهو مجموعة أشعار مختلفة .

٥ — ديوان خامس لم ينشر منه شيئاً ولم يرد أن يذكر اسمه وسيفاجىء به محبي الشعر متى حان وقته .

وذلك غير الدواوين الثلاثة التي أخرجها وهي : الأمواج ، وأشعة ملونة ، والأغوار .

أهدى غبطة بطريرك الروم الأرثوذكس دار الكتب الظاهرية بدمشق نحواً من سبعين مجلداً بين مخطوط ومطبوع، ومنها مجموعة نماذج أختام لأهل الجيل السابق، ومخطوطة في حظ الدماميني من شأن الكتاب الأدبي المشهور ، « الغيث المنسجم في شرح لامية العجم » للصفدي .

✡✡✡

خلف الأستاذ عمر رضا كحالة — صاحب المؤلفات التاريخيـة والجغرافية — في إدارة دار الكتب الظاهرية الدكتور يوسف العش الذي انتدب للعمل في المكتب الثقافي لجامعـة الدول العربية بالقاهرة .

العِـراق

أنجز الدكتور جواد علي — خريج جامعة همبرغ — تأليف كتاب « العرب قبل الإسلام » . وهو موضوع تخصص به في تلك الجامعة واعتمد — عدا عن بحوث ودراسات كثير من المستشرقين — على نصوص معينية وحميرية وسبئية على النقوش الموجودة في متاحف أوربا ، والتأليف من نواح ثلاث يتناول حياة العرب قبل الإسلام في السياسة والثقافة والدين ، وقد توسع فيه بحيث أربت صفحاته على الألف بحجم (الكتاب) .

✡✡✡

يقوم الشيخ عبد الحسين الأميني من فقهاء النجف ومؤلف كتاب « شهداء الفضيلة » بطبع مؤلفه الكبير « شعراء الغدير » ، وقد جمع فيه ما نظمه شعراء يوم الغدير من صدر الإسلام إلى الآن، ويترجم فيه للشاعر ويعرف بمنزلته في عالم الشعر والأدب. هذا في مطابع النجف ، وهناك بين علمائها الشيخ أغا بزرك الطهراني يطبع له في طهران هذه الأيام الجزء الخامس من موسوعته « الذريعة إلى تصانيف الشيعة » التي قضى سنوات في تصنيفها وجمع موادها ، فطبع منها ثلاثة مجلدات في المطابع النجفية ، وواصل طبع الباقية في إيران .

✡✡✡

صدرت في بغداد بضع رسائل في الموضوعات السياسية والاقتصادية الحديثة منها: « نقد المثالية الحديثة » تأليف جون لويس وترجمة ناظم الزهاوي في مطبوعات (جمعية الرابطة الثقافية) و« اقتصادنا الوطني » لمحمد على الزرقا و « القضايا الاجتماعية الكبرى » لرسول عبد الوهاب العسكر .

ونشرت مجلة (المعلم الجديد) التي تصدرها وزارة المعارف كتاب « مركب النقص : مدلوله وعلاجه » تأليف و.ج مكبريد وترجمة نوري حافظ ومدرسي دار المعلمين .

✡✡✡

أصـدرت (جمعية الرابطة النسائية) في عاصمة العراق مجـلة نصف شهرية باسم « تحرير المرأة » ظهر عددها الأول في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ ومضامين هـذا العدد مكتوبة ومترجمة بأقلام سيدات وآنسات عراقيات بينهن السيدة عفيفة رؤوف رئيسة تحرير المجلة والدكتورة أمة الزهاوي والسيدة روزخدوري والدكتورة سانحة أمين زكي . ونزعة الصحيفة تحريرية تقدمية، وهي أول مجلة للنساء في العراق تضم مباحث تستند إلى تفكير علمي في القضايا الراهنة .

✡✡✡

نشر الدكتور عبد الجبار الجومرد العراقي خريج جامعة السربون كتاباً بالفرنسية في باريس عنوانه «مأساة فلسطين» دافع فيه عن وجهة نظر العرب في المعضلة الفلسطينية .

✡✡✡

أعد الأستاذ محمد بهجة الأثري كتاباً مخطوطاً من مخلفات أستاذه المرحوم محمود شكري الآلوسي — العلامة العراقي الشهير — للطبع والنشر . وهو شرح منظومة « عمود النسب وأخبار أخبار سلف العرب » نظم الشيخ أحمد المالكي المغربي الشنقيطي في (١٥٠٠) بيت وفيها أنساب العدنانيين والقحطانيين، وقدعني شكري الآلوسي بشرحها وإيضاح مجملاتها وحل رموزها، والشارح متخصص بهذا العلم ، وكتابه « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » يشهد بفضله في هذا الباب ، وقد أضاف الناشر إلى الكتاب تعليقات وفوائد تاريخية وأدبية وتراجم بحيث جاء من أمتع الأسفار .

✡✡✡

بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، وأخذت الشعوب العربية في مدارج اليقظة ، نشأ إحساس ملحّ في العراق بوجوب استئناف النشاط الفكري والجهاد القومي ، وقد كان قوياً متأججاً قبل الحرب • ومن المشروعات الثقافية القومية ذات الأثر « نادي البعث القومي » الذي يعمل له معالي الدكتور سامي شوكة — وزير المعارف السابق — وأحد الذين عملوا جاهدين في الحقل الثقافي والقومي في عهد الملك فيصل الأول وبعده . وقد استقال من منصبه — وكالة وزارة الشؤون الاجتماعية — ليتفرغ لهذا المشروع .

✡✡✡

فرغ الأستاذ ميخائيل عواد — ملاحظ المكتب الخاص بوزارة المعارف — من تحقيق كتاب « رسوم دار الخلافة » تأليف هلال بن المحسن الصابىء المتوفى سنة ٤٤٨ هـ مؤلف كتاب « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » والسفر في موضوع ما يسمى باصطلاح العصر الحديث بالأتيكيت والبروتوكول ويشتمل على عشرين فصلا تناول الرسوم التي كانت جارية في دار الخلافة العباسية ببغداد .

والمخطوطة التي حققها الباحث محفوظ أصلها في خزانة كتب الأزهر ، (وقد صورت تصويراً شمسياً) كتبت سنة ٥٠٧ هـ فكتابتها قريبة من عهد المؤلف ، وقد جاء في آخرها أنها عورضت بنسخة المؤلف .

وعلق عليها السيد عواد تعليقات ضافية وشفعها بملاحق في شؤون تأريخية وببليوغرافية وترجم لمن ذكر فيها من الأعلام .

الهند

أقيم الاجتماع السنوي لجمعية العلم الهندية العامة (All India Science Conference) بكلكتة في ٢ يناير برياسة الدكتور أفضل حسين مدير جامعة البنجاب ، فاستمر أكثر من أسبوع ، وقرأ فيه العلماء من جميع نواحي الهند مباحثهم العلمية .

✲✲✲

اجتمع مؤتمر نساء الهند العام اجتماعاً سنوياً في بلدة حيدر آباد سند ، واستمر الاجتماع أسبوعاً كاملا وأقرت الشريكات فيه بالإجماع خمسة وعشرين قراراً لإصلاح حال المرأة الهندية الدينية والاجتماعية . ومما يستحق الذكر أن اشتركت في الاجتماع المذكور من البلاد العربية مندوبات عن لبنان وسوريا والعراق ومصر .

✲✲✲

سافر الفيلسوف الهندي السر راد ها كرشنن صاحب التصانيف الكثيرة بالفلسفة ومدير جامعة بنارس أخيراً ملبياً دعوة الجامعات من أمريكا وروسيا ومن جامعة أكسفرد لإلقاء المحاضرات في الفلسفة والدين . وتستغرق رحلته هذه سبعة أشهر .

✲✲✲

اجتمعت جمعية التاريخ الهندية اجتماعاً سنوياً برياسة العالم الهندي الشهير السر تيج بهادر سپرو ، وتبرع لها صاحب السمو نظام حيدر آباد بخمسة وعشرين ألف روبية وقرأ فيه العلماء من جميع أنحاء الهند تحقيقاتهم في المسائل التاريخية المختلفة .

✲✲✲

تبرع أحد الأغنياء في المقاطعة الوسطى بالهند بمبلغ خمسة وعشرين لك ✲ روبية لإنشاء جامعة جديدة في المقاطعة عدا جامعة ناكبور الموجودة فيها .

✲✲✲

قررت حكومة مقاطعة آسام بالهند إنشاء جامعتين جديدتين في هذه السنة وبهما يبلغ عدد الجامعات فيها ثلاثا وفي جميع الهند ثلاثين جامعة .

✲✲✲

بلغ عدد المتعلمين في الإمارة الإسلامية بهوبال بالهند ٣٥ بالمائة وهذا ناتج عن تنفيذ برنامج التعليم الإلزامي منذ ست سنين في داخل الإمارة .

✲✲✲

احتفل علماء الهند ببلوغ العالم الكبير الدكتور جوشي الثانية والثمانين من عمره ، والدكتور رئيس الجمعية الأسيوية البنغالية بكلكتة (The Asiatic Society of Bengal) التي أنشئت

✲ اللك يساوي مائة ألف ، والمبلغ المذكور ١٩٧٠٠٠ جنيه مصري تقريباً .

في سنة ١٧٨٤ على غرار الجمعية الأسيوية الملكية بلندن ، وقد قامت في مدة مائة واثنتين وستين سنة بخدمات علمية خطيرة الشأن وطبعت كتباً باللغات المختلفة طبعاً علميـــاً ، فطبعت من الـكتب العربية كتاب سيبويه ، وفتوح الشام للأزدي البصري ، وكتاب المغازي للواقدي ، وتاريخ أصبهان لحمزة الأصبهاني ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ، ونخبة الفكر للعسقلاني ، والإتقان للسيوطي ، ومرهم العلل لليافعي وغيرها من الـكتب القيمة ، ولها مجلة شهرية تصدر منذ قرن ، ومما يستحق الذكر أنه اشترك في هذا الاحتفال علماء أفغانستان ؛ فقد وصل كلكتة وفد منهم برياسة العالم الأفغاني أحمد علي كهزاد صاحب المجلة العلمية الأفغانية « آريانا » فخطب رئيس الوفد في الاحتفال ونوه بخدمات الجمعية ورئيسها العلمية ، وقدم بعض الهدايا إلى مكتبة الجمعية اشتملت على الـكتب الخطية النادرة والعملة التاريخية القديمة . واستمر الاحتفال من ٥ يناير إلى ١٥ يناير .

✡ ✡ ✡

وضع الحاكم العام بالهند أساس كلية جديدة في بمباي أنشأتها جمعية الشعب (People Society).

انجلترا

نظم المعهد المصري بلندن مناقشة حول موضوع « نتائج الطاقة الذرية » بدار المعهد ، وقد مثل الجانب البريطاني في هذه المناقشة : الأستاذ « لو » رئيس معهد المهندسين الفنيين والمستر « أريول » محرر صحيفة « المنبر » الأسبوعية .

ومثل الجانب المصري الأستاذ مصطفى مصطفى مشرفة والدكتور حليم دوس .

وكان يدير المناقشة المستر دونلد ما كولك رئيس حلقات المناقشة في شركة الإذاعة البريطانية وذلك بتوجيه أسئلة إلى كل من المشتركين في المناقشة للاجابة عنها دون إعداد أو تحضير ، على طريقة Brains trust التي تنظمها هيئة الاذاعة البريطانية والهيئات العلمية المختلفة في الجزر البريطانية .

✡ ✡ ✡

انتخب الأستاذ أحمد نجيب هاشم مدير المعهد المصري بلندن وكيلا لرئيس اللجنة الفنية الدائمة لمؤتمر التعليم الدولي . وستعقد هذه اللجنة اجتماعاتها دائماً في باريس . وقد رخصت وزارة المعارف المصرية لمدير المعهد المصري بحضور هذه الاجتماعات في أثناء انعقادها في العاصمة الفرنسية .

✡ ✡ ✡

صدر أخيراً كتاب عن لفنجستون الرحالة المعروف بكشوفه في مجاهل أفريقيا والنيل لمؤرخ يعرفه المشتغلون بالتاريخ في مصر (Livingstone's last journey, by Sir R. Coupland)

✡ ✡ ✡

ظهر أخيراً كتاب يحوي حديثاً عملياً وتوجيهاً نافعاً لمن يودون اتخاذ الصحافة مهنة لهم ، مؤلفه هو الأستاذ الخاص بمادة الصحافة العملية بجامعة لندن وكان من قبل رئيساً لتحرير جريدة نيوز كرونيكل (Journalism, by T. Clarke)

✲✲✲

لا يستطيع عامة الناس أن يحكموا العقل وأن يتجنبوا الهوى والخفة في تقديرهم للأمور العامة والأحداث العالمية . ذلك هو الرأي الذي تقول به مؤلفة كتاب «قلب الدهماء» وتعرض فيه بالنقد للمجتمع الإنجليزي من عدة نواح كنظام الانتخاب مثلا وما فيه من نقص ، وما ترى له من إصلاح . (The Vulgar Heart, by Doris L. Moore)

✲✲✲

من الكتب التي ظهرت أخيراً والتي قد يسارع رجال الأدب والمسرح إلى الاطلاع عليها كتاب : Madame Sarah, by May Agate

وتذكر مؤلفته في مطلعه أنه دراسة لفن التمثيل ، إذ أن مؤلفته قد تتلمذت على الممثلة الخالدة في أواخر حياتها وتمتعت برعايتها ، وهي ترى أنها في سردها لحياة سارة برنرد إنما تدلي بدقائق فن التمثيل وأسراره كما عرفتها ممن علمتها إياه .

✲✲✲

كان السير نيفل هندرسون يعرف أنه لم يبق له من العمر سوى ستة أشهر حين قرر أن يسجل ذكرياته عن أربع وثلاثين سنة قضاها في السلك السياسي ، كان فيها سفيراً ثماني مرات . وبذلك كان كتابه : Water under the Bridges سجلا غير رسمي لخبرته الحافلة في طوكيو والقاهرة وروما وبلغراد وغيرها من البلاد ، وهو إلى جانب ذكرياته السياسية يعرض صوراً مختلفة لدخائل الحياة في تلك العواصم .

أمريكا

قررت جامعة وين في دترويت إنشاء فصل لتدريس اللغة العربية وعهدت إلى الآنسة دلال صفدي — وهي لبنانية الأصل من بلدة مرجعيون — في تدريس هذه اللغة .

✲✲✲

نشرت دار كرستوفر للطباعة والنشر في بسطن رواية باللغة الإنجليزية للأستاذ يوسف أسعد شيبان المحامي من بيت شباب بلبنان سماها « كميل نادر » رمز به إلى شخصية كل مهاجر يركب البحر والعزم والإقدام ويصارع الأحداث للنجاح في الحياة .

✲✲✲

انتقى السيد أمين بدر الشويري مختارات من شعر أبي الطيب المتنبي وترجمها إلى الإنجليزية ونشرها بعنوان : «رباعيات المتنبي» . وقد صدر الرباعيات بمقدمة مستفيضة عن حياة المتنبي وصفه فيها بأنه شكسبير الشعر العربي وعمر خيام سوريا ، كما ذيلها بمختارات من منظومه . وهذه ثاني رباعيات يترجمها أديب لبناني إلى اللغة الإنجليزية . أما الأولى فرباعيات أبي العلاء المعري للمرحوم أمين الريحاني .

✡✡✡

كانت كتب الجيب الرخيصة الطبعات مقصورة على قصص المغامرات والروايات الشعبية الساذجة فتعدتها إلى كثير من روائع الأدب والشعر والتراجم والتاريخ والقصص والمعجمات إلخ ... ولقد بدأ نجاح كتب الجيب في سنة ١٩٤٠ بظهور سلسلة المكتبة الحديثة واستمر مُصْعِداً حتى بيع من هذه السلسلة في سنة ١٩٤٤ خمسة وأربعون مليون نسخة . وفي أثناء الحرب أعدّت طبعات خاصة بالجيش كان قسم النشر يوزعها على البحارة والجنود والمرضى في جميع الأنحاء التي يوجدون فيها فإذا تعذرت المواصلات ألقيت تلك الكتب إليهم بالمظلات .

رُوسْيا

أصدرت ندوة العلوم بلننجراد كتاباً جديداً للمستعرب الروسي أغناطيوس كراتشكفسكي بعنوان : « من خلال دراسة المخطوطات العربية » ، أحيا فيه المؤلف نفراً من المؤرخين والكتاب والرحالة من جميع الأمم ، المعاصرين منهم والقدامى ، وحوى تفصيلات علمية شائقة عن سياحاته إلى سوريا وفلسطين ، وزيارته لمكتبة جامعة القديس يوسف ببيروت وجامعة الأزهر ودار الكتب المصرية ، ومقابلاته لمختلف رجال الفكر والأدب والدين .

والكتاب حافل بمقطوعات تصويرية ، وهو لا يشمل وصف خزائن الكتب والمخطوطات التي تحويها فقط بل يتعداها إلى حياة الأشخاص الذين يفكرون في هذه الكتب وهذه المخطوطات .

✡✡✡

مر بالقاهرة في الشهر الماضي لفيف من الحجاج الروسيين الذين أدوا فريضة الحج بمكة وقد كان لأحد محرري « الكتاب » حديث مع شيخهم السيد عبد الرحمن زين رسولي مفتي مركز الإدارة الدينية لمسلمي داخل روسيا ، يؤخذ منه أن عدد المسلمين الآن في روسيا يروح بين الثلاثين والخمسة والثلاثين مليوناً من الأنفس ، وأن لهم معاهدهم الدينية الخاصة التي تدرس فيها اللغة العربية وعلوم البلاغة والأصول والتفسير والحديث وغيرها ، وفي دار كل مركز إفتاء مكتبة حافلة بالمؤلفات الدينية والعلمية لمن يشاء الاطلاع والتزود من المسلمين . ويبلغ عدد المساجد في الاتحاد السوفييتي ١٣١٢ وهناك ٨٠٥٢ عالماً دينياً و ٢٨٢ شيخاً و ٥٢٨٠ إيشاناً ، أي مريداً .

وقد تآخى السنيون والشيعيون في اللجنة الإسلامية المركزية ، وهم يعدون العدة لعقد مؤتمر عام لهم في موسكو في خلال عام ١٩٤٦ للبحث في شؤونهم واختيار المفتي الأكبر في الاتحاد السوفييتي .

✡✡✡

عالج رهط من المستشرقين الروسيين موضوع : « تشيكوف والآداب الشرقية » لمناسبة الذكرى التي أقيمت في الاتحاد السوفييتي لوفاة هذا الكاتب الروائي الموهوب الذي صور روح وطنه وعبقريته أبدع تصوير .

ولقد نقل أقاصيص تشيكوف إلى العربية كوكبة من الكتاب الذين يلمون بالروسية وآدابها كالأساتذة ميخائيل نعيمة وإبرهيم جابر وأنطون بلان وسليم قبعين ، فضلا عن الكتاب الذين ترجموا أدب تشيكوف وقصصه عن الإنجليزية أو الفرنسية كالمرحوم محمد السباعي وغيره .

✲✲✲

تبلغ المؤلفات التي دبجتها يراعة المرشال ستالين ١٦ مجلداً وسيصدر قريباً من هذه المجموعة ثلاثة مجلدات ، ويطبع منها نصف مليون نسخة .

فرنسا

صدر مرسوم بتعيين الأستاذ فردريك جوليو كوري رئيساً للجنة الطاقة الذرية ، وهو ممن نال جائزة نوبل . وتتألف اللجنة منه ومن إيران جوليو وبيير أوجر وفرنسيس برين ، وهؤلاء الثلاثة من أساتذة كلية العلوم بجامعة باريس . وندبت الحكومة الأستاذ راؤول دوتري ليكون ممثلها في اللجنة.

✲✲✲

نشر المسيو إدوار هريو ، عمدة مدينة ليون ورئيس مجلس الوزراء سابقاً ، كتاباً سماه «حياة بتهوفن» سرد فيه حياة ذلك العبقري وتعمق في دراسة آثاره ، وقد طلب في كتابه من القارىء أن يعرف بتهوفن ويفهمه لكي يزداد له حباً وبه إعجاباً .

✲✲✲

ستصدر قريبا مجلة أسبوعية باسم « مجلة الآداب » ويتولى رياسة تحريرها المسيو ريمون دوماي، وغاية هذه المجلة أن تكون لسان الآداب الفرنسية كما هي الحال في ملحق «التيمس» الأدبي .

✲✲✲

أصدر جماعة من الأسرى والمعتقلين الذين أطلق سراحهم مجلة سموها : « الأحياء » وقد اشترك في تحرير الجزء الأول بعض الكتاب المعروفين ، من مثل دهاميل وبتريس دلاتور وسواهما.

✲✲✲

تستعد كثير من الهيئات الأدبية للاشتراك معاً في الاحتفال بالذكرى الخمسينية للشاعر پول فرلين

✲✲✲

توفي أخيراً الروائي الأمريكي تيودور دويزر ، ومما يؤثر عنه أنه لما طاف بفرنسا وزار منزل بلزاك ، وشاهد السلم الخفية التي كان يلوذ بها هرباً من دائنيه ، والمنضدة المتواضعة التي كان الأديب الفرنسي يكتب عليها روائعه ، طأطأ رأسه خاشعاً وبكى .

✲✲✲

أنشأت الغرفة التجارية بباريس جائزة أدبية قدرها ٥٠٠٠٠ فرنك تمنح في مايو المقبل لأحسن كتاب في التجارة والصناعة .




نقاوة بشرتي
وجودة صحتي
من استعمالي صابون
الروضة
مصنوع من زيت الزيتون النقي
انتاج
مصانع صابون نقولا كحلا بك
الجمالية وغمرة
س.ت ٢٤٨١

الكتاب

مارس ١٩٤٦

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

بمصر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون
تصدر عن دار المعارف بمصر
رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .
-
- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .
- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .
- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :
  ١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان و ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى .
- ترسل المجلة بالبريد العادي إلى المشتركين ولا تكون الإدارة مسؤولة عما قد يفقد منها .

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غرش	بالعراق	١٢٠ فلساً

الكتاب

السنة الأولى — المجلد الأول — ربيع الأول ١٣٦٥
الجزء الخامس — مارس ١٩٤٦

خواطر مجمعيّة

لاحت الطائرة في الأفق البعيد نقطة سفعاء ثم أخذت تقترب ساطعة وهاجة في أشعة الشمس حتى بدت للعيون نسراً مبسوط الجناحين برّاق العينين فحلقت ودوّمت وهبطت إلى اليابسة واستقرت وانشق صدرها عمن فيه من الآدميين كأنها الحوت لفظ ذا النون من جوفه فإذا بعض هؤلاء النازلين منها إلى أرض مصر قوم من الثلاثين الخالدين ركبوا الجوّ إلى حيث ينتظمهم المجمع اللغوي سوق العرب في هذا العصر .

وفي الجانب الآخر من القاهرة أقبل القطار ينساب انسياب المردة ويتقد في جوفه مارج من الجحيم ويقذف يافوخه إلى الفضاء كتلاً من الصبير المكفهر وينبعث من صدره زفير غليظ يعذُب وقعه على آذان المنتظرين المشوقين وما هي أن مدّت له المحطة ذراعيها وضمته إلى صدرها حتى خفت منه اللهاث وقرّ في مربضه ونفر منه السَّفْر كلٌّ إلى مقصده . وكان بين تلك المقاصد منزل لبدوية عرباء تنتظر بعض بنيها العائدين إليها بعد غياب . تلك البدوية هي لغة الكتاب وذلك المنزل هو المجمع اللغوي سوق العرب في هذا العصر .

وفي جوانب أخرى من عاصمة الفاروق نفر من رجالات مصر هم أبناء تلك البدوية الملازمون لها طول العام العاملون عن كثب في حقولها وبساتينها الساهرون سهر النواطير على ثمارها وأزاهيرها . دقّ لهم كبيرهم الناقوس فهبوا أسرع من رجع الصدى يلبون النداء ويتوافدون على دار أمهم لكي يتبادلوا وإخوانهم الرأي والمشورة فيما يصون عزتها ويزيد ثروتها وسرعان ما التأم شملهم في مجمعهم الحبيب سوق العرب في هذا العصر .

كان اليوم الرابع عشر من يناير هو الموعد المضروب هذا العام لاجتماع الأبناء في دارة العرب خفّ الداني والقاصي من العرب والمستعربين إلا من كان مريضاً أو على عذر فحيّا الأخ أخاه ورحب الجار بجاره ثم انتظم الوافدون عقداً حول ذبيانهم الجليل بُجْرَ الحقائب مما نقحوه وهذّبوه أو درسوه وألفوه ووقفوا أنفسهم للعمل الذي يضفر لهم أكاليل الحمد وغار الثناء .

***

إنه مؤتمر يعقد وخطب تلقى وأبحاث تطرح للتمحيص ثم هي قرارات تتخذ وقواعد توضع فيعود إلى بلده من يعود ويبقى في الكنانة من يبقى ولا يعلم بما نفضته الجعاب غير هؤلاء الثلاثين الخالدين أو أقرب المقربين إليهم كأنهم ما جاؤوا ولا رجعوا وكأن المؤتمر ما انعقد ولا ارفض أو كأن المجمع اللغوي في عصر النور والحرية أحد الدياميس التي كان يتلو فيها المسيحيون القدامى صلواتهم مخافة أن ينكل بهم الوثنيون الطغاة من مثل نيرون وأضرابه .

يدعى أعضاء المجمع إلى الاجتماع ويقرأ الناس في الصحف خبر الاجتماع بل يشهدون مفتتحه ويسمعون خطبه ويكبرون عقول رجاله ويعجبون بآيات علمهم وذكائهم ويعنون النفس بالحصول على ثمرات تلك القرائح الخصبة من تليد مهذّب وطريف محبب ولكن لا يكاد ينفضّ النادي حتى يخلو أعضاء المجمع إلى دياميسهم فتغدو تلك الثمار بعيدة القطوف والمجاني تقف الجدران العالية والأبواب الموصدة دون مخطوطات راكدة هائتة في الملفات والأضابير وإن هي مثلت بالطبع في كتاب فلكي تملأ نسخ ذلك الكتاب رفوف المخازن تنزيهاً لها عن أن تتناولها أيدي العوامّ والطغام .

هذه صيحة صاحها من قبل أحد هؤلاء الثلاثين الخالدين على أن تلك الصيحة خنقها شح الورق فلم يسمع لها صدى في زمن أثرى الناس فيه من الورق ولفظت المطابع فيه بعض ما لا يغني غناء أعمال المجمع فكان الحاجز المضروب حواليه مدعاة إلى الضرب في بوادي الأقاويل والظنون وتحميل المجمع أشياء ما خطرت له ببال فلم ينشط أحد من هؤلاء الأبدال* إلى تكذيب قالة أو تصحيح مقالة حتى أشار إلى ذلك عضو من أعضائه يوم افتتاح المؤتمر في هذا العام فنفى عن المجمع ما نسب إليه من وضع لفظ الشاطر والمشطور والكامخ بينهما .

---

* الأبدال : لفظ أطلقه أنطون الجميل بك على أعضاء المجمع مستنداً إلى ما جاء في اللسان من أن الأبدال هم الأولياء والعبّاد ، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر .

لا نخال أمر المجمع إلا من الأمور العظيمة الشأن فقد أنشأه ملك ويهيمن عليه وزير ويرئسه أستاذ جليل وينتظم في سلكه كوكبة من علماء العرب والمستعربين فمن حق الامة على هؤلاء العلماء أن يعبدوا لها الطريق لتسلكه آمنة مطمئنة وإلا نظرت إليهم نظرها إلى شجر الخلاف يورق ولا يثمر .

درجت المجامع على أن تسير إلى غاياتها في بطء ولين فالمجمع الفرنسي مثلاً لم يصدر الطبعة الأولى من معجمه إلا بعد أن مرّت ستون سنة على إنشائه غير أن المجمعين إن اتفقا في الغرض يختلفان في العصر فالعصر الذي نعيش فيه أصبح الركض فيه بطئاً وحيرة الكاتب في التعبير عما يجول في خاطره ووصف ما يقع تحت حسه تزداد يوماً بعد يوم وليس غير المجمع من ينتشله من حيرته ويعينه على أداء رسالته . كان ابن المقفع وهو من هو بلاغة وسلاسة أسلوب يقف القلم في يده فقيل له في ذلك فقال : « تزدحم الأفكار في صدري فيقف القلم لتحيره » ولا نظن ابن المقفع كان يعاني ما يعانيه كتّاب هذا العصر من افتقار إلى الألفاظ والمفردات فما كان عصره عصر البخار والكهرباء والقنبلة الذرية والرادار وما إلى هذه العلوم ومشتقاتها مما لا يقع تحت حصر .

ليست الأعمال التي يضطلع بها المجمع من الأعمال التي ترتجل ارتجالا أو تنفع فيها القولة العارضة والرأي الفطير ولكننا نرجو أن يزودنا المجمع تزويداً متصلاً بأحكامه حتى نضعها موضع التنفيذ فهو صاحب السلطان في هذا وصاحب القول الفصل في مشكلاتنا اللغوية والأدبية وله من انضواء جماعة من علماء الأقطار العربية تحت لوائه ومشاركة نفر من المستعربين ما يُنزل أحكامه منزلة الرضى والقبول عند جمهرة المشتغلين باللغة والأدب . وليس قيام المجمع بمانع جهد الفرد ولا عبرة لجهد الفرد ما لم يقره المجمع وإلا تعدد الجهد وتنوّع وضرب كل فرد في مهمه وفي ذلك من بلبلة الألسنة وتشويش الأفكار ما فيه .

زارني منذ أيام صديق شاعر وامتد بنا نَفَس الكلام إلى مطارحة الشعر فأسمعني من نظمه شيئاً وقفت منه عند البيتين الآتيين في وصف قرط غانية :

قرط من الماس شعّ مؤتلقاً على منير الجبين مزدهرِ
فيا عجيباً لمنظر عجب تعلقت نجمتان بالقمرِ

لاشك أن القارئ عرف أن كلمة « نجمتان » هي سبب الوقوف عند البيت الثاني ولكن صديقي أصرّ على استعمال نجمة بدل نجم مستنداً إلى أن ذوقه الشعري لا يجد

حرجاً في هذا الاستعمال فلو أن كل أديب وكل شاعر لم يتحرج ذوقه في استعمال الألفاظ التي يستعذبها ويرى فيها مدلول فكره ووحيه وإن اختلفت فيها آراء أهل اللغة أو لم يجدها في مظانها فأي رابط يبقى لهذه اللغة التي لا يحيط بها غير نبي ولو أن كل أديب وكل شاعر في كل قطر من أقطار العرب عمد إلى ذوقه وإلى ما وصل إليه علمه واجتهاده في وضع الألفاظ فأي مضطرب واسع يكون لنا في هذه الأرض ذات الطول والعرض . إن للمجمع سلطان الاشتراع في اللغة والأدب فعليه أن يسنّ القوانين وينشرها ليسير الناس في هديها ويحكم النقاد بروحها ولا عذر بعدئذ لمن يجهل القانون فما هي سبل النشر التي يعتمد عليها المجمع في إذاعة قوانينه إنها مجلة لا يظفر بها غير خاصة الخاصة فضلاً عن احتجابها سنوات طوالا .

من المأثور المعروف أن الجماهير كثيراً ما تضع هي نفسها الألفاظ التي تحتاج إليها فتمسحها الأقلام بيد أن الكاتب المتحري مواقع الصواب الجانحة به خلة التحقيق والتدقيق عن طلب الشيء من غير معدنه يعفّ قلمه عن تناول تلك الألفاظ ما لم يقرّ استعمالها مجمع محترم القرار فهل فكر مجمعنا في إصدار حكمه على طائفة من الألفاظ تتوالى على ألسنة الخطباء وتدور على شبوات الأقلام من مثل المناسبة والتطور والمبرر والمحاضرة والقيّم والتقدير والفنّان والسكرتير والفلم والوديان والنجمة والمقص إلى مئات غيرها من الألفاظ التي يتبرأ من استعمالها كثير من الكتّاب تبرّأ أبي الأسود الدؤلي من مثيلاتها حيث يقول :

ولا أقول لقدر القوم قد غليتْ ولا أقول لباب الدار مغلوق

إن المجمع يعنى فيما يعنى به بوضع ألفاظ لمصطلحات العلوم والفنون ونحن في حاجة إلى ذلك وربما كان الأجدى أن يفصل أولا فيما يدور على الأقلام والأفواه من ألفاظ مشكوك في صحتها وأن يضع الألفاظ لمسمّيات تتردد على الأسماع والأنظار في كل يوم وساعة وكم نود لو نشر في الصحف السيارة والمجلات مايقرّه أويضعه من هذه الكلمات لتكون سهلة المأخذ ميسورة المنال بل لتكون ملتقط الأقلام تنزلها في مواضعها من المنثور والمنظوم .

قيل أن أحفياء المجمع يؤثرون في ترجمة المصطلحات طريق الرجوع بكل لفظ إلى أصل عربي وفي هذا من الكلفة والعناء مالا مسوغ له فما كانت أصول اللغة لتلم بما يخترعه عقل الإنسان بعد ألف أو أكثر من السنين ولسنا ندري أي طريق يؤثرون في التعريب أطريق سيبويه وهو النطق باللفظ الأعجمي دون أن يجري على

وزن عربي أم طريق الجوهري والحريري وهو وجوب نقل الكلمة إلى ميزان عربي ويخيل إلينا أن طريق سيبويه إن لم يكن ثمة معدى عنه يجب أن لا يتعدى الاصطلاح العلمي لما فيه من تعدد الحروف والمقاطع في اللفظ الواحد تبعاً للأصول التي يتركب منها ولدلالة كل أصل على معنى معين وقد لايسهل صبّ ذلك الاصطلاح في قالب عربي أما طريق الجوهري فهو ما يحسن الأخذ به احتفاظاً برونق النثر أن تشوبه لوثة العجمة وتيسيراً للناظمين أن يودعوا نظمهم كلمات تستوعبها قوالب بحور الشعر وهذا مايحتم أيضاً وجود المترادفات في اللغة العربية كما لايخفى . ثم إن الألفاظ المعربة الجارية على أوزان وصيغ عربية لا تعدو أن تصبح بعد وضعها ألفاظاً حرة أصيلة مادامت تؤدي المعاني التي تحمل عليها . ومن طريف ما قرأنا في هذا الصدد للأستاذ الشيخ محمد عبد القادر المغربي أحد الثلاثين الخالدين الأماجد قوله : « إذا تنكرنا لتلك الكلمات الدخيلة وأسأنا بها الظن وقلبنا لها ظهر المجن وعملنا على طردها من بين أظهرنا فأخشى أن يدركها الحنق علينا وتعمل على الانتقام منّا فتغري بنات جنسها أعني الكلمات المعربة كلها من قديم وحديث بالاعتصاب العام ويصممن على الجلاء والانسحاب من بين سطور لغتنا وبيوت أشعارنا وبديهي أن كلمة « الله » تكون معهن لأنها سريانية أو عبرانية وما ظنك بفئة الله معها » .

على أن كلمة « الله » ستبقى في لغتنا اسم ربنا ذي الجلال وإننا لنبتهل إليه تعالى أن يؤيد علماءنا الأجلاء بروح من عنده لينهضوا بعبئهم الجسيم الذي سيعاونهم عليه عشرة أعضاء جدد يبلغ بهم عدد الخالدين أربعين والرجاء أن تزداد بالأعضاء الجدد نسبة الشعراء فليس في الثلاثين عضواً غير ثلاثة شعراء في حين أن المجمع الفرنسي وهو قدوة المجامع كان عدد الشعراء فيه ستة عشر شاعراً يوم بلغ عدد أعضائه الأربعين وليس من ينكر على البلاد العربية أنها مهد الشعر ومهبط الإلهام .

* * *

هذه خواطر دارت في خلدنا غداة افتتاح مؤتمر المجمع هذا العام سقناها على سبيل التذكير وما فيها شيء يخفى عن علم أعضاء المجمع وإنما هي في جوهرها أمنية نودّ لو يحققها الزمان .

عادل الغضبان

وطننا العقلي

للأستاذ شفيق جبري بدمشق

أولعت بمراقبة طائفة من الحيوان ، وأكثر ما تكون هذه المراقبة في الصيف ألزم في بعض الأيام مصيفي ، فألهو بفريق من الحيوان الداجن ، مثل القطاط ، فقد يسرّني أن ألقي العداوة بينها ، فأرمي بقطعة لحم أو جبن إلى قطين ، أحدهما قوي والآخر ضعيف ، وأشاهد الوسائل التي يتوسل بها القويّ إلى دفع الضعيف عن القطعة المطروحة ، والذرائع التي يتذرع بها الضعيف إلى اتقاء شرّ القوي . يهجم القط الضعيف على اللحم أو الجبن ليخطفه فيسبقه إليه القط القوي ، ويلجأ في الغلبة عليه إما إلى الصوت وإما إلى الحركة ، فإذا أغناه المعاء الشديد عن الحركة اكتفى به ، وإذا لم يغنه عنها استعان بأظافره أو بالكشر عن أنيابه فيخشى القط الضعيف شره ، ويترك اللحم ويفرّ من وجهه .

وإذا فرغت من دنيا القطاط انصرفت إلى دنيا ثانية من الحيوان ، فأرى بقرة من البقرات يتبعها عجلها ، فتقف له في طريقها ليرضعها قليلاً ، ثم تدفعه عن الرضاع لتلاطفه وتتملق له فتلحس وجهه أو تجأر له جؤاراً خفيفاً ، إلى غير ذلك من الحركات والأصوات ، تريد بهذا كله أن تعرب له عن حبها إياه وعطفها عليه .

هذه أنواع من المشاهدات ، في النوع الأول منها عبّر صوت الحيوان عن الشدة والقساوة ، وفي النوع الثاني عن العطف والحنوّ . لم ترزق الطبيعة ضروب الحيوان ما تظهر به بواطن غرائزها إلاّ هذه الحركات والأصوات ، مثل خوار البقر وثغاء الغنم وبعار المعز وغير ذلك من الأصوات التي فصلتها كتب فقه اللغة ، فهذا كل أدوات فنها ، وقد ترق هذه الأصوات أو تغلظ على قدر المرادات التي تصورها ، وقد يكون في سكون الحيوان في بعض الحالات ما يعبر عن هذه المرادات ، فإذا كنا لا ننظر إلى لغتنا إلاّ من حيث إنها أصوات وألفاظ فلا نبعد كثيراً عن أفق الحيوان ، وربما برّزت علينا الطبيعة

في هذا الباب في بعض أصواتها ، فقد نجد فيها من محاسن الأصوات ما يحمل رجال الموسيقى على تقليدها شغفاً بها . أفلم نسمع ألحاناً يقلد بها أهل الموسيقى هديل الحمام أو حفيف الورق أو ضجيج البحر أو زجل الرعد أو غير ذلك ، إلا أنا لا ننظر إلى لغتنا هذه النظرة وحدها ، فإن الرجل إذا أحب أن يتعلم لغة من اللغات فإنه لا يحب أن يتعلم الأصوات والألفاظ وحدها ، ولكنه يريد أن يطلع على هذا العالم العقلي الذي تشتمل عليه الأصوات والألفاظ ، فاللغة إنما هي وطننا العقلي .

ولقد جاء زمن كنا لا نعنى فيه إلا بظواهر وطننا العقلي . كان همنا في ذلك الزمن الاقتصار على البحث عن طبائع الألفاظ ، فكنا لانهتم إلا بالإعجاز والإيجاز وحسن التأليف وبراعة التركيب والاختصار اللطيف . كنا لا نعنى إلا بحلاوة لفظٍ أو رونق طلاوةٍ أو سهولة كلام أو جزالته أو عذوبته أو سلامته وأمثال هذا كله . أما اليوم فقد أخذنا ننظر إلى وطننا العقلي من حقائق وجوهه ، فلا تهمنا ظواهر هذا الوطن وحدها وإنما تهمنا بواطنه بسبب الآفاق المديدة التي تضمّنها هذه البواطن : آفاق الفكر والشعور والحس والذوق وغيرها ، فلانعنى في شعر البحتري بمجرد ألفاظه العذبة ، وإنما نعنى بالعالم الذي خلفه لنا ، وهو عالم الطبيعة ، فقد جعل لنا في ربيع هذا العالم أو صيفه أو خريفه أوشتائه مجالاً واسعاً تسرح فيه العين وتنعم فيه الأذن وينبسط فيه الأنف ، ولانهتم في آثار الجاحظ بمجرد اللغة التي وقف على مجاري أصولها ومصارفها وتبحّر في جلائلها ودقائقها ، وإنما نهتم بالحياة التي صورها لنا وبالحلاوة التي أذاقنا إياها في هذه الحياة . فأيُّ نوع من الحياة وصف لنا الجاحظ ؟ إنه وصف لنا الحياة التي تكره كل باطل من الأباطيل وكل قيد من القيود ، في مجامع نواحيها : في العلم والفلسفة والدين والأدب وأمثالها . هذا هو الوطن العقلي الذي أورثنا إيّاه الجاحظ ، وقد تدرس آثار جزء من وطننا المادي ويبقى بعدها وطننا العقلي ، فقد ذهبت طائفة من قصور بني العباس في العراق ، ذهب الجعفري وبركته ، ولكن حيطان الزجاج وتفويف الرخام والذهب الصقيل الذي لبستة سقوف تلك القصور ، وجنّ سليمان الذين أبدعوا بركة الجعفري وأدقوا في معانيها ، وماءها الذي يشبه الفضة البيضاء والشمس التي تضاحكها والغيث الذي يباكيها والرياض التي تحيط بها كأنها ريش الطواويس ، كل هذا خالد في وطننا العقلي ، وقد يعرض لهذا الوطن العقلي مايعرض عادة للأوطان المادية التي تؤثر فيها السيول والزلازل وجبال النار فتجعلها أثراً بعد عين ، فقد يعتق بعض عناصر الوطن العقلي فلا يبقى فيه روح ، أو يذهب بعضها فلا يبقى له أثر ، أو يحوّل بعضها عن مواضع إلى مواضع ،

ولكن هذا الوطن قد تعود إليه الحياة على الرغم من كل العوارض ، إلاّ أن هذه الحياة لا تعود إليه إلا بفضل الأدب وحده . فاللغة الأدبية هي التي تستطيع أن تنفخ الروح في وطننا العقلي. ولقد جلست من أيام مجلساً حضره شيخ من شيوخ عرب الشام ، أخذ هذا الشيخ يصف لنا لهجات بعض قبائل البدو ، وكان البحث عن لفظ الجيم ، فشرع يلفظ حرف الجيم كما تلفظه قبيلة عنزة ، ولم يخل لفظه إياه من نفحة حلوة تذهب بالقلب كل مذهب ، وأحبّ أن يضرب لنا مثلاً للفظ الجيم ، فقال ، يقول البدوي لرفيقه : صفنت فرسك يارجل ! فلم أهتم بمخرج الجيم في « رجل » وأنا أسمع هذه العبارة على قدر اهتمامي بالعبارة كلها ، فبفضل هذه اللغة الأدبية استطعت أن أفهم كلام بدوي عريق في بداوته ، والمعنى الذي أراده هذا البدوي من : صفن ، هو المعنى نفسه الذي ذكرته كتب اللغة . فالمسافة المترامية الأطراف التي تفصل بدوياً من عنزة عن رجل من دمشق قد انطوت بفضل هذا الوطن العقلي يشترك فيه البدوي الفصيح والحضري الأديب ، ولكن هذه المسافة لم تنطو إلاّ بفضل اللغة الأدبية الواحدة التي تنعش وطننا العقلي ، فيشترك في فهم روحه أهل البدو والحضر على تباعد ما بينهما من الذوق والفكر ونحو ذلك.

فكما استطاع هذا الوطن العقلي أن ينشىء لنا صلة بالماضي فقد استطاع أن يقوي صلتنا بالحاضر ، وما هذه الاتفاقات الاقتصادية أو المعاهدات السياسية التي تجري في جامعة الدول العربية بشيء بالقياس إلى هذه الصلة التي يقويها الوطن العقلي بين بلاد العرب كلها ، فقد تبطل الاتفاقات وتلغى المعاهدات ، ولكن الصلة الروحية بين بلاد العرب لا يمكن أن تبطل أو تلغى ، بنعمة هذا الوطن العقلي الذي تشترك فيه هذه البلاد ، فهو الذي يقرب من مسافات بلاد العرب البعيدة ، ويؤلف بين عقول أهلها المتفاوتة ، وأرواحهم المتباينة ، وأذواقهم المختلفة ، وهو يفعل هذا الفعل أكثر من أي اتفاق اقتصادي كان أو معاهدة سياسية كانت .

لم تعد لغتنا جملة أصوات وألفاظ ، فقد أصبحت هذه اللغة وطناً عقلياً لنا تجتمع فيه عبقرية الماضي والحاضر ، وتتآلف فيه أفكار العرب وأفراحهم وأعمالهم وآلامهم وآمالهم . وفي أيام مثل هذه الأيام تبحث فيها بلاد العرب عن توثيق الأواصر بينها وعن ألفتها ووحدة كلمتها فلا تجد هذه البلاد في نواحي الاقتصاد أو السياسة أو غيرهما ما يعين على هذا التوثيق وهذه الألفة والوحدة مثل الذي تجده في تعهّد وطن عقليّ يجمع لحمنا ودمنا وروحنا .

شفيق جبري

الصحافة والأدب

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني

كانت معرفة أخبار العرب مقرونة فيما مضى بحفظ الأشعار ، وإن لم يكن للفظ « الأخبار » هذا المعنى الحديث الذي صار لها وغلب عليها ، فقد كان أقرب إلى معنى التاريخ وأشبه به ، وكان الشعر نفسه يعد ديواناً لأخبار العرب، وسجلاً لأيامهم ووقائعهم، وقد اقترن الأدب بالصحافة في زماننا هذا اقتراناً يظهر أنه لا حيلة فيه ولا مهرب منه .

وقد يسأل القارىء : هل في هذا الاقتران ضير ؟ والجواب الذي أستطيع أن أدلي به هو أني أرجح أن لا ضير من ذلك . وأقول « أرجح » لأني أراني أزداد على الأيام زهداً في الجزم ، ونفوراً من البتّ ، وتردداً بين النفي والإثبات ، وإيثاراً للتريث لعل وجهاً أو جانباً آخر للأمر يتبدى ، فأعرف ما كان غائباً عني ، وما عسى أن يكون للإلمام به أثر في الرأي الذي أذهب إليه ، حتى صرت أتقلب بين الرأي وخلافه مرات قبل أن أستقر ، ولست أحس بعد طول التردد بالاطمئنان إلى الصواب ، وما أظن إلا أن هذا التردد قد أورثنيه ما وقعت فيه من الخطأ ، وما ركبني مراراً من الجهل ، وما كثر تورطي فيه بالتسرع وقلة الأناة .

وأوثر قبل الجواب المفصل أن أصف للقارىء ما كان من أمري بين الأدب والصحافة ، وأحسب أن هذا الوصف يصلح أن يكون بياناً كافياً ، فقد كنت أديباً قبل أن أكون صحفياً ، وكنت في ذلك الصدر من حياتي معلماً أيضاً ، ولكني كنت أشعر أن التعليم لا يلتقي بالأدب في ملتقى واحد ، أو يعين عليه، أو ييسّر أمره ، وكنت أرى أن الوقت الذي أنفقه في التعليم ، كان الأدب أولى به ، أو هو مقتطع من حق الأدب ، وكنت أحس أن التعليم لا يصلني بالحياة الصلة اللازمة لفهمها ، وكان تلاميذي لا هم من الأطفال فأدرس فيهم هذا الطور الحيوي من حياة الإنسان، ولا هم رجال كبار ناضجون، وإنما هم بين بين ، فكأني معهم في برزخ ، ولهذا كان أدبي نظرياً بحتاً ، أو قل إنه الأدب الذي يعتمد على الكتب ، ولا يستمدّ من الحياة إلا قليلاً ، لأن صاحبه لا يعانيها معاناة وافية ، وكنت أقول الشعر أيضاً في ذلك الزمان ، وأرى الآن أن ما قلت لم يكن

سوى توليد من القديم كنت أحسبه جديداً أو تجديداً ، لأنه لم يكن مظهراً لاستجابة النفس لما يهيب بها من الحياة إذ تواقعها ، وكنت متكلفاً في أسلوب الشعر والنثر جميعاً ، لأني أعيش بين الكتب ولا أكاد أعرف سواها إلا ظناً على الأكثر. ولهذا كان أدبي في ذلك العهد دراسات في الأغلب، قوامها القراءة وحدها تقريباً ، وشعراً لا يصوّر النفس على حقيقتها ولا يعبّر عنها تعبيراً صحيحاً ، لأن الاقتباس فيه بالقديم — من شرقي وغربي — أكثر من الاستمداد من التجريب. وكنت بطيئاً في الكتابة والنظم ، معنيًا بالتجويد كما كنت أفهمه، وكنت مع عنايتي بالمعنى لا أرضى إلا عما ترضى عنه أذني حين أعرضه عليها.

ثم كان ما صرفني عن التعليم وألحقني بالصحافة ، فكابدت في أول الأمر شدة عظيمة، لأني اعتدت الكتابة على مهل ، وألفت ما كنت أتكلفه من الجزالة والفخامة، ولا يكاد ذلك يتسنى في الكتابة للصحف لأنها في عجلة ، وهي تأبى أن تتمهل أو تمهل، وآلاتها تدور في أوقاتها بلا تقديم ولا تأخير، فكنت أكتب في البيت لأكون في فسحة من أمري ، ولأتقي عواقب هذه العجلة الشيطانية ، وتأثيرها السيء — فيما كنت أرى — في أسلوبي الفخم . وعلى ذكر الأسلوب أقول إن الظن الشائع هو أني كنت متأثراً في البداية بالجاحظ ، وهذا صحيح ، ولكن أصح منه فيما أعلم أني كنت مفتوناً بأسلوب الجرجاني — عبد القاهر — صاحب « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » . على أن هذا شيء قد مضى ، وعهد قد انقضى ولله الحمد .

ووجدت على الأيام أن الكتابة في البيت لا تتفق ومطالب العمل الصحفي ، وأن ما أتكلفه من التجويد ، وأعنى بتخيره من الألفاظ ، يجعل ما أكتب نابياً قلقاً في مُوضعه وسط هذا الخضم الزاخر ، ولم أكن راضياً عن الأسلوب الذي تكتب به الصحف ، ولكن عدم الرضى عن لغة الصحافة لا يستوجب أن أذهب إلى الطرف الآخر ، وفي الإمكان التوسط ، وتبينت على الأيام أن لغتي القديمة فاترة أو خامدة . وأني كأني قطعة متخلفة من زمان مضى ، وأن الحياة الجديدة لها لغتها ، وأن اتصالي بحياة الناس بفضل الصحافة ، قد فجر في نفسي ينابيع جديدة ، وأكسب أسلوبي نبضاناً ليس من الوجع بل من الحيوية ، وأفدت مرونة كانت تنقصني أنا وتنقص لغتي وأسلوبي ، وأصبحت قادراً بفضل الصحافة أن أكتب في أي وقت وفي أي موضوع ، وفي خلوة أو بين الناس ، وأن أحصر ذهني فيما أنا فيه ، فلا تشتت خواطري الضجات التي تكون حولي .

وأقول بإيجاز : إني كنت كالراهب أيام كان التعليم عملي ، فلما زاولت الصحافة خرجت

من العزلة القديمة — عزلة الفكر والنفس — ونزلت إلى الحلبة ، أو خضت العباب ، فكأني انتقلت من عالم إلى عالم ، أو هبطت من كوكب إلى كوكب ، في هذا الفلك الدوار .

وقد لا أرضى عما أخرج في هذا العهد الثاني ، ولكن ما أخرجه هو ، على كل حال ، وسواء أأرضاني أم لم يرضني ، ثمرة التجربة للحياة ، ومشاركة الناس فيها ، أما في العهد الأول فقد كان ما أخرج هو ثمرة القراءة والتحصيل مع تعذر التجربة الشخصية .

فأول ما يفيده الأديب من الصحافة هو اتصاله بالحياة — حياة الجماعة وحياة الفرد ، وفهم هذه الحياة على قدر ما يتيسر له ذلك بحسب استعداده وما رزق من المواهب والملكات .

وتفيده الصحافة أيضا أن أسلوبه يصبح حياً ، وتقول لي تجربتي إني كنت قبل العمل في الصحافة أشبه بمومياء محنطة ، فلما دخلت في الصحافة أحسست بالدماء تجري في عروق هذه المومياء ، وأنها أصبحت قادرة على موامقة الحياة في أكثر من موضع واحد ، وأنها صارت تنظر وتحس وتفكر وتنطق كما ينطق الأحياء ، ولا تكتفي بأن تتبدى للناظرين إليها — كما كانت تفعل إذ هي مومياء — وتوحي إليهم أو لا توحي شيئاً

وتفيده كذلك مرونة في الأسلوب — أسلوب الكتابة وأسلوب التناول — فهي مدرسة نافعة ، أو قل لازمة للأديب ، وإن كانت مشغلة شديدة ، على أن ما تأخذه من وقت الأديب ليس شر ما فيها ، وإنما شره أنها قد تغريه بأمرين على الخصوص : السطحية ، أو بعبارة أخرى اجتناب الغوص والتعمق والاكتفاء بأول وأسهل ما يرد على الخاطر ابتغاء التخفيف عن القارئ واتقاء الإثقال عليه ، ومن هنا يخشى أن يعتاد الأديب الكسل العقلي . والأمر الثاني : أن الصحافة قد تدفع الأديب إلي توخي مرضاة القارىء العادي فيحرص على ذلك حرصاً قد يفسد عليه أدبه ، ويضيع مزيته ، ويفقده قيمته .

وقد كنت وأنا معلم — أدرس الترجمة — أخشى على نفسي أن أهبط إلى مستوى التلاميذ ، وأن أتعود التسامح والتسهل ، فأعالج ذلك بالعكوف على قراءة الأدب القديم ، وعسى أن يكون هذا هو الذي يرجع إليه أني كنت أتكلف الجزالة والفخامة في صدر حياتي ، ولكن لا بد من علاج لأثر الصحافة السيء في أدب الأديب ، فلا مفرّ له من دوام الاطلاع على الآثار الخالدة ، ليعتدل الميزان ويستقيم الأمر ، ويتقي السطحية من ناحية ، ومصانعة القارىء من ناحية أخرى .

ابرهيم عبد القادر المازني

مأساة ملوكية شرقية غربية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

١

هذه مأساة ملوكية شهيرة وقعت حوادثها في الشرق والغرب ، وكان بطلها مسلم عبست له الأقدار فأقصي عن عرش آبائه وأرض وطنه ، وتقلب في القصور الأوربية في محنة الأسر ، حتى مات شهيد دسائس العصر وأهوائه السياسية .

ذلك هو الأمير جَم أو ززم كما تسميه الرواية الأوربية ، ولد السلطان محمد الثاني فاتح قسطنطينية وواضع الصرح الأول لمجد آل عثمان في أوربا .

كان فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية عاصمة بيزنطية القديمة أعظم حوادث القرن الخامس عشر . وكان تحقيقاً لأعظم أمنية يجيش بها الشرق الإسلامي منذ قيام الدولة الأموية. وكانت قسطنطينية هي المعقل المنيع الذي يحول دون اقتحام الغزاة المسلمين لأمم أوربا النصرانية ، ومن ثم كانت مطمح أنظارهم منذ اشتد ساعد الإمبراطورية الإسلامية الأولى. وكان حصار العرب لقسطنطينية غير مرة في أوائل القرن الثامن الميلادي ذروة هذا الصراع بين الشرق والغرب ، ومذ أخفق العرب تحت أسوار قسطنطينية لبثت عاصمة الدولة الشرقية عصوراً طويلة سدًّا منيعاً يحول دون تدفق الغزو الإسلامي إلى أوربا ، حتى ظفر الغزاة الترك بافتتاحها على يد السلطان محمد الفاتح في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ ، وبذلك انتهت حياة الدولة الرومانية الشرقية بعد أن عاشت نحو ألف عام ، وانساب تيار الغزو الإسلامي إلى أمم أوربا الغربية بسرعة ، حتى بلغ خلال ثمانين عاماً فقط أسوار العاصمة النمسوية .

ولما توفي محمد الفاتح في الثالث من مايو سنة ١٤٨١ (٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ .) كانت الإمبراطورية العثمانية الشامخة قد ترامت حدودها من فارس شرقاً إلى سهول المجر والبحر الإدرياتى غرباً ، وغدت دولة أوربية عتيدة ، وغدت قسطنطينية عاصمة الدولة الرومانيه الشرقية القديمة أعظم العواصم الإسلامية ، وبدأ الصراع بين الشرق والغرب مرحلة جديدة من أعنف مراحله وأروعها .

وتوفي الفاتح في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم ثلاثين عاماً . وكانت

وفاته وهو في وسط جيشه يتأهب لغزوة جديدة ، فرأى كبير الوزراء (الصدر الأعظم) محمد نيشاني أن يخفيَ نبأ موته حتى يأتيَ خلفه ، وحمل جثمان السلطان الراحل إلى العاصمة فى عربة مقفلة يحيط بها الحرس وكأنه ذاهب إلى الاستحمام للاستشفاء كعادته . وكان للسلطان ولدان أحدهما بايزيد وهو الأكبر، وكان حاكماً لولاية أماسية ، والثاني جم وهو الأصغر ، وكان حاكما لبلاد القرمان (قرمانيا) . فبعث الصدر الأعظم إلى الأمير بايزيد رسالة سرية يخطره بالنبأ ويدعوه إلى العاصمة على عجل ، ولكنه أراد في الوقت نفسه أن يهيىء للأمير جم — وكان يحبه ويؤثره — سبيل الجلوس على العرش ، فأرسل إليه رسالة سرية أخرى ، وأغلق أبواب العاصمة وعزلها عن الجيش وأخرج من كان بها من الجند . ولكن نبأ وفاة السلطان ما لبث أن عرف بالرغم من كتمانه ، فثار الإنكشارية ، كعادتهم فى بداية كل حكم جديد ، واستولوا على بعض السفن ونفذوا إلى العاصمة من ناحية إسكودار ، ونهبوا منازل اليهود والأغنياء ، وقتلوا الصدر الأعظم محمد نيشاني ، وكادت الثورة تجتاح العاصمة كلها .

حدث ذلك كله في يوم واحد ، ولكن إسحق باشا الصدر الأعظم الجديد استطاع أن يقمع الفتنة في مهدها ، وأن يرد النظام بسرعة ، ثم رأى في الوقت نفسه — تهدئة للخواطر — أن يعين كركود ولد بايزيد الطفل نائباً للسلطنة حتى يحضر السلطان الجديد إلى العاصمة ، وكان هذا الأمير الطفل معتقلاً فى القصر مع ابن عمه الأمير أجوزخان ولد جم ، وهو أيضاً طفل لم يجاوز الثالثة ، وكان السلطان يعتقل حفيديه رهينة بحسن طاعة ولديه ، وهو تقليد قديم في البلاط العثماني .

وسار الرسولان اللذان قصدا إلى الأناضول لإخطار الأميرين بوفاة والدهما السلطان ، ولكن أحدهما ، وهو الذي أرسل إلى جم ، ما كاد يبدأ السير حتى قبض عليه وأعدم بأمر سنان باشا حاكم الأناضول ، وكان صهر الأمير بايزيد متزوجاً بأخته . وأما الرسول الثاني فوصل إلى أماسية بعد أيام قلائل وأدى رسالته . وفي الحال غادر الأمير بايزيد أماسية إلى العاصمة فى أربعة آلاف فارس ودخلها لتسعة أيام فقط من وفاة أبيه ، وغصت مياه البسفور بالسفن التي تحمل وفود العظماء الذين احتشدوا لتحيته ، وسار السلطان الجديد إلى القصر الملكي وهو يرتدي السواد وعلى رأسه عمامة سوداء . وفي الحال هرع إليه زعماء الإنكشارية يكررون مطالبهم التقليدية بمضاعفة الجرايات ، شأنهم في بداية كل حكم جديد ، فوافق على مطالبهم دون مناقشة ، وفي اليوم التالي (٢١) مايو احتفل بدفن السلطان الراحل ودفن في تربته التي أنشئت بجوار مسجده ،

وعلى أثر ذلك جاءت البطانة السلطانية كلها لتقدم التهنئة إلى السلطان الجديد بايزيد الثاني .

٢

كان بايزيد الثاني حينما تولى الملك فتى في الرابعة والثلاثين من عمره ، وكان مولده سنة ١٤٤٧ م . أما أخوه الأصغر الأمير جم فقد ولد سنة ١٤٥٩ م . وكان يومئذ في الثانية والعشرين من عمره ، وكان هذا الأمير الفتى ولد أم سربية نصرانية ، وكان يتمتع منذ حداثته بخلال بديعة ، ويبشر بآمال طيبة ، وكان شغوفاً بالألعاب الرياضية يمارسها بحماسة ورشاقة ، وقد برع بالأخص في المصارعة حتى اشتهر بأنه أبرع مصارع في عصره ، وكان يهوى الشعر ولا سيما الغزل ، وينظم قصائد رقيقة مؤثرة ، فكانت هذه الصفات كلها تقربه إلى نفوس الشعب وتستثير حبه وإعجابه .

وعين جم مذ كان صبياً في العاشرة حاكما لولاية قسطموني ، ولما توفي شقيقه الأكبر مصطفى حاكم بلاد القرمان عين مكانه في حكمها . وكان يومئذ في الثامنة عشرة من عمره ، وكانت بلاد القرمان قد أخضعت حديثاً ولم تستقر بها الأمور بعد ، فكان على جم أن يعمل على توطيد أسباب السكينة والنظام ، يقوم بمهمته بذكاء وبراعة ، ويكتسب قلوب الأهلين برقته وظرفه ، بيد أنه كان في الوقت نفسه يمعن في لهوه وملاذه، ويعكف في معظم الأحيان على حياة الفجور الصاخب ، وكان يحيط نفسه في قصره في قرمانيا بطائفة من الفتيان المرد ، وكانت هذه الحياة الناعمة الصاخبة مما يذكي خياله فيقضي أوقاتاً طويلة فى قرض الشعر ، وكان في بلاطه بعض الشعراء الموهوبين مثل حيدر وزيره وسعدي الدفتردار مما جعل قصره منتدى أدبياً زاهراً .

وكان هذا الأمير الشاعر بالرغم من جنوحه إلى الخيال والمجون يجيش بآمال بعيدة ، وكانت تخالجه أمنية خفية عظيمة ، هي أن يجلس على عرش أبيه الفاتح ، وكان يعرف أن دون ذلك أهوالا ، وأن عليه أن يخوض مع أخيه الأكبر بايزيد صراع الحياة والموت . ومع ذلك فما كاد يقف على موت أبيه ومقتل الصدر الأعظم حتى اعتزم أمره ، وجمع في الحال أنصاره وجنده ، وزحف على بورصة عاصمة المملكة القديمة ، وبادر السلطان بايزيد فأرسل نحو ألفي جندي بقيادة إياس باشا لملاقاة جم وإنقاذ بورصة ، وأخذ في حشد الجند للتأهب لمقاتلة أخيه وإحباط محاولته .

وسار إياس باشا صوب بورصة ، وكان يقود عسكر جم قائده كدوك نصوح ، فسار بجنده حتى قبر بايزيد الشهيد (إيلدرم) بجوار بورصة . وحاول كل من الفريقين

استمالة سكان المدينة ودخولها بطريقة سلمية فرفض السكان عروض الفريقين ، ولكنهم عمدوا في الوقت نفسه إلى مساعدة عسكر جم وإمداده سراً . ثم نشبت بين الفريقين تحت أسوار بورصة معركة هزم فيها جند السلطان (الإنكشارية) وأسر قائدهم إياس باشا، وجاء جم فدخل المدينة وأعلن نفسه سلطان العثمانيين ، وأمر بسك النقود باسمه والدعاء له .

ولكن هذا الملك العابر لم يدم سوى أيام قلائل ، ذلك أن السلطان بايزيد كان يسير بجيشه سراعاً إلى بورصة . فلما شعر باقترابه أرسل إليه إياس باشا سفيراً ليقترح عليه عقد الصلح على أن يستقل بايزيد بسلطنة الولايات الأوربية ، ويستقل جم بسلطنة الولايات الأسيوية أو المملكة القديمة ، وأيدت السلطانة سليجوك خاتون خالة محمد الثاني وجدة الأخوين لدى السلطان بايزيد هذا المسعى ، ولكن بايزيد رفض كل عرض ولم يتأثر بأي رجاء أو ضراعة ، وقال : إنه لا قربى بين الملوك . ثم تابع زحفه إلى بورصة وأرسل في الوقت نفسه إلى يعقوب كبير أمناء جم يعرض عليه منصب حاكم الأناضول ، ويغريه بالوعود والعطايا السنية إذا هو استطاع أن يحمل جم على البقاء لقتاله في سهل «يني شهر» ، فأثمر هذا المسعى ثمرته ونجحت خطة يعقوب في حمل جم على تقسيم جيشه إلى قسمين : أحدهما يقوده نصوح كدوك والثاني يقوده يعقوب نفسه ، وسار نصوح كدوك إلى سهل يني شهر وسارت في أثره طلائع الجند السلطانية بقيادة سنان باشا . وفي اليوم التالي وصل بايزيد نفسه على رأس جيشه وكان معه أحمد باشا فاتح أترانتو « تارنت » فثارت حماسة الجند ، ولعب الحاجب يعقوب دوره فسار بجنده نحو المعسكر السلطاني متظاهراً بالهجوم ، وسلم مع جنده إلى السلطان ، وسرى الخلل إلى من بقي في جيش جم من القرمان والتركمان ، وهجره معظمهم . وانتهت موقعة يني شهر بهزيمة جم وسحق جيشه . وكان ذلك في ٢٦ ربيع الآخر سنة ٨٨٦هـ. (٥ يونية سنة ١٤٨١ م.) .

وبادر جم إلى الفرار وقد فقد معظم أمواله ومتاعه في المعركة ، ونهب التركمان ما بقي منها حتى اضطر الأمير إلى اقتراض معطف بعض خاصته ليقيه برد الليل ، وجدّ في السير طول الليل حتى وصل في صباح الغد جريحاً منهوك القوى إلى مدينة إسكي شهر . وبعد أن استراح هنالك ثلاثة أيام غادرها مع أمه وحريمه وخاصته صوب الجنوب، ولحق به أثناء سيره بعض الفارين من جنده ؛ ولما وصل إلى طرسوس استقبله حاكمها المصري بترحاب وحفاوة . ولم يكن خافياً أن الأمير الفار كان يقصد إلى الشام ومصر .

٣

وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي ، ولم تكن علائق

مصر يومئذ مع جارتها القوية في الشمال على ما يرام من المودة والصفاء . ذلك أن مصر كانت تشهد تقدم الفتوحات العثمانية بجزع وتتوجس منها أيما توجس ، وكان البلاط المصري — بالرغم من اضطراب الشؤون الداخلية وتخاذل قوى المملكة وضعف مواردها — يرقب هذا الخطر الجديد بمنتهى اليقظة ، وكان من الطبيعي أن تشجع مصر كل حدث يؤدّي إلى اضطراب الأمور في مملكة آل عثمان ، ومن ثم فإنه لما أرسل الأتابكي أزبك حاكم حلب إلى الملك الأشرف ينبئه بما وقع بين السلطان بايزيد وأخيه ، وبأن الأمير جم قد وصل مع حاشيته إلى الأراضي المصرية ملتجئاً إلى حماية السلطان ، رحّب الملك الأشرف بمقدم الأمير الفارّ، وأرسل إلى الأتابكي أزبك الأذن بحضوره إلى القاهرة في قليل من جنده . وتسمي الرواية المصرية المعاصرة الأمير العثماني « الجام » أو « الجمجمة » وتتبع أخباره منذ مقدمه إلى مصر ، واستقبل جم في حلب ثم في دمشق بالتكريم والحفاوة ، ونزل في دمشق في القصر الأبلق مع خاصته وحاشيته ، وكانوا زهاء ثلاثمائة ، وأقام هناك شهراً ونصف شهر مستريحاً مستجماً ، ثم سار إلى بيت المقدس في طريقه إلى العاصمة المصرية .

وفي أثناء ذلك كان البلاط المصري يتأهب للقاء الأمير العثماني وصحبه ، وغادر جم وحاشيته بيت المقدس إلى مصر بطريق حبرون وغزة، ووصل إلى بلبيس في أوائل شهر شعبان سنة ٨٨٦ هـ. (سبتمبر ١٤٨١م.) وهنالك استقبله من قبل السلطان وفد على رأسه الصاحب خشقدم واحتفل بمقدمه احتفالا كبيراً ومدّت له ولحاشيته في بلبيس والخانكاه أسمطة فاخرة، واستقبله عند المرج لفيف كبير من الأمراء والمقدمين والنواب والحجاب ، وسار إلى القاهرة في موكب حافل حتى وصل إلى القصر السلطاني بالقلعة ، وهنالك استقبله الملك الأشرف في الساحة الكبرى . ويقول لنا ابن إياس مؤرخ العصر : إن السلطان حينما مَثلَ جم بين يديه اكتفى بالتحرك ولم ينهض للسلام عليه . فأخذ هذا التصرف على السلطان واعتبر نقيصة منه . ولكن فون همّر مؤرخ الدولة العثمانية يقول لنا بالاستناد إلى المصادر العثمانية : إن الملك الأشرف استقبل جم كولده وعانقه وصافحه بحرارة وأغدق عليه عطفه ومواساته ، وأقطعه أحد قصورة ليعيش فيه * . ولما انتهت مراسم الاستقبال « خلع السلطان على جم (الجام) كاملية بسمور حافلة ، وأركبه فرساً خاصاً من مراكبه بسرج مذهب وكنبوش مزركش ونزل من القلعة في موكب

---

* Von Hammer : Geschichte des Osmanischen Reiches تاريخ الدولة العثمانية ج ٣ الكتاب التاسع عشر .

حافل وقدامه الأمراء ورؤوس النواب وكان له يوم مشهود* » .

وأنزل الأميرجم ووالدته وحريمه وخاصته في ضيافة السلطان في دار ابن جلود بفم الخور ، وكان مقدمه إلى العاصمة المصرية حادثاً سياسياً واجتماعياً ذا شأن ، ولبث مدة إقامته بالقاهرة مطمع الأنظار وموضع اهتمام الأمراء والأكابر يدعى إلى الحفلات العامة والخاصة ، ويتسابق رجال الدولة إلى إكرامه والحفاوة به . ويصف لنا ابن إياس بعض الحفلات التي شهدها ، ومن ذلك حفلة باذخة أقامها كاتب السر ابن مزهر ببركة الرطلي بمناسبة ختان أولاده ، ودعي جم إلى شهودها ، وكانت من أعظم حفلات العصر في البذخ والبهاء ، سطعت خلالها الوقدات العظيمة والأنوار الساطعة ، واحتشدت لشهودها آلاف النظارة في السفن التي غصت بها البركة ، واشترك في إحيائها أشهر المغنين والقيان ، وأمر السلطان أن لا يدخر في سبيل بهائها وروعتها شيء تكريماً للأمير العثماني . وأقام السلطان نفسه بعد ذلك مأدبة حافلة للأمير جم وصحبه بقبة الأمير يشبك بالمطرية حضرها الأمراء والمقدمون ، وتجلى فيها بذخ السلطان وكرمه ، وفي نهايتها خلع السلطان على الأمير جم كاملية بسمور . ولما حل عيد الفطر خرج السلطان في موكبه للصلاة ومعه الأمير جم وقد ارتدى ثياباً ملوكية (الشاش والقماش) وبعد انتهاء الصلاة خلع عليه السلطان للمرة الثالثة حلة

الأمير جم

* ابن إياس . ج ٢ س ٢٠٧ والظاهر أن المؤرخ كان من شهود هذا الحفل .

ملوكية فخمة ، وعاد مع الأمير والمقدمين في موكبه الحافل[١] .

وانتهز جم فرصة مقامه بمصر ليؤدي فريضة الحج . وفي الثامن والعشرين من شوال سنة ٨٨٦ ﻫ (فبراير سنة ١٤٨٢ م) خرج ركب الحاجّ من القاهرة في حلل زاهية ، وعلى رأسه أمير الحاج يشبك بن حيدر والي القاهرة ومعه الأمير جم ووالدته وحرمه وبطانته ، وقد هيّأ له السلطان بركاً فخماً وأعد لراحته كل ما يجب . وأدى جم وصحبه الفريضة وعاد مع ركب الحاجّ إلى القاهرة في أوائل المحرم سنة ٨٨٧ ﻫ ، فاستقبله السلطان بحفاوة وأنعم عليه بأشياء كثيرة ، وهنأه الأعيان والأكابر .

ولبث جم في القاهرة بضعة أسابيع أخرى ، وكان في أثناء إقامته بمصر تتنازعه عوامل كثيرة ، ولم يصرفه المقام الرغد ولا الحفاوة البالغة عن التفكير في مشاريعه السياسية وفي مستقبله الغامض ، وكان يتلقى من آن لآخر رسائل من بعض الزعماء الناقمين على بايزيد يستحثونه على العودة واستئناف النضال لاستخلاص العرش، ويؤكدون له أن الفرصة قد سنحت للعمل ، وكان في مقدمة هؤلاء الزعماء قاسم بك أمير بلاد القرمان السابق الذي انتزع منه محمد الفاتح بلاده ، وكان هذا الأمير الباسل ما زال يدبر الخطط لاسترداد بلاده وتحريرها ، ورأى جم أن يستجيب أخيراً إلى هذا النداء ، وعرض الأمر على الملك الأشرف ، فجمع السلطان الأمراء واستشارهم في ذلك ، وكان الرأي الغالب أن المشروع لا يبشر بخير ، لقلة أنصار جم وضعف موارده ، ولكن جم أصر على رأيه ، واضطر السلطان في النهاية أن يوافق على سفره[٢] ، فغادر القاهرة في نفر من صحبه ، وترك أمه وحرمه وسار إلى الشام فوصل إلى حلب في ١٧ ربيع الأول (٦ مايو) وهنالك اجتمع ببعض الزعماء الناقمين يدبر معهم خطط العمل .

٤

حاول السلطان بايزيد الثاني بعد موقعة يني شهر أن يقبض على أخيه ، فسار في أثره حتى قونية ، ثم تابع القائد أحمد باشا مطاردته حيناً دون أن يظفر له بأثر، فعاد إلى العاصمة وهكذا أخفق بايزيد في أسر أخيه في يني شهر والقضاء نهائياً على مقاومته .

وفي أوائل يونية سنة١٤٨٢م. ظهرجم في الأراضي التركية مرة أخرى، ولما وصل إلى كليكية لقيه قاسم بك زعيم القرمان في جماعة من أنصاره وأقسم له أن يعاونه على استرداد عرشه على أن يردّ إليه أراضيه . واجتمع حول جم كثير من أنصاره السابقين ،

---

(١) ابن إياس ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢١٠ . (٢) ابن إياس ج ٢ ص ٢١٢ .

ووقف السلطان بايزيد على تلك الأنباء فسار على رأس قواته إلى الأناضول ، وبدأ جم وقاسم بك بحصار قونية فردهما عنها حاكمها علي باشا ، فاتجه جم عندئذ صوب أنقرة ، ولكنه علم في أثناء مسيره أن السلطان بايزيد يقترب منه بجيش ضخم . وهنا دبّ الذعر إلى جنده وتفرقوا سراعاً ، فلم ير الأمير المنكود أمامه سوى الفرار ، ففر إلى شعب الجبال ومن ورائه جند السلطان تطارده ، ولما وقف السلطان على ما صار إليه أخوه أرسل إليه رسول ثقة يعرض عليه الأمان والصلح ويطلب إليه أن يرسل سفراء إليه ، فبعث إليه جم حاجبه سنان بك ودفترداره محمد بك ، فعهد إليهما السلطان بالرسالة الآتية إلى أخيه :

« إن العروس وهي السلطنة لا يمكن أن يشترك في خطبتها اثنان خصمان ، وأنه يرجوه أن لا يلوث بعد حوافر جواده وثوبه بدم المسلمين الأبرياء ، وأن يعيش في بيت المقدس في سلام من ريع أملاكه الخاصة » .

فرفض جم هذا العرض بإباء ، وفي الحال سارت في أثره كوكبة من الفرسان تطارده في شعب كليكية . وهنا استشار جم صديقه قاسم بك فيما يجب عمله بعد أن غاض كل أمل ، فأشار عليه قاسم بك بأنه من العبث أن يلتجىء إلى فارس أو مصر ، وأنه يحسن به أن يفرّ إلى أوربا على نحو ما فعل الأمير موسى ولد بايزيد الأول من قبل ، فنزل جم عند هذا الرأي واعتزم أن يلتجىء إلى فرسان رودس .

وكان فرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية — وهم إحدى فرق الفرسان الدينية التي اشتهرت في الحروب الصليبية — قد غزوا رودس واستولوا عليها من يد حكامها المسلمين منذ سنة ١٣٠٩ م وكان كبيرهم يومئذ «الأستاذ الأعظم» بييردوبوسون ، فبعث إليه جم غلامه سليمان ، وهو إفرنجي الأصل ، مع بعض الهدايا والتحف يرجوه الضيافة والمعاونة في سفره إلى أوربا . فلما وقف الفرسان على رسالة الأمير العثماني اجتمعوا وتشاوروا وقرروا إجابة الأمير إلى رغبته واعتبارها مما يتفق وكرامة الهيئة وسياستها ، وكان جم قد وصل في أثناء ذلك مع ثلاثين من صحبه إلى ميناء كوريكوس ونزل في مركب صغير ينتظر ردّ الفرسان .

وفي اليوم التالي وهو يوم ٢٠ يولية سنة ١٤٨٢ م . ظهر قارب في عرض البحر يحمل سليمان ومعه جواز الأستاذ الأعظم ، وفي أثره عدة سفن أرسلت لنقل الأمير وحاشيته . فنزل جم في السفينة التي خصصت لركوبه وتبعته حاشيته ، ورست السفن بعد ثلاثة أيام على ساحل رودس ، وهنالك استقبل الأمير بحفاوة وأعد لجوازه إلى البر جسر غطي بالقماش المزركش وسار يحف به الفرسان من الجانبين في طريق فرشت بالبسط

وزينت بالأزهار والأغصان ، وظهرت الغيد في الشرفات في حلل بهية ، واكتظ النظارة على الجانبين ، وتقدم الركب فرقة موسيقية تعزف وتغني ، تتبعها جماعة من الفتية والأشراف في ثياب من الحرير، ثم الأمير وعلى يساره الأستاذ الأعظم دوبوسون ، ولما وصل الركب إلى الميدان الكبير حيا الأستاذ الأعظم ضيفه تحية شرقية ، وسار معه وهو يحادثه بواسطة ترجمانه حتى القصر الذي خصص لنزوله .

وأنفق جم أيامه الأولى في الصيد وألعاب الفروسية وسماع الموسيقى .

ولم تمض أيام قلائل حتى وصلت إلى رودس سفارة من الصدر الأعظم أحمد باشا وفيها يقترح على الفرسان إرسال سفير للتفاهم على عقد السلام الدائم ، وفي الحال أدرك الأستاذ الأعظم وزملاؤه أهمية هذه الدعوة بالنسبة للهيئة وما تقتضيه واجبات الضيافة نحو الأمير الفار ، وما سوف يطلب إليهم بلا ريب من تسليمه إلى السلطان ، وأنه إذا لبث في رودس فسوف يبقى عرضة للاغتيال بالسم أو الخنجر ، ومن ثم قرر الفرسان نقل الأمير من رودس إلى إحدى قلاعهم بفرنسا حيث يكون في مأمن تام ، على أن الأستاذ الأعظم أراد التحوط للمستقبل ، فعقد مع جم معاهدة يتعهد فيها إذا عاد إلى العرش أن يفتح ثغور المملكة كلها للفرسان ، وأن يفرج في كل سنة عن ثلاثمائة من الأسرى النصارى دون فدية ، وأن يدفع للفرسان مائة وخمسين ألف دوقة * لتغطية النفقات التي أنفقت من أجله .

وفي آخر أغسطس سنة ١٤٨٢م أبحر جم مع حاشيته وعدة أخرى من الترك الذين أنقذوا من الأسر على ظهر سفينة يقودها الشفاليه دي بلنشفور ابن أخي الأستاذ الأعظم ، وفي هذا اليوم نفسه سارت بعثة أوفدها الفرسان إلى بلاط السلطان بايزيد الثاني ، وبعد أخذ ورد عقدت بين الفريقين معاهدة سلم دائم في البر والبحر ، وعاد السفراء إلى رودس مثقلين بالهدايا والتحف ومعهم مبعوث تركي أوفده السلطان إلى الأستاذ الأعظم . وبعد مفاوضة قصيرة عُقد بين الأستاذ الأعظم والسلطان اتفاق سري خلاصته أن يستمر الفرسان في اعتقال الأمير جم وأن يؤدي السلطان لهم نفقة اعتقاله وقدرها خمسة وأربعون ألف دوقة تدفع في شهر أغسطس من كل عام .

(للحديث بقية) **محمد عبد الله عنان**

---

* الدوقة Ducas هي عملة ذهبية قديمة ضربت في البندقية في أواخر القرن الثالث عشر ، وشاع استعمالها في جميع أمم أوربا مدى عصور ، وكانت يومئذ تساوي ما يعادل اليوم ٩ شلنات إنجليزية وثلث شلن ذهباً .

عجائب "الرادار" في الحرب ومنافعه في السلم

للأستاذ فؤاد صروف

١

إذا استثنينا القنبلة الذرية وليدة إطلاق الطاقة الذرية ، فربما كان « الرادار » أعجب المخترعات التي أسفرت عنها الحرب ، وإحدى الوسائل العلمية المقدمة التي لوت غصن النصر بين أيدي الأمم المتحدة . والرادار يختلف عن القنبلة الذرية في أنه اليوم أدنى إلى الانتفاع به زمن السلم في تيسير الرحلة في الجو والبحر وتأمينها . فالانتفاع به في السفن خليق أن يمنع كارثة كمثل كارثة السفينة « تيتانك » في سنة ١٩١٢ يوم صدمت جبلا من الجمد فغرقت بالسواد من ركابها . والانتفاع به في الطائرات والمطارات خليق أيضاً أن يمنع حادثة كمثل الحادثة التي ذهب فيها الدوق كنت ، يوم اصطدمت طائرته بجبل تغشاه الضباب . ذلك بأن الرادار يري ويحذر ، فهو يمد بصر الناس فيجنبهم أخطاراً وكوارث هم غافلون عنها .

٢

أما مآثره في الحرب العالمية الثانية ، فلا تكاد تحصى . ففي معركة بريطانيا المشهورة ، كان المعوان الأول لتلك الفئة القليلة من طياري المطاردات البريطانية ، التي حطمت سلاح الطيران الألماني المهاجم وردت بقيته على أعقابها . فقد كانت محطات الرادار التي أقيمت على سواحل بريطانيا الشرقية والجنوبية ، تتبين القاذفات الألمانية المغيرة ، وهي لم تزل بعيدة ، فتنبئ بذلك مطارات المطاردات البريطانية ، من طراز « هاريكين » و « سبيتفاير » فتحلق لتوها في الفضاء ، وتترصد القاذفات المقبلة ، ثم تنقض عليها . ولولا عيون الرادار ، أو لولا أمواج الرادار لاستطاعت القاذفات أن تغير على أهدافها ، وأن تلقي قنابلها ، ثم تسرع في العودة ، قبل أن يتسنى للمطاردات أن ترتفع من الأرض إلى أطباق الجو ، لتتخذ فيها مكاناً يمكنها من الانقضاض على القاذفات . ولو كسب الألمان يومئذ معركة بريطانيا هذه ، لتغير سير الحرب ، ولكان خليقاً أن يتغير سير التاريخ .

القنبلة الذرية

تيتانك

وفي معركة المحيط الأطلسي ، التي ظلت دائرة الرحى ، منذ أول يوم في سبتمبر سنة ١٩٣٩ إلى الأيام الأولى من شهر مايو سنة ١٩٤٥ ، كانت أجهزة الرادار ، وسيلة البريطانيين ، ثم وسيلة البريطانيين والأمريكيين والأمم المتحدة جميعاً ، في غلبة الغواصات الألمانية على أمرها . وقد شهد ذلك هتلر فقال : إن هزيمة غواصاتنا أمر عابر ، وهي ترجع إلى اختراع واحد تم لأعدائنا . وقال الأميرال دونتز : إن أعداءنا قد جردوا غواصاتنا من صفتها الجوهرية ، صفة المباغتة ، بوساطة الرادار . فقد كانت طائرات الحلفاء التي تحرس مياه المحيط ، مجهزة بهذه الأجهزة . وكان في وسع رجالها ، أن يتبينوا غواصة على سطح البحر ، تبعد عنهم ثلاثين ميلا. وكانت الغواصات لا ترتفع إلى سطح الماء ، إلا في سواد الليل على الأكثر ، لكي تعبئ بطارياتها ، ومع ذلك كانت أجهزة الرادار تتبينها ولاتخطىء ، وإذا كانت الغواصة على سطح البحر وكان الضباب يحجبها تبينها الرادار أيضاً . وتدل سجلات الحرب ، على أن مئة غواصة دمرت في شهري مايو ويونية من سنة ١٩٤٣ ، والفضل في تدمير ثلثها يعود إلى طائرات مزودة بأجهزة الرادار .

وعمل هذه الأجهزة لم يقتصر على تبين الجسم ، سواء أغواصة في البحر كان الجسم أم طائرة في الفضاء ، بل هي تعين المسافة والسرعة والاتجاه ، ففي عملها سمة من السحر القديم .

ويوم أضيفت أجهزة الرادار إلى المدافع المضادة للطائرات ، صارت هذه المدافع أسدّ رماية ، فكان المدفع يتتبع سير الطائرة في الفضاء ، بفضل جهاز خاص ، ثم يطلق قذيفته من تلقاء نفسه ، حين تصبح الطائرة في نطاق مرماه السديد . وقد أنجزت هذه المدافع أعظم مهامها حين عهد إليها في إسقاط القنابل الطائرة ، التي أخذ الألمان يقذفونها على بريطانيا ، بعد غزو نرمندي ، فكانت أجهزة الرادار تتبين هذه القنابل ، وتسدد المدافع إليها ، فأسقطت عشرات ومئات منها ، وفي يوم واحد من أيام أغسطس ١٩٤٥ أطلق الألمان مئة قنبلة وخمس قنابل منها ، فلم يعبر بحر المانش منها سوى ثلاث ، والبقية فجرتها فوق البحر قذائف من مدافع مضادة مجهزة بالرادار . ولولا ذلك لكانت معركة بريطانيا الثانية ، خليقة بأن تعرقل أعمال تموين الجيوش الحليفة في فرنسا .

ولم تكتف قيادات الحلفاء باستعمال الرادار للدفاع ، بل انتفعت به في الهجوم أيضاً . وبخاصة في الهجوم الجوي .

ففي معركة الأردن ، يوم هجم فون رنشتد (١٦ ديسمبر ١٩٤٤) على خطوط

الحلفاء الخفيفة ، واقتحم حدودالبلجيك عسى أن يصل إلى نهر الموز ، فيشق جبهة الحلفاء وينطلق إلى أنفرس ، ظل الجو ملبداً بالغيم الكثيف ، أياماً متوالية ، وكانت نجدة الطائرات الحليفة للجيوش الحليفة أمراً لاغنى عنه ، لصد هجوم الألمان ، حتى تتاح فرصة للقيادة الحليفة أن تتخذ مايلزم لمواجهة الحال ، فاستعان الطيارون الحلفاء بأجهزة الرادار على تسديد نيرانهم إلى قوات فون رونشتد برغم أطباق الغيم الملبدة ، فكسروا من حدة الهجوم ، وخففوا من سرعة اندفاعه ، فلما انقشع الغيم والضباب يوم ٢٥ ديسمبر ، ضربت طائرات الحلفاء ضربتها القاضية ، فكان هجوم فون رونشتد هذا آخر هجوم استطاع الألمان أن يشنوه في الغرب .

وكذلك كانت الحال في الهجوم الجوي على أهداف الصناعة والحرب ، في الليل والنهار الملبد بالغيم جميعاً ، وقد كانت أجهزة الرادار قليلة في مبدإ الأمر ، لشدة الحاجة إليها ، في شتى مطالب الحرب ، فلم يكن في الوسع تزويد كل قاذفة بريطانية وأمريكية بها . فاستنبطت قيادة القاذفات البريطانية وسيلة للانتفاع بالرادار في الهجوم الليلي ، مع قلة الأجهزة المتاحة منه . ذلك بأنهم كانوا يزودون به طائرة واحدة ، يقودها نفر من أبرع الطيارين وأكثرهم مرانة وتجربة ، فتتقدم السرب العظيم ، وتتبين الهدف المطلوب مهما يتغشه من غيم أو ضباب ومهما ينكره الألمان ويبالغوا في إخفائه ، فتلقى عليه القنابل إلقاء سديداً ، فتشعل النار ، فتهتدي طائرات السرب اللاحق بهديها .

ولعل أروع حادثين حدثا في أثناء الحرب ، كانا ماحدث في برل هربر ، يوم هجم عليها اليابانيون (٧ ديسمبر ١٩٤١) ، وما حدث في دييب . يوم أغار عليها الفدائيون (أغسطس ١٩٤٢) . أما في برل هَرْبر ، فقد كان أحد الجند يلهو بجهاز الرادار فتبين به دنو طائرات ، قبل أن تنقض الطائرات اليابانيــة بثلاثة أرباع الساعة . وكانت حين تبينها على بعد ١٣٥ ميلا ، فأنبأ ضابطه بذلك فهزىء به وأبى أن يعنى بتحذيره .

وقد دل البحث أن ذلك الجندي حاول مراراً بعد ذلك أن ينذر رؤساءه ، بغير جدوى . وبعد أن انقضى ربع ساعة منذ رُدَّ خائباً ، عاد إلى ضابطه يقول : « ولكنني ياسيدي عددت خمسين طائرة على بعد تسعين ميلا ، وليس لنا قوة جوية في تلك الجهة يبلغ عدد طائراتها هذا المبلغ » فكان تعنيفه هذه المرة أشد منه أولا . ومع ذلك عرض نفسه بعد ربع ساعة آخر ، لتهمة التمرد وللعقاب ، فقد اشتدت في جهازه الإشارات مبينة دنو الطائرات ، فعاد إلى إنذار رؤسائه ، وبعد دقائق كانت قنابل اليابانيين تنهمر على السفن في المرسى ، والمطارات والمنشآت الحربية على الساحل ، فكانت كارثة برل هربر !

هاربر

وأما الحادثة الثانية فكانت في دييب . وكان أحد الأغراض التي توخاها الحلفاء يومئذ من غارة الفدائيين عليها ، أن يفحصوا الأجهزة التي صنعها الألمان من مثيل جهاز الرادار ، ولذلك ذهب أستاذ عظيم مع كتيبة من الفدائيين ، وكان هذا الأستاذ من أبرع العلماء طراً في أصول تعيين المواقع بأشعة الراديو ، وإليه يرجع الفضل في جانب كبير مما تم للبريطانيين في هذا الفن العجيب . وكان الذين دبروا أمر هذا الغارة يخشون أن يقع هذا الأستاذ أسيراً في أيدي الألمان ، وما كان يسع الحلفاء يومئذ ، أن يسمحوا لمثل هذا العبقري في معرفة أجهزة الراديو الخاصة باستكشاف الطائرات ، أن يأسره الأعداء . فعهد إلى أربعة من الجند الأشداء في أن يمضوا معه ، وأن يفتحوا عيونهم وبنادقهم أيضاً ، وحسبه دقائق لفحص المحطة الألمانية ، فإذا استقوى الألمان عليهم فينبغي لهم أن يطلقوا النار على الأستاذ ، حتى لا يؤخذ حياً .

٣

إن المبدأ العلمي الذي يقوم عليه جهاز الرادار غاية في البساطة . والجهاز ليس سوى محطة لاسلكية ترسل أمواجاً قصيرة ، موجهة في شعاعة ضيقة ، فإذا أصابت الأمواج جسماً ما ، ارتدت عنه إلى الجهاز المستقبل . وهذه الأمواج تسير بسرعة الضوء ، أي ١٨٦٠٠٠ ألف ميل في الثانية ، فسيرها من الجهاز المرسل إلى الجسم الذي تصيبه وترتد عنه ، ثم عودتها إلى الجهاز المستقبل لايستغرقان سوى جزء يسير من الثانية ، ولكن هذا الجزء اليسير من الثانية يمكن قياسه قياساً دقيقاً ، فتعرف مسافة الجسم ، وإذا كان متحركا عرف اتجاهه وسرعته .

وقد كشف هذا المبدأ أولا في سنة ١٩٢٢ ، يوم كان العلماء يدرسون خصائص أمواج الراديو ، وانتقالها في الفضاء ، وطبائع تلك الطبقات المكهربة في الجو التي تعكس أمواج الراديو ، فتجعل انتقالها حول كرة الأرض أمراً ممكناً . فلاحظ فريق منهم أن التقاط الأمواج اللاسلكية من محطة بعينها اضطرب حين اعترض طريق الأمواج جسم متحرك ، فأقيمت محطة مستقبلة على ضفة نهر ، ودرس تأثير السفن المتحركة في النهر ، في التقاط الأمواج ، وأقيم جهاز لاسلكي مستقبل في سيارة نقل كبيرة ، فتبين أن التقاط الأمواج يضطرب حين تمر السيارة أمام مبان كبيرة .

وكان الرأي يومئذ أنه لابدّ للجسم من أن يعترض مسير الأمواج بين الجهاز المرسل والجهاز المستقبل ، فعلموا أن في هذا حداً لمنافع هذه الحقيقة الجديدة في إرسال الأمواج والتقاطها . ولكن ثبت سنة ١٩٢٥ أن سطح جسم قد يعكس الأمواج

اللاسلكية القصيرة فيردها إلى مصدرها، كما تعكس المرآة أمواج الضوء . فأقيم من ثم ، الجهازان المرسل والمستقبل في موقع واحد . أما المرسل فيطلق أمواجاً في الفضاء ، فإذا انعكست عن سطح جسم ما ، التقط المستقبل الأشعة المنعكسة .

وفي سنة ١٩٣٠ تمكن المهندسون من التقاط الأمواج المنعكسة عن سطوح طائرات مارة فوق رؤوسهم ، فلم تكد تحل سنة ١٩٣٤ حتى استنبطوا وسيلة لقياس المسافة بين الجهاز المرسل والجسم الذي تنعكس الأمواج عن سطحه .

ويعود الفضل في استنباط هذا الجهاز — كما يعود الفضل في معظم المخترعات العظيمة — إلى عشرات من الباحثين ، تراهم يعملون ، كل منهم على حدة ، وبغير أن يدري على الأرجح ، ما يفعله غيره . وقد ظل بحث تعيين المسافات بالأمواج اللاسلكية قائماً على هذا النمط من الاستقلال ، حتى نشبت الحرب ، فتعاون العلماء الإنجليز والأمريكيون على إتقان الجهاز .

وقد يشقّ الآن — وتاريخ الرادار لم يكتب بعد كتابة علمية مفصلة — أن نعين السنة التي استعمل فيها مبدؤه على وجه نافع . ولكن قرأنا فى الصفحة العلمية لجريدة نيويرك تيمس ، أن أجهزة الرادار استعملت سنة ١٩٣٣ في منطقة قناة بناما لاستكشاف البوارق (الغيوم المثقلة بالماء والتي تعقب رعداً وبرقاً ومطراً غزيراً) . وفي السنوات التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية ، اشتدت الحاجة إلى مقياس يقاس به ارتفاع الطائرات عن سطح الأرض ، سواء أكان السطح سهلا مستوياً أم أكاماً ، فصنع لذلك مقياس للارتفاع أساسه مبدأ الرادار .

ولكنّ الرادار لم يستعمل استعمالا واسع النطاق إلا بعد نشوب الحرب ، حين أقام الإنجليز محطات على ساحلهم تتبين الطائرات الألمانية المغيرة ، ثم ثبت نفعها ثبوتاً لا يرتقي إليه الريب فى معركة بريطانيا على الوجه الذي تقدم ذكره . ولما انقلب الألمان من الإغارة في النهار على بريطانيا إلى الإغارة في الليل ، ركبت أجهزة الرادار في المطاردات الليلية البريطانية ، فكسرت شوكة الهجوم الألماني . وكان الظن الغالب يومها أن عيون الطيارين كانت كعيون القطط ، تتبين الأجسام في الظلام ، ولكنها كانت عيون الرادار على الغالب ، لاعيون الطيارين .

وكلمة «رادار» مركبة من الحروف الأولى في عبارة Radio Detection and Ranging ومعناها : تبين الأجسام وقياس بعدها بأمواج الراديو .

٤

صنع الرادار أولا ، ثم لم يكن بد من صنع أجهزة تقاوم الرادار . فقد صنعه الألمان واليابانيون كما صنعه الإنجليز والأمريكيون . وكما انتفع به الإنجليز والأمريكيون في معركة بريطانيا ومعركة المحيط الأطلسي ، يوم كان زمام دفة الحرب في أيدي الألمان ، فردوا بعض عادية الألمان . كذلك عمد إليه الألمان ، يوم انقلب الميزان ، وبدأ الإنجليز والأمريكيون يغيرون على ألمانيا والبلاد الأوربية الواقعة في قبضتها ، ليردوا عادية القاذفات الضخمة التي تغير عليهم في الليل أو في النهار . فوضعوا أجهزة الرادار في مدافع قنابلهم المضادة للطائرات ، فصارت أحكم رماية وأفتك ، وأقاموا محطات الرادار على السواحل الأوربية ، وفي المناطق التي تلي الساحل ، لتتبين الأسراب المقبلة ، وزوّدوا مطارداتهم الليلية بأجهزته فزاد ما يسقطه من القاذفات في الليل زيادة كبيرة . فصار لزاماً على الإنجليز والأمريكيين ، أن يبتكروا أساليب للحدّ من أثر الرادار الألماني ، حتى يستطيعوا أن ينتفعوا بتفوقهم الجوي ، أقصى انتفاع .

وقد فعلوا ذلك بطريقتين أو ثلاث طرق . أما الأولى فرقائق الألمنيوم فهذه الرقائق تعكس أمواج الراديو ، المنبعثة من أجهزة الرادار عكساً قوياً ، فإذا ألقيت من الطائرات التي تتقدم سرباً كبيراً ، أحدثت تشويشاً عظيما في أجهزة الرادار المستقبلة وقد تمحو من لوحاتها ، ما يرتسم عليها من صور واضحة للطائرات المقبلة . ويوم استعملت الطائرات الحليفة هذه الطريقة أولا ، في سنة ١٩٤٣ ، وقع اضطراب في الدفاع الألماني ، وخفضت قدرة المدافع الألمانية المضادة للطائرات ٧٥ في المئة . وقد ألقى الحلفاء على أوربا منذ سنة ١٩٤٣ إلى قبيل نهاية الحرب ، رقائق من الألمنيوم مجموع وزنها عشرون مليون رطل ، أما عدد الرقائق فلك أن تقدّره ، إذا علمت أن ستة آلاف منها لا تزن أكثر من نصف رطل . وكانت الرقيقة التي آثروها بعد التجربة ، قدّةً طويلة ضيّقة طولها بضع بوصات ، وعرضها جزء قليل من البوصة .

وأما الطريقة الثانية ، فهي الوسيلة المعروفة في الإذاعة التي تحدث لغطاً في الجهاز المستقبل ، حين يلتقط إذاعتين مختلفتين مرسلتين على موجة واحدة . فقد زُوّدت بعض الطائرات الحليفة المغيرة ، بأجهزة ترسل أمواجاً طولها كطول الأمواج التي ترسلها أجهزة الرادار الألمانية ، فإذا ما ارتدّت أمواج الأجهزة الألمانية عن الطائرات المقبلة ، ارتدت مضطربة مشوشة . ولكي يتم ذلك ، لم يكن ثمة بد في مبدإ الأمر ، من استنباط كشاف كهربيّ يلتقط أمواج الرادار الألمانية ، ويحدد طولها ، وقد فعلوا ذلك ، وأضافوا

إليه الوسائل التي تبين موقع الجهاز المرسل أيضاً ، فتمَّ لهم بذلك معرفة مواقع أجهزة الرادار الألمانية ، وطول أمواجها أيضاً ، حتى صارت هذه الوسيلة عظيمة النفع في كشف مواقع الرادار . وقد انتفع الأمريكيون في أواخر الحرب بهذا الكشف ، فصاروا يعرفون مواقع أجهزة الرادار التي تحاول أن تتبين مواقعهم ، قبل أن تتبينها ، فيهاجمونها ويدمرونها .

وأما الثالثة فقد أطلق عليها اسم « ثوبا » ، ذلك بأن المطاردات الليلية الألمانية ، أصابت نجاحاً كبيراً في سنة ١٩٤٢ في إسقاط عدد وافر من القاذفات البريطانية . وكانت المطاردات الألمانية مزوّدة بأجهزة الرادار كما زودت بها المطاردات الليلية البريطانية في المرحلة الثانية من معركة بريطانيا . ولم يغن في مدافعة المطاردات الألمانية أن القاذفات البريطانية مزودة هي أيضاً بأجهزة الرادار التي تبين لها مواقع المطاردات، أو بالأجهزة التي تحدث لغطاً في أجهزتها، فإطلاق الأمواج من القاذفات يهدي المطاردات إلى مواقعها، وهي تطير أسراباً ، وسرعتها أقل من سرعة المطاردات ، وقدرتها على التفلت والدفاع أضعف ، فلا مفرَّ لها من أن تلتزم الصمت ، ولا غنى لها أيضاً عن وسيلة جديدة تحدث اضطراباً في أجهزة الرادار المركبة في المطاردات الألمانية . فحل الإنجليز المشكلة بأن أنشؤوا محطة كبيرة قوية ، في إنجلترا، همها الوحيد أن ترسل أمواجاً تستطيع أن تحدث على مسافة بعيدة لغطاً عظيماً في أجهزة الرادار المركبة في المطاردات الألمانية . وقد صنع لهذه المحطة أنبوب خاص في أمريكا يدعى « رسناترون » يستطيع أن يطلق أمواجاً من ذبذبات مختلفة ، مطابقة لذبذبة الأمواج المتباينة التي تطلقها أجهزة الرادار الألمانية .

٥

وماذا عن المستقبل ؟ إذا أضيف إلى « الرادار » نظام « لوران » صارت الرحلة في الجو والبحر وعلى سطح اليابسة مأمونة . وهذا في رأيي أهم منافعه في زمن السلم . ونظام « لوران » عبارة عن محطات كثيرة ، أقيمت في مواقع متفرقة على سطح الأرض ، ترسل إشاراتها اللاسلكية إرسالاً منتظماً ، فيستطيع ملاّح الطائرة أو ملاّح السفينة ، أن يستعين بها على تعيين موقعه تعييناً دقيقاً . ولوران ليس الرادار ، ولكنه يستعمل أمواج الراديو . فإذا قارن الملاح بين إشارة الراديو الملتقطة من محطتي لوران تفصلهما مسافة ٤٠٠ ميل ، عرف موقعه في البحر أو الجو معرفة دقيقة . وقد صنعت جداول وخرائط ، تيسر له ذلك على أهون سبيل .

فالاستعانة بالرادار ولوران ، تعين ملاّح الطائرة على أن يتجنّب الاصطدام بطائرة أخرى أو بجبل ، وترشدهُ في الظلام أو في جوّ ملبد بالغيم والضباب ، أو على اجتناب المناطق التي تثور فيها العواصف، فيمر عند حواشيها ، وتعين ملاّح السفينة أيضاً على أن يتجنب جبال الجمد ، والاصطدام بسفن أخرى في الظلام أو في الجوّ المطبق ، وتعين جميع الملاّحين على معرفة مواقعهم ، إذا ضلوا أو طرأ على طائراتهم أو سفنهم ما يجعل طلب الغوث أمراً لا مفرّ منه . وقد اقترح بعضهم أن تركب أجهزة الرادار في مقدمة قطارات السكة الحديدية ومؤخرتها فتقيها شرور الاصطدام . أما هل يبلغ جهاز الرادار من الإتقان مبلغاً يمكن سائق القطار من أن يتبين به في الظلام جسراً جرفته السيول كما يتبين بقرة واقفة على الخط أمامه ، فمسألة لا نعرف لها جواباً الآن .

قد نقلت إلينا الصحف منذ أيام ، أن بعض العلماء توسلوا بالرادار إلى الاتصال بالقمر والشمس ، أي أنهم أطلقوا أمواجهم في الفضاء فارتدت إليهم من القمر والشمس كما ترتد من طائرة أو جبل . ولكننا لم نطلع بعد على وصف علميّ لما تم . فيحسن أن ننتظر . وليس ما روي مستحيلا لذاته ، ولكن دونه عقبات ليست باليسيرة ، منها هذه الطبقات المكهربة التي في الفضاء على أبعاد متفاوتة من سطح الأرض . فإذا صح ما روي وإذا تمكن العلماء من المضيء فيه ، فقد تصبح هذه التجربة وسيلة جديدة لبحث أسرار القمر والشمس ، وتضاف إلى المنظار والمطياف وغيرهما من الآلات التي تعين العلماء على زيارة الكون والنفوذ إلى أسراره .

فؤاد صروف

صور من جنوب السّودان

للأستاذ محمود نجيب أبو الليل

قرأت كثيراً عن السودان في الكتب والأبحاث وأسفار الرّحالة ، ومذكرات الكاشفين ، وعلقت بذهني عنه وعن سكانه صورة كانت قريبة من الخيال ، لا تمت للواقع بصلة ، حتى زرت السودان أخيراً في الشهر الماضي ، فوجدت غير ما قرأت ، ورأيت أكثر مما سمعت ، رأيت ما هو أشبه بالخيال حقاً ، و إن شئت دقة التعبير فقل : إن ما رأيته كان أكثر مما يدركه خيال الحالم ، ويصوره إدراك السذج الذين يعتقدون في صدق الخرافات وأساطير الأولين .

ولن أتحدث إلى القراء في مقالي هذا عما يسمى شمال السودان وعمن يقطنونه ، فليس الحديث عنه وعن أهله إلا حديثاً معاداً ، ووصفاً مكرراً لبعض نواحي الحياة المصرية والقرى والمدن المصرية . فأينما سرت وأينما حللت لا تجد إلا لغة واحدة هي اللغة العربية ، ولا تجد أي فارق بسيط بينها و بين لغتنا التي نتفاهم بها فيما بيننا في القاهرة والوجه البحري ، بل هم في لغتهم أقرب إلينا من سكان مديريات سوهاج وقنا وأسوان ، ويربطنا وإياهم دين واحد ، يقيمون شعائره ويتمسكون بقواعده أكثر مما تتمسك بها نحن ، وهم حريصون على أداء فروضه ، يعاونهم في ذلك بعدهم عن بهرجة الحياة وزينتها ، وسلامتهم من تيار المدنية الحديثة المتطرفة التي تغلغلت في أوساطنا .

وهم فوق ذلك يشربون من ماء النيل ، فجرت في عروقهم عادات وتقاليد تقارب عاداتنا وتقاليدنا . وأكثر سكان شمال السودان من العرب المستوطنين أو المصريين من أولاد الذين اشتركوا في حروب السودان ، فأقاموا حيث نزل آباؤهم وتزوجوا وتناسلوا وتكاثر عددهم ، فنهجوا في حياتهم النهج الذي نسلكه ، وربطتنا جميعاً وحدات الدين واللغة والدم ، فجعلت منا إخواناً متعاطفين متحابين . وقد استقبلنا أهالي السودان الشمالي استقبالا عاطفياً ، دل على ما يكنونه للمصريين من حفظ لصلات القربى .

ولأترك الآن شمال السودان حتى أعود إلى الحديث عنه في مقال آخر . وأقصر الكلام على جنوب السودان ، حيث وجدت دنيا أخرى غير دنيانا ، وحياة أخرى غير حياتنا .

الاقلاع من جبل الأولياء

وقد أقلعت بنا الباخرة من جبل الأولياء ظهر يوم من أيام يناير المشمسة الجميلة ، والسماء من فوقنا زرقاء صافية لا شائبة فيها . وبدت الباخرة على كبر حجمها نقطة بيضاء صغيرة وسط ماء النيل المختزن المرتفع ، الذي امتد يميناً ويساراً مسافة خمسة كيلومترات، حتى صعب علينا إدراك الشاطئين ، والشمس وضاءة لاذعة قليلاً ، كأنها تسخر من أختها شمس مصر التي ما تكاد تظهر حتى تختفي وراء السحب أكثر أيام الشتاء .

وأخذت الباخرة تمخر بنا النهر الخالد ، مخلفة وراءها الحضارة والمدنية ، تشق طريقها وسط الماء في نغم عذب حنون ، وكلما ابتعدنا كانت تنقطع عنا أخبار العالم ، كأن الغيب المجهول يطوينا ، حتى نسي أكثرنا تاريخ الأيام لولا ما كنا نعود إليه بين الحين والحين من مذكراتنا وأوراقنا ، ندون فيها مشاعرنا وإحساساتنا . ولم نكن نشعر بحنين نحو دورنا وأهلنا ، وقد كنا حقاً ندبّ على أراض هي جزء من أراضينا ، ونسعى نحو رفاق فرقت بيننا وبينهم حوادث الزمان ، وحجزتهم عنا وعن العالم أفاعيل الإنسان .

وظلت الباخرة تسير بنا بين شاطئين دائمي الخضرة ، لا إنس فيهما ولا جان ، يخيل إلى الناظر إليها أنها حقول القمح أو الشعير ، ولكنها حشائش نبتت في قاع النهر وطغت على صفحة مياهه ، فبدت كأنها من صنع الإنسان ، وما هي من صنعه ، ولكن من صنع الله ، تبارك ربي خير الخالقين .

ولم يكن يحد هذه الخضرة مدى ، ولم يكن يدرك نهايتها البصر ، فينطبق عليها الأفق في وحشة وفي حنين ، ويمر عليها الليل والنهار وهي هي ، لا تجف فتزول ، ولا تعلو فيتغير منظرها ، وتتخللها أشجار ملتفة الأغصان ، متشابكة الأفنان ، متعانقة العيدان ، ولم ير فيها غير طيور مختلفة الأشكال والألوان ، تطير هنا وهناك ، وتنتقل من غصن إلى غصن ، ومن فنن إلى فنن ، كأنها وسط ما وعد الله المتقين من جنان ، لولا افتقارها للحور والولدان .

وهذا الجزء من وادي النيل يصلح مراعي واسعة لتربية الماشية والأغنام ، لو عمره الإنسان ، فيصبح مصدراً من أكبر مصادر الثروة للسودانيين ، ويرفع من مستوى معيشتهم ويصلهم بالعالم المتمدن ، فيغترفون من حضارته ، ويسايرون القافلة التي ما فتئت واقفة لديهم ، ولم تبدأ رحيلها بعد .

الدخول في جنوب السودان

وعلى بعد ٤٩٣ كيلومتراً من الخرطوم تقع مدينة « الرنك » على خط العرض ١٢

الذي يعتبر حداً فاصلا بين السودان الشمالي والسودان الجنوبي . ويشمل هذا الجزء من السودان مديريات الجزيرة ، ودَرْفور ، وكردفان ، وأعالي النيل ، ومديرية خط الاستواء .

وبالدخول في هذا الجزء تنقطع الصلة بينه وبين العالم ، ويحرم على أهالي السودان الشمالي أو العرب أن يجتازوا هذا الخط . وإذا ضبط أحدهم ، حكم عليه بالحبس أو السجن مع الجلد ، ثم يطرد شر طردة ، ويهدم له ما أقام من بناء ويفنى متاعه وأثاثه . ولذا لا يجرؤ أحد أن يقترب من جنوب السودان ، أو يفكر في التحايل على الدخول فيه . وسميت مديريات السودان الجنوبي لهذا السبب بالمناطق المغلقة .

وحجة المسؤولين في هذا الفصل أو الإغلاق أن أهل السودان الجنوبي على حال من الفطرة لا تسمح لهم بمجاراة تيار غيرهم ، فإذا ما تركت لغيرهم الحرية في الإقامة بينهم ، قضوا عليهم باستغلالهم ! وهي لعمري حجة غريبة ومنطق سقيم . فقد ظل مشروع مد الخط الحديدي من الشلال إلى وادي حلفا معطلا بحجة حماية أهل السودان الشمالي من المصريين ، وأغلق السودان الجنوبي بحجة حماية الجنوبيين من أهل السودان الشمالي!؟!

وقد مررنا بمدينة الرنك في المساء ، ولم نتوقف فيها نظراً لما كان يغمر المكان من ظلام لم يكن يسمح لنا أن نرى شيئاً أو نستطلع أحوال أهلها . على أن القمر كان يسطع في خفوت وفي خفر ، كأنه يهاب الظهور مثلنا في هذا الليل البهيم . وكان الجو بديعاً والنسيم عليلا والسكون مطبقاً مخيفاً .

وكان حذائي قد أصابته علة ، استعصى عليّ إصلاحها ، فاستشرت خادمنا في الباخرة في أمره ، حتى لا أعود من الجنوب حافي القدمين ! ! فقال لي : إن معهم نوتيا من العبيد يستطيع إصلاح حذائي . وعندئذ استرعت انتباهي كلمة العبيد ، فنظرت إلى الخادم وألقيت البصر إلى البحارة فوجدتهم جميعاً سود الوجوه ، فزاد عجبي من معناها . وحين سألته عن هذا العبد قال لي : إنه زنجيّ من الشلك ، أسلم منذ عشر سنوات وتعلم اللغة العربية ، ونزح إلى الخرطوم والتحق بخدمة الري المصري وظل يعمل منذ ذلك الوقت في باخرة مفتش الري المصري العام في السودان .

واستدعيت صاحبنا فوجدته أسود الوجه ، جميل التقاطيع ، دائم الابتسامة . ولما سألته عن خبره قال : إنه من زنوج الشلك من بلدة « كودوك » ، وقد أسلم على يد الشيخ حامد شيخ عربي في بلدتهم يعيش من التجارة ، ويقوم منهم مقام الإمام والمعلم . وكان اسمه « كور » وهو أكثر الأسماء الشائعة عندهم . ولما أسلم أضاف إليه « أحمد »

فأصبح « أحمد كور » . وهو يزور أهل بلدته من آن لآخر كلما سنحت له الفرصة عند مروره في باخرة من بواخر الري . ولما عرفت منه أننا قاربنا الوصول إلى بلدته ، اكتفيت بما عرفته منه على أن نتقابل ساعة وصولنا إلى مسقط رأسه ..

الوصول إلى كودوك

وفي الساعة السابعة والنصف من صباح يوم جميل دنت الباخرة من « كودوك » وهي تقع على الشاطيء الغربي للنيل ، وتبعد عن الخرطوم مسافة ٧٥٣ كيلو متراً وسمعت طرقات أحمد كور على باب قمرتي ، فتأهبت للنزول ، وعلقت منظاري المكبر حول عنقي ، وملأت جيبي مما معي من قروش .

وأخيراً رست الباخرة ، وعندما هممنا بالنزول رأيت على الشاطيء رجالا ، بعضهم عرايا الأجساد لايسترهم شيء ، وهم طوال القامة في إفراط ، وكان أحدهم يرمي شبكة الصيد بجوار الأعشاب القريبة من الشاطيء ، ويخرج صيده من السمك الشهي في صمت ، ويلقي به في سلة كبيرة من البوص ، وكان منهمكاً في عمله ، ولم يلق لنا بالا ، اللهم إلا بعض نظرات لم يبخل بها علينا من حين لحين . وقاربه جزء طويل مجوف من جذع شجرة ، يجري به وسط الماء كما ينطلق الرمح في الهواء .

وبجواره أربعة من المسجونين يعملون في ملء « جرادل » بالماء من النهر ، ويحملونها على عربة كالترولي ، تجري على قضبان حديدية رفيعة لنقلها إلى سجن البلدة الصغيرة ، وخلفهم حارسهم يرمقهم في سكون وعدم اهتمام ، إذ لا يفكر أحدهم في محاولة الفرار . ويلبس كل منهم إزاراً من القماش يسمى « لاو » يكاد يستر الجزء الأوسط من جسمه . وفي الواقع ليس لهذا اللاو أهمية ، فهم يخلعونه في غالب الأحيان ، وإن لبسوه فهو لا يكاد يستر شيئاً ، وإن مسّه النسيم الخفيف كشف الجسم كله .

ويممنا وجهنا شطر البلدة ، وكانت تتقدمنا في طريقنا فتاة حملت ماءها من النيل في جرة من الطين على رأسها ، وكانت تمشي في زهو كأن لم يكن على الأرض من بنات حواء سواها. قامة طويلة ، وجسم جميل كأنه مخروط ، ونهدان بارزان مكشوفان ، ولون أسود فاحم كأنه العنبر أو الأبنوس .

ووجدنا البلدة مجموعة من الأكواخ ، متراصة في صفوف شبه منتظمة ، يحيط بأكثرها سور من البوص أو الغاب لإيواء الأبقار والأغنام . ويسمى الكوخ « بطية » ويقام على جزء دائري من الأرض ، ويبنى من خشب الأشجار والغاب ، ويشدّ بعضه

إلى بعض بحزام متين من الخشب ، ثم يطلى بطبقة من الطين ، ويعلوه سقف مخروطي الشكل من الحشائش والأعشاب الجافة ، كي يسمح بنزول المطر سريعاً فلا تتلف البناء . وليس في الكوخ أثاث ولا متاع ، غير بعض الحراب التي يمسكها الشبان ، وعصي غليظة من الأبنوس . وتضم البطية أفراد العائلة جميعاً . ويستطيع كل فرد أن يبني كوخه في أي مكان يشاء ، فالأرض ملك للجميع . ويسمى مجموع القرية « حلة » بكسر الحاء وتشديد اللام ، وتنتشر الحلات على مسافات متقاربة .

زنوج الشلك



زنوج من الشلك يحيطون بالأستاذ أبو الليل وقد بدت زينتهم وظهر من خلفهم كوخ من أكواخهم .

ويحلي الشلك وجوههم بتقطيع الجلد في نقط بارزة ظاهرة ، تمتد في خط منتظم كأنه مرسوم ، يصل ما بين الأذنين ، ماراً بالجبهة ، فوق العينين بقليل . ويستعملون سنارة الصيد في وشم هذه الحلية بشبكها في الجلد ولفه حتى يذبل اللحم ثم تنزع . وتتكرر هذه العملية في مدى الثلاث السنوات الأولى من عمر الطفل ، حتى تبدو ظاهرة ، وتكون دليلاً بارزاً على أن صاحبها أو صاحبتها من الشلك . وهم يحرصون عليها كل الحرص كي تميزهم عن غيرهم من قبائل الدنكا والنوير . ويلبس الرجال في آذانهم أقراطاً من الفضة أو الحديد أو النحاس ، أو قطعاً صغيرة من سن الفيل ، ويزينون أعناقهم بعقود من الخرز الملوّن ، تتدلى منها قطع من الصفيح ، عليها رسم ثور أو بقرة ، تقديراً للبقرة رمز ثروتهم ، ويلفون حول أذرعتهم أساور من بوص أبيض زاهية اللون أو من قطع السن ، ويحلقون رؤوسهم ، إلا أن بعضهم يرسل شعره ويصفه على شكل قرصين مستديرين على ما خلف الأذنين .

ويبالغ الرجال في التزين إغراء للفتيات ، وأكثر ما يكون الرجل تزيناً عندما يكون فتى يافعاً لم يتزوج بعد . ويمسك كل شاب في يده حربة من الخشب يبلغ طولها

ثلاثة أمتار ، وتنتهي بقطعة مدببة من الحديد أو الصفيح السميك ، يستعملها في النزال وقت العراك ، وفي صيد السمك ونحر البهائم ، وهراوة غليظة من الأبنوس سميكة من الوسط ومدببة من الطرفين ، ويبلغ ثمن الواحدة منها خمسة قروش . وهم مهرة في صيد السمك بالحراب ، إذ يجول الفرد منهم وسط الحشائش القريبة من الشاطئ فإذا ما رأى سمكة ضربها في رأسها بحربته وأخرجها من الماء . وكثيراً ما يوجد السمك الكبير وسط الأعشاب كي يفرخ أو يطعم صغاره . وثمنه عندهم تافه جداً ، ولا يزيد ثمن السمكة التي تزن أقتين أو ثلاثاً على نصف قرش .



بعض سكان الحلات الداخلية من الشلك يبدون عرايا الأجساد

ولا يتزين النساء كثيراً ، ويلبس بعضهن عقوداً وأساور من الخرز ، ويلبسن «لاواً» أزرق ، يلف أكثر الجسد ، وتبرز منه الصدور الجميلة ، وتلبس الفتاة اللاو ولا تضع شيئاً يسترها من تحته ، فإذا ما تزوجت لفت وسطها بقطعة من القماش ثم تلفحت بالإزار . وأما في الحلات التي تبعد قليلا عن الشاطئ فيعيش الرجال والنساء عرايا لا يستر أجسادهم شيء على الإطلاق .

مصادر الثروة

تتركز كل ثروة الشلك في الأبقار ، ويحرصون على اقتنائها ويعملون على تكاثر عددها ، وكلما زاد عددها عند أحدهم دل ذلك على جاهه وغناه . وهي شبيهة بما

لدينا من أبقار ، إلا أنه يغلب على أكثرها اللون الأبيض والقرون الغليظة ، وهي ترعى العشب والحشائش التي تنمو في الأرض . ويتفاوت ثمن الواحدة الآن بين جنيهين مصريين وأربعة جنيهات . ولم يكن يزيد ثمنها قبل الحرب على جنيه واحد .

وهم لا يعرفون من النقد إلا الجنيه الإنجليزي الورق والقطع ذات الشلنين والشلن الواحد ، وكل النقود المصرية بأنواعها المختلفة ، ما عدا الورقتين من فئة العشرة قروش والخمسة اللتين تطبعهما مصلحة المساحة المصرية ويصدرهما وزير المالية ، فإنهما غير معتمدتين في السودان كله ، نظراً لأنهما لم تصدرا عن البنك الأهلي ! !

ولا يقتلون البقرة ولا يأكلون لحمها إلا إذا هرمت ، ولم تعد تصلح لشيء ، أو إذا قلّ لبنها . ويأكلونها نيئة أو يطهونها على النيران التي يوقدونها من الخشب والبوص والقش .

والمنازعات عندهم قليلة ، ولا تقوم بينهم إلا نادراً ، فهم مسالمون وديعون ، وإذا قام نزاع فإنما يكون سببه سرقة الأبقار أو التنافس على النساء .

وثمن الدجاجة عندهم قرش ونصف ، وكل عشر بيضات بقرش ، وثمن الخروف ١٥ قرشاً ، والجدي أو العنز عشرة قروش . ويزيدون أثمانها عند بيعها للبواخر التي ترسو بين يوم وآخر عند بلدتهم ويسمونها البوسطة . وأما في الحلات الداخلية فيبلغ ثمن الدجاجة نصف قرش ، والديك الرومي ثلاثة قروش ، والخروف ١٢ قرشاً .

ووجدنا في كودوك متجرين ، أحدهما يملكه عربي أسود ، وفي متجره قماش أبيض وأزرق يبيعه للشلك ، لاستعماله في عمل اللاو ، ودخان وذرة . ويملك المتجر الآخر يوناني استوطن هناك من زمن بعيد ، وتزوج من إحدى نساء الشلك ، وأنجب أولاداً ، منهم فتى يبلغ العشرين من عمره أسمر اللون يعمل في تجارة أبيه .

ويظل الشلك أغلب العام بدون عمل ، وفي فصل الأمطار يزرع كل منهم ما يستطيع من الأرض ذرة ، ويتركها تنمو ، ولا يتعهدها بما نعرف نحن من عناية ، حتى يحل فصل الأمطار الذي يليه . والأراضي لا تباع ولا تشترى ، وإنما يمكن كل فرد أن يضع يده على ما يريد من أرض يستطيع زرعها . فهي بطاح واسعة بكر خصبة ، في الإمكان أن تدرّ ذهباً لو استغلت طول العام . ولكن أنى لهم ذلك والأيدي العاملة قليلة تكاد تكون في حكم العدم ، ووسائل الزراعة بدائية جداً لا تجدي في استغلال الأرض العنبرية القوية .

ويعمد الأغنياء من ذوي الأبقار الكثيرة إلى استئجار الفقراء منهم في زراعة

الأرض ، ولكنهم لا ينقدونهم أجراً ، بل يعطونهم نصيباً من المحصول . وفي نهاية كل يوم من أيام الحصاد يجمع صاحب الزراعة عماله ويذبح لهم ثوراً هرماً من ثيرانه ويفرق لحمه عليهم ، نظير خدمتهم له ، ويبلغ ثمن قنطار الذرة عندهم ٣٢ قرشاً ، وفي الحلات الداخلية عشرين قرشاً .

ويشربون نوعاً من الخمر يسمى « المريسة » وهو عبارة عن منقوع مخمر من الذرة له مفعول شديد . ويستعملونها في كل المناسبات كالرقص والحفلات ، وقد بلغت عندهم حدّ الإدمان ، ويشربها الرجال والنساء على السواء .

عاداتهم الاجتماعية

يعنى النساء بإزالة ما في أجسادهن من شعر زائد باستعمال الرماد المتخلف من النيران ، فتبدو لامعة براقة بسوادها الفاحم . ويمتزن جميعاً بصدور غريبة في جمالها ، وبقامة معتدلة وأسنان بيضاء لامعة نظيفة . وتتزوج الفتاة في سن مبكرة هي سن العاشرة ، والفتى في سن الخامسة عشرة .

وعند الشروع في الزواج ، يتفق الفتى مع الفتاة ، ثم تخبر البنت أهلها برغبة خطيبها ، فإذا ما وافق الأب أدّى الشابّ مهرها . ويتم العرس في حفل كبير يجتمع فيه أهل الحلة حول منزل والد العروس ، ويذبح فيه ثور أو اثنان ، وتوقد النيران ، وتسقى المريسة بكميات كبيرة ، فإذا ما دارت برؤوسهم أخذوا يرقصون رجالا ونساء حتى ساعة متأخرة من الليل .

ولا يدفع المهر نقوداً ، إذ يعتبر ذلك عاراً ، كأن البنت تباع بالمال . وأظن ذلك راجعاً إلى سخطهم ورعبهم من عادة بيع الرقيق ، وقت أن كانوا يسلبون نساءهم وأولادهم لبيعهم في الأسواق في مختلف الأقطار . وإنما يؤدون المهر أبقاراً ، ويتفاوت المهر بين عشر بقرات وعشرين . ويمكن الرجل أن يتزوج من النساء عشراً أو عشرين بقدر ما تسمح له ثروته من الأبقار .

وهم لا يعرفون الختان ، فيظل الرجل على حاله كما تظل المرأة كذلك . والطلاق جائز لسببين ، فإذا كانت المرأة عاقراً لا تلد ، يعيدها زوجها إلى أبيها ويسترد المهر الذي أداه ، ويجوز أن يكون الطلاق بسبب عدم الوفاق بين الزوجين ، وفي هذه الحالة لا يسترد الرجل مهره .

وعند الشلك دون غيرهم عادة غريبة . تلك أن الرجل إذا مرض اعتقد أن زوجته

قد خانته ، فيضطرها للاعتراف وغالباً ما تعترف بالزاني معها !! فيذهب الزوج إليه ويصحبه إلى الشيخ ، ويسمى « الجاكو » ، ويقوم هذا الشيخ فيهم مقام القاضي ، ويحكم على الزاني بدفع غرامة قدرها بقرة أو بقرتان ، يأخذها الزوج تعويضا له عما أصاب عرضه.

ويحكم البلدة إنجليزي يسمى « المفتش » وله سلطة الحكم بالسجن بالاتفاق مع زعيم الشلك. وتتفاوت مدة السجن غالباً بين ثلاثة أشهر وسنة ، يقضيها المسجون في سجن بسيط ، لم يبلغ بعد أية درجة من درجات النظام أو الحراسة. بل هو مجرد حجز للسجين عن أهله حتى يوفي مدة عقابه.



فتاة من الشلك تبدو بشكلها الجميل وبتدلى من عنقها عقد من الخرز وقد ظهرت على شفتيها الابتسامة اعتزازاً بجمالها.

هذه بعض أحوال الزنوج من الشلك الذين يسكنون جنوب السودان ، ويشربون مثلنا من ماء النيل. وسأعرض لبقية وسائلهم في المعيشة ، كما أعرض لغيرهم من قبائل الدنكا والنوير في مقال آخر.

محمود نجيب أبو الليل

السيف في الشرق الأدنى

للبكباشي عبد الرحمن زكي أمين المتحف الحربي

لم يبدأ في دراسة الأسلحة الإسلامية دراسة علمية فنية إلا منذ سنين قلائل . ولم يجرؤ رجال متاحف الفن على جمع الأسلحة الشرقية ، لأنهم لم يجدوا مراجع عن علم الأسلحة الإسلامية وصناعتها وطرزها . بل إن أصحاب المجموعات الفنية الخاصة كانوا ينظرون إلى تلك الأسلحة كأنها قطع يزينون بها جدران القاعات فحسب .

ولكن منذ العشرين سنة الأخيرة بدأ رجال الفنون في دراسة الأسلحة الإسلامية ، وكان من هؤلاء الأستاذ الألماني الدكتور « هنز ستكلين » الذي دعته الحكومة التركية في عام ١٩٢٨م . لدراسة الأسلحة الموجودة في مخازن «طوبقابو سراي» بإستنبول . وكان من نتائج أبحاث الدكتور « ستكلين » أنه كشف النقاب عن قطعة مهمة للغاية بمعاونة الدكتور خليل أدهم بك مدير متاحف تركيا العام في ذلك الحين . وفتح الاثنان أبواباً في فن الأسلحة كانت حتى ذاك الوقت موصدة . ومن ثم اتسعت دائرة بحث الأسلحة الإسلامية . وكان أن عثر أدهم بك وستكلين على أسلحة يرجع الكثير منها إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، كما أن بعضها ينسب إلى فجر الإسلام .

العرب والسيف

عرف عن الشعب العربي أنه من الشعوب المقاتلة الباسلة . ولذلك كانت لغتهم من أغنى لغات العالم التي احتوت على ألفاظ شتى وأسماء متنوعة للسيف . من هذه الأسماء : المُنصل ، والحُسام ، والمشرَفيّ ، والصارم ، والمهنَّد ، والهندواني ، والصمصام ، والمِصمّ ، والعضب ، والقاضب ، والقرضاب ، والقاصل ، والجُراز ، والمخذم .

ولقد اشتهرت لدى العرب سيوف عدة ، نذكر بعض أسمائها وأصحابها : فكان سيف أبي موسى الأشعري يسمى الصدّي ، وسيف حمزة — الليّاخ ، وسيف خالد بن الوليد — القُرطُبَي ، وسيف سعد بن أبي وقاص — مُلاء ، وسيف علي بن أبي طالب ذا الفقار ، وسيف عمر بن الخطاب — الوشاح ، وسيف عمرو بن معد يكرب — الصمصامة ذا النون ، وكان يسمى سيف من أسياف النبي « ذا الفقار » .

وقد يسأل القارئ نفسه: أين هذه الأسياف القديمة ؟ أو لم يصل إلينا منها شيء ؟ وسنجد من الصعوبة بمكان الإجابة عن هذا السؤال ، وإن كان من المحتمل بقاء عدد قليل من السيوف العربية يرجع إلى العهد الأموي أو العباسي .

السيوف العربية في مجموعة استنبول

رأينا أنه كان للأستاذين ستكلين وأدهم الفضل الأول في كشف أقدم السيوف الإسلامية ، ونحن بدورنا نذكر أهم ما عثرا عليه منها :

١ — سيف نقش عليه اسم الصانع بكتابة غير واضحة ونقش عليه سنة صنعه سنة مائة من الهجرة أي سنة ٧١٩ ميلادية واسم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز . وقد حكم عامين فقط . ومات في التاسعة والثلاثين من عمره ، سنة ١٠١ هـ . (٧٢٠ م) .

٢ — سيف به واقية اليد من الحديد ومقبضه مذهب ، وعلى النصل اسم الخليفة المستعصم الذي حكم بين سنتي (٦٤٠ هـ . —٦٥٦ هـ . —١٢٤٢ م . —١٢٥٨م .)*

٣ — سيف ثالث له مقبض يكاد يشبه تماماً مقبض السيف الثاني ، ونقش عليه تاريخ سنة ١٠٥ هـ . (٧٢٤ م .) واسم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي حكم في دمشق (٧٢٤ — ٧٤٣ م .)

٤ — سيف رابع لم يبق منه إلا نصله . وعلى هذا النصل تكفيت بالفضة . ويلاحظ أن النصل أقدم من التكفيت والكتابة المنقوشة . وتدل الكتابة على أن السيف للصحابي سعد بن عبادة .

٥ — سيف خامس نصله من القرن السابع أو الثامن الميلادي . وله قائم من الحديد ومقبض من الفضة . وعلى المقبض زخارف نباتية فوق أرضيته بالميناء الزرقاء وهذا المقبض يرجع عهده إلى القرن الرابع عشر . ومثله الغمد المصنوع من الجلد الأسود ، وعليه زخارف مضغوطة ومنقوشة بالحليات المذهبة .

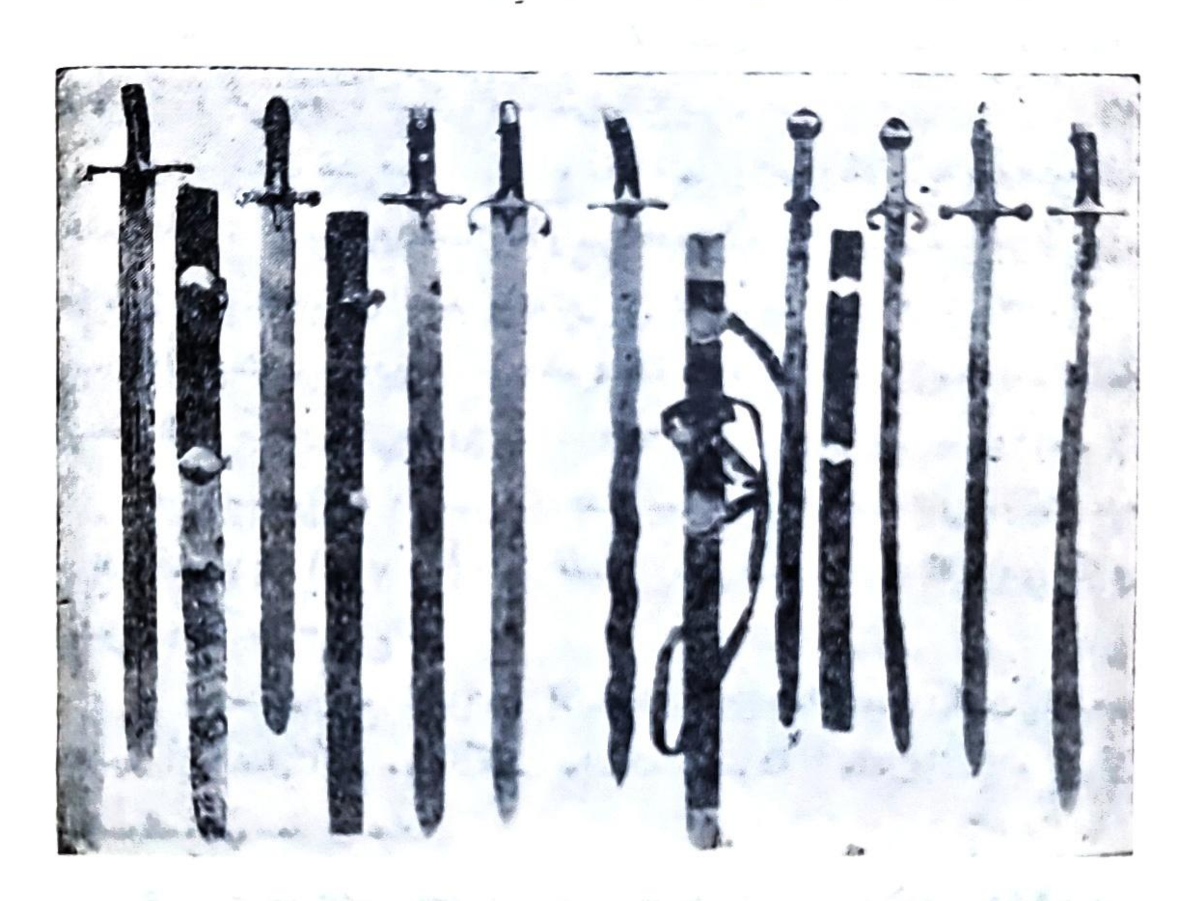
على أن نسبة هذه السيوف إلى أصحابها ليست أمراً مقطوعاً بصحته . فإن بعض المشتغلين بالفنون الإسلامية يعتقد أن بعض هذه السيوف حديثة إلى حد ما ، وأن

---

* كان المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد . قتله هولاكو (٢٠ نوفمبر ١٢٥٨ م .) ونجح بعض أفراد أسرته في الفرار إلى الشام . وظلوا فيها حتى أقام الظاهر بيبرس على أكتافهم الخلافة العباسية الثانية في مصر . ولعل المستنصر كان قد نقل معه إلى مصر سيف الخليفة المستعصم المذكور . ويحتمل أن يكون السلطان سليم الأول قد نقل هذا السيف مع الغنائم الأخرى إلى إستنبول بعد سقوط دولة المماليك .

الكتابات والزخارف التي نراها فوقها تشهد بذلك ، وأن العبارات المكتوبة إنما أضيفت لتزيد من قيمة هذه السيوف .

ومع ذلك فإن دراسة هذه السيوف وغيرها ، تلك التي يمكن نسبتها إلى القرون الإسلامية الأولى ، تشهد بأن المسلمين كانوا يستعملون في تلك العصور السيوف المستقيمة ، وقد عرفوا السيوف المقوسة التي أصبحت تنسب اليهم منذ نهاية العصور الوسطى .



شكل ١ : مجموعة من النصال الفارسية والعربية والتركية والمصرية . والثاني من الشمال عربي من صنع (القرن الثامن أو التاسع م .) والباقي من صنع القرنين (الرابع عشر والخامس عشر م .)

السيف في فارس

والسيف الفارسي من أبدع السيوف الإسلامية ، نظراً لما عرف عن الفرس من الذوق والمهارة الفنية . ومما لا شك فيه أن الفرس تأثروا في ميدان صناعة الأسلحة ، كما تأثروا في كثير من الميادين الفنية الأخرى بالأساليب الصناعية عند الأمم المجاورة . ومن ثم كانت العلاقة وثيقة بين الأسلحة الفارسية ، وبين ما استعمله القوم من أسلحة في القوقاز وأسيا الوسطى والهند وبلاد الغرب وتركيا ومصر وروسيا .

وما وصل إلينا من الأسلحة الفارسية الأثرية التي صنعت قبل الإسلام نادر جداً . وظلت معرفتنا عن الأسلحة الفارسية مقصورة على الموجود من أشكالها وصورها في الصور الصغيرة Miniature . على أن بعض الصور التي كشفت في حفائر مدينة طرفان بآسيا الوسطى احتوت على رسوم أسلحة أثبتت لنا ما كان مستعملاً منها في بداية العصر الإسلامي . ولم يقتصر الأمر على سيوف تلك العصور القديمة ، فقد ظلت معرفتنا ضئيلة جداً فيما يتعلق بالسيوف الفارسية في العهد الإسلامي ، حتى عرفت القيمة الأثرية لمجموعة السيوف الثمينة في متحف « طوب قابو سراي » كما ذكرنا .

على أن في كتب التاريخ إشارة إلى السيوف الفارسية وأهميتها في القتال ، فيحدثنا المؤرخ الواقدي في كتابه « فتوح الإسلام » لبلاد العجم وخراسان لما فتح المسلمون مدينة المدائن عن غنائم السيوف التي وقعت تحت يد سعد بن أبي وقاص .

وقد اشتهر شمال شرقي فارس بصناعة الأسلحة الفنية ، وتذكر المصادر الصينية أن أمير سمرقند سنة (٩٥ هـ . — ٧١٣ م.) أرسل كمية من السلاح بين الجزية التي كان يؤديها* مما يدل على أن هذا الإقليم كان مشهوراً بصناعة السلاح في ذلك الوقت . وقد حدث في ظروف كثيرة أن فر الفنيون الفرس من وجه المغول في بداية القرن السابع الهجري (١٣ الميلادي) ، ونزحوا إلى غربي العراق ، كما فر الفنيون من العراق في منتصف القرن السابع ولجؤوا إلى مصر والشام .

وكان سقوط الخلافة العباسية سنة (٦٥٦ هـ . — ١٢٥٨ م.) سبباً في انتقال صناعة الأسلحة إلى الشام ومصر فترة قصيرة الأمد . ولكن الركود الذي أصابها في فارس كان مؤقتاً . فلم يلبث أن عاد إلى هذه الصناعة ازدهارها على يد التيموريين في القرن الثامن والتاسع بعد الهجرة (الرابع عشر والخامس عشر الميلادي) .

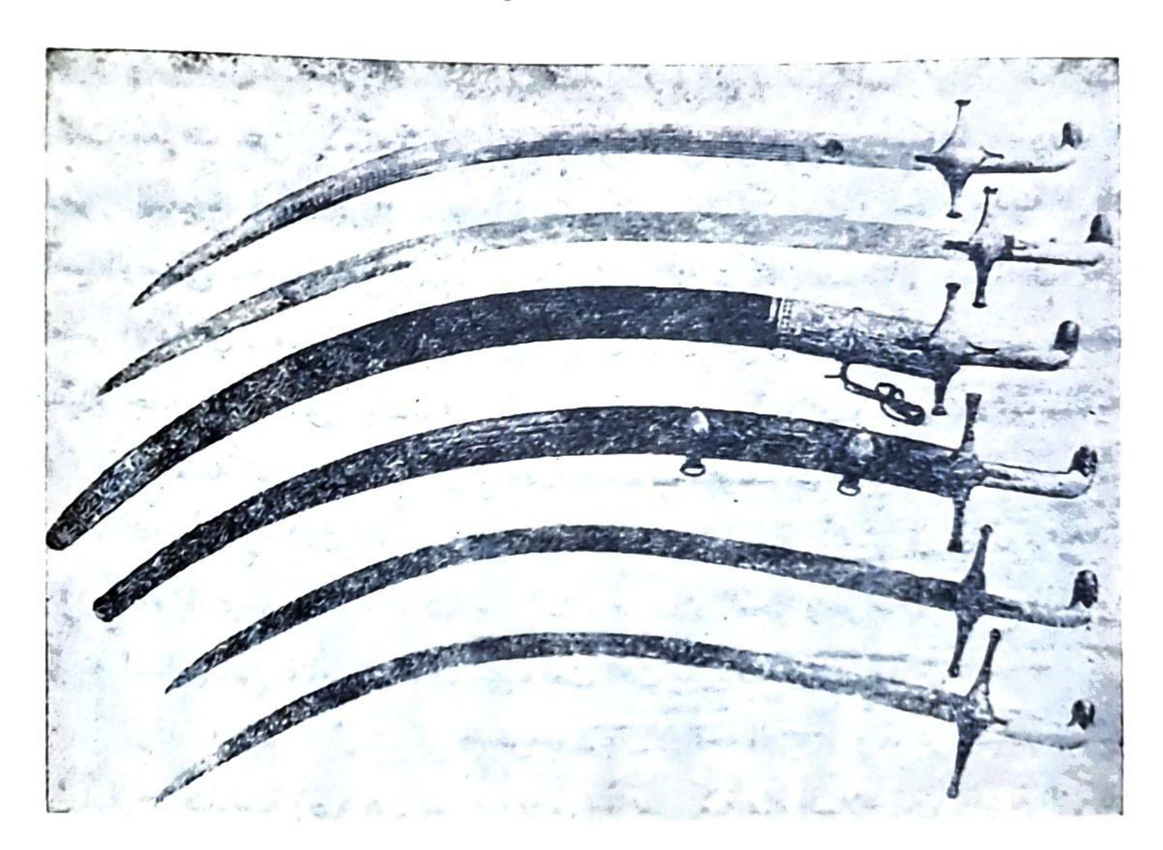
وقد أنتج صناع الأسلحة من الفرس أحسن الأنواع في نهاية العصر التيموري .

وظلت صناعة الأسلحة زاهرة في عصر الدولة الصفوية (٩٠٧ هـ . — ١١٤٨ هـ . ١٥٠٢ م . — ١٧٣٦ م.) . وقد امتازت الأسلحة الصفوية بأناقة طابعها ، وبأن أكثر ما نراه عليها من الكتابة يكون باللغة الفارسية من شعر أو نصوص تاريخية أو أسماء الأئمة الاثني عشر .

وبانتصار الجيوش العثمانية على جيوش الفرس في موقعة وادي « جال دران » في (٢ رجب عام ٩٢٠ هـ . — ٢٤ أغسطس ١٥١٤ م.) استولى السلطان سليم الأول على

---

* A Survey of Persian Art, Vol. 3. Page 2558.



شكل ٢ : مجموعة من النصال الفارسية من صنع أسد الله الأصفهاني وألب علي بن أسد الله (القرن السادس عشر م .)

خزائن الشاه ، وغنم عشرات الألوف من الأسلحة المتنوعة وأرسلها إلى القسطنطينية . كما أرسل اليها أربعين شخصاً من أمهر صناع تبريز عاصمة فارس إذ ذاك .

وفي القرن الثامن عشر بدأ السيف الفارسي يفقد أهميته الفنية ، وأخذت صناعته في التدهور ، وتخلى صناع السيوف عن الإبداع والدقة ... وبدؤوا يفرطون في زخرفتها بالجواهر وتطعيمها بالذهب . وقد برع كثير من صناع الأسلحة الفارسية، وعلى الأخص في القرن السابع عشر ، وعلى رأس هؤلاء أسد الله الأصفهاني الذي تزين سيوفه مجموعات المتاحف في أوربا وأمريكا .

ومن أبدع السيوف الفارسية سيف في المتحف التاريخي بمدينة درسدن ، يرجع عهده إلى القرن السادس عشر الميلادي .

واشتهرت في فارس عدة مراكز لصناعة السيوف تجيء في مقدمتها مدينة قم التي اتفق معظم الرحالة * على أنها كانت أهم مدن صناعة السيوف في منتصف القرن السابع عشر ، وكان يصنع فيها أجود النصال الفارسية التي كان يباع الواحد منها بما

* الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي للدكتور زكي محمد حسن ص ٢٥٧ — ٢٥٨

يعادل عشرين جنيهاً ، ومثل هذه المدينة كانت تستمد حاجتها من الصلب من مدينة « ميريس » على مسيرة أربعة أيام من أصفهان .

وعلاوة على ذلك فقد اشتهرت مدن أخرى بهذه الصناعة أيضاً ، أمثال خوارزم وكرمان وخراسان ، ولا شك أن هذه الأخيرة ورثت تلك الصناعة القديمة منذ القرن العاشر حين كانت نيسابور تصنع أجود أنواع المدى . وفي معرض هذا الحديث ينبغي أن نذكر قزوين حيث أجاد صناعها طرق الأسلحة[1] .

السيف التركي[2]

ومع أنه ليس من السهل أن نرى في السيوف الإسلامية ما يدل من طرازها على تاريخها ، إلا أن السيف المقوس التركي يمكن تمييزه ومعرفة العصر الذي يرجع إليه، لأنه منذ القرن الخامس عشر تطور تطـوراً ظاهراً وبدا فيه هذا التقوس الذي استهل صغيراً وازداد على مرّ الأيام . وبينا نلاحظ في السيف الفارسي انحناءً خفيفاً للظهر يكاد يوازي شفرة السيف (حده) — يقف الانحناء في السيف التركي على بعد ثماني أو عشر بوصات من الطرف ويعرض النصـل فجأة ويمتد هـذا العرض إلى نهاية السيف المدببة . وقد عرف هذا الطراز من السيوف التركية في القرن الخامس عشر .

ومقبض السيف التركي مستقيم نحيل ، ينتهي من ناحية بقائم على شكل صليب يحمي اليد من الانزلاق نحو النصل ، في طرفيه كرتان ، ونهاية المقبض من الناحية الأخرى على شكل مقبض الغدارة .

وكانت أهم مراكز صناعة الأسلحة التركية في بابا وأزمير وبروسة وكريست .

ومن الذين برعوا في صناعة السيوف التركية ـ الأسطى سنان . وقيـل أنه صنع سيفاً كان يطوى نصله كالنطاق ، وكان مع مرونته سريع الاعتدال من تلقاء نفسه . وقد وجد من هذا النوع سيف للسلطان سليمان بن سليم نقش عليه بالذهب والفضـة العبارات الآتية :

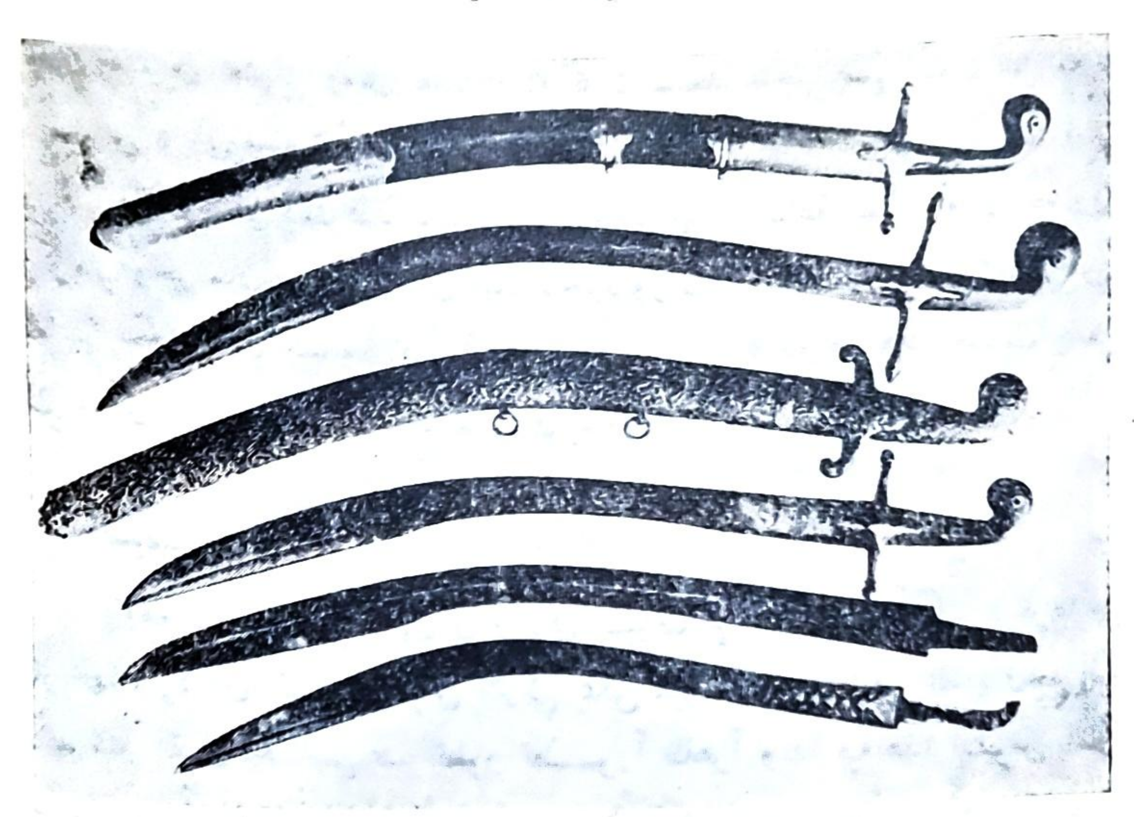
« هذا حسام معتبر حرز سلطان البشر — السلطان سليمان بن سليم — الله يعطيه الظفر » .

الأسطى سنان

---

(١) يسمى السيف بالفارسية « شمشير » ومعناه « ذيل الأسد »

(٢) الاسم التركي للسيف « كليج » والصغير منه اسمه « پالا »

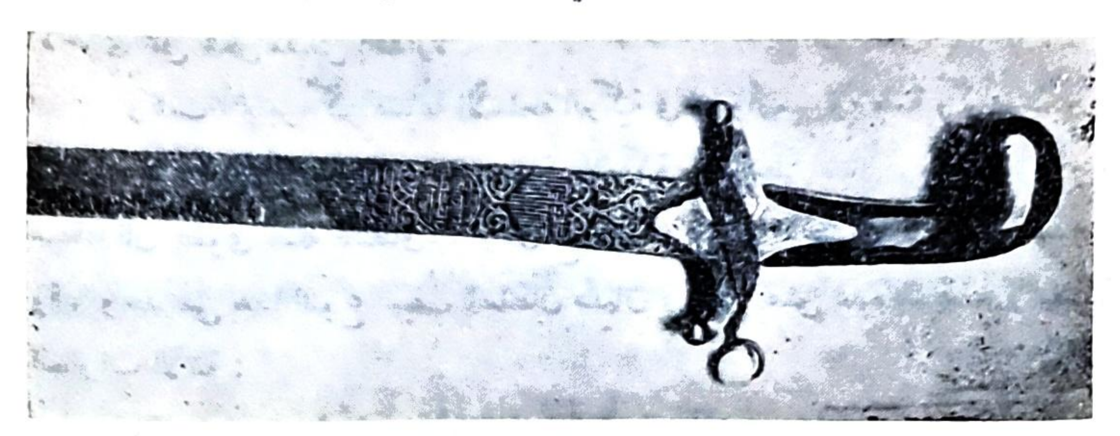


شكل ٣ : مجموعة من النصال التركية (كليج) من مجموعة هنري موزر بالمتحف الوطني ببرن (من القرن السابع عشر م.)

وقد نقشت العبارة التالية على الوجه الآخر للسيف « في دار الفتح بقسطنطينية سنة ٩٤٠ هـ . » .

وقد برع صانع آخر في عهد السلطان محمود اسمه « عجم أوغلو » .

وفي دار الآثار العربية سيف تركي على نصله من جانب واحد كتابة كوفية



شكل ٤ : سيف تركي من مجموعة دار الآثار العربية . على نصله من جانب واحد كتابة كوفية وزخرفة من فروع نباتية منزلة بالذهب . ونص الكتابة الشهادتان وآية الكرسي وعليه كتابة أخرى بخط نسخ نصها : سلطان سليم بن بايزيد ويلي ذلك تاريخ غير مقروء (من القرن السادس عشر م.)

وزخرفة من فروع نباتية منزلة بالذهب ، ونص الكتابة الشهادتان وآية الكرسي . وعليه كتابة أخرى بخط نسخي نصها : « سلطان سليم بن بايزيد » . ويلي ذلك تاريخ غير مقروء .

السيف في مصر والشام

لم تنقل إلينا المراجع العربية شيئاً هاماً عن صنع الأسلحة والسيوف في مصر الإسلامية . ومن المحتمل أنه لم يكن لمصر الفاطمية القيادة في صناعة السيوف الجيدة . وأن جزءاً كبيراً من الأسلحة التي كانت تضمها خزائن الفاطميين كان يجلب من الخارج[1] وقد وصف المؤرخ ابن ميسّر الهدية النفيسة التي أرسلها البساسيري إلى مصر سنة ٤٥٠ ﻫ . حين أقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد . وكان مما بعث به البساسيري عشرون ألف سيف محلّى بالذهب .

وذكر مؤرخو مصر الإسلامية ، وفي طليعتهم المقريزي ، سوق السلاح[2] الذي كان قائماً بين القصرين في القاهرة المعزية إبان القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) حيث كانت تباع فيه القسي والنشاب والزرديات وغيرها من أنواع السلاح ، ولكن لم يصف لنا المقريزي أو غيره صناعة السيوف المصرية . وما وصل إلينا منها مصاب بالتغير والتلف ، إلا إذا استثنينا المجموعة الكبيرة منها التي غنمها السلطان سليم الأول ونقلها إلى الإستانة .

والذي نعتقده أن دمشق كانت لمصر كالقاهرة ، تصل منها أنواع السيوف الدمشقية ، حيث تعرض للبيع في أسواق القاهرة ، وتؤلف منها أسلحة الأمراء والمماليك ، والدليل على ذلك ثبت الهدايا التي أهداها السلطان الظاهر بيبرس إلى بركة إيلخان فارس حيث نرى أن ما ورد فيها من الأسلحة كان دمشقياً ولم يك من صناعة القاهرة ، وقد ذكر أن السيف الذي كان يحمله الظاهر بيبرس كان في الأصل سيف الخليفة عمر بن الخطاب ، وكان يلبسه على الطريقة العربية معلقاً في الناحية اليسرى من نطاقه على الكتف الأيمن .

وفي رأينا أن أهم نخبة من السيوف المصرية الموجودة في العالم اليوم — هي التي تضمها مجموعة متحف « طوب قابو سراي » في استنبول ، وتمثل هذه السيوف الخمسة

(١) كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٢٥١

(٢) جدد هذا السوق في أيام المماليك ، وكان فيما بين المدرسة الظاهرية وبين باب قصر بشتاك .

طراز السيف المصري في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

ويظهر من النقوش التي على النصال المكفنة بالذهب أو بالحفر أن أصحاب هذه السيوف هم :

الأمير آيباي الدوادار — سيف ذو حدّ واحد .

السلطان قنصوه الغوري (١٥٠١ — ١٥١٦ م .) سيف ذو حدّ واحد .

السلطان قايتباي (١٤٦٨ — ١٤٩٦ م .) سيف ذو حدين .

السلطان طومان باي[1] (١٥٠١ م .) سيف ذو حدين .

وعلى السيف الخامس نقش يستدل منه على أنه من صنع علي بن محمد المصري . وكل هذه السيوف مستقيمة النصال . ومما يلاحظ بصفة خاصة أن أقدم السيوف المقوسة المملوكية يحمل اسم السلطان قايتباي . وعلى نصل السيف الذي صنعه علي بن محمد المصري زخارف نباتية ونقوش محفورة ، وتدل هذه الزخارف والكتابات وشكل النصل وطوله على أن عهده يرجع إلى القرن الرابع عشر .

ومن أهم مجموعات الأسلحة المصرية التي تبعثرت في متاحف العالم وأسواق التحف ما عثر عليه الفرنسيون في حملتهم على مصر — في قلعة قايتباي بالإسكندرية ، منها الخوذ والزرديات والقسي والسهام والأسياف[2] .

ومن السيوف المصرية الموجودة بدار الآثار العربية نصل حسام على أحد شقيه دائرة داخلها رنك يليها مستطيل داخله العبارة الآتية : « وقف المقر الأشرف السيفي أزبك أمير رأس نوبة النواب الملكي الأشرف أعز الله تعالى أنصاره » .

وكان هذا السيف قد أهداه يعقوب أرتين باشا لدار الآثار العربية عام ١٩١٠م . ويوجد سيف آخر[3] في الدار نفسها عليه كتابة مزخرفة منزلة بالذهب نصها :

« عز لمولانا السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيي العدل في العالمين أبو الفقراء والمساكين خلد الله ملكه بمحمد وآله » .

وبالدار حسام نصله مقوس ومقبضه من قرن ، وقد أهداه يعقوب أرتين باشا

---

(١) ليس هو آخر سلاطين المماليك الذي شنقه سليم الأول . بل هو السلطان العادل سيف الدين طومان باي الذي حكم خمسة أشهر من عام ١٥٠١ ميلادية

(٢) Description de l'Egypte. Tome V. p. 408 — 409

(٣) اشتري هذا السيف عام ١٩١٠ م . من المسيو كرابتجيان تاجر العاديات في الإستانة .

عام ١٩١٠م. وذكر مهديه أن هذا الحسام كان لساكن الجنان إبرهيم باشا ، وقد أهداه لعم مهديه بعد معركة نزيب عام ١٨٣٩ م .

وعلاوة على ذلك توجد بالدار عدة أسياف تركية وفارسية وسودانية ، جميلة النصال دقيقة الصنعة ، ، تؤلف منها نخبة نفيسة .

النصال الدمشقية

ومنذ القدم اشتهرت دمشق بصناعة الأسلحة ، كالسيوف والبالات والخناجر والقامات والمدى والشاكريات والدروع والطبرات . وكان صناعها يحلون تلك الأسلحة بأبدع النقوش والكتابات والآيات القرآنية ، بل كانوا يحفرونها أو يوشونها بالفضة أو الذهب، وأخيراً ذهبوا إلى ترصيعها بالحجارة الكريمة و « التفنن » بزخرفة الأغماد .

وقد أغرقت دمشق أسواق الشرق الأدنى بأسلحتها البديعة . واحتفظ صناع الأسلحة في الشام بأسرار صناعتهم مدة طويلة ، فكانوا لايعلمونها إلا لأبنائهم .

ومن السيوف الدمشقية المشهورة سيف عرف «بالصاعقة» كان الأمير بشير الشهابي زعيم جبل لبنان ، أهدته الأميرة قرينته بعد وفاته إلى سمو خديو مصر إسمعيل باشا . وكان هذا السيف تحفة نادرة ، جامعاً لأصناف الفنون الصناعية ، مرصعاً بضروب الجواهر الكريمة ، وكان غمده من الذهب الخالص .

ويذكر عن الأمير بشير أنه استقدم إلى بيت الدين أبرع صناع الشرق في الصياغة ، فصار لهؤلاء الصناع شهرة ذائعة إلى عهد قريب .

وما زالت في دار الآثار العربية مجموعة من النصال الدمشقية الجميلة .

وصفوة القول أن صناعة الأسلحة ازدهرت في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، كما يتبين من شتى أنواع الأسلحة والزرديات في المتاحف الأوربية والأمريكية . . . .

ولكن جاء تدهور تلك الصناعة على مرحلتين : أولاهما لما رحل صناعها وفنيوها إلى الإستانة بعد غزو الترك فارس والشام ومصر ، وثانيتهما بعد تطور أسلحة البارود والمفرقعات ، فانتقلت صناعة الأسلحة إلى الغرب .

عبد الرحمن زكي

بعض الأسس الاقتصادية للسلام العام

للدكتور راشد البراوي أستاذ التاريخ الاقتصادي بكلية التجارة

من الامور المسلم بها لدى جمهور العلماء والباحثين أن المسائل الاقتصادية وثيقة الصلة بالشؤون السياسية والاجتماعية ، وقد نكون أدنى إلى الدقة والضبط إذا أكدنا أن الاقتصاديات هي العامل الأول المؤثر في تطور التاريخ الإنساني ، ذلك أن المطالب المادية لأفراد المجتمع هي الأساس البعيد الغور الذي تقوم عليه النظم الاقتصادية ، وأن هذه الأخيرة تكيف الأوضاع السياسية والاجتماعية والقانونية للمجتمع . ولسنا بحاجة إلى دعم هذا الرأي من أحداث التاريخ ، بل يكفي أن نذكر على سبيل المثال أن حركات التوسع الاستعماري منذ العقد الثامن من القرن التاسع عشر ، وأن حروب النصف الأول من القرن العشرين بصفة خاصة ، إنما ترجع في جوهرها إلى عوامل اقتصادية وإن أخفيت تحت غشاء من السياسة والمذهبية . لهذا جميعه لا نعدو الصواب إذا قررنا أن معالجة المشكلات الاقتصادية بطريقة عادلة تكفل إشباع مطالب الدول والمجتمعات صغيرها وكبيرها ، من أهم القواعد التي لا رجاء بدونها في قيام السلام العالمي الذي ما زالت البشرية تهدف إليه . ومن أجل هذا اشتمل ميثاق هيئة الأمم المتحدة على إنشاء مجلس خاص لمسائل الاقتصاد والاجتماع . ويعلق الكثيرون بحقٍ أكبرَ الآمال على هذا المجلس ، ويرجون أن يسفر عن إزالة العناصر الحقيقية للخلافات والمنازعات . وسنحاول أن نعرض في حيّز معتدل معقول لبعض هذه المشكلات التي إن أغفلها قادة الشعوب عن عمد أو قصور ، ساروا بنا قُدُماً إلى حرب ثالثة من الصعب تصور أخطارها في العصر الذَّرِّي البعيد الاحتمالات .

التجارة الدولية

نرى أن أول واجب علينا أن نهيئ الجوّ الملائم حقيقة للتبادل التجاري الحر بالقدر المعقول الذي يتفق ومصالح الدول الخاصة ومصالح الأسرة الدولية عامة . لقد كانت الحرب الجمركية التي بدأتها الدول الفاشستية وسياسة الحواجز التي طبقتها

الولايات المتحدة برغم اعتراض الاقتصاديين عليها ، من أكبر عوامل التوتر في الموقف الدولي في السنوات القلائل السابقة للحرب العالمية الثانية . ومن الواضح الذي لا يحتمل النقاش أنه لو توفرت كل دولة على إنتاج السلع التي تعدها لها ظروفها ، لعظم الإنتاج العالمي من الخيرات الزراعية والطيبات الصناعية ، كما أن تيسير تبادل الإنتاج بين بلدان العالم يعود عليهم جميعاً بالخير ، إذ يساعد على رفع مستوى السكان جميعاً . غير أن سياسة التبادل التجاري غير المقيد تلقى الاعتراض من البعض . فمن جهة يقال أنها قد تؤدي إلى البطالة الخاصة التي تنجم عن تحول العمل من صناعات تأخذ في الانكماش إلى أخرى تتجه نحو الاتساع ، وفي رأينا أن من الميسور التغلب على هذا الاحتمال ببرنامج من الأعمال العامة تعده الدولة وتنفذه . وثمة رأي يحتج بأن إزالة الحواجز الجمركية قمين أن يقضي على الصناعات الأهلية اللازمة لإشباع مطالب الأمة ورفع مستوى المعيشة فيها ، والتي لا تستطيع الثبات بغير الحماية . والاعتراض وجيه ولكن في المستطاع بقاء هذه الصناعات بطريق التعويض ، كأن تتبع فيها أحدث الأساليب الفنية الرشيدة فتهبط نفقات الإنتاج ، وللدولة أن تمنحها من الإعانات والقروض القليلة الفائدة ، القدر الذي يمكنها من النموّ والاستقرار حتى تستطيع الوقوف في وجه المنافسة الأجنبية ، كما أن من الواجب والضروري إهمال الصناعات التي لا رجاء في قيامها وبقائها بالوسائل الطبيعية . وفضلاً عن هذا فمن الخطر إزالة القيود على التجارة دفعة واحدة ، بل لا بد من التدرج . ولنبدأ مثلا بالقضاء على سياسة تحريم الاستيراد والإصدار ، وهدم نظام الحصص ، وخفض الرسوم الجمركية المرتفعة ارتفاعاً لا مبرر له . ومن المسائل ذات الأهمية أن تزود الأمم جميعاً المجلس الاقتصادي بالبيانات والاحصائيات عن إنتاجها من حين إلى آخر ، وبذلك يتسنى لكل أمة أن تنظم حياتها الاقتصادية على أساس سليم من التعاون الدولي . ونلاحظ كذلك أن كثيراً من الحكومات الأوربية يعمل على إخضاع الاقتصاد القومي للتوجيه الحكومي ، بينما تنفر أمم أخرى من مثل هذا الأسلوب . والمهم في هذا جميعه أن لا يتخذ التوجيه وسيلة تحول دون التعاون ، وأن لا يكون سبيلا لاتباع سياسة من الاكتفاء الذاتي لا تتفق وظروف البلد الطبيعية .

نظم النقد الدولي

يرى بعض الثقاة في المسائل المالية أنه إذا شئنا حقاً أن نخلق من دول العالم أسرة واحدة يتعاون أفرادها على ما فيه الخير العام ، فلا بد لنا من العمل على إنشاء

بنك دولي يتولى إصدار عملة دولية واحدة تتعامل بها الأمم جميعاً . وفي ظل هذا النظام تصبح المصارف المركزية بمثابة بنوك الودائع بالنسبة إلى البنك المركزي في الدولة . ونعتقد أن الأخذ بمثل هذا الاقتراح يؤدي إلى القضاء على الاضطرابات الناجمة عن اختلاف سعر الصرف ، ويعمل على تجنب الأخطار المحيطة بعمليات التبادل النقدي ، ويخلصنا من مساوئ السياسات النقدية المتفاوتة ، ويعاون على مرونة معدلات الأجور والنفقات ، ويساعد على تيسير عملية انتقال الأموال ، ويترتب عليه تنشيط التبادل التجاري بين الدول . وقد فطنت الدول إلى أهمية مسائل النقد ، ولهذا عقدت اتفاقية بريتون وودز التي تنص على إنشاء صندوق للنقد الدولي وبنك دولي للتعمير والإنشاء . ولا ريب أن هذه الاتفاقية تهدف إلى تحقيق استقرار المسائل النقدية في العالم بأسره . وإنا لنأمل أن تنجح هذه التجربة ، وبذا تكون مقدمة لربط الدول جميعاً بعملة واحدة ، كما أشرنا إلى ذلك في صدر هذه الكلمة .

الاحتكارات القومية والدولية

إن الاتجاه نحو الاحتكار من الحقائق الاقتصادية التي لمسناها بوضوح منذ العقد الأخير من القرن الماضي ، وقد زاد هذا الاتجاه حدة وسرعة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وشمل مختلف مجالات النشاط الاقتصادي والحياة المصرفية . وقد اتبعت الحكومات الفاشية سياسة ترمي إلى تكوين نقابات المنتجين بطريقة إجبارية (مثلاً القانون الصادر بإيطاليا في ١٦ يونية ١٩٣٢) . وفي إنجلترا نفسها نجد أنه بمقتضى قوانين الفحم الصادرة في عامي ١٩٣٠ ، ١٩٣٢ تكونت ١٧ نقابة إقليمية بقصد رقابة الإنتاج والأسعار . هذه الهيئات الاحتكارية تضر بمصلحة سواد الشعب . وأكثر من هذا خطورة النقابات الدولية التي بلغ عددها ٣٢٠ في عام ١٩٣١ . هذه الاحتكارات تقتسم العالم فيما بينها بمقتضى اتفاقات علنية وسرية ، وهي كذلك تتنازع فيما بينها ، وتسيطر بنفوذها على الحكومات . ولا نغالي إذا قلنا إنها تفرض سياسة لا تراعي فيها مصالح الشعوب وسلام العالم . وأقرب الأمثلة أن الاتحادات الصناعية الكبرى في ألمانيا النازية هي التي أعانت الحزب النازي على الوصول إلى الحكم حتى يحققوا أغراضها الاقتصادية في داخل البلاد وخارجها . ولهذا يجب على الحكومات في كافة الدول أن تسن التشريعات اللازمة لتحطيم نقابات المنتجين والشركات الموحدة وغيرها من الهيئات الاحتكارية ، ويجب أن توضع المشروعات والمؤسسات في البلاد

المتبعة للنظام الفردي تحت الرقابة الدقيقة حتى تحول دون قيام المحالفات الاحتكارية سواء في داخل الدولة أو خارجها. إن الاحتكار عدو السلام الأكبر، فلا بد من تحطيمه وزواله.

رؤوس الأموال واستثمارها في البلدان الأجنبية

في العالم أمم تكدست فيها رؤوس الأموال وزادت عن الحاجة إليها بالنسبة إلى العمال أو مقدار المواد الأولية، فأخذت تنساب صوب البلدان التي تفتقر إليها. وحقاً لقد صار إصدار رؤوس الأموال أعظم أهمية من إصدار السلع، بل هو الظاهرة المميزة للحياة الاقتصادية منذ مستهل القرن العشرين بوجه خاص. والبيان التالي يوضح مبلغ الاستثمارات الأجنبية (بملايين الدولارات) في بعض البلدان والأقاليم —:

	الصين	الهند	كندا	أمريكا الجنوبية	مناطق البحر الكاريبي الأمريكية
سنة ١٩١٣:	١٦١٠	١٨٤٤	٢١١٤	٤٠٠٦	٢٢١٧
١٩٢٩–٣٠:	٣٢٤٣	٣٤٤٥	٦١٢٦	٦٧٨٠	٤٦٩٨

وتصدير رؤوس الأموال فيه كسب كبير للدول المقرضة كما يتضح من البيان التالي عن دخل بعض الدول من الاستثمارات الطويلة الأجل في الخارج عام ١٩٢٩ (بملايين الدولارات الذهبية) —:

بريطانيا العظمى ١٢١٩ الولايات المتحدة ٨٧٦ فرنسا ١٧٩ اليابان ٤٥

ولا يقتصر الأمر على هذا بل إن تصدير رؤوس الأموال وسيلة لزيادة صادرات السلع ووارداتها، ومثال ذلك أن استثمارات الولايات المتحدة في عشر من بلدان أمريكا الجنوبية زادت من ١٧٣ مليون دولار (١٩١٣) إلى ٣٢٩٤ مليون دولار (١٩٢٩)، وزاد نصيبها من واردات أمريكا الجنوبية من ١٦,١ ٪ إلى ٣١,٥ ٪ في الفترة نفسها.

من هذا تبدو أهمية ظاهرة تصدير الأموال، ونستطيع أن نقدر النضال الخفي الذي ينشب بين هذه الدول المقرضة، بل إنها لتحاول إذا استطاعت أن تبسط سيادتها على البلدان المقترضة، أو تدخل معها في اتفاقات تجعل لها المركز الممتاز، كما كانت فرنسا تفعل مع الروسيا قبل الحرب العالمية الأولى. ولا شك أن أكبر نفع للمقرضين مصدره — بصفة خاصة — الممتلكات الاستعمارية والبلدان المتأخرة. لهذا نرى من الضروري أن يكون انتقال رؤوس الأموال ميسوراً حراً خالياً من القيود، وهذا يتطلب إنشاء لجنة دولية للإشراف على هذه العملية، ولها أن تقدم الإرشاد بشأن

المشروعات اللازم تنفيذها ، ومنع المضاربة بإصدار الأموال ، والحيلولة دون استغلال رؤوس الأموال لبسط سيطرة أو نيل امتيازات « خاصة » . ويجب أن تطلع الهيئة على كل قرض يعقد لدولة أجنبية وشروطه وأهميته وفائدته ، وبهذا نحول دون إساءة استعمال هذه الظاهرة .

نظام الاستعمار

وإذا كانت الممتلكات الاستعمارية مورداً هاماً للمواد الاولية وسوقاً لمنتجات الدول المالكة ولاستثمار رؤوس الأموال ، فلهذا نجد أن مشكلة الاستعمار اقتصادية بحتة ، ويجب معالجتها على ضوء هذه الحقيقة ، كما يجب النظر إليها من ناحية أخرى ، وهي أن عهد السيطرة الاستعمارية آن له أن يزول ، وسيزول حتما في يوم قريب أو بعيد . وتقتضينا الصراحة أن نقول :

أولا — إن من الضروري منح البلدان ذات الحضارة العالية الاستقلال التام بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى ، أو نظام الدومنيون إذا رغب أهلها في ذلك . وفي هذه الحالة تتبع هذه الدول الناشئة سياسة اقتصادية على أساس التعاون الصادق المشترك مع بقية أنحاء العالم .

ثانيا — أما البلدان المتأخرة فعلا فينبغي وضعها تحت إشراف لجان دولية محايدة يؤخذ الرأي النزيه في اختيار أعضائها ، وحبذا لو كان الأوصياء ممن لا مصلحة استعمارية لهم ، كأن يعهد بالوصاية على جزر الهند الشرقية للصين مثلا ، وهكذا . ويجب الإسراع بنية صادقة إلى رفع مستوى هذه البلدان المتأخرة وفتح أبوابها أمام تجارة الدول كافة ، وتحريم استخدام أهلها لأغراض حربية .

قد يدعي البعض أننا نتفاءل أكثر مما يجب ، ولكن الصراحة تقضي علينا بأن ننبه إلى الخطر ، وأن نشير بالحل الذي سيتحقق بإذن الله .

الهجرة الدولية

وأخيراً نعرض لهذه المشكلة الشائكة ، إذ هناك بلدان مكتظة بالسكان بالنسبة إلى مواردها الطبيعية ، وهذا يؤدي إلى التزاحم العنيف والفقر والمجاعات وانخفاض مستوى المعيشة ، وفي الوقت نفسه نجد بلاداً تتسع لأكثر من أهلها ، كما يتضح

من إحصاء عصبة الأمم (الإحصاء السنوي ١٩٣٩ / ١٩٤٠) :

المنطقة	المساحة بألوف الكيلو مترات المربعة	السكان بالألوف (٣١ — ١٢ — ٣٨)
كندا	١٩,٥٦٩	١١,٢٥٥
الولايات المتحدة	١٧,٨٣٩	١٣٠,٣٠٠
أمريكا الجنوبية	١٧,٩٦٠	٩١,٣٠٠
الصين وملحقاتها	١١,١٠٣	٤٥٠,٠٠٠
الهند «	٦,٣٦٨	٣٦٥,٠٠٠
أستراليا	٧,٧٠٤	٦,٩٣٠

ومن البيان السابق يبدو التفاوت بالغاً ، ومع ذلك تحرم أستراليا والأمريكتان دخول الأسيويين مثلاً تحريماً يكاد يكون تاماً ، مما يثير السخط والعداء ، بل لعل هذه السياسة القصيرة من أسباب التوتر الذي حدث بين اليابان والولايات المتحدة . لهذا نرى فتح أبواب البلدان العظيمة المساحة والموارد والقليلة السكان أمام من يلجأ إليها من البلدان الشديدة الزحام ، مع اتخاذ الاحتياطات العادلة الرشيدة . وأهم من هذا أنه من الضروري إزالة القيود التي مرجعها اختلاف الجنس بوجه خاص ، وإذا كان الأسيويون يقبلون إقامة البيض في بلدانهم ، فما الذي يحول دون المعاملة بالمثل ؟ ولا بد من إنشاء لجنة دولية تضع النظم اللازمة للهجرة الدولية وتنسيقها وفق الاعتبارات الاقتصادية والإنسانية أولاً .

إلى هنا نقف ، ولكنا نقول : إن اتباع السياسات التي أشرنا إليها يقتضي من الدول الكبيرة أولا أن تفهم معنى العدالة الدولية ، وأن لا تغلب مصلحتها الشخصية على ماعداها ، وأن تفسر مسائل السيادة والكرامة والمصالح الحيوية بالروح التي تطلبها من زميلاتها الأقل شأناً .

راشد البراوى

مصر العتيقة والحصن الروماني

للدكتور باهور لبيب الأمين بالمتحف القبطي

في هذا المقال بحث مختصر عن تاريخ مصر العتيقة « مصر القديمة » منذ عصر الملك مينا إلى عصر الفاروق .

تقع مصر العتيقة على الضفة الشرقية من النيل جنوبي القاهرة ابتداء من فم الخليج « رأس الدلتا » ، وكان يطلق عليها في العصور الفرعونية اسم « خِرى عَحّا » أي ميدان الحرب ، ذلك لأنه نشبت بالقرب منها حروب بين أهل الشمال « الوجه البحري » وبين أهل الجنوب « الوجه القبلي » . وربما أطلق عليها اسم « كمت » أي « الأرض السوداء » لخصوبة تربتها . وكان يطلق هذا الاسم « كمت » على القطر عامة ، كما هو الحال حين يطلق الآن اسم مصر ويراد منه « القاهرة » ، أو حين يطلق ويراد منه « القطر المصري » ، إلا أن تسمية « خرى عحّا » أصبحت أكثر شيوعاً وانتشاراً من التسمية الثانية حتى عصر البطالمة . فعلى سبيل المثال نذكر أن نصوص عصر الوحدة الأول «الدولة القديمة» المكتوبة على حجر بلرمو ذكرت عند الكلام على الملك « نفر اير كارع » نحو سنة ٢٧٣٠ قبل الميلاد كلمة « خرى عحّا » ، كما ذكرت أيضاً في نصوص الأهرام في فقرة (١٣٥٠) ، وكذلك في عصر الوحدة الثاني « الدولة الوسطى » وعصر الوحدة الثالث « الدولة الحديثة » في النصوص المكتوبة على لوحة أبي الهول وفي مقبرة الملك « سيتي الأول » وفي العصور المتأخرة بلوحة « بعنخى » عند التنويه بأنه زار هذه البلدة في طريقه من منف إلى عين شمس .

وقبل أن تصبح مصر ولاية رومانية عبّر عن « مصر العتيقة » باسم « بابليون مصر » كما هو وارد في النصوص اليونانية والقبطية ، وهي تسمية أكادية « أشورية » بمعنى « باب الله » أي دار أمان ، واتخذت فما بعد عاصمة للرومان .

أما بعد الفتح العربي فقد أطلق عليها اسم « الفسطاط » . وكان قصد الرومان والعرب ومَن قبلهم من هذه التسمية واحداً ، كما أن بعض الكتاب العرب أطلقوا عليها اسم « قصر الشمع » ، وهي تسمية محرفة عن كلمة « كمت » إحدى التسميتين

الفرعونيتين مضافاً إليها كلمة « قصر » . ومن الجائز أن تكون لفظة « قصر » أطلقت على بناء داخل الحصن ، إذ هي للقصر أقرب منها للحصن ، وسميت بعد ذلك حتى وقتنا هذا باسم « مصر العتيقة » . ويستنتج من اختلاف هذه الأسماء لتلك المنطقة أن أدواراً تاريخية متشابهة قد مرت بها . وبالرغم من كثرة العصور التي مرت بها واستدعت إعادة تشييدها ، نظراً لتتابع الحروب في فترات مختلفة ، فإن موقعها الجغرافي الحالي يكاد يكون في موقعها الأصلي منذ العصر الأول مع امتداد إلى جهة الشمال .

كانت « مصر العتيقة » في أغلب العصور المتقدمة عاصمة البلاد ولا تزال ؛ إذ أن القاهرة عاصمة الملك الحالية تقع شماليها ، كما أن « مصر العتيقة » شمالي مدينة «أبنوحدج» (الجدار الأبيض أو منف) العاصمة الفرعونية الأولى لمصر حينما وُحّدت في حكم الملك مينا « نعرمر » حوالي سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد . ويرجع السبب في اختيار «مصر العتيقة» عاصمة للبلاد وقوعها عند رأس الدلتا، ولأنها تقع أيضاً عند أول الصحراء الشرقية ، ولها من هذه الناحية سيطرة حربية ، كما أنها تقع على النيل ، فهي ميناء نهري عظيم استخدم ولا يزال يستخدم في نقل الحبوب وغيرها . وكان السفر منها إلى جهات القطر المصري شمالاً وجنوباً سهلاً يساعد الحكومات على الإشراف الإداري

شكل ١ : الباب القبلي بين البرجين الجنوبيين
(صورة مهداة من جلالة الملك فاروق إلى المتحف القبطي)

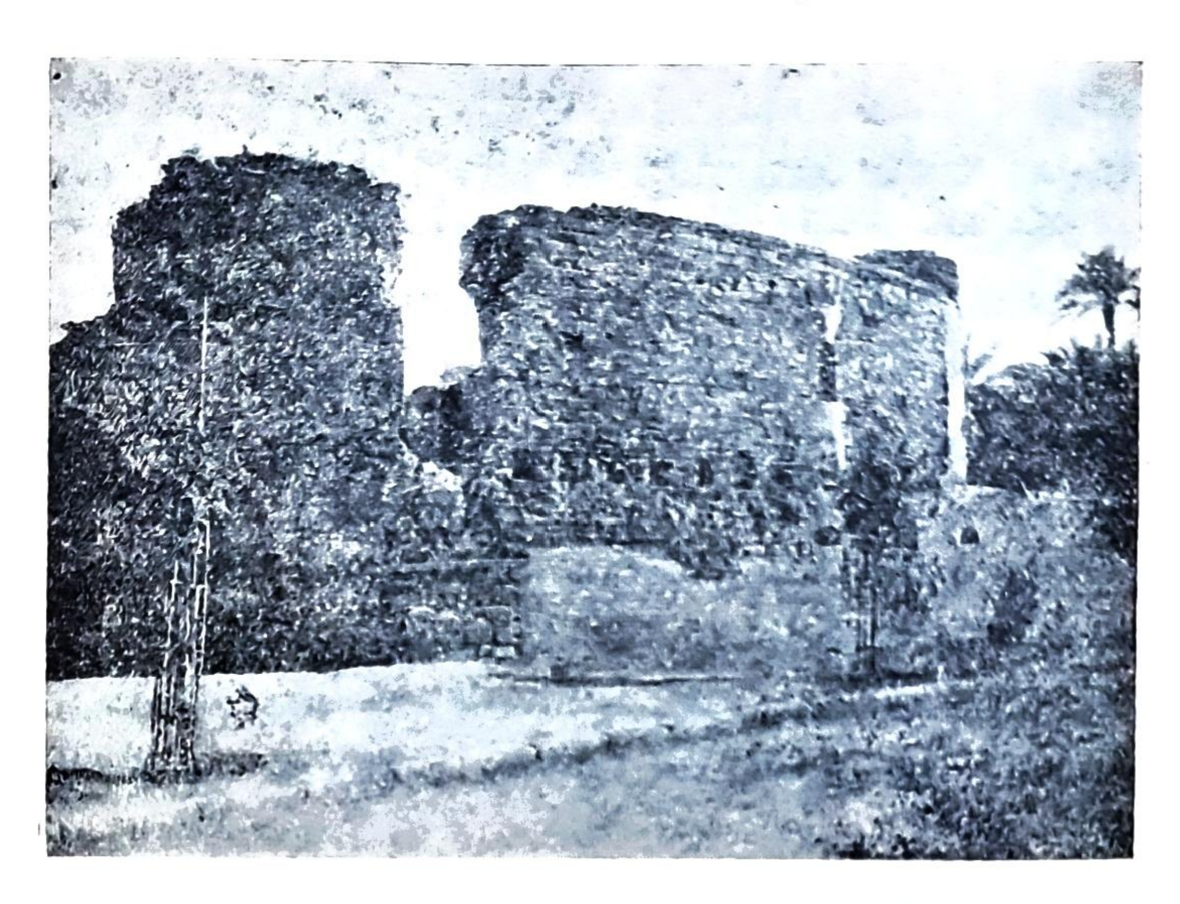
مساعدة جدّية فعالة ، فهي لذلك مركز هامّ من الوجهة البحرية سواء التجارية منها أو الحربية .

وقد كانت هذه المنطقة في جميع العصور موضع اهتمام الحكام والملوك . وأهم ما بقي فيها من مخلفات تلك العصور هي :

أولا : **حصن بابليون** — شيده الفرس في عهد «قمبيز» وجدده الرومان وجعلوه رمزاً لحضارتهم ، ثم أضافوا إليه تعديلات في عهد الإمبراطور « أغسطس » ثم « تراجان » من بعده ثم مَن خلفهما من الأباطرة حيث رابطت فيه حامية كان الغرض منها تحقيق الهدف الحربي والسيادة التجارية ، ولا سيما أنه قد مرت أكثر من أربعمائة عام من تأسيسه وهو باق دون صيانة أو عناية بأمره . وذلك نتيجة انتقال العاصمة المصرية إلى الوجه البحري ، ثم من هذه المنطقة إلى الإسكندرية في عهد الإسكندر الأكبر ومَن خلفه من البطالمة، عدا ما استتبع ذلك من تهدم بعض أجزاء منه ، مما جعله في حاجة إلى الترميم والإصلاح . وعلى الرغم من أن بعض العلماء قد خالفوا هذا الرأي وقالوا : بأن تراجان هو الذي أنشأ هذا الحصن في القرن الثاني الميلادي فإنا لا نميل إلى

شكل ٢ : البرج القائمة عليه كنيسة مار جرجس
(صورة مهداة من جلالة الملك فاروق إلى المتحف القبطي
تبين حالة الحصن قبل ترميمه)

الأخذ بهذا القول ؛ ذلك بأن الحقيقة الثابتة تدل صريحاً على أن ديودور الصقليّ عندما كتب تاريخه عن مصر حوالي سنة ٥٠ قبل الميلاد ذكر « بابليون » ، كما أن إسترابون الإغريقي عندما زار مصر سنة ٢٥ ق. م. أي قبل عهد تراجان بما يقرب من مائتين وثلاثين عاماً ، قال : إنه « رأى في عين شمس المنازل العظيمة التي كان يسكنها الكهنة الذين درسوا الفلسفة والفلك، وأن من يسير في عين شمس في النيل متجهاً إلى الجنوب يصل إلى بابليون وهو موقع حصين » .



شكل ٣ : البرج الغربي القائم في حديقة المتحف القبطي
(صورة مهداة من جلالة الملك فاروق إلى المتحف القبطي تبين حالة البرج قبل ترميمه)

ولا نزال نرى بعض أبراج هذا الحصن حول جدران مباني المتحف القبطي ؛ فإذا ما تأملنا جدرانه الظاهرة من الخارج تبين لنا أنها على نمط البناء الروماني العادي ، وأنها ذات خمسة مداميك من الحجر الجيري الأبيض يتلوها ثلاثة مداميك من الطوب الأحمر (شكل ١) . وأغلب أحجار هذا النوع مأخوذ من مبانٍ فرعونية لم تزل على بعضها نقوش هيرغليفية .

ونرى أحد الجدران من الجنوب « الجهة القبلية » عبارة عن برجين كبيرين

مستديرين يبلغ ارتفاع كل منهما نحو عشرين متراً ، وبينهما أحد أبواب الحصن (شكل ١) ، وعلى أحد هذين البرجين «كنيسة المعلقة الأثرية» . واكتشف في أطلال هذين البرجين نسر روماني ناشر جناحيه . وفي الجهة الغربية برجان آخران كبيران بينهما مدخل المتحف القبطي ، وأحد هذين البرجين مشغول بكنيسة مار جرجس الروماني (شكل ٢) والآخر في حديقة المتحف (شكل ٣) . والأمل كبير في أن تظهر الحفائر المقبلة كشف بوابة تربط بين البرجين على رصيف الميناء النهري القديم إذ أن النيل قديماً كان يمر بجوار جدران هذا الجزء من الحصن . وكانت منطقة الحصن على ضفة النيل حتى تأسيس الفسطاط .

كل هذا يدل دلالة واضحة على ما كان عليه هذا الحصن من مناعة تفوق مناعة الحصون التي شادها العلم الحديث، وعلى دقة بناء هذا الحصن؛ فقد بقي حافظاً شكله القديم مع أنه مر ما يربي على ألفي سنة على بنائه الذي تبلغ مساحته حوالي ٦٠ فداناً .

ثانياً : **الكنائس الأثرية** — وهذه الكنائس هي : المعلقة ، وأبو سرجة ، وقصرية الريحان ، ومار جرجس المصري ومار جرجس الروماني وأنبا شنوده ومار مينا والست بربارة .

ثالثاً : **جامع عمرو** — وهو أقدم جامع بني بالديار المصرية أسسه عمرو بن العاص عقب افتتاح العرب لمصر ، نحو سنة ٦٤٠ ميلادية ، وقد محت الإصلاحات الكثيرة التي أجريت بالجامع قبل عهد صلاح الدين ، كثيراً من المباني الأولى التي كان يتألف منها الجامع في عهد عمرو بن العاص . وقد تجلى في هذا الجامع فن العمارة والتصميم في العصور التالية لعهده .

باهور لبيب

اذربيجان والاشتراكية في العصر الإسلامي

للسيدة سيدة كاشف زكي المدرسة بمعهد التربية العالي للمعلمات بالقاهرة

ظهرت على مسرح السياسة الدولية في الشهور الأخيرة ، مشكلة كبيرة من المشكلات التي تمخضت عنها الحرب . تلك هي مسألة النزاع القائم بين إيران واتحاد الجمهوريات السوفييتية ، بصدد تدخل الاتحاد السوفييتي في الشئون الإيرانية ، وتشجيعه أحد الأحزاب السياسية في آذربيجان .

كان هذا الحزب ينادي في البداية بكثير من الإصلاحات الاشتراكية ، وينعي على الحكومة الإيرانية المركزية إهمالها النظم الديمقراطية الصحيحة ، وخضوعها لأصحاب الأملاك الواسعة ؛ ولكنه لم يلبث أن جاهر بعصيان الحكومة ، وعمد إلى مقاومتها بالسلاح ، وعمل على تأسيس حكومة مستقلة في آذربيجان ، أو على الانضمام إلى جمهورية آذربيجان السوفييتية . ولم يكن عسيراً على حكومة طهران أن تقمع الثورة التي قام بها حزب « تودة » في هذا الأقليم ، وأن تقضي على الحركة الانفصالية فيه ، ولكن روسيا لم تسمح لها بإرسال جنودها إلى مقاطعه آذربيجان . ونعلم أن الروس يحتلونها منذ اشتركوا مع الإنجليز في غزو إيران في أغسطس من عام ١٩٤١ تأميناً لجهودهم الحربية في الشرق الأدنى ، ورغبة في السيطرة على طرق المواصلات الإيرانية ، واستخدامها لحمل المؤن والعتاد إلى روسيا السوفييتية .

وقد وعد الروس والإنجليز بسحب جيوشهم من إيران بعد فوات ستة أشهر على انتهاء الحرب في أوربا وآسيا . وأكدوا هذا الوعد في قرارات مؤتمر طهران سنة ١٩٤٣ ، وهي القرارات التي وقع عليها روزفلت وتشرشل وستالين . وسوف يحل هذا الموعد في اليوم الثاني من شهر مارس سنة ١٩٤٦ . وقد سحبت الولايات المتحدة قواتها ، ولكن روسيا أبت النظر في الجلاء قبل الموعد المحدد ، ورفض الإنجليز سحب جيوشهم قبل جلاء الروس . ثم تقدمت إيران إلى مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة تشكو إليه الاتحاد السوفييتي . ورأى المجلس أن يبدأ بترك الخلاف لتعمل الدولتان على تسويته بمفاوضات بينهما ، على أن يحاط المجلس علماً بنتائجها .

والمنطقة التي احتلها الروس في إيران هي حقول الحبوب فيها ، وأهم المراكز التي يتوقف عليها تموين سائر المقاطعات الأيرانية . وقد عمل الروس بعد احتلالها على عزلها عن المناطق الجنوبية ، وبث الدعاية الشيوعية بين سكانها ، وزينوا لحزب « تودة » فكرة الاستقلال عن الحكومة الإيرانية المركزية . واستطاع هذا الحزب بفضل رعايتهم أن يحقق هذه الفكرة .

ولسنا نريد هنا أن نعرض لبحث هذه المشكلة من الناحية السياسية بعد أن أصبحت من أولى المشكلات التي تمتحن بها قوة مجاس الأمن في هيئة الأمم المتحدة . ولكنا نود أن نلفت النظر إلى أن بعض المؤرخين يقررون أن المذاهب الشيوعية والاشتراكية ليست غريبة على إقليم آذربيجان ، بل لقد عرفها هذا الإقليم منذ قرون طويلة ، وقبل أن تعرفها روسيا السوفييتية نفسها ؛ ولا عجب فقد كان إقليم آذربيجان مسرحاً لثورة بابك الذي تزعم حركة الخُرّمية ، وهم إحدى الطوائف التي تمخض عنها قتل أبي مسلم الخراساني؛ ويقال في اشتقاق اسمهم أنه من خرّم بمعنى «لذيذ» في الفارسية، أو أنهم ينسبون إلى خُرّم من أعمال مدينة أردبيل في آذربيجان . وحركة الخرمية إحدى الحركات الدينية والاجتماعية والسياسية التي ظهرت في إيران لتقويض ملك العرب وإقامة دولة فارسية ، وبعث كثير من المعتقدات والمبادىء الإيرانية القديمة .

وقد آلت زعامة الخُرّمية إلى بابك فثار على الدولة العباسية سنة ٢٠١ هـ (٨١٦ — ٨١٧ م) في زمن الخليفة المأمون ، ودان له إقليم آذربيجان وما جاوره ، وعجز جند الخليفة عن إخضاع هذه الثورة التي تفاقم أمرها ، إلى أن أفلح الأفشين قائد الخليفة المعتصم في القضاء عليها والقبض على بابك وأخذه إلى سامرّا حيث قتل وصلب سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م)

وقد ذهب فريق من المؤرخين القدماء والمحدثين إلى أن مبادىء الطائفة الخرمية تأثرت إلى حد كبير بمبادىء مزْدَك . والمعروف أن الاشتراكية فى الأموال والنساء كانت من أهم المبادىء التي قامت عليها المزدكية . ولعل هذا الأمر هو الذي حدا بعض المستشرقين ، وكتاب العرب المحدثين ، إلى القول بأن الشيوعية والاشتراكية كانتا من مبادىء الخرّمية . فقد وصف هيوار Huart الخرمية بأنهم طائفة شيوعية ، فكتب في صفحة ٣٠٠ من كتابه تاريخ العرب Histoire des Arabes أن آذربيجان دانت لبابك زعيم الطائفة الخرمية الشيوعية الذين كانوا يعتقدون بحلول الصفة الإلهية في جسد زعيمهم ، ويقرون الشيوعية في الأموال والنساء .

وعقد الأستاذ عمر أبو النصر اليافي فصلا للكلام على البابكيَّة ، درس فيه هذه الطائفة وقال : بأنها قامت بأول ثورة اشتراكية في الإسلام ، وانتهى فيه إلى مايلي :

« ويمكن تلخيص النظام البابكي في أنه كان يرمي إلى نزع الأملاك الواسعة من أصحابها الذين اغتصبوها سابقاً من الفلاحين أو الدولة ، وتوزيعها على المزارعين أصحاب الحاجة . . .

ثم تحرير المرأة الشرقية من عبوديتها ، وإعطائها ما للرجل من الحقوق ، وهو قريب من مذهب مَزْدَك الفارسي ، ولا يبعد أن يكون بابك قد تأثر به وعمل على تطبيقه بصورة جديدة . . .

والظاهر أن الفكرة المزدكية كانت تنتشر خفية بين سكان آذربيجان والبلاد المجاورة مستميلة إليها كل ناقم غاضب على حياته الاجتماعية من الفرس وغير الفرس . . . وكانت الحركة منظمة كما يظهر ، يتزعمها أبداً خبير بأمور الناس ، حتى وصلت الزعامة إلى رجل يدعى جاويدان بن سهل المتوفى سنة ٨١٦م ، وهو أستاذ بابك وصديقه ، فسلمه الزعامة قبل وفاته ، لما تفرس فيه من الاستعداد لقيادة الحركة إلى حيث الآمال العظام . . »[1]

والواقع أن نسبة الشيوعية إلى البابكية والخرمية أمر غير بعيد الاحتمال ، ولكن المستشرق هيوار والأستاذ عمر أبو النصر لم يذكرا المصادر العربية القديمة التي تذكر صراحة الشيوعية في الأموال بين مبادئ تلك الطائفة .

فقد كتب الإصطخري[2] : « وأما جبال الخرمية فأنها جبال ممتنعة وفيها الخرمية وكان منها بابك ، وفي قراهم مساجد وهم يقرؤون القرآن غير أنه يقال إنهم لايدينون في الباطن بشيء إلا الإباحة » . وأكبر ظننا أن الإصطخري يقصد بالإباحة الشيوعية في النساء .

وكتب مطهر بن المقدسي[3] عن مذاهب الخرمية : « هم فرق وأصناف ، غير أنهم يجمعون على القول بالرجعة ، ويقولون بتغير الاسم وتبديل الجسم ، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحي لاينقطع أبداً ، وكل ذي دين مصيب عندهم إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب ،

(١) الاشتراكية والشيوعية في الإسلام ص ٥١ — ٥٢ (بيروت ١٩٤٥) .
(٢) مسالك الممالك ص ٢٠٣ (ليدن ١٩٢٧)
(٣) « البدء والتاريخ » المنسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي ص ٣٠ — ٣١ (باريس ١٩٠٧) .

ولا يرون تهجنه والتخطي إليه بالمكروه مالم يرم كيد ملتهم وخسف مذهبهم ، ويتجنبون الدماء جداً إلا عند عقد راية الخلاف ويعظمون أمر أبي مسلم ويلعنون أباجعفر على قتله ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه ولد فاطمة بنت أبي مسلم ، ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم فريشتكان ، ولايتبركون بشيء مثل تبركهم بالخمور والأشربة، وأصل دينهم القول بالنور والظلمة . . ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء على الرضا منهن ، وإباحة كل مايلذ النفس وينزع إليه الطبع مالم يعد على أحد بالضرر . »

وكتب عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي في ذكر أصحاب الإباحة الخرمية : « فهؤلاء صنفان: صنف منهم كانوا قبل دولة الإسلام كالمزدكية الذين استباحوا المحرمات وزعموا أن الناس شركاء في الأموال والنساء . . . والصنف الثاني خرّمية ظهروا في دولة الإسلام وهم فريقان بابكية ومازيارية . . . فالبابكية منهم أتباع بابك الخرّمي الذي ظهر . . . ناحية آذربيجان وكثر بها أتباعه واستباحوا المحرمات وقتلوا الكثير من المسلمين [1] . . . » .

أما ابن النديم [2] فقد أسهب في الكلام على الخرمية وكتب أن امرأة زعيمهم جاويدان أعلنت لقومها أن زوجها قال : إن روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك معروحه وأنه سيبلغ بنفسه وبكم أمراً لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وأنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية ويعزّ به ذليلكم ويرتفع به وضيعكم » .

وصفوة القول أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الشيوعية في الأموال والنساء كانت من مبادىء حركة الخرمية البابكية في آذربيجان . ولكن المصادر العربية — فيما نعلم — تشير إلى اعتقادهم بالاشتراكية في النساء ولكنها لاتنص صراحة على الاشتراكية في الأموال ، فعسى أن يعنى الباحثون في الاشتراكية في بلاد الإسلام بتحقيق هذ الأمر .

سيدة كاشف زكي

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٥١ — (القاهرة ١٩١٠)

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٤٨١ — ٤٨٢ : (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

الكون يخلق من جديد

الدكتور حسن عبد السلام مفتش الكيمياء بوزارة المعارف

الكون كالساعة ، كل شيء فيه يجري بنظام محكم دقيق ؛ فالشمس تشرق في أوقات محددة وتغرب كذلك في أوقات محددة ، والقمر يطلع علينا أياماً معدودة في كل شهر فيشرق نوره بضع ساعات من الليل ، وإذا راقبت السماء بعد الغروب شاهدت النجوم في مواقعها كما كانت بالأمس، وكما كانت في العام الماضي، وكما كانت في القرون الغابرة « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لها أَنْ تُدْرِكَ الْقمرَ ولَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وكلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[1] » .

بيد أنك إذا دققت النظر في السماء في أثناء الليل ، شاهدت ما يشبه السحب القاتمة بين النجوم اللامعة ، وهذه السحب هي مجموعات النجوم التي بددت ضوءها وحرارتها وبعثرتهما في إسراف وتبذير منذ ملايين السنين، فأصبحت أجراماً باردة تسبح في فضاء العالمين، وستظل باردة إلى الأزل . وقد يحدث أحياناً أن يصطدم نجمان من هذه النجوم أحدهما بالآخر ، فيضيئان مرة أخرى لمدة من الزمن ، وذلك بسبب الطاقة الشديدة الناشئة عن الاصطدام ، ولكن لا يلبث هذا الضوء أن يخبو وينطفيء . ونحن نرى هذه النجوم الباردة بما ينعكس عليها من ضوء النجوم الأخرى ، كما نرى القمر بما ينعكس عليه من ضوء الشمس .

والمعلوم الآن أن النجوم التي تبدو لامعة لنا ، ما زالت في عنفوان شبابها ونشاطها ، وأن كل نجم منها لا يفقد عند إضاءته جزءاً من الطاقة فحسب ، بل يتناقص جرمه المادي بسبب الإضاءة والإشعاع أيضاً بعض الشيء . فالأشعة الضوئية ، في نظر العلم الحديث ، مصدرها انحلال المادة التي تنبعث منها هذه الأشعة ، أي أن مادة النجم يتلاشى جزء منها ويتحول إلى الطاقة التي نطلق عليها الضوء أو النور ، وهذه الطاقة تتشتت في الفضاء ، فلا يستطيع النجم أن يسترجعها أو يعيدها إلى مادته مرة أخرى .

وشمسنا المعهودة هي إحدى تلك النجوم . وقد حسب بعض العلماء مقدار ما يُفقد من

---

(١) الآية ٤٠ من سورة يس .

كتلتها بسبب ما تشعه من الضوء والحرارة ، فإذا به أربعة ملايين طن من مادتها في كل ثانية واحدة ، ومعنى ذلك أنه بعد مضي عشرة ملايين من الأعوام ستكون الشمس قد فقدت نحو $\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠٠}$ من جرمها الحالي .

فالنجوم إذن ليست بأزلية الوجود ، بل إن مادتها تفنى وتتلاشى تدريجاً على مر السنين ، ويقدر عمر النجم الواحد عادة بنحو مليون مليون سنة ، يفقد النجم في خلالها ما يقدر بنصف جرمه وزناً ، وعندما يصل إلى هذه المرحلة يبرد وينطفىء نوره ، فلا تنبعث منه الأشعة ، ولا تتناقص كتلته بعد ذلك . وليس معنى هذا أن الكون بأسره سيصبح كتلة باردة ، أو أن نور الحياة سينطفىء من سطح كوكبنا بعد مضي بضعة آلاف الملايين من السنين ، لأن عوامل أخرى في الكون تعمل على خلق المادة من جديد ، الأمر الذي سأحدثك به بعد حين .

وتقدر درجة حرارة النجوم المضيئة بنحو ٧٠ مليون درجة مئوية ، وهذه الدرجة تكفي لتحطم ذرات العناصر التي يتركب منها النجم ، فيستحيل جزء من جرمه إلى طاقة في صورة الأشعة التي تنبعث منه . غير أن الأشعة الضوئية ليست كل ما تشعه النجوم ؛ فقد اكتشف كل من ملّيكان (Millikan) وكولرستر (Kohlorster) أشعة أخرى تصل إلى الكرة الأرضية من وجهة ما في الكون ، وأطلقا عليها الأشعة الكونية ، وموجات هذه الأشعة قصيرة جداً إذا قورنت بأشعة الضوء أو أي نوع آخر من الأشعة المعروفة .

ومن المعلوم أنه كلما قصر طول الموجة كانت طاقتها أشد . وموجات هذه الأشعة العجيبة أقصر بملايين المرات من أية أشعة أخرى ، ولذا فإن طاقتها عظيمة جداً ، ولها قدرة على النفاذ خلال طبقات سميكة من أية مادة معروفة ، وقد أمكن إدراك وجودها في الأنفاق التي تجري فيها القطرات الكهربائية بلندن ، وذلك على عمق ثلاثين متراً من سطح الأرض .

وبالرجوع إلى القياسات التي أجراها ملّيكان على الأشعة الكونية ، وجد أن كمية الطاقة التي تمثلها موجاتها تعادل الطاقة التي تنبعث عند إحالة الإدروجين إلى الهليوم . وكان من الفروض التي وضعها العلماء منذ عهد غير بعيد أن ذرة الهليوم تتألف من أربع ذرات من الإدروجين ، غير أن قياس الوزن الذري لكل من العنصرين لم يتفق مع الفرض المذكور ، لأن ذرة الهليوم تزن أقل من مجموع أوزان أربع ذرات من الإدروجين بقدر ٠,٠٠٨ وحدة وزنية ؛ ولذا كان من الصعب التسليم بهذا الفرض . ولكن أنشتين علل التضارب المزعوم بالقول بأنه عند اتحاد أربع ذرات من الإدروجين

لتأليف ذرة من الهليوم يستحيل جزء من المادة إلى طاقة ، وقد وجد أن الرقم الذي حسبه أنشتين يعادل مقدار الطاقة التي تحملها بعض أشعة مليكان الكونية ، كما وجد أن طاقة بعضها الآخر من الأشعة الكونية تعادل الطاقة التي تتولد لو أننا اعتبرنا الإدروجين والهليوم الحجرين الأساسيين اللذين يتألف منهما كل من الأكسجين والنترجين والمغنسيوم والسليكون والحديد ، وهي العناصر الكيميائية التي توجد بكثرة في معظم النجوم .

وأغلب الظن أنه في تلك البواتق الكونية الهائلة ، وهي النجوم ، تجري باستمرار عملية بناء عناصر ثقيلة من أخف العناصر المعروفة وهو الإدروجين ، وفي عملية البناء هذه يفقد جزء من المادة ، أو بعبارة أصح يستحيل هذا الجزء إلى طاقة تعبر فضاء الكون وتصل إلينا في صورة أشعة غير مرئية ، هي الأشعة الكونية . وهذه الأشعة إن هي إلا رسائل لاسلكية تنبئنا بولادة المادة في جهة ما من الكون ، وباستمرار عملية الخلق في هذا الوجود . ومن المحتمل أنه في جهات أخرى من الكون تتركز هذه الأشعة المشتتة وتستحيل مرة أخرى إلى ذرات من الإدروجين ، فتكون أساساً لخلق جديد .

حسن عبد السلام

عالم المرأة

لمحات من المرأة الهندية

للسيدة أمينة السعيد

أعتقد أن الأمل عنصر أساسي من عناصر الطبيعة البشرية ، لأن له شأناً هاماً في ذهن الإنسان ، فيذلل له الصعب ويقرب البعيد ويحقق المستحيل ؛ وبذلك تنتعش النفس ، فتندفع إلى خوض غمار الحياة بمرتفعاتها ومنخفضاتها وراء صور خيالية براقة قد لا يمكن تحقيقها في يوم من الأيام .

والكثير منا يدرك استحالة تحقيق بعض آماله ، ويقدر تمام التقدير بعدها عن نطاق الإمكان ، ومع ذلك يحنو عليها ، ويتعلق بأهدابها عملا بالحكمة التي تقول : إذا توفرت الإرادة وجد السبيل !

هكذا كان حالي يوم مكنتني الظروف من الطواف بمعظم بلدان الشرق الأدنى فازداد طموحي ، واتسع أفق آمالي ، وتمنيت أن أسافر إلى الشرق الأقصى ، فأرى الهند ، وأختم بها المطاف لبضع سنوات قادمة .

ولم يكن في الظروف التي تحيط بي ما يوحي بإمكان تحقيق هذه الأمنية ، ومع ذلك ظللت أتعلق بأهداب الأمل ، واستعضت — مؤقتاً — عن الرحيل بأحلام اليقظة ، فكنت أطير بعين الخيال عبر البحار ، وأبذل جهداً غير قليل في تصور هذه البقعة النائية من الشرق .

وشاءت الأقدار أن يتحقق الأمل على غير انتظار ، وأن أسافر إلى الهند فجأة من أجل الاشتراك في مؤتمر حيدر آباد ؛ وهكذا وجدتني في يوم وليلة أطير فعلا إلى القطر الذي طالما منيت النفس برؤيته !

لم أكن أعرف عن الهند غير القليل ، لذلك امتلأت نفسي عند الرحيل بشيء كثير من الرهبة والوجوم خشية ما قد أعانيه من وحدة في تلك الرقعة البعيدة من العمران ؛ ولكن لم تكد قدماي تلمسان أرض هذا البلد حتى طفحت نفسي بالبشر ،

وزايلني الوجوم في الحال . ففي الهند لا يشعر المصري بوحشة أو وحدة لما جبل الناس عليه من كرم وإخلاص ووفاء لإخوانهم الشرقيين . ولا شك أنها صفات نادرة قلما يجدها المرء في عالم كعالمنا الحاضر ، طغت عليه المادة ، وشغل الناس فيه بمشاكلهم عن تحية الغريب وإكرامه ؛ ولكن المادة والمشاكل الاجتماعية الخطيرة لم تغير الشخصية الهندية الكريمة ، ولم تخفف من حدّة المحبة أو الشعور بالأخوّة الذي يغمر قلوب الهنود نحو إخوانهم في الشرق وخاصة أبناء العروبة . ولن أكون مغالية إن قلت : إن الشعب الهندي رجالا ونساء يعتبر شعوب الشرق الأخرى إخوة له ، فيتتبع أدق أخبارهم بشوق ، وينظر إلى مشاكلهم بعين الاهتمام . والدليل على صدق ما أقول ما تلاقيه مشكلة فلسطين هناك من رعاية وعطف ؛ فالناس جميعاً يؤمنون بحق العرب ، ويبدون كل الرغبة في تعضيدهم ومؤازرتهم . وكانت مشكلة فلسطين من أهم الموضوعات التي تناولها المؤتمر النسائي الهندي ، ولذلك أصدر قراراً حاسماً يستنكر فيه الهجرة الصهيونية إلى البلاد المقدسة ، ويطالب بحفظ فلسطين للعرب أهلها الشرعيين . وقد وافقت هيئة المؤتمر على هذا القرار بالإجماع ، ولم يتخلف صوت واحد عن التأييد .

ويجرّنا حديث المؤتمر النسائي إلى التحدث عن المرأة الهندية ، فقد مهدت لي هذه الزيارة فرصة الاختلاط بنساء الهند عن قرب ، ودراسة حياتهن وأخلاقهن واتجاهاتهن الفكرية ، سواء في السياسة أو في الاجتماع ؛ ولكن حديث المرأة لا يتضح إلا إذا عرفنا شيئاً عن تلك البلاد .

الهند قطر كبير تزيد مساحته على مساحة أوربا ، تعددت فيه الأديان واللغات والعادات تعددا يفرق بين فئات الشعب ، ويجعل كلاً منها يختلف تماماً عن الآخر ؛ ففيها الهندوس والمسلمون والمسيحيون والبارسي والسيخ إلى غير ذلك من الشيع والأديان . ولكل فريق من هؤلاء لغته وربه ، فالهندوسيّ مثلا يتكلم اللغة الهندوسية ويعبد البقرة ، والمسلم يتكلم الأردو ويعبد الله ، والبارسي يتفاهم بلسانه الخاص ويعبد النار . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التباين والاختلاف أن تقطعت أواصر الصلات بين الناس ، وساد التطاحن والعداء ، وشغل الشعب بمشاكله الدينية والاجتماعية عن مشاكل الوطن وقضاياه . ومما يزيد الأمر تعقيداً أن النظام الإقطاعي مازال قائماً في جزء كبير من الهند ؛ ففي كل مقاطعة من هذا الجزء يحكم مهراجا أو نظام أو أمير ، حكماً مطلقاً وفق رغباته وأهوائه ؛ وبعض هؤلاء الحكام مثقف ذكي يعمل لمصلحة رعيته ، والبعض الآخر جائر ظالم يعيش من أجل المتعة وجمع المال .

والسواد الأعظم من الشعب يعتنق الدين الهندوسي ، ويقوم هذا الدين على نظام دقيق من تعدد الطبقات ، فيبدأ من أعلى بالبراهما أو الأشراف ، وينتهي بالمنبوذين أو الأنجاس . ولكل طبقة حقوق تميزها وترفعها عن الطبقات التي تليها ، اللهم إلا المنبوذين فلا حقوق لهم ولا ميزات .

والمرأة الهندوسية تقاسي الكثير من مساوىء هذا النظام ؛ فدينها أولا لا يعترف بمكانة النساء ، ولا يقر لهن بمقام جليل في المجتمع ، ولذلك كانت الزوجة تحرق يوم وفاة زوجها وتدفن معه . وظل هذا النظام متبعاً حتى تنبه المصلحون الاجتماعيون إلى الوحشية التي تنطوي عليه ، فقاموا ينادون بإبطاله ، ويناشدون الحكومات أن تسن قانوناً يحمي المرأة من هذا المصير ؛ ونجحت الحملة أخيراً ، فمنع القانون حرق الأرملة وإن حرم عليها الزواج ثانية إرضاء للرأي العام !

ولم يذهب التشريع الجديد بمتاعب المرأة الهندوسية ، فما زالت تعاني الكثير ، وتحارب وتجاهد من أجل الحماية الاجتماعية الواجبة ، فقد كان زواج الأطفال شائعاً في الهند إلى عهد قريب ، وحدث في ملايين الحالات أن مات الزوج فى مستهل حياته ، فحكم على زوجه — وهي لم تتعد الثالثة أو الرابعة من عمرها — أن لا تتزوج من بعده ، وأن تعيش أرملة طيلة حياتها . وينادي المصلحون الآن بوجوب السماح للأرملة بالزواج ثانية إن أرادت ، ولكن العقبات تقوم في طريق تحقيق هذا الأمل بسبب اعتراض الرجعيين ، ولهم في الهند نفوذ كبير .

والمرأة الهندوسية لا ترث ، فإذا توفي والدها أو زوجها لا تصيب من ماله مهما عظم درهماً واحداً ، ولذلك تضطر لأن تعيش عالة على أقاربها . ويلاحظ من أجل ذلك أن الهندوسيات القادرات يقبلن على التعلم إقبالا عظيما ليقتحمن الحياة العملية عند الضرورة ، ويكتسبن الرزق بكدهن .

ومما يزيد مشكلة الهندوسيات تعقيداً أن المرأة إذا تزوجت أمهرت الرجل ، وقدمت إليه صداقاً يختلف باختلاف نصيبها من الجمال ، وباختلاف مكانة الأسرة في المجتمع . ويبالغ شباب الهندوس في تقدير هذا الصداق ، حتى غدا الزواج تجارة فاحشة دفعت بعض الآباء إلى الانتحار لعجزهم عن توفير المال اللازم لزواج بناتهم . ويلاحظ من أجل ذلك أن الرجل الهندوسي إذا رزق بفتاة حزن واغتم ، أما إذا رزق صبياً فيعمه الفرح والابتهاج ، لأن الأسرة ستصيب مالا كثيراً عند زواجه .

أما المرأة المسلمة فهي أحسن حالا من أختها الهندوسية بفضل ما يمنحها الدين من حقوق

وبحكم الجيرة والحياة المشتركة اقتبس مسلمو الهند بعض النظم الهندوسية في الإرث، فهم يورثون المرأة في المال لا في العقار ! وليس في بلاد الهند قانون يمنع المسلمة من نصيبها في العقار ، ولكنه تقليد شائع بين أغلبية أفراد الشعب .

والحجاب عقبة كؤود تقف في طريق نهضة المرأة الهندية المسلمة ، وهو حجاب عجيب يلتف حول الجسد ويغطيه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، وأمام العينين فتحتان صغيرتان تغطيهما طبقة من النسيج الشفاف، فلا يكاد البصر يرى من خلالهما شيئاً ! ولا شك أن هذا الحجاب العقيم يمنع الفتيات من الالتحاق بالمدارس والجامعات ، كما يحرمهن المساهمة في خدمة المجتمع ، ولذلك يتفشى الجهل والخمول بين المسلمات .

ومن دواعي السرور أن المسلمة المتعلمة قد خرجت عن هذا الحجاب ، وتخلت عنه تماماً ، فاستطاعت القيام بواجبها الأكمل نحو المجتمع ، وخدمة الوطن سياسياً واجتماعياً. ومن بين المسلمات السافرات البارزات السيدة بيجم شهنواز التي اقتحمت معركة الانتخابات العامة ، وخرجت منها ظافرة ، وأصبحت عضواً عاملا في المجلس التشريعي ؛ ولكن مثيلات هذه السيدة قليلات مع الأسف !

والبارسي أو عبدة النار فئة صغيرة في بلاد الهند ، لايزيد عددهم عن مائة ألف نسمة ، ومع ذلك استطاعوا أن يتبوؤا مكانة اجتماعية هامة بفضل تجارتهم الواسعة وأموالهم الطائلة . والمرأة البارسية شغوفة بكل ما هو أجنبيّ ، تقبل على التعليم الإنجليزي إقبالا عظيما ، وتتشبه بالإنجليز في أسلوب الحديث وفي التصرفات ، وتبذل جهداً شاقاً من أجل التعلق بأهداب المدنية السكسونية ، مما يبعد قلبها عن الهند ، ويشغله عن قضاياه الوطنية .

وفي الهند فريق آخر من الشعب يبعث وجوده الحزن والرثاء ، وهو فريق المولدين — أنصاف الإنجليز وأنصاف الهنود — أو (الأنجلو إنديان) كما يسميه الناس هناك . وهنا أحب أن ألفت النظر إلى أن هذا الاسم لا يطلق أبداً على من كانت أمه إنجليزية ووالده هنديا ، بل يطلق على من كانت أمه هندية ووالده إنجليزياً .

وكان هذا الفريق — أو نتاج الأم الهندية والأب الإنجليزي — ينظر إلى إنجلترا كوطنه وبلاده ، وظل على هذا الشعور أجيالا مما أفقده احترام الهنود وصداقتهم . ولكن الإنجليز أنكروه أيضاً ، ولم يعترفوا قط بإنجليزيته ، فعاش أهل هذه الفئة حيارى لا يعرفون لأنفسهم وطناً أو مصيراً .

ويعاني الأنجلو إنديان احتقاراً اجتماعياً شاملا ، فالإنجليز لا يعترفون بهم ، والهنود

يحتقرونهم من أعماق قلوبهم ، ولا يختلطون بهم ، ونساء هذا الفريق على أتعس حال ؛ فالاحتقار يلاحقهن ، وأبواب المجتمع والوظائف المحترمة مغلقة في وجوههن . وكانت النتيجة أن انحطت أخلاقهن انحطاطاً شديداً ، وساء سلوك الكثيرات منهن ، وتمرغن في الرذيلة ، فازدادت حالتهن سوءا على سوء .

هذه نظرة إجمالية تشرح لنا مركز النساء في الهند على اختلاف أديانهن وعقائدهن ، ومن ذلك نرى أن المرأة الهندية على العموم قد حرمت الكثير من الحقوق الاجتماعية التي تساعدها على الحياة في أمن واطمئنان . والعجيب أن الهندية تتمتع بحق الانتخاب، وهو حق لا يعطى عادة للمرأة إلا بعد أن تستكمل حقوقها الاجتماعية الأخرى .

أمينة السعيد

أعلام النهضة الحديثة

٥

جمال الدين الأفغاني

١٨٣٩ — ١٨٩٧

للدكتور عثمان أمين

السيد جمال الدين الأفغاني علم من أعلام النهضة الحديثة ، وعبقري من عباقرة الشرق في القرن التاسع عشر . مصلح ديني وزعيم سياسي وفيلسوف حكيم . اجتمعت له مواهب عقلية نادرة ، وصفات أخلاقية عالية ، جعلت لشخصيته مغنطيسية تجذب النفوس : فهو باعتراف الجميع كاتب مبدع ، وخطيب بليغ ، ومجادل مقنع ، ومتحدث بارع ؛ وهو أيضاً ، كما وصفه تلميذه محمد عبده ، سليم القلب ، حديد المزاج ، شديد العزم ، شجاع مقدام ، كثير البذل ، قوي الاعتماد على الله ، لايبالي بصروف الزمان ، قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بمتاعها وزخارفها ، راغب عن المادة ، متعفف عن لذات الحس ، مؤثر لمتع الروح ، كلف بمباهج المعرفة ؛ لم

يتزوج وأبى أن يعلق قلبه بالمال أو بالبنين أو بالرتب أو بالمناصب ، وإنما أراد أن يقضي حياته حراً طليقاً كالهواء ، أو كالطيور على الغصون ، أو « كالليث لايعدم فريسة أينما ذهب » كما وصف هو نفسه .

لم يكن لجمال الدين الأفغاني وطن خاص يستقر به ، وإنما عاش منذ طفولته سائحاً جواباً ، فكان وطنه الشرق كله : زار بلاد العرب ومصر وتركيا ، وأقام بالأفغان والهند وفارس ، وسافر إلى كثير من عواصم أوربا ، وقيل أيضاً إنه زار أمريكا ، وكتب في الصحف الشرقية والعربية ، وخطب في المحافل والمجامع العربية والأوربية ، وخالط رجال العلم والدين والأدب والسياسة في الشرق والغرب ، فاكتسب من سياحاته الكثيرة واطلاعه الواسع ، خبرة عميقة بالرجال والشعوب .

تعرف « إرنست رنان » بجمال الدين سنة ١٨٨٣ فوقع في نفس الفيلسوف الفرنسي من السيد الأفغاني ما لم يقع له إلا من القليلين ، وأثر فيه تأثيراً قوياً ، جعل « رنان » يكتب عن جمال الدين فيقول : « وقد خيل إلي من حرية فكره ونبالة شيمه ، وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، أنني أرى وجهاً لوجه أحد من عرفتهم من القدماء ، وأنني أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو أحد أولئك الملاحدة العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

ذلك جمال الدين في رأي رنان . وليس بمقدورنا في هذه العجالة أن نستوفي تاريخ ذلك النابغة الشرقي الذي اختلفت فيه الأقوال ، وحارت في فهمه العقول ، حتى قال فيه الكاتب الفرنسي رُشفور : « السيد جمال الدين الأفغاني من سلالة النبي ، ويكاد هو نفسه أن يكون نبيا » . فبينا يراه رنان فيلسوفا كبيراً وملحدا متحرراً من الدين ، يراه « رُشفور » من كبار دعاة الأديان ، وقريباً من طبقة الأنبياء .

ومهما يكن الأمر فيبدو أن الشقة بين رأيي الكاتبين الفرنسيين غير بعيدة : فإنّ رُشفور نفسه يستأنف حديثه عن جمال الدين فيقول : « وقد عرفت هذا الرجل ، فاهتزّت له جوانحي طربًا ، وخفق له قلبي حبّا ، كما يخفق بالحب لكل داع إلى ثورة أو مناهض لسلطة » . فجمال الدين في نظر الكاتبين رجل من أعاظم أحرار الفكر في العالم ، وحرصه على الاستقلال مفتاح شخصيته، ومقاومته للاستبداد سرّ نشاطه . والحق، كما رأى الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أن جمال الدين في تاريخ الشرق الحديث أول داعٍ إلى الحرية ، وهو أيضاً أول شهيد في سبيلها .

حقد عليه العوام وأشباه العلماء ، ورموه بالكفر والزندقة وافتروا عليه كثيراً ،

لأن صراحته وحرية فكره دفعتاه إلى الجهر بآراء تقوّض صروح المعتقدات السخيفة ، وتحطم أصنام التقاليد البالية . وناوأه أرباب النفوذ وأصحاب الأغراض ، لأنهم رأوا فيه مصلحاً جريئاً . وزعيماً خطيراً . وكان عيبه في نظرهم أنه « يتناول السعوط بيمناه ، ويوزع الثورة بيسراه ! » .

وقضى جمال الدين خمس سنوات من حياته في الآستانة ، يعيش بين مظاهر خداعة من عطف السلطان عبد الحميد ، ومكايد دبرها له رجال القصر . وكثيراً ما سألهم أن أن يأذنوا له بالسفر ، فأمسكوه بقية عمره في « إسار مموّه بالذهب » ، كما وصفه سائح أوربي زاره سنة ١٨٩٦ . وأخيراً ضاقوا به ذرعاً ، فدسوا له السم ، وحسبوا أنهم استراحوا منه ، ولو إلى حين . مات جمال الدين في الآستانة في ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ، فكانت حياته قصيرة خاطفة ، ذاق فيها مرارة السجن والمنفى ، وعرف فيها صنوف التشريد والاضطهاد . ولكنها كانت حياة بطولة ، رفيعة متلألئة ، حافلة بجلال الأعمال وعميق الآثار . وقد بقيت تعاليمه الخالدة موقظةً لأبناء الشرق ، باعثةً لهم على اقتلاع جذور الفساد والجهل والطغيان .

***

وتعاليم جمال الدين ترمي في صميمها إلى غرضين : إصلاح الإسلام ليساير المدنية الحديثة ؛ وتحرير الشرق من سيطرة الغرب . رأى جمال الدين انحطاط أخلاق المسلمين وسقوط هممهم وتحكم الشهوات فيهم ، وأيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الإسلامي ، وأدرك سوء المصير إذا لبث المسلمون على حالهم ، فهبّ ينذرهم بسوء المصير ، ويدعوهم إلى الإصلاح . قال مرة للأمير شكيب أرسلان : « قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل في أن يصلحوا إلا بأن ينشؤوا خلقاً جديداً وجيلاً مستأنفاً . فحبذا لو لم يبقَ منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر ، فعند ذلك يتلقون تربية جديدة تسير بهم في طريق السلامة » . وقال للشيخ عبد القادر المغربي : إنه لابد للمسلمين من حركة تجديد ديني ، لأننا إذا نظرنا إلى النهضة الأوربية وجدنا من أهم أسبابها حركة الإصلاح الديني البروتستنتي منذ عصر لوثر . وقال : « إن حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع ما رسخ في عقول العوامّ والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي ، مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب أن لايتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل ؛ ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان فهماً حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح . . .

فلا بد من بث العقائد الدينية الحقة بين أفراد الجمهور وشرحها لهم على وجهها الصحيح ، لكي تقودهم لما فيه خيرهم دنيا وأخرى . ولابد أيضاً من تهذيب علومنا وتنقيحها ، وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ لنستعين بها على تقدمنا، لا أن نجعلها علما مقصودا لذاته» .

لقد كانت حركات الإصلاح في الإسلام قبل جمال الدين ، حركات رجعية ، بعيدة عن ميول التجديد . فكان دعاة الإصلاح ينسبون اضمحلال المسلمين إلى إهمالهم تطبيق الشريعة الإسلامية وبعدهم عن بساطتها الأولى .

ولكن طرافة جمال الدين أنه دعا المستنيرين من المسلمين إلى النظر في حالهم ، لتحقيق نهضة دينية تجديدية ، تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبيَّن لهم أن الإسلام ، إذا فهم على وجهه الصحيح يستطيع أن ينمو نمواً طبيعياً ، وأن يتقدم تقدماً يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية ، وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية .

* * *

غير أن أهم مظهر لنشاط جمال الدين هو السياسة . رأى في الشرق تخلفاً ناشئاً عن ضعف الإرادة ، وانحلال القومية ، وتفرق الكلمة والاستسلام للخمول ، وبعد النفوس في معظم الشرقيين عن مرامي العزة النفسية ، وحرمانهم لذة ما تنبسط به الروح عند نيل المتعة القومية والحرية الحقيقية . ورأى في الغرب تقدماً مادياً عقلياً ، وروح تعصب على الشرق ، وعدواناً على بلاده ، وسعياً إلى إذلال شعوبه ، بحجة ضعف الشرق عن أن يكون قوّاماً على شؤون نفسه . ورأى أن العالم الغربي ، على اختلاف أممه وأجناسه ، عدو مناهض للعالم الشرقي ، فسعى سعياً حثيثاً لجمع شتات أهل الشرق ، وتوحيد كلمتهم ، وإيقاظ هممهم للذود عن كيانهم ، والخلاص من الخطر الغربي المحدق بهم . ورأى أن السبيل إلى ذلك أن يسعى كل ملك أو أمير في الشرق إلى ترقية شعبه ، وتحصينه بالحكم الشوري الدستوري ، ووقفه على أسرار التقدم الغربي ، ثم تقويته بالتحالف والاتحاد مع الأمم الشرقية الأخرى ، لتلتقي جهود الجميع عند الغرض المشترك ، وهو التحرر السياسي . يقول جمال الدين : « لقد برز الأوربيون في ضروب السياسة لتوسيع ممالكهم ، ، وتفننوا في إيجاد الوسائل المؤدية إلى ذلك ؛ وكان أسبقهم في الدهاء ، وأكثرهم في الاستيلاء ، الإنجليز ؛ وهم في مقدمة من رأى من دول الغرب أن فتح البلاد وتملكها بالجيوش والقتال من مزعجات الأمور ، وأن الدخول من باب المكر واللين والخديعة أسهل وأقرب وأفعل ، فاعتمدوا هذا الأخير سلاحاً ، ونالوا به نجاحاً ، وألبسوه طيلساناً ، ودعوه الاستعمار أو غير ذلك من الأسماء » .

وكثيراً ما كان جمال الدين يندد بالأمراء والزعماء في الشرق ، لغفلتهم عما يريد بهم أهل الاستعمار من دول الغرب . فكأن التجارب لا تعلم الشرقيين ، وكأن المحن لا تربيهم ، مع أن الواقع وعبر التاريخ تدلنا على أن المستعمرين في ماضيهم وحاضرهم إنما يملكون البلاد بأيدي سكانها . يرى الأمير أو الزعيم الشرقي هذا في أرض جاره ، فيظن النازلة خاصة بغيره ، فيلهو عنها . مثل الشرقيين في ذلك مثل الأغنام تساق إلى الذبح واحداً بعد واحد ، حتى تفنى ، وسائر القطيع في غفلة عما يجري . وكذلك ندد بالكثيرين من الشرقيين الذين يختارون موالاة الأجانب ، ويرضون أن يكونوا أعواناً لهم على امتلاك بلادهم ، قانعين من ذلك كله « بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة ومظاهر الفخفخة . . » بل طالبين المعونة من الأجنبي على أبناء أمتهم ، « استبقاء لذلك الشبح البالي والنعيم الزائل » .

وهو يدعو الشرقيين إلى الاتحاد فيقول في فاتحة جريدة « العروة الوثقى » سنة ١٨٨٤ : « بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين منهم . فمن ملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوي حقوق في الإمرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاماً . ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين في أطماعهم ، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها » .

ثم يقول : « إن الرزايا الأخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق (يقصد مصر بعد الاحتلال الإنجليزي) جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصوا في طلب الحق . . . راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلاً حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف » .

وخلاصة مذهب جمال الدين السياسي الدعوة إلى وحدة شرقية عامة تكفل لأمم الشرق استقلالها وحريتها ، فقد كان يعتقد أنه لا يرجى لأمم الشرق سيادة ولا سعادة إلا إذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ، وكان حكامها خداماً لها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والإخلاص كافأته ، ومن خانها أو أساء إليها عاقبته ، ومن فتن بحب الرياسة أقصته .

وإذن فقد كان الشرق هو الهم الأكبر لجمال الدين ، يهتف باسمه ، ولا ينقطع عن ذكره ، ليله ونهاره . روى المخزومي باشا أن السيد الأفغاني كثيراً ما كان يقول : « الشرق ! الشرق ! لقد خصصت جهاز دماغي لتشخيص دائه ، وتحري دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه وما يعترض في سبيل توحيد الكلمة فيه داء انقسام أهليه، وتشتيت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف : فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا ! ولا تقوم على هذا لقوم قائمة » .

ولكن جمال الدين لم يقنط من تحقيق الوحدة الشرقية ، بل سعى إليها سعياً متواصلاً ، وتحمل في سبيلها أنواع المكاره ، معتقداً أنها إن تكن بعيدة فليست مستحيلة . وكان يستبشر بكل اعتداء أو عسف أو جور يحيق بالأمم الشرقية من الأمم الغربية ، ويقول : « بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة . والأزمة تلد الهمة » .

***

ذلك مجمل الدعوة التي حمل لواءها جمال الدين الأفغاني . وكان من أثر تعاليم الرجل أن استيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في مختلف بلاد الشرق . والواقع أن جمال الدين كان المنبه الأول للانقلاب الذي حدث بفارس في أواخر القرن الماضي ، وكان لنشاطه أثر في الحركة التي قامت في تركيا منادية بالإصلاح الدستوري . وبلغت ذروتها في الثورة السياسية التي تزعمها مدحت باشا .

على أنه ما من قطر من أقطار الشرق أثر فيه جمال الدين مثل تأثيره في مصر . استطاع الرجل بخطبه الملتهبة أن ينفث في النفوس نزوعاً إلى الحرية ورغبة في الاستقلال . خطب مرة في الإسكندرية قبل خلع الخديو إسمعيل ، فقال : «أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » .

بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق في إيقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين إلى حقوقهم قبل الحاكمين . فاتجه الناس إلى نقد تصرفات الحكومات ، وأخذت تتضاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق في التصرف في شؤون الرعية . وليس من شك في أن لجمال الدين يداً في الحركة العرابية . ومن المحقق أن المبدأ الوطني الذي سيطر على تلك الحركة كان من غرسه وزرعه ، كما يقول الأمير شكيب أرسلان : « وإن كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهل ونقصان التربية السياسية ، ولفحة الدسائس الأجنبية ما صوح نضرته ، وأذهب ثمرته ، شأن تلك الدسائس على كل

نهضة تحدث في الشرق ، أو حركة إصلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار . إلا أن ذلك الزرع لم تذهب بذرته من الأرض ، وعاد فأخرج شطأه ، وما زال ينمو حتى استوى على سوقه ، يعجب به جمال الدين لو عاش إلى اليوم ، ويغتاظ به الذين لا يبرحون مماطلين في الجلاء عن مصر » .

والحق أن قدوم السيد جمال الدين إلى مصر كان مبدأ النهضة الفكرية التي بدأت في البلاد العربية ، وسائر بلاد الشرق الأدنى ، ولم تزل تنمو إلى الآن ، رامية إلى اكتناه أسرار القوة الغربية ، وإعادة الشرق سيرته الأولى من العلم والمدنية . ولم تكن الجامعة التي ينشدها جمال الدين هي « الجامعة الإسلامية » كما قيل ، وإنما هي في صميمها « الجامعة الشرقية » ، وهي جامعة المستقبل ، وأظن أننا سائرون في طريقها ، لأنها مناط أمل الشرق في دفع مطامع الغرب .

عثمان أمين

من أدب العرب

بديهة حاضرة

كان أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى بين يدي المنصور بن أبي عامر، فأحضرت إليه وردة في غير وقتها ولم يستتم فتحُ ورقها، فقال فيها صاعدٌ مرتجلا :

أتتك أبا عامرٍ وردةٌ يذكرك المسكُ أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطتْ بأكمامها راسها

فسرّ بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضراً، فحسده، وقال لابن أبي عامر: هذان البيتان لغيره، وقد أنشدنيهما بعض البغداديين لنفسه بمصر، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه !

فقال له المنصورُ: أرنيه، فخرج ابن العريف، وركب، وحرّك دابته، حتى أتى مجلس ابن بدر، وكان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتي صاعد :

غدوت إلى قصر عباسة وقد جدّل النوم حرّاسها
فألفيتها وهي في خدرها وقد صرّع السكر أنّاسها
فقالت : أسار على هجعةٍ فقلت : بلى فرَمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة يحاكي لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

فسار ابن العريف بها، وعلقها على كتاب بخط مصري، ومداد أشقر، ودخل بها على المنصور.

فلما رآها اشتد غيظه على صاعد، وقال للحاضرين : غداً أمتحنه، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان.

فلما أصبح وجه إليه، فأحضر وأحضر جميع الندماء، فدخل بهم إلى مجلس، قد أعد فيه طبقاً عظيما، فيه سقائف مصنوعة من جميع النوادير، ووضع على السقائف

لعب من ياسمين في شكل الجواري ، وتحت السقائف بركة ماء ، قد ألقي فيها اللآلي مثل الحصباء ، وفي البركة حية تسبح .

فلما دخل صاعد ، ورأى الطبق ، قال له المنصور : إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا ، وإما أن تشقى به عندنا ، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتي به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك قبلي شكله ، فصفه بجميع ما فيه ، فقال صاعد بديهة :

أبا عامر هل غير جدواك واكفُ ... وهل غير من عاداك في الأرض خائفُ
يسوق إليك الدهر كل غريبة ... وأعجب ما يلقاه عندك واصف
وشائع نوْر صاغها هامرُ الحيا ... على حافتيها عَبْهرٌ ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت ... عليها بأنواع الملاهي الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنساً ... تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب منها أنهن نواظر ... إلى بركة ضمت إليها الطرائف
حصاها اللآلي ، سابح في عبابها ... من الرقش مسموم الثعابين زاحف
ترى ما تراه العين في جنباتها ... من الوحش حتى بينهن السلاحف

فاستُغربت له يومئذ تلك البديهة في مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه .
وكان إلى ناحية من تلك السقائف سفينة ، فيها جارية من النوار ، بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أحسنت إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية فقال للوقت :

وأعجب منها غادة في سفينة ... مكللة تصبو إليها المهاتف
إذا راعها موج من الماء تتقي ... بسكانها ما أنذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب ... تصرّف في يمنى يديه المجاذف
ولم ترعيني في البلاد حديقة ... تنقلها في الراحتين الوصائف
ولا غرو أن ساقت معاليك روضة ... وشتها أزاهير الربا والزخارف
إذا قلتَ قولا أو بدهتَ بديهة ... فكلني له ، إني لمجدك واصف

فأمر له المنصور بألف دينار ، ومائة ثوب ، ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً ، وألحقه بالندماء .

شاعرة انجليزية بروح هندية
"لورنس هوب"

للأستاذ عباس محمود العقاد

من رأينا أن الفنون الجميلة صناعة رجال في جميع الأمم وجميع العصور، وليست بصناعة نساء ، ولاسيما الشعر والموسيقى .

ونحن نستند في هذا الرأي إلى الطبيعة وإلى التاريخ .

فالطبيعة قد جعلت المرأة ملبية مستجيبة ، ومنحت الرجل قدرة التعبير والمطاردة وعممت ذلك بين الذكور والإناث في أنواع الحيوان ، وزودت الذكور بجهاز الصوت الذي يبلغ تمامه في سن الرجولة فيصلح للنداء والغناء أو يصلح للتعبير والتأثير .

أما التاريخ فلم يظهر لنا امرأة واحدة إلى جانب كل مائة رجل يبتكرون في الشعر والموسيقى وسائر الفنون الجميلة ، ولا يقال إن المسألة هنا مسألة تعليم ودراسة ؛ لأن التعليم الذي أنجب الشعراء في الأزمنة القديمة كان ميسوراً للذكور والإناث على حد سواء ، وما قصرت المرأة في ابتكار الغزل والأناشيد لأنها كانت تذاد عن العزف والغناء ، فقد كانت تعزف وتغني في جميع عصور التاريخ ، ولا قصرت في الرثاء لأنها كانت تذاد عن النوح والبكاء ، فقد كانت تنوح وتبكي على الموتى ولا تجيد مع ذلك في رثائهم بعض إجادة الفحول من الشعراء .

فالشعر المبتكر في المرأة هبة نادرة .

وإذا نبغت امرأة في الشعر فالغالب أن تكون واحدة من اثنتين : فإما أن تكون امرأة «مستثناة» أوشاذة في طبائع جنسها ، فتنتحل طبيعة الرجل وتتغزل غزل الرجال، كما كانت « سافو » اللسبية تتغزل بالعذارى الناشئات .

وإما أن تكون امرأة أنثوية الطبيعة أتيح لها ظرف من الظروف النادرة التي

تزكي أنوثتها وتنميها وتخصصها بحرية التعبير ، فتبلغ بالأنوثة مبلغها من تمثيل طبيعة التلبية والاستسلام والفناء فيمن تهواه .

والشاعرة التي نكتب عنها هذا المقال من هذا الطراز ، فهي من الأنوثة في الصميم ، وليس في شعرها كله همسة واحدة من همسات الغزل كما يختلج في نفوس الشعراء الفحول .

هــــذه هي الشاعرة الإنجليزية التي اشتهرت باسمها القلمي لورنس هوب Laurence Hope وعاشت في الهند ونظمت فيها دواوينها الكبرى « كالحب الهندي » و « نجوم الصحراء » و « حديقة كاما » فصورت فيها روح المرأة الهندية أجمل تصوير ، لأنها أشربت هذه الروح وامتزجت بها كل الامتزاج ، وماتت كما كانت المرأة الهندية تموت في الزمن القديم ، فقتلت نفسها على قبر زوجها الذي كانت تهواه وتنظم الغزل فيه ، وكان رجلاً وسيماً شجاعاً قوي النفس جذاب الحديث تولى قيادة بعض الفرق الإنجليزية والهندية في مدراس ومات عنها ، فلم تطق بعده عيشاً في الهند ولا في بلادها ، فانتحرت على قبره وهي في مقتبل الحياة .

كانت أنثى غريبة في بلاد تبلغ فيها الأنوثة غايتها من الدماثة والعذوبة والاستسلام للرجل المحبوب ، وللمقادير .

وفناء المرأة فيمن تهواه طبيعة من طبائعها الخالدة التي يتشابه فيها الشرق والغرب والزمن القديم والزمن الحديث ، ولكنها لا تتجلى في وطن من الأوطان كما تتجلى في الهند البرهمية أو البوذية ، لأن الفناء في الحب والعبادة دينها الذي استولى على عقولها وقلوبها من أقدم العصور ، فتعوّد الناس هنالك أن يؤمنوا بفناء المخلوق في الخالق وفناء الرعية في السيد المطاع وفناء المرأة في مولاها وفناء الوجود في « النرفانا » الأبدية التي لا تحيط بها العقول .

كانت مسز نيكلسون أو لورنس هوب ، كما عرفت بين الأدباء والقراء ، «أنثى» في الصميم ، فتجاوبت المرأة الإنجليزية والمرأة الهندية في تلك الأنوثة الغامرة ، واستطاعت المرأة الإنجليزية بما ملكت من الحرية الاجتماعية التي لا تملكها زميلتها أن تكشف نفسها ثم تتوارى وهي آمنة وراء صورة « المرأة الهندية » التي تزعم لقرائها أنها تمثلها وتترجم عن شعورها .

وهذا هو « الاستثناء » الذي أتاح لهذه الشاعرة أن تقول ما لا تقوله سائر

النساء ، لأنها تقوله بلسان غيرها ، وتقوله بالحرية الاجتماعية التي عزت على بنات الهند في جيلها وهو جيل سابق لعصر التحرير النسوي الحديث .

ومن ثم استطاعت « لورنس هوب » أن تعبر وأن تلتزم في الوقت نفسه طبيعة الأنوثة التي تناقض التعبير لإيثارها التلبية والاستسلام والفناء الصامت فيمن تهواه على البوح والكلام .

بل لهذا استطاع « الفناء الصامت » أن يقول ماتسمعه فتترجمه ،فإذا هو في لبابه معنى التسليم الصامت ومعنى الأنوثة الملبية في الصميم .

جاء التعبير من الغرب ، وجاء معتذراً أو مستتراً وراء الأنوثة الهندية التي لا تريد أن تقول ،أو التي يقال باسمها ماهي صامتة عليه . فاتفق الصمت والتعبير على هذا المنوال .

ولولا أن الشاعرة الإنجليزية نظمت أغاني الهند لما سمعنا ما تشعر به المرأة الهندية في القصيد المنظوم. ولولا أن هذه الشاعرة الإنجليزية توارت بدعوى الفن وراء أخواتها في الهند لما انكشفت لنا أنوثتها هي هذا الانكشاف .

وبعض الأمثلة أدل من الوصف على خصائص هذا « التعبير » الغريب الذي يتألف من مزيج نادر من الصمت والمواربة ، ويعطينا طريقة ممتعة لا تكثر نظائرها في أدب المرأة ولا في آداب المشرق والمغرب ، ولكنها على هذا باقة أزهار تليح لنا باللون البهيج وتنسم علينا بالعرف الشذيّ ، ولا تغنينا كل الغنى عن جو البستان .

ما لا يدرك

آه . ليت دمي ماء ، وليتك ظمآن . وليتنا معاً في صحراء جرداء مقفرة من الزرع والماء ،

إذن لسفكت دمي راضية لو علمت شيئاً واحداً ، وهو أنه يمس شفتيك قبل أن يسيل على الرمال .

***

رضيت عني الآلهة مرة فألقيت بنفسي على حية رقطاء زحفت إلى حيث ينام الحبيب ، وكان الحب الذي يجمعنا دون هذا الحب الذي يلتهم أوصالي كلها الآن .

***

لكن ماذا عساي أن أصنع لك أنت واحسرتاه

لقد رفعك القدر وسما بك الجمال فوق كل غوث يأتيك مني ، فأنت أعلى من خدمة الخادم وأبعد من هيام الهائم ، وأنت في سمائك لا تدركك الآمال .

أغنية خان زاده

كنت كأنني أرشف الشراب من كأس غيري
لأنك أعطيتني قربك ولم تعطني روحك
وواعجبي الآن أين تستريح
حين ينتهي بك المطاف .

* * *

أعطيتني جمالك مدى ساعة قصيرة
فضممت عليه نفسي كأنه زهرة
وأردت أن تفارقني ، وصارحتني بذاك
فقبلت قدميك وتركتهما تسيران .

أمنية

هبني نفسك ساعة ، إنني لا أطمح إلى حب . . . كلا ولا إلى فكرة منك تشغلك بي
بل تعال كما يلاطف السلطان عبداً من عبيده
ثم انسني إن شئت ، غاية النسيان .

* * *

تعال كنسيم المغرب الذي يحيينا عابراً ببرده ونداه
ويتنفس على القفار فإذا هي بعده بساط من الرياحين
وسأبقى ما حييت غير ناسية ولا سالية
ولا محرومة عطر تلك الساعة التي تفردت بالتمام .

ليلة الزفاف

العريس :

وهبت لك داري وضيعتي ، وهي غنية بالحصاد الذهبي
وأسلمتك سيفي ودرعي وجواهري ، وهي غنائمي من جهادي

ولك أنت قوتي ونجوى ضميري وكل ما جمعت من مجدي وفخاري
وفي هذه الليلة . في هذه الليلة ، سأهب لك لباب حياتي .

العروس :

لا أرفع عيني إليك يا مولاي
ولا أنبس بكلمة . فما الجدوى ؟ إن صوتي ليخذلني
ولكنني بين أهدابي المسبلة ، أحس جمالك
فأرجف من الغبطة تحت قناعي .

الأخوات الصغيرات :

إننا نريق العطور الحلوة على رأسها
وننثر الأزهار اللطاف حول سريرها
آه ليته كان يومنا ، ليته يوم زفافنا .

الأم :

انني أرى بنيتي ولا أستوضحها من خلال دموعي
فيا لتلك القبلات الذاهبة مع السنين ؟
إنني أرى العريس وإنه والله لملك من الملوك بين الرجال
فيا لحبي الأول . ويا لشبابي الذاوي مع الأيام .

العروس :

أخالني أخاف هذه الليلة ، وأخال كل حاسة فيّ تخذلني
كيف أقوى على ضم هذه النفاسة كلها !
لقد خاف اسمك الكثيرون ، ولكنني أخاف سناك ولمحة محياك . .
سيد الحياة . كن رفيقاً بخوفي .

الأخوات الصغيرات :

إن أختنا لترفل في أنعم الحرير
وعلى صدرها اليواقيت والفصوص
حيث تنام الليلة جوهرة أغلى في ذلك الصدر من ذخائر الكنوز .

القيان الراقصات :

انظرن . إن شعره ناعم كالحرير ، وإن ثناياه لأنصع من أجمل أزهار الياسمين ؟
فوا آسفا له يقترن بهذه العروس
وددنا لو نبيع جواهرنا بقبلاته . . !
وإنه لفجيعة لنا هذا الزفاف أيتها الأخوات .

العريس :

أما آن للغناء أن يصمت ولليل أن يشملنا بسكينته ، وللأبواب أن تسمعنا أقفالها وللشفاه أن تتلاقى ، وللنفسين أن تجتمعا في نفس واحدة !
أما آن لكياني أن يشرب شبعه من كيانك أيتها المحبوبة الغالية !

عابر سبيل :

من فضل هذه الأفراح في يوم زفافكم أيها الإخوان جودوا عليّ بالقليل
إن الطريق طويلة والمعبد بعيد ، حيث تستريح هاتان القدمان المنهوكتان
وما برحت الأفراح حزناً لأولئك الذين يرمقونها من وراء الأبواب
وما برح الحب حلماً من الأحـــلام
وما كانت الحياة نفسها بأكثر من ذاك .

غابة الساج

أتراني أحبك ؟ من يدري ؟ من يقول ؟
أتراني ملقاة إليك بيد المقادير في تيار الغير والجدود ؟
أتراك أنت من كتب له أن يوقظ تلك الأشواق التي لا تسمى ولكنها تحرقنا جميعاً في نيرانها الخفية ؟
من يدري ؟ من يقول ؟

✡✡✡

عجباً للحياة ! وعجباً لما في الحياة من خلاف !
لقد سمعنا نواقيس المعبد ترن في الفضاء ، وسمعنا أطفال العرس ينشدون ويعبرون

هو موسم الزفاف . . . هو موسم الربيع
هو موسم مترع بأنفاس الرياحين التي تلهبها أشعة الشمس الوهاجة
تلك الرياحين التي تتفتح في ضياء أحمى من ضيائنا
وتحت سماء زرقتها أحمى من زرقة هذه السماء
أتيت إليك .

* * *

قصصت عليّ النوادر مما اضطربت به حياتك الساطعة
حيث يقسو الموت وينضج الخطر والخوف
حيث الأجمة كثيفة مظلمة والأشجار عصية مسمومة
حيث الآلام والشهوات تحتدم كالنار وتثلج كالزمهرير
قصصت عليّ نوادر الظهيرة في الجنوب ونوادر الليالي الشرقية التي يجن فيها الحب من سكرات اللذة الجامحة
حيث الرجال يذبحون والبنات يرقصن ، والدنيا تمور بالدم الفوار
وأصغيت ، وسمعت وأنا مسحورة راقدة ، فأسرعت مني إليك قبلة على ثغرك ، كما يسرع العصفور المنحدر إلى الجنوب .

* * *

وفي ذات ليلة غرقت فيها البطاح بدماء من أشعة الشمس القرمزية
خرجنا نهيم بين شجرات الساج الفتية
تتعانق أغصانها في نسمات الليل الرفيقة
فأخذتَ بيدي إلى حافة الغدير . . .
الغدير الذي تروي منه النمور ظمأها العنيف
وقلت لى : هنا في الظلام لا يخلو الليل من ماء !
لا أصابته حرقة كهذه الحرقة ولا جفاف كهذا الجفاف
وتناجيت بيني وبين نفسي : أ كانت لنا ثمة أرواح ضارية في الأجساد الآدمية ؟
فما كان أظمأني إلى مهجة حياتك في ذلك الظلام
وهبط الليل سريعاً ، لأن هذه الأرض لا تجود لنا بشريط من الشفق بين ساحل النهار وعيلم الليل ، بل تأخذ النور سريعة وتعطيه سريعة ، بلا وناء
واضطجعنا على ناحية من الهضبة نستمع على البعد إلى صياح الطواويس ، أو

نستمع إلى ساكني الغاب على العشب المحترق يختلسون الخطوات
نستمع إليها ولا ندري أفي طلب الحب أم طلب الطعام تلك الخطوات المختلسة
وما كنت أدرى كذاك ، تحت قبلاتك — أكنت أبغضك أم كنت أهواك ؟!

٭٭٭

وإنما كانت كلماتك من لهب وقبلاتك من نار
ومن ذا الذى يصد السيل العرم من دوافق الأهواء ؟
حاشاي . حاشاي . أنا الزورق المحطوم قد ضل على بحر من النوازع والنزوات
وسيان أتيت إليك عن حب أو عن بغضاء
فقد كتب القدر في لوحه المحفوظ أن آتي إليك
وهذه حروفه بينة في كل مسحة دامية من السماء الحمراء
ناطقة في كل نغمة هنالك من صيحات الطواويس .

٭٭٭

نعم . وهذه نغمات الغاب . كل نغمة منها تضرم لهب النار التي أوقدتها
إن هذه « الأشياء » لقديرة على تحريض الدماء
تدفعنا معها كما تشاء لها كل طارئة وكل خاطرة
وما نملك من الخيرة إن أحببنا أو كرهنا
إلا ما تملك الموجة ، إذا ارتفعت ، أن تفارق عباب الماء .

٭٭٭

أبداً نحن عبيد هذه « الأشياء » . . .
عبيد الشمس التي تتوهج والرياح التي تثلج الأوصال
عبيد النسيم العطر ، والهواء الرطيب
عبيد الصيحة التي تلم بالأذن من بعيد « نصف إلمام »
هذه العوارض تملكنا أبد الأبيد
وتعلو في نفوسنا بقاع الجحيم إلى عنان السماء .

٭٭٭

أأحبك ؟ أنت لا تسألني هذا السؤال
ولا تضيع نفسك في مأرب غير مشكور
إنني أجيب قبلاتك بمثلها . . . أقل ما هناك !

ماذا يضير أكانت من النار أم من الزمهرير
إنني أشعر بالقوة التي تسري في ذراعيك
ماذا يفيد إن كان فيها الألم أم كان فيها السرور
إنك لحكيم يا صاح . تأخذ ما تجود به المقادير
لا تقول ، لاتسأل ، وتقبل ما أتاك وأنت قانع قرير
وها أنا معك لأتلقى منك قبلاتك
ولعلي أكبرك لهذا وأزيد في إكبارك
تلك هي الحكمة : نحب ، ونعيش ، ونأخذ ما أرسله القدر ، ولا نسأل ، ولا نجأر بالدعاء .
نقبل الثغر ، ونداعب الشعر ، وندع العاطفة تعلو في مدّها ، ونحييها وهي عالية ونأخذ ، ونطوي يدينا ، ثم نبسطهما إذا حان الأوان ، ليذهب ما طويناه .

أقل من التراب

أقل من التراب تحت دولاب ركابك
أقل من الصدإ الذي لم يعل قط على حسامك
أقل من الوثوق الذي لك فيّ يا مولاي
. . . نعم أقل وأهون من كل ذاك .

* * *

أقل من العشب الذي ينمو عند بابك
أقل من الساعات التي تمر بي في بعادك
أقل من حاجتك التي في هذه الحياة
نعم أقل وأهون من كل ذاك .

* * *

أما ومولاتك « لا شيء » لديك
فهذا هو سيفك يا مولاي أشحذه لك وأجلوه
والموت آخر هبات الحب يا مولاي !
أعطني الليلة إياه . . . أعطني إياه !

أنت إلهي

أنت إلهي ، وددت لو صليت إليك
لأعبدك بتلك المناسك والصلوات التي عرفوها من قديم
أحرق لك البخور المعطر في مصابيح الفضة بين يديك
وأريق الطيب على قدميك بين الحمد والثناء .

***

واحد أنت وأنا فى نعمتك ورضاك
ومنك أنت سربال الجمال الذي أتمناه وأتوق إليه
واحد فيما ترويه أسفار الشرق القدسية
وحدة الذهب والسوار ، ووحدة الموجة والماء .

***

هذه وأشباهها معاني الشعر الغزلي أو الشعر « الصوفي » الذى تفيض به دواوين لورنس هوب ، وليست هي على اختلاف تعبيراتها إلا نماذج متفرقة تدل على « النوع » ولا تحصي جميع ما فيه من الشيات والألحان .

ولا تتم المتعة في ترتيل أناشيدها حتى يسأل القارئ نفسه ؟ من ذا يتكلم في هذه الأناشيد ؟

وإنه ليستوفي المتعة الأدبية والمتعة النفسية إذا استطاع أن يجيب : إنها شاعرة غربية تتكلم . . إنها فتاة هندية تتكلم . . إنها الهند كلها تتكلم . . بل هي الطبيعة كلها قد أوحت إلى « العبقرية الأنثوية » أن تتكلم بلسانها الأبدي في لغة الرياء ولغة الحياء : شعور من قلب الشرق وشعر من لسان الغرب ، وصراحة من ثم تحت هذا القناع .

عباس محمود العقاد

حنين

للصمة بن عبد الله ☆

حنَنْتَ إلى ريَّا ونفسُكَ باعَدتْ ... مزارَكَ مِنْ ريَّا وَشَعْبا كُما معا

فما حَسَنٌ أنْ تأْتِيَ الأمْرَ طائِعاً ... وتجْزَعَ أَنْ داعي الصَّبابَةِ أَسْمَعا

قِفَا وَدِّعا نجْداً وَمَنْ حلَّ بالحِمَى ... وَقلَّ لِنجْدٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوَدَّعَا

بِنَفْسِيَ تلكَ الأرْضُ مَا أطْيبَ الرُّبَا ... وما أحْسَنَ المُصْطَافَ والمُتَرَبَّعَا

وليْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ ... عَلَيْكَ وَلَكِنْ خلِّ عَيْنَيْكَ تدْمَعَا

وَلمَّا رَأَيْتُ البِشْرَ أعْرَضَ دُونَنَا ... وَحالَتْ بنَاتُ الشَّوْقِ يحْنِنَّ نُزَّعَا

بَكَتْ عَيْنِيَ اليُسْرَى فَلمَّا زَجَرْتُها ... عَنِ الجَهْلِ بعْدَ الحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا

تَلَفَّتُّ نحْوَ الحَيِّ حتَّى وَجَدْتُني ... وَجِعْتُ مِنَ الإصْغَاءِ لِيْتاً وَأَخْدَعَا

وأذْكُرُ أيَّامَ الحِمَى ثُمَّ أنْثَنِي ... عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أنْ تَصَدَّعَا

☆ هو شاعر غزل هوي بنت عم له يقال لها ريَّا خطبها إلى عمه فزوجه إياها على خمسين من الإبل فجاء إلى أبيه فسأله ذلك فساق عنه تسعاً وأربعين وقال عمك لا يناظرنا بنقصان ناقة فساقها إلى عمه وذكر له ما قال أبوه فأبى أن يقبلها إلا كملا فلج أبوه ولج عمه فقال والله ما رأيت ألأم منكما جميعاً وإني لألام إن أقمت معكما فرحل إلى الشام فتبعتها نفسه فقال هذه القصيدة .

يحاول العلماء في هذه الآونة مجاراة الشعراء في الاتصال بالقمر وارتياد مجاهله على سفينة « الرادار » لا على سفينة الخيال . ونغتنم هذه الفرصة فننشر أربع قصائد يتجلى فيها رأي بعض الشعراء في هذا الكوكب ومكانته من نفوسهم .

القمر

للمرحوم الشيخ نجيب الحداد

إذا مُلئتْ من البدرِ العيونُ ... وهاجتْ منه أو سكنتْ جفونُ

وأقبلَ في منازلهِ انتقالاً ... يحفُّ به من الليلِ السّكونُ

رأيتَ بدائعَ الأفلاكِ تُجْلَى ... بما يجلو به الهمَّ الحزينُ

وسار البدرُ يسبحُ في سماءٍ ... عليها من كواكبها سَفينُ

تمرُّ به السحائبُ مسرعاتٍ ... فيخفى تحتهنَّ ويستبينُ

كخودٍ أقبلتْ في الروض تسعى ... فتظهر ثم تحجبها الغصونُ

تقابل وجهَهُ فيلوح فيه ... لصورة وجهك الرّسْمُ المبينُ

فتحسب منه أن هناك ماءً ... ولا ماءٌ هناك ولا عيونُ

جنازة ميّتٍ لا نعشَ فيها ... ولا أيدٍ حملن ولا أنينُ

قرينُ الأرض ليس يغيبُ عنها ... ولكن لا يواصلها القرينُ

يدورُ بها ولكن حين يدنو ... يفرُّ فلا يُجيب ولا يلينُ

كمعشوقٍ يداعبُ ذاتَ خدرٍ ... فلا يُعطَى الوصالَ ولا يبينُ

فكم بسمتْ لمرآهُ ثغورٌ ... وكم سالتْ لمرآهُ شؤونُ

وكم ذكَرَ المحبُّ به حبيباً ... وكم نسِيَ الحدينَ به خدينُ

وكم نَظَـرَ المشوقُ به جمـالاً ... وأبصرَ وجهَ درهمِهِ الضنينُ

وكم شكَتِ العيونُ إليه وجداً ... إلى أن أصبحتْ شَكْرَى العيونُ

تحدّقُ فيـه لم تطرفْ بجفنٍ ... كأن العينَ ليس لها جفونُ

وتصفرُّ النجومُ إذا تبـدَّى ... كما يصفرُّ من حسدٍ جبينُ

يسيرُ فتختفي من جانبيه ... نوافرَ وهو مجتازٌ رزينُ

كأنّ كواكبَ الأفلاكِ درٌّ ... تبـدّى بينها حجرٌ ثمينُ

له من شمسِنا جزءٌ منيرٌ ... وليس لنا بهِ جزءٌ سخينُ

حَبَتْهُ مع الضيا حرًّا فأعطى ... ضياءً نِعْمَ ما أدّى الخؤونُ

فيا شبْهَ الحبيبِ حويتَ منه ... بهاهُ وفاتنا منك الفتونُ

وقاكَ اللهُ كم تُفني قروناً ... ولا تُفني محيّاكَ القرونُ

وكم تُحيي الظلامَ وأنت ميْتٌ ... وكم تعلو النجومَ وأنت دونُ

حويتَ عجائباً فدعاك قومٌ ... إلهاً حبُّهُ في الناس دِينُ

تخبّرهم بأعـــدادِ الليالي ... ويلزمكَ السكوتُ فما تبينُ

وتصدقهمْ وفيك النقصُ طبعٌ ... وعهدي كل ذي نقص يمينُ

لنا في كل شهرٍ منك شكٌّ ... ولكن ليس يُمهلهُ اليقينُ

كأنك في هلالك نصلُ سيفٍ ... أجادتْ صَقلَ صفحتهِ القيونُ

تقطّع منك أعناقَ الليالي ... وليس سوى الأنام لها وتينُ

ترى فيك البداءة كيف كانتْ ... قديماً والفناء متى يكونُ

وهل يبقى الوجودُ بلا فناء ... وهل تعفو عن الشُّهُبِ المنونُ

كوائنُ ليس يدري السرَّ منها ... سوى من أمرُهُ كافٌ ونونُ

لم تف يا قمر

للأستاذ خير الدين الزركلي

لم تُبقِ أيدي الحادثاتِ ولم تَذَرْ — فعلى مَ تضحكُ في سمائكَ يا قمرْ ؟

أرأيتَ تائهةً على أترابها — فتانةً بسُفورها وحجابِها
خلّابةً بدلالها وعتابِها — غلّابةً بحديثِها وخطابِها
ذهبَ الزمانُ بمالِها وشبابها — وتفرّدتْ بأنينِها ومُصابِها

ناجتْكَ شاكيةً تصاريفَ القدَرْ — وظللتَ تضحكُ في سمائكَ يا قمرْ !

* * *

أرأيتَ بين مسارح الأقلامِ — مترسِّلاً أو مُستجادَ نظامِ
ما كاد يعرفُ بهجةَ الأيامِ — حتى رماهُ من الفوادحِ رامِ
نهدتْ إليهِ قوارعُ الآلامِ — فبكى اليراعَ مودِّعاً بسلامِ

عهدَ النبوغ ، وصوغَ آياتِ العِبَرْ — ونعمتَ تؤنسُكَ الكواكبُ يا قمرْ !

* * *

أشهدتَ في غسقِ الظلامِ غريبا — ملأ الفضاءَ تفجُّعاً ونحيبا
نادى أحبَّتَه وعاش كئيبا — قلقَ الجنان ، على الزمانِ غضوبا
الشوقُ يُذكي في حَشاهُ لهيبا — والدمعُ يجرحُ مقلتيهِ صبيبا

يرعاكَ مضطربَ الجوانحِ والفِكَرْ ! — وتتيهُ في خُيلاءِ كِبْرِكَ يا قمرْ !

* * *

ومعاقِرًا خَمْرَ الصبا يترنَّحُ كالظبي، يسكنُ في الرياض ويسرحُ

يلهو بزَوْرقهِ الصغيرِ، ويسبحُ في سَلْسَلٍ كالنُّورِ أو هو أوْضحُ

قذفتْ به هُوجُ العواصِف تطرحُ فهوى ووجهُ الموتِ أكدرُ أكلَحُ

ولهُ على صفحاتِ جدولهِ أَثَرْ! وعلوتَ تزْهى في نجومِكَ يا قَمَرْ!

* * *

أسمعتَ أنَاتِ الجريحِ مُمَدَّدا يطوي الليالي، لا يقرُّ، مُسهَّدا

لاالعيشُ طابَ له، ولااشتاقَ الردى! يُمسي ويصبحُ، شاكياً متنهّدا

ضعفتْ قواهُ، فما يطيقُ تجلُّدا وتعاصَتِ الزَّفراتُ أن تتصعَّدا

غضَّ الجفونَ، وقال: حسبُكِ يا غيَرْ! وسهرتَ تبسمُ للكوارثِ يا قَمَرْ!

* * *

أشَهِدْتَ في كُرَةِ الشقاءِ كتائبا وأسِنَّةً وَهَّاجةً وقواضِبا

جيشانِ: كلٌّ هبَّ يحمي جانبا يتطاحنانِ: تباعُداً وتقاربا

هذا يئنُّ، وذاكَ يقضي صاخبا وَيْحَ المطامعِ كم تجرُّ معاطِبا

تفنى النفوسُ، وأنتَ تهزأُ بالبشَرْ! ويغرُّكَ الألَقُ المحبَّبُ يا قَمَرْ!

* * *

أرَعاكَ مبتئسٌ، شكا ألمَ الطوى ومروَّعٌ، ضلَّ السبيلَ وما غوَى

ومتوَّجٌ، عنتِ الجباهُ له هوى عن عرشهِ، لا المُلكُ دامَ ولا القُوى

ومودّعٌ مستسلمٌ لهوى النوى ومعذبٌ بغرامهِ بادي الجوى

وقسوتَ، هل قُدَّتْ ضلوعُكَ من حَجَرْ لم تحتجبْ، لم ترْثِ، لم تفِ يا قَمَرْ!

خير الدين الزركلي

إلى القمر

للأستاذ محمود غنيم

لنا في الجوّ أجنحةٌ تطيرُ ... فتفزعُ عند رؤيتها النسورُ
قد اجتَزْنا الهواءَ فليت شعري ... أيحملُنا إلى الفَلَكِ الأثيرُ ؟
كأني بالزّمانِ وقد دنا من ... يد المتناوِلِ القمرُ المنيرُ
وصار الكوكبانِ على اتصالٍ ... لكلٍّ عند صاحبهِ سفيرُ

* * *

تُرى هل فيه سكّانٌ وهل هم ... أناسٌ أم ملائكةٌ وحُورُ ؟
وهل يَنمو به زَرْعٌ وضَرْعٌ ... وتسجعُ في خمائلهِ الطيورُ ؟
وهل يجري به ملحٌ أجاجٌ ... من الآذيّ أم عذبٌ نميرُ ؟
وهل في جوّهِ صحوٌ وغيمٌ ... وحرٌّ لافحٌ أو زمهريرُ ؟
وهل في أهلهِ شَرَهٌ وشرٌّ ... كأهلِ الأرضِ أم كرَمٌ وخيرُ ؟
وهل لحياتهمْ أجَلٌ مُسمّى ... وموتٌ بعد ذلك أو نشورُ ؟

* * *

سليلَ الأرضِ مالك غيرَ بَرٍّ ... بأمّك لا تُزارُ ولا تزورُ ؟
أيكفي الأرضَ نورُكَ من بعيدٍ ... وأنك حولها أبداً تدورُ ؟
وهل في شرعةِ الإنصافِ ألاّ ... تُلِمَّ وبيننا أمدٌ قصيرُ ؟
أتأنسُ بالضيوفِ إذا ألمّوا ... بساحِكَ أم يزيدُ بك النفورُ ؟
ألا خففتَ عبءَ الأرضِ هوناً ... فأمُّك آدها النَّسْلُ الكثيرُ ؟

* * *

أرى أرضاً تضيقُ بساكنيها وبحراً كله سُفُنٌ تمــورُ

فقـل للفاتحينَ إذا أغاروا : على الأفلاكِ إن شئتم أغـيروا

وخلّوا النارَ ناحيـةً وصولوا بنورِ العِلْمِ إن العِـلْمَ نـورُ

لكم في رُقعـةِ القَمَرِ اتساعٌ وفي استئناسِهِ مُلْكٌ كبيرُ

مناجمُ لم تصلْ أيدٍ إليها وماءٌ لم تنـلْ منه الثغـورُ

وأرضٌ لم تطأ قدمٌ حصاها وجوٌّ لم يدنِّسْـهُ الزفـيرُ

هنالك يكتسي العاري ويُرْوَى به الصادي ويستغني الفقـيرُ

* * *

أمان كنَّ أحلامَ الأوالي فهل يأتي بها الزمنُ الأخـيرُ ؟

تعالى الله . إن العلمَ أمسى وليسَ أمامَـهُ أمرٌ عسيرُ

محمود غنيم

القمر في البيد

للأستاذ خالد الشواف ببغداد

يا رفيقَ الرّكْبِ في الصحـــراء ، حيّتـك القــلوبُ

السُرىٰ لولاكَ يا وضّــــاحُ في البِيـدِ رهيبُ

فالصُّوَى سرٌّ بقلب الــليلِ خافٍ والدروبُ

والهــدىٰ ، إلاّ على عيــنين في الركبِ ، غريبُ

والـكرى من أعين السّـــارين مفقـــودٌ سليبُ

يا رفيقَ الرّكبِ في الصحـــراء . . حيّتكَ القـلوبُ . .

ضوؤكَ الناعم كم فجَّر للشعر مَعينا . . .
استخفَّ الشوقَ والأحلامَ والحبَّ الدفينا
وسقاهنَّ الرؤى من وِرْدِهِ حتى روينا
ودعا الذكرى إليهِ فسعتْ تطوي السنينا
شربتْ . . ثم انثنت سكرى ، وفي القلبِ لهيبُ
ساقيَ الأحلامِ . . والأوهامِ . . لم تروَ القلوبُ

نحنُ للأوطان نطوي في الدُّجى بيداً فبيدا
فلمنْ تقطعُ هذا الليلَ والأفقَ البعيدا ؟ . .
ألمعشوقٍ تغذُّ السَّيرَ ؟ . . أم تمضي شريدا ؟ . .
أين معشوقُكَ يا من يذرعُ الليلَ وحيدا ؟ . .
أيُّها الهائمُ . . هل يحكيكَ في الحسنِ الحبيبُ ؟
يا رفيقَ الرَّكْبِ . . حيّتكَ . . وحيَّتْهُ القلوبُ . .

خالد الشواف

في كفة الميزان

نشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النَقــد

الأحلام

تأليف الدكتور توفيق الطويل مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق بالإسكندرية ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير . مكتبة الآداب . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ إسمعيل مظهر

الدراسات التي يتصدى لها أساتذة الجامعتين ومدرسوها دراسات جديدة في الأدب العربي . جديدة بمعنى أنهم يعالجونها بروح العلم الحديث ، أو بالحري يجرون في تأليفها على قواعد البحث العلمي القائم أساساً على النقد والمقارنة واستخلاص النظريات والآراء استخلاصاً قائماً أول شيء على حرية النظر والفكر .

هم ولا شبهة مسبوقون بمثل هذه الدراسات . ولكن الذين سبقوا عصرنا هذا من المؤلفين والجماعين والساطين على مجهودات غيرهم العلمية لم يدرسوا مؤتمين بروح البحث الجديد ولا بالأسلوب العلمي الحديث الذي مضينا نأتم به في عصرنا هذا . وما أجدر هذا العصر بأن يسمى عصر التجديد أو عصر النهضة . عصر ، بالرغم مما يوجه إليه بعض النقاد من عبارات النقد ، هو في الواقع عصر نهضة واسعة النطاق ، وإن لم تبلغ بعد حد الشمولية الذي نتطلع إليه ونطمع فيه .

شهدت عهدين ، الفارق بينهما كبير عظيم : عهداً كانت تظهر فيه المؤلفات والترجمات فتتناولها الصحف بما سماه النقدة «التقريظ» ، وهو في عرفهم مدح على طول الخط يتعدى حتى الطبع والورق وجمال الإخراج إلى شمائل المؤلف وطيب عنصره وكرم محتده وحلو حديثه وتثبته في العلم ورسوخ قدمه في فنون الأوائل والأواخر . وعهداً آخر بدأ في أوائل العقد الثالث من هذا القرن ، نزع فيه النقاد نزعة النقد الحر ، فهو ولا ريبة بدء العصر الحديث ، عصر النهضة الحقيقية .

العهد الأول عهد المؤلفين الذين خوطبوا بما ليس فيهم . والعهد الثاني عهد المؤلفين الذين تمت عليهم نعمة النقد فخوطبوا بما هو فيهم ، ووزنوا بميزان الترجيح والتغليب ، وهو ميزان الحق النسبي ، وهو أقصى ما يتسنى للنقد أن يصل إليه في حكم العقل والشهوات الإنسانية . مؤلفو العهد الأول ذوات خيالية لا يعرفون إلا بالاسم دون المعنى ، ومؤلفو العهد الثاني ذوات حقيقية يعرفون بالاسم وبالمعنى . الأولون ذوات ناقصة ، حرموا نعمة الاكتمال بالنقد ، والآخرون ذوات كاملة ، كملهم النقد وأثبت لآدابهم وجوداً حقيقياً صريح النسب إلى الأسلوب العلمي . والعلم بلا نقد كالدمية الحسناء . هي حسناء ، ولـكن بغير حياة .

كتاب « الأحلام » الذي نتصدى لنقده هنا كتاب له وزن حقيقي . ولـكن اصح ما يقال فيه ، أنك إذ قسمت الـكتاب قسمين : قسماً للبحث العلمي تضعه في كفة وقسماً للأسلوب تضعه في كفة أخرى ، شالت دائماً كفة الأسلوب ورجحت كفة البحث العلمي . فأسلوب هذا الـكتاب بينه وبين الأسلوب الأدبي عداء استمر قائماً بين الفـكرة وبين الأداء من ألف الـكتاب إلى يائه ، ومن أول صفحة فيه إلى آخر صفحة ؛ معركة دامية يحتدم أوارها احتداماً ، وقد يهدأ بعض الشيء . ولـكنه لايهدأ إلا ليحتدم مرة أخرى .

تقع على هذا في المقدمة وفي أولى صفحاتها إذ تقرأ : « اليونان الذين عالجوها بالاستدلال والبرهان فعرفوا ماهياتها ومذهبوا موضوعاتها » ! أية معركة هذه تقوم بين الفـكرة وبين أسلوب الأداء ! فعل جديد في اللغة العربية لم يشتق من جامد ولا من اسم علم كما فعل البعض ولهم عذر ما ، وإنما اشتق من مشتق عربي . الفعل الذي وضعه الأستاذ الطويل هو « مذهب يمذهب مذهب » . وتلك إباحية في اللغة كنا نود لو تجنبها المؤلف . فالمذهب في اللغة مشتق من «ذهب» أي من فعل ثلاثيٍ . وهو مصدر ميمي مشتق من معنى مجازي من معاني هذا الفعل . أخذه المؤلف ، أخذ المشتق أي المصدر الميمي وفعّله بغير حاجة إلى تفعيله ، كل هذا ليؤدي إليك معنى أن « اليونان نشؤوا المذاهب أو وضعوا المذاهب أو نسقوا الفكرات المفردة مذاهب جامعة ، فقال إنهم « مذهبوها » والعياذ بالله .

معركة أخرى بين الأسلوب والفكرة ، هي إحدى المعارك التي شهدتها صفحات ذلك الـكتاب . قال المؤلف :

« إن بعض وجوه النظر العقلي لا يعيش إلا في بيئته ، كأنما كانت الأفكار كجراثيم الامراض ، من حيث أن بعضها يلازم أصحابه حتى تموت جرثومته ، ولا ينتقل

حتى ولو وجد طريق الانتقال إلى الغير ممهداً ، وبعضها الآخر ينتشر بالعدوى كلما وجد سبيلا للانتشار » . ص ١٢

فانظر كيف أن النظر العقلي كجراثيم الأمراض ، وأنه قد يلازم أصحابه حتى تموت جرثومته : معركة دامية بين ذوق الأداء الفني وبين الفكرة . ناهيك بتتابع أداة التشبيه في جملة واحدة تؤدي معنى بعينه إذ يقول « كأنما كانت الأفكار كجراثيم الأمراض » . معركة دامية أخرى في أقل من سطرين اثنين : إحداهما بين الذوق الفني والفكرة ، والثانية بين الأسلوب والأداء .

معركة أخرى : يقول المؤلف — « وهكذا انحدر التفكير العملي في الرؤيا وتعبيرها — أو أكثره — عن الشرق القديم إلى اليونان » — ص ١٢ : فما هو التفكير العملي ؟ نريد مثالا واحداً على التفكير العملي لنؤمن به أن يكون عاملا في استخلاص قواعد الرؤيا وتعبيرها استخلاص قواعد الطبيعة والكيمياء والرياضة . لن يكون في هذه الناحية من البحث شيء يقال فيه أنه تفكير عملي ما لم تدعن الرؤيا والاحلام لأنبوبة الطبيعي وإنبيق الكيميائي وأعداد الرياضي . هذه المعارك الدامية لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية غير قليل ، وإن كانت من ناحية الأسلوب نقيصة هي أخص نقائصه .

من الأشياء التي تستحق الذكر في هذا الكتاب ، ونحن إزاء وصفه ، حسن ترتيبه ، فقد بوّبه المؤلف تبويباً حسناً ، وفصله تفصيلا وافياً ، ظهر فيه أثر كبير من اتساق الفكرة عند المؤلف ، واستيعاب نواحي البحث ، ودل على أن فيه درساً متعوباً فيه . ومصادر الكتاب وافية ، وإن كان بعضها من المصادر الثانوية التي لا يصح أن تتخذ مصادر في بحث علمي . أقل ما فيه أن صاحبه يحاول ، وقد نجح في محاولته ، أن يصبه في أسلوب علمي قدر المستطاع .

* * *

الخطوة الأولى التي نخطوها في نقد هذا الكتاب تقوم على فكرة للمؤلف تكاد تكون ثابتة في روعه ، هي أن النظر العقلي البحت في مجال الرؤيا يكاد يكون مرجعه فلاسفة اليونان والرومان وحدهم . فإن أراد أن يجعل للعرب نصيباً من هذا النظر العقلي تمحل الأسباب ومضى يستعين بالنظريات، كأن يقول: إن العرب أخذوا من اليونان والرومان ما يساير عقائدهم ويتمشى مع عقليتهم ، وأنهم انصرفوا عما دون ذلك . (ص١٤) فإذا مضى يقارن بين آثار اليونان والرومان والعرب ، ورأى أن للعرب آراء جميلة في

هذا الموضوع قال بنظرية أن تشابه البيئات قد ينتج ما تشابه من الآراء والأفكار .

عندي أن جميع هذا إنما يرجع إلى اعتقاد المؤلف أن النظر في الرؤيا هو نظر عقلي في أساسه ، والواقع أنه نظر تقريري ؛ والفارق بين النظرين شاسع واسع عميق . فالنظر العقلي مرده المنطق بمقدماته ونتائجه وقضاياه وقياساته . والنظر التقريري مرده وصف الواقع لما يرى في الحس أو يرى في الخيال . والكلام في الرؤيا والأحلام مرجعه النظر التقريري مستمداً من رؤيا الخيال ومن شواهد الغيب . وإن من الإسراف قطعاً أن نقول إن النظر في هذه الأشياء نظر عقلي أو نظر عملي أو نظر علمي . ذلك بأن ضروب النظر هذه لا تتصل بالأحلام في شيء قليل أو كثير . وحتى الذين تكلموا في هذا الموضوع من علماء أوربا المحدثين لا يطمع واحد منهم أن يقول إن ما كتب يصطبغ بالمنطق الصحيح استنتاجاً أو استقراء ، أو أنه عملياً استطاع أن يحل مشكلة واحدة من مشكلات الأحلام حلاً نهائياً بحيث أصبح القول فيها يقينياً صرفاً . وشاهدي على هذا كتاب « تعليل الأحلام » تأليف فرويد ، فإنه برمته قائم على نظرات تقريرية لم تثبت واحدة منها ثبوتاً علمياً قاطعاً ، وفي بعض فصوله تقريرات لا يقبلها من له اتصال أولى بروح البحث العلمي الصحيح .

من حيث ذلك لا أرى أن ما وصلنا عن اليونان والرومان ، وحتى ما اجتهد فيه العرب وغير العرب من القدماء ، لا يعلو تصور الإنسان البدائي شيئاً من حيث النظر التقريري ، وهو الضرب من النظر الذي يلازم مسألة الأحلام . أما تفصيل الرؤيا الصادقة منها وغير الصادقة ، فتلك أشياء جاءت الإنسان من ناحية معتقده الديني ونظره في الألوهية قديماً وحديثاً ، ولاشك أن له نظائره عند البدائيين ، قد لجأ الناس على مدى الأعصر إلى تعليله كل بحسب نزعته ومتجهه ، فمن كانت نزعته دينية نسبه للآلهة أو الديمونات ، ومن كانت نزعته فلسفية أرجعه إلى قوة من قوى الكون .

وقد خلا الكتاب من بحث فيما أدت إليه الأحلام من فكرة في الروح والخلود ، وكيف انحدرت الفكرة من البدائية الأولى إلى الحضارات قديمة وحديثة . وإذن لا يكون المؤلف قد تتبع تطور الفكرة واحتمالاتها لا عند اليونان ولا عند المشارقة الأقدمين من حيث ذلك ، ولم يتأثر خطى التطور في نشوء الفكرات التي قامت على ظاهرة الأحلام حتى صارت مذاهب ومعتقدات .

النظر البدائي في تعليل ظاهرة الأحلام مرده إلى القول بوجود « الروح » وهو مبدأ مفارق للبدن له تأثير في الماديات بصور مختلفة . الأحلام اتصال بعوالم أخرى ،

أداته « الروح » . معتقد لازم الكلام في الأحلام منذ أقدم العصور إلى اليوم . والقائلون بهذا التعليل أكثر عديداً من الذين يحاولون تعليل الأحلام بالمادة من طريق علم النفس مثل فرويد وغيره من العلماء المحدَثين . ولم يقارن المؤلف بين وجهة النظر البدائي في الأحلام وما قام عليها من مذاهب في الروح والخلود والفلسفة . ولكنه أفاض في ظاهرة النوّم الذي هو في الواقع مجال الأحلام . ولقد كان المؤلف في هذا غير متتبع لمنابت الفكرة الأصلية في الأحلام كما أثبت ذلك في عنوان كتابه .

قال الأستاذ « مكدوغل » في كتابه « الجسم والعقل » :

« منذ عصور موغلة في القدم اعتقد الإنسان بأن الشخص الحيّ يختلف عن الجثة الميتة في أن جسمه حال الحياة ، يحوي جوهراً مخالفاً للبدن يوجه أغراضه وحركاته ويحتكم في نمائه وتجدده ، وإليه يرجع السبب فيما يعالج الإنسان الحي من إحساس وفكر وشعور . ذلك بأن الاعتقاد في مثل هذا المبدإ الروحاني أو النفسي ، قد علق بأذهان كل السلالات البشرية العائشة على ظهر الكرة الأرضية ، بالغة ما بلغت من انحطاط الثقافة أو ضعف القوى العاقلة . ولقد نجد ما نستدل به على وجود هذا المعتقد جلياً في أقدم ما خلف الإنسان من الآثار » .

وقال : « اعتقد أهل الثقافة والعلم من الأمم ذوات الحضارات العالية أن النفس موجود غير مادي ، أو هي مبدأ فاعل يلابس الجسم ، غير أن الفرق بين الأشياء المادية وغير المادية ، لم يتقرر إلا بعد عصور متطاولة من البحث والدرس ، وبعد التنقل في درجات من الفكر صقلت التصور الإنساني في حقيقة النفس . أما المعتقد الذي سار بين الجماعات ذوات الثقافة الدنيا ، فمداره أن كل إنسان لا يتكون من ذلك الجسم المرئي الذي يتنقل بين عشيرته لاغير ، بل إن فيه مع الجسم نسخة أخرى منه ، ظلية الصورة ، بخارية القوام . هذا الشبح البخاريّ ، الذي هو المبدأ الروحي الحال في الكائن العضوي الحي ، فيه القدرة على مفارقة البدن وعلى التنقل بسرعة من مكان إلى مكان ، وعلى استخدام كل القوى التي يملكها حال ملابسته الجسم ، أو جلها على الأقل . أينما كان وحيثما حلّ . وما النوم عندهم إلا انفصال هذا الجوهر عن الجسم انفصالا موقوتاً . كما أنهم كانوا يعتقدون أن الغيبوبة والإغماء وغيرهما من الأمراض الشديدة ، إنما ترجع إلى انفصال كهذا قد يطول أمده . أما الموت فانفصال نهائي حيث ينتقل ذلك الجوهر إلى مكان قصيّ بعيد » .

هذه النظرات التقريرية التي نشأت مع الإنسان البدائي وتنقلت في أثناء الحضارات

إلى يومنا هذا هي منابت ظاهرة الأحلام الأصلية ، وهي الأصل الأولي الذي نشأت منه فكرة الروح الإنساني ، ومن ثم تطورت إلى فكرة فلسفية في الرّوح الأعلى أو الروح الكوني قامت عليها مذاهب من أعظم ما شهد تطور الفكر الإنساني .

لا شك عندي مثلا في أن تدرج هذه الفكرة قد أعقبت المذهب في العقل الأول ، ذلك المذهب الذي دارت من حوله رحى الفكر في البعدطبعيات على مدى العصور .

جاء فى كتاب الأستاذ « مكدوغل » الذي ذكرناه :

« إن رؤوس الفلاسفة الطبيعيين في « يونيا » ، قد اعتنقوا وجهات من النظر مختلفات في حقيقة ذلك الجوهر الذي خيل إليهم أنه أصل الأشياء . فأولهم طالِس أو ثاليس (٦٣٦ ق م) اعتقد أن العنصر الأساسي هو " الماء " أما أناكسمنيس فقال بأنه " الهواء " ذلك فيحين أن ديو جنيس ، ولو أنه اتبع رأي أنا كسمنيس من حيث القول بأن عنصر الأساس هو " الهواء " فإنه أضفى على الفكرة ما أوسع من نطاقها وزاد إلى خطرها ، حيث أبان عما بين الهواء والروح (أو الحياة) من التشابه والمطابقة . فالهواء روح . فهو إذن حي وعاقل . ولكن هذه القوى العاقلة ، هي شيء أسمى من الهواء الذي تمارس أفعالها في محيطه . فهي ينبغي ، بناء على ذلك ، أن تكون أسبق منه في الوجود الزماني . إنها هي « الأرخية »✲ طلبة الفلاسفة . والكون موجود حي متطور بقوته الذاتية ، مستمد تفاعلاته من حيويته الأثينة فيه . فلم يكن الهواء عند ديوجنيس غير رمز يرمز به إلى " العقل " .

ثم يقول : « كان هيرقليطس (٥٠٣ ق م) من هذه الطائفة من الفلاسفة اليونانيين . ولقد عمل على تحويل هذا الطراز من التأمل على قاعدة الفرض بأن "النار" هي مبدأ الحياة والفعل ، وأنها تعمل في حركة ذلك " الدلف المستمر " أو " الفيض الدائم " الذي يلابس الأشياء » .

يعتقد هيرقليطس بأنه — « ما من شيء في معقد الظاهرات يمت إلى طبيعية النار الإلهية ، إلا وهو روح ، والروح عنده النار . فالنار والروح فكرتان متبادلتان . وبذلك يكون روح الإنسان ناراً أيضاً . هو جزء من النار الحيوية الكونية التي تلف الروح الإنساني وتتضمنه ، ومن طريق ما تبث فيه من نسمات ، يحتفظ الروح بكيانه ويظل حياً في صورة جزء من العقل العام . ومن طريق اتصاله بذلك العقل ، يكسب الروح قواه العاقلة . في الإنسان يعيش الإله . لا على الصورة التي رسمها اللاهوتيون

✲ الأرخية : في اليونانية Archi معناها البدء ، سبب أول ، أصل ، أرومة .

حيث قالوا بأنه يتنزل مشخصاً في فردية مغلقة ، وفي هيأة فرد من بني الإنسان ، بل في صورةوحدة تلف النوع البشري وتنفذ فيه نفوذ ألسنة النار في الأثير . إن جزءاً من الحكمة الكلية يحيا في روح الإنسان . وما الروح غير جزء من النار الكونية التي إن لفت وسيقت في دلف أو فيض الصور الكائنة ، فإنها مع ذلك مقيدة ، بل محبكة ، في الوظائف البدنية . إن النار التي هي الروح ، تحول نفسها على وجه الدوام والاستمرار ، ماءً وتراباً هما مادتا بناء الأبدان ، ومنهما يبنى البدن البشري . ذلك في حين أنها تتجدد بسيّالات تستمد من النار الكونية . وما دام الروح في حركة دائمة من التجدد ثم التحول إلى عناصر أدنى ، فهو ليس جوهراً باقياً قائماً بذاته . فإذا ظل الروح قادراً على التجدد بالاستمداد من النار الكونية التي تلفه وتتضمنه ، فإن الفرد يبقى حياً . أما الانفصال عن النار الكونية مصدر كل حياة ، فذلك الموت » .

ويوقن هيرقليطس بأنه : « بين الفينة والفينة ، كما في النوم والأحلام ، يفقد الروح الفردي اتصاله بالنار الكونية التي تهب الحياة ، فيؤسر آونة في عالمه الخاص ، وهذا موت جزئي — وقد تأتي برهة لا يستطيع فيها الروح الإنساني أن يسترد ما يفقد في عملية الأيْض : metabolism (أي الهدم والبناء) أو التجدد والتحول ، فيدركه الموت . هنا يموت الفرد ، ولكن النار الكونية باقية أزلية أبدية » .

يظهر من ذلك أن فكرة الخلود الفردي ، وحتى فكرة بقاء الروح الفردي ، قلما اكتسبت أي معنى عند هيرقليطس . فالفرد باعتباره موجوداً مستقلا ، ليس له من قيمة أو مغزى . إن استمرار هذا الوجود الفردي على تناقض عند هيرقليطس . إنه لايعترف بالبقاء والخلود لغير « النار » . هذا الخلود لا يتناول ظواهرها المتحيزة في أفراد . وإنما هو من خصائص تلك الطاقة الكونية التي تنبث في تضاعيف كل الأشياء ، ثم تمتص في ذاتها ثانية جميع الأشياء .

فالروح عند فلاسفة الطبيعة اليونيين إذن جزء من الطبيعة ، وعلم النفس فرع من العلم الطبيعي ، ولم يكن عندهم من فارق بين الطبيعي والروحي والنفسي . وعلى الجملة فإن كل الأشياء بما فيها الحياة والعقل ، لم تكن عندهم إلا ظواهر للطاقة الكونية .

عند ما انبثت فكرة العقاب والثواب في الأديان نشأت معها فكرة الخلود الفردي، ومن ثم تأثرت بما يقوم على حفافها من الأشياء بما يلائم مطالب الدين من فكرات في الروح والأحلام والرؤيا الصادقة وغير الصادقة .

تلك هي منابت الفكرة في الأحلام ، لم يعرض لها مؤلف الكتاب ، وكان الواجب

أن يستوفيها شرحاً وبياناً . ولست أظن أن فكرة هيرقليطس القديمة غير أصل استمدت منه كثير من الفكرات حتى الفكرة المادية في الحياة وتعليل الأحلام بردها إلى المادة من طريق علم النفس عند المحدثين .

* * *

بقي بعد ذلك أن نتكلم في بحث من مباحث هذا الكتاب ، هو المصادر التي تلقاها العرب عن أسلافهم في الأمم المتحضرة . ومحور الرأي عند المؤلف أن العرب تلقوا ما تلقوا من فكرة عن الأحلام عن أرطاميدروس وهو أفسوسي من آسيا الصغرى ، وكني دَلدِيانوس نسبة إلى دلديس في مقاطعة لوديا القديمة موطن أمه ، للتفرقة بينه وبين أرطاميدروس الجغرافي . عاش في رومية في عصر أنطونينوس فيوس ومرقص أوريليوس (١٣٨ — ١٨٠ ق . م) وكتب كتاباً في تفسير الأحلام في خمسة أجزاء ، لايزال معروفاً إلى الآن ، وكان قصده من تأليف ذلك الكتاب إثبات أن المستقبل يمكن استشفاف حوادثه من الأحلام ، وتصفية هذه الظاهرة ، ظاهرة الأحلام ، من الخرافات التي ذاعت في عصره . والواقع أن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب إنما تنحصر في أنه روى كثيراً من أساطير عصره الشائعة وكثيراً من مراسم الدِّين ، وهي أشياء قد تجلي شيئاً من حالاتهم الاجتماعية في القرن الثاني من الميلاد .

وقد أثبت المؤلف (ص ١٨٤) أن أرطاميدروس رحل عدة رحلات استغرقت أعواماً طويلة في آسيا وإيطاليا وبلاد اليونان وغيرها . فكأنه قد طاف بالكثير من بقاع شرقي البحر المتوسط ، تلك البقاع التي أفعمت منذ أزمان طويلة بصور الثقافة الشرقية والثقافة الهلينية ، وهما ثقافتان تولدت عنهما ثقافة مشتركة أخذت في النشوء منذ عصر الإسكندر الأكبر أي في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وظل أثرها ثابتاً في جميع الشعوب التي قطنت رقعة الأرض الممتدة من أعمدة هرقوليس إلى حدود الهند . وهي ثقافة امتزجت فيها صور الفلسفة بالتصوف ، والأدب بالعلم ، والأساطير بالعقائد ، وخرج من جماع ذلك صورة جديدة من الثقافة هي عندي صاحبة الأثر الأول في تكييف الثقافة والآداب النصرانية ، وكانت من بعد ذلك صاحبة الأثر الأول في تكييف الثقافة والآداب الإسلامية. ولقد كان غزو مصر في عصر الإسكندر ثم غزوها في عصر يوليوس قيصر ودخولها في منطقة النفوذ الروماني بعد ذلك بسبعمائة سنة ، من العوامل الأساسية في تكييف هذه الثقافة وفي دمغها بطابع العقائد المصرية . ناهيك بأن الثليث المصري القديم هو بنفسه الثليث النصراني ، نقل إلى النصرانية في الإسكندرية ، وذلك دليل على أن ثقافة المصريين

القديمة لم تمت ولم تمح بمجرد انتشار النفوذ الروماني فيها . بل إني أعتقد أن كثيراً من وجوه الثقافة الهلينية ما هي إلا مزيج من ثقافات الشرق وثقافات الغرب ، قد تأثرت بثقافة المصريين القديمة جملة .

ولست أشك كذلك أن هذه الثقافة قد كانت السبب الأول في بث الأفكار والآراء الروحانية التي ذاعت صورها في شرق البحر المتوسط . ومصر بعقائدها القديمة منشأ هذه الأفكار ومربيتها ومهذبتها ، وهي المصدر الذي أخرج للعالم أسمى ما وصل إليه الفكر من عقائد الخلود والحساب والعقاب والثواب وتأثير الروح في المادة إلى غير ذلك . وإذن يكون أرطاميدروس اليوناني الأصل الروماني الرعوية ، والذي يكاد مؤلف كتاب الأحلام يقطع بأنه المصدر الذي استقى منه العرب والمسلمون خاصة ، قد ظهر في عصر مفعم بعبير الثقافة الهلينية ، التي لا يجب أن ننسى أنها مزيج من ثقافة الغرب وثقافة الشرق .

ثابت أن العرب نقلوا كتاب أرطاميدروس إلى العربية ، وقيل إن الذي نقله حنين بن إسحق في القرن التاسع الميلادي . ويقول المؤلف إن — « نقله إلى العربية لا يحتم القول بتأثر المسلمين به ، ولكنا نستند في ترجيح هذا الظن إلى بساطة أفكاره ومسايرتها لعقلية رجال الدين ، وتمشياً مع نزعات المسلمين عامة ، ثم إلى التشابه البيّن بين الكثير من آرائه وآراء هؤلاء في مصنفاتهم ، وإن كان من العسير جداً أن نحدد على وجه الدقة مدى هذا التأثر ، ومبلغ ما كان يحتمل أن يخسره المسلمون لو اقتصروا على وحي تفكيرهم ، ولم يتصل بهم هذا الكتاب » .

على أن ما في هذه العبارة من اضطراب دليل على أن المؤلف لم يؤلف فكرة محدودة بينة في هذا الامر . فكيف نوفق بين قوله في هذه العبارة أنه يرجح الظن بتأثر المسلمين بكتاب أرطاميدروس لبساطة أفكاره ومسايرتها لعقلية رجال الدين وتمشيه مع نزعات المسلمين عامة ، ثم التشابه البيّن بين الكثير من آرائه وآراء هؤلاء في مصنفاتهم ، ويعقب على ذلك مباشرة بأنه من العسير جداً أن نحدد على وجه الدقة مدى هذا التأثر (١٨٥) ؟ السبب في هذا الاضطراب أن المؤلف يحاول أن يثبت أن كل ما صدر عن أرطاميدروس هذا أصيل مبتكر ، ولو ضمناً في سياق عباراته ، وأن جميع المشارقة عالة عليه في هذا الموضوع . ذلك لأنه لم يفطن إلى أن أرطاميدروس تلميذ مثقف بالثقافة الهلينية ، وهي ثقافة مفعمة بعبير التجريدات الشرقية .

يقول المؤلف بعد ذلك مباشرة (ص ١٨٥ نفسها) : « وأول ما نلاحظه في هذا

الصدد ، مسايرة أرطاميدروس لتفكير المسلمين ، فهو يسلم بالرؤيا الصادقة التي تكون بوحي من الآلهة إلخ » . ولسنا نعلم من ذا الذي ساير صاحبه : هل ساير العرب أرطاميدروس ، أم أن هذا هو الذي ساير العرب ؟ إن أرطاميدروس يتقدم عصر النقل عند العرب بستة قرون إلا قليلاً . لعل هذه إحدى المعارك الأسلوبية الكثيرة التي أشرنا إليها في فاتحة هذا النقد . أما نهج التفكير الصحيح في هذا الموضوع بالذات فهو أن أرطاميدروس هليني الحضارة ، نشأ وترعرع في أحضان هذه الثقافة العالية التي امتزج فيها علم الغرب بآداب الشرق . تلك الثقافة التي أخذت من أقرب مصادر الشرق أعظم ما كان فيها من آراء في الخلود وبقاء النفس والحساب والثواب والعقاب عن المصريين في أغلب الأمر . وكان آلهة المصريين يمشون مشخصين فوق الأرض يخاطبون الناس ويوحون إليهم برؤى صادقة . ولعلنا واقفون في كتاب « الموتى » على الكثير من ذلك . وفي حلم فرعون في قصة موسى أعظم الأدلة على ذلك . والسبع البقرات السمان يأكلهن سبع عجاف والسبع السنبلات الخضر والسبع اليابسات ، حلم مصري أصيل . وتفسيره أعرق في المصرية من الحلم نفسه . ذلك قبل أن يكون للثقافة الهلينية وجود بما لست أدري كم من القرون .

بالرغم من هذا كله وبالرغم من أن المؤلف قد نقل عن بعض الثقات أقوالا مشابهة لما ذهبنا إليه في هذا النقد فهو يحاول أن يثبت الابتكارية لليوناني أرطاميدروس لا لشيء عندي إلا أنه يوناني ، متأثراً على الأكثر بأسطورة أن اليونان خلقة وحدهم أصلاء بطبعهم ، فلم يتأثروا بثقافة ما من الثقافات التي شاعت فيهم .

يقول المؤلف (ص ١٩٥) : « إن مؤرخي الأحلام يقولون إن آراء أرطاميدروس ، ليست أصيلة نبتت في عقله أو في بيئته ، وإنما استعارها من تراث شرقي قديم . فيقول الأستاذ سايس إن البابليين قد ردوا الرؤيا إلى الوحي الإلهي ، وأسرفوا في دراستهم لتعبير الأحلام ، حتى ميزتهم هذه الدراسة وأضحت علماً عليهم ، ومن كتبهم استمد أرطاميدروس مادة كتبه في الأحلام ، أي أبواب الكتاب الذي يستشهد به . ويقول بوشيه لوكليرك : إن اليونان لم تكن أكثر البلدان مهارة في تعبير الأحلام ، ولهذا فإن أهلها كانوا يشعرون بأن عليهم أن يتعلموا الكثير من هذا الفن على يد جيرانهم ، وقد تلقوا هذا الفن عن مصر والشرق ، بعد أن استعاروا تقاليده ، ولا شك أن أرطاميدروس قد أفاد من ذلك كثيراً » .

رأيان لكبيرين من كبار المؤرخين الفرنسيين يعتبر كلاهما حجة في علمه، كلاهما خبير

بتاريخ الشرق بصير بتقلب ثقافاته، يذهبان إلى أن أرطاميدروس انتحل الفكرات الشرقية في الأحلام. ولكن المؤلف تسيطر عليه أسطورة أصالة الثقافة اليونانية وعدم تأثرها بشيء من الثقافات الأخرى، وهي أسطورة روّج لها بعض كتاب الألمان وتابعهم فيها بعض الفرنسيين. يريد المؤلف أن يعلل السبب في تشابه الآراء المشرقية وآراء اليوناني أرطاميدروس فينزع إلى نظرية أصلها ألماني في القول بأن تشابه البيئات يفضي إلى تشابه الثقافات ولو تتصل الشعوب بعضها ببعض فتراه يقول (ص ١٩٥ — ١٩٦) معلقاً على رأي سايس وبوشيه لوكليرك:

« هذا رأي له خطره العظيم في تأريخ حركة النقل والاقتباس في مادة الأحلام. لأن المسلمين إذا كانوا قد أخذوا عن أرطاميدروس وغيره الكثير من وجوه التفكير في تعبير الأحلام، فإنهم يكونون قد استردوا تراثاً شرقياً قد انتقل إليهم عن طريق اليونان... ومن أجل هذا سارعوا إلى قبوله، وتمكنوا من تمثله وهضمه، كما قبله وتمثله كل شعب له مثل حظهم من الثقافة ».

هذا عجيب! لماذا ينقل المشارقة نقل مسطرة عن اليونان، ولماذا لا يكونون قد عبروا عن فكرات شاعت في محيطهم وحوّروها بما يلائم المعتقد الإسلامي، ولماذا يكون نقل كتاب هذا اليوناني الروماني هو الأصل الذي استردوا منه تراثهم دون غيره؟

ولكن أسطورة الأصالة اليونانية تلاحق المؤلف فتراه يقول (ص ١٩٦):

« ولكن إذا كانت المادة التي انتقلت من مكان إلى مكان، تراثاً عقلياً مشتركاً بين الشعوب على اختلاف مللها ونحلها وجنسيتها وعصرها، فلماذا لا تكون هذه المادة استجابة العقل البشري للبيئات المتماثلة والمؤثرات المتشابهة، دون أن يكون هناك نقل أو اقتباس؟

على هذا يريد المؤلف أن يقول إن الفكرة في الأحلام أصيلة عند المشارقة وأصيلة عند اليونان أيضاً. يسوق هذا القول في عبارات واضحة تقرؤها في صفحتي ١٩٦، ١٩٧ وهو يكاد يثبت أن الأحلام ميراث عام لجميع شعوب الأرض، ومردّ ذلك كما قلت تلك الفكرات البدائية التي لازمت الإنسان منذ أقدم أزمانه وعصوره.

أراد المؤلف أن يقيم حجته على أصالة الفكرة في الأحلام عند المسلمين المشارقة وعند اليونان على جواز أن المسلمين قد يحتمل أن يكونوا قد اهتدوا إلى الكثير من أفكارهم قبل أن ينقل إليهم كتاب أرطاميدروس فيقول:

« إن أفكارهم — فيما يلوح — لم تظهر فجأة، وإنما جاءت على درج، شأنها

في ذلك شأن الأفكار التي تتصل بموضوع واحد عند شعب من الشعوب » . . ويعقب على ذلك بمقارنة تاريخية بين موت ابن سيرين إمام التعبير عند المسلمين وموت حنين بن إسحق ناقل كتاب أرطاميدروس على ما يقال . والاول مات سنة ٧٢٨ م والثاني مات سنة ٨٧٧ م ، فالكتاب إذن لم يطلع عليه ابن سيرين . ولكن منذا الذي يقول إن جو جزيرة العرب لم يعرف الثقافة الهلينية إلا بالنقل للعربية ؟ إن لهذه الثقافة في المشرق تاريخاً طويلا في السريانية قبل أن تنقل إلى العربية . وإذن فالمقياس التاريخي الذي يلجأ إليه المؤلف مقياس ناقص ولا شك . أضف إلى ذلك أن كثيراً من الكتب المنقولة نسبت إلى حنين بن إسحق زوراً ، وحركة النقل بدأت في الدولة الأموية ، والاتجاه نحو الثقافة الهلينية غزا جزيرة العرب قبل الإسلام . والحرث بن كلدة الطبيب الجاهلي الذي أدرك الإسلام وقتل في عصر النبي ، وورقة بن نوفل المثقف المعروف من أهل ذلك العصر ، دليل على ذلك . فالقياس التاريخي القائم على مقارنة السنين قياس ضعيف في مثل هذه الحالات ولا شك .

والصحيح في هذا الموضوع قول المؤلف (ص ٢٠٢) بمبدأ تلاقح الثقافات وأن الغرب قد يأخذ عن الشرق وأن الشرق قد يأخذ عن الغرب ، تاركا أسطورة أصالة الفكر اليوناني التي لاحقته في بعض فصول الكتاب ، وفي بعض مواضع منه ، فاستقام له الرأي .

اسمعيل مظهر

الفائق في غريب الحديث

للعلامة الزمخشري

ضبطه وصححه وعلق حواشيه الأستاذان علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبرهيم
الجزء الأول ٦٨٧ صفحة من القطع الكبير . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥
نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

ليس الفائق كتاباً في الحديث ولكنه كتاب في غريب الحديث وشرحه والاستشهاد على الشرح بما ورد في الكلم الفصاح من كتاب الله وكلام العرب نظماً ونثراً . فهو أدخل في باب اللغة والأدب منه في باب الحديث .

ولقد أوجز ابن الأثير صاحب كتاب « النهاية » الحديث عن موضوع غريب الحديث في مقدمة كتابه ، أبان فيها عن بدء جمع الألفاظ من غريب الحديث على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى[١] وتدرج ذلك على يد جماعة من العلماء منهم النضر بن شميل[٢] وأبو عبيد القاسم بن سلام[٣] وابن قتيبة الدينوري[٤] وإبرهيم بن إسحق الحربي[٥] ومحمد ابن القاسم الأنباري[٦] والهروي[٧] الذي جمع في كتابه بين غريبي القرآن والحديث . والزمخشري صاحب كتاب « الفائق » الذي نحن بسبيله اليوم والذي تولى ضبطه وتحقيقه وطبعه لأول مرة في مصر الأستاذان علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبرهيم ، من خيرة أبناء دار العلوم وأكثرهم اشتغالا بالتأليف والتحقيق وإخراج التراث العربي الدفين .

ومن كتاب الفائق نسخة مطبوعة في حيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٤ هـ . ولا نعلم أن الكتاب طبع غير هذه الطبعة الهندية التي خلت خلواً تاماً من الضبط ، مع أننا في زمن تأخر بنا إلى حيث الحاجة ملحة إلى الضبط لبعد ما بيننا وبين العصور الفصاح .

أما النسخ المخطوطة من هذا الكتاب فقد جاء في « تاريخ آداب اللغة العربية » للمرحوم جرجي زيدان أن هناك نسخاً خطية في أيا صوفيا وكبريلي ويني جامع ومكتبة دمشق (جـ ٣ — ص ٤٧ مطبعة الهلال سنة ١٩٣١) .

ولقد اطمأن المحققان إلى ما جاء في كتاب المؤرخ جرجي زيدان ، وأعوزتهما نسخة خطية في مصر ، لأن زيدان لم يذكر عنها شيئاً ، ولا أدري إن كانا عنيا نفسيهما بالبحث عن نسخة في مصر حتى تكون مرجعاً ومونقاً لها وهما يصححان الكتاب ويراجعانه على مطبوعة حيدر آباد . وماضر لو أنهما صبرا حتى تتصل الأسباب بين الدول بعد انتهاء الحرب فيتاح لهما الحصول على صور شمسية لمخطوطات الكتاب من دور الكتب الأجنبية التي ذكرها زيدان ، أو التي لم يذكرها ، ولكن علمها عند غيره ، فيكون التحقيق

---

(١) من علماء القرن الثاني وأوائل الثالث، وكان إماما في اللغة والأدب ١١٠ — ٢٠٩هـ .

(٢) أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب والرواية والحديث واللغة ، اتصل بالخليفة المأمون فأكرمه سنة ١٢٢ — ٢٠٣ هـ . (٣) من علماء الحديث والفقة والأدب جاء إلى مصر سنة ٢١٣ هـ فسمع الناس منه ١٥٧ — ٢٢٤ هـ . (٤) هو صاحب عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء ٢١٣ — ٢٧٦ هـ . (٥) من حفاظ الحديث ١٩٧ — ٢٨٥ هـ .

(٦) كان من أعلم أهل زمانه أدباً ولغة وحفظاً ورواية ؛ وهو غير أبي البركات الأنباري صاحب « نزهة الألباء في طبقات الأدباء » . وترجمته في ابن خلكان وبغية الوعاة للسيوطي وتذكرة الحفاظ . وقيل إن كتابه في الحديث ٤٥ ألف ورقة . توفي سنة ٣٢٨ هـ .

(٧) أحمد بن محمد الهروي من أهل هراة في خراسان توفي سنة ٤٠١ هـ .

بذلك أتم والمقابلة أوفى ، على ما فيه من عظم المشقة وكثرة الصبر وطول الزمن الذي يجب أن لا يدخل في تقدير العلماء عند ما يحققون ليحملوا للخالفين أمانات السالفين .

على أن مصر لم تخل من نسخة خطية من كتاب « الفائق » كانت في عهد الشيخ محمد عبده . فقد حدثني الأستاذ الفاضل الشيخ محمود حسن زناتي أنه عثر على نسخة منه في مكتبة «الأتراك» ، وأنه بدأ ينسخها في ذلك الحين ، وشجعه على ذلك الأستاذ الإمام ، فلما طبعت نسخة الهند ووصلت إلى مصر توقف الأستاذ زناتي عن النسخ اكتفاء بالطبع.

فأين هذه النسخة الخطية ، وهل خرجت من مصر أو لا تزال مطوية فوق ثراها في عالم الإهمال والنسيان ؟ ولم لم يصل علمها إلى المرحوم جرجي زيدان ؟

على أن ذلك العتب منا على محققي الكتاب قد جاء بعد أوانه . فقد طبع الكتاب معتمداً على نسخة واحدة ، وجوزف بعمل كانت الأناة أدعى إليه وألزم له . وهي مجازفة حملت الفاضلين عناء كان يهونه عليهما تعدد المخطوطات والمقابلة بينها . ولكن عناءهما الكثير يحملنا على إنصافهما وحسن تقديرهما ، كما يحملنا على التجاوز عن العتب إلى الإشادة بالفضل . وما كب الله على المناخر مثل رجل يعرف الفضل فيجهله أو النابه فيخمله . وأعوذ بالله أن يكون ذلك مني، وأنا ونقاد مجلة « الكتاب » راصدون للكتب بالمرصاد فيحسب بعضهم أن عيوننا لا تقع إلا على المآخذ ، ولكننا جميعاً ننشد للكتاب العربي الكمال ، حتى لا يقل عن ضريبه من كتب الغرب ؛ وننشد في الكاتب العربي التمام ، حتى لا يقال فيه :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

ولا شك أن تحقيق كتاب مثل الفائق لعالم مثل الزمخشري يحتاج من بذل الجهد وسعة الاطلاع وكثرة التردد على المصادر إلى ما يحمد معه السعي ويثنى معه على المبذول. ولا شك أن المحققين الفاضلين بذلا من الجهد ما تشهد به الهوامش التي طرزا بها الكتاب حتى لا تكاد تخلو صفحة من هامش ، ولا يكاد يخلو هامش من الرجوع إلى كتاب .

وذلك عمل لا يعرفه إلا من يكابده ويعانيه . أما الذين أطال الله ليلهم وقصر أعمارهم في غير العلم والتنقير عليه والتنقيب فيه فهم يحسبون ذلك أمراً ميسوراً وطريقاً ممهداً . ولكنه شيء يقرح الجفون ويضني العيون .

ولم يقتصر عمل المحققين على الضبط اللغوي ، ولو كان ذلك لهان الأمر ، ولكنهما رجعا إلى الشعر يردانه إلى قائله ، ورجعا إلى أنصاف الأبيات المروية بالأصل يكملانها . ووجدا في معجم « لسان العرب » معتمداً يستندان إليه ؛ وناهيكم به من معتمد . . .

فما عرفت قدر هذا المعجم إلا حين ألقت إلي الأقدار أن أقرأ « الفائق » للزمخشري ، وأن أنقده لمجلة «الكتاب » وأن تعرض أمانة نقده علي ، فأرضى أن أحملها ولا أشفق منها . . . وما أنا إلا إنسان . . .

ولقد وجدت في التحقيق أموراً هي أسهل على المتعقب القافي منها على المنقود المقفوّ . . فإن المحقق حين يبدأ العمل لا يعنيه إلا أن ينجزه ، والناقد حين يبدأ العمل لا يهمه إلا أن ينقده . . . ولهذا تقع عين الثاني على ما لم تقع عليه عين الأول .

على أن النقد — بعد ذلك — لا ينقص من قدر المنقود ، ولا يبين عن مزية في الناقد .

ولكنه عمل أرادته الطبيعة حين أرادت أن تحسن الحياة ، وأرادته مجلة «الكتاب» حين شاءت أن ترفع في إنتاجنا قدر الكتاب .

فلا بأس بعد ذلك من النقد مادامت النية حسنةً ، والأعمال بالنيات .

***

جاء في صفحة « هـ » من قول علي بن حمزة يرثي الزمخشري :

وكم للإمام الفرد عندي من يد وهاتيك مما أطاب وأكثرا

وفي البيت نقص يكسر وزنه وكماله :

وكم للإمام الفرد عندي من يد وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا

والتصويب عن « معجم البلدان » لياقوت مادة زمخشر ج ٤ ص ٤٠١

وفي صفحة «و » من جواب الزمخشري إلى أبي طاهر السِّلَفي [ما مثلي مع أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصابيح السماء ، والجهام الصفر والرهام مع الغوادي الغامرة القيعان والآكام ؛ والسكيت المخلف عن خيل السباق ، والبغاث مع الطير العناق] . وضبط المحققان «العناق» بفتحتين كسحاب وكتباها بالنون كما صنع شارح "معجم الأدباء" طبعة الدكتور أحمد فريد رفاعي و « العناق » هنا لا تصح ، لأنها دابة كالفهد أو الكلب من جوارح الصيد ، وأين البغاث وهو طير من العناق وهو دابة ؟ . والصواب مع الطير « العتاق » بالتاء لا بالنون وبكسر العين .

و « العتاق » من الطير : الجوارح (راجع القاموس مادة عتق) . وبهذا تكون المقابلة صحيحة بين البغاث من الطير والعتاق منها . وقد وهم شارح معجم الأدباء طبعة الدكتور رفاعي فضبطها العناق بالفتح وبالنون وفسرها بالدابة . وتابعه المحققان .

وفي صفحة « ز » [وعزة النفس والذبّ بها عن السفاسف] وصوابه الرّبْء بها من الفعل : « ربأ بنفسه من أن يفعل كذا » ومنه « اربأ بنفسك » وقد وردت صحيحة في « معجم الأدباء » طبعة رفاعي وفي « وفيات الأعيان » جـ ٢ ص ١٠٨ ، وقد نقل عنهما محققا « الفائق » . فلماذا لم يؤديا الأمانة في النقل ؛ وخاصة أن « الربء » أحسن من « الذب » ؟

ويخفف من شدة المؤاخذة لهما أنهما في عبارة أخرى نقلا عن ابن خلكان روايته [وأفضيت إليه نجية سري] فجعلاها « بعيبة سري » ، وذلك حسن .

وفي صفحة « ح » من شعر الزمخشري :

وإنْ مالكيا قلتُ قالوا بأنني أبيح لهم أكل الكلاب وهمُ همُ

بضمتين على الميمين من الضميرين « هم » . والصواب إسكان الأولى وضم الثانية ليستقيم الوزن .

وفي صفحة ٣١ قول رؤبة :

يا قائد الجيش وزيدَ المجاس أُسني فقد قلّت رفاد الأوس

والبيت في ديوان رؤبة (مجموع أشعار العرب طبعة ليبزج جـ ٣ ص ٧٤) وصحته :

يا قائد الجيش وزينَ المجاس أُسنِي فقد قَلّتْ رفاد الأُوَّس

والأوس بضم الهمزة وفتح الواو المشددة على وزن رُكع : جمع آيس على وزن فاعل من قولهم « آس يؤوس أوساً » أي أعطى .

وفي صفحة ١٦ : [تقول العرب في الأمر المتفاقم : إحدى الأحد] . والصواب إحدى الإحد (راجع القاموس مادة أحد) .

وفي صفحة ٢١ : [وعن أهل المدينة إنهم كانوا يرون هذا الرأي] والصواب أنهم بفتح همزة أن ، وقد تكرر مثل هذا الخطأ كثيراً في الكتاب .

وفي صفحة ٤٦ : [الآنُك : الأسربُ] . وفي الهامش : [ليس في الكلام على فاعل غيره] .

وكلمة « آنك » على وزن « أفعل » لا على وزن « فاعل » وليس في الكلام « أفعل » غيرها وغير « أشد » التي في قوله تعالى « فلما بلغ أشده » . (راجع القاموس مادة أنك) .

وفي صفحة ٨١ : [ساعدة بن جؤبة] بالباء التحتية الموحدة ولعلها من أخطاء

الطبع والصواب « جؤيّة » بالياء التحتية المثناة . وهو من شعراء بني هـذيل . راجع ديوان « الهذليين » الذي أخرجته أخيرا دار الـكتب المصرية ص ١٩٠ .

وفي ص ١٠٣ هذا الشطر لرؤبة :

سيداً كسيِّد الردهة المبغوش

بتشديد الياء من كلمة « سيد » . والصواب تسكينها ليستقيم وزن البيت من الرجز مثل كلمة ميّت فإنها تقرأ ميْت بالتخفيف ، وهما لغتان معروفتان .

وفي صفحة ١٥٨ هذا الرجز :

كنا ذوي ثُمِّه ورُمِّه حتى إذا قام على أتَمِّه

انتزعوه يافعاً من أُمِّه وغلب الأخوال حقُّ عمِّه

والشعر من بحر الرجز ؛ والشطر الأول منه مكسور على روايتهما ؛ ولا يستقيم إلا بروايته على الوجه الآتي :

كنا ذوات ثُمِّه ورُمِّهْ .. إلخ

ويؤيده أن المتكلم امرأة لا رجل .

وفي ص ١٦٦ هذا البيت :

ووطئتنا وطأةً على حنق وَطْأَ المقيد ثابت الهَرْمِ

والشطر الأول مكسور ، وصوابه :

«ووطئتنا طئة على حنق» إلخ . و«الطئة» بوزن عدة مصدر من الفعل وطىء ، والبيت من البحر الـكامل ووزنه متفاعلن ست مرات . وعروضه هنا حذاء ؛ وضربه أحذ مضمر . والحذذ من علل الحذف في الشعر ، وهو حذف الوتد المجموع ؛ فتصير فيه متفاعلن إلى « متفا » بحذف العين واللام والنون .

وفي ص ١٦٧ ورد اسم « مطعم بن عدي » بفتح العين من « مطعم » ، والصواب كسر العين .

وفي صفحة ١٧٥ [جَدب السَمرَ بعد العتمة] ، وكتبا في الهامش : « في اللسان السمر » . ومعنى هذا أن رواية اللسان لم تعجبهما وهي الصحيحة . وما جاء في متن « الفائق » في الطبعة الهندية خطأ مطبعي ما كان لهما أن يجارياه . ففي « النهاية » لابن الأثير مادة « جدب » : « وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه جدب السمر بعد العشاء أي ذمّه وعابه» . وفي«مسند أحمد» ج ١ ص ٣٣٨و٣٣٩ من حديث ابن مسعود : «كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدب لنا السمر بعد العشاء » . وفي « النهاية » لابن الأثير ج ١ مادة « سمر » : « يقال سمر القوم يسمرون فهم سُمّار وسامر ؛ ومنه حديث السمر بعد العشاء ؛ وهو حديث الليل » ، وفي « نيل الأوطار » للشوكاني ج ١ ص ٤١٥ « عن أبي برزة الأسلمي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستحب أن يؤخر العشاء التي تدعونها العتمة وكان يكره النوم قبلها والحديث بعدها » . ومن هذا كله وجب أن تكون « السمر » بالسين بمعنى حديث الليل ؛ لا بالثاء بمعنى الثمار .

وفي صفحة ٢١٦ هذا البيت :

حتى انتهينا ولنا غاية من بين جُمّاع وغيرَ جُمّاع

وذكر المحققان رواية اللسان :

حتى انتهينا ولنا غاية من بين جَمْع وغير جُمّاع

وهي أصح وأصوب ، لصحة الوزن ، ولم يشيرا إلى ذلك . وقد عاد الزمخشري في ص ٦٦٦ فأعاد ذكر البيت مصححاً كما جاء في اللسان .

وفي ص ٢٤٩ [فلو كتبت إليه أذبحُ لأهل المدينة شاة] وصواب الفعل اذبحْ هنا أن يكون على صيغة الأمر بهمزة الوصل لا القطع .

وفي صفحة ٢٦٦ هذا البيت :

عَجْرَدُ كالذئب ذي الحُصاصِ يوضع تحت القمر الوباصِ

وضبط كلمة «عجرد» على هذا الشكل يكسر الوزن ، والصواب « عَجَرَّدٌ » على وزن « عَمَلّس » .

ويصح أن يبقى ضبطهما مع زيادة واو في أول البيت ليصبح :

وعَجْردٍ كالذئب ذي الحصاص يوضع تحت القمر الوَبّاص

و « العجرد » الخفيف السريع والغليظ الشديد ، و « العجرد الجريء » . (راجع القاموس مادة « عجرد ») .

وفي ص ٢٧٠ ورد اسم « أبيض بن حِمَال » على هذه الصورة ؛ وصوابه : « حمّال » بفتح الحاء وتشديد الميم كما ضبط في كتب الرجال مثل « التهذيب » لابن حجر و « المشتبه » للذهبي .

وفي ص ٢٧٧ [عن عُبادة بن أحمر المازني] وهذا الاسم منقول عن « غريب الحديث » لابن قتيبة والذي فيه — كما ذكر ابن حجر — « عُباد بن أحمر » بدون الهاء .

وهو خطأ من ابن قتيبة ، صوابه « عمارة بن أحمر » وقد حقق ذلك ابن حجر في الإصابة (جـ ٥ ص ١٢٩ — ١٣٠ و جـ ٤ ص ٢٧٤) . ولكن ثبت في الموضع الأخير فيها « عمار » بدون الهاء وهو خطأ مطبعي .

وفي صفحة ٣١٠ هذا البيت للعجاج :

خيالٌ تكنّي وخيال تكتما باتا يحوسان أناسا نُوَّما

وهذا كلام غير مفهوم ، وصوابه :

خيالُ تُكْنَى وخيال تَكْتُمَ إلخ

« وتكنى » « وتكتم » علمان من أعلام النساء (راجع القاموس مادتي كنى و كتم) . ولفظة « خيال » مضافة إلى العَلَم ، فوجب حذف تنوينها .

وفي صفحة ٣٣١ هذا الشطر :

ما أنا بالجلد ولا الحازم

وصوابه « ما أنا بالجلد ولا بالحازم » لأن الأبيات التي بعده من بحر الرجز ، ووزنه مستفعلن ست مرات . أما وضع البيت على تلك الصورة فينقله إلى البحر السريع ووزنه مستفعلن مستفعلن فاعلن . وشتان بين الوزنين والبحرين !

وفي ص ٣٣٧ : [وهي سَمِتْنا اليوم] والصواب « سِمَتُنا » ، والسِّمة بوزن ثِقَة العلامة ، وفعلها وسم .

وفي صفحة ٤١٧ هذا البيت من أبيات :

ولست بخاطٍ خطوة لدنْيةٍ ولا باسط يوماً إلى سوءة يدا

والصواب « لِدَنِيَّة » على وزن « مَزِيَّةٍ » وجمعها « دنايا » ، والبيت على ضبطهما مكسور ، وبحره من الطويل .

وفي صفحة ٤٥٨ جاء هذا البيت على هذه الصورة :

بحمد من سنانك لا بذم أبا قر ان مِتَّ على مثال

وهو وضع غريب لا يفهم معه البيت . والصواب أن يوضع كما يأتي :

بحمد من سنانك لا بذم أبا قُرّانَ متُّ على مثال

و « قران » على وزن « غُفْران » علم على رجل ؛ والمثال الفِراش .

وفي صفحة ٤٧٨ هذا البيت :

ضربت بالمرسب رأس البطريق بصـارم ذي هَبَّـة فتيق

بكسر القاف من كلمة «فتيق» والصواب أن تسكن القاف من كلمتي «البطريقْ» و « الفتيقْ » . لأن العروض هنا مقطوعة مذالة ، فيجب أن يكون ضربها في الرجز مقطوعاً مذالا مثلها . والقطع في الشعر : حذف ساكن الوتد المجموع مع إسكان ما قبله ، والتذييل : زيادة حرف ساكن على ما آخره وتد مجموع . والقاف في هـذا البيت تذييل ، فوجب أن تكون ساكنة .

وفي ص ٤٩٦ جاء اسم « عُبيدة السلماني » مضموم العين ؛ والصواب عَبيدة بفتحها كما نص عليه في كتب رجال الحديث .

وفي صفحة ٤٩٧ :

فأينما كنت من البلادِ فاجتنبنَ عرم الذواد

والنون الثانية من «اجتنبن» ينقصها شدة تحت الفتحة . وهي من أخطاء الطبع .

وفي صفحة ٤٩٨ :

وساكن أقطار الرقيع على الهوا وبالغيث والأرواح كل مشهد

والبيت مكسور ، ولعل لفظة « في » تنقص شطره الثاني ليصبح :

وساكن أقطار الرقيع على الهوا وبالغيث والأرواح في كل مشهد

وبذا يستقيم الوزن .

وفي صفحة ٥٠٦ :

صَلْخَدا لوان الجن تعزف تحته وضرب المغنى دفه ما ترمرما

وضبط كلمة « صَلْخد » على هذه الصورة يكسر الوزن والصواب « صِلَخْدًا » و«الصَّلخد » و « الصِّلخد» الصلب القوي .

وفي صفحة ٥٠٧ :

ينحي إذا ما جاهل ترمرما شجراً لأعناق الدواهي محطَّما

وضبط كلمة « محطم » بالتشديد يجعل الوزن غير مستقيم .

وفي صفحة ٥٠٩ : [رواية شَمَر] والصواب « شَمِر » بوزن كتِف وهو علم .

وفي صفحة ٥٤٩ هذا البيت :

مثل سحق البُرُود عفَّى بعدك الـ قطر مغناه وتأويب الشمال

والبيت مكسور ، وصوابه :

« مثل سحق البُرْد » ... إلخ . و « السحق » الثوب البالي ؛ و « البرد » بوزن قـفْـل الثوب المخطط . والبيت من بحر الرمل ، ووزنه فاعلاتن فاعلاتن فاعلن .

وفي صفحة ٥٧٠ :

تنادوا يا لبُهْثَة إذ رأونا فقلنا أحسني ملاءً جهينا

والصواب « ملأ » بوزن « جَبَل » لا « ملاء » بوزن « سحاب » لئلا يكسر الوزن . وفي القاموس : « الملأ » كجبل الخُـلُق .

وفي صفحة ٥٧٢ :

فردي فؤادي أو أثبي ثوابه فقد يملك المرء الكريم فيَسجح

والصواب «فيُسجح» بضم ياء المضارعة لأن الفعل رباعي ، والمصدر الإسجاح

وفي هامش ص ٦١٣ :

أرقت في القوم والصبح ساطع كما سطع المريخ شمره الغالي

والشطر الأول مكسور وصحته .

« أرقت له في القوم » إلخ ، كما في اللسان ٦ ص ٩٧ .

* * *

وفي الكتاب جهد آخر بذله المحققان ، وهو نسبة الشعر إلى قائله . ولكنهما لم يتما الفضل فتركا بعض الشعر ينتظر ناسبه . وماضرّ لو صبرا قليلا على البحث حتى يخرج « الفائق » فائقاً في كل شيء حتى في نسبة الشعر ! أو ما كان من حق التحقيق عليهما أن يمضيا في نسبة الشعر كله على سبيل واحدة ؟ ومثال الشعر الذي لم ينسباه قول القائل ص ٣٦٣ :

ومطرداً كرشا الجرو ر من خلب النخل لم ينئدِ

والبيت لامرىء القيس من داليته التي مطلعها :

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخلي ولم ترقد *

والبيت كما أثبتاه مكسور لأن همزة « رشاء » يجب أن تثبت ليستقيم الوزن .

ورواية الأستاذ حسن السندوبي له :

ومطرداً كرشاء الجرو ر من خلب النخلة الأجرد

ومثال الشعر الذي لم ينسباه أيضاً قول القائل ص ٤٦٤ :

---

* شرح ديوان امرىء القيس لحسن السندوبي ، مطبعة الاستقامة سنة ١٩٣٦ ص ٦١

بكفي سبنتى أزرق العين مطرق

والشعر كما جاء في اللسان مادة « سبت » للشماخ يرثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله :

جزى الله خيراً من إمام وبوركت يد الله في ذاك الأديم الممزّق

وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكفّي سبنتى أزرق العين مطرق

وقيل إن الشعر لمُزرّد أخي الشماخ . وفي هامش لسان العرب منقول مصححه الشيخ محمد الحسيني رحمه الله أن الشعر لجزء أخي الشماخ وهو الصحيح .

ومن الشعر الذي لم ينسب قول القائل في صفحة ٦٥ :

وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وهو للشاعر جابر بن حُنَيٍّ التغلبي وكان صديقاً لامرىء القيس . وتمام البيت :

وفي كل أسواق العراق إتاوة . وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وهو من شعراء « المفضليات » (راجع الجزء الثاني من المفضليات ص ١١ سطر ٤ طبع دار المعارف وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون) .

وبعد ، فهذه مآخذ في كتاب « الفائق » . وما كان منها بدّ لكتاب لم يهتد المحققان إلى مخطوطاته . وأين سبيل تلك المآخذ إلى الجهد العظيم الذي بذلاه ، وإلى الليل الطويل الذي سهراه ؛ وإلى الإحسان الذي أحسنا به إلى اللغة والأدب . فالفائق كنز لغوي كان من العيب أن لا تخرجه مصر العربية اكتفاء بالطبعة الهندية .

وما هذه المآخذ في جنب المحاسن الكثر التي يمتاز بها الفائق في طبعته الجديدة وفي ضبطه وتحقيقه على وجه لا تعيبه بعض أخطاء من الإنسان الذي لم تكمله عصمة الرحمن؟

ومزية « الفائق » أنه معجم مقفى على حروف المعجم ، فهو لا يقل عن « أساس البلاغة » « والصحاح » « والمصباح » لولا أن هذه في شرح الكلم العام ، وذلك في شرح ألفاظ الرسول عليه السلام .

ولنا عند المحققين الفاضلين رجاء ؛ وهو وضع فهرس معجمي عام في آخر الجزء الثاني من الكتاب بالألفاظ التي وردت فيه في مظانها وغير مظانها مردودة إلى صفحاتها أو إلى الحرف الذي وردت فيه . حتى يسهل الانتفاع بالفائق معجما ثميناً من معاجم اللغة .

ولهما وللناشر رضا النبي ، وثناء الزمخشري ؛ وشكر اللسان العربي .

محمد عبد الغني حسن

الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي

تأليف الدكتور محمد البهي أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين
٢٢٤ صفحة من الحجم المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥
نقد الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

تخرج صاحب هذا الكتاب في الأزهر وأرسل في بعثة إلى ألمانيا وهو الآن أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين . فجمع بذلك بين الثقافتين الشرقية والغربية ، ويعد كتابه هذا ثمرة النهضة الحديثة في الأزهر ، تلك النهضة التي بدأها محمد عبده ، وسار عليها المراغي ، ولا يزال يتابعها مصطفى عبد الرازق . وكان الدكتور البهي وفياً في إهداء كتابه إلى «صاحب رسالة التوحيد الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده» ، فهذا رمز إلى تلك الحركة .

ومجهود المؤلف في الكتاب واضح ، إذ اطلع على كثير من آراء المستشرقين إلى جانب رجوعه إلى المصادر العربية الإسلامية ، كما أنه قام بتدريس هذه الآراء بضع سنين حتى استقرت في ذهنه ووضحت ثم أخرجها كتاباً ، فسدّ بذلك حاجة كان الشرق في نهضته الحديثة متعطشاً لها ، ولا يزال متعطشاً إلى كثير من نوعها .

والكتاب الموجود بين أيدينا هو القسم الأول الذي يصور الفكر الإسلامي في مرحلة عزلته ، وفي مرحلته الأخرى التي اتصل فيها بالثقافات الأجنبية ، وأنواع هذه الثقافات ومصادرها وطريق اتصاله بها . وموضوع القسم الذي ينوي طبعه فيما بعد هو : موقف التفكير الإسلامي من هذه الثقافات .

قدّم المؤلف بكلمة عن معنى الفلسفة الإسلامية وموقف المؤرخ منها ، ثم قسم الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي مرحلتين : الأولى مرحلة العزلة وتنتهي بالقرن الأول للهجرة ، والثانية مرحلة الاختلاط بالثقافات غير الإسلامية ، بسط فيها المصدر الشرقي للثقافة غير الإسلامية وهي اليهودية والمسيحية ، ثم المصدر الغربي فتعرض للفلسفة الإغريقية والأفلاطونية الحديثة ومدرسة الإسكندرية ، والمدارس التى خلفتها مثل مدرسة أنطاكية وحرّان والرها ونصيبين . ثم تكلم في الترجمة وأسبابها والمترجمين وأشهر الكتب المترجمة .

وكان يحسن بالمؤلف وقد قسم كتابه قسمين ، طبع أولهما على حدة ، وهو هذا الذي نتحدث عنه الآن ، أن يغير عنوانه بحيث يطابق موضوعاته ، فيجعله مثلا «الثقافات الأجنبية التي أثرت في التفكير الإسلامي» بعد أن يرفع منه الجزء الخاص بالمرحلة الأولى

وهي مرحلة ما قبل الاختلاط والتي تنتهي عند صفحة ٤٦ . ولم تكن به حاجة إلى الإطالة في تفصيل الكلام عن اليهودية والمسيحية والفلسفة الإغريقية ، وفي الإشارة غناء ، ثم يحيل القارئ إلى المراجع المطولة في هذه الموضوعات .

وكان الأوفق تقديم البحث في الثقافات الأجنبية قبل الكلام في المرحلة الأولى ، لأنه ليس صحيحاً أن مرحلة العزلة كان فيها « التفكير الإسلامي الإلهي عربياً خالصاً » (ص ٢٧) . فقد عرف العرب في الجاهلية النصرانية واليهودية والصابئة والمجوسية ، وفي القرآن إشارات كثيرة لذلك معروفة لا حاجة بنا إلى ذكرها ، وفيه محاجة للنصارى واليهود وردّ على مزاعمهم . فكيف يصح إذن أن التفكير الإسلامي كان في عزلة ! والمؤلف يناقض نفسه إذ يقول (ص ٦٠): « ونحن نحكم قطعاً بتأخر نشأة الفرق الإسلامية عن نشأة الفرق اليهودية ، ونعلم أن اليهود اتصلوا بالمسلمين واختلطوا بهم ، لهذا كله .. يميل بعض المؤلفين في تاريخ الديانات إلى القول بتأثر المسلمين باليهود وغيرهم من المسيحيين في القول بالتشبيه والتنزيه » . فقد سبق إلى القول بأن مرحلة العزلة « لم تتبادل مع العناصر ذات الثقافة غير الإسلامية — التي كانت تعيش معها وفي داخل الدولة الإسلامية السياسية — الحديث في ثقافة الوقت» (ص ٢٤ ، ٤٣) . قال الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد التي أهدى المؤلف إلى صاحبها هذا الكتاب : « وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودي أسلم وغلا في حب علي كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه . . . »(١)

وكان يحسن أن يذكر المؤلف ثبتاً بالمراجع في آخر الكتاب ، ولا يكتفي في أوائل الفصول بقوله : من مصادر البحث في هذه المرحلة .. كتب الفلاسفة الإسلاميين وكتب علم الكلام الإسلامي (ص ٤٧) . فالكتاب مهم حقاً ، ومما يتناسب مع أهميته أن يرد الآراء إلى مظانها وفي صفحاتها ، وهي الطريقة العلمية الجامعية الوثيقة .

ويبدو أن المؤلف اعتمد في البحث عن بواكير الخلاف العقلي عند المسلمين على الشهرستاني في الملل فقط ، وهو يتفق معه في أن أول خلاف وقع بعد وفاة الرسول كان بين المهاجرين والأنصار في موضع دفنه (ص ٢٢) . وهو يؤكد هذا الرأي بدليل أنه عاد إليه (ص ٣٤) فقال : « في هذه المرحلة نجد الخلافات التي حلت بالجماعة الإسلامية منذ وفاة الرسول ، وابتدأت بالخلاف في موضع دفنه . . »

غير أن أبا المظفر الإسفراييني في كتاب « التبصير في الدين وتميز الفرقة الناجية

(١) رسالة التوحيد ص ١٢ .

عن الفرق الهالكين » يجعل أن « أول خلاف ظهر بينهم في وفاة الرسول ، حتى قام قوم وقالوا إنه لم يمت ، ولكنه رفع كما رفع عيسى بن مريم »[١] ، ويتفق معه في هذا الرأي صاحب « مختصر الفرق بين الفرق » عبد الرزاق الرسعني . أما الأشعري صاحب « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » فيرى أن : أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم اختلافهم في الإمامة ، ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر وأيام عمر ، إلى أن ولي عثمان[٢] . . . والشهرستاني يذكر أن الخلاف الأول في مرض النبي ، والثاني في تجهيز جيش أسامة ، والثالث في موته ، والرابع في موضع دفنه[٣] . وهذا يخالف ماذكره المؤلف عنه .

وقد عاد الإسفراييني إلى مناقشة هذه المسألة وهي بدء التفرق فجعلها منذ مقتل عثمان لأن « الخلاف لا يكون خطراً إلا إذا كان في أصول الدين ، ولم يكن اختلاف بينهم في ذلك ، بل كان اختلاف من يختلف في فروع الدين مثل الفرائض ، فلم يقع خلاف يوجب التفسيق والتبري[٤] » . ويرى محمد عبده هذا الرأي وهو أن أغلب الخلاف بعد موت النبي كان « في فروع الأحكام لا في أصول العقائد » إلى « أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله » .[٥]

وذكر المؤلف أن حزب الخوارج وجد « منذ مقتل عثمان ، بل ربما قبيل قتله » وأن « تسمية هذه الجماعة بالخوارج أيام إمامة علي لا يمنع أن يكون وجودها سابقاً على البيعة له . وقبيل قتل عثمان ، أو عند قتله » (ص٣٥) . وليس هذا براجح ، لأن الفرقة الأولى من الخوارج وهي المحكّمة الأولى سميت كذلك لأنهم رفضوا التحكيم ، وقد أجمع المؤرخون على ظهور الخوارج في خلافة عليّ .

وفي (ص٤٢) ، « أن المشكلة التي شغلت التفكير الإلهي الإسلامي في هذه الفترة هي مشكلة مرتكب الكبيرة . . وتفرعت عنها مسألة الإمامة ومسألة حقيقة الكفر والإيمان » . والصواب أن مسألة الإمامة أسبق في الظهور من مسألة مرتكب الكبيرة ، وفي ذلك يقول فضيلة مصطفى عبد الرازق إن « حديث الخلافة له شأن عظيم في قيام الفرق الإسلامية ، وهو أكبر مظاهر الخلاف التي حدثت منذ وفاة النبي إلى ختام عهد أبي بكر وأيام عمر ، حتى ليقول الإمام أبو الحسن الأشعري في كتاب « مقالات الإسلاميين » :

---

(١) التبصير في الدين : مطبعة الأنوار ــ الطبعة الأولى ــ ص ١٢ (٢) مقالات الإسلاميين : طبع إستنبول جـ ١ ص ٢ و ٣ (٣) الملل والنحل : جـ ١ ص ٢٣ و ٢٤ ــ مطبعة صبيح (٤) التبصير ص ١٣ (٥) رسالة التوحيد ص ١١

« وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم اختلافهم في الإمامة » (١).

ويقول المؤلف: إن الخلاف في القدر من مسائل المرحلة الثانية وهي مرحلة الاختلاط والنقل ، وأنه بدعة طرأت على التفكير الإسلامي الديني ، ودخلت مع دخول العناصر غير الإسلامية ، وظهرت عند ما قبلت البيئة الإسلامية هذه العناصر وأصبح لها فيها اعتبار وتقدير (ص ٤٢ ، ٤٤) .

وللأستاذ أحمد أمين رأي يخالف فيه المؤلف ، خلاصته أن مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم ، وأنها فكرة تحدث حول كل دين تقريبا(٢) .

ويرى صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق أن مسألة القدر كانت أول ما خاض فيه المسلمون وتجادلوا من مسائل الاعتقاد ، فقد روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى الصحابة لما رآهم يتكلمون في مسألة القدر وقال : إنما هلك من قبلكم بخوضهم في هذا (٣).

وفتنة القدر أسبق من الاعتزال ، لأن واصل بن عطاء وهو رأس المعتزلة وصاحب مقالة المنزلة بين المنزلتين ، أخذ القول بالقدر من معبد الجهني وغيلان الدمشقي . ولما شاع قول واصل بالمنزلة كانوا يضربون به المثل ويقولون : مع كفره قدري . فصار ذلك مثلا سائراً بين الناس يضربونه لكل من جمع بين خصلتين فاسدتين(٤) .

وسئل علي بن أبي طالب عن القدر فقال : طريق دقيق لا تمش فيه . وسئل مرة ثانية فقال : بحر عميق لا تخض فيه . وسئل مرة ثالثة فقال : سر خفي لله لا تفشه . وسئل مرة رابعة فقال : يا سائل لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته فإن قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وإن قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته (٥) .

ويرى دي بور أن أول مسألة قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هي مسألة الاختيار ، وأن المسيحيين الشرقيين يكادون جميعا يقولون بالاختيار(٦) .

ويشير دي بور بقوله المسيحيين الشرقيين إلى معبد الجهني وغيلان الدمشقي وكانا من النصارى ثم أسلما . أما غيلان فقد صلبه هشام بن عبد الملك بن مروان

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٨٤ (٢) ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص ٢٨٦ (٤) التبصير في الدين ص ٤٠ ـ ٤١

(٥) التبصير ص ٨٥ (٦) دي بور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٤٩

بباب دمشق وأمر بقطع يديه ورجليه . أما معبد الجهني فقد قتله الحجاج .

يتضح لنا من ذلك أن فتنة القدر ظهرت في « أيام المتأخرين من الصحابة »[١] أي قبل مرحلة الاختلاط والنقل . وعلى هذا أجمع المؤرخون قديماً وحديثا .

والسبب الأول للترجمة والنقل غير صحيح ، وهو أن اختلاف المسلمين فيما بينهم جعل العناصر الأجنبية تشعر بخفة الضغط عليها ، فدفعها إلى المساهمة في توجيه حياة المسلمين (ص ٥١ ، ١٨٦ ، ١٩١) .

والمعروف أن أول من شجع الترجمة هو خالد بن يزيد بن معاوية ، خطر بباله الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي . وهذا أول نقل في الإسلام[٢] . والمعروف كذلك أن خلفاء العباسيين كالمنصور والرشيد والمأمون هم الذين شجعوا الترجمة وأنشؤوا بيت الحكمة ، وأجروا الأرزاق على المترجمين فالخلفاء والأمراء هم الذين شجعوا النقل بإرادتهم . وليس صحيحاً أن الجماعة الإسلامية أصابها الانحلال في صدر الدولة العباسية (ص ١٩٤) .

وفي ص ١٥٣ أن الجدل الأفلاطوني dialogues ، والصواب المحاورات . وفي ص ٢٠٩ أن الجدل topik وهو صواب .

وليس لابن أبي أصيبعة كتاب اسمه «تراجم الحكماء» وصحته « عيون الأنباء في طبقات الأطباء» . وللقفطي كتاب «تراجم الحكماء» ص٢٠١ وهو خطأ يبدو أنه مطبعي.

وعند الكلام في الفلسفة اليونانية نجد بعض الآراء يعوزها الدقة والتحقيق ، مثال ذلك أن أفلاطون صاحب الكليات في المنطق (ص ١٠٩) ولم يكن أفلاطون صاحب منطق ولا كليات بل هي لأرسطو . وقال : "وقد جعل أفلاطون الخير أعلى مثال في مُثله وبالتالي أعلى مرتبة في مراتب الوجود" (ص١٢٦) . وأفلاطون . مضطرب في هذه المسألة، ففي الجمهورية يجعل الخير أعلى المُثُل ، وفي المائدة يجعل الجمال أعلاها . والغالب أنه يوحد بين المثل في الله ، وعنده أنه مثال الحق والخير والجمال .

وأرسطو لا يبرهن على وجود الله ببرهان الكمال كما جاء في ص ١٢٩ .

* * *

ويرمي الدكتور البهي في كتابه هذا بعد تفصيل الكلام في اليهودية والمسيحية والفلسفة اليونانية إلى أن أثر اليهودية والمسيحية في التفكير الإسلامي الإلهي لا يعدو

---

(١) التبصير ص ١٣ (٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٤٢

في الغالب لفت نظر المسلمين إلى معالجة المشاكل ، أما الدقة في حلول بعض هذه المشاكل فمصدرها في النهاية هو الفلسفة الإغريقية (ص ١٠٢) . وفي ص (١٦٨) يذهب إلى أبعد من ذلك: فيرى «أن علم أصول الفقه والفقه نفسه ، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة مدينة في تطورها وتنظيمها ـ إلى حد كبير ـ للفلسفة الإغريقية في نواحيها المختلفة» .

أما أن علوم اللغة العربية مدينة للفلسفة الإغريقية فهو أبعد الأمور عن الصواب ، وهو رأي بعض المستشرقين ، وقد عني الدكتور علي عبد الواحد في « فقه اللغة» بالرد عليهم وتزييف مقالتهم .

وقد ناقش صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق الرأي القائل بأن الفقه الإسلامي يرجع إلى مصادر أجنبية في كتاب التمهيد، وانتهى إلى أن «الرأي بمعناه العام نشأ في التشريع الإسلامي مع القرآن والسنة منذ عهد النبي على المذهب الذي نرجحه ، أو هو نشأ بعد النبي . وظل الرأي أصلا من أصول التشريع يستعمل قلة وكثرة ، وضيقاً وسعة ، على حسب الحاجة إليه بكثرة السنن المروية كما في الحجاز وقلتها كما في العراق »[1] وأن الشافعي هو الذي « وضع نظام الاستنباط الشرعي من أصول الفقه ، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول ، في رسالته التي تلمح فيها نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام ، من ناحية العناية بضبط الفروع والجزئيات بقواعد كلية . ومنها الاتجاه المنطقي إلى وضع الحدود والتعاريف أولا ، ومنها أسلوب الحوار الجدلي المشبع بصور المنطق ومعانيه حتى لتكاد تحسبه لما فيه من دقة البحث ولطف الفهم وحسن التصرف في الاستدلال حواراً فلسفياً على رغم اعتماده على النقل أولا وبالذات واتصاله بأمور شرعية خالصة[2] » .

ومن هذا نرى أن الفقه نشأ إسلامياً بحتاً ، ولم يتأثر بالفلسفة إلا في عصر متأخر ، ومع ذلك فقد نهض ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يحاولان إحياء مذهب السلف .

بقي علم الكلام في الإسلام ، ونحن نتفق مع المؤلف في أنه تأثر بالفلسفة اليونانية بعد أن نقلت إلى العربية في القرنين الثاني والثالث . وهذا مسلم به ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده : إن السبل تفرقت بأتباع واصل بن عطاء ، وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم[3] .

ولعلنا نظفر في القسم الثاني الذي يظهر قريباً ببيان ماهو إسلامي وما هو يوناني في علم الكلام .

أحمد فؤاد الأهواني

---

(١) تمهيد ص ١٣٤ (٢) المرجع السابق ص ٢٤٥ (٣) رسالة التوحيد ص ١٧

محمد عبده

مجموعة « أعلام الإسلام » . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٤

MUHAMMAD ABDUH

Essai sur ses idées philosophiques et religieuses.

مطبعة مصر . القاهرة ١٩٤٤

للدكتور عثمان أمين

نقد الأستاذ يوسف كرم أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

توالت الدراسات الإسلامية في السنين الأخيرة ، ولكنها جميعاً تتناول الماضي البعيد . وقد رأى الدكتور عثمان أمين ، مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، أن في الماضي القريب شخصية خصبة حقيقة بالدراسة ، فأقبل على آثار الشيخ محمد عبده ينعم فيها النظر ، وشرع يجمع أخباره من مختلف الأسفار ، فكانت ثمرة جهوده مقالات قرأناها له في المجلات والجرائد ، ثم هذان الكتابان .

أما أولهما فقد توخى فيه المؤلف الغرض الذي قصد إليه القائمون على مجموعة « أعلام الإسلام » وهو تعريف جمهور القراء بالشخصيات الإسلامية البارزة دون خوض في دقائق المذاهب والآراء ، فجاء الكتاب صغير الحجم مقصوراً على سيرة الشيخ ، ولكن جاء تحفة فنية من حيث البراعة في سرد الحوادث ، واللباقة في الإشارة إلى مغازيها ، واستخلاص العبر في كلمات قليلة أخاذة ؛ وجاء الكتاب فوق ذلك كتاب أخلاق عملية بما جلا من فضائل الشيخ : توجه كلي إلى الحق والخير ، وشجاعة في العمل لهما والدعوة إليهما ، وصبر على المكروه في سبيلهما . يبين المؤلف هذه الفضائل وغيرها بأسلوب ينم على المشاركة فيها والغيرة على إذكائها في نفوس قارئيه ، فيعجبون به وبالشيخ معاً .

وأما الكتاب الثاني فرسالة بالفرنسية قدمها المؤلف إلى السربون ونال بها إجازة الدكتورية في الفلسفة . وإنه لجدير بثناء مضاعف لإظهاره الأجانب على شخصية مصرية ممتازة سبق أن تناولها بعض كتابهم دون الإلمام بجميع نواحيها . عرض المؤلف « الرجل » أولا في أدوار حياته المختلفة وفي تكوينه العقلي ؛ ثم تحدث عن آرائه الفلسفية وطريقة معالجته للمنطق ولمسائل الحرية والخير والشر والاجتماع والسياسة ؛ ثم انتقل إلى آرائه الدينية فبيَّن وجهته ومنهجه في الكلام ، ورأيه في تاريخ الدين ، ومذهبه في الدفاع عن الإسلام ، وفي تفسير القرآن ، وفي التصوف . ثم عمد إلى أثره كمصلح اجتماعي ، ومصلح للأزهر ، ومصلح للغة العربية ، وكأستاذ كوّن مدرسة في مصر وفي سائر بلاد الشرق .

ويطول بنا القول لو أردنا تلخيص هذه الفصول ، فإنها مستفيضة دسمة ، عالج فيها المؤلف مسائل دقيقة عسيرة ، بمقدرة فائقة تشهد بتضلعه من الفلسفة والكلام . وقد كان موفقاً كل التوفيق في إبرازه لخاصيتين أساسيتين عند الشيخ ، هما أخذه بالنظر العقلي في جميع مواقفه ، واقتصاره في هذا النظر على المفيد المنتج في العمل، شأن المصلح يتعجل النتيجة ويتحرق شوقاً إليها . غير أننا نرى أن المؤلف غلا بعض الغلو في التقريب بين وجهة الشيخ ووجهة أصحاب البرجماتزم — وهو يقرب بينهما في مواضع كثيرة ، فإن هؤلاء يتهمون النظر العقلي في ذاته ويزعمونه عاجزاً كل العجز عن إدراك الحقيقة ، فلا يأخذون إلا بالنتيجة العملية مجردة عن كل تدليل . على حين أن الشيخ كان مؤمناً بالعقل ، مقتنعاً بضرورة النظر ، داعياً إليه مدافعاً عنه . وكل ما هنالك أنه كان يرى القصد في النظر والاقتصار على البين منه النافع للناس .

النظر العقلي عند محمد عبده أصل لا شك فيه يجعله يقول إن علماء الإسلام من جميع الفرق، وبخاصة الأشعري، مجمعون على أن الذي يعتنق ديناً ما « تقليداً » فليس حاصلا على اليقين ، ومن كان غير حاصل على اليقين فهو مرتاب على نحو ما ، والمرتاب في مبادئ إيمانه ليس مؤمناً « ص ٤٩ » . وإذا أخذ المؤمن ينظر في إيمانه ، وتعارض العقل مع ظاهر الشرع ، كان العقل هو المقدم ، ووجب تأويل حرف الكتاب « ١٤٢ ». فالشيخ على مذهب ابن رشد في التفسير « ١٧٢ » وعلى مذهب المعتزلة في أن أصول الأخلاق ، الخير والشر والتكليف ، أمور يدركها العقل الطبيعي دون حاجة إلى الوحي « ٩٢ — ١٠٥ » وله في ذلك صفحات قوية في « رسالة التوحيد » . وهو على مذهب العقليين في استبعاد المعجزات ونقد المسيحية لاستنادها إليها « ١٣٩ » فإنه يقول مثلهم إن الإيمان بالمعجزات لا يدع مجالاً لدراسة الطبيعة دراسة علمية . بل إنه يذهب إلى وجوب فهم الدين تبعاً للعصر ، وتجديده مع كل عصر تبعاً لتطور الإنسانية « ١٢٧ » . وهو لا يأخذ من التصوف إلا بقدر ، وينكر الغلو في الزهد ، وينكر أشد الإنكار الطرق الصوفية « ١٨٥ — ١٨٦ » وينقد المسيحية لحثها على احتقار خيرات الدنيا « ١٣٩ » اعتقاداً منه أن العقل يقضي بالتوسط في الأمور .

هذا التوسط نفسه يجب أن يكون قانون العقل في الفحص عن الحقيقة ، فلا ينزلق إلى اللجاج ، ولا يشرئب إلى ما يفوق طاقته ، بل يقتصر على المعقول المفيد . لذا نرى الشيخ يضيق بكثرة المذاهب والآراء ، ويقرر أن الإسلام الصحيح هو الإسلام الأول قبل الخلافات والمذاهب « ١٢٦ » ويريد أن يرجع في كل مسألة إلى آية بيّنة أو

دليل عقلي . ففي مسألة الحرية يثبت بكل قوة أن الشرع وما جاء به من أمر ونهي ، وأن يقين العقل وإجماع الناس وشهادة الوجدان ، متفقة على أن الإنسان مسؤول عن أعماله ؛ فالجبرية يجعلون الشريعة لغواً ، ويمحون التبعة الشخصية ، وينكرون يقين العقل الذي هو أساس الإيمان « ٧٧ — ٨٠ » ، ويقرر أن الإسلام ليس دين الجبر ، وإنما هو يعلن سبق علم الله من جهة ، وحرية الإنسان من جهة أخرى ، وأن التوكل الصحيح ما هو إلا الثقة بالله مع استخدام العلل الطبيعية لتحقيق غايات يتوخاها العقل « ٨١، ٨٧ » أما التوفيق بين سبق علم الله وبين الحرية الإنسانية ، فيجب أن يكتفى فيه بالاعتقاد بأن لا تعارض بين الطرفين « ٨١ » وأن سبق علم الله لا يمنع الإنسان من أن يكون حراً في حدود معينة « ٧٧ » وأن لا فائدة ترجى من التمادي في البحث « ٨٣ » . ويلاحظ الشيخ أن إلى مثل هذا ذهب بوسويه . وبهذه الطريقة عينها ، يخرج من المسائل الخاصة بالله، فيقول بوجوب الاكتفاء بالعلم بأن الله موجود ، وأنه لا يشبه المخلوقات ، وأنه سرمدي حي عليم مريد قدير إلخ . أما مسألة ما إذا كانت هذه الصفات مغايرة لماهيته ، وغيرها من المسائل، فلا يجوز الفحص عنها، إذ أن العقل الإنساني لا يستطيع النفاذ إليها « ١٣١ ». بل إن الشيخ ، في شوقه إلى حسم المشكلات وفي استعجاله إلى النتائج ، لا يتأنى في امتحان معلوماته غير الإسلامية ، فيقبل بعض الآراء الحديثة على علاتها ، مثل تفسير الاجتماعيين لنشأة الدين الطبيعي « ١٤٨ — ١٤٩ » ، أو يتهم النصرانية بالإيمان بما يعارض العقل دون تعرف رأي أساطينها في هذه النقطة ، أو بأنها تزعم أن الكتب المقدسة تحتوي على كل ما يفتقر إليه البشر لهذه الحياة وللأخرى ، لأن كاتباً نصرانياً « هو ترتوليان » قال ما يشبه ذلك « ١٣٩ — ١٤٠ » ولم يكن له صفة للتعبير عن رأي الكنيسة ، بل إنه خرج منها ليدخل في شيعة من أغرب الشيع .

ومهما يكن من هذه الجزئيات ، فيبقى أن الشيخ محمد عبده كان عقلاً كبيراً في نفس كبيرة ، وأنه كان حقيقاً بدراسة مفصلة تجلوه للجيل الجديد . ولقد قام صديقنا الدكتور عثمان أمين بهذه الدراسة على خير وجه ، وفي خير أسلوب فرنسي يعد مثلاً من أمثلة الكتابة العلمية الدقيقة الرصينة الواضحة . فنهنئه أصدق التهنئة بهذا التوفيق المزدوج، ونسرّ إليه أن كثيرين ، أي قراء العربية جميعاً ، يودون لو أنه ينقل رسالته إلى لغتهم — ولغته — فيرد إليهم النصوص بحروفها ، وهي متفرقة في كتب عديدة عسيرة الجمع ، فيسدي بهذا النقل خدمة تذكرها له العربية فوق ما أسدى إليها من خدمات وما ينتظر بإذن الله .

يوسف كرم

التعريف

ثورة في البرج العاجي

تأليف الأستاذة منيرة ثابت
١٩٢ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦
بقلم معالي محمد العشماوي باشا

هي ثورة حقاً ما في ذلك شك ، توافرت لها مقومات الثورة الفكرية وأسلحتها من فيض إيمان وقوة عقيدة ونضال في سبيل المبدأ وصبر وطول احتمال وغضبة في سبيل الكرامة . كرامة النفس والوطن والجنس ، وروعة بيان ومرارة جد في غلاف من حلاوة الدعابة ، وشدة بأس في ثوب من السخرية الرقيقة المهذبة ، وصراحة وحسم في في مواقف الصراحة والحسم ، ولباقة ومرونة في مواقف الصيال والمداورة . ولكنها ليست ثورة في البرج العاجي ، كما وصفته ، ولكنها ثورة في صميم الحياة وفي أرض الوطن حيناً في سبيل نصرة المرأة وقضية الحق وخارج حدود الوطن أحياناً في سبيل العزة القومية والكرامة النسوية . إذ عهدنا في ثورات الأبراج العاجية انكماش المترفين من الكتاب في عقر دورهم وتجافيهم خضم الحياة ناعمين هادئين يعيشون لأنفسهم تغمرهم الأنانية فتباعد بينهم وبين أوضاع المجتمع ، وما تغلي به مراجله من فواجع ، وما تهتز به جوانبه من أحداث ، ولكن هذه الثورة التي أتحدث عنها ثورة نزلت بصاحبتها من برجها العاجي إلى ميدان النضال ، وغمرة الحياة مؤثرة النصب على الدعة والكفاح على الراحة واتصلت بشتى الأوساط وجالت وصالت ونافحت واغتربت في سبيل نشر الدعوة للقضية التي وهبت نفسها لها وآمنت بها . فطلبت للمرأة المصرية المثقفة مكانتها ورفعت صوتها عالياً في مصر وحلقت في آفاق نهضتها لتحقق لها المساواة كاملة غير منقوصة ، ما ونت ولا فترت همتها ولا قعد بها يأس ولا استخفها أمل ، فجاءت هذه المذكرات صحيفة جهاد متصل خلال حقبة طويلة من ربيع العمر حيث تهدف النفوس عادة إلى متعة النفس وهدأة القلوب .

وقد أكون مختلفاً بعض الشيء مع الكاتبة الأديبة السيدة منيرة ثابت فيما تشف

عنه ثورتها من آراء تتصل بقضية المرأة وأهدافها ورسالتها مما تضمنته مذكراتها وكانت وليدة تفكيرها وموضوع جهادها وذلك لأني أتمنى لو جنبت المرأة النضال في ميدان السياسة ومعركة الحياة لتخلص لرسالتها الكبرى وتتوفر على شئون دولتها العظمى وتفرغ لتنشئة الجيل وإقامة دعامة الأسرة وتهيئة الجو الصالح لخلق أعلام البطولة والتضحية. وأشفق عليها أن يصيبها من الأذى ما أصاب الأحزاب السياسية ومن استناموا إلى أساليبها وظاهروها ولكني مع ذلك ورغم كل ذلك لا أستطيع أن أغفل ما للمرأة من شأن في توجيه الإنسانية وما قد يكون لها من أثر بالغ في تسديد الخطى ونصرة الحق والعدل، وما تضفيه نفسها الكريمة وعاطفتها النبيلة الفياضة على المجتمع من بر وروحانية تيسر من عسر الحياة وترقق القلوب الصلبة وتحد من جماح النفس ومطامعها وتدفع بالإنسانية قدماً في طريق العدالة الاجتماعية في ظل السلام على أساس من الحق. وأعتبر الجهاد وما نحتمله من أذى في سبيل نصرة قضية المرأة جهاداً واحتمال أذى في سبيل تحقيق هذه المثل العليا قصد السمو بالحياة فوق مهاوي المادية البغيضة ومزالق الهوى ومراتع الظلم والطغيان.

محمد العشماوى

إلى أن يقبل الصيف

تأليف الدكتور فؤاد العقل

بند أكبرج . مساكوست (الولايات المتحدة) ١٩٤٥

بقلم الدكتور محمد أحمد سليم المدرس بكلية الهندسة في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة

صدر أخيراً بالولايات المتحدة كتاب يجدر بشباب الشرق أن يقتنوه ويتدبروا ما ورد فيه من آراء وحكم صادرة عن خبرة رجل نشأ في أحضان أوطانهم ثم هاجر إلى بلاد العم سام واتخذها وطناً له وأصبح من مشاهير رجال الجراحة.

والمؤلف مصري ولد في مدينة كفر الزيات بمديرية الغربية من أبوين من أصل لبناني... ثم تعلم بمدارس الأمريكان بكفر الزيات، وانتقل منها إلى الكلية الأمريكية ببيروت ليدرس هناك الطب، وبعد تخرجه سافر إلى الولايات المتحدة حيث تمرن بمستشفياتها مدة عامين عاد بعدهما إلى وطنه مصر ليشتغل بالعمل الحر بين أهله وعشيرته... غير أن حبه للمغامرة والأسفار جعله يتنقل بين الولايات المتحدة والسودان وبلاد التبت إلى أن استقر في البلاد الأمريكية وأصاب فيها شهرة طائلة.

ولم تقتصر جهود الدكتور العقل على الطب وحده ، بل جاوزتها إلى النواحي الاجتماعية المختلفة، فقد آمن في مستهل حياته بمبدإ تكافؤ الفرص، وعمل على خدمة المجموع بمحاضراته وبحوثه والسعي لإنشاء المستشفيات على نظام تعاوني سليم . . . كما أنه مصور هاو بارع يسجل الجمال بالآلات المتحركة والثابتة .. وهو فوق هذا كاتب وشاعر وصّاف، كما يظهر من كتابه الأخير هذا . ولعل حبه للانسانية قد دفعه إلى أن يخصص ريع الكتاب بأعمال الخير والتعليم .

والكتاب عبارة عن تاريخ حياة المؤلف وما صادفه من مشقة ونجاح في كفاحه في سبيل الحياة .. وقد حلاه بتحليل دقيق للشخصيات التي صادفها ، وبمناقشة عميقة للمبادئ الاجتماعية المختلفة ... كما شفع كل ذلك بمختارات من شعره وشعر عمر الخيّام ... مما يدل على ملكة شعرية مطبوعة يظهر فيها أثر الجمال الذي لمسه المؤلف في أسفاره المختلفة. وقد ينسى القارئ أحياناً أن المؤلف طبيب عَنَّ له أن يدوّن أفكاره في أوقات فراغه القليلة بين العمليات المختلفة .

ولقد أجاد المؤلف في وصف بعض الأحوال التي قابلها في أثناء عمله كطبيب ... كما راعى في وصفه البساطة حتى يتمكن القارئ العادي من الإلمام بمثل هذه الأحوال الطبية المعقدة ... كما أجاد في تحليل مركز الطبيب بين الواجب والعاطفة ، وخاصة عندما يواجه بحالات يعلم أن لا أمل فيها للشفاء ، والمريض يطلب منه المعاونة على التخلص من الحياة وبالتالي من آلامه . . . وتتجلى إحاطة المؤلف بالناحية الاجتماعية من مناقشاته مع زملائه الأطباء حول العناية بالفقراء ، وسخطه على نظم العالم التي تجعل هناك طبقات تموت جوعاً في حين كانت بعض الحكومات تحرق المحاصيل خوفاً من نزول أسعارها ... كما نجده يناجي نفسه محاولا التوفيق بين العمل للحصول على قوت يومه وبين إيمانه بنظرياته التي لو جاهر بها لأفقدته قوت يومه ...

ويسرّ كل شرقي أن يقرأ الفصل الرابع عشر من الكتاب ... إذ يعالج فيه المؤلف طمع الغرب في الشرق ، وكيف يبيح رجال الغرب لأنفسهم دائماً أن يشوّهوا الحقائق عن الشرق، وأن يحاولوا دائماً البحث عن عيوبه . . . كما نجده قد أجاد في الرد على المرحوم المستر ولكي عندما تجنّى على مصر في كتابه الشهير « عالم واحد » بذكر الألقاب والحاصلين عليها ... ولقد خدم المؤلف الشرق كله بتسجيل هذا الرد في كتابه ، إذ أنه سيبقى في أذهان الأمريكيين مدة أطول من الردود التي نشرها بعض المصريين في الصحف اليومية في ذلك الحين .

ويختم المؤلف كتابه بأمله في تكوين عالم جديد عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، مذكراً ساسة العالم بأن يتفادوا الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها زملاؤهم عقب الحرب الماضية .

محمد أحمد سليم

الجيش المصري الحديث

تأليف البكباشي عبد الرحمن زكي ، أمين المتحف الحربي

١٧٨ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة النيل . القاهرة ١٩٤٥

مؤلف هذا الكتاب من ضباطنا الذين يعتز بهم الكتاب العربي في الناحية العسكرية والتاريخية . فهو يجمع إلى ثقافته الحربية ثقافة أخرى نهلها من معهد الآثار بكلية الآداب . وتشهد بذلك مؤلفاته ورسائله الكثيرة في الثقافة العسكرية ، فقد قرأنا له قبل اليوم كتاب « الجيش المصري بين الأمس واليوم » و « الجيش المصري في عهد محمد علي الكبير » .. وقرأنا له كتاب « القاهرة » وهو وصف لخططها وآثارها ومعالمها على نحو ما صنع المقريزي وعلي باشا مبارك في خططهما .

وكتاب اليوم سجل واف للجيش المصري الحديث ، أو معلمة جامعة لكل ما يتصل بالدفاع عن هذا الوطن الكريم . ففيه أبواب عن الملك والجيش ، ووزارة الدفاع الوطني ، ورياسة أركان حرب الجيش ، وأسلحة الجيش المختلفة وأقسامه ، واتحاد الرياضة فيه . وفيه أبواب أخرى تتصل بالجيش ، كالقوات المرابطة والتدريب العسكري الجامعي ومجلة الجيش ..

وكتاب « الجيش المصري الحديث » فيه كثير من رسائل المعرفة عن جيش يخاطب جلالة قائده الأعلى ضباطه بقوله : [كما أنني أهتم اهتماماً عظيماً بشؤون أفراد جيشي وأود على الدوام أن تكتسبوا محبة الجنود واحترامهم ، وأن تعاملوهم بالحسنى في حدود القانون ، وأن تغمروهم بحزم القائد وعطف الوالد] !

امتلأ كتاب البكباشي عبد الرحمن زكي بصور كثيرة تمثل الحياة في الجيش المصري أصدق تمثيل . حتى لقد كاد كتابه يكون الجيش المصري كله مجتمعاً في كتاب . والصورة القلمية إذا أعانتها صورة شمسية أو ضوئية كان الهدف أوضح والغرض أنجح .

ويقيننا أن الضابط الأديب نجح في تقديم الجيش إلى الأمة التي تمد هذا الجيش بفلذات الأكباد وأصلح الأولاد .

نساء عاشقات

تأليف الأستاذ صلاح الدين المنجد

٩٣ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة الترقي . دمشق ١٩٤٥

يلبس الحب في كل عصر ملابس أهله . ويخضع في كل جيل لطائفة من المواضعات الاجتماعية يجتمع الناس عليها ويستلذون أحداثها ، ويهدفون إلى مثل رفيع فيها .

فقد كان الحب في القرن السابع عشر يلزّ مع البطولة في قرن . فالمحب لايكون محباً جديراً بهذه التسمية إلا إذا دفع الثمن من شجاعته وبذل المهر من بطولته .

وكذلك كانت قصة الأميرة « د كليف » التي ألفتها مدام « دولافاييت » الكاتبة الفرنسية النابهة التي كانت تحلم بالحب وتعجب بالبطولة .

والأميرة د كليف بطلة القصة فتاة صيغت من النعيم وعاشت في هناءة القصور ، تزوجها الأمير "د كليف" وأحبها الفارس « دنيمور » بل أحبته لأنه فتنها بأناقته وبطولته . ولكنها صيغت من معدن الوفاء . . فكيف تخون زوجها الأمير ؟

وأصرت أن تصارح زوجها بحبها للفارس حتى يبرأ ضميرها . . . ولكن الزوج بهته النبأة فيموت بعد حسرة من الألم الممض .

وعذبها ضميرها لأنها رأت أنها اجتمعت مع حبيبها على موت زوجها . ورأت أن في البعد عن الناس جميعاً — حتى عن فارسها الحبيب — راحة لنفسها وشفاء لهمها .

وفي القرن الثامن عشر تحول حب المرأة إلى دراسة لشمائل الرجل وعاداته . ولم يعد الحب شيئاً يقرح الجفون ويدمي العيون . فانطلق الناس من ملل هذا اللون إلى حب الطبيعة كما ظهر في قصة « هيلوئيز » الجديدة لرسّو .

والحب على ألوانه ممتع حين يقص أو يقرأ . ولكنه إذا جرب فقد يكون شيئاً ممتعاً ، وقد يكون شيئاً آخر لا متاع فيه ولا راحة ترجى منه ولا شفاء ينال عنده . ولهذا يتسلى الناس بقصص الحب ولو كان فيها عنت المحبين وشقاء العاشقين .

وكتاب « نساء عاشقات » يمتاز بميزتين تدفعان المرء دفعاً إلى قراءته ووجدان اللذاذة فيه وإصابة المتاع بين سطوره : أولهما أنه قصص من صميم الحياة وواقع الأمر ، لم يهرجها خيال مجلوب أو اختراع مكذوب . وثانيهما أن كاتبه عرف كيف يقص سيرة قلوب جرى عليها من الحب أقضية وأقدار ، في أسلوب سهل ولفظ متخير وعبارة منتخلة .

ومزية تفضل تينك المزيتين ، وهي أن في الكتاب مسلاة للقلب حين يفرغ . أما القلوب المحطمة فلها من هذا الكتاب الممتع سلوٌ وعزاء . . . .

من وحي المرأة

نظم الأستاذ عبد الرحمن صدقي
٦٤ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٥

هو ديوان يضم بين دفتيه قصائد ومقطعات مشجية النغم ، صادقة الوجيعة ، نظمها الأستاذ عبد الرحمن صدقي « في رثاء زوجته الشابة ، الطيبة الخلق ، شريكة حياته ، ورفيقة دراساته » . ولم يكن هذا الشعر يطلع على الناس حتى كتب الأستاذ توفيق الحكيم فيما كتب عنه : « إن الشعر الذي قرأته ينزف من جرح لا يدرك كل الناس أغواره . إني لأتساءل : هل أنت نظمت هذا الشعر ، أو أنه انسكب وحده مع نفسك كما تنسكب الدموع . . . دون أن تمسك حتى بالقلم ! إنه شيء طبيعي . إنه من صنع الطبيعة نفسها مثل عبراتنا . هذا شعر لا يصنع ولا يكتب ، ولا يظهر في كل حين ، ولا يجود به كل شاعر » . وقال الأستاذ عزيز أباظة باشا : « ما أظنها قصائد بالمعنى المفهوم ، ولكنها دموع العين والقلب معاً تقطر في أصدق تعبير وأشرفه — ولكنها الحشاشة الذائبة والنفس المنصهرة تترقرق في أنصع الشعر وأسماه » . وقال الأستاذ العقاد : « لم يكن هذا الشعر إلا وحياً فاض به حزنه على الزوجة العزيزة ، فخرج في جملته منظوماً كأنه لا يحتاج إلى ناظم ، وجاء فيه بقصائد ومقطوعات ستبقى في عداد الشعر الخالد ، سواء منه ما نظم في هذا الموضوع أو غير هذا الموضوع » . وأخيراً وجه الأستاذ خليل بك مطران إلى صاحب الديوان هذه الأبيات :

يا من شهدنا أنه كاتب — له مكان أدبي رفيع
لم تقرض الشعر قديماً ، فهل — واتاك عفواً سهله والمنيع
أعجبْ بما أوحى إليك الهوى — من نغم مشج وبث وجيع
سجعك لم يلهَم أفانينه — صادح أيك في وداع الربيع
كانت ربيعاً لك تلك التي — تبكي نواها بحرار الدموع
كيف عفت أزهارها وانقضت — سعادة الشمل الهنيء الجميع
من طيب رياها ومن حسنها — لم يبق إلا ذكريات تضوع
لله إبداعك في وصفها — تصوغه صوغ الصناع الضليع
خلّدت بالشعر لها صورة — من الطراز العبقري البديع

من حولنا

تأليف الأستاذ محمد سعيد العريان

٢٦٠ صفحة من القطع المتوسط . دار الكاتب المصري . القاهرة ١٩٤٦

اثنتان وثلاثون قصة قد لا نبالغ إذا قلنا إنها قصص الحياة التي نحياها والدنيا التي نعيش فيها ، والتي قد نمر بها مر الكرام باللغو معرضين . ولكن الأستاذ العريان كان له وراء كل حادثة عين ، وخلف كل مشهد جارحة ، وعند كل سانحة من الأمور تفكيرة « طويلة » هي التي أوحت إليه بهذه القصص القصار ...

ولقد كان المؤلف قصصياً بارعاً في قصة « انتقام الآلة » وهو يسخر من ذلك الإنسان الآلي الذي قد يخدم ويعمل ، ويروح ويغدو بالضغط على زر كهربي ، ولكن ليس فيه قلب الإنسان . . .

كذلك كان شأنه عندما يصور لنا في بيانه المشرق ذلك الكاهن صهيون اليهودي الذي حاول أن يربح جائزة من الذهب — مائة ألف درهم — ليدل على أهل الكهف ملكاً صار إليه الملك بعد الملك الذي بعث في طلبهم بثلثمائة من السنين .. فالمال عند هذا الكاهن فوق كل اعتبار ، ولو زوّر من أجله في حساب السنين والأعصار .. أو عندما يصور لنا الشيخ عبد الجليل في كتابه وقد تحلق حوله صبيانه ؛ ثم يصفه ويصف كتابه على الحال التي سمعنا عنها أو رأينا بعضها في كتاتيب قرانا وصفاً يجعل الغيب مرئياً بالعيون لا مدركاً بالظنون .

ولكن الصفحات التي عنوانها « حلم شاعر » ليست قصصاً ولا شيئاً شبيها بالقصص ... إنها نقلة في حياة شاعر من جانب إلى جانب ومن طرف إلى طرف . وأين من هذه مثلاً قصة « ورقة النصيب » التي أشرف فيها سعيد على قمة ليشير الناس إليه قائلين : هنا قصاص حكيم .

أما أسلوب الأستاذ العريان ففيه فحولة تعزينا عما نكابده من ميوعة في كثير من الأساليب . وهي فحولة قد يتعصب لها الأديب المعرق ويرضى عنها الرضى كله ؛ وقد يجدها الأديب المحدث شيئاً عتيقاً ... والحق أننا محتاجون إلى هذا القالب المليء ما دام يحمل فكراً طريفاً ومعنى لطيفاً .

وفي أسلوب المؤلف «لوازم» في كثير من وجوه الكلام لا ندري كيف يسيغها ذوقه الجميل .

فاسمع قوله : « إن له زيارة » و « إنه لسعيد » و « إن بين ولدها » و « أنه ليذكرهم » و « إنها لتحب السيطرة » و « إن فيه لطراوة » و « إنها لتتمنى » و « أن قلبي لينازعني » و « إنها لتخلع » و « إن على صدره لسربال خادم » و « إن في يده لمنفضة » وهي على التوالي منثورة في صفحات الكتاب .

وأخونا العريان يتنوق في لفظه إلى حد لا تصدق فيه الفطرة .. وإلا فما حاجته إلى استعمال « الخُم » بضم الخاء بدلا من قفص الدجاج (ص١٣٠) . وما حاجته إلى المزاوجة بين التشدد والتيسير حين يستعمل « السبيبة » وهي فصيحة عالية ثم يعود فيضطرب فيضع في مكانها « الشريط » ، والشريط في اللغة شيء غير ما نستعمله فيه .

ثم ما حاجته إلى استعمال الثعابين في تشبيهاته واستعاراته ، فتارة تتلوى (ثعابين الدخان) في صفحة ، وفي أخرى (لدغتها ثعابين الغيرة) ص ٦١ ؟

ولكن الكتاب على الرغم مما يتلمسه الناقد من مآخذ ربح للأدب القصصي الرفيع .

الموت والعبقرية

تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي

١٢٨ صفحة من القطع الكبير . مكتبة النهضة . القاهرة ١٩٤٥

قال المؤلف في التصدير : « هذه صفحات أملتها قشعريرة فكر تجلى له الموت على قمة العدم » . . . ولقد كان المرجو بعد هذا البيان أن يحظى القارىء بهذه التجربة الفريدة في نوعها ، غير أن المؤلف لم يرو شيئاً عن نفسه وما حدث له ، لأنه كما يقول في فصل عن الحب والموت : « ساءلت نفسي ثم عييت عن الجواب . فذهبت أتلمسه لدى الشعراء أول الأمر . . . » وهكذا انصرف عن نفسه إلى الشعراء والصوفية والادباء وغيرهم . . .

والفصل الأول من الكتاب بحث فلسفي تكلم فيه المؤلف على مشكلة الموت ، ومن أي وجه ينبغي أن يتناولها الباحث مع التفرقة بين الإشكال والمشكلة ، والتوحيد بين الوجود والزمان (ص١٣) .

ويرى الدكتور بدوي أن الوجود والزمان شيء واحد ، وهو ما يخالفه فيه المتبعون طريق المنطق المتفق عليه بين الناس حتى الآن . ولكن « مشكلة الموت قد بدا أنها قد انتهت إلى القضاء على هذا القانون » (ص ١٦) . وهو يشير في ذلك إلى قانون

عدم التناقض . وأكبر الظن أن أغلب الناس ، لأنهم يتبعون المنطق المألوف لا منطق الموت المقلوب ، لن يتيسر لهم فهم ما يرمي إليه المؤلف الفاضل . ونسوق مثالا واحداً لهذا النوع من المنطق الجديد : « فإذا كانت الشخصية تقتضي الحرية ، والموت يقتضي الشخصية ، فإن الموت يقتضي الحرية (ص ٧)، وهذا قياس لا ينتج كما يقول المناطقة ..

ثم عدل المؤلف بعد ذلك عن الكلام في الموت والعبقرية ، أو عدل عن الكلام في الموت فقط لأنه يتحدث عن العبقرية ، فنقل فصولا يصور فيها حياة هيلدرلن ، وإستيفان سفايج ، وجيتة . ثم انتقل إلى الكلام عن « الترجمة الذاتية في العربية » . وعاد بعد ذلك إلى الحديث عن يوميات مارية بشكرتسف ، ونوفالس ، وموريس دي جيران . ونحن نخالف المؤلف في أن هؤلاء الأخيرين من العباقرة ، ونخالفه كذلك في أن يومياتهم تعبر عن الموت ، لأنهم كتبوها وهم أحياء ..

ونعود إلى ما ذكره عن التراجم الذاتية في العربية ، أي الأعلام الذين ترجموا لأنفسهم مثل ابن سينا وغيره ، فنقول : إن كتاب «السيرة الفلسفية» للرازي ليس من هذا النوع ، بل هو كتاب أخلاق يصف فيه الرازي ما ينبغي أن تكون عليه سيرة الفيلسوف .

صدى النقد

بيان

نشرنا في الجزءين الماضيين من هذه المجلة نقداً بقلم السيدة بنت الشاطىء لكتاب « دفاع عن البلاغة » ثم رداً على النقد للأستاذ أحمد حسن الزيات مؤلف الكتاب . ولئن قيل إن بنت الشاطىء قد قست على الزيات في نقدها أو إن الزيات قد قسا على بنت الشاطىء في رده لقد دفعنا إلى نشر النقد والرد عليه احترامنا لحرية الرأي ورغبتنا في أن يشيم القراء بريق الحقائق من احتكاك الآراء . فما دار بخلدنا أن ننتقص من قدر المنقود ولا من قدر الناقدة فلكليهما عندنا منزلة محفوفة بالرعاية والاحترام .

تصحيح لغوي

كتب الأستاذ عبد المنعم خلاف في عدد « الكتاب » السابق يرد على نقدي لكتابه في عدد « الكتاب » الأسبق ، فنص على خطأ نحوي في عبارة لي ، في حين

أن لا خطأ هناك . وإذا كان النقد الأدبي مسألة تختلف فيها الآراء ، فالنحو مسألة قواعد ونصوص .

كنت قد قلت : « عيب هذا الكتاب "أومن بالإنسان" أنه يغلق جوانب النفس فيما عدا ابتكار علمي أو اتجاه خلقي ... » . وأورد في رده عبارتي هذه وكتب تعليقا عليها : « كذا وردت العبارة في النقد . ومستثنى عدا واجب النصب إذا دخلت عليه ما » .

والحقيقة أن مستثنى عدا كمستثنى خلا ليس واجب النصب في حال من الأحوال . وصاحب الألفية يقول :

واستثن ناصباً بليس وخلا وبعدا وبيكون بعد لا
واجرر بسابقي يكون إن ترد وبعدما انصب وانجرار قد يرد

والنصب هو المشهور نعم بعد « ما » ولكن الجر جائز (أجازه الكسائي على جعل «ما» زائدة وجعل خلا وعدا حرفي جر . وقد حكى «الجرمي» في «الشرح» : الجر بعد ما عن بعض العرب) كما يقول ابن عقيل . وكذلك يقول صاحب «التوضيح» وغيرهما .

فليس « مستثنى عدا واجب النصب إذا دخلت عليه ما » كما يقول الأستاذ . وهذا ما يعنيني تصحيحه في هذا المقام .

سيد قطب

استدراك

١ — في التعريف بكتاب « من أعماق الجبل » في الجزء الماضي سقطت بضع كلمات من الفقرة التالية فنعيدها مصححة : « وهذه الأسطورة الأخيرة لها أصل هندي في أغاني تاجور المعروفة باسم « البستان » والتي نقلها إلى العربية الأستاذ لطفي شلش باسم « رعاة الحب » .

٢ — وفي نقد كتاب « البيادر » حرفت كلمة الشر إلى كلمة الشرق في الفقرة التالية : «فمثلا عرض المؤلف لمشكلة الشر في الحياة وهذه المشكلة نفسها عرض لها تاجور في كتاب « السادهانا » ... إلخ » .

الدّخلاء

تأليف هكتور هيو منرو الملقب بالساقي
ترجمة الأستاذ محمد قطب

[ولد منرو في إكياب ببرما وقضى شطراً من عمره هناك، وأحب الشرق وفتن بالشعر الفارسي ، وخاصة رباعيات الخيام ، فسمى نفسه باسم ساقي Saki أي ساقي الخيام . وعرف بهذا اللقب]

في ليلة من ليالي الشتاء وقف رجل في غابة مشتبكة النبات على جبال الكربات الشرقية ، يراقب ويتسمع ، كأنه وحش من وحوش الغابة يقترب إلى مدى بصره . . . ثم إلى مدى غدارته .

ولكن الصيد الذي كان يرتقبه بانتباه شديد لم يكن بحال ما من الصيد الذي يبيحه القانون ! . ذلك « أن ألريش فون جرد فتز » كان يذرع الغابة المظلمة بحثاً عن عدوّ آدمي !

كانت الغابة التي يملكها « جردفتز » واسعة فسيحة الأرجاء ، مكتظة بوحوش الصيد . ولم يكن طرفها الضيق المنحدر ملحوظاً بكثرة الوحوش التي تأوي إليه أو حسن مواقع الصيد فيه ، ولكنه — دون سائر أملاك صاحبه الواسعة — كان أشدها حراسة وأكثرها نصيباً من اهتمامه .

فقد استردها جده قسراً — بعد قضية كبيرة — من يد جار دنيء كان يستولي عليها بغير حق ، ولكن الفريق الذي انتزعت منه لم يرض قط بقرار المحكمة . وظلت العلاقات تسوء بين الأسرتين مدى ثلاثة أجيال ، بسبب السطو على الغابة وسرقة الصيد منها وما شابه ذلك من الدنايا .

ثم أصبحت الخصومة العائلية خصومة شخصية منذ أصبح « ألريش » سيد العائلة وصار يحسّ ملء قلبه بالكراهية والبغضاء « لجرج زنايم » وارث الخصومة وسارق الصيد الذي لا يفتأ يغير على البقعة المختلف عليها .

وربما كان من الممكن أن تنطفىء تلك الخصومة أو تصل إلى الصلح لو لم تقف أحقاد الرجلين الشخصية في الطريق . ففي طفولتهما كان كل منهما يتعطش لدماء الآخر ، وفي رجولتهما كان كل يدعو الله أن ينزل بالآخر المصائب والآلام .

وفي تلك الليلة العاصفة كان « ألريش » قد جمع رجاله ليراقبوا الغابة المظلمة — لا بحثاً عن ذوات الأربع من الوحوش — ولكن ترقباً للصوص الذين كان يتوقع دخولهم من طرف الغاب .

وكانت الغزلان ، التي تأوي عادة إلى بعض الأشجار تحتمي بها من الريح العاصف تجري كأنما تساق سوقاً . وكان القلق والاضطراب يسودان المخلوقات التي تعودت أن تنام في ظلام الليل . ما من شك في أن شيئاً مثيراً قد دخل إلى الغابة . . . ويستطيع ألريش أن يحزر من أي أرجائها استطاع أن يتسلل .

وقد ترك رجاله الذين وضعهم في كمين على قمة التل ، ودلف وحيداً إلى المنحدرات الزلقة التي تكتنفها الأعشاب المشتبكة ، وهو يرقب من بين جذوع الأشجار ، ووينصت وسط صرير الريح في الأغصان المرتعشة ، لعل سمعه أو بصره يقع على قطاع الطريق .

لو أنه في تلك الليلة القاسية في ذلك المكان المظلم المنعزل ، قد لقي « جورج زنايم » وجهاً لوجه بغير شاهد ولا رقيب . . . !

تلك كانت الأمنية التي تسيطر على أفكاره .

وبينما هو يستدير حول جذع شجرة ضخمة إذ به وجهاً لوجه أمام الرجل الذي يبحث عنه . . .

وقف الخصمان يحدق كل منهما في الآخر فترة طويلة في صمت ؛ وكان كلاهما يحمل غدارته في يده ، وحقده في قلبه ، ونية القتل تسيطر على أفكاره . لقد منحت الفرصة أخيراً لتحقيق نوازع العمر بأجمعه . ولكن الشخص الذي ربي في قيود المدنيــة لا يستطيع أن يحمل أعصابه على قتل جاره هكذا في هدوء وبغير كلمة مغضبة ، إلا أن يكون قد أسيء إلى شرفه أو بيته .

وقبل أن تنتهي لحظة الصمت إلى عمل وحركة ، حدث من حركات الطبيعة ما أفزعهما معاً وهدد كيانهما ، فقد صرخت العاصفة صرخة مدوية ، أعقبها صوت تحطيم عنيف فوق رأسيهما ، وقبل أن يتمكنا من القفز بعيداً عن مركز الخطر ، كانت كتلة من الشجرة المحطمة قد هوت عليهما هادرة كالرعد ، ووجد « ألريش » نفسه ممدداً على الأرض وقد خدرت تحته إحدى ذراعيه بينما اشتبكت الأخرى في فرع متشــابك

الأغصان عاجزة عن التخلص، وقد أنقذه حذاء الصيد الثقيل من تحطم قدميه. ولكن مهما خفيت إصابته عما كان يتوقع، فإنه ولا شك عاجز عن الحركة في موقفه الراهن حتى يحضر أحد لنجدته.

وكانت الأغصان في أثناء سقوطها قد سلخت جلد وجهه، فحاول أن ينفض عن جفنيه بضع قطرات من الدم حتى يستطيع أن يدرك ما حوله من أحداث.

وكان جرج زنايم على مقربة منه بحيث لو شاء — رفي الأحوال العادية — لاستطاع أن يلمس جسمه المضطرب الذي يصارع الأغصان الملتفة حوله. ولكنه كان مثله عاجزاً عن تخليص نفسه، فقد ترا كمت حولها الأغصان المحطمة والجذوع المتناثرة.

وقد سر «ألريش» أنه لم يزل حيا، بينما أثار في نفسه منظر غريمه شهوة التحرش فجرى على لسانه خليط عجيب من الشكر لله واللعنات لعدوه.

أما جرج الذي كاد يعميه الدم النازف من جفنيه فقد وقف عن الصراع لحظة يستمع إلى «ألريش» ثم ضحك ضحكة قصيرة عالية وصاح:

— «أنت إذن لم تمت كما كنت تستحق. ولكنك حبيس على أي حال. ومقيد بشدة. يا لها من نكتة بارعة. «ألريش فون جردفتز» يقع في حبائل الشرك في داخل غابته المسروقة. ذلك قصاص عادل.»

وضحك مرة أخرى ضحكة وحشية ساخرة.

فجاوبه ألريش: «إنني مقيد في غابتي الخاصة، وعندما يحضر رجالي لفك قيودي فربما تمنيت أنك كنت في وضع أفضل من ضبطك وأنت تسرق من أرض جارك. يا للعار!».

فصمت جرج برهة ثم قال بهدوء:

«أأنت على يقين من أن رجالك سيجدون فيك ما تفك قيوده؟ إن لي رجالاً في الغابة أيضاً. وهم ورائي على مقربة مني وسيجيئون أولا فيخلصونني. وإذ ذاك لن يجدوا جهدا كبيراً في إلقاء ذلك الحطام المتناثر على أم رأسك. حتى إذا جاء رجالك وجدوك ميتاً تحت شجرة هاوية. وسأرسل من باب «الشكليات» تعزية لأسرتك»!

فقال «ألريش» بحدة: «فكرة مفيدة إن لدى رجالي أوامر بأن يتبعوني بعد عشر دقائق. وقد مر منها ما يقرب من سبع حتى الآن. فإذا جاء رجالي وأخرجوني من تحت الأنقاض، فسأتذكر فكرتك. ولكن، نظراً لأنك لقيت حتفك وأنت تسرق في أرضي فلا أجد من الصواب أن أرسل آية تعزية إلى أهلك.»!

فصاح جرج : « حسناً . حسناً . إننا نقتتل في معركتنا تلك حتى الموت . أنا وأنت ورجالنا دون أن يدخل بيننا الدخلاء . لك الموت وعليك اللعنة يا ألريش فون جردفتز . »

— « وعليك مثل ذلك ياجرج زنايم ، ياسارق الصيد ومقتحم الغابات . »

كان كل منهما يتكلم بمرارة من يتوقع الهزيمة . فقد كان كلاهما يعلم أن رجاله ربما أبطؤوا في تفقده . وكان سبق أيّ فريق للآخر مسألة متروكة للصدفة وحدها . وقد كف كلاهما عن محاولة التخلص من ركام الأنقاض التي طرحتهما على الأرض . فقد كانت محاولة عقيمة ، واكتفى « ألريش » بمحاولة تقريب ذراعه الحرة نوعاً ما من جيب سترته الخارجي ليخرج منه زجاجة من النبيذ . حتى إنه بعد أن استطاع ذلك بالجهد والمشقة ، وجد نفسه في حاجة إلى جهد آخر لفتح الزجاجة ثم لإفراغ جرعة منها في حلقه.

لم يكن ما نزل من الثلج إلا كمية ضئيلة ، فكان ما تعرض له الرجلان من البرد قليلا نسبياً ، ومع ذلك فإن جرعة النبيذ قد سرت بالدفء والحياة في جسم الرجل الجريح . فنظر بشيء يشبه العطف إلى عدوه الملقى على الأرض وقد حبس صرخات الألم والاجهاد عن شفتيه ولما يكد .

ثم سأله فجأة : « أتراك تستطيع أن تصل إلى هذه الزجاجة لو ألقيتها إليك ؟ إن فيها نبيذاً جيداً . وعلى الإنسان أن يجتهد في طلب الراحة ما أمكنه ذلك . فلنشرب ولو كان مقدوراً على أحدنا أن يموت الليلة . » !

فقال جرج : « لا ، لا أستطيع أن أرى شيئاً . فالدم قد جمد على عيني . ثم إني لا أشرب بحال من الأحوال مع عدو لي . » !

فصمت « ألريش » بضع دقائق وأخذ ينصت ساكناً لأنات الرياح الثقيلة . لقد كانت في رأسه فكرة تنمو في بطء وتزداد قوة كلما نظر إلى الرجل الذي يصارع الألم والجهد بهذا العنف . وأحس « ألريش» وسط آلامه وشعوره بضعفه أن البغضاء القديمة الحادة قد بدأت تهبط وتموت .

ونادى رفيقه : « يا أيها الجار . اصنع ما بدا لك إذا حضر رجالك أولا . لقد كانت المعركة عادلة . أما عن نفسي فقد غيرت رأيي . فإذا جاء رجالي أولا فستكون أنت أول من تفك قيوده ، كأنك ضيفي . لقد تصارعنا حياتنا كلها كالشياطين حول هذه القطعة من الغابة التي لاتستطيع حتى أشجارها أن تثبت في ليلة عاصفة . وقد رأيت — في أثناء تفكيري وأنا ملقى هنا الليلة — أننا كنا في ذلك مغفلين . في الحياة ما هو

أجمل من التغلب في معركة على قطعة أرض . يا أيها الجار . إذا ساعدتني في دفن الأحقاد القديمة فإني ... إني أسألك أن تكون لي صديقا . » !

ظل « جرج زنايم » صامتاً لحظة طويلة حتى خيل لألريش أنه لعله فقد وعيه من شدة الألم والجراح . ولكنه تحدث أخيراً في بطء حديثاً متقطعاً :

« تصور كم سيدهش الناس إذا ركبنا معاً إلى السوق . مامن حي واحد يذكر أنه رأى أحدا من عائلة « زنايم » يحادث أحداً من عائلة « فون جردفتز » حديث صداقة . . . وما أروع السلام الذي سيضفي بجناحيه على سكان الغابة لو أننا تخاصنا الليلة من أحقادنا .... وإذا رأينا نحن أن نقيم السلام بين أسرتينا فليس هناك من يتدخل في قرارنا هذا ... ليس هناك دخلاء من الخارج . وستأتي أنت فتقضي ليلة العيد تحت سقفي ... وأذهب أنا لأتناول الطعام في قصرك ذات يوم من الأيام الكبيرة ... ولا أطلق طلقة واحدة في أرضك إلا إذا دعوتني كضيف... وتأتي أنت فتصطاد معي في أرضي الطيور البرية .... ليس هناك في هذه البقعة من يستطيع أن يمنعنا من إقامة السلام إذا رغبنا في إقامته ... إنني مافكرت يوماً في أن أحس نحوك إلا البغضاء والحقد طوال حياتي .... ولكني أعتقد أنني أنا أيضاً قد غيرت رأيي في المسألة في نصف الساعة الأخير ... ألريش فون جردفتز ... سأكون صديقك . » !

ثم سكت الرجلان برهة طويلة كانا في أثنائها يديران في رأسيهما التطورات العجيبة التي سيؤدي إليها هذا الصلح الفذ . وبقيا — في الغابة الباردة المكفهرة حيث تعول الريح وتصفر خلال الأغصان العادية وحول الجذوع الخاوية — في انتظار الرجال الذين سيحضرون لنجدة الطرفين . ودعا كل منهما ربه في سره أن يكون من حظ رجاله أن يأتوا مبكرين ، حتى يتمكن من إظهار مروءته لعدوه الذي أصبح صديقه !

فلما سكنت الرياح قليلا قطع السكون « ألريش » بقوله :

«فلنرسل صيحاتنا طلباً للنجدة . فربما استطاعت أصواتنا في هذا السكون أن تصل إلى مدى أبعد . »

فقال جرج : « لن تمتد أصواتنا بعيداً بين الأشجار والأغصان الملتفة . ولكن فلنحاول معاً . »

ثم صاح الاثنان معا صيحة طويلة ممطوطة . وبقيا بضع دقائق ينتظران عبثا صيحة الجواب . فعاد « ألريش » يقول :

« فلنصح معاً مرة أخرى . »

ثم قال بعد قليل : « أظن أنني سمعت شيئاً في هذه المرة . »

فقال جرج بصوت مبحوح : « لم أسمع شيئاً إلا الريح المعولة . »

وساد الصمت مرة أخرى عدة دقائق . ثم صاح « ألريش » صيحة ملؤها السرور : « أستطيع أن أرى أشباحاً آتية نحونا خلال الغابة ، إنهم قادمون من الطريق الذي اتخذته من سفح التل ... »

ثم صاح الرجلان صيحة أودعا فيها كل ما بقي في صوتهما من قوة .

وعاد « ألريش » يقول : إنهم يسمعوننا ! لقد توقفوا ! « إنهم يروننا الآن . وها هم أولاء ينحدرون نحونا من جانب التل . »

فسأل جرج : « كم من الرجال ترى ؟ »

فأجابه ألريش : « لا أستطيع أن أحدد بالضبط . تسعة أو عشرة . »

فقال جرج : « إذن فهم رجالك . فقد كان معي سبعة فقط . »

وقال « ألريش » مسروراً : « إنهم قادمون بأقصى ما يستطيعون من قوة . يا لهم من فتية شجعان ! »

فسأله جرج : « أهم رجالك ؟ » ... ثم كرر السؤال ثانية بصبر نافد حين وجد « ألريش » لا يجيب .

فأجابه ألريش : « لا » . قالها وهو يضحك ضحكة رجل لم يفقده الهول ترابط أعصابه فسأله جرج وهو يحاول بشدة فتح عينيه ليرى ما حوله : « من هم إذن ؟ »

— « الذئاب » ! . . .

محمد قطب



أنباء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم فأمر بإبلاغ معالي وزير المعارف أن جلالته حفظه الله قد رأى تشجيعا للتأليف والبحث العلمي في البلاد أن ينشىء من الجيب الخاص جوائز ثلاثاً ، قيمة كل منها ألف جنيه باسم « جائزة فؤاد الأول » على أن يمنحها كل عام ، صاحب أحسن مؤلف أو إنتاج في كل من العلوم والآداب والقانون ، وأن تسلم هذه الجوائز للفائزين بها يوم ٢٨ أبريل من كل عام ، وهو يوم ذكرى وفاة المغفور له الملك فؤاد .

وقد قرر معالي الوزير ، على أثر تلقيه نبأ هذه المكرمة الملكية ، تأليف لجنة لوضع القواعد التي تمنح بمقتضاها هذه الجوائز .

وهذه مأثرة جديدة تسجل لجلالة الملك وتضاف إلى ما للمليك المعظم من الأيادي البيضاء على النهضة القومية الحديثة في جميع مناحيها الأدبية والعلمية والاجتماعية .

٭٭٭

في التاسع عشر من فبراير ١٩٤٦ فجعت مصر برجل من رجالاتها البارزين المعدودين هو المغفور له أحمد محمد حسنين باشا فبكته العيون وضج لمصرعه عارفو فضله في كل بلد يزن أهلوه الرجال بميزان الوفاء والوطنية والنبل والمروءة والعلم والإقدام .

ولقد امتاز الفقيد المأسوف عليه بجوانب طيبة عدة يكفي جانب واحد منها حتى يجعله لأمته في حياته وبعد مماته مدعاة فخر وخيلاء .

بكت مصر فيه الخادم الصادق للعرش والوطن ، والرياضي الكامل الخلق ، والمستكشف العظيم المتواضع ، والأديب الرصين الديباجة القوي الخيال . وحسبنا من هذه الصفات الغر أن نشير في هذه العجالة إشارة عابرة إلى أدبه .

يتجلى أدب حسنين باشا في كتابه « في صحراء ليبيا » المصدر ببيتين خالدين لشوقي وهما :

هذا الكتاب رواية عن رحلة ... في التيه أو عن نزهة في الغاب
صحراء في طول الظنون وعرضها ... تطوى وتنشر في فصول كتاب

والذي يقول فيه معالي الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا :

« كتاب رحالتنا أحمد حسنين باشا على ما فيه من الحقائق العلمية ملحة أدبية . لم يكن رحالتنا مشهوراً قبل الآن بالتفوق في الكتابة كما اشتهر بالتفوق في العلم وفي وسائل الشجاعة والرياضات ،

ولـكنه لما تهيأ له ظرف الـكتابة والوصف سما في لطف إلى المعاني وترتيبها وحسن الذوق في إيراد الحوادث والتبسط في عرضها إلى حد يصبح اعتباره نموذجاً كتابياً . »

وأبرز ما يكون أدب حسنين باشا ، وقوة خياله ، وجمال أسلوبه في الفصل الأول وعنوانه « الصحراء » من كتابه حيث يقول :

[تبسم فما أحلى ابتسامها ، وتعبس فما أقسى عبوستها . تضحك نجومها فتستهوي عابر سبيلها، ويحتكم فضاؤها في القلب فتوقعه في أسرها . فيسير مغتبط النفس هانيها سير المؤتنس بها المولع بجمالها ، المفتون بعشقها ، ولـكنها كالغانيات شيمتها الغدر . . فلقد تريك بعد تمام الرضا غاية الغضب ونهاية القساوة .

الصحراء ساحرة جذابة . إذا عرفتها تعلقت بها نفسك أبد الدهر . ولـكن ليس من السهل أن تدرك سر سحرها ولا سبب خلابتها . بل كل ما تعرفه أنها تناديك فينفذ نداؤها إلى صميم قلبك ، وتدعوك فلا تلبث أن تشد الرحال إليها صاغرا ... يسوقك الحنين وتدفعك الذكرى .]

ولئن افتخر الإنجليز بأن جوزيف كنراد أبرع من وصف البحر لتفتخرن مصر وبلاد العرب بأن حسنين أبرع من وصف القفر .

كان الفقيد إلى هذا مؤمناً قوي الإيمان . دخل الصحراء مؤمناً فزاد إيمانه واجتاز البيد موقناً فاشتد يقينه . عبر عن هذا الإيمان بقوله في كتابه :

[فإذا سألت دليلك عن الطريق فهز كتفيه وقال : الله أعلم ؛ وإذا ذرعت بنظرك الأفق فاذا هو ذلك الخط القاتم المضطرب الممتد بين زرقة السماء الباهتة وصفرة الرمال ؛ وأمعنت النظر في كل ما يحيط بك فما رأيت شارة أو علامة تبعث على بصيص من الأمل ؛ وضاقت دائرة الأفق البعيد الشاسع حتى أصبحت طوقاً يضيق حول عنقك ويغل حلقك الجاف ، فهنا يشعر البدوي بافتقاره إلى قوة كبرى أكبر من قوة تلك الصحراء الفتاكة القاسية ، وهنا يجأر باستدرار رحمة الله ولطفه . حتى إذا ضلت دعواته الطريق ضم « جرده » إلى جسده وتهالك على الرمال ينتظر الموت المحتوم في سكينة واستسلام .]

على أن حسنين لم يمت بين كثبان الصحراء ومطاوي البيداء، وإنما مات ميتته الأليمة في سكينة واستسلام بين أشجار « حديقة الأندلس » ، وعلى خطى قصار من أعشاب « الجزيرة » ، وعلى أمتار من خرير النيل المتكسر ، وبعيد دقائق من مغادرته قصر مولاه وما نحسب فكره وقلبه إلا كانا مشغولين بهذه المجالي التي وهب لها فكره وقلبه ...

يموت في الغاب أو في غيره الأسد   كل البلاد وساد حين يتسد

✿✿✿

تدرس جامعة فؤاد الأول فكرة إنشاء معهد لدراسة فن المـكتبات على نمط معهد الصحافة يلتحق به الطلاب الحاصلون على ليسنس كلية الآداب أو دار العلوم وتكون الدراسة فيه مسائية . ويعين خريجو هذا المعهد في مكتبات البلديات ودور المحفوظات والمـكتبات العامة ، وقد استعانت الجامعة في دراسة نظم هذا المعهد بالمناهج السائدة في معهد فن المـكتبات بكل من باريس ولندن .

✿✿✿

في مكتبة بريل بمدينة لاهاي عاصمة هولندا مخطوط في تاريخ الأزهر يحمل عنوان :

«الكنز الأنور في فضائل الأزهر» لمؤلفه عبد الله مراد بن يوسف الحنفي الرومي الشاذلي الأزهري .

ولمناسبة عزم الأزهر على الاحتفال قريبا بعيده الألفي ووضع تاريخ مفصل عن الجامع الأزهر رأت المشيخة أن لا تخلو مكتبتها من هذا التراث القيم فقررت اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالحصول على صورة شمسية من هذا الكتاب للاعتماد عليه كمرجع في وضع تاريخ الأزهر .

☆☆☆

بلغ عدد المتقدمين إلى الجامعة الشعبية ٣١١٩ مابين طالب وطالبة . وقد قبل في الشعبة السياسية ١٦٧ طالبا ، والطبية الصحية ٢٠٥ والأدبية ٢٠٠ والنسوية ٧٥ طالبة .

وتقدم إلى الشعبة العلمية ٢٠٠ طالب والاجتماعية ٣٠٠ والصناعية ٤٥٠ والهوايات والفنون ٤٥٠

وتعنى هذه الجامعة بالدراسة العملية بجانب النظرية ، ففي الشعبة الصناعية مثلا يدرس الطلاب الميكانيكا والسيارات والكيمياء الصناعية ولحام الكهرباء وفي القسم الزخرفي منها يدرسون التصوير الضوئي والسينمائي وطبع المنسوجات وعمل السجاد ونجارة الأثاث والحفر على الخشب والعاج .

وفي الشعبة الاجتماعية يدرس الطلاب المشاكل العامة للمجتمع ومشاكل الأسرة والمهنة ، وفي الشعبة النسوية تدرس أصول الطهي والحياكة وإدارة المنزل والصحة والاجتماع .

☆☆☆

يعقد المؤتمر الثاني للمهندسين العرب في أوائل شهر أبريل القادم بكلية الهندسة بجامعة فؤاد الأول حيث يتاح لذوي الثقافة الهندسية من جميع الأقطار العربية تكوين دراسة شاملة عن الأعمال الهندسية والصناعية التي يجب إنشاؤها في مصر والبلاد العربية .

☆☆☆

عقدت لجنة الثقافة بجامعة الدول العربية اجتماعا هاما دار البحث فيه حول حماية الملكية الفكرية .

ومن المعلوم أن القانون المصري جاء خلواً من مواد يحمي بها الملكية الفكرية ولكن على الرغم من هذا فالمحاكم في مصر تبذل مجهوداً طيبا في سبيل تقرير حقوق المؤلفين وأصدرت في فترات شتى أحكاما بالتعويض المدني .

☆☆☆

قررت أمانة جامعة الدول العربية إنشاء مكتبة خاصة بها في مقرها الجديد بسراي المناسترلي وسيندب متخصصون من دار الكتب المصرية لتنظيم هذه المكتبة وتبويبها ووضع الفهارس لها .

فلسطين

ظهر للشاعر السيد محمد حسن علاء الدين « المرسحية الشعرية — امرؤ القيس بن حجر » في ١٠٩ صفحات. وله كتاب « قصائد الوحدة العربية » ، و « فن جديد » يبحث في تأثير الروائع في الأحاسيس ، وشعره ذو ديباجة قوية ونزعة أدبية محافظة .

***

سيصدر مكتب الصحافة والنشر في يافا أول كتاب عربي من نوعه في فلسطين ، يتناول الشخصيات البارزة ، على الطريقة الأوربية المعروفة بـ Who is, Who.

***

بدأ فصل المحاضرات باللغة الإنجليزية في جمعية الشبان المسيحية في القدس هذا الشهر. وعددها خمس . نذكر منها محاضرتين تهمان العرب : الأولى ألقاها الكولونيل برترام توماس . رئيس معهد تدريس اللغة العربية للضباط البريطانيين ، عن اكتشافاته في جنوب جزيرة العرب . والثانية ألقاها السيد ألبير حوراني ، عضو المكتب العربي في القدس ، وموضوعها « العرب والحضارة الغربية » .

***

ينتظر أن يضاف إلى « الكلية العربية » في القدس عمارات جديدة ، وأن تضم صفوفاً جديدة حتى تصبح نواة لجامعة عربية .

***

وضع الشاعر السيد محمد خرشيد العدناني كتاباً عنوانه « مذكرات مريض » وكان الشاعر أصيب بمرض عانى منه كثيراً .

***

كان الدكتور نبيه فارس ، أحد أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت ، ثاني ضيف دعاه الاتحاد الثقافي في يافا . وكان موضع محاضرته « العقيدة العربية » . وسيدعو الاتحاد شخصيات عربية من الخارج قريباً

***

سيصدر قريباً الجزء الثاني من كتاب « ما تيسر » للأستاذ خليل السكاكيني ، وهو خاص بالتراجم .

لبنان

صدر جزآن من « المجاني الحديثة » ، وهو مؤلف من ستة أجزاء ، يحيي الأدب العربي القديم بالشروح ، ويسهل فهمه بالمقدمات . يقوم بوضعه فؤاد إفرام البستاني أستاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف ، وكرم البستاني أستاذ البيان في معهد « الفرير » .

***

لاقى وفد أساتذة جامعة فؤاد الأول وطلابها حفاوة بالغة في الأندية الأدبية والوطنية . وقد نزل الوفد ضيفاً على وزارة التربية الوطنية في أفخم فنادق بيروت ، وزار الأرز وبعلبك وبيت الدين والمعاهد العالية والثانوية .

✡✡✡

طلبت وزارة الاقتصاد إلى وزارة التربية الوطنية أن تذيع على المعلمين الرسميين منشوراً بالدعوة إلى مقاطعة البضائع الصهيونية ، مع ذكر أفضل الوسائل المؤدية إلى هذه الغاية .

✡✡✡

افتتح فخامة رئيس الجمهورية البيت النموذجي للأطفال في كلية المقاصد الخيرية . وهو البيت الأول من نوعه في لبنان .

✡✡✡

صادف الثامن من فبراير مرور ٧٠ سنة على وفاة الشيخ ناصيف اليازجي والد الشيخ إبرهيم اليازجي ، ومؤلف كتاب « مجمع البحرين » الذي نسج فيه على منوال بديع الزمان والحريري في مقاماتهما . فأصدرت مجلة المكشوف عدداً خاصاً به ، أسهم في كتابة مباحثه نخبة من الأدباء اللبنانيين ، والمستعرب هنري برس أستاذ الأدب العربي في كلية الجزائر . ومما يسترعي الانتباه في مقاله موازنته بين أدب الشيخ ناصيف اليازجي الذي لم يبرح لبنان فقلد في أدبه القدماء ، وبين أدب أحمد فارس الشدياق الذي طوف في الآفاق فاكتسب أسلوبه طلاوة وجدة وتفكيره دقة وعمقاً .

✡✡✡

ألقى الدكتور أميل فارس أحد أساتذة الجامعة الأمريكية محاضرة في « وست هول » عرض فيها « للقومية العربية » ، محللا عناصر القوة والضعف فيها ، مشيراً إلى ضرورة تركيز الفكرة القومية على أس علمي ، وإلى حاجة البلدان العربية إلى الاتجاه الصناعي ، المقدم الأول لكل قومية تريد أن تنعم بالحضارة والاستقلال .

✡✡✡

يصدر قريباً في « دار المكشوف » « قارورة الطيب » ، وهي مجموعة شعرية ليوسف غصوب صاحب المجموعتين الشعريتين « القفص المهجور » و « العوسجة الملتهبة » . وتصدر « آفاق » وهي أيضاً مجموعة شعرية للدكتور سليم حيدر ، تظهر قبل انتقال صاحبها إلى طهران ليتقلد هناك وظيفة القائم بأعمال المفوضية اللبنانية .

سوريا

شهدت سوريا في مطلع هذا العام الدراسي نشاطاً ملحوظاً في عالم التأليف ؛ وهذا النشاط امتداد للحركة الانقلابية في أساليب التدريس ونظم التعليم التي قام بها الأستاذ ساطع الحصري . ويجمع هذا النتاج الوافر إلى جودة الطباعة حسن التنسيق وغزارة المادة .

أما النتاج الأدبي فيكاد يكون معدوماً ، وهذا يعود إلى أسباب كثيرة أهمها :

(١) طغيان المادية والنزعة التجارية على العقول والميول (٢) فقدان الاستقرار السياسي الذي يساعد على التجمع الفكري (٣) إصابة السوريين بالنضوب العاطفي والفكري لفقدان الحياة

الاجتماعية وبعدهم عن روافد الفكر الأوربي (٤) دور الانتقال الثقافي الذي تعانيه سوريا وما يجره من تبلبل واضطراب (٥) فقدان دور النشر الكبيرة التي توفق بين المصلحة المادية وبين خدمة الثقافة والمعرفة وتوجيه أذواق الجماهير .

٭٭٭

أتم الدكتور أسعد طلس تصحيح كتاب : « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة الأصفهاني المتوفى سنة ١٦٠ هـ ، وستقوم بطبع الكتاب كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول .

٭٭٭

سيظهر قريباً في دار المطبعة الكاثوليكية في بيروت كتاب « ذخائر المخطوطات في دور كتب حلب » للدكتور أسعد طلس ، وسيظهر قريباً كتاب « فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق » للأستاذ يوسف العش .

٭٭٭

يباشر الأستاذ فائز الخوري وضع كتاب باللغة الإنكليزية عنوانه : « شهران في موسكو » يضمنه ما رأى وما سمع في عاصمة الاتحاد السوفيتي .

٭٭٭

يقوم الأستاذ جميل صليبا بتصحيح « الرسالة الجامعة للمجريطي » ، وستكون ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي لعام ١٩٤٦ .

٭٭٭

وضع الأستاذ ساطع الحصري « مذكرات عن العهد الفيصلي » وسيطبع القسم الأول منها في إحدى مطابع القاهرة .

٭٭٭

للمرأة نصيب واف في بناء النهضة السورية الحديثة ، ففي دمشق جمعيات نسائية كثيرة تختلف في مناهجها وتتحد في غاياتها النبيلة . ومن هذه الجمعيات : ا — جمعية دوحة الأدب ، وشعارها تنشئة الفتاة العربية الحديثة نشأة قومية حقة . ب — جمعية الهلال الأحمر ، وهدفها المواساة والخدمة الشعبية . ج — جمعية الندوة الثقافية ، وغايتها نشر الثقافة في الأوساط النسائية .

٭٭٭

لا يزال موسم المحاضرات في المجمع العلمي العربي مستمراً . وقد ألقي في الشهر الفائت محاضرتان : الأولى للدكتور كيالي عن « الوعي في الإنسان والجماعات » والثانية للأستاذ إبرهيم الكيلاني عن « عزت باشا العابد » وزير السلطان عبد الحميد الثاني .

العِـراق

كلفت وزارة المعارف المصرية الدكتور متى عقراوي عميد كلية دار المعلمين العالية ترجمة كتاب « الديمقراطية والتربية » للمربي الأمريكي الكبير « جون ديوي » ، كما كلفت الأستاذ عبد الحميد كاظم معاون عميد الكلية ترجمة كتاب : « علم النفس أو دراسة الحياة العقلية » للعالم الأمريكي روبرت ودورث . وقد فرغ كل من الأستاذين من ترجمة الكتاب الذي عهد إليه فيه وأرسله إلى وزارة المعارف للمراجعة .

وهذا التكليف من جانب وزارة المعارف المصرية لكبار الأساتذة في العراق خطوة طيبة في سبيل تدعيم التعاون الثقافي بين القطرين الشقيقين .

٭٭٭

تسير النهضة النسائية خطوات سريعة وكبيرة . وقد أصدرت جمعية الرابطة النسائية مجلة اسمها « تحرير المرأة » ، وهي تسعى أن تسهم في تحرير المجتمع العراقي ورفع المستوى الثقافي والعلمي فيه عن طريق العمل لخدمة المرأة .

٭٭٭

من الكتب التي ظهرت في بغداد هذا الشهر كتاب « رجل آسيا » من تأليف الكاتب الأمريكي إدجار سنو وترجمة الأستاذ زكي خيري ، وهو بحث عن الزعيم الصيني الشيوعي « ماو تسيتونك » . — وكتاب « أصل العائلة » من تأليف فردريك أنجلس وترجمة الأستاذ أديب يوسف . — وكتاب « أربع قصص عالمية » ترجمها الأستاذ عامر عبد الله عن تلستوي وغوغول وغركي وكبرن . — وكتاب « مختارات الرأي العام » وهو مجموعة مختارة من المقالات التي نشرت في جريدة الرأي العام .

ومن الكتب التي ستظهر قريباً كتاب « تاريخ السليمانية وأنحائها » ألفه بالكردية العالم المعروف الأستاذ محمد أمين زكي ونقله إلى العربية الأستاذ محمد جميل بندي الروزبياني من علماء الدين في راوندوز شمال العراق . — وكتاب « الحسبة عند العرب » للأستاذ عبد الرازق الحصان صاحب المؤلفات الكثيرة في التاريخ العربي .

٭٭٭

نشر بعض العلماء والأدباء في النجف دراسات وتراجم منها كتاب « السيدة سكينة » من تأليف الأستاذ عبد الرازق المقرم . — وكتاب « ميثم التمار » وهو من أصحاب الإمام علي الملمين بعلوم شتى وأول من دون التفسير عن الإمام . — وكتاب « حياة الإمام الصادق » ألفهما الشيخ محمد حسين مظفر .

٭٭٭

ألفت وزارة المعارف لجنة خاصة بالنظر في موضوع الأناشيد المدرسية وما تقتضيه من إصلاح وتجديد استناداً إلى الأسس العلمية والتربوية . وبعد أن تنجز عملها وتقر الأناشيد ستقوم الوزارة

بفتح دورات لمعلمي الأناشيد يتلقون فيها الاتجاه الجديد للأناشيد المدرسية وكيفية تعليمها ومزاولتها .

٭٭٭

أهدت لجنة إحياء الآثار العربية بالقاهرة إلى خزانة كتب الآثار في مدينة السلام ٤١ مجلداً من مطبوعاتها النفيسة، كما أهدت مصلحة الآثار المصرية إلى الخزانة المذكورة ٢٨٣ كتاباً من منشوراتها الأثرية والتاريخية والعلمية . وتجري المعاملة الآن لتبادل النماذج وقطع العاديات المكررة التي في كل من المتحفين .

الهند

أنشأ أساتذة الجامعة العثمانية وأركانها بحيدر آباد صندوقاً خيرياً بالاكتتاب لمساعدة الطلبة الفقراء بالجامعة، فلما بلغ خبره مسامع صاحب السمو نظام حيدر آباد تبرع للصندوق بمائة ألف روبية .

٭٭٭٭

أرادت الحكومة الهندية إنشاء كلية حربية كبيرة جديدة باسم :
The Memorial Academic Military College فأرسلت لجنة لدراسة نظم الكليات الحربية الشهيرة في العالم . وقد رجعت اللجنة أخيراً بعد دراستها بإنجلترا ، وأمريكا ، وجنوب إفريقيا ، وأستراليا ، ونيوزيلندا ، وروسيا ..

٭٭٭

يشمل نصف المقاطعة الهندية « راجبوتانة » صحراء بلقعة لا يسكنها أحد، ونصفها يحوي تسع عشرة إمارة تخصبها ثلاثة أنهر ، ولم تكن في هذه المقاطعة جامعة ، فاتفقت جميع الإمارات فيها أخيراً على إنشاء جامعة في جي بور التي هي أخصب الإمارات وأوسعها ، وستفتح من كليات تلك الجامعة كلية الهندسة وكلية الحقوق أبوابهما لعطشى العلم في شهر يونيو المقبل . وأما الكليات الأخرى فتنشأ في أقرب فرصة . وبإنشاء هذه الجامعة يبلغ عدد الجامعات بالهند واحداً وثلاثين .

٭٭٭

تقيم الكلية الإسلامية في مدينة بشاور مسابقة سنوية لأحسن بحث علمي، وتفتح أبواب المسابقة لطلبة جميع الجامعات بالهند، وقد نال في هذه السنة الجائزة الأولى في المسابقة المذكورة طالب من الجامعة الإسلامية بعليكرة .

٭٭٭

قررت جامعة ميسور في جنوب الهند تدريس علم الحرب Military Science فيها.

٭٭٭

اهتمت حكومة الهند بالعمال في مناجم الفحم بالهند، فقررت تعليمهم وتعليم أولادهم والاعتناء بصحتهم ، فبدأت تنفذ المشروع في بداية الأمر بميزانية قدرها ثلثمائة ألف روبية .

✡✡✡

أقامت بلدية مدينة ميرت في الهند مهرجاناً لمدة أسبوع دعاية لنشر التعليم ولبث روح النشاط العلمي بين الناس .

✡✡✡✡

أقامت جمعية « رقي الأدب الأردي » بالهند احتفالا في ذكرى الشاعر الشهير خواجه ألطاف حسين « حالي » لمرور إحدى وثلاثين سنة على وفاته برياسة العالم الأديب الشاعر آل أحمد سرور الرامفوري في كلكتة ، فاشتركت فيه أندية الأدب والعلم والشعراء والأدباء من جميع أنحاء الهند . والشاعر المرحوم « حالي » كان ذا منزلة ممتازة في الأدب الأردي ، إذ كان يمثل نقطة الاتصال بين العهدين القديم والحديث فيه ، فكان مركزه رحمه الله مثل مركز الشاعر المرحوم شوقي بك في الأدب العربي بمصر .

✡✡✡

قررت حكومة السند بالهند إرسال بعثة تشمل أربعين طالباً للاختصاص بالعلوم والصناعات المختلفة بجامعات أمريكا وأوربا .

انجلترا

نشرت جريدة التيمس هذا الأسبوع في ملحقها الخاص بالتربية مقالا عن التقدم في سوريا ولبنان ، ذكرت فيه أن عدد المدارس الحكومية بسوريا ٢٢٦ مدرسة فيها ٧٧٠٠٠ تلميذ ، والمدارس الوطنية الخاصة ٣٣١ مدرسة فيها ٤٢٠٠٠ تلميذ ، والمدارس الأجنبية ١٦٨ مدرسة ، فيها ٢٣٠٠٠ تلميذ . وأن عدد المدارس الحكومية بلبنان ٢٦٧ مدرسة فيها ٢٦١٠٠٠ تلميذ والمدارس الوطنية الخاصة ٩٨٦ مدرسة فيها ٧٠٤٠٠٠ تلميذ ، والمدارس الأجنبية ٣٢٦ مدرسة فيها ٤٤٠٠٠ تلميذ ، فضلا عن جامعة دمشق والجامعتين الفرنسية والأمريكية ببيروت ، وتنتظم نحو ٢٠٠٠ طالب .

✡✡✡

من الكتب التي ظهرت حديثاً : كتاب « النجم والهلال » The Star and the Crescent by D. Patmore وهو يتضمن منتخبات من شعراء تركيا المحدثين وقد رحب النقاد بهذا الكتاب وذكروا أنه رغم الترجمة يدل على خصب القرائح التركية . وفي الكتاب أمثلة من الشعر القديم ومقدمة موجزة عن تاريخ الشعر التركي . — وكتاب « شأن أمريكا في الاقتصاد العالمي » America's role in The World Economy by Alvin Hansen. يعرض فيه مؤلفه لشأن الولايات المتحدة في ميدان السياسة الدولية وللخطر الذي قد يتعرض له العالم لو أنها التزمت العزلة . — وكتاب المؤلف ملر الذي نشر في العام الماضي كتاباً عن حركة المقاومة السرية في فرنسا خلال الحرب . وكتابه الجديد : Hasned Pigeon, by George Millar يصف فيه المؤلف معركة الصحراء وكيف أسر عند تقهقر الجيش الثامن ثم هربه من الأسر في ألمانيا . والقصة مليئة

بألوان البسالة والاحتمال . — وكتاب «غزو المرض» The Conquest of Disease by Dr. G. Bankoff تحدث فيه المؤلف عن كشف البنسلين وبين تطبيقه في التطبيب والكتاب متبسط يفهمه القارىء العادي .

ومن الكتب التي ستظهر في خلال شهر فبراير في طبعات معادة كتاب «دعوا الناس يفكرون» Let The People Think, by Bertrand Russell وكتاب «كبار الصوفيين» The Great Mystics, by George Godwin. وكتاب «الموطأ في علم الفلك» An Easy Outline of Astronomy, by M. Danids.

✡ ✡ ✡

أقامت الرسامة ستيلا سنيد في الأسبوع الأول من فبراير معرضاً لرسومها الزيتية والمائية ، أطلقت عليه اسم «معرض التصوير والرسوم العجيبة» ويمكن أن يستشف المرء من رسومها أثراً من آثار الشرق ومن آثار صحاري أمريكا وجبالها .

وأقام الرسام المجري لازلو بيري في القاعة نفسها معرضاً لتماثيله المصنوعة من الأسمنت، وكانت أهم قطعة في معرضه تمثال بعنوان «لابسة الأحمر» بالحجم الطبيعي .

أمريكا

فجع الأدب العربي في الآونة الأخيرة بوفاة أديبين كبيرين من أدباء المهجر، هما المرحومان مسعود سماحة وعقل الجر .

ولد مسعود سماحة في دير القمر بلبنان . ولما هاجر إلى الولايات المتحدة اتجر في البن ، ولكن تجارته لم تشغله عن الشعر والأدب ، فله ديوان شعر نفيس وأبحاث رصينة في الأدب والسياسة في كثير من الصحف العربية ولا سيما في جريدة «البيان» التي انتقلت إلى وشنطن ، ومما يؤثر عن الفقيد أنه كان شديداً قوياً في نزعته العربية .

أما عقل الجر فقد ولد في يحشوش بلبنان بلدة المرحوم داود بركات، وكان من محرري جريدة الأهرام بمصر مدة سنتين ، ثم سافر إلى باريس ومن بعدها إلى البرازيل في مستهل الحرب العالمية الأولى ونزل في ريودي جانيرو حيث أنشأ «العصبة الأندلسية»، وكانت وفاته في مدينة سان باولو وكان قد ذهب إليها مستشفياً من داء الكبد فلم يكتب له الشفاء . ويعد الفقيد من بلغاء المنشئين وفحول الخطباء والشعراء، ويعزى إليه الفضل الأكبر في بعث الأدب العربي في البلاد البرازيلية .

✡✡✡

توصل الأمريكيون إلى صنع أجهزة للتلفزيون في مختلف الأحجام ، فمنها جهاز ثمنه خمسة وعشرون جنيها يستطيع أن يعرض على البعد صوراً في حجم بطاقة البريد ومنها جهاز ثمنه خمسة وستون جنيهاً لعرض صور أكبر من هذه يراها ٨ أو ١٠ أشخاص وهم جلوس على بعد عشرة أقدام ، ومنها جهاز كبير يقرب ثمنه من ٢٥٠ جنيهاً للعرض على ستار في قاعة كبيرة .

☆☆☆

صدرت في دترويت جريدة أسبوعية جديدة باسم « صوت العرب » بإشراف لجنة الجامعة العاملية وقد تولى رياسة تحريرها الأستاذ عبدالله بري .

☆☆☆

أصدر الأديب الزجال الأستاذ إلياس زغيب مجموعة من الأزجال اللبنانية سماها « اضحك يضحك لك العالم » وقوام هذه الأزجال الفكاهة إلا أن بعضها يتناول المسائل القومية في سوريا ولبنان في أسلوب فكاهي .

روسيا

عتبت إحدى الهيئات العلمية الرسمية في موسكو على عدم دعوة روسيا الاشتراك في المجمع اللغوي بالقاهرة أسوة بالمستشرقين من الدول الأخرى لاسيا أنه توجد ثلاثة مقاعد بالمجمع اللغوي شاغرة ، وهي التي كان يشغلها ممثلو ألمانيا وإيطاليا .

☆☆☆

استأنف المجمع العلمي الروسي نشاطه ، فبدأ بنشر مجلدين يحويان أعمال جمعية المستعربين ، عدا ما سينشره من رسائل متناثرة ، أهمها : الشعر العربي في إسبانيا والحضارة الإسبانية .

☆☆☆

مني المستعربون الروس في خلال الحرب الحاضرة بضياع الكثيرمن إنتاجهم ووقف نشركثير من الكتب والرسائل العلمية التي كانت معدة للطبع ، وكانت لينجراد هي المركز الرئيسي للدراسات العربية في روسيا ، فأصابها في خلال الحرب أكثر مما أصاب سواها من التخريب والتدمير والجوع الذي انتشر في خلال الحصار ، وفي أثناء ذلك توفي من علمائها : إينسترنزف Inostranzew أحد المشتغلين بموضوع العلاقات بين العرب والفرس ، والعالم كوكوزف Kokouzow عضو المجمع العلمي السوفيتي وأحد الإختصاصيين في الخطوط العربية ، والعالم جونزبرج Guenzburg أحد الخبراء القلائل في موضوع الفلسفة العربية في العصور الوسطى ، وزميله بوريساف Barisow والعلامة اللغوي فلنتشك Vilentchik وكان على وشك الفراغ من إتمام معجمه في اللهجتين السورية والفلسطينية .

☆☆☆

يواصل علماء الروس دراستهم للقبائل العربية التي تقطن آسيا الوسطى دراسة لغوية عنصرية ، وقد وضع معجم للكلمات الواردة في مختلف تلك اللهجات العربية على أساس ما سبق لبعثة الأستاذ فينيكوف أن جمعته في سنة ١٩٤٣ . كما سجل كثير من القصص الشعبية العربية المنتشرة بين هذه القبائل وألفت رسائل علمية أخرى في وصف طباع رجال تلك القبائل العربية وعاداتهم وطقوسهم وتقاليدهم الموروثة .

☆☆☆

أعيد افتتاح المتحف الأسيوي في موسكو وكان قد أغلق أبوابه في غضون الحرب ونقلت معظم محتوياته إلى مخابىء أعدت لها بعيدة عن مواطن الغزو النازي .

وقد أسس هذا المتحف في عام ١٨١٨ بإرشاد المستشرق فريهن Fraahn وإشراف المجمع العلمي الروسي ، وكان لهذه المؤسسة شأن هام في تقدم الدراسات الشرقية في روسيا وبخاصة دراسة اللغة والأدب العربي . وفضلاً عن هذا وذاك فقد زود المتحف الأسيوي المستشرقين من علماء روسيا بمادة علمية حافلة من الطراز الأول عكفوا على دراستها عشرات السنين . وأصبحت هذه المؤسسة المركز الرئيسي الحافل بعلماء اللغة العربية وآدابها .

فرنسا

وافقت وزارة الطيران على تشجيع الأبحاث الخاصة بدراسة مسألة السفر إلى الكواكب . وفي مقدمة من أسهم في هذا الأمر المهندس الرياضي إسكندر أنانوف ، وهو يرجو أن يبدأ محاولاته للسفر إلى القمر بعد أربع سنوات . والمهندس المذكور روسي الأصل هاجر من روسيا عقب الثورة وتلقى علومه الرياضية في السربون ، وكان قد أقام معرضاً للصواريخ في معرض باريس الدولي سنة ١٩٣٧ .

☆☆☆

افتتح في هذا الشهر بباريس معرض للوحات التي رسمها نزلاء مستشفى القديسة حنة للأمراض العقلية وقد قام بتنظيمه الناقد فلدمور جورج وهذا المعرض هو الثاني في نوعه منذ الحرب العالمية الأولى .

☆☆☆

يذكر القراء نبأ انتحار الكاتب المشهور ستيفان زويج عام ١٩٤٣ يوم كان بعيداً عن ألمانيا يتمتع بحياة حرة هادئة في أمريكا الجنوبية . وقد ظهر له بالفرنسية أخيراً كتاب عنوانه : « السر المحرق » وهو آخر ما كتب في حياته .

ستيفان زفايج انتحر ١٩٤٢

☆☆☆

نشر الأديب الفرنسي المعروف رومان رولان الجزء الثالث من مؤلفه عن بتهوفن ، وهو دراسة حافلة تقع في أكثر من ٣٠٠ صفحة تفيض بالتحليل العميق والدراسة الأصيلة والقصص المبتكر . والمؤلف متأثر إلى حد بعيد في تفكيره وفي حياته بموسيقى بتهوفن ، حتى إنه قال : « إن خير ما عندي يعود فيه الفضل إلى بتهوفن » .

☆☆☆

جنكور

تحتفل ندوة جنكور في شهر يولية القادم بذكرى مرور خمسين عاماً على وفاة مؤسسها إدمون دي جنكور ، وكان قد توفي في ١٦ يولية ١٨٩٦ بمنزل الكاتب الفرنسي ألفنس دوديه .

رسائل القراء

المــــرأة

جاءنا من الأستاذ أحمد محمد جمال بمكة رسالة تناول فيها ما نشر في هذه المجلة عن المرأة وحقوقها قال فيها :

« لنا أعمالنا ولكن أعمالكن . أنتن بريئات مما نعمل وعاجزات عنه بالفطرة الأزلية ونحن بريئون مما تعملن من حمل وإرضاع وتربية بنين وخدمة بعل وتنظيم أسرة وعاجزون عن ذلك كله بمثل تلك الفطرة الأزلية التي قسمت بيننا وبينكن في الحياة الدنيا المواهب والمعايش بأعدل ميزان .

لقد كان للنساء الغربيات مثل دعاواكن وصيحاتكن حتى سمح لهن بمواجهة قضايا المجتمع سياسية واقتصادية واجتماعية ، فجربنها جميعاً ثم نكصن على الأعقاب معترفات بالفشل والقصور . وهذا كتاب السجلات Off the record الموضوع بقلم الليدي أسكوث Squith عضو مجلس العموم البريطاني مصدق لما بين أيديكن من حديث لا لغو فيه . إنها قالت في الخاتمة والخلاصة : « أصلح مكان للمرأة بيتها » . وقد سئلت أحداهن — لا إحداكن — أي شيء خير للمرأة ، فكان جوابها : أن لا ترى المجتمع وألا يراها ».

ثم ختم رسالته قائلا : « فارجعن إلى بيوتكن . ذلك أزكى لقلوبنا وقلوبكن . وكما يحب الله التوابين ويحب المتطهرين كذلك يحب التوابات ويحب المتطهرات ».

* * *

وجاءنا كذلك من الأستاذ عبد الوهاب الغملوي كلمة علق فيها على مقال السيدة أمينة السعيد عن المرأة العربية في الحياة العامة وندد بمساواة الرجل بالمرأة وطلب فيها من المرأة أن تعود إلى ميدانها فهي « أجدى فيه وأنفع » ، وحسبها أن الرجل قوام عليها وختم كلمته بقول الشاعر العربي :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقطع أو تهونا

يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

إذا لم نحمهن فلا حيينا لشيء بعدهن ولا بقينا

✡✡✡

وبعث إلينا الأستاذ سيد حقي الأقصري بتعليق على الأسطورتين اللتين ذكرتهما السيدة وداد سكاكيني في مقالها المنشور في الجزء الماضي في وفاء المرأة قال فيه :

«إن فلتير لم يتعد الحقيقية بذكره أسطورته ، وكذلك السيدة الصينية ، فلدي قصة — لولا أنها حقيقة من الحقائق الثابتة — لعددتها أعظم أسطورة في التاريخ .

تلك المأساة هي مأساة المركيزة دي برانفليه أو مأساة السموم كما يذكرها التاريخ.

تلك المرأة التي أودت بحياة أبيها بالسم ابتغاء المال للترفيه عنها وعن حبيبها « سنت كروا » ثم بحياة شقيقها الأكبر والأصغر لهذا الغرض نفسه ، ولم تتورع هذه المجرمة أن تجرب سمومها في المرضى بالمستشفيات ، ويعلم الله كم عدد ضحاياها حينئذ . هؤلاء الذين لم يرتكبوا معها جرما ، ولم يجنوا ذنباً وكأنما قد ذاقت لذة الظلم أو أصابها مس من الجنون ، فعزمت على اغتيال زوجها ، وأختها الصغرى وأرملة أخيها الأكبر ومؤدب أولادها « بريا نكور » بل حبيبها الذي اغتالت من أجله أسرتها . ولم تكن هذه المرأة مجنونة بل كانت بكل قواها العقلية . . واقرأني إن شئت ذلك مفصلا في قضايا التاريخ الكبرى . فهل تعد المرأة بعد ذلك وفية ؟ ؟

أليست أسطورة فلتير أخف وطأ على النفس من هذه الحقيقة المروعة ؟ وهل تضارع الأسطورة هذه المأساة التي لا يكاد يصدقها العقل ؟ »

الخالدون العرب

إلى الأستاذ قدري حافظ طوقان

قرأت أيها الأستاذ مقالكم القيم « الخالدون العرب » المنشور في الجزء الثاني من مجلة الكتاب الغراء . فما فرغت منه حتى ملأني السرور . وأي عربي لا يسر حينما يقرأ ما كان لأمته من خدمات جلى للعلم والحضارة .

قلت أيها الاستاذ في ذلك المقال : « إن الذي أصاب العرب هو ضعف نفسي وشعور بالنقص استولى عليهم . فإذا هم يهملون تاريخهم الخ . . . »

هذا القول — أيها الأستاذ — ليس هو العامل الوحيد في تأخيرنا ، وإنما هناك عوامل أخرى أشد تأثيراً من هذا العامل وأعظمها فيما أعتقد ، قلة تشجيع حكوماتنا وأغنيائنا للعلم والعلماء . فمن الواضح أن علماء العرب في هـذا العصر لم يظفروا من

التشجيع والتأييد بما ظفر به أسلافهم في العصور الماضية . فنحن نعلم أن الرشيد والمأمون وغيرهما من الخلفاء كانوا يبذلون للعلم والعلماء من المال مايزيد على كفايتهم . كما نعلم أيضاً أن كثيراً من الأغنياء كانوا يفعلون مثل ذلك * .

وإني أعتقد اعتقاداً راسخاً أن علماءنا — وأنت أحدهم — لو ظفروا بما يظفر به علماء الغرب في هذا العصر من التشجيع والتأييد لرأينا حركة علمية واسعة النطاق . ولما رأينا منهم كل هذا الإهمال والركود .

الكويت — عبد الرزاق البصير

سناد التوجيه

فى الشعر

في الجزء الثالث من مجلة الكتاب قصيدة ماتعة للأستاذ الكبير محمد الأسمر بعنوان « العصفور الصغير » مطلعها :

وناشىء من الطيــــو ر لاحَ ما بَيْنَ الشَّجَرْ

. . وهي في الحق قصيدة منورة شاكرة . . بيد أنه وقع في خطأ يسميه العروضيون « سناد التوجيه » وذلك في الأبيات التالية :

كأنهُ من ضَعْفهِ يطير بعد ما سكِرْ

وهُمْ وان كانوا الأزا هيرَ شَرارٌ يستعِرْ

لا السوسُ يُفْرِي فرْيَهُمْ ولا الجـــرادُ المنتشِرْ

فاسعدْ بهذا الملكِ واهـــبطْ حيثما شئت وطِرْ

فتراه في هذه الأبيات قد غير فى حركة الحرف قبل الروي بالخفض وكانت بالفتح فى بقية الأبيات ، وذلك ما يسميه العروضيون «سناد التوجيه» وهو التزام حركة الحرف فى أبيات القصيد .

ومنا على الشاعر تحية الشاعر . .

(الزيتون) — عدنان أسعد

---

* (الكتاب) تحيل الكاتب إلى باب الأنباء ففيه نبأ مأثرة جديدة طوّق بها الفاروق حفظه الله جيد العلم والأدب .

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر



مطبوعات حديثة

تأملات بقلم صاحب المعالي لطفي السيد باشا

آراء حرة وأفكار صريحة في الأدب والاجتماع هي آراء جيلين متعاقبين .
(٢٠ قرشاً)

العلم يميط اللثام بقلم الأستاذ حسين عبد السلام

معلومات طريفة عن أسرار هذا الكون العجيب . (٢٠ قرشاً)

الغربال بقلم الأستاذ ميخائيل نعيمة

كتاب يطل القارئ من خلاله على كثير من الطرائف والحقائق مع استقامة في النقد وغيرة على الإصلاح . (٢٥ قرشاً)

عالم الغد تعريب الأستاذين عبد الحميد يونس وحافظ جلال

وضع هذا الكتاب المؤلف الإنجليزي الشهير ويلز وهو يعد مثالا فريدا من الفكر السياسي يقدم إلى القارئ شذرات عن تلك الحياة الواسعة التي يستطيع النظام العالمي أن يفتحها للبشر . (٢٠ قرشاً)

تغريدات الصباح نظم الأستاذ محمد الأسمر

ديوان من الشعر الرصين فيه نسج القديم وطرافة الجديد . (٣٠ قرشاً)

مهد العرب (اقرأ رقم ٤٠) بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وصف ودراسة للجزيرة العربية التي حمل أبناؤها مشاعل الحضارة إلى أطراف العالم . (٥ قروش)

مع هذا العدد فهارس المجلد الأول

الكتاب

الفهرست

إبريل ١٩٤٦

دار المعارف للطباعة والنشر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .
- جميع الحقوق الخاصة بما تنشره المجلة من مقالات ورسائل ورسوم محفوظة لدار المعارف للطباعة والنشر بمصر .
- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .
- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .
- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :
  ١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان و ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى .
- ترسل المجلة بالبريد العادي إلى المشتركين ولا تكون الإدارة مسؤولة عما قد يفقد منها .

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً



السنة الأولى
الجزء السادس

المجلد الأول

ربيع الثاني ١٣٦٥
أبريل ١٩٤٦

الوثنية في الأدب

طال الحديث بيني وبين صاحبي عن الأدب والأدباء فرأيته قد تبرّم وتململ واضطرب في مقعده كمن يتحفز للوثوب ثم قالها مجلجلة مدوّية حامية كأنها الحمم قذفته فوّهة البركان :

« نحن عبدة أوثان ولن يغير الله ما بنا حتى نقلع عن عبادة الأوثان » .

وقرأ صاحبي في عيني الدهشة والإنكار ولمح شفتيّ تهمان بالرد على هذه التهمة النكراء فسارع إلى استئناف الكلام ليؤيد تهمته ويدعمها بالحجج والبراهين وليدحض الرد الذي تخيل أنه عرفه فقال :

« أتظن أننا في القرن العشرين عصر النور والعلم والحرية أصلح حالا من شعوب القرون الأولى . لقد عبد الناس الأوثان في تلك العصور المظلمة مدفوعين على الأغلب بعاطفة دينية تقودهم إلى تمثل قوة خالقة خارقة يقدمون إليها صلواتهم وشعائر عبادتهم فلا تثريب عليهم إذا هم تمثلوا تلك القوة الخالقة الخارقة فيما يأملون فيه الخير أو يرهبون منه الشر والضير ولا جناح إذا تعددت مظاهر الوثنية بتعدد الأزمنة والأمكنة وتنوعت معبوداتهم بتنوع ما لمسوا فيه معدن الخير أو الشر فعبدوا الشمس والقمر والنار والرعد والصاعقة ثم تجاوزوها إلى عبادة عظماء الرجال وبناة الدول والممالك وإلى عبادة الملائكة والشياطين والأرواح ثم إلى الحيوان والنبات فكان كل شيء لديهم هو الله غير الله نفسه حتى إذا جاءهم موسى وعيسى ومحمد وطلعت عليهم أنوار التوحيد حطموا الأصنام ودخلوا في دين الله أفواجاً وتأثرت بلاغتهم بذلك النور القدسي فأشع في تفكيرهم وتلألأ في نثرهم وشعرهم وخلفت كل أمة للأجيال المقبلة ما وصل إليه جهدها من أدب

وعلم وفن ، وعني الخلف بذلك التراث وأحاطه بالتكريم والإكبار بل استمد منه أحياناً وحي روائعه ولكنه لم يذهب في تبجيل ذلك التراث مذهب التقديس ولا بلغ حبه إياه مبلغ العبادة والعبودية كما نفعل اليوم نحن العرب بتراث الآباء والأجداد » .

هممت مرة ثانية أن أخفف من غلواء صاحبي وأن أبين له شناعة هذا العقوق والنكران وغرابة التشبيه الذي بنى عليه ثورته على القديم فما مكنني من بغيتي بل تابع حديثه وقال :

« وشتان بين وثنية البشر في القرون الأولى من التاريخ وبين وثنيتنا . إن وثنيتهم كانت مشيدة على الجهل والقصور أو على الشعور الذي كان متغلغلا في أعماق نفوسهم من وجوب تجسيم تلك القوة الخفية التي كانوا يحسون بها ولا يهتدون إليها .

أما وثنيتنا اليوم في الأدب فقد شدناها على الحب الأعمى والمحاباة والتقصير إنها وثنية الأم التي لا ترى الجمال والكمال ممثلين إلا في أبنائها والتي يصل بها الحب الشديد إلى أن تعبد بعد الله أبناءها . إنها وثنية الأثرة التي تدفع المرء إلى أن لا يحفل إلا بنفسه ولا يرى سواها موضعاً للحب والعبادة . ونحن في هذا العصر لم نعبد أبناءنا ولم تدفعنا الأثرة إلى حب أنفسنا وتقديس آثارنا الأدبية وإنما عبدنا الأجداد فلا نرى إلا بأعينهم ولا نسمع إلا بآذانهم . ويريدوننا أن لا نفكر إلا تفكيرهم على بعد ما بيننا من زمن واختلاف ما بيننا من بيئة وتباين ما بيننا من حضارة . يريدوننا أن نتخذهم أوثاناً والأوثان مهما دقت قسماتها وغلت مادتها وأضفى عليها الفن ثوباً من الحسن والجمال إن هي إلا نصب وتماثيل جامدة لا حياة فيها ولا روح . لا أنكر أن تراثنا الأدبي جميل إلى أبعد غايات الجمال فخم إلى أقصى حدود الفخامة غني إلى أرقى درجات الغنى ومما لا شك فيه أن اللون الذي خلعه الزمن عليه يزيد من جماله وفخامته وغناه ولكنه لن يمحو منه آثار السنين ولن يعود به إلى ميعة الصبا ورونق الشباب وما أجدرنا أن نكون منه عند قول فلتير : "سأجعل علاقتي بالأدب علاقة الرجل بعشيقة شاخت إنه يحول حبه إياها إلى صداقة" . هذه هي العاطفة التي يجب أن نطوي عليها الجوانح ونقفها على تراثنا الأدبي» .

لم أملك نفسي عن الابتسام ولا أدري المعنى أو اللون الذي خلعه صاحبي على هذه الابتسامة لأن من الناس من يترجم معاني الابتسامة بالألوان فهي صفراء أو بيضاء أو حمراء حسبما يكون الباعث عليها فهو تارة التهكم وطوراً الإخلاص وحينا الغيظ والحنق ويخيل إليّ أن صاحبي رأى في بسمتي بسمة صفراء فرد على التحية بمثلها وأنشأ يقول :

« ابسم ما شاء لك الابتسام فلن تصرفني عن رأيي وعقيدتي وإني لعلى يقين من

أنك سوف تشاطرني هذا الرأي وهذه العقيدة إذا أصغيت إلي بجماع قلبك وعقلك غير ساخر ولا مقاطع . لقد انقطع عهد العرب الأقدمين بالأوثان وانصرفوا عن مناة واللات والعزى وما إليها وما صنعوا بعد ذلك سواها فأنت إذا أنعمت النظر في أدبهم رأيته يمتاز بحلة الوضوح والإشراق وإذا تدبرت هندستهم وجدتها كذلك تقوم على النصوع والبساطة وليس أدبهم وفنونهم إلا صورة سمائهم الصافية وصحرائهم الواسعة المكشوفة الأطراف وكذلك صورة دينهم الجديد الذي لا غموض فيه ولا أسرار ولا سيما أن الإسلام كان من أعظم مصادر الوحي للآداب العربية كما كانت المسيحية من أعظم مصادر الوحي للآداب الأوربية غير أن العرب النصارى كانوا أكثر تأثراً بسمائهم وصحرائهم وجوّهم منهم بما يحويه دينهم من أسرار نلمحها في الآداب الغربية وفنونها كالفن القوطي مثلا وهو الذي يشعرك جلاله وروعته بالخشية والرهبة والغموض فالعرب لم يصنعوا الأوثان من الحجارة أو من المعدن أو من الخشب وإنما صنعوا لنا أوثاناً من مواد أخرى صنعوها من الحروف والكلمات والأساليب فقمنا نعبد اليوم ما نحتوا .

وضعوا لنا الألفاظ فأحطناها نحن بهالة من التقديس. نحجّ إليها ونستلمها برفق وخشوع وننزلها من كتابتنا في عبادة وقدسية والويل لمن تناولها بشيء من التشذيب والتبديل .

وضعوا لنا الحيرة مثلا وصاغوا من هذا المصدر حار وتحير واستحار وأغفلوا احتار أو لم يجثنا في ربع اللغة الذي وصل إلينا فبقينا شاخصين إلى هذه الأصنام وما تحدر منها ولم نقدم على اصطناع صنم جديد من الحيرة قد يكون لنا فيه كل الغناء .

وأعجبهم المفرج بين الجبال والتلال يكون مسلكا للسيل ومنفذاً فقالوا الوادي وجمعوه على الأودية وعنّ لشعرائنا في هذه الأيام أو اضطرتهم القافية إلى استعمال وديان فوقفوا عند الأودية أو الأوداه في حرمة وخشوع لا يريمون ولا يتحركون حتى لا يتهموا بالإعراض عن أوثان العرب .

وأحبوا أن يخصوا النساء بمركب من المراكب مقبب أو غير مقبب يصنع من العصي ثم يجعل فوقه الخشب فقالوا الهودج وكذلك يقول شاعرنا العصري "وفي الهودج فينا ساعة" وهودج السيدة التي يستوقفها الشاعر سيارة مصنوعة من الصلب لا تمت إلى ذلك الهودج بأية صلة من الصلات .

وعُرف العرب بالتفاؤل والتشاؤم من سانح الطير وبارحه ، فهم إن زجروا الطير ودوا لو جرت يميناً تفاؤلا باليمن . فإن حيّوا مسافراً أو قادماً من سفر قالوا على الطائر الميمون ونحن اليوم نودع الأحباب ونستقبلهم بالطائر الميمون وليس هناك طير زجرناها

فسنحت يميناً وإنما هناك طائرة وقاطرة وباخرة وسيارة نركبها باسم الله فتجري مجراها فضلا عن أن من العرب من لم يعبأ بالزجر كقول لبيد بن ربيعة :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ورأوا الغراب يقع على رأس البعير فيلتقط منـه بعض النبات العالق به فلا يحرك البعير رأسه لئلا ينفر عنه الغراب فضربوا للهدوء والسكون فى الجماعة المثل القائل : " كأن على رؤوسهم الطير " ويريد المتزمتون من أدباء هذا الجيل أن لا نحيد عن هذا الوثن الذي صوروا فيه الغراب واقعاً على رأس البعير وقل مثل هذا عن أوثان أخرى من مثل : قلب له ظهر المجن ، واختلط الحابل بالنابل وغيرهما من القوالب الوثنية . أما تشبيهاتهم فقد استوحوها من بيئتهم ومجالي الطبيعة وصنوف الحيوان عندهم فالمرأة في نظرهم بدر تم وخوط بان أو قضيب خيزران وظبي من ظباء عسفان وجؤذر من جآذر جاسم . كقول ابن الرومي :

إن أقبلت فالبدر لاح وإن مشت فالغصن ماد وإن رنت فالريم

أو كقول أبي الطيب :

بدت قمراً ومالت خوط بانٍ وفاحت عنـبراً ورنت غزالا

أو كقول عدي بن الرقاع العاملي :

وكأنهـــا وسط النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

ثم هي ذات عينين كعيون المها ، وشعر رسيل وخد أسيل وأسنان كالبرد وأنامل كالعنم وشفاه كالعنّـاب ، فإن بكت فبدموع كاللآلئ . يجمع بعض هذا قول الوأواء :

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضّت على العناب بالبَرَدِ

لئن استحسن العرب الشعر الرسيل والخد الأسيل إن هذا العصر قد يستحسن الشعر القصير والخد المستدير . فمن العبث إذن أن نفرض هذه الصفات على كل جيل وعلى كل عصر فالأذواق كالألوان لا جدال فيها ولا نقاش فقد تختلف في رجلين من جيل واحد فما بالك في رجال أجيال وعصور مختلفة .

ولا يعدو الرجل الكامل عندهم أن يكون " جواداً فما يبقي من المال باقيا " وأن يكون :

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وأن يكون شمساً وقمراً وغيثاً وليثاً وسيفاً كالذي قيل إن المعتصم أراد أن لا يدخل عليه من الشعراء إلا من يحسن أن يقول مثل قول منصور النميري في الرشيد .
فقال محمد بن وهب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
تحكي أفاعله في كل نائلةٍ الغيث والليث والصمصامة الذكر

أفترى انصرفنا عن تشبيه الكريم بالبحر أو المطر ، والشجاع بالأسد ، والجميل بالشمس أو القمر وصاحب الرأي الحاسم بالسيف القاطع من أمثال هذه التشبيهات التي بقيت على الزمن أوثاناً تمسح بها كل شاعر وكاتب .

وغرامنا بهذه الوثنية ورثناه أيضاً فيما ورثناه من السلف فقد سئل حبيب بن أوس عن شعر أبي نواس كيف هو عنده فقال : " أبو نواس ومسلم بن الوليد اللات والعزّى وأنا أعبدهما " وفي الأغاني عن أحمد بن سعيد الجريري : أن أبا تمام حلف أن لا يصلي حتى يحفظ شعر مسلم بن الوليد وأبي نواس فمكث شهرين حتى حفظ شعرهما قال : ودخلت إليه فرأيت شعرهما بين يديه فقلت له : ما هذا قال : " اللات والعزّى وأنا أعبدهما من دون الله " .

هذا في حين استهزأ أبو نواس بالشقي الذي عاج يسائل الرسوم والأطلال ويبكي وهو واقف على طلل الماضين من أسد وأمعن في استهزائه لما تجاهل بني أسد وبني تميم وقيس ومن لف لفهما ولما نعى على ذلك الباكي وقوفه فقال : ما ضرّ لو كان جلس ، ثم ختم سخريته وازدراءه بهذا الدعاء القاسي الذي يقول فيه :

لا جف دمع الذي يبكي على حجرٍ ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

ومعاذ الله نحن شباب العصر أن نجاريه في ازدرائه ودعائه غير أننا نبغي التحرر من عبادة هذه الأوثان اللغوية والأدبية والخروج من هياكلها إلى فضاء التفكير الحر نشيد فيه هياكل جديدة من أدبنا وذوقنا وفننا مستوحاة من روح العصر مزخرفة بزخرف الجيل إن احتاجت إلى زخرف لا لنتركها لمن يأتي بعدنا أصناماً يعبدونها بل لتكون آثارنا التي تعبر عن فكرنا وعواطفنا وتدل على مبلغ رقينا وتقدمنا .
أنا لا أوافق المتنبي على قوله :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم

لأن الزمان لا يهرم ولا يشيب وإنما تشيب فيه الهمم والعزائم وإن يكن أصحابها ممن سكن هذه الأرض منذ بدء الخليقة » .

سمعت هـذا البيان المتدفق على لسان صاحبي وأنا صامت ساكن يتنازعني عامل الإعجاب بهذه الحماسة وعامل الأسف على أن تختلج جوانح شبابنا بمثل هذه الأفكار التي تبعدهم عن حرمة الخلف وتوسع الشقة بين ماضي أدبنا وحاضره وكأنما شعر بما يجول في خاطري فقال :

« إن تأسف على شيء فعلى أن الوثنية في الأدب ستنأى بنا عن مواكب التقدم والإصلاح . وتجعلنا في دائرة ضيقة من التفكير والطموح ولن يكون لأدبنا وهذه قيوده وسلاسله أثر في سياسة الشعوب ولا في السير بالنفوس إلى الكمال الإنساني لأن الكمال الإنساني لا يدرك بالانقطاع لعبادة الألفاظ والكلم والأساليب وإنما يدرك بالتحرر من السلاسل والقيود وبإرسال الفكر حراً طليقاً يجوب أجواء الفلسفة والعلم والفن والأدب والأخلاق ليصل إلى سماء الرقي والكمال . لقد حدثتك عن الوثنية في الأدب ولو شئت لحدثتك عن وثنيات أخرى نحن غارقون فيها إلى الأذقان من مثل الوثنية التي يتبادلها الأدباء والجمهور فكلاهما صنم للآخر يسجد له ويتمسح به وكلاهما ... » .

قطعت على صاحبي الحديث خشية سماع ما أكره وما يكرهه الأدباء أو الجمهور وإن كنت لا أدري مبلغ ما سيقوله صاحبي من صواب أو خطأ وجئت أنقل إلى قراء « الكتاب » هذا الحديث عن الوثنية في الأدب وسمة التطرف والشعوبية فيه بينة ظاهرة وناقل الكفر ليس بكافر .

عادل الغضبان

حديقة الأفكار

مشاكل الدول العربية

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني

لكل بلد في عالمنا هذا مشاكله ومعضلاته ، ما بين داخلية وخارجية ، فليس ببدع ولا مستغرب أو مستنكر أن تكون لبلادنا العربية مشاكلها ومتاعبها ، ولعل ما تعانيه الدول الكبرى من ذلك أفدح وأبهظ مما تعانيه دولنا العربية الحديثة ، وأخطر أيضاً على سلام العالم واستقرار أموره ، لأن للدول العظمى آراباً تتجاوز حدودها ، وهي تجني على الأمم المجاورة لها — بل البعيدة — بهذه الأطماع ، التي يغريها بها الجشع أو الحاجة ، ثم تتلاقى الكبار وتتزاحم على النفوذ والسيطرة من أجل الخيرات التي تنشدها ، والمواقع التي تبغي الاستيلاء عليها للدفاع أو الهجوم ؛ فيقع التصادم ، وتنشب الحروب . أما الصغار من الدول فكل مبتغاها أن تكون آمنة السرب ، مطمئنة على حريتها واستقلالها ، قادرة على التفرغ لشؤونها الخاصة في أمان من صروف الحذر . ولعلها لو أمنت واطمأنت وتخلت لترقية أحوالها ، وتقوت ، لطمعت في الاستعلاء ، وأدارت عيونها فيما حولها ، طلباً للتوسع ، فإن القوة تورث النهم. ولكنها إلى الآن لا قوية ولا آمنة — وهذه هي مشكلتها جميعاً .

فليس بين الدول العربية — إذا استثنينا المملكة السعودية — دولة آمنة أو مطمئنة على حقها وحريتها ، أو في فسحة من أمرها تسمح لها بالتخلي للعمل على العناية بمراشدها . وحتى الدولة العربية السعودية لا ترى أن لها أن تطمئن إلا إذا أدركت بعض الغايات ، ومدت حدودها ، هنا وههنا ، بعض المدّ ، واستولت على بعض المواني — مثل العقبة — أو البلدان ، وضمنت خلوص النية وصدق السريرة من هذه الناحية أو تلك ، ووفقت في بعض المساعي ، مثل الحيلولة دون قيام دولة صهيونية في فلسطين ، ومثل تحقيق مشروع سورية الكبرى إذا كانت له صلة بشرقي الأردن . ولا يلام أحد

على الحذر الذي يدعو إليه الدفاع عن النفس ، وقد ذكرنا بعض ما يشغل الدولة السعودية ، على وجه الإجمال ، لنقول إنه حتى هذه الدولة التي تستطيع أن تكون في أمان من عدوان الدول الغربية عليها ، لا تخلو مما يقلقها .

وعسى أن تكون سورية هي الدولة العربية الوحيدة التي تثق بأن كل قوة أجنبية ستجلو عنها لا محالة ، ولكن هذا الجلاء بمجرده لا يدعو إلى الاطمئنان ، ولا يجعلها «تبيض وتصفر» كما يقول الشاعر القديم ، أو تشعر بأنها في أمان من «صروف الحذر» فإن الجلاء عنها لا يكفي ، ولا بد من الجلاء عن لبنان أيضاً — بل عن فلسطين وشرقي الأردن والعراق كذلك — لتطمئن ، لأنه يسهل الزحف عليها من كل بلد من هذه البلاد ، وفي وسع أية قوة جوية أجنبية مرابطة في أحد هذه البلدان أن تكون مصدر قلق دائم لها ، وعنصر ضغط يقع عليها كما بدا لصاحب هذه القوة أن يضغط ، وقد خلق الفرنسيون مشكلتين : إحداهما هينة هي نقل بعض البلاد السورية إلى لبنان ، وإدخالها في حوزتها ، وليس لهذا قيمة حقيقية فإن لبنان وسورية جارتان متعاونتان في السراء والضراء ، وليس بينهما جوازات أو جمارك أو غير ذلك مما يكون بين الدول المستقلة المتجاورة ، وبيروت ودمشق كأنهما عاصمتان لأمة واحدة ، والتعاون بين الدولتين يصح أن يكون نموذجاً أو مثالا تحتذيه الأمم العربية قاطبة . وقد أغضت سورية عما اقتطعه الفرنسيون وألحقوه بلبنان واعترفت للبنان باستقلاله بحدوده الحاضرة ، وكان هذا عين الحكمة ، فإنها بهذا أخذت على الدس بين الأمتين متوجَّهه ، وحالت دون خلاف لا موجب له مع قيام هذا التعاون الوثيق ، والتآخي الصادق .

أما المشكلة الأخرى فأمرها أعسر ، ونعني بها مشكلة الإسكندرونة فقد نزل عنها الفرنسيون لتركيا بغير حق ، أولا لأنها عربية وقد أثبت الاستفتاء ذلك ، وثانياً لأن الفرنسيين لا يملكون أن يُقطعوا تركيا أرضاً ليست لهم ، وقد رأيت بعيني رأسي قوماً من عرب هذه المنطقة هاجروا منها إلى سورية وآثروا أن يعيشوا على نحو ما ، فيها ، على أن يكونوا أتراكا ، وقد اعترفت تركيا باستقلال سورية بلا قيد بعد تلكؤ طويل ، ولكن هذه المشكلة ستظل قائمة حتى يرد الحق إلى صاحبه .

وثم مشكلة ثالثة خلقها الفرنسيون ، هي إثارة النعرة الطائفية والإقليمية في بلدان سورية التي مزقوا أوصالها وجعلوا منها عدة دويلات . فأما النعرة الإقليمية فقد تكفل الإخلاص للوطن بمكافحتها ، وأما النعرة الطائفية ، فإنها تعالج بحكمة وحزم ، على الرغم من الدسائس المستمرة .

والدسائس في سورية أنواع وضروب ، منها ما يرمي إلى إثارة النعرة الطائفية ، ومنها ما يحض على السخط على كل حكومة تقوم ، ومنها ما يروج للنظام الملكي ، وهو ما يزهد فيه الجمهور الأكبر من السوريين ، ومنها ما يدعو إلى مشروع سورية الكبرى ، وهو مشروع تتولاه طوائف شتى — فيها المخلص ، وفيها الذي يسعى للإيقاع بين سورية ولبنان ، وفيها الذي يخدم الصهيونية ؛ فأما المخلصون فلا ضير منهم ولا خوف ، لأن من الممكن إقناعهم ، وأما الدساسون من ناحية وخدام الصهيونية من ناحية أخرى فهم البلاء والداء العياء . ولبنان على حق في النفور من هذا المشروع ، والسوريون العقلاء على حق في السخط على الساعين له ، فحسبهم متاعبهم ، وليس ينقصهم أن يضيفوا إليها متاعب سواهم ، وهم لا يرضون عن النظام الملكي ، ولهم رأيهم في ذلك وهم أحرار فيما يختارون لأنفسهم ، وليس من مصلحة سورية ، قبل أن يُقضى على الخطر الصهيوني ، أن تُضم إليها فلسطين ، أما بعد ذلك فلا بأس إذا شاء الشعبان ذلك .

وتلي ذلك مشاكل لبنان ، وهي عديدة ، وكلها مما خلق الفرنسيون الذين يتلكؤون في الجلاء ويؤخرونه ، عسى أن يحدث ما يمكنهم من البقاء ، وما دامت قوة أجنبية مرابطة في بلد ما ، فلا استقلال بالمعنى الصحيح لهذا البلد ، وقد عرفت البلاد العربية كلها — فيما عدا الدولة السعودية — هذه الحقيقة بالتجربة المرة ، على أن لبنان يعاني مشاكل أخرى شتى ، مما أورثه الانتداب الفرنسي ، مثل إرباء الموظفين على الحاجة ، ومثل ضعف التعليم الحكومي ، وما يتصل به من الإشراف عليه والتوجيه له ، وتدبير أموره على العموم ، ومثل الكيد للغة العربية ، كيداً يستتر حيناً ، ويسفر حيناً ، غير أن هذا كله يهون أمره إذا جلا الفرنسيون عن البلاد واستطاع أهلها أن يستقلوا بأمرهم استقلالا حقيقياً ، فإنهم من أذكى شعوب العالم وأنشطهم وأوسعهم حيلة .

ثم تجيء مشكلتا العراق ومصر ، وهما متشابهتان من وجوه ومختلفتان من وجوه ، فأما وجه التشابه فهو أن معاهدتي التحالف بينهما وبين بريطانيا تخول بريطانيا أن تكون لها قوة حربية ترابط في كل من البلدين ، فمطلب الدولتين هو الجلاء ، فأما مصر فإن من الممكن أن تجلو عنها بريطانيا إلى فلسطين وقبرص ، أو إحداهما ، وأما العراق فمن الميسور أن تجلو عنه القوة الجوية البريطانية إلى شرقي الأردن مثلا ، أو فلسطين ، فتكون في إحداهما كأنها في العراق ، ولست ممن يقرون هذا الجلاء إلى فلسطين أو شرقي الأردن ، لأن مبتغانا هو استقلالها الصحيح ، ولكني أذكر هذا على أنه — في الوقت الحاضر — مما يعين على الجلاء السريع عن العراق ومصر ، غير أن المعضلة

هي أن بريطانيا تخاف روسيا ، وبريطانيا دولة عظيمة ، وما زالت تسمى « بريطانيا العظمى » ولـكنها في الحقيقة دولة صغيرة فقيرة ، لا تستطيع أن تحيا بغير مستعمراتها التي تستورد منها المواد الأولية اللازمة لصناعاتها ، والتي تتخذ منها أسواقاً لمصنوعاتها ، وقد أفقدتها النهضة الصناعية العالمية منزلتها التي كانت تتبوؤها والتي كانت تجعل لها السيطرة على تجارة العالم ؛ ومن أجل هذا تخاف روسيا والولايات المتحدة ، في آن معاً ، ومن أجل هذا تحاول أن تحتفظ بصداقة الولايات المتحدة ، وتأييدها لها في سياستها إذا استطاعت ، ليتسنى لها أن تقاوم روسيا ، فما لها أمل في مقاومة روسيا بغير معونة الولايات المتحدة ، كما لم يكن لها أمل في كسب الحرب بغير هذه المعونة . وهنا أروي ما حدثني به أحد زعماء العرب وكان رئيساً لأحد الوفود العربية في مؤتمر فلسطين الذي عقد في لندن في سنة ١٩٣٨ ،وقد سألت غيره من رؤساء الوفود العربية فأيد لي الرواية ، وخلاصتها أن المستر تشمبرلن رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الوقت دعا رؤساء هذه الوفود وقال لهم: إن الحكومةالبريطانية مقتنعة بعدالة القضية العربية ، ولكن الجو الدولي مكفهر ، ومن المتوقع أن تنشب الحرب مع ألمانيا ، فإذا نشبت فلا معدى لنا عن معونة أمريكا وإلا خسرنا الحرب ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإرضاء اليهود ، ونحن ننوي أن ننصفكم . ولـكن الإنصاف لن يكون مائة في المائة ، فأرجو أن تعينونا وتقبلوا ما قدرنا عليه ، وتعذرونا حتى تتغير الأحوال ويتيسر الإنصاف الكامل .

وقد قصصت هذه القصة لأقول إن بريطانيا لا تستطيع أن تثق بالنجاة إلا إذا ضمنت معونة أمريكا ، ولعل هذا هو السبب فيما نرى من محاسنه الصهيونيين في فلسطين على الرغم من بطشهم وفتكهم بالإنجليز ومنشآتهم فيها . ولو يئس الإنجليز من معونة أمريكا لما عبؤوا شيئاً باليهود !

والخوف من روسيا هو الذي سيحمل بريطانيا في مفاوضتها لمصر والعراق على الاجتهاد في إقناع البلدين بإبقاء قوة ما فيهما ، فإن تعذر عليها ذلك ، فستحاول أن تستبقي قوة لها في شرقي الأردن ، وفلسطين أيضاً .

على أن الجلاء ليس هو المشكلة الوحيدة ، فإن لمصر مطلباً آخر هو وحدة وادي النيل ، وقد حاولت بريطانيا أن توجد تياراً جديداً في السودان غايته الانفصال عن مصر ، فلما كانت حوادث ٢١ فبراير الماضي إذا بالسودان تقوم فيه المظاهرات الشعبية منادية « بالجلاء ووحدة وادي النيل » ! وهكذا هبطت مساعي الإنجليز منذ أكثر من أربعين سنة ! ولـكن هذا لا يمنع أن نقول إن هذه المشكلة هي أعقد ما بين مصر

وبريطانيا ، وإن كنا لا نعرف سبباً جدياً يدعو الإنجليز إلى التمسك بالسودان والاستئثار به ، ولا سيما بعد أن صارت إيطاليا دولة مأمونة ، وليس هناك ما يمنع من تعاون رؤوس الأموال المصرية والبريطانية على استثمار موارده الطبيعية ولا سيما في الجنوب ، ولكنها العقلية الاستعمارية الموروثة من القرن التاسع عشر !

ويعاني العراق مشاكل داخلية شتى ، لا من الطائفية ، بل من تعدد الأجناس . ومن فشو الأمية — كما هو الحال في مصر — ومن قرب العراق من روسيا .

غير أن مشاكل العراق ومصر الداخلية ثانوية ، وليس فيها ما يستعصي على الحل إذا تخلصتا من الإصبع الأجنبي الذي يندس في شؤونهما علانية أو سراً ، كلما حلا له ذلك ، والذي يحول فيهما دون التطور الطبيعي لنظام الحكم ، ودون المضي في مشروعات الإصلاح والتعمير واطراد خطوات التقدم .

ويبقى شرقي الأردن ، وقد مدت بريطانيا الانتداب إليه من فلسطين . وهي تجود الآن عليه بالاستقلال ، ولا شك أنها تريد أن تتقاضى ثمنه ، وأن تتخذ منه أداة لحل بعض المشاكل التي تواجهها في مصر والعراق ، وقد تحاول أن تتخذ منه أيضاً أداة لضرب بعض البلاد العربية ببعض ، فقد كانت تحسب أن جامعة الدول العربية ستكون ألعوبة في يدها ، فنبت الجامعة بها ، ولم يسلس عنانها لها ، ولكن البيت الهاشمي أذكى من ذلك وأرشد .

وقد قيل كلام كثير عن انضمام شرقي الأردن إلى العراق ، وليس في كل ما قيل إلى الآن ما يزيد على ما بين سورية ولبنان من التعاون والتكافل ، وهبه زاد فإن كل اتحاد بين الدول العربية يكون مدعاة اغتباط ، وباعثاً على الترحيب ، أليست غاية العرب آخر الأمر أن يكونوا أمة واحدة ؟

ابرهيم عبد القادر المازني

التعاون الثقافي بين العرب في القديم والحديث

للأستاذ طه الراوي ببغداد

كان العرب قبيل الإسلام قابعين في جزيرتهم يتعارفون فيما بينهم أدبياً، ويتناكرون في كل ما وراء ذلك. فكان الشاعر منهم مثلا ينظم القصيدة في نجد فلا تلبث أن يتناشدها الشداة في الشام واليمن والحجاز والعراق. وكانت لهم أسواق أدبية ينشد فيها الشعراء ويخطب فيها الخطباء، ويتبادلون فيما بينهم الكثير من معارفهم، وهم بعد ذلك متناكرون في الدين والدنيا: لكل قبيلة وثنها، يستحل بعضها دماء بعض وحرماته وأمواله. فلما جاء الإسلام ولمّ الشعث ووحّد الكلمة كان القرآن الكريم قطب الدائرة في ثقافتهم، وكان كل ما لديهم من آداب يدور حول ذلك المركز يخدمه ويستوحيه، وبذلك توثقت أواصر الثقافة العربية توثقاً عجيباً. ولما فتح الله على العرب الأقاليم وانساحوا في أرض الله الواسعة لم تفقد تلك الوحدة الثقافية حدتها وشدتها، فكان المسلم في أقصى الشرق يتأدب بما يتأدب به المسلم في أقصى الغرب، لأن إمامهما واحد، وهو الكتاب العزيز، ودولتهما واحدة، وهي الخلافة الإسلامية التي كانت قائمة في الحجاز والشام ثم بغداد. ومهما تقلبت تلك الخلافة في أطوار فإن الثقافة حافظت على وحدتها، فكان أدب الشرق ينتقل إلى الغرب وأدب الغرب ينتقل إلى الشرق، والناس يتناقلون معارفهم بينهم من طريق الرحلات ومن طريق الكتب وغيرهما. وبعد أن أفل نجم الخلافة في بغداد وانحلت أواصر التواصل بين الأقطار الإسلامية كادت تلك الرجة التي أحدثها أحفاد جنكيزخان في الشرق تودي بتلك الوحدة الثقافية، ولكن الله سلم، فإن أولئك الفاتحين من المغول لم يلبثوا أن أسلموا وراحوا يعضدون الثقافة الإسلامية، وهي كما يعلم القارئ الكريم قائمة على أساس متين من الآداب العربية، بل هما ممتزجتان امتزاجاً يتعذر فصل إحداهما عن الأخرى.

غبرت الثقافة العربية تسير في طريقها متعثرة تارة ومستقيمة تارة أخرى، إلى أن انضوت معظم الممالك العربية إلى حكم الدولة العثمانية، وعند ذلك انتعشت الوحدة الثقافية في هذه الممالك بعض الشيء، فكانت المسالك التي يسلكها الطلبة في تلك الأقطار

متقاربة كل التقارب إن لم تكن موحدة . فالعراقي مثلا يسلك في دراسة الآداب العربية المسالك الذي يسلكه المصري نفسه مع تغيير قليل أو من غير تغيير ، وكذلك كان يفعل أهل سائر الأقاليم العربية ، فكنا ونحن في مدينة السلام نتقرى الطريق التي يسلكها طلبة الأزهر ونترسم آثارهم، فنقرأ الكتب التي يقرؤونها ، ونحفظ المتون التي يحفظونها، ونطالع الحواشي التي يطالعونها ، وإذا اجتمع البغدادي بالأزهري يجد كل منهما عند صاحبه مثل ما عنده . فأشياخ الطالب العراقي في النحو مثلا الشيخ خالد الأزهري وجلال الدين الأسيوطي وابن هشام الأنصاري وابن مالك وأضرابهم ، وهؤلاء هم أشياخ الطالب الأزهري في هذا العلم . والطالبان كذلك مشتركان في أشياخ البلاغة وأصول الديانة وفروعها وسائر المعارف التي تدخل في مناهج المدرسة القديمة ، وقل مثل هذا في جمهرة الطلاب العرب في سائر الأقطار ، بل قل مثل هذا في جميع طلاب العلوم الإسلامية في أقطارهم المختلفة . فوحدة المنهاج كانت العامل الأول في انتفاع كل قطر بما يجد في القطر الآخر من نتاج فكري . وكانت مصر في العهود المتأخرة قطب الدائرة في هذا الباب ، لما تمتاز به من الوضع الجغرافي الذي عصمها من طامة المغول وعادية الإفرنج ، إلا في العصر المتأخر ، فبقيت فيها سلسلة التعليم موصولة الحلقات ، وبقي فيها تراثنا العقلي في مأمن من أعاصير الفتن التترية وغيرها . فأصبحت نجعة المرتاد وقبلة أهل الفضل في سائر الأقطار الإسلامية . وهي من أسبق البلاد العربية اتصالا بالثقافات الغربية . كانت تجمع بين ميزتين : الأولى الاحتفاظ بتراثنا القديم مع الزيادة فيه ، الثانية السبق إلى اقتباس الثقافات الغربية اقتباساً منظماً منذ فجر النهضة الحديثة . وكانت الممالك العربية في مدارسها القديمة في العراق والشام والحجاز واليمن وغيرها تتحرى الجادة التي كانت تسلكها مصر فتسلكها ، ولا تنحرف عنها إلا قليلا في بعض الأحيان ، فكانت وحدة المنهاج هي المهيمنة على تلك المدارس في هذه الأقطار .

وبهذا يعلم القارئ الكريم أن التعاون الثقافي بين الأقطار العربية عريق في القدم ، تقوى أواصره حيناً وتضعف حيناً ، وهو في كل الأحيان متصل الحلقات في حالتي قوته وضعفه ، ماثل للعيان في حالتي رفعه وخفضه ، يستمد قوته من وحدة اللغة والتاريخ والدين والبيئة وغيرها.

فهو ضعيف بعض الشيء قبيل الإسلام ، وقوي كل القوة في صدر النهضة الإسلامية وفي عهد الدولتين الأموية والعباسية . ثم أخذ منه الضعف مأخذه في صدر دولة المغول وأخذ يسترجع بعض قواه في آخر دولتهم ، وفي عهد الدول التي جاءت بعدهم ، وانتعش

بعض الشيء في عهد الدولة العثمانيـــة التي تم لها الاستيلاء على معظم الأقاليم العربية في آسيا وأفريقيا .

ثم تطور هذا التعاون بعد انفصال جزيرة العرب وما حولها عن الحكم العثماني تطوراً سريعاً ، نريد أن نلمع إليه في كلمتنا هذه إلماعاً . قلنا آنفاً : إن معظم الأقطار قبل الحرب العالمية الأولى كان جزءاً من الدولة العثمانية ، وكانت لغة التدريس في المدارس الحديثة فيها هي اللغة التركية (إلا ما كان من بعض المدارس الأهلية والأجنبية، ومعظمها في ديار الشام، فإن لغة التدريس فيها كانت العربية) فلما انفصلت هذه الأقطار عن تلك الدولة حلت اللغة العربية في المدارس الرسمية محل اللغة التركية . وكانت مصر هي البلد العربي الأول الذي بقيت فيه اللغة العربية لغة التدريس في مدارسها الحديثة كما كانت في مدارسها القديمة ، ومن ثم كانت مصر ينبوعاً فياضاً استقى منه رجال التربية والتعليم في سائر الأقطار العربية الكثير من مقتضيات التطور الحديث ، وكانت المملكة العراقية في مقدمة الممالك التي نهلت من هذا المورد فاستعانت بطائفة صالحة من رجال التعليم المصريين ، ووضعت مناهج الدراسة في أول الأمر على غرار المناهج المصرية ، وكانت بعض الكتب المدرسية التي تؤلف في مصر توضع في أيدي الطلبة العراقيين ، ووسائل الإيضاح التي يستعين بها المصريون في مدارسهم هي الوسائل التي يستعين بها العراقيون ، كما أن طرق التربية والتدريس التي كان ينتهجها المدرس المصري أخذ ينتهجها المدرس العراقي . وبذلك توثقت الروابط الثقافية بين القطرين أيما توثق ، وكان يقوم على إدارة دار المعلمين في بغداد مرب مصري يعاونه في مهمته فئة صالحة من المدرسين العراقيين والمصريين والشاميين* . ثم عهد إلى مرب شامي بوضع أساس الثقافة في العراق ورفع أركانها فيه ، فجاءت مساعيه بالثمار الكثيرة والخير الوافر .

واستمر العراق على استقدام المدرسين العرب من الأقطار العربية المصرية والشآمية إلى عهد الناس هذا .

طه الراوي

* نقصد بالشام في مقالنا هذا ما يشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن ، وهو المعنى الأصيل الذي كان يعرفه الأولون .

الوهم والاضطرابات النفسية العصبية

لمعالي الدكتور سليمان عزمي باشا وزير الصحة

تكلمنا في مقال سابق عما هو خاص بأمراض الجسم أو البنية . ولكن هناك أمراض أخرى وظيفية وعضوية أو غير عضوية ، قد تقع بمفردها ، وقد تصحبها أمراض جسمية ، أقصد الأمراض النفسية والعقلية ، أو ما يطلق عليه الاضطرابات النفسية العصبية (Psychoneurosis) ، قد لا يرجع سببها إلى مؤثر ظاهر الأثر في العضو ، وإنما يرجع سببها إلى مؤثرات نفسية قد لا ينافي وجودها تمتع المريض بصحة جسمية جيدة ، كما أنها قد تؤثر — إذا استمرت — في صحة الجسم ووظيفة أعضائه . وقد تكون الأمراض الجسمية من أسبابها ، وقد تظهر الكامن منها ، فقد شاهدت كثيراً من هذه لاضطرابات أثناء الحميات الحادة وغيرها ، كما شاهدتها عقب الشفاء من هذه الأمراض عند كثير من المرضى . وأكثر ما يكون حدوثها لمن عندهم استعداد وراثي أو شخصي لها . وقد توجد أمراض كثيرة من أمراض الجهاز العصبي العضوية تصحبها اضطرابات عقلية نفسية ، وتكون هذه الاضطرابات من أهم أعراضها وعلاماتها ، كما نشاهد هذه الأحوال النفسية العقلية في بعض أمراض الغدد ذات الإفرازات الداخلية ، وكذا في كثير من الأمراض الجسمية المزمنة حين تستمر طويلاً فتؤثر في حالة المريض النفسية . ونقرأ في الصحف كثيراً من حوادث الانتحار سأماً من طول المرض . والانتحار كما هو معلوم حالة عقلية نفسية شاذة ، غير طبيعية ، بل هو ضرب من الجنون .

وتحصل أيضاً هذه الأمراض النفسية من بعض أمراض نقص التغذية ، مثل الاضطرابات العقلية التي تحصل من مرض البلاجرا . ومما يؤلم أن هذه الأمراض العصبية النفسية العقلية المتنوعة في أشكالها وصفاتها آخذة في الانتشار والازدياد نتيجة للحروب وويلاتها .

ويرجع سبب هذه الأمراض إلى استعداد وراثي ، أو إلى ظروف الحياة ومصاعبها ومتاعبها واضطراباتها ، خصوصاً أثناء سن الطفولة ، أو إلى السببين معاً . كما قد يرجع إلى الخطة التي اتبعت في تربية الأطفال بالمغالاة في مقاومة رغباتهم ومصادمتها ، أو في صدهم وجرح

شعورهم ، أو من تدليلهم ، أو من إلقاء الرعب في نفوسهم وخلق المخاوف عندهم وكثرة سرد القصص الخرافية لهم ، مثل تخويفهم بالعفاريت و «البعبع» أو الجن أو الظلام ، أو استعمال القسوة معهم ، أو إلقاء الرعب في نفوسهم من الأمراض والموت . وقد يكون القصد حميداً ، كأن يكون لإقناعهم بأخذ الدواء أو الطاعة أو التعلم أو التأدب ، ولكن السبيل للوصول إلى هذه الغاية ضار ، ويعد نقصاً في فهم الأقارب لطرق التربية القويمة ، إذ قد تؤثر هذه المؤثرات في الطفل فيصير عصبياً مضطرباً كثير المخاوف والأوهام . وقد تبقى هذه الأوهام والمخاوف والعادات والانفعالات مكبوتة في نفسه أو عقله الباطن إلى أن تظهرها فيما بعد ظروف الحياة التي تطرأ عليه ، سواء في طفولته أو مراهقته أو كبره . ويساعد على انتشار هذه الأمراض النفسية العقلية العصبية ما يصيب العالم بأسره الآن من الشدائد والأزمات والحروب والعسر المالي ووفرة المسؤوليات .

كما أن ما يصادف المرء في حياته من الأمراض والمتاعب الشخصية والعائلية المتعددة التي لا تقع تحت حصر يساعد على ظهورها فيمن له استعداد لها . وظروف التفسيرات الفزيولوجية في حياة المرء تزيد هذا الاستعداد ، مثل سن البلوغ وفترة الحمل والرضاعة وسن انقطاع الطمث عند السيدات . وهذه الأمراض النفسية على أنواع مختلفة ، منها الاضطراب النفسي والحيرة والخوف وشدة الفزع والتشكك والوسوسة والوهم وضعف الإرادة ، وغيرها من الانحراف والشذوذ النفسي العقلي .

وإنه ليخيل إلي أن الناس تعيش الآن في جو مضطرب متقلب يغلب فيه الخوف والانزعاج ، ويسوده القلق والاضطراب ، ويقل فيه الأمن والاطمئنان ، فيختل تبعاً لذلك الاتزان في وظائف الجسم وأعضائه وغدده وأعصابه وتفكيره وعقله ، فتكثر الأمراض النفسية العصبية (Psychoneurose) . وتظهر على المرء أعراض تنبىء عما يدور بخلده من الأوهام والوساوس كما كانوا يقولون ، أو أعراض ما يخفيه في عقله الباطن كما يقولون الآن ، من الانفعالات التي يكشف عنها اختلال الاتزان النفسي . فقد تتنبه وتتهيج الحالة النفسية ، كما أنها قد تهبط وتخمد وتسودها الكآبة ، أو تكون بين هذا وذاك ، تبعاً لاستعداد الشخص . وقد لا يصل الطبيب لمعرفتها من مجرد فحص الجسم والأعضاء بالطرق العادية ، بل يلجأ إلى التحليل النفسي ، واستقراء تاريخ الشخص والظروف التي مر بها في أدوار حياته المختلفة ، أثناء الحمل والطفولة والمراهقة والبلوغ ومدة الدراسة والعمل في الحياة فيما بعد ، مع الملاحظة والاستنتاج .

وقد تخلق هذه الأحوال النفسية في الإنسان رغماً عن تمتعه بصحة بدنية لا بأس

بها شخصاً ذا حيرة وتردد وتخوف وأوهام وفقد إرادة وعدم مقدرة على مجاراة الحياة العامة والخاصة .

وما دامت هذه الأحوال النفسية خفيفة هينة غير واضحة أو معتدلة فإنها تعد حسب درجاتها من الرذائل أو الفضائل أو الصفات والطبائع المميزة لشخصية المرء أو الدالة على خطته وآرائه وفلسفته في الحياة .

ولذا نقول : فلان جبان خائر القوى كثير المخاوف ، وفلان شجاع قوي العزيمة والإرادة ، وهذا كريم أو مبذر أو بخيل أو مقتر ، وذاك هائج الطبع كثير الانفعال ، أو هادئ النفس دمث الأخلاق ، وذاك يتوهم ، وذاك صبور يتحمل ، وهلم جرا . كما نقول : هذا فظ غليظ الطبع ، وذلك رقيق القلب شفوق رحيم حسن الأخلاق ، أو هذا خامل أو متردد ، وذاك مقدام مغامر جسور ، أو هذا خائن مراوغ، وذاك أمين وفيّ ، أو هذا أرعن متهور ، وذاك ثابت رزين ، وفلان قنوع والآخر شره أناني ، وهذا متزن وذاك متطرف ، إلى آخره . .

ومن مجموع صفات الأفراد وأخلاقهم تتكون الصفات والأخلاق المميزة للشعوب وتتأثر الشعوب على مدى الأجيال بطريقة الحكم التي تحكم بها والبيئة التي تعيش فيها وطرق تغذيتها وطرق التعليم التي اتبعت في تربية النشء وتهذيبه وتعليمه وغير ذلك من الاحتمالات .

وأما إذا زادت هذه الصفات ووضحت وبرزت فإنها تعد شذوذاً أو انحرافاً عقلياً ، وتكون في عداد الأمراض النفسية العقلية ، وقس على ذلك .

خذ مثلاً : أن يأنس إنسان في نفسه التأثر من البرد ، وأن عنده استعداداً خاصاً للاصابة بالنوازل أو الآلام العضلية إذا تعرض لتيار الهواء ، خصوصاً إذا كان جسمه مبللاً بالعرق ، ففي حدود الأمور الطبيعية أن يحترس من البرد ومن التعرض لتياراته ، وأن يكون أشد احتراساً إذا عرق جسمه ، أما أن يغالي في الحيطة ، بأن يكثر من الملابس المتراكمة بعضها فوق بعض، أو يحكم سد النوافذ بحيث لا يتسلل الهواء إلى الحجرة فيفسد هواؤها ، أو أن يلازم حجرته ولا يخرج منها دون سبب آخر خوفاً من الإصابة بالبرد ، فهذا هو الوهم بعينه ، الذي يؤدي إلى ضعف بنيته ، وإلى تسرب الوساوس إلى عقله ، فيبقى أسير أوهامه وتخيلاته .

ولقد شاهدت سيدة لم تغادر غرفتها سنوات مع إحكام سد نوافذها خوفاً من الإصابة بالبرد .

ومثل آخر : مريض وقع في نفسه وهم أن عنده الزائدة الدودية ، تراه إذا أصيب بنزلة معوية كالتي تصيب أي إنسان — لم يطمئن إلى فحص طبيبه وعلاجه ، بل يتركه إلى آخر ، وربما أدى به الوهم إلى تضليل الطبيب أثناء فحصه ، فيظهر شدة الألم إذا لمس الطبيب جهة الزائدة الدودية ، مع أن الألم لم يبلغ به هذا الحد ، فيوهمه عقله الباطن أنه بهذه الحيلة يجعل الطبيب أكثر تدقيقاً في فحصه للزائدة الدودية . هذا المريض أيضاً أسير أوهامه ، وعلى الرغم من زوال النزلة المعوية بسلام كما تزول عند غيره تراه لا يزال متشككاً واهماً ، يقلق الوهم حياته ونومه وراحته .

مثل هذا المريض متعب لنفسه ولأطبائه ، لا يطمئن باله ساعة حتى يعاوده الوهم ساعات . وقس على ذلك ممن يتوهمون إصابتهم بمرض القلب أو الرئة أو السرطان أو غيرها من الأمراض .

المتوهم مريض حبس كل فكره على نفسه ، وقيد وأغل تفكيره بخيالاته وأوهامه ، لا يعبأ بما يراه ويسمعه ويلمسه ويشعر به بحواسه ، بل تمتد به تخيلاته إلى احتمالات بعيدة قد تؤدى إلى الإضرار بصحته الجسمية .

وإذا تركنا الأمراض جانباً ولاحظنا المتوهم في ظروف حياته ، تراه طليقاً يتمتع بكامل حريته وتصرفاته ، لكنه في أغلال أوهامه وقيودها ، حيران لا يكاد يقدم على أمر ليبرمه إلا تناولته وساوسه وأوهامه فيحجم ويتراجع ، صدق منه العزم وطاوعته قوة الجسد في حين خانته قوة الإرادة فارتبك ، وقد ينفذ وهو في حيرته وارتباكه ، أي وهو في حالة نفسية غير متزنة، أمراً ربما عاد عليه بالضرر . رأيت مرضى تسلطت عليهم الاوهام يحضرون للطبيب لعلاجهم ، فيصف لهم الدواء ، فلا يأخذونه ، لأسباب منها أنه استشار الطبيب لمجرد الاطمئنان ، وليزيل ما قام بعقله الباطن من وهم ، فمتى زالت أوهامه رجع إلى نفسه في فترة هدوئها واتزانها ، فلا يرى داعيـاً لاستعمال الدواء . ومنها ، بل هو أشدها ضرراً تخوفه من نفس الدواء ، فقد يتوهم أنه سم يضره فلا يتناوله ، وإذا تعاطاه قام في نفسه وهم آخر بأنه تناول مادة سامة قد تضره . ومنها عدم اطمئنانه إلى الطبيب وعرض نفسه على جملة أطباء مجتمعين أو منفردين ، فإن اتفق الأطباء على أنه «متوهم» لم يجد داعياً لتعاطي الدواء ، وأما إذا اختلف الأطباء ، ولو اختلافاً لفظياً طفيفاً ، زادت وساوسه وأوهامه .

حضرات القراء الكرام : تخلصوا من أوهامكم ، واحكموا بحواسكم وسلامة تفكيركم . ولا تحكموا أوهامكم ، ولا تغالوا في التقدير فتعطوا الأمور والأعراض أهمية

أكثر مما تستحق . فقد يؤدي بكم هذا إلى تجسيم أمور تافهة ، أو التفكير في مسائل من خلق أوهامكم أو من نسيج خيالكم . خذوا الأمور بعلاتها ، وناقشوها مناقشة سليمة ، ولا تجهدوا أبدانكم ولا ترهقوا تفكيركم ، فإن الإجهاد والإرهاق يزيد الأمراض النفسية شدة ، وأعطوا للجسم وللفكر وللعقل الوقت الكافي للراحة ولاسترداد نشاطها وقوتها تتغلبوا على متاعبكم . ولا تنسوا قيمة الألعاب الرياضية في الهواء الطلق ، ولا قيمة الرحلات الخلوية ، ولا الإجازات السنوية وتبديل الهواء والوسط في تحسين الصحة الجسمية والمحافظة على العافية ، وفي تحسين الحالات النفسية والعقلية ، بإعفاء الفكر فترة من الزمن من مشاغله ، فيسترد العقل قوته ونشاطه وسلامة تفكيره .

ومن أنواع « فترات الراحة » المستحسنة فترة راحة آخر الأسبوع ، التي يسميها الإنجليز (week end) ، وتبدأ عندهم من بعد ظهر يوم السبت إلى صباح يوم الاثنين، وكذلك هي عند الجالية الأجنبية في مصر ، وتبدأ عند المصريين من بعد ظهر يوم الخميس إلى صباح يوم السبت . يذهب فيها المرء إلى بيت في الخلوات أو إلى مدينة بعيدة عن مقر عمله ، مثل شواطئ البحر أو أماكن الريف أو غيرها من الأماكن المشهورة باعتدال مناخها ، فيقضي فيها هذه الفترة بعيداً عن مشاغله . وحبذا لو شغل نفسه بمسائل هينة خفيفة لا تتعب ذهنه ، بحيث لا تمت بصلة ما إلى عمله ، فيتسنى له بذلك نسيان كافة مشاغله ، ويقوم برياضة بدنية بقدر ما تسمح به ظروفه . وهذه الفترة على قصرها ذات فوائد جمة للاستجمام واستعادة النشاط الجسماني والفكري واطمئنان النفس، ولقد أحس من تعودوها بهذه الفوائد بشكل ملموس محسوس . وقد اتبعتها أنا زهاء الثلاثين عاماً الأخيرة . كنت أذهب أولاً إلى الصحراء وأقيم وبعض الأصدقاء في خيمة أو ما يسمى (camping) ، فنقضي كل حاجاتنا بأنفسنا ، وعند ما ثبت لدي فوائدها استبدلتها ببيت خلوي يبعد عن القاهرة ثلاثين كيلومتراً ، ويقع على حافة الصحراء حيث تتصل بالمزارع ، وأتى هذا التبديل بفوائد أحسن وأفضل . وأشرت بذلك على كثير من مرضاي وأصدقائي . ومن اقتنع منهم بالفكرة واتبعها أشار بها على غيره فازداد عدد المخلصين لهذه الفكرة عند ما تبينت لهم فوائدها جلية.

الصحة والعافية أثمن شيء في الحياة . وليس يعرف قيمتهما إلا المريض . ولا تقتصر العناية بهما على الجسم . بل للنفس والفكر نصيب كبير فيهما . ومن أضنى نفسه بالكد والتحصيل أتعب صحته ونفسه . وإذا المرء لم يبعد عنه الهموم والمشاغل بفترات من الراحة فإنه يشعر بالملل والضجر . ولا يستطيع الإنسان الاستمرار في نشاطه إذا لم يجدد مجهوداته

الجسمية والفكرية بفترات من الراحة والاستجام . فالمجهد الذي أضناه التعب تعد الراحة له جزءاً هاماً من حياته وضرورة من ألزم الضروريات لعمله ، لأنها تهيء له فرصة استرداد نشاطه وما يتبع ذلك من حسن تصريفه أموره وأعماله ، إذ ليست قيمة الأعمال بكميتها وإنما بجودتها . فالعامل والكاتب ورجل العلم والمهن لا تقاس قدرته بكمية عمله بل بجمال ما ينتج وحسنه وإتقانه ، فإن كثر عمله الذي من هذا القبيل فخير زاد على خير، وفي طول العمر والمثابرة ما يحقق هذه الزيادة . وقد انتقد بعض كتاب الغرب وزراء دولته لنظرهم شؤوناً يؤثر البت فيها على أجيال عديدة حال أنهم منهوكو القوى نتيجة كثرة أعمالهم ووفرتها . وامتدح الإنجليز لتأنيهم في أعمالهم وأخذهم بأسباب الراحة والرياضة البدنية ترويحاً للنفس من عناء العمل .

ويتعين على رجال الفكر والسياسة وأرباب الأعمال أن يعلموا كيف يستريحون ويلهون ويتسلون عند ما يستحسن اللهو والتسلية ، وأن يستريحوا ويستجموا عند ما تستحسن الراحة والاستجام . وأن يكدوا ويعملوا في أوقات الجد والعمل . وأن لا يخلطوا بين هذا وذاك . وإنها لكفاية ممتازة أن يعرف المرء كيف يوازن بين هذه الأحوال ويفرق بينها ، بحيث لا يطغى أحدها على الآخر . ويجب الضن بأوقات الراحة والتسلية ، فلا نحولها إلى متاعب فكرية أو جسمية أو انفعالات نفسية قد تعيينا وتتعبنا أكثر من مشاغل أعمالنا .

أما الألعاب فيجب ممارستها بروح التسلية والترويح عن النفس ، لا بروح الجد ، لأنها إذا أضحت جدية عنيفة وتوافرت فيها الحماسة والغيرة والمشادة والانفعالات النفسية فإنها قد تنقلب إلى عكس المراد منها . فخسارة دور أو جولة لا أهمية لها إذا نظرنا إليها نظرة التسلية للابتعاد عن متاعب العمل . وللألعاب الرياضية المنظمة مثل الجولف والتنس والكريكيت وأمثالها من الألعاب ذات القواعد والأصول فوائد في المران على حب النظام ، حيث يجب في القيام بها مراعاة هذه القواعد والأصول واتباعها واحترامها، فتكون إذن ضرباً من ضروب المران على النظام والتسامح وسعة الصدر ، ويكون تأثيرها أوفى وأتم إذا ما بدئ بممارستها من الصغر بإشراف مدربين خبراء ، ولا يجب أن يخرج بها اللاعبون إلى عكس القصد منها. وقد أجمع غالبية علماء الاجتماع والتربية على أن الإنجليز إنما سادوا بفضل تدريبهم من الصغر على هذا النوع من الرياضة البدنية .

لكلّ ميله في الحياة ، ولكلّ نوع من الراحة والتسلية والاستجام محبب إلى نفسه يختلف باختلاف مزاجه . وليس ينبغي أن ينظر إلى جسم الإنسان كمجرد آلة

نريحها ، لأنه جسم له عقل ونفس وأعصاب ، وتعب الجسم تكفي فيه الراحة في الفراش كما تستريح الحيوانات ، بينما راحة الفكر والنفس والأعصاب شيء آخر ، يجب فيه التمشي مع ميول الناس واستعدادهم .

وليس ثمة ما هو أضر بالمرء من عدم اعتياده الاستفادة من فراغه في استرداد نشاطه والإقبال على عمله بصدر منشرح . وتظهر أهمية ذلك عندما يعتزل الإنسان العمل لسبب ما ، فمن لم تكن عنده عادة « التصرف في أوقات فراغه » ولا يجد بين يديه ما يشغل به فراغه اضطربت حالته الصحية والنفسية . ومن الناس من يتبع سياسة قتل الوقت أو بالأحرى إضاعته ، لعدم تعوده الاستفادة من وقته في شأن من شؤون الحياة ينفع به نفسه أو المجتمع .

وللقارئ أن يتساءل : لماذا لا تتخذ الهيئات الاجتماعية وسائل لخلق جيل جديد من النسل يكون سليماً كامل النمو والتكوين العقلي والجسمي ، خالياً من الشذوذ العقلي والاضطرابات العصبية وغيرها مما ذكر في هذا المقال ؟

والرد على ذلك يتلخص في أن الأمر ليس هيناً سهلاً . فالمعلومات التي اكتسبها الإنسان عن قوانين الوراثة والأبحاث التي أجريت عليها ظهر أثرها في تحسين نتاج الحيوانات الداجنة من طيور وماشية ، فحسنت أجسامها ولحومها وبيضها وصوفها ولبنها ونسلها عند ما طبقت عليها نتيجة الأبحاث ، وظهر أثرها أيضاً بالتهجين والانتقاء والاختبار في الزراعة ، فزرعت الأصناف الأكثر غلة فكثر الإيراد من الزراعة ، لأن ما يصرف على الأنواع الرديئة من الماشية أو النباتات وما يصرف على زراعة قطعة من الأرض من الأنواع الرديئة هو تقريباً نفس ما يصرف عليها عند ما تزرع من الأصناف الممتازة ، وفرق الإيرادين ظاهر واضح .

وقد أفادت الاحتياطات الصحية الوقائية والعلاجية الحديثة في منع الأمراض وشفائها ، وفي إطالة متوسط العمر وزيادة عدد الشعوب ورفاهيتها وكثرة إنتاجها الصناعي والزراعي والعلمي تبعاً لمقدرة سكانها البدنية والعقلية ، كما أثرت محاربة الخمور والموبقات وغيرها في النسل والصحة العامة . فمن منتصف القرن التاسع عشر ازداد التفكير شيئاً فشيئاً في زيادة رفاهية الإنسان وارتقائه بدنياً وعقلياً ونفسياً وثقافياً . ومن الثابت أن من حصلوا على قسط وافر من المال تمكنوا بفضله من توفير كل مستلزمات الحياة الراقية ، وأما من كان نصيبهم الفقر والحاجة فتعوزهم معونة المجتمع لانتشالهم من وهدة فقرهم وما يتبعها من سوء الصحة والغذاء والملبس والمسكن والجهل . ولقد أخذت

الحكومات والهيئات تعمل على تحسينها بكافة الوسائل ، فوضعت النظم والقوانين واللوائح وشكلت الهيئات لتنفيذ الأوامر الصحية ، ومراقبة الماء والغذاء والنظافة العامة ، وأقيمت المستشفيات والمستوصفات وأقسام لرعاية الحوامل والأطفال ، وأوجد العلم طرق الوقاية بالتطعيم ضد الأمراض المعدية ، وشيدت المساكن الصحية ، ووصلت المياه الجارية لداخل المنازل ، وأنشئت المجاري وما إليها . كل ذلك لتحسين صحة السكان وتجميل الوسط الذي يعيشون فيه .

ومن الجهة الاجتماعية وضعت قواعد للعمل ، نظمت مواعيده وحددت أجوره وعلاقة صاحب العمل بالعامل ، وجعل التعليم إجبارياً ، مما كان له أطيب الأثر في تحسين الصحة العامة ورفع مستوى المعيشة .

واتجه التفكير بعد ذلك إلى تحديد النسل وتحسينه . لأن الاحتياطات الصحية وما إليها قللت أو منعت كثيراً من الأمراض المعدية والوبائية وغيرها ، وتقدم الطب العلاجي فنجح في شفاء كثير من الأمراض التي لم يكن يرجى لها شفاء ، فازداد عدد السكان وكثرت المواليد وقلت الوفيات ، لا سيما بين الأطفال ، وخشي من قلة الموارد الغذائية المالية الكافية لسد حاجة هذا العدد المتزايد من السكان ، خصوصاً وقد ارتفع مستوى المعيشة وزادت تكاليفها .

وقد كانت الأسر المتوسطة فيما مضى قادرة على تربية أطفالها تربية تتناسب ومركزها الاجتماعي ، إلا أن زيادة تكاليف الحياة الحاضرة جعل في حكم المستحيل تربية عدة أطفال بمستوى اجتماعي وثقافي واحد . ولقد شعر الأفراد بكثرة المسؤوليات ، وخشيت الحكومات حصول أي تقصير أو إهمال في شأن من الشؤون ينتهي بالمستوى الاجتماعي والأخلاقي إلى الانحطاط على وجه العموم ، إذ قد تؤدي الحاجة إلى ما لا تحمد عقباه .

واتجه التفكير من جهة أخرى إلى أن الوسائل الصحية والتعليمية والاجتماعية بكل فروعها وملحقاتها وإن أثرت قليلاً أو كثيراً في بعض الأحوال العقلية والعصبية وأحوال الشذوذ والأمراض الوراثية إلا أن نجاحها ليس بالقدر الذي وصلت إليه في أمراض الجسم وأمثالها ، لأن مسألتها شائكة متداخلة في كثير من الشؤون الصحية والتعليمية والتهذيبية والاجتماعية والمالية والغذائية والبيئية والعرف والحرية الشخصية الفردية والعمومية ، وما يمكن أن تعامل به النباتات والحيوانات لا يجوز أن يطبق على الإنسان ، والإنسان له ضمير وشعور وأحوال نفسية وعقائد وغيرها . والوسائل المقترحة الممكنة التي لا يتعارض فيها مركز الإنسان مع المدنية الإنسانية بطيئة الأثر ، وقد

ابتدأ بعض الدول في تنفيذها ، فمنها انتقاء الزوج أو الزوجة من أفراد عائلة ليس بها أمراض وراثية ولا استعداد وراثي لأمراض جسمية أو عقلية أو عصبية مما نحن بصدده ، ومنها الفحص الطبي قبل الزواج وعلاج أي مرض موجود ، حتى لا ينتج عن زواج المرضى نسل ضعيف عرضة للأمراض والآفات. وبطء هذه الوسائل لا يظهر أثرها الحسن إلا بعد أجيال عديدة ، لأن للانسان حقوقاً وواجبات إنسانية مرعية الجانب يجب احترامها ، كما يجب أن تكفل له حريته الفردية والاجتماعية ، وتأبى أية هيئة اجتماعية مدنية محترمة أن تعامل أبناءها كما تعامل الحيوانات والنباتات .

ومن المؤسف أن الشعوب ليست كلها سواء في درجة الرقي والمدنية والثقافة لتقبل مثل هذه التعليمات ، وحتى إذا افترضنا مساواتها بعضها ببعض في رقيها وثقافتها فمن المشاهد أن لا يعتاد الإنسان نظماً جديدة مخالفة لما اعتاده إلا بعد فترة من الاقتناع ، تطول وتقصر حسب استعداد الشعوب والأفراد وعقليتهم والبيئة التي يعيشون فيها . وقد يمضي زمن طويل جداً قبل أن ينسجم كل أفراد شعب من الشعوب فيتبعوا جميعاً نظماً ومظاهر حيوية واجتماعية متشابهة . وهذا ما يجعل كل اتجاه نحو تحسين النسل وإصلاحه مسألة يجب السير فيها بكل حيطة واحتراس . وللتعليم والتربية والتهذيب ونشر الثقافة العامة بين طبقات الشعب ورفع مستواه أخلاقياً وعلمياً واجتماعياً أثر عظيم في تهيئة الشعوب والأفراد للأخذ بمثل هذه الإصلاحات الأساسية الجريئة .

ويتطلب هذا حذراً شديداً من ذوي الشأن ، ويقتضي تعاوناً من الحكومة بكل فروعها مع الهيئات المختلفة ومع الأفراد في مختلف الهيئات ، لأن ارتقاء الجنس البشري في كل صفاته وشؤونه هو الغاية التي تنشدها الإنسانية الصحيحة ، والإنسان النافع الصالح هو من انسجمت وتوافرت فيه قوة الجسم والعقل والخلق المتين ، وبرجاحتها ومتانتها يتفاضل الرجال .

سليمان عزمي

مأساة ملوكية شرقية غربية

(تابع) للأستاذ محمد عبد الله عنان

٥

سارت السفينة تحمل الأمير جم وصحبه ، في بحر عاصف ورياح معاكسة ، فوصلت إلى ثغر مسيني بعد شهر ، وكان الأمير مع ذلك يتمتع بمناظر البحر والبركان السحرية . وكان الشفاليه بلنشفور يحرص على كتمان أخبار الأمير ورحلته خوفا من ملك نابل ، إذ كان يهمه أن يحصل على الأمير بأي ثمن ، ولهذا عمد الشفاليه منذ دخلت السفينة في المياه الإيطالية ، إلى إطفاء الأنوار والتستر ، وما زال كذلك حتى وصلت السفينة إلى ثغر نيس بعد رحلة شاقة دامت ستة أسابيع .

وأنفق جم أياما في نيس، وكان الأمير المنكود أبعد من أن يدرك ما ينتوي الفرسان في شأنه . وكان يعتقد أنهم يعملون لتحقيق رغبته في السفر إلى أوربا . فلما استراح في نيس قليلا أبدى رغبتــه في متابعة سفره إلى الروملي ، حيث يحاول استئناف الكرة لاسترداد العرش . فاعترض الفرسان بأنه لا بد من موافقة ملك فرنسا ، وحملوا الأمير على أن يرسل من قبله رسولا ، هو خطيب زاده نصوح ، فسافر ومعه مندوب من الفرسان . بيد أنه لم يمض على سفره يومان ، حتى قبض عليه . ومضت أربعة أشهر والأمير مقيم في نيس يقطع وقته في نظم القريض، وكان مما نظمه يومئذ عدة قصائد رقيقة في الإشادة بجمال نيس خلدت اسمه في صحف الشعر التركي .

ووقع الوباء في نيس والأنحاء المجاورة . فانتهز الفرسان هذه الفرصة وساروا بالأمير من نيس إلى الداخل . وقضى أياماً في شامبري ثم أخذ إلى روسيون حيث توجد منطقة للفرسان ، وهنالك أقام فترة قصيرة ، وأرسل عندئذ رسولين من حاشيته متنكرين في ثياب أوربية إلى ملك المجر ليدرسا له طريق الفرار . ولـكن الرسولين لم يعودا قط وهرع سكان روسيون والأنحاء المجـاورة لرؤية ولد فاتح قسطنطينية في ثيابه الشرقية الزاهية . وجاء لزيارته دوق سافوا وهو صبي في الرابعة عشرة ، فبهر الأمير بحسنه وأهداه خنجراً دمشقياً محلى بالذهب ، وتركت زيارته في نفسه أثراً عميقاً .

وقطع الأمير بعد ذلك نهر الرون حتى « بي » وهنالك علم أن حسين بك سفير بايزيد قد مر بشامبر في طريقه إلى باريس ولكن لويس الحادي عشر ملك فرنسا كان قد توفي قبل ذلك بقليل ، فطلب جم رؤية السفير فلم يجب إلى طلبه ، وانتهز الفرسان هذه الفرصة ففرقوا بين الأمير وحاشيته ، وأخذ هؤلاء إلى ثغر إيج مورت وأرسلوا مع حسين بك إلى رودس . وكان حسين بك قبل مقدمه إلى فرنسا قد زار رودس ليؤدي معاش الأمير إلى الأستاذ الأعظم ، وحمل معه من السلطان إلى الفرسان قنية أثرية مقدسة وهي صندوق من الخشب الثمين مكسو بالحرير وفيه يد يوحنا الرسول ، وكانت حسبما تقول الأسطورة قد حملت إلى قسطنطينية منذ عصور وحفظت في دير بتريون فتسلمها الفرسان واحتفلوا بوضعها في كنيسة القديس يوحنا .

ولبث جم في معتقله في « بي » أشهراً يحرسه زهاء ثمانمائة من الفرسان ، ثم نقل إلى حصن يقع فوق ربوة عالية على مقربة من « ساسنج » . وهنا تقص علينا الرواية قصة غرام مؤثرة خلاصتها : أن ابنة صاحب قصر ساسنج فيلبين هيلين وهي فتاة رائعة الحسن هامت بالأمير حبا وهام بها ، وأخذا يتبادلان الرسائل الغرامية الملتهبة . ثم جرت بعد ذلك بين العاشقين مقابلات سرّية كثيرة كانا ينعمان خلالها بلحظات من السعادة . على أن هذه الرواية الغرامية المؤثرة لم يطل أمدها . ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل حتى أخذ الأمير إلى بورنيف ، وهي مسقط رأس الأستاذ الأعظم دوبوسون ثم نقل أخيراً إلى حصن بوكاليي الواقع على شاطىء البحر .

وهنا شعر الأمير أنه في سجن حقيقي . ذلك أنه أنزل في قلعة منيعة مكونة من سبع طبقات ، وخصصت له الطبقة الوسطى ، وخصصت الطبقات العليا لحراسه ، والطبقات السفلى لحاشيته . وكان الأستاذ الأعظم قد رد إليه حاشيته من رودس ، وأرسل إليه مع حاجبه سنان بك خطاباً رقيقاً يعده فيه بإطلاق سراحه . ولكن جم لم يكن ليؤمن بعد بمثل هذه الوعود الغادرة ، وكان يرى عندئذ أنه لا خلاص له إلا بتدبير الفرار المحكم . وقد أخذ يدبر بالفعل وسائل فراره مع جلال بك . وكان السفير حسين بك يعضد هذا المشروع ويعمل على نجاحه . وكان يطالب ملك فرنسا بتسليم جم إلى مليكه . ولكن عيون الفرسان كانت ساهرة ترقب كل حركات الأمير وسكناته ، وكان الأستاذ الأعظم يحرص على الاحتفاظ به أيما حرص ، ويراه مصدراً للدخل الوافر . والواقع أن دوبوسون كان رجلاً مظلم الضمير والخلال ، وكان يحاول جهده أن يستغل محنة هذا الأمير المنكود الذي ألقاه القدر إلى يديه ، حتى أنه لم يتورع عن التغرير بأمه

وزوجه اللتين بقيتا في مصر ، وأن يسلب منهما عشرين ألف دوقة بحجة إنفاقها على إعداد رحيله .

وكانت قصة جم قد ذاعت يومئـذ في سائر قصور أوربا وغدت شخصية الأمير الأسير مثار الاهتمام ، وعاملاً ذا شأن في توجيه الدبلوماسية الأوربية نحو الدولة العثمانية . وكان عدة من ملوك أوربا مثل ملك المجر وملك فرنسا وملك نابل يفاوضون دوبوسون في شرائه ، لكي يضعوه على رأس حملة تسير لمحاربة الترك . وكان الأستاذ الأعظم يعمل على استغلال هذه الرغبة بخبث ودهاء . ويقال إنه كان يستعمل في مفاوضاته رسائل بيضاء كانت ممهورة بخاتم الأمير حصل عليها بواسطة حاجبه ، وكان يملؤها بما شاء وكانت هذه الرسائل المزورة على لسان الأمير تدلي بالأخص بأنه يقيم لدى الفرسان بمحض إرادته ، ولم يكن سجيناً بالرغم عنه . ولـكن هذه الرسائل المصطنعة لم تخدع أحداً في حقيقة الأمر وكان أشد المتنافسين في استخلاص الأمير هما البابا وملك فرنسا ، وكان كل يحاول جهده أن يحصل عليه دون الآخر وهكذا طال أسر الأمير في فرنسا بضعة أعوام .

وأخيراً وافق شارل الثامن ملك فرنسا على نقل الأمير إلى إيطاليا وتسليمه إلى البابا ، وأوضح للفرسان ما يمكن أن يترتب على ذلك من الخير بالنسبة للنصرانية كلها ، واشترط ألا يخرج الأمير من رومة وأن يقوم بالسهر على حراسة الأمير خمسون فارساً فرنسياً ، وأن يدفع البابا إليه عشرة آلاف دوقة إذا سلمه لأية دولة أخرى ، وأما المعاش الضخم الذي كان يتقاضاه الأستاذ الأعظم من السلطان فقد عوض الفرسان عنه بعـدة امتيازات هامة ، وأنعم البابا على رئيسهم دوبوسون برتبة الـكردينال .

وهكذا لبث جم أسيراً في قبضة فرسان رودس منـذ التجأ إلى حمايتهم في يولية سنة ١٤٨٢ زهاء سبعة أعوام . بيد أنه لم يخرج من قبضتهم إلا ليقع في قبضة البابا . وفي نوفمبر سنة ١٤٨٨ (ذي الحجة سنة ٨٩٣ هـ) نقل الأمير مع حاشيته من ثغر طولون على سفينتين من سفن الفرسان فوصلتا إلى شفيتافكيا (ثغر رومة) بعد عشرين يوماً وأنزل أولاً في قصر فرنسيسكو كيبولو البابا في ضاحية رومة ، ثم دخل رومة في الثالث عشر من مارس سنة ١٤٨٩ (ربيع الأول ٨٩٤ هـ) يحيط به حرس البابا وبطانته ، ويتبعه حراسه الفرنسيون ثم كبير الأمناء والـكرادلة ونزل بقصر الفاتيكان .

وفي اليوم التالي قدم الأمير العثماني إلى البابا وهو يومئذ أنوسان الثامن . ومما يذكر أن جم أبي أن يخلع عمامته أو أن يثني ركبته أمام البابا احتفاظاً بكرامته وعزة أمته ودينه ، بل سار تواً إلى العرش البابوي وقبل البابا في كتفه وحيا الكرادلة بمثل هذه

التحية . ثم خاطب قداسته برصانة وإباء ذاكراً أنه ينضوي تحت حمايته . ثم قص عليه في مقابلة خاصة سيرة محنته وما يعانيه من فراق أمه وزوجه وولده ، ورجاه أن يعاونه على السفر إلى مصر . ويقال إن البابا تأثر لمحنة الأمير وآلامه أيما تأثر حتى أنه بكى لبكائه . ولكنه ذكر له أن سفره إلى مصر لا يتفق مع مشروعه ، وأن ملك المجر ينتظره بقواته عند حدود رومانيا ، وأنه يحسن به فوق ذلك أن يعتنق النصرانية فيظفر من ملوك النصرانية بكل تعضيد وعون . فأجابه جم أن ذلك يكون بمثابة حكم الإعدام عليه من فقهاء أمته ، وأنه لن يعدل بدينه عرش الدولة العثمانية كلها ، بل لن يعدل به ملك العالم بأسره ، فلم يلح عليه البابا وتركه وشأنه .

وأخذ البابا مذ حصل جم في يده يدبر الخطط للانتفاع بشخصه في تنظيم حركة صليبية جديدة بين الدول الأوربية لمحاربة الدولة العثمانية ، ويؤكد لمختلف الدول الأوربية أنه حصل على عهود وثيقة من الأمير العثماني بأنه إذا استرد عرشه فإنه يتخلى عن الولايات الأوربية ويعيد قسطنطينية إلى أوربا . وهنا شعر السلطان بايزيد بخطورة الأمر فأرسل إلى البابا سفيراً هو مصطفى بك ليقدم إليه في الظاهر بعض الآثار المنسوبة إلى السيد المسيح ، ولكن ليخاطبه سراً في شأن جم ، واستطاع السلطان أن يستثير أطماع البابا بأتاوة سنوية قدرها أربعون ألف دوقة يدفعها إليه معاشاً لجم بشرط أن يسهر على اعتقال أخيه وألا يسلمه إلى أية دولة أوربية أخرى [(١)] ويقال فوق ذلك إن بايزيد فكر في التخلص من أخيه فدبر رسله مؤامرة في رومة لقتله وقتل البابا وقبض في رومة بالفعل على شخص يدعى كرستفانو كاسترانو فاعترف حين العذاب بمشروع القتل المزدوج بتحريض السلطان [(٢)] .

والحقيقة أن الأمير المنكود لم يكن يفكر يومئذ في أية مشاريع سياسية أو عسكرية ، وكانت المحنة قد حطمت قواه المعنوية حتى أنه قصد إلى السفير التركي عند سفره وتضرع إليه أن يعمل لإنقاذه ، وأن يؤكد لأخيه إخلاصه وخضوعه المطلق .

وقضى جم في بلاط أنوسان الثالث ثلاثة أعوام ، ونقل في أواخر عهده إلى حصن سنت أنجلو الشهير في وسط رومة ، وشدد في حراسته . فلما توفي البابا أنوسان وخلفه البابا اسكندر السادس في أغسطس سنة ١٤٩٢ أعيد الأمير إلى قصر الفاتيكان .

وكان البابا إسكندر السادس أردريجو بورجيا من أقوى البابوات الذين جلسوا

---

(١) جيشارديني Guicciardini وهو مؤرخ إيطالي معاصر في « تاريخ إيطاليا » الكتاب الأول الفصل الرابع. (٢) فون همر : تاريخ الدولة العثمانية ج ٣ الكتاب التاسع عشر .

على عرش القديس بطرس وأشدهم دهاءً وجرأة وجشعاً . وكانت أطماعه ومشاريعه الدنيوية والشخصية هي التي توجه سياسته قبل كل شيء ، فكان الفاتيكان يبدو في عهده كبلاط القياصرة بذخاً وفخامة وبهاء . وليس هنا مقام الإفاضة في سيرة هذا الحبرالجريء، ويكفي أن نشير إلى ما تحفل به سيرته وسيرة آل بورجيا قاطبة من صنوف المغامرات والآثام التي روعت رومة وروعت إيطاليا طوال أيامه .

رأى إسكندر السادس في الاحتواء على شخص الأمير العثماني مورداً ذهبياً لا ينضب ، وسرعان ما دبر خطته لاستغلاله على طريقته ، وحاول أن يغنم ثقة الأمير وحبه ، فأبدى نحوه عطفاً وليناً وخفف من قيود اعتقاله . وكان الأمير كثيراً ما يرى في ركب البابا في نزهاته أو في المواكب الدينية الرسمية مرتدياً ثيابه الشرقية البديعة التي حملت بنتوريكيو أعظم مصوري العصر على تصويره .

وأرسل البابا إلى السلطان سفيراً يعقد معه أواصر السلم والمودة ، ويعرض عليه الاستمرار في اعتقال جم مقابل الإتاوة السنوية وقدرها أربعون ألف دوقة ، أو يدبر إزهاقه مقابل ثلاثمئة ألف دوقة تدفع مرة واحدة (١) . وينوه البابا بحاجته إلى المال للمعاونة في الاستعدادات العسكرية نظراً إلى ما يعتزمه ملك فرنسا من غزو إيطاليا وغزو نابل ثم التحول بجيوشه لغزو قسطنطينية . فأدى المبعوث البابوي سفارته بنجاح ، وعاد ومعه مبعوث السلطان قاسم بك يحمل إتاوة السنتين الماضيتين « ثمانين ألف دوقة » ولكنهما ما كادا يغادران ثغر أنكونا في طريقهما إلى رومة حتى هاجمتهما عصابة مسلحة أعدها خصوم البابا ، ففر قاسم بك تاركا حمله الثمين ، وقبض على مبعوث البابا وضبطت معه رسالة من السلطان إلى البابا يقترح عليه فيها « أن يعمل على خلاص جم من مصائب هذه الدنيا » نظير مكافأة قدرها ثلاثمئة ألف دوقة ، ويؤكد له الولاء والمحالفة الدائمة . ويختلف المؤرخون في صحة هذه الوثيقة . بل يشك بعضهم في صحة هذا المشروع كله ، ويرى أنه بفرض صحة هذه الرسالة التي أرسلها السلطان إلى البابا فإنها لا يمكن أن تنهض حجة على إسكندر السادس ، وليس هنالك ما يدل على قبوله أن يعمل بما فيها . (٢)

وفي ذلك الحين وصل شارل الثامن ملك فرنسا إلى إيطاليا على رأس جيش ضخم (سبتمبر سنة ١٤٩٤) ، واجتاح الفرنسيون شمال إيطاليا بسرعة ، ودخلوا رومة في

---

(١) فون همر : المرجع السابق

(٢) برتليوتي : آل بورجيا (الترجمة الإنجليزية) ص ٧٩

نهاية سنة ١٤٩٤ . ففر البابا إلى حصن سنت أنجاو وأخذ معه الأمير جم ، ولكنه مالبث أن تفاهم مع شارل الثامن على معاهدة سلم وصداقة ، وكان مما اشترطه شارل أن يسلم إليه البابا الأمير التركي ، وكان بعض بطانة ملك فرنسا يصور له أهمية الحصول على جم فى صور مغرقة ، ويؤكد له أنه يستطيع أن يتخذه وسيلة ناجعة لغزو الدولة العثمانية . وفي المقابلة التي تمت بين البابا وشارل سأل البابا الأمير التركي هل يريد أن يتبع ملك فرنسا أو يفضل البقاء إلى جانبه ؟ وكان جواب جم أنه لا يعامل كأمير ، بل يعامل كأسير لا إرادة له ، وسيان عنده أبقي في رومة أم تبع الملك . فاعتذر إليه البابا وأكد له أنه لا يعتبره إلا أميراً يستحق كل تكريم ، ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى سلم البابا أسيره إلى شارل الثامن ، فعهد فيحراسته إلى المارشال الأكبر . وفي الغد سار جم في ركب ملك فرنسا وإلى جانبه شيزاري بورجيا ، ابن البابا الذي اشترط شارل أن يسير معه كرهينة . وبقي الأمير في فُلتّيري بضعة أيام شهد خلالها الوقائع الدموية التي وقعت بين الفرنسيين وجيش نابل « نابلي » ودخل شارل الثامن نابل في ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٥ ومعه الأمير التركي . أما شيزاري ابن البابا فقد استطاع أن يفر أثناء الطريق .

وقد رأينا كيف قبض على مبعوث البابا إلى السلطان حين عودته إلى إيطاليا ، وكيف سلبت الإتاوة الضخمة التى كانت مرسلة من السلطان إلى البابا معاشاً لجم . وكان تدبير هذه الضربة من آل روفيري خصوم البابا وزعيمهم الكردينال مجليانو ، الذي تولى البابوية بعد إسكندر السادس باسم يليوس الثاني ، ولم يستطع البابا أن ينتصف لنفسه من خصومه ، إذ كان يحميهم ملك فرنسا . وهنا يتقدم الاتهام ضد إسكندر السادس خطوة أخرى ، فيقول لنا : إنه — أي البابا — لما رأى جم على وشك الإفلات منه ، وأنهسوف يخسر معاشه بذلك الضخم ، فكر في أن يتلافى هذه الخسارة بضربة حاسمة . ألم يعده السلطان بثلاثمئة ألف دوقة إذا استطاع أن يدبر إزهاق جم ؟ ولقد كان إسكندر السادس بطل هذه المشاريع المظلمة ، وفي أنباء العصر ما يدل على أن كثيراً من الوفيات الفجائية الرنانة التي كانت تقع يومئذ في رومة لم تكن إلا من صنع آل بورجيا . ولقد كان الأمير العثماني ضحية سهلة ، ويميل كثير من الروات المعاصرة والمتأخرة إلى اتهام البابا وينسب إليه الإقدام على تدبير هذه الجريمة . وتتفق المصادر الإيطالية والعثمانية التي تؤيد هذا الاتهام على أن إسكندر السادس لجأ في تحقيق مشروعه إلى السم الذي اشتهر آل بورجيا باستعماله . وكان هذا السم عبارة عن مسحوق أبيض يمكن أن يكون صاعقاً أو بطيء الأثر ، وفقاً للكمية التي تعطى منه . وتقول الروايات الإيطالية : إن البابا أوعز

بإعطاء جم مقادير صغيرة متتابعة من هذا السم ، وكان يمزج بالسكر الذي يستعمله . ولما سار جم في ركب شارل الثامن كان إلى جانبه شيزاري ابن البابا يتابع إعطاءه الجرعات المهلكة . وتقول الروايات العثمانية مع اتفاقها على استعمال السم : إن الأمير قتل بطريقة أخرى وهي أن حلاقه مصطفى ، وهو رومي الأصل ، جرحه بموسى مسمومة ، وأن مصطفى المذكور حظي فيما بعد عند السلطان بايزيد ، حتى رفع إلى رئاسة الوزارة باسم مصطفى باشا (١) .

وعلى أي حال فقد وصل الأمير المنكود إلى نابل متعباً منهوك القوى ، ولم يطل به المقام هنالك سوى يومين ، والظاهر أنه كان يشعر بدنو أجله ، ويقال إنه قبيل وفاته بدقائق قليلة دعا ربه « بأن يعجل بموته إذا كان أعداء الدين يريدون استخدامه في مشاريع ضارة بالمسلمين والإسلام » .

وفي ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٤٩٥ (٢٩ جمادى الثانية سنة ٩٠٠ هـ) توفي جم ابن السلطان محمد الفاتح في منفاه بعيداً عن الوطن والأهل ، فتولى غسله حاجباه سنان بك وجلال بك ، وصليا عليه صلاة الجنازة . وأسف ملك فرنسا على فقد أسيره الأمير أشد الأسف ، وأمر أن يحنط جسمه ، وأن يدفن مؤقتاً في جايتا ضاحية نابل ، وتولى حراسة قبره جلال بك وإياس بك . وعهد شارل في متاع الأمير المتوفي إلى خطيب زادة أخلص خدمه ليحمله إلى أمه في مصر ، ولكن خطيب زادة لم يسافر إلى مصر ، بل سافر إلى القسطنطينية . وسافر سنان بك في الوقت نفسه متنكراً لينبيء السلطان بايزيد بمصير أخيه المحزن .

تلك هي الرواية الذائعة عن مصرع الأمير جم ابن السلطان محمد الثاني ، وهي رواية يؤيدها كثير من المؤرخين المعاصرين والمتأخرين ، ويؤيدها فون همر أعظم مؤرخ أوربي للدولة العثمانية . ومن الصعب إزاء هذا التأييد أن نلتمس إيضاحاً آخر لتلك المأساة الشهيرة ، والظاهر أن دوائر الفاتيكان كانت تشعر يومئذ بما وجه إلى البابا من ريب قوية في هذا الشأن ، فأذاعت أن وفاة الأمير ترجع إلى اضطراب هضمي مستمر . ومن جهة أخرى فإن بوركارت مدير التشريفات البابوية ، وهو راوية معاصر ، يردد في مذكراته ما زعمته دوائر الفاتيكان يومئذ من أن الذي عجل بموت الأمير هو انهماكه في الشراب والملاذ الجنسية وعدم ملاءمة الحياة التي يحياها لطبيعته ومزاجه (٢) .

---

(١) فون همر : المرجع السابق

(٢) برتابوني : المرجع السابق ذكره ص ٨١

واستقبل السلطان بايزيد نبأ وفاة أخيه بأسف وارتياح معاً . وقد لبث أعواماً طويلة يرقب مصايره باهتمام وجزع ، ويخشى أن تسفر الدسائس التي تحيكها من حوله أوربا النصرانية عن صدع بنيان الدولة ووحدتها . وحقق بايزيد وصية أخيه عند موته بأن يدفن في أرض الإسلام ، فأرسل إلى فردريك الأرجوني ملك نابل سفيراً يطلب رفات أخيه ، وحملت رفات جم إلى غاليبولي ، ثم نقل من هناك إلى بورصة ، ودفن في قبر جده مراد الثاني .

هكذا كانت حياة جم ابن محمد الفاتح ، وهكذا كانت خاتمته : حياة أمير ذكي طموح رقيق الخلال ، ولكنه ضعيف العزم هائم النفس ، دفع به القدر حدثاً إلى معترك السياسة ، فهزم منذ الجولة الأولى . ثم ألقى به إلى قبضة أعداء أمته ودينه ، فقضى في الأسر ثلاثة عشر عاماً ، هائماً شريداً تتقاذفه القصور المختلفة ، وتضطرم من حوله الدسائس الغادرة والأهواء الوضيعة ، وشهوة الأثرة والجشع . ثم مات فتى لم يجاوز السادسة والثلاثين ، شهيد الغدر والغيلة ، شهيد أطماع أخيه ودسائس عصره السياسية والدينية .

بيد أنه إذا لم تكن حياة جم المؤسية قد خلدته في ثبت الملوك والعظماء ذوي السلطان ، فقد خلدت آثاره الشعرية الرقيقة ذكراه في وطنه وفي النظم التركي ، وتركت محنته ذكريات مؤثرة في فرنسا التي كان يحبها والتي نظم في محاسنها كثيراً من قصائده البديعة . وقد كان من رفاقه في المحنة شاعران اشتهرا مثله ، هما حيدر وزيره ، وسعدي دفترداره ، وقد ترك كلاهما ديوان شعر غنائي ، ولازمه سعدي بالأخص خلال أدوار حياته كلها ، وهو الذي كان يعني بجمع قصائده وترتيبها ، بيد أنه هلك قبل سيده بقليل في ظروف مؤثرة ، إذ ضبط حين كان يقوم لسيده بمهمة سرية لدى بعض زعماء الإنكشارية ، وألقي إلى البحر . وكان اجتماع هذا الثالوث الشعري في صعيد واحد ، وفي ظل المحنة وآفاق الغربة ، أكبر عامل في تفتح هذه الأزاهير الشعرية العطرة التي تركها لنا الشعراء الثلاثة .

(انتهى) محمد عبد الله عنان

الدستور الاقتصادي لتحرير الشرق العربي

للدكتور راشد البراوي

مقدمة تاريخية

سرى الضعف في جسم الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن الذي تلاه ، ودعا الغرب الدولة « بالرجل المريض » ، ومعنى المرض في عرف الاستعمار أن ينتهي بالموت وتقسيم الميراث . وحدثت عمليات بتر خلال القرن الماضي وأوائل الحالي انتهت بضياع كافة ممتلكات الدولة في أوربا وإفريقية ضياعاً تاماً أو من الوجهة العملية . أما ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا فقد نجت مؤقتاً ، لأن أطباء الاستعمار لم يستقروا على رأي للتخلص من المريض ، فكان الروس يرون الإجهاز عليه بضربة واحدة ، فيحين آثر الإنجليز الانتظار حتى يحين الوقت المناسب . غير أن الحرب العالمية الأولى أدت إلى هزيمة تركيا ، كما خرجت روسيا بعد ثورتها في عام ١١٧ من عداد حلفاء الغرب ، وإذن توافرت الفرصة للأطماع الاستعمارية كي تتحقق . فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، والعراق وفلسطين وشرق الأردن صارت من نصيب إنجلترا : فالعراق قريب من إيران الواقعة على الطريق إلى الهند . وهو غني بموارده الكامنة ، فإذن يستطيع الاستعمار البريطاني أن يحصل على حاجته من المواد الأولية ، وأن يمده بالسلع المصنوعة والآلات ، وأن يستثمر فيه رؤوس أموال طائلة بربح أو عائد لا يتسنى الحصول عليه في إنجلترا نفسها . وأما فلسطين وشرق الأردن فيتحكمان في القسم الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ويحميان الجهة الشرقية من قناة السويس ، وفي فلسطين نفسها موارد لها أهميتها ، وبخاصة تلك الثروة الكامنة في البحر الميت والمرتفعات ، كما تدل على ذلك الإحصائيات المختلفة .

ولما كان الأساس الحقيقي للاستعمار اقتصادياً في جوهره ، لهذا نرى من الضروري أن تحارب الأمم العربية الاستعمار الغربي بالوسائل والأساليب الاقتصادية ، وأن تضيق عليه الخناق ، فلا يجد فيها منفذاً لبسط سيطرته . وسنحاول أن نعرض لهذه الوسائل بالإيجاز الذي يتفق والحيِّز المعتدل المعقول الذي تسمح به صفحات « الكتاب » .

مشكلة رأس المال الأجنبي وتنظيمه

إن تصدير رؤوس الأموال من الدول المستعمِرَة من القواعد الأولية التي يقوم عليها الاستعمار ، وتقدم هذه الأموال على هيئة قروض للحكومات ، كما حدث مع مصر في النصف الثاني من القرن الماضي ، فلما ارتبكت أحوالها المالية انتهى الأمر بالإشراف المتستر عليها أولاً ، ثم بالاحتلال السافر ثانياً . وفي هذه الحالة يتعين على الحكومات العربية أن تمتنع عن الاقتراض من الدول الأجنبية ، وبخاصة الدول ذات الأطماع الاستعمارية في الشرق العربي . وإذا ما اضطررنا إلى الاقتراض من الأجانب فينبغي التدقيق الشديد ومراقبة شروط التعاقد ، وأن يكون القرض في حدود مقدرتنا المالية ، وأخيراً وهو الأهم أن لا نلجأ رسمياً إلى هذا السبيل إلاّ في حالة الضرورة القصوى وبعد استنفاد كافة الوسائل الأخرى القومية للحصول على المال .

ومن جهة أخرى ترد رؤوس الأموال الإنجليزية والفرنسية لاستثمارها في استخراج موارد الثروة الكامنة وإنتاجها ، فلا تلبث أن تسيطر على حياة البلاد الاقتصادية . ففي العراق مثلا نجد حق استخراج زيت البترول قد منح لشركة الزيت العراقية ، وهي مؤسسة دولية يسهم فيها رأس المال الإنجليزي بنصيب كبير ، ولشركة آبار الزيت في الموصل حق استغلال هذه المادة في جميع أراضي العراق الواقعة غرب نهر دجلة وشمال خط عرض ٣٣° شمالاً وفي شبه الجزيرة العربية تتولى المؤسسات الأمريكية استخراج زيت البترول ، ولا شك أن رأس المال الإنجليزي لن يسمح راضياً بهذه القسمة أو بهذا الاحتكار . وفضلاً عن هذا فالحياة المصرفية تتحكم فيها الرأسمالية الاستعمارية ، ولكننا نعلم تمام العلم أهمية المصارف في السيطرة على حياة البلاد الاقتصادية ، لأنها هيئات احتكارية قوية . فإذا نظرنا إلى العراق ألفينا المصارف الرئيسية هي البنك العثماني وبنك إيران الإمبراطوري والبنك الشرقي ، وهذه جميعها مؤسسات أجنبية بغض النظر عن أسمائها . وينطبق الحال نفسه على سوريا وفلسطين ، ففي الأخيرة مثلاً أهم المصارف هي بركليز والبنك الفلسطيني الإنجليزي والبنك العثماني ، ولها فروع في كافة المدن الكبرى ، وهي تمثل رؤوس الأموال الإنجليزية بوجه خاص ، وقد بلغت قيمة الودائع فيها ١٤ر١٩٤ر٥٥٢ من الجنيهات الفلسطينية وذلك فى نهاية شهر أغسطس من عام ١٩٣٨ .

فما الذي يتعين على الحكومات العربية عمله إزاء هذه الحالة المزعجة ؟ يجب على هذه الحكومات أن تتبع في أقرب وقت الأساليب الآتية :

(ا) فصل نظمها النقدية عن نقد أية دولة أجنبية ، وينبغي أن يكون بنك الإصدار قومياً من حيث رأس ماله وسياسته وأحواله الداخلية واحتياطيه وموظفوه . وفي رأينا أن هذه الناحية هي أول ما يجب الاهتمام به .

(ب) العمل على تعريب المؤسسات الصناعية والمالية الأجنبية ، وذلك عن طريق التشريع وبإقدام أهل البلدان العربيـة على استثمار أموالهم في هذه النواحي . ولا عبرة بما يحتج به البعض من الصعاب السياسية أو الفنية ، فنحن ممن يؤمن بإمكان التنفيذ إذا توافرت عناصر الإيمان والإخلاص والجرأة والعزم الصادق .

(ح) الامتناع بتاتاً عن التصريح بإنشاء مؤسسات أجنبية أو فروع لها . وهنا نود أن ننبه إلى ما تلجأ إليه الدول الأجنبية من حيلة الاشتراك مع العرب فى مؤسسات اقتصادية ، فلا يمضي زمن طويل حتى يكون لهؤلاء الأجانب السيطرة الفعلية عليها ، ويعظم خطر اشتراك الأجانب في المشروعات الرئيسية من أنهم يبسطون سـلطانهم على المشروعات الأخرى الثانوية ، وذلك عن طريق « نظام القبض » Holding system ، إذ من المعلوم أن باستطاعتك بمليون واحد من الجنيهات أن تسيطر على أضعافه المضاعفة بواسطة هذا النظام .

(ء) تشجيع إنشاء المشروعات ذات الطابع العربي المشترك ، أي التي تسهم فيها رؤوس الأموال من مختلف البلدان العربية ، وهـذا يزيد من قوة هذه البلدان إزاء الاستعمار ، كما يعمل على تقوية الوحدة الاقتصادية فيما بينها .

(هـ) عند إنشاء مؤسسات قومية ، كبنك مصر مثلاً ، يجب أن يحرَّم على الأجانب الاشتراك فيها ، حتى ولو كان هؤلاء الأجانب ممن أقاموا عهداً طويلا فى هذه البلدان العربية ، ولـكنهم لم يعتنقوا جنسيتها .

(و) الامتناع بتاتاً عن تجديد امتيازات الشركات الأجنبية إذا انتهى ميعادها . ويتعين علينا مراقبة الشركات القائمة ، فإذا لمسنا منها إخلالا بشروط الامتياز أو استبداداً بالجمهور بادرنا إلى محاسبتها بشدة وإلغاء ما لها من حقوق أو امتيازات .

(ز) إلى أن يتم ذلك ، ويجب أن يتم سريعاً ، ينبغي لـكل حكومة عربية أن تصدر التشريع اللازم الذي يحتم على المؤسسات الأجنبية الاقتصادية الحصول على ترخيص باستخدام الموظفين والعمال الأجانب ، كما يتعين تطبيق ذلك على المؤسسات العربية القومية ، حتى لا تفتح أبوابها فيسيطر الأجانب على مجالس

إدارتها والوظائف الرئيسية بها ، وبالتالي على سياسة هذه المؤسسات . ومن الضروري أن يعاد النظر في امتيازات المؤسسات الأجنبية القائمة ، بحيث تقصر وظائفها على الوطنيين إلا في حالة الضرورة القصوى ، أي حيث لا يتوافر العنصر الوطني الصالح من الوجهة الفنية ، على أن يكون ذلك بصفة مؤقتة . وأخيراً على الدول العربية أن تحذو حذو تركيا ، فتحرم على غير الوطنيين الاشتغال في حرف معينة ، كقيادة السيارات وبيع الصحف إلخ ، كما أنه من اللازم أن نبدأ فوراً بإرغام الأجانب على استعمال اللغة العربية في سجلاتهم ودفاترهم ولافتات محالهم ومنشآتهم ، فإن هذا من نواحي الكرامة التي لا ينبغي مطلقاً التساهل بشأنها .

تحرير التجارة الخارجية وتنشيط الصناعة

ننتقل الآن إلى نقطة أخرى لها أهميتها ، ونستخلصها من الإحصائيات الخاصة بالتجارة الخارجية . فقد كانت صادرات العراق إلى المملكة المتحدة ٤١٦ر٥٧٤ جنيهاً (١٩٣٤) ، فزادت إلى ٢ر٤٦٧ر٥١٧ (١٩٣٦) وإلى ٢ر٧٣٤ر٤٥٥ (١٩٣٨) . وكانت صادرات المملكة المتحدة إلى العراق عبارة عن ١ر٦٥٥ر٨٧٠ من الجنيهات (١٩٣٤) ، ١ر٩٣٥ر٠٩٤ (١٩٣٦) ، ٢ر٤٢٠ر٧٢٦ (١٩٣٨) . ومن الطبيعي أن تشغل التجارة مع فرنسا المركز الأول بالنسبة إلى القطرين الشقيقين سوريا ولبنان ، كما يتضح من التوزيع التالي لعام ١٩٣٧ (بألوف الجنيهات السورية) :

الواردات من فرنسا ٧ر١٧٢ ، بريطانيا العظمى ٥ر٩٩٣ ، الولايات المتحدة ٣ر١١٦ ، إيطاليا ٣٠٩٣ إلخ .

وصادرات القطرين إلى فرنسا ٨ر٢٣٥ ، وأعلى رقم في هذا البند هو الخاص بالصادرات إلى فلسطين . فما الذي تدل عليه هذه الأرقام بوجه عام ؟ إنها تدل على أن الدولتين المنتدبتين ، أو المستعمرتين بمعنى آخر ، عملتا بوسائلهما المباشرة وغير المباشرة على أن تجعلا بلدان الشرق العربي في حالة اعتماد عليهما من الوجهة التجارية . وإذا شئنا التوسع في التعبير قلنا : إنهما تحملان هذه البلدان على اتباع سياسة تجارية تنسجم مع مصلحتهما ، وإن حاولتا التستر على هذه الحقيقة . وهنا نتساءل : ما الذي يجدر بنا عمله إن شئنا استقلالاً حقيقياً صادقاً ؟ الجواب هو أن تعمل الشعوب منفردة ومجتمعة على اتباع سياسة إزاء الأجانب لا ترعى فيها إلا مصالحها أولاً ؛ وعليها

أن تحذر التقيد بمعاهدات اقتصادية تكسب دولة معينة أية امتيازات مهما كانت بريئة في مظهرها .

ولكن الصورة التي تقدمها الإحصائيات لا تكون وافية إذا أغفلنا أمراً آخر له خطورته ، وهو أن جانباً كبيراً مما تصدره إنجلترا وفرنسا هو سلع مصنوعة من آلات ومنسوجات . وهذا خطر جسيم ، لأنه يحطم الحرف اليدوية القومية من جهة ، ومن جهة أخرى — وهذا في غاية الأهمية — يحول دون قيام الصناعة الآلية الحديثة ، في أقطار الشرق العربي ، مما يدل دلالة واضحة على أن الدول الاستعمارية حريصة كل الحرص على أن يحتفظ الشرق بطابعه الزراعي والرعوي القديم ، وهذا يفسر لنا الاهتمام الكبير في العراق مثلا بتنمية المشروعات الزراعية بنوع خاص وتأييد الساسة والكتاب البريطانيين لهذا الاتجاه . ولا شك أن العمل على تمسك الشعوب العربية بالزراعة وحدها معناه عدم ازدياد الثروة بنسبة سريعة ، ومعناه بقاء مستوى المعيشة منحطاً ، وهو ما نلمسه واضحاً مع الأسف الشديد . وأكثر من هذا : لقد رأينا الإدارة الفرنسية تصدر قرارين قبل الحرب بسنوات قلائل ، تحتم الحصول على ترخيص باستيراد الآلات اللازمة لصناعة الحرير فى لبنان ، بحجة العمل على موازنة الإنتاج والاستهلاك ، وهوعذر يخفي في طياته جوهر السياسة الفرنسية .

إزاء هذا يجب على الأمم العربية أن تبذل غاية جهدها في تنمية أصلح الصناعات التي يرجى لها الرواج والاستقرار ، ومنحها المساعدات الضرورية ، حتى تقف في وجه المنافسة الأجنبية ، على أن يراعى الاعتماد على رؤوس الأموال من القطر نفسه ، وإذا لزم الأمر فمن الأقطار العربية الأخرى التي يتوافر فيها فائض من رأس المال في ناحية من النواحي . ويحسن بهذه الأقطار أن تنظم سياستها الصناعية ، بحيث تمتنع المنافسة فيما بينها دون فائدة ، وبهذا يمكن أن تخلق من بلدان الشرق العربي وحدة صناعية . ولا شك في أن هذه البلدان تستطيع أن تستثمر مواردها الأولية فيما يلزم للصناعات الناجحة بالتعاون والمشاركة القائمة على أساس المساواة في الحقوق والواجبات . ويجب أن تكون نهضة الشرق العربي الصناعية بخاماته وعماله وأمواله واختصاصييه ما كان السبيل إلى ذلك مستطاعاً ، إذا استعانت مصر مثلاً بالاختصاصيين من سوريا فليس هذا باستعمار ، وإنما الاستعمار أن تلجأ لبنان إلى فرنسا أو العراق إلى إنجلترا خاصة .

التعاون الجمركي والمقاطعة الاقتصادية

ومن المسائل الأولية تنشيط التجارة بين دول الجامعة العربية وتفضيل منتجات أعضائها على منتجات الدول الأجنبية ، وبخاصة إذا تساوت معها في الجودة وانخفاض السعر ، وتحقيق هذا يتطلب أمرين : أولهما إنشاء نوع من الاتحاد الجمركي ، على أن يراعى فيه أن يحول بقدر الإمكان دون المنافسة التي لا جدوى منها ، ولكن يراد به مثلاً تشجيع صادرات مصر إلى زميلاتها في الجامعة مع معاملة الأخيرات بالمثل ، وهكذا .

ولعل هذه الخطوة تنمو وتتطور فتجعل من دول الجامعة وما ينضم إليها وحدة جمركية واحدة . وثاني الأمرين : اتخاذ سياسة جمركية متشابهة إزاء البلاد الاستعمارية خصوصاً ، وهذا يجعل في أيدينا سلاحاً ماضياً نستطيع أن نحمل به المستعمرين والطامعين على احترام استقلالنا . وهنا مسألة نود أن ننبه إليها ، وهي سلاح المقاطعة الاقتصادية الذي يجب أن تعرف شعوب العرب كيف تستخدمه ، فإذا حدث اعتداء من إنجلترا مثلاً على مصر أو من فرنسا على سوريا أو غيرها ، تعاونت جميع بلدان الشرق العربي على مقاطعة الدولة المعتدية حتى تضيق من غيّها . ولا عبرة بما يقال من استحالة ذلك ، فالمستحيل في نظرنا لا وجود له إلاّ في عقل الجبناء .

الهجرة الأجنبية

إن البلاد العربية مزدحمة بسكانها ، أو قل إن بعضها قد ازدحم فعلاً . لهذا نجد من الضروري والأساسي أن نضع القيود الشديدة في وجه هجرة من لا نستفيد منه ، أو من تكون هجرته إلى بلادنا خطراً مادياً أو أدبياً على كياننا ووحدتنا . وليس في هذا الاقتراح تعسف ، ولنا أسوة بدول أمريكا وبأستراليا حيث يُدقق كثيراً في هجرة الأسيويين .

✡✡✡

هذا بعض ما نراه في هذا الموضوع ، لم نعرض فيه إلا للمسائل العامة ، تاركين التفصيل عند التنفيذ ولمن يُقدّر له القيام به . ونحب أن نؤكد أن الإخلاص والعزم شرطان ضروريان للنجاح على أن نجعل من البلدان العربية وحدة اقتصادية ذات كيان فعلي مجسم ، فتصبح هذه الدول قوة لها أثرها في سياسة العالم ؛ كما أن الوسائل التي اقترحناها تسدد ضربة قوية إلى الاستعمار وتقوّض صرحه الآخذ في الانهيار والتداعي .

راشد البراوي

الطراز الأموي في الفنون الإسلامية

للدكتور زكي محمد حسن

العمائر الدينية

قامت في الأقاليم الإسلامية المختلفة ، وفي عصور التاريخ الإسلامي الطويل طرز فنية منوَّعة في جزئياتها ، متشابهة في مجموعها . فالتنوع في الجزئيات راجع إلى اختلاف الأساليب الفنية القديمة في كل إقليم ، وإلى افتراق المؤثرات الخارجية على الفنون الإقليمية ، وإلى تطور هذه الفنون بمرور الزمن وتغير الأسرات الحاكمة . أما التشابه في المجموع فأساسه الاشتراك في العقيدة الإسلامية التي جعلت المسلمين إخوة وقضت على معظم الفروق في الأجناس والأوطان ، وأساسه كذلك انتشار القرآن في العالم الإسلامي باللسان العربي المبين ، وسيادة الخط العربي بين سكان الأمم الإسلامية ، ونظام المجتمع فى ديار الإسلام ، وما كان يميزه من الحج والرحلات وتبادل الفنانين ونقل السلع والتحف من إقليم إلى آخر .

وأول تلك الطرز الفنية وأقدمها الطراز الأموي . ازدهر في عصر بني أمية في القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، وكان طرازاً « إمبراطوريًّا » شمل ديار الإسلام كلها ، ثم قامت الدولة العباسية ؛ ولكن انفصلت عنها الأندلس في منتصف القرن الثاني (٧٥٠ م) وقامت فيها دولة أموية غربية ، ظلت تحكمها إلى سنة ٤٢٢هـ (١٠٣١م) وكان الفنيون الأندلسيون في عصرها يحتفظون بمعظم الأساليب الفنية التي عرفها المسلمون في عصر الدولة الأموية الشرقية ، كما سنبين — إن شاء الله — فى المقال الذي نعقده للكلام على الطراز الأموي الغربي .

وقد كان استيلاء بني أمية على الخلافة وانتقال عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة والكوفة إلى دمشق خاتمة لعصر الخلفاء الراشدين ، الذي غلب فيه على المسلمين تجنب البذخ والترف . وأصبح الخليفة الأموي أشبه شيء بملك أو إمبراطور يسيطر على دولة مترامية الأطراف ، ويعتز بجنسه العربي وبملكه وبأسرته اعتزازه بالإسلام الذي استطاع العرب بفضله تأسيس دولتهم العظيمة .

وعاش الأمويون في الشام ، حيث ازدهرت من قبلهم مدارس من الفنون الإغريقية

والهلنستية والمسيحية الشرقية، والتي تأثرت ببعض الأساليب الفنية الساسانية بحكم الجوار. وطبيعي أن المسلمين في سورية وفلسطين تأثروا بالعمائر المسيحية التي شاهدوها ، وبدؤوا يفكرون في تشييد مساجد توازي في العظمة كنائس المسيحيين ، ويتخذون من الطرف والتحف الفنية ما يتفق وعظمة ملكهم الجديد . وكان جلّ اعتماد المسلمين في البداية على الصناع والفنيين من المسيحيين السوريين والقبط . وكان هؤلاء أساتذة المسلمين في هذا الميدان ، ونشأ على يد الجميع الطراز الأموي في الفنون الإسلامية . ونقل القوّاد والولاة وأتباعهم أصول هذا الطراز من الشام إلى سائر الأقاليم الإسلامية ، فتأثرت بها الأساليب الفنية القديمة في تلك الأقاليم . والحق أن الأساليب الزخرفية في الشرق الأدنى قبيل الإسلام بلغت غاية تطورها على يد المسلمين فيما نسميه الطراز الأموي . وذلك بفضل النظام الذى عرفه العالم القديم باسم الليتورجيا Leiturgia . وقوامه في الإسلام التزام أقاليم العالم الإسلامي بتقديم الصناع والفنيين ومواد الصناعة إلى الحكومة المركزية للقيام بما تريده من الأعمال الفنية الجليلة .

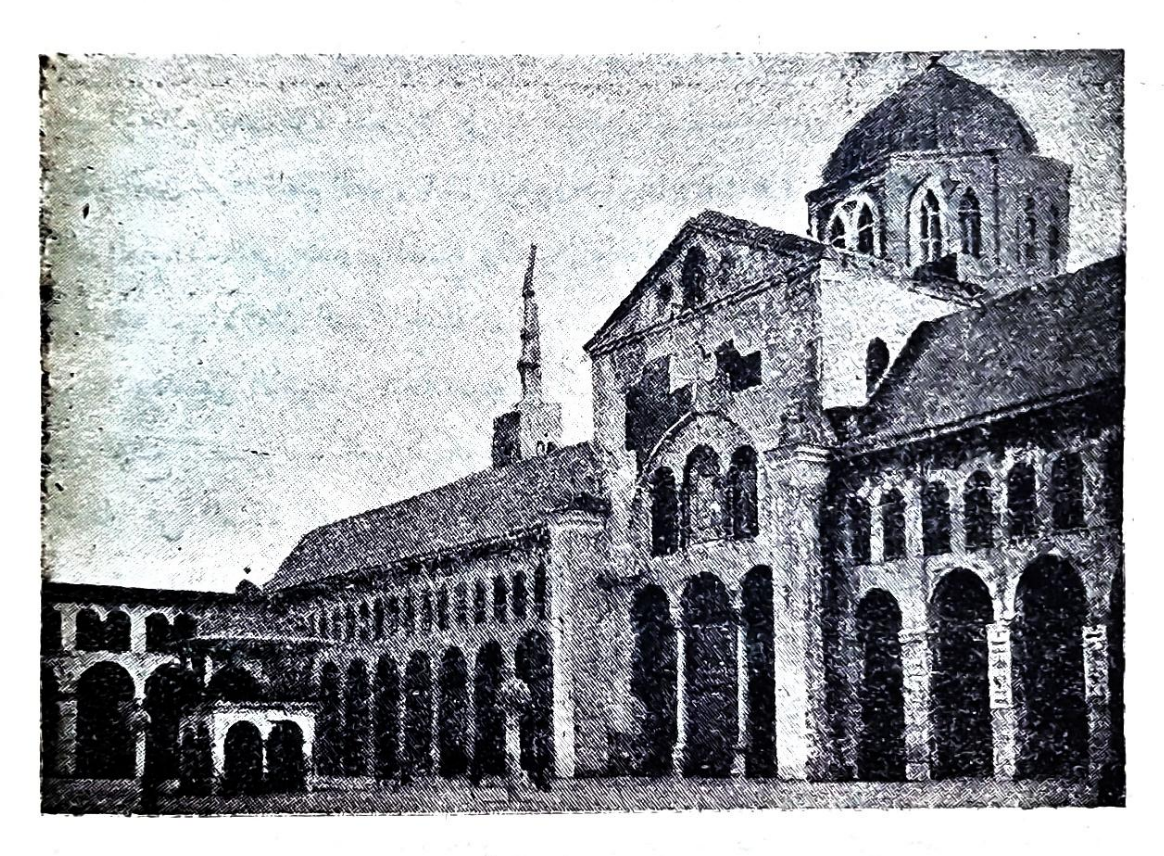
وقد عني الأمويون بتجديد بعض المساجد التي أنشئت في عصر الخلفاء الراشدين، مثل جامع البصرة ، وجامع الكوفة وجامع عمرو والحرم النبوي في المدينة . ولكن ازدهار فن العمارة ظهر على يدهم فيما شيدوه من مساجد جديدة ، كالجامع الأموي في دمشق والمسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس وجامع الزيتونة في تونس وجامع سيدى عقبة في القيروان .

ولم تكن المساجد التي شيدت في عصر النبي والخلفاء الراشدين ترمي إلى أكثر من جمع المصلين في مكان واحد . فكان المسجد الذي بناه النبي في المدينة مساحة من الأرض مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجرّ والحجر ، وعلى أحد أجزائها سقف من جريد النخل تغطيه طبقة من الطين ، ويستند إلى عدد من جذوع النخل[*] . وقد زاد عمر بن الخطاب في هذا المسجد ، وجدّده عثمان بن عفان ؛ ولكن العمارة الكبرى التي جعلته مثالا للمساجد في العصور التالية هي التي تمت على يد الخليفة الأموي الوليد

---

[*] يذهب فريق من المستشرقين وعلماء الآثار الإسلامية ، وعلى رأسهم كيتاني Caetani وكرزول Creswell إلى أن النبي لم يشيد في يثرب مسجداً وإنما شيد داراً له لم تصبح جامعا إلا بعد أن نقل علي بن أبي طالب مقر الحكومة الإسلامية إلى الكوفة ولكنا لا نرى هذا الرأي لأن الحجج التي يسوقونها لإثباته ضعيفة . راجع : Creswell : Early Muslim Architecture ج ١ ص ١١ وما بعدها .

ابن عبد الملك نحو سنة ٨٨ هـ (٧٠٧ م) . وقد أشار إليها البلاذُري في كتاب فتوح البلدان بقوله : « ثم لم يحدث فيه شيء إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، فبناه وزاد فيه » ، ولما بدأت الفتوح الإسلامية أسس العرب في العراق ومصر مدناً جديدة وشيدوا فيها مساجد بسيطة ، كما فعلوا في البصرة والكوفة والفسطاط .

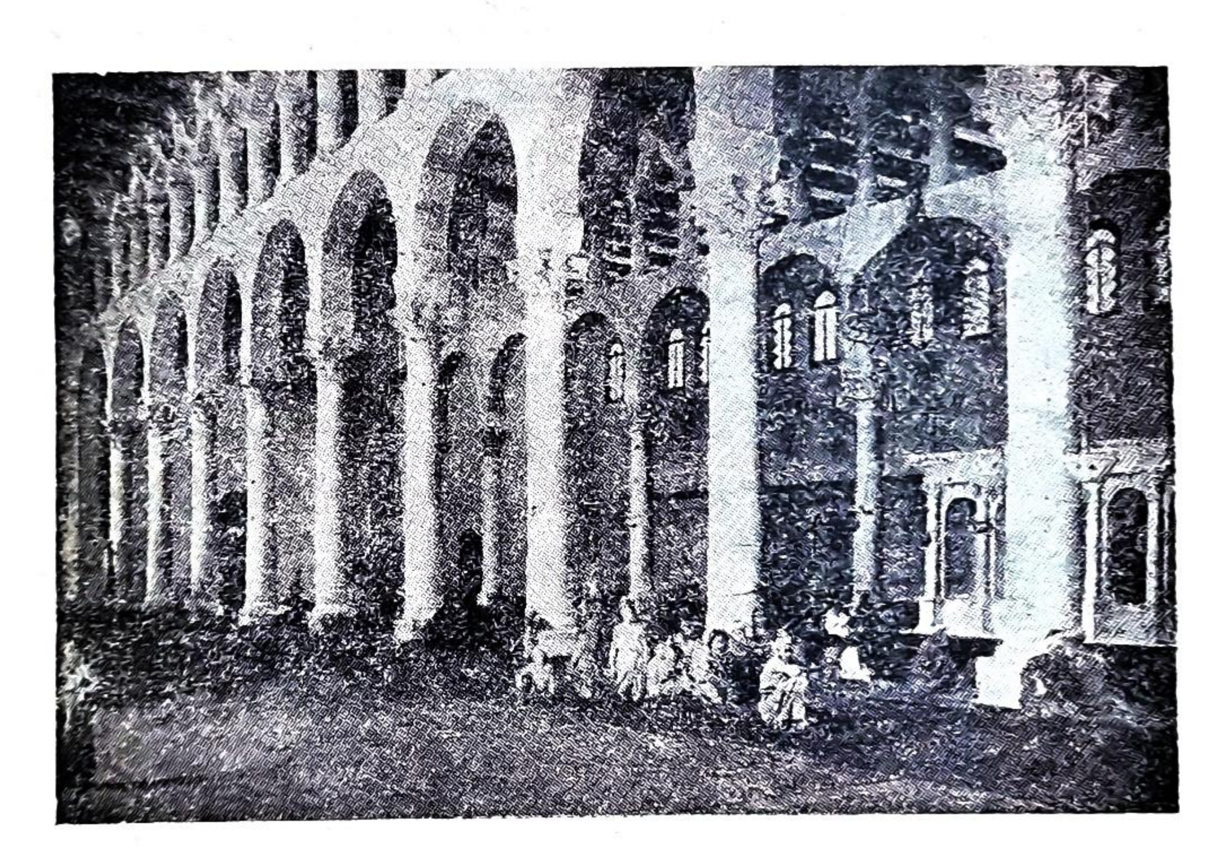


الصحن وواجهة رواق القبلة في الجامع الأموي بدمشق

أما في الشام فكانوا يحوّلون في كل مدينة كبيرة كنيسة أو جزءاً من كنيسة إلى مسجد يتخذونه للصلاة .

فمسجد البصرة كان قطعة من الأرض اختطت لهذا الغرض سنة ١٤ هـ ، ولعلها أحيطت بسور من القصب ، ثم بُني بعد ذلك باللبن والطين وسقف بالعشب . ثم كان أول تجديد كبير فيه سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) على يد زياد عامل معاوية بن أبي سفيان على البصرة ، فقد بناه بالآجرّ والجص وسقفه بخشب الساج ، واتخذ له أعمدة من حجر نحتها من جبل الأهواز .

أما مسجد الكوفة فقد بُني سنة ١٧ هـ . وكان قطعة من الأرض مربعة الشكل يحيط بها خندق عوضاً عن الجدران . وكان له سقف يقوم على عمد من الرخام جلبها المسلمون من قصر فارسي قديم في إقليم الحيرة . وجدد هـذا المسجد أيضاً على يد زياد سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) بإشراف مهندسين من الفرس ، والظاهر أنه صنع له أعمدةً من حجر جلبه من جبل الأهواز . وكان كل عمود يتألف من عدة قطع متصلة بعضها ببعض بأسلوب فني يذكرنا بما نعرفه اليوم في « الإسمنت المسلح » . وقد كتب الطبري



منظر في الجامع الأموي بدمشق

في هذا الصدد : « ولما أراد زياد بنيانه دعا ببنائين من بنائي الجاهلية ، فوصف لهم موضع المسجد وقدره وما يشتهي من طوله في السماء . وقال : أشتهي من ذلك شيئاً لا أقع على صفته . فقال له بنّاء قد كان بنّاءً لكسرى : لا يجيء هذا إلا بأساطين من جبال أهواز ، تُنقر ، ثم تثقب ، ثم تحشى بالرصاص وبسفافيد الحديد ، فترفعه ثلاثين ذراعاً في السماء ثم تسقفه » .

أما جامع عمرو في الفسطاط فقد بناه فاتح مصر سنة ٢٠ هـ مستطيل الشكل ، له سقف من الجريد على ساريات من جذوع النخل ، ولكن زيد في بنائه وجدد عدة

مرات في العصر الأموي ، وبنيت له على يد الوالي مَسلمة بن مخلد أربعُ صوامع فوق أركانه الأربعة . وكانت أول ما عرف من المآذن في مصر . ثم أعاد الوالي قرة بن شريكٍ بناء جامع عمرو سنة ٩٢ هـ (٧١١م) ، وأحدث فيه المحراب المجوّف . والواقع أن المساجد الأولى لم تكن لها مآذن ولا منابر ولا مقصورة ولا محاريب مجوّفة . أما المآذن فلم يعرفها المسلمون في عصر النبي عليه الصلاة السلام . وقد جاء في السيرة لابن هشام أن النبي حين هاجر إلى المدينة كان الناس يجتمعون إليه للصلاة بغير دعوة ، فهمّ الرسول حين قدمها أن يتخذ بوقاً كبوق اليهود الذي يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه فأمر باتخاذ ناقوس يدعى به المسلمون للصلاة كما يفعل المسيحيون ؛ ولكن أخبره عبد الله ابن زيد بن ثعلبة أن طائفاً طاف به ليلة في منامه وزين له الدعوة إلى الصلاة بالأذان . فأقره النبي على ذلك ، وأمر مولاه بلالاً أن يؤذن داعياً إلى الصلاة . وقيل إن عمر بن الخطاب هو الذي قدم على النبي يقترح الأذان ، ولكنه رأى بلالا يؤذن ، وعلم من النبي أن الوحي قد سبقه إلى ذلك ، ومهما يكن من شيء فإن بلالاً كان يؤذن من سطح بيت عالٍ عند مسجد النبي . فأول المآذن أو الصوامع أو المنائر التي بنيت في الإسلام هي التي أمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان عامله على مصر أن يبنيها لجامع عمرو . وأكبر الظن أنها بنيت على مثال الأبراج الأربعة بسور المعبد الوثني القديم في دمشق ، وهو الذي يقوم مكانه الآن الجامع الأموي .

ولا ريب في أن المسلمين استعملوا هذه الأبراج للأذان . وحسبنا أن بعض المؤلفين المسلمين — كابن الفقية الذي كتب في نهاية القرن الثالث الهجري — سموها مآذن مع علمهم أنها بنيت قبل الإسلام . وفضلا عن ذلك فإن المآذن التي شيدها مَسلمة بن مخلد لجامع عمرو كانت أبراجاً صغيرة مربعة . ولا يزال هذا النوع من المآذن منتشراً في بلاد المغرب ، حيث تعرف المئذنة باسم « الصومعة » . والواقع أن هذا النوع السوري من المآذن قد انتشر أيضاً في بلاد الجزيرة ، كما يتبين من مآذن حران والرقة وديار بكر .

أما المنبر فقد اتخذه النبي من خشب الأثل بعد أن كان يخطب وهو مستند إلى جذع نخلة . وجاء في مسند ابن حنبل أن هذا المنبر كان مقعداً ذا ثلاث درجات . والمعروف أن النبي كان يجلس على الدرجة العليا واضعاً قدميه على الدرجة الثانية . ولما تولى أبو بكر صار يجلس على الدرجة الثانية . وخلفه عمر ، فكان يجلس على الدرجة الأولى واضعاً قدميه على الأرض . ولكن الظاهر أن المنبر كان يعتبر في البداية المقعد الذي يجلس عليه النبي وخلفاؤه ، فقد حدث أن عمرو بن العاص اتخذ منبراً في جامعه بالفسطاط ، فنهاه

عمر بن الخطاب عن ذلك ، وكتب إليه : « أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين ، أو ما يكفيك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عقبك ، فعزمت عليك إلا ما كسرته » . على أن هذا التحفظ لم يدم طويلاً . فقد ذاعت المنابر في العصر الأموي . وأشار ابن دقماق في كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » (ج ٤ ص ٦٣) إلى منبر كان في جامع عمرو قبل سنة ٩٣ هـ ، قيل إنه منبر الوالي عبد العزيز بن مروان حمل إليه من إحدى كنائس مصر « وقيل إن زكريا بن مرقني ملك النوبة أهداه إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح وبعث معه نجاره حتى ركبه ، واسم هذا النجار بقطر من أهل دندرة » ، والواقع أن الشكل الذي صار إليه المنبر في المساجد الإسلامية قد يكون مستمداً من المنابر المسيحية . وقد عثر كويبل Quibell في حفائره بدير الأنبا أرميا بسقارة على منبر حجري من القرن السادس الميلادي ، يجعلنا لا نكاد نشك في صحة هذا الرأي .

أما المقصورة فقد قيل إن أول من اتخذها عثمان بن عفان ، ولكن الأرجح أن الذي أحدثها معاوية بن أبي سفيان بعد محاولة الاعتداء عليه . واتخذها الخلفاء من بعده ، وصارت على حد قول ابن خلدون في المقدمة « سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة . وإنما هي تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفحال ، شأن أحوال الأبهة كلها » .

والمحراب المجوف لم يكن معروفاً في المساجد قبل عصر الوليد بن عبد الملك . فقد جاء في كثير من المراجع العربية القديمة « أن أول من أحدث المحراب المجوف هو عمر بن عبد العزيز حين أعاد بناء مسجد النبي » . وقد مر بنا الكلام على تجديد المسجد النبوي في عصر الوليد على يد عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ، وأشرنا إلى إرساله صناعاً من الروم* والقبط ، وقد جاء في كتاب « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » للسمهودي أن القبط بنوا مقدم المسجد وبنى الروم جوانبه ومؤخره . فكان المحراب إذن في الجزء الذي بناه القبط . وأكبر الظن أنه منقول عن الجزء المجوف في الكنائس القبطية وهو الهيكل ، أو عن الحنية التي ترى في صدر الكنيسة ، وتسمى في الفرنسية abside ، ويكون اتجاهها في الغالب إلى جهة الشرق ، أي جهة بيت المقدس . ومهما يكن من شيء فقد فطن كثير من المؤلفين العرب إلى أن المحراب مشتق من الكنائس ، وما لبثوا أن استخرجوا حديثاً نسبوا فيه إلى النبي عليه السلام أنه قال : إن ظهور المحاريب

---

* روي أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى ملك الروم : « إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم فأعنا فيه بعمال وفسيفساء » فبعث إليه الإمبراطور بأحمال من فسيفساء وبضعة وعشرين عاملا

التي تجعل المساجد تشبه الكنائس علامة من علامات الساعة . وكتب بعض الفقهاء في ذلك فقال : إن المحراب أقل أجزاء المسجد قداسة ؛ بل إن السيوطي ألف رسالة سماها « إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » .

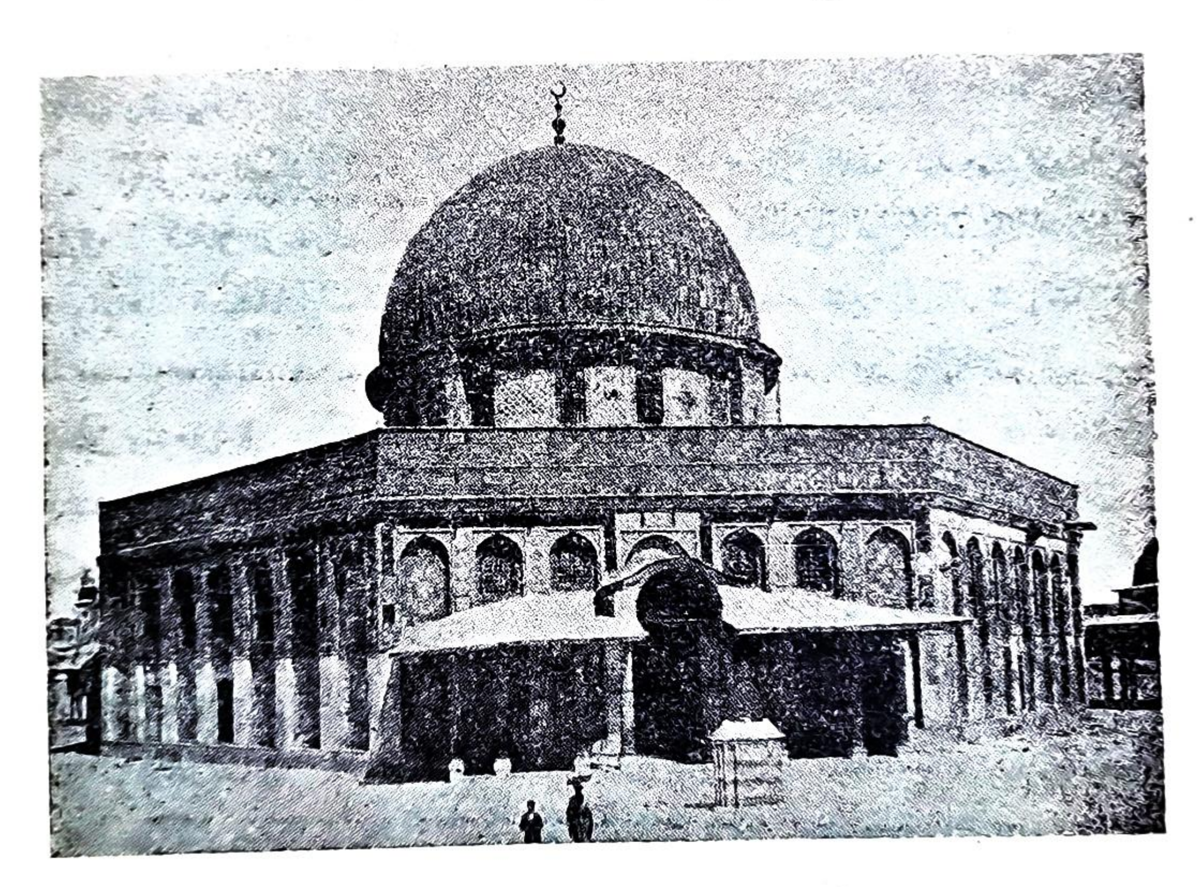
وأبدع العمائر الأموية في الشام قبة الصخرة في بيت المقدس والمسجد الجامع بدمشق.

أما قبة الصخرة في الحرم الشريف، وقد كان منطقة مقدسة عند الساميين القدماء وظلت لها منزلة دينية عظيمة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين . وتم بناء هذه القبة سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) على يد عبد الملك بن مروان . وهي بناء حجري مثمن الشكل ، قوامه تثمينة خارجية من الجدران تليها من الداخل تثمينة أخرى من الأعمدة والأكتاف أو الأساطين. وداخل هذه التثمينة دائرة من الأعمدة والأكتاف أيضاً . وفوق الدائرة قبة مرفوعة على رقبة أو أسطوانة فيها ست عشرة نافذه والقبة من الخشب تغطيها من الخارج طبقة من الرصاص ومن الداخل طبقة من الجص . وضلع المثمن الخارجي طوله نحو عشرين متراً ونصف متر وارتفاعه نحو تسعة أمتار ونصف متر . وفي الجزء العلوي من كل ضلع في هذا المثمن نوافذ ليصل منها النور إلى داخل البناء . وفي الجوانب المقابلة للجهات الأربع الأصلية من المثمن أربعة أبواب ، وفي وسط هذا البناء الصخرة المقدسة التي يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام وضع قدمه عليها ليلة المعراج . ولذا يسمى البناء قبة الصخرة ، وإن كان يعرف أحياناً باسم جامع عمر ، لأن عمر بن الخطاب كان قد أقام في موضعه مصلى من الخشب قبل أن يقيم عبد الملك بن مروان على أنقاضه البناء الحالي .

وقد كان استخدام القباب معروفاً عند المسيحيين الشرقيين قبل بناء قبة الصخرة كما كان في الشام كنائس ذات قباب فوق أبنية مثمنة الشكل . فليس غريباً أن يفكر عبد الملك بن مروان في أن يكون للمسلمين عمائر تضارعها في البهاء والعظمة . بيد أن اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) كتب في سبب بناء قبة الصخرة : «أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج ، وذلك أن عبدالله بن الزبير كان يأخذهم إذ احجوا بالبيعة ، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة ، فضج الناس وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ، فقال : هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس " وهو يقوم لكم مقام المسجد ، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة . فبنى على الصخرة قبة وعلق

عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة » .☆

ومهما يكن من شيء فإن بين التثمينتين الأولى والثانية رواقاً وبين التثمينة الثانية ودائرة القبة رواقاً آخر ، وهما للصلاة ، والناس يمرون فيهما حول الصخرة . وهذه الصخرة غير منتظمة الشكل . وقد كتب الأستاذ كرزول في بحثه الوافي عن هذا البناء ، أن طول الصخرة ١٨ متراً من الشمال إلى الجنوب وعرضها ١٣ متراً من الشرق إلى الغرب وأقصى ارتفاع لها عن أرض البناء متر ونصف متر .



قبة الصخرة في بيت المقدس

ومما تبدو فيه براعة المهندس الذي أشرف على بناء قبة الصخرة أنه عمل على أن يكون في دائرة دعامات القبة لفت بسيط ، فتجنب بذلك أن تحجب الأعمدة الواقعة أمام الرائي الأعمدة الأخرى المقابلة لها في الطرف الآخر ، واستطاع من يدخل القبة من أي باب من أبوابها أن يرى جميع ما بها من الأعمدة والأكتاف ، سواء منها ما كان أمامه تماماً وما كان في الجهة المقابلة .

☆ يبدو أن هذه الرواية من وضع خصوم بني أمية، لأن عبد الملك كان من التابعين . وغير محتمل أن يقدم مثله على تغيير شعائر الدين بتحويل الحج عن الكعبة .

والأقواس الداخليـة في البناء نصف دائرية ، ومثلها أقواس فتحات النوافذ . والأعمدة المستخدمة فيه قديمة جلبت من عمائر قديمة ، فاختلفت في طراز أبدانها وتيجانها ، واستعملت الروابط الخشبية الضخمة لربط هذه التيجان بعضها ببعض لتزيد قوة احتمال الأقواس ومقاومتها لهزات الزلازل .

وكان الجانب الخارجي من جدران البناء مغطى بالفسيفساء التي استبدلت بها سنة ١٥٤٥م على يد السلطان سليمان القانوني لوحات من القاشاني المدهون بالمينا . ولا تزال قبة الصخرة غنية بزخارف الفسيفساء التي تزين كثيراً من أجزائها الداخلية . وقوام هذه الزخارف رسوم الأشجار والفاكهة والأواني التي تخرج منها الفروع النباتية ، ورسوم الأهلة والنجوم .

وفي قبة الصخرة كتابة كوفية طويلة ، نحو ٢٤٠ متراً بالفص المذهب على أرض زرقاء داكنة في الزخارف الفسيفسائية التي تحلي الجزء العلوي من التثمينة الداخلية ، وقوام هذه الكتابة آيات قرآنية ، ولكنها تضم أيضاً عبارة تشير إلى تاريخ إنشاء هذا البناء . ونصها : « بنى هذه القبة عبدالله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين » . ولكن اسم الخليفة المأمون وألقابه مكتوبة بخط ضيق يخالف الخط المستعمل في سائر أجزاء الكتابة ، فضلا عن أن سنة ٧٢ لا تقع في حكم المأمون بل في حكم عبد الملك بن مروان ، وهو الذي تنسب إليه المراجع التاريخية تشييد هذا البناء . ويتبين من ذلك أن تغييراً حدث في هذه الكتابة في عهد المأمون ، ولكن الصانع فاته أن يغير التاريخ بعد أن غير الاسم .

ولا ريب في أن لقبة الصخرة مكانة ممتازة بين العمائر الإسلامية ، بل إنها تفوق عند معظم مؤرخي الفنون سائر المباني الإسلامية في الجمال والفخامة والرونق وإبداع الزخرفة ، وتمتاز عنها ببساطة التصميم وتناسق الأجزاء ودقة النسب . ومع ذلك كله فإن هذا الشكل المثمن لم يظهر ثانية في تصميم الجوامع الإسلامية ، وظلت قبة الصخرة فريدة في عمارتها ، لأن تصميمها كان ملائماً كل الملائمة ليحيط بالصخرة المقدسة في الحرم الشريف . في حين كانت الجوامع المستطيلة ذات الصحن المفتوح أوفق للعبادة الإسلامية ، فاتخذها المسلمون واحتفظوا بها قروناً طويلة . وطبيعي أن العناصر الفنية في قبة الصخرة تشهد بتأثر العمارة في فجر الإسلام بالأساليب الفنية التي كانت تسود في سورية وبيزنطة والدولة الرومانية .

***

أما المسجد الجامع في دمشق فقد شيده الوليد بن عبد الملك بين عامي ٨٨ و٩٦هـ (٧٠٧ — ٧١٤ م) واستقدم له الصناع والعمال من شتى البلاد الإسلامية ، بل روي أنه كتب إلى ملك الروم يطلب منه أن يوجه إليه مائتي صانع من بلاده ، وأنه تلقى من أراد .

ويقوم هذا المسجد في منطقة مقدسة من معبد وثني قديم ، كان لها برج مربع في كل ركن من أركانها الأربعة . وقد استعملها المسلمون للأذان ، ولا تزال إحداها قائمة في الركن الجنوبي الغربي . وكان المسيحيون قد شيدوا في هذه المنطقة كنيسة قبل الفتح الإسلامي ، وقد هدم الوليد هذه الكنيسة وشيد الجامع . فلا صحة لما يزعمه بعض مؤرخي الفنون من أن بيت الصلاة في المسجد الحالي هو كنيسة القديس يوحنا التي قسمها المسلمون بينهم وبين المسيحيين بعد فتح دمشق .

ويتألف المسجد من صحن كبير مستطيل الشكل وإيوان رئيسي طوله ١٣٦ متراً وعمقه ٣٧ متراً . وفي هذا الإيوان ثلاث بلاطات أو أروقة أو ثلاثة صفوف من الطارات موازية للقبلة ومحمولة على أعمدة رخامية وفوقها أقواس أصغر منها . وفي وسط هذه البلاطات أو الأروقة بلاطة معترضة تقسمها قسمين ، وتقوم فوقها قبة حجرية أضيفت في عصر متأخر . وفي طرفها ، أي في وسط الجدار الجنوبي للإيوان ، يرى المحراب . وارتفاع هذه البلاطات بأقواسها الكبرى والصغرى زهاء خمسة عشر متراً ، ولكن ارتفاع البلاطة المعترضة يصل إلى ثلاثة وعشرين متراً . ولهذه الأروقة كلها أسقف على هيئة « الجملون » وتحيط بالصحن أروقة أخرى تحدها أقواس محمولة على دعائم . وبعضها مدبب قليلا وبعضها يشبه حدوة الفرس . وفوق هذه الأقواس أو العقود صف من النوافذ مستطيلة الشكل تقريباً ولكن جزؤها العلوي نصف دائري . وتقع كل نافذتين منها على عقد من العقود . وفوق الأروقة الشمالية والجانبية سقف خشبي منحدر .

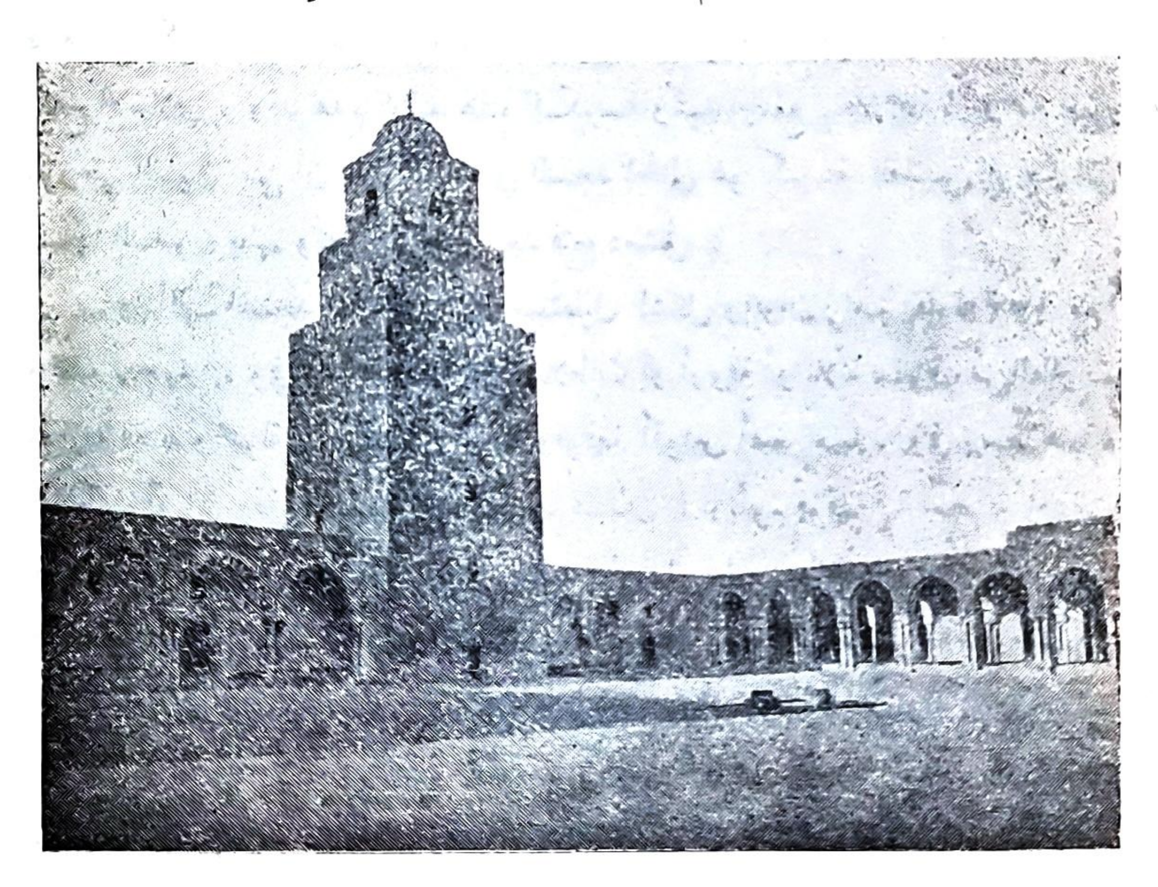
وقد كان المسجد في وقت من الأوقات مفروشاً بالمرمر وكانت جدرانه مغطاة بلوحات من الرخام إلى ارتفاع قامة الإنسان ، وفوق هذه اللوحات زخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة . ولا يزال جزء كبير من هذه الفسيفساء باقياً في الرواق الغربي .

ومن المحتمل أن يكون تصميم الجامع الأموي متأثراً بنظام الكنائس السورية ، وأن تكون واجهة رواق القبلة تشبه واجهة القصور البيزنطية ، وأن يكون الباعث على إدخال البلاطة المعترضة في هذا الرواق الرغبة في إظهار أهمية المحراب الذي تنتهي به هذه

البلاطة . وفي هذا الجامع بضع نوافذ من الرخام ، فيها أقدم نماذج من الزخارف الهندسية في الإسلام .

والحق أن هذا المسجد درة في تاج العمارة الإسلامية ، ولكن المقام لا يتسع هنا لتفصيل الكلام عليه . فحسبنا أن نرجع القارئ إلى ما كتبه عنه الأستاذ كرزول في كتابه Early Muslim Architecture وما جاء عنه في « مسالك الأبصار » للعمري .

أما المسجد الأقصى في الحرم الشريف ببيت المقدس فقد بني على يد عبد الملك بن

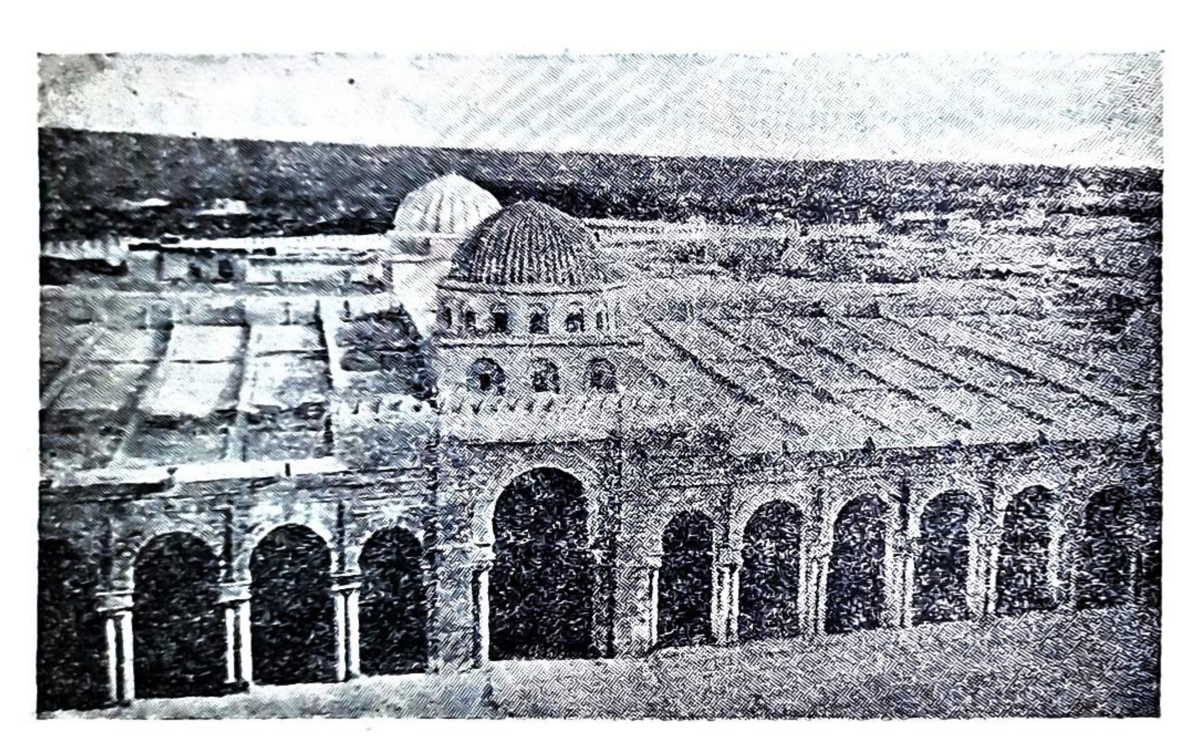


الصحن والمئذنة في مسجد سيدي عقبة بمدينة القيروان

مروان، ودخل فيه إذ ذاك بناء كنيسة قديمة ، وكان قوامه أروقة موازية للقبلة ، ويعترضها رواق عريض . ولكن الحق أن بناء هذا المسجد قد حدث فيه من التعديل والتجديد والزيادة منذ العصر العباسي ما يجعلنا لا نعتبره مثالا صادقاً للعمارة في الطراز الأموي .

ومن المساجد التي تشبه في تخطيطها الجامع الأموي في دمشق جامع الزيتونة في تونس ومسجد سيدي عقبة في القيروان . وقد بني الأول على يد ابن الحبحاب عامل بني أمية سنة ١١٤ ﻫ (٧٣٢ م) ولكن أعيد بناؤه في عصر الدولة الأغلبية ، أما جامع القيروان فقد بدأ في بنائه عقبة بن نافع سنة ٥٠ ﻫ (٦٧٠ م) . ثم هدم وأعيد بناؤه نحو

سنة ٧٦ هـ (٦٩٥ م) ثم زيد فيه بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ . وجدد بعد ذلك وأضيفت إليه بعض زيادات . ولكن جزءاً كبيراً من بنائه الحالي يرجع إلى عصر هشام . وأعمدة هذا الجامع وتيجانه مجلوبة من آثار قديمة ، ولكنه يمتاز بأقواسه وبعض العناصر المعمارية فيه ، ولا سيما مئذنته البرجية الشكل . والطابقان الأول والثاني في هذه المئذنة يرجعان إلى عصر هشام ، أما الطابق العلوي فيرجح أنه أضيف إليها بعد القرن الخامس الهجري.



واجهة رواق القبلة في مسجد سيدي عقبة بمدينة القيروان

وهكذا نرى أن فن العمارة الإسلامية ولد في عصر بني أمية ، ولكنه نما وترعرع سريعاً ، فكانت من آثار الطراز الأموي عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ، ووحدوا كثيراً من العناصر الفنية في أجزاء دولتهم ، وألفوا منها طرازاً ممتازاً .

زكي محمد حسن

في وادي الملكات

للكنت بيرون دي بروروك رئيس البعثة الأمريكية الفرنسية للحفر والتنقيب
ترجمة الأستاذ عوض جندي

لما حطّت بعثتنا رحالها على هضبة تشرف على سهل طيبة القحل، كان يخالجني شعور بأن ذلك الركن الجدب من أركان الصحراء الليبية المقفرة، ينطوي على بغية طالما طمحت إلى الظفر بها، إذ قضيت أعواماً منقباً عن قبر الملكة إنخوسامون، قرينة الملك توت عنخ آمون.

فمكثنا نبحث عنه عدة شهور حتى عثرنا عليه، في يوم مشهود، هو يوم غزو هتلر لبولندا. فما لبثنا أن أعدنا ختم ذلك القبر، تاركين أغلب محتوياته سليمة. ثم انقضت شهور، فنشبت الحرب في قارة أفريقية وبلاد مصر، فسائر العالم. فلا مندوحة لنا الآن «وقد وضعت الحرب الضروس أوزارها» عن استئناف أعمالنا لاستكشاف ذخائر ذلك القبر الفرعوني في وادي الملكات بمدينة طيبة الأثرية المشهورة.

وجدير بنا أن نصرح ههنا أن المرحوم الإرل أف تنكرفيل، كان ينفق على حفرياتنا، لمصلحة دارين من دور الآثار التاريخية الكبيرة.

وكانت بعثتنا مؤلفة من مسَّاح ومصور فوتغرافي، وعالم جيولوجي، وطائفة من طلبة العلوم فالخدم. وكان رفقائي في مباحثي: حسن رئيس الفعلة، وأحمد ملاحظ العمال، فاثنان من البدو المخلصين لي، ثم حبيب الطاهي. وهؤلاء جميعاً هم الذين أتيح لي معهم التنقيب في مساحات كبيرة من الصحراء تقدر بألوف الأميال. وكنا نستورد مؤونتنا من الأقصر بالسفن الشراعية، ثم ننقلها إلى مخيمنا بالسيارات.

وفي ذات يوم وقفت أنا وزميلاي حسن واحمد لاكتشاف خطير الشأن، إذ كنّا ننقب في مصطبة من المصاطب التي في غرب وادي الملكات، فعثرنا على كتابة هيرغليفية، محفورة في الصخر، فإذا هي ختم من الأختام التي تختم بها الآثار الفرعونية القديمة، محتو على اسم إنخوسامون. فاستدللنا منه على أننا على وشك اكتشاف قبر مجهول. فعملنا جاهدين، شهراً كاملا في رسم الصخور المنهارة والأودية الرملية الصفر اللامعة والجروف الظليلة، حتى لاح لنا أثر سلم كان الظاهر لنا منه لا يزيد على ست عقد

« بوصات » ، وذلك في قاعدة حائط صخري أساسي ، فلم يغمض لنا ليلتئذ جفن .

فقمنا عند بزوغ الفجر أنا وأحمد وحسن ، وعلي خادمي الشخصي .وكان يصحبنا أيضاً حبيب الطاهي ، فنزلنا إلى ذلك السهل الصحراوي ، فركبنا السيارة إلى مخيمنا ، حيث أحضرنا المعاول والمجارف والغرابيل والحبال وسائر الأمتعة . وبهذه الوسائل استطعنا كشف اثنتي عشرة درجة من ذلك السلم ، فنزلنا منها إلى آخره ، وكان غاصاً بالأحجار الصغيرة « الدبش » ، ثم بلغنا في اليوم التالي مجازاً مختوماً ، فحافظنا على ختمه بأن فتحنا فيه فتحة صغيرة في مونته العتيقة ، وأدخلنا فيها بطارياتنا الكهربية لتضيء لنا ذلك المكان، فألفيناه معبراً آخر غاصاً بشظايا الأحجار الجيرية .

وعكفنا على الحفر فحفرنا في يومين حفرة عمقها ٤٠ قدماً ، فعثرنا على باب آخر مختوم ، فلم يسعنا إزاء ذلك إلا فض هاتيك الأختام . ثم أدخلت في الفجوة التي أحدثتها شمعة موقدة ، بغية التحقق من خلو ذلك المكان ، من الغازات السامة ، فأخذ لهبها يتموج عندما جعل الهواء الفاسد يهب عليها ، وهو الهواء الذي قضى أكثر من ٣٤٠٠ سنة حبيساً في ذلك الرمس . وحينئذ قال الشيخ حسن : « إن هذا المكان لابد أن يكون مخزن المدفن المحتوي على الشعار الملكي للمدفون فيه » فأدخلت فيه بطاريتي الكهربية ، فاعترتني في الحال رعدة كادت تسبب لي إغماء ، إذ شاهدت في تلك الحجرة الصخرية البالغة مساحتها ٣٠ قدماً طولا و ١٥ قدماً عرضاً ، ثروة تتلألأ ، من كنوز العصر الفرعوني الإمبراطوري ، فجئنا بمعاولنا وفتحنا ثغرة تكفي لولوجنا تلك القاعة . وكان مساعدونا البدو يتلون آيات من القرآن الشريف وقد عراهم الذعر مما كانوا يتوقعون.

وكانت الحرارة يومئذ شديدة . وما إن دخلنا القاعة حتى ثارت علينا عاصفة خفيفة من الغبار ، فطمست عيوننا هنيهة . ولما سلطت بطاريتي الكهربية على الأديم الحجري لتلك الحجرة ، رأيت في العثير الذي كان يغشاها ، على ممر هاتيك العصور الطويلة ، دون أن تطأه قدم مخلوق ، آثار نعال الكهنة الذين قاموا بختم هذه القاعة المحتوية على الكنوز ، فوجدنا فيها العروش الذهبية الفاخرة التي كانت تتبوأها الملكة ، والكراسي والصناديق والتماثيل ، فزهريات من الرخام المعرّق ، ثم صناديق مطعمة بالذهب ، وجميعها ذات ألوان بديعة ، من ذهبية وزرقاء وكهربية اللون وسمراء وسمراء ضاربة للحمرة وفضية ، وكلها تنعكس أشباحها على الحيطان البيض لتلك الحجرة .

ثم أخذنا نسمع فجأة أصواتاً غريبة وخشخشة ولغطاً سحرياً ، إذ جعل البدو يستعيذون بالله من أهوال المقابر الفرعونية وهم ينزلون على السلالم ، وحينئذ طلبت

آلة التصوير الفوتغرافي والبطاريات الـكهربية ورشاشة السوائل الـكيميائية . وبما أني كنت قد فتحت من قبل قبر الملـكة تين هينان Tin Hinan وشاهدت بنفسي قبر توت عنخ آمون ، فتذكرت وقتئذ ماذا حصل لنا في ذينك القبرين ، وهو أن الهـواء النقي ، الذي يقتحم الحجرة من الخارج ، يغير حالا جوها ومحتوياتها . وذلك أنه يفكك كثيراً من الأشياء النفيسة جداً أمام عيوننا حالما يهب عليها أول وهلة . وكانت هاتيك التغيرات الـكيميائية التي وقعت في هذه الحجرة التي عثرنا عليها ، سريعة ، فبادرت إلى تصويرها وهي تتحطم . وما إن أتممت تصوير محتوياتها كلها ، حتى جعلت أرش الأشياء السريعة العطب ، بالمحلول الـكيميائي الذي يصونها من التفتت . وذلك لأني لم أشأ أن تتكرر أمام أبصارنا المأساة التي حصلت لنا في مقبرة توت عنخ آمون ، حيث تحطمت منا أشياء ثمينة جمة ، إذ تحولت إلى رماد ، لأن العلم في ذلك الحين لم يكن متأهباً لتلافي تلك الحادثة الفجائية .

أما الآن فإن المادة الـكيميائية المركبة التي يرشها علماء الآثار جميعهم على الذخائر الفرعونية تصلب التحف جميعها دون تشويه ألوانها أو إفساد مواد تركيبها ، إذ تكوّن هاتيك المادة الـكيميائية التي ترش على أي شيء كان ، غشاءً شفافاً يصون جميع المنسوجات والأدوات الخشبية والرسوم الزيتية وغيرها من شتّى المصنوعات .

ثم قضينا يومين في إلصاق أجزاء الآثار بعضها ببعض بشرط صمغيـة بلغ طولها عدة أميال ، وكنا نستعين أيضاً على وقاية الأدوات الشديدة الليونة ، بمقادير كبيرة من الـكلديون والبرافين وحشيات القطن . وفي غضون ذلك أوفدت مساعدي إلى مدينة الأقصر ليحضر لنا باباً فولاذياً ضخماً وأمتن قفل يتيسر له الحصول عليه لإيصاد مدخل القاعة المشار إليها .

وبعد عدة أيام فتحنا القاعة الثانية الخفية ، فكانت دهشتنا عظيمة جداً إذ لمحنا فيها منظراً ساحراً ، وذلك حينما سلطنا ضوء بطارياتنا الـكهربية على محتـوياتها التي لا تقدر بثمن ، فوقعت أبصارنا فيها على ثلاثة أسرة مطعمة بالذهب والعاج ، وكراسي بلا مسند للظهر ، فأخـرى عادية مزخرفة بالذهب ، ثم زهريات نصف شفافة من الرخام المعرق ، وتماثيل للملكة مدهونة بالزيت دهناً متقناً . وعثرنا تحت العروش الملكية على علب ملآى بمواد للتبرج ، وصناديق للملابس وعلب للجواهر ، وجميعها ملبسة بالأحجار الكريمة تلبيساً رائعاً ، وهي من الذهب والفضة والعاج ، تعلوها رسوم من الشفتشي البديع . وكانت علبة تبرج الملـكة ، تحوي أحمر الوجنات والشفاه والبودرة وما إليها من

أدوات الزينة ، ثم مرايا من الذهب وملاقط لشعر الحواجب ومقصات من البرنز والفضة ومبارد للأظفار ودبابيس للشعر « فرشينات » ذهبية .

وكانت الجواهر مؤلفة من عقود وأساور وعوذ وخواتم وأقراط ، وجميعها مصونة كل الصون . وكان البدو يتنفسون الصعداء حينما نقلنا الصواني العاجية والذهبية اللآى بالزمرد وخرز العقيق الأحمر والفيروز الأزرق وحجر اللازورد وجعلان الجمشت والعوذ الذهبية ثم درع الملكة المرصع ، وهو مما لا مثيل له في هذا العصر .

ووجدت تمثالا نصفياً فاخراً للملكة ، كما كشفنا عند إحدى قدميه عن علبة ثمينة ، فرفعنا منها ثلاثة تيجان ، كل منها أجمل من الآخر . وكان اثنان منها يمثلان نسرين ، كل واحد منهما باسط جناحيه حول الرأس وقاية له . في حين كان الثالث يمثل الصل المصري المقدس ، وهو الرمز الإلهي الذي لايشاهد إلا على جباه الملوك والملكات وتماثيل الآلهة . وشاهدنا في علبة حلي أخرى ذخيرة تقدر بأكثر من أثمان الذهب والجواهر جميعها التي كشفنا عنها ، ونعني بها أسفاراً خطية من ورق البردي تحوي تاريخ حياة الملكة . وذلك لأن مكتشفي قبر توت عنخ آمون لم يجدوا فيه كتابات على أوراق البردي تدلهم على تاريخه . فاستدللنا من تلك الأسفار على أشياء كثيرة عن عصره . ثم عثرنا على مركبة للملكة من الذهب والفضة ، فاحتفظنا بها كل الاحتفاظ في حينها ، وتبينا من حالتها الراهنة أنها بليت من جراء استعمالها في الشوارع الوعرة بمدينة طيبة القديمة ، وذلك منذ أكثر من ٣٥ قرناً . وكانت ملابس إنخوسامون حينئذ مازالت سليمة ، يتضوع منها أريج اللاوندة والياسمين الباقي من آثار العهد القديم . ثم كشفنا فيما بعد عن حجرة الدفن ، وهي على بعد ١٦ قدماً تحت سطح غرفة الذخائر الخاصة بالدفن . وقد كابدنا صعوبة شديدة في الحفر حول لوح من حجر الجرانيت كان موضوعاً عمداً في مدخل قبو المدفن ، حيث تسنى لنا بوساطة بطارياتنا الكهربية ، رؤية الناووس الملكي ذي الغطاء الجرانيتي الكبير، وكان تحت أقدامنا تماماً . وكانت موضوعة على النعش طاقة من الأزهار تثير عواطف كل من يشاهدها .

وكان من سوء حظنا أننا لفرط دهشتنا من هاتيك المناظر الساحرة نسينا وجوب التحقق من خلو تلك القاعة الصخريه من الغازات السامة ، فأصبحنا ولا مناص لنا من الاستهداف لعواقب إهمالنا . فأبصرنا أولاً اللرد تنكرفيل يتنفس الصعداء فيترنح ثم يخرّ على طائفة من السنانير المحنّطة التي كانت الملكة تدللها في حياتها ، وكان حسن وحبيب يحملان مصباحاً فجعلا يتمايلان أيضاً ، فأخذت منهما المصباح قبل أن يسقطا به ،

وكانت الأبخرة المتفشية في ذلك المكان ، لا تطيقها حواسي أنا أيضاً ، بيد أني تمكنت بمعاونة رجل من عمالنا الذين كانوا واقفين خارج تلك الفجوة ، من إقالة اللرد تنكرفيل من كبوته ، فنقلته مصاباً إلى خارج الممر . وفي أثناء ذلك سقطت بطاريتي الكهربية من يدي ، فصرنا نتلمس طريقنا في الظلام حتى بلغنا رأس الحفرة حيث كانت الشمس تضيئها . وفحصنا جسم اللرد تنكرفيل فألفيناه مصاباً بجرح حول عينه اليمنى ، وكذلك أصيب كثيرون من البدو برضوض من اصطدامهم بالتابوت الحجري . ثم خرج علي ، وهو الرجل الجريء الذي استطاع بما بذله من الجهد ، إنقاذنا من تلك المغارة السامة .

وفي صباح اليوم التالي ، رفع غطاء التابوت الحجري (الناووس) فأميط اللثام عن الوجه المدهون بالزيت الذي يعلو الجثة المحنطة بالنعش . فكانت تلك الصورة الزيتية التي رأيناها حينئذ بعد انقضاء ألوف السنين عليها في قبرها ، أروع ما وقعت عليه أبصارنا . وتجلى لنا النعش ملبساً بصفائح الذهب ، مزيناً برسوم ملونة مدهشة تنم على دقة الصناعة . ثم فتحنا النعش وشرعنا في فك الشاش الرقيق الملفوف حول الجثة المحنطة ، ففاحت منه روائح الطيوب والمواد العطرية المجهولة التي كانت معروفة في ذلك العصر العريق في القدم . ولما أزيل النقاب عن محيا الملكة الجميلة ، بادرنا إلى رش رأسها بالمواد الكيميائية صوناً له من التفتت . فوجدنا حواجبها وأهدابها مازالت سليمة ، وبدت لنا قسماتها كأنها باسمة .

وإنخوسامون هذه هي الابنة الثالثة لأمنحوتب الرابع ملك مصر ولأمها الملكة نفرتيتي . وقد توفيت في السادسة والثلاثين من عمرها ، كما هو موضح في سفر البردي الذي وجد مع جدثها . ثم دهنا وجهها بالشمع وصبغنا ذلك الغشاء الشمعي صبغاً خفيفاً بكل إتقان ، ومثلنا أهدابها المغمضة بخطوط رسمناها بقلم رصاص الحواجب . ومما أعجبنا به أن أقراطها الذهبية كانت مصنوعة بطريقة فنية دقيقة تجعلها عند كل حركة تتحركها في أذنيها ، تقطر على عاتقي الملكة الفقيدة قطرات من العطر .

وكان اللرد تنكرفيل يصور كل مرحلة من مراحل فك اللفائف عن جثمان الملكة المحنطة . وقد عهد إليّ أولا في فك اللفائف التي كانت حول عنقها الذي كان مثقلا بقلائد الأحجار الكريمة . ثم تطرقت من فك الجيد إلى كشف الساعد الأيمن ، فشاهدت حينئذ « دبلة » هي رمز لما كانوا يسمونه « العين المقدسة » كما رأيت البنان الدقيق الجميل لتلك الملكة ، وما يعلوه من آثار التدريم الرائع ، الذي كان يلوح للناظر كلما حركت الملكة ذراعها اليمنى . وبينما كنا مشدوهين، مذعورين مما رأينا ، أخذت يد الملكة ترتفع

ارتفاعاً وئيداً فهرع الأعراب الأربعة إلى الباب مذعورين من هول تلك الحركة التي بدت من جثة الملكة المحنطة ، فصدموا آلة التصوير السينمائي فقلبوها على الأرض رأساً على عقب، فحاول حينئذ اللرد تنكرفيل صون الآلة من السقوط على جثمان الملكة المحنطة ، فعثر به فهشم جوانب ذلك النعش الذي لا يقدر بثمن .

وعندئذ انطفأت مشاعلنا المغنزيومية فلم يسعنا نحن أيضاً إلا الهرب نحو الباب ، راضين من الغنيمة بالإياب ، إذ كنا نتصبب عرقاً ، فأخذنا نتسلق الصخور ونتعثر بالدهليز الغاص بالغبار .

وتعليل هذا : أن ظاهرة تحرك ساعد الملكة المحنطة ترجع إلى الأحوال الجوية ، وذلك لأن الهواء النقي عندما يلمس جثة محنطة ، مضت عليها الأحقاب الطويلة ، ملفوفة لفاً محكماً باللفائف المتينة ، قد يحدث أحياناً رد فعل في عضلاتها ومفاصلها فتنجم عنه تلك الحركة الغريبة . ولهذه الظاهرة مثيل (لم يبت فيه العلماء حتى الآن) في جثة رمسيس الثاني المحنطة التي جعلت في حالة جلوس، وصارت يدها ممدودة كمخلب معقوف ، فظلت على حالها من تاريخ إعادة فك لفائفها في سنة ١٨٨١ .

ومما يؤسف عليه أن اللرد تنكرفيل لقي حتفه في اليوم التالي لفتح قبر هذه الملكة ، ثم نقل جثمانه إلى مدينة الأقصر ومن ثمة إلى القاهرة . فلم أر بداً من العودة إلى القبر حيث أغلقت ذلك النعش المحطم ، مستعيناً ببعض المساعدين الأقوياء على إنزال غطائه الحجري الضخم إلى أصله ، وهو غطاء تبلغ زنته طنين وتعلوه كتابات هيرغليفية . وقد أعدت الأشياء الخاصة بالدفن إلى مخزنها كما كانت ، ثم جئنا بالأسمنت فأغلقنا به الثغرة التي فتحناها حول كتلة الجرانيت الضخمة للدخول منها . وبهذه الوسيلة تم إغلاق المدخل الخفي فغطيناه بالأحجار الصغيرة والصخور الكبيرة ، وستخفيه عاجلاً العواصف الرملية إخفاء تاماً عن أنظار الناس .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن اللرد تنكرفيل وأحمد ، قد ماتا من عدوى الأمراض ، وهذه في اعتقادي قد نشأت عن بعض جراثيم خفية كامنة في الغازات السامة التي كانت في المقبرة . أما الأعراب فهم بلا ريب كما كانت الحال عند وفاة المرحوم الإرل كرنرفون ، الذي قضى نحبه عقب فتح قبر توت عنخ آمون ، يعزون موته إلى « لعنة الفراعنة » وفي نيتنا أننا حين نعود إلى وادي الملكات بمشيئة الله تعالى ، سنأخذ معنا عقاقير السلفانيلاميد والبنيسلين ، وحينئذ نتوقع أن لا يسمع أحد شيئاً عما يسمونه اللعنات الفرعونية العتيقة التي طالما كانت سبباً في موت علماء الآثار .

حقيقة لعنة الفراعنة

(المترجم) : بعد كتابة ما تقدم قرأنا في مصدر علمي إنجليزي رأياً في هذا الموضوع ، ربما كان أصوب مذهب علمي لحل هذه المعضلة وهذا هو :

إن المذهب القائل بأن أولئك الرجال ماتوا من لعنة الفراعنة ، لهو من الخرافات المحضة . ومع ذلك فاللعنة حدثت ولكنها ليست روحية . واعتقادي أن قبر توت عنخ آمون قد عولج عند إتمام تشييده بغبار مسحوق سام ، وأن كل ركن من أركانه ، وكل أداة من أدواته ، قد ذر عليها ذلك المسحوق السام . فلما دخل أعضاء الجمعية القبر ، ولجه الهواء النقي أيضاً في الوقت عينه فأثار نقعه السام ، فتنشقه فاتحوه ، ولما انتابهم المرض فيما بعد ظهرت عليهم أعراض تشبه الالتهاب الرئوي ، فعولجوا بعلاجه ، فلم ينجع فيهم الدواء فاستفحل الداء حتى قضى عليهم . أما الاعتقاد بأن مقابر الفراعنة كانت تحميها من النهب والسلب ، وسائل خفية ، وأن نصيب كل من يعتدي عليها الاستهداف للكوارث أو الموت العاجل لا محالة ، فهو من المذاهب العتيقة الواسعة الانتشار ، كما أن العقاب على ذلك الجرم لم يكن مقصوراً على الحياة الدنيا ، بل متواصلا أيضاً في الآخرة . إذ كانت سرقة المقابر ، فعلة نكراء تستوجب مثول روح السارق ، أمام الإله الديان « أوسيرس » لأجل الدينونة وذلك أسوة بغيرها من الأرواح ، غير أنه كان محظوراً عليها الدفاع عن نفسها ، فكانت تلقى حالا بين براثن الوحش ذي الرأس الشبيه برأس التمساح ، وهو المسمى « آكل الأرواح » لأن صيانة الجثث المحنطة كانت أعظم أمنية يتمناها كل مصري قديم في حياته . وكانت العادة الجارية أنه كلما سمت منزلة امرىء ، عظمت الاحتياطات التي تتخذ لوقاية قبره من اللصوص . ولا غرو فإنهم كانوا يعتقدون أن وقاية الجثة المحنطة لشخص ما مصدر لدوام حياته في الآخرة ، وأنه على ذلك البقاء يتوقف البعث الأخير «حياة الأموات» ، وأن السنوات القليلة التي يقضيها الأحياء في هذا العالم الفاني يسيرة عند مقابلتها بالحياة الأخرى السعيدة السرمدية .

عوض جندي

القمقم المهجور

للأستاذ منير البعلبكي ببيروت

في واق الواق
الشاعر ينكت الأرض بأصابعه

الجنيّ : أيييه ! . . . من أنت يا رجل ؟

الشاعر (وقد بوغت لمرأى العفريت) : إنسان شقيٌّ قدمَ جزيرتكم بعد أن قطع إليها آلاف الأميال . . .

الجنيّ : وما تفعل هنا أيها الشقي ؟

الشاعر (متابعاً نكت الأرض بأصابعه) : أليست هذه واق الواق ؟

الجنيّ : نعم ! هي بعينها . ولكن مالي أراك تحفر الأرض كمن يطمر قمقماً في التراب ؟

الشاعر (بألم) : ليس مثلي من يطمر قماقم . إنما أنا أبحث عن قمقم مهجور ، من . . . قماقم . . .

الجنيّ (مستهزئاً) : من قماقم ماذا ، أيها الإنسيّ ؟

الشاعر (بغُصّة) : من قماقم السعا . . . . دة !

الجنيّ (مقهقهاً) : ها ها ها ! وهل أنتم بعدُ في حاجةٍ إلى سعادة ؟ ألم تمتطوا الهواء كالعفاريت ، وتركبوا البحر كالحيتان ؟

الشاعر : نعم ، فعلنا هذا كله ، ولكنّا خسرنا السعادة !

الجنيّ (بفضول) : غريب ! كنت أحسبكم بعد أن اخترعتم هذا الصندوق العجيب ذا العين الواحدة ، والآذان الثلاث ، والذي لا أدري ما تسمونه ، كنت أحسبكم بعد هذا نلتم السعادة التي طالما تحدثتم عنها ، وسألتمونا عنها . . .

الشاعر (بحرقة) : يا ليت كان ذلك ! إذن لما رأيتني هنا ، بعد سفر جاهد ، أنقب بين الأطلال ذات العبق ، عن قمقم مهجور . . .

الجنيّ : ولكني أقوم بحراسة كنوز سليمان من زمان طويل ، ولم أجد إلاك إنسيّاً جاءنا باحثاً عن سعادة ؟ كأني بك أنت الشقيّ وحدك من بين هؤلاء جميعاً !

الشاعر (وقد أبرمه فضول الجنيّ) : قد أكون الشقيّ الوحيد ، وقد لا أكون . . . لستُ أدري . . . أنا شقيّ على كل حال !

الجنيّ : وتحسب أن قمقماً مهجوراً يستطيع أن ينقذك مما أنت فيه ؟

الشاعر : يستطيع على الأقل أن يدخل إلى قلبي الراحة ، ويشيع في نفسي الطمأنينة .

الجنيّ : أنت واهم !

الشاعر : واهم ؟ ! . . . ألم تفرغ قماقمكم العجيبة فيضاً من النور على قلوب الشعراء من أقدم الأزمان ؟ ألم توح إليهم بأعذب الأغاني وأبرع الألحان ؟

الجنيّ : كان زمان . . . !

الشاعر (باستغراب) : لستُ أفهم ما تقوله .

الجنيّ : أقول : إن الزمان الذي كانت قماقمنا فيه تجدي على أمثالك قد مضى، ولا فائدة اليوم من كل هذا العناء .

الشاعر : تقول : لافائدة من كل هذا العناء ؟

الجنيّ : نعم . . لا فائدة من كل هذا العناء ، بعد أن كفرتم بسحرنا ، وأعاجيبنا ، ومعجزاتنا .

الشاعر : ولكني أنا لم أكفر . . . وما زلت أعتقد أن خلاصي معلق على شفتي قمقم من قماقمكم العجيبة . . .

الجنيّ : قد يكون ، ولكن تلك خطيئة البشر جميعاً ، وعليك كإنسان أن تسهم في حصاد الخطايا . . .

الشاعر (كمن يكلم نفسه) : وسفراتي الطوال ؟ والمشاق التي تحملتها ؟ أيذهب هذا كله عبثاً ؟ . . . ليتني متّ قبل هذا !

الجنيّ (وكأنما رق للشاعر) : لا ، لن يذهب هذا كله عبثاً !

الشاعر (بلهفة وتهدج) : ولكن كيف ؟ أفصح أيها الجنيّ !

الجنيّ (بخبث) : إن صاحب المدينة قد وضع الحظر على القماقم العجيبة ، بعد ما رأى من كفركم نعمتها ، وإنكاركم عائدتها ، فهي بعد بضاعة لا تصلح للتصدير . . . وما عليك — إذا كنت راغباً في السعادة — إلاّ الإقامة في جزيرتنا هذه . وقد أستطيع ، بما لي من نفوذ عند صاحب المدينة ، أن أستخرج لك دفتر جنسية ...

الشاعر (بسذاجة) : وتسمحون لي بعد ذلك بقمقم مهجور أحمله إلى دنياي ؟

الجنيّ : ألا تزال تفكر في دنياك أيها الشقيّ ؟ يجب أن تقطع الصلة بينك وبين هذا الجحيم ! وستعيش عندنا إلى أن يدركك الصباح فتموت !

الشاعر (بخيبة وحماسة) : عليك لعنة الله والناس أيها العفريت ! أوَ تحسبني جئتكم راغباً عن الدنيا ؟ أو تحسبني أطيق البعاد عن هذه الدنيا أكثر مما فعلت ؟ إن ليلاي تنتظرني أيها العفريت .....! وإذا كنت قد فاتني القمقم المهجور عندكم فأنا جدير أن لا يفوتني الموعد عندها ، وها إنني ذاهب ...

(ينهض الشاعر من على التراب ، مولياً شطر الدنيا)

الجنيّ : إلى أين ؟

الشاعر (دون أن يلتفت) : إلى الجحيم ! . . .

منير البعلبكي

عالم المرأة

جديد لا يبلى

للسيدة بنت الشاطىء

ليس بالبعيد من موضوع « مجلة الكتاب » ما سأنقله إليها من مخطوطات لها أهميتها الحيوية وخطرها التاريخي ، وليس بالبعيد مما أشغل به نفسي من تحقيق نصوص الأدب العلائي ، أن أمنح بعض وقتي لتلك المخطوطات ، وفي « عالم المرأة » تبدو أهمية تلك النصوص التي أدفع اليوم بعضها إلى الصحافة الأدبية لترى الضياء . نعم في عالم المرأة تبدو تلك الأهمية لأنها نصوص تعرف لها بعض حقها الذي أقول إن التاريخ لم يعرفه جيداً ، إن لم يكن قد جهله أو تجاهله .

* * *

وموضوع تلك المخطوطات ، هو ذلكم الموضوع الأزلي الأبدي ، القديم الجديد الخالد الفاني ، الذي عرفه الناس جميعاً ولا يزال منه ما يجهله جمهرة الناس وكثرتهم .

هو الموضوع الذي يسمو ويعلو حتى يكون قدسياً ، سماوياً ، إلهياً ، نورانياً ، روحانياً ، ويسفل ويسقط ويدنس ، حتى يكون مظلماً ، أرضياً ، حيوانياً ، جشعاً ، جسمانياً .

هو الموضوع الذي لعلي ممن كرهوا اسمه الشائع ، وملوا كلمته التي أخلقتها الألسنة ودنستها الأيدي ، وإن كنت مع ذلك أومن أنه — رغم ذلك كله — لا يزال منه أبدي لا تقوم الحياة إلا به ، ولا يدوم بقاء الجنس الإنساني إلا معه . لا يزال منه جديد لا يبلى ولا يرث ، ولا يهي ولا يهن . لا يزال منه خالد باق ما دامت السموات والأرض . ذلكم هو هذا الذي يسمونه الحب .

عرفته الإنسانية جوهر الفنون ، ولباب الآداب ، ووحي الأرواح ، وعرفت منه فنون العالم وآداب الدنيا آثاراً للرجال باقية لا تزول ، ولكني ما أحسبها قد عرفت للمرأة مثل تلك الروائع الخوالد . وإني لأعجب كيف أن المرأة — وهي ربة الوجدان ،

وباعثةالعواطف، وحارسة الجمال — لم يحفظ لها تاريخ الفنون بعامة، والآداب بخاصة، آثارها في تلك الناحية الهامة الأصيلة من نواحي الحياة !

فهل عقم وجدانها حتى ما تحس شيئاً من ذاك ؟ وكيف والوجدان لباب كيانها، وقوام حياتها، والعنصر البارز في طبيعتها ؟ أم هل أصابها العي فما تستطيع أن تعبر عن مشاعرها، وتمثل خواطرها، وتترجم عن عواطفها ؟ وكيف وهي التي خلقت لتسكب في أذني الرجل الكادح أغنية الحياة ؟ أم لعل هذا من أثر ما بينها وبين الرجال في ماضي الحياة من عدل مفقود، وحق مهضوم ؟ ربما . . . وفي كل حال، لم أعن بتتبع الحقيقة في هذا الشأن، ولا كان يسرني أن يتبين فيها وجه الرأي، قدر ما سررت بمخطوطات نسوية وقعت إلي في ظروف ليس هذا مكان الحديث عنها ولا مجال وصفها. ولئن تطلب « تحقيق النص » أن أبين ذلك كله، فبحسبي أن أقول لقراء « الكتاب » إني عرفت صاحبة هذه المخطوطات معرفة اليقين، واستوثقت من روايتها إذ تلقيت بعضها وقرأت عليها بعضها الآخر . وإذا كان يمس الثقة بها أن لا أسميها، فليغفروا للفن أن يحتفظ بهذا الاسم، وأحسبه سيعلن يوماً ما، إعلاناً تتم معه الثقة بالرواية .

ولعل من واجبي أن أشير هنا إلى المشقة التي عانيتها وأنا ألح على صاحبتي في نشر هذه المخطوطات وإذاعتها، فقد أبت طويلا أن تعرض على أعين الناس هذا السر العزيز الذي تراه سر الحياة، وضنت بتلك الأنفاس الغاليات — وهي عندها روح وجودها وجمال دنياها — أن تلقى على مسمعهم، وفيهم كافرون، وجاحدون، ومرتابون. على أني ما زلت بها أحدثها عن حق الفن، وأروي لها قصة ذلك الظلم الذي حاق بنا فغاب من تاريخ الفنون حديث عواطفنا ومشاعرنا، ثم ما زلت بها أغريها — باسم حبها العبقري — أن ترتل على مسمع الدنيا نشيد إيمانها، ليستيقن الذين عرفوا، ويزداد الذين آمنوا إيماناً . . حتى أذنت لي أخيراً في نشر مخطوطاتها، وإلى القراء اليوم قطعة منها أثبتها طبق أصلها في رواية أمينة . . .

١

نشيـــد

شاقني أن أرفع إليك نجواي . . .

وقد فصلتني عنك قطعة من الزمان، هي في حساب الدنيا بضعة أيام وهي في حسابي دهور وأعمار . .

ويا ويلي من قصور اللغة ! !

أقول : فصلني عنك الزمان ! ووالله ما تفصلني عنك قوة في الأرض أو في السماء . . .

وما تغيب عني لحظة في يقظة أو منام . . .

وإن كنت مع ذلك ، أفتقدك في كل زمان ومكان . . .

وأنت أنت — على النأي والقرب — ملء عيني ، ملء قلبي ، ملء دنياي . . .

✡✡✡

كل مكان لست فيه غريب عني بغيض إلي . . .

وكل لحظة تمر دون أن ألقاك ، عبث خاسر وعمر مضيع . . .

وأنت رغم ذلك معي ، حيثما أقمت وأنى توجهت . . .

أتنفسك هواء ، وأعيش بك دماً ، وأحيا بك روحاً ، وأستروحك حياة . . .

✡✡✡

كل الذي مضى من عمري قبل أن ألتقي بك غير محسوب علي . . .

وأنا مع ذلك قد التقيت بك منذ الأزل . . .

وعشت بك ، ولك ، ومعك . . .

منذ انبثقت روحك السماوية من نور الإله . . .

✡✡✡

يرهقني الشوق إليك وأنت معي . . .

ويفنيني الحنين لك وأنت إلى جانبي . . .

وتعذبني اللهفة عليك وأنت بين يدي . . .

ويعز علي الصبر عنك وأنت مني وإلي . .

وهيهات أن يسع الكون بعض هذا . . .

أو يسعف عليه العمر . . .

أو يحتمله كيان من لحم ، وأعصاب ، ودم . . .

✡✡✡

جهلك الناس فاحتملوك وأطاقوك . . .

وعرفتك ، فأرهقتني معرفتي لك . . .

واستنفدني الانفعال بك . . .

وغدوت كلما لقيتك ، عصفتَ بي ، وزلزلت كياني ، ومزقت أعصابي :
من عنف ما تبعثه في ، وأجده فيك ، وأعرفه منك . . .
فإذا غلب الصبر ونفد الاحتمال ، خفتُ على نفسي التمزق ، والموت . . .
وروعني أن أرحل عن الدنيا وأنت فيها . . .
فأوشك أن أسألك أن تعلمني بعض الصبر عنك . . .
وتروضني على شيء من الاحتمال لك . . .
رفقاً بي ، وإبقاءً علي . . .
لكن نفسي لا تلبث أن تتمرد على هذا الضعف . . .
وترى حبي لك جديراً أن يقتل . . .
وتراني كفأ لذلك الحب . . .
وتراك أهلا لي وله . . .
فأمضي ساعية إليك :
إلى وقدة النار ، وبهرة النور . . .
إلى عصف الهوى ، وغشية النشوة . . .
إلى قسوة الألم ، وروعة اللقاء . .
إلى عنف التبدد ، وهول الفناء . . .
وفي عيني بريق العزم والإيمان . . .
وعلى شفتي ابتسامة الرضى والفرح . . .
وعلى وجهي إشراق الاستشهاد . . .

***

وألقاك يوماً بعد يوم . . .
فكأني ما لقيتك قبل ذاك اليوم . . .
فأندفع إليك في لهفة ، وشوق ،
كأنما عثرت عليك بعد أن أمضيت العمر كله أفتش عنك !
فإذا آن لنا أن نفترق ،
عصف بي الألم ، وروعني التمزق . . .
وتوهمت — من هول ما أكابد — أني لن ألقاك بعد ذلك اليوم ! !
فأتشبث بك ، وأملأ عيني منك ،

كأنما أتزود قبل الرحيل .

وهكذا يتحمل كل لقاء لنا ، أفراح اللقاء الأول . . .

وأحزان اللقاء الأخير . . .

* * *

تلق سواي من الناس كل حين ولست معهم !

وتغيب عني الحين الطويل ، وأنت أبداً معي . . .

ذلك لأنك في دنياهم : الحاضر الغائب ، والقريب البعيد . . .

وأنت في دنياي : البعيد القريب ، والغائب الذي هو أبداً حاضر لا يغيب !

* * *

يشغل الناس من وقتك الساعات ، والأيام ، والشهور ، والأعوام . . .

وأظفر أنا باللحظة الخاطفة والدقيقة الطائرة ،

وأنا مع ذلك ، أحيا بك في هذه اللحظة ، ما يساوي الأعمار والآباد . . .

وتحس دقيقتي من الحياة معك ، ما لا تحسه الحياة نفسها في الدهر الطويل . . .

وحسبي أنها دقيقة تذوق الموت والحياة ،

وتسع من الشوق والحب ، والشجو والشجن ، والألم والأمل ، والخوف والأمان ،

ما لا تسعه الدنيا جميعاً على طول الزمان . . .

بنت الشاطىء
(من الأمناء)



أعلام النهضة الحديثة
٦

محمد عاطف بركات
١٨٦١ — ١٩٢٤

للأستاذ أحمد أمين بك

من الأقوال المأثورة أن كل إنسان إما أن يكون أفلاطون أو أرسطو ، يعنون بذلك أنه إن غلب عقله عواطفه كانت نزعته أرسططالية ، وإن غلبت مشاعره عقله فنزعته أفلاطونية .

ونستطيع — قياساً على هذا — أن نقول : إن كل متصدٍّ للإصلاح وقيادة أمور الناس إما أن يكون عليّاً أو معاوية ، فإن غلب عليه تحريه للعدل المطلق في كل صغيرة وكبيرة وعدم رضاه عن أي ظلم مهما كانت نتيجته فهو أقرب إلى نزعة عليّ ، فعنده أن الخط إما أن يكون مستقيما أو أعوج ولا شيء بينهما ، ويحبّ عليّ السير في الخط المستقيم دائماً من غير نظر إلى العواقب . أما معاوية فشيء آخر ، يرى أن "الغاية تبرر الوسيلة" وهو يعلن عن سياسته بقوله : « إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل » فمن سار على هذا



النهج وارتكب الظلم أحياناً بغيـة الوصول إلى نفع كبير فهو أميل إلى خطة معاوية .

والسياسيون — عادة — من قبيل معاوية ، ينحرفون عن الحق أحياناً بحجة أنهم يقصدون إلى منفعة كبرى ، وينظرون إلى المسائل السياسية نظرة البائع والمشتري يدفع الثمن ظناً في الربح ، فهم يضحون بالحق أحياناً أملا في تحقيق حق أكبر ، وقد يخدعون بذلك أنفسهم .

وقادة مصر وساستها كغيرهم من القادة والساسة أكثرهم من هذا القبيل . لأنهم رأوا أن السياسي والقائد لا بد أن يأخذ ويعطي ويتنازل عن شيء ليستمسك بشيء ، وإلا كان كالشجرة الصلبة أمام الريح العاصفة لا بد أن تنكسر لأنها لم تلن .

وهذا لم يمنع أن يهب الله مصر كما يهب العالم رجالا صَلُبَ عودهم واشتد خلقهم فوهبوا أنفسهم للحق لا شيء غير الحق .

كان من هذا القبيل في عصرنا الحديث « حسن باشا عاصم ». كان رئيساً للديوان الخديوي ، وطلب الخديو عباس من الأوقاف أن تعطيه تفتيشاً من تفاتيشها في الجيزة من الأراضي المعدة للبناء في نظير أن يعطيها مزرعة من مزارع الخاصة الخديوية وأن تعطيه الأوقاف ثلاثين ألف جنيه فرق بدل، وعرض الأمر على المجلس الأعلى للأوقاف ، فوقف في ذلك حسن باشا عاصم ومعه الشيخ محمد عبده وعينا لجنة تقدير رأت الغبن في ذلك على الأوقاف ، وأن الخاصة الخديوية إذا أرادت البدل وجب عليها أن تدفع عشرين ألفاً ، لا أن تأخذ ثلاثين ألفاً . فغضب عليه الخديو وأحاله على المعاش .

وكان من أغرب تمسك حسن باشا عاصم بالمبدأ والعدل المطلق : أن تبرع غنيٌّ من أغنياء المحلة الكبرى للجمعية الخيرية الإسلامية بإنشاء مدرسة وقف عليها أطياناً ، فلما تم فتح المدرسة قدم هذا الغني طلباً لابنه لدخول المدرسة ، وكان يتجاوز السنّ المحددة بأشهر ، فرفض حسن باشا قبوله ، وكان إذ ذاك مدير مدارس الجمعية ، وقال : إن هذا الغني تبرع بالمدرسة فنشكره ، وأراد أن يكسر قوانيننا فلا نقبل ذلك منه . وترتب على ذلك أزمة بينه وبين الشيخ محمد عبده وحسن باشا عبد الرازق وغيرهما من كبار رجال الجمعية ، ولكنه أصر على رأيه ، وأخيراً اضطروا إلى موافقته .

وجاء عاطف بركات يمثل هذا الطراز ، ويتخذ من حسن عاصم أستاذاً ، إذ كان يعاشره ويعجب به ، كما كان يتخذ من «كَنْت» مثله الأعلى ، وكثيراً ما كان يحدثنا عنه ويستثير إعجابنا به في دقته ونظامه في حياته ، وأنه كان إذا خرج من بيته ضبط الناس ساعاتهم على موعد خروجه ، وهكذا .

هذه أكبر ميزة لشخصيته : حبه للنظام الدقيق ، وتحريه للعدل المطلق ، والتمسك به مهما جلب عليه من متاعب .

تولى نظارة مدرسة القضاء الشرعي وظل فيها أربعة عشر عاماً ، فأشع فيها روحه ، وكان طلبتها وأساتذتها وزائروها يلمسون العدل ودقة النظام ، ويتنفسون كل ذلك من جوها ، فالمدرسة سائرة كالساعة ، كل عضو يعرف عمله ويؤديه في وقته ، وهم يرونه دائباً لا يمل ، فيخجلهم بجده ونشاطه فيقلدونه في سيرته . فإذا جد الجد تجلى عدله في أكبر مظاهره . أراد الخديو عباس أن يعطي أحد المدرسين بالمدرسة درجة مالية أعلى من درجته . وأوفد إلى أعضاء مجلس إدارة المدرسة بذلك ، فكلهم قبل نزولا على إرادة الخديو ورغبة في المسالمة ، ولكن « عاطفاً » رأى أن غير هذا الأستاذ أحق منه ، وأن في إعطائه ظلماً على الآخرين ، فأبى وأصر على الإباء ، ووضع نفسه والمدرسة في أزمة مع ناظر المعارف ، ومع السراي ، فلم يعبأ بهذا كله .

ومثل الدور نفسه مع سعد باشا زغلول ، إذ كان « عاطف » وكيل وزارة المعارف ، ولسعد زعيم الأمة كل السيطرة على شؤون البلاد ومصالح الحكومة ، فطلب سعد منه أن يقبل ابن حمد باشا الباسل في مدرسة ثانوية ، وكانت سنه تتجاوز السن القانونية بأشهر ، فأبى « عاطف » وقال : إما أن نغير القانون ونقبله ونقبل كل أمثاله ، وإما أن نرفض الجميع . وغضب سعد من ذلك أشد الغضب فلم يبال بذلك .

لا فرق عنده في تحقيق العدالة بين قريبه وغير قريبه ، ومن يعرفه ومن لا يعرفه ، بل ولا بين من يحبه ومن يكرهه . أمام عينيه قوانين العدالة وكفى ، وهو ليس إلا قاضياً يطبقها معصوب العينين عن كل اعتبار وكل عصبية . ومثل هذا الرجل — وخاصة في مثل أممنا التي اعتادت الإفراط في المجاملة والمحسوبية — لا يكون محبوباً إلا من تلاميذه وخاصته ، ولكنه يكون محترماً من الجميع . وكذلك كان ، فكم رجي فرفض الرجا ، وكم طلب إليه أن يغض طرفه عن القانون فأبى إلا القانون ، وكم نصح أن يرعى الكبراء ، وخاصة في المسائل الصغيرة لتجاب مطالبه في المسائل الكبيرة ، فلم يستسغ عقله هذه المساومة . فكان كل هذا مدعاة لمحاربته وكثرة اصطدامه .

لقد كان من ذلك حادثة طريفة : وهي أن ناظر المعارف كان أحمد حشمت باشا وقد اقترح على مدرسة القضاء أن تعين فلاناً مدرس خط ، وكان فلان هذا من أحسن الناس خطاً وأحسنهم خلقاً ، ولكن « عاطفاً » أبى ، لأن قانون المدرسة يجعل اقتراح التعيين من حق مجلس إدارة المدرسة ، وليس لناظر المعارف حق إلا القبول أو الرفض ،

لا حق الترشيح ابتداءً ، وكانت أزمة طويلة ، « وعاطف » يرى الحق بجانبه وناظر المعارف يرى أنه مس في كرامته ، ولقيت المدرسة من ذلك عنتاً واضطهاداً صبر له « عاطف » ، وأخيراً نزل ناظر المعارف عن رأيه وأقر من رشحته المدرسة لا من رشحه هو . وهكذا كانت حياته كلها صراعاً ، فما استمسك أحد بالحق إلا أوذي ، ولكنه في الوقت عينه أجلّ وأكبر .

وناحية أخرى كانت ترتكز عليها عظمته : ذلك أنه لم يكن واسع الاطلاع ولا بحاثة في الكتب ، ولا عاكفاً على البحوث العلمية والأدبية ، وإنما يقرأ ما يقرأ في رفق وهوادة ، ولكنه — مع ذلك — نظيف العقل ، لا يقبل عقله الفكرة إلا إذا كانت واضحة ، ولا يعبر عنها إلا إذا كانت ناضجة محددة . وهو — إلى ذلك — حرّ التفكير ، لا يعبأ بالآراء الموروثة ولا بالتقاليد المرعية في الأفكار، ثم هو طويل النفس في الجدل ، قوي الحجة في المناظرة ، لا يمل ولا يتعب ، حتى قد يسلم له مجادله ، لا عن اقتناع ولكن حباً في الراحة وطلباً للسلامة .

ولوثوقه من نفسه في ذلك وحبه في نشر أفكاره اتخذ طريقة « سقراط » في تعليمه ، فكان ينتهز كل فرصة لإثارة الموضوعات التي تنبعث من الظروف الحاضرة ، في حجرة المدرسين ، في مطعم الطلبة ، في حلقاتهم ، في الفسح ، فيثير مسألة من المسائل ويبرهن عليها ، ويتلقى الرد عليها من المدرسين أو الطلبة ، وتكون المسألة حديث المدرسة في الفصول وأوقات الفسح ، وقد تستمر أياماً والعقول متيقظة باحثة فاحصة ، فإذا انتهت أثير غيرها ، وهكذا . فكان هذا مثار نشاط ذهني عجيب ، ومدعاة لتحرير الأفكار ، وتعويداً على الاستقلال في التفكير ، وعدم الخضوع للتقاليد . هذا في المجادلة العامة في المدرسة وحجر المدرسين والفصول ، وكان له مع خاصته وفي بيته جدل في المسائل الدقيقة ، سياسية كانت أو دينية ، يتحرر فيها العقل من كل القيود إلا قيود الحجج والبراهين .

كانت أخلاقه هذه الصارمة القوية صالحة كل الصلاحية لإصلاح مدرسة عالية ، ولذلك نجح فيها كل النجاح ، وخلق جواً من العدل والنظام وحرية التفكير يستنشق منه كل أستاذ وكل طالب على حسب استعداد رئته ، وطبع كل من في المدرسة بطابع بين الأثر ، وكانت لهم في حياتهم العامة بعدُ روح مستمدة من روحه ، وأخلاق هي صدًى لأخلاقه .

فلما تقلد منصب وكالة المعارف اصطدم اصطداماً عنيفاً بالرجاوات والدرجات

والعلاوات ، ولم تتحمل ميوعة الناس صلابته ، ولا عذوبة مجاملاتهم مرارته ، فلم ينجح فيها نجاحه في مدرسته .

ولما انغمس في السياسة العامة للبلد ، وبالحركات السياسية مع سعد وصحبه ، لم تسعفه أخلاقه ، لأن ألف باء السياسة المصانعة والمجاملة والمهارة في المساومة ، وهو لا يحسن شيئاً من ذلك . ولذلك كان نجاح أخيه فتح الله باشا بركات في هذا الباب أكثر من نجاحه هو . وكل ميسر لما خلق له .

أحمد أمين



نوادر المخطوطات

كتاب المردفات من قريش

رواية أبي الحسن علي بن محمد بن عبيد الكوفي ، عن أبي القاسم عبد الله بن محمد ، عن أبي جعفر أحمد بن الحارث ، عن المدائني .

تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

هذه الرسالة القيمة الطريفة في موضوعها — وهو موضوع حيوي اجتماعي ، فيه الإفصاح عن كثير من غوامض الحياة الاجتماعية في الصدر الأول من الإسلام — صنعها راوية جليل من رواة الأخبار ، يعد في الصدر من رجالات التأليف والتثقيف في العصر العباسي ، هو أبو الحسن المدائني على بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف . وأبو الحسن هذا بصري سكن المدائن ، ثم انتقل عنها إلى بغداد فلم يزل بها حتى وافاه الأجل . وكان أبو الحسن مولى لعبد الرحمن بن سمرة القرشي ، وهذا يكشف لنا القناع عن سر تأليفه لهذه الرسالة التي يتناول فيها أخبار النساء المردفات من قريش . وكان أبو الحسن ميالا إلى التأليف فى أخبار العرب وأنسابهم وأيامهم ، عالماً بالفتوح والمغازي ، وكان لما أنعم الله به عليه من عمر مديد جاوز التسعين ، أثر عظيم في ضخامة مكتبته التي أخرجها للناس ، وتناولها ابن النديم في الفهرست بالسرد، فأربت على مائتين وأربعين مصنفاً يلمح القارئ في عنواناتها جلال علم هذا الرجل، واتساع معارفه، وتبحره في فنون التأليف والرواية .

ولد أبو الحسن سنة ١٣٥ وترعرع في كنف مولاه عبد الرحمن بن سمرة القرشي ، وعندما انتقل إلى بغداد وصل حبله بإسحق بن إبرهيم الموصلي فكان لا يفارق منزله ، ومما هو جدير بالذكر أن أبا الحسن أغمض إغماضته الأخيرة في منزل صاحبه إسحق الموصلي في سنة ٢٢٥ ، وكان إسحق يبر أبا الحسن براً ظاهراً ، ويروى أن يحي بن معين سأله مرة وقد جاز عليه وهو على حمار فاره : إلى أين يا أبا الحسن ؟ فقال : إلى هذا الكريم الذي يملأ كمي من أعلاه إلى أسفله دنانير ودراهم . يعني إسحق الموصلي .

هذه المكتبة المدائنية التي ابتلعتها أحداث التاريخ فيما طوت من كنوز الثقافة العربية ، يقف الباحث من بعدها موقف الحسرة والأسى ، وهو إنما يستروح بشيء من العزاء حينما يلمح بعض هذه الآثار في مقتبسات المؤلفين الذين رووا من تلك الكتب أطرافاً ، وفي طليعتهم أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني . واليوم نظفر بعزاء جديد حين ننشر على قراء هذه المجلة التي اتخذت من اسم « الكتاب » عنواناً لها ، قطرة من نبع آثار المدائني ، هي تلك الرسالة التي تزدان بها المكتبة التيمورية التي حفظ فيها المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا كثيراً من نفائس الإنتاج العربي ، وهي في صحبة مجموعة تشتمل على ١١ رسالة رقمها ٨٠ مجاميع ، وعليها خط المغفور له الشيخ طاهر الجزائري . وقد جعل عنوان هذه الرسالة « رسالة المتزوجات من قريش » وهذا العنوان موضع نظر ، فإن « المتزوجات » من قريش كثير ، وليس يخطر ببال مصنف أن يضع في ذلك كتاباً ، فإن الزواج أمر عام جداً ليس له طابع من الغرابة يستر عي النظر والاهتمام . فهذه الكلمة محرفة لا ريب . وحين ننظر إلى موضوع الكتاب نجد أنه يتناول النساء القرشيات اللاتي أردفن زوجاً بعد زوج ولم يكتفين بزوج واحد ، لظروف متباينة ساقتهن إلى ذلك أو ساقت ذلك إليهن . ثم نعود بعد ذلك إلى ثبت كتب المدائني فنجد بين كتب مناكح الأشراف وأخبار النساء «كتاب المردفات من قريش» ، فكلمة « المردفات » التي يراد بها اللائي أردفن زوجاً بعد زوج ، هي الكلمة التي تصحح كلمة « المتزوجات » وهي الكلمة التي تنطبق على موضوع الكتاب أتم الانطباق .

***

والآن بعد أن فرغت من تحقيق عنوان هذه الرسالة ، أشعر بغبطة طيبة إذ أقدم هذا الأثر النفيس لقراء مجلة الكتاب عن النسخة التيمورية الوحيدة . وتبدأ سلسلة روايتها بأبي الحسن علي بن محمد بن عبيد الكوفي صاحب ثعلب المولود سنة ٢٥٤ والمتوفى سنة ٣٤٨ ، وتنتهي بتلميذ المدائني وراويته أحمد بن الحارث بن المبارك الخزاز المتوفى سنة ٢٥٧ . وهذه هي الرسالة :

حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال : أنبأنا أبو جعفر أحمد بن الحارث الخزاز قال أنبأنا أبو الحسن المدائني عليُّ بن محمد قال :

١ — تزوّج أمَّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب عليهما السلام عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه ، وقتل عنها فخطبها سعيدُ بن العاص فقالت : إن مثلي لا تزوّج نفسي ، فائت أهلي . فأتى الحسن بن علي عليهما السلام فخطبها فقاربه ، فبعث إليها سعيد بمائة

ألف ، وكلم الحسنُ الحسينَ فأبى . وقد كان الحسن وعد سعيداً وعداً ، فأتاه سعيد وحده فقال : أين أبو عبد الله ؟ قال الحسن : لم يحضرْ ولن يخالفني إذا فعلت . فقال سعيد : إني أكره أن أدخل بينكم بشيء تكرهونه . فرجع ولم يرجع في المال ولم يطلبه . ثم تزوجها عونُ بن جعفر ، ثم تزوجها محمد بن جعفر . وقد ولدت لعمرَ زيداً ورقية فتزوج رقية إبرهيم بن نعيم النحّام[1] ، وماتت هي وابنها زيد في يوم واحد .

٢ — حدثنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط تزوجها زيد بن حارثة ، ثم خلف عليها الزبير بن العوّام فحملت . وكان الزبير شديداً على النساء ، فأقام عندها سبعة أيام فولدت له ابنة ، وقالت له حين ضربها المخاض : طيّب نفسي بتطليقة . فطلقها وخرج إلى الصلاة ، فلحقه رجل فقال : قد ولدت أم كلثوم . فقال : خدعتني خدعها الله . ولم يكن له عليها رجعة . وخطبها فأبت أن تزوجه . ويقال : أتى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبره فقال : قد مضى فيه القرآن ، ولكن إن شئت خطبتها إلى نفسها . قال : لا ترجع إليّ أبداً ! وابنتها من الزبير زينب . ثم تزوجها عبد الرحمن بن عوف بعد زيد ثم الزبير . فولدت لعبد الرحمن محمداً وإبرهيم وحميداً وإسمعيل ، ثم تزوجها عمرو بن العاص فأخرجها معه إلى مصر . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجها معه في بعض مغازيه تداوي الجرحى وضرب لها بسهم ، فقالت يوماً لخباز عمرو[2] : لا تهيىء له اليوم طعاماً فإني قد هيأت له غداءه . ودعا عمرو بالغداء فقال الخباز : أرسلت إليّ أمُّ كلثوم : لا تتكلف شيئاً فقد هيأت له غداءه . قال : فغدِّنا ، فتغدى ، فلما فرغوا وخرج مَن حضر قال لأم كلثوم : لا تعودي فإني لم أتزوجك لتطعميني ، وإنما تزوجتك لأطعمك . فماتت عنده .

٣ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : كانت هند بنت عتبة بن ربيعة ، أمُّ معاوية ، عند الفاكه بن المغيرة ، فقتل عنها بالغميصاء[3] في الجاهلية ، ثم خَلف عليها حفصُ بن المغيرة ، فمات عنها ، فتزوجها أبو سفيان بن حرب .

٤ — عاتكة ابنة زيد بن عمرو بن نُفيل . أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن

---

(١) انظر خبر زواج إبرهيم بن نعيم النحام في الأغاني (٤ : ١٤٦) والمعارف ص ٨٠ .

(٢) يطلق الخباز على من يشرف على إعداد الطعام وطهيه . انظر التحقيق في حواشي الحيوان (٥ : ٤٥٧) .

(٣) الغميصاء : موضع في البادية بالقرب من مكة .

عن جويرية بن أسماء وعامر بن حفص قالا : عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، أمها ميمونة بنت الحضرمي بن الصعبة (١)، كانت عند عبدالله بن أبي بكر بن أبي قحافة فأحبها ، فكان ربما ترك الصلاة جماعة ، فأمره أبو بكر رضي الله عنه بطلاقها وقال : قد فتنَتك عن دينك ، وشغلتْك عن معيشتك فطلِّقْها . فطلقها ، وقال :

ولم أر مِثلي طلَّق اليومَ مثلَها ... ولا مثلَها في غير جُرْم تُطَلَّقُ

لها خُلقٌ سمْحٌ ورأيٌ ومَنصبٌ ... وخَلقٌ سَويٌّ في الحياء ومَصْدَقُ (٢)

أعاتكَ لا أنساكِ ما هبّتْ الصَّبا ... وما ناح قُمْريُّ الحمامِ المطوّقُ

أعاتكَ لا أنساكِ ما حجَّ راكبٌ ... وما لاح نجمٌ في السماء محلِّقُ

أعاتكَ قلبي كلَّ يومٍ وليلةٍ ... إليكِ بما تُخفي النفوسُ معلَّقُ

ولولا اتِّقاءُ اللهِ في حقِّ والدٍ ... وطاعَتِه ما كانَ منّا التفرّقُ

فبلغ أبا بكر شعره فأمره فراجعها ، وكانت عنده حتى مات شهيداً ، أصابه سهم في حصار الطائف فانتقض به جرحه فمات ، فقال لعاتكة حين احتضر : لك حديقة من مالي ولا تزوجي . ففعلت ذلك . وقال حين راجعها :

أعاتكَ قد طلّقت عني بغُصَّةٍ ... وراجَعْت للأمر الذي هو كائنُ (٣)

كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحٌ ... على النَّاس فيه أُلفةٌ وتباينُ

وقد كان قلبي للتفرُّق طائراً ... وقلبي لما قد قرَّب اللهُ ساكنُ

أعاتكَ إني لا أرى فيك سَقْطةً ... وإنك قد حلَّت عليك المحاسنُ (٤)

وإنّك ممن زيَّن اللهُ أمْرَهُ ... فليس لما قد زيَّن الله شائنُ (٥)

فمات عبد الله وترك سبعة دنانير ، فقال أبو بكر : إنا لله ، كيف يصبر ابني على سبع كيّاتٍ . فلما مات عبد الله قالت عاتكة :

---

(١) في الإصابة ٦٩٥ من قسم النساء أن أمها أم كريز بنت عبد الله بن عمار بن مالك الحضرمية . (٢) المصدق : الصدق . وفي الأصل : « في الحياة » وفي الأغاني (١٦ : ١٢٨) « في حياء » .

(٣) في الأغاني : « في غير ريبة ✲ وروجعت » .

(٤) في الأغاني : « سخطة ✲ وإنك قد تمت » .

(٥) في الأغاني : « وجهه ✲ وليس لوجه زانه الله » .

فجعت بخير النّاس بعد نبيِّهم وبعد أبي بكر وما كان قصَّرا
فآليت لا تنفكُّ عيني سخينةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدِيَ أغبَرَا
مَدَى الدهر ما غنّت حمامةُ أيكةٍ وما طرَدَ الليلُ الصَّبَاحَ المنوَّرا
فللّه عينا مَن رأى مثلَه فتىً أكرَّ وأحْمَى في الجهاد وأصبرا
إذا شرَعَتْ فيه الأسنّةُ خاضَها إلى الموت حتّى يترك الرُّمحَ أحمرا

فخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت : إني قد جعلت على نفسي مالا أقدر [معه] على التزويج . فقال : استفتي ابن أبي طالب رضي الله عنه . فاستفتته فقال : ردي عليهم ما أخذْته منهم وتزوجي . فردت الحديقة ، فتزوجها عمر رضي الله عنه ، فلما دخل بها أوْلَمَ ، فدنا علي رضي الله عنه من خدرها وقال :

فآليتُ لا تنفكُّ عيني سخينةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدِيَ أغبرا !

فبكت ، فقال عمر : ما أردتَ إلا أن تفسد علينا أهلنا(١) . ويقال قال هذه المقالة لها عبد الرحمن بن أبي بكر . فلما قتل عمر قالت :

فَجَّعني فيروزُ لا دَرَّ درُّهُ بأبيضَ تالٍ للقُرَانِ مُنيبِ
رؤوفٍ على الأدنى غَليظٍ على العدى أخي ثقةٍ في النَّائباتِ نجيبِ
متى ما يقُلْ لا يُكْذِبِ القولَ فِعْلُه سريعٍ إلى الخيرات غيرِ قَطُوبِ

وقالت :

عينُ جُودِي بعبرةٍ ونحيبِ لا تملِّي على الإمام النَّجيب
فجّعتْني المنونُ بالفارس المُعْـ ـلِم يومَ الهِياج والتذييب(٢)
عصمة الناس والمعينِ على الدّهـ ـر وغيثِ المنتاب والمحروبِ
قل لأهل الضّرّاءِ والبأس مُوتُوا قد سقتْه المنونُ كأسَ شَعُوبِ

فخطبها طلحة بن عُبيد الله ، فمشى في أمرها هبّار بن الأسود فأفسد عليه ، فتزوجها الزبير بن العوام ، فنهاها عن الخروج إلى المسجد فقالت : أتنهاني عن الخروج إلى الصلاة

(١) في الأصل : « أهلها » .
(٢) التذييب : إكثار الذب والدفع . وفي الأغاني « التلبيب » .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماء الله من مساجد الله » . فأعرض عن ذلك أياماً ثم قعد لها في طريقها ليلاً ، فلما مرت به ضرب عجيزتها بيده — وكانت عظيمة العجيزة جميلة — فرجعتْ إلى بيتها واسترجعت وقالت : سوأة ، إنا لله . وتركت الخروج ، فقال لها الزبير : مالك تركت الصلاة في المسجد ؟ قالت : قد فسد الناسُ أبا عبد الله . فقتل عنها فقالت :

غدرَ ابنُ جُرموزٍ بفارس بُهْمَةٍ　　يوم اللِّقاء وكان غير معـرِّد

يا عمرُو لو نبَّهتَه لوجـدْتَه　　لا طائشاً رَعِشَ الجَنان ولا اليدِ

شلَّتْ يمينُك إن قتلت لمسلماً　　حَلَّت عليك عقوبةُ المتعمِّـدِ[1]

كم غمرةٍ قد خاضَها لم ينهـه　　عنها طرادُك يا ابن فَقْعِ القَـردَدِ

ثم خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالت : إني أشفق عليك من القتل ، لم أتزوج رجلا إلا قتل . فتزوجها محمد بن بن أبي بكر فخرجت معه إلى مصر فقُتل ومثل به فقالت :

إن تقتـلوا أو تَمثُلوا بمحمّد　　فما كان من شأنِ النِّساء ولا الخمرِ[2]

فتزوجها عمرو بن العاص .

أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن ، عن أبي مقرر ، عن محمد بن عمرو ، أن ابن أمية بن خلف[3] رأى رؤيا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافة أبي بكر فقصها فقال : رأيت أن هذا الرجل قد هلك ، وأنت مكانه ، فبعثت إلى هذه المرأة فتزوجتها — يعني عاتكة بنت زيد — فدخلت عليك وأنت عروس وعلى باب بيتك ستر . فقال عمر : بل يبقي الله خليفة رسول الله . فلما توفي أبو بكر أرسلَ إليها فخطبها .

٥ — سكينة ابنة الحسين عليه السلام ، أمها الرباب بنت امرئ القيس الكلبية[4] فتزوجها عبد الله بن الحسن وهو أبو عُذرتها ، فمات — ويقال قتل مع

---

(١) انظر خزانة الأدب ج ٤ ص ٣٤٨ — ٣٥٢ في الكلام على هذا البيت .

(٢) يقال مثل به يمثل مثلا ، مثل قتل يقتل قتلا : ومثل به تمثيلا ، إذا نكل به .

(٣) هو ربيعة بن أمية بن خلف ، كما في طبقات ابن سعد ٨ : ١٩٤ وانظر خبر ربيعة هذا في الأغاني ١٣ : ١٠٧ .

(٤) انظر خبر تزويج الرباب للحسين بن علي في الإصابة ٤٨٤ .

الحسين — فتزوجها مصعب بن الزبير فولدت له ابنة ، فأرسل إليها : سميها زَبراء . قالت أسميها باسم إحدى أمهاتي . فسمتها خديجة أو فاطمة . فماتت ابنتها من مصعب وهي صغيرة ، فحملها مصعب إلى العراق فقتل عنها . وقال ابن قيس الرقيّات حين تزوج مصعب سكينة . ويقال قالها الحارث بن خالد المخزومي حين خرج مصعب بعائشة بنت طلحة :

رحل الأميرُ بأحسن الخلق وغدا بلبِّكَ مطلعُ الشَّرْقِ[1]

وبدَتْ لنا من تحت كِلَّتِها كالشَّمس أو كغمامة البَرْقِ

وتَنُو فتُثْقلها عجيزتُها مَشْيَ النّزيف ينوءُ بالوَسْقِ[2]

فظلِلْتَ كالمقمور خُلعتَه هذا الجنونُ وليسَ بالعِشْقِ[3]

ما صبّحتْ زوجاً بغُرّتها إلا غَدَا بكواكب الطَّلْقِ

وتروى هذه الأبيات لرجل من ثقيف قالها في امرأة من ثقيف .

البقية ستأتي

---

(١) في الأصل : « بليل » صوابه من ديوان ابن قيس الرقيات ١٠١ وفي الأغاني (٣ : ١٠٣) : « وغدوا بلبك » .

(٢) في الديوان ١٠٣ : « نهض الضعيف » .

(٣) الخلعة ، بضم الخاء وكسرها : خيار المال ، لأنه يخلع قلب الناظر إليه وفي الأغاني « مهجته » .

من محيط الغرب

طلائع القصة القصيرة في الأدب الغربي

للمستشرق الأستاذ دنيس جنسون دافيز

هناك أساليبُ عدةٌ لسرد قصة مّا . فمنذ أن تعلم الإنسان الكلام تعلم معه فنّ رواية القصص ، ومنذ أن تعلم الكتابة تعلم معها فنّ وضع هذه القصص في قالب أدبي . وموضوعات القصص لا تكاد تختلف من جيل لآخر ، وإنما تختلف طريقة معالجة القصة فتتغير هذه المعالجة وتتطور ، ويجد فيها الكاتب القصصي مجالاً للتجديد والتنويع . ولقد كان الإنسان يروي القصص لغيره من الناس منذ فجر التاريخ ، إلاّ أن فنّ كتابة القصص كفن مستقل خاص هو من ابتكار مائة السنة الماضية أو نحوها . على أننا نجد في الكتب القديمة ، كالإنجيل مثلاً ، قصصاً تعدّ من أروع الأمثلة في هذا اللون من الأدب إلاّ أن كتّاب هذه القصص لم يكونوا على علم بأنهم يكتبون نوعاً خاصاً من الكتابة له طرقه الخاصة ، بل وضعوا هذه القصص بالسليقة لا تبعاً لقوانين مرسومة ، ولهذا السبب نستطيع أن نقول إن فن القصة القصيرة هو في الواقع من إنتاج عصرنا الحاضر . والقصة القصيرة وإن تكن حديثة العهد فقد قطعت مراحل واسعة ، وتقدمت تقدماً سريعاً فى هذه السنين القليلة . وهذا يرجع في الغالب إلى مرونة هذا الضرب من الكتابة وإلى قابليته لتحمّل التجارب . وقد شاهدت الفترةُ بين الحربين العالميتين ميلاً واضحاً قوياً من جمهور القرّاء نحو القصة القصيرة التي تعالج الموضوعات الجديدة ، ومن الأدلة على ذلك ظهور عدد كبير من المجلات الخاصة بالقصة القصيرة في إنجلترا خلال الأعوام القليلة الماضية .

فما هي إذن القصة القصيرة ؟ وأي تعريف يمكننا أن نطلقه عليها ؟ وليس الجواب عن ذلك أمراً هيناً ، بسبب مرونة القصة القصيرة وعدم وجود حدود لها : فليس من الضروري أن تكون القصة قصيرة ، فقد يبلغ طولها عشرين ألف كلمة ، أي كتاباً

صغير الحجم ، ولا يشترط فيها أن تكون قصة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، أي حكاية ذات بداية ونهاية ومغزى . والقصة القصيرة تختلف عن الرواية ، لا في الطول فحسب ، بل في أن الرواية تصور لنا الحياة بأكملها مع التطورات في الحوادث والشخصيات . والقصة القصيرة قد تخلو من أي تطوّر. وفي إمكان الكاتب القصصيأن يتخلى كل التخلي عن الشخصيات في قصصه القصيرة ، فكثيراً ما يكتفي الكاتب بذكر شخصيات قصة مجردة من أية صفات معينة ، اللهم إلاّ الجنس ، وقد لا يعرف عن المكان الذي تدور فيه وقائع القصة إلا أنه غرفة في فندق حقير ، أو رصيف في محطة للسكة الحديدية على سبيل المثال . أمّا في الرواية فالقارىء ينتظر تفاصيل أكثر وأوفى عن شخصيات الرواية وأحداثها وزمانها ومكانها .

والواقع أننا إذا أردنا أن نلتمس شبهاً بين القصة القصيرة وبين أي فن آخر فأقرب هذه الفنون منها هو فنّ السينما . فالفلم يصوّر عن طريق صوره الخاطفة أطفالاً وهم يعدون على رمال شاطىء البحر، أو رجلاً هرماً يدخن غليونه ويحملق في الفضاء ، أو قطرات المطر وهي تجري على زجاج النافذة . هذه اللمع السريعة هي مادة السينما ، وهي أيضاً مادة القصة القصيرة . وفي الفنين ، فن القصة القصيرة وفن السينما ، يتحقق الأثر بذكر التفاصيل الدقيقة ، وهي وإن كانت تبدو أحياناً تافهة في ذاتها تستتر من ورائها معان بعيدة وعواطف عميقة ، فمثل هذه التفاصيل إنما تبعث في ذهن القارىء أو المشاهد أفكاراً وعواطف معينة ، لأنها رموز أكثر منها تصوير حرفي لجانب من جوانب الحياة . والقصة القصيرة ، كما ذكرنا آنفاً ، ليست برواية ملخصة ، إذْ أن لها قوانينها وأساليبها الخاصة بها ، وهي مع بعض المبالغة لا تشبه الرواية إلا في أنها مكتوبة نثراً . ولذا نرى أن أغلب كتّاب القصص القصيرة المشهورين قد تخصصوا بهذا الضرب من الكتابة ، ولم يحاولوا أن يخرجوا من نطاقه .

وتاريخ القصة القصيرة كفنّ مستقل بدأ بظهور الكاتب الأمريكي إدجار آلان بو وكان بو كاتباً مضطرب النفس ، له اهتمام خاص بما هو غريب وشاذ في الناس وفي حوادث الحياة . وكان من حسن حظ القصة القصيرة أن بو قد اختارها للتعبير عن الأفكار العظيمة التي جادت بها عبقريته ، وعن النوازع السقيمة المتأصلة في نفسيته . وقد أجاد بو في كتابة القصص القصيرة . لأنه أدرك أن القصة القصيرة لا تتحمل اللغو والحشو ، وعرف أنها تعتمد على خلق الجوّ ببضع كلمات لا بصفحات طويلة . وإلى جانب قدرته على خلق جوّ خاص فقد ملك القدرة على بناء قصصه والبلوغ بها إلى ذروتها

في مهارة عجيبة ، وتتمثل هاتان الميزتان في الطريقة التي عالج بها قصته : « الحب ورقاص الساعة » The Pit and the Pendulum وهي من أشهر قصصه ، فقد بلغ فيها غاية الإحساس في خلق جو الرعب والفزع ، وفي سرد النهاية غير المتوقعة ، وذلك في كلمات موجزة . ويعدّ بو أيضاً مبتكر القصة البوليسية ، وهي اليوم من أحب ألوان الأدب إلى الجمهور في الغرب . وقصته «جرائم قتل في شارع مورج» Murders in the Rue Morgue لا تزال تعدّ من أروع أمثلة هذا اللون من الأدب . والواقع أن بو قد خلف وراءه تركة جيدة خصبة لـكتّاب القصة القصيرة في أمريكا ، بل في العالم أجمع ، فكثير من قواعد القصة القصيرة الحديثة مأخوذ عنه .

وحين كان بو يكتب في هذه الموضوعات الغريبة المخيفة كان جوجول في روسيا قد بدأ يتناول في قصصه القصيرة المواقف المألوفة والشخصيات العادية . وتعد قصته « المعطف » دعامة من دعائم القصة القصيرة الحديثة . ثم تبعه ترجنيف الذي نجح — رغم انتسابه إلى الطبقة الحاكمة — في تصوير حياة الفلاحين البسيطة وجمال الريف الروسي . وكانت هذه القصص صوراً من الحياة أكثر منها قصصاً من صنع الخيال .

كانت هذه طلائع القصة القصيرة . ولـكن لم يمض وقت طويل حتى ظهر كاتبان آخران ارتفعا بالقصة القصيرة إلى مرتبة عالية ومستوى لم تكن قد بلغته من قبل، بل إن القصة القصيرة لم تحظ بعدهما بكاتب ينازعهما مكانة مماثلة في ذلك المضمار . وهذان الـكاتبان هما جي دي مو بَسَان وأنطون تشيكوف ، وقد اشتركا في بناء القصة القصيرة على دعائم قوية متينة ، حتى إننا إذا تحدثنا عن كتّاب القصة القصيرة المعاصرين يحق لنا أن نقسمهم إلى مدرستين مستقلتين ، مدرسة تكتب متأثرة بتشيكوف الروسي معترفة له بالمـكانة الأولى بين كتّاب القصة القصيرة ، ومدرسة ثانية تتبع أساليب موبسان الفرنسي في سرد القصص .

وكان موبسان ذا أسلوب دقيق واقعي ، يبلغ هدفه دون التواء أو إبهام . وكانت موضوعات قصصه غير معقدة ، والغاية منها ظاهرة ، وطريقة سرده لها سهلة بسيطة لا يشوبها غموض ما ، ويستغل كل مناسبة لإحداث التأثير المطلوب ، سواء أكانت غايته في هذا السخرية من الناس أم غير ذلك . وفي كثير من قصصه كان يستخدم النهاية الفجائية غير المتوقعة ، وأشهر الأمثلة على النهاية الفجائية فى القصة القصيرة هو قصة « العقد » لموبسان . ويتناول قصة امرأة فقدت عقداً ظنته ثميناً كانت قد استعارته من

صاحبة لها . وبعد ما جاهدت هي وزوجها السنين الطوال لأداء الديون التي سببها شراء عقد ثانٍ يظهر في أواخر القصة أن العقد الذي استعارته لم يكن إلا عقداً رخيصاً لا يساوي إلا بعض الفرنكات . ومثل هذه القصة تقرأ لأول مرة بلذة ، ولكن لا يطيق القارىء العودة إليها مرة أخرى ، لأن تأثيرها في نفسه يتوقف كل التوقف على الصدمة في النهاية . وما دام على علم بهذه الصدمة فالقصة تفقد قيمتها عنده . ولكن قصص موبسان لا تقوم كلها على مثل هذه الخدع ، على عكس كتاب آخرين مثال الكاتب الأمريكي أو . هنري .

أما تشيكوف فقد كان لقلمه خفة لم نجدها في موبسان ، وليس لقصصه في العادة حادثة ما يعنى بأمر سردها ، بل هي غالباً عرض لعواطف متباينة غير محددة ، يغلب عليها الغموض . وكان حكم تشيكوف على أشخاص قصصه القصيرة أكثر تسامحاً ورقة من موبسان ، وكلا الكاتبين يتناول بالعرض والوصف أفراد الطبقة الوسطى ، ولكن بينما ينظر موبسان إليهم بمرارة دفينة متحاملاً على حماقتهم ونفاقهم ، (اقرأ درته : كرة من الشحم Boule de Suif) ويمزّقهم بقلمه اللاذع دون رحمة ، فإن تشيكوف على استعداد دائم ليغفر لهم مزالقهم ، وليجد لهم المعاذير فيما يعملون ويدبرون . وكلاهما بعد هذا يؤمن بأهمية البساطة والاختصار في سرد القصص القصيرة ، فهي عندهما لا تتحمل الإكثار من الاستطراد والوصف الطويل ، بل هي تبلغ أثرها بلمحات خاطفة تكشف عن الجوهر المخبوء . وكلاهما يعتقد بأن الحياة بأكملها مادة للكتاب ، التافه فيها والمثير ، والجميل والبشع على السواء . وقد قال تشيكوف هو نفسه في هذا الصدد : « عند الكيميائي لا شيء قذر في هذا الوجود ، وعلى الكاتب أن يكون موضوعياً مثل الكيميائي ، فعليه أن يضع آراءه الشخصية جانباً ، وأن يدرك أن المزابل لها أهمية كبرى في المنظر الطبيعي الذي يمتد أمامه ، وعليه أن يفهم أن الرغبات الخسيسة ليست أقل استقراراً في النفس البشرية من العواطف النبيلة » .

ومع كل ذلك فهناك بون شاسع بين الكاتبين . فتشيكوف يطالب قارئه بمجهود وبقدرة على الإدراك أكثر مما يطالب بهما موبسان . فموبسان يبلغ مرماه في وضوح تام ، دون أن يستقل من استعداد القارىء على فهم ما يكتب ، فما كان من عادته أن يبالغ في هذا الاستعداد . كان يعلم الأثر والإحساس اللذين كان يريد أن يتركهما في قرائه ، فينطلق إلى تحقيق هذا في أيسر السبل وأقربها . ولكن كانت غاية تشيكوف غير غاية موبسان ، ولذا اختلفت سبلهما . فتشيكوف مثل الرسّام الذي يكتفي برسم

الخطوط الخارجية وبعض التفاصيل الصغيرة في صوره ، ويترك للرائي أن يتخيل البقية . وكثيراً ما تبدو قصص تشيكوف خالية من أي حادث على الإطلاق ، لأنه يكتفي في كثير من الأحيان بالرمز والإيماء . وأحياناً تجري الوقائع خارج صفحات القصة ، فعلى القارىء أن يدركها حينذاك بمخيلته وإحساسه الفني . وتشيكوف في هذا أول من عبّر عن ذلك العنصر الشعري الذي نجده قد طغى على القصة القصيرة المعاصرة .

ونحن نرى في هذا العرض السريع أن القصة القصيرة كفن مستقل قد بدأت في أمريكا وروسيا وفرنسا . فماذا إذن عن إنجلترا ؟ الحق أنه لم يظهر في بريطانيا في هذه الفترة كتاب للقصة القصيرة في ضخامة تشيكوف وموبسان ، فكانت إنجلترا مستغرقة إذ ذاك في الرواية الفكتورية الطويلة الغاصة باللغو . وقد حاول فعلاً بعض كتاب الرواية في إنجلترا كتابة القصص القصيرة ، ولكنهم إن أنتجوا روايات قصيرة فإنهم لم يدركوا بعد أن للقصة القصيرة أساليبها الخاصة . وكان أول كاتب إنجليزي ارتفع بالقصة القصيرة إلى مرتبة عالية هو رُدْيَرد كبلنج ، وتعد بعض قصصه القصيرة من أحسن إنتاجه الأدبي ، وإن لم تخل من تلك الوطنية المتطرفة ، وذلك التعصب العنيف للاستعمار . ومع أنه كان أكثر الكتاب كسباً فى أيام ذروة شهرته إلا أن نجمه الآن في أفول ، بسبب فلسفته القاسية في الحياة ، التي تشوب كل ما كتب ، سوى ما ألف للأطفال .

وما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى انبعثت في إنجلترا روح جديدة تشع بالشباب والحماسة الشعرية ، تغلغلت في القصة القصيرة فاكتسبت من ورائها فيضاً جديداً من الحياة والحيوية . وفي طليعة هؤلاء كترين منسفلد وسأعرض في مقالي التالي كتاب القصة القصيرة في إنجلترا فيما بين الحربين ، من مثل كترين منسفلد هذه وكوبرد ولورنس ، ثم المدرسة الأمريكية من أيام بو إلى أربابها المعاصرين ، كإرنست همنجواي ووليام ساروريان . ثم أعرّج على ذكر بعض كتاب القصة في الشرق العربي .

دنيس جنسون دافيز

الصور والمعاني
أو
الحسّ والذهن في الشعر العربي

للأستاذ سيد قطب

من طبيعة الحس أن يتلقى المؤثرات فرادى ، وينفعل لكل مؤثر يتلقاه انفعالا مباشراً ، فلا ينتظر حتى يتقصى المؤثرات ذات الموضوع الواحد ، ثم يصدر عليها حكما عاماً . فهذا من عمل الذهن الذي يجمع التجارب الحسية ، ويكون منها قضية ذهنية أو قانوناً علمياً ، ثم يتخذ من مجموع القضايا والقوانين التي يصل إليها في موضوع واحد أو عدة موضوعات مذهباً أو فلسفة ، حسب نوع القضايا والقوانين التي يصل إليها .

والفن موكل بالمؤثرات الفردية والانفعالات التي تثيرها ؛ والعلم والفلسفة موكلان بالقوانين العامة والمعاني الكلية . وإن كان العلم يسلك طريق الملاحظة الفردية . ولكن لا ليقف عندها كما يصنع الفن ، بل ليصل منها إلى قانون عام في النهاية .

فالتجربة في العلم وسيله إلى غاية أكبر منها ، أما التجربة في الفن فهي نفسها مادته الأصيلة . وحين يعنى العلم بوصف مراحل التجربة ليصل منها إلى القانون ، يعنى الفن بوصف هذه المراحل ، لأن الوصف ذاته هو الفن الأصيل . وحينما يصل العلم من تجاربه المتناثرة إلى القانون تفقد هذه التجارب قيمتها إلا من الناحية التاريخية ؛ ويصبح القانون هو المظهر البارز اللامع . أما التجارب في الفن فتبقى أبداً محتفظة بجدتها وحرارتها ، تنفعل لها النفس كلما استعيدت أو استعيد وصفها . لأنهامادة حية مؤثرة على الدوام . ومهمة الفن الأساسية أن يعرض التجارب الإنسانية ، وهي غير التجارب العلمية طبعاً ، وأن يصف جزئياتها ويسجل الانفعالات التي صاحبتها في نفس من تعرض لها ، ويصور ما أحاط بهذه الانفعالات عند مرورها في نفسه من تصورات وأخيلة . وكلما

كان صادقاً في الاحتفاظ لهذا التصوير بالحرارة التي صاحبت الانفعال ، ودقيقاً في سرد التفصيلات التي مرت بها التجربة من خلال النفس، كان ذلك أدعى إلى اكتمال العمل الفني ، وأضمن لاستجاشة النفوس واستثارة المشاعر والإحساس بالجمال .

ومنشأ هذا كله أن صاحب العمل — الفني في هذه الحالة — لم يستأثر بتجاربه النفسية ، ولم ينزو بانفعالاته التي صاحبتها ، بل جعل الناظر في عمله يتابعه فيها خطوة خطوة ، وينفعل معه بها أولا فأولاً ، ويتحرك خياله ويتأثر حسه ، وتشترك مشاعره ، فإذا هو في النهاية صاحب تلك التجربة ، أو شريك لصاحبها على الأقل .

فأما إذا ألقى صاحب العمل الفني بالحقيقة الأخيرة التي انتهى إليها من تجربته ، أو بالمعنى الكلي الذي حصله من وراء انفعالاته ، فإن الناظر في عمله يفقد هذه المتع التي أسلفنا ، ويتلقى المعنى المجرد بارداً ، أو يتلقى الحركة الأخيرة وحدها — وهي بالغة مابلغت من الحرارة — سريعة المرور، لاتلبث حتى تستثير الحس والخيال بالمشاركة الطويلة المفصلة .

وإذا كان هذا القول منطبقاً على الفنون بوجه عام ، فانطباقه على فن الأدب أكثر ، لأن الأدب ألفاظ وعبارات ، وهذه وتلك لا تستطيع رسم المعنى الكلي إلا على دفعات ؛ فاتباع الطريق الفني فيها أيسر من اتباعه في النحت والتصوير مثلا . إذ النحات أو المصور لا يستطيع أن يعرض تجربته النفسيه في تمثاله أو صورته جزءاً جزءاً ، إنما هو يختار حلقة من هذه التجربة توحي بالماضي وبالمستقبل ، وتدع الخيال يعمل في إكمال التجربة الشعورية بجميع حلقاتها كما انتهت إلى التمثال أو الصورة ؛ والمعاني والأحاسيس التي ضمنها إياه . ومن هنا يأخذ كل فن طريقه المناسب لأدواته الميسرة له .

أما الأدب فميسور له ، بل محتم عليه ، أن يعرض موضوعه جزءاً جزءاً . وقد يقال : إن العلم والفلسفة هما كذلك يستخدمان نفس الأدوات التي يستخدمها الأدب ، وهي الألفاظ والعبارات . وهذا صحيح . ولكن الذي يعين طبيعة العلم وطبيعة الفن هو ما ذكرناه آنفاً ؛ وهو أن التجربة في العلم وسيلة إلى غاية أكبر منها ، فلا معنى للعناية بوصفها إلا بمقدار ما يؤدي إلى الغاية منها . أما التجربة في الفن فهي موضوعه . ومن هنا تأخذ قيمتها . ولا ينسينا هذا التعميم أن نذكر بالفارق الأساسي بين طبيعتي التجارب في العلم وفي الفن ، وما يستدعيه هذا الاختلاف من اشتراك المشاعر والوجدانات في التجارب الفنية ، والاكتفاء بالحواس والذهن في التجارب العلمية .

على أنه يبقى هنالك فارق أساسي آخر يستفاد من الفقرات السابقة ، وهو أن التجربة تفقد قيمتها في العلم بعد الوصول إلى القانون ، ولا تعود تذكر أو توصف إلا

من الناحية التاريخية . أما التجربة في الفن فلا تفقد قيمتها أبداً ، وصاحبها مطالب بأن يعيد وصفها بدقة ، وأن يسجل خواطره فيها ، وانفعالاته بها ؛ ولا يكتفي حين يحدثنا عنها أن يلقي إلينا بنتيجتها الأخيرة في نفسه ، بوصف أن تفصيلاتها — كما مرت به — خاصة بشخصه . فهذه التفصيلات الصغيرة هي المادة الحقيقية لفنه ، وبدونها يكون هذا الفن ناقصاً ، لأنه لا يثير في نفوسنا الانفعالات التي أثارها في نفس صاحبه . وهذه الإثارة هي الثمرة المقصودة من مطالعة الفنون !

طريقة السير في الموضوع إذن هي التي تحدد طابع العمل الفني ، كما أنها هي التي تعطيه بعضاً من قيمته الفنية . وأقول بعضاً لأن طبيعة التجارب الشعورية ، ومدى عمقها وأصالتها ، ومقدار نفاذها وصدقها ، ودرجة اتصالها بالحياة الكبيرة . . . كل أولئك ذو أثر في تقويمها وتقديرها .

وهذا ينطبق على الشعر — كما ينطبق على القصة — بوجه خاص . فالتفصيلات وتصوير الانفعالات الجزئية ، ورسم الطريق التي مرت بها الأحاسيس النفسية ، والتصورات والخيالات التي صاحبتها أولاً فأولاً ، هي المادة الأساسية ، وهي السمة التي تضمن الاستمتاع الكامل بالأثر الفني ، دون إغفال للمقومات الاخرى المتعلقة بالموضوع ذاته ، وبنوع الإحساس ومداه وعمقه وسعته وصدقه . وكلما كان الشعر أقرب إلى طريقة القصة في سرد الانفعالات والأحاسيس المتتابعة ، وتصوير جزئيات الشعورات والتصورات المصاحبة لها ، كان أسرع إلى إثارة الوجدانات المماثلة في نفوس القراء ، وأنجح في أداء مهمته ، وأقرب إلى طبيعة الفن منه إلى طبيعة العلم أو إلى طبيعة الفلسفة .

ولست أعني أن يكون الشعر قصة ، ولكن أريد بالضبط أن يسلك طريقها في العناية بجزئيات الأحاسيس ، وبصور الانفعالات ، وبرسم الجو النفسي المصاحب لها في الطريق . وبتعبير آخر أن يكون هو قصة الأحاسيس والانفعالات التي يتناولها !

ومن طبيعة أن يكون الشعر قصة الاحاسيس والانفعالات ، أن تكون عنايته بالصور والظلال أكبر من عنايته بالمعاني والقضايا . فهذه القصة ستسجل صور الحوادث والظلال النفسية التي تلقيها في الحس ، أكثر مما تسجل المعاني الذهنية الكلية المجموعة من التجارب الجزئية ؛ والقضايا العامة التي تنتهي هذه المعاني إليها .

وعلى ضوء هذه القواعد نستطيع أن ننظر في الشعر العربي . وحين نجرد أنفسنا من التعصب لهذا الشعر نرى أن طابع المعاني العامة المتبلورة ، والقضايا الذهنية الكلية ، هو الذي يغلب عليه ؛ وأن جانب الصور والظلال هو الذي ينكمش فيه .

وبطبيعة هذه الظاهرة في الشعر العربي نجده يميل إلى أن يلقي المعنى العام النهائي إلقاء ، وأن يطالع القارىء بنتيجة التجربة النفسية لا بطريقتها . فطريقة سيره في موضوعه لا تدع للقارىء فرصة المشاركة الجزئية البسيطة التي تشغل الحس وتستثير الخيال ، وتستجيش الانفعالات كاملة كما مرت بالمؤلف نفسه ، ولا تترك لهذا القارىء إلا الانفعال الأخير الذي انتهت إليه تجربة المؤلف ، والمعنى الذهني العام المستفاد من هذه التجربة على العموم . وحتى في المرات التي سار فيها سيرة القصة في عرض الموضوع كانت عنايته بتسجيل الحادثة أشد من عنايته بتسجيل الانفعال المصاحب لها والصور التي ارتسمت فيها ، والتصورات والتخيلات التي واكبتها .

وأقرب مثل يحضرني على هذا هو قصيدة عمر بن أبي ربيعة الطويلة الجيدة — بالقياس إلى نظائرها في الشعر العربي — وهي القصيدة الرائية التى مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر

فلقد قص فيها قصة زيارته لحبيبته خلسة في فحمة الليل ، ومفاجأتها بهذه الزيارة والرقباء كثيرون ، وأهلها به يتربصون ، ثم وصف الليلة وحوادثها ، ومفاجأة النور لهما وخوفها من افتضاح أمرهما ، واستعانتها بأختيها ، والاحتيال له بالخروج معهما بلبس ملابس النساء . . . . الخ

وطرافة التصوير في هذه القصيدة لا شك فيها ، إلا أنها في عمومها قصة حادثة ، لا قصة نفس ، وتاريخ واقعة خارجية لا تاريخ تجربة شعورية ، ومثلها فى طريقتها كثير نوعاً في الشعر العربي ، أما قصص الأحاسيس والشعورات والتجارب النفسية فقليل قلة ظاهرة .

والصور والظلال على العموم قليلة هي الأخرى — بالقياس إلى مجموعة الشعر العربي الضخمة — وما يوجد منها إنما هو صورة مفردة ، وظلال قصيرة ، تحد منها طريقة السير في الموضوع ، وهي الطريقة التي ترمي مباشرة إلى تسجيل الانفعال الأخير والمعنى الذهني المتبلور ، ولا ترمي إلى عرض لوحات متتابعة لخط سير التجربة النفسية في مراحلها الكثيرة من بدئها إلى نهايتها .

« ويحسن أن أضرب هنا مثالا :

يقول الشاعر الإنجليزي « هوسمان » تحت عنوان « إلى السوق أول مرة » :

— يوم أنشأتُ أذهب إلى السوق ، أوائل عهدي بالأسواق

كانت الدراهم في الكيس جدّ قليل

وكم طال بي النظر ، وكم طال بي الوقوف

على أشياء في السوق لا تنال
— تغير الزمن اليوم ، فلو أردت الشراء لاشتريت
هنا الدراهم في الكيس ، وهناك أشياء الأمس في السوق
ولكن أين يا ترى ذلك الفتى المحروم ؟
— طالما شكا قلب الإنسان لأن « اثنين واثنين أربعة »
لا هي ثلاثة كما نودها حيناً ، ولاهي خمسة كما نودها بعد حين
وأحسبه سيشكو إلى آخر الزمان ✡

فيبدأ أولا بأن يصحبنا معه إلى السوق أوائل عهده بالأسواق ، حيث نلاحظه هناك يتطلع إلى ما هناك ، ويقف ويطول به الوقوف ، وحيث نلمح شعوره بالحرمان ولهفته على الوجدان . . . ثم يصحبنا مرة أخرى إلى هذه السوق ، والدراهم في الكيس كثيرة ، ولكنه يدعنا نلمح موت الرغائب في نفسه ، وانطفاء التشوق في حسه .

وقبل أن ينتقل بنا إلى عرض آلامه من قسوة الواقع المادي الجامد الذي لا يساير الرغبات الإنسانية المتحولة ، نكون نحن قد استشعرنا معه هذا الشعور . وهو مع ذلك لا يلقي إلينا شعوره الأخير قضية ذهنية عامة ، بل قضية جزئية مفردة « طالما شكا قلب الإنسان لأن اثنين واثنين أربعة ، لا هي ثلاثة كما نودها حيناً ، ولا هي خمسة كما نودها بعد حين » فكأننا لا نزال أمام تجربة جزئية نعاينها ، لا أمام قضية كلية ننتهي إليها . وقد لقينا إنساناً يعاني هذه التجارب الجزئية وتركنا إنساناً شاركناه هذه التجارب خطوة فخطوة .

فإذا أراد الشاعر العربي أن ينهي إلينا مثل هذه التجربة ألقاها إلينا قضية عامة متبلورة ، لا علم لنا بالتجارب التي أنشأتها ، ولا مشاركة لنا في غير القاعدة الأخيرة :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

ومع ذلك فهذا المثال تضمن في شطره الأخير إشارة إلى تجارب جزئية تحيي المشهد ، وتدع للحس مجالا للمشاركة فيه . وكثيراً ما يكون الأداء من نوع الشطر الأول وحده ، لا عناية فيه بغير القضية الكلية العامة ، التي رأينا كيف سار الشاعر الإنجليزي بنا خطوة لخطوة ليصل إليها في النهاية . بعد أن نكون قد استمتعنا بمشاركته فيها من البدء إلى النهاية . ونستطيع أن نقول : إن قطعة الشاعر الإنجليزي تدع الظلال التي يلقيها السياق ترسم الصورة النفسية ، وتحرك المشاعر الوجدانية ، بينما بيت الشاعر العربي يعمد

✡ ترجمة الأستاذ العقاد

رأساً إلى المعنى الذي يريده ، والقضية التي يقصدها . والصور والظلال أمتع وأقرب إلى طبيعة الفن ، لأنها تخاطب الحس والوجدان ؛ بينما المعاني والقضايا تخاطب الذهن والوعي ، وهما من أدوات الفلسفة والعلوم . وأضرب مثالا آخر — وإن كنت لن أجد المقابل له في الشعر العربي لبيان الفرق بين طريقي السير في الموضوع . إنما أضربه مثالا للألوان المفقودة للصور والظلال في الشعر العربي . وهذا المثال للشاعر « تاجور » :

— كنت أسير بجانب الطريق لا أدري لماذا أسير هناك .

عند ما مر الظهر هفهفت فروع الخيزران وسط الريح .

وتعلقت الظلال المتحركة الباسطة أيديها لأقصى حد ، بأقدام النور المسرع الخطوات ، وقد تعبت الأطيار من شدوهن

وكنت أسير بجانب الطريق ولا أدري لماذا !

— الكوخ بجانب الماء تظلله دوحة مترامية الأطراف

وكانت إحدى النساء منهمكة في عملها وحلي ذراعيها ترسل أنغاماً من زاوية الكوخ

ووقفت قبالة الكوخ ولا أدري لماذا !

— والطريق الضيق الكثير التعاريج يقطع كثيراً من حقول الخردل وغابات « المانجو » ويمر على مقربة من معبد القرية والسوق عند مرسى النهر

ووقفت بجانب الكوخ ولا أدري لماذا !

— منذ سنوات مضين وفي يوم من شهر مارس كان همس الربيع خافتاً وكانت زهور « المانجو » تتساقط على التراب

ووثبت المياه المتموجة ، وداعبت الوعاء النحاسي الذي كان على درجات سلم المرسى .

وإني لأفكر في هذا اليوم النسيمي من مارس ، ولا أدري لماذا !

— إن الظلال تزداد سواداً ، والماشية تعدو لمرابضها ، والضوء شاحب فوق المروج المنفردة ، والقرويون ينتظرون القارب على الشاطئ

وأعود أدراجي متمهلا ، ولا أدري لماذا ! *

ولا شيء من المعاني والقضايا الذهنية في هذه المقطوعة ؛ ولا شيء سوى صور من الطبيعة وظلال من النفس تنبىء عن الانسياب مع الطبيعة كالموجة في النهر ، والنسمة في الفضاء ، والظل مع الريح . ولكنها لا تقول هذا بمدلول الألفاظ إنما تدعه للظلال يلقيها السياق ، أو تدعه لما بين السطور بلغة هذه الأيام !

---

* ترجمة الأستاذ لطفي شلش

وهذا اللون من الصور والظلال لا وجود له في الشعر العربي القديم ، وبعض الشعر الحديث يحاوله ، ونحن ندعو إلى المزيد منه ، لأنه من صميم الفن الأصيل الجميل .

* * *

وأحب أن أعود فأرد إلى الشعر العربي اعتباره ، فاللمحات الشعورية في هذا الشعر والبساطة والصدق والوضوح في الكثير منه ، والحكمة الصادرة عن الطبع الحي، كلها ذات قيمة أدبية كبيرة ولو لم تسلك الطريق المفضلة في الأداء ، طريقة استعراض الجزئيات واحدة واحدة على النحو الذي أسلفنا، ولكل بيئة طابع ، والشعر العربي كان وفياً لبيئته إلى آخر حدود الوفاء .

فاللمحة السريعة ، والإدراك الوحيّ ، والحس المرهف ، والذهن اليقظ، كلها من سمات العربي في البادية . وهذه السمات واضحة في الشعر العربي وفي طريقة سيره بموضوعاته. على أن للشعر العربي صوره وظلاله ، ولكنها صور مفردة ، وظلال سريعة الزوال ككل شيء في الصحراء . وكثيراً مايبلغ في نوعه حداً عالياً من الإجادة والجمال . يقول كثيرعزة :

وإني وتهيامي بعزة بعد ما تخليتُ مما بيننا وتخلتِ
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تهيأ منها للمقيل اضمحلت

فيكون وفياً للبيئة كل الوفاء ، على حين يرسم صورة في الطبيعة وظلالا في نفسه يتواكبان ويتسقان . ويقول المتنبي :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فيرسم مشهداً كاملا من الصور والظلال للمعركة ، يغشاه ستار شفيف يوشيه الخيال ، فتبدو الصور من خلاله كالأشباح تتراءى في عمومها ولا تتبين فيها الجزئيات !

ويقول المعري :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

فتدب على مدى البصر أشباح الموتى والأحياء ، وآلاف الصور والذكريات ، ويزدحم الخاطر بها ازدحام الأديم ، ويجف القلب وتخشع النفس ، وهي تملى في الداخل والخارج تلك الحشود التي تدب ولا تبين !

وطريقنا لدراسة الجمال في الشعر العربي أن نتقصى هذه الصور والظلال ، وأن نصنفها ونبوبها ، ونشرح سماتها وخصائصها ، ونبرزها من تحت الركام الذي يطويها في الديوان العربي فتخفى على الكثيرين .

سيد قطب

ريـاء

للحسين بن الضحاك ✡

هويتكمُ جهدي وزدتُ على الجهدِ ... ولم أر فيكم مَنْ يُقيمُ على العَهْدِ

فإن أُمسِ فيكم زاهداً بعد رغبةٍ ... فبعد اختبارٍ كان في وصلكمْ زُهدي

لَعَمْرِي لقد أغضيتُ فيكمْ على التي ... تُجَرِّعني المكروهَ من غُصَصِ الحِقْدِ

تأَنَيْتُكمْ بُقْياَ الصديقِ لتقصدوا ... وتأبَوْن إلّا أن تجوروا عن القصدِ

تعزَّوْا بيأسٍ عن هوايَ فإنّني ... إذا انصرفتْ نفسي فهيهاتَ مِن رَدِّي

أبَى القلبُ إلّا نبْوَةً عن جميعكمْ ... كنبْوَتِكمْ عني في السُّحْقِ والبُعْدِ

أرى الغدرَ ضِدّاً للوفاءِ وإنني ... لأعلمُ أن الضدَّ ينبو عن الضِدِّ

إذا خُنتمُ بالغيبِ عهدي فما لكمْ ... تُدِلُّون إدلالَ المقيمِ على العهدِ

صِلُوا فافعلوا فِعْلَ المُدِلِّ بوصلهِ ... وإلا فصدُّوا وافعلوا فِعْلَ ذي الصدِّ

فكم من نذيرٍ كان لي قبلُ فيكمُ ... وهأنذا فيكم نذيرٌ لمن بَعْدي

فوا أسفا من صبوةٍ ضاع شكرُها ... مضتْ سَلَفاً في غير أجر ولا حمدِ

✡ الحسين بن الضحاك من شعراء الدولة العباسية، بصري المولد والمنشأ، شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر، حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبه الناس إلى أبي نواس. وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلف. وعمر عمراً طويلا حتى قارب المائة سنة، ومات في خلافة المستعين أو المستنصر.

على هامش الجامعة العربية

تمثيلية شعرية لسعادة عزيز أباظة باشا

مثلتها الفرقة المصرية في حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم بقصر الأميرة شويكار في حفلة عيد الميلاد الملكي السعيد .

أشخاص المشهد :

أبو الهول . الشرق . شاعر العراق .
شاعر لبنان . شاعر فلسطين . شاعر سوريا .
شاعر الحجاز .

[يرفع الستار عن منظر الأهرام وتمثال أبي الهول جاثم إلى جواره . يدخل رجل قوي مهيب متوثب في منتصف العمر في زي أهل الشرق ويتمثل فيه الشرق]

الشرق : صانَكِ اللهُ يا بلادَ الفراعيـ ـن ولقَّاكِ نَضْرَةً ونعيمَا
أنت نورُ الوجودِ شعَّ على الأكـ ـوان خُلقاً وحكمةً وعلومَا
نشأ الفكرُ بين حِضْنَيْكِ سمحاً وزكا الفنُّ في ثراكِ كريمَا
وتَهاديتِ للعُلا ثَبْتَةَ الأقـ ـدامِ والدهرُ ما يزالُ فطيمَا
ها أنا الشرقُ! أنتِ مجدي حَديثاً وفخاري على الزمان قديما
قد أمنَّا في ظلِّ ملكِكِ يا مصـ ـرُ كِياناً وملةً وتُخوما
كنتِ ركناً في سالفِ الدهرِ للشر ق ركيناً وكنتِ أمًّا رؤوما
وعقدتِ العهودَ لم تُخفري العهـ ـدَ ولم تُحدثي بجارٍ كُلُوما
ما أذقتِ الضعافَ من أمم العا لم ظُلْماً ولا أعنتِ أثيما
لم تكوني وأمرُكِ الأمرُ في الأيّـ ـامِ إلّا سلْماً وعدلاً رحيما

[يقترب من أبي الهول في اتزان واعتزاز فيتحدث متحدث من داخل هيكل أبي الهول]

أبوالهول : من أرى مُقبلاً ؟ تكلَّم

الشرق : أبا الهـولِ ! أنا الشرقُ ! !

أبو الهول «في تكذيب» : قد نطقتَ عجيبًا

أعرف الشرقَ منذُ عهدٍ بعيدٍ عاجزاً واهنَ القُوى مَغْصوبا

خافضَ الرأسِ مُستكيناً إلى الذلِّ غريباً في أهلِه منكوبا

إن دعا كان أخفتَ الناسِ صوتاً أو مشى دبَّ كالشيوخِ دبيبا

قل وأفصح من أنت ؟

الشرق : قلتُ : أنا الشرقُ لَبِسْتُ الشباب بُرداً قَشيبا

أبو الهـول «في خطورة» : أنت تَمْشي على الخلودِ رمالاً فاحترسْ أن تقولَ قولاً مُريبا

عند مرمى عينيكَ قد وجدَ التاريخ مَهْداً قُدْساً وصدراً رحيبا

وعلى النيل كرَّمَ اللهُ في الإنـــسانِ عقلاً هدى سناهُ الشعوبا

الشـرق «في اعتداد» : قد بُعِثنا خَلْقاً جديداً وعُدْنا لصبانا يطوي الشبابُ المَشيبا

ونشطنا من التواكلِ والجهْلِ وقمنا نبغي النهوضَ وثُوبا

واتَّحدنا على الكوارثِ شرقاً وضممنا إلى الهلالِ الصليبا

واتفقنا صوالحاً وميولاً واجتمعنا سواعداً وقلوبا

وقضينا على خلافٍ قديم سامَنا الذل والهوانَ ضُروبا

وعقدنا بمصرَ جامعةَ العُرْبِ فكانت فتحاً ونصراً قريبا

ضمّت الشامَ والحجازَ وبغدا ‌ ‌ دَ ومصراً وأُرْشليمَ الخضيبا
لا لشرٍّ ولا اعتداءٍ تجمّع ‌ ‌ ن ولكن يطالبن حقاً سليبا

أبوالهول : أيَّ بشرى كريمةٍ من حديث الـ ‌ ‌ خُلدِ تُزجي . ومن غِناء الزمانِ
تغمُر النيلَ فرحةً فإذا النيـ ‌ ‌ لُ قرير العينين والشاطئان
وإذا صاحبايَ من عهدِ خوفو ‌ ‌ برحيق الفَخار مُنتشيان
من دعا كم إلى العُلا فأجبتم ؟ ‌ ‌ مَن هدا كم إلى سبيلِ الرشاد ؟
من سعى أولَ الصفوفِ يقود الـ ‌ ‌ شرْق للمجدِ والسنا والسدادِ ؟
من أشاع الحياةَ فيه ومن أذَّ ‌ ‌ ن في كلِّ أمة للجهادِ ؟
من ؟

الشرق : هو العاهل العظيم ! هو الفا ‌ ‌ روقُ فخرُ العروبةِ ابنُ فؤادِ
ملكٌ ساد بالطريفِ من المجـ ‌ ‌ ـدِ وإن كان أوْحديَّ التلادِ
وشأى الخَلْقَ بالحِجى . ثم ثَنَّى ‌ ‌ فشآهم بعزّةِ الميلادِ
صِيغ كالأنبياء من كرَمِ الغيْـ ‌ ‌ ـثِ ومن غُرّة الصباحِ الهادي
واستوى-عزَّ نصُره-فوق عرشٍ ‌ ‌ من صميم القلوبِ والأكبادِ

أبوالهول : ما بذلتم له الغداةَ من التكريم ؟ ؟

الشرق : كل التكريمِ دون سُمُوِّقهْ
حسبُ مصرٍ وحسبُ فاروقَ أن يَسْـ ‌ ‌ ـتعصِمَ الشرقُ في حِمى فاروقِهْ

[تسمع ضجة من الخارج]

أبوالهول : مَن هؤلاء القادمون فهذه ‌ ‌ زُمرٌ تلوحُ كثيفةً في ناظري

الشرق : هذي وفودُ الشرقِ من أقطارِه جاءت تَدَافَعُ كالعُبابِ الزاخرِ

حجَّتْ إلى الفاروق يحْدوها الهوى في عيد مولدهِ السعيدِ الزاهرِ

تُزجي إليهِ شُكرَها وثناءَها والفضلُ يزَّكّى بشكرِ الشاكرِ

أبو الهول : فلنستمعْ لهمُ . فكم من كاتبٍ سَحَرَ الدُّنا منهم وكم من شاعرِ

[تدخل وفود الشعراء .]

[يتقدم شاعر العراق]

شاعر العراق: بغدادُ. والسحرُ الحلالُ بعثْتَه للناس شعراً مونِقاً وغِناء

رُدّي نُواسِيَّ الرشيدِ يَصُغْ لفا روقَ الرشيدِ تحيةً عصماء

ملكٌ أظلَّ الشرقَ تحت لِوائه أعظمْ به ملكاً وعزَّ لواء

وسما به فأعادَ دائرَ مَجْدِهِ وكسا العُروبةَ عِزةً قعساء

فاروقُ عش للشرق واشفِ جراحَه ما زلت للشرقِ الجريحِ شِفاء

أعباءَهُ احملْها فسيِّدُ قومِه من بات يحملُ عنهمُ الأعباء

منحتكَ دِجْلَةُ والفراتُ محبةً لمّا منحتَهما اليدَ البيضاء

وَدّا لو استبقا إليك فقبَّلا واديك . شوقاً منهما ووفاء

[يتقدم شاعر لبنان]

شاعر لبنان: إيهِ لُبنانُ يا عروسَ الجبالِ وجمالَ الهضابِ ذاتِ المجالي

شُدَّ أزري بمثلِ إشراقةِ الصبـ ـحِ قريضاً . وبَسْمَةِ الآصالِ

وبمِثل الشقيقِ رصَّعهُ الفجـ ـرُ بطلٍّ كما نَثَرْتَ اللآلي

وبمِثلِ النسيم بين غِياضِ الـ أرزِ يَسْري مُعَطَّرَ الأذيالِ

شُدَّ أزري أرفعْ إلى سُدَّةِ الفا — روقِ آيَ الإعظامِ والإجلالِ

عاهلُ الشرقِ والعروبةِ . لاذا — بجناحٍ من عَطفِه وظِـلالِ

إن لُبنانَ يستمدُّ من الفا — روقِ نورَ الهدى ووحيَ النِضالِ

وسُمُوَّ الجهادِ في حُرمةِ اللهِ — وجُهدَ العباقرِ الأبطالِ

إن فاروقَ نعمةُ اللهِ في الشر — قِ وشؤبوبُ فيضهِ الهطّالِ

[يتقدم شاعر فلسطين]

شاعر فلسطين: مِن فلسطينَ شاعرٌ يُرسلُ الشَّدْ — وَ مِزاجاً من بهجةٍ وأنينِ

ودَّ في عيدِ سيِّدِ النيلِ لو لمْ — يسكبِ اللحنَ في إطارٍ حزينِ

نحنُ جرحى ! إن الجريحَ ليَشفِي — نفسَه إن شكا لصدرٍ حنونِ

نحنُ في عُقْرِ دارِنا غرباءُ الـ — دارِ والجنسِ والهوى والدينِ

غَبَنَتْنَا الدنيا ويا رُبَّ غَبْنٍ — آثمٍ شَـدَّ صولةَ المغبونِ

قيلَ: فابقَوا وأسكنوا القومَ معْكم!! — كيفَ نحيا في بيتِنا المسكونِ

قيلَ: وعدٌ. قلنا : فهل صدَرَ الوَعـ — دُ برأيٍ منّا وعلمٍ مُبينِ

وَعَدُوكم في مصرَ سبعينَ وعداً — أتُرى يَصدقونَ في التسعينِ

يا أعزَّ المـلوكِ مجداً كهارو — نَ وفضلاً كشبلهِ المـأمونِ

أنت ظلّلتنا بجاهـك واستمـ — سكتَ عنّا بحقِّنا المضمونِ

نحن عُربٌ وأنت للعرْب راعٍ — لا تَذَرْنا بغير راعٍ أمينِ

لن يُراعَ العرينُ بالكيدِ يا فا — روقُ يوماً وأنت ليثُ العرينِ

[يتقـدم شاعر دمشق]

شاعر دمشق: هل سبيلٌ لشاعرٍ من دمشقٍ فتنةِ العصرِ والعصورِ الأوالي

جاءَ في موكبِ العروبةِ يُهدي مصرَ شكراً ما إن له من زوالِ

بلدٌ طيّبٌ ومُلكٌ على غيـ ـرِ مثالٍ من الحِجَى والكمالِ

ما رأى النيلُ مثلَ فاروق مَلْكاً مذ جرى يقطع القرون الخوالي

ملك يجمع الأصالةَ والحكـ ـمة في رَيِّق الصِّبا والجمالِ

واحدُ الجيل عزمةً ومضاءً واعتزازاً بل واحدُ الأجيالِ

حاطنا يومَ بأسِنا بجنانٍ لم يروَّع وعزمةٍ كالجبالِ

قال : هذي دمشقُ من دانَها ديـ ـنَ أليست مهدَ الهُدى والجلالِ

ووقاها من محنةٍ شَنَّها العا دونَ من شرِّ ما رأته الليالي

عشت فاروقُ يحتمي الشرق في تا جيك حتى يفوز بالآمالِ

[شاعر الحجاز يتقـدم]

شاعر الحجاز: وفدت من الأرض الطهور يسوقني إلى مصرَ والفاروقِ وجدٌ على وجدِ

وخلّفتُ في بطحاءِ مكةَ أمةً وفي يثربٍ تُبدي من الحمد ما تُبدي

وفي الرمل من أعلى الحجون إلى مِنًى وبالجزع والأخيافِ والعلَمِ الفردِ

وأحمل من نجدٍ تحياتِ أهلِها معطّرةً تَندَى عليها صَبا نجدِ

إلى ملك أضفى على الشرق نعمةً وجدد في دولاته دارسَ المجد

إلى معقلِ الفاروق خبَّت ركابُنا مُرنَّحةَ الأعطاف بالشكر والحمدِ

وبالحبِّ فياضاً وبالودِّ خالصاً وأغلى الذي تُهدي من الحب والودّ

تَحُبُّ وتَحْدِي سَمْتَ فاروق خُشَّعاً ومن نوره إن لفَّنا الليلُ نستهدي

ويامصرُ أكرمتِ الحجازَ ومَلْكَه وكنتِ العرينَ السمحَ للأسَدِ الوَرْدِ

وبوّأته في حبَّةِ القلب منزلاً وأفضلتِ فازَّيَّنْتِ يامصر كالخُلدِ

وكنتِ له داراً وأهْلُكِ جنَّةً ومَلْكُكِ فوق الأهل يامصر والوُلْدِ

إذا ذَكر التاريخ للشرق مُنقذاً من الجهل والخُلف المدمّر والحقدِ

فذاكَ هو الفاروق عزَّ لواؤه وأُيِّدَ بالنصر المؤزَّرِ والمجـدِ

الشرق «لأبي الهول» : أَوعيتَ الحديثَ ؟

أبوالهول : فالآن آمنـــتُ وصدّقت أن في الأرض شرقاً

الشرق : عشتَ فاروقُ تُلبِس الشرق مجداً وتشقُّ السبيل للعرْب شقّاً

أبوالهول : آمل الشرق أن تَعِزَّ وتسنى ومُنى العُرْبِ أن تعيش وتبقى

[ستــار]

عزيز أباظة



في كفة الميزان

نتشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النقد

عالم الغـــــد

تأليف ولز وترجمة الأستاذين عبد الحميد يونس وحافظ جلال
١٦٠ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦
نقد الأستاذ عباس محمود العقاد

عالم الغد ، أو النظام العالمي الجديد ، هو خلاصة فلسفة « ولز » التي دأب على نشرها في السنوات الأخيرة . وهي فلسفة تدور في جملتها على محور واحد قلما تعدوه ، ونعني به مستقبل النظم الحكومية والمبادئ الأخلاقية في العالم الذي نرجوه : عالم الحضارة والسلام .

وهذا الكاتب العالمي الكبير — ولز — من أكفأ الكتّاب لخوض هذه المباحث والإجادة فيها ، لأنه عاصر الحوادث الكبرى في التاريخ الحديث ، ونظر إليها بعين الفتى ابن العشرين وعين الرجل ابن الأربعين وعين الشيخ ابن السبعين والثمانين ، واستعد لفهمها بثقافة علمية طويلة مشتركة في كثير من العلوم الطبيعية والمعارف التاريخية والفلسفية ، فاطلع على الكيمياء واستمع إلى العلامة الجليل الأستاذ هكسلي الكبير في علم الحياة ، وساهم في الصناعات الآلية ، ومارس النقد والقصة والتاريخ ، وطبع على حب الخير لبني الإنسان وكراهة البغاة والمتجبرين ، وصعد في سلم المعيشة من طبقة الطفل ابن بائع الصيني الفقير والخادمة الوضيعة إلى طبقة السراة الذين يحسبون دخلهم بعشرات الألوف .

قيل إنه تنبأ بصنع الدبابة قبل الحرب العالمية الماضية بأكثر من عشر سنين ، وقيل إنه صاحب الفضل — أثناء تلك الحرب — في اختراع وسيلة النقل التي عرفت باسم التلفراج Telpherage وقيل إنه عاون حكومته بقدرته الفنية كما عاونها بقدرته

الكتابية ، ولكنه في نبوءاته العلمية أو تحقيقاته الصناعية لا يتجاوز مرتبة الصانع الماهر والمخترع الناجح ، وليست به حاجة إلى أكثر من رسم « تصميم » الآلة المخترعة لتصبح النبوءة عنها في حكم الواقع الملموس ولا تبقى منها بقية للمشاهدة العيانية غير التنفيذ .

أما النبوءة في مستقبل النظم السياسية والمبادئ الأخلاقية في عالم الغد فتلك هي المرتبة التي لا تسمو إليها كل نفس ولا يحيط بها كل خيال ، ولا بد لها من خصال روح ومدارك عقل ومزايا خلق ومثابرة جهد لا تتهيأ لغير الصفوة المختارين من الدعاة والمرشدين .

كذلك لا يفهم من خدمة « ولز » لحكومته في الحروب العالمية أنه من جملة أولئك « المستخدمين » السياسيين الذين تستغرقهم مصلحة الدولة فلا تدع فيهم فضلة لخدمة « النوع الإنساني » كله أو خدمة العالم على اختلاف أجناسه وأقوامه . فإنه لما حيل بينه وبين التصريح بآرائه الجريئة خلال الحرب العالمية الماضية لم يحفل بالرقابة المضروبة على الأقلام ولا بالعقوبة التي تصيبه كما أصابت غيره من أحرار المفكرين ، وأقدم على طبع كتابه عن الحرب والمستقبل غير مكترث بأوامر الرقيب ، وهي مجازفة في البلاد الإنجليزية قد تسقط بالكاتب إلى الحضيض ، ولكن الرجل قد جرى فيها على شنشنة معروفة فيه ، وهي تقديس حرية الرأي في كل وقت وكل حالة وعلى الرغم من كل خطة وكل ضرورة ، والإيمان بأن هذه الحرية هي ضمان السلم والتقدم في عالم الغد المنشود .

ويتنبأ « ولز » — أو يرجو على الاصح — أن يصير العالم على نظام متحد في الحكومة لا تجور فيه دولة كبيرة على دولة صغيرة ، وأن هذا النظام « سيتم خطوة خطوة هنا وهناك » كما قال في الكتاب الذي نحن بصدده . كيف ؟ قال : « كما تم ابتداع الطيران ، وكما تمت إلى الآن منظمات عالمية كاتحاد البريد والصحة البحرية ومقاومة الرقيق والتعاون البوليسي وجماعات الصليب الأحمر وما إليها » . أو كما قال في تاريخه الموجز للعالم : « ربما تنبهت الدنيا يوماً ، فإذا هي محكومة من حيث لا تشعر في الشؤون المشتركة بينها كما تحكم المنظمة الواحدة ، وهي مع ذلك يعز عليها أن تدرك أن حكومة عالمية قائمة ... » .

ولا يعتمد ولز على تدبيرات الساسة وإجراءات الحكومات كما يعتمد على التعلم والدعوة الروحية أو الفكرية ، ويشمل بالتعلم أمم آسيا التى يحكمها المستعمرون فيقول عن هذه الأمم : « إن عدداً كبيراً من هؤلاء الناس لهم أذهان كالأذهان الأوربية المتوسطة أو خير منها ، وإنك لتستطيع في جيل واحد أن تثقف العالم كله إلى مستوى خريج

كمبردج — وهو ليس بالمستوى الشامخ جداً — إن كان لديك ما يكفي من المعاهد والأجهزة والمعلمين » . ثم يتساءل : « لم لا نقرر أن الاتحاد حيثما امتد يعني تعلما قوياً جديداً في البنغال وفي جاوة وفي حكومة الكنغو الحرة كما في تنيسيا أو جرجيا أو اسكتلندا أو إرلندة ؟ لم لا نقل بعض الإقلال من التفكير في التحرير التدريجي بالتصويت وتجارب الاستقلال المحلي وما إليهما من الأفكار القديمة ؟ ونكثر بعض الإكثار من تحرير العقل ؟ لم لا نترك هذه الشقشقة القديمة عن الشعوب التي لم تنضج سياسياً ؟ » .

ولا يفصل ولز بين التقدم السياسي والتقدم الاقتصادي في التوجه بالأمم إلى هذه الغاية المرموقة من الوحدة العالمية ، ولكنه لا يبالي بوحدة العملة كما يبالي بوحدة المعيشة ووحدة التربية ، لأنه لا قيمة للنقد ولا معنى لتوحيده إن لم يكن عنواناً على معيشة واحدة أو نظرة واحدة إلى أغراض الحياة وخيراتها ووسائل المتعة فيها .

ولن تنجح هذه الوحدة ما لم تقم على الاعتراف بحقوق الإنسان بغير تمييز بين العقائد والأجناس والألوان ، وهي تتلخص في حق الغذاء والكساء والعناية الطبية والتعليم الكافي وحرية الاشتغال بالصناعات وحرية المعاملة وحماية النفس والملك وحرية الانتقال في أنحاء العالم ومنع السجن إلا لجريمة ومنع التجنيد وما إليه إلا بالاختيار .

ويعتقد « ولز » أن الثورة لازمة للتقدم في هذه الوجهة الإنسانية الشاملة ، ولكنها ثورة من نوع غير نوعي الثورة اللذين عرفهما البشر فيما مضى ، ويسميهما بالثورة الكاثوليكية والثورة الشيوعية ، لأن الثورة الاولى تقترن بتاريخ الأمم الكاثوليكية أو التي تجاهد مع الكنيسة ، كثورات فرنسا وإسبانيا والمكسيك وأمريكا الجنوبية ، ولأن الثورة الثانية هي وليدة المؤامرات أو التنظيمات العرضية التي تدل على تطور باطني يتناول ضمير الإنسان ويرتفع به في مدارج الأخلاق والآداب .

وإنما ثورة ولز ثورة صاعدة يقوم بها أوفر الناس نصيباً من الثقافة والبواعث الخلقية والقدرة على التوجيه والإيحاء وتنبيه الهمم إلى التشبه والاقتداء .

ومن أساليب التعليم اللازم لتحقيق هذه الثورة تحقير من تعود الناس أن يعظموهم من السفاحين والطغاة المعتدين ، وهو لا يصطنع الكذب لإقناع الناس بحقارة هؤلاء « الأبطال » المقدسين ، لأن الوقائع التاريخية كافية لتمثيلهم أمام الناس في الصورة المزدراة ، فلم يكن لهم نصيب عظيم من العقل أو الملكات الذهنية ، وأعجب من ذلك أنهم لم يكونوا على نصيب عظيم من الرجولة ، على خلاف ما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى . فالإسكندر كان له عاشقون ، ويليوس قيصر كان يقال عنه إنه رجل كل

امرأة وامرأة كل رجل ، وإلز أريوس كان يسعى إلى الدير ليخرج منه فتى كانت زوجته تهواه ، ونابليون كان في حياته الشخصية كما يعلم قراء تراجمه الخفية، وكان بعد موته موضع العجب بين المشرحين لفرط المشابهة في تكوينه بين جسده وأجساد النساء .

وقد حرص ولز في تواريخه العالميـة على تمثيل هؤلاء « الأبطال » في صورتهم الصحيحة ، لتذهب عنهم تلك الهالة الكاذبة التي تغري الناس بسفك الدماء أو تعظيم من يسفك الدماء ، ومما توخاه في ذلك أن يفرق الناس بين القدرة على التعمير والقدرة على التدمير، وأن يبطلوا الإعجاب بالطغاة من طريق الإعجاب بالقوة والجبروت ، لأن الطغاة في الواقع أصحاب مزاج خاص يرشحهم لتلقي الصناعة الممقوتة ، وليس من اللازم أن يكون ذلك المزاج مقروناً بالبأس والفحولة والاقتدار .

أما الدواعي الفكرية التي تدعو الكاتب الكبير إلى انتظار هذا التغيير العالمي فهي من قبيل النتائج المحتومة لا من قبيل الأماني والأحلام . لأن المخترعات الحديثة قد ألغت المسافات والأبعاد فأصبحت العزلة والتحصن وراء الحدود ضرباً من المحال ، ومتى زالت الحدود على الأرض فلا سبيل إلى بقائها في عالم النظم السياسية : كان ذلك ممكناً في عهد الحصان والسيف والقوس والبندقية ، ولكنه لا يمكن ولا يدوم طويلا إن أمكن في عصر الطيارة والكهرباء ومحدثات العلم التي أوشكت أن تسبق الخيال بالعيان .

وإلى جانب هذه الغير العلمية تندفع البواعث البيولوجية ، بالعالم إلى حالة غير حالته اليوم وغير حالاته فيما تقدم من أطوار التاريخ . لأن نشوء الملايين من الشباب القلق الذي يواجه معضلات الكون وينتظر عليها جواباً غير تلك الأجوبة المسكتة التي كانت تريح عقول الآباء والأجداد هو الحافز « البيولوجي » الدائم إلى التغيير في هذا الاتجاه . لأن الفشل قد صحب القادة والزعماء الذين يصرون على بقاء الدنيا كما كانت عليه في مشتجر المطامع والخصومات ، ولن يفلح هؤلاء القادة والزعماء في اجتذاب القلوب إليهم بدعوة قائمة على بقاء القديم في السياسة أو الاقتصاد أو الأخلاق .

وليس ولز شيوعياً ولكنه اشتراكي من أنصار الأعمال الجماعية التي تحد من حرية الفرد في الاستغلال ولا تحد من حريته في التثمير والإنتاج . وليس هو « ديمقراطياً » من أشياع النظم البرلمانية التي تحتكر الحزبية وأساليب الانتخاب ، ولكنه يفضل على أساليب الانتخاب التي تشيع اليوم بين الأمم الديمقراطية أساليب التمثيل

النسبي وما يتبعها من فسح المجال أمام فريق جديد من العاملين في السياسة غير فريق المحترفين والدعاة المشعوذين .

ومن تعريفاته للملكية والاشتراكية في كتبه المختلفة يخيل إليك أن الكاتب عربي أصيل ينقل المصطلحات من لسان العرب أو القاموس المحيط . فليست الاشتراكية في جوهرها عنده إلا نقداً مختلفاً لنظام الملكية أو نظام الامتلاك كأنه ما كان ، وليس الامتلاك من مخترعات الطبقات الاجتماعية كما يقول الشيوعيون ، لأن الملك في حقيقته هو كل ما يدافع عنه الإنسان أو الحيوان ، وهذا هو معنى الحوزة أو الحمى أو الحرم أو الذمار كما تعرفه لغة الضاد .

قال عن روسيا وستالين : « كانت الثورة غيرها من ثورات الذين لا يملكون منذ فجر التاريخ ؛ استولت فيها عبادة الأبطال على الجماهير الهائجة ، ولم يكن بد من ظهور زعيم . . . وما انقضت عشرون سنة حتى أخذوا يعبدون ستالين ، وكان في الأصل رجلاً ثورياً على شيء من الأمانة ، طموحاً غير عبقري .. وتتم الدورة فلا نجد تغيراً ما ، كما هو الحال في كل ثورة جموح أخرى . فقد زال عدد كبير من الناس وحل محلهم عدد كبير آخر ، وكأن روسيا تعود أدراجها إلى النقطة التي بدأت منها ، أي إلى استبدادية وطنية : جدارتها محل شك وغايتها مبهمة غير محددة . وأنا أعتقد أن ستالين رجل أمين صادق النية ، وهو يؤمن بالجماعية في بساطة ووضوح . ولايزال يؤمن بأنه يقصد الخير لروسيا والشعوب التي تقع تحت سلطانها ، وبلغ من اعتداده بنفسه ، أنه لا يصبر على نقد أو معارضة ، وقد لا يكون خلفه مثله استقامة أو عدم تحيز » .

وما اقتبسناه هنا هو مثل صالح لعبارة الكتاب كما ترجمه إلى العربية الأديبان الفاضلان الأستاذ عبد الحميد يونس والأستاذ حافظ جلال مترجما دائرة المعارف الإسلامية ، وراجعنا فقرات منه على النسخة الإنجليزيه فألفيناها على جانب من الدقة وأمانة النقل والأداء ، مع سلاسة في اللفظ وصحة في اللغة ، وكل ما يلاحظ عليه سهوات أو هنات متفرقات بين صفحات لا تخل بجوهر معناه ولا تحول بين الكاتب العربي وبين النفاذ إلى اللباب الذي تضمنته النسخة الإنجليزية . كما جاء مثلا في الصفحة التاسعة وتكرر في صفحات أخرى حيث يقولان « وليست هناك ثمة حاجة » وثمة بمعنى هناك ، أو حيث يقولان في الصفحة الأربعين « ويجد أمثال فرنكلين روزفلت أنفسهم مشرفون » . . . وهو سهو ظاهر . أو حيث يقولان : « ولم يكن عند ألمانيا من الصناعة ما عند الناطقين بالإنجليزية فطمحت إلى الجوزاء » ترجمة لما جاء في الأصل الإنجليزي

حيث يقول الكاتب : « وطمحت إلى مكان في الشمس ، إلى حيز تعيش فيه » والمعنيان مختلفان . أو حيث يقولان صفحة ٦٤ : «وكلما زاد سلطان الحكومة كلما اشتدت الحاجة» ولا موضع لكلما الثانية في الجملة ؛ أو حيث يترجمان الـ New Deal بالنوديل في بعض الفصول وقد ترجماها في موضع آخر بالتقسيم الجديد .

وهذه كلها — كما أسلفنا — من قبيل السهوات والهنات ، ولا غضاضة منها على العمل النافع الذي أسدياه إلى اللغة العربية في أوانه . لأن البحث عن عالم الغد باب لم يطرق عندنا في أذهان أكثر الكتاب فضلا عن أذهان أكثر القراء ، ولو عنينا به حق عنايته لوجب أن يكون لدينا في موضوعه عشرات من الكتب المترجمة وعشرات مثلها من الكتب المبتكرة على حسب ما عندنا من الأحوال العالمية . لأننا نحب أن نصل إلى عالم الغد عاملين مؤثرين لا تابعين متأثرين ، ونحب أن نسبقه بالتفكير والتدبير ولا ننتهي إليه لاحقين متخلفين مدفوعين مع الزحام كأنما نساق إليه مسخرين منقادين فترجمة هذا الكتاب في هذه الأيام عمل مشكور « وفرض كفاية » كما يقول الفقهاء حين يميزون بين درجات الفروض ، ولكنه جدير أن يعلمنا أن النظر إلى عالم الغد فرض عين لا يسقط عن شرقي أو عربي في هذا الزمان .

عباس محمود العقاد

أسس الصحة النفسية

تأليف الدكتور عبد العزيز القوصي
٥٠٠ صفحة من القطع الكبير . مطبوعات معهد التربية للمعلمين . القاهرة ١٩٤٥
نقد الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

يتصل تاريخ علم النفس في مصر أوثق الصلة بصناعة التعليم ، ولها الفضل ولا ريب في تنبيه الأذهان إلى هذا العلم ، وتعريف الناس به ، وتزويد الطلبة الذين سوف يزاولون مهنة التربية بطرف منه . ومن أقدم الكتب المؤلفة في هذا الباب « كتاب علم النفس » للشيخ محمد شريف سليم الذي كان مفتشاً بوزارة المعارف التي قررت طبع ذلك الكتاب لمدارس المعلمين والمعلمات عام ١٩١١ . ولسنا في حاجة إلى بيان بُعد ذلك الكتاب عن روح العلم الصحيح ، خصوصاً وأن علم النفس يسجل تقدماً سريع الخطوات في السنوات

الأخيرة؛ ومنذ عشرين عاماً أخرج أمين مرسي قنديل كتاب « أصول علم النفس وأثره في التربية » في جزءين . وقد استفاد منه أغلب الذين تخرجوا في مدرسة المعلمين . وهو كتاب كانت له قيمته في ذلك الحين . وفي الوقت نفسه نجد أساتذة دار العلوم الذين يدرسون هذه المادة يؤلفون كذلك فيها ، وأشهر هذه المؤلفات « في علم النفس » يقع في ثلاثة أجزاء ، اشترك في تأليف الجزء الأول منه مظهر سعيد وعطية الإبراشي وحامد عبد القادر ، ولم يشترك مظهر سعيد في الجزءين الثاني والثالث .

وكتاب الدكتور القوصي الموجود بين أيدينا يجري في هذا الاتجاه التعليمي ، فصاحبه وكيل معهد التربية للمعلمين ، وهو يهدف في هذا الكتاب إلى تزويد المعلم بالثقافة النفسية اللازمة في فهم مشاكل الأطفال والشباب ، حتى يتيسر له علاجها على أساس صحيح . غير أن المنهج الذي جرى عليه المؤلف يختلف عن مناهج المؤلفين السابقين ويمتاز عنهم بميزة هامة ، هي أنه إلى جانب اطلاعه على المراجع الأجنبية التي يذكرها في آخر كل فصل ، يعتمد على مشاهداته وتجاربه في العيادة النفسية الملحقة بمعهد التربية . وفي كل مناسبة يذكر حالة من الحالات التي قام بعلاجها ، مما يُشعرك بأنك في جو مصري خالص ، كما يبعث على الشوق إلى القراءة ، والبعد عن السأم وعن الجفاف الذي ينشأ من عرض النظريات دون إيراد الأمثلة الواقعية الموضحة لها .

ونأخذ على الكتاب من ناحية الشكل بعض أمور : منها عدم استكمال المراجع الأجنبية من جهة ذكر سنة الطبع والناشر ، وكثرة الأخطاء المطبعية ، وبعض الأخطاء اللغوية ، وعدم العناية بالأسلوب ، وذكر نصوص إفرنجية ترجمتها تغني عنها .

إلى جانب هذا التيار الذي يمزج علم النفس بالتربية نجد بعض الدراسات الحرة قام بها فريق من الأدباء ، فقربوا علم النفس في بعض صوره من الجمهور ، ونذكر من هؤلاء سلامة موسى ، وكتابه الصغير عن العقل الباطن معروف . غير أن هذه الكتابات تمتاز بالهواية ، وتلمس الموضوعات مساً رفيقاً فلا تصل إلى العمق .

وهناك تيار ثالث لا يزال في بدايته ، وهو الصادر من الجامعة ، ونرجو أن يستقل عن الاتجاه التعليمي حتى لا يتعارض مع معهد التربية ، فيثمر شيئاً جديداً مختلفاً . وقد أصدرت جماعة علم النفس التكاملي « مجلة علم النفس » يصدر منها ثلاثة أعداد في كل عام ، تحمل أحدث الدراسات في علم النفس .

* * *

ينقسم كتاب أسس الصحة النفسية إلى ثلاثة أبواب : الأول في المبادىء العامة لعلم الصحة

النفسية ، وتحته فصول : في معنى الصحة النفسية ، وأثر الوراثة والبيئة ، والصلة بين الجسم والعقل ، والغرائز والحاجات ، وتكامل الشخصية وانحلالها ، والعمليات العقلية اللاشعورية ، ومراحل النمو .

وواضح من تقديم الفصل الخاص عن الغرائز — والمؤلف يجري في ذلك تبعاً لنظرية مكدوجل — أنه يؤثر هذه النظرية على غيرها من النظريات ، وعلى الأخص نظرية فرويد التي بسطها عند الكلام على انحلال الشخصية . ولست أدري السر في تعلق أساتذة معهد التربية بنظرية مكدوجل في الغرائز وتهافتهم عليها . وقد يكون اعتناق هذه النظرية مفهوماً ومقبولا إذا كان المقصود دراسة المظاهر النفسية العادية وأثرها في التربية وعلى الخصوص تربية الصغار والناشئين ، لأن عهدهم بالفطرة أقرب . فإذا كان البحث خاصاً بالشذوذ والعلاج النفساني ووضع أسس للصحة النفسية ، فمن الواجب اتباع نظرية تخالف غرائز مكدوجل . وهذا هو السر في أن المؤلف ارتمى في أحضان فرويد ، وأخذ بوجهة نظره في أغلب علاجاته ، وفي طريقته في التحليل ، وفى نظريته الأساسية ، وهي أن الآثار التي يتلقاها المرء في الطفولة تصحبه في الكبر وتسبب له في المستقبل الانحرافات النفسية . وهذا هو السبب فى أن الطبيب النفساني يعود بالمريض إلى الوراء يستقصي حياته الماضية ليهتدي منها إلى علة الداء . وكثير من المرضى يصابون بما يسميه المؤلف النكوص أو التراجع Regression ، والصواب أن نطلق عليه العود إلى الطفولة Infantilism ، ولفظة «النكوص» لا تفيد المعنى المقصود ، ففي المصباح النكوص الإحجام عن الشيء .

لهذا كان مذهب فرويد سليما بالرغم من الانتقادات الموجهة إليه ، وكل ما يؤخذ عليه مغالاته في إبراز قيمة الغريزة الجنسية . ومع ذلك فقد أفسح فرويد المجال للغريزة الأولى عند الإنسان وهي طلب الطعام حفظاً للحياة ، وهذه ولا ريب أولى الغرائز وأهمها . وهي أول شيء يظهر عند الطفل ، نعني الرضاعة أو الامتصاص لأنه الوسيلة للرضاعة . كل ما في الأمر أن الحضارة الحديثة يسرت لكل فرد حاجته من الطعام فلم يعد يطيل في طلبه التفكير ، أو قل : إن البحث عن الطعام وتناوله من المقاصد الحلال التي لا يستحي أي فرد من السعي وراءها . في حين أن الغريزة الجنسية تلقى من المجتمع والدين والتقاليد حواجز تمنعها من التحقق في حرية . وهذا هو سر انحرافها ، ومن البديهي أن الإنسان إذا امتنع عنه الغذاء انصرف عن أجمل النساء إلى إشباع جوعه أولا . وتاريخ المجاعات يؤيد ما نذهب إليه . ذكر المقريزي أن الناس كانوا يخطفون

المارة بالكلاليب ليأكلوهم في خلافة المستنصر ، ولقد أكلوا القطط والفئران والكلاب ، مما تشمئز منه النفوس .

ويتبع فرويد في التحليل النفساني ثلاث طرق : الأولى الإشارات والحركات واللوازم وفلتات اللسـان ، والثانية تداعي المعاني ، والثالثة الأحلام . وعنده أن تحليل الاحلام بالغ الأهمية ، لأنها تدلنا على العقد النفسية المختبئة في اللاشعور ، وهذه العقد تجد المجال فسيحاً في الأحلام للظهور ، ولـكن في صورة مستترة رمزية . ويبدو أن المؤلف لا يعتمد كثيراً على هذه الطريقة ، كما يتبين من الحالات الكثيرة التي أوردها أمثلة للعلاج . ولقد ذكر نقلا عن فرويد أن الرؤيا تمتاز بصفتين : الرمزية Symbolism ، والتكثيف Condensation ، ونظرية فرويد الصحيحة هي أن اللاشعور يلجأ في الرؤيا إلى ثلاث طرق : الروائية Dramatisation ، والتركيز Condensation ، والإبدال Déplacement.

أهم هذه الثلاثة الروائية التي تحول الأفكار والمعاني الباطنة إلى صور بصرية . أما الرمزية فهي صفة تابعة للتركيز والإبدال . قص أحدهم هذه الرؤيا ، وهي أنه رأى صديقاً له ، وكان مقتصداً يكنز كثيراً من المال ، يحترق رويداً رويداً بنار تتصاعد من جيبه صادرة من علبة سجائر حتى أتت النار عليه ، وظل متعجباً كيف تحترق العلبة دون ثقاب . وتفسير هذه الرؤيا أن التدخين مهلك للمال . وقد برزت هذه الفكرة في صور مرئية بطريقة روائية دراماتيكية . أما الشخص الذي احترق فهو بديل صاحب الرؤيا ، ولأنه مقتصد فهو رمز للمال .

***

الباب الثاني فى الطفل وبيئته الاجتماعية ، وتحته أربعة فصول : الطفل ووالداه ، الطفل وإخوته ، المدرسة ومشاكل النشء ، المعلم وعلاقته بالتلميذ .

وقد أحسن المؤلف فى بيان علاقة الآباء بالأبناء وأثر ذلك فى اضطراب حياة الأطفال . وقد فطن القدماء إلى هذا المعنى ، ومن أقوال علي بن أبي طالب أن أولادنا خلقوا لزمان غير زمانا . وكتب أبو العلاء « هذا جناه أبي عليّ » غير أن انتشار التعليم السريع خصوصاً في أوربا وأمريكا ، مع تقـدم فن التربية وعلم النفس منذ عهد روسو ، كل ذلك غير من قيمة الأحكام التي ذكرها المؤلف . ذلك أن الحضارة الحديثة قضت أن ينصرف الأب والأم إلى العمل ، فيعهدان بالطفل إلى مدارس الحضانة ، وهي تبدأ في أوربا من سن الثالثة بل قبل ذلك ، وهناك دور للحضانة تقبل الأطفال منذ

الولادة ، ويرسل كثير من الأمهات أبناءهن إلى هذه الدور ، لأنهن موظفات لا يستطعن مزاولة العمل والعناية بالأطفال . وهذه حال شائعة في البلاد الصناعية. ومن جهة أخرى ينصرف سكان الدول الراقية مثل انجلترا وفرنسا وأمريكا إلى تحديد النسل — وهي ظاهرة حديثة اقتضتها الظروف الاقتصادية وتحسن الصحة العامة وقلة الوفيات — فنشأ عن ذلك أن كثيراً من الأسر لا يوجد فيها إلا طفل وحيد ، ومع ذلك فإن حسن التربية لا يجعل منه شخصاً مدللاً أو عنيداً . أريد أن أقول : إن شذوذ الطفل يرجع إلى سوء تربية الوالدين له ، لا لأنه الطفل الأكبر أو الطفل الوحيد .

والعيب عندنا فى مصر ، إلي جانب عيوب كثيرة ، هو التفاوت بين ثقافة الرجل والمرأة ، فهي ولا ريب أقل منه خبرة ومعرفة وثقافة ، مع أنها هي المكلفة تربية الأبناء . لهذا صح عندنا ما قاله المغفور له حافظ وإبرهيم :

الأم مدرســـة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وهذه الثقافة كان ينبغي أن يتنبه لها المؤلف ، لأنها محور الشذوذ الذي يشكو منه الجيل الناشىء في مصر .

***

الباب الثالث مشكلات تربية النشء ، وتحته أربعة عشر فصلاً : المشكلات المتعلقة بالتغذية والنوم والتبول اللاإرادي ، والحركات العصبية ، وصعوبات النطق ، والخوف ، وضعف الثقة بالنفس ، والكذب ، والسرقة ، والميل إلي الاعتداء، والمشاجرة ، والتخريب ، والغيرة ، والتأخر الدراسي ، والمشكلات الجنسية ، والتربية الجنسية .

هذا الباب تطبيقي ، يصف فيه المؤلف حالات عولجت في العيادة النفسية ، ويعللها ويذكر طريقة العلاج . وكثير من الآراء المذكورة صائبة ، فهي نتيجة تحقيق في الاطلاع وجهد في فحص الحالات .

وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين آفات النطق بما لا يحتاج إلى فضل زيادة . وقال موسى عليه السلام : « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني» وطلب من ربه قائلاً : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » فأجابه ربه تعالى قائلاً : « قد أوتيت سؤلك ياموسى » فجعل موسى عقدة اللسان ناشئة عن ضيق الصدر واضطراب الجنان .

وينبغي التميز بين الحبسة والحصر والعقدة ، وبين اللثغة والفأفأة وما أشبه . فالعقدة من عيوب النطق ، واللثغة من آفات اللسان وإبدال الحروف . ومرجع العقدة

الخوف والاضطراب ، وأصل اللثغة التقليد ثم تثبت مع الإلف والاعتياد ، إن لم يكن في الأسنان عيوب هي العلة في نقص البيان .

وقد ذكر المؤلف حالة قال بعد تحليلها : إن تقليد الطفل للخادمة ليس سبباً أساسياً في العيّ . وعندنا أن التقليد من أهم الأسباب وأوكدها ، وهو الأصل الذي يحتذي الأطفال مثاله في الصغر .

ومن أسباب الحبسة وانعقاد اللسان أن الطفل إذا ضربه أبوه ضرباً مبرحاً صاح من الألم ، فينهره أبوه ويمنعه من الصياح لأنه لا يريد أن يسمع منه صوتاً ، وقد يرتج على الطفل فلا يقدر حتى على الصياح ، وهنا تتدخل أمه وتطلب من أبيه الكف عن الضرب شفقةً بالغلام ، وعندئذ يعلم الطفل أن هـذا الأسلوب من الحصر يدعو إلى الشفقة ويمنع من الاستمرار في القسوة ، فيصطنعه استدراراً للعطف ووقفاً للعقاب ، ثم يعتاده ويألفه حتى ليصعب الإقلاع عنه .

وليس الخوف علة آفات اللسان فحسب ، بل هو كما ذكر المؤلف عن بعض علماء النفس السببُ في كثير من الاضطرابات النفسية .

وتقسيم المخاوف بحسب مصادرها ، وهو ماجرى عليه جميع العلماء ، موضع اعتراض . والصواب أن نجعل الإنسان محور التقسيم لا الأشياء الخارجية ، وهذه فكرة ليست جديدة ، فقد سبق « كَـنْـت » إلى إحداث مثل هذا الانقلاب في الفلسفة ، ومن قبل أحدث « كبرنيق » ثورة في علم الفلك أساسها أن الشمس هي المحور الذي تدور الأرض حوله . بهذا يستقيم البحث في تعليل المخاوف الإنسانية . ولو كانت الأشياء الخارجية هي مصدر الخوف ، لكان الشيء الواحد سبباً في ظهور الخوف عند جميع الناس . ولكن الحال غير ذلك ، فبعض الناس يجري من الصرصار ويخاف إذا رآه . ومن طريف ما يذكر في هذا الباب أن فرويد يرجع خوف المرأة من الفأر إلى الغريزة الجنسية ، لأن الفئران تأوي عادة إلى الجحور !

والخوف هو الجانب الوجداني لغريزة الهرب أو النجاة . والنزوع إلى الهرب وتجنب الأخطار أسبق من حدوث الخوف ، وفي ذلك قال تعالى في سورة الكهف « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً » فجعل الله تعالى الفرار أسبق من الرعب . وهذا يتفق مع نظرية مكدوجل التي بدأ المؤلف بذكرها . وقد أوضحت الحرب الأخيرة كثيراً من الظواهر المتصلة بالخوف. كان الناس يلجؤون إلى المخابىء عند سماع صفارة الإنذار ، بل هجروا القاهرة إلى الريف بعد أول غارة ، فلما تبين لهم أن

الخطر ليس كما توهموا ، عادوا إلى بيوتهم وامتنعوا عن النزول في المخابىء . وهذا يوضح لنا أن الخوف وهمي أكثر منه حقيقي ، وأنه صادر من باطن النفس لا من مصدر خارجي ، كما سبق أن قررناه .

وقد اختتم المؤلف كتابه بفصلين عن المشكلات الجنسية وعن التربية الجنسية ، والكلام في هذا الموضوع من أعقد الأمور . ولقد ذكر القابسي صاحب رسالة أحكام المعلمين والمتعلمين ، كما أوضحت في كتاب « التعليم في رأي القابسي » ، أن المعلم ينبغي أن يأخذ حذره من الصبيان إذا بلغوا الاحتلام . ولقد كان المعلمون يشكون من الشذوذ الجنسي كما نشكو الآن ، فما العلاج ؟ يخالف أدلر أستاذه فرويد في نظريته ، ويرجع هذا الشذوذ إلى غريزة السيطرة وإحساس المرء بالصغار بالنسبة إلى المجتمع الذي يعيش فيه ، فالشذوذ الجنسي نتيجة للشعور بالنقص . ويسيء الناس فهم نظرية فرويد عن الغريزة الجنسية ، فهي عنده لا تكتمل بأداء الأعضاء التناسلية وظيفتها ، بل إن العاطفة affekt جزء غالب فيها . وهذا هو السر في أن الاتصال بالمومسات ، مع أنه يحقق صورة الغريزة الظاهرة ، لا يؤدي إلى الإشباع أو الارتياح ، ولا يجد الإنسان لذته الحقيقية إلا في الزواج ، والفرق بين الزوجة والمومس يقع في وجود عاطفة الحب بين الزوجين وفي إنجاب الأولاد . والنسل هو الهدف الطبيعي للصلة الجنسية ، ولهذا يطلق بعض العلماء على الغريزة الجنسية الغريزة التناسلية . بل لفظ الجنس sex يدل على هذا المعنى ، لأن بقاء الجنس متوقف على الصلة بين الذكور والإناث مما يؤدي إلى الإنسال .

في ضوء هذه القواعد التي نذكرها نستطيع تفسير الحالة المذكورة في صفحة ٤٤٨ من أن شاباً يتصل بالمومسات ومع ذلك يحلم أنه يتصل بأمه أو بأخته ، يقول المؤلف : « يدل هذا على شدة حب الولد لأمه وأخته واحترامه لهما ، وعلى إدراكه لاشعوريا وجه الشبه بينهما وبين زوجته ، وعلى ما يتمناه من الصلة الجنسية الناجحة مع زوجته التي تشتق صورتها في ذهنه من أمه » والتعليل الصحيح أنه لا يجد في الصلة بالمومسات الجانب العاطفي المكمل للغريزة الجنسية ، وهذا الجانب بالغ الأهمية ، فيلتمسه في اللاشعور عند اللواتي جرّب عطفهن .

فإذا وجد مثل هذا الشخص من زوجته العطف الذي كان يجده من أمه ، كان زواجه ناجحاً . فإن لم تستطع الزوجة أن تملأ فراغ العاطفة انتهى الزواج بالفشل .

أحمد فؤاد الأهواني

تاريخ النقائض في الشعر العربي

تأليف الأستاذ أحمد الشايب

٤١٣ صفحة من القطع الكبير . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٤٦

نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

قد يكون الأستاذ أحمد الشايب على كثير من الحق حين يقول إن فحول الأمويين امتازوا في تمثيل فن النقائض تمثيلا واضحاً . ولكنه ليس على الحق حينما يقول إن الناس خيل إليهم أن الأمويين هم مبتدعو هذا الفن وهم أربابه الأولون .

فإن الناس لم يخيل إليهم ذلك ولم يقولوه ؛ ولكن الناس يعلمون حق العلم أن الشعر الجاهلي كان فيه مفاخرة ومنافرة وهجاء ، وأن هذه كلها معرض فسيح لكي ينقض القائل على القائل ما قال . والناس يعلمون فوق ذلك أن نقائض العصر الأموي هي مظهر كامل للنقائض ، وأنها لم تكن إلا الغاية التي بلغها هجاء الجاهلية يوم أن كان الهجاء يبدأ بين الرجل والرجل أو بين القبيلة والقبيلة فيرده الراد وينكره المنكر على أبسط صورة من صور المناقضة .

فالأستاذ الشايب حين يلبس ثوب الدفاع عن قضية النقائض في العصر الجاهلي إنما يدافع عن قضية رابحة لا تحتاج إلى دفاع ، لأنه لا محل فيها للخصام والنزاع .

أما تتبع نقائض العصر الأموي وردها إلى مكانها الأول في الجاهلية ودراسة خصائصها فيما بين ذلك فعمل نرحب به من المؤلف الفاضل لجدته من ناحية ، ولمقدرة الأستاذ على معالجته من ناحية أخرى . ولو وقف البحث عند نقائض الأمويين لهان الأمر ، فمناقضات جرير والفرزدق والأخطل — وهم فحول الأمويين — مجموعة في كتابين أو ثلاثة ، فليس عسيراً أن يستدل عليها ويرجع إليها . ولكن مناقضات العصر الجاهلي مبعثرة في كثير من كتب التاريخ والأدب ، وليس سهلا أن تقع عليها العيون أو تدركها في مظانها الظنون . ومن هنا كان كتاب الأستاذ الشايب عملا بدا فيه من الجهد المبذول والسعي الموصول ما تشكر معه النتيجة وتحمد فيه الخاتمة .

وقد لون العصر الأموي الشعر العربي بألوان قوية في السياسة ، والمناقضة ، والغزل ، حتى أصبح بهن متميزاً . وهي لوحة لم تجتمع لعصر من عصور هذه الأمة . فكانت تلك الألوان خليقة بالدرس جديرة بالبحث .

ولقد لفتت هذه اللوحة الأستاذ الشايب فألقى بين عينيه العـزم على دراستها . وأخرج في الشعر السياسي كتابه وهو قيم في موضوعه ، ثم أخرج اليوم كتابه في النقائض ، وترك الغزل الأموي لأحد طلابه في الجامعه يدرسه تحت إشرافه .

ولا أدري بالطبع لماذا آثر الأستاذ الشايب النقائض على الغزل ، وهو بالطبع حر فيما يختار من فنون الشعر . ولـكنني لو كنته — أو كنت منه — ما رضيت أن أعني النفس بشعر فيه من سلاطة اللسان وشناعة الهجاء ما لا تود العين أن تقع عليه ولا تحب الأذن أن تسمعه . ولـكن ما ذنب الناقد حين يفتش عن العيوب ويبحث عن الذنوب بأ كبر من ذنب « الفنان » حين ينقل صورة من الحياة بخيرها وشرها . فلا يقول الناس له : لماذا نقلت الشر ؟ فلا عتب إذن على دراسة النقائض ، لأنها تصور فناً وتوضح لوناً . وتدرس عداوات قامت على أسباب بين التفاهة والجـد . وتدرس غارات وأياماً في الجاهلية ، وعوامل وبواعث في عصر بني أمية .

والمؤلف نفسه يعترف بأن نقائض العصر الأموي انحطت إلى درجة الإسـفاف الخلقي . وما كان أشق المهمة عليه وهو يستشهد بالأبيات من الشعر فينقط مواطن الفحش فيبدو الشعر شيئاً عجيباً : لا هو بالـكامل فيظهر على عيبه ، ولا هو بالمحذوف كله فيراح النظر والسمع والقلب من ريبه ...

ولـكن الأستاذ لم يعلل لنا إفحاش النقائض في عصر بني أمية ، وهو عصر تأدب الناس فيه بأدب الإسلام ، ولم يعلل لنا رعاية شعراء الجاهلية للحرمات وبعدهم عن ذكر العورات ، وهو عصر لم يظله دستور القرآن ولا مبادىء الإيمان ✲ .

ودراسة النقائض منذ نشأتها في الجاهلية إلى اكتمالها في عصر بني أمية ليست عملا سهلا أو مطلباً هيناً . فإن متابعة النصوص الجاهليـة المبعثرة ودراستها واستخراج الخصائص منها ، وتتبع الأيام بين عدنان وقحطان من جهة ، وفي كل من البيتين الـكبيرين من جهة أخرى ، ودراسة الأنساب العربية وصلتها بالعصبيات القبلية ، ودراسة الحياة الاجتماعية ، كل أولئك يحتاج إلى معاناة ومراجعة ومعاودة ، وتيقظ للأحداث وتنبه للمميزات ، وملازمة للفكرة حتى تبقى سلسلة البحث موصولة غير مقطوعة ، وتلك صفات يشهد الـكتاب على أن مؤلفه لا يحتاج إلى صفة الواصف ومعرفة العارف .

ولقد أنصف الأستاذ الشايب النصفة كلها حين جعل فترة المخضرمين عصراً مستقلا من عصور النقائض . والحق أنها كانت — كما قال في صفحة ١١٦ — امتداداً

✲ راجع صفحتي ١١٢ و ٣٦٠ .

للنقائض الجاهلية من حيث أصولها الفنية . ولكنه لم يغفل مع ذلك ملاحظة ما أصابها من التغيير من حيث الموضوع والمعاني الإسلامية الجديدة ، والأساليب التي لاحظ هو اضطرابها ، والغاية التي كانت في سبيل الإسلام . ولقد وفى الأستاذ تلك الفترة من تاريخ العرب ، فتتبع النقائض الإسلامية الأولى منذ نشأتها في ظل الغزوات . وهنا عرض لبعض ما قاله عبدالله بن الزبعرى وما ناقضه به حسان بن ثابت . والحق أن حسان كان واقفاً بالمرصاد لكل شاعر من شعراء الشرك ، فقد ناقض كعب بن الأشرف اليهودي ، وناقض أبا سفيان ، وناقض ابن أبي وهب المخزومي ، وغيرهم . على أن حسان لم يكن مناقضاً في كثرة شعره ، فقدكان بادئاً في بعض المواقف وشعراء الشرك هم الذين يناقضونه.

أما إشارة المؤلف الفاضل إلى أساليب المناقضة في القرآن ، فهي على إيجازها توجيه لمن يريدون التوسع في بحث هذا الموضوع ، وما كنت أرجو أن يسمى أسلوب الجدل في القرآن « مناقضة » حتى لا يظن ظان — ساء نية أم صح — أن نقائض العصر الإسلامي والأموي هي أثر من آثار الجدل في القرآن ✡ .

بقي أن أقول : إن كتاب «تاريخ النقائض في الشعر العربي» لم يكتف أن يكون بحثاً في النقائض ونشأتها ، ولكنه جمع إلى ذلك ديواناً حافلا من أشعار المناقضات في العصور الثلاثة التي تناولها الأستاذ المؤلف .

وإذا كان حظ الشعراء سيئاً حين تظلم الأيام أقدارهم وتضعهم في غير مواضعهم فليس حتما أن تظلم أشعارهم كذلك فتروى محرفة أو مشوهة أو مبتورة أو مكسورة . كأن همّ الكاتب حين يكتب أن ينقل الشعر حيثما اتفق ... وأنا لا أعرف عن الاستاذ الشايب أنه يعنى بتضخيم الكتاب بالشعر أكثر مما يعنى بتصحيحه وتنقيحه .

ولقد مضى الزمن الذي كان فيه نشر الكتب في أيدي الجاهلين الطامعين في الربح من أخف الطرق مؤونة . ولا أدري والله أألوم الأستاذ الشايب أم ألوم الناشر حين ازدحم هذا الكتاب الجليل بأخطاء ما كان ينبغي لها أن تكون .

وإذا جاز ذلك في قصة أو مقال عابر أو في لغو الكلام الذي نقرؤه هذه الأيام ، فهل يجوز في كتاب جامعي وبحث رفيع أدبي يظل بنثره وشعره مرجعاً للأديب يستشهد منه بالبيت والأبيات ويرجع إليه عند اختلاف الروايات ؟ ! ففي صفحة ٢٥ هذا البيت :

يسأله الصبر من غسان إذ حضروا كيف قراك الغلمة الجشر

والشطر الثاني ناقص وتكملته « والحزن كيف قراك الغلمة الجشر » . والصبر

✡ ص ١٢١ ، ١٢٣

والحزن : قبيلتان . وفي ص ٤٢ هذا البيت لامرئ القيس :

يحملنا والأسل النواهلا مستثفرات بالحصى جوافلا

وصوابه « يحملننا » بنونين نون الإناث وضمير « نا » . ونون الإناث تعود على الخيل الضوامر في البيت قبله . وفي ص ٦٣ من شعر امرئ القيس :

فأيقظننا يأكلن فينا عفرا نطعمها قداً ومحروث الحمال

وصوابه « قايظننا » أي أقمن وقت القيظ . وفي ص ٦٩ من شعر حسان :

أو تدع في الأوس دعوة هرباً

وصوابه « أو نَدْعُ » من الفعل دعا ، وهو مجزوم هنا بحذف حرف العلة . وبعد ذلك بثلاثة أبيات :

نقتلهم والسيوف تأخذهم أخذاً عنيفاً وأنتم كشف

وضبط الفعل « نقتّلهم » بالتشديد وإن أفاد المبالغة يكسر البيت ، لأن القصيدة من بحر المنسرح ووزنه : « مستفعلن مفعولات مستفعلن »

والصواب « نقتُلهم » بغير تشديد . وفي ص ١٠٦ :

ساق الرفيديات من جَوْشٍ ومن عظم وماش من رهط ربعي وحجّار

وصوابه « ساق الرفيدات » لا الرفيديات لئلا ينكسر البيت من جهة ، ويغير اسم القبيلة من جهة أخرى . وقد ورد اللفظ صحيحاً في الهامش . وفي ص ١٣ من شعر يزيد ابن الطثرية :

عليّ هدايا البُدن إن ألاقها وإن لم يكن إلا فُديك يسوقها

وفي الشطر الأول نقص وكماله : « عليّ هدايا البدن إن لم ألاقها » . وبعد ذلك هذا البيت :

يحصنها مني فديك سفاهة وقد ذهبت فيها الكياسُ وحوقها

و « الكياس » خطأ ، وصوابه « الكباس » بضم الكاف وبالباء التحتية الموحدة . وبعده هذا البيت :

تذيقونها شيئاً من النار كلما رأت من بني كعب غلاماً يرقها

وكلمة « يرقها » من أخطاء الطبع ، وصوابها « يروقها » أي يعجبها . وفي ص ٢٠ من شعر أميمة صاحبة عبدالله بن الدمينة :

فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا بجمس من قول الوشاة كلوم

وصواب الشطر الثاني « بجسمي من قول الوشاة كلوم » وهو من أخطاء الطبع .

وفي ص ١٤٧ من أرجوزة لـكعب بن مالك :

قد علمت خيبر أني كعب　　مفرج الغمَّى جريء صلب

إذا شبت الحرب تلتها الحرب　　معي حسام كالعقيق عضب

وصواب البيت الثاني « إن شبت الحرب تلتها الحرب » فإن البيت مكسور مع « إذا » الشرطية . وفي ص ١٥٠ من شعر عباس بن مرداس :

إني والسوابح يوم جمع　　وما يتلو الرسول من الكتاب

وصوابه « وإني والسوابح يوم جمع » .

ولن أمضي في سبيل الحصر ، فهي طريق قد تطول جد الطول بناقد الكتاب العربي في جملته . وسيصبر الشعر العربي قليلا كما صبر كثيراً ، حتى يتيح الله له من يقيم وزنه رواية وضبطاً وتصحيحاً وتقديراً . ولعل الجامعة فاعلة ذلك إن شاء الله فيما يخرجه أساتذتها من كتب .

محمد عبد الغني حسن

الحياة الروحية في الإسلام

تأليف الدكتور محمد مصطفى حلمي

١٦٤ صفحة من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥

نقد الأستاذ محمود عبد العزيز محرم

هذا كتاب يؤرخ التصوف من مبدأ ظهوره في الإسلام إلى القرن السابع الهجري ، ويرده إلى أصوله الأولى في حياة النبي صلي الله عليه وسلم وأقواله ، وحياة الصحابة من بعده وأقوالهم . والكتاب مظهر جليّ للفكرة التي يريدها المؤلف ، ويحاول أن يستدل عليها ويثبتها في أذهان القارئين . وأسلوبه سهل مبسَّط في أداء أغراضه ، وفيه تكرار كثير . ويكفي أن تعرف قيمة هذا الكتاب وروعته من صلة موضوعه بالمادة التي يدرسها الدكتور المؤلف في كلية الآداب ، وهي الفلسفة . والحياة الروحية عامة ، والتصوف خاصة ، لهما صلة وثيقة بالفلسفة ، وكثيراً ما كان يزاوج الصوفية بين أذواقهم ومواجيدهم وبين النظريات الفلسفية .

والتصوف نشأ في أول أمره ضئيلاً يسيراً ، ثم نما وأورق ، وازداد نموّه وإيراقه كلما تقدم به الزمن ، حتى بلغ الغاية في النمو والإيراق في القرن السابع . وقد تأثر التصوف في عمره هذا بالثقافات الاجنبية التي غزت الثقافة العربية ، كالثقافة الهندية والفارسية والنصرانية واليونانية ، وتأثر كذلك بفروع الثقافة العربية المختلفة ، كالحديث والتفسير والفقه واللغة والأدب . ويرى الدكتور أن التصوف بهذا المعنى المعروف يرجع إلى أصول إسلامية ، قد تُلتمس في الصدر الأول من الإسلام ، وقد نذهب إلى أبعد من هذا قليلاً فنلتمسها في حياة النبي قبل بعثته ، يوم كان يخرج — صلوات الله وسلامه عليه — يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد ، طامعاً في كشف القلق النفساني الذي ألم به قبل أن يتجلى ملكوت السماء عليه . والدكتور كباحث له رأيه في هذا الموضوع يتحيز له ، ويتعمق فيه ، ويلح عليه إلحاحاً متواصلاً ، ويؤمن به إيماناً يجعله أحياناً يورد روايات يتوقف هو في قبولها . وهو لا يريد أن يخدعك عن رأيك ، بل كثيراً ما يقول : إن صح هذا فإنه يكون كذا ، أو إن هذه الرواية إن صحت فالأمر يكون كذا . وهذه أمانة نشكرها للمؤلف الفاضل. وقد عرض الدكتور للآراء الأخرى التي ترجع التصوف إلى أصول غير إسلامية ، وفنّدها وفند أدلتها ، رأياً رأياً ودليلا وراء دليل ، وأقام هيكل فكرته في يسر وتلطف ، حتى كان هذا الهيكل صرحاً عالياً زاهياً يسكن إليه كثير من الناس .

وأظن أني شغلت بالتصوف حيناً من الزمان ، ذهبت فيه إلى أن التصوف ليس إسلامياً ، وأن اتجاه الإسلام غير اتجاه المتصوفين ، وأن هذه الروحانية الصوفية انحدرت إلينا من الديانة العيسوية ، أيّاً كان سبيل انحدارها إلينا . ويجب هنا أن أذكر شيئاً ، وهو أني لا أطمئن إلى هؤلاء المتصوفين ، ولا أراهم مسلمين إسلاماً كاملا، وقد يكون عدم الاطمئنان لبّس عليّ الحقيقة ، ولكن مما لا شك فيه أنني أراني مصيباً فيما ذهبت إليه ، ومع ذلك فأنا على استعداد دائماً للرجوع عنه متى اقتنعت بصواب غيره . والدكتور محمد حلمي ، على كثرة ما قال وأورد ، ما أظنه قال شيئاً يجعلني أومن بصواب رأيه وخطأ رأيي بل على العكس من ذلك ، قوى الشبهة في نفسي وجعلها أوضح أثراً . وليس منكراً أن أزعم أن التصوف ليس إسلامياً ، وإنما المنكر أن أرى ذلك ولا أذكره للناس . وهذا لا يضير الإسلام في شيء ، لأن التصوف لا يمثل وجهة الإسلام الأولى ولا رسالته في الحياة، وغاية ما فعله أن أخرج للناس طائفة من الكسالى المتواكلين الذين لا يعملون لعمارة الدنيا ولا يريدون للناس أن يعملوا . والبديهة المسلمة في ديننا أن العمل عبادة ، وأنه

خير من العبادة إذا تعارضا وعز الجمع بينهما . وهذا هو الوضع المعقول لعمارة الدنيا ، والفهم الصحيح للطبيعة البشرية التي تدفع الناس للكسب وحفظ الحياة ، كرهوا أم رضوا.

وكان جلّ اعتماد المؤلف الفاضل على أحاديث رواها يستدل بها على أن التصوف عبادة إسلامية . وهذه الأحاديث على فرض التسليم بها ليست شيئاً ذا بال في محل الخلاف لأنها لا تقول إلا بمعنى نظن أن الديانات السماوية كلها قالت به ، وأكدته ، من لدن آدم إلى محمد بن عبدالله ، وهذا المعنى هو : مراقبة الله تعالى والزهد في الدنيا والطمع في الآخرة . فكل دين يوجب عليك أن تراقب الله في سرك وإعلانك ، وكل دين يشير عليك أن تزهد في الدنيا ، تزهد فيها ليعيش الفقير إلى جوار الغني ، والضعيف إلى جوار القوي . وكل دين يوحي إليك أن ما عند الله خير وأبقى . فليس هذا المعنى وقفاً على الإسلام أو النصرانية أو اليهودية ، إنما هو ملك شائع لكل دين . ومن هنا نستطيع أن نعلل مسارعة الفقراء بالانضواء تحت لواء الأنبياء ، وتشدد الأغنياء وعنف خصومتهم لهؤلاء الأنبياء أيضاً . وكيف يغفل هذا المعنى تشريع أو قانون يطلب لنفسه حق البقاء ، ما دامت الدنيا قسمة بين الأغنياء والفقراء ، وما دامت شرة النفوس ونوازعها لا تكثر إلا بهذه المعاني ؟ !

هذا إذا سلمنا بهذه الأحاديث . أما إذا توقفنا فيها ، ويجب علينا أن نتوقف ، فإنا نذكر أنها تدلل على مذهب واتجاه . والأحاديث المذهبية يحسن أن نحترس منها ونحتاط في قبولها ، لأن الإسلام أصيب من هذه الناحية إصابة لا شك قاسية ، فقد نبتت في حياة المسلمين نحل كثيرة ، وكل نحلة تحاول أن تجد ما يؤازرها في القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ولما كان من الحتم أن يعجز أرباب هذا النحل عن العثور على ما يؤيد نحلهم فقد طرقوا بابي الوضع والتأويل ، فوضعوا كثيراً من الأحاديث ، وأولوا كثيراً منها وكثيراً من آيات القرآن بما يخالف الحقيقة والواقع ، وحملوا النصوص أكثر مما تحتمل . وهذا الوضع والتأويل إن لم يكن لإنشاء قاعدة جديدة فلا أقل من أن يقوي قاعدة مرجوحة . وقد اشترك في هذا الإثم كثير من ذوي النحل والمذاهب ، والصوفية ليسوا أسلم إيماناً من الشيعة أو الفقهاء أو السياسيين ، حتى نقبل أحاديثهم دون تمحيص . وأقل ما فعل الصوفيــة أنهم أولوا بعض الأحاديث تأويلا لا يتفق ومقاصد الشريعة . والمقياس الذي لا يخطىء في مثل هذا أن نعمد إلى المقارنة بين هذه الأحاديث والقرآن الكريم ، فما اتفق منها ومقاصد القرآن قبلناه وإلا توقفنا فيه .

إن الصوفية ذهبوا إلى أقوال لا يؤيدها قرآن ولا سنة ، ولا يستطيع مسلم أن

يقرهم عليها مهما كان متسامحاً واسع الصدر مرن التفكير . ومَنْ مِنَ الناس يستطيع أن يقول بنظرية الحلول ، أو نظرية الاتحاد ، أو نظرية وحدة الشهود ، أو يقول كما يقول الحلاج بأن الحج ليس فرضاً من فرض الإسلام التي ينبغي أن يقوم بأدائها المسلم ، أو يقول كما يقول السهروردي بالحكمة الإشراقية التي يعرض فيها ما ينافي نصوص الشرع ، أو يقول كما يقول الحلاج وابن عربي بوحدة الأديان ، أو أن يرتب على وحدة الأديان مارتبه ابن عربي من أن العبادة الصحيحة هي أن ينظر العبد إلى جميع الصور على أنها مجال لحقيقة ذاتية هي حقيقة الإله الواحد :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة   فمرعى لغزلان وديرٌ لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجهت   ركائبه فالحب ديني وإيماني

ومن المقطوع به أن هذه نظريات غير إسلامية . ولا يمكن أن ترجع إلى أصول إسلامية ، لأن الإسلام لا يقول بحلول الحق في الخلق ، ولا بالاتحاد بين العبد والرب . وهو جعل الحج فرضاً عيناً على المسلم القادر ، ولم يقل بوحدة الأديان ، وإنما الدين عند الله الإسلام . إن الروح الصوفيّ ليس روحاً إسلامياً ، ولا صلة بينه وبين الإسلام .

وقد دخل في الإسلام كثير من أهل الكتاب ، منهم المخلص ومنهم المنافق . والمخلصون قد يكون بعضهم يقظاً حريصاً ، وقد يكون بعضهم غلبت عليه الغفلة فأضاف إلى الإسلام ما ليس منه ، والمنافقون دخلوا الإسلام للدس فيه والكيد له . كما فعل عبدالله بن سبأ ، وهو أول من نادى بالرجعة ، ونادى بالحق الإلهيّ في الملك ، وقال بالرجعة من بعده رجل من كبار الصوفية ، وهو الحسين بن منصور الحلاج . وقد اختلط الإسلام بثقافة البحر المتوسط في مصر والشام ، ولا شك أن هذه الثقافة متأثرة بالدين المسيحي إلى حد بعيد .

* * *

كل هذا وغيره كثير ، يكشف لنا عن مبلغ « الإسلامية » في التصوف ، ويكشف لنا عن قيمة بذوره الأولى التي يصح لباحث أن يعتمد عليها في رده إلى الإسلام ، كما يكشف لنا عن هذا المقدار الضخم من الثقافات الدخيلة على هذه البذور الأولى ، والتي جعلت التصوف فلسفة دينيه إلهية بحدود ورسوم وضوابط . فإن كان الدكتور يريد بالتصوف — على أنه الحياة الروحية في الإسلام — أنه من صميم الدين الإسلامي ،

فلسنا من هذا الرأي ، وإن كان يريد أن هذا اللون من الحياة الروحية ظهر في حياة المسلمين العامة وتاريخهم المديد ، فهذا ما لا شك فيه .

***

على أن الحياة الروحية في الإسلام ليست مقصورة على التصوف ، إنما هناك نواح لم يذكرها المؤلف ، وكانت أولى بالذكر من هذا التصوف الذي ليس من الإسلام في أكثر أحواله وأعم مظاهره . وهذه النواحي من لباب الشريعة الحق وقوانينها العملية ، أو على الأقل الاتجاه العملي فيها — ظاهر واضح — ألزم الناس اتباعها والعمل بمقتضاها ، فالصوم المفروض وغير المفروض ، والصلاة المفروضة وغير المفروضة ، والوضوء كل يوم خمس مرات ، والحج في أشهر معـدودات ، والزكاة والصدقات ، والاعتكاف — حيناً — في المساجد وغيرها لذكر الله ، والكفارات : كفارة الصوم ، وكفارة الظهار ، وكفارة اليمين ، إلى غير ذلك . . . كل هذه ألوان تطهر الناس من ذنوبهم ، وتسمو بنفوسهم ، وترفعهم درجات في معارج الكمال . وحبذا لو أفرد المؤلف فصلاً أوفصلين أو فصولاً يستعرض فيها هذه الألوان ، ويبين آثارها ومايترتب عليها من أثر في حياة الفرد وحياة الجماعة ، وما تأخذ به الناس نحو الحياة الاجتماعية الراقية ، والحياة الروحية السامية .

وثمة ناحية أخرى يصح أن نسميها الروحانية العلمية ، فقد أغرم المسلمون بالعلم غراماً عنيفاً ، ولاقوا في سبيله الشدائد وجابوا البلاد . وهذه روحانية يعز مثيلها على وجه هذا البسيط من الأرض ، أخرجت لنا في العهود الأولى أقطاب العلم وأساطين البيان . فعلم الحديث والاشتغال به ، وعلم التفسير والاشتغال به ، وعلم الفقه ، واللغة ، والأدب — كان لكل هاته العلوم رواد مخلصون . وبها استطاع المسلمون أن يؤثلوا حضارة ثابتة الجذع فارعة الذوائب .

وأنا لا أحب أن أسترسل في تعداد هذه النواحي ، بل أكتفي بذلك للدلالة على أن الحياة الروحية في الإسلام لها مظاهر غير هذا المظهر الذي ذكره المؤلف . وأملنا أن يكون الدكتور محمد مصطفى حلمي أخرج كتابه هذا مقدمة لسلسلة من المؤلفات في الروحانية الإسلامية . وأخيراً أشكر المؤلف الفاضل ، فقد أفدت إفادة كريمة من كتابه الممتع ، لقـَّاه الله على مجهوده هذا خير الجزاء .

محمود عبد العزيز محرم

التعريف

نَحْل عِبَر النَّحْل

مخطوط لتقي الدين المقريزي

بقلم الأستاذ جمال الدين الشيال مدرس التاريخ الإسلامي في كلية الآداب
بجامعة فاروق الأول بالإسكندرية

١

تقي الدين أحمد بن علي المقريزي مؤرخ من كبار مؤرخي مصر الإسلامية ، بل هو زعيمهم دون منازع ، كان فقيهاً ومحدِّثاً ، وتولى منصب الحسبة في القاهرة غير مرة ، ثم فرغ لعلم التاريخ ، واستقرّ في بلدته يؤلف فيه ، فأنتج إنتاجاً خصباً .

وكتُب المقريزي نوعان : كتب موسوعية كبيرة ، كثيرة الأجزاء ، وكتب أو كتيبات صغيرة . أما كتبه الكبيرة فمنها ما عُني فيه بالتاريخ الإسلامي بوجه عام ، ككتاب إمتاع الأسماع ، أو كتاب الخبر عن البشر ، وأكثرها ما عني فيه بتاريخ مصر الإسلامية ، ككتات عقد جواهر الأسفاط في تاريخ مدينة الفسطاط ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . . . الخ .

ولهذه الكتب أهمية خاصة ، لأن المقريزي نقل فيها عن كتب كثيرة أخرى فُقدت ولم تصل إلينا نسخ منها ، أو عن كتب أخرى ما زالت مخطوطة . وهو إلى هذا كله مؤرخ ثقة يمتاز بالدقة فيما يروي ، والعناية بما يكتب .

٢

أما كتب المقريزي الصغيرة ، فهي — في رأيي — ذات أهمية ممتازة ، ويمكننا أن نصنفها إلى ثلاثة أصناف :

١ — صنف عُني فيه المقريزي بمناقشة بعض نواحي التاريخ الإسلاميّ الخاصة : ككتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، وكتاب ذكر ما ورد في بنيان الكعبة المعظمة ، وكتاب الضوء الساري في معرفة أخبار تميم الداري . . . الخ .

ب — وصنف عُني فيه المقريزي بذكر عَرض موجز لتاريخ بعض أطراف العالم الإسلامي الجنوبية ، ككتاب الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، وكتاب الطرفة الغريبة من أخبار وادي حضرموت العجيبة ، (وقد ألف هذين الكتابين في أثناء مجاورته في مكة) .

حـ — وصنف عني فيه المقريزي بالتأريخ لبعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية في العالم الإسلامي عامة ، أو في مصر الإسلامية خاصة ، ككتاب المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية ، وكتاب إزالة التعب والعناء في معرفة حِلّ الغناء ، وكتاب شذور العقود في ذكر النقود . وكتاب المكاييل والموازين الشرعية ، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة (وقد أرخ فيه للمجاعات التي أصابت مصر منذ أقدم العصور إلى أيامه) ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب . . . إلخ . . . إلخ .

وكتب هذا الصنف الثالث أهمُّ كتب المقريزي جميعاً ، وأكثرها قيمة ، وأطرفها موضوعاً ، لأنه عالج فيها موضوعات قلما عالجها غيره من المؤرخين الإسلاميين ، وبَعُد فيها قليلا عن تاريخ الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء ، وعني فيها قليلا بالشعب ومشاكله الاجتماعية والاقتصادية . ونحن نلاحظ أن المقريزي في هذا الصنف من الكتب لم يكن مؤرخاً راوية فحسب ، بل هو مؤرخ إنشائي أيضاً ، جرؤ فناقش — أحياناً — الحوادث وأدلى بآرائه الخاصة ، وحلل الأسباب ، وذكر العلاج .

ومعلوماته في هذه الكتيبات وثيقة أكيدة ، لأنه ولي منصب الحسبة غير مرة ، كما ذكرنا . ولم يكن للمحتسب ، كما نعلم ، من عمل غير الإشراف على شؤون الشعب الاجتماعية والاقتصادية .

٣

من هذا الصنف الأخير كتيّب صغير لا يعرف عنه الكثيرون شيئاً ، وعنوانه : « نحْل عِبَر النَحل » ، وهو كتاب صغير لطيف طريف يعجب الكثيرين من القراء ، ففيه فصول مختلفة ، بعضها يتصل بعلم الحيوان ، وبعضها يتصل بعلم اللغة ، أو الفقه ، أو الحديث ، أو الطب ، أو النبات ، أو الاقتصاد ، أو التاريخ ، أو الأدب .

عثرت على نسخة منه فريدة في مكتبة معهد دمياط الديني ، كتبت في العاشر من

شوال سنة ١٢٢٩هـ (أي في عهد محمد علي) ، وهي النسخة الوحيدة من هذا الكتاب في العالم الشرقي — فيما أعلم — وقد رجعت إلى « بروكلمان » فوجدت أن لهذا الكتاب نسختين تحملان عنوان : « رسالة في النحل ، وما فيه من غرائب الحكمة » إحداهما ضمن مجموعة من رسائل المقريزي الصغيرة ، في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٤٦٥٧ ، والأخرى ضمن مجموعة مثلها في مكتبة ليدن تحت رقم ٢٤٠٨ . وإذ كانت الظروف الحالية لا تمكنني من استحضار هاتين النسختين فقد بدأت أعِدّ هذا الكتاب للنشر بعد تحقيقه ، والتعليق عليه ، معتمداً على نسخة دمياط وحدها .

وهذه النسخة مكتوبة في ٦٠ صفحة ، بدأها المقريزي بالحديث عن النحل من الناحية الحيوانية ، فتكلم عن اليعاسيب ، ووصفها ، وعن العامل من النحل والبطال ، ثم ذكر أسماء النحل في أدوار نموه المختلفة منذ تخلّقه يرقةً إلى أن يصير نحلة ، ثم أسماءه وهو يطير جماعات كالطرد ، والثول ، والعنقود ، والخشرم . . . إلخ ، ثم عرض بعد ذلك لألوانه وأحجامه ، وصفاته الخلقية والخلقية ، مستنبطاً من ذلك كله العظة والعبرة لبني الإنسان .

وترك المقريزي هذا ليتحدث عن بيوت النحل أو خلاياه ، ما يوجد منها في الجبال ، أو في السهول ، أو فيما يعرش الناس ، مقارناً بين كل نوع ونوع ، ثم ذاكراً الأسماء اللغوية المختلفة لهذه الخلايا ، وهي كثيرة : كالنحيتة ، والمعسلة ، والكوارة ، والمبآة ، والوقبة . . . إلخ .

وفي فصل ثان تحدث عن آفات النحل : كالدّبر ، والخطاطيف ، والضفادع ، والسوس ، وعن مبلغ ما تحدثه كل آفة من هذه بالنحل وعسله وخلاياه من ضرر ، ثم وصف العلاج لهذه الآفات .

وعرّج بعد هذا على العسل ، فذكر أنواعه ، وأوصافه المختلفة ، من حيث الطعم والرائحة ، والكثافة والرقة ، والصفاء والكدر ، وكثرة الحلاوة وقلتها ، ثم تكلم بعد ذلك عن جامع العسل ، أو مشتاره ، وعن الألقاب الكثيرة التي يلقب بها هذا المشتار ، وعن الآلات التي يستعين بها في أثناء عمله ، وخاصةً في الخلايا الجبلية .

وتحدث بعد ذلك عن النحل ، ومكانته الاقتصادية في مصر الإسلامية مورداً من موارد المعاملات السلطانية ، والجهات الديوانية ، وذكر مقدار ما كانت النحل تغله للدولة من عسل وشمع في كل سنة .

وعقد المؤلف فصلا خاصاً تحدث فيه عن الأزهار والثمار التي يرعاها النحل: كاللوز

والنذع ، والسحاء ، والسدر ، والرمان ، والجلنار . . . إلخ ، ثم وازن بين أصناف العسل الذي ينتجه النحل على تنوّع غذائه بكل نوع من هذه الزهور ، وأي هذه الأصناف أحسن أو أحلى ، وأيها أردأ أو أقل حلاوه ، ثم تحدث بعد هذا عن الفوائد الطبية الكثيرة لعسل النحل .

وانتقل من هذا إلى الحديث عن الشمع ، وما هو ، وكيف يتكون . ثم أسهب في ذكر ما ورد في النحل والعسل من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، مع العناية بأقوال الشراح والرواة المختلفين ، وختم هذا الفصل بذكر الحكم الفقهي في النحل : أتؤخذ منه الزكاة أم لا تؤخذ ، أو يحل للمسلمين أكله كحلّ الجراد ، أم لا يحل .

وانتهى صاحب الكتاب إلى الفن الحبيب إلى نفسه ، وهو التاريخ ، فنقل في كتابه الحوادث التاريخية التي تتصل بالنحل ومنتجاته — وخاصة الشمع — ، فقد كان للشمع في مصر في العصور الوسطى مركز اقتصادي مهم، لأنه كان من أهم وسائل الإضاءة ، فهو يذكر كم طن من الشمع استعمل في حفلات ختان بعض أبناء الخلفاء أو السلاطين أو زواجهم ، وكيف كان حجم هذه الشموع ، وشكلها ، ولونها . . . إلخ ، ثم يستطرد فيصف هذه الحفلات وصفاً مسهباً قوياً . وهذا الفصل طريف كل الطرافة ، لأنه يعطينا صوراً حيةً نادرة لبعض نواحي الحياة الاجتماعية في مصر في العصور الوسطى .

ويختم المقريزي كتابه بفصل جميل أورد فيه كثيراً من الشعر الذي قيل في النحل أو العسل أو الشمع ، فهو يروي أبياتاً لكثير من الشعراء . كالموفق يوسف بن الخلال ، صاحب ديوان الإنشاء بمصر ، وأبي نصر بن كشاجم ، ومظفر بن محاسن ، وأبي الحسين عمر بن يعقوب الأنباري ، أحد عدول بغداد ، وأمير المؤمنين المستنجد بالله الخليفة العباسي ، وابن دفترخوان الطوسي ، وأحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي ، وابن الحيمي الأنصاري ، وابن حمديس الصقلي . . . الخ . . . الخ .

ولقد بدأت في طبع الكتاب ، وأرجو أن أكون قد وفقت في شرحه وتحقيقه بحيث يرضي قراء العربية .

جمال الدين الشيال

الواحتان المفقودتان

تأليف المغفور له أحمد محمد حسنين باشا

بقلم الآنسة زوي رفيعة بدر

يجيد كثير من الكتاب المصريين الكتابة بلغة غير لغتهم وبخاصة فيما يدبجونه بالفرنسية . ولكن قليلا من هؤلاء الكتاب يجيدون الكتابة بالإنجليزية . وكتاب « الواحتان المفقودتان » الذي وضعه المغفور له احمد حسنين باشا بالإنجليزية هو سجل رائع لا للرود والاستكشاف فحسب بل لألوان من الأدب الرفيع ذي الشهرة الدولية .

... ...

امتازت حياة المغفور له أحمد حسنين باشا ، بصنوف شتى من مجيد الأعمال التي كانت شاهداً حياً على تدفق نشاطه ، وتوثب نفسه ، وتفوّقه العلمي . ولعل من أهم أعماله المجيدة ذلك الأثر الحي الذي خلفه في عالم الأدب .

فلقد كان رحمه الله كاتباً قديراً بلغة بلاده العربية ، ولكنه إلى جانب ذلك كان في مقدمة الكتّاب القلائل الذين يجيدون الكتابة باللغة الإنجليزية . فإن كتاب « الواحتان المفقودتان » الذي دبجته يراعته بالإنجليزية ، وتولت طبعه ونشره إحدى دور النشر الكبرى البريطانية يعد تحفة أدبية نفيسة يمكن وضعها في مصاف أمهات كتب الأسفار والرحلات . وهذا الكتاب هو الذي نشر باللغة العربية تحت عنوان « في صحراء ليبيا » .

فقد جرى قلم هذا الكاتب العظيم في هذا الكتاب بوصف ممتع لرحلته في صحراء ليبيا من « السلوم» حتى « دارفور» وقصة اكتشاف واحتي « أركنو » و «العوينات» وصور في إنجليزية سهلة طبيعة الصحراء وجمالها ، وسحرها ومخاطرها ، ورسم صورة ناطقة لحياة البدو العابسة النشيطة في تلك الآفاق .

أمثلة من أسلوبه الأدبي

ولا شك في أن كثيراً من قراء الإنجليزية قد تصفحوا كتابه ، وتذوقوا أسلوبه ، وحسن أدائه للمعاني التي يريدها . ولكن هذا الكتاب كغيره من الكتب النفيسة

القيمة يزداد تقدير الناس له وإعجابهم به كلما أعادوا تلاوته . ولذلك نورد فيما يلي بعض فقرات تبين عن قوة أسلوبه وعن أن كتابه على ما فيه من الحقائق العلمية يعد ملحة أدبية رائعة .

الصحراء

خصص المرحوم الفصل الأول من كتابه بالحديث عن « الصحراء» وإنك لتلمس في هذا الفصل ، مبلغ روعة الوصف والدقة في إيراد الحوادث والتبسط في عرضها . فكأني به حين يصور لنا كيف يستيقظ البدو عند بزوغ الفجر ، وكيف يستعدون للشروع في رحلتهم ـ كأني به ينقلنا بأشخاصنا إلى هذا المحيط نرى ونشاهد بأعيننا ما يجرى فيه . فانظر ماذا يقول :

« الدنيا بعد فضاء مكفهر رطب . ونيران وقود الصباح وحدها تمزق برودة نسيم الشمال . فإذا كان الجو صحواً لا سحاب فيه انتشر في السماء نور ضئيل يرمي خلف الرجال والإبل ظلالا مستطيلة روّاغة ، دقت حتى ما تكاد تسميها ظلالا . ثم يتخضب الفضاء بجمرة تبعث الدفء . وإنما تبين ألوان الصحراء بين الفجر وبزوغ الشمس حتى إذا طلعت ذكاء لم يبق في الصحراء إلا ذلك المنبسط السحيق من زرقة وصفرة ثم تنصل الزرقة شيئاً فشيئاً حتى اذا انتصف النهار أمحت الألوان من السماء » .

ويسترسل الكاتب في حديثه الأخاذ ؛ عن الأثر الذي تحدثه وحشة الصحراء وعزلتها في نفوس السائحين والبدو ، وما تتركه فيهم من أحاسيس متباينة إزاء الموت والحياة ، وقدر المدنية البشرية أو تفاهتها ، وكيف تنعكس هذه العوامل والمؤثرات على عقلية البدو فتطبعها بطابع خاص وتجعل لهم فلسفة خاصة وتبعث فيهم روح الخضوع للقضاء والقدر وتملأ قلوبهم إيماناً بالله حيث يقول :

« في تلك اللانهاية الساكنة يصفو الجسم والعقل ، وتنقى الروح فيشعر الإنسان بأنه أقرب إلى الله عز وجل ، ويحس وجود قوة قاهرة ليس لقوة أخرى أن تحول قلبه عنها ويتسرب إلى نفسه الإيمان بالقدر الغالب والاعتقاد بحكمة ما كتب الله . فيصبح شديد الاستسلام حتى يهون عليه بذل حياته للصحراء دون تبرم . وهناك حقاً أوقات يشعر فيها بأن الحياة قليلة الوزن هينة » .

عاصفة رملية

إن أغلب الكتب التي وضعت بالإنجليزية عن رحلات الصحراء ، قد كتبها رحالة ليست اللغة العربية لغتهم الأصلية . وأقل ما يمكن أن توصف به معرفتهم بهذه اللغة أنها ضيقة محدودة . أما صاحب « الواحتان المفقودتان » فقد كانت لغته هي لغة البدو أنفسهم . فكثيراً ما خالطهم وجاب معهم الصحراء ولأنه كان « بدويا » تجد كتابه ينزل منك منزلة الإقناع . ولعل هذا أيضاً هو السبب في أن وصفه الصادق البليغ لإحدى العواصف الرملية في الصحراء يمكن أن يعد من أجمل ما قرأته بالإنجليزية في هذا الصدد بل يصح اعتباره نموذجاً كتابياً . ولكي تشاركني في هذا الشعور اقرأ حين يقول :

« يشرق النهار والسماء صافية ، والجو خال مما ينذر بعاصفة أو يشعر بريح . وتبسم الصحراء لنا ونحن نهم بالرحيل ، فتتحرك القافلة فرحة مبتهجة . وتسير فرحة طروبة وما هو إلا قليل من الزمن حتى يهب نسيم بليل لا يُعرف مأتاه ، يمضي همساً فوق الرمال ثم يشتد دون أن نشعر بذلك . وإلى هذا الحد لا نلقى من هبوبه ما يضايقنا . ثم ينظر الإنسان إلى وجه الصحراء فإذا سطح الأرض قد تغير تغيراً غريباً ، وإذا ذرات الرمال ترتفع قليلا وتنبجس وتدور كأنها بخار يتصاعد من ثقوب لا عد لها في أنابيب مدت تحت ذلك السطح ، وتزيد ثورة الرمال شيئاً فشيئاً كلما ازدادت الريح قوة حتى يخيل للانسان أن سطح الصحراء كله يرتفع إطاعة لقوة دافعة رافعة تحته .

« ويتطاير الحصى ويتناثر ، فيصيب قصب الأرجل والركب والأفخاذ ، ويتصاعد رشاش حبات الرمال الراقصة على الأجسام ، حتى يلطم الوجه ويدوم فوق الرؤوس ثم تغيم السماء فلا يرى البصر إلا أشباح الجمال القريبة منه ، وتثور الطبيعة فكأن في الجو قوى خفية تصب العذاب لطماً وقذفاً ولدغاً . وكأن هناك شيطاناً هائلا عاتياً ينفخ تلك العصفات والهبات الداوية في الرمال ، فيسفيها فوق الرؤوس . ويدوى في الفضاء صوت يصم الآذان ، وكأن الصوت في يد ذلك الشيطان تضرب بأصابع قوية خشنة ضربات متناسقة على أوتار مشدودة من الحرير .

... ...

« وتدفع العاصفه ذرات الرمل فتخترق كل شيء يحمله الإنسان . تملأ ثيابه وطعامه . تملأ حوائجه وآ لاته العلمية . تبحث عن موضع الضعف فيما يذروها فتنفذ إليه منه حتى يحس بها ويتنفسها ويأ كلها ويشربها .

... ...

« هذا حال الصحراء في شدتها وقسوتها . في غضبها وثورتها على أنها لا تلبث أن تكشف لنا عن وجهها الجميل . وتطلع علينا بصحيفة جديدة من صحف سحرها . فقد يحدث في المساء أن تسكن الريح فجأة كأنها أمرت فامتثلت ، ثم تقر حبات الرمال الدقيقة كأنها ضباب يستقر . ويشرق القمر فتأخذ الصحراء شكلا جديداً تحت ضوئه السحرى الباهت الذي يغمر نواحيها . أكانت هناك منذ هنيهة زوبعة ثائرة ؟ من يستطيع أن يذكر ذلك ؟ هل يعقل أن هذا الفضاء الهادىء الوديع كان قاسياً قط ؟ من يستطيع أن يذكر ذلك » .

اغانى البدو

وبعد انتهاء العاصفة يضرب الرحالة خيامهم ويحتشدون حول النار التي يوقدونها لتناول الشاي بعد العشاء ، فيقضون ليلة بهيجة في السمر والغناء والأحاديث والقصص .

ويبدأ عليّ الغناء بصوته الرخيم الذى تحمله أجنحة نسيم الليل البليل بينا تتهالك حبات السبحة بين أصابعه منتظمة متوافقة ؛ يغني علي فيقول :

مضيت أغنى وكل النجع يسمع لى   خمراً مثيل الدم مخروطة عود البشم

... ...

إن الكتب لا تبقى وتدوم على الزمن إلا بقدر ما تحوي من حقائق وبما تعطي قارئها من متعة ولذة . وإنك لتجد كل ذلك بين دفتي كتاب :

« الواحتان المفقودتان »

زوى رفيعة بدر

تأملات

في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع

تأليف معالي أحمد لطفي السيد باشا وزير الخارجية

١٤٠ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

بقلم الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد

هذه التأملات كانت خليقة بهذه النتائج التي أحدثتها في اتجاه الجيل الماضي الفلسفي ، والأدبي ، والسياسي ، والاجتماعي . وقد أدت خير ما يمكن أن تؤديه تلك الرسالات التي تتعهد الأجيال في بعض أطوار ركودها ؛ فلا تزال تُقَشِّع عن عقلها تلك الظلمات ، وتنضح عواطفها بذلك الري الروحي ، وتوجهها إلى الأهداف التي أضلتها ، وتوقظ حساسيتها ، وتشعل حماستها ، وتقوي عقيدتها ، وحسب هذه التأملات خلوداً وتقديراً أنها استطاعت أن تتعهد الأمة في وقت اصطلحت عليها النكبات ؛ وتعاورتها الكوارث ، حتى تلبس عليها وجه الرأي ، وعلى ملكاتها الصدأ ، فكان يعيي الباحث أن يظفر لها برأي في السياسة ، أو ذوق في الأدب ، أو فكرة في الاجتماع لم تشبها الشوائب ، فقد كان بعض هذه الأفكار والمذاهب السياسية والاجتماعية يهوم في رأسها كما تهوم الأحلام ، لم يأخذ وضعه الثابت ، وبعضها كان لا يزال جنيناً لم يولد بعد ، والبعض غارقاً في سباته لم يفق ، فأخذت تلك العبقرية تتولى كل هذا بالصقل والتربية والتعليم ، حتى تهيأ لها أن تجدد ما خلق ، وتقر ما اضطرب ، وتهدي ما ضل ، وتبل ما ظمىء . تأمله يتحدث عن — الحرية — قائلا : لو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية ، ولكن غذاءنا الحقيقي الذي به نحيا ومن أجله نحب الحياة ليس هو إشباع البطون الجائعة ، بل هو غذاء طبيعي أيضاً كالماء والخبز ، ولكنه كان دائماً أرفع درجة ، وأصبح اليوم أعز مطلباً وأغلى ثمناً ، وهو إرضاء العقول والقلوب ، وعقولنا وقلوبنا لا ترضى إلا بالحرية ، إنا إذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئاً كثيراً ، إنما نطلب الغذاء الضروري لحياتنا ، نطلب أن لا نموت ، ولا يوجد مخلوق أقنع من الذي لا يطلب إلا الحياة ، ووسائل الحياة ، كما أنه لا أحد أقل كرماً من ذلك الذي يضن على الموجود الحي بأن يستوفي قسطه من الحياة . بهذا الأسلوب الرحيق المحكم المشرق ، وهذا الفكر المنطقي المتزن ، وهذا التحليل الفلسفي تناول — معلم الجيل

وفيلسوفه — كثيراً من جوانب الحياة المصرية الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية ، مثل : سلطة الأمة ، وفي سبيل الارتقاء ، وتضامننا ، ومن أجل الدستور ، والحرية الشخصية ، وآثار الجمال ، وجمال الآثار ، وربيع الحياة ، وغيرها . أرأيت هذه الآثار العبقرية فقدت شيئاً من جمال أدائها إذا قيست بنضج الأداء ، وخلوصه من التكلف والاضطراب في هذا العصر ، وهل تطامن شموخها المنطقي مع تطاول الزمن ، أليست تحمل ذلك الطابع الذي تتحلى به خوالد الآثار الفكرية . إن في بعث هذه الآثار التي استطاعت أن تخلص الجيل الماضي من تلك العقابيل التي كانت تحول بينه وبين الوثوب ، وتبعث نشاطه ، لأعظم الفوائد التي يجنيها شباب هذا الجيل من رياضة فكره على المنطق المحكم ، ونفاذ ذهنه في التعمق فيما يعرض له من مشاكل ، وتهذيب بيانه مما يعتوره من ضعف الأسلوب ، واضطراب العبارة . وللأستاذ — إسمعيل مظهر — يد لا تجحد في عنق هذا الجيل على عنايته بتمهيد ذلك الورد العذب المصفى ، ليسهل الارتواء في غير عنف ، والتزود في غير مشقة .

محمد عبد الحليم أبو زيد

الأوذيسة

تأليف الأستاذ دريني خشبة

٣٠٥ صفحات من القطع المتوسط . دار الكتب الأهلية . القاهرة ١٩٤٥

الإلياذة والأوذيسة ملحمتان من ملاحم الإغريق القدماء ، جرت في خلالهما أحداث كبار تصور جانباً كبيراً من حياة الإغريق ومعتقداتهم ، وفضائل النفس الإنسانية في عصرهم وفي كل العصور ، كالبطولة المثالية والتضحية الغالية وبرّ الأمهات وإخلاص الزوجات ، والغضبة للوطن ونسيان الأحقاد الشخصية من أجله في ساعة الخطر حين يستحكم ، وفي رهبة الموقف حين يتحرج . كما فعل البطل الإغريقي « أخيل » عند ما ترك ساحة القتال وأوى إلى عزلته سخطاً على زميله « أغا ممنون » الجبار ، لاغتصابه إحدى سباياه الجميلات .

ولكن أخيل ترك العزلة جانباً ولبى النداء القارع أذنيه حينما بلغه أن هكتور

الطروادي عدو بلاده قتل ابن عمه وصديقه الحميم باتركلوس ... فهنا تنسى الأحقاد ، وتترك حفائظ الصدور ، وتغفر خطايا الأصدقاء في سبيل مواجهة العدو المشترك . . . فيتصالح أخيل مع أغا ممنون وينزل في الميدان منكلا بأعداء وطنه الطرواديين ، ممثلا بجثة هكتور أشنع تمثيل .

والأوذيسة تكملة للالياذة ، فهي الفصل من الرواية حين لا تتم فصولا !

ولقد أجاد الأستاذ دريني خشبة وهو يقص مواقف الأوذيسة في أسلوبه القوي الرصين ، حتى ليختار للترجمة أساليب من القرآن الكريم، ومن الكلم الفصاح . فيقول مثلا في صفحة ٢٦٩ « وما رميت إذ رميت» وهي قرآنية ... ويقول في صفحة ٣٠ على لسان مينرفا : « إن هي إلا كلمات تقولها وعلى الله قصد السبيل » وهي قرآنية أيضاً . . ولو راعىْ روح العصر السحيق الذي يترجم عنه لقال : « وعلى الآلهة قصد السبيل »... ويقول في صفحة ٢٨ : « وكل رفاقك في الفلك المشحون » وهي قرآنية أيضاً ...

لم يقصد المترجم حين نقل أساطير اليونان أن ينقل أحداثها فحسب ، ولكنه قصد أن يجعل منها طرفة أدبية عربية رائعة . فهو لا يرسل العبارة المألوفة ، ولكنه يؤثر عليها التنوق في التعبير .

لقد سمى الأستاذ خشبة كتابه الأوذيسة. وكان أولى أن يكون الاسم « مغامرات من الأوذيسة » كما صنع المستر F.S. Marvin وزميلاه Major و Stewall في كتابهم الصغير الذي ظهر في مجموعة : The Kings Treasuries التي يصدرها Sir Quiller Couch فقصة الحصان الخشبي من قصص الأوذيسة ولكنها لم ترد في ترجمة الأستاذ خشبة ، وذلك لأنه ترجم المغامرات في هذا الكتاب الجديد ولم يترجم قصة الحصار .

ويعد هذا الكتاب فتحاً في الأدب العربي . فإن حوادث الإلياذة والأوذيسة ألهمت كثيراً من شعراء النهضة الأوربية ، ولعلها في ثوبها العربي البليغ تلهم شعراءنا المحدثين .

لمحة من سيرة الملك عبد العزيز

تأليف السيد محي الدين رضا

٨٤ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة العلوم . القاهرة ١٩٤٦

بقلم الأستاذ أحمد محمد شاكر

من شهرين ، في صفر سنة ١٣٦٥ (يناير سنة ١٩٤٦) استقبلت مصر سيد الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود ، وبذلت ما تستطيع من جهد في الحفاوة بالضيف الكريم ، فرحة مسرورة بمقدمه ، وبما ينطوي تحته من معان قومية سامية . وكان لكتابها وأدبائها وشعرائها وصحافيها القدح المعلى في الإشادة بفضل أسد الجزيرة ومناقبه .

وهذا الكتاب أثر من آثار هذه الزيارة المباركة . أجمل فيه المؤلف سيرة الملك العظيم ، ونوه بمواهبه ومناقبه . وبما يلقى الحجاج إلى بيت الله الحرام من أمن شامل وطمأنينة نادرة ، بعد أن كان الحجاز دار خوف ووجل ، وكان الحاجّ لا يأمن على نفسه ولا ماله ، حتى جاء عبد العزيز ، فصار مضرب المثل في الأمن . وتحدث عن حزم الملك وشدة بأسه في القضاء على المفاسد الخلقية ، وهي العلة الأولى التي كانت سبباً في ضعف شأن العرب . وعن اهتمام جلالته بإنجاح بعض الزراعات المصرية في نجد والحجاز والعمل على توفير المياه لها . ثم وصف رحلة الضيف العظيم إلى مصر في المرة الأولى ، حين جاء بصفة غير رسميــة ، فقابل صاحب الجلالة الملك فاروق ، والمستر رزفلت الرئيس السابق للولايات المتحدة ، والمستر شرشل الرئيس السابق للوزارة الإنكليزية .

ثم أشاد بما يولي جلالة الملك عبد العزيز من عناية بالغة بفلسطين ، وأثبت في الكتاب النص الرسمي لكتاب جلالته إلى المستر رزفلت في شأنها ، وإجابة الرئيس رزفلت . وهما مستندان رسميان لهما قيمتهما في هذا الموضوع الخطير .

ووصف المؤلف أول مقابلة تشرف فيها بالمثول بين يدي جلالته . ثم فصل مسألة اللاجىء السياسي « رشيد عالي الكيلاني » ثم عرض لما يكنه جلالته من الحب والود لبلاد العروبة عامة ، ولجلالة الملك فاروق خاصة .

وختم الكتاب بالحديث عن الجيش السعودي ، وعن صاحب السمو الأمير فيصل نائب جلالة الملك في الحجاز ، وعن صاحب السمو الأمير منصور . ثم عن بعض رجال الدولة السعودية الكبار ، الذين لهم أثر جميل في نهضة هذه المملكة ، التي يتمنى لها العرب جميعاً كل خير وسعادة .

صدى النقد

الأحـــلام

اطلعت في العدد الأخير من مجلة الكتاب ، على نقد الأستاذ الجليل إسمعيل مظهر لكتابي عن « الأحلام » ، ومع اغتباطي بهذا النقد الحر المسهب ، وتقديري لموقف صاحبه من الكتاب ، آثرت أن أعقب ببضع ملاحظات خاطفة تجلو مواضع الخلاف بيني وبين الأستاذ الناقد :

أثنى الأستاذ على جانب البحث العلمي في الكتاب ، ولكنه عاب في أسلوبه ما سماه بالمعارك الدموية المحتدمة الأوار بين الفكرة والأداء . . ! واستشهد على قيام هذه المعارك باشتقاق فعل جديد في اللغة العربية لايتمشى مع قوانين نحوها ، أو استخدام لفظ ناب لا تبرر الدقة نبوّه ، أو وضعه بحيث لا يؤدي في ذهن الناقد معنى مقبولا ، فأما الاشتقاق الجديد فيبدو في قوله إن اليونان قد عالجوا ثقافة الشرق القديم بالاستدلال والبرهان ، وإنهم « مذهبوا موضوعاتها وقننوا معلوماتها » وعذري في استخدام هذا اللفظ : « مذهبوا » ، أني أديت به وحده معنى عبر عنه الأستاذ بقوله « نشؤوا المذاهب أو وضعوا المذاهب أو نسقوا الفكرات المعزوة مذاهب جامعة . . . ! » ، وقد سرني أن يستعيذ بالله من شر هذا الفعل ، كاتب طالما عبث في آثاره هذه الإباحة ، وكنت أعزوها إلى نزعته الجريئة في مهاجمة كل جمود يعوق طلاقة فكره ، ويعرقل جهوده الموفقة في نشر الثقافة العلمية ، والترويج للآراء الحرة الجديدة بين الناطقين بالضاد ..!

ويروي في هـذا الباب رأيي في أن « التفكير العملي » في موضوع الرؤيا ، قد انحدر إلى اليونان عن الشرق القديم ، ويعقب بعدم التسليم بتفكير عملي لايذعن لأنبوبة الطبيعي أو إنبيق الكيميائي أو أعداد الرياضي ! وبديهي أني لم أقصد بالتفكير العملي ما يقوم على منهج البحث في العلوم الطبيعية ، وإنما أردت به ما كان على اتصال بالحياة العملية أو ما كان مُستمداً من الواقع مما لم يرقَ بعدُ إلى مرتبة البحث القائم على منهج تجريبي أو رياضي، وقوانين التعبير عند رجال الشرع — كما فصلناها في كتابنا — تمثل هذا النوع من التفكير العملي ، وقد يشبه ما سماه الأستاذ في نقده بالنظر التقريري ،

وهو يقابل التفكير النظري الذى يقوم على منطق العقل ، فإن استند إلى الواقع تجاوز نطاقه إلى آفاق بعيدة من النظر العقلي المحض .

ومن دلالات هذه المعارك في رأي الأستاذ ، أننا نقول : إن الملحوظ في هذا الصدد « مسايرة أرطميدورس لتفكير المسلمين » . فيأخذ علينا استخدام هذا التعبير على تقدم أرطميدورس على المسلمين في الزمان ، ويقول معقباً : « ولسنا نعلم منذا الذي ساير صاحبه : هل ساير العرب أرطميدورس أم أن هذا هو الذي ساير العرب ؟ » مع أن المسألة أبسط من هذا التعقيب الدامي ! فقد استخدم الأستاذ بعد بضعة أسطر من هذا التعليق ، تعبيراً شبيهاً بالتعبير الذي يؤاخذني عليه ، إذ يقول : « وبالرغم من أن المؤلف قد نقل عن بعض الثقات أقوالا مشابهة لما ذهبنا إليه في هذا النقد ، فهو . . . » ، وتمشياً مع طريقة الأستاذ في النقد أقول معقباً : لسنا نعلم أي الإثنين يشابه الآخر : هل شابهت أقوال الثقات رأي الأستاذ مظهر ، أم أن رأيه هو الذي شابه آراء هؤلاء الثقات ؟ على أن المسألة في رأينا لا تحتاج إلى هذا اللف ، فالمسايرة في تعبيرنا السابق ، لا تقوم على أساس زماني ، ومثل هذا يقال في التشابه بين آراء الثقات ورأي الأستاذ الناقد .

هـذه هي الأمثلة التي ساقها الأستاذ ، للتدليل على ما سماه بالمعارك الدامية المحتدمة الأوار من الفكرة والأداء . . ! أليس يرى القارئ معى أن أسلوب الأستاذ في هذا التعبير ، يتكشف عن معركة دامية محتدمة الأوار بين الفكرة والأداء .. ؟ !

ويرى الأسـتاذ أني لم أتتبع منابت الفكرة الأصلية في الأحلام ، ولم أوازن بين وجهة النظر البدائي وما قام عليها من مذاهب في الروح والخلود والفلسفة ، وقد تفضل فأتم هذا الذي اعتبره نقصاً للكتاب ، ببضع صفحات استند فيها إلى « مكدوجل » ، ونسى الأستاذ بهذا موضوع الكتاب ، وهو الذي لخصناه في صدر غلافه ، حين قلنا إنه دراسة للمذاهب الإسلامية ، مع تتبعها إلى أصولها في التراث القديم ، وبيان ما يقابلها عند المحدثين . . . ومعنى هذا أن منهج البحث في كتابنا يوجب النظر في منابع التفكير الإسلامي وحده ، ولا يتجاوزها إلى الفكرة الأصلية في الأحلام من حيث هي كذلك ، عند المشارقة والمغاربة كما يقترح الأستاذ ! . .

وقد عرض الأسـتاذ للمصادر التي تلقاها العرب في هذا الموضوع عن أسلافهم في الأمم المتحضرة ، وصرح بأني أرد التفكير العربي في هذا الصدد إلى أرطميدورس .. ! وقد أثار هذا التصريح عندي كل دهشة ، لأني أبنت في كتابي بالتفصيل عن المصادر التي

تلقاها مفكرو الإسلام — فلاسفة وصوفية ورجال شرع — عن أرسطو بوجه خاص، وفلسفة الفيثاغوريين والأفلاطونيين والرواقيين ومن إليهم بوجه عام، ولم أرجح تأثير أرطميدورس إلا في رجال الشرع لأسباب ذكرتها في الكتاب، فلعل الأستاذ يقصد بالعرب رجال الشرع . . !

وعند الحديث على مدى هذا التأثر، يروي الأستاذ نصاً يثبت رأيي في تأثر المسلمين بهذا المفكر « وإن كان من العسير جداً أن نحدد على وجه الدقة مدى هذا التأثر »، ويعقب الأستاذ على هذا النص قائلا : إن ما في هذه العبارة من اضطراب، دليل على أن المؤلف لم يؤلف فكرة محدودة بينة في هذا الأمر، فكيف نوفق بين قوله في هذه العبارة إنه يرجح الظن بتأثر المسمين بكتاب أرطميدورس، وقوله إن من العسير جداً أن نحدد على وجه الدقة مدى هذا التأثر . . . ؟ السبب في هذا الاضطراب أن المؤلف يحاول أن يثبت أن كل ما صدر عن أرطميدورس هذا أصيل مبتكر .. ». ولست أدري أين يقوم هذا الاضطراب الذي توهمه الأستاذ الناقد ..! إني أرجح الظن بتأثر المسلمين بهذا المفكر، ولكني لا أجد من الميسور أن أحدد « على وجه الدقة » مدى هذا التأثر، التحديد الدقيق الذي تظهر فيه نسبة التأثر ظهوراً كمياً رياضياً عسير جداً، فما وجه الغرابة في هذا التعبير ؟ وأين هو الاضطراب ...؟ وكيف اتخذ الأستاذ من هذا مقدمة يستنبط منها نتيجته الغريبة حين يقول : إن السبب في هذا الاضطراب أني أحاول أن أثبت لهذا المفكر الأصالة والابتكار ..؟ إني أكاد ألمس في تعبير الأستاذ آثار معركة ... دامية ...!

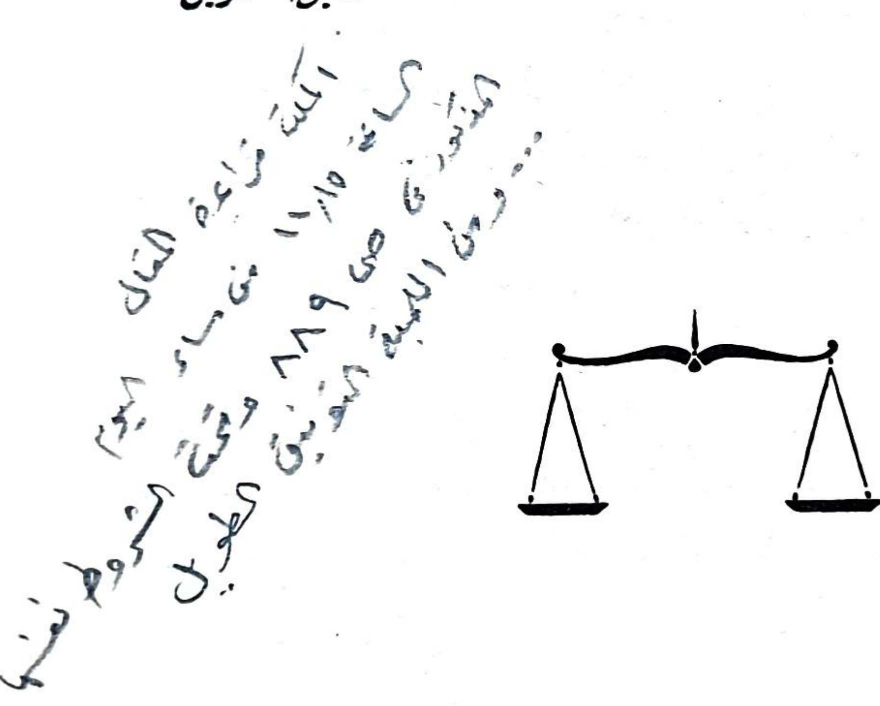
ويلاحظ قارئ كتابي، أني حين عرضت لبيان هذا التأثر، حرصت على الاستطراد من إثبات وجوده، إلى تتبع منابعه في التراث الشرقي القديم، إلى تأييد النظرية التي تقرر تشابه الآراء عند تشابه المؤثرات التي أدت إليها، ولو ثبت انقطاع الاتصال بين أصحاب هذه الآراء، ثم أكدت بأن تأييدي لهذه النظرية لا يمنع من تسليمي بتأثر اللاحق بالسابق، وإذعاني للقول بعدوى الثقافات وتلاقحها، وقد وقفت عند كل مرحلة من هذه المراحل لمناقشتها وبيان أدلتي بصددها، فأخذ الأستاذ الناقد نصوصاً لي يثبت بها مرحلة التأثر، ثم يعقب بالتصريح بأني لم أفطن إلى تثقيف أرطميدورس بثقافة مفعمة بتجريدات مشرقية . . . ! ثم لا يلبث حتى يورد لي نصوصاً استشهدت بها في معرض حديثي عن تأثر أرطميدورس بقدماء الشرقيين ! ثم يعود إلى الحديث عن تشيعي لأصالة اليونان، إلى آخر هذه الحلقة المفرغة التي لا تبدو لها

بداية أو نهاية ما لم تدرك مراحل هذه الفكرة في الكتاب جملة أو وحدة غير مجزأة .

ويقول الأستاذ : « هذا عجيب ! لماذا ينقل المشارقة نقل مسطرة عن اليونان ، ولماذا لا يكونون قد عبروا عن فكرات شاعت في محيطهم ... ولماذا يكون نقل كتاب هذا اليوناني الروماني ، هو الأصل الذي استردوا منه تراثهم دون غيره ؟ » وأنا أحق من الأستاذ بهذا العجب .. ! لأن هذه الأسئلة قد أثرت في الكتاب موضوعها ، فرجحنا النقل استناداً إلى أسباب نقلها عني الأستاذ في نص أورده في ص ٧١٤ من نقده ، وعللت انتقال التراث الشرقي إلى رجال الشرع عني طريق هذا الكتاب خاصة ، بأني لم أعثر على ما يشهد بالانتقال المباشر بين قدماء الشرقيين والمسلمين ، ولم تصادفني مصادر أخرى عبر عن طريقها هذا التراث .

حسبنا هذا من ملاحظات خاطفة ، ولنسجل ، ونحن في ختام كلمتنا ، إعجابنا بالأستاذ الناقد الخصب ، وتقديرنا للجهد الذي أنفقه في نقده المسهب الموفق ، وليس يضيره كثيراً ، ما يبدو في أسلوبه من معارك دامية محتدمة الأوار بين الفكرة والأداء .. !

توفيق الطويل



القصة في عالم السينما

الأستاذ زكي طليمات

مقدمة

القصة من الشريط السينمائي لحمته ونسيجه ، وهي بموضوعها ، وقد امتدت إليه أسباب المعالجة فاستحال حوادث ومشاهد وصوراً ورؤى تحمل من الحياة أنباضها ، تؤلف الجانب الأدبي الخالص في فن السينما عامة . إذ من القصة تطالع ما انعكس من الحياة في نفسك ، ومن القصة تشارفك مظاهر الإبداع الأدبي والخلق الفني ، متمخضة عن كائن حيّ يزخر بما في نفسك ، وقد تتابعت صور الحياة في سرد محكم وحبكة مشوقة .

وشأن القصة السينمائية في هذا شأن الرواية المسرحية ، وبغيرهما لا يكون لكل من السينما والمسرح قوام من الأدب وركاز من الفن ، إذ يغدو كل من الفنين وهو لا يتجاوز أن يكون عرضاً مرتجلا للون من التعبير الإنساني يجري بلا ضابط أو مقياس ، وبلا غاية يهدف إليها غير مجرد التعبير .

والتاريخ الحق لكل من الفنين هو نشأة القصة فيه ، ومدارجها من التطور ، وليس اختراع الآلة وتقدمها ، أو بناء المسرح وزخرفته ، لأن هذا أو ذاك لا يتعدى أن يكون من تاريخ الآلة أو فن البناء ، وقد يكون لهما شأن في هذا الصدد ، ولكن لن يكون لهما شأن في عالم الأدب الخالص ، لأنهما لا يمتان بشيء إلى جوهره ولبابه .

السينما فن بلا أدب

والتاريخ الأدبي لفن السينما عامة ، أو بالأحرى تاريخ القصة فيه ، ما برح في أول مراحله ، ويذهب بعض ثقات النقاد إلى أن التاريخ الأدبي للقصة السينمائية لما يكتب منه غير أسطر قليلة ، تؤلفها بعض قصص وضعت لهذا الفن الناشىء ، وذلك في السنوات الأخيرة ، وجاءت على قسط موفور مما يجب أن تكون عليه القصة من حيث القيم الأدبية والفنية ، هذا في حين أن هذه السينما ما زالت ، منذ نشأتها ، تعيش على النتاج

الأدبي في القصة والمسرحية وغيرهما من مظاهر التعبير الأدبي القديم والحديث .

ومرجع هذا أن السينما عامة كوسيلة من وسائل التعبير ، حديثه العهد بالوجود ، لا يتجاوز عمرها نصف قرن ، وهي في مصر ما زالت ابنة العشرين . وقد قامت السينما وهي آلة ، وكأنما انشق الوجود عنها دفعة واحدة ، فخرجت على الناس بغتة ولما تساير الإنسانية في مدارجها الأولى ، ولما تشغل الخلق الأدبي في أدواره ، كما هو الحال في المسرح ، بل خرجت وهي على آلية عجيبة ، سرعان ما أمدّتها بمقدرة على تسجيل صور من المرئيات لا حصر لها ولا عدد ، فأصبحت وكأنها عين تبصر ، ولم يطل الأمر فإذا الآلة التي تبصر أصبحت ناطقة ، تحكي وتتأنق في الحكي ، وكأنها لسان ذلق فصيح ، وإذا هي ، فوق هذا ، تكشف عن طاقة جبارة في نشر ما تبصره وتنطق به ، وإذاعة ما يخرج منها عامة ، وتشغل جانباً كبيراً من نواحي النشاط الذهني والاقتصاد العام .

أعجوبة هـذا شأنها لا غرابة في أن تستبد باهتمام الناس ، وأن تستأثر بجهود طوائف عدة منهم ، ولا سيما بعد أن اتضح أنها صناعة رائجة وتجارة رابحة .

لم يكن بدّ ، والحالة هـذه ، من السطو والإغارة على ما أنتجته القرائح قديماً وحديثاً ، من مؤلفات في عالم القصة والمسرحية وما إليهما ، ولم يحفل المنتجون السينمائيون بأن هذا النتاج قد خرج إلى الوجود قبل خروج السينما إليه ، متخذاً أوضاعاً خاصة ، من بين أقصوصة وقصة روائية ، ومسرحية ، وكل منهـا يخضع لقيم ومقاييس وشرائط خاصة وتقاليد تبلورت على مر الزمن .

وجهات نظر مختلفة

وأمام هذه الظاهرة الجديدة انقسم أهل النظر من رجال الأدب والفن إلى فريقين : فريق يرى أن هذا التبديل والتحوير انتهاكا لحرمة الأدب في أوضاعه المعروفة ، ومسخاً لما هو مستكمل مقومات بهائه وجماله ، فهو ينادي بوجوب وضع قصص خاصة بالسينما ، وترك ما كتب للقراءة أو التمثيل في حالته التي طالع بها الناس .

وفريق آخر يرى غير هذا الرأي ، وحجته أن المسرحية أو القصة الروائية إذا اتخذت « وضعاً سينمائياً » حاذقاً ، فإنها لا تفقد شيئاً من صميم موضوعها ، ولا تغير من معالمها غير المظاهر الخاصة بالأسلوب والحبكة والسرد ، والعبرة في كل شيء بالجوهر لا بالمظهر . ويذهب المغالون من أهل هذا الرأي إلى أنه إذا صح أن القصة أو المسرحية لا تمر بالوضع السينمائي من غير تحوير وتبديل تتنكر معه بعض نواح فيها فتبدو على غير

ما أراده لها مؤلفها ، فإنه يشفع في هذا انتشار القصة والمسرحية على نطاق واسع بين أمم من أهل الأرض وطبقات من الناس ما كانت لتلم بها وتلمس مفاتنها وتتأثر بما جاء فيها لو قصر الأمر على المطالعة أو المشاهدة فوق المسرح . وسواء صح هذا أو ذاك فالذي لا شك فيه أنه بقيام السينما خرج إلى الوجود فن جديد ، أو بالأحرى صياغة جـديدة لم تكن معروفة من قبل ، هو قالب يحيل القصة ، أياً كان نوعها إلى « كائن سينمائي » ، بحيث تصبح صالحة للعرض السينمائي . ولم يقتصر هذا الفن الجديد على فرض طابعه على ما سبق أن كتب للمطالعة أو المسرح ، بل هو يمتد إلى كل موضوع يكتب للسينما فكأنه مقضي على كل غذاء لهذا الفن الناشىء أن يمر بهذا القالب .

الوضع السينمائي

من المعلوم أن الوضع الأدبي لـكل نوع من أنواع الأدب والفن مستخرج من طبيعة النوع نفسه ، ومستمدٌ من وسائله في التعبير ، وإنجازه رهين بطاقة هذه الوسائل وما بين يديها من ممكنات . ومن أجل هذا تختلف الأوضاع الأدبية والفنية ، وهو اختلاف في المظهر لا في المخبر ، من حيث إنها تخضع جميعها في صميمها للشرائط الأدبية والفنية العـامة ، وتتألف من العناصر التي لا ينهض بدونها أي عمل أدبي أو فني .

وتطبيق هذه الحقيقة على كل وضع من أوضاع الأدب والفن أمر يضيق به دفتا كتاب ، وما أظنه خافياً على ذوي الأفهام وأهل النظر ، فلنحاول أن نستخلص في هذا المقام عناصر ما نعنيه بالوضع السينمائي فحسب .

طبيعة السينما آلية خالصة ، لأنها آلة . ومن خصائص الآلة السرعة والإتيان بأكبر أثر في أقصر وقت . والسينما أصلها « الفتغرافيا » فلغتها الأصيلة هي التي أصبحت بفضل تقدم آلة التصوير السينمائية تتابع وتتلاحق كما تتلاحق العبارات في الكلام . وعلى الرغم من أن السينما أصبحت ناطقة ، وبذلك أصبح للحوار مقام في التعبير ، فإن الأساس في الإفهام والتأثير في الجمهور هو الصور ، فالسينما فن يخاطب النظر ، والرؤية فيه أداة التأثير . وفي مقدور السينما أن تخرج من الصور العدد الذي تريده . وآلة التصوير ترود كل مكان ، حتى أجواز السماء ، وأعماق البحار ، وقمم الجبال ، وأغوار الأودية ، فهي بهذا تستطيع أن تسجل كل ما تريد تصويره .

فما يرد في القصة أو المسرحية كلاماً على لسان أحد أشخاصها لا بد أن يجري صوراً في الشريط السينمائي . وصورة كائن مّـا أفصح من وصف له في سطور وصفحات ، هذا

وفي الصورة إجمال وإيجاز أبلغ من تحليل وإطناب .

والجري على وتيرة واحدة في أي أمر من الأمور مدعاة إلى الملل ، فلا بد والحالة هذه أن لا ترد جميع الصور في الشريط السينمائي على أسلوب واحد ، من حيث زوايا اللقط ومن حيث الأحجام . وآلة التصوير طيّعه منقادة ، وفي مقدورها أن « تلقط » الصورة من الزاوية التي تريدها ، وأن تورد ما بداخلها على أحجام مختلفة ، بين منظر عام يتضمن كل ما تقع عليه عين آلة التصوير ، ومنظر خاص تقتصر عين الآلة على تسجيله فيبدو كبيراً مالئاً جنبات الصورة ، وذلك لأهميته .

ومن ممكنات السينما أنها تقدم لك الإضاءة التي تريدها إحياءً للمشهد الذي تود تصويره من حيث الصبغة المحلية أو النفسية . وفي التصوير السينمائي ما لا يحصى من خدع وحيل تمدك بما تستطيع معه أن تلقي في رُوع الجمهور ما تريد إظهاره من معالم طبيعية ، أو قوله من أوصاف للأشخاص الذين تتألف منهم القصة السينمائية ، وما يعتري ملامحهم من تغير على وقع الحوادث أو على مر الزمن .

وفي التصوير السينمائي إيحاءات مفصحة توحي في يسر إلى الجمهور بانتهاء مشهد من مشاهد القصة ، وابتداء مشهد آخر ، أو بالانتقال من حال إلى حال . . . . إلى غير ذلك من الممكنات الواسعة النطاق . والسرعة ، كما قلنا ، أساس في السينما ، ولكننا نلاحظ في الحياة الواقعية أن كل شيء فيها لا يجري في سرعة ، هذا والقصة السينمائية بحوادثها وأشخاصها قطعة من الحياة ، فلا بد إذن من التحايل على أن يكون هناك توازن دقيق بين هذا وذاك ، يكون أساسه تعويضاً عن البطء بالسرعة ، والعكس بالعكس ، ولكن في غير افتعال ينافي المعقول ويجافي المنطق .

وحسن السياقة في سرد المشاهد يقضي بأن تتابع الصور التي تعبر عنها بحيث تثير اهتمام النظارة إثارة تصاعدية تسير بهم إلى قمة التشويق والمفاجأة والتأثر . ولعل مرجع الأخذ بهذا أن السينما صور وأخيلة تتتابع في سرعة ، فلا بد من أن يجري فيها فيض كبير من المؤثرات التي تجتذب الذهن إليها ، أضف إلى هذا أن الأداء التمثيلي في السينما يجري بواسطة ممثلين لا يحس الجمهور وجودهم أمامه لحماً ودماً ، وإن أحس أطيافهم وصورهم مرتسمة على الشاشة البيضاء ، فلا بد والحالة هذه من شغل الجمهور بشيء من صميم الموضوع حتى لا ينفلت من دنيا الخيال إلى عالم الواقع .

ودخول الحوار في السينما بعد أن أصبحت ناطقة ، أمدها بوسيلة جديدة للتعبير المباشر ، أساسها الكلم ، عنصر جديد طارىء يختلف في طبيعته عن العنصر الأصيل في

السينما ، وهو الصورة . وبذلك تحتم أن يلاحظ متى يجري الحوار ومتى لا يجري ، وأن تزن بميزان دقيق كميته ومدى ما يريد الإفصاح عنه ، هذا مع إيجاد صلة بين ما تفصح عنه الصورة ناطقةً وبين ما تفصح عنه غير ناطقة ، حتى تستقيم الوحدة التعبيرية العامة للشريط السينمائي .

هذا بعض من كل مما عليه السينما في طبيعتها ووسائلها وممكناتها . والقصة ، أيًا كان الوضع أو القالب الذي ستخرج فيه ، خاضعة لشرعة المعقول في العرض ، ولمنطق الأفهام العام في الرد ، فكل قصة لا بد أن تكون لها بداية ونهاية ، بعد أن تعبر بمرحلة وسط تتطور فيها الحوادث ، والقصة في كل هذا تنقسم إلى أقسام رئيسية ، تبعاً لمنطق الحوادث التي تجري فيها ، ولكل قسم مشاهد تتتابع ، بحيث يكمل كل مشهد ما تقدمه ويمهد لما يجيء بعده .

وما كانت القصة السينمائية في وضعها لتشذ عن هذا ، بل هي في هذا تجري على تفصيل كامل ، تحسن إبرازه ممكنات التصوير على وجه يسلس معه أمر الفهم والاستيعاب. فالقصة السينمائية تتألف من عدة أقسام رئيسية ، يعرف الواحد منها باسم sequence ويتألف كل قسم من عدة مشاهد[1] ومناظر ولقَط [2] ، ونلاحظ عند انتهاء كل قسم من الأقسام أن الصورة الأخيرة فيه تتلاشى تدريجاً [3] ولا تنقطع دفعة واحدة فيكون هذا إيذاناً بأننا ننتقل إلى قسم جديد يتناول معنى جديداً من المعاني التي تتألف منها القصة . وللقط أحجام بين الكبيرة والمتوسطة وما بينهما وما دونهما ، ولهذه مسميات في اصطلاح السينما .

وحبكة هذه الأقسام ، فالمشاهد ، فاللقط ، وسياقتها ، وسردها ، مع تمشي وحدة التعبير بينها بحيث يشد بعضها إلى بعض في غير عنف ولا اجتلاب ، يخضع كله للشرائط نفسها التي يخضع لها كل عمل أدبي رفيع يراد به الإفهام ابتغاء التأثير ، وذلك من حيث الوضوح ، والسهولة ، والإحكام ، والمنطق ، ومن حيث تجنب الافتعال والتكلف ، ولا سيما في زف المشوقات والمفاجآت ، ومن حيث تلافي الحشو الذي قد يغطي جانباً من الجوهر .

---

(١) ويطلق عليه اسم scene ويتألف من صور عدة ، وهو جزء من أجزاء القسم الرئيسي sequence .

(٢) اللقطة هي كل صورة تسجلها آلة التصوير السينمائي وهي في موضع واحد ويعرف باسم shot .

(٣) واصطلاحه السينمائي Fade out .

وتحليل أشخاص القصة في وضعها السينمائي، بحيث يقومون تقويماً إنسانياً صادقاً، يتبع نفس قواعد التحليل النفسي المتبعة في الرواية والمسرحية ، ولكن مع الأخذ بالإجمال والإيحاء الحاذق ، الذي من شأنه أن يكشف عن الكثير بالشيء القليل ، إذ لا يخفى أن عرض الشريط لا تتجاوز مدته ساعة ونصف ساعة ، كذلك نلاحظ أن وسائل التعبير في السينما هي الصور والحوار ، وبعض العناوين المكتوبة ، التي قد يرد الواحد منها أحياناً ملخصاً للمحة نفسية في سطور قليلة ، أو حاكياً عن شيء لا يرد في الصورة ولا في الحوار .

هذا كله من أركان « الوضع السينمائي » الذي أجملنا تفصيله وليس كلها ، وكما ترى ، فإن بعضها خاص بصميم الفن السينمائي ، ومستخرج من طبيعته ووسائله ، وبعضها الآخر من الأسس الجوهرية في الإنشاء الأدبي عامة . ونضيف إلى ما تقدم عنصراً آخر، هو طبع الكاتب الذي يتصدى لمعالجة القصة السينمائية ، وما ركبته الفطرة فيه من ملكات الحس الصائب والذكاء والقدرة على التوليد والابتداع .

الطبع لا يغني عن التعلم

ومهما عظم نصيب الكاتب من الطبع السليم والموهبة الخصبة ، فلا غنى له عن معرفة أصول السينما وقواعدها واستبطان دخائلها ، على نحو يتجاوز الإلمام بالقشور والتشدق بالاصطلاحات الفنية والحرفية ، إلى النفاذ إلى لباب الأمور ، واستكناه دقائق هذه الاصطلاحات وما تستره وراءها ، لأنه بهذا وحده يمكن التعديل والتحوير والحذف في القصة الروائية أو المسرحية التي يراد أن تكون للسينما ، أو لأية قصة يقدمها كاتب لتكون للسينما .

ولقد أصبح « الوضع السينمائي » فناً قائماً بذاته ، ويعتبر من أخطر الفنون التي يتألف منها الفن السينمائي ، لأنه المرحلة الفاصلة بين السينما وبين الفنون التعبيرية الأخرى، وذلك فيما له علاقة بالقصة . كما فطن المشتغلون بالسينما في أمريكا ، وهي أبرع قارة في الإنتاج السينمائي ، إلى هذا ، فجعلوا الوضع السينمائي اختصاصاً لنفر من الكتاب النابهين الذين يجمعون إلى الأفق الأدبي الواسع حذقاً بشؤون السينما ، ففي دور الإنتاج السينمائي بأمريكا نفر لا عمل لهم إلا صب القصص في القالب السينمائي . وإلى جهود هؤلاء يعزو النقاد الأوربيون أنفسهم سقوط الأشرطة السينمائية التي تخرجها إنجلترا وفرنسا وألمانيا، ونجاح الأشرطة الأمريكية .

القصة السينمائية

ويمكننا بعد هذا أن نقول : إن القصة السينمائية هي القصة في شرائطها الأدبية والفنية ، وقد خضعت لمتطلبات السينما وتمشت مع وسائلها واستقرت في نطاقها .

والقصة سواء كانت للمطالعة أم للمسرح ، هي موضوع ، ثم معالجة لهذا الموضوع. والاستقصاء الأدبي العام يدلنا على أن التوفيق في كتابة القصة ليس بطرافة موضوعها ، بل بحذق معالجتها ، فليس هناك قصة ضعيفة الموضوع أو قويته ، بل هناك قصة أجاد الكاتب معالجتها أم لم يجدها . وكذلك الحال في القصة السينمائية ، فإن جودتها ونفاستها ترجعان قبل أي اعتبار آخر إلى حسن معالجتها معالجة سينمائية ، وليس لموضوعها كبير دخل في هذا . ولعل نقادنا الذين ينعون على القصة في عالم السينما المصري ضعف الموضوع يلتفتون إلى هذا ، فيعفون المؤلف المصري من رميه بالجدب والوهن في التأليف ، ويوجهون نقدهم إلى ناحية أخرى ، هي أحق بعنايتهم ، وأولى بأن تضرب فيها أقلامهم ، أعني بهذه الناحية « الوضع السينمائي » الذي أعتبره بيت القصيد في ضعف الأشرطة السينمائية المصرية .

زكي طليمات



العدو في البيت

« قصة ألبانية »

للأستاذ وهبي إسمعيل حقي

كان « سيمون روقولي » يأخذ مكانه دائماً في المقاعد الأمامية من البهو المعد للوعظ في الكنيسة أيام الآحاد والثلاثاء من كل أسبوع ، وكان حريصاً على الحضور مبكراً ، ولم يتخلف مرة قط . ولم يتأخر عن الحضور في الميعاد الذي اعتاد أن يصل فيه . وكان يرى دائم التضرع إلى الله أن يحفظ عليه حياته ، ويسبغ عليه نعمته ، وأن يمهد لتجارته سبل الرواج والانتشار، وأن يكتب له التوفيق في كل أعماله ، والنجاح في كل تصرفاته ، ومن السهل أن تقرأ في نبرات صوته ، وتوقيع كلماته ، وهو يردد أدعيته ، الأنانية مجسمة ، وكراهية الخير لكل من عداه ، وكان يجمع إلى الدعاء لنفسه دعاءً آخر على أعداء الله ، أعداء الدين ، يختتم به دائماً سلسلة دعواته . وهو لا يكاد يختلف في كل مرة في لفظه ومعناه « اللهم احصدهم حصداً » .

قد يبدو سيمون عادياً في كل ما تقدم ويستحق الشكر على شعوره الديني النبيل ، وعلى روحه القوية التي تدفعه إلى حضور المواعظ والمواظبة على الذهاب إلى الكنائس . ولكن الذي يبدو من تصرفاته غير عادي أنه ينظم في سلك أعداء الدين أعداءه الخاصين، وتحاول المستحيل إذا أردت أن تحوله عن الاعتقاد بأن من عاداه إنما هو عدو لله . ودعواه أنه رجل دين يذهب إلى الكنيسة ويستمع إلى المواعظ ، ويرتل الصلوات ويردد الدعوات ، ولا يدع مناسبة دينية دون أن يسهم فيها بما يناسبها ، فكل من عاداه فهو عدوّ لله .

ولم يخطر له على بال أنه قد يكون مخطئاً في هذا الاعتقاد ، فكان « جورج بلساني » منافسه في التجارة في عداد أعداء الله ، كذلك كان جاره وقريبه ألبير ، لأنه

كان ينازعه في أرض يملكها . وكان غير هذا وذاك آخرون لم يكن يستسيغ آراءهم أو يرضى عن سلوكهم ، لا لأنهم سيئو السلوك ، بل لأنهم لم يقعوا من نفسه ولا من قلبه موقعاً يرتاح إليه . وكان في الصف الأول ممن يعنيهم بدعائه « توماس قازينا » أولا لأن شعوره نحو الدين المسيحي كان ضعيفاً ، وثانياً لأنه كان يمثل شباب اليوم ، فكان يطلب ويلحف في الطلب أن تصب السماء عليه جام الغضب ، وأن يحصده الله هو ومن على شاكلته .

ولا تستطيع أن تفهم لماذا كان كل ما في العالم ، مما لا يجلب له نفعاً ، بغيضاً إلى قلبه . فالصحف مثلا ، ألبانية أو غير ألبانية ، كان لا يمسها بيده ولا ينظر فيها بعينه ، والعلاقات التي تعارف الناس عليها وقامت بينهم لا يقرها ولا يعترف بشيء منها ، فهو لا يزور أحداً ، ولا يود أن يزوره أحد ، ولا يسمح لزوجه ولا لابنته أن تتصلا بأحد . وكانت أوقاته موزعة بين المتجر والبيت والكنيسة . ولو أردت أن تجمل ما كان يمقته سيمون لرأيته يكره كل ما ليس له صلة قريبة أو بعيدة بمصالحه الشخصية ، وحاجياته الذاتية . ثم يضيف إلى ذلك شباب الجيل الحاضر والذين أتموا تثقيفهم خارج الوطن بوجه خاص ، وكان كل ما يصدر عنهم من قول أو فعل يكاد يفضى به إلى الجنون . فحركاتهم وسكناتهم ودفاعهم عما يعتقدون بشجاعة ، وصراحتهم في القول ، وثباتهم في الحق ، كانت كلها من عوامل الضيق لديه . وكان إذا مرّ به أحدهم حدث نفسه بصوت مسموع : عجباً ! عجباً ! لا أدري لماذا يثقون بأنفسهم هذه الثقة العمياء ! أما إذا مرّ « توماس قازينا » فإنه ما كان يستطيع الثبات في مكانه ، بل يقفز داخل المحل ويقطعه ذهوباً وجيئة في حركات عصبية عنيفة ، مما جعل الخدم يعتقدون أن بين الرجلين عداوة شديدة وكراهية مستحكمة .

وقد كان في « توماس » من الوداعة وكمال الخلق والاتزان ما حبب فيه كل المواطنين وجعله لهم مثلا وقدوة . ولم يكن بينه وبين سيمون صلة من الصلات ، فليسا متحدين في المهنة ولا في الميول ولا في الاعتقاد ، ويكادان يكونان متقاطعين تماماً ، إلا أن سيمون كان حينما يراه تعتريه تلك الحالة العصبية التي لم يكن مبعثها إلا الحقد الدفين والحسد الكامن في صدره ؛ لأن الشاب ذائع الصيت في « أشقودره » وما جاورها ، يرتقي بخطوات فسيحة سلم المجد ليصل إلى مكانته اللائقة في مصاف العظماء من الكتاب الذين خلد التاريخ ذكرهم . وقد انتزع إعجاب الناس بما يكتب وما ينشر وما يذيع من آراء وأفكار . وكانت أكثر المجلات انتشاراً تلك التي تحظى بقبس من نتاج فكره ، وفيض خاطره .

وكنت لا تصادفه في وقت من الأوقات إلا مشغولا بتحضير مقال ، أو تصحيح كتاب من الكتب التي تقيم الدنيا وتقعدها ، لما تحوي من الوطنية الصادقة ، والأدب الرفيع ، بأسلوب رقيق أخاذ . ولعل حاله تلك هي التي دعت سيمون لأن يظن به كبراً ، وأن يجعله على رأس القائمة السوداء ، أعداء الدين الذين يسلط عليهم سيفه المصلت : « اللهم احصدهم حصداً » !

لم يكن « سيمون » يعرف حقيقة « توماس » ، ولم يقرأ شيئاً من مقالاته ، ولا كتاباً من كتبه ، بل لم يعرف عنه أنه كاتب إلا منذ عهد قريب ، ولكنه يبغضه ويمقته منذ أمد بعيد . ولقد خرج « سيمون » مرة على مألوف عادته وذهب ليشارك صديقاً له في الاحتفال بعيد ميلاده في منزله ، فاجتمع « بتوماس » في ذلك الحفل ، وكان سيمون قبل مجيء « توماس» صاحب المكانة الأولى والمنزلة السامية بين المحتفلين ، فلما طلع توماس على الجمع خفوا جميعاً للقائه والترحيب به ، والتفوا حوله في ركن من أركان البهو ، وانصرفوا عن سيمون الذي اضطر على كره منه أن يصغي لإجابات « توماس » على ما كان يوجه إليه من الحاضرين . وكان كالعهد به صريحاً في قوله ، شجاعاً في رأيه ، يتكلم بما يعتقد ، في غير تردد ولا مواربة ؛ فانتقد الناس الذين ليس لهم هم إلا جمع المال من وجهه المشروع وغير المشروع ، وبذلك ماتت الوطنية فى نفوسهم وانصرفوا عن محجة الصواب ، وظنوا — جهلا — أن المال هو كل شيء ، فضلوا وعموا عن طرق الخير ، وتخبطوا في سيرهم ، وتنكبوا السبيل السوي . ولما كان سيمون من أولئك النفر الذي لا يفهم إلا أن المال هو الوسيلة للسعادة ، كان حديث «توماس» سبباً لإزعاجه ، ومثاراً لحقده على أمثال هذا الشاب . وعدّه جنوناً وزيفاً باطلا ، وخروجاً عن الدين ، ومخالفة لله ، لاسيما والناس تستلذ سماعه وتطلب المزيد ، وفي هذا من الخطورة مالا قبل باحتماله .

ولم يتدبر « سيمون » كلام الشاب عله يمت إلى الحقيقة بصلة ؛ لأنه يعتقد أن ميزانه الذي يزن به الأعمال أدق الموازين على الإطلاق ، وذلك لأنه متصل بالله اتصالاً كبيراً ؛ فهو يذهب إلى الكنيسة مرتين في الأسبوع ، وهو مع ذلك مجرب للأمور ، ولأنه شب فلم ير للسعادة والشرف إلا طريقاً واحداً هو المال. ثم إن هذا الشاب«توماس» على حداثته يتطاول على المبادىء التي درج الناس عليها ، ويحاول أن يسلط عليها معاول الهدم ، ولكن أنى له ولأمثاله من المفتونين الذين امتلأت رؤوسهم بوساوس الشيطان

وعدُّوها — زوراً وبهتاناً — مبادىء سامية يجب أن تشيع في الناس وأن يتعارفوا عليها ، فقد جانبهم الصواب ، وخالفهم التوفيق .

كل هذه الخواطر كانت تجعل من رأس سيمون ميداناً تتزاحم فيه الأفكار بصورة كادت تودي به إلى الجنون ، لا سيما والشاب على مرأى منه ومسمع لا يسير في الطريق الذى يسير فيه سيمون ، وهو الطريق المستقيم ، طريق الله والدين الذي يسلكه ذوو الآراء الصائبة ، والأفكار الثاقبة ، والعقائد الثابتة ، والذين عمرت قلوبهم ، وامتلأت أفئدتهم حباً لله ، ويترددون على الكنائس ويستمعون المواعظ . ثم ختم سيمون حديث نفسه بهذه العبارة : إنه لإثم كبير ، وذنب عظيم ، وجرم لا يغتفر ، أن يمرق هذا الشاب ومن على شاكلته ويناصبونى العداء ، فاللهم احصدهم حصداً ، ولا تبق منهم أحداً ...

وإن سيمون لفي يوم من الأيام جالس بمتجره كعادته ، وكان الوقت ظهراً ، إذ دخل عليه « وفيق » — وكان يتعامل معه على أن يدفع له ثمن ما يشتري فى نهاية كل شهر — ووفيق رجل موفور الذكاء، جم النشاط، عظيم المواهب، على جانب كبير من الطيبة والوداعة ، وقد تخطى سن الشباب ، ولا يزال مدرساً بمدرسة المدينة الابتدائية . وكانت بيده حين دخل على سيمون « مجلة ألبانية » ، وذلك شيء لا يرتاح له سيمون كثيراً ، فبعد أن انتهى ما بينهما من حساب سأله سيمون في سخرية واستهزاء السؤال الآتي :

— ماذا تقول جرائدكم اليوم ؟

ففتح «وفيق» المجلة وألقى على صفحاتها نظرة سريعة ، ثم قال : إنني لم أتصفحها للآن ، وهي ليست صحيفة أخبار يومية ، وإنما هي مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والاجتماع ، وقد توجها الكاتب النابه الذكر « توماس قازينا » بمقال أولى به أن ينقش بسبائك من التبر على صفحات القلوب ، لا أن يسطر بمداد على ورق .

فلما سمع سيمون هذا الكلام قفز من مكانه وقال في غضب وحدة :

— وماذا يستطيع أن يكتب هذا المتغطرس ؟ إنه لاشك يذيع آراءه الزائفة التي لا تتقبلها إلا العقول المريضة .

— لا ! لا أوافقك على هذا الرأي « فتوماس » فارس الميدان ، لا يستطيع أحد أن ينازله مهما سمت مكانته وعلت منزلته ، ثم إن له ناحية خاصة فى الكتابة يعتبر بها مجدداً . فقد سلك فيها طريقاً لم يسلكها أحد قبله ، طريقاً معبدة بالرموز والإشارات ،

وممهدة بالأساليب الحديثة والجيد المنتقى من الألفاظ ، وبذلك انتحى الأدب ناحية طريفة مغايرة لنواحيه البالية العتيقة التي درجنا عليها منذ القدم .

إزاء هذا لم يجد سيمون أمامه إلا أن يقذف بالسهم الذي اعتاد أن يقذف به كلما دمغته حجة والتوى أمامه مسلك القول :

الواقع أنه ليس في وقتي متسع للاطلاع على مثل هذه الأشياء ، ومع كل ما قلت فإني أرى أنه أليق بهذا الشاب أن يبحث له عن عمل آخر يكسب به عيشه وعيش ذويه حتى لا يقع في هوة الفاقة والفساد التي قد تجره البطالة إليها .

— إن أمثال هؤلاء العظماء يأنفون أن يتقيدوا بأغلال الوظائف والأعمال ، حتى يعيشوا في جو من الحرية فسيح ، لأنهم يسمون بأنفسهم عن التنزل إلى مستوى العاديين من أمثالنا . ثم استأذن وفيق لأن ميعاداً له قد حان ، فشيعه سيمون بنظرة استخفاف ، وتمتم قائلا : لقد طار العقل من جميع الناس ، وانقلبت أوضاعهم ، وانعكس منطقهم ، فأصبحوا يعدون العاطلين في مصاف العظماء ، والسوقة في عداد السادة ، إن هذا لعجيب ! ...

ثم غادر مكانه وصعد إلى منزله فوق المتجر ليتناول غداءه ، وعادة الألبانيين جميعاً أن يتخذوا مساكنهم فوق متاجرهم . وكان سيمون في حالة شديدة من الهياج بسبب ما سمع من « وفيق » فما كاد يصل إلى المنزل حتى ارتمى على مقعد في حجرة المائدة وكان الغداء معداً . وكانت ابنته « دوثا » في انتظاره على المائدة وبيدها كتاب تكاد تلتهمه ، فلما دخل والدها وضعت الكتاب على المنضـدة تحت المفرش . وخرجت لبعض شأنها، فدفعت غريزة حب الاطلاع سيمون لأن يعرف ماذا تقرأ ابنته، فما إن أبصر عنوان الـكتاب حتى أصابته رعشة شديدة كأنما عضته حية رقطاء أو لفحه وهج حمى قاتلة ، ثم صاح بصوت يحبسه الغضب : كيف هذا . ؟ وفي بيتي أيضاً . ؟

فأسرعت إليه زوجه في لهفة — فقد ظنت أن مكروهاً حل به — وسألته : ماذا أصابك أيها الرجل ؟ فازداد وجهه احمراراً ، وانتفخت أوداجه وتقلصت شفتاه ، وأمسك بالكتاب يمزقه قطعاً صغيرة ، وهو يعوي ككلب جريح فأعادت زوجه السؤال مرتين وهي لا تعلم من الأمر شيئاً ، وهالها أن فم الرجل أخذ يفيض سيلا من اللعاب والزبد وهو يقطع الحجرة ذهوباً وجيئة ، ولما كثر تكرارها للسؤال . . استطاع أن يتمالك نفسه ليقول تلك الكلمة التي خرجت من فمه كفحيح الأفعى : ألا تنظرين كيف امتلأ بيتنا بالعار والشنار ! في بيتي ترتكب مثل هذه الأعمال ؟ استطاع الشيطان أن يتسرب

إلى هنا ليفسد ابنتي ، وأنا ما زلت حيا ، ولكني أعرف كيف أغسل هذا العار ! أما علمتم أنني أنا الذي أتحكم وحدي في هذا البيت ؟ ثم تحول إلى الفتاة ، والشرر يتطاير من عينيه ، وصاح يهدد ويتوعد : ستعرفين يا فاجرة كيف ... ولكن زوجته لم تتركه يتمم عبارته فقد قطعت عليه الحديث بقولها : — ما لك وللفتاة ؟ أود أن أعرف مبعث غضبك . فقال لها : أليس في رأسك عينان تنظران ، لعلك أنت التي ساعدت هذه البنت اللعوب على بلوغ هذه الغاية من السقوط ، ومكنت للشيطان أن يحتل مكانه من عقلها ومن نفسها . فاتجهت المرأة نحو ابنتها وقد تملكتها الحيرة ، وقالت : ماذا أصاب أباك اليوم يا ابنتي ؟ ولم تكن « دوثا » بأقل من أمها حيرة وارتباكا ، ولكنها استطاعت أن تقول — استنتاجاً مما رأت — إنه ثار من أجل هذا الكتاب . . .

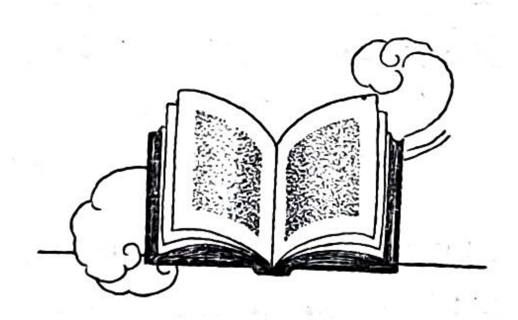
— وما هذا الكتاب ؟

— إنه كتاب يصور حال المجتمع الألباني ، وما عليه الناس من جمود ، ويبين السبيل إلى المجد والخلود . فرد عليها أبوها باستهزاء وسخرية . نعم ! نعم ! إنه اليوم الكتاب ! وغداً صاحب الكتاب ...! وهكذا دواليك ...! وما دمت لا أرى غضاضة في أن يكون هذا الكتاب في بيتي !... فيجب أن لا أرى غضاضة فى وجود صاحبه أيضاً في بيتي .. ألا عليك لعنة الله ومقته !

فالتفتت الأم إلى ابنتها وقالت : أقسم عليك بما تدين به إلا خبرتني عمن يتكلم أبوك ؟ وكانت الفتاة قد بلغ بها الغضب أقصى غاياته لظن السوء الذي رماها أبوها به ، ولتلك الأوهام التي صورها له الخيال في صورة الحقيقة ، ولتلك النتيجة السيئة التي رتبها على وجود كتاب معها . ولقد أخرجها الغضب عن دائرة التأدب أمام والديها ، فأجابت عن سؤال أمها بلهجة عارية عن الحياء : إن أردت أن تعرفي عمن يتكلم فاعلمي أنه يتكلم عن مؤلف هذا الكتاب وهو « توماس قازينا » وقد دارت برأسه أطياف السوء . فسولت له نفسه أن يتهمني في عرضي . وأن يرميني بالتفريط في نفسي ، والتهاون بشرفي ، وإنني بإزاء هذه الإهانة التي لحقت بي لا أملك إلا أن أغادر هذا البيت الذي تجمعت في جوه سحب الجهل ، وتبلدت عقول ساكنيه حتى أصبحوا يستنتجون من قراءة كتاب سقوطاً مع صاحبه . . . ثم خنقتها العبرات ولم تستطع المزيد ، فخرجت من الحجرة وتركت والديها مبهوتين ، وكانت هذه أول مرة تتكلم بحدة أمامهما ، فالتفتت المرأة إلى زوجها وقالت له عابسة غاضبة : أنت تعلم أنه ليس لنا غير هذه الفتاة ، وأنك بهذا العمل المشين تسلط عليها سهماً رائشاً لا بد أن يصيب منها مقتلا ، فأضف إلى علمك أنني سأتبع

ابنتي إلى حيث تذهب ، وسأترك لك البيت لتتحكم فيه وحدك ، ولتمنع الكتب أن تصل إليه حتى لا يصل مؤلفوها معها أو بعدها . ثم تركت الرجل وتبعت ابنتها . . . بقي « سيمون روقولي » وحيداً في حجرة المائدة ، وقد أخذت من نفسه كلمات زوجته ، وهوّل له الغضب شناعة فعله ، وجريرة عمله ، وتصور البيت قد خلا إلا منه ، فاشتدت عليه الحال ، ونال منه التعب ، فألقى بنفسه على أريكة منهوك القوى ، معذب النفس ، منقبض الصدر ، يتميز غيظاً وحزناً . ولم يجد ما يفرج كربه ويخفف همه إلا أن يخلع قلنسوته ويرفع يديه إلى السماء ويضرع إلى الله تعالى بصوت شاع فيه الألم وامتزج به الحزن : « اللهم إنك تعلم أن « توماس » هو السبب في تعكير حياتنا ، وتكدير صفونا ، وهو من أعدائي وأعدائك أعداء الدين ، الذين يحق عليهم المقت ، فاللهم احصده حصداً واجزه أسوأ جزاء . إنك يارب تجيب دعوة الصالحين . وتمحق الضالين المضلين . . . ولكن دعاءه هذه المرة لم تفتح له أبواب السماء ، فقد رددته جدران الحجرة ، ثم ردته إلى سمعه صدًى خفيفاً . وليس دعاء حاراً عنيفاً .

وهبي إسمعيل حقي



انباء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

٢٢/٣/١٩٤٥

احتفلت جامعة الدول العربية في اليوم الثاني والعشرين من مارس ١٩٤٦ بمرور سنة على توقيع ميثاقها وكان الاحتفال في قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعه فؤاد الأول .

وكانت مفاجأة سارة أن شرف الاحتفال حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم كما كان للنطق السامي الذي تفضل جلالته فأمر بتلاوته أثر بالغ هز النفوس والقلوب وأطلق الألسنة بالهتاف والدعاء وها هو ذا النطق الملكي الكريم نسجله على صفحات « الكتاب » داعين لمولانا المليك المحبوب بالعز والتأييد ولمصر وبلاد العرب أجمع ببلوغ غاية الغايات :

« في مثل هذا اليوم من عام مضى ارتبطت مصر بميثاق الدول العربيـــة لتنمية أواصر الأخوة بينها .

وإني ليسرني أن أرى تقدماً مستمراً نحو تلك الغاية وقد يعين على تحقيقها أن ننشىء فيما بيننا قومية مشتركة .

ويقيني أن الأجيال الناشئة في البلاد العربية قادرة على حمل رسالة هذه الأمة القديمة الجديدة التي نعتز جميعاً بالانتساب إليها وتلك الرسالة هي أن نكون أعواناً على البر متكاتفين في إقامة العدل والسلم الدائم .

والله يوفقنا جميعاً لما فيه خير العرب ومجد العروبة » .

✡ ✡ ✡

ومن أخبار اللجنة الثقافيـة في الجامعة العربية أن الاجتماعات التي عقدتها في شهر مارس وشهدها وفد من مراكش الخليفية ومستمع من تونس قد أسفرت عن إقرار مشروعين مهمين أولهما مشروع وضعه الدكتور عبد الرزاق أحمـد السنهوري باشا رئيس اللجنة ويرمي إلى تنظيم اتصال الدول العربية بهيئة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة بحيث تعمل متضامنة وفي أفكار متماثلة . وثانيهما مشروع وضعه الأستاذ يوسف العش مدير دار الكتب الظاهرية سابقاً وسكرتير اللجنة ويقضي بإنشاء معهد لإحياء المخطوطات العربية ويشير هذا المشروع إلى وجوب جمع فهارس المخطوطات العربية وإرسال بعثات علمية لتصوير المخطوطات العربية النفيسة المبعثرة في أنحاء العالم وإلى جمع هذه الفهارس والصور في المعهد ووضعها تحت تصرف العلماء والناشرين .

كذلك أقرت اللجنة تأليف هيئة دائمة متفرعة من اللجنة الثقافيـة وتأليف لجنة قانونية دائمة وعهدت إلى الهيئة الدائمة في تأليف لجنة فنية تبحث في حماية الملكية الأدبية والفنية ولجنة تحضيرية لمؤتمر ثقافي عربي .

✡✡✡

أوشك العمل ينتهي في مبنى مكتبة الأميرة فريال بمصر الجديدة وسيعلن عن افتتاحها عما قريب في حفلة رسمية يشرفها جلالة الملك . وتعد هذه المكتبة أول دار كتب عامة يقوم الأهالي بتشييدها . وتمتاز عن دور الكتب الأخرى بوجود مكتبة للأطفال فيها ، وجناح خاص بالسيدات ، وقاعة للسينما الثقافية ، وأخرى للمحاضرات ، وهي مزودة بقسم خاص بالمراجع والمستندات .

وقد تبرعت لها وزارة الشؤون الاجتماعية بألفي جنيه ، ودار الكتب المصرية بنحو ثلاثة آلاف كتاب ، وانهالت التبرعات عليها من شتى الهيئات العلمية والمجامع الأدبية .

✡✡✡

من زوار مصر المستعرب الإنجليزي نيفل باربر مدير القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية بلندن حيث يقوم بزيارة استطلاعية لعواصم العالم العربي . وللأستاذ باربر كتاب فريد عن تاريخ المسرح المصري ألم فيه بتطور المسرح في مصر وتحدث عن نهضته وعن مشاهير الممثلين والأدب المسرحي العربي ، وهو ليس أول كتاب من نوعه في اللغات الأجنبية بل في العربية أيضاً إذ لم يؤرخ المسرح العربي بعد بين دفتي كتاب .

✡✡✡

تقوم لجنة « الحضارة الحديثة » بالمجمع اللغوي ، بإعداد قوائم بالألفاظ الرئيسية الجارية الاستعمال في شؤون البيت والفن والمجتمع ، وقد انتهت من وضع ما يقابلها من الألفاظ العربية المستحدثة وستعرض هذه الكلمات على مجلس المجمع لإقرارها وإذاعتها . وقد اعتمدت وزارة المعارف ٢٥٠٠ جنيه لتغطية نفقات هذه اللجنة وتقرر منح مكافأة عن كل كلمة مستحدثة يتقدم بها أحد الأفراد وتكون صالحة للغرض نفسه .

✡✡✡

صدر عن القسم الأدبي بدار الكتب المصرية الجزء الرابع عشر من كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .

✡✡✡

يعيد الدكتور إبراهيم ناجي طبع ديوانه « وراء الغمام » وسيلحق به طائفة من القصائد التي نظمها في سنوات الحرب وفي طليعتها ملحمته الموسومة بعنوان : الأطلال .

✡✡✡

أنجز الأستاذ حسن محمد حبشي مدير دار البحرين بالقاهرة ترجمة كتاب تاريخ العرب الأدبي تأليف المستعرب الإنجليزي نيكلسون وصدره بمقدمة نفيسة عن حياة المؤلف واتجاهاته في الدراسات الأدبية ونظرته في التصوف الإسلامي لأنه كان يعد في مقدمة الملمين بتطور عقائده .

✡✡✡

اعتزمت دار إحياء الكتب العربية نشر معجم من أهم المعاجم اللغوية ، هو كتاب « مقاييس اللغة » لابن فارس . ويقع في نحو خمسة مجلدات وسيتولى تحقيقه والعناية به الأستاذ عبد السلام محمد هارون المدرس بجامعة فاروق الأول .

عندي

✡✡✡

يقوم القسم الأدبي بدار الكتب المصرية بطبع الجزء الخامس عشر من القرطبي ، والجزء الثاني عشر من الأغاني ، والجزء الخامس عشر من نهاية الأرب ، والجزء الثاني من مسالك الأبصار

وقد تم طبع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ويشرع قريباً في طبع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي أيضاً .

✲✲✲

ندبت وزارة المعارف العمومية الأستاذ إبرهيم نمير سيف الدين مدير إدارة البعثات لشهود المؤتمر الدولي التاسع للتعليم بمدينة جنيف بسويسرا .

✲✲✲

عين الدكتور محمد صبري وكيلا لدار الكتب المصرية. وهو تعيين صادف أهله فللدكتور صبري آثار نفيسة في الأدب والتاريخ .

✲✲✲

استجاب الدكتور طه حسين بك لرجاء الأستاذ فريد الأطرش وسمح له باخراج قصته « دعاء الكروان » على الشاشة البيضاء ولاشك في أن الأستاذ الأطرش سيستعين بأقصى مايصل إليه فنه ومقدرته ليكون ترجماناً صادقاً لما في قصة « دعاء الكروان » من سمو وروعة .

السودان

كان البحث يجري بجوار أهرامات البركل عن آثار مدفونة في تلك المنطقة . ورأى مفتش الآثار أن يحدث عدة ثقوب في الأهرامات ، ثم قام عمال الآثار بترميمها . وقد اتخذت التدابير لتحاشي وقوع أضرار أخرى بالقلعة المسيحية في جبل بخيت ، حيث تقوض الحائط الجميل البناء بسبب إزالة الجير من قاعدته .

✲✲✲

تدرس وزارة الصحة في مصر اقتراحاً بارسال بعض الطبيبات المصريات إلى السودان للعمل في مستشفياته ومعالجة السودانيات اللائي يرفضن عرض أنفسهن على الأطباء .

✲✲✲

تهتم الفتيات والنساء في هذه الأيام بقراءة الجرائد المحلية ، فتراهن يقبلن على باعة الصحف في المحطات أو ينادين عليهم وكثيراً ما ترى في عربات الترام فتاة تنشر جريدتها وتستغرق في قراءتها وقد أخذت هذه الظاهرة تنتشر في أرجاء السودان .

✲✲✲

تقوم الآن بعثة من مصلحة المساحة بمصر بدراسة تفصيلية لموقع السد وخزان المياه اللذين تقترحهما مصر .

✲✲✲

يجول الآن في جنوب السودان الدكتور أحمد محمد مجاهد والأستاذ محمد حسيب الأستاذان بكلية العلوم بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة . وهما يقومان بأبحاث علمية في منطقة السدود للتعرف على العلاقة بين النباتات المنتشرة هناك وما يفقد من المياه عن طريق التبخر ، وسيرفعان تقريراً عن مهمتها بعد الانتهاء منها إلى وزارة الأشغال .

✲✲✲

أنشئت في الخرطوم مدرسة لتدريب مدرسين لتدريس الفنون . ولم تلحق هذه المدرسة

بكلية غردون كقسم من أقسامها ، بل ستظل تابعة لإدارة المعارف بعض الوقت ، ريثما يتم تكوينها . وقد اختير لها كنواة ستة طلاب . ويقوم بتدريبهم رئيس المدرسة المستر قرينلو حتى نهاية الصيف . وبعد ذلك يرسل بعضهم إلى مصر لاستكمال تمرنهم ، والبعض الآخر إلى إنجلترا .

✡✡✡

تلقت مكتبة الأحفاد الثانوية مجموعة قيمة من الكتب الأدبية والمراجع العلمية مهداة من الحكومة المصرية . ويذكر السودانيون بجميل التقدير لمصر هذه اليد في تنمية العلاقات الثقافية بين شطري الوادي وتوطيدها .

✡✡✡

عقدت الجمعية الفلسفية اجتماعها الأول في كلية غردون بالخرطوم ، وأقرت دستورها ، وقبلت ثلاثة وثمانين شخصاً لعضويتها ، واختير المستر آركل لرياستها .

فلسطين

تتجه عناية المثقفين نحو دراسة الشعراء والأدباء الذين ظهروا في فلسطين ككشاجم الرملي وأبي اسحق الغزي وصلاح الدين الصفدي . وقد تألفت في صفد لجنة لجمع ما كتب عن الصفدي وتتبع آثاره . ويستنسخ الآن ديوان الغزي الموجود في القاهرة لإعداده للنشر .

✡✡✡

صدرت نشرة باللغة الإنجليزية تحتوي على أسماء المكتبات الخاصة والعامة في بيت المقدس وعدد كتبها ولغاتها وما إلى ذلك . وعدد هذه المكتبات ٣٤ مكتبة . وقد ذكر أن عدد كتب المكتبة الخالدية ٥٫٠٠٠ كتاب و ٣٫٠٠٠ مخطوط . ومكتبة الشيخ الخليلي ٧٫٠٠٠ كتاب . ومكتبة المسجد الأقصى ١٫٥٠٠ كتاب و ٣٠٠ رسالة . ومكتبة جمعية الشبان المسيحية ٢٢٫٠٠٠ كتاب تقريباً .

✡✡✡

تألفت في عمان جمعية طبية باسم « الجمعية الطبية الأردنية » برياسة مدير الصحة العام . ومن أغراضها نشر الثقافة الطبية بين الشعب وتشجيع المستشفيات والأدوية العربية .

✡✡✡

أسس بعض المثقفين في غزة مكتباً للشؤون الاجتماعية يشرف على تعليم ٣٠٠ أمي و ١٠٠ أمية .

✡✡✡

صدرت في هذا الشهر ثلاث مجلات : « الجيل » ويصدرها الاتحاد الرياضي الفلسطيني . و « القافلة » ويصدرها نادي الاتحاد القروي . و « المهماز » ويصدرها فريق من الشبان في حيفا كما صدرت نشرة فنية أصدرتها فرقة الثقافة والفنون المقدسية .

✡✡✡

صدرت في هذا الشهر الكتب الآتية : « إلياذة هوميروس » مترجمة نثراً بقلم السيدة عنبرة سلام الخالدي ؛ رحلة في « ف ٩٩ » للسيد عبد الرحمن أبي درة ؛ « مثير الغرام بفضائل القدس

والشام » لإبن سرور المقدسي ، بتحقيق الأستاذ أحمد سامح الخالدي ؛ « من البنسلين إلى القنبلة الذرية » للسيد علي شعث ؛ « ذكاء القاضي » تمثيلية للأولاد للسيد نصري الجوزي .

✡✡✡

من نفائس المخطوطات الموجودة في المكتبة الخالدية كتاب « الشعور بالعور » لصلاح الدين الصفدي نسخ سنة ٨٤١ هـ . ويظن أنه أقدم مخطوط لهذا الكتاب .

✡✡✡

كان الدكتور سعدي بسيسو قدم جائزة قدرها ٢٥ جنيهاً لأحسن موضوع يعالج الحالة الحاضرة في فلسطين وقد نال هذه الجائزة السيدان عبد المجيد حنونة ومحمد خير جرار .

لبنان

صدر عن « دار المكشوف » كتاب « مرحلة وأجواء » ، وهو مجموعة وجدانية من الشعر والنثر للأستاذ توفيق اليازجي .

✡✡✡

تسلمت الحكومة اللبنانية إذاعة « راديو الشرق » من السلطة الفرنسية ، وألحقتها بمديرية المطبوعات . وعين الأستاذ ألبير أديب صاحب مجلة « الأديب » مستشاراً فنياً لها . وقد أخذ مدير المطبوعات الأستاذ محمد صبرا بإعداد برامج ثقافية عامة لرفع مستوى الإذاعات الأدبية والعلمية ، وجعل « راديو الشرق » منبراً حراً ينقل صوت أدباء لبنان إلى الأقطار العربية الشقيقة .

✡✡✡

تعنى بعض دور النشر في بيروت بانتخاب مختارات من آثار أمين نخلة النثرية ، تدور حول موضوعات اجتماعية عامة وخاصة. وهي غير كتاب « تحت قناطر أرسطو » المعروف . وأمين نخلة مشهور في البيئة الأدبية اللبنانية بصياغته اللفظية الشخصية ، ومعانيه الرفيعة الدقيقة ، وهما الميزتان اللتان اختص بهما كتابه « المفكرة الريفية » .

من المؤلفات التي تعنى بالمباحث العربية والإسلامية الصادرة في أثناء الحرب كتاب « المجاز في القرآن » وضعه بالفرنسية الأستاذ توفيق الصباغ الدكتور في الآداب من جامعة باريس. وقد لاقى هذا الكتاب استحساناً في بيئات المستشرقين وقرظه بعضهم ، ومهد له لويس ماسينيون بمقدمة موجزة .

✡✡✡

يصدر قريباً كتاب « علاقات الدول في عشرين عاماً » وهو عرض واف وتحليل دقيق مفصل للعلاقات بين الدول خلال الفترة الممتدة بين نهاية الحرب العظمى وبداية هذه الحرب ، تأليف ا . هـ . كار أستاذ السياسة الدولية في جامعة ويلز البريطانية ، وقد نقله إلى العربية سمير شيخاني .

✡✡✡

تألفت في بيروت شركة باسم « منشورات النداء القومي » وغايتها إصدار جريدة أو عدة جرائد يومية سياسية ومجلات أدبية ، وسائر أنواع النشر والإذاعة . يشرف على هذه الشركة « حزب النداء القومي » المعروف بتحمسه لقضية الاستقلال التام ولفكرة الأخوة العربية .

✡✡✡

يطبع الآن في بيروت « كتاب المنفى » لرشيد نخلة ، وهو مذكرات سياسية وأدبية كتبها

المؤلف في منفاه عهد جمال باشا التركي سنة ١٩١٥ . ويحوي الكتاب قطعاً أدبية وآراء سياسية للأشخاص والرجالات الذين عملوا في القضية اللبنانية قبل الحرب العامة الأولى . ويمتاز هذا المؤلف بما فيه من نصوص رسمية صدرت عن « حكومة الفدائيين » قبل دخول الحلفاء والجيش العربي إلى لبنان ويقع في ١٢٨ صفحة .

✡✡✡

عادت مجلة « الجمهور » إلى عهدها الأدبي ، فخرجت بحلة قشيبة ، وموضوعات متنوعة طريفة يشرف على تحريرها نخبة من الأدباء برياسة صاحبها الأستاذ ميشال أبو شهلا .

✡✡✡

تعنى « دار المكشوف » بإصدار سلسلة من الكتب بعنوان « أشهر العشاق العالميين » أولها « هلويز وابيلار » ويدور موضوعه حول حياة هذين العاشقين الشهيرين ، وما انتهى إليه حبهما . ويقع في ١٥٠ صفحة .

وأصدرت أيضاً في سلسلتها « أساتذة الفن » كتاباً عن المصور الشهير « ده لاكروا » مزيناً بنحو ثلاثين لوحة من ريشته . وضعه الفنان قيصر الجميل ، ودرس فيه العصور الفنية التي سبقت « ده لاكروا » متطرقاً إلى صاحب الترجمة ، دارساً الثورة التي أحدثها في الرسم ، عارضاً باقتضاب لأكثر الفنانين العالميين الذين وردت أسماؤهم في الكتاب .

سوريا

في دمشق مكتب للدراسات الإسلامية يشرف على شؤونه العالم الدمشقي الشيخ محمد أحمد دهمان ، وغاية هذا المكتب « دراسة الإسلام وتاريخه الفكري والسياسي والاجتماعي ونشر المخطوطات والوثائق وترجمة ما له صلة بهذه الغاية عن اللغات الأجنبية » .

ومن منشورات المكتب كتاب « المقنع في رسوم مصاحف الأمصار » مع كتاب « النقط » وكلاهما للإمام أبي عمرو الداني الأندلسي المتوفي سنة ٤٤٤ هـ .

ونشر المكتب أبحاثاً أثرية قيمة منها بحث عن قبة « المسجف » وهي قبة أيوبية في قرية المزة غربي دمشق ، وبحث عن المقصورة « التاجية » إحدى مقاصير ✡ المسجد الأموي بدمشق وبحث عن الحياة العلمية في الدولة الأيوبية . ولدى المكتب عدة مجاميع من النصوص والوثائق عن مدينة دمشق معدة للطبع أهمها :

(١) مجموع الكتابات العربية القديمة المنقوشة على الأحجار في مدينة دمشق وضواحيها .
(٢) مجموعة من الوثائق والنصوص المتعلقة بتاريخ الأبنية العربية القديمة في دمشق .
(٣) مجموعة النصوص المتعلقة بمدارس دمشق القديمة وحياتها العلمية وكتاتيبها القديمة .

✡ المقصورة في المسجد قسم منه يحاط بسياج من خشب مزخرف أو نحوه لا يدخلها إلا المختصون بها . ويحدثنا ابن جبير حينما زار الجامع الأموي عن عدة مقاصير كانت فيه وأنها تتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس .

(٤) مجموعة نصوص تتعلق بأصول التربية والتعليم عند العرب وأقدم المدارس المؤسسة لذلك قديماً .

(٥) مجموعة كبرى عن الجامع الأموي بدمشق .

(٦) مجموعة عن العهد الأيوبي والدول الأيوبية بجميع فروعها وسلالاتها .

(٧) مجموعة من النصوص العربية المتعلقة بتاريخ القرآن المجيد .

وتلقى في المدرسة العادلية الصغرى ، مقر المكتب بين وقت وآخر محاضرات في الأدب العربي والثقافة الإسلامية وعلم الآثار على الطريقة الجامعية يتخللها حوار ونقاش وإيضاح .

✡✡✡

تصدر نقابة عمال الطباعة بدمشق صحيفة دورية عنوانها « العامل العربي » وهي منزهة عن أية نزعة ماركسية . وغايتها نشر كل ما من شأنه رفع مستوى العامل العربي من ثقافة ومادة ومعنى واجتماع .

✡✡✡

أصدر النادي الكاثوليكي العدد الأول من مجلته الشهرية «الفكر» وهي تستهدف «الإصلاح الاجتماعي ، وبعث الثقافة العربية ، وبث الثقافة العامة وتصفية الخلق العربي من كل ما اندس فيه باسم المدنية ، وتقويم اللسان العربي الذي طغت عليه العجمة فعزف عن لغته الأصيلة التي تحمل طابع شخصيته » .

✡✡✡

تصدر الرابطة الثقافية في حماه مجلة شهرية عنوانها « النواعير » يحررها فئة من الشباب الحموي المثقف .

✡✡✡

تتألف الجامعة السورية من كليتي الطب والحقوق ، وقد أشار الأستاذ الحصري على الحكومة إتماماً للتعليم الجامعي بفتح كليات جديدة للآداب والعلوم والهندسة والزراعة لتكوين الاختصاصيين ويظهر أن الحكومة السورية عزمت على سد هذا النقص تدريجاً فأوفدت عميد الجامعة السورية إلى مصر لدراسة مناهج جامعتي فؤاد الأول وفاروق الأول .

✡✡✡

أصدرت دار اليقظة العربية كتاباً للكاتب الاقتصادي منير الشريف عنوانه « الشباب العربي وكيف ينجح في الحقل الاقتصادي » . وهو كتاب صغير الحجم جم الفوائد يبحث عن الفوارق بين نظرة العرب والغربيين إلى العمل ، وعن كيفية استثمار ثروات بلاد العرب وأثر هذا الاستثمار في بناء مجد العرب الاقتصادي .

✡✡✡

عزم الدكتور أسعد طلس على نشر كتاب « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » لعبد الرحمن الشهرزوري من رجال القرن الخامس للهجرة .

العراق

لدى وزارة المعارف اليوم مشروع علمي ثقافي قومي جديد هو تأسيس « المعهد التأريخي العراقي الملكي » ومهمته التوجيه والإشراف على نشر بحوث ودراسات تتصل بتأريخ العراق في عصوره المختلفة والبحث عن المراجع المخطوطة والمطبوعة باللغات المنوعة لهذا التاريخ وإعدادها للمراجعين والباحثين والمؤلفين . وسيضطلع المعهد مستعيناً ببعض المشتغلين بهذه الشؤون بتأليف ونشر سلسلة في تاريخ العراق بعضها موجز وبعضها مطول .

✲✲✲

تدرس وزارة المعارف موضوع عقد مؤتمر عربي عام للتربية والتعليم تشترك فيه البلاد العربية قاطبة وفي مقدمتها البلاد المنضمة إلى جامعة الدول العربية .

✲✲✲

صدر كتاب « جنكيزخان : إمبراطور الناس كلهم » تأليف الباحث الأمريكي هارولد لامب ويعد الكتاب مرآة صادقة لشخصية جنكيزخان وسجلا شاملا لأعماله . نقله إلى العربية اللواء بهاء الدين نوري أحد رجال الجيش العراقي . وقد أضاف المترجم للكتاب حواشي وملاحظات تاريخية وجغرافية واجتماعية وتراجم موجزة تساعد القارىء العربي على استيعاب أبحاث الكتاب على وجه أوفى .

✲✲✲

وضع الدكتور بديع شريف خريج جامعة سويسرة كتاباً في الصراع بين الموالي والعرب في عهد الخلفاء في المشرق تناول فيه الصراع بأنواعه السياسي والديني والأدبي والاجتماعي والكتاب باللغة الألمانية طبعه في بازل ويشتغل الأن بعد عودته إلى بغداد بترجمته إلى اللغة العربية مع إضافات واستدراكات تهم القراء العرب .

✲✲✲

يطبع الآن كتاب « من عبقريات نساء القرن التاسع عشر عند العرب » تأليف الأستاذ يوسف مسكوني ووضع مقدمته الأب أنستاس ماري الكرملي العلامة اللغوي الشهير — وقد تحسنت صحته نوعاً — وبعد تمهيد في مكانة المرأة في حياتنا الاجتماعية ، ترجم المؤلف (لعائشة التيمورية) ودرس شعرها و (وردة اليازجي) ونظر في شعرها و (زينب فواز) وآثارها الأدبية .

✲✲✲

أنجز الأستاذ روفائيل بطي صاحب جريدة البلاد كتابه « نشأة الصحافة العراقية وتطورها » وهو بحث مفصل في منشأ الصحافة في العراق قبل سبعين سنة وتدرجها والأطوار التي تقلبت عليها وبصدد الصحافة وهي مرآة المجتمع يتناول المؤلف الجو السياسي والحياة الاجتماعية والبيئة الأدبية والفكرية وتأثير كل ذلك في الصحف وعمل الصحافة فيها . كما يعرض لتحليل الشخصيات السياسية والصحافية والكتابية ، ويعد التأليف في الموضوع مبتكراً لم يسبق إليه في هذا القطر ، وسيمثل للطبع قريباً .

✲✲✲

أتم الأستاذ كوركيس عواد أمين خزانة كتب دار الآثار ببغداد تحقيق وتحرير كتاب « الديارات » لأبي الحسن علي المشهور بالشابشتي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ واعتمد في إعداد هذه النسخة المحققة على نسخة منقولة بالفوتوغراف نقلا عن المخطوطة الفريدة لهذا الكتاب المحفوظة في خزانة برلين ويرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى سنة ٦٣١هـ وقد أضاف المحقق إلى بحوث الشابشتي وصفاً دقيقاً لكثير من ديارات العراق والشام ومصر مما لم يتطرق إليه المؤلف في الأصل وذكر الديارات القائمة اليوم في هذه البقاع من الشرق وعزز الكتاب بهوامش تاريخية وتراجم موجزة وتحقيقات منوعة .

الهند

أقرت حكومة ولاية السند بالهند ميزانية قدرها ثلاثة ملايين ونصف مليون روبية لإنشاء جامعة في مدينة كراتشي وهي ثاني المواني والمدن الكبيرة على ساحل الهند الغربي بعد بمباي وجامعتها ستكون الثانية والثلاثين بالهند .

✲✲✲

أنشأت إمارة جودهبور كلية للآداب باسم كلية جسونت Jaswant College . وجودهبور إحدى الإمارات بالمقاطعة راجبوتانه بالهند .

✲✲✲

أنشأت جامعة بتنة بالهند كلية لتدريس فن الموسيقى وستكون مدة دراسته فيها ثلاث سنين.

✲✲✲

اجتمعت جمعية الموسيقى الهندية العامة All India Music Conference اجتماعا سنويا في مدينة بتنة ودامت جلساتها من ١٥ مارس إلى ١٨ مارس .

✲✲✲

اجتمع مندوبو الجامعات الهندية بأسرها في دهلي الجديدة في ٢ مارس ومن قراراتهم الهامة في الاجتماع المذكور بالإجماع تدريس صناعة واحدة بجنب دروس الجامعات تدريساً إلزامياً لكي تساعد خريجيها في مستقبل حياتهم في الظروف القاهرة .

✲✲✲

احتفلت الإمارة الإسلامية بهوپال ببلوغ أميرها صاحب السمو محمد حميد الله خان الخمسين ، فعرضت المهرجانات وألقيت المحاضرات وأقيمت المباريات ، ومما يستحق الذكر أن أقيمت فيه حفلة « المشاعرة » الكبيرة اشترك فيها أشهر شعراء الأدب الأردي بالهند مثل حفيظ الجالندهري ، وجكر المرادابادي ، وقدير اللكنوي ، « والمشاعرة » في الأدب الأردي والفارسي والتركي يطلق على اجتماع الشعراء يلقون فيه ما جادت قرائحهم أما على وزن وروى واحد أو على أوزان ورويات مختلفة .

✲✲✲

احتفل رياضيو الهند بمرور خمس وعشرين سنة على بطولة الأستاذ وزير علي في لعب الكريكت فأقيمت مباراة عظيمة الكريكت بكلكتا اشترك فيها كبار رياضي الهند من الأمراء وغيرهم ، وكان

يقوم فيها بوظيفة الحكم صاحب السمو أمير بهوپال ، وفي النهاية قدم إلى الأستاذ وزير على مبلغاً من النقود في كيس اعترافاً لإشادته بمجد الهند في البطولة ،

✡✡✡

أقام مجمع العلماء Academy of Islam بالهند معرضاً عاماً في مدينة بمباي فاشتركت فيه جميع الإمارات الإسلامية وأندية العلم والأدب الإسلامية ومما يستحق الذكر أن عرض فيه القرآن المخطوط بيد العاهل المغولي الكبير محي الدين عالمكير أورنك زيب ، والعاهل المذكور تولى الأمر بالهند من سنة ١٠٦٩ هـ إلى سنة ١١١٨ هـ وكان ورعاً تقياً لا يصرف على نفسه من خزانة الدولة بل ما يكسب بكتابة القرآن .

انجلترا

في عام ١٨٥٩ نشرت الطبعة الأولى لترجمة رباعيات الخيام بقلم فتزجرالد ، على أن الناشر حين رأى عدم إقبال القراء على شعر رجل فارسي مجهول خفض ثمن الكتاب وعرضه بين الكتب النافلة .. ومر الزمن .. فاذا باحدى نسخ تلك الطبعة التي كسدت سوقها مقابل خمسة شلنات تعرض اليوم بسعر ٢٢٥ جنيهاً .

✡✡✡

ظهرت ترجمة جديدة للأوذيسة أحسن استقبالها الناقدون ونشرتها سلسلة بنجوين المعروفة .

✡✡✡

ظهر حديثاً للكاتب الصيني العالمي المعروف « لين يوتانغ » كتاب جديد بعنوان « بين الضحكات والدموع » . يعرض فيه لحالة الصين ولفلسفة الشرق إزاء فلسفة الغرب في الحياة وطرائق العيش، ولأثر التدخل الأوربي الذي تدفعه العوامل المادية والتماس القوة وتحقيق المطامع الاقتصادية .

✡✡✡

يعرف كثير من القراء بالعربية قصص الكاتب الإنجليزي ريدر هاجر مثل « كنوز الملك سليمان » و « هي أو عائشة » ، أو لعل كثيرين منهم قد استمتعوا بها أيام الصبي . ولقد طالعتنا ابنته أخيراً بكتاب طريف شائق عن أحاديث أبيها إليها أيام الطفولة وتقول في مقدمة كتابها : « إنها اليوم قد طعنت في السن لكن أصداء تلك الأيام الحلوة ، حين كانت تستجيب لصوت أبيها يدعوها لصحبته خلال المروج وأفنان الريف ما زالت تتردد واضحة في أعماق نفسها » .

✡✡✡

في قصة بعنوان « لم تجد الحمائم راحة » تحدث المؤلف عن شباب الهند ، وعن شيوخها أيضاً . وحديثه ممتع لاذع عن السياسة والمجتمع هناك ، يبدو منه أنه استطاع أن يضع أنفه هنا وهناك ، ولا بأس بهذا الكتاب في مجموعه إذا ذكر القارئ أنه أجنبي يحاول أن يلتمس السداد في أحكامه ، وأن يصف التيارات المختلفة التي تعصف بأذهان الشباب في الشرق .

✡✡✡

تستطيع الإسكندرية أن تزهى بأنها المدينة التي سبقت الأمم الحديثة في استخدام ما يشبه « الرادار » في الكشف عن الأجسام على البعد . وقد نشرت هذا إحدى المجلات العلمية في

الأسبوع الماضي تقول إن أحد ملوك البطالسة شيد مرآة على برج في الإسكندرية كانت تستطيع أن تكشف سفن العدو على بعد مائة ميل واقتبست هذا عن ترجمة البرفسور هاسكنز لكتاب (بصريات إقليدس) .

✡✡✡

صدر في ٢١ من مارس كتاب « إيران والقوات الأجنبية » لمؤلفه ا . ه . حزاوي الملحق الصحافي في السفارة الإيرانية بلندن ويعرض المؤلف للحالة الراهنة في إيران والعلاقة هذه الدولة بالقوات الأجنبية فيها ولشكواها إلى مجلس الأمن ويؤيد ذلك بوثائق رسمية بعضها لم ينشر قط .

أمريكا

نظمت أكاديمية العلوم في نيويورك في يومى ٨ و ٩ من فبراير سنة ١٩٤٦ اجتماعاً للمناقشة في موضوع النشاط العصبي الطبيعي والكيميائي . وقد حضر هذا الاجتماع عدد كبير من العلماء المتخصصين في فسيولوجية الأعصاب من أمريكيين وأجانب . ويعتبر هذا الاجتماع أول حفل علمي دولي هام عقد بعد الحرب . ولهذا الاجتماع هيئة كبيرة إذ يهتم العلماء الآن بمعرفة كل شيء يمكن معرفته عن الأمراض العصبية والعقلية . وخاصة بعد الحرب التي لا يغفل تأثيرها في هذه الناحية .

✡✡✡

ظهرت في أمريكا في الأيام الأخيرة مجموعة من الكتب الجديدة نذكر منها الآن بعضها ولعلها أهمها :

« السياسة السوفيتية في الداخل وفي الخارج » لمؤلفه فريدريك ل . شومان :

يحوي هذا الكتاب كثيراً من المعلومات المفيدة ، ويعطي القارئ صورة واضحة لتاريخ روسيا ولحركة الثورة البلشفية ؛ كما أنه يلخص مبادئ النظرية الماركسية ويسرد تاريخ لينين السياسي . ويحاول المؤلف أن يبين أهداف السياسة الروسية في داخل روسيا وفي خارجها ..

« الجنس والجماعة الديمقراطية » لمؤلفه فرانز بوس :

يعرف الأستاذ فرانز بوس بأنه صاحب الرأي القائل بأنه لا وجود على الاطلاق لجنس حر خال من شوائب الأجناس الأخرى . وقد ناقش المؤلف في كتابه النظرية المعادية للجنس السامي ، وأظهر جهل العلماء الذين يقولون إن تركيب مخ الزنوج يبين بوضوح انحطاط الجنس الملوث ، هؤلاء العلماء الذين يحاولون تقسيم الأجناس في مراتب مختلفة ويضعون الجنس الآري فوق الأجناس جميعاً .

لا ينكر المؤلف وجود اختلاف بين الناس في شكل الرأس وفي اللون وفي التشريح . وقد لاحظ بنفسه كثيراً من الأجناس المختلفة . وهو يذهب إلى أن ما يلاحظ من اختلاف واضح بين أفراد الجنس الواحد قد يفوق كثيراً ما يرى من اختلاف بين الأجناس المختلفة .

ثم ينتقل المؤلف من الكلام عن الجنس إلى الكلام عن الديمقراطية فيصفها بأنها الحياة التي تكفل الحرية الدينية وحرية الفكر وحرية الإفصاح عن الفكر ..

وقد توفي المؤلف في عام ١٩٤٢ وقام ابنه الدكتور أرنست ب . بوس بنشر هذا الكتاب .

« الرجال الذين ساروا مع الله » لمؤلفه سلدون شيني :

وهو عبارة عن محاولة لبيان أصول الحياة الصوفية خلال دراسة حياة بعض الرجال الموهوبين في عصور التاريخ المختلفة . فهو يدرس عصر الشعر القديم . ثم ينتقل إلى دراسة بوذا ، وسقراط

وفيثاغورس ، وأفلاطون ، وسانت برنارد ، وأشكارت ، وإفرانجليكو ، وجاكوب بوهم ، ووبليام بليك ، وسانت أوغسطين ، وباسكال ، وكثيرين من رجال الفكر المعروفين في التاريخ .

« دائرة معارف الأديان » لمؤلفه فيرجلياس فرم :

تدرس هذه الموسوعة كل الأديان المعروفة في العالم : المسيحية واليهودية والإسلام والبوذية وغيرها من الأديان . . .وهي تستعرض أيضاً تاريخ حياة الأنبياء والرسل الذين جاءوا بهذه الديانات المختلفة ، والفرق المختلفة التي انقسمت إليها كل ديانة ، والمواسم الشائعة في كل منها ، والآثار التاريخية التي خلقتها كل منها خلال عصور التاريخ . .

روسيا

نشرت ترجمة كتاب « الخراج » لأبي يوسف اليعقوبي وهو من المصادر الهامة في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للخلافة . وقد نقله إلى الروسية العالم شمت A. Schmidt الذي توفي في بداية هذه الحرب ، ولم يتيسر نشر الترجمة إلا اليوم .

والمترجم أحد علماء المشرقيات الذين ضربوا بسهم وافر في كافة العلوم الشرقية وقد سبق أن وضع فهرساً لمجموعة المخطوطات العربية الموجودة في دار الكتب الحكومية في طشقند والتي جاء وصفها في الجزء الأول من مجلة الكتاب .

✡✡✡

ألقى الدكتور ميخائيل كوروستوف تسيف محاضرة علمية عن مصر في عهد الفاطميين بدار المتحف الأسيوي ، والمحاضر أحد خريجي معهد العلوم الشرقية بأكاديمية العلوم بلينجراد ومن المتخصصين في التاريخ الإسلامي ، وقد أوفدته وكالة تاس الإخبارية في خلال الحرب ليكون مراسلا لها في مصر نظراً لتضلعه من اللغة العربية .

✡✡✡

ينشر معهد العلوم الشرقية بإشراف رئيسه شيروف الترجمة الروسية لكتاب « البخلاء » للجاحظ وهي من قلم الأستاذ بارانوف .

✡✡✡

أعيد طبع المعجم الروسي العربي الذي وضعه بارانوف أيضاً وهو يشمل من اللغة العربية وفقهها أكثر مما يشتمل عليه أي معجم آخر بين العربية ولغة أخرى وقد أنجز منه الآن جزءان ينتهيان بحرف العين .

✡✡✡

أتم المستعرب كيلبرج ترجمته لكتاب تاريخ الثورة العربية الكبرى لمؤلفه الأستاذ أمين سعيد وهو يقع في ثلاثة مجلدات ويضم أخبار النضال بين العرب والأتراك في الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثماني حتى قيام الحكومة الفيصلية في دمشق مع الوثائق المتعلقة بحكومة جلالة الملك فيصل في الشام والعراق ونشأة حكومة شرق الأردن .

✡✡✡

يدل آخر إحصاء قامت به دور الكتب العامة التي تعار فيها الكتب على أن مؤلفات تولستوي ومكسيم جركي هي الأولى في إقبال القراء عليها وتليها مؤلفات جاك لندن وفيكتور هيجو

وبوشكين . وفي المرتبة الثانية يزداد الإقبال على روايات جول فرن وإسكندر ديماس وأشعار بيرون ونقد هايني وروايات بلزاك وسنكلير لويس .

✲ ✲ ✲

في سهول كولسكو بروسيا الأسيوية جريدة يومية لا تباع منها سوى نسخة واحدة واسم هذه الجريدة « غازتا تندري » وهي تكتب باليد وترسل هذه النسخة الوحيدة التي تكتب باليد إلى المشترك الوحيد في الجريدة فيقرأها ويعطيها إلى مشترك آخر ليقرأها بدوره ثم تعرض في أحد المقاهي العامة وهناك يتهافت الجمهور على قراءتها مقابل بضعة مليمات .

جريدة مخطوطة

فرنسا

عقدت جمعية كتّاب الألزاس واللورين جمعيتها العمومية واتضح أنه قد توفي من أعضائها ١٦ عضواً منذ سنة ١٩٤٠ وعضوان حكم عليهما بالإعدام و١٧ في المنفى والاعتقال وانتخب لرياستها الفخرية المسيو أندريه مالرو وأندريه سجفريد .

✲ ✲ ✲

من الكتب التي ظهرت أخيراً باللغة الفرنسية مترجمة عن الروسية كتاب « الأم » للكاتب الروسي جركي وكتاب « أحاديث إيفان سنداروف » لتولستوي .

✲ ✲ ✲

أهدت الحكومة اليونانية إلى عقيلة المرحوم بول فالري كتلة من الرخام النفيس لتستخدم في نحت صورة الشاعر الذي كان رئيس جمعية « فرنسا — اليونان » .

✲ ✲ ✲

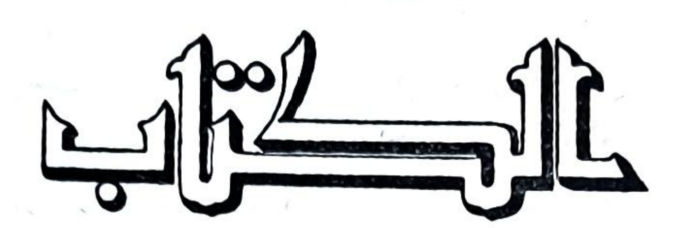
نشر ليون بلوم كتاباً بعنوان : « التاريخ سيحكم » يتضمن مجموعة المقالات الافتتاحية التي نشرت في جريدة « بوبولير » بين يناير ١٩٣٢ ويونيو ١٩٤٠ ويشير فيها بلوم إلى قسوة الحكومة الفرنسية على النمسا وضعفها إزاء ألمانيا وإيطاليا واليابان .

✲ ✲ ✲

من أهم أخبار فرنسا بسبيل الكشف عن دواء ناجع للدرن الرئوي ، أن أبحاث الأستاذ هولند التي عرض نتائجها على أكاديمية العلوم تدعو إلى الأمل في التغلب على جراثيم السل .

والدكتور هولند خبير بالكيمياء وعلوم الحيوان والجراثيم ، وهو الآن أستاذ في جامعة مونبلييه، وقد شرع في القيام بأبحاثه في صمت منذ سبع وثلاثين سنة . . حتى وفق إلى الكشف عن مادة أطلق عليها اسم كليتوبيسين Clitobycine . واستطاع أن يقضي بها على جراثيم السل وجراثيم حمى التيفويد التي تعجز مادة البنسيلين عن القضاء عليها ، لكن كان هذا في أنابيب الاختبار فجربها على بعض الحيوان فنجحت التجربة . ولم يبق إلا أن تجرب على الإنسان ، والأمل كبير في نجاحها ، رغم الصعوبات التي تعترض ذلك . وأهمها صعوبة الحصول على النباتات البرية التي تستخرج منها تلك المادة .

وقد يستطيع الطب بذلك أن يوفق إلى الكشف عن الدواء الناجع للسل بعد عام أو عامين فيتحقق أمل تتوق الإنسانية إليه منذ قديم الزمن .



مجلة شهرية

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان



فهرست المجلد الأول

ذي القعدة ١٣٦٤ - ربيع الثاني ١٣٦٥

نوفمبر ١٩٤٥ - أبريل ١٩٤٦

فهرست المجلد الأول

من مجلة الكتاب

١ — الكتّاب

٢ - الموضوعات*

* اختصارات الفهرست : ب = بحث ، ت = تعريف ، ن = نقد .

• عالم المرأة •

• أعلام النهضة •

• من أدب العرب •

• نوادر المخطوطات •

• من محيط الغرب •

• في ظلال الوحي •

• في كفة الميزان •

• المسرح والخيالة •

• دنيا القصص •

• أنباء •

٣ — الكتب

٤ — الكتب الإفرنجية